قصص الأنبياء

للحافظ عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي

(٧٠١ - ٧٧٤هـ)



تحقيق وتعليق

د. عامر بن علي ياسين

دار ابن الجوزي

دار حياة

قصص الأنبياء

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٠١٣٨٤٦٧٥٩٣ - ٠١٣٨٤٢٨١٤٦
٠١٣٨٤١٢١٠٠
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي : ٤٩٧٣
الرياض - ت: ٠٥٩٢٦٦٢٤٩٥
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٠١٣٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٠١٠٠٦٣
جوّال: ٠٥٨٣٠١٧٩٥١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر - القاهرة :
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٨٣
٠١١١٢٤٥٨٤٤٤ - ٠١٢٨١٩١٤٠٠١

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
ibnaljawzi.com

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل
قصص الأنبياء./ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير؛ عامر علي ياسين - ط١..- الدمام، ١٤٤٤هـ
٧٠٤ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٤ - ٣٢ - ٨٣٨٩ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - قصص الأنبياء ٢ - التاريخ الإسلامي أ. ياسين، عامر علي (محقق) ب. العنوان
ديوي ٢٢٩,٥ ١٤٤٤/٢٥٠٦

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ

الباركود الدولي: 9786038389324

قصص الأنبياء

للحافظ عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي

(٧٠١ - ٧٧٤هـ)

تحقيق وتعليق

د. عامر بن علي ياسين

دار ابن الجوزي

دار حياة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الَّذِي سبق الأزمانَ وابتدَعها، والأكوانَ واختَرعَها، والجواهِرَ وجمَعَها، والأجسامَ وصنعَها، والسَّماءَ ورفعَها، والأنوارَ وشَعْشَعَها، والأقواتَ وزَرَعَها، منع آلاتِ الحسِّ عن إدراكِه وقطَعَها، ووهبَ لنفسِ الآدمِيِّ نفائسَ المعارِفِ وأقطَعَها، وخصَّها دُونَ الخلائقِ بمعانٍ أودَعَها، فعلمتْ أَنَّهَا أين كانتْ وكيف كانتْ فَهُوَ معها.

أحمده عَلَىٰ نعمٍ أكثَرَها وأوْسَعَها، وأشهَدُ بوَحدانِيَّته من براهِينَ أَكَّدَتْ مَا أودعَها، إلىٰ نفسٍ تُقِرُّ أَنَّهُ يعلم مُستقَرَّها ومستودَعَها.

وأُصلِّي علىٰ رسولِه مُحَمَّدٍ أشرَف مَنْ جاء بمِلَّةٍ وشرَعَها، وألطَف مَنْ ضاقتْ حالُه عَلَىٰ أمَّته فوسَّعَها، وعلىٰ أَصْحَابِه وأتْباعِه إلىٰ أنْ تسكُنَ كُلُّ نفسٍ مِنَ الجَنَّةِ والنَّار موضِعَها، **أما بَعْد**[1]:

فهذه طبعةٌ جديدَة، في حُلَّةٍ قَشِيبَة، لكتاب «قصص الأنبياء» للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيلَ بنِ عُمرَ بنِ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، تَصْدُرُ في أولىٰ طبعاتِها عن دار **ابن الجوزي**، بعد أن صَدرَتْ في طبعةٍ سابقَةٍ عن **دار ابن خزيمة**، بتحقيق وتعليق الشيخ **عامر بن علي ياسين** رَحِمَهُ اللَّهُ في ٧ ذي الحجة ١٤١٨هـ.

وقد امتازتْ هذه الطَّبعةُ بوفرَةِ تعليقاتِها المُفِيدَة، ودِقَّةِ تَخريجاتِها وتَحريراتِها الفَرِيدَة؛ فالآن -وقد انتَقَلَتْ حقوقُ نشرِ الكتابِ **لدار ابن الجوزي**- وأردنا إخراجَه في مظهرٍ جديد لطبعَةٍ سَدِيدَة، واللهُ الكريمُ عن صالِحِ الأعمال يَجزِي، فوجب علينا مزيدًا مِنَ النَّظر إليها، لتَسديدِ ما أُغفِلَ وتصويبِ ما قد يظهرُ من أخطاءٍ في الصَّفِّ تَطرَأُ عليها، وقد قمنا بذلك -فيما نحْسِب- حتىٰ خرجت هذه القَصَصُ كما يَجِب، وزَيَّنَّا تنسيقَها بشكلٍ لائِقٍ؛ لإبراز كِبارِ

(١) مقتبس من مقدمة الإمام ابن الجوزي من كتابه المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١/ ١١٥).

أُمورِها وصِغارِها والدَّقائِق، فدونَكَ أَيُّها القارِئُ اللَّبِيب، هذا السِّفْر العظيم وأنت إلىٰ القلبِ حبيب، وعلىٰ الله الأجرُ والمثوبةُ، ومنه التَّوفيقُ والسَّداد، لنا ولجميعِ العِباد.

الناشر

٢٧ محرم ١٤٤٤ هـ

المقدّمة

إنَّ الحمدَ لله؛ نَحْمَدُه، ونَسْتَعينه، ونَسْتَغفِره، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيِّئاتِ أعمالِنا. مَنْ يَهْدِ اللهُ؛ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ؛ فلا هاديَ له.

وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، صلَّىٰ اللهُ عليه وعلىٰ آلِهِ وصحبِهِ وسلَّم.

وبعدُ؛ فـ «قصص الأنبياء» التي بين يَدَيْكَ أيُّها القارئُ الكريم؛ هو واحدٌ من تلكَ القِلَّةِ القليلةِ التي نالتْ حظًّا وافرًا في سوقِ الكتابِ المعاصرِ، فقد وُضِعَ لهُ القَبولُ في الأرض، وتَلَقَّاه الناسُ علىٰ مختلفِ طَبَقاتِهم ومستوياتِهم بحَفاوةٍ عظيمةٍ، وأَقْبَلوا علىٰ اقتنائِهِ، ورأوا فيه كتابَ البابَ الذي لا غنىٰ عنه فيه، فأقبلتِ المطابعُ ودورُ النشرِ علىٰ صفِّه وطبعِهِ وتداوُلِهِ، وبالَغوا في طرحِهِ في الأسواقِ، فتتالتْ طبعاتُهُ وتكاثرتْ، وتعددت أشكالُهُ وألوانُهُ وأحجامُهُ واختلفتْ وتخالفتْ، ولكنها - حقًّا وصدقًا - اتفقتْ وتتابعتْ بإصرارٍ عجيبٍ علىٰ جملةٍ كبيرةٍ من الأخطاءِ والتَّصحيفات والتَّحريفات والسَّقَطات غطَّت عرض الكتاب وطوله... والمصيبةُ حقَّ المصيبة؛ أنَّ هناك دائمًا طبعةً جديدةً محقَّقةً! ومزيدةً!! أمَّا محقَّقة؛ فلا والله! وأمَّا مزيدة؛ ولٰكنْ بأخطاء جديدةٍ تزيدُ الطين بِلَّةً.

والذي يُدمي القلبَ حقًّا أنَّ هٰذه العِلَّةَ ليست علةَ «قصص الأنبياء» فحسب، وإذًا لهان الخَطْب، ولكنها- مع الأسف الشديد- علةُ الكتاب العربيِّ والإسلاميِّ عمومًا- إلَّا ما رَحِمَ ربِّي وقليلٌ ما هو-؛ فالأخطاءُ المطبعيَّة والطبعيَّة فيه تُنْبيكَ عن افتقارِهِ للحَدِّ الأدنىٰ المقبول من العناية والرِّعاية...

والذي يَزيدُك حسرةً في هٰذا وأسَىٰ أنَّ حال الكتابِ الأجنبيِّ علىٰ النَّقيضِ من حال كتابِنا تمامًا بكلِّ ما في الكلمةِ من معنىٰ، ولستُ بالمتكلمِ في هٰذا بالظُّنون ولا بالمدَّعي من فراغ،

بل لقد- والله- عانيتُ التَّجرِبةَ بنفسي ولمستُ الواقعَ بيديَّ؛ فقد كانت لي في أيَّام دراستي في كليَّة الطبِّ البشريِّ في جامعة دمشق حاجة متكرِّرة للعودة إلىٰ كثير من المراجع الطبيَّة الإنجليزيَّة... وكانت تمر معي وقتئذ كلماتٌ غريبةٌ طويلةٌ جدًّا لا أعرفُ لها معنًىٰ ولا أجدُها في المعاجم الطبيَّة المختصَّة، فكنتُ أترُكُها بعد طول عناءٍ، مفترضًا أنَّ فيها خطأً مطبعيًّا ما! وتمرُّ الأيام... وتأتيني في كلِّ مرةٍ بما يصحِّح ما في الكتابِ ويكذِّبُ افتراضي ويُبَدِّدُ أوهامي... حتَّىٰ ترسَّخ عندي- وما زال- أنَّ الكتابَ الأجنبيَّ خالٍ حقًّا من الأخطاء.

ثم ممَّا يزيدُك حسراتٍ أنَّ أحوالَ الكتابِ تتحسَّنُ في كلِّ يوم في مختلفِ بقاع العالمِ، ولٰكنَّ المطبوعاتِ العربيَّةَ والإسلاميَّةَ تسيرُ غالبًا بعكس التيَّار... أغلبُ طَبعات «مسند الإمام أحمد» الحديثةِ تحملُ أخطاءً لم تكنْ في طبعاتِهِ القديمةِ... وقُلْ مثلَ هٰذا عن «المستدرك» و«البداية والنهاية» و«تفسير ابن كثير» و«شرح صحيح مسلم» و«شرح صحيح البخاري»... وغيرها كثيرٌ في قائمةٍ تطولُ... طبعاتٌ ملوَّنةٌ حديثةٌ ناصعةُ الورقِ أنيقةُ المظهرِ... ولٰكنَّ المادَّة العلميَّة فيها تنوءُ بالعُيوبِ والخَطيئاتِ والآفاتِ... علىٰ ما قال المثلُ الشاميُّ القديمُ: «من بَرَّهْ رخامْ، ومن جُوَّهْ سخامْ»!

فطُوبىٰ وطُوبىٰ لِمَنْ عَمِلَ عَمَلَهُ فأتْقَنَه... طُوبىٰ وطُوبىٰ لِمَنْ حَقَّقَ كتابَهُ فأحْسَنَه... طُوبىٰ وطُوبىٰ لأولٰئكَ الروَّادِ الأُوَلِ الذين أفْنَوْا أعمارَهم حقًّا في خدمةِ الكتابِ الإسلاميِّ وإخراجِهِ منقَّحًا نظيفًا خاليًا- ما أمكنَهُم- من الأخطاء... طُوبىٰ للشيخ محمَّد رشيد رضا وللشيخ أحمد شاكر ومحمود شاكر ومحمد حامد الفقي ومحبّ الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي وعبد السلام هارون... طُوبىٰ لأولٰئك ولِمَنْ سارَ علىٰ نَهْجِهِم واتَّبَعَ سبيلَهم... طُوبىٰ لهم ولجهدِهِم وإتقانِهِم وإخلاصِهِم.

وبعدٌ؛ فلْنَعُدْ إلىٰ هٰذه «القَصص» التي عانيتُ الأمَرَّيْنِ في ضَبْطِها وتحريرِها وتصحيحِها وتنقيحِها، وعدتُ إلىٰ كلِّ مرجعٍ توفَّر لي يُعينُ علىٰ ذٰلك، وأخَّرْتُ طباعةَ الكتابِ أشهرًا طويلةً حتَّىٰ وَصَلَني مطبوعُ «تفسير ابن أبي حاتم» ومجلداتٌ جديدةٌ من «تاريخ ابن عساكر» أستعينُ بها في الضَّبْطِ والتَّحْرير... ولعلَّ مسألةَ ضبطِ أنساب الأنبياءِ وأسماءِ أولادِهم

كانت الأشدَّ علي في البداية؛ فالنسبُ الواحدُ يأتيك في كلِّ مرجع علىٰ صورةٍ تختلفُ عنها في المراجع الأخرىٰ، وقلَّما تَعْثُرُ علىٰ مرجعينِ اتَّفقا علىٰ صورةٍ واحدةٍ للنسب، بل هناك غالبًا زيادةٌ أو نقصٌ أو تصحيفٌ أو تحريفٌ أو مركَّبٌ يجمع ذٰلك كلَّه بصورةٍ لا يمكِنُك معها الجزمُ بوجه الحقِّ والصواب مهما دقَّقت وتحرَّيت؛ فنسخ «البداية والنهاية» مختلفةٌ، و«تاريخ ابن عساكر» يختلفُ عن «مختصره»، و«تاريخ ابن جرير» يختلفُ عن «تفسيره»، و«عرائس» الثعالبي تخالف ما تقدَّم؛ فأين الحقُّ في هٰذا والصواب؟! وإلىٰ من يُحْتَكَمُ فيه ويُرْجَع؟! وعلىٰ مَنْ يُعَوَّلُ ويُسْتَنَد؟! ثم تَنَبَّهْتُ- بحمدِهِ تعالي- إلىٰ أنَّ علماءَ المسلمين- في كلِّ هٰذا- نَقَلَةٌ بصورةٍ مباشرةٍ أو غيرِ مباشرةٍ عن أهلِ الكتاب، فكان لا بدَّ من العودة إلىٰ «العهد القديم» و«العهد الجديد»، ومراجعةِ هٰذه الأنساب وضَبْطِ حروفِها وتشكيلِها عليه، فَعاد هٰذا علىٰ الكتابِ بمصلحةٍ عظيمةٍ جَنَّبَتْهُ جُلَّ الخَلْط والخَبْط الذي وقعت فيه المطبوعاتُ السابقةُ، وذٰلك أنَّ ما عند أهل الكتاب في هٰذا هو رأسُ النبع الذي اسْتَقىٰ منه الجميعُ؛ فهو أولىٰ بالصَّفاءِ ممَّا بعده، وإنْ كان كدرًا؛ فما بعده لن يكون خيرًا منه بالتأكيد؛ خاصَّةً وأنَّ علماءَ المسلمينَ لم يُعْنَوا غالبًا بضبطِ ما هنالك، وإنَّما ذكروهُ علىٰ وجهِ الإجمالِ وتَعاملوا معه علىٰ التَّسامُح لا التَّحقيق... وأمَّا سائرُ ما في الكتابِ من أحاديثَ وآثارٍ وأخبارٍ وغيرِها؛ فقد عُنيتُ عناءً بالغًا بمراجعتِها وتدقيقِها حرفيًّا علىٰ مصادرِ التَّخريج والتَّحقيق، ثم أثْبَتُّ ما تَرَجَّحَ عندي صوابُه من ذٰلك مشيرًا في الحواشي إلىٰ ما وَقَعَ في الأصول من تحريفٍ أو تصحيفٍ أو نحوه... ويَحْدوني أملٌ كبيرٌ أن أكونَ قد خَدَمْتُ الكتابَ بإخلاصٍ، وأتقنتُ العملَ فيه، واستأصَلْتُ عُظْمَ العيوبِ والآفاتِ التي ناءَ بها ما سَبَقَ من الطَّبعات.

ثم إنِّي رتبتُ القَصَصَ في الكتابِ علىٰ نحوٍ مطَّردٍ؛ بحيث أُفْرِدُ لكلِّ قصةٍ فصلًا جديدًا؛ يَشْعُرُ القارئُ معه أنَّه انتهىٰ من موضوعٍ ودَخَلَ في آخرَ جديد. وأصلُ الفَضْلِ في هٰذا للحافظِ ابن كثير رحمةُ الله عليه، وإنَّما عُنيتُ بالتنسيقِ الفنيِّ والتَّفريقِ بين العنوانِ الرئيسيِّ وما تحتَه.

ثم قسمتُ كلَّ قصةٍ إلىٰ عددٍ من المقاطع، وعنونتُ لكلٍّ من هٰذه المقاطعِ بعنوانٍ مستمدٍّ من مُحْتواه؛ يقدِّمُ للقارئِ فكرةً أوَّليةً عن المقصودِ من المقطع، ويعينهُ علىٰ تركيزِ أفكارِهِ،

واسْتِرجاعِها كلَّما رَغِبَ بذٰلك، والرَّبْطِ بين أحداثِ القصَّةِ الواحدة ومتابعة تطوُّرِها.

ثم قسمتُ المقطعَ الواحدَ- إن لَزِمَ الأمرُ- إلىٰ مجموعةٍ من الفِقْراتِ، ووشَّحْتُها بعلاماتِ الوَقْفِ (الفواصل والنُّقاط وغيرها)، وضبطتُها بعلامات الترقيم الضروريَّة؛ لتَسْهُلَ قراءةُ المادَّةِ وفهمُها علىٰ مختلفِ طبقاتِ القرَّاء.

وقد استفدتُ من المطبوعاتِ السابقة كثيرًا في تخريجِ الآياتِ القرآنيَّة، وتعمدتُ أحيانًا إغفالَ ذٰلك إذا تقدَّمَ تخريجُ الآيةِ بصورةٍ لا تَشْتَبِه معها الأمورُ ولا تختلِطُ، وإلَّا؛ فأعدتُ التَّخْريج.

وأمَّا الأحاديثُ النبويَّةُ؛ فقد خرَّجْتُها جميعًا- فيما يغلِبُ علىٰ ظنِّي- بحمد الله؛ ما ذُكِرَ منها بالنصِّ، وما أُشير إليه عَرَضًا وسياقًا. فإنْ كان الحديثُ في أحدِ الصحيحين أو كِلَيْهما؛ فقدْ تابعتُ ابنَ كثير فيه: فإنِ اقتصرَ عليهما؛ اقتصرتُ كذٰلك، وإن توسَّعَ فَذَكَرَ غيرَهما؛ فقدِ اضْطُرِرْتُ إلىٰ متابعتِهِ في ذٰلك. وأمَّا ما لم يكنْ من مخرَّجاتِ الصحيحين؛ فقد عُنيتُ بتخريجِهِ ممَّا تيسَّرَ لي من كتب السنَّة؛ كـ «السنن» والمسانيدِ والمعاجم والتواريخِ وكُتُبِ الرِّجال، ثم توسعتُ بدراسةِ السند علىٰ ما تقتضيه أصولُ أهل الحديث، وأوردتُ أقوالَ أهل العلمِ والتحقيقِ فيه؛ كالبخاريِّ والتِّرمذيِّ والحاكم وابن الجوزي والمنذريِّ والذهبيِّ والبوصيريِّ والهيثميِّ والعراقيِّ والعسقلانيِّ والسيوطيِّ وغيرهم، ولا أخطئُ غالبًا خَتْمَ الحديث بحكم الشيخ محمد ناصر الدين الألباني فيه إن وقفتُ عليه؛ فهو أستاذُ الفنِّ ومرجِعُه في عصرِنا هٰذا بلا منازعٍ، وختمُ الحديث بقولِهِ أحبُّ إلىٰ أهل العلم وطلابِهِ وأدْعي لِقَبولِهم واطمئنانِهم، وما هو من التقليدِ في شيءٍ إن شاء اللهُ، بل هو الاتِّباعُ بعد النَّظَرِ في الأدلَّة والقرائِنِ، والحقُّ يعلو ولا يُعْلىٰ عليه.

ولو رحتُ أخرِّجُ الآثارَ وأفصِّلُ القولَ فيها، لأصبح الكتابُ -أو كادَ- حاشيةً لا مَتْنَ لها؛ فالكتابُ بمثابةِ التفسير، والآثارُ فيه سيلٌ جارفٌ، ولذٰلك اكتفيتُ بمراجعتِها علىٰ مصادرِ التَّخْريجِ للتأكُّدِ من ضَبْطِها وتَصْحيحها؛ دونَ أن أشيرَ لشيءٍ من ذٰلك في الحواشي.

وكذٰلك فقد شرحتُ بعضَ الكلماتِ الغريبةِ التي وردتْ في المتن؛ ناظرًا إلىٰ سعةِ الشَّريحةِ التي تهتمُّ بهٰذا الكتابِ واختلافِ مستوياتها العلميَّةِ.

ثم قدمتُ للكتابِ بفصولٍ ثلاثةٍ؛ تناولتُ في أوَّلها حياةَ الحافظِ ابنِ كثيرٍ وآثارَه، وعرَّفْتُ في الثاني بكتاب «قصص الأنبياء»، وأفردتُ الثالثَ لتفصيلِ الكلامِ في الإسرائيليَّات وحكمِ الشريعةِ فيها.

وأسألُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أنْ يَكْتُبَ لجهدي لهٰذا القبولَ والرِّضىٰ في الأرض والسماء، وأن يَغْفِرَ لي ذَنْبي كلَّه، وأن يتجاوَزَ عن إفراطي وتَفْريطي، وخَطَئي وعَمْدي، وكلُّ ذٰلك عندي، وأن يُلْهِمَني الإخلاصَ في أمري كلِّه ولا يجعلَ لأحدٍ من خلقِهِ فيه شيئًا؛ إنه قريبٌ مجيبٌ.

والحمدُ لله الذي بنعمتِهِ تتمُّ الصالحات، والسلام عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه.

عامر بن علي ياسين

٧ ذي الحجة ١٤١٨هـ

صفحات في حياة الحافظ ابن كثير

۞ أولًا: اسمه ونسبه وشهرته:

هو الشيخُ، الإمام، العلَّامةُ، المحدِّثُ، الحافظُ، المؤرِّخُ، أبو الفداءِ، إسماعيلُ بنُ عُمَرَ بنِ كَثيرِ بنِ ضَوِّ بنِ كَثيرِ بنِ ضَوِّ بنِ زُرَعٍ، القَيْسِيُّ، القُرَشِيُّ، البُصْرَوِيُّ، الدِّمشقيُّ.

وقد اشْتُهِرَ- علىٰ ما كان سائدًا في ذٰلك العصر- بلقب عمادِ الدِّينِ ابنِ كثير؛ منسوبًا إلىٰ جده الأقرب أو الأبعد.

ومن المفيدِ هنا أن أنقُلَ ما نبَّه إليه الشيخُ أحمد شاكر بقولِهِ: «وممَّا ينبغي التَّنبيهُ إليه أنَّ ابنَ كثيرٍ هٰذا الحافظَ المفسِّرَ غيرُ ابنِ كثيرٍ أحدِ القرَّاءِ السبعة؛ فذاك اسمُهُ عبد الله بن كثيرٍ المكيُّ، إمامُ أهل مكَّة في القراءة، وهو قديمٌ من التابعين، روىٰ عن ابنِ الزُّبير وأنس بن مالك، ولد سنة ٤٥، ومات سنة ١٢٠» اهـ.

وأمَّا أبوه شهابُ الدِّينِ أبو حَفْصٍ عمرُ بنُ كَثيرٍ؛ فقد كان من العلماءِ الفقهاء والخطباءِ الفصحاءِ، وقد تَلَمَّذَ للإمام النوويِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان خطيبًا ومدرسًا في مَجْدَلَ القريةِ، وهي قريةٌ صغيرةٌ من أعمال بُصرىٰ الشَّام قصبةِ حَوْرانَ.

۞ ثانيًا: مولده ونشأته وطلبه للعلم:

اختلفَ المؤرِّخون في سنةِ ولادةِ الحافظِ ابن كثيرٍ بصورةٍ لا يُمْكِنُ الوصولُ معها إلىٰ قولٍ جازمٍ في ذٰلك؛ إلَّا أنَّ مِنَ المجمع عليه بينَهم أنَّ مولِدَه كان في حدود ٧٠٠هـ، وربما قبلَها أو بعدَها بيسير.

وكان مولدهُ في قريةِ مجدلَ التي كان أبوه خطيبًا ومدرسًا فيها.

وفي عام ٧٠٣هـ، اخْتَرَمَتِ المنيةُ الشيخَ شهابَ الدينِ والدَ الحافظِ ابنِ كثيرٍ، فَمَكَثَ قليلًا في قريتِهِ، ثمَّ رَحَلَ إلىٰ مدينة دمشقَ عاصمة العلم والحضارة في ذٰلك الحين برفقةِ أخيه

كمالِ الدين عبد الوهَّابِ، الذي كان له الأخَ الرفيق والأبَ الشفيق والمعلِّمَ الأوَّل.

وفي دمشقَ أكَبَّ الفَتىٰ علىٰ تحصيل العلوم الشرعيَّةِ مبتدِئًا بحفظِ القرآنِ الكريم حتىٰ خَتَمَهُ سنة ٧١١هـ، ثم عُنِيَ بدراسةِ الفقهِ علىٰ المذهب الشافعيِّ وحفظِ المُتونِ والمختصراتِ في مختلف العُلوم الشرعيَّةِ، ثم تَنَقَّلَ في حَلَقاتِ الدَّرْسِ لعددٍ من أهلِ العلم، وترقَّىٰ للاهتمامِ بالقراءاتِ وسماعِ الحديث ودراسةِ علومِهِ ومعرفةِ الأسانيدِ والرِّجالِ والتَّاريخ.

ولم يذكُروا للحافظ ابن كثيرٍ رحلةً في طَلَبِ العِلْم، ولا تَثْريبَ عليه في ذٰلك، فقد كانت دمشقُ في تلك الآونةِ مَنْبَعًا أصيلًا من منابعِ علومِ الشريعة، ومركزًا من أعظم مراكز الحضارةِ الإسلاميَّة، وقِبْلَةً لأنظارِ أهل العلم، بل كانتِ الرحلةُ إليها وإلىٰ أهل العلم فيها.

۞ ثالثًا: مشيخته:

تفقَّه علىٰ الشيخين برهان الدِّينِ الفَزَارِيِّ وكمال الدِّين ابنِ قاضي شُهْبَةَ، وأخَذَ الأصولَ عن الأصفهانيِّ.

وصاهر الحافظَ أبا الحجَّاجِ المِزِّيَّ علىٰ ابنتِهِ زينبَ، ولازَمَه طويلًا، وأخَذَ عنه، وسمعَ منه أكثَرَ تصانيفِهِ، ومنها كتابُهُ «تهذيب الكمال».

واتَّصل بشيخ الإسلام ابنِ تَيْمِيَّة، وأُعْجِبَ به، وأحَبَّهُ حُبًّا جَمًّا، فلازَمَه طويلًا، وأخذَ عنه كثيرًا، حتىٰ أصبحت له به خصوصيةٌ، ونافَحَ عنه وعن آرائِهِ، وكان يُفْتي في مسألةِ الطَّلاق بقولِهِ، وامتُحِنَ بسبب ذٰلك وأُوذيَ رحمةُ اللهِ عليه.

وذكروا من أشياخِهِ أيضًا الحافظَ الذَّهبيَّ وابنَ الشِّحْنَةِ وابن الزَّرَّادِ وإسحاقَ الآمِدِيَّ والقاسمَ بنَ عساكرَ وابنَ الرِّضىٰ وبدرَ الدِّينِ ابنَ السُّوَيْدِيِّ... وأجاز له من مصر الدَّبُّوسِيُّ والوانِيُّ والخُتَّنِي.

۞ رابعًا: مذهبه في الفروع:

عاشَرَ الحافظُ ابنُ كثيرٍ في بداية حياته العلميَّةِ جماعةً من الشَّافعيَّةِ؛ كالشيخ برهانِ الدِّينِ الفزاريِّ والشيخ كمال الدِّينِ ابن قاضي شُهْبَةَ، وتفقَّهَ بهم، وبَرَعَ في المذهب، وألَّفَ فيه، ثم صَنَّفَ فيما بعدُ كتابًا في طبقاته... فلا عَجَبَ بعد هٰذه المشاركة القويَّةِ له في المَذْهَبِ أن نَجِدَ

جُلَّ مَن تَرْجَم له قد نَسَبَه شافعيًّا؛ كما فعل الحُسَيْنِيُّ في «الذيل» والعسقلانيُّ في «الإنباء» وابنُ قاضي شُهْبَةَ في «الطبقات» وابنُ العِمادِ في «الشَّذرات».

ولٰكنَّ شبابَ الحافظ ابنِ كثيرٍ في دمشقَ حَمَلَهُ إلىٰ مُعْتَركَ حياةٍ علميةٍ نابضةٍ ذاخرةٍ بالمؤثِّرات القويَّة التي كان لها أبلغُ الأثرِ في شخصِيَّتِهِ العلميَّة، ومن أهمِّ تلك المؤثرات:

١- مصاهرتُهُ للحافظ المِزِّيِّ، وملازمتُه له، وأخذُه من بحرِهِ الواسع، وإقبالُه بالتالي علىٰ علم الحَديث ومعرفةِ الأسانيد ودراسةِ العِلَل ونَقْدِ الرجال.

٢- وكانت هٰذه المصاهرةُ- فيما أرجِّحُ- مقدِّمَةً لصلتِهِ بشيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة، والتي تقدَّم لك الكلامُ عنها قبل قليل.

٣- ثم هناك علاقتُهُ الوطيدةُ بالحافظ الذهبيِّ الذي كان له الشيخَ والصديقَ.

٤- وكذٰلك صداقتُهُ الوثيقةُ بشيخ الإسلام ابن القَيِّمِ، والتي أشار إلىٰ عمقِها في «البداية والنهاية» (٩/ ٤٩١) بقوله: «كنتُ مِن أصحبِ النَّاسِ له وأحبِّ الناس إليه».

ولا عجبَ بعد هٰذا أن تَخْتَفِيَ الشخصيةُ المذهبيةُ تمامًا من حياة ابن كثيرٍ رحمةُ الله عليه وآرائِهِ ومؤلفاتِهِ، حتَّىٰ لا تَجِدَ فيها -ولو جهدتَ- أدنىٰ صورةٍ من صُوَرِ التعصُّبِ المذهبيِّ البغيضِ، بل ستجد محلَّها شخصيةً علميَّةً رصينةً؛ تجتهدُ في البحث عن الدَّليل، وتسعَدُ بالوصول إليه، وتُعَوِّلُ في أحكامها وفتاويها عليه؛ دونما إفراطٍ ولا تفريطٍ؛ فلا هي في حدِّ الإزراءِ بالمذاهب والحطِّ من شأنِها والنَّيْلِ من أصحابها وأهلِها في كل فرصةٍ ومناسبةٍ، ولا هي في حَدِّ الوَلَه والإعجابِ والتَّقْليد الأعمىٰ ونَصْب النَّفْسِ- بلا علم ولا هدًىٰ- محاميًا للدِّفاع عنها مدعيًا عامًّا علىٰ مَنْ خالَفَها، بل هي عوانٌ بين ذٰلك؛ تحترمُ المذاهب جميعًا علىٰ قَدْرٍ سواءٍ، وتُجِلُّ أصحابَها وأئمَّتَها، وتقدِّرُ خدمتَهم لدينِهم وأمَّتِهم، وتتعاملُ معهم بإنصافِ المؤرِّخ الوَرِعِ.

ولعلَّك بعد هٰذا تسلِّم معي أنَّ الرجُلَ قد نُسِبَ شافعيًّا، إلَّا أنَّ حَظَّه من المذهب لا يتجاوز التَّنْشِئَةَ والمعرفةَ واتِّباع ما يوافِقُ الدَّليل الشرعيَّ منه.

۞ خامسًا: عقيدته:

وهٰذا أمرٌ يتَّصلُ بما تقدَّم بسبب؛ فالتَّلَمُّذُ الطويلُ علىٰ المِزِّيِّ وابنِ تَيْمِيَّةَ والذهبيِّ والصداقةُ الوثيقةُ مع ابنِ القيِّم؛ كان لها أثرٌ بالغٌ في صبغ عقيدةِ ابن كثير بالصِّبْغَةِ السلفيَّة؛ يشهدُ لذٰلك وينطِقُ به كتابُه العظيم في التفسير، والذي قرَّرَ فيه عقيدةَ السَّلَفِ أحسنَ تقرير.

ومن اللَّطائِفِ التي تُذْكرُ في هٰذا المقام: أنَّه قد وَقَعَ بين عماد الدين ابن كثيرٍ وبرهانِ الدِّين ابنِ شيخ الإسلامِ ابنِ القيِّم منازعةٌ في التدريس، «فقال له ابنُ كثيرٍ: أنت تكرَهُني لأنَّني أشْعَرِيٌّ. فقالَ له: لو كان مِن رأسكَ إلىٰ قَدَمِكَ شعرٌ؛ ما صدَّقَك الناسُ في قولك: إنَّكَ أشعريٌّ؛ وشيخُكَ ابنُ تيميَّةَ»[1].

وإنَّما قصد الحافظُ بقوله: «إنَّني أشعريٌّ»: أصلَ التَّنْشِئَةِ العلميَّة لا واقع الحال؛ فدراسةُ المذهب الشافعيِّ تترافقُ عادةً بدراسةِ العقيدة الأشعريَّةِ؛ لأنَّ أغلبَ متأخِّري الشافعيَّةِ- خلافًا لإمامِهم للأسفِ الشَّديد- علىٰ عقيدةِ الأشعريِّ.

وإنَّما ذكرتُ هٰذه القصةَ لمناسبة المقام لها كما قدَّمْتُ، وإلَّا؛ فلا خلافَ بين أهل العلم في التزامِ الرَّجُلِ وتقريرِهِ لعقيدةِ السَّلَفِ أهلِ الحديث.

۞ سادسًا: مؤلفاته:

الحقُّ أنَّ عددَ مؤلَّفات الحافظِ ابنِ كثيرٍ لا يسمحُ لنا بعدِّهِ في جملةِ المؤلِّفين المُكْثِرين، ولٰكنَّ تنوُّعَها وإتقانَها يجعلُنا نعدُّهُ -دون تردُّدٍ- في جملة العلماء المحرِّرين المُتْقِنين المُتَفَنِّنين:

* فله في التفسير: «تفسير القرآن العظيم»: الذي لم يؤلَّفْ علىٰ نَمَطِهِ مثلُه، والذي كُتِبَ له القَبول في الأرض والرِّضىٰ من الخَلْق، فاشتُهر وانتشر وشاع، حتىٰ لا تكاد تَفْقِدُه في بيتٍ من بيوت المسلمين.

* وله في الحديث: «الهديُ والسَّنَن في أحاديث المسانيد والسُّنن» أو «جامع المسانيد»: رتَّبَ فيه «مسند أحمد» علىٰ الحروف وأضاف إليه زياداتٍ من الكتبِ الستةِ وغيرِها، و«مسند

---

(١) انظر: «الدرر الكامنة» (١/ ٦٠).

الشيخين»، و«تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب»، و«تخريج أحاديث أدلة التنبيه» ولم يتمَّه، و«اختصار علوم الحديث» اختصر فيه «مقدمة ابن الصَّلاح»، و«اختصار المدخل إلىٰ السنن» للبيهقي.

* وله في الفقه: «الأحكام»: صنَّفَه في صِغَرِهِ علىٰ أبواب «التَّنبيه»، وله «أحكامٌ» أخرىٰ حافلٌ في مجلَّدات وصل فيها إلىٰ الحج، و«شرح البخاري»: شَرَحَ منه قطعةً صغيرةً ولم يتمَّه، و«الاجتهاد في طلب الجهاد».

* وله في علم الرجال: «التَّكْميل في معرفة الثِّقات والضُّعفاء والمجاهيل»: جمع فيه بين «تهذيب» المِزِّيِّ و«ميزان» الذَّهبيِّ، و«طبقات الفقهاء الشافعيين» ومعه «مناقب الإمام الشافعي».

* وله في التاريخ: «اختصار السيرة النبوية» أو «الفصول في اختصار سيرة الرسول»، و«البداية والنهاية»: وهو أَحُد أهمِّ كُتُبِ التاريخ في المكتبةِ الإسلاميَّةِ، وسيأتي مزيدٌ من الكلام عنه في الفصل التَّالي.

سابعًا: أقوال أهل العلم فيه:

* قال الحافظُ الذهبيُّ: «الإمامُ، المفتي، المحدثُ، البارعُ، فقيهٌ متفنِّنٌ، محدِّثٌ متقنٌ، مفسرٌ نقَّادٌ، وله تصانيفُ مفيدةٌ».

وقال أيضًا: «له عنايةٌ بالرِّجالِ والمتونِ والتفقُّه، خرَّج وألَّف، وناظَرَ وصنَّف، وفسَّر وتقدَّم».

* وقال ابنُ حبيبٍ الحلبيُّ: «إمام ذوي التَّسْبيح والتَّهْليل، وزعيم أربابِ التأويل، سَمعَ وجمعَ وصنَّف، وأطربَ الأسماعَ بالفتوىٰ وشَنَّف، وحدثَ وأفادَ، وطارتْ أوراقُ فتاويه إلىٰ البلاد، واشْتُهِرَ بالضَّبْط والتَّحْرير، وانتهتْ إليه رياسةُ العلم في التاريخِ والحديثِ والتفسير، وهو القائل:

تَمُرُّ بِنا الأَيَّامُ تَتْرىٰ وإنَّما ... نساقُ إلى الآجالِ والعَيْنُ تَنْظُرُ
فَلا عائِدٌ ذاكَ الشَّبابُ الذي مَضَى ... ولا زائِلٌ هٰذا المَشيبُ المُكَدِّرُ»

* وقال الحافظُ شهابُ الدِّين بنُ حِجِّي: «كان أحفظَ مَنْ أدركْناه لمتونِ الأحاديث، وأعرفَهُم بتَخْريجها ورجالِها، وصحيحِها وسقيمِها. وكان أقرانُه وشيوخُه يعترفون له بذٰلك. وكان يستحضرُ شيئًا كثيرًا من التفسير والتاريخ، قليل النسيان. وكان فقيهًا، جيدَ الفَهْم، صحيحَ الذِّهْن، يستحضرُ شيئًا كثيرًا، ويحفظُ «التنبيه» إلىٰ آخرِ وقتٍ، ويشارِكُ في العربيَّة مشاركةً جيدةً، وينظِمُ الشِّعْرَ. وما أعرِفُ أنِّي اجتمعتُ به علىٰ كَثْرَةِ تردُّدي إليه؛ إلَّا وأفدتُ منه».

* وقال الحافظُ ابنُ حَجَر: «كان كثيرَ الاستحضار، قليلَ النِّسيانِ، جيدَ الفَهْم. وكان يشارِكُ في العربيَّة، ويستحضر «التَّنبيه»، ويكرِّرُ عليه إلىٰ آخر وقتٍ، وينظم نظمًا وسطًا».

وقال أيضًا: «كان كثيرَ الاستحضار، حسنَ المفاكَهَة، سارت تصانيفُه في البلاد في حياته، وانتفع بها الناسُ بعد وفاته، ولم يكنْ علىٰ طريقِ المحدِّثين في تحصيل العوالي وتمييز العالي من النازل ونحو ذٰلك من فنونهم، وإنما هو من محدِّثي الفقهاءِ، وقد اخْتَصَرَ مع ذٰلك كتابَ ابنِ الصَّلاح، وله فيه فوائدُ».

فتعقَّبَه السيوطيُّ بقولِهِ: «قلتُ: العمدةُ في علم الحديث معرفةُ صحيح الحديث وسقيمِهِ وعللِهِ واختلافِ طُرُقِهِ ورجاله جَرْحًا وتعديلًا، وأمَّا العالي والنازلُ ونحو ذٰلك؛ فهو من الفَضَلاتِ، لا من الأصول المهمَّة».

وأقول: لا ريبَ أن النَّاظِرَ في مؤلَّفاتِ الحافظِ ابنِ كثيرٍ رحمةُ الله عليه سيدرِكُ المكانةَ العليَّةَ التي بَلَغَها في علم الحديث ونقدِهِ ومعرفةِ عِلَلِهِ ورجالِهِ، حتَّىٰ أصبح حكمُهُ علىٰ الحديث وقوله فيهِ يُذْكَرُ مع أقوال كبارِ أئمَّة المحدِّثين. فرحم الله الحافظ ابن حجر وسامَحَه.

* وقال الإمامُ البدرُ العَيْنِيُّ: «كانَ قُدوةَ العلماءِ والحُفَّاظ، وعُمدةَ أهلِ المعاني والألفاظ. وسَمعَ، وجَمَعَ، وصَنَّفَ، ودَرَّسَ، وحَدَّثَ، وألَّفَ. وكانَ له إطِّلاعٌ عظيمٌ في الحديثِ والتَّفْسيرِ والتَّاريخ، واشْتُهِرَ بالضَّبْطِ والتَّحرير، وانتهىٰ إليه علمُ التاريخِ والحديثِ والتَّفْسير، وله مُصَنَّفاتٌ عديدةٌ مفيدةٌ».

❁ ثامنًا: وفاتُه رحمةُ اللهِ عليه:

توفِّي رحمةُ اللهِ عليه يوم الخميس ٢٦ شعبان سنة ٧٧٤هـ في دمشق بعدما أَضَرَّ.

قال ابنُ ناصر الدينِ الدِّمشقيُّ: «كانت له جِنازةٌ حافلةٌ مشهودةٌ، ودُفِنَ بوصيَّةٍ منه في تُرْبَةِ شيخ الإسلام ابنِ تيميَّة بمقبرةِ الصُّوفيَّة خارج باب النصر من دمشق».

ورثاه بعضُ طَلَبَتِهِ بقولِهِ:

لِفَقْدِكَ طُلَّابُ العُلومِ تَأَسَّفُوا　　وجَادُوا بِدَمْعٍ لا يَبِيدُ غَزِيرِ
وَلَوْ مَزَجُوا ماءَ المَدَامِعِ بِالدِّما　　لكانَ قَليلًا فِيكَ يا ابنَ كَثِيرِ

۞ تاسعًا: مصادر ترجمته:

«تذكرة الحفاظ» (٤/ ١٥٠٨) للذهبي، ذيل تذكرة الحفاظ» (ص٥٧) للحُسَيْني، «الرد الوافر» (ص٩٢) لابن ناصر الدين الدمشقي، «الدُّرر الكامنة» (١/ ٣٧٣) لابن حجر، «إنْباء الغُمْر بأبناء العُمْر» (١/ ٤٥) لابن حجر أيضًا، «طبقات الشافعيَّة» (٣/ ٨٥) لابن قاضي شُهْبَة، «النُّجوم الزَّاهرة» (١١/ ١٢٣) لابن تَغْري بَرْدي، «ذيل تذكرة الحفاظ» (ص٣٦١) للسيوطي، «الدَّارس في تاريخ المدارس» (١/ ٢٧) للنُّعَيْمي، «مفتاح السعادة» (١/ ٢٣١) لطاش كبري زاده، «شذرات الذَّهب» (٦/ ٢٣١) لابن العماد، «البَدْر الطَّالع» (١/ ١٥٣) للشَّوكاني، «أبجد العلوم» (٣/ ٨٩) لصديق حسن خان، «عماد التفسير» (١/ ٢٢- ٣٧) لأحمد شاكر، «الأعلام» (١/ ٣٢٠) للزِّرِكْلي، «معجم المؤلِّفين» (٢/ ٢٨٣) لكحَّالة.

۞ ۞ ۞

قصص الأنبياء
ومنهج الحافظ ابن كثير فيه

❁ أولًا: أصل الكتاب:

تقدَّمَ بك أيُّها القارئُ الكريمُ ذِكْرُ بعض مؤلَّفات الإمام الحافظِ ابنِ كثيرٍ رحمةُ اللهِ عليه، وأشَرْنا هنالك إلىٰ واحدٍ من أهمِّ كتبِهِ وأشهرِها، وهو تاريخُهُ الحافلُ المعروفُ باسم «البداية والنهاية»، والذي يُطْلَقُ عليه أحيانًا اسم: «تاريخ ابن كثير».

وقد ابتدأ الحافظُ ابنُ كثيرٍ رحمةُ اللهِ عليه «تاريخه» بالكلام عن بَدْءِ الخَلْق؛ للعرشِ والكرسيِّ والسماواتِ والأرضينَ والملائكةِ والجِنِّ... حتَّىٰ إذا قضىٰ أرَبَهُ من ذٰلك كلِّه؛ افتتحَ كلامَه في قصَّة أبينا آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فقالَ: «بابٌ في خَلْق آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ»... ثم فصَّل الكلام في قصَّة أبينا آدمَ مِن بَدْءِ خَلْقِهِ وحتَّىٰ وفاتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم أتْبَعَها بذِكْر إدريس، فقصَّة نوحٍ، فهودٍ، فصالحٍ... وهكذا حتَّىٰ انتهىٰ إلىٰ ختامِ قصَّةِ عيسىٰ - عليهم جميعًا وعلىٰ نبيِّنا محمدٍ أفضلُ الصَّلاةِ وأتمُّ التَّسْليم - بالفصل الذي أفْرَدَهُ لـ: «بيانِ بناءِ بيتَ لخمَ والقمَّامَةِ»... ثم تابع «تاريخه» الحافلَ بالكلام عن قَصَصِ الماضينَ، حتَّىٰ وَصَلَ إلىٰ ميلادِ رسولِ اللهِ محمدٍ ﷺ، ففصَّلَ الكلامَ في حياتِهِ وسيرتِهِ، ثم في حياةِ خلفائِهِ وسيرتِهِم من بعدِهِ... ثم تابَعَ في ذِكْرِ أحداث التاريخ الإسلاميِّ علىٰ ترتيبِ السِّنينَ، حتىٰ خَتَمَ ذٰلك بأحداثِ سنة ٧٦٧هـ، ثم ألحق بهٰذا ما يُعْرَفُ بـ «نهاية البداية والنهاية»، والذي فصَّلَ فيه الكلامَ في الفِتَنِ والملاحم وأشراطِ السَّاعةِ وأحوالِ الآخرةِ.

و«قَصَصُ الأنبياءِ» التي بين يديك أخي القارئ هي القِطْعَةُ الواقعةُ بين «باب ما ورد في خَلْقِ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ» وآخر الفصلِ المُفْرَدِ لـ: «بيانِ بناءِ بيتَ لحمَ والقمامةِ».

وعلىٰ هٰذا؛ فابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ لم يُفْرِدْ مؤلَّفًا خاصًّا لِقَصَصِ الأنبياء، وإنَّما جاءت هٰذه القَصَصُ في سياقِ تاريخِهِ الطويل «البداية والنهاية».

وأمَّا إفرادُ «قَصَصِ الأنبياء» عن «التاريخ» واستلالُها منه؛ فالظَّاهِرُ أنَّه وَقَعَ متأخِّرًا في أيام الطباعةِ والمطابع؛ إذ لم يَذْكُرْ أحدٌ من المتقدِّمين أو المتأخِّرين «قصصَ الأنبياء» ضمنَ مؤلَّفات ابنِ كثيرٍ، ولا ذكروا لها مخطوطًا منفصلًا.

۞ ثانيًا: منهج ابن كثير في «قصص الأنبياء»:

رتَّب الحافظُ ابن كثيرٍ رحمةُ اللهِ عليه قَصَصَ الأنبياءِ ترتيبًا زمنيًّا- بحسب اجتهادِهِ وما ترجَّح له- علىٰ طريقةِ المؤرِّخينَ، ولم يَخْرِمْ هٰذا الترتيبَ إلا لمناسبةٍ استدعتْ ذٰلك؛ كما فَعَلَ عندما أوردَ قصَّةَ إلياسَ بعد قصةِ الخَضِرِ عليهما السلام؛ لِكَثْرَةِ ذِكْرِهِما معًا.

وتتألَّفُ القصَّةُ عادةً من ثلاثةِ مكوِّناتٍ رئيسيَّةٍ، وهي: النُّصوصُ القرآنيَّةُ، والنُّصوصُ الحديثيَّةُ، والمرويَّاتُ الإسرائيليَّةُ. هٰذا هو الحالُ في أغلبِ القَصَص. وربَّما اقْتُصِرَ علىٰ بعضِ هٰذه المكوِّناتِ إذا لم تَتَوَفَّرْ جميعًا؛ كما هو الحالُ في غيابِ الإسرائيليَّاتِ من قَصَصِ هودٍ وصالحٍ وشعيبٍ عليهم السلام، وغيابِ النُّصوصِ القرآنيَّةِ من قصَّةِ يعقوبَ عليه السلام، وغيابِ النُّصوص الحديثيَّةِ من قصَّةِ اليَسَعِ، وغيابِ نصوص القرآن والحديث معًا من بعض قَصَصِ أنبياءِ بني إسرائيلَ.

ولم يسلكِ ابنُ كثيرٍ رحمةُ الله عليه في عَرْضِهِ لِقَصَصِ الأنبياء عليهم الصلاةُ والسلامُ مَسْلكًا واحدًا، وإنَّما اتَّبَعَ سُبُلًا مختلفةً:

١- فأمَّا قصةُ آدمَ؛ فافْتَتَحَها بِذِكْرِ ما وَرَدَ من الآياتِ في خَلْقِهِ، ثم فصَّلَ القولَ فيها، ثم أَفْرَدَ فَصْلًا لِتَحاجِّ آدَمَ وموسى، وفصلًا لِما وَرَدَ من الحديث في خَلْقِ آدمَ، ثم ذَكَرَ قصةَ قابيلَ وهابيلَ، ثم وفاةَ آدَمَ عليه السلام.

٢- هٰذا ما كانَ في قصَّةِ آدمَ عليه السلام؛ إلَّا أنَّه استهلَّ أغلبَ القَصَصِ بعدَهُ بذِكْرِ ما جاء في نَسَبِ النبيِّ عليه السلام وقومِهِ وبلدِهِ، ثم يورِدُ ما جاء في قصَّتِهِ من النُّصوصِ القرآنيَّةِ جملةً واحدةً، ثم يختارُ بعد ذٰلك أكبرَ هٰذه النُّصوصِ وأغناها، فيفصِّلُ القولَ فيها؛ مستفيدًا من بقيَّةِ النُّصوص وجامعًا بينها كلَّما دعتِ الحاجةُ، مع إيرادِ ما يناسِبُ من النُّصوصِ الحديثيَّةِ والإسرائيليَّةِ وأقوالِ أهلِ العلمِ كلٌّ في موضعِهِ، ثم يختمُ بذِكْرِ مناقبِ هٰذا النبيِّ وشمائلِهِ ووفاتِهِ وقبرِهِ. هكذا جاءتْ قصَّةُ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ وأيوبَ ويونسَ وغيرِهم... علىٰ اختلافٍ يسيرٍ في التَّفاصيلِ.

٣- وأمَّا قصَّةُ إبراهيمَ ﷺ؛ فافتَتَحَها بذِكْرِ مولدِ إبراهيمَ ونسبِهِ وبلدِهِ وهجرتِهِ، ثم قَسَّمَها علىٰ فصولٍ تتناولُ أهمَّ الحوادثِ في حياتِهِ ﷺ: ففصَّلَ القولَ في مناظرتِهِ لأبيهِ، ثم في مناظرتِهِ في عبادةِ الكواكبِ، فمناظرتِهِ في عبادةِ الأصنامِ وحادثةِ الإحراقِ، فرِحْلَتِهِ إلىٰ مصرَ، ثم عودتِهِ إلىٰ الشامِ، فمولدِ إسماعيلَ والهجرةِ إلىٰ مكَّةَ وقصةِ الذَّبيح، فمولدِ إسحاقَ، فبناءِ البيتِ العتيقِ، ثمَّ ذَكَرَ جملةً من نُصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ في صفتِهِ وخصالِهِ ومناقبِهِ، وختم القصَّةَ بوفاتِهِ ﷺ.

٤- وأمَّا قصَّةُ يعقوبَ عليه السلام؛ فقد ساقَها جملةً واحدةً من خلال روايةٍ إسرائيليَّةٍ.

٥- وأمَّا قصَّةُ يوسفَ وموسىٰ وداوودَ وسليمانَ عليهم الصلاةُ والسَّلام؛ فقد جعَلَها علىٰ مقاطعَ، افْتَتَحَ كلًّا منها بنصٍّ قرآنيٍّ، ثم فصَّلَ الكلامَ فيه علىٰ منهج المفسِّرينَ.

٦- وأمَّا قصَّةُ عيسىٰ ابنِ مريمَ؛ فافتتحها بالكلام عن مريمَ عليها السلام وميلادِها وصفتِها وما كان من أمرِها، ثم تكلَّمَ عن ميلاد عيسىٰ عليه السلام، ثم أفرد فصلًا لتنزيهِ اللهِ ﷻ عن الولدِ، ثم ذَكَرَ نشأةَ عيسىٰ عليه السلام فَرَفْعَهُ فصِفَتَهُ ثم ما كان من أصحابِهِ.

ولست معنيًّا هنا بتتبُّع القَصَصِ واحدةً واحدةً، وإنَّما المقصودُ أنَّ ابنَ كثيرٍ لم يكن له طريقةٌ واحدةٌ في تناوُلِ قَصَص الأنبياءِ، بل عَرَضَها بطرائقَ كثيرةٍ متنوِّعةٍ، حَكَمَها طولُ القصَّةِ ومدىٰ توفُّرِ النُّصوصِ القرآنيَّةِ والحديثيَّةِ والمرويَّاتِ الإسرائيليَّةِ فيها.

ثم هاهنا أمرٌ مهمٌّ، وهو أنَّ عناصرَ القصَّةِ الاصطلاحيَّةِ من السَّرْدِ والحوارِ والشخصيَّاتِ؛ وإن كانت متوفرةً في أغلبِ القَصَصِ هنا؛ إلَّا أنَّها تبقىٰ بعيدةً عن طبيعةِ القصَّةِ التاريخيَّةِ المُصْطَلَحِ عليها في الأدب المعاصر، بل هي إلىٰ التاريخ ما هي.

۞ ثالثًا: شخصية ابن كثيرمن خلال «قصص الأنبياء»:

القارئُ لـ «قَصَصِ الأنبياءِ» سيتعرَّفُ من خلالِهِ علىٰ عالمٍ مُتَبَحِّرٍ واسعِ المعرفةِ فذٍّ فريدٍ متفنِّنٍ متعدِّدِ الإمكانياتِ والمواهبِ:

١- فهو قبلَ كلِّ شيءٍ المؤرِّخُ المحقِّقُ: الذي اعتنىٰ بالتَّرتيبِ التاريخيِّ لكتابِهِ عنايةً بالغةً، فتحرَّىٰ شديدًا في معرفةِ عصر كل نبيٍّ من الأنبياءِ، والمحلِّ الصحيح لرسالتِهِ

بينَ إخوانِهِ، فتراه يُدْخِلُ القصَّةَ علىٰ القصَّةِ للحفاظِ علىٰ التَّسَلْسُلِ التاريخيِّ للأحداثِ؛ فَعَلَ ذٰلك في قصَّةِ يعقوبَ ويوسفَ ثم في قصَّةِ شَمْويل وداوودَ ثم في قصَّةِ يحيىٰ وزكريَّا عليهم جميعًا أفضلُ الصَّلاةِ وأتمُّ التسليم. ثم له عنايةُ المؤرِّخِ في معرفةِ أنساب الأنبياءِ، والبلادِ والأقوام التي أرسلوا إليها، ومَتىٰ بُعِثوا؟ وكم عُمِّروا؟ ومواضعِ وفاتِهِم وقبورِهِم. وكذٰلك اعتنىٰ كثيرًا بالمقارنةِ بينَ ما جرىٰ للأنبياءِ مع أقوامِهِم وبين أحداثِ السِّيرةِ ومواقِفِ الصَّحابةِ ﭬ.

٢- ثم هو المفسِّرُ النقَّادُ: يتناولُ الآياتِ القرآنيَّةَ بالشَّرْحِ والتأويلِ؛ فيفسِّرُها بالقرآنِ تارةً، وبصحيحِ الحديثِ تارةً أخرىٰ، ويورِدُ أقوالَ الصَّحابَةِ والتَّابعينَ فيها، ويبيِّنُ مذاهبَ المفسِّرينَ وأقوالَ اللُّغَوِيِّينَ فيها، ويناقِشُ هٰذه المذاهبَ، ويرجِّحُ وجهَ الصَّوابِ الذي يراه لائقًا بالآيةِ... وأكرِمْ به وبترجيحِهِ الذي يَحْكي علمَه ورسوخَه وإنصافَه.

٣- وهو المحدِّثُ الحافظُ: الذي يُعْنىٰ بإيرادِ الحديثِ بسندِهِ ومتنِهِ، فقلَّما تجدُه مختصرًا لشيءٍ من هٰذا أو ذاك، بل يذهبُ أبعدَ من ذٰلك، فيجمعُ طُرُقَ الحديثِ، ويَدْرُسُ سَنَدَهُ، ويبيِّنُ أحوالَ رجالِهِ وأقوالَ أهلِ الجَرْحِ والتَّعديلِ فيهم، ثم يَحْكُمُ عليه صحَّةً وضعفًا؛ مبيِّنًا وجهَ الضَّعْفِ وحقيقَةَ العلَّةِ...

ولذٰلك؛ فقلَّما ترىٰ حديثًا ضعيفًا معلولًا في هٰذا الكتابِ؛ إلَّا وقد أشارَ ابنُ كثيرٍ إلىٰ وجهِ العلَّةِ فيه؛ من ضعفٍ في السَّند، أو نكارةٍ في المَتْن؛ في دقَّةٍ متناهيةٍ، وإنصافٍ يَعِزُّ نظيرُهُ، حتَّىٰ غدا حُكْمُهُ علىٰ الحديثِ وقولُهُ فيه مرجِعًا أصيلًا لدىٰ أهلِ العلمِ يَعْتَمِدونَه ويَثِقونَ به ثِقَتَهُم بأحكامِ ابنِ تيميَّةَ وابن القيِّمِ والذَّهبيِّ والعراقيِّ والعسقلانيِّ...

٤- وهو الفقيهُ المُتَبحِّرُ: الذي يَمُدُّ جسورَ الوَصْلِ بين الحادثةِ التَّاريخيَّةِ والأحكامِ الشرعيَّةِ؛ فتراه: يَنْقُلُكَ من قصَّةِ لوطٍ إلىٰ حكم اللُّوطيِّ ومذاهبِ الفقهاءِ فيه في شريعتنا، ومن قولِ يوسفَ ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ [يوسف: ١٠١] إلىٰ حكمِ تَمَنِّي الموتِ في شريعتنا، ومن تأجيرِ موسىٰ نفسَهُ إلىٰ شيءٍ من أحكام البيوعِ والإجارةِ، ومن بناءِ قُبَّةِ الزَّمانِ إلىٰ أحكام بناءِ المساجِدِ وتزيينِها في شريعتنا... وغير ذٰلك كثير.

٥- وهو الواعظُ الحكيمُ: الذي لا يُضَيِّعُ فرصةَ الاستفادةِ من الحادثةِ التَّاريخيَّةِ، والاتِّعاظ بها، ولفتِ النَّظَرِ إلىٰ موضِعِ العبرة منها، وهٰذا كثيرٌ جدًّا في الكتابِ، بل إنَّ الموعِظَةَ تكادُ تشكِّلُ عُظْمَ مادَّة «القَصَص» في الثُّلُثِ الأخيرِ من الكتابِ، وبدءًا من قصَّةِ يوشعَ بنِ نونٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٦- وأمَّا روايةُ الإسرائيليَّاتِ؛ ففنٌّ قد نالَ ابنُ كثيرٍ فيه قَصَبَ السَّبْقِ، ولا أقصِدُ بذٰلك الجَمْعَ والكَثْرَةَ؛ فذٰلك أمرٌ ليس بالمحمودِ كما سيأتيك من قريب، وإنَّما أقصِدُ حُسْنَ الاختيارِ ودقَّةَ الإيرادِ مع البصيرةِ النافذةِ فيما هو مقبولٌ صالحٌ في الجملةِ وفيما هو مُسْتَنْكَرٌ أو مكذوبٌ مفترًىٰ؛ فهٰذا أمرٌ للحافظِ ابن كثيرٍ فيه الحظُّ الأسمىٰ والقدحُ المعلَّىٰ وإليه فيه المُنْتَهىٰ. وقد أورد رحمةُ اللهِ عليه في كتابِهِ هٰذا جملةً غير قليلةٍ من هٰذه المرويَّاتِ؛ سواء أكانتْ من مرويَّاتِ الصَّحابَةِ والتَّابعينَ ومَنْ بعدهم، أو من اطِّلاعِهِ مباشرةً علىٰ كتاب أهل الكتاب. وهو في كلِّ ذٰلك ناقدٌ حكيمٌ منصفٌ؛ يبيِّنُ حالَ كلِّ روايةٍ، وموضعَ الخطإ فيها، وسببَ هٰذا الخطإ؛ فتارةً يُحيلُ إلىٰ التحريفِ والتَّبْديلِ والحَذْفِ والزِّيادةِ، وطورًا يُحيلُ إلىٰ جَهْلِ النَّقَلَةِ من أهل الكتابِ بلغةِ كتابِهِم ولغةِ العربِ، وثالثةً يُحيل إلىٰ عدم تمييزِ بني إسرائيلَ أنفسِهِم بين الصَّحيحِ والباطلِ... فإنْ سَلِمَتِ الروايةُ من هٰذا كلِّه، أو كانت صالحةً في الجملةِ؛ فسوفَ ينبِّهُ غالبًا علىٰ احتمالاتِ الصِّدْقِ والكذبِ فيها، ويُعْقِبُها بقولِهِ: «كذا في الكتاب الذي بين أيدي أهل الكتاب»، أو بقولِهِ: «فإنْ كان هٰذا محفوظًا»... أو غير ذٰلك ممَّا يؤدِّي معناه.

وبالجملةِ؛ فـ «قَصَصُ الأنبياءِ» كتابٌ فذٌّ فريدٌ، لن تَجِدَ في بابِهِ ما يقارِبُه ويدانيه؛ بلهَ أن يتفوَّقَ عليه أو يُساميه، لا من كتب القدماء ولا من كتب المحدَثين... ولست أزعمُ أنَّ الكتابَ قد كَمَلَ وتَمَّ، وأنَّ صاحبَه قد أصابَ في كلِّ ما أودَعَ فيه، بل إنَّك واجدٌ بلا شكٍّ مواضعَ عدَّةً قصَّر الحافظُ فيها؛ فسكتَ عن حديث كان الأَوْلىٰ تضعيفه، أو أوردَ إسرائيليةً منكرةً ثم غَفَلَ عن نكارتِها أو نسيَ أن يتعقَّبَها بالنقدِ كعادتِهِ... ولٰكنَّ ذٰلك قدرٌ يسيرٌ لا يحطُّ من شأن الكتابِ إن شاء الله، والكمال أمرٌ لا سبيلَ للبشرِ إليه، ولا قدرةَ لهم عليه، والمعصومُ من عَصَمَه اللهُ تعالىٰ، وقد قيل: كفىٰ المرءَ نُبْلًا أن تُعَدَّ معايِبُه.

الإسرائيليات
أصلها، مصادرها، حكم الشريعة فيها

لا بدَّ لنا بين يَدَي هٰذا الكتابِ القيِّمِ من الكلام في موضوعٍ وَثيقِ الصِّلَةِ بمادَّتِهِ العلميَّة، عظيم الأهميَّة، وهو ما يُعْرَفُ بالإسرائيليَّاتِ أو مَرْوِيَّاتِ بني إسرائيل.

۞ أولًا: ما هي الإسرائيليات؟

الإسرائيليَّاتُ لغةً: جمعُ إسرائيليَّة، وهي نسبةٌ إلىٰ بني إسرائيلَ، وإسرائيلُ هو نبيُّ اللهِ يعقوبُ عليه السلام.

وأما في اصطلاح أهل العلم؛ فهي كلُّ ما تَسَرَّبَ إلىٰ عالم المسلمين من أخبارِ أهلِ الكتاب؛ اليهود والنصارىٰ.

وبناءً علىٰ هٰذا؛ أحبُّ أنْ أسجِّلَ الملاحظاتِ المُهِمَّةَ التالية:

١- من الخطإِ أن تُعَدَّ الأحاديثُ الصَّحيحةُ الثَّابتةُ عن النبيِّ ﷺ في بعض أخبار الماضين من أهل الكتاب وغيرهم من الخطإِ أن يُعَدَّ هٰذا في جملةِ الإسرائيليَّات، بل هٰذه أمورٌ من صُلْب شريعةِ المسلمينَ ودينهم؛ لم تتسرَّبْ إليهم عن طريق أهلِ الكتاب. فإن وجدتَ مِن أهلِ العلم مَنْ يقولُ: الإسرائيليَّات التي صحَّتْ عن النبيِّ ﷺ؛ فإنما يريدُ بذٰلك المعنىٰ اللغَويَّ لا الاصطلاحيَّ لها. ومع ذٰلك؛ فالأحوطُ عدمُ استعمال الإسرائيليَّاتِ في مثلِ هٰذا؛ فإنَّ لِما صحَّ من حديثِ النبيِّ ﷺ قدسيَّةً ومكانةً ينبغي ألَّا تُهْدَرَ بِخَلْطِهِ مع الإسرائيليَّاتِ ذاتِ السمعةِ غيرِ الحسنةِ في كثيرٍ من الأحيان.

٢- ومن الخطإِ أيضًا أن تُعَدَّ الأحاديثُ الواهيةُ والموضوعةُ والباطلةُ وأخبارُ الصوفيَّةِ ومناماتُ الصَّالِحين ونبوءاتُ الكَهَنَةِ والمنجِّمين في جملةِ الإسرائيليَّاتِ؛ لأنَّ مصادرَ لهٰذه جميعًا ليست أهلَ الكتابِ.

٣- ومن الخطإ أيضًا أن تُعَدَّ أخبارُ الماضينَ التي جاءَتْنا من طريق الفُرْسِ واليونانِ والهِنْدِ والصِّينِ وغيرِهِم في جملة الإسرائيليَّاتِ، بل هٰذه أخبارٌ تاريخيَّةٌ لها حُكْمُ الأخبارِ التاريخيَّةِ وتعامَلُ معامَلَتَها. ولا أريدُ أنْ يُفْهَمَ من هٰذا أنَّها خيرٌ من مرويَّات أهل الكتاب، بل مرويَّات أهل الكتاب -غالبًا- أعدل وأقرب إلىٰ الصواب منها[1].

٤- ومن الخطإ أيضًا أن تعدَّ الأحداثُ التي جَرَتْ لبني إسرائيلَ منذ بعثة النبيِّ ﷺ وإلىٰ يومِنا هٰذا من الإسرائيليَّاتِ، بل هٰذه جزءٌ من التاريخ الإسلامي، فهي أخبارٌ تاريخيَّةٌ، لها حكمُها، وتُعامَلُ معامَلَتَها.

٥- وأخيرًا؛ فمن الخطإ قَصْرُ الإسرائيليَّاتِ علىٰ أخبار اليهودِ دونَ النَّصارىٰ؛ فإنَّ هٰذه كتلك حُكْمًا وإن اختلفتْ من حيث الطَّبيعة.

۞ ثانيًا: المصادر الأصلية للإسرائيليَّات:

١- أهمُّ مصادرِ الإسرائيليَّات هو «العهد القديم»، وهو الكتابُ المعروفُ بين أيدي أهلِ الكتابِ، والذي يزعُمون أنَّه التوراةُ.

٢- و«العهد الجديد» أيضًا أحدُ مصادرِ الإسرائيليَّاتِ المهمَّةِ، وهو كتابُ النَّصارىٰ، ويَضُمُّ كتابَ مَتَّىٰ وكتابَ مُرْقُسَ وكتابَ لوقا وكتابَ يوحَنَّا التي يزعُمون أنَّها الأناجيلُ، ويضمُّ أيضًا أعمالَ تلاميذِ المسيح الذين يسمُّونَهم الرُّسُلَ، وكذٰلك رسائِلَهم.

٣- ثم هناك «التلمود»، وهو سِجِلٌّ ضخمٌ فيه مجموعةٌ كبيرةٌ من القواعد والوصايا والشَّرائعِ التي كَتَبَها أحبارُ اليهود وعلماؤُهُم بمثابةِ التَّفْسيرِ والشَّرْحِ لما جاء في «العهد القديم» والتفصيلِ لأخبارِ بَني إسرائيلَ وسيرةِ أنبيائِهِم. وهو أَسْوَأُ مصادر الإسرائيليَّاتِ وأَخْطَرُها وأَكثَرُها زُورًا وبُهتانًا.

۞ ثالثًا: كيف تسربت الإسرائيليَّات إلى عالم المسلمين؟

لمَّا جاء نصرُ الله والفتحُ، ودَخَلَ الناسُ في دينِ الله أفواجًا؛ كان في جملةِ الدَّاخِلينَ

---

(١) وقد أشار إلىٰ ذٰلك الحافظ ابن كثير في كتابه هٰذا: فقال في (ص٢٢٧) بعد قصة أوردها: «وهٰذا ضعيف لمخالفته ما بأيدي أهل الكتاب». وأشار إلىٰ ذٰلك في عدة مناسبات أخرىٰ.

في دين الله الحنيف جماعةٌ من أحبارِ أهل الكتابِ وعلمائِهم؛ كعبدِاللهِ بن سلام ﵁، وكعبِ بن ماتعٍ الحِمْيَرِيِّ المعروفِ بكعبِ الأحبارِ، ومحمدِ بن كعبٍ القُرَظِيِّ، وهَمَّامِ بنِ منبِّهٍ ووَهْبِ بنِ منبِّهٍ... وغيرِهم؛ فهؤلاء قد صدَّقوا بالحقِّ لمَّا جاءهم، وأذْعَنوا له، وأسْلموا، وحَسُنَ إسلامُهم.

وقد وَجَدَ هؤلاءِ الأحبارُ والعلماءُ في القرآنِ الكريم كتابًا مصدِّقًا لِما مَعَهُم ومُهَيْمِنًا عليه، لٰكنَّه يختلفُ في طبيعتِهِ عنه؛ فالقرآنُ إنَّما يُرَكِّزُ علىٰ الأمورِ التي تُهِمُّ المسلمَ في دُنياه وآخرتِهِ؛ فيُغْنَي بذِكْرِها، ويُفصِّلُها حينًا، ويتركُ ذٰلك أحيانًا كثيرةً للسُّنةِ، وأمَّا ما سوىٰ ذٰلك من الأمورِ؛ فغالِبًا ما يُشيرُ إليها إشارةً أو يَذْكُرُها علىٰ وجهِ الإجمال بما يُحَقِّقُ المقصِدَ المرجُوَّ من ذِكْرِها فحسبُ.

والمقصودُ: أنَّ أكثر مسلمةِ أهل الكتابِ قد وَجَدوا في القرآنِ الكريم جملةً من الأخبار المُجْمَلَةِ في بدءِ الخلقِ وقَصَصِ الأنبياءِ وأخبارِ الأمم السَّالفة ممَّا قرؤوه في كتابهم علىٰ وَجْهِ التَّطْويل والتَّفْصيل، فَنزَّلوا هٰذه التفصيلاتِ علىٰ تلك الآياتِ، وجَعَلوها بمثابَةِ الشَّرْحِ والتَّأْويلِ لها.

وبسببٍ من طبيعةِ النَّفْس البشريَّةِ التي تميلُ إلىٰ تَتَبُّعِ القَصَصِ واستقصاءِ الأخبارِ والإحاطةِ بأطرافِ الأمورِ وتفاصيلِها؛ لاقتْ هٰذه الأخبارُ والتَّفْصيلاتُ رواجًا غيرَ قليلٍ لدىٰ شريحةٍ واسعةٍ من عامَّةِ المسلمينَ، وتداوَلَها أكثرُ أهلِ العلم بالسَّماع والرِّواية؛ بدءًا من جيل الصحابةِ، فالتابعينَ، فتابعيهم... وهكذا إلىٰ عصرِنا الحاضر.

ومِنْ أشهرِ مَنْ عُرِفَ عنه سماعُ هٰذه الأخبارِ وروايتُها من الصَّحابة: أبو هريرةَ، وابنُ مسعودٍ، وابنُ عباسٍ، وابنُ عمرَ؛ ﵃ جميعًا. ثم أكثرُ التَّابعينَ؛ كمجاهد وقتادة. ثم تابعو التابعينَ فمن بعدَهُم؛ كمحمد بن إسحاق بن يسار، وإسماعيل السُّدِّي... وهكذا حتَّىٰ جاء عصرُ التَّصْنيفِ ودخَلَتْ هٰذه الرواياتُ في مؤلَّفاتِ المسلمينَ.

وكذٰلك فقد لجأ عددٌ غيرُ قليل من أهلِ العلم إلىٰ تَجاوُزِ وَساطَةِ مسلمةِ أهل الكتابِ، والاطِّلاع مباشرةً علىٰ صُحُفِهِم وأسفارِهِم واسْتِنْساخِها وترجمتِها وروايتها والنَّقْل عنها. وممَّن عُرِف بذٰلك من الصحابة عبد الله بن عمرو بن العَاص ﵄.

وكذٰلك لجأ كثيرٌ ممَّن لا تحقيق عندَه من أهل العلم ولا تَنْقيح، وجماعةٌ من أهل الزُّهد والتَّصوُّف، وأغلبُ القُصَّاصِ؛ لجؤوا إلىٰ كفرةِ الأحبارِ والرُّهبان بل والعامَّةِ الجَهَلَةِ من أهل الكتابِ، فسألوهُم واستَفْصَلوهُم واعتَمَدوا أخبارَهُم ورَوَوْها وتناقَلوها وبثُّوها في أوساطِ أهلِ العِلْم والعامَّة، فانتشرتْ فيهم انتشارَ النَّارِ في الهَشيم! وهؤلاءِ شرٌّ مكانًا وأضلُّ عن سواءِ السَّبيل.

وهكذا دَخَلَتِ الإسرائيليَّاتُ إلىٰ عالم المسلمينَ من أوسع الأبواب.

۞ رابعًا: أقسام الإسرائيليّات عند أهل العلم:

وبناء علىٰ ما تقدَّم من مصادرِ الإسرائيليَّاتِ وطُرُقِ تسرُّبها؛ فالإسرائيليَّاتُ جنسٌ يَضُمُّ تحتَه عدةَ أصنافٍ لا يَنْتَظِمُها حكمٌ واحدٌ:

١- فمن الإسرائيليَّاتِ ما هو صحيحٌ؛ لموافقتِه ما قصَّهُ اللهُ في كتابِهِ أو أخبر به رسولُ اللهِ ﷺ. فهٰذا لا بأسَ بروايتِهِ وتناقُلِهِ عند أهل العلم قاطبةً. ومثالُه: ما جاء من أنَّ يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وأخاه بَنْيامينَ من أمٍّ واحدةٍ وبقيَّةَ إخوتِهِم من غيرها. فهٰذا قد جاء في شرعِنا ما يصدِّقُه ويشهدُ لصحَّتِهِ[1].

٢- ومن الإسرائيليَّات ما هو مكذوبٌ مفترًىٰ معلومُ البُطْلانِ بالضَّرورةِ ظاهرٌ أنَّه ممَّا كَتَبَهُ زنادِقَةُ أهلِ الكتاب وضُلَّالُهم بأيديهم وقالوا هو من عندِ اللهِ ليَشْتَروا به ثمنًا قليلًا. وهو كثيرٌ جدًّا، بل أكثرُ الإسرائيليَّاتِ من هٰذا الصِّنْف. وهٰذا لا تَحِلُّ روايتُهُ وذِكْرُهُ إلَّا علىٰ سبيل التَّعجيبِ والإنكارِ والتَّكذيب. ومثالُه: قصةُ سُكْرِ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وتعرِّيه التي جاءت في «العهد القديم» (سفر التكوين/ الإصحاح ٦). وقصةُ سُكْرِ لوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ونكاحُهُ بناتِهِ التي جاءت فيه أيضًا في (سفر التكوين/ الإصحاح ١٩). فهٰذا كذبٌ مفترًىٰ علىٰ أنبياءِ اللهِ تعالىٰ وصفوتِهِ من خَلْقِهِ.

٣- ومن الإسرائيليَّاتِ ما لم يَرِدْ في شرعِنا ما يَشهَدُ لصدقِهِ أو كذبِهِ.

فهٰذا يحتملُ الصِّدْقَ والكَذِبَ. والأصلُ في هٰذا النوع من المرويَّاتِ التوقُّفُ فيه؛ فلا نصدِّقُه ولا نُكذِّبُه؛ إذعانًا لما جاء في ذٰلك من الأحاديثِ الصَّحيحة:

---

(١) انظر تفصيل ذٰلك في قصة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قالَ: كان أهلُ الكتابِ يقرؤونَ التَّوراةَ بالعِبرانِيَّةِ ويفسِّرونَها بالعربيَّةِ لأهلِ الإسلام، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**لا تُصَدِّقوا أهلَ الكتابِ ولا تُكَذِّبوهم، قُولُوا: آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إليكم... الآية**»(١).

وعن أبي نَمْلَةَ الأنصاريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّه بينما هو جالسٌ عند رسولِ اللهِ ﷺ؛ جاء رجلٌ من اليهودِ، فقال: هل تَكَلَّمُ هٰذه الجِنازةُ؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «اللهُ أعلمُ». فقال اليهوديُّ: أنا أشهدُ أنَّها تتكَلَّمُ. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما حَدَّثكُمْ أهلُ الكتابِ؛ فلا تُصَدِّقوهُم ولا تُكَذِّبوهُم، وقولوا: آمَنَّا باللهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورُسُلِهِ؛ فإنْ كان حقًّا؛ لم تُكَذِّبوهُم، وإنْ كان باطِلًا؛ لم تُصَدِّقوهم**». وقالَ: «**قاتَلَ اللهُ اليهودَ؛ لقد أوتوا علمًا**»(٢).

والأمرُ في هٰذا ظاهرٌ بيِّنٌ إنْ شاءَ الله تعالىٰ.

۞ خامسًا: حكم تداول الإسرائيليّات التي لم يرد في شرعنا ما يشهد لصدقها أو كذبها بالسماع والرواية:

ولٰكنَّ الأمرَ الذي يحتاجُ إلىٰ فصلٍ هنا هو حُكْم تداوُلِ هٰذا النَّوْعِ من الإسرائيليّاتِ بالسَّماعِ والرِّوايةِ:

* فمن قائلٍ بحَظْرِ ذٰلك مستشهِدًا بعدَّةٍ من النُّصوص الشرعيَّة:

١- **فمنها**: حديثُ جابرِ بن عبدِالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أتىٰ النبيَّ ﷺ بكتابٍ أصابَه من بعض أهل الكتاب، فقرأهُ علىٰ النبيِّ، فغَضِبَ، وقالَ: «**أمُتَهَوِّكونَ فيها يا ابنَ الخَطَّاب؟! والذي نفسي بيدِهِ؛ لقد جِئْتُكُمْ بها بيضاءَ نَقِيَّةً، لا تسألوهُمْ عن شيءٍ فيُخْبِروكم بحقٍّ فتُكَذِّبوا به، أو بباطلٍ فتُصَدِّقوا به. والذي نفسي بيدِهِ؛ لو أنَّ موسىٰ ﷺ كان حَيًّا؛ لَما وَسِعَه إلَّا أن يَتَّبِعَني**»(٣).

---

(١) رواه: البخاري (٩٦- الاعتصام، ٢٥- لا تسألوا أهل الكتاب، ١٣/ ٣٣٣/ ٧٣٦٢).

(٢) (**حسن صحيح**). رواه: عبد الرزاق (١١/ ١٠٩/ ٢٠٠٥٩)، وأحمد (٤/ ١٣٦)، وأبو داوود (١٩- العلم، ٢- رواية حديث أهل الكتاب، ٢/ ٣٤٢/ ٣٦٤٤)، وابن حبان (١٤/ ١٥١/ ٦٢٥٧)، والطبراني (٢٢/ ٣٤٩/ ٨٧٤-٨٧٩)، والبيهقي (٢/ ١٠)؛ من طرق عن الزهري، عن نملة بن أبي نملة، عن أبيه... به.

وهٰذا سند حسن من أجل ابن أبي نملة؛ فقد روىٰ عنه جماعة ووثقه ابن حبان. ثم الحديث صحيح بالشاهد المتقدم.

(٣) (**صحيح**). سيأتي تفصيل تخريجه في (ص٢٦٦).

٢- ومنها: ما جاء عن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بعض طُرُقِ الحديث المتقدم نفسه؛ أنَّه أمَرَ جماعةً ممَّن استَنْسَخوا بعضَ صُحُفِ أهل الكتاب بمَحوِهِ ودَفْنِه.

٣- ومنها: قولُ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يا معشرَ المسلمينَ! كيف تسألونَ أهلَ الكتاب عن شيءٍ وكتابُكُم الذي أُنْزِلَ علىٰ رسول الله ﷺ أحدثُ الأخبارِ باللهِ؛ تقرؤونَه محضًا لم يُشَبْ، وقد حدَّثكُم أنَّ أهلَ الكتابِ بدَّلوا كتابَ اللهِ، وغيَّروه، وكَتَبوا بأيديهِمُ الكتابَ، وقالوا هو من عندِ اللهِ لِيَشْتَروا به ثَمَنًا قليلًا؟! أفلا ينهاكُمْ ما جاءكُمْ من العلمِ عن مساءَلَتِهِم؟! ولا واللهِ؛ ما رأينا منهم رجلًا يسألُكُم عن الذي أُنْزِلَ عليكم[(١)]!

٤- ومنها: قولُ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا تسألوا أهلَ الكتابِ عن شيءٍ؛ فإنَّهم لَنْ يَهْدوكُم وقد أضَلُّوا أنفُسَهم: إمَّا يُحَدِّثونكم بصِدْقٍ فتكَذِّبونَهم، أو بباطِلٍ فتُصَدِّقونَهم[(٢)].

* ولٰكنَّ الغالبيَّةَ السَّاحِقَةَ من أهل العلمِ علىٰ إباحةِ هٰذا النَّوْع من المَرويَّاتِ، وقد استندوا في ذٰلك إلىٰ نصوصٍ أخرىٰ تعارِضُ ما تقدَّمَ من نُصوصِ الحَظْر:

١- فأمَّا حديثُ جابرٍ المتقدِّم: «لا تسألوهم عن شيء...»؛ فيقابِلُهُ: ما صحَّ عنه ﷺ من قولِهِ: «حَدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَجَ»[(٣)]. وقولُ عبدِالله بن عمروٍ: كان نبيُّ اللهِ ﷺ يحدِّثُنا عن بَني إسرائيلَ حتىٰ يُصْبِحَ، ما يقومُ إلَّا إلىٰ عُظْمِ صلاةٍ[(٤)]. ففي هٰذا إباحةٌ ظاهرةٌ بعد الحَظْر.

٢- وأمَّا ما جاءَ من أمرِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِمَحْو ما استُنْسِخَ عن أهل الكتابِ ودَفْنِهِ؛ فيقابِلُه ما

(١) رواه البخاري (٩٦- الاعتصام، ٢٥- لا تسألوا أهل الكتاب، ١٣/ ٣٣٣/ ٧٣٦٣).

(٢) رواه: عبد الرزاق (٦/ ١١١/ ١٠١٦٢)، والطبراني (٩/ ٣٥٤/ ٩٧٥٩)، وغيرهما. قال الهيثمي (١/ ١٩٧): «ورجاله موثقون». وحسنه العسقلاني في «الفتح» (١٣/ ٣٣٤).

(٣) رواه: البخاري (٦٠- الأنبياء، ٥٠- ما ذكر عن بني إسرائيل، ٦/ ٤٩٦/ ٣٤٦١) من حديث ابن عمر. وفي الباب: عن أبي سعيد عند أحمد والترمذي، وعن أبي هريرة عند أحمد، وعن جابر عند أبي يعلىٰ.

(٤) (**صحيح**). رواه: أحمد (٤/ ٤٣٧) وأبو داوود (١٩- العلم، ١١- الحديث عن بني إسرائيل، ٢/ ٣٤٦/ ٣٦٦٣)، والحاكم (٢/ ٣٧٩)؛ من طريقين عن قتادة، عن أبي حسان، عن ابن عمرو (وجاء مرة: عن عمران بن حصين، وهو خطأ)... به.

وهؤلاء ثقات رجال مسلم؛ فالسند صحيح علىٰ شرطه، وقد سكت عنه المنذري، وصححه الحاكم والذهبي والألباني.

جاء عنه مِن استحسانِهِ لبعضٍ ما يَرْويه كعبُ الأحبارِ من أخبارِ بني إسرائيل.

٣- وأمَّا ما جاء عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما؛ فظاهِرُهُ النهيُ عن سؤال الكَفَرةِ من الأحبارِ والرُّهْبان؛ فهؤلاءِ أصحابُ مقاصِدَ فاسدةٍ ونيَّاتٍ خبيثةٍ، ومن الإسفافِ حقًّا أن يَنْحَدِرَ المسلمُ ويَتَقَزَّمَ إلىٰ هٰذا المدىٰ عوضًا أن يعتدَّ بالحق الذي معهُ والذي يَعْلو ولا يُعْلىٰ عليه، ويؤكِّدُ هٰذا التأويل ويصدِّقُه أنَّ ابنَ عباسٍ نفسَه قد روي جملةً غيرَ قليلةٍ من الأخبارِ الإسرائيليَّات عن مُسْلِمَةِ أهل الكتابِ؛ كما يُدْرِكُ ذٰلك مَنْ قَرَأَ شيئًا يسيرًا من «تفسير ابن جرير» أو «تفسير ابن أبي حاتم»

٤- وأمَّا ما جاءَ من كلامِ ابنِ مسعودٍ؛ فالقولُ فيه كالقولِ فيما جاء عنِ ابنِ عباسٍ، بل جاءَ في آخرِهِ: إنْ كُنْتُمْ سائِليهم لا محالَةَ؛ فانْظُروا ما واطَأَ كتابَ اللهِ؛ فَخُذوهُ، وما خالَفَ كتابَ اللهِ؛ فدَعوه. اهـ. ويؤكِّدُ هٰذا ويصدِّقُه أيضًا أنَّ ابنَ مسعودٍ نفسَه قد روىٰ جملةً من الأخبارِ الإسرائيليَّاتِ؛ كما هو ظاهرٌ لمن تصفَّحَ تفسيري ابنِ جريرٍ وابنِ أبي حاتمٍ.

٥- وما لَنا نَبْعُدُ كثيرًا في هٰذا؛ وقد قالَ تعالىٰ لنبيِّه ﷺ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [يونس: ٩٤]. قال الحافظُ في «الفتح» (١١/ ٣٣٤): «المرادُ به مَنْ آمَنَ مِنْهُم، والنَّهْيُ إنَّما هو عن سؤالِ مَنْ لم يُؤْمِنْ منهُم. ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ الأمرُ يَخْتَصُّ بما يَتَعَلَّقُ بالتَّوْحيدِ والرِّسالةِ المحمَّدِيَّةِ وما أشبهَ ذٰلك، والنَّهْيُ عمَّا سوىٰ ذٰلك» اهـ.

ولا أريدَ أن أطيل فوقَ هٰذا؛ فالغالبيةُ الساحقةُ من أهل العلم علىٰ جوازِ ذٰلك؛ سواءٌ أوردتْ هٰذه المرويَّاتُ في سياقِ التفسير أو التَّاريخِ أو الرقائقِ والمواعظِ؛ فقلَّما تَجِدُ أحدًا ممَّن يُرْجَعُ إليه أو يُصْدَرُ عن رأيِهِ؛ إلَّا وقد روىٰ شيئًا من هٰذا النوع من المرويَّاتِ أو سَمِعَها أو أوْرَدَها في مصنَّفاتِهِ أو أفتىٰ بإباحةِ ذٰلك... والمقام يضيق فعلًا عن ذِكْرِ هؤلاء.

* ثم تشدَّد قومٌ من المعاصرين في هٰذه المسألة؛ لما رأوا من توسُّعِ بعضِ أهلِ العلم فيها، أو تحتَ وطأة الظُّروفِ الراهنةِ؛ من غطرسةِ اليهود، وتربُّصهم بالمسلمين، وكيدِهم

لهم، واحتلالِهِم لأراضيهم ومقدَّساتهم. وهؤلاء؛ وإن كنا نحبُّهم ونحترِمُهم ونقدِّرُ غيرَتَهم علىٰ الأمة؛ إلا أننا لا نستطيعُ متابعَتَهم علىٰ ما ذهبوا إليه؛ لسببٍ بسيطٍ جدًّا، وهو أن الأدلَّة المتقدِّمة هي دينُنا ودَيْدَنُنا؛ عليها نعوِّلُ، وإليها نحتكمُ، ولا يسعُنا أن نتنكَّبَها ونخالفَها كلَّما حدث حادثٌ أو جدَّ جديد.

نعم؛ لا تثريب في أن يكتبَ الإنسانُ في التفسير أو التاريخ أو القصص؛ معتمدًا علىٰ ما صحَّ في دينه فحسب، متجنبًا هٰذه المروياتِ الإسرائيليَّة، بل هٰذا والله هو الأصل، وفيه كل الخير، ولٰكنَّ حَظْر ذٰلك وتحريمَه وانتقادَ فاعلِهِ أمرٌ آخرُ لا سبيل- عندي- إليه. والله أعلىٰ وأعلم.

۞ سادسًا: أين يكمن الخطر؟

لٰكنْ لا بدَّ أن أضيفَ هنا أنَّ روايةَ الإسرائيليَّاتِ التي لا نَعْلَمُ مِن شرعِنا تكذيبَها ولا تصديقَها؛ وإن كانتْ مباحةً في الجملةِ؛ إلَّا أنها مَسْلَكٌ وَعِرٌ تَكْتَنِفُهُ مزالِقُ خطيرةٌ لا بدَّ من التَّنَبُّه لها والتَّحذيرِ منها:

١- فأوَّلُ هٰذه المزالقِ أنَّ أكثرَ العوامِّ وعددًا غيرَ قليلٍ من الخُطَباءِ والمُدَرِّسينَ وأنصافِ المتعلِّمين؛ إنَّما يَذْكُرونَ هٰذه الإسرائيليَّاتِ وكأنَّها حقائقُ مسلَّمٌ بها؛ غافلين عن القَيْدِ الذي لا بُدَّ منه مع هٰذا الصِّنْفِ من المرويَّاتِ، وهو قولُهُ ﷺ: «فلا تصدِّقوهم ولا تكذِّبوهم». وهٰذا تقصيرٌ يُلام صاحبُه، بل الأصلُ أن تُنبَّهَ العامةُ في كلِّ فرصَةٍ إلىٰ حقيقة هٰذه المرويَّاتِ، وأنَّها كذٰلك جاءتْ عند أهلِ الكتابِ، وأنَّنا إنَّما نذكُرُها للاعتضادِ لا للاعتماد، وفي الشواهدِ والمتابعاتِ لا في الأصول، وأنَّنا لا نعلمُ إن كانت حقًّا أو باطلًا، والله أعلم بالحقِّ والصَّواب.

٢- ومن ذٰلك أنَّه توسَّعَ قومٌ توسُّعًا بالغًا في إيراد الإسرائيليَّاتِ وروايَتِها في مُصَنَّفاتِهِم، حتَّىٰ أصبحتْ عُظْمَ هٰذه المصنَّفاتِ وعمودَها الفِقْرِيَّ! وهٰذا أمرٌ غير محمودٍ إطلاقًا، فكيف نرضىٰ لأنفُسِنا سَوْمَ الخَسْفِ؟! ولماذا نُهْدِرُ شخصيَّتَنا الإسلاميَّةَ وصِبْغَتَنا الحَنيفَةَ علىٰ فتاتِ قومٍ لا يأبهون لنا ولا لِما عندَنا من الحقِّ؟! ولو كان لنا حاجةٌ وضرورة بما عندَهم؛ لهان الخَطْبُ، ولٰكنَّ ما جاء في شريعتِنا من رواياتِ

التفسير وأخبار الأنبياءِ والأممِ السَّالِفَةِ والزُّهْدِ والرَّقائِقِ وأخبار الصَّالحين فيه غنًىٰ وكفايةٌ لمن هداه اللهُ ووفَّقَه، بل واللهِ؛ لو جَهَدَ المرءُ علىٰ أن يحيط به أو بأكثرِه؛ لما أطاقَ. زدْ علىٰ ذٰلك أنَّ مثل هٰذا التوسُّعِ لا بدَّ أن يكونَ علىٰ حساب التَّحريرِ والتَّنْقيح، فتجِدُ في تلك المرويَّاتِ جملةً ضخمةً ممَّا هو مكذوبٌ مفترًىٰ علىٰ الله ورسلِهِ، فيحملُ صاحبُهُ إثمَ بثِّه ونشره.

٣- ثم كثيرٌ من هٰذه المرويَّاتِ إنَّما تُذْكَرُ منسوبةً للصَّحابةِ رضوانُ اللهِ عليهم؛ كابن عباسٍ وابن مسعودٍ وابن عمرٍو وغيرِهم، فيتوهَّمُ أكثرُ السامعينَ أو القراءِ صِحَّةَ نسبتِها إليه، والواقعُ أنَّها ضعيفةٌ واهيةٌ منقطعةُ الصِّلَةِ بهم.

٤- والأدهىٰ من ذٰلك والأمرُّ ما صَنَعَهُ بعض الرُّواةِ خطأً أو عمدًا من نسبةِ جملةٍ غير قليلةٍ من هٰذه الإسرائيلياتِ- بل وممَّا هو ظاهرُ الكذبِ والافتراءِ- إلىٰ رسولِ ﷺ، ثمَّ لَهَجَ كثيرٌ من المفسِّرين والمؤرِّخين برواية هٰذه الموضوعاتِ الملفَّقَةِ منسوبةً إلىٰ النبيِّ ﷺ، واختصر آخرون أسانيدَها وجَزَموا بنسبتِها إلىٰ النبيِّ ﷺ، وربَّما صحَّحها بعضُ أهل العلم اعتمادًا علىٰ تعدُّدِ طُرُقِها؛ غافلين عن شِدَّةِ وهاء هٰذه الطُّرُق وأحوالِ رجالها. وسوف يأتيك علىٰ صفحاتِ هٰذا الكتاب إن شاء اللهُ تعالىٰ جملةٌ مستنكَرَةٌ من هٰذه الأخبارِ الشَّنيعة.

فهٰذا غيضٌ من فيضٍ ممَّا ينبغي التنبُّهُ له والحَذَرُ منه عند روايةِ الإسرائيليَّاتِ، ولذٰلك أشَرْتُ لك من قريبٍ أنَّ القصدَ في هٰذا البابِ والاختصارَ هو مَئِنَّةُ الحكمة وسبيلُ السلامة. والله أعلم.

۞ سابعًا: مراجع الرواية الإسرائيلية من كتب المسلمين:

قدَّمْنا أنَّ أكثرَ كُتُبِ السُّنَّةِ لا يَخلو من شيءٍ من المرويَّاتِ الإسرائيليَّاتِ، لٰكنَّها تتفاوتُ في ذٰلك تفاوُتًا بيِّنًا؛ بين مقلٍّ لهٰذه الرِّواياتِ ومكثرٍ، ومحقق مدقِّق في انتخابه للطائفَ حسنةٍ مفيدةٍ منها وحاطبِ ليل جمَّاعٍ لا يبالي عثًّا أصاب أو سمينًا.

فلنذكر هاهنا أهمَّ المصنفات التي تُعْنىٰ بإيراد الإسرائيليَّات ورواياتِها:

١- ففي باب التفسير هناك: «جامع البيان» لابن جرير، و«تفسير القرآن العظيم»، لابن أبي حاتم، و«تفسير الثعالبي»، و«تفسير البغوي»، و«تفسير الخازن»... وغيرها.

٢- وفي التاريخ والقصص والأخبار هناك: «تاريخ الأمم والملوك» لابن جرير، و«عرائس المجالس» للثعالبي، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر، و«المنتظم» لابن الجوزي، و«الكامل» لابن الأثير، و«البداية والنهاية» لابن كثير... وغيرها.

٣- وفي الزهد والرقائق هناك: «الزهد» لابن المبارك ووكيع وأحمد والبيهقي، و«الحلية» لأبي نعيم... وغيرها.

وحسبي وحسبُك ما أوردت في هٰذا الفصل، وأسأل الله تعالىٰ أن يكون فيه وفيما سبقه خير ومنفعة، وأن أكون قد وفِّقت إلىٰ الصواب فيه، والحمد لله رب العالمين.

[قصة آدم عليه السلام]

۞ باب ما ورد في خلق آدم عليه السلام [في القرآن الكريم]:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣١) قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٣٩)﴾ [البقرة: ٣٠-٣٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٥٩)﴾ [آل عمران: ٥٩].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء: ١].

كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ ...﴾ الآية [الأعراف: ١٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ١١-٢٥].

كما قال في الآية الأخرى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: ٢٦-٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ

بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦١-٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١١٥-١٢٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: ٦٧-٨٨].

فهٰذا ذِكْرُ هٰذه القصَّة من مواضع متفرِّقة من القرآن، وقد تكلَّمنا علىٰ ذٰلك كلِّه في «التفسير»، ولنذكر هاهنا مضمونَ ما دلَّت عليه هٰذه الآيات الكريمات، وما يتعلَّق بها من الأحاديث الواردة في ذٰلك عن رسول الله ﷺ والله المستعان.

۞ [الملائكة الكرام يسألون الله تعالى عن حكمة خلق آدم عليه السلام]:

فأخبر تعالىٰ أنَّه خاطب الملائكة قائلًا لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]: أعْلَمَ بما يريدُ أن يَخْلُقَ من آدم وذُرِّيَّته الذين يخلُفُ بعضهم بعضًا؛ كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢][١]؛ فأخبرهم بذٰلك علىٰ سبيل التَّنويه بخَلْقِ آدم وذُرِّيَّتِهِ؛ كما يُخْبَرُ بالأمر العظيم قبل كونه.

فقالت الملائكة سائلين علىٰ وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحِكْمة لا علىٰ وجه الاعتراض والتَّنقُّص لبني آدم والحسد لهم، كما قد يتوهَّمه بعضُ جَهَلَةِ المفسِّرين؛ قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠]: قيل: علموا أن ذٰلك[٢] كائنٌ بما رأوا ممَّن كان قبل آدم من الجِنِّ والبِنِّ[٣]. قاله قتادة. وقال عبد الله بن عمر: كانت الجِنُّ قبل آدم بألفي عام، فسفكوا الدِّماء، فبعث الله إليهم جندًا من الملائكة، فطردوهم إلىٰ جزائر البحور. وعن ابن عباس... نحوه. وعن الحسن: أُلْهِموا ذٰلك. وقيل: لِما اطَّلعوا عليه من اللوح المحفوظ، فقيل: أطلعهم عليه هاروتُ وماروتُ عن مَلَك فوقَهما يُقال له: السِّجِلُّ. رواه ابن أبي حاتمٍ عن أبي جعفرٍ الباقر[٤]. وقيل: لأنهم علموا أنَّ الأرض لا يُخْلَقُ منها إلاَّ مَنْ يكون بهٰذه المثابة غالبًا.

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]؛ أي: نعبدك دائمًا، لا يعصيك منا أحدٌ، فإن كان المراد بخَلْقِ هؤلاء أن يعبدوك؛ فها نحن لا نفتر ليلًا ولا نهارًا.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [البقرة: ٣٠]؛ أي: أعلم من المصلحة الراجحة في خَلْقِ هؤلاء مالا تعلمون؛ أي: سيوجد منهم الأنبياءُ والمرسلون والصِّدِّيقون والشُّهداء والصَّالحون.

ثم بيَّن لهم شرفَ آدم عليهم في العلم، فقال: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]: قال ابن عباسٍ: هي هٰذه الأسماء التي يتعارف بها الناس؛ إنسانٌ، ودابةٌ، وأرضٌ، وسهلٌ، وبحرٌ، وجبلٌ، وجملٌ، وحمارٌ... وأشباه ذٰلك من الأمم وغيرها. وقال مجاهدٌ: علَّمه اسم الصَّحْفة،

---

(١) وعليه؛ فليس الإنسان خليفة لله في الأرض كما يقوله كثير من الأدباء والصحفيين، وإنما معنىٰ الخليفة هنا الجنس الذين يخلُفُ بعضُهم بعضًا؛ كما أفاده كلام الإمام ابن كثير هنا، وكما أجمع عليه أهل التفسير.

(٢) يعني: الفساد وسفك الدماء.

(٣) الظاهر أنهم طائفة من الجن..

(٤) انظره في «تفسيره» (١/ ٧٨/ ٣٢٧).

والقِذْر حتىٰ الفَسْوة والفُسَيَّة. وقال مجاهدٌ: علَّمه اسم كلِّ دابَّة وكلِّ طير وكلِّ شيء. وكذا قال سعيد ابن جُبير وقَتادة وغير واحد. وقال الربيع: علَّمه أسماء الملائكة. وقال عبد الرحمٰن بن زيدٍ: علَّمه أسماء ذُرِّيَّته. والصحيح: أنَّه علَّمه أسماء الذَّوات وأفعالَها؛ مكبَّرِها ومصغَّرِها؛ كما أشار إليه ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

وذكر البخاريُّ هنا ما رواه هو ومسلمٌ من طريق: سعيد وهشام، عن قَتادةَ، عن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ؛ قال: «**يجتمعُ المؤمنونَ يومَ القيامة، فيقولونَ: لوِ اسْتَشْفَعْنا إلى ربِّنا، فيأتونَ آدمَ، فيقولون: أنت أبو البشر؛ خَلَقَكَ اللهُ بيدِهِ، وأسْجَدَ لك ملائكتَهُ، وعلَّمَكَ أسماءَ كلِّ شيء...**» وذكَرَ تمامَ الحديث(١).

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٣١﴾ [البقرة: ٣١]: قال الحسن البصريُّ: لمَّا أراد الله خَلْقَ آدم؛ قالت الملائكةُ: لا يخلقُ ربُّنا خلقًا؛ إلَّا كنَّا أعلم منه! فابتُلوا بهٰذا، وذٰلك قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٢٣﴾. وقيل غير ذٰلك كما بسطناه في «التفسير».

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ٣٢﴾ [البقرة: ٣٢]؛ أي: سبحانك أن يحيطَ أحدٌ بشيءٍ من علمك من غير تعليمِك؛ كما قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ٣٣﴾ [البقرة: ٣٣]؛ أي: أعلمُ السرَّ كما أعلمُ العلانيةَ. وقيل: إنَّ المرادَ بقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ ما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]، وبقوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ٣٣﴾: المراد بهٰذا الكلام إبليس حين أسرَّ الكِبْر والنَّفاسة(٢) علىٰ آدم عليه السلام. قاله سعيدُ بن جُبيرٍ ومجاهدٌ والسُّدِّيُّ والضَّحَّاكُ والثَّوريُّ واختاره ابن جرير(٣). وقال أبو العالية والربيعُ والحسنُ وقَتادة: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ٣٣﴾: قولُهم: لن يخلقَ ربُّنا خلقًا إلَّا كنَّا أعلمَ منه وأكرمَ عليه منه.

---

(١) رواه: البخاري (٦٥- التفسير، ٢- البقرة، ١- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، ٨/ ١٦٠/ ٤٤٧٦)، ومسلم (١-الإيمان، ٨٤- أدنىٰ أهل الجنة منزلة، ١/ ١٨٠/ ١٩٣).

(٢) النفاسة: الحسد.

(٣) في «التفسير» (١/ ٢٦٠).

وقوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ [البقرة: ٣٤]: هٰذا إكرامٌ عظيم من الله تعالىٰ لآدم حين خَلَقَه بيده، ونَفَخ فيه من روحه؛ كما قال: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر: ٢٩]؛ فهٰذه أربع تشريفاتٍ: خلقُه له بيده الكريمة، ونفخُه فيه من رُوحه، وأمرُه الملائكةَ بالسُّجود له، وتعليمُه أسماءَ الأشياء. ولهٰذا قال له موسىٰ الكليم حين اجتمع هو وإياه في الملإ الأعلىٰ وتناظر كما سيأتي[1]: «**أنت آدمُ أبو البشرِ؛ الذي خَلَقَكَ اللهُ بيدِهِ، ونَفَخَ فيك من رُوحه، وأسْجَدَ لك ملائِكَتَه، وعلَّمك أسماءَ كلِّ شيءٍ؟**».

وهكذا يقول له أهل المحشرِ يوم القيامة كما تقدَّم وكما سيأتي إن شاء الله تعالىٰ[2].

۞ [حسد إبليس لآدم عليه السلام وامتناعه عن السجود له]:

وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١١-١٢]: قال الحسنُ البصريُّ: قاس إبليس، وهو أولُ مَنْ قاس. وقال محمدُ بن سِيرينَ: أولُ مَن قاس إبليس، وما عُبِدَتِ الشمسُ ولا القمرُ إلَّا بالمقاييس. رواهما ابن جرير[3].

ومعنىٰ هٰذا أنه نَظَرَ نفسَهُ بطريق المقايسة بينَه وبين آدم، فرأىٰ نفسَه أشرفَ من آدم، فامتنعَ من السُّجودِ له؛ مع وجودِ الأمرِ له ولسائرِ الملائكةِ بالسُّجود!

والقياسُ إذا كان مقابَلًا بالنَّصِّ؛ كان فاسدَ الاعتبار.

ثم هو فاسدٌ في نفسه؛ فإن الطِّين أنفعُ وخيرٌ من النار؛ لأنَّ الطِّينَ فيه الرَّزانة والحِلْم والأناة والنموُّ، والنارَ فيها الطَّيْشُ والخِفَّةُ والسُّرعة والإحراق.

ثم آدم شرَّفه الله بخَلْقِه له بيده ونفخِهِ فيه من رُوحه، ولهٰذا أمر الملائكة بالسجود له؛ كما قال: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن

---

(١) انظره في (ص٥٧ وما بعدها).

(٢) انظره في (ص٣٨).

(٣) في «التفسير» (٥/ ٤٤١/ ١٤٣٦٠ و١٤٣٦١).

صَلْصَٰلٖ مِّنْ حَمَإٖ مَّسْنُونٖ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ [الحجر: ٢٨-٣٥]: استحقَّ هٰذا من الله تعالىٰ؛ لأنَّه استلزم تنقُّصه لآدم وازدراؤه به وترفُّعه عليه مخالفةَ الأمر الإلهيِّ ومعاندةَ الحقِّ في النصِّ علىٰ آدمَ علىٰ التَّعيين، وشَرَعَ في الاعتذار بما لا يجدي عنه شيئًا، وكان اعتذارُه أشدَّ من ذنبه.

كما قال تعالىٰ في سورة سبحان: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينٗا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءٗ مَّوْفُورٗا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦١-٦٥].

وقال في سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: ٥٠]؛ أي: خرج عن طاعةِ اللهِ عمدًا وعنادًا واستكبارًا عن امتثال أمره.

وما ذاك إلا لأنه خانه طبعُهُ ومادتُه الخبيثةُ أحوجَ ما كان إليها؛ فإنَّه مخلوقٌ من نار: كما قال. وكما جاء(١) في «صحيح مسلم»(٢) عن عائشة عن رسول الله ﷺ؛ قال: «**خُلِقَتِ الملائكةُ من نورٍ، وخُلِقَ الجانُّ من مارِجٍ من نارٍ، وخُلِقَ آدم مما وُصِف لكم**». قال الحسنُ البصريُّ: لم يكن إبليسُ من الملائكة طرفةَ عينٍ قطُّ. وقال شَهْر بن حَوْشَبٍ: كان من الجنِّ، فلما أفسدوا في الأرضِ؛ بَعَثَ الله إليهم جندًا من الملائكة، فقتَلوهم وأجْلَوْهم إلىٰ جزائر البحار، وكان إبليس ممَّن أُسِرَ، فأخذوه معهم إلىٰ السَّماءِ، فكان هناك، فلمَّا أُمِرَتِ الملائكةُ بالسجود؛ امتنع إبليس منه. وقال ابنُ مسعودٍ وابنُ عباسٍ وجماعةٌ من الصحابة وسعيدُ بن المسيَّب وآخرون: كان إبليسُ رئيسَ الملائكة بالسماء الدُّنيا. قال ابنُ عباس: وكان اسمُه عزازيلَ (وفي روايةٍ عنه: الحارثَ. قال النقاش: وكنيتُه أبو كردوسَ). قال ابن عباس: وكان من حيٍّ من الملائكة يُقال لهم: الجِنُّ، وكانوا خزَّان الجنان، وكان من أشرفهم ومن أكثرهم علمًا وعبادةً،

(١) في نسخة: «وكما قد روينا».

(٢) (٥٣- الزهد والرقائق، ١٠- أحاديث متفرقة، ٤/ ٢٢٩٤/ ٢٩٩٦).

وكان من أولي الأجنحة الأربعةِ فمَسَخَه الله شيطانًا رجيمًا(١).

وقال في سورة صٓ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي
فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ
يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن
طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾
قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ
ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: ٧١-٨٥].

---

(١) هٰذه مسألة قد تكلم فيها كثير من أهل العلم من السلف والخلف، واختلفوا فيها اختلافًا كبيرًا، ويمكننا تلخيصها علىٰ الصورة التالية:

* **أولًا**: احتج من ذهب إلىٰ أن إبليس من الملائكة وإنما من الجن (أو: أبوهم) الذين هم قسيمو الإنس في الخلق بالأمور التالية:

١- أن الله تعالىٰ يقول: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]، وهٰذه النقطة عند إطلاقها إنما تشير إلىٰ الطائفة المعروفة لا إلىٰ الملائكة.

٢- أن الملائكة مخلوقات نورانية، وإبليس مخلوق ناري؛ كما شهد هو علىٰ نفسه بنص القرآن الكريم حينما قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢]؛ فهو مختلف عنهم في أصل الخلق.

٣- أن له ذرية وولدًا؛ كما قال سبحانه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ [الكهف: ٥٠]، والملائكة لا تتكاثر ولا تتناسل.

٤- أنه استكبر وعلا وفسق عن أمر ربه وعصاه؛ كما جاء في كثير من آيات الكتاب العزيز، والملائكة عبادٌ مكرمون، لا يستكبرون عن عبادة ربهم ولا يستحسرون، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وقد امتدحهم الله في مواضع كثيرة من كتابه الكريم.

* **ثانيًا**: وليس مع الذين ضمُّوا إبليس إلىٰ ملائكة الرحمن ظاهر من الكتاب والسنة يستندون إليه، وإنما حجتهم أن إبليس كان في مصافِّ الملائكة عند ربهم في السماء، وأنه أُمِرَ معهم بالسجود؛ فلو لم يكن منهم؛ لما كان في صفِّهم، ولا أمر معهم.

* **ثالثًا**: ولا ريب أن حجج الأولين أظهر وأقوىٰ، وأنَّ تأويلها يحتاج إلىٰ تكلف يصعب علىٰ النفوس تقبُّله بسهولة، ولا سيما أنه قد جاء عن بعض السلف ما يرفع شبهة الآخرين بالملائكة، ولا غرابة في ذٰلك؛ فهٰذا آدم عليه السلام نفسه قد كان في مصاف الملائكة عند ربه ﷻ، وعيسىٰ عليه السلام لم يزل كذٰلك إلىٰ اليوم، وهو حال الأنبياء والشهداء في حياتهم البرزخية.

والحافظ ابن كثير رحمة الله تعالىٰ عليه وإن سكت عن الفصل في المسألة هنا؛ فإنه سيتضح لك تبنِّيه لهٰذا الذي قلته من قريب. والله أعلىٰ وأعلم.

وقال في سورة الأعراف: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦-١٧]؛ أي: بسبب إغوائك إيَّاي لأقعدنَّ لهم كلَّ مرصدٍ، ولآتِيَنَّهم من كلِّ جهةٍ منهم؛ فالسعيد من خالفه والشقيُّ من اتَّبعه.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا هاشمُ بنُ القاسم، حدثنا أبو عَقيلٍ (هو عبد الله بن عَقيلٍ الثقفيُّ) حدثنا موسىٰ بن المسيَّبِ، عن سالم بن أبي الجَعْد، عن سَبْرَةَ بن أبي الفاكِهِ؛ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الشَّيْطانَ قَعَدَ لابنِ آدَمَ بأطْرُقِهِ**...» وذكر الحديث[(١)].

۞ [من هم الملائكة الذيم أمروا بالسجود لآدم]:

وقد اختلف المفسِّرون في الملائكة المأمورين بالسُّجود لآدم؛ أهُمْ جميع الملائكة؛ كما دلَّ عليهم عموم الآيات؛ وهو قولُ الجمهور؟ أو المرادُ بهم ملائكةُ الأرض؛ كما رواه ابن جرير[(٢)] من طريق الضحَّاك عن ابن عباس، وفيه انقطاع، وفي السياق نكارة؛ وإن كان بعضُ المتأخِّرين قد رجحه؟

ولٰكنَّ الأظهرَ من السياقات الأولُ، ويدلُّ عليه الحديث: «**وأسجد له ملائكته**»،[(٣)] وهٰذا عموم أيضًا. والله أعلم.

---

(١) (حسن). رواه: ابن أبي شيبة (٤/ ٢١٠/ ١٩٣٢٢)، وأحمد (٣/ ٤٨٣)، والنسائي (٢٥- الجهاد، ١٩- ما لمن أسلم وهاجر، ٦/ ٢١/ ٣١٣٤)، وابن حبان (١٠/ ٤٥٣/ ٤٥٩٣)، والطبراني (٧/ ١١٧/ ٦٥٥٨)؛ كلهم من طريق موسىٰ بن المسيَّب... به.

وهٰذا سند حسن، رجاله كلهم ثقات؛ إلا ابن المسيب هٰذا؛ فصدوق حسن الحديث.

والحديث حسنه الحافظ في «الإصابة» (٢/ ١٤)، وقال: «إلا أن في إسناده اختلافًا».

قلت: يشير إلىٰ ما ذكره المزي في «التحفة» (٣/ ٢٦٤/ ٣٨٠٨)؛ قال: «ورواه طارق بن عبد العزيز، عن ابن عجلان، عن موسىٰ، عن سالم، عن جابر بن أبي سبرة. فالله أعلم».

قلت: وفيه ضعف، ولذٰلك قال الحافظ: «والمحفوظ في هٰذا عن سالم بن أبي الجعد عن سبرة بن أبي فاكه». وعليه؛ فهٰذه المخالفة لا تضر الحديث إن شاء الله، ولذٰلك - والله أعلم - صححه الألباني.

(٢) في «التفسير» (١/ ٣٨/ ٦٠٦).

(٣) قطعة من حديث سيأتي بطوله وطرقه وتخريجه (ص٥٧ وما بعدها).

❁ [كان إبليس عليه لعائن الله في السماء]:

وقوله تعالىٰ لإبليس: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٣]، و: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨]؛ دليلٌ علىٰ أنَّه كان في السماء، فأمِرَ بالهبوط منها والخروج من المنزلة والمكانة التي كان قد نالها بعبادته، وتشبُّهه بالملائكة في الطاعة والعبادة، ثم سُلب ذٰلك بكِبْره وحسده ومخالفته لربِّه، فأهبط إلىٰ الأرض مذؤومًا مدحورًا(١).

❁ [خلق حواء عليها السلام]:

وأمَرَ اللهُ آدمَ عليه السلام أن يسكنَ هو وزوجتُهُ الجنَّةَ فقال: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: ٣٥]، وقال في الأعراف: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف: ١٨-١٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: ١١٦-١١٩].

وسياق هٰذه الآيات يقتضي أنَّ خَلْق حوَّاء كان قبل دخول آدم إلىٰ الجنة، لقوله: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ١٩]. وهٰذا قد صرَّح به إسحاقُ بن يسارٍ. وهو ظاهر هٰذه الآيات.

ولكن حكىٰ السُّدِّيُّ: عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عباس، وعن مُرَّة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: أنهم قالوا: أخرِجَ إبليس من الجنة وأسكِنَ آدمُ الجنة، فكان يمشىٰ فيها وحشيًّا(٢)، ليس له فيها زوجٌ يسكن إليها، فنام نومة، فاستيقظ وعند رأسه امرأةٌ قاعدةٌ خَلَقَها الله من ضِلَعِهِ، فسألها: ما أنت(٣)؟ قالتِ: امرأة. قال: ولم خُلِقْتِ؟ قالت: لتسكنَ إليَّ. فقالت له الملائكة ينظُرون ما بلغ من علمِهِ: ما اسمُها يا آدمُ؟ قال: حواء. قالوا: ولم كانت حوَّاء؟ قال: لأنَّها خُلِقَتْ من شيءٍ حيٍّ.

---

(١) فهٰذه الفقرة توضح لنا مذهب ابن كثير رحمه الله في حقيقة إبليس، والذي تقدم فصل النزاع فيه في (ص٤٠)..

(٢) في نسخة: «وحيدًا».

(٣) في نسخة: «من أنت».

وذكر محمد بن إسحاق عن ابن عباس: أنها خُلِقَتْ من ضِلَعِهِ الأقصر الأيسر وهو نائم ولأَمَ مكانه لحمًا.

ومصداقُ هٰذا: في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ....﴾ الآية [النساء: ١]. وفي قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ...﴾ الآية [الأعراف: ١٨٩]، وسنتكلم عليها فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ(١).

وفي الصحيحين من حديث: زائدة، عن مَيْسَرة الأشجعيِّ، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ: أنه قال: «**استَوْصوا بالنِّساء خيرا؛ فإنَّ المرأةَ خُلِقَتْ من ضِلَع، وإنَّ أعوجَ شيءٍ في الضِّلَع أعلاه: فإن ذهبتَ تقيمُه؛ كَسَرْتَه، وإن تَرَكْتَه؛ لم يزلْ أعوجَ؛ فاستَوْصوا بالنِّساءِ خيرًا**». هٰذا لفظ البخاري(٢).

۞ [الشجرة التي أمر آدم بالكف عنها]:

وقد اختلف المفسِّرون في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥]: **فقيل**: هي الكرم. ورُوِي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والشعبيِّ وجَعْدَةَ بن هُبَيْرَةَ ومحمد بن قيس والسُّدِّيِّ في رواية عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة؛ قال: وتزعم يهودُ أنها الحنطة. وهٰذا مرويٌّ عن ابن عباس والحسن البصريِّ ووَهْبِ بن منبِّهٍ وعطيَّة العوفي، وأبي مالكٍ ومحارِب بن دِثار وعبد الرحمٰن بن أبي ليلىٰ. قال وَهْبٌ: والحبَّةُ منه ألين من الزُّبد وأحلىٰ من العسل. وقال الثوريُّ عن حُصين(٣) عن أبي مالك: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾: هي النَّخلة. وقال ابن جُرَيْج عن مجاهد: هي التينة. وبه قال قَتادة وابن جُرَيْج. وقال أبو العالِية: كانت شجرةً؛ من أكَلَ منها؛ أحدثَ، ولا ينبغي في الجنة حَدَثٌ.

---

(١) انظره في (ص٨٧ وما بعدها).

(٢) (٦٠- أحاديث الأنبياء، ١- خلق آدم وذريته، ٦/ ٣٦٣/ ٣٣٣١)، ورواه مسلم (١٧- الرضاع، ١٨- الوصية بالنساء، ٢/ ١٠٩١/ ١٤٦٨).

(٣) في جميع الأصول: «أبي حصين»! وليس بصحيح، وإنما هو حصين بن عبد الرحمن السلمي؛ يروي عن أبي مالك غزوان الغفاري، وعنه الثوري. والأثر عند ابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٨٦/ ٣٨٠).

وهٰذا الخلاف قريبٌ، وقد أبهم اللهُ ذِكْرَها وتَعْيينها، ولو كان في ذِكْرِها مصلحةٌ تعود إلينا؛ لَعَيَّنها لنا؛ كما في غيرها من المحالِّ التي تُبْهَمُ في القرآن.

۞ [حقيقة الجنة التي أدخلها آدم]:

وإنَّما الخلافُ الذي ذكروه في أنَّ هٰذه الجنة التي أُدْخِلَها آدم؛ هل هي في السماء أو في الأرض؟ هو الخلافُ الذي ينبغي فصلُهُ والخروج منه.

والجمهور علىٰ أنها هي التي في السماء، وهي جنة المأوىٰ؛ لظاهر الآيات والأحاديث: كقوله تعالىٰ: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، والألف واللام ليست للعموم ولا لمعهودٍ لفظيٍّ، وإنما تعود علىٰ معهودٍ ذهنيٍّ، وهو المستَقِرُّ شرعًا من جنة المأوىٰ.

وكقول موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**علامَ أخْرَجْتَنا ونفسَكَ من الجنة...**» الحديث كما سيأتي الكلام عليه[1].

وروىٰ مسلمٌ في «صحيحه»[2] من حديث أبي مالك الأشجعيِّ (واسمه سعد بن طارق) عن أبي حازمٍ سلمةَ بن دينارٍ عن أبي هريرة، وأبو مالكٍ عن ربِعيٍّ عن حذيفة؛ قالا: قال رسول الله ﷺ: «**يَجْمَعُ اللهُ الناسَ، فيقوم المؤمنون حين تُزْلَفُ لهم الجنَّةُ، فيأتونَ آدمَ، فيقولون: يا أبانا! استفتحْ لنا الجنةَ! فيقولُ: وهل أخرَجَكُم من الجنةِ إلَّا خطيئةُ أبيكم؟...**» وذكر الحديث بطوله.

وهٰذا فيه قوَّةٌ جيِّدةٌ ظاهرةٌ في الدِّلالة علىٰ أنَّها جنَّة المأوىٰ، وليست تخلو عن نظرٍ.

وقال آخرون: بل الجنة التي أُسْكِنَها آدمُ لم تكن جنةَ الخُلْد؛ لأنَّه كُلِّفَ فيها ألَّا يأكلَ من تلك الشجرة، ولأنَّه نام فيها وأُخْرِج منها ودَخَلَ عليه إبليس فيها، وهٰذا مما ينافي أن تكون جنة المأوىٰ.

وهٰذا القول محكيٌّ عن أُبيِّ بن كَعْب وعبد الله بن عباس ووَهْب بن منبِّه وسفيان بن عُيينة، واختاره ابن قتيبة في «المعارف»، والقاضي منذر بن سعيد البلوطيُّ في «تفسيره» وأفرد له مصنفًا علىٰ حدة وحكاه عن أبي حنيفة الإمام وأصحابه رحمهم الله، ونقله أبو عبد الله محمد بن عمر الرازيُّ ابنُ خطيب الريِّ في «تفسيره» عن أبي القاسم البَلْخي وأبي مسلم

---

(١) انظره بطوله وطرقه وتخريجه في (ص٥٧ وما بعدها).

(٢) (١- الإيمان، ٨٤- أدنىٰ أهل الجنة منزلة، ١/ ١٨٦/ ١٩٥).

الأصبهانيِّ، ونقله القُرطبيُّ في «تفسيره» عن المعتزلة والقدريَّة. وهٰذا القول هو نصُّ التوراة التي بأيدي أهل الكتاب[١].

وممَّن حكىٰ الخلافَ في هٰذه المسألة: أبو محمد بن حَزْمٍ في «الملل والنحل»، وأبو محمد بن عطيَّة في «تفسيره»، وأبو عيسىٰ الرُّمَّانيُّ في «تفسيره» وحكىٰ عن الجمهور الأول، وأبو القاسم الراغبُ، والقاضي الماورديُّ في «تفسيره» فقال: «واخْتُلِفَ في الجنة التي أُسْكِنها (يعني: آدم وحواء) علىٰ قولين: **أحدُهما**: أنَّها جنةُ الخُلْد. **الثاني**: أنَّها جنةٌ أعدَّها الله لهما وجعلها دارَ ابتلاءٍ وليست جنةَ الخُلْد التي جعلها دار جزاءٍ. ومن قال بهٰذا اختلفوا علىٰ قولين: **أحدهما**: أنَّها في السماء؛ لأنه أهْبَطَهُما منها. وهٰذا قول الحسن. **والثاني**: أنَّها في الأرض؛ لأنه امْتَحَنَهما فيها بالنَّهْيِ عن الشجرة التي نُهيا عنها دون غيرِها من الثمار. وهٰذا قول ابن يحيىٰ. وكان ذٰلك بعد أن أُمِرَ إبليسُ بالسُّجود لآدم. والله أعلم بالصواب من ذٰلك». هٰذا كلامه. فقد تضمَّن كلامُه حكايةَ أقوال ثلاثة، وأشعر كلامهُ أنَّه متوقِّف في المسألة، ولهٰذا[٢] حكىٰ أبو عبد الله الرازيُّ في «تفسيره» في هٰذه المسألة أربعةَ أقوالٍ: هٰذه الثلاثةَ التي أوردها الماورديُّ، ورابعُها الوقفُ، وحكىٰ القولَ بأنَّها في السماء وليست جنةَ المأوىٰ عن أبي عليٍّ الجُبَّائي[٣].

وقد أورد أصحابُ القول الثاني سؤالًا يحتاجُ مثلُه إلىٰ جواب، فقالوا: لا شكَّ أنَّ الله ﷻ طرد إبليس حين امتنع من السُّجود عن الحضرة الإلٰهية، وأمره بالخُروج عنها والهُبوط منها، وهٰذا الأمر ليس من الأوامر الشرعيَّة بحيث يمكِنُ مخالفتُه، وإنَّما هو أمرٌ قدريٌّ لا يخالَف ولا يمانَع، ولهٰذا قال: ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾ [الأعراف: ١٨]، وقال: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣]، وقال: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤﴾ [ص: ٧٧]، والضمير عائدٌ إلىٰ الجنة أو السماء أو المنزِلة، وأيًّا ما كان؛ فمعلوم أنه ليس له الكون قَدَرًا في المكان الذي طُرِدَ عنه وأُبْعِدَ منه؛ لا علىٰ سبيل الاستقرار، ولا علىٰ سبيل المرور والاجتياز. قالوا: ومعلومٌ من

---

(١) انظره تفصيل هٰذا القول في: «مفاتيح الغيب» (٢/ ٣) للرازي، و«الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٢٠٧/ البقرة ٣٧) للقرطبي. وانظر أيضًا: «العهد القديم» (سفر التكوين/ الأصحاح٢).

(٢) في نسخة: «ولقد».

(٣) انظر: «الملل والنحل» لابن حزم (٤/ ١٤٢)، و«تفسير الماوردي» (١/ ١٠٤)، و«تفسير الرازي» (٢/ ٣).

ظاهر سياقات القرآن أنَّه وسوس لآدمَ وخاطَبه بقوله له: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: ١٢٠]، وبقوله: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ...﴾ الآية [الأعراف: ٢٠-٢٢]، وهٰذا ظاهرٌ في اجتماعه معهما في جنَّتهما!

وقد أجيبوا عن هٰذا: بأنَّه لا يمتنع أن يجتمعَ بهما في الجنَّة علىٰ سبيل المرور فيها لا علىٰ سبيل الاستقرار بها، أو أنه[(١)] وسوس لهما وهو علىٰ باب الجنةِ أو من تحت السماء. وفي الثلاثة نظرٌ. والله أعلم.

ومما احتجَّ به أصحاب هٰذه المقالة ما رواه عبدُالله ابنُ الإمام أحمد في «الزيادات» عن: هُدبة بن خالد، عن حمَّاد بن سلمة، عن حُميد، عن الحسن البصري، عن عُتَيٍّ[(٢)] بن ضَمْرة السعديِّ، عن أبيِّ بن كعب؛ قال: إن آدم لما احْتُضِرَ؛ اشتهىٰ قِطْفًا من عنب الجنة، فانطلق بنوه لِيَطْلُبوه له، فلقِيَتْهُمُ الملائكةُ، فقالوا: أين تريدونَ يا بني آدم؟ فقالوا: إنَّ أبانا اشتهىٰ قِطْفًا من عِنَبِ الجنَّة. فقالوا لهم: ارجِعوا؛ فقد كُفِيتُموه! فانْتَهَوْا إليه، فقبضوا رُوحه، وغسَّلوه، وحنَّطوه، وكفَّنوه، وصلىٰ عليه جبريل ومن خلفِهِ الملائكةُ، ودفنوه، وقالوا: هٰذه سنَّتكُم في موتاكم. وسيأتي الحديث بسنده وتمام لفظه عند ذكر وفاة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ[(٣)].

قالوا: فلولا أنَّه كان الوصولُ إلىٰ الجنَّةِ التي كان فيها آدمُ التي اشتهىٰ منها القِطْفَ ممكنًا؛ لما ذهبوا يطلبونَ ذٰلك، فدلَّ علىٰ أنَّها في الأرض لا في السماء. والله تعالىٰ أعلم.

قالوا: والاحتجاج بأن الألف واللام في قوله: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ١٩]: لم يتقدَّم عهدٌ يعودُ عليه؛ فهو المعهود الذهنيُّ: مسلَّم، ولكن هو ما دل عليه سياق الكلام؛ فإن آدم خُلِقَ من الأرض، ولم يُنْقَلْ أنه رُفعَ إلىٰ السماء، وخُلِقَ ليكون في الأرض، وبهٰذا أعلم الربُّ الملائكةَ حيث قال: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. قالوا: وهٰذا كقولِهِ تعالىٰ: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧]؛ فالألف واللام ليس للعموم، ولم يتقدَّم

(١) في نسخة: «أنه».

(٢) في جميع الأصول: «يحيىٰ»! وهو خطأ ظاهر، والصواب ما أثبته.

(٣) (صحيح). انظره وتخريجه في (ص٩٢).

معهودٌ لفظيٌّ، وإنَّما هي للمعهود الذهنيِّ الذي دلَّ عليه السياق، وهو البستانُ.

قالوا: وذِكْر الهبوط لا يدلُّ علىٰ النزول من السماء، قال الله تعالىٰ: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٨]، وإنَّما كان في السفينة؛ حين استقرَّت علىٰ الجوديِّ ونَضَبَ الماء عن وجه الأرض؛ أمِرَ أن يَهْبِطَ إليها هو ومن معه مباركًا عليه وعليهم. وقال الله تعالىٰ: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ...﴾ الآية [البقرة: ٦١]. وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ...﴾ الآية [البقرة: ٧٤]. وفي الأحاديث واللغة من هٰذا كثيرٌ.

قالوا: ولا مانع - بل هو الواقع - أنَّ الجنَّة أُسْكِنَها آدم كانت مرتفعةً عن سائر بقاع الأرض، ذات أشجارٍ وثمارٍ وظلالٍ ونعيم ونَضْرة وسرور؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾ [طه: ١١٨]؛ أي: لا يَذِلُّ باطنُك بالجوع ولا ظاهِرُك بالعُرْي. ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ أي: لا يَمَسُّ باطنَك حرُّ الظمإ ولا ظاهرَك حرُّ الشمس، ولهٰذا قَرَنَ بين هٰذا وهٰذا وبين هٰذا وهٰذا؛ لما بينهما من الملاءمة. فلمَّا كان منه ما كان من أكلِهِ من الشجرة التي نُهِيَ عنها؛ أُهْبِطَ إلىٰ أرض الشَّقاء والتَّعب والنَّصب والكَدَر والسعي والنَّكد، والابتلاء والاختبار والامتحان واختلاف السكان دينًا وأخلاقًا وأعمالًا وقصودًا وإراداتٍ وأقوالًا وأفعالًا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٣٦]. ولا يلزمُ من هٰذا أنَّهم كانوا في السماء؛ كما قال: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء: ١٠٤]، ومعلومٌ أنَّهم كانوا فيها ولم يكونوا في السماء.

قالوا: وليس هٰذا القول مفرَّعًا علىٰ قول مَن يُنْكِرُ وجودَ الجنة والنار اليوم، ولا تلازمَ بينَهما؛ فكلُّ من حُكِيَ عنه هٰذا القول من السَّلَف وأكثر الخلف ممَّن يُثْبِتُ وجود الجنَّة والنار اليوم؛ كما دلَّت عليه الآياتُ والأحاديثُ الصِّحاح. والله ﷻ أعلم بالصواب.

۞ [إبليس يوسوس لآدم وحواء في الأكل من الشجرة]:

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦]؛ أي: عن الجنة. ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦]؛ أي: من النَّعيم والنَّضرة والسُّرور إلىٰ دار التعب والكدِّ والنكد، وذٰلك بما وسوس لهما وزيَّنه في صدورهما.

كما قال تعالىٰ: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠]؛ يقول: ما نها كما عن أكلِ هٰذه الشجرةِ إلَّا أن تكونا مَلَكين أو تكونا من الخالدين؛ أي: لو أكلتما منها؛ لصِرْتُما كذٰلك. ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢١]؛ أي: حَلَفَ لهما علىٰ ذٰلك. ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف: ٢١].

كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: ١٢٠]؛ أي: هل أدُلُّك علىٰ الشجرة التي إذا أكلت منها؛ حَصَلَ لك الخُلْدُ فيما أنت فيه من النَّعيم واستمررتَ في مُلْكٍ لا يبيدُ ولا ينقضي؟ وهٰذا من التَّغرير والتَّزوير والإخبار بخلاف الواقع. **والمقصود**: أنَّ قولَه: ﴿شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾: التي إذا أكلت منها؛ خُلِّدْتَ. وقد تكون هي الشجرةَ التي قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرحمٰن بن مَهْديٍّ، حدثنا شعبةُ، عن أبي الضَّحاك، سمعت أبا هريرة يقولُ: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ في الجنةِ شجرةَ يسير الراكبُ في ظِلِّها مئةَ عام لا يقطعُها؛ شجرةَ الخُلْد**». وكذا رواه أيضًا عن غندر وحجاج عن شعبة. ورواه أبو داوود الطيالسيُّ في «مسنده» عن شُعبة أيضًا... به. قال غندر: قلت لشعبة: هي شجرةُ الخلد؟ قال: ليس فيها: «هي». تفرَّد به الإمامُ أحمد(١).

وقوله: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

---

(١) (صحيح؛ إلّا قوله: «شجرة الخلد»؛ فمنكر). رواه الطيالسي (٢٥٤٧)، وأحمد (٢/ ٤٦٢ بالسند الأول، و٤٥٥ بالسند الثاني والزيادة)، والدارمي (٢/ ٣٣٨)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٧/ ٢٤٣٨/ ١٣٥٦٠)؛ من طرق عن شعبة، عن أبي الضحاك، عن أبي هريرة... فذكره.

وأبو الضحاك هٰذا لم يرو عنه إلا شعبة ولم يوثقه أحد، ولذٰلك قال الذهبي في «الميزان»: «لا يعرف، لكن شيوخ شعبة جياد»، وأنصف الحافظ في «التقريب» فقال: «مقبول»؛ يعني: عند المتابعة، وإلا؛ فلين الحديث.

ولكن الحديث قد صح من غير هٰذه الطريق؛ فقد رواه: البخاري (٥٩- بدء الخلق، ٨- ما جاء في صفة الجنة، ٦/ ٣١٩/ ٣٢٥٢)، ومسلم (٥١- الجنة، ١- في الجنة شجرة، ٤/ ٢١٧٥/ ٢٨٢٦)؛ دون قوله: «شجرة الخلد»؛ فتبقىٰ علىٰ ضعفها.

ومما يؤكد ضعف هٰذه اللفظة ونكارتها أنه قد صح تسمية هٰذه الشجرة شجرة طوبىٰ في حديث عتبة بن عبد السلمي عند أحمد وابن حبان والطبراني، وقواه الحفاظ الضياء وابن كثير وابن حجر. وكذٰلك صحت تسميتها بطوبىٰ في حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد وابن جرير الطبري وابن حبان، وحسنه الألباني.

كما قال في طه: ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾ [طه: ١٢١]

۞ [ما جاء فيمن أكل من الشجرة أولًا]:

وكانت حواء أكلت من الشجرة قبل آدم، وهي التي حَدَتْهُ علىٰ أكلها(١) والله أعلم.

وعليه يُحمل الحديث الذي رواه البخاريُّ: حدثنا بشر بن محمد، حدثنا عبد الله، أنبأنا مَعْمَرٌ، عن هَمَّام بن مُنَبِّه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ نحوه: «**لولا بنو إسرائيل؛ لم يَخْنَزِ اللحمُ، ولولا حواءُ؛ لم تخنْ أنثى زوجَها**». تفرَّدَ به من هٰذا الوجه.

وأخرجاه في الصحيحين من حديث: عبد الرزاق، عن معمر، عن همَّام، عن أبي هريرة... به.

ورواه أحمد ومسلم: عن هارون بن معروف، عن ابن وهب(٢)، عن عمرو بن الحارث، عن أبي يونس، عن أبي هريرة... به(٣).

۞ [ما جاء في لباس آدم وحواء]:

وفي **كتاب التوراة التي بأيدي(٤) أهل الكتاب**: أنَّ الذي دلَّ حواء علىٰ الأكل من الشجرة هي الحيَّة، وكانت من أحسن الأشكال وأعظمها، فأكلت حواء عن قولِها وأطعمتْ آدمَ عليه السلام، وليس فيها ذِكْرٌ لإبليس؛ فعند ذٰلك انفتحت أعينُهما وعَلِما أنَّهما عُريانانِ، فوصلا من ورق التين وعَمِلا مآزرَ وفيها: أنهما كانا عُريانينِ. وكذا قال وَهُب بن مُنَبِّهٍ: كان لباسُهما نورًا علىٰ فرجِهِ وفرجِها(٥).

وهٰذا الذي في هٰذه التوراة التي بأيديهم غلطٌ منهم، وتحريفٌ وخطأٌ في التعريب؛ فإنَّ نقل الكلام من لغةٍ إلىٰ لغةٍ لا يتيسَّر(٦) لكلِّ أحدٍ، ولا سيَّما ممن لا يكاد يَعْرِفُ كلام العرب جيِّدًا، ولا يحيط علمًا بفهم كتابه أيضًا؛ فلهٰذا وقع في تعريبهم لها خطأٌ كثيرٌ لفظًا ومعنىٰ.

---

(١) يعني: دفعته إلىٰ ذٰلك وحثته عليه.

(٢) في جميع الأصول: «عن أبي وهب»! وهو خطأ ظاهر، والصواب ما أثبته.

(٣) رواه: البخاري (٦٠- أحاديث الأنبياء، ١- خلق آدم وذريته، ٦/ ٣٦٣/ ٣٣٣٠) بالسند الأول. ورواه: أحمد (٢/ ٣١٥)، والبخاري (٦٠- أحاديث الأنبياء، ٢٥- ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةً﴾، ٦/ ٤٣٠/ ٣٣٩٩)، ومسلم (١٧- الرضاع، ١٩- لولا حواء لم تخن أنثىٰ، ٢/ ١٠٩٢/ ١٤٧٠)؛ بالسند الثاني. ورواه: أحمد (٢/ ٣٤٩)، ومسلم (الموضع السابق)؛ بالسند الثالث.

(٤) في نسخة: «بين أيدي».

(٥) انظر ذٰلك في «العهد القديم» (سفر التكوين/ الأصحاح٣).

(٦) في نسخة: «لا يكاد يتيسر».

وقد دلَّ القرآن العظيم علىٰ أنَّه كان عليهما لباسٌ في قوله: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ﴾ [الأعراف: ٢٧]؛ فهٰذا لا يُرَدُّ لغيرِهِ من الكلام. والله تعالىٰ أعلم.

وقال ابن أبي حاتم(١): حدثنا علي بن الحسن بن إشْكاب(٢)، حدثنا علي بن عاصم، عن سعيد بن أبي عَروبة، عن قَتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله خَلَقَ آدمَ رجلًا طُوالًا كثير شعر الرأس كأنه نخلةٌ سحوق(٣)، فلما ذاق الشجرةَ؛ سقط عنه لِباسُهُ، فأول ما بدا منه عورتُهُ، فلمَّا نَظَرَ إلى عورتِهِ؛ جعل يشتدُّ في الجنة، فأخذت شَعْرَهُ شجرةٌ، فنازعَهَا، فناداه الرحمن ﷻ: يا آدم! مني تفرُّ؟! فلما سمع كلامَ الرحمن؛ قال: يا رب! لا؛ ولٰكن استحياءً»**.

وقال الثوري: عن ابن أبي ليلىٰ، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباسٍ: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]: ورق التين. وهٰذا إسنادٌ صحيحٌ إليه، وكأنه مأخوذٌ من أهل الكتاب، وظاهر الآية يقتضي أعمَّ من ذٰلك، وبتقدير تسليمه؛ فلا يضرُّ. والله تعالىٰ أعلم.

وروىٰ الحافظ ابن عساكر من طريق: محمد بن إسحاق، عن الحسن بن ذكوان، عن الحسن البصري، عن أبي بن كعب؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أباكم آدم كان كالنَّخْلة السَّحوق؛ ستِّينَ ذراعًا، كثير الشَّعر، موارَى العورة، فلما أصاب الخطيئةَ في الجنَّة؛ بدت له سوأتُهُ، فخرج من الجنة، فلقيتْه شجرةٌ، فأخذت بناصيتِهِ، فناداه ربُّه: أفرارًا مني يا آدم؟! قال: بل حياءً منك والله يا ربِّ مما جئتُ به»**(٤).

ثم رواه من طريق: سعيد بن أبي عَروبة، عن قَتادة، عن الحسن، عن عُتَيِّ ابن ضَمْرة(٥)، عن أبيّ بن كعب، عن النبي ﷺ... بنحوه(٦). وهٰذا أصح؛ فإن الحسن لم يدرِكْ أُبيًّا.

ثم أورده أيضًا من طريق: خَيْثَمَةَ بن سليمان الأطرابلسي، عن محمد بن عبد الوهاب

---

(١) في «تفسيره» (٥/ ١٤٥٣/ ٨٣٠٨). وسيأتي تخريجه والكلام في أسانيده في الصفحة التالية.

(٢) في جميع الأصول: «علي بن الحسن بن أسكاب»!! والصواب ما أثبته.

(٣) النخلة السحوق: الطويلة العالية.

(٤) وسيأتي تخريجه والكلام في أسانيده بعد قليل.

(٥) في جميع الأصول: «يحيىٰ بن ضمرة»!! والتصويب من مصادر التخريج.

(٦) وسيأتي تخريجه والكلام في أسانيده بعد قليل ص ٥٢.

أبي قِرصافة[1] العسقلاني، عن آدم بن أبي إياس، عن شيبان، عن قتادة، عن أنس؛ مرفوعًا... بنحوه[2].

۞ [ندم آدم وحواء واستغفارهما]:

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٢-٢٣]: وهٰذا اعترافٌ ورجوع إلىٰ الإنابة وتذلُّل وخضوعٌ واستكانةٌ وافتقارٌ إليه تعالىٰ في الساعة الراهنة، وهٰذا السِّرُّ ما سرىٰ في أحدٍ من ذُرِّيَّتِهِ؛ إلَّا كانت عاقبته إلىٰ خيرٍ في دُنياه وأخراه.

۞ [ما جاء في إخراج آدم من الجنة]:

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٤]: وهٰذا

---

(١) في جميع الأصول: «مرصافة»!! والتصويب من مصادر التخريج.

(٢) (صحيح موقوفًا ومرفوعًا). وقد اضطربت الروايات فيه وقفًا ورفعًا ووصلاً وانقطاعًا:

* فرواه: ابن سعد (١/ ١١)، والحاكم (٢/ ٥٤٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٥٤)؛ من طريق قتادة، عن الحسن، عن عتي، عن أبي... فذكره موقوفًا. وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا.

* ورواه: ابن سعد (١/ ١١) من طريق إسحاق بن الربيع، عن الحسن، عن أبي... فذكره موقوفًا. والحسن لم يسمع من أبيّ.

* ورواه: أحمد في «الزهد» (ص٦٣)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٨٧/ ٣٨٨)، والحاكم (١/ ٣٤٥)؛ من طريق قتادة، عن الحسن، عن أبيّ... فذكره مرفوعًا. وفيه انقطاع.

* ورواه: ابن سعد (١/ ١١)، والحاكم (٢/ ٢٦٢)، ومن طريقه ابن عساكر (٧/ ٤٠٥)؛ من طريق عبد الوهاب بن عطاء، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن عُتي، عن أبي... فذكره مرفوعًا. وهٰذا سند حسن، وقد صححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

* رواه: ابن عساكر (٧/ ٤٠٤-٤٠٥) من طريقين عن الحسن بن ذكوان وإبراهيم بن أبي يحيىٰ، عن الحسن، عن أبي... فذكره مرفوعًا. وهما ضعيفتان منقطعتان.

وعلىٰ هٰذا؛ فالحديث قد صح مرفوعًا وموقوفًا، والرفع زيادة ثقة؛ فلا بدَّ من الأخذ به، ولا سيما بوجود الشاهد المرفوع الذي رواه ابن عساكر في «التاريخ» (٧/ ٤٠٤) بالسند الذي ذكره الحافظ ابن كثير هنا، وهو سند نظيف، لولا محمد بن عبد الوهاب أبو قرصافة هٰذا، واسمه محمد بن عبد الوهاب بن موسىٰ القيسي: يروي عن آدم بن أبي إياس، وعنه محمد بن جابر المروزي وخيثمة بن سليمان، ولم أجد فيه جرحًا ولا تعديلًا؛ إلا أنه يبقىٰ صالحًا لتقوية الحديث مرفوعًا به. وأما الموقوفات؛ فلن تعارض المرفوع هنا، بل ستزيده قوة إن شاء الله. والحديث مرفوعًا به. وأما الموقوفات؛ فلن تعارض المرفوع هنا، بل ستزيده قوة إن شاء الله.

والحديث صححه الحاكم موقوفًا ومرفوعًا، ووافقه الذهبي. والله أعلم.

خطابٌ لآدم وحواء وإبليس- قيل: والحيَّة معهم- أُمروا أن يهبطوا من الجنة في حال كونِهِم متعادِين متحارِبين. وقد يُسْتَشْهَدُ لذِكْر الحيَّة معهما بما ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ: أنَّه أمر بقتل الحيَّاتِ، وقال: «ما سالَمْناهُنَّ منذْ حارَبْناهُنَّ»(١).

وقوله في سورة طه: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: ١٢٣]: هو أمرٌ لآدمَ وإبليس، واستتبعَ آدمُ حواءَ وإبليسُ الحيةَ. وقيل: هو أمرٌ لهم بصيغة التثنية، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنبياء: ٧٨]. والصحيح أنَّ هٰذا لمَّا كان الحاكم لا يحكم إلَّا بين اثنين مدَّعٍ ومدَّعًىٰ عليه؛ قال: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

وأما تكريره الإهباط في سورة البقرة في قوله: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٣٦-٣٩]؛ فقال بعض المفسِّرين: المراد بالإهباط الأول: الهبوط من الجنة إلىٰ السماء الدنيا، وبالثاني: من السماء الدُّنيا إلىٰ الأرض. وهٰذا ضعيف؛ لقوله في الأول: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٣٦]، فدلَّ علىٰ أنَّهم أهبطوا إلىٰ الأرض بالإهباط الأول والله أعلم. والصحيح: أنه كرَّره لفظًا وإن كان واحدًا، وناط مع كلِّ مرة حكمًا؛ فناط بالأول عداوتَهُم فيما بينهم، وبالثاني الاشتراطَ

(١) (حسن صحيح). رواه: أحمد (٢/ ٤٣٢ و٥٢١)، وأبو داوود (٣٥- الأدب، ١٦٢- قتل الحيات، ٢/ ٧٨٥/ ٥٢٤٨)؛ من طرق: عن ابن عجلان، عن أبيه، عن أبي هريرة مرفوعًا. ورواه: الحميدي (١١٥٦)، وأحمد (٢/ ٢٤٧)، وابن حبان (١٢/ ٤٦١/ ٥٦٤٤)؛ من طريق: ابن عجلان، عن بكير بن عبد الله، عن عجلان، عن أبي هريرة؛ مرفوعًا.

وكلا الإسنادين لا ينزل عن رتبة الحسن؛ فالظاهر أن ابن عجلان سمعه تارة من أبيه مباشرة وتارة بواسطة بكير. والله أعلم.

وله شاهد عند: أحمد (١/ ٢٣٠)، وأبي داوود (الموضع السابق، ٥٢٥٠)؛ من حديث ابن عباس بسند حسن. فالحديث صحيح بهٰذا الشاهد، وقد صححه ابن حبان، وقواه المصنف كما ترىٰ، وصححه الألباني.

عليهم أنَّ مَنْ تَبِعَ هداه الذي ينزِلُه عليهم بعد ذٰلك؛ فهو السعيد، ومَن خالَفَه؛ فهو الشقي. وهٰذا الأسلوبُ في الكلام له نظائرُ في القرآن الحكيم.

وروىٰ الحافظُ ابنُ عساكر: عن مجاهدٍ؛ قال: أمر الله مَلَكَيْنِ أن يُخْرِجا آدم وحوَّاء من جواره، فنزع جبريلُ التَّاجَ عن رأسه، وحلَّ ميكائيل الإكليل عن جبينِهِ، وتعلَّق به غصنٌ، فظنَّ آدمُ أنه قد عُوجِلَ بالعقوبةِ، فنكس رأسَه يقولُ: العفوَ! العفوَ! فقال الله: أفِرارًا مني؟! قال: بل حياءً منك يا سيدي[١]!

وقال الأوزاعيُّ: عن حسان (هو ابن عطية): مكث آدمُ في الجنة مئة عام (وفي رواية: ستين عامًا)، وبكىٰ علىٰ الجنة سبعين عامًا، وعلىٰ خطيئتِهِ سبعين عامًا، وعلىٰ ولدِهِ حين قُتِلَ أربعين عامًا. رواه ابنُ عساكر[٢].

وقال ابنُ أبي حاتم[٣]: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا عثمانُ بن أبي شيبة، حدثنا جريرٌ، عن سعيد، عن ابن عباس؛ قال: أُهْبِطَ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ أرض يُقال لها: دُحْنىٰ[٤]؛ بين مكة والطائف.

وعن الحسن؛ قال: أُهْبِطَ آدم بالهند، وحوَّاء بِجُدَّةَ، وإبليس بدَسْتْميسان[٥] من البصرة علىٰ أميال، وأهبطت الحيَّة بأصبهان. رواه ابن أبي حاتم أيضًا[٦].

وقال السُّدِّي: نزل آدم بالهندِ، ونزل معه بالحجرِ الأسود وبقبضةٍ من ورق الجنة، فبثَّه في الهند، فنبتت شجرةُ الطِّيب هناك.

وعن ابن عمر؛ قال: أُهْبِطَ آدم بالصَّفا، وحوَّاء بالمروة. رواه ابن أبي حاتم أيضًا[٧].

وقال عبد الرزاق[٨]: قال معمرٌ: أخبرني عوفٌ، عن قَسامة بن زهير، عن أبي موسىٰ

---

(١) رواه: أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١١٣)، وابن عساكر (٧/ ٤٠٩).

(٢) رواه: أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٧٧) (٦/ ٧٧)، وابن عساكر (٧/ ٤٠٩). وليس عندهما أن مدة مقامه في الجنة مئة سنة، وإنما المذكور أن مقامه بمكة كان مئة سنة!

(٣) في «التفسير» (١/ ١/ ٨٩/ ٣٩٤).

(٤) هي بالضم أو بالكسر، وبالحاء أو بالجيم، وبالمد أو بالقصر.

(٥) في جميع الأصول: «دستميان»! والتصويب من «القاموس» ومصادر التخريج.

(٦) في «التفسير» (١/ ٨٩/ ٣٩٥).

(٧) في «التفسير» (١/ ٨٨/ ٣٩٢).

(٨) في «التفسير» (١/ ٦٦/ ٤٢).

الأشعري؛ قال: إنَّ الله حين أهبط آدم من الجنة إلىٰ الأرض؛ علَّمه صنعة كلِّ شيء، وزوَّده من ثمار الجنة؛ فثِمارُكُم هٰذه من ثمار الجنة؛ غير أن هٰذه تتغيَّر وتلك لا تتغيَّر.

وقال الحاكم في «مستدركه»: أنبأنا أبو بكر بن بالَوَيْهِ، عن محمدِ بن أحمد بن النَّضر، عن معاوية بن عمرو، عن زائدة، عن عمار بن أبي معاوية البَجَلي، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس؛ قال: ما أُسْكِنَ آدمُ الجنة إلَّا ما بين صلاة العصر إلىٰ غروب الشمس. ثم قال: صحيحٌ علىٰ شرط الشيخين ولم يخرِّجاه[1].

وفي «صحيح مسلم»[2] من حديث: الزُّهري، عن الأعرج، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«خيرُ يوم طَلَعَتْ فيه الشمس يومُ الجمعة؛ فيه خُلِقَ آدم، وفيه أُدْخِلَ الجنة، وفيه أُخْرِجَ منها»**. وفي «الصحيح» من وجه آخر: **«وفيه تقوم الساعةُ»**.

وقال أحمد[3]: حدثنا محمد بن مصعب، حدثنا الأوزاعيُّ، عن أبي عمار، عن عبد الله بن فَرُّوخ، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ قال: **«خيرُ يوم طَلَعَتْ فيه الشمس يومُ الجمعة؛ فيه خُلِقَ آدم، وفيه أُدْخِلَ الجنة، وفيه أُخْرِجَ منها، وفيه تقومُ الساعة»**. علىٰ شرط مسلم.

فأمَّا الحديثُ الذي رواه ابن عساكر من طريق: أبي القاسم البغويِّ، حدثنا محمد بن جعفرٍ الوَرْكانيُّ، حدثنا سعيد بن ميسرة، عن أنس؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«هبطَ آدمُ وحواءُ عُرْيانَيْنِ جميعًا، عليهما ورقُ الجنة، فأصابه الحرُّ حتى قعد يبكي ويقول لها: يا حواءُ! قد آذانيَ الحرُّ»**. قال: **«فجاء جبريلُ بقطن، وأمَرَها أن تغزِلَ، وعلَّمَها، وأمر آدمَ بالحياكة، وعلَّمه أن ينسُجَ»**. وقال: **«كان آدمُ لم يجامعِ امرأتَهُ في الجنةِ حتى هَبَطَ منها للخطيئة التي أصابَتْهما بأكلِهِما من الشَّجرةِ»**. قال: **«وكان كلُّ واحد منهما ينام على حِدَةٍ؛ ينام أحدُهما في البطحاء والآخرُ من ناحيةٍ أخرى، حتى أتاه جبريلُ، فأمره أن يأتيَ أهلَه»**. قال: **«وعلَّمه كيف يأتيها، فلما أتاها؛ جاءه جبريلُ، فقال: كيف وجدتَ امرأتَكَ؟ قال: صالحةً»**[4]؛ فإنه حديثٌ غريب، ورفعه منكرٌ جدًّا، وقد يكون من

(١) ووافقه الذهبي في «التلخيص» (٢/ ٥٤٢)! وعمار بن أبي معاوية ما خرج له البخاري في «الصحيح» ولا في غيره.

(٢) (٧- الجمعة، ٥- فضل يوم الجمعة، ٢/ ٥٨٥/ ٨٥٤) باللفظ والزيادة.

(٣) (٢/ ٥٤٠) من هٰذا الوجه، ورواه أيضًا من عدة أوجه أخرىٰ.

(٤) (موضوع). رواه ابن عساكر في «التاريخ» (٧/ ٤١٣) من هٰذه الطريق، وقد علمت حالها من كلام الحافظ ابن كثير، وحسبك به.

كلام بعض السَّلف، وسعيدُ بن ميسرة هٰذا هو: أبو عمران البكريُّ البصريُّ: قال فيه البخاريُّ: منكر الحديث. وقال ابن حِبَّان: يروي الموضوعات. وقال ابن عديٍّ: مظلم الأمر.

۞ [ما جاء في توبة الله على آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ]:

وقوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧]: قيل: هي قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣]. روي هٰذا عن مجاهدٍ وسعيد بن جُبير وأبي العالية والربيع بن أنس والحسن وقَتادة ومحمد بن كَعْب وخالد بن مَعْدان وعطاء الخراسانيِّ وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علىُّ بن الحسين بن إشْكاب[١]، حدثنا علي بن عاصم، عن سعيد بن أبي عَروبة، عن قَتادة، عن الحسن، عن أُبيٍّ بن كَعْبٍ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ: أرأيت يا ربِّ إن تُبتُ ورَجَعْتُ؛ أعائدي إلى الجنة؟ قال: نعم. فذٰلك قوله:** ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾ [البقرة: ٣٧]»[٢]. وهٰذا غريب من هٰذا الوجه وفيه انقطاع.

وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد؛ قال: الكلماتُ: اللهمَّ! لا إلٰه إلَّا أنت، سبحانك وبحمدِك، ربِّ! إنِّي ظلمتُ نفسي؛ فاغفِرْ لي؛ إنك خير الغافرين. اللهمَّ! لا إلٰه إلا أنت، سبحانك وبحمدك، ربِّ! إني ظلمتُ نفسي؛ فارْحَمْني[٣]؛ إنك خير الراحمين. اللهمَّ! لا إلٰه إلا أنت، سبحانك وبحمدِكَ، ربِّ! إني ظلمتُ نفسي؛ فتُبْ عليَّ؛ إنك أنت التَّوَّابُ الرحيم.

وروىٰ الحاكم في «مستدركه» من طريق: سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾ [البقرة: ٣٧]؛ قال: قال آدم: يا ربِّ! ألم تخلُقْني بيدك؟ قيل له: بلىٰ. ونفختَ فيَّ من رُوحك؟ قيل له: بلىٰ. وعطستُ فقلتَ: يرحمُك الله، وسبقتْ رحمتُك غضَبَك؟ قيل له: بلىٰ. وكتبتَ عليَّ أن أعملَ هٰذا؟ قيل له: بلىٰ. قال: أفرأيتَ إن تبتُ؛ هل

---

(١) في جميع الأصول: «علي بن الحسن بن أسكاب»! والصواب ما أثبته.

(٢) (ضعيف). رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٩٠/ ٤٠٦). وسنده ضعيف: علي بن عاصم فيه ضعف، والحسن لم يسمع من أبي.
ورواه: الطبري في «التفسير» (١/ ٢٨١/ ٧٧٨)، وابن عساكر في «التاريخ» (٧/ ٤٣٥)؛ عن قتادة؛ قال: ذكر لنا أنه... بنحوه. والظاهر أنه تلقاه من الطريق المتقدمة نفسها.

(٣) في الأصول: «فاغفر لي». والتصويب من ابن جرير (١/ ٢٨٢/ ٧٨٨).

أنت راجعي إلىٰ الجنة؟ قال: نعم. ثم قال الحاكم: صحيحُ الإسناد ولم يخرجاه[(١)].

ورویٰ الحاكم أيضًا والبيهقيُّ وابن عساكر من طريق: عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن جده، عن عمر بن الخطاب؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لمَّا اقترفَ آدمُ الخطيئةَ؛ قال: يا ربِّ أسألك بحقِّ محمدٍ إلَّا غفرتَ لي. فقال الله: فكيفَ عرفت محمدًا ولم أخلُقه بعدُ؟ فقال: يا ربِّ! لأنَّك لمَّا خلقتني بيدِكَ، ونفختَ فيَّ من رُوحك؛ رفعتُ رأسي، فرأيت على قوائم العرش مكتوبًا: لا إلٰه إلَّا اللهُ محمدٌ رسولُ الله، فعلمتُ أنَّك لم تُضِفْ إلى اسمِكَ إلَّا أحبَّ الخَلْق إليك. فقال الله: صدقتَ يا آدمُ! إنَّه لأحبُّ الخَلْق إليَّ، وإذ سألتني بحقِّه؛ فقد غفرتُ لك، ولولا محمدٌ؛ ما خَلَقْتُك**»[(٢)]. قال البيهقي: تفرَّد به عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم من هٰذا الوجه، وهو ضعيف. والله أعلم.

وهٰذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢١-١٢٢].

۞ ذكر احتجاج آدم وموسى عليهما السلام:

قال البخاري[(٣)]: حدثنا قتيبة، حدثنا أيوب بن النَّجَّار، عن يحيىٰ بن أبي كَثير، عن أبي سَلَمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ قال: «**حاجَّ موسى آدمَ عليهما السلام، فقال له: أنت الذي**

---

(١) رواه: الطبري في «التفسير» (١/ ٢٨١/ ٧٧٦ و٧٧٧)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٩٠/ ٤٠٧)، والحاكم (٢/ ٥٤٥)، وابن عساكر في «التاريخ» (٧/ ٤٣٣)؛ موقوفًا علىٰ ابن عباس. وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٢) (موضوع). رواه الطبراني في «الصغير» (٤١٢/ ٩٩٤) و«الأوسط» (٧/ ٢٥٩/ ٦٤٩٨)، والحاكم (٢/ ٦١٥)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٤٨٨)، وابن عساكر في «التاريخ» (٧/ ٤٣٦)؛ من طريقين في «دلائل النبوة» (٥/ ٤٨٨)، وابن عساكر في «التاريخ» (٧/ ٤٣٦)؛ من طريقين عن عبد الرحمن بن زيد... به.

قال الطبراني: «لا يرویٰ عن عمر إلا بهٰذا الإسناد، تفرد به أحمد بن سعيد». وقال الهيثمي (٨/ ٢٥٦) عن سند الطبراني: «وفيه من لم أعرفهم». وقال الحاكم: «هٰذا حديث صحيح الإسناد، وهو أول حديث ذكرته لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هٰذا الكتاب». وتعقبه الذهبي فقال: «بل موضوع، وعبد الرحمن واه. رواه عبد الله بن مسلم الفهري - ولا أدري من ذا - عن إسماعيل بن سلمة عنه». وأعله شيخ الإسلام في «قاعدة جليلة» (١/ ٢٥٤- مجموع الفتاویٰ) وعاب علىٰ الحاكم روايته له، وضعفه البيهقي وأقره الحافظ ابن كثير كما ترىٰ، وأبطله الذهبي في «الميزان» وأقره الحافظ في «اللسان»، وقال الألباني في «الضعيفة» (١/ ٨٨/ ٢٥): «موضوع».

(٣) (٦٥- التفسير، ٢٠-طه، ٣- ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾، ٨/ ٤٣٤/ ٤٧٣٨).

أخرجتَ الناس بذنبِكَ من الجنَّة وأشقَيْتَهم؟! قال آدمُ: يا موسى! أنت الذي اصطفاكَ الله برسالاتِهِ وبكلامِهِ، أتلومُني على أمرٍ قد كَتبَه الله عليَّ قبلَ أنْ يَخْلُقَني (أو: قَدَّره عليَّ قبل أن يَخْلُقَني»). قال رسول الله ﷺ: «**فحجَّ آدمُ موسى**».

وقد رواه مسلم عن عمرٍو الناقدِ[١]، والنسائي عن محمد بن عبد الله بن يزيد[٢]؛ عن أيوبَ بن النَّجَّار[٣]... به. قال أبو مسعودٍ الدمشقيُّ: ولم يخرِّجا عنه في الصحيحين سواه.

وقد رواه أحمد: عن عبد الرازق، عن مَعْمر، عن هَمَّام، عن أبي هريرة[٤]. ورواه مسلمٌ: عن محمد بن رافع، عن عبد الرازق... به[٥].

وقال الإمام أحمد[٦]: حدثنا أبو كامل، حدثنا إبراهيم، حدثنا ابن شهاب[٧]، عن حُميد بن عبد الرحمٰن، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**احتجَّ آدم وموسى، فقال له موسى: أنت آدمُ الذي أخرَجَتْك خطيئَتُك من الجنَّةِ؟! فقال له آدمُ: وأنت موسى الذي اصطفاك اللهُ برسالاتِهِ وبكلامِهِ تلومني على أمر قُدِّرَ عليَّ قبل أن أُخْلَقَ؟!**». قال رسول الله ﷺ: «**فحَجَّ آدمُ موسى**»؛ مرتين.

قلت: وقد روىٰ هٰذا الحديث البخاريُّ ومسلمٌ[٨] من حديث: الزُّهريِّ، عن حُمَيْد بن عبد الرحمٰن، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ... بنحوه.

وقال الإمام أحمد[٩]: حدثنا معاوية بن عمرٍو، حدثنا زائدة، عن الأعمش، عن أبي صالحٍ، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ قال: «**احتجَّ آدمُ وموسى، فقال موسى: يا آدمُ! أنت الذي خَلَقَكَ اللهُ بيده، ونفخ فيك من رُوحِهِ؛ أغْوَيْتَ الناس وأخرجْتَهم من الجنة؟!**».

---

(١) (٤٦- القدر، ٢- حجاج آدم وموسىٰ، ٤/ ٢٠٤٤/ ٢٦٥٢).

(٢) في «الكبرىٰ» (١١/ ٦٥/ ١٥٣٦١- تحفة).

(٣) ورواه من طريقه أيضًا الإمام أحمد (٢/ ٢٨٧).

(٤) في «المسند» (٢/ ٣١٤).

(٥) الموضع السابق نفسه.

(٦) في «المسند» (٢/ ٢٦٤).

(٧) في جميع الأصول: «أبو شهاب»! وهو خطأ ظاهر.

(٨) البخاري (٦٠- أحاديث الأنبياء، ٣١- وفاة موسىٰ، ٦/ ٤٤١/ ٣٤٠٩ و٧٥١٥)، ومسلم (٤٦- القدر، ٢- حجاج آدم وموسىٰ، ٤/ ٢٠٤٤/ ٢٦٥٢).

(٩) في «المسند» ٢/ ٣٩٨).

قال: «**فقال آدمُ: وأنت موسى الذي اصطفاك اللهُ بكلامِهِ؛ تلومُني على عملٍ أعملُهُ، كَتَبَهُ اللهُ عليَّ قبل أن يَخْلُقَ السماواتِ والأرضَ؟!**». قال: «**فحجَّ آدمُ موسى**».

وقد رواه الترمذيُّ والنسائيُّ جميعًا[(١)]: عن يحيىٰ بن حَبيب بن عربيٍّ، عن معتَمِر[(٢)] بن سليمان، عن أبيه، عن الأعمش... به. قال الترمذي: وهو غريبٌ من حديث سليمان التيميِّ عن الأعمش. قال: وقد رواه بعضُهم: عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد.

قلت: هكذا رواه الحافظ أبو بكرٍ البزَّارُ في «مسنده»: عن محمد بن مثنىٰ، عن معاذ بن أسد، عن الفضل بن موسىٰ، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد[(٣)].

ورواه البزار أيضًا[(٤)]: حدثنا عمرو بن عليٍّ الفلاَّس، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة (أو: أبي سعيد)، عن النبي ﷺ... فذكر نحوه.

وقال أحمد[(٥)]: حدثنا سفيان، عن عمرو، سمع طاووسًا، سمع أبا هريرة يقول: قال رسولُ الله ﷺ: «**احتجَّ آدم وموسى، فقال موسى: يا آدمُ! أنت أبونا؛ خيَّبْتَنا وأخرجْتَنا من الجنة! فقال له آدمُ: يا موسى! أنت الذي اصطفاكَ اللهُ بكلامِهِ** (وقال مرة: **برسالتِهِ**)، **وخطَّ لك بيدِهِ، أتلومني على أمرٍ قدَّره اللهُ عليَّ قبل أن يَخْلُقَني بأربعين سنة؟!**». قال: «**حجَّ آدمُ موسى، حجَّ آدمُ موسى، حجَّ آدمُ موسى**».

وهكذا رواه البخاريُّ[(٦)] عن علي بن المَدِيني، عن سفيان؛ قال: حَفِظْناه من عمرو، عن طاووس؛ قال سمعتُ أبا هريرة، عن النبي ﷺ؛ قال: «**احتجَّ آدمُ وموسى، فقال موسى: يا آدمُ! أنت أبونا؛ خيَّبْتَنا وأخْرَجْتَنا من الجنة. فقال له آدمُ: يا موسى! اصطفاك الله بكلامِهِ، وخطَّ لك**

---

(١) الترمذي (٣٣- القدر، ٢- حجاج آدم وموسىٰ، ٤/ ٤٤٤/ ٣١٣٤)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٩/ ٣٥٥/ ١٢٣٨٩- تحفة).

(٢) في جميع الأصول: «عن يحيىٰ بن حبيب بن عدي عن معمر». والصواب ما أثبته من مصادر التخريج.

(٣) (صحيح). رواه: البزار (٢/ ١٤٩/ ١٥٩٦- مختصر الزوائد)، وأبو يعلىٰ (٢/ ٤١٤/ ١٢٠٤)؛ من هٰذه الطريق موقوفًا علىٰ أبي سعيد الخدري، وله حكم الرفع، وقد جاء مرفوعًا من طرق أخرىٰ.

(٤) (٢/ ١٤٨/ ١٥٩٥- مختصر الزوائد).

(٥) في «المسند» (٢/ ٢٤٨).

(٦) (٨٢- القدر، ١١- تحاج آدم وموسىٰ عند الله، ١١/ ٥٠٥/ ٦٦١٤).

بيدِهِ، أتلومُني على أمرٍ قدَّره اللهُ عليَّ قبل أن يَخْلُقَني بأربعين سنة؟! فحجَّ آدمُ موسى، فحجَّ آدمُ موسى، فحجَّ آدمُ موسى»؛ هكذا ثلاثًا.

قال سفيان: حدثنا أبو الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ... مثلَهُ.

وقد رواه الجماعةُ إلَّا ابنَ ماجه من عشر طرق: عن سفيان بن عُيَينة، عن عمرو بن دينار، عن عبد الله بن طاووس، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ... بنحوه[1].

وقال أحمد[2]: حدثنا عبد الرحمٰن، حدثنا حمَّادٌ، عن عمار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ قال: «**لقي آدمُ موسى، فقال: أنت آدمُ الذي خَلَقَكَ الله بيده، وأَسْجَدَ لك ملائكتَهُ، وأسكنَكَ الجنة؛ ثم فعلتَ ما فعلت؟! فقال: أنت موسى الذي كلَّمك الله، واصطفاكَ برسالتِهِ، وأنزل عليكَ التوراة، أنا أقدمُ أم الذِّكْرُ؟ قال: لا؛ بل الذِّكْر. فحج آدمُ موسى**».

قال أحمد[3]: وحدثنا عفانُ، حدثنا حمادٌ: عن عمار بن أبي عمار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. وحميد، عن الحسن، عن رجل (قال حماد: أظنُّه جندبَ بنَ عبد الله البجليَّ) عن النبيِّ ﷺ؛ قال: «**لقي آدمُ موسى...**» فذكر معناه. تفرد به أحمد من هٰذا الوجه.

---

(١) كذا في جميع الاصول!! وقد وقع في هٰذه الفقرة خطأ من وجهين:

فأولهما: أن ابن ماجه قد روىٰ الحديث من الطريق نفسها، فالصواب أن يقال: رواه الجماعة إلا الترمذي؛ لأنه وحده الذي لم يروه من هٰذه الطريق.

وثانيهما: أن عبد الله بن طاووس زيادة لا محل لها في هٰذا الشند؛ فالجماعة رووه عن سفيان، عن عمرو، عن طاووس، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. وكأن الحافظ رَحِمَهُ اللهُ قد نظر لهٰذا في «تحفة الأشراف» (١٠/ ١٢٢/ ١٣٥٢٩)؛ فقد وقع فيه سهوًا: «عن سفيان، عن عمرو، عن ابن طاووس، به»؛ فزاد «عبد الله» للبيان، فوقع المحظور.

وقد رواه البخاري (٨٢- القدر، ١١- حجاج آدم وموسىٰ، ١١/ ٥٠٥/ ٦٦١٤) عن علي بن المديني، ومسلم (٤٦- القدر، ٢- حجاج آدم وموسىٰ، ٤/ ٢٠٤٢/ ٢٦٥٢) عن محمد بن حاتم وإبراهيم بن دينار وابن أبي عمر المكي وأحمد بن عبدة الضبي، وابن ماجه (المقدمة، ١٠- القدر، ١/ ٣١/ ٨٠) عن هشام بن عمار ويعقوب بن حميد بن كاسب، وأبو داوود (٣٤- السنة، ١٦- القدر، ٢/ ٦٣٨/ ٤٧٠١) عن مسدد وأحمد بن صالح، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٠/ ١٢٢/ ١٣٥٢٩- تحفة) عن محمد بن عبد الله بن يزيد؛ عشرتهم عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن طاووس، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ.

(٢) في «المسند» (٢/ ٤٦٤).

(٣) في «المسند» (٢/ ٤٦٤). وانظر أيضًا ما سيأتي (ص٦٣).

وقال أحمدُ[١]: حدثنا حسينٌ، حدثنا جريرٌ (هو: ابن حازمٍ)، عن محمد (هو: ابن سِيرين)، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقي آدمُ موسى، فقال: أنت آدمُ الذي خَلَقَكَ اللهُ بيده، وأسكنَكَ جنَّته، وأسجد لك ملائكَتَهُ، ثم صنعتَ ما صنعتَ؟! قال آدمُ لموسى: أنت الذي كلَّمه الله، وأنزل عليه التوراة؟ قال: نعم. قال: فهل تَجِدُهُ مكتوبًا عليَّ قبل أن أُخْلَقَ؟ قال: نعم**». قال: «**فحجَّ آدمُ موسى، فحجَّ آدمُ موسى**».

وكذا رواه: حماد بن زيد، عن أيوب وهشام، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة... رفعه. وكذا رواه: علي بن عاصم، عن خالد وهشام، عن محمد بن سيرين. وهٰذا علىٰ شرطهما من هٰذه الوجوه[٢].

وقال ابن أبي حاتم[٣]: حدثنا يونس بن عبد الأعلىٰ، أنبأنا ابن وَهْب، أخبرني أنس بن عِياض، عن الحارث بن أبي ذُباب، عن يزيد بن هُرْمُز، سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «**احتجَّ آدمُ وموسى عند ربِّهما، فحجَّ آدمُ موسى، قال موسى: أنت الذي خلقَكَ اللهُ بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكتَهُ، وأسكنك جنَّته، ثم أهبطتَ الناس إلى الأرض بخطيئَتِكَ؟! قال آدمُ: أنت موسى الذي اصطفاكَ الله برسالتِهِ وكلامِهِ، وأعطاك الألواحَ فيها تِبْيانُ كلِّ شيء، وقرَّبَكَ نجيًّا؟! فبكم وجدتَ اللهَ كتب التوراة [قبل أن أُخْلَقَ]؟ قال موسى: بأربعينَ عامًا. قال آدمُ: فهل وجدتَ فيها: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ [طه: ١٢١]؟ قال: نعم. قال: أفتلومُني على أن عَمِلْتُ عملًا كتبَ الله عليَّ أن أعملَهُ قبل أن يخلُقَني بأربعين سنة؟!**». قال: قالَ رسول الله ﷺ: «**فحجَّ آدمُ موسى**».

قال الحارث: وحدثني عبد الرحمٰن بن هُرْمُز بذٰلك، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ.

وقد رواه مسلمٌ[٤]: عن إسحاق بن موسىٰ الأنصاري، عن أنس بن عِياض، عن الحارث بن عبد الرحمٰن بن أبي ذُباب، عن يزيد بن هُرْمُز والأعرج، كلاهما عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ... بنحوه.

(١) في «المسند» (٢/ ٣٩٢).

(٢) وقد رواها ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٧/ ٤٤٩).

(٣) لم أجده في مظانه من «التفسير».

(٤) (الموضع السابق، ٤/ ٢٠٤٣/ ٢٦٥٢).

وقال أحمد(١): حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن الزهريِّ، عن أبي سَلَمة، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«احتجَّ آدمُ وموسى، فقال موسى لآدمَ: يا آدمُ! أنت الذي أدخلتَ ذرِّيَّتك النارَ؟! فقال آدمُ: يا موسى! اصطفاك الله برسالته وبكلامه، وأنزل عليك التوراةَ؛ فهل وجدتَ أن أُهْبَطَ؟ قال: نعم»**. قال: «**فحجَّه آدمُ**». وهٰذا علىٰ شرطهما، ولم يخرجاه من هٰذا الوجه، وفي قوله: «**أدخلتَ ذُرِّيَّتك النار**»: نكارة.

فهٰذه طرق هٰذا الحديث عن أبي هريرة، رواه عنه: حُمَيْد بن عبد الرحمٰن، وذَكْوان أبو صالح السَّمَّان، وطاووس بن كَيْسان، وعبد الرحمٰن بن هُرْمُز الأعرجُ، وعمار بن أبي عمار، ومحمد بن سِيرينَ، وهمَّامُ بن منبِّهٍ، ويزيد بن هُرْمُز، وأبو سلمة بن عبد الرحمٰن.

وقد رواه الحافظ أبو يعلىٰ المَوْصلي في «مسنده» من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: حدثنا الحارثُ بن مِسْكين المصري، حدثنا عبدُالله بن وَهْب، أخبرني هشامُ بن سعدٍ، عن زيد بن أسلمَ، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ؛ قال: **«قال موسى عليه السلام: يا ربِّ! أرِنا آدمَ الذي أخْرَجَنا ونفسَه من الجنة. فأراه آدمَ عليه السلام، فقال: أنت آدمُ؟ فقال له آدمُ: نعم. فقال: أنت الذي نَفَخَ الله فيك من رُوحِهِ، وأسجد لك ملائِكتَهُ، وعلَّمَك الأسماءَ كلَّها؟ قال: نعم. قال: فما حَمَلَكَ على أن أخرَجْتَنا ونفسَك من الجنة؟! فقال له آدمُ: من أنت؟ قال أنا موسى. قال: أنت موسى نبيُّ بني إسرائيل؟ أنت الذي كلَّمك اللهُ من وراء الحجاب فلم يجعلْ بينَك وبينَه رسولًا من خلقِهِ؟ قال: نعم. قال: تلومُني على أمرٍ قد سَبَقَ من الله عز وجل القضاءُ به قبلُ؟!»**. قال رسولُ الله ﷺ: «**فحجَّ آدمُ موسى، فحجَّ آدمُ موسى**»(٢).

ورواه أبو داوود، عن أحمد بن صالح المصري، عن ابن وهب... به.

---

(١) في «المسند» (٢/ ٢٦٨).

(٢) (**حسن صحيح**). رواه: أبو داوود (٣٤- السنة، ١٦- القدر، ٢/ ٦٣٨/ ٤٧٠٢)، وأبو يعلىٰ في «المسند» (١/ ٢٠٩/ ٢٤٣)؛ من طريق ابن وهب... به. وسنده صالح في الشواهد من أجل هشام بن سعد؛ فقد قال الحافظ في «التقريب»: «صدوق له أوهام»؛ فلا أقل من أن يكون صالحًا في الشواهد.

لكن له طريق أخرىٰ عند أبي يعلىٰ (١/ ٢١١/ ٢٤٤)، وهي التي ذكرها الحافظ ابن كثير بعده. وسندها لا بأس به من أجل الرديني؛ فهو معروف برواية ثلاثة من الثقات عنه، وقد ذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا. فالحديث حسن بمجموع طريقيه، صحيح بشواهده المتقدمة.

قال أبو يعلىٰ: وحدثنا محمد بن المثنَّىٰ، حدثنا عبد الملك بن الصَّبَّاح المِسْمَعيُّ، حدثنا عمرانُ، عن الرُّدَيْنيِّ بن أبي مِجْلَز[1]، عن يحيىٰ بن يَعْمَر، عن ابن عمر، عن عمر (قال أبو محمد: أكبر ظنِّي أنه رفعه)؛ قال: «**التقى آدمُ وموسى، فقال موسى لآدمَ: أنت أبو البشر، أسكنك الله جنَّته، وأسجدَ لك ملائكتَهُ. قال آدمُ: يا موسى! أما تجده عليَّ مكتوبًا؟!**». قال: «فحجَّ آدمُ موسىٰ، فحجَّ آدمُ موسىٰ». وهٰذا الإسناد أيضًا لا بأس به. والله أعلم.

وقد تقدَّم: روايةُ الفضل بن موسىٰ لهٰذا الحديث: عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد[2]. وروايةُ الإمام أحمد له: عن عفان، عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن، عن رجل (قال حماد: أظنُّه جُنْدُبَ بن عبد الله البَجَلِيَّ)، عن النبي ﷺ: «**لقي آدم موسى...**» فذكر معناه[3].

۞ [مذاهب الناس في حديث احتجاج آدم وموسى]:

وقد اختلفت مسالكُ الناس في هٰذا الحديث:

فردَّه قومٌ من القدريَّة لما تضمَّن من إثبات القَدَر السَّابق.

واحتجَّ به قومٌ من الجبريَّة، وهو ظاهرٌ لهم بادي الرأي؛ حيث قال: «فحجَّ آدمُ موسىٰ»؛ لما احتجَّ عليه بتقديم كتابِهِ. وسيأتي الجوابُ عن هٰذا.

وقال آخرونَ: إنَّما حجَّه لأنَّه لامَهُ علىٰ ذنبٍ قد تاب منه، والتائبُ من الذنبِ كمَن لا ذنبَ له. وقيل: إنما حجَّه لأنَّه أكبرُ منه وأقدم. وقيل: لأنه أبوه. وقيل: لأنهما في شريعتين متغايرتين. وقيل: لأنهما في دارِ البرزخ؛ وقد انقطع التكليفُ فيما يزعُمون.

والتحقيقُ: أنَّ هٰذا الحديث رُوِيَ بألفاظ كثيرة، بعضُها مرويٌّ بالمعنىٰ، وفيه نظرٌ، ومدارُ معظمها في الصحيحين وغيرهما علىٰ أنه لامه علىٰ إخراجه نفسَه وذرِّيَّته من الجنة، فقال له آدمُ: أنا لم أخرِجْكم، وإنما أخرَجَكُم الذي رتَّب الإخراج علىٰ أكلي من الشجرة، والذي رتَّب ذٰلك وقدَّره وكتبه قبل أن أُخلَقَ هو اللهُ ﷻ؛ فأنت تلومُني علىٰ أمرٍ ليس له نسبةٌ إليَّ أكثر

---

(١) في جميع الأصول: «عن الرديني عن أبي مجلز»! والصواب ما أثبته.

(٢) (صحيح). وقد تقدم (ص٥٨).

(٣) (حسن). وقد تقدم (ص٦٠)، وفيه عنعنة الحسن البصري، ولكنه يتقوىٰ بشواهده عن أبي هريرة وأبي سعيد وعمر رضي الله عنهم.

من أني نُهيتُ عن الأكل من الشجرة فأكلتُ منها، وكونُ الإخراج مترتِّبًا علىٰ ذٰلك ليس من فعلي؛ فأنا لم أخرِجْكم ولا نفسي من الجنَّة، وإنَّما كان هٰذا من قَدَرِ الله وصنعِهِ، وله الحكمةُ في ذٰلك. فلهٰذا حجَّ آدمُ موسىٰ.

ومن كذب بهٰذا الحديث؛ فمعاندٌ؛ لأنَّه متواترٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه، وناهيك به عدالةً وحفظًا وإتقانًا، ثم هو مرويٌّ عن غيره من الصَّحابة كما ذَكَرْنا.

ومن تأوَّله بتلك التأويلات المذكورة آنفًا؛ فهو بعيدٌ من اللفظ والمعنىٰ، وما فيهم مَن هو أقوىٰ مسلكًا من الجبريَّة، وفيما قالوه نظرٌ من وجوهٍ:

أحدُها: أنَّ موسىٰ عليه السلام لا يلومُ علىٰ أمرٍ قد تاب عنه فاعِلُه.

الثاني: أنَّه قد قتل نفسًا لم يؤمَرْ بقَتْلِها، وقد سأل اللهَ في ذٰلك بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ [القصص: ١٦].

الثالث: أنَّه لو كان الجوابُ عن اللوم علىٰ الذنب بالقَدَر المتقدِّم كتابتُهُ علىٰ العبد؛ لانفتح هٰذا لكلِّ مَن لِيم علىٰ أمرٍ قد فعله، فيحتجُّ بالقدر السابق، فينسدُّ باب القِصاص والحدود. ولو كان القَدَرُ حُجَّةً؛ لاحتجَّ به كلُّ أحد علىٰ الأمر الذي ارتكبه في الأمور الكبار والصغار، وهٰذا يُفضي إلىٰ لوازم فظيعة!

فلهٰذا قالَ من قالَ من العلماء(١) بأنَّ جوابَ آدم إنَّما كان احتجاجًا بالقدر علىٰ المصيبةِ لا المعصيةِ. والله تعالىٰ أعلم.

۞ ذكر الأحاديث الواردة في خلق آدم عليه السلام:

قال الإمام أحمدُ: حدثنا يحيىٰ ومحمدُ بن جعفرٍ، حدَّثنا عوفٌ، حدثني قَسَامَةُ بنُ زهير، عن أبي موسىٰ، عن النبي ﷺ؛ قال: «**إن الله خَلَقَ آدم من قبضةٍ قَبَضَها من جميع الأرض، فجاء بنو آدمَ على قَدْرِ الأرض، فجاء منهم الأبيضُ والأحمرُ والأسودُ وبين ذٰلك، والخبيثُ والطيِّبُ والسهلُ والحَزْنُ وبين ذٰلك**»(٢).

---

(١) ومنهم شيخا الإسلام ابن تيمية وابن القيم قدس الله روحهما، وكلام الحافظ ابن كثير وتحقيقه الذي تقدم في معنىٰ الحديث خارجٌ من المشكاة نفسها، ولا يختلف عند التدقيق عن كلاهما. والله أعلم.

(٢) (صحيح). رواه: ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٨)، وأحمد (٤/ ٤٠٠ بالإسناد الأول، ٤٠٦ بالإسنادين معًا)، =

ورواه أيضًا عن: هَوْذَة، عن عَوْف، عن قَسَامَةَ بن زهير، سمعت الأشعريَّ؛ قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ الله ﷻ خَلَقَ آدمَ من قبضةٍ قَبَضَها من جميع الأرض، فجاء بنو آدمَ على قَدْرِ الأرض، فجاء منهم الأبيضُ والأحمرُ والأسودُ وبين ذٰلك، والسهلُ والحَزْنُ وبين ذٰلك، والخبيثُ والطيِّبُ وبين ذٰلك**»(١).

وكذا رواه أبو داوود والترمذيُّ وابن حِبان في «صحيحه» من حديث: عوف بن أبي جميلة الأعرابي، عن قَسَامَةَ بن زهير المازنيِّ البصريِّ، عن أبي موسىٰ عبد الله بن قيس الأشعريِّ، عن النبيِّ ﷺ... بنحوه. وقال الترمذي: حسن صحيح(٢).

وقد ذَكَرَ السُّدِّيُّ: عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعودٍ، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ؛ قالوا: فبعث الله ﷻ جبريلَ في الأرض ليأتِيَهُ بطينٍ منها، فقالت الأرضُ: أعوذُ بالله أن تَنْقُصَ منِّي أو تَشينَني! فرجعَ، ولم يأخذْ، وقال: ربِّ! إنَّها عاذتْ بك فأعَذْتُها. فبعثَ ميكائيلَ، فعاذتْ منه، فأعاذَها، فرجعَ، فقالَ كما قال جبريلُ. فبعثَ مَلَكَ الموت، فعاذتْ منه، فقال: وأنا أعوذُ بالله أن أرجعَ ولم أنفِّذْ أمرَهُ. فأخذ من وجه الأرض، وخَلَطَ، ولم يأخذْ من مكانٍ واحدٍ، وأخذ من تربةٍ بيضاء وحمراء وسوداء، فلذٰلك خرج بنو آدم مختلفينَ. فصَعِدَ به. فَبَلَّ الترابَ حتىٰ عاد طينًا لازبًا (واللَّازِبُ: هو الذي يلزَقُ بعضُه ببعض)، ثم قال للملائكةِ: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢﴾ [ص: ٧١-٧٢]. فخلقه الله بيدِهِ لئلَّا يتكبَّر إبليس عنه، فخلقَه بشرًا، فكان جسدًا من طين أربعين سنةً من مقدار يوم الجمعة، فمرَّت به الملائكةُ، ففزِعوا منه لمَّا رَأَوْه، وكان أشدَّهم منه فزعًا إبليسُ، فكان

= وأبو داوود (٣٤- السنة، ١٦- القدر، ٢/ ٦٣٤/ ٤٦٩٣)، والترمذي (٤٨- تفسير القرآن، ٣- ومن سورة البقرة، ٥/ ٢٠٤/ ٢٩٥٥)، وابن حبان ١٤/ ٢٩/ ٦١٦٠ و٦١٨١)، والحاكم (٢/ ٢٦١)؛ من طرق عن عوف... به. وسنده صحيح. وقد صححه الترمذي وابن حبان والحاكم والذهبي والألباني.

(١) (صحيح). رواه: ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٨)، وأحمد (٤/ ٤٠٠ بالإسناد الأول، ٤٠٦ بالإسنادين معًا)، وأبو داوود (٣٤- السنة، ١٦- القدر، ٢/ ٦٣٤/ ٤٦٩٣)، والترمذي (٤٨- تفسير القرآن، ٣- ومن سورة البقرة، ٥/ ٢٠٤/ ٢٩٥٥)، وابن حبان ١٤/ ٢٩/ ٦١٦٠ و٦١٨١)، والحاكم (٢/ ٢٦١)؛ من طرق عن عوف... به. وسنده صحيح. وقد صححه الترمذي وابن حبان والحاكم والذهبي والألباني.

(٢) تقدم تخريجه في الحاشية السابقة.

يمرُّ به فيضرِبُه فيصوِّتُ الجسدُ كما يصوِّتُ الفخَّارُ يكون له صلصلةً؛ فذٰلك حين يقولُ: ﴿مِن صَلْصَٰلٖ كَٱلْفَخَّارِ ١٤﴾ [الرحمن: ١٤]، ويقولُ: لأمرٍ ما خُلِقْتَ! ودخلَ من فيهِ وخَرَجَ من دُبُرِه، وقال للملائكةِ: لا ترهبوا من هٰذا؛ فإنَّ ربَّكم صمدٌ وهٰذا أجوفُ، لئن سُلِّطْتُ عليه؛ لأهْلِكَنَّهُ. فلما بلغ الحينَ الذي يريدُ الله ﷻ أن ينفخَ فيه الرُّوح؛ قال للملائكةِ: إذا نفختُ فيه من روحي؛ فاسجُدوا له. فلمَّا نَفَخَ فيه الرُّوحَ، فدخل الرُّوحُ في رأسِهِ؛ عَطَسَ، فقالتِ الملائكةُ: قلِ: الحمدُ للهِ. فقال: الحمدُ للهِ. فقال له اللهُ: رَحِمَكَ ربُّك. فلمَّا دخلتِ الرُّوح في عينيه؛ نظر إلىٰ ثمار الجنةِ، فلما دخلتِ الرُّوح في جَوْفِهِ اشتهىٰ الطعام، فوثَبَ قبل أن تبلغَ الرُّوح إلىٰ رجليه عَجْلانَ إلىٰ ثمار الجنة، وذٰلك حين يقولُ الله تعالىٰ: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٧٤﴾ [الحجر: ٣٠-٣١]... وذَكَرَ تمام القصة[١].

ولبعض هٰذا السياق شاهدٌ من الأحاديث، وإن كان كثيرٌ منه متلقًّىٰ من الإسرائيليات:

فقال الإمام أحمدُ: حدثنا عبدُالصمد، حدثنا حمَّادٌ، عن ثابت، عن أنس: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**لما خَلَقَ اللهُ آدمَ؛ تَرَكَهُ ما شاء أن يَدَعَهُ، فجعل إبليسُ يُطيفُ به، فلمَّا رآه أجوفَ؛ عَرَفَ أنَّه خَلْقٌ لا يتمالكُ**»[٢].

وقال ابن حِبَّان في «صحيحه»: حدَّثنا الحسنُ بنُ سفيانَ، حدثنا هُدْبَةُ بن خالد، حدثنا حمَّاد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: «**لمَّا نُفِخَ في آدمَ، فبلغَ الرُّوحُ رأسَهُ؛ عَطَسَ، فقالَ: الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ. فقال لهُ ﷻ: يَرْحَمُكَ اللهُ**»[٣].

وقال الحافظ أبو بكرٍ البزَّارُ: حدثنا يحيىٰ بن محمد بن السَّكَن، حدثنا حَبَّانُ بن هلال، حدثنا مبارك بن فَضالة، عن عبيدالله، عن خُبَيْب، عن حفصٍ (هو ابنُ عاصم بن عُبيدالله بن عُمر بن الخطَّاب)، عن أبي هريرة رفعه؛ قال: «**لما خَلَقَ الله آدمَ؛ عَطَسَ، فقال: الحمدُ لله.**

(١) رواها ابن جرير في «التفسير» (١/ ٢٤٠/ ٦٠٧).

(٢) رواه: أحمد (٣/ ١٥٢)، ومسلم (٤٥- البر والصلة، ٣١- خلق الإنسان خلقًا لا يتمالك، ٤/ ٢٠١٦/ ٢٦١١)؛ من طريقين عن حماد بن سلمة... به.

(٣) (**صحيح موقوفًا ومرفوعًا**). رواه ابن حبان (١٤/ ٣٧/ ٦١٦٥) بهٰذا السند، وهو صحيح علىٰ شرط مسلم. ورواه الحاكم (٤/ ٢٦٣) موقوفًا، وصححه، ووافقه الذهبي والألباني. ومعلومٌ أن الرفع زيادة ثقة يتعين القول بها، ولا سيما أن مثله لا يقال من جهة الرأي.

فقال له ربُّه: رَحِمَكَ ربُّك يا آدمُ»[١]. وهٰذا الإسناد لا بأس به ولم يخرِّجوه.

وقال عمرُ بن عبد العزيزِ: لما أُمِرَتِ الملائكة بالسُّجود؛ كان أولَ مَن سَجَدَ منهم إسرافيلُ، فأثابه اللهُ أن كَتَبَ القرآنَ في جبهتِهِ. رواه ابن عساكر[٢].

وقال الحافظ أبو يعلىٰ: حدَّثنا عقبةُ بن مُكْرَم، حدثنا عمرو بن محمد، عن إسماعيل بن رافع، عن المَقْبُرِيِّ، عن أبي هريرة: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ اللهَ خَلَقَ آدم من ترابٍ، ثم جَعَلَهُ طينًا، ثم تَرَكَهُ، حتى إذا كان حمأً مسنونًا؛ خَلَقَهُ وصوَّره، ثم تركه، حتى إذا كان صَلْصالًا كالفخَّارِ». قال: «فكان إبليسُ يمرُّ به فيقولُ: لقد خُلِقْتَ لأمرٍ عظيم! ثم نَفَخَ اللهُ فيه من رُوحِهِ، فكان أولَ ما جرى فيه الروحُ بصرُهُ وخياشيمُهُ، فعَطَسَ، فلَقَّاهُ اللهُ حَمْدَ ربِّه[٣]، فقال اللهُ: يرحمُك ربُّك. ثم قالَ الله: يا آدمُ! اذهبْ إلى هؤلاء النفرِ، فقُل لهمُ: [السلامُ عليكم]، فانظرْ ماذا يقولونَ؟ فجاءَ، فسلَّمَ عليهم، فقالوا: وعليك السلامُ ورحمةُ الله وبركاتُه. فقال: يا آدمُ! هٰذا تحيَّتُك وتحيَّةُ ذُرِّيَّتك. قال يا ربِّ! وما ذُرِّيَّتي؟ قال: اخترْ يدي يا آدمُ! قال: أختارُ يمينَ ربِّي، وكلتا يَدَيْ ربِّي يمينٌ. فبسطَ كفَّه؛ فإذا من هو كائنٌ من ذُرِّيَّتِهِ في كفِّ الرحمن، فإذا رجالٌ منهم [على] أفواههم النورُ، وإذا رجل يُعْجِبُ آدمَ نورُهُ؛ قال: يا ربِّ! من هٰذا؟ قال ابنُك داوودُ. قال: يا ربِّ! فكم جعلتَ له من العُمُر؟ قال: جعلتُ له ستينَ. قال: يا ربِّ! فأَتِمَّ له من عُمُري حتى يكون عُمُرُهُ مئة سنة[٤]، ففعلَ الله ذٰلك، وأشهدَ على ذٰلك. فلما نَفِدَ عُمُرُ آدمَ؛ بعثَ اللهُ [إليه] ملكَ الموتِ، فقال آدمُ: أوَلَمْ يَبْقَ من عُمُري أربعون سنةً؟! قال له المَلَكُ: أوَلَمْ تُعْطِها ابنَكَ داوودَ؟! فجَحَدَ ذٰلك فجحدتْ ذُرِّيَّتُه، ونسيَ فنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُه»[٥].

---

(١) (صحيح). رواه: ابن أبي عاصم في «السنة» (٩٠/ ٢٠٥)، والبزار في «المسند»، وابن حبان (١٤/ ٣٦/ ٦١٦٤)؛ كلهم عن يحيىٰ بن محمد... به.

ومبارك بن فضالة صدوق يدلِّس ويسوِّي، ولكن الحديث يتقوّىٰ بما تقدم من حديث أنس وما سيأتي من حديث أبي هريرة الطويل.

(٢) في «التاريخ» (٧/ ٣٩٨)، وتصحفت «فأثابه» إلىٰ «فآتاه» في جميع الأصول.

(٣) في جميع الأصول: «رحمة ربه». والتصويب من مصادر التخريج.

(٤) في نسخة: «حتىٰ يكون له من العمر».

(٥) (صحيح). وقد ساق الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ فيما يلي جملة من طرقه:

وقد رواه الحافظُ أبو بكر البزَّارُ والترمذيُّ والنسائيُّ في «اليوم والليلة» من حديث: صفوانَ بن عيسىٰ، عن الحارث بن عبد الرحمٰن بن أبي ذُباب، عن سعيد المَقْبُرِيِّ، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. وقال الترمذي: حديثٌ حسنٌ غريبٌ من هٰذا الوجه. وقال النسائيُّ: هٰذا حديثٌ منكرٌ، وقد رواه: محمدُ بن عَجْلانَ، عن سعيد المَقْبُرِيِّ، عن أبيه، عن عبد الله بن سَلَام... قوله(١).

[وقد رواه أبو حاتم بنُ حَبَّانَ في «صحيحه»، فقال: حدثنا محمدُ بن إسحاق بن خُزَيْمَةَ، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا صفوان بن عيسىٰ، حدينا الحارث بن عبد الرحمٰن بن أبي ذُباب،

* فأما الطريق الأولىٰ؛ فعند أبي يعلىٰ (١١/ ٤٥٣/ ٦٥٨٠)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٠٠): «رواه أبو يعلىٰ، وفيه إسماعيل بن رافع: قال البخاري: ثقة مقارب الحديث، وضعفه الجمهور، وبقية رجاله رجال الصحيح». ولخص الحافظ حال إسماعيل هٰذا في «التقريب» بقوله: «ضعيف الحفظ».

* لكنه لم ينفرد به؛ فقد ذكر الحافظ ابن كثير بعده متابعة ابن أبي ذباب - وهو صدوق من رجال مسلم لا ينزل حديثه عن رتبة الحسن - التي أخرجها: ابن أبي عاصم في «السنة» (٩١/ ٢٠٦)، والبزار في «المسند» (١/ ١٤٢ - بداية ونهاية)، والترمذي (٤٨- التفسير، ٩٥- باب، ٥/ ٤٥٣/ ٣٣٦٨)، والنسائي في «اليوم والليلة» (٢١٩)، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص٦٧) / وابن حبان (١٤/ ٤٠/ ٦١٦٧)، والحاكم (١/ ٦٤، ٤/ ٢٦٣)، وابن عساكر (٧/ ٣٩٢-٣٩٣)؛ كلهم من طريق: الحارث، عن المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ... فذكره. وقال الترمذي: «حسن غريب من هٰذا الوجه». وقال النسائي: «خالفه محمد بن عجلان». ثم رجح رواية ابن عجلان. وصححه الحاكم علىٰ شرط مسلم ووافقه الذهبي.

* وكذٰلك؛ فقد تابع المقبري في روايته عن أبي هريرة جماعة عند: النسائي في «اليوم والليلة» (٢٢٠)، وابن عساكر في «التاريخ» (٧/ ٣٩٣)؛ بأسانيد حسنة. فلا أدري وجه استنكار النسائي لها!!

* ثم أشار الحافظ ابن كثير إلىٰ طريق رابعة للحديث عند: الترمذي (٤٨- التفسير، ٨- ومن سورة الأعراف، ٥/ ٢٦٧/ ٣٠٧٦)، والحاكم (٢/ ٥٨٥)، وابن عساكر (٧/ ٣٩٤)؛ من طريق أبي نعيم... بالسند المذكور، وصححه الترمذي والحاكم - وليس في مطبوعة «المستدرك»: «علىٰ شرط مسلم»، وهو أولىٰ؛ لأنه لم يخرج لهشام إلا في الشواهد-، وسكت عنه الذهبي، وهو قريب من الحسن صالح في الشواهد.

* ثم ذكر الحافظ ابن كثير طريقًا خامسة عند: ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٦١٤/ ٨٥٣٥)، وابن عساكر في «التاريخ» (٧/ ٣٩٥). وفيها عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ضعيف.

وهٰذه الطرق؛ وإن كان أكثرها لا يخلو من كلام؛ لكنها بمجموعها تكسب الحديث قوة وصحة؛ فكيف إذا انضم إليها حديث ابن عباس الآتي قريبًا؟! ولذٰلك فقد صحح الحديث الترمذي وابن حبان والذهبي والألباني.

(١) وقع في عبارة النسائي في جميع الأصول خلط واضطراب واختلاف كبير، فاعتمدت نص الحافظ المزي في «التحفة» (٩/ ٤٧١/ ١٢٩٥٥) والذي يتفق تمامًا مع أسانيد النسائي في «اليوم والليلة» (٢١٩).

عن سعيد المَقْبُرِيِّ، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لمَّا خَلَقَ الله آدمَ ونَفَخَ فيه الرُّوحَ؛ عَطَسَ، فقال: الحمدُ لله. فحَمِدَ اللهَ بإذنِ الله، فقال له ربُّه: يَرْحَمُكَ ربُّك يا آدمُ! اذهبْ إلى أولٰئك الملائكةِ - إلى ملإٍ منهم جلوس -؛ فسلمْ عليهم. فقال: السلامُ عليكمْ. فقالوا: وعليكُمُ السلامُ ورحمة الله. ثم رجع إلى ربِّه، فقال: هٰذه تحيَّتُك وتحيَّةُ بنيكَ بينهم. وقال اللهُ ويداه مقبوضتانِ: اخترْ أيَّهما شئتَ! فقال: اخترتُ يمينَ ربِّي، وكلتا يدي ربِّي يمينٌ مباركةٌ. ثم بَسَطَهُما؛ فإذا فيهما آدمُ وذُرِّيَّتُهُ، فقال: أي ربِّ! ما هؤلاء ذُرِّيَّتُكَ. وإذا كلُّ إنسانٍ منهم مكتوبٌ عُمُرُهُ بين عينيهِ، وإذا فيهم رجلٌ أضوَؤُهم (أو: من أضوَئِهم)، لم يُكْتَبْ له إلا أربعونَ سنةً؛ قال: أي ربِّ! زدْ في عُمُرِهِ. فقال: ذاك الذي كتبتُ له. قال: فإنِّي قد جعلتُ له من عُمُري ستين سنةً. قال: أنت وذاكَ! اسكنِ الجنةَ. فسكنَ الجنةَ ما شاء الله، ثم أُهْبِطَ منها، وكان آدمُ يَعُدُّ لنفسِهِ، فأتاه مَلَكُ الموتِ، فقال له آدمُ: قد عَجِلْتَ؛ قد كُتِبَ لي ألفُ سنةٍ. قال: بلى، ولكنك جعلتَ لابنك داوودَ منها ستين سنةً. فجَحَدَ آدمُ فجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، ونَسِيَ فنسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ؛ فيومئذٍ أُمِرَ بالكتاب والشُّهودِ». هٰذا لفظه][1].

وقال الترمذيُّ: حدثنا عبد بن حُمَيد، حدثنا أبو نُعَيْمٍ، حدثنا هشام بن سَعْد، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق اللهُ آدمَ؛ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فسَقَطَ من ظهرِهِ كلُّ نَسَمَةٍ هو خالقُها من ذُرِّيَّتِهِ إلى يوم القيامةِ، وجعلَ بين عيني كلِّ إنسانٍ منهم وَبيصًا من نورٍ، ثم عَرَضَهُم على آدمَ، فقال: أي ربِّ! من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذُرِّيَّتُك. فرأى رجلًا فأعجبه وَبيصُ ما بين عينيهِ، فقال: أي ربِّ! مَن هٰذا؟ قال: هٰذا رجلٌ من آخر الأمم من ذُرِّيَّتِكَ، يقالُ له: داوودُ. قال: ربِّ! وكم جعلتَ عُمُرَهُ؟ قال: ستين سنةً. قال: أي ربِّ! زِدْه من عُمُري أربعين سنةً. فلما انقضى عُمُرُ آدمَ؛ جاءَهُ مَلَكُ الموت، [فـ] قال: أوَلمْ يَبْقَ من عُمُري أربعون سنةً؟! قال: أوَلَم تعطِها ابنَكَ داوودَ؟!». قال: «فجحدَ [آدمُ] فجحدتْ ذُرِّيَّتُهُ، ونسي آدمُ فنسيتْ ذُرِّيَّته، وخطِئَ آدمُ فخَطِئَتْ ذُرِّيَّته»[2]. ثم قال الترمذي:

---

(١) اختلفت النسخ في موضع رواية ابن حبان هٰذه، فجاءت في بعضها هنا، وفي بعضها قبل قوله: «وقد قال البخاري»؛ الآتي (ص٧١)، فاعتمدت الوجه الاول؛ لأنه الأليق بالسياق. ثم في هٰذا اللفظ بعض نكارة. وقد تقدم تخريج الحديث في (ص٦٧).

(٢) تقدم الكلام عنه في (ص٦٧).

حسنٌ صحيحٌ، وقد رُوِيَ من غير وجهٍ عن أبي هُريرة عن النبيِّ ﷺ.

ورواه الحاكم في «مستدركه» من حديث أبي نُعَيْم الفضل بن دُكَيْن، وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم، ولم يخرِّجاه[(١)].

وروىٰ ابن أبي حاتم من حديث: عبد الرحمٰن بن زَيْد بن أسلم، عن أبيه، عن عَطاء بن يَسار، عن أبي هريرة مرفوعًا... فذكره، وفيه: «**ثم عَرَضَهُمْ على آدمَ، فقال: يا آدمُ! هؤلاء ذُرِّيَّتُكَ! وإذا فيهم الأجذمُ والأبرصُ والأعمى وأنواعُ الأسقام، فقال آدمُ: يا ربِّ! لم فعلتَ هٰذا بذُرِّيَّتي؟ قال: كي تَشْكُرَ نعمتي**»... ثم ذَكَرَ قصة داوودَ[(٢)].

وستأتي من روايةِ ابن عباسٍ أيضًا[(٣)].

وقال الإمام أحمد في «مسنده»: حديثا الهيثمُ بن خارجةَ، حدثنا أبو الربيع، عن يونُسَ بن مَيْسَرَةَ، عن أبي إدريس، عن أبي الدَّرداء، عن النبي ﷺ؛ قال: «**خَلَقَ اللهُ آدمَ حينَ خَلَقَهُ، فضَرَبَ كَتِفَهُ اليمنى، فأخرجَ ذُرِّيَّةً بيضاءَ كأَنَّهم الذُّرُّ، وضَرَبَ كَتِفَهُ اليُسرى، فأخرجَ ذُرِّيَّةً سوداءَ كأَنَّهم الحُمَمَ، فقالَ للذي في يمينِهِ: إلى الجنةِ ولا أُبالي، وقال للذي في كتفِهِ اليُسرى: إلى النارِ ولا أُبالي**»[(٤)].

وقال ابن أبي الدُّنيا: حدثنا خَلَفُ بن هشام، حدثنا الحَكَم بن سِنان، عن حَوْشَبٍ، عن الحسن؛ قال: خَلَقَ الله آدمَ حين خَلَقَهُ، فأخرجَ أهلَ الجنَّةِ من صفحتِهِ اليمنىٰ، وأخرجَ أهلَ النار من صفحتِهِ اليُسرىٰ، فأُلْقُوا علىٰ وجه الأرض، منهم الأعمىٰ والأصمُّ والمبتَلَىٰ، فقال آدمُ: يا ربِّ! ألا سوَّيْتَ بين وَلدي؟ قال: يا آدمُ! إني أردتُ أن أُشْكَرَ.

---

(١) تقدم الكلام عنه في (ص٦٧).

(٢) تقدم الكلام عنه في (ص٦٧).

(٣) انظرها في (ص٧١-٧٢).

(٤) (**صحيح**). رواه: أحمد وابنه في «الزوائد» (٦/ ٤٤١)، ومن طريقهما ابن عساكر في «التاريخ» (٧/ ٣٩٧).
قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٨٨): «رواه أحمد والبزار والطبراني ورجاله رجال الصحيح». وتعقبه الألباني في «المشكاة» (١/ ٤٢/ ١١٩) فقال: «فإن عنىٰ رجالًا غير رجال أحمد؛ فقد يكونوا كما ذكر، وإلا؛ فرجاله ليسوا رجال الصحيح، بل هم ثقات فقط».

وهكذا روىٰ: عبد الرزاق، عن معمرٍ، عن قَتادة، عن الحسن... بنحوه[١].

وقد قال البخاريُّ: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزَّاق، عن مَعْمَر، عن هَمَّام بن مُنَبِّهٍ، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ؛ قال: «**خَلَقَ اللهُ آدمَ، وطولُهُ ستُّون ذراعًا، ثم قال: اذهبْ، فسَلِّمْ على أولٰئك النَّفَرِ من الملائكةِ، فاستمعْ ما يُجيبونَكَ؛ فإنَّها تحيَّتُك وتحيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ. فقالَ: السلامُ عليكم. فقالوا: السلامُ عليكَ ورحمةُ الله، فزادوه: ورحمة الله. فكلُّ من يدخُلُ الجنة على صورةِ آدمَ، فلم يزل الخَلْقُ يَنْقُصُ حتى الآنَ**».

وهكذا رواه البخاريُّ في كتاب الاستئذان عن يحيىٰ بن جعفرٍ، ومسلمٌ عن محمدِ بن رافع؛ كلاهُما عن عبد الرزاق... به[٢].

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا رَوْحٌ، حدثنا حمَّادُ بن سَلَمة، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيَّبِ، عن أبي هريرة: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**كان طولُ آدَمَ ستينَ ذِراعًا في سبع أَذْرُع عَرْضًا**». انفردَ به أحمدُ[٣].

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا عفَّانُ، حدثنا حمَّادُ بن سَلَمة، عن علي بن زيد، عن يوسفَ بن مِهران، عن ابن عباسٍ؛ قال: لما نزلتْ آيةُ الدَّيْن؛ قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أوَّلَ مَنْ جَحَدَ آدمُ، إنَّ أوَّلَ مَنْ جَحَدَ آدمُ، إنَّ أوَّلَ مَنْ جَحَدَ آدمُ. إنَّ الله لما خَلَقَ آدمَ؛ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فأخرجَ منه ما هو ذَارِئٌ إلى يوم القيامة، فجعل يعرِضُ ذُرِّيَّتَهُ عليه، فرأى فيهم رجلًا يُزْهِرُ؛ قال: أي ربِّ! من هٰذا؟ قال: هٰذا ابنُك داوود. قال أي ربِّ! كم عمُرُه؟ قال: ستونَ عامًا. قال: أي ربِّ! زِدْ في**

---

(١) (صحيح موقوفًا ضعيف مرفوعًا). رواه ابن عساكر في «التاريخ» (٧/ ٣٩٧) بالسندين المتقدمين، وقد تقدم مرفوعًا من حديث أبي هريرة بسند ضعيف. انظر (ص٧٠). وسيأتي موقوفًا علىٰ أبي بن كعب من قريب. انظر (ص٧٦).

(٢) البخاري (٦٠- الأنبياء، ١- خلق آدم وذريته، ٦/ ٣٦٢/ ٣٣٢٦ و٦٢٢٧)، ومسلم (٥١- الجنة)، ١١- يدخل الجنة أقوام، ٤/ ٢١٨٣/ ٢٨٤١).

(٣) (صحيح؛ إلا قوله: «في سبع أذرع عرضًا»؛ فمنكر). رواه: أحمد (٢/ ٥٣٥)، وابن عساكر (٧/ ٣٩١)؛ بهٰذا السند (ووقع عند ابن عساكر: حماد بن زيد؛ بدل: ابن سلمة)! وسنده ضعيف لأجل علي بن زيد بن جدعان. ولكن طول آدم صحيح مخرج في الصحيحين وغيرهما كما تقدم.

وأما عرضه؛ فله شاهدان من حديث ابن عباس مرفوعًا وابن المسيب مرسلًا عند ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١١)، ولكن فيهما علي بن زيد أيضًا؛ فهو علة هٰذه الزيادة.

عُمُرِهِ. قال: لا؛ إلَّا أن أزيدَهُ من عُمُرِكَ! وكان عُمُرُ آدم ألفَ عام، فزادَهُ أربعين عامًا، فكَتَبَ الله عليه بذٰلك كتابًا، وأشهَدَ عليه الملائكةَ، فلما احْتُضِرَ آدمُ؛ أتتْهُ الملائكةُ لِقَبْضِهِ؛ قال: إنه قد بقي من عُمُري أربعون عامًا! فقيلَ له: إنك قد وَهَبْتَها لابنك داوودَ. قال: ما فعلتُ! وأبرزَ الله عليه الكتابَ وشَهِدَتْ عليه الملائكةُ»(١).

وقال أحمدُ: حدثنا أسودُ بن عامر، حدثنا حمَّاد بن سَلَمة، عن عليِّ بن زيدٍ، عن يوسفَ بن مِهْرانَ، عن ابن عباس؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ أولَ مَن جَحَدَ آدمُ (قالها ثلاثَ مراتٍ). إنَّ اللهَ ﷻ لما خَلَقَهُ؛ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فأخرج ذُرِّيَّتَهُ، فعَرَضَهم عليه، فرأى فيهم رجلًا يُزْهِرُ، فقال: أي ربِّ! [من هٰذا؟ قال: ابنُك داوود. قال: كم عمُرُه؟ قال: ستُّونَ. قال: أي ربِّ!] زِدْ في عُمُرِهِ. قال: لا؛ إلَّا أن تزيدَهُ أنت من عُمُرِكَ. فزاده أربعين سنةً من عُمُرِهِ، فكَتَبَ الله تعالى عليه كتابًا، وأشهدَ عليه الملائكة، فلمَّا أرادَ أن يَقْبِضَ رُوحَهُ؛ قالَ: إنَّه بَقِيَ من أجلي أربعون سنةً. فقيل له: إنَّك قد جَعَلْتَها لابِنك داوودَ». قال: «فجَحَدَ». قال: «فأخرجَ اللهُ الكتابَ، وأقام عليه البيِّنَةَ، فأتمَّها لداوودَ مئةَ سنةٍ، وأتمَّ لآدم عُمُرَهُ ألفَ سنةٍ»(٢). تفرَّدَ به أحمدُ، وعليُّ بن زيدٍ في حديثِهِ نكارةٌ.

ورواه الطبراني: عن عليِّ بن عبد العزيز، عن حَجَّاج بن مِنْهال، عن حمَّادِ بن سَلَمة، عن عليِّ بن زيدٍ، عن يوسف بن مِهْران، عن ابن عبَّاسٍ. وغير واحدٍ، عن الحسن؛ قال: لما نزلتْ آية الدين؛ قال رسول الله ﷺ: «إن أوَّلَ مَن جَحَدَ آدمُ»؛ ثلاثًا... وذكره.

وقال الإمامُ مالكُ بن أنس في «موطئه»: عن زيد بن أبي أُنَيْسة، أن عبد الحميد بن

---

(١) انظر الحاشية التالية.

(٢) (صحيح؛ إلا إتمام عمر داوود وآدم؛ فضعيف). رواه: الطيالسي (٢٦٩٢)، وابن سعد (١/ ٩)، وأحمد (١/ ٢٥١ بالسند الأول و٢٩٩ بالثاني و٣٧١)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٩٠/ ٢٠٤)، وأبو يعلىٰ (٥/ ٩٩/ ٢٧١٠)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٢/ ٥٥٥/ ٢٩٥٠)، والطبراني (١٢/ ١٦٥/ ١٢٩٢٨)، وابن عساكر (٧/ ٣٩١)؛ من طرق عن علي بن زيد... به.

قال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٠٩): «فيه علي بن زيد؛ ضعفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات». قلت: علي بن زيد لا بأس به في المتابعات، ثم معه مرسل الحسن عند الطبراني، وحديث أبي هريرة المتقدم قبله؛ فهو قوي بهما، وقد قواه الألباني. لكن ينبغي التنبه إلىٰ أن إتمام عمر آدم وداوود عليهما السلام يبقىٰ علىٰ ضعفه؛ لتفرد علي بن زيد به، وقصور الشواهد.

عبد الرحمٰن بن زيد بن الخطاب أخبره، عن مسلم بن يسار الجُهَنِيِّ: أنَّ عمر بن الخطاب سُئِل عن هٰذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ...﴾ الآية [الاعراف: ١٧٢]؟ فقال عمرُ بنُ الخطَّاب: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يُسْأَلُ عنها؟ فقال: «إنَّ الله خَلَقَ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم مَسَحَ ظَهْرَهُ بيمينِهِ، فاستخرجَ منه ذُرِّيَّةً؛ قال: خلقتُ هؤلاء للجنَّةِ، وبعمل أهل الجنَّةِ يعملونَ. ثم مَسَحَ ظَهْرَهُ، فاستخرجَ منه ذُرِّيَّةً؛ قال: خلقتُ هؤلاء للنَّارِ، وبعمل أهل النارِ يعملونَ». فقال رجلٌ: يا رسول الله! ففيمَ العملُ؟ قال رسولُ الله ﷺ: «إذا خَلَقَ اللهُ العبدَ للجنَّةِ؛ اسْتَعْمَلَهُ بعمل أهل الجنَّةِ، حتَّى يموتَ على عملٍ من أعمال أهل الجنَّةِ، فيدخلَ به الجنة. وإذا خَلَقَ اللهُ العبدَ للنَّارِ، اسْتَعْمَلَهُ بعمل أهل النارِ، حتى يموتَ على عملٍ من أعمال أهل النارِ، فيدخلَ به النارَ»(١).

وهكذا رواه الإمام أحمدُ وأبو داوودَ والترمذيُّ والنَّسائيُّ وابن جريرٍ وابن أبي حاتم وأبو حاتم بنُ حِبَّانَ(٢) في «صحيحه» من طرق، عن الإمام مالكٍ به. وقال التِّرمذيُّ: هٰذا حديثٌ حسن. ومسلمُ بن يسارٍ لم يسمع عُمر، وكذا قال أبو حاتم وأبو زُرعةَ، زاد أبو حاتم: وبينهما نُعَيْمُ بن ربيعةَ.

وقد رواه أبو داوود: عن محمد بن مُصَفَّىٰ، عن بقيَّة، عن عمرَ بن جُعْثُم، عن زيد بن أبي أُنَيْسة، عن عبد الحميد بن عبد الرحمٰن بن زيد بن الخطاب، عن مسلم بن يسارٍ، عن نُعَيْم بن رَبيعةَ؛ قال: كنتُ عند عمر بن الخطاب، وقد سُئِلَ عن هٰذه الآية... فذكر الحديث.

قال الحافظ الدارقطنيُّ: وقد تابع عمرَ بنَ جُعْثُم أبو فَروةَ يزيدُ بن سِنان الرُّهاويُّ عن زيد بن أبي أُنَيْسة. قال: وقولُهما أولىٰ بالصواب من قول مالكٍ رَحِمَهُ اللهُ(٣).

---

(١) (صحيح). وانظر تخريجه في ص ٧٣.

(٢) في جميع الأصول: «وأبو حاتم وابن حبان»! وهو خطأ ظاهر، والصواب ما أثبته.

(٣) (صحيح). رواه: مالك في «الموطأ» (٢/ ٨٩٨)، وأحمد (١/ ٤٤)، وأبو داوود (٣٤- السنة، ١٦- القدر، ٢/ ٦٣٩/ ٤٧٠٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٨٧/ ١٩٦)، والترمذي (٤٨- التفسير، ٨- ومن سورة الأعراف، ٥/ ٢٦٦/ ٣٠٧٥)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨/ ١١٤/ ١٠٦٥٤- تحفة)، والطبري في «التفسير» (٦/ ١١٢/ ١٥٣٦٨)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٦١٢/ ٨٥٢٨م)، وابن حبان (١٤/ ٣٧/ ٦١٦٦)، والحاكم (١/ ٢٧، ٢/ ٣٢٤ و٥٤٤)، والبغوي في «شرح السنة» (١/ ١٣٨/ ٧٧)؛ كلهم من طريق مالك... به.=

[مسألة الميثاق واستنطاق ذرية آدم بالتوحيد]:

وهٰذه الأحاديث كلُّها دالَّةٌ علىٰ استخراجه تعالىٰ ذُرِّيَّة آدم من ظهره كالذَّرِّ، وقسمتهم قسمين؛ أهل اليمين وأهل الشمال، وقال: «**هؤلاءِ للجنَّة ولا أبالي، وهؤلاء للنارِ ولا أبالي**»[(١)]. فأمَّا الإشهادُ عليهم واستنطاقُهم بالإقرار بالوَحْدانِيَّةِ؛ فلم يَجِئْ في الأحاديث الثابتة، وتفسيرُ الآية التي في سورة الأعراف وحملُها علىٰ هٰذا فيه نظرٌ كما بيَّنَّاه هناك، وذَكَرْنا الأحاديثَ والآثار مستقصاةً بأسانيدِها وألفاظِ متونها؛ فمَنْ أراد تحريره؛ فلْيُراجِعْه ثَمَّ. والله أعلم[(٢)].

فأمَّا الحديث الذي رواه الإمام أحمدُ: حدثنا حسينُ بن محمد، حدثنا جريرٌ (يعني: ابن حازم)، عن كُلثوم بن جبر، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ؛ قال:

= ورواه: أبو داوود (الموضع السابق، ٤٧٠٤)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٨٨/ ٢٠١)، والطبري في «التفسير» (٦/ ١١٢/ ١٥٣٦٩)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٦/ ٤-٥)؛ كلهم من طريق زيد بن أبي أنيسة... بالطريق الأخرىٰ. ولخص الترمذي حال سنده أحسن تلخيص فقال: «هٰذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وقد ذكر بعضهم في هٰذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلًا مجهولًا»؛ يعني: نعيم بن ربيعة. وقال الحافظ ابن عبد البر: «زيادة من زاد في هٰذا الحديث نعيم بن ربيعة ليست حجة؛ لأن الذي لم يذكره أحفظ، وإنما تقبل الزيادة من الحافظ المتقن، وجملة القول في هٰذا الحديث أنه حديث ليس إسناده بالقائم؛ لأن مسلم بن يسار ونعيم بن ربيعة جميعًا غير معروفين بحمل العلم»؛ يعني: فيهما جهالة؛ كما هو ظاهر من ترجمتها في «التهذيب». لكن للمتن شواهد كثيرة يرتقي بها إلىٰ درجة الحسن، بل الصحيح. وقد تقدم منها حديث أبي هريرة، وستأتي قريبًا أحاديث ابن عباس وعبد الرحمن بن قتادة وأنس وأبي وغيرهم، ولذٰلك مال الترمذي - كما تقدم - إلىٰ تحسينه، وصححه ابن حبان، ومال الدارقطني إلىٰ تجويده، وصححه الحاكم في المواضع الثلاثة، ووافقه الذهبي في الأخيرين وقال في الأول: «فيه إرسال»، وقال الحافظ ابن عبد البر: «ولكن معنىٰ هٰذا الحديث قد صح عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة ثابتة يطول ذكرها من حديث عمر بن الخطاب وغيره جماعة يطول ذكرهم»، وأقره المنذري في «مختصر السنن» (٧/ ٧٣)، وصححه الألباني.

(١) روىٰ: ابن سعد (١/ ١٠)، وأحمد (٤/ ١٨٦)، وابن حبان (٢/ ٥٠/ ٣٣٨)، والحاكم (١/ ٣١)؛ من طرق عن معاوية بن صالح، عن راشد بن سعد، عن عبد الرحمن بن قتادة، عن النبي ﷺ؛ قال: «**خلق الله آدم، ثم أخذ الخلق من ظهره، فقال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي**». وهٰذا سند صحيح. وقد صححه الحاكم والذهبي والهيثمي والألباني.

(٢) وكأن الحافظ ابن كثير قد تأثر في هٰذا بشيخ الإسلام ابن القيم في كتاب «الروح»، وقد تعقبهما الألباني تعقبًا طويلًا في «الصحيحة» (٤/ ١٦٠/ ١٦٢٣) ذكر فيه كثيرًا من النصوص الصحيحة الواردة في ذٰلك. فليراجعه من شاء؛ فإنه مهم جدًّا.

«إنَّ الله أخذ الميثاقَ من ظَهْرِ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بنَعْمانَ (يعني: عَرَفَةَ)[(١)]، فأخرجَ من صُلْبِهِ كلَّ ذُرِّيَّةٍ ذرأها، فنثرها بين يديه [كالذَّرِّ]، ثم كلَّمهم قِبَلًا قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣]»؛ فهو بإسنادٍ جيدٍ قويٍّ علىٰ شرط مسلم، رواه النسائيُّ وابن جريرٍ والحاكمُ في «مستدركه» من حديث حسين بن محمد المرُّوذيِّ[(٢)]... به. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه. إلَّا أنه اخْتُلِفَ فيه علىٰ كُلْثوم بن جَبْر، فرُوي عنه مرفوعًا وموقوفًا. وكذا رُوي عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس موقوفًا. وهكذا رواه العوفيُّ والوالبيُّ والضحَّاكُ وأبو جمرةَ عن ابن عباس قولَه. وهٰذا أكثرُ وأثبتُ. والله أعلم. وهكذا رُوِي عن عبد الله بن عمر موقوفًا ومرفوعًا، والموقوفُ أصحُّ[(٣)].

واستأنسَ القائلونَ بهٰذا القول - وهو أخْذُ الميثاقِ علىٰ الذُّرِّيَّةِ، وهم الجمهور -:

بما قال الإمام أحمدُ: حدثنا حجَّاجٌ، حدثني شعبة، عن أبي عِمران الجَوْنِيِّ، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ؛ قال: «يُقالُ للرجل من أهل النارِ يومَ القيامة: لو كان لكَ ما على الأرض من شيءٍ؛ أكنتَ مفتديًا به؟». قال: «فيقولُ: نعم. فيقولُ: قد أردتُ منك ما هو أهونُ من ذٰلك، قد أخذتُ عليك في ظَهْرِ آدمَ أنْ لا تُشْرِكَ بي شيئًا، فأبيتَ إلَّا أنْ تُشْرِكَ بي». أخرجاه من حديث شُعبةَ... به[(٤)].

---

(١) في جميع الأصول: «بنعمان يوم عرفة»! ولا أصل لها في شيء من المصادر.

(٢) في جميع الأصول: «حسين بن ممد المروزي»! وهٰذا مجهول، ولذٰلك ضعف الحديث بعض المحققين به! والصواب أنه «حسين بن محمد المرُّوزي»؛ بالذال، وهو ثقة احتج به الستة. فتأمل.

(٣) (صحيح موقوفًا ومرفوعًا). رواه: أحمد (١/ ٢٧٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٨٩/ ٢٠٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٤/ ٤٤٠/ ٥٦٠٢- تحفة)، والطبري في «التفسير» (٦/ ١١٠/ ١٥٣٤٩)، والحاكم (٢/ ٥٤٤)؛ كلهم من طريق حسين بن محمد... به.

قال النسائي: «كلثوم هٰذا ليس بالقوي، وحديثه ليس بالمحفوظ». قلت: احتج به مسلم، وحديثه لا ينزل عن رتبة الحسن. وقد صحح الحديث الحاكم، ووافقه الذهبي، وصححه ابن كثير علىٰ شرط مسلم، ووافقه الألباني في «الصحيحة» (٤/ ١٥٨/ ١٦٢٣).

وأما ما ذكره الحافظ ابن كثير من ترجيح الوقف في الحديث؛ فقد تعقبه الألباني بكلام طويل حاصله أن له حكم المرفوع من عدة أوجه؛ فليراجعه من أراد التفصيل.

(٤) رواه: أحمد (٣/ ١٢٧)، والبخاري (٦٠- أحاديث الانبياء، ١- خلق آدم وذريته، ٦/ ٣٦٣/ ٣٣٣٤)، ومسلم (٥٠- صفات المنافقين، ١٠- طلب الكافر الفداء، ٤/ ٢١٦٠/ ٢٨٠٥).

قال الحافظ في «الفتح»: «فيه إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ

وقال أبو جعفر الرازيُّ: عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبيِّ بن كعب؛ في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ...﴾ الآية والتي بعدها [الأعراف: ١٧٢-١٧٣]؛ قال: فجمعهم له يومئذٍ جميعًا؛ ما هو كائنٌ منه إلىٰ يوم القيامةِ، فخلَقَهم، ثم صَوَّرَهم، ثم استنْطَقَهم، فتكلَّموا، وأخَذَ عليهم العهدَ والميثاقَ، وأشهدَ عليهم أنفُسَهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ...﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢]. قال: فإني أُشْهِدُ عليكُمُ السماواتِ السبعَ والأرَضينَ السبعَ وأُشْهِدُ عليكم أباكم آدمَ أنْ لا تَقولوا يومَ القيامةِ: لم نَعْلَمْ بهٰذا! اعلموا أنَّه لا إلٰهَ غيري، ولا ربَّ غيري، ولا تشركوا بي شيئًا. وإني سأرسِلُ إليكم رُسُلًا ينذِرونكم عَهْدي وميثاقي، وأنزِلُ عليكم كتابي. قالوا: نشهدُ أنَّك ربُّنا وإلهُنا، لا ربَّ لنا غيرُك، ولا إلٰهَ لنا غيرُك. فأقرُّوا له يومئذٍ بالطاعةِ. ورَفَعَ أباهم آدمَ، فنظر إليهم، فرأىٰ فيهم الغنيَّ والفقيرَ وحسنَ الصُّورة ودونَ ذٰلك، فقال: يا ربِّ! لو سوَّيْتَ بين عبادِك؟ فقال: إني أحببتُ أن أُشْكَرَ. ورأىٰ فيهم الأنبياءَ مثلَ السُّرُج عليهم النُّور، وخُصُّوا بميثاقٍ آخرَ من الرسالةِ والنبوَّةِ؛ فهو الذي يقولُ الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الاحزاب: ٧]، وهو الذي يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم: ٣٠]، وفي ذٰلك قال: ﴿هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾ [النجم: ٥٦]، وفي ذٰلك قال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: ١٠٢]. رواه الأئمةُ عبد الله بن أحمد وابن أبي حاتم وابن جَرير وابن مَرْدَوَيْهِ في تفاسيرهم من طريق أبي جعفر(١).

ورُوي عن مجاهد وعِكْرمة وسعيد بن جُبير والحسن البصريِّ وقَتادة والسُّدِّيِّ وغيرِ واحدٍ من علماء السلف بسياقاتٍ توافقُ هٰذه الأحاديث(٢).

۞ [حسرة إبليس من توبة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ]:

وتقدَّم أنَّه تعالىٰ لما أمر الملائكة بالسجودِ لآدمَ؛ امتثلوا كلُّهم الأمرَ الإلٰهيَّ، وامتنع

أَنفُسِهِمْ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢]» أهـ.

(١) رواه: عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (٥/ ١٣٥)، وابن جرير في «التفسير» (٦/ ١١٤/ ١٥٣٧٤)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٦١٥/ ٨٥٣٧)، وابن عساكر في «التاريخ» (٧/ ٣٢٦).

(٢) انظرها في «تفسير ابن جرير» (٦/ ١١٠/ الأعراف١٧٢).

إبليسُ من السجودِ له حسدًا وعداوةً له، فطرَدَه اللهُ وأبعده وأخرَجَه من الحضرةِ الإلٰهِيَّةِ ونفاه عنها وأهبطَهُ إلىٰ الأرض طريدًا ملعونًا شيطانًا رجيمًا.

وقد قال الإمام أحمدُ: حدثنا وكيعٌ ويعلىٰ ومحمدٌ ابنا عبيد؛ قالوا حدثنا الأعمشُ، عن أبي صالح، عن أبي هريرةَ؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إذا قرأ ابنُ آدمَ السجدةَ، فسَجَدَ؛ اعتزلَ الشيطانُ يبكي؛ يقولُ: يا ويلَهُ! أُمِرَ ابنُ آدمَ بالسُّجودِ فَسَجَدَ فله الجنَّةُ؛ وأُمِرْتُ بالسجودِ فعصيتُ فلي النارُ**».

ورواه مسلم من حديث وَكيع وأبي معاوية عن الأعمش به(١).

۞ [مدة مقام آدم في الجنة]:

ثم لما أُسْكِنَ آدمُ الجنةَ التي أُسْكِنَها - سواءٌ أكانت في السماءِ أمْ في الأرضِ علىٰ ما تقدَّمَ من الخلافِ فيه-؛ أقام بها هو وزوجتُهُ حواءُ عليهما السلام يأكلانِ منها رَغَدًا حيث شاءا، فلمَّا أكلا من الشجرةِ التي نُهِيا عنها؛ سُلِبا ما كانا فيه من اللباس، وأهْبِطا إلىٰ الأرض.

وقد ذكرنا الاختلاف في مواضع هبوطِهِ منها.

واختلَفوا في مقدارِ مُقامِهِ في الجنة: فقيلَ: بعضُ يوم من أيام الدُّنيا. وقد قدَّمنا ما رواه مسلمٌ عن أبي هريرة مرفوعًا: «**وخُلِقَ آدمُ في آخرِ ساعةٍ من ساعاتِ يوم الجُمُعة**»(٢). وتقدم(٣) أيضًا حديثُه عنه: «**وفيه (يعني: يومَ الجُمُعةِ) خُلِقَ آدم، [وفيه أُدْخِلَ الجَنَّةَ]، وفيه أُخْرِجَ منها**».

فإن كان اليوم الذي خُلِقَ فيه أُخرِجَ فيه، وقلْنا: إنَّ الأيامَ الستَّةَ كهٰذه الأيام؛ فقد لَبِثَ بعض يوم من هٰذه! وفي هٰذا نَظَرٌ. وإن كان إخراجُهُ في غير اليوم الذي خُلِقَ فيه، أو قلنا بأنَّ تلك الأيامَ مقدارُها ستةُ آلاف سنةٍ؛ كما تقدَّم(٤) عن ابن عباس ومجاهد والضحَّاك واختارَهُ ابنُ جريرٍ؛ فقد لَبِثَ هناك مدةً طويلةً.

---

(١) رواه: أحمد (٢/ ٤٤٢)، ومسلم (١- الإيمان، ٥٣ - إطلاق اسم الكفر علىٰ من ترك الصلاة، ١/ ٨٧/ ٨١)

(٢) رواه: مسلم (٥٠- صفات المنافقين، ١ - ابتداء الخلق، ٤/ ٢١٤٩/ ٢٧٨٩).

والحديث لم يتقدم هنا، وإنما تقدَّم في «البداية والنهاية» (١/ ٤٥) قبل قصة آدم عليه السلام.

(٣) في (ص٥٥)

(٤) في «البداية والنهاية» (١/ ٤٣) قبل قصة آدم عليه السلام.

قال ابن جرير(١): ومعلومٌ أنهَّ خُلِقَ في آخر ساعةٍ من يوم الجمعة، والساعةُ منه ثلاثٌ وثمانون سنةٌ وأربعة أشهرٍ، فمكث مصوَّرًا طينًا قبل أن يُنْفَخَ فيه الرُّوحُ أربعينَ سنةٌ، وأقام في الجنةِ قبل أن يُهْبَطَ ثلاثًا وأربعين سنةٌ وأربعة أشهر. والله تعالىٰ أعلم.

[طرف من حياة آدم عليه السلام في الأرض]:

وقد روىٰ عبد الرازق(٢): عن هشام بن حسانَ، عن سوَّارٍ... خَبَرَ عطاء بن أبي رباح: أنَّه كان لما أُهْبِطَ رجلاه في الأرض ورأسُهُ في السماء، فحطَّه الله إلىٰ ستين ذِراعًا.

وقد رُوِيَ عن ابن عباس نحوه(٣).

وفي هٰذا نظر؛ لما تقدَّم(٤) من الحديث المتَّفَقِ علىٰ صحَّتِهِ عن أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ وطولُهُ ستونَ ذِراعًا، فلم يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ حتَّ الآنَ**». وهٰذا يقتضي أنَّه خُلِقَ كذٰلك، لا أطولَ من ستين ذراعًا، وأنَّ ذُرِّيَّته لم يزالوا يتناقصُ خلقُهم حتىٰ الآن.

وذَكَرَ ابن جَريرٍ عن ابن عباس: أنَّ اللهَ قالَ: يا آدم! إنَّ لي حَرَمًا بحِيال عرشي، فانْطَلِقْ، فابْنِ لي فيه بيتًا، فَطُفْ به كما تطوفُ ملائكتي بعرشي. وأرسلَ اللهُ له مَلَكًا، فعرَّفَه مكانَه، وعلَّمَه المناسكَ. وذَكَرَ أنَّ موضعَ كلِّ خطوةٍ خطاها آدمُ صارت قريةً بعد ذٰلك(٥).

وعنه: أنَّ أولَ طعام أكَلَه آدمُ في الأرض: أنْ جاءهُ جبريلُ بسبع حباتٍ من حنطةٍ، فقال: ما هٰذا؟ قال: هٰذا من الشجرةِ التي نُهيتَ عنها فأكلتَ منها. فقال: وما أصنعُ بهٰذا؟ قال: ابْذُرْهُ في الأرض. فبَذَرَهَ، وكان كلُّ حبةٍ منها زِنتُها أزيدُ من مئةِ ألفٍ، فنبَتَتْ، فحَصَدَهُ، ثم دَرَسَهُ، ثم

---

(١) في «تاريخه» (١/ ٧٨).

(٢) لم أجده في مظانه من «تفسير عبد الرزاق».

(٣) وقد روي هٰذا عن كثير من السلف: رواه ابن سعد (١/ ١١ و١٣)، والطبري في «التاريخ» (١/ ٨٠)، وابن عساكر (٧/ ٤٢١)؛ عن ابن عباس وعن عطاء بالسند المذكور. ورواه ابن عساكر (٧/ ٤١٠) عن عكرمة. و(٧/ ٤٢٤) عن معمر عن بعض من مضىٰ. و(٧/ ٤٣٨) عن جابر بن عبد الله. وليس في شيء من ذٰلك خبر عن المعصوم يتعين الرجوع إليه والتعويل عليه، بل هو عند التدقيق مخالف لما ثبت في الحديث الصحيح كما سيأتي من قريب.

(٤) في (ص ٧١).

(٥) رواه: ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٥)، والطبري في «التاريخ» (١/ ٨٠-٨١)، وابن عساكر في «التاريخ» (٧/ ٤٢١). وروي قريبٌ منه عن عطاء ومعمر.

ذَراهُ، ثم طَحَنَهُ، ثم عَجَنَهُ، ثم خَبَزَهُ، فأكَلَه بعد جُهْدٍ عظيم وتعبٍ ونكدٍ، وذٰلك قولُه تعالىٰ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ١١٧﴾ [طه: ١١٧][١].

وكان أولُ كسوتهما من شَعَرِ الضَّأنِ؛ جَزَّاهُ، ثم غَزَلاهُ، فنسجَ آدمُ له جُبَّةً ولحوَّاءَ دِرْعًا وخِمارًا[٢].

❁ [ما ذكروا في أولاد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ]:

واختلفوا؛ هل وُلِدَ لهما بالجنة شيءٌ من الأولاد؟ **فقيل**: لم يولدْ لهما إلَّا في الأرضِ. **وقيل**: بل وُلِدَ لهما فيها، فكان قابيلُ وأختُهُ ممَّنْ وُلِدَ بها... والله أعلم.

وذكروا أنه كان يُولَدُ له في كلِّ بطنٍ ذكرٌ وأنثىٰ، وأُمِرَ أن يزوِّجَ كلَّ ابنٍ أختَ أخيهِ التي وُلِدَتْ معه، والآخرَ بالأخرىٰ، وهلمَّ جرًّا، ولم يكنْ تَحِلُّ أختٌ لأخيها الذي وُلِدَتْ معه[٣].

❁ ذكر قصة ابني آدم قابيل وهابيل:

قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾ [المائدة: ٢٧-٣١].

وقد تكلَّمنا علىٰ هٰذه القصة في سورة المائدة في «التفسير» بما فيه كفاية، ولله الحمد. ولنذكر هنا ملخَّص ما ذكره أئمةُ السلف في ذٰلك[٤]:

فذَكَرَ السُّدِّيُّ: عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس، وعن مُرَّةَ عن ابن مسعود،

---

(١) رواه الطبري في «التاريخ» (١/ ٨٣).

(٢) انظر الحاشية رقم (٣) ص (٧٧).

(٣) انظر الحاشية رقم (٣) ص (٧٧).

(٤) وانظر تفصيل ما ورد في هٰذه القصة من المرويات عند: ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٣-١٥)، وابن جرير في «التاريخ» (١/ ٨٨ وما بعدها) و«التفسير» (٤/ ٥٢٧/ المائدة ٢٧)، وابن كثير في «التفسير» (٢/ ٣٩/ المائدة ٢٧)، والسيوطي في «الدر» (٢/ ٤٨٢/ المائدة ٢٧)

وعن ناس من الصحابة: أنَّ آدم كان يزوِّجُ ذَكَرَ كلِّ بطنٍ بأنثىٰ الآخر، وأنَّ هابيلَ أراد أن يتزوَّجَ بأخت قابيل، وكان أكبرَ من هابيل، وأختُ قابيل[1] أن يستأثَرَ بها علىٰ أخيه، وأمَرَهُ آدمُ عليه السلام أن يزوِّجَه إياها، فأبىٰ، فأمَرَهما أن يُقربَا قُربانًا، وذَهَبَ آدمْ ليحجَّ إلىٰ مكَّةَ، واستحفظَ السماواتِ علىٰ بنيهِ فأبَيْنَ، والأرَضينَ والجبال فأبَيْنَ، فتقبَّلَ قابيلُ بحفظِ ذٰلك، فلمَّا ذَهَبَ؛ قَرَّبا قُرْبانَهما، فقرَّبَ هابيلُ جَذَعَةً سمينةً - وكان صاحبَ غنم - وقرَّبَ قابيلُ حزمةً من زرع من رديءِ زرعِهِ، فنزلتْ نارٌ فأكلتْ قُربانَ هابيلَ وتركتْ قُربانَ قابيلَ، فغَضِبَ وقالَ: لأقْتُلَنَّكَ حتىٰ لا تَنْكِحَ أختي! فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧].

ورُوي عن ابن عباس من وجوهٍ أخرَ وعن عبد اللهِ بن عمرٍو، وقال عبدُاللهِ بنُ عمرٍو: وايمُ اللهِ؛ إن كان المقتولُ لأشَدَّ الرجلينِ، ولٰكنْ مَنَعَهُ التحرُّجُ أن يَبْسُطَ إليه يَدَهُ.

وذكر أبو جعفر الباقرُ: أنَّ آدمَ كان مباشِرًا لتقريبهما القربانَ والتقبُّلِ من هابيلَ دونَ قابيلَ، فقال قابيلُ لآدمَ: إنَّما تُقُبِّلَ منه لأنَّك دعوتَ له ولم تدعُ لي! وتوعَّدَ أخاه فيما بينَهُ وبينَهُ، فلمَّا كانَ ذاتُ ليلةٍ؛ أبطأ هابيل في الرَّعي، فبعث آدمُ أخاه قابيلَ لِيَنْظُرَ ما أبطأ به، فلمَّا ذَهَبَ؛ إذا هو به، فقال له: تُقُبِّلَ منكَ ولم يُتَقَبَّلْ مني! فقال: إنما يَتَقَبَّلُ اللهُ من المتَّقين. فغَضِبَ قابيلُ عندها وضَرَبَهُ بحديدةٍ كانت معه فقَتَلَهُ. وقيلَ: إنه إنَّما قَتَلَهُ بصخرةٍ رماها علىٰ رأسِهِ وهو نائمٌ فشَدَخَتْهُ. وقيل: بل خَنَقَهُ خنقًا شديدًا وعضَّه كما تفعلُ السباعُ فمات. والله أعلم.

وقولُهُ له لما توعَّدَه بالقتل: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المائدة: ٢٨]: دلَّ علىٰ خُلُق حَسَنٍ، وخوفٍ من الله تعالىٰ، وخشيةٍ منه، وتورُّع أن يُقابِلَ أخاه بالسُّوءِ الذي أراد منه أخوه مثلَه. ولهٰذا ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «**إذا تواجه المسلمانِ بسيفَيْهما؛ فالقاتلُ والمقتولُ في النار**». قالوا يا رسولَ الله! هٰذا القاتلُ؛ فما بالُ المقتول؟! قال: «**إنَّه كان حريصًا على قَتْلِ صاحبِهِ**»[2].

وقوله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

---

(١) في جميع الأصول: «هابيل»! ولا يستوي الكلام بهٰذا.

(٢) رواه: البخاري (٢- الإيمان، ٢٢- ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ١/ ٨٤/ ٣١)، ومسلم (٥٢- الفتن، ٤- إذا تواجه المسلمان، ٤/ ٢٢١٣/ ٢٨٨٨)؛ من حديث أبي بكرة.

[المائدة: ٢٩]؛ أي: إني أريدُ تَرْكَ مقاتلتِكَ - وإن كُنْتُ أشدَّ منك وأقوىٰ - إذْ قد عزمتَ علىٰ ما عزمتَ عليه. ﴿أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾؛ أي: تتحمَّلَ إثم قتلي مع ما لك من الآثام المتقدِّمةِ قبل ذٰلك. قاله مجاهدٌ والسُّدِّيُّ وابنُ جريرٍ وغيرُ واحدٍ. وليس المرادُ أنَّ آثامَ المقتول تتحوَّلُ بمجردِ قتلِهِ إلىٰ القاتل كما قد توهَّمه بعضُ الناس؛ فإنَّ ابنَ جريرٍ حكىٰ الإجماعَ علىٰ خلافِ ذٰلك(١).

وأمَّا الحديثُ الذي يورِدُه بعضُ مَن لا يعلمُ عن النبيِّ ﷺ: أنَّه قالَ: «**ما تَرَكَ القاتلُ على المقتول مَن ذنبٍ**»؛ فلا أصلَ له، ولا يُعْرَفُ في شيءٍ من كُتُبِ الحديث بسندٍ صحيح ولا حسنٍ ولا ضعيفٍ أيضًا(٢)، ولكن؛ قد يتَّفِقُ في بعض الأشخاص يومَ القيامةِ أن يطالِبَ المقتولُ القاتلَ، فتكونَ حسناتُ القاتل لا تَفي بهٰذه المَظْلَمَةِ، فتُحَوَّلَ من سيئاتِ المقتول إلىٰ القاتل؛ كما ثَبَتَ به الحديثُ الصحيح في سائر المظالم، والقتلُ من أعظمِها. والله أعلم. وقد حرَّرْنا هٰذا كلَّه في «التفسير»(٣). ولله الحمدُ.

وقد روىٰ الإمامُ أحمدُ وأبو داوودَ والترمذيُّ عن سعد بن أبي وقاص: أنَّه قال عند فتنةِ عثمانَ بن عفَّانَ: أشهدُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**إنَّها ستكونُ فتنةٌ: القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ خيرٌ من الماشي، والماشي خيرٌ من الساعي**». قال: أفرأيتَ إنْ دَخَلَ عليَّ بيتي فَبَسَطَ يَدَهُ إليَّ لِيَقْتُلَني. قال: «**كنْ كابنِ آدمَ**»(٤).

(١) انظره في: «التفسير» (٤/ ٥٣٣/ المائدة ٢٩).

(٢) ونقل كلامه هٰذا الألباني في «الضعيفة» (١/ ٤٥٦/ ٢٨٧) وأقره عليه. ولكن معنىٰ الحديث صحيح، فانظر في الحاشية التالية.

(٣) وزاد هناك: «وقد روىٰ الحافظ أبو بكر البزار [٢/ ٦٣/ ١٤٢٦ - مختصر الزوائد]»
حديثًا يشبه هٰذا، ولكن ليس به، فقال: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا عامر بن إبراهيم الأصبهاني، حدثنا يعقوب بن عبد الله، حدثنا عنبسة بن سعيد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة؛ قالت: قال رسول الله ﷺ: «قتل الصبر لا يمر بذنب إلا محاه». وهٰذا لا يصح، ولو صح؛ فمعناه أن الله يكفر عن المقتول بألم القتل ذنوبه، فأما أن تُحمل علىٰ القاتل؛ فلا...» أهـ.
قلت: قال البزار: «لا نعلمه يروىٰ عن النبي ﷺ إلا من هٰذا الوجه، ولا نعلم أسنده إلا يعقوب». وقال الهيثمي (٦/ ٢٦٩): «ورجاله ثقات». وحسن إسناده الألباني في «الصحيحة» (٥/ ٢٧/ ٢٠١٦). وذكر الهيثمي ما يزيده قوة من آثار الصحابة.

(٤) (صحيح). رواه: أحمد (١/ ١٦٩ و١٨٥)، وأبو داوود (٢٩- الفتن، ٢- النهي عن السعي في الفتنة، =

ورواه ابن مردويه عن حُذيفة بن اليمان مرفوعًا، وقال: «كنْ كخيرِ ابني آدمَ»(١).

وروىٰ مسلمٌ وأهل السُّنن إلا النسائيَّ عن أبي ذرٍّ نحوَ هٰذا(٢).

وأما الآخر(٣)؛ فقد قالَ الإمام أحمدُ: حدَّثنا أبو معاويةَ ووكيعٌ؛ قالا: حدثنا الأعمش، عن عبدِالله بن مُرَّة، عن مسروقٍ، عن ابن مسعودٍ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقْتَلُ نفسٌ ظلمًا؛ إلَّا كان على ابنِ آدمَ الأوَّلِ كِفْلٌ من دَمِها؛ لأنَّه كان أولَ مَن سَنَّ القتلَ».

= ٢/ ٥٠١/ ٤٢٥٧)، والترمذي (٣٤- الفتن، ٢٩- تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، ٤/ ٤٨٦/ ٢١٩٤)، والحاكم (٤/ ٤٤١)؛ من طرق كثيرة حسنة وصحيحة عن سعد... فذكره. وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم علىٰ شرط مسلم، وأقره الذهبي والألباني.

(١) (**صحيح**). رواه: ابن مردويه في «التفسير» (٢/ ٤٢/ المائدة ٢٩- ابن كثير): ثنا محمد بن علي بن دحيم، ثنا أحمد بن حازم، ثنا قبيصة بن عقبة، ثنا سفيان، عن منصور، عن ربعي؛ قال: كنا في جنازة حذيفة، فسمعت رجلًا يقول: سمعت هٰذا يقول في ناس: مما سمعت من رسول الله ﷺ: لئن اقتتلتم؛ لأنظرن إلىٰ أقصىٰ بيت في داري، فلألجنه، فلئن دخل علي فلان؛ لأقولن: ها بؤ بإثمي وإثمك، فأكون كخير ابني آدم.

وسنده حسن لولا جهالة الرجل الذي لم يسمَّ. ولكن رواه الحاكم (٤/ ٤٤٤ و٤٤٨) موقوفًا علىٰ حذيفة من طريقين: وصحح أولاهما علىٰ شرط الشيخين، وسكت عنه الذهبي، وقال الألباني في «الإرواء» (٨/ ١٠٢/ ٢٤٥١): «علىٰ شرط مسلم وحده». وصحح الثانية أيضًا ووافقه الذهبي والألباني.

ولا ريب أن الموقوف هنا أقوىٰ من المرفوع كمًّا وكيفًا، فكان لا بدَّ من المصير إليه؛ لولا شواهده المرفوعة الصحيحة عن سعد وأبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ فهو صحيح مرفوعًا بها، والموقوفات تزيده قوة إن شاء الله.

(٢) (**صحيح**). رواه: أحمد (٥/ ١٤٩ و١٦٣)، وابن ماجه (٣٦ - الفتن، ١٠- التثبت في الفتنة، ٢/ ١٣٠٨/ ٣٩٥٨)، وأبو داوود (٢٩- الفتن، ٢- النهي عن السعي في الفتنة، ٢/ ٥٠٢/ ٤٢٦١)، وابن حبان (١٣/ ٢٩٢/ ٥٩٦٠)، والحاكم (٢/ ١٥٦، ٤/ ٤٢٣)؛ من طرق عن أبي عمران الجوني، (وزاد بعضهم: عن المشعث بن طريف)، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر... فذكر معناه في حديث طويل.

قال أبو داوود: «لم يذكر المشعث في هٰذا الحديث غير حماد بن زيد». وقال الحاكم: «علىٰ شرط الشيخين، ولم يخرجاه لأن حماد بن زيد رواه عن أبي عمران الجوني؛ قال: حدثني المشعث بن ظريف». ووافقه الذهبي. ورجح الألباني في «إرواء الغليل» (٨/ ١٠١/ ٢٤٥١) إسقاط المشعث من السند لرواية خمسة ثقات له بإسقاطه، وصححه علىٰ شرط مسلم وحده.

وللحديث أصل مختصر ليس فيه ذكر الفتنة وابني آدم، وهو الذي أشار الحافظ ابن كثير لرواية مسلم والأربعة إلا النسائي له.

(٣) يعني: الذي ليس بخيرهما، وهو الولد الآخر لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ قابيل.

ورواه الجماعةُ سوىٰ أبي داوود من حديث الأعمش... به(١).

وهكذا روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص وإبراهيم النخعي أنهما قالا مثلَ هٰذا سواء(٢).

وبجبل قاسيونَ شَماليَّ دمشقَ مغارةٌ يقالُ لها: مغارةُ الدَّم، مشهورةٌ بأنَّها المكانُ الذي قَتَلَ قابيلُ أخاه هابيلَ عندها، وذٰلك مما تَلَقَّوْهُ عن أهل الكتابِ؛ فالله أعلم بصحَّة ذٰلك.

وقد ذكر الحافظُ ابن عساكر في ترجمة أحمدَ بن كَثيرٍ (وقال: إنَّه كان من الصالحين): أنَّه رأىٰ النبيَّ ﷺ وأبا بكرٍ وعمرَ وهابيلَ، وأنَّه اسْتَحْلَفَ هابيلَ أنَّ هٰذا دَمُهُ؟ فَحَلَفَ له! وذَكَرَ أنَّه سأل الله تعالىٰ أنْ يَجْعَلَ هٰذا المكانَ يُستجابُ عنده الدُّعاءُ، فأجابه إلىٰ ذٰلك، وصدَّقه في ذٰلك رسولُ اللهِ ﷺ، وقال: إنَّه وأبا بكرٍ وعمرَ يزورون هٰذا المكان في كلِّ يوم خميس.

وهٰذا منامٌ؛ لو صَحَّ عن أحمدَ بن كَثيرٍ هٰذا؛ لم يترتَّبْ عليه حكمٌ شرعيٌّ. والله أعلمُ(٣).

وقولُه تعالىٰ: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة: ٣١]: ذَكَرَ بعضُهم أنَّ لما قَتَلَهُ؛ حَمَلَهُ علىٰ ظهرِهِ سنةً! وقال آخرونَ: حملَهُ مئةَ سنةٍ! ولم يزلْ كذٰلك حتَّىٰ بَعَثَ الله غرابينِ (قال السُّدِّيُّ بإسنادِهِ عن الصحابةِ:) أخوينِ، فتَقاتلا، فقَتَلَ أحدُهما الآخرَ، فلما قَتَلَهُ؛ عَمَدَ إلىٰ الأرض يَحْفِرُ له فيها، ثم ألقاهُ ودفنهُ وواراهُ، فلما رآه يصنعُ ذٰلك؛ ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾ [المائدة: ٣١]، ففَعَلَ مثلَ ما فعل الغرابُ، فواراه ودَفَنَهُ.

---

(١) رواه: أحمد (١/ ٣٨٣ و٤٣٠ و٤٣٤)، والبخاري (٦٠- أحاديث الأنبياء، ١- خلق آدم وذريته، ٦/ ٣٦٤/ ٣٣٣٥)، ومسلم (٢٨-القسامة، ٧- إثم من سن القتل، ٣/ ١٣٠٣/ ١٦٧٧)، وابن ماجه (٢١- الديات، ١- التغليظ في قتل مسلم، ٢/ ٨٧٣/ ٢٦١٦)، والترمذي (٤٢- العلم، ١٤- الدال علىٰ الخير كفاعله، ٥/ ٤٢/ ٢٦٧٣)، والنسائي (٣٧- تحريم الدم، ١- باب، ٧/ ٨١/ ٣٩٩٦)؛ كلهم من الطريق المذكورة... به.

(٢) رواه عنهما الطبري في «التفسير» (٤/ ٥٣٥/ ١١٧٤٠ و١١٧٤٣ و١١٧٤٤).

(٣) رواه ابن عساكر في «التاريخ» (٥/ ١٧٧) عنه، وفيه: «أسألك بحق الواحد الصمد، وبحق أبيك آدم، وبحق هٰذا النبي: هٰذا دمُك؟ قال: أي؛ والواحد الصمد؛ إن هٰذا دمي، جعله الله آية للناس، وإني دعوت الله ربَّ أبي آدم وأمي حواء ومحمد النبي المصطفىٰ: اجعل دمي مستغاثًا لكل نبي...» إلخ هٰذه الشركيات التي تدل علىٰ بطلان هٰذا المنام وأنه من تلعبات الشيطان.

وذكر أهلُ التواريخ والسِّير أنَّ آدم حَزِنَ علىٰ ابنِهِ هابيلَ حُزنًا شديدًا، وأنَّه قال في ذٰلك شِعرًا، وهو قولُهُ فيما ذكرهُ ابن جريرٍ(٤) عن ابن حميدٍ:

تَغَيَّرَتِ البلادُ وَمَنْ عَلَيْها ... فَوَجْهُ الأرْضِ مُغْبَرٌّ قَبيحْ
تَغَيَّرَ كلُّ ذي لَوْنٍ وطَعْمٍ ... وقَلَّ بَشاشَةُ الوَجْهِ المَلِيحْ

فأُجيبَ آدمُ:

أبا هابيلَ قدْ قُتِلا جَميعًا ... وصارَ الحيُّ كالمَيْتِ الذَّبيحْ
وجاءَ بِشِرَّةٍ قدْ كانَ مِنْها ... على خَوْفٍ فَجاءَ بِها يَصيحْ

وهٰذا الشعر فيه نظرٌ، وقد يكون آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قال كلامًا يتحزَّنُ به بلغتِهِ، فألَّفَهُ بعضُهم إلىٰ هٰذا، وفيه أقوالٌ. واللهُ أعلمُ(٥).

وقد ذكر مُجَاهِدٌ أن قابيل عوجِلَ بالعقوبة يوم قَتَلَ أخاه، فعُلِّقَتْ ساقُه إلىٰ فخذِهِ، وجُعِلَ

(٤) في «تاريخه» (١/ ٩٢).

(٥) جاء في إحدىٰ النسخ الخطية لـ «البداية والنهاية» في هٰذا الموضع زيادة نصها: «وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة هابيل من «تاريخه» القصة بتمامها، وأورد هٰذا الشطر بسنده من طريق: أبي بكر الخطيب... بسنده إلىٰ عبد العزيز بن الرماح، عن سفيان بن عيينة، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس؛ قال: لما قتل ابن آدم أخاه؛ قال آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

تغيرت البلاد ومن عليها ... فوجه الأرض مغبر قبيح
تغيَر كل ذي لونٍ وطَعمٍ ... وقل بشاشة الوجه الصبيح
قتل قابيل هابيلاً أخاه ... فوا أسفا على الوجه المليح

قال: فأجابه إبليس لعنه الله:

تنح عن البلاد وساكنيها ... فبَيٌّ الأرض ضاق بل الفسيح
وكنت بها وزوجك في رخاءٍ ... وقلبك من ورى الدنيا مريح
فما انفكت مكايدتي ومكري ... إلى أن فاتك الثمن الربيح
فلولا رحمة الجبار أضحى ... بكفك من جنان الخلد ريح

هكذا أورده الحافظ ابن عساكر، ولم ينبه علىٰ نكارته ولا غرابته، وكان خليقًا وجديرًا بذٰلك» أهـ. وكأنها - والله أعلم - قد شطبت من قبل المصنف نفسه فيما بعد؛ لغرابتها ونكارتها، ولذٰلك لم ترد في معظم النسخ الخطية للكتاب وفي جميع طبعاته، ومن ثم رأيت أن أضيفها في الحاشية هنا لا في موضعها من المتن.

(صحيح). رواه: أحمد (٥/ ٣٦ و٣٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٩)، وابن ماجه (٣٧- الزهد، ٢٣- البغي، ٢/ ١٤٠٨/ ٤٢١١)، وأبو داوود (٣٥- الأدب، ٤٣ - النهي عن البغي، ٢/ ٦٩٣/ ٤٩٠٢)، والترمذي

وجهُهُ إلىٰ الشمس كيفما دارت؛ تنكيلًا به وتعجيلًا؛ لذنبه وبغيه وحسده لأخيه لأبويه.

وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «**ما مِن ذنب أجدرُ أن يعجِّلَ اللهُ عقوبتَهُ في الدنيا مع ما يدَّخرُ لصاحبِهِ في الآخرةِ منَ البَغْي وقطيعةِ الرَّحِمِ**»[(١)]،[(٢)].

الذي رأيتُهُ في الكتاب الذي بأيدي أهل الكتاب الذين يزعُمون أنَّه التوراة: أنَّ الله ﷻ أجَّله وأنْظَرَهُ، وأنَّه سكن في أرض نُودٍ في شرقي عدن، وهم يسمونه قايين، وأنه ولد له حَنوكُ، ولِحنوكَ عِيرادُ، ولِعيرادَ مَحويائيلُ، ولمحويائيلَ مَتوشائيلُ، ولِمَتوشائيل لامَكُ، وتزوج هٰذا امرأتين؛ عادةَ وصِلَّةَ، فولدت عادةُ ولدًا اسمه يابالُ، وهو أول من سكن القباب واقتنىٰ المال، وولدت أيضًا يوبالَ، وهو أول من أخذ في ضرب الونج والصنج[(٣)]، وولدت صِلَّةُ ولدًا اسمه توبالُ قايينَ، وهو أول من صنع النحاس والحديد، وبنتًا اسمهما نَعْمَةُ.

---

(١) (٣٨- صفة القيامة، ٥٧- باب، ٤/ ٦٦٤/ ٢٥١١)، وابن حبان (٢/ ٢٠٠/ ٤٥٥ و٤٥٦)، والحاكم (٢/ ٣٥٦)؛ من طرق: عن عيينة بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي بكرة، عن النبي ﷺ... فذكره. وهٰذا سند صحيح، ورجاله ثقات، وقد صححه الترمذي وابن حبان والحاكم والمنذري والذهبي والألباني.

(٢) جاء في إحدىٰ النسخ الخطية لـ «البداية والنهاية» في هٰذا الموضع زيادة نصها: «وذكر إسحاق بن بشرٍ الكاهلي في كتاب «المبتدأ»: فبعث الله ملكًا، فضم رجله اليمنىٰ إلىٰ أليته اليسرىٰ ورجله اليسرىٰ إلىٰ أليته اليمنىٰ، ثم علقه في عين الشمس وتحاط (!) سبع حظاير من حظاير النار؛ فإذا كان أيام الصيف؛ كان من أشد الناس حرًّا، وإذا كان أيام الشتاء؛ كان من أشد الناس زمهريرًا، فعذبه الله بذٰلك ثمانين سنة، ثم ألقاه إلىٰ الأرض وعليه تلك الحظاير، وأوحىٰ الله إلىٰ الأرض أن اخسفي به. قال: فأخذته الأرض إلىٰ كعبيه، فقال: يا رب! ارحمني. فقال تعالىٰ: إنما أرحم كلَّ رحيم، خذيه. فأخذته إلىٰ ركبتيه، ثم أخذته إلىٰ وسطه، فقال: يا رب! إن كنت عصيتك؛ فقد عصاك من هو خيرٌ مني؛ أبي؛ وقد خلقته بيدك، ونفخت فيه من روحك، وأسجدت له ملائكتك، وأسكنته جنتك. قال: فكيف رأيتني فعلت به؟ أخرجته من ملكوت السماء إلىٰ هوان الأرض. ثم قال: خذيه. فأخذته إلىٰ صدره، فقال: يا رب! إن آدم أخبرني أنك خلقت مئة رحمة، فقسمت منها رحمة واحدة بين خلقك، وادخرت تسعة وتسعين في خزائن عرشك؛ فإذا كان يوم القيامة؛ ضمت هٰذه إلىٰ تلك، فرحمت بها عبادك، حتىٰ إن إبليس الأبالسة ليتطاول لها رجاء أن يناله منها شيء؛ فلا يجتني منها. فقال الله: كيف أرحمك ولم ترحم أخاك؟! وقال للأرض: خذيه. فهو يتجلجل فيها إلىٰ يوم القيامة» أهـ. وهي زيادة منكرة شأن التي تقدمت قبلها؛ فإسحاق بن بشر صاحب «المبتدأ» كذاب متهم، وكأن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد شطب هٰذه الزيادة بنفسه عند مراجعة الكتاب، ولذٰلك لم ترد في معظم النسخ الخطية للكتاب وفي جميع طبعاته، ومن ثم رأيت أن أجعلها في الحاشية هنا لا في موضعها من المتن.

(٣) يعني: العود والمزمار؛ كما هو نص «العهد القديم» (سفر التكوين/ الأصحاح ٤).

۞ [أولاد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وأحفاده]:

وفيها أيضًا: أنَّ آدم طاف علىٰ امرأتِهِ، فولدت غلامًا، ودعت اسمه شِيثَ، وقالت: من أجل أنَّه قد وهب لي خلفًا من هابيل الذي قتله قابيل. ووُلِدَ لِشيثَ أنُوشُ.

قالوا: وكان عُمُر آدم يوم ولد له شَيثُ مئةً وثلاثين سنة، وعاش بعد ذٰلك ثمان مئة سنة. وكان عمر شَيثَ يوم وُلِدَ له أنُوشُ مئةً وخمسًا وستين، وعاش بعد ذٰلك ثمان مئة سنة وسبع سنين، ووُلِدَ له بنون وبناتٌ غير أنُوشَ. فولد لأنُوشَ قِينانُ وله من العمر تسعون سنة، وعاش بعد ذٰلك ثمان مئة سنة وخمس عشرة سنةً، ووُلِدَ له بنون وبناتٌ. فلما كان عُمُرُ قِينانَ سبعين سنة؛ ولد له مَهْلَلْئِيلُ، وعاش بعد ذٰلك ثمان مئة سنة وأربعين سنة، ووُلد له بنون وبناتٌ. فلما كان لِمَهْلَلْئِيلَ من العمر خمس وستون سنة؛ ولد له يارَدُ، وعاش بعد ذٰلك ثمان مئة وثلاثين سنة، وولد له بنون وبناتٌ. فلما كان ليارَدَ مئة سنة واثنتان وستون سنة ولد له أَخْنوخُ، وعاش بعد ذٰلك ثمان مئة سنة، ووُلِدَ له بنون وبناتٌ. فلما كان لأخْنوخَ خمسٌ وستون سنة وُلِدَ له مَتُوشالَحَ، وعاش بعد ذٰلك ثمان مئة سنة، ووُلِدَ له بنون وبناتٌ. فلما كان لِمَتوشالَحَ مئة وسبع وثمانون سنة؛ وُلِدَ له لامَكُ، وعاش بعد ذٰلك سبع مئة واثنتينِ وثمانين سنة، ووُلِدَ له بنون وبناتٌ. فلما كان للامَكَ من العمر مئة واثنتان وثمانون سنة؛ ولد له نوحٌ، وعاش بعد ذٰلك خمس مئة وخمسًا وتسعين سنة، وولد له بنون وبناتٌ. فلما كان لنوحٍ خمس مئة سنة؛ وُلِدَ له بنون؛ سامٌ وحامٌ ويافثُ.

هٰذا مضمون ما في كتابهم صريحًا[١]، وفي كونِ هٰذه التواريخ محفوظةً فيما نَزَلَ من السماء نظرٌ؛ كما ذكره غير واحدٍ من العلماء طاعنينَ عليهم في ذٰلك، والظاهر أنها مقحمةٌ فيها، ذَكَرَها بعضُهم علىٰ سبيل الزيادةِ والتفسير، وفيها غلطٌ كثيرٌ؛ كما سنذكُرُه في مواضعِهِ إن شاء الله تعالىٰ.

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير في «تاريخه»[٢] عن بعضهم: أنَّ حوَّاء ولدت لآدم أربعين ولدًا في عشرين بطنًا. قاله ابن إسحاق وسمَّاهم، والله تعالىٰ أعلمُ. وقيلَ: مئة وعشرين بطنًا؛

---

(١) «العهد القديم» (سفر التكوين / الأصحاح ٥)، وقد وقع في جميع مطبوعات «البداية والنهاية» و«قصص الأنبياء» اضطراب واختلاف وخلط كثير في هٰذه الأسماء الغريبة، فما ارتاحت نفسي لشيء مما وجدته فيها، مما اضطرني إلىٰ العودة إلىٰ «العهد القديم» لإعادة ضبط وتحرير هٰذه الأسماء؛ فهم أولىٰ بحفظها والعناية بها وضبطها، والنقل أصلًا عنهم، ولم أذكر شيئًا من الخلاف في ذٰلك؛ خشية الإطالة بما لا طائل من ورائه.

(٢) (١/ ٩٢).

في كلِّ واحدٍ ذكرٌ وأنثىٰ، أولُهم قابيل وأختُه قليما، وآخرُهم عبد المغيث وأختُه أم المغيث.

ثم انتشر الناسُ بعد ذٰلك وكَثُروا وامتدُّوا في الأرض ونَمَوْا؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ ...﴾ الآية [النساء: ١].

وقد ذَكَرَ أهلُ التاريخ أنَّ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يمتْ حتىٰ رأىٰ من ذُرِّيَّتِهِ من أولادِهِ وأولادِ أولادِهِ أربع مئة ألف نسمة. والله أعلم.

۞ [رد قصة منكرة في شرك آدم وحواء]:

وقال تعالىٰ: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ...﴾ الآيات [الأعراف: ١٨٩-١٩٨]: فهٰذا تنبيه أولًا بذكرِ آدمَ، ثم استطردَ إلىٰ الجنس؛ وليس المرادُ بهٰذا ذِكْرَ آدمَ وحواءَ، بل لمَّا جرىٰ ذِكْرُ الشخص؛ استطردَ إلىٰ الجنس؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٢-١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ [الملك: ٥]، ومعلومٌ أن رجومَ الشياطينِ ليست هي أعيانَ مصابيح السماءِ، وإنَّما استطردَ من شخصِها إلىٰ جِنْسِها.

فأمَّا الحديث الذي رواه الإمام أحمدُ: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عمر بن إبراهيم، حدثنا قَتادةُ، عن الحسن، عن سَمُرَةَ، عن النبي ﷺ؛ قال: «**لما حَمَلَتْ**[1] **حَوَّاءُ؛ طافَ بها إبليسُ، وكان لا يعيشُ لها ولدٌ، فقال: سَمِّيه عبدَ الحارث؛ فإنَّه يعيشُ. فسمَّتْه عبدَ الحارثِ، فعاشَ، وكان ذٰلك من وحي الشيطانِ وأمرِهِ**»[2].

---

(١) في جميع الأصول: «ولدت»! والتصويب من مصادر التخريج.

(٢) (ضعيف). رواه: أحمد (٥/ ١١)، والترمذي (٤٨- التفسير، ٨- ومن سورة الأعراف، ٥/ ٢٦٧/ ٣٠٧٧)، وابن جرير في «التفسير» (٦/ ١٤٤/ ١٥٥٢٤)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٣١/ ٨٦٣٧)، والحاكم (٢/ ٥٤٥)؛ من طرق: عمر بن إبراهيم، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة، عن النبي ﷺ... فذكره.

والحديث ضعيف؛ وإن حسنه الترمذي وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وخلاصة الكلام فيه أنه معلولٌ من خمسة أوجه: أولها: عمر بن إبراهيم ضعيف في روايته عن قتادة خاصة، وهٰذا منها. وثانيها: تدليس الحسن وعنعنته. وثالثها: روايته موقوفًا من قول سمرة. ورابعها: تفسير الحسن للآية بخلاف الحديث. =

وهكذا رواه الترمذيُّ وابنُ جَريرٍ وابن أبي حاتمٍ وابن مردويه في تفاسيرِهم عند هٰذه الآية وأخرجه الحاكم في «مستدركه»؛ كلُّهم من حديث عبد الصمد بن عبد الوارث... به[1].

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الترمذي: حسن غريب، لا نعرفه [مرفوعًا] إلا من حديث عمر بن إبراهيم، ورواه بعضهم عن عبد الصمد [عن قتادة] ولم يرفعه.

فهٰذه علةٌ قادحةٌ في الحديث: أنَّه رُوِيَ موقوفًا علىٰ الصحابيِّ، وهٰذا أشبه، والظاهر أنه تلقَّاهُ من الإسرائيلياتِ، وهكذا رُوِيَ موقوفًا عن ابن عباس، والظاهرُ أنَّ هٰذا متلقَّىٰ عن كعبِ الأحبار وذَويه. واللهُ أعلمُ.

وقد فسَّر الحسنُ البصريُّ هٰذه الآيات بخلافِ هٰذا؛ فلو كان عندَه عن سَمُرَةَ مرفوعًا؛ لما عَدَلَ عنه إلىٰ غيره. والله أعلم.

وأيضًا؛ فالله تعالىٰ إنَّما خَلَقَ آدمَ وحوَّاءَ لِيكونا أصلَ البشرِ، ولِيَبُثَّ منهما رجالًا كثيرًا ونساءً؛ فكيف كانت حوَّاءُ لا يعيشُ لها ولدٌ كما ذُكِرَ في هٰذا الحديث إن كان محفوظًا؟!

والمظنونُ -بل المقطوعُ به- أنَّ رفعَه إلىٰ النبيَّ ﷺ خطأٌ، والصوابُ وقفُه، واللهُ أعلمُ، وقد حرَّرْنا هٰذا في كتابنا «التفسير»، ولله الحمدُ.

ثم قد كان آدمُ وحواءُ أتقىٰ لله مما ذُكِرَ عنهما في هٰذا؛ فإنَّ آدمَ أبو البشر؛ الذي خَلَقَهُ اللهُ بيدِهِ، ونَفَخَ فيه من رُوحِهِ، وأسجدَ له ملائكتَهُ، وعلَّمه أسماءَ كلِّ شيءٍ، وأسكنَه جنَّتَه:

وقد روىٰ ابنُ حِبان في «صحيحه» عن أبي ذرٍّ؛ قال: قلتُ: يا رسول الله! كم الأنبياءُ؟ قال: «**مئةُ ألفٍ وأربعةٌ وعشرونَ ألفًا**». قلت: يا رسول الله! كم الرسلُ منهم؟ قال: «**ثلاثُ مئةٍ وثلاثةَ عشرَ؛ جَمٌّ غفيرٌ**». قلتُ: يا رسول الله! مَنْ كان أوَّلَهم؟ قال: «**آدمُ**». قلتُ: يا رسول الله! نبيٌّ مرسلٌ؟ قال: «**نعم؛ خَلَقَهُ اللهُ بيدِهِ، ثم نَفَخَ فيه من رُوحِهِ، ثم سوَّاه قِبَلًا**»[2].

= وخامسها: غرابة المتن وبعده.

ولا أحب أن أطيل هنا في نقل التفصيل في هٰذه العلل وتحريرها؛ فلينظر من رغب الاستزادة: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٥٣/ الأعراف ١٩٠)، و«السلسلة الضعيفة» (١/ ٥١٦/ ٣٤٣)؛ ففيهما ما يكفي ويشفي.

(١) **قلت**: كلا؛ فابن أبي حاتم (٥/ ١٦٣١/ ٨٦٣٧ و٨٦٤١)، وابن مردويه (٢/ ٢٥٣/ الأعراف ١٩٠ - ابن كثير)؛ إنما روياه من طريق هلال بن فياض، عن عمر بن إبراهيم... به.

(٢) (**صحيح**). قطعة من حديث رواه: ابن حبان (٢/ ٧٦/ ٣٦١)، والطبراني (٢/ ١٥٧/ ١٦٥١)، وأبو نعيم =

وقال الطبرانيُّ: حدثنا إبراهيم بن نائلةَ الأصبهانيُّ، حدثنا شَيْبانُ بن فَرُّوخَ، حدثنا نافع بن هُرْمُزَ، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس؛ قالَ: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أُخْبِرُكُم بأفضل الملائكةِ؟ جبريلُ، وأفضلُ النبيِّين آدمُ، وأفضلُ الأيام يومُ الجُمُعةِ، وأفضلُ الشُّهورِ شَهْرُ رمضانَ، وأفضلُ الليالي ليلةُ القَدْرِ، وأفضلُ النِّساءِ مريمُ بنتُ عمرانَ**»(١).

وهٰذا إسناد ضعيف؛ فإن نافعًا أبا هُرْمُزَ كذَّبه ابنُ مَعين، وضعَّفَه أحمدُ وأبو زرعةَ وأبو حاتم وابنُ حبَّانِ وغيرُهم. والله أعلم.

وقالَ كَعْبُ الأحبارِ: ليس أحدٌ في الجنَّةِ له لحيةٌ إلَّا آدمَ؛ لحيتُهُ سوداءُ إلىٰ سُرَّتِه، وليس أحدٌ يُكنىٰ في الجنَّةِ إلَّا آدمَ؛ كُنيتُهُ في الدُّنيا أبو البشرِ، وفي الجنةِ أبو محمدٍ.

وقد روىٰ ابنُ عديٍّ من طريق شيخ بن أبي خالدٍ، عن حماد بن سَلَمة، عن عمرو بن دينارٍ، عن جابر بن عبد الله مرفوعًا: «**أهلُ الجنةِ يُدْعَوْنَ بأسمائِهم؛ إلا آدَمَ؛ فإنَّه يُكْنى أبا محمد**». ورواه ابن عديٍّ أيضًا من حديث عليِّ بن أبي طالب، وهو ضعيفٌ من كلِّ وجهٍ(٢). واللهُ أعلمُ.

= (١/ ١٦٦)؛ من طريق: إبراهيم بن هشام بن يحيىٰ بن يحيىٰ، عن أبيه، عن جده، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذر... فذكره مرفوعًا في سياق طويل. وهٰذا سند ضعيف جدًّا لأجل إبراهيم هٰذا؛ قال الذهبي: «متروك»؛ كما في «الميزان» و«اللسان». وقال السيوطي في «الدر» (٢/ ٤٣٦/ النساء ١٦٤): «أخرجه ابن حبان في «صحيحه» وابن الجوزي في «الموضوعات»، وهما في طرفي نقيض، والصواب أنه ضعيف، لا صحيح ولا موضوع».

لكن لهٰذه القطعة من الحديث طريق أخرىٰ صحيحة عند ابن حبان (١٤/ ٦٩/ ٦١٩٠) سيأتي تفصيل القول فيها في (ص١٠٠).

ثم لها طرق أخرىٰ عند: الطيالسي (٤٧٨)، وأحمد (٥/ ١٧٨ و١٧٩ و٢٦٥)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٩/ ١٨٠/ ١١٩٦٨ -تحفة)، والطبري في «التاريخ» (١/ ٩٤ و٩٥)، والحاكم (٢/ ٥٩٧)، وأبي نعيم (١/ ١٦٦)، والبيهقي (٩/ ٤)، وابن عساكر (٧/ ٤٤٤ وما بعدها). وبعضها ضعيف جدًّا، وأكثرها ضعيف يصلح للاعتبار.

وعليه؛ فالقطعة المذكورة صحيحة بطريق ابن حبان الثانية وحدها؛ فكيف بمجموع هٰذه الطرق؟! ولعله لذٰلك صححه الألباني في «تخريج المشكاة» (٣/ ١٩٩/ ٥١٩٩/ ٥٧٣٧).

(١) (موضوع). رواه الطبراني في «الكبير» (١١/ ١٢٩/ ١١٣٦١) بالسند المذكور، وقد بين الحافظ ابن كثير حاله كما سترىٰ، زد علىٰ ذٰلك أنه مخالف للأحاديث الصحيحة الواردة في تفضيل محمد ﷺ. وقد ذكره الهيثمي في «المجمع» (٢/ ١٦٨، ٣/ ١٤٣، ٨/ ٢٠١) وضعفه فيها، وقال الألباني في «الضعيفة» (١/ ٦٣٨/ ٤٤٦): «موضوع».

(٢) (موضوع). شيخ بن أبي خالد هٰذا متهم بالوضع له ترجمة مظلمة في «الميزان» و«اللسان»، وقد رواه ابن عدي =

وفي حديث الإسراء الذي في الصحيحين: أنَّ رسولَ الله ﷺ لمَّا مرَّ بآدم وهو في السماءِ الدُّنيا؛ قالَ له: مرحبًا بالابنِ الصالح والنبيِّ الصالح.

قال: «وإذا عن يمينِهِ أسْوِدَةٌ وعن يسارِهِ أسْوِدَةٌ؛ فإذا نَظَرَ عن يمينِهِ؛ ضَحِكَ، وإذا نَظَرَ عن شمالِهِ؛ بكى! فقلتُ: يا جبريلُ! ما هٰذا؟ قال: هٰذا آدمُ، وهؤلاء نَسَمُ بنيهِ، فإذا نَظَرَ قِبَلَ أهل اليمين - وهم أهلُ الجنةِ -؛ ضَحِكَ، وإذا نَظَرَ قِبَلَ أهل الشمال - وهم أهلُ النارِ-؛ بكى»[1].

وهٰذا معنىٰ الحديثِ.

وقال أبو بكر البزَّارُ: حدثنا محمدُ بن المثنَّىٰ، حدثني يزيدُ بن هارون، أنبأنا هشامُ بن حسان، عن الحسن؛ قال: كان عَقْلُ آدمَ مثلَ عَقْلِ جميع ولدِهِ.

وقال بعضُ العلماءِ في قولِهِ ﷺ: «فمررتُ بيوسُفَ، وإذا هُو قد أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ»[2]؛ قالوا: معناهُ أنَّه كان علىٰ النصفِ من حسن آدمَ عليه السلام. وهٰذا مناسبٌ؛ فإنَّ الله خَلَقَ آدمَ وصوَّرَهُ بيدِهِ الكريمةِ ونَفَخَ فيه من رُوحِهِ؛ فما كان لِيَخْلُقَ إلَّا أحسنَ الأشياءِ.

وقد روينا عن عبد الله بن عُمَرَ وابن عمرٍو أيضًا موقوفًا ومرفوعًا: أن الله تعالىٰ لمَّا خَلَقَ الجنة؛ قالتِ الملائكةُ: يا ربَّنا! اجعل لنا هٰذه؛ فإنَّك خلقتَ لبني آدم الدُّنيا يأكُلون فيها

= في «الكامل» (٦/ ٢٣٠٢/ ٢٧٩٧) في سياق مناكيره.

ولكنه لم ينفرد به؛ فرواه ابن عساكر في «التاريخ» (٧/ ٣٨٨) من طريق: وهب بن حفص بن عمرو البجلي، نا عبد الملك بن إبراهيم الجدي، عن حماد... به. قال في «اللسان» (٣/ ١٩٣): «وأخرج تمام الرازي في «فوائد بعض هٰذه النسخة»: وأما حديث: «أهل الجنة مرد»؛ فلم ينفرد به هٰذا الشيخ، بل رواه عبد الملك بن إبراهيم الجدي عن حماد بن سلمة... به، لكنه من رواية وهب بن حفص الحراني عنه، وهو متهم، ولعله سرقه من شيخ بن أبي خالد».

وله شاهد من حديث علي بن أبي طالب: رواه: ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢٣٠٣)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٤٨٩)، وابن عساكر في «التاريخ» (٧/ ٣٨٨). وفيه محمد بن محمد الأشعث: كذاب وضاع.

والأقرب في هٰذا المتن أن يكون مأخوذًا ممن أسلم من علماء أهل الكتاب؛ ككعب وغيره، فركب له بعض الوضاعين إسنادًا، ورفعه إلىٰ النبي ﷺ.

(١) قطعة من حديث أنس الطويل في الإسراء الذي رواه: البخاري (٨-الصلاة، ١- كيف فرضت الصلوات، ١/ ٤٥٨/ ٣٤٩)، ومسلم (١-الإيمان، ٧٤- الإسراء بالرسول ﷺ، ١/ ١٤٥/ ١٦٢). والأسودة والنسم: النفوس أو الأرواح.

(٢) نفس رقم الحاشية السابقة

ويشربونَ. فقال اللهُ تعالىٰ: وعزَّتي وجلالي؛ لا أجعلُ صالحَ ذُرِّيَّةِ من خَلَقْتُ بيدي كَمَن قلتُ له: كنْ! فكان[(١)].

وقد وَرَدَ الحديثُ المرويُّ في الصحيحين وغيرهما من طرقٍ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ على صورتِهِ»[(٢)]، وقد تكلَّمَ العلماءُ علىٰ هٰذا الحديث، فذكروا فيه مسالكَ كثيرةً، ليس هٰذا موضعَ بسطِها. والله أعلم.

۞ ذكر وفاة آدم ووصيته إلى ابنه شيث عليه السلام:

ومعنىٰ شِيثٍ: هبةُ اللهِ، وسمَّياهُ بذٰلك لأنَّهما رُزِقاهُ بعد أن قُتِلَ هابيلُ.

---

(١) (صحيح). وقد ورد من حديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم:

* فأما حديث ابن عمر؛ فلم أجده في شيء من كتب السنة، ولا وجدت من نسبه إليه. والله أعلم.

* وأما حديث ابن عمرو؛ فله عنه ثلاث طرق: الطريق الأولىٰ عند الطبراني في «الكبير» (١/ ٨٧-مجمع). قال الهيثمي: «فيه إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصي، وهو كذاب متروك». فهٰذه طريق لا يفرح بها ولا كرامة. والطريق الأخرىٰ عند الطبراني في «الأوسط» (٧/ ٩٩/ ٦١٦٩). قال الهيثمي: «في سند «الأوسط» طلحة بن زيد، وهو كذاب أيضًا». فحال هٰذه الطريق كحال التي سبقتها. وأما الطريق الثالثة؛ فذكرها ابن كثير في «البداية» (١/ ٩٥)؛ قال: «وأحسن ما يستدل به في هٰذه المسألة ما وراء عثمان بن سعيد الدرامي عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا - وهو أصح-؛ قال... (فذكره)». ولم أقف علىٰ هٰذه الطريق؛ إلا أن الظاهر أنها لا تنزل عن رتبة الحسن؛ فقد صححها ابن القيم في «مختصر الصواعق» (ص٣٨٤) وقواها ابن كثير هنا كما ترىٰ.

* وله شاهد من حديث أنس. ذكره في «الكنز» (١٢/ ١٩١/ ٣٤٦١٨) ونسبه إلىٰ ابن عساكر. ولم أعثر عليه في ترجمة آدم عليه السلام من «تاريخه». وإن كان المعتاد فيما انفرد به ابن عساكر الضعف.

* وله شاهد من حديث جابر عند: البيهقي في «الشعب» (١/ ١٧٢/ ١٤٩)، وابن عساكر في «التاريخ» (٣٤/ ١٠٩)؛ من ثلاث طرق عن هشام بن عمار، نا عبد ربه بن صالح القرشي، عن عروة بن رويم، عن جابر بن عبد الله... به مرفوعًا. وهٰذا سند لا بأس به لولا ما يخشىٰ من الانقطاع بين عروة وجابر؛ فإنه كثير الإرسال.

* ثم للحديث شواهد ضعيفة بغير هٰذا التمام. منها حديث أبي هريرة عند ابن ماجه (٣٩٤٧) بلفظ: «**المؤمن أكرم على الله عز وجل من بعض ملائكته**».

وعلىٰ هٰذا؛ فالنفس ترتاح لتقوية هٰذا الحديث: بطريق ابن عمرو الأخيرة، وشاهديها من حديث أنس وجابر، وبشهادة حديث أبي هريرة لمعناها. ثم وجدت الألباني قد ذكر حديث جابر في «المشكاة» (5732) ولم يضعفه. فالحمد لله علىٰ ما وفق إليه.

(٢) رواه: البخاري (٤٩- العتق، ٢٠- إذا ضرب العبد، ٥/ ١٨٢/ ٢٥٥٩)، ومسلم (٤٥- البر والصلة، ٣٢- النهي عن ضرب الوجه، ٤/ ٢٠١٦/ ٢٦١٢)؛ عن أبي هريرة.

وقال أبو ذرٍّ في حديثه عن رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ أنزلَ مئةَ صحيفةٍ وأربعَ صُحُفٍ، على شيثٍ خمسينَ صحيفة**»[(١)].

قال محمدُ بن إسحاقَ: ولمَّا حضرتْ آدمَ الوفاةُ، عَهِدَ إلىٰ ابنِهِ شيثٍ، وعلَّمه ساعاتِ الليل والنهار، وعلَّمه عباداتِ تلك الساعاتِ، وأعْلَمَهُ بوقوع الطُّوفانِ بعد ذٰلك. قال: ويُقال: إنَّ أنسابَ بني آدمَ اليوم كلَّها تنتهي إلىٰ شيثٍ، وسائرُ أولادِ آدمَ غيرَهُ انقرضوا وبادوا. والله أعلم. ولمَّا تُوُفِّي آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ -وكان ذٰلك يومَ الجُمُعة[(٢)] -؛ جاءتْه الملائكةُ بحَنوطٍ وكفنٍ من عندِ الله عَزَّ وَجَلَّ من الجنةِ، وعَزَّوْا فيه ابنَه ووصِيَّهُ شيثًا عَلَيْهِ السَّلَامُ. قال ابنُ إسحاق: وكسفتِ الشمسُ والقمرُ سبعةً أيام بلياليهنَّ.

وقد قال عبد الله ابن الإمام أحمدَ: حدثنا هُدْبَةُ بن خالد، حدثنا حمَّادُ بن سَلَمة، عن حُمَيْدٍ، عن الحسن، عن عُتَيٍّ[(٣)] (هو ابنُ ضَمْرَةَ السعديُّ)؛ قال: رأيتُ شيخًا بالمدينةِ يتكلَّمُ، فسألتُ عنه؟ فقالوا: هٰذا أُبيُّ بن كعب. فقالَ: إنَّ آدمَ لما حَضَرَهُ الموتُ؛ قال لبنيهِ: أيْ بَنِيَّ! إني أشتهي من ثمارِ الجنَّةِ. قال: فذَهَبوا يطلُبون له، فاستقبَلَتْهُم الملائكةُ ومعهم أكفانُهُ وحَنوطُهُ، ومعهم الفؤوس والمَساحي والمكاتِلُ، فقالوا لهم: يا بني آدمَ! ما تُريدونَ وما تَطْلُبونَ (أو: ما تُريدونَ وأين تَطْلُبونَ)؟ قالوا: أبونا مريضٌ واشْتَهي من ثمارِ الجنَّةِ. فقالوا لهم: ارجعوا؛ فقد قضىٰ أبوكُم. فجاؤوا، فلمَّا رأَتْهم حواءُ؛ عرفتْهم، فلاذتْ بآدمَ، فقال: إليك عني؛ فإنِّي إنَّما أُتيتُ من قِبلكِ؛ فخلِّي بيني وبين ملائكةِ ربِّي عَزَّ وَجَلَّ. فقبضوه، وغسَّلوه، وكفَّنوه، وحنَّطوه، وحفَروا له، ولَحَدُوه، وصلُّوا عليه، ثم أدْخَلوه قبرَهُ، فوَضَعوهُ في قبرِهِ، ثم حَثَوْا عليه، ثم قالوا: يا بني آدمَ! هٰذه سُنَّتُكم[(٤)]. إسنادٌ صحيحٌ إليه.

---

(١) (ضعيف جدًّا). قطعة من حديث تقدم الكلام عنه في (ص٨٨).

(٢) انظر ما تقدم (ص٥٥ و٧٧).

(٣) تصحفت في جميع الأصول إلىٰ: «يحيىٰ»! والتصويب من مصادر التخريج.

(٤) (**صحيح موقوفًا ومرفوعًا**). وقد رواه أربعة عن الحسن واختلفوا فيه:

* فرواه: الطبري في «التاريخ» (١/ ١٠٠)، والطبراني في «الأوسط» (٩/ ١٢٢/ ٨٢٥٧)، وابن عساكر (٧/ ٤٥٥)؛ من طريق ثابت البناني، عن الحسن، عن عتي، عن أبي... فذكر بعضه مرفوعًا. وسنده ضعيف، فيه روح بن أسلم؛ ضعيف، واضطرب فيه فأسقط عتيًّا مرة، وذكره في غيرها، وبه أعله الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٠٢).

* ورواه: عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (٥/ ١٣٦)، ومن طريقه ابن عساكر (٧/ ٤٥٦)؛ من طريق =

وروىٰ ابن عساكر من طريق: شَيْبانَ بن فَرُّوخ، عن محمد بن زياد، عن ميمون بن مِهْران، عن ابن عباس: أنَّ رسول الله ﷺ قالَ: «**كَبَّرَتِ الملائكةُ على آدمَ أربعًا**». وكَبَّرَ أبو بكرٍ علىٰ فاطمةَ أربعًا، وكبَّرَ عمرُ علىٰ أبي بكرٍ أربعًا، وكبَّرَ صُهَيْبٌ علىٰ عمرَ أربعًا. قال ابنُ عساكر: ورواه غيرُهُ عن ميمونَ، فقال: عن ابنِ عمر[1].

واختلفوا في موضع دفنِهِ: **فالمشهورُ** أنَّه دُفِنَ عند الجبل الذي أُهْبِطَ فيه في الهند. **وقيل**: بجبل أبي قُبَيْس بمكَّةَ. **ويقال**: إن نوحًا عليه السلام لما كان زَمَنُ الطُّوفانِ؛ حَمَلَهُ هو وحواءَ في تابوتٍ، فدفَنَهما ببيت المقدس. حكىٰ ذٰلك ابن جرير[2]. وروىٰ ابن عساكر[3] عن بعضِهِم:

= حميد، عن الحسن، عن عتي، عن أبي... فذكر بعضه مرفوعًا. ومحمد بن ذكوان ضعيف.

* ورواه: الطبراني في «الأوسط» (١٠/ ١٢٠/ ٩٢٥٥)، وابن عساكر في «التاريخ» (٧/ ٤٥٦)؛ من طريق محمد بن ذكوان، عن الحسن، عن عتي، عن أبي... فذكر بعضه مرفوعًا. ومحمد بن ذكوان ضعيف.

* واختلف علىٰ يونس بن عبيد فيه: فرواه ابن سعد (١/ ١٢) عن سعيد بن سليمان، نا هشيم، نا يونس، عن الحسن... به موقوفًا. وسنده صحيح. وخالف سعيدَ بنَ سليمان سعيدُ بن منصور وعلي بن حجر. فرواه الحاكم (١م٣٤٤) من طريقهما، عن هشيم... به مرفوعًا. وسنده صحيح. وتابع هشيمًا إسماعيل بن علية. فرواه الحاكم (١/ ٣٤٤) عنه، عن يونس... به مرفوعًا. وسنده صحيح. فالأصح والأرجح من هٰذا الوجه الرفع. وإذ قد صح الحديث من الوجه الأخير مرفوعًا؛ فإنه يزداد قوة وصحة بالطريقين الضعيفتين الأولىٰ والثالثة. ولن تضره بعد ذٰلك الطريق الثانية الموقوفة، بل تزيده قوة إن شاء الله.

(١) (**ضعيف جدًّا**). روي من حديث ابن عباس وابن عمر وأنس رضي الله عنهم:

* فأما حديث ابن عباس؛ فرواه: أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٩٦)، وابن عساكر (٧/ ٤٥٨)؛ من طريق محمد بن زياد، عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس... به. ومحمد بن زياد هٰذا كذاب ساقط. ثم قد خالفه فرات بن السائب - وما هو بخير منه - فرواه عن ميمون، عن ابن عباس... به، فوقفه عليه. أخرجه الحاكم (١/ ٣٨٥) وضعفه هو والذهبي والحق أنه دون ذٰلك بكثير.

* وأما حديث ابن عمر؛ فرواه ابن عساكر (٧/ ٤٥٨) من طريق فرات بن السائب أيضًا، عن ميمون، عن ابن عمر... به موقوفًا. فقد اضطرب فرات كما ترىٰ -علىٰ سقوطه وكذبه- فرواه مرة عن ابن عباس ومرة عن ابن عمر!

* وأما حديث أنس؛ فرواه الحاكم (١/ ٣٨٥) من طريق الهيثم بن جميل، ثنا مبارك بن فضالة، عن الحسن، عن أنس... به موقوفًا. ومبارك والحسن قد عنعنا علىٰ تدليسهما؛ فالسند ضعيف علىٰ وقفه.

(٢) في «التاريخ» (١/ ١٠١).

(٣) في «التاريخ» (٧/ ٤٥٨) عن عبد الله بن أبي فراس.

أنَّه قال: رأسُهُ عند مسجدِ إبراهيم، ورجلاهُ عند صخرةِ بيت المقدسِ!

وقد ماتت بعدَهُ حواءُ بسنةٍ واحدةٍ.

واخْتُلِفَ في مقدارِ عُمُرِهِ عليه السلام: فقدَّمنا في الحديث عن ابن عباس وأبي هريرة مرفوعًا: أنَّ عُمُرَهُ اكتُتِبَ في اللوح المحفوظِ ألفِ سنةٍ[١]. وهٰذا لا يُعارِضُه ما في التَّوراةِ من أنَّه عاش تسع مئةٍ وثلاثين سنةً؛ لأنَّ قولَهم هٰذا مطعونٌ فيه مردودٌ إذا خالف الحقَّ الذي بأيدينا مما هو المحفوظُ عن المعصوم. وأيضًا؛ فإنَّ قولَهم هٰذا يمكِنُ الجمعُ بينَه وبين ما في الحديث؛ فإن ما في التوراةِ -إن كان محفوظًا- محمولٌ علىٰ مدةِ مُقامِهِ في الأرض بعد الإهباطِ، وذٰلك تسعُ مئة وثلاثونَ سنةً شمسيَّةً، وهي بالقمريَّةِ تسعُ مئةٍ وسبع وخمسون سنةً، ويضافُ إلىٰ ذٰلك ثلاثٌ وأربعون سنةً مدَّة مُقامِهِ في الجنة قبلَ الإهباط علىٰ ما ذَكَرَهُ ابنُ جرير وغيرُهُ، فيكون الجميعُ ألفَ سنةٍ.

وقال عطاءٌ الخرسانيُّ: لما ماتَ آدمُ؛ بكتِ الخلائقُ عليه سبعةَ أيَّام. رواه ابن عساكر[٢].

۞ [بين آدم وإدريس عليهما السلام]:

فلمَّا مات آدمُ عليه السلام؛ قام بأعباءِ الأمر بعدَه وللدُهُ شِيثٌ عليه السلام، وكانَ نبيًّا بنصِّ الحديث الذي رواه ابنُ حِبان في «صحيحه» عن أبي ذرٍّ مرفوعًا: أنَّه أنزِلَ عليه خمسونَ صحيفةً[٣].

فلما حانت وفاتُهُ؛ أوصىٰ إلىٰ ابنِهِ أَنُوشَ، فقام بالأمرِ بعده.

ثم بعدَه ولدُه قِينَانُ.

ثم من بعدِه ابنُهُ مَهْلَلْئِيلُ، وهو الذي يزعُمُ الأعاجمُ من الفُرْس أنَّه مَلَكَ الأقاليمَ السبعة، وأنَّه أولُ مَن قَطَعَ الأشجارَ، وبنىٰ المدائنَ والحصونَ الكِبارَ، وأنَّه هو الذي بنىٰ مدينةَ بابلَ ومدينةَ السوسِ الأقصىٰ، وأنَّه قَهَرَ إبليسَ وجنودَهُ وشرَّدَهم عن الأرض إلىٰ أطرافِها وشِعابِ جبالِها، وأنَّه قَتَلَ خَلْقًا من مَرَدَةِ الجنِّ والغِيلانِ، وكان له تاجٌ عظيمٌ، وكان يخطُبُ الناس، ودامت دولتُهُ أربعين سنةً.

---

(١) تقدما بألفاظهما وتخريجهما (ص٧١-٧٢ و٦٧-٦٩).

(٢) في «التاريخ» (٧/ ٤٥٩).

(٣) (ضعيف جدًّا). تقدم تخريجه والكلام عليه في (ص٨٨).

فلمّا مات؛ قام بالأمرِ بعدَه ولدُهُ يارَدُ.

فلما حَضَرَتْهُ الوفاةُ؛ أوصىٰ إلىٰ ولدِهِ أَخْنوخَ، وهو إدريسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ علىٰ المشهورِ.

❁ ❁ ❁

[قصة إدريس عليه السلام]

۞ ذكر إدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ [في القرآن الكريم]:

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: ٥٦-٥٧].

فإدريسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قد أثنىٰ الله عليه ووصفَه بالنبوَّة والصديقيَّة، وهو أخنوخُ هٰذا، وهو في عمود نسبِ رسول اللهِ ﷺ علىٰ ما ذَكَرَهُ غيرُ واحدٍ من علماء النَّسب، وكان أولَ بني آدمَ أُعْطِيَ النبوَّةَ بعد آدمَ وشيثٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وذَكَرَ ابنُ إسحاقَ أنَّه أولُ من خطَّ بالقلم، وقد أدركَ من حياةِ آدمَ ثلاثَ مئةٍ وثماني سنينَ.

وقد قال طائفةٌ من الناس: إنَّه المشارُ إليه في حديث معاويةَ بن الحكم السُّلَمِيِّ لما سأل رسولَ اللهِ ﷺ عن الخطِّ بالرمل؟ فقال: «**إنَّه كان نبيٌّ يَخُطُّ بهِ؛ فمَنْ وافَقَ خَطَّهُ؛ فذاك**»[١].

ويزعُمُ كثيرٌ من علماء التفسير والأحكام أنَّه أولُ من تكلَّم في ذٰلك، ويسمُّونه هِرْمِسَ الهَرامسةِ[٢]، ويكذِبونَ عليه أشياءَ كثيرةً كما كذبوا علىٰ غيرِهِ من الأنبياءِ والعلماءِ والحكماءِ والأولياءِ.

۞ [أخبار إسرائيلية في رفع إدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ]:

وقوله تعالىٰ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: ٥٧]: هو كما ثبت في الصحيحين في حديث الإسراء[٣]: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ مرَّ به وهو في السماءِ الرابعةِ.

وقد روىٰ ابنُ جرير[٤]: عن يونُس بن عبد الأعلىٰ، عن ابن وهب، عن جرير بن حازم،

---

(١) رواه مسلم (٣٩-السلام، ٣٥- تحريم الكهانة، ٤/ ١٧٤٩/ ٥٣٧).

(٢) اسم سرياني معناه أسد الأسود.

(٣) تقدم تخريجه (ص٩٠).

(٤) في «التفسير» (٨/ ٣٥٢/ ٢٣٧٦٨). وقد جاء في جميع الأصول: «عن يونس عن عبد الأعلىٰ»، والتصويب من «تفسير ابن جرير».

عن الأعمش، عن شِمْرِ بن عطية، عن هلال بن يِساف؛ قال: سأل ابنُ عباس كعبًا وأنا حاضرٌ، فقالَ له: ما قولُ اللهِ تعالىٰ لإدريسَ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾؟ فقال كعبٌ: أما إدريسُ؛ فإنَّ الله أوحىٰ إليه: إني أرفعُ لك كلَّ يوم مثلَ جميع عمل بني آدمَ (لعلَّه من أهل زمانِهِ). فأحبَّ أن يزدادَ عملًا، فأتاه خليلٌ له من الملائكةِ، فقال: إنَّ اللهَ أوحىٰ إليَّ كذا وكذا؛ فكَلِّمْ ملكَ الموت حتىٰ أزدادَ عملًا! فحَمَلَهُ بين جناحيه، ثم صَعِدَ به إلىٰ السماءِ، فلما كان في السماءِ الرابِعة؛ تَلَقَّاهُ مَلَكُ الموتِ منحدرًا، فكلَّمَ مَلَكَ الموتِ في الأمرِ الذي كلَّمَه فيه إدريسُ، فقال: وأين إدريسُ؟ قال: هو ذا علىٰ ظهري. فقال مَلَكُ الموتِ: يا للعجب! بُعِثْتُ وقيلَ ليَ: اقبِضْ رُوحَ إدريسَ في السماءِ الرابعةِ! فجعلتُ أقولُ: كيف أقبِضُ رُوحَه في السماءِ الرابعةِ وهو في الأرض؟! فقبَضَ رُوحَه هناك؛ فذٰلك قولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾.

ورواه ابنُ أبي حاتم[١] عند تفسيرِها، وعندَه: فقال لذٰلك المَلَك: سلْ لي مَلَكَ الموتِ: كم بقيَ من عُمُري؟ فسألَهُ وهو معهُ: كم بَقِيَ من عُمُرِهِ؟ فقال: لا أدري حتىٰ أنظُرَ. فَنَظَرَ، فقالَ: إنَّك لَتسألُني عن رجل ما بَقِيَ من عُمُرِه إلَّا طرفةُ عينٍ. فَنَظَرَ المَلَكُ إلىٰ تحتِ جناحِهِ إلىٰ إدريسَ؛ فإذا هو قد قُبِضَ وهو لا يشعُرُ.

وهٰذا من الإسرائيليّات، وفي بعضِهِ نكارةٌ.

وقال ابنُ أبي نَجيح: عن مجاهدٍ؛ في قولِهِ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾؛ قال: إدريسُ رُفعَ ولم يَمُتْ؛ كما رُفعَ عيسىٰ! إن أرادَ أنَّه لم يَمُتْ إلىٰ الآنَ؛ ففي هٰذا نظرٌ، وإن أراد أنَّه رُفعَ حيًّا إلىٰ السماء ثم قُبِضَ هناك؛ فلا يُنافي ما تقدَّمَ عن كعبِ الأحبارِ. والله أعلم.

وقال العَوْفِيُّ عن ابن عباس في قوله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾: رُفِعَ إلىٰ السماء السادسةِ، فمات بها! وهكذا قال الضَّحاكُ! والحديثُ المتَّفَقُ عليه من أنَّه في السماء الرابعة أصحُّ[٢]، وهو قول مجاهدٍ وغيرِ واحدٍ.

وقال الحسنُ البصريُّ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾؛ قال: إلىٰ الجنةِ.

وقال قائلونَ: رُفعَ في حياةِ أبيه ياردَ بنِ مَهْلَلْئيلَ. والله أعلم.

---

(١) ليس في المطبوع الذي جمعه أسعد محمد الطيب.

(٢) تقدم تخريجه (ص٩٠).

۞ [ذكر الخلاف في زمان إدريس عليه السلام]:

وقد زَعَمَ بعضُهم أنَّ إدريسَ لم يكنْ قبلَ نوح، بل في زمانِ بني إسرائيلَ:

قال البخاريُّ[(١)]: ويُذْكَرُ عن ابنِ مسعودٍ وابن عباس: أنَّ إلياسَ هو إدريس.

واستأنسوا في ذٰلك بما جاء في حديث الزُّهريِّ عن أنس في الإسراء: أنَّه لمَّا مرَّ به عليه السلام؛ قالَ له: «**مرحبًا بالأخ الصَّالح والنبيِّ الصَّالح**». ولم يَقُلْ كما قال آدمُ وإبراهيمُ: «**مرحبًا بالنبيِّ الصَّالح والابنِ الصَّالح**»[(٢)]. قالوا: فلَوْ كانَ في عَمودِ نسبِهِ؛ لَقالَ له كما قالا له.

وهٰذا لا يَدُلُّ ولا بدَّ[(٣)]؛ لأنَّه قد لا يكونُ الرَّاوي حَفِظَهُ جيِّدًا، أو لعلَّه قالَه له علىٰ سبيل الهَضْم والتَّواضُع ولم ينتصبْ له في مقام الأبوَّةِ كما انتصبَ لآدمَ أبي البشرِ وإبراهيمَ الذي هو خليلُ الرحمن وأكبرُ أولي العزم بعد محمدٍ صلواتُ اللهِ عليهم أجمعينَ.

۞ ۞ ۞

---

(١) (٦٠-الأنبياء، ٤- ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾، ٦/ ٣٧٣). وقال الحافظ: «أما قول ابن مسعود؛ فوصله عبد بن حميد وابن أبي حاتم بإسناد حسن عنه؛ قال: إلياس هو إدريس، ويعقوب هو إسرائيل. وأما قول ابن عباس؛ فوصله جويبر في «تفسيره» عن الضحاك عنه. وإسناده ضعيف».

(٢) تقدم تخريجه في (ص٩٠).

(٣) يعني: ليست دلالته أكيدة.

قصة نوح عليه السلام

❁ [نسبه عليه السلام]:

هو نوحُ بنُ لامَكَ بنِ مَتُوشالَحَ بنِ أَخْنوخَ (وهو إدريسُ) بنِ يارَدَ بنِ مَهْلَلْئيلَ بنِ قِينانَ بن أَنُوشَ بنِ شِيثَ بِن آدمَ أبي البشرِ عليه السلام.

❁ [الفترة التي كانت بينه وبين آدم عليهما السلام]:

كان مولدُهُ بعد وفاةِ آدمَ بمئةِ سنةٍ وستٍّ وعشرين سنةً فيما ذَكَرَهُ ابنُ جريرٍ[١] وغيرُهُ. وعلىٰ تاريخ أهل الكتاب المتقدِّم[٢] يكونُ بين مولدِ نوح وموتِ آدمَ مئةٌ وستٌّ وأربعون سنةً.

وكان بينَهما عَشَرَةُ قرونٍ؛ كما قال الحافظُ أبو حاتم بن حِبَّانَ في «صحيحه»: حدثنا محمد بن عمر بن يوسف، حدثنا محمد بن عبد الملك بن زَنْجَوَيْهِ، حدثنا أبو تَوْبَةَ، حدثنا معاوية بن سلَّام، عن أخيه زيد بن سلَّام، سمعت أبا سلَّام، سمعت أبا أمامة: أن رجلًا قال: يا رسول الله! أنبيٌّ كانَ آدمُ؟ قال: «**نَعَمْ؛ مُكَلَّمٌ**». قال: فكمْ كانَ بينَهُ وبينَ نوحٍ؟ قال: «**عَشَرَةُ قرونٍ**». قلت: وهٰذا علىٰ شرطِ مسلم ولم يخرِّجْه[٣].

---

(١) في «التاريخ» (١/ ١٠٨).

(٢) انظر تفصيله في (ص٨٦).

(٣) (صحيح). رواه: ابن حبان (١٤/ ٦٩/ ٦١٩٠)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ١١٨/ ٧٥٤٥) و«الأوسط» (١/ ٢٥٦/ ٤٠٥)، والحاكم (٢/ ٢٦٢)، وابن عساكر (٧/ ٤٤٥-٤٤٦)؛ من طرق عن أبي توبة الربيع بن نافع... به.

قال الطبراني: «لا يروىٰ هٰذا الحديث عن أبي أمامة إلا بهٰذا الإسناد، تفرد به معاوية بن سلَّام». قلت: هو ثقة من رجال الشيخين، وبقية رجاله ثقات رجال مسلم؛ فالسند صحيح، وقد صححه الحاكم علىٰ شرط مسلم، ووافقه الذهبي وابن كثير، وقال الهيثمي (١/ ٢٠١، ٨/ ٢١٣): «رجاله رجال الصحيح»، وصححه الألباني.

تنبيه: للحديث طرق أخرىٰ عند: أحمد (٥/ ٢٦٥)، والطبري في «التاريخ» (١/ ٩٥)، وغيرهما؛ صرحت بأن الرجل المبهم هنا هو أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، ولذٰلك أشرت إلىٰ هٰذا الحديث علىٰ أنه إحدىٰ طرق حديث أبي ذر المتقدم في (ص١١٥-١١٦)، وصححت بعض حديث أبي ذر به.

وفي «صحيح البخاري» عن ابن عباس؛ قال: كانَ بين آدمَ ونوحٍ عَشَرَةُ قرونٍ، كلُّهم علىٰ الإسلام[(١)].

فإنْ كان المرادُ بالقَرْنِ مئةَ سنةٍ -كما هو المتبادِرُ عند كثيرٍ من الناس-؛ فبينهما ألفُ سنةٍ لا محالةَ، لكن لا ينفي أن يكونَ أكثر باعتبار ما قَيَّدَ به ابنُ عباس بالإسلام؛ إذْ قد يكونُ بينَهما قرونٌ أخر متأخِّرةٌ لم يكونوا علىٰ الإسلام. لٰكنْ حديثُ أبي أمامة يدُلُّ علىٰ الحصرِ في عَشَرَةِ قرونٍ، وزادَنا ابن عباس أنَّهم كُلَّهم كانوا علىٰ الإسلام. وهٰذا يردُّ قولَ مَن زَعَمَ من أهل التواريخ وغيرِهِم من أهل الكتابِ أنَّ قابيلَ وبنيهِ عَبَدوا النارَ. والله أعلم.

وإن كان المرادُ بالقَرْنِ الجيلَ من الناس؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]، وقوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المؤمنون: ٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ [الفرقان: ٣٨]، وقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ [مريم: ٧٤]، وكقولِهِ ﵇: «خيرُ القرونِ قَرْني...» الحديث[(٢)]؛ فقد كان الجيلُ قبل نوح يعمِّرونَ الدُّهورَ الطويلةَ؛ فعلىٰ هٰذا يكونُ بينَ آدمَ ونوح ألوفٌ من السِّنين[(٣)]. والله أعلم.

وبالجملةِ؛ فنوحٌ ﵇ إنَّما بَعَثَهُ الله تعالىٰ لمَّا عُبِدَتِ الأصنامُ والطَّواغيتُ وشَرَعَ الناسُ

---

(١) لم أجده في «الصحيح»! والظاهر أن في الكلام سقطًا، وأن الحافظ ابن كثير أراد أن يقول: «وعند الحاكم بسند صحيح علىٰ شرط البخاري»، أو ما يقارب هٰذا؛ لأن أثر ابن عباس هٰذا رواه الحاكم (٢/ ٥٤٦) وقال: «صحيح علىٰ شرط البخاري ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي. فالله أعلم.

(٢) رواه: البخاري (٥٢- الشهادات، ٩- لا يشهد علىٰ شهادة جور، ٥/ ٢٥٨/ ٢٦٥١ و٢٦٥٢)، ومسلم (٤٤- فضائل الصحابة، ٥٢- فضل الصحابة ثم الذين يلونهم، ٤/ ١٩٦٢/ ٢٥٣٥ و٢٥٣٣)؛ من حديث عمران وابن مسعود ﵄.

(٣) وهٰذا هو المتعيِّن؛ لأن عبادة الأوثان إنما حصلت بالتدريج وبعد انقراض أجيال وأجيال، حتىٰ نُسي العلم وعُبد الصالحون، وتوارث الأبناء عن آبائهم هٰذه العبادة، وقالوا عن إخلاص العبادة لله وحده: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون: ٢٤]؛ فمثل هٰذا من المستبعد جدًّا أن يحصل علىٰ مدىٰ ألف عام لأهل ذٰلك العصر؛ لأنه يعني أنهم عبدوا الأصنام وأبوهم آدم ما زال حيًّا!! ثم اختصار الزمن بهٰذه الصورة يجعل عمر الإنسان علىٰ وجه الأرض لا يتجاوز سبعة آلاف عام إلا قليلاً!! والإثباتات العلمية تؤكد أكثر من ذٰلك بكثير. والله أعلم.

فِي الضَّلالةِ والكفرِ، فبعثَهُ اللهُ رحمةً للعباد، فكان أولَ رسول بُعِثَ إلىٰ أهل الأرض؛ كما يقولُ له أهلُ الموقفِ يومَ القيامة[1]. وكان قومُهُ يُقالُ لهم بنو راسبٍ فيما ذَكَرَهُ ابنُ جريرٍ[2] وغيرُه.

❁ ❁ ❁

(١) كما جاء في حديث الشفاعة الطويل الذي تقدم تخريجه (ص٣٨).

(٢) في جميع الأصول: «ابن جبير»! وهو تحريف ظاهر. ثم الذي في «تاريخ الطبري: (١/ ١١٢) أنهم أتباع بيوَراسب الملك، وليسوا بني راسب، ولم يمر في أسماء أولئك القوم من اسمه راسب واشتهر به بنوه، فكأن ما هنا تحريف. والله أعلم.

۞ [سنة عليه السلام يوم بعث]:

وقد اختلفوا في مقدار سِنِّه يومَ بُعِثَ: فقيل: كان ابنَ خمسين سنةً. وقيل: ابنَ ثلاثِ مئةٍ وخمسين سنةً. وقيل: ابنَ أربع مئةٍ وثمانين سنةً. حكاها ابنُ جَريرٍ(١)، وعزا الثالثة منها إلى ابن عباس.

۞ [قصته عليه السلام كما جاءت في القرآن الكريم]:

وقد ذَكَرَ الله قصَّته، وما كان من قومِهِ، وما أنزلَ بمَنْ كَفَرَ به من العذابِ بالطُّوفانِ، وكيف أنْجاهُ وأصحابَ السفينةِ؛ في غيرِ ما موضع من كتابِهِ العزيزِ؛ ففي الأعراف ويونُس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات واقتربت وأنزل فيه سورةً كاملةً.

فقال في سورة الأعراف: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٩-٦٤].

وقال تعالىٰ في سورة يونس: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس: ٧١-٧٣].

وقال تعالىٰ في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ

(١) في «تاريخه» (١/ ١٠٩).

لَهَا كَٰرِهُونَ (٢٨) وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ
رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ (٢٩) وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَآ أَقُولُ
لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ
ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣١) قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ
إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ
أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ (٣٤) أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ
فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ (٣٥) وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ
بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ (٣٦) وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ (٣٧) وَيَصۡنَعُ
ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ (٣٨)
فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ (٣٩) حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا
ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ (٤٠) ۞
وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ (٤١) وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ
نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (٤٢) قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي
مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ
يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٤)
وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ
مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ
بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ
مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ (٤٨) تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ
نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ (٤٩)﴾ [هود: ٢٥-٤٩].

وقال تعالىٰ في سورة الأنبياء: ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ
مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ
أَجۡمَعِينَ (٧٧)﴾ [الأنبياء: ٧٦-٧٧].

وقال تعالىٰ في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣-٣٠].

وقال تعالىٰ في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥-١٢٢].

وقال تعالىٰ في سورة العنكبوت: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت: ١٤-١٥].

وقال تعالىٰ في سورة الصافات: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الصافات: ٧٥-٨٢].

وقال تعالىٰ في سورة اقتربت: ﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن

مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ٩-١٧].
وقال تعالى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ
إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي
إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا
اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ
كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ
لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا
وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ
الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾
وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا
كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ
نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ
اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح: ١-٢٨].

وقد تكلمنا علىٰ كلِّ موضع من هٰذه في «التفسير»، وسنذكُرُ مضمونَ القصةِ مجموعًا من هٰذه الأماكن المتفرِّقَةِ، وممَّا دَلَّتْ عليه الأحاديثُ والآثارُ.

۞ [ذكره في القرآن على سبيل مدحه وذم من خالفه]:

وقد جرىٰ ذِكْرُه أيضًا في مواضعَ متفرِّقةٍ من القرآن فيها مَدْحُهُ وذمُّ مَن خالفه:

فقال تعالىٰ في سورة النساء: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا
دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ
تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا
حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥].

وقال في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٧].

وتقدمت قصتُهُ في الأعراف.

وقال في سورة براءة: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [التوبة: ٧٠].

وتقدمت قصته في يونس وهود.

وقال في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [إبراهيم: ٩].

وقال في سورة سبحان: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء: ٣].

وقال فيها أيضًا: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء: ١٧].

وتقدمت قصته في الأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت:

وقال في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧].

وقال في سورة صٓ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [ص: ١٢-١٤].

وقال في سورة غافر: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ

بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾ [غافر: ٥-٦].

وقال في سورة الشورىٰ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورىٰ: ١٣].

وقال تعالىٰ في سورة قٓ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [ق: ١٢-١٤].

وقال في الذاريات: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الذاريات: ٤٦].

وقال في النجم: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ [النجم: ٥٢].

وتقدمت قصته في سورة اقتربت الساعة.

وقال تعالىٰ في سورة الحديد: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الحديد: ٢٦].

وقال تعالىٰ في سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ١٠].

[ما جاء في انحراف ذرية آدم عليه السلام وعبادتهم الأصنام]:

وأمَّا مضمونُ ما جرىٰ له مع قومِهِ مأخوذًا من الكتابِ والسُّنَّةِ والآثار:

فقد قَدَّمْنا عن ابنِ عباس: أنَّه كانَ بين آدمَ ونوح عَشَرَةُ قُرونٍ؛ كلُّهم علىٰ الإسلام. رواه البخاري[1]. وذَكَرْنا أنَّ المراد بالقرنِ الجيلُ أو المدَّةُ علىٰ ما سَلَفَ.

ثم بعد تلك القرونِ الصالحةِ حَدَثَتْ أمورٌ اقتضتْ أن آلَ الحالُ بأهل ذٰلك الزمان إلىٰ عبادة الأصنام:

(١) وقد قدمنا في (ص١٠٠) أنه ليس فيه.

وكان سبب ذٰلك ما رواه البخاريُّ(١) من حديث: ابن جُريج، عن عطاء، عن ابن عباس؛ عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣]؛ قال: هٰذه أسماء رجال صالحينَ من قوم نُوح، فلمَّا هَلَكوا؛ أوحىٰ الشيطانُ إلىٰ قومِهِم: أنِ انْصبوا إلىٰ مجالِسِهم التي كانوا يجلِسون فيها أنصابًا وسَمُّوها بأسمائِهِم! ففعَلوا، فلم تُعبَدْ، حتىٰ إذا هَلَكَ أولٰئك وانتسخَ العلمُ؛ عُبِدَتْ. قال ابن عباس: وصارت هٰذه الأوثانُ التي كانتْ في قوم نوح في العرب بعد.

وهكذا قال عِكرمةُ والضحَّاكُ وقتادةُ ومحمدُ بن إسحاقَ.

وقال ابنُ جريرٍ في «تفسيره»(٢): حدثنا ابن حُمَيْدٍ، حدثنا مِهْرانُ، عن سفيان، عن موسىٰ، عن محمد بن قيس؛ قال: كانوا قومًا صالحين بينَ آدمَ ونوح، وكان لهم أتباعٌ يَقْتَدونَ بهم، فلمَّا ماتوا؛ قال أصحابُهُم الذين كانوا يَقْتَدون بهم: لو صَوَّرْناهُم؛ كان أشوقَ لنا إلىٰ العبادةِ إذا ذَكَرْناهُم! فصَوَّروهُم، فلما ماتوا وجاء آخرون؛ دبَّ إليهم إبليسُ، فقالَ: إنَّما كانوا يَعْبُدونَهم وبِهِمْ يُسْقَوْنَ المَطَرَ! فعَبَدوهم.

وروىٰ ابنُ أبي حاتم(٣) عن عُروة بن الزُّبير: أنَّه قال: وَدٌّ ويغوثُ ويعوقُ وسُواعٌ ونَسْرٌ أولادُ آدم، وكان وَدٌّ أكبرَهُم وأبَرَّهُم به.

قال ابنُ أبي حاتم(٤): حدَّثنا أحمد بن منصورٍ، حدثنا الحسنُ بن موسىٰ، حدثنا يعقوبُ، عن أبي المطهر؛ قال: ذكروا عند أبي جعفرٍ (هو: الباقرُ) وهو قائمٌ يصلِّي يزيدَ بن المهلَّب. قال: فلمَّا انفتلَ من صلاتِه قالَ: ذكرتُم يزيدَ بن المهلَّب أما إنَّه قُتِلَ في أول أرضٍ عُبِدَ فيها غيرُ الله تعالىٰ. قال: [ثم] ذَكَرَ وَدًّا؛ قال: كان رجُلًا صالحًا، وكان محبَّبًا في قومِهِ، فلما مات؛ عَكَفوا حول قبرِهِ في أرض بابلَ وجَزِعوا عليه! فلما رأىٰ إبليسُ جَزَعَهُمْ عليه؛ تَشَبَّهَ في صورةِ إنسانٍ، ثم قال: إنِّي أرىٰ جَزَعَكُم علىٰ هٰذا الرجل؛ فهل لكُم أن أصوِّرَ لكُم مثلَه، فيكونُ في ناديكم، فتَذْكُرونَهُ

(١) (٦٥- التفسير، ٧١-نوح، ١- ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾، ٨/ ٦٦٧/ ٤٩٢٠).

(٢) (١٢/ ٢٥٤/ ٣٥٠٢٧).

(٣) في «التفسير» (١٠/ ٣٣٧٥/ ١٨٩٩٦).

(٤) في «التفسير» (١٠/ ٣٣٧٥/ ١٨٩٩٧).

به؟ قالوا: نعم. فصوَّرَ لهم مثلَه. قال: فوضَعوه في ناديهم، وجعلوا يَذْكُرونَه، فلمَّا رأىٰ ما بِهِم من ذِكْرِهِ؛ قال: هل لَكُم أن أجعلَ في منزل كلِّ واحدٍ منكُم تِمثالًا مثلَه ليكون له في بيتِهِ فتذْكُرونَه؟ قالوا: نعم. قال: فمَثَّلَ لكلِّ أهل بيتٍ تِمثالًا مثلَه، فأقْبَلوا، فجعلوا يَذْكُرونَه به. قال: وأدركَ أبناؤُهم، فجَعَلوا يَرَوْنَ ما يصنعونَ به. قال: وتَناسَلوا، ودَرَسَ أمرُ ذِكْرِهِم إيَّاه، حتَّىٰ اتَّخذوهُ إلهًا يعبدونَه مِن دون اللهِ أولادُ أولادِهِم، فكان أولَ ما عُبِدَ غير الله وَدٌّ؛ الصنمُ الذي سَمَّوْهُ وَدًّا.

ومقتضىٰ هٰذا السياق أنَّ كلَّ صنم من هٰذه عَبَدَهُ طائفةٌ من الناس، وقد ذُكِرَ أنَّه لما تطاولتِ العهودُ والأزمانُ؛ جعلوا تلكَ الصُّوَرَ تماثيل مجسَّدةً ليكونَ أثبتَ لها، ثم عُبِدَتْ بعد ذٰلك من دون الله ﷻ.

ولهم في عبادتِها مسالكُ كثيرةٌ جدًّا قد ذَكَرْناها في مواضِعِها من كتابنا «التفسير». ولله الحمدُ والمِنَّةُ.

وقد ثبتَ في الصحيحين[1] عن رسول اللهِ ﷺ: أنَّه لَمَّا ذَكَرَتْ أمُّ سلمةَ وأمُّ حبيبةَ تلك الكنيسةَ التي رَأَيْنَها بأرض الحبشةِ، ويقالُ لها: مارية، وذَكَرَتا من حُسْنِها وتصاويرَ فيها؛ قال: **«أولٰئكَ إذا ماتَ فيهِمُ الرجلُ الصالحُ؛ بَنَوْا على قبرِهِ مسجِدًا، ثم صوَّروا فيه تلكَ الصُّورَ، أولٰئك شرارُ الخَلْقِ عند الله ﷻ»**.

۞ [نوح عليه السلام يدعو قومه لإخلاص العبادة لله]:

والمقصودُ: أنَّ الفسادَ لمَّا انتشرَ في الأرض وعمَّ البلاءُ بعبادةِ الأصنام فيها؛ بَعَثَ اللهُ عبدَهُ ورسولَهُ نوحًا عليه السلام؛ يَدْعو إلىٰ عبادةِ اللهِ وحدَهُ لا شريكَ له، وينهىٰ عن عبادةِ ما سواهُ؛ فكانَ أولَ رسول بَعَثَهُ اللهُ إلىٰ أهل الأرض؛ كما ثَبَتَ في الصحيحين[2] من حديث: أبي حَيَّانَ، عن أبي زُرعة بن عمرو بن جرير، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ في حديث الشفاعة؛ قال: **«فيأتونَ آدمَ، فيقولونَ: يا آدمُ! أنت أبو البشرِ؛ خَلَقَكَ اللهُ بيدِهِ، ونَفَخَ فيك من رُوحِهِ، وأمر الملائكةَ**

---

(١) البخاري (٨- الصلاة، ٤٨- هل تنبش قبور مشركي الجاهلية، ١/ ٥٢٣/ ٤٢٧)، ومسلم (٥-المساجد، ٣- النهي عن بناء المساجد علىٰ القبور، ١/ ٣٧٥/ ٥٢٨)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) البخاري (٦٥- التفسير، ١٧-الإسراء، ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾، ٨/ ٣٩٥/ ٤٧١٢)، ومسلم (١- الإيمان، ٨٤- أدنىٰ أهل الجنة منزلة، ١/ ١٨٤/ ١٩٤).

فسَجَدوا لك، وأسكنكَ الجنةَ؛ ألا تشفعُ لنا إلى ربِّكَ؟ ألا ترى ما نحنُ فيه وما بَلَغَنا؟ فيقول: ربِّي قد غَضِبَ غَضَبًا شديدًا لم يَغضَبْ قبلَه مثله ولا يَغضَبُ بعدَهُ مثلَهُ، ونهاني عن الشجرةِ فعصيتُ، نفسي نفسي، اذْهَبوا إلى غيري، اذَهَبوا إلى نوح! فيأتون نوحًا، فيقولون: يا نوحُ! أنت أولُ الرُّسل إلى أهل الأرض، وسمَّاكَ اللهُ عبدًا شكورًا، ألا ترى إلى ما نحنُ فيه؟ ألا ترى إلى ما بَلَغَنا؟ ألا تشفعُ لنا إلى ربِّك ﷻ؟ فيقولُ: ربِّي قد غَضِبَ اليومَ غَضَبًا لم يَغْضَبْ قبلَهُ مثلَهُ، ولا يَغْضَبُ بعده مثلَهُ، نفسي نفسي...» وذَكَرَ تمام الحديثِ بطولِهِ؛ كما أوردَه البخاريُّ في قصةِ نوح[1].

فلمَّا بَعَثَ اللهُ نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ دعاهُم إلىٰ إفرادِ العبادةِ للهِ وحدَهُ لا شريكَ له، وألَّا يَعْبُدُوا معه صَنَمًا ولا تِمْثالًا ولا طاغوتًا، وأن يَعْتَرِفوا بوَحْدانِيَّتِهِ، وأنَّه لا إلٰه غيرُهُ ولا ربَّ سواه؛ كما أمَرَ اللهُ تعالىٰ مَن بعدَهُ مِن الرُّسل الذين هم كلُّهم من ذُرِّيَّتِهِ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧﴾ [الصافات: ٧٧]، وقالَ فيه وفي إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦]؛ أي: كل نبيٍّ من بعدِ نوح فمن ذُرِّيَّتِهِ، وكذٰلك إبراهيمُ. قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ۝٤٥﴾ [الزخرف: ٤٥]. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ولهٰذا قال نوحٌ لقومِهِ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقال: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۝٢٦﴾ [هود: ٢٦]، وقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٦٥﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقال: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ ... وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾ الآيات الكريمات [نوح: ٢-١٤].

فَذَكَرَ أنَّه دعاهُم إلىٰ اللهِ بأنواع الدعوةِ؛ في الليل والنهار، والسرِّ والإجهار، بالتَّرغيبِ تارةً والتَّرهيبِ أخرىٰ، وكلُّ هٰذا لم ينجحْ فيهم، بل استمرَّ أكثرُهُم علىٰ الضَّلالةِ والطُّغيان، وعبادةِ الأصنام والأوْثان، ونَصَبوا له العداوةَ في كلِّ وقتٍ وأوان، وتَنَقَّصوه وتَنَقَّصوا مَن آمنَ به، وتوعَّدوهم بالرجم والإخراج، ونالوا منهُم وبالغوا في أمرِهِم.

(١) (٦٠- الأنبياء، ٣- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾، ٦/ ٣٧١/ ٣٣٤٠).

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٦٠]؛ أي: السادةُ الكبراءُ منهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾ [الأعراف: ٦٠-٦١]؛ أي: لستُ كما تَزْعُمونَ من أنِّي ضالٌّ، بل علىٰ الهُدىٰ المستقيم، رسولٌ من ربِّ العالمينَ؛ أي: الذي يقولُ للشيء كُنْ فيكونُ. ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف: ٦٢]: وهٰذا شأنُ الرَّسول أنْ يكونَ بَليغًا؛ أي: فَصيحًا ناصِحًا، أعلم الناس باللهِ ﷻ.

وقالوا له فيما قالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود: ٢٧]: تعجَّبوا أن يكونَ بشرٌ رسولًا! وتنقَّصوا من اتَّبعه، ورأوهم أراذِلَهُم! وقد قيل: إنَّهم كانوا من أفنادِ الناس -وهم ضعفاؤُهم-؛ كما قال هِرَقْلُ: وهُم أتباعُ الرُّسُل[١]، وما ذاك إلا لأنَّه لا مانعَ لهم مَن اتِّباع الحقِّ. وقولهم: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾؛ أي: بمجرَّدِ ما دَعَوْتَهُمُ اسْتَجابوا لك من غير نظرٍ ولا رويَّةٍ! وهٰذا الذي رَمَوْهُم به هو عينُ ما يُمْدَحون بسببِهِ ﵃؛ فإنَّ الحقَّ الظَّاهِرَ لا يحتاجُ إلىٰ رَوِيَّةٍ ولا فِكرٍ ولا نَظَرٍ، بل يجبُ اتِّباعُه والانقيادُ له متىٰ ظَهَرَ. ولهٰذا قالَ رسولُ الله ﷺ مادحًا للصِّدِّيقِ: «ما دعوتُ أحدًا إلى الإسلام؛ إلَّا كانتْ له كَبْوَةٌ؛ غيرَ أبي بكرٍ؛ فإنَّه لم يَتَلَعْثَمْ»[٢]. ولهٰذا كانت بيعتُه يومَ السقيفةِ أيضًا سريعةً من غير نظرٍ ولا رَوِيَّةٍ[٣]؛ لأنَّ أفضليَّتَهُ علىٰ مَن عداه ظاهرةٌ جليَّةٌ عند الصحابةِ ﵃. ولهٰذا قال رسولُ اللهِ ﷺ لمَّا أرادَ أن يَكْتُبَ الكتابَ الذي

---

(١) رواه: البخاري (١-بدء الوحي، ٦- باب، ١/ ٣١/ ٧)، ومسلم (٣٢- الجهاد، ٢٦- كتابه ﷺ إلىٰ هرقل، ٣/ ١٣٩٣/ ١٧٧٣)؛ عن ابن عباس ﵄.

(٢) (ضعيف جدًّا). رواه: ابن إسحاق في «السيرة» (١٢٠/ ١٧٨)، ومن طريقه: ابن عساكر في «التاريخ» (٣٠/ ٤٤)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٣/ ٢٠٦)؛ حدثني محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين التميمي: أن رسول الله ﷺ قال... فذكره. وهٰذا سند واهٍ مرسلٌ منقطع أو معضل، ومحمد هٰذا لم أعرفه.

وله شاهد عن ابن عباس عند ابن عساكر (٣٠/ ٤٤)، وفيه سعد بن طريف: متروك.

ويغني عنه ما روىٰ البخاري (٦٥-التفسير، ٧-الأعراف، ٣- ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، ٨/ ٣٠٣/ ٤٦٤٠) عن أبي الدرداء: أن الرسول ﷺ قال: «إني قلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾. فقلتم: كذبتَ. وقال أبو بكر: صدقت».

(٣) انظر تفاصيل هٰذه البيعة عند البخاري (٦٣- فضائل الصحابة، ٥- قوله ﷺ: لو كنت متخذًا خليلاً، ٧/ ١٩/ ٣٦٦٨- ٣٦٧٠).

أراد أن يَنُصَّ فيه علىٰ خلافتِهِ فتركَهُ؛ قالَ: «يأبى اللهُ والمؤمنونَ إلّا أبا بكرٍ»[(١)] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقول كَفَرَةِ قوم نوح له ولمَن آمن به: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾؛ أي: لم يَظْهَرْ لكم أمرٌ بعدَ اتِّصافكم بالإيمانِ ولا مَزِيَّةٌ علينا، ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [هود: ٢٨]: وهٰذا تلطُّفٌ في الخطاب معهم وترفُّقٌ بهم في الدَّعوة إلىٰ الحقِّ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وهٰذا منه؛ يقول لهم: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ أي: النبوَّةَ والرِّسالةَ. ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: فلم تَفْهَموها ولم تَهْتَدوا إليها. ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾؛ أي: أَنَغْصِبُكم بها ونُجْبِرُكُم عليها؛ ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾؟! أي: ليس لي فيكم حيلةٌ والحالةُ هٰذه.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]؛ أي: لستُ أريدُ منكم أُجرةً علىٰ إبْلاغي إيَّاكُم ما ينفعُكم في دُنياكم وأُخراكم، إنْ أطلبُ ذٰلك إلَّا من اللهِ الذي ثوابُهُ خيرٌ لي وأبقىٰ مما تعطونَني أنتم.

وقولُهُ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [هود: ٢٩]: كأنَّهم طلبوا منه أن يُبْعِدَ هؤلاء عنه، ووعَدوه أن يَجْتَمِعوا به إذا هو فعل ذٰلك، فأبىٰ عليهم ذٰلك، وقال: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: فأخافُ إنْ طَرَدْتُهم أنْ يَشْكوني إلىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ولهٰذا قال: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [هود: ٣٠]؟! ولهٰذا لمَّا سألَ كفَّارُ قريش رسولَ الله ﷺ أن يَطْرُدَ عنه ضعفاءَ المؤمنين كعمَّارٍ وصُهَيْبٍ وبلالٍ وخبَّابٍ وأشباهِهِم؛ نهاه اللهُ عن ذٰلك كما بيَّنَّاه في سورتي الأنعام والكهف[(٢)]. ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود: ٣١]؛ أي: بل أنا عبدٌ رسولٌ، لا أعلمُ من علم اللهِ إلَّا ما أعْلَمَني به، ولا أقدِرُ إلَّا علىٰ ما أقْدَرني عليه، ولا أملِكُ لنفسي نَفْعًا ولا ضُرًّا إلا ما

---

(١) رواه مسلم (٤٤-فضائل الصحابة، ١- فضائل أبي بكر، ٤/ ١٨٥٧/ ٢٣٨٧) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) في «التفسير» (٢/ ١٢٥/ الأنعام ٥٢، ٣/ ٧٦/ الكهف ٢٨). والحديث رواه مسلم (٤٤- فضائل الصحابة، ٥- فضل سعد، ٤/ ١٨٧٨/ ٢٤١٣) عن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

شاء الله. ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ [هود: ٣١]؛ يعني من أتباعِهِ. ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣١﴾ [هود: ٣١]؛ أي: لا أشهدُ عليهم بأنَّهم لا خير لهم عند الله يومَ القيامة، اللهُ أعلم بهم، وسيُجازيهم على ما في نفوسِهم: إنْ خيرًا؛ فخيرٌ، وإنْ شرًّا؛ فشرٌّ.

كما قالوا في المواضع الأخرىٰ: ﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ۝١١١ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١١٢ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ۝١١٣ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١٤ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝١١٥﴾ [الشعراء: ١١١-١١٥].

۞ [يأس نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ من قومه]:

وقد تطاوَلَ الزمانُ والمجادلةُ بينَه وبينهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ۝١٤﴾ [العنكبوت: ١٤]؛ أي: ومع هٰذه المدة الطويلةِ؛ فما آمنَ به إلَّا القليلُ منهم، وكان كلَّما انقرضَ جيلٌ؛ وصَّوْا مَن بعدَهم بعدم الإيمانِ به ومحاربتِهِ ومخالفتِهِ، وكان الوالدُ إذا بَلَغَ ولدُهُ وعَقَلَ عنه كلامَه؛ وصَّاه فيما بينَه وبينَه ألَّا يؤمنَ بنوح أبدًا ما عاشَ ودائمًا ما بَقِيَ.

وكانت سجاياهم تأبىٰ الإيمانَ واتباعَ الحقِّ، ولهٰذا قال: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧﴾ [نوح: ٢٧]، ولهٰذا قالوا: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٣٣﴾ [هود: ٣٢-٣٣]؛ أي إنَّما يَقْدِرُ علىٰ ذٰلك اللهُ عَزَّ وَجَلَّ؛ فإنَّه الذي لا يُعْجِزُهُ شيءٌ ولا يَكْتَرِثُهُ أمرٌ، بل هو الذي يقولُ للشيءِ: كنْ فيكونُ. ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٣٤﴾ [هود: ٣٤]؛ أي: من يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ؛ فلنْ يملِكَ أحدٌ هدايتَهُ، هو الذي يهدي مَنْ يشاءُ ويُضِلُّ مَنْ يشاءُ، وهو الفعَّالُ لما يريدُ، وهو العزيزُ الحكيمُ العليمُ بمَنْ يستحقُّ الهدايةَ ومَن يستحقُّ الغِوايةَ، وله الحكمةُ البالغةُ والحجَّةُ الدامغةُ.

۞ [ما جاء في سفينة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ]:

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]: تسليةً له عمَّا كان منهم إليه. ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾ [هود: ٣٦]: وهٰذه تعزيةٌ لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في قومِهِ أنَّه لن يؤمنَ

منهم إلَّا من قد آمنَ؛ أي: لا يَسوأنَّك ما جرىٰ؛ فإنَّ النصرَ قريبٌ والنبأَ عَجَبٌ عجيبٌ. ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هود: ٣٧].

وذٰلك أنَّ نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لمَّا يَئِسَ من صَلاحِهِم وفلاحِهِم، ورأىٰ أنَّهم لا خيرَ فيهم، وتوصَّلوا إلىٰ أذِيَّتِهِ ومخالفتِهِ وتكذيبِهِ بكلِّ طريقٍ من فَعال ومَقال؛ دعا عليهم دعوةَ غضبٍ، فلبَّىٰ اللهُ دعوتَهُ وأجابَ طَلِبَتَهُ. قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الصافات: ٧٥-٧٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنبياء: ٧٦]، وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الشعراء: ١١٧-١١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾ [المؤمنون: ٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٥-٢٧]. فاجْتَمَعَ عليهم خَطاياهم من كفرِهم وفجورِهم ودعوةُ نبيِّهم عليهم؛ فعند ذٰلك أمَرَهُ اللهُ تعالىٰ أن يَصْنَعَ الفُلْكَ، وهي السفينةُ العظيمةُ التي لم يكنْ لها نظيرٌ قبلَها ولا يكونُ بعدَها مثلُها، وقدَّمَ اللهُ تعالىٰ إليه أنَّه إذا جاء أمرُهُ وحَلَّ بهم بأسُهُ الذي لا يُرَدُّ عن القوم المجرمينَ؛ أنَّه لا يعاوِدُه فيهم ولا يراجِعُه؛ فإنَّه لعلَّه قد تدرِكُه رِقَّةٌ علىٰ قومِهِ عند معاينةِ العذابِ النازل بهم؛ فإنَّه ليس الخبرُ كالمُعاينةِ، ولهٰذا قال: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هود: ٣٧].

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ﴾ [هود: ٣٨]؛ أي: يستهزِئون منه استبعادًا لوقوع ما توعَّدهم به. ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [هود: ٣٨]؛ أي: نحنُ الذين نسخرُ منكم في استمرارِكم علىٰ كفرِكُم وعنادِكُم الذي يقتضي وقوعَ العذابِ بكم وحلولَه عليكم. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [هود: ٣٩].

وقد كانتْ سَجاياهُمُ الكفرَ الغليظَ والعِنادَ البالغَ في الدُّنيا، وهكذا في الآخرةِ؛ فإنَّهم يَجْحَدونَ أيضًا أن يكونَ جاءَهُم رسولٌ؛ كما قال البخاري[1]: حدثنا موسىٰ بن إسماعيلَ،

(١) (٦٠ -الأنبياء، ٣- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾، ٦/ ٣٧١/ ٣٣٣٩).

حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الأعمشُ، عن أبي صالح، عن أبي سعيد؛ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**يجيءُ نوحٌ** عليه السلام **وأمَّتُهُ، فيقولُ اللهُ** عز وجل: **هلْ بَلَّغْتَ؟ فيقولُ: نعم أي ربِّ! فيقولُ لأمَّتِهِ: هل بَلَّغكُمْ؟ فيقولونَ: لا؛ ما جاءَنَا من نبيٍّ. فيقولُ لنوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لك؟ فيقولُ: محمدٌ وأمَّتُهُ. فنشهدُ أنَّه قد بَلَّغَ، وهو قولُهُ تعالى:** ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]». والوَسَطُ العدلُ.

فهٰذه الأمةُ تشهدُ علىٰ شهادةِ نبيِّها الصادقِ المصدوقِ؛ بأنَّ اللهَ قد بَعَثَ نوحًا بالحقِّ وأنزل عليه الحقَّ وأمرَهُ به، وأنه بلَّغَه إلىٰ أمَّته علىٰ أكمل الوجوه وأتمِّها، ولم يَدَعْ شيئًا مما ينفعُهُم في دينِهِم إلَّا وقد أمرَهم به ولا شيئًا مما قد يَضُرُّهم إلَّا وقد نهاهم عنه وحذَّرَهم منه. وهكذا شأن جميع الرسل.

حتىٰ إنَّه حذَّر قومَهُ المسيحَ الدَّجَّالَ، وإن كان لا يُتَوَقَّعُ خروجُهُ في زمانِهِم؛ حَذَرًا عليهم وشفقةً ورحمةً بهم؛ كما قال البخاريُّ(١): حدثنا عبدانُ، حدثنا عبد الله، عن يونس، عن الزهريِّ، قال سالم: قال ابن عمر: قام رسولُ الله ﷺ في الناس، فأثنىٰ علىٰ الله بما هو أهلُهُ، ثم ذَكَرَ الدَّجَّالَ، فقال: «**إني لأُنْذِرُكُموهُ، وما من نبيٍّ إلَّا وقد أَنْذَرَهُ قومَهُ، لقد أَنْذَرَهُ نوحٌ قومَهُ، ولكنِّي أقولُ لكم فيه قولًا لم يَقُلْهُ نبيٌّ لقومِهِ: تعلمونَ أنَّه أعورُ، وأنَّ اللهَ ليس بأعورَ**».

وهٰذا الحديث في الصحيحين أيضًا من حديث شيبانَ بن عبد الرحمٰن، عن يحيىٰ بن أبي كَثير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ قال: «**ألا أحدِّثُكم عن الدَّجَّال حديثًا ما حدَّثَ به نبيٌّ قومَهُ؟ إنَّه أعورُ، وإنَّه يجيءُ معه بمثال الجنةِ والنارِ، والتي يقولُ عليها: الجنةُ: هي النارُ، وإنِّي أنْذِرُكُم كما أنْذَرَ به نوحٌ قومَهُ**». لفظ البخاري(٢).

وقد قال بعضُ علماءِ السَّلَف: لمَّا استجابَ اللهُ له؛ أمرَهُ أن يَغْرِسَ شجرًا لِيَعْمَلَ منه السفينةَ، فغَرَسَهُ وانتظرَهُ مئةَ سنةٍ، ثم نَجَرَهُ في مئةٍ أخرىٰ. **وقيلَ**: في أربعينَ سنةً. والله أعلم. قال محمدُ بن إسحاقَ عن الثوريِّ: وكانت من خَشَبِ السَّاج. **وقيلَ**: من الصَّنَوْبَر. وهو نصٌّ

---

(١) (الموضع السابق، ٦/ ٣٧٠/ ٣٣٣٧)، وهو عند مسلم أيضًا (٥٢-الفتن، ٢٠- ذكر الدجال، ٤/ ٢٢٤٧/ ١٦٩) بنحوه.

(٢) (الموضع السابق، ٣٣٣٨)، ومسلم (الموضع السابق، ٤/ ٢٢٥٠/ ٢٩٣٦).

التوراةِ(١). قال الثوريُّ: وأمَرَهُ أن يجعلَ طولَها ثمانين ذراعًا، وعَرْضَها خمسينَ ذراعًا، وأن يَطْلِيَ ظاهِرَها وباطِنَها بالقارِ، وأن يَجْعَلَ لها جُؤْجُؤًا أزورَ(٢) يشقُّ الماءَ. وقال قَتادة: كان طولُها ثلاثَ مئةِ ذراع في عرض خمسينَ ذراعًا. وهٰذا الذي في التوراةِ علىٰ ما رأيته. وقال الحسنُ البصريُّ: ستُّ مئةٍ في عرض ثلاثِ مئةٍ. وعن ابن عباس: ألفٌ ومئتا ذراع في عرض ستِّ مئةِ ذراع. وقيل: كان طولها ألفي ذراع، وعرضُها مئةَ ذراع. قالوا كلُّهم: وكان ارتفاعُها ثلاثينَ ذِراعًا، وكانت ثلاثَ طَبَقاتٍ، كلُّ واحدةٍ عَشَرَةُ أذرع؛ فالسُّفْلىٰ للدَّوابِّ والوحوش، والوُسْطىٰ للنَّاس، والعُلْيا للطُّيور، وكان بابُها في عرضِها، ولها غطاءٌ من فوقِها مطبقٌ عليها.

قال اللهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٢٦ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ [المؤمنون: ٢٦-٢٧]؛ أي: بأمرِنا لك، بمرأىٰ منا لصَنْعَتِكَ لها ومشاهدتِنا لذٰلك؛ لنرشِدَك إلىٰ الصواب في صنعتها.

۞ [حادثة الطوفان]:

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٢٧﴾ [المؤمنون: ٢٧]: فتقدَّم إليه بأمرِهِ العظيم العالي: أنَّه إذا جاء أمرُهُ وحلَّ بأسُهُ؛ أنْ يَحْمِلَ في هٰذه السفينةِ من كلِّ زوجينِ اثنينِ من الحيواناتِ وسائر ما فيه رُوحٌ من المأكولاتِ وغيرها لبقاءِ نَسْلِها، وأن يحمِلَ معهُ أهلَه؛ أي: أهل بيتِهِ. ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ﴾؛ أي: إلَّا مَن كان كافرًا؛ فإنَّه قد نفَذَتْ فيهِ الدَّعوةُ التي لا تُرَدُّ ووجبَ عليه حلولُ البأس الذي لا يُرَدُّ، وأمِرَ أنَّه لا يراجِعُه فيهم إذا حلَّ بهم ما يعايِنُهُ من العذابِ العظيم الذي قد حتَّمه عليهم الفَعَّالُ لما يريدُ؛ كما قدَّمنا بيانَه قبلُ. والمراد بالتَّنُّورِ عند الجمهورِ وجهُ الأرض؛ أي: نبعتِ الأرضُ من سائرِ أرجائها، حتَّىٰ نَبعَتِ التَّنانيرُ التي هي محالُّ النارِ. وعن ابن عباس: التَّنُّور عينٌ في الهندِ. وعن الشعبيِّ: بالكوفةِ. وعن قَتادَةَ: بالجزيرةِ. وقال عليُّ بن أبي طالب: المرادُ بالتَّنُّورِ فَلَقُ الصُّبْح وتنويرُ الفجرِ؛ أي: إشراقُهُ وضياؤُهُ؛ أي: عند ذٰلك؛ فاحمِلْ فيها من كلِّ زوجينِ اثنينِ. وهٰذا قولٌ غريبٌ.

---

(١) «العهد القديم» (سفر التكوين / الأصحاح ٦).

(٢) الجُؤْجؤ: الصدر؛ يعني: المقدمة. والأزور: المائل.

وقولُه تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠﴾ [هود: ٤٠]: هٰذا أمرٌ بأنَّه عند حُلول النِّقمة بهم أن يَحْمِلَ فيها من كلٍّ زوجينِ اثنينِ. وفي كتابِ أهل الكتاب[١]: أنَّه أُمِرَ أن يَحمِلَ من كلِّ ما يُؤْكَلُ سبعةَ أزواجٍ، وممّا لا يُؤكل زوجينِ؛ ذكرًا وأنثىٰ! وهٰذا مغايرٌ لمفهوم قوله تعالىٰ في كتابنا الحقِّ: ﴿ٱثْنَيْنِ﴾؛ إنْ جعَلْنا ذٰلك مفعولًا به، وأمَّا إن جعَلْناه توكيدًا لـ ﴿زَوْجَيْنِ﴾ والمفعولُ به محذوفٌ؛ فلا ينافي. والله أعلم.

وذكَرَ بعضُهم -ويُروىٰ عن ابن عباس- أنَّ أولَ ما دَخلَ من الطُّيورِ الدرّة[٢]، وآخرُ ما دَخلَ من الحيوانات الحمارُ، ودَخلَ إبليسُ متعلِّقًا بِذَنَبِ الحمارِ.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بنُ صالح، حدثني اللَّيْثُ، حدثني هشام بن سعدٍ[٣]، عن زيد بن أسلم، عن أبيه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**لمَّا حَمَلَ نوحٌ في السفينةِ من كلِّ زوجينِ اثنينِ؛ قالَ أصحابُهُ: وكيف نطمئنُّ (أو[٤]: كيف تطمئنُّ المواشي) ومعنا الأسدُ؟! فسلَّطَ اللهُ عليه الحُمَّى، فكانت أولَ حُمَّى نَزَلَتْ في الأرض. ثم شَكَوُا الفأرةَ، فقالوا: الفُوَيْسِقَةُ؛ تُفسدُ علينا طعامنا ومَتاعَنا! فأوحى اللهُ إلى الأسدِ، فَعَطَسَ، فخرجتِ الهِرَّةُ منه، فتخبَّأَتِ الفأرةُ منها**». هٰذا مرسل[٥].

وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠]؛ أي: من استُجيبَتْ فيهمُ الدَّعوةُ النافذةُ ممَّن كفَرَ، فكان منهُم ابنُه يامُ الذي غَرِقَ كما سيأتي ببيانُهُ. ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٤٠]؛ أي: واحمِلْ فيها مَن آمنَ بك من أمَّتِكَ. قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠﴾ [هود: ٤٠]:

---

(١) «العهد القديم» (سفر التكوين / الأصحاح ٧).

(٢) نوع من أنواع الببغاوات. انظر: «الحيوان» (١/ ٢١٠، ٥/ ١٥١) للجاحظ.

(٣) تحرفت في مطبوع «ابن أبي حاتم» إلىٰ: «همام بن سعيد»!

(٤) في جميع الأصول: «أي»! والتصويب من ابن أبي حاتم.

(٥) (مرسل ضعيف). رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ٢٠٣١/ ١٠٨٧١) بالسند المذكور: وزيد بن أسلم ثقة كثير الإرسال. وأبوه مخضرم ما لقي النبي ﷺ. وهشام بن سعد ليس بالقوي. وعبد الله بن صالح كاتب الليث فيه ضعيف. وحري بمثل هٰذا أن يكون مما تلقَّاه زيد بن أسلم عن أحبار أهل الكتاب.

هٰذا مع طول المُدَّةِ والمُقام بين أظهُرِهم ودعوتِهم الأكيدةِ ليلًا ونهارًا بضُروب المقال وفنونِ التَلَطُّفاتِ والتهديدِ والوعيدِ تارةً والترغيبِ والوعدِ أخرىٰ.

وقد اختلف العلماءُ في عدةِ مَن كان معه في السفينة: فعن ابن عباس: كانوا ثمانينَ نفسًا معهم نساؤُهم. وعن كعبِ الأحبارِ: كانوا اثنينِ وسبعينَ نفسًا. وقيلَ: كانوا عَشَرَةً. وقيل: إنَّما كانوا نوحًا وبنيهِ الثلاثةَ وكنائنَه الأربع بامرأةِ يامٍ الذي انْخَزَلَ وانْعَزَل وسلكَ عن طريق النَّجاةِ فما عَدَلَ إذْ عَدَل. وهٰذا القولُ فيه مخالفةٌ لظاهرِ الآيةِ، بل هي نصٌّ في أنَّه قد ركبَ معه من غيرِ أهلِهِ طائفةٌ ممَّن آمن به؛ كما قالَ: ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الشعراء: ١١٨]. وقيل: كانوا سبعةً.

وأمَّا امرأةُ نوح -وهي أمُّ أولاده كلِّهم، وهم: حامٌ، وسامٌ، ويافثُ، ويامٌ ويسميه أهل الكتاب كنعانَ وهو الذي قد غرق، وعابرٌ-؛ فقد ماتتْ قبل الطُّوفانِ. وقيل: إنَّها غرقتْ مع مَن غَرَقَ، وكانت ممَّنْ سَبَقَ عليه القولُ لكفرِها.

وعند أهلِ الكتابِ[١]: أنها كانت في السفينةِ. فيُحْتَمَلُ أنَّها كَفَرَتْ بعدَ ذٰلك، أو أنَّها أُنْظِرَتْ ليوم القيامة، والظاهرُ الأولُ؛ لقولِهِ: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: ٢٦].

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون: ٢٨-٢٩]: أمره أن يَحْمَدَ ربَّه علىٰ ما سَخَّرَ له من هٰذه السفينةِ فنجَّاه بها وَفتَحَ بينَه وبينَ قومِهِ وأقرَّ عينَهُ ممَّن خالفَه وكذَّبه: كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: ١٢-١٤]. وهكذا يُؤمَرُ بالدُّعاءِ في ابتداءِ الأمورِ: أن يكونَ علىٰ الخيرِ والبركةِ، وأن تكونَ عاقبتُها محمودةً؛ كما قال تعالىٰ لرسولِهِ ﷺ حين هاجَرَ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء: ٨٠].

وقد امتثل نوحٌ عليه السلام هٰذه الوصيةَ، وقال: ﴿ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [هود: ٤١]؛ أي: علىٰ اسم اللهِ ابتداءُ سيرِها وانتهاؤُهُ. ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾؛ أي:

---

(١) «العهد القديم» (سفر التكوين / الأصحاح ٦).

وذو عقابٍ أليمٍ؛ مع كونِهِ غفورًا رحيمًا، لا يُرَدُّ بأسُهُ عن القوم المجرمين؛ كما أحلَّ بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره.

قال الله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢]: وذٰلك أنَّ الله تعالىٰ أرسلَ من السماءِ مطرًا لم تَعْهَدْهُ الأرضُ قبلَه ولا تُمْطَرُهُ بعدَه؛ كانَ كأفواهِ القِرَبِ، وأمَرَ الأرضَ فنَبعَتِ من جميع فجاجها وسائر أرجائِها؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ السَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ [القمر: ١٠-١٣]: والدُّسُرُ: المساميرُ. ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]؛ أي: بحفظِنا وكَلاءَتِنا وحراسَتِنا ومشاهدتِنا لها. ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر: ١٤].

وقد ذكر ابنُ جرير[١] وغيرُه: أنَّ الطُّوفانَ كان في ثالثَ عشرَ من شهر آبٍ في حسابِ القِبْط.

وقالَ تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة: ١١]؛ أي: السفينةِ. ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ١٢]: قال جماعةٌ من المفسِّرين: ارتفعَ الماءُ علىٰ أعلىٰ جبل في الأرض خمسةَ عشرَ ذِراعًا. وهو الذي عندَ أهل الكتابِ[٢]. **وقيل:** ثمانين ذِراعًا. وعمَّ جميعَ الأرض؛ طولَها والعَرْض، سهلَها وحَزْنَها، وجبالَها قفارَها ورِمالَها، ولم يبقَ علىٰ وجه الأرض ممَّن كان بها من الأحياءِ عينٌ تطْرِفُ، ولا صغيرَ ولا كبيرَ.

قال الإمامُ مالكٌ: عن زيدِ بن أسلم: كان أهلُ ذٰلك الزمان قد مَلؤوا السهلَ والجبلَ. وقال عبد الرحمٰن بنُ زيد بن أسلم: لم تكنْ بقعةٌ في الأرض إلَّا ولها مالِكٌ وحائزٌ. رواهما ابن أبي حاتم[٣].

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٢-٤٣]: وهٰذا الابنُ هو يامُ أخو سامٍ وحامٍ ويافثَ، وقيلَ: اسمُه

(١) في «التاريخ» (١/ ١١٨).

(٢) «العهد القديم» (سفر التكوين / الأصحاح ٧).

(٣) في «التفسير» (٥/ ١٥٠٦/ ٨٦٣٢ و٨٦٣١).

كنعانُ، وكان كافرًا عَمَلَ عملًا غيرَ صالح، فخالَفَ أباه في دينِه ومذهبِهِ، فهَلَكَ مع مَن هَلَكَ. هٰذا؛ وقد نَجا مع أبيهِ الأجانبُ في النسبِ لمَّا كانوا موافقينَ في الدِّين والمذهبِ.

۞ [انتهاء حادثة الطوفان]:

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [هود: ٤٤]؛ أي: لمَّا فُرِغَ من أهل الأرضِ، ولم يبقَ بها أحدٌ ممَّن عبَدَ اللهِ ﷻ؛ أمَرَ اللهُ الأرضَ أنْ تبتلِعَ ماءَها، وأمر السماءَ أن تُقلِعَ؛ أي: تُمْسِكَ عن المطر. ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾؛ أي: نَقَصَ عمَّا كان. ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾؛ أي: وقع بهم الذي كان قد سَبَقَ في علمِهِ وقَدَرِهِ من إحلالِهِ بهم ما حَلَّ بهم. ﴿بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾؛ أي نودِيَ عليهم بلسانِ القُدْرَةِ: بُعْدًا لهم من الرحمةِ والمغفرةِ.

كما قال تعالىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ٦٤﴾ [الأعراف: ٦٤]، وقال تعالىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٧٣﴾ [يونس: ٧٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٧٧﴾ [الأنبياء: ٧٧]، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١١٩ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ١٢٠ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٢١ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٢﴾ [الشعراء: ١١٩-١٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٥﴾ [العنكبوت: ١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٦﴾ [الصافات: ٨٢]، وقال: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٥ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٦ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾ [القمر: ١٥-١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ٢٥ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ٢٧﴾ [نوح: ٢٥-٢٧].

وقد استجابَ اللهُ تعالىٰ -وله الحمدُ والمِنَّةُ- دعوتَهُ، فلم يَبْقَ منهم عينٌ تَطْرِفُ.

وقد روىٰ الإمامان أبو جعفرِ بنُ جريرٍ وأبو محمدِ بنُ أبي حاتم في تفسيريهما من طريق: موسىٰ بن يعقوب الزمعي، عن فائد مولىٰ عبيدالله بن أبي رافع[1]، أنَّ إبراهيمَ بن عبد الرحمٰن بن

(١) في جميع أصول «البداية والنهاية» تبعتها طبعات «قصص الأنبياء»: «من طريق يعقوب بن محمد الزهري عن فائد...» إلخ! والصواب ما أثبته من مصادر التخريج. وقد ذكره ابن كثير علىٰ الصواب في «تفسيره» (٢/ ٤٠٧/ هود٤٤)، لكن انقلب الاسم فيه إلىٰ «يعقوب بن موسىٰ»!

أبي ربيعةَ أخبره، أنَّ عائشةَ أمَّ المؤمنين أخبرتْه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «فلوْ رَحِمَ اللهُ من قوم نوح أحدًا؛ لَرَحِمَ أمَّ الصَّبِيِّ». قال رسولُ الله ﷺ: «مَكَثَ نوحٌ عليه السلام في قومه ألفَ سنةٍ (يعني: إلَّا خمسينَ عامًا)، وغَرَسَ مئة سنةٍ الشجرَ، فعَظُمَتْ وذَهَبَتْ كلَّ مذهبٍ، ثم قَطَعَا، ثم جَعَلَها سفينةً، ويمرُّون عليه ويسخَرونَ منه ويقولونَ: تعملُ سفينةً في البرِّ؟! كيف تجري؟! قال: سوف تعلمونَ. فلمَّا فَرَغَ ونبعَ الماءُ وصار في السِّكك؛ خشيتْ أمُّ الصبيِّ عليه، وكانت تحبُّه حبًّا شديدًا، فخرجتْ به إلى الجبلِ، حتى بلغتْ ثُلُثَهُ، فلما بَلَغها الماء؛ خرجتْ به حتى استوتْ على الجبلِ، فلما بَلَغَ الماءُ رَقَبَتَها؛ رفعتْه بيديْها، فغرقا؛ فلو رَحِمَ الله منهم أحدًا؛ لَرَحِمَ أمَّ الصبيِّ»[1].

وهٰذا حديثٌ غريبٌ، وقد رُوي عن كعبِ الأحبار ومجاهدٍ وغير واحدٍ شبيهٌ لهٰذه القصة، وأحرىٰ بهٰذا الحديث أن يكون موقوفًا متلقًّىٰ عن مثل كعب الأحبار. والله أعلم.

والمقصود: أنَّ الله لم يُبْقِ من الكافرين ديَّارًا؛ فكيف يزعُمُ بعضُ المفسِّرين أنَّ عُوجَ بنَ عَنَق (ويقال: ابن عِناق) كان موجودًا من قبل نوح إلىٰ زمانِ موسىٰ! ويقولونَ: كان كافرًا متمرِّدًا جبارًا عنيدًا! ويقولون: كان لغير رَشْدَةٍ بل ولدتْه أمُّه عَنَقُ بنتُ آدم من زنًىٰ! وأنَّه كان يأخُذُ من طولِهِ السَّمَكَ من قرارِ البحارِ ويشويه في عين الشمس! وأنَّه كان يقول لنوح وهو في السفينة: ما هٰذه القُصَيْعةُ التي لك؟! ويستهزئ به! ويذكُرونَ أنَّه كان طولُه ثلاثةَ آلاف ذراع وثلاث مئةٍ وثلاثة وثلاثين ذراعًا وثلثًا... إلىٰ غير ذٰلك من الهَذَياناتِ التي لولا أنها مسطَّرةٌ في كثيرٍ من كتب التفاسير وغيرها من التواريخ وأيَّام الناس؛ لَما تعرَّضْنا لحكايتها؛ لِسَقاطَتِها ورَكاكَتِها؟!

ثم إنها مخالفةٌ للمعقول والمنقول: أما المعقول؛ فكيف يَسوغُ فيه أن يُهْلِكَ اللهُ ولدَ نوح

---

(١) (حسن). رواه: ابن جرير في «التفسير» (٧/ ٣٥/ ١٨١٤٨)، و«التاريخ» (١/ ١١٣)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ٢٠٢٧/ ١٠٨٤٨)، والطبراني في «الأوسط» (٨/ ٢٠٣ - مجمع)، والحاكم (٢/ ٣٤٢ و٥٤٧)؛ كلهم من طريق موسىٰ بن يعقوب الزمعي... به.

وصححه الحاكم في الموضعين، وتعقبه الذهبي فقال: «إسناده مظلم، وموسىٰ ليس بذاك». وقال الهيثمي: «رواه الطبراني في «الأوسط»، وفيه موسىٰ بن يعقوب الزمعي، وثقه ابن معين وغيره، وضعفه ابن المديني، وبقية رجاله ثقات». قلت: اختلفوا في موسىٰ هٰذا، وحديثه لا بأس به في الشواهد علىٰ الأقل. ثم وجدت له شاهدًا عند ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٣٧٦/ ١٨٩٩٨) من حديث ابن عباس مرفوعًا. قال ابن كثير: «غريب، ورجاله ثقات». قلت: بل فيه ضعف وانقطاع. ولكنه صالح لتقوية حديث عائشة. والله أعلم.

لكفرِهِ؛ وأبوه نبيُّ الأمةِ وزعيمُ أهل الإيمانِ، ولا يُهْلِكَ عُوجَ بنَ عَنَق (ويقال: عِناق) وهو أظلمُ وأطغىٰ علىٰ ما ذكروا؟! وكيف لا يرحمُ الله منهم أحدًا ولا أمَّ الصبيِّ، ولا الصَّبيَّ؛ ويترُكُ هٰذا الدَّعِيَّ الجبارَ العنيدَ الفاجرَ الشديدَ الكافرَ الشيطانَ المَريدَ علىٰ ما ذكروا؟! وأمَّا المنقول؛ فقد قال اللهُ تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الصافات: ٨٢]. وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: ٢٦]. ثم هٰذا الطولُ الذي ذَكروه مخالفٌ لما في الصحيحين عن النبي ﷺ: أنَّه قال: «**إنَّ الله خَلَقَ آدمَ وطولُهُ ستُّونَ ذِراعًا، ثم لم يزل الخَلْقُ يَنْقُصُ حتى الآنَ**»(١)؛ فهٰذا نصُّ الصادق المصدوق المعصوم الذي لا يَنْطِقُ عن الهوىٰ إنْ هو إلاَّ وحيٌ يوحىٰ: أنَّه لم يزل الخَلْقُ يَنْقُصُ حتىٰ الآنَ؛ أي: لم يزل الناسُ في نقصانٍ في طولِهِم من آدم إلىٰ يوم إخبارِهِ بذٰلك وهلم جرًّا إلىٰ يوم القيامةِ، وهٰذا يقتضي أنَّه لم يوجدْ من ذُرِّيَّةِ آدمَ من كان أطولَ منه!

فكيفَ يُتْرَكُ هٰذا ويُذْهَلُ عنه ويُصارُ إلىٰ أقوال الكَذَبَةِ والكَفَرَةِ من أهل الكتاب، الذين بدَّلوا كُتُبَ الله المُنزلَةَ وحرَّفوها وأوَّلوها ووضعوها علىٰ غير مواضعها؟! فما ظَنُّك بما هم يستقلُّون بنقلِهِ أو يُؤتَمنون عليه وهم الخونَةُ والكذبةُ عليهم لعائنُ الله المتتابعةُ إلىٰ يوم القيامة؟! وما أظنُّ أن هٰذا الخَبرَ عن عُوج بنِ عِناق إلَّا اختلاقًا من بعض زنادِقَتِهِم وفُجَّارهم الذين كانوا أعداءَ الأنبياءِ. والله أعلم.

[نوح عليه السلام يناشد ربَّه في ولده]:

ثم ذَكَرَ اللهُ تعالىٰ مناشدةَ نوح ربَّه في ولدِهِ، وسؤالَه له عن غرقِهِ علىٰ وجهِ الاستعلام والاستكشافِ. ووجهُ السؤال: أنَّك وَعَدْتَني بنجاة أهلي معي، وهو منهُم؛ وقد غَرِقَ؟! فأُجيب بأنه ليس من أهلِكَ؛ أي: الذين وُعِدْتَ بنجاتِهم؛ أي: إنَّا(٢) قُلْنا لك: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، فكان هٰذا ممَّن سَبَقَ عليه القولُ منهم بأنَّه سَيُغْرَقَ مع حزبِهِ أهل الكفرِ والطُّغيان.

---

(١) متفق عليه. تقدم بطوله وتخريجه (ص٧١).

(٢) في نسخة: «أما».

۞ [طرف من أخبار السفينة والناجين]:

ثم قال تعالىٰ: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود: ٤٨]: هٰذا أمرٌ لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لما نَضَبَ الماء عن وجه الأرض وأمْكَنَ السعيُ فيها والاستقرارُ عليها أن يَهْبِطَ من السفينة التي كانت قد استقرَّتْ بعد سيرها العظيم علىٰ ظهر جبل الجوديِّ، وهو جبلٌ بأرض الجزيرة مشهورٌ. ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ﴾؛ أي: اهبِطْ سالمًا مباركًا عليك. ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ﴾: ممَّن سيولدُ بعدُ؛ أي: من أولادك؛ فإنَّ الله لم يجعلْ لأحدٍ ممَّنْ كان معهُ من المؤمنينَ نسلًا ولا عَقِبًا سوىٰ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات: ٧٧]؛ فكلُّ مَن علىٰ وجه الأرضِ اليومَ من سائر أجناس بني آدم يُنْسَبونَ إلىٰ أولادِ نوح الثلاثةِ، وهمْ سامٌ وحامٌ ويافِثُ.

قال الإمام أحمدُ: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قَتادة، عن الحسن، عن سَمُرَةَ: أنَّ النبي ﷺ قال: «**سامٌ أبو العربِ، وحامٌ أبو الحَبَشِ، ويافِثُ أبو الرُّوم**»[(١)].

ورواه التِّرمذيُّ: عن بشر بن معاذ العَقَديِّ، عن يزيدَ بنِ زُرَيْع، عن سعيد بن أبي عَروبة، عن قَتادة، عن الحسن، عن سَمُرَةَ... مرفوعًا نحوه.

---

(١) (ضعيف). رواه: ابن سعد (١/ ١٧)، وأحمد (٥/ ٩ و١١)، والترمذي (٤٨- التفسير، ٣٨- ومن سورة الصافات، ٥/ ٣٦٥/ ٣٢٣١)، وابن أبي حاتم (١٠ / ٣٢١٨ / ١٨٢٠٨)، وابن جرير في «التفسير» (١٠/ ٤٩٧/ ٢٩٤١٩) و«التاريخ» (١/ ١١٩ و١٢٩)، والطبراني (٧/ ٢١٠/ ٦٨٧١- ٦٨٧٣)، والحاكم (٢/ ٥٤٦)؛ من طريق عن قتادة... به فذكره. ورواه الطبراني (١٨/ ١٤٥/ ٣٠٩) من طريق قتادة، عن الحسن، عن عمران وسمرة... فذكره مرفوعًا.

وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وما هو كذٰلك، نعم؛ رجاله موثقون كما ذكر الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٩٨)؛ إلا أن الحسن وقتادة علىٰ جلالتهما مدلسان، وقد عنعنا، والحسن لم يسمع من عمران، وفي سماعه من سمرة خلاف مشهور. فالسند ضعيف.

وأما الشاهد الذي ذكره الحافظ ابن كثير عن أبي هريرة؛ فهو عند البزار (١/ ١٤٦/ ١٣٤ - مختصر الزوائد) بالسند المذكور، ورفعه منكر؛ لضعف محمد بن يزيد وأبيه ومخالفتهما لإسماعيل بن عياش ومعاوية بن صالح اللذين روياه عن يحيىٰ بن سعيد عن ابن المسيب موقوفًا؛ كما ذكر الحافظ ابن كثير هنا، وكما عند: ابن سعد (١/ ١٧)، والطبري في «التاريخ» (١/ ١٢٩). وقد نقل الحافظ في «التهذيب» عن ابن المديني أنه لا يصح يحيىٰ بن سعيد عن ابن المسيب عن أبي هريرة حديث مسند.

وعليه؛ فالحديث باق علىٰ ضعفه مرفوعًا كما جزم الألباني، والصواب فيه الوقف علىٰ سعيد بن المسيب. والله أعلم.

وقال الشيخُ أبو عمرَ بنُ عبد البرِّ: وقد رُوِيَ عن عِمْران بن حُصَيْنٍ عن النبيِّ ﷺ مثلُهُ. قال: والمرادُ بالرُّوم هنا الرومُ الأوَلُ -وهم اليونانُ- المنتسِبون إلىٰ روميَّ بنِ لبطيّ بنِ يونانَ بنِ يافِثَ بنِ نوحٍ عليه السلام. ثم روىٰ من حديثِ: إسماعيل بن عيَّاش، عن يحيىٰ بن سعيد، عن سعيد بن المسيَّبِ: أنَّه قال: وَلَدُ نوحٍ ثلاثةٌ؛ سامٌ ويافثُ وحامٌ. ووَلَدَ كلُّ واحدٍ من هٰذه الثلاثةِ ثلاثةً: فولَدَ سامٌ العربَ وفارسَ والرومَ، وولدَ يافِثُ التُّرْكَ والصَّقالِبَةَ ويأجوجَ ومأجوجَ، وولَدَ حامٌ القِبْطَ والسودانَ والبربرَ.

قلت: وقد قالَ الحافظُ أبو بكر البزَّارُ في «مسنده»: حدثنا إبراهيم بن هانئ وأحمد بنُ حسين بنِ عبَّادٍ أبو العباس؛ قالا: حدثنا محمد بن يزيدَ بن سنان الرُّهاويُّ، حدثني أبي، عن يحيىٰ بن سعيد، عن سعيد بن المسيَّب، عن أبي هريرة؛ قالَ رسولُ الله ﷺ: «**وِلِدَ لنوح سامٌ وحامٌ ويافثُ: فوُلِدَ لسامِ العربُ وفارسُ والرومُ؛ والخيرُ فيهم، ووُلِدَ ليافِثَ يأجوجُ ومأجوجُ والتُّرْكُ والصَّقالِبَةُ؛ ولا خيرَ فيهم، ووُلِدَ لحام القِبْطُ والبربرُ والسودانُ**». ثم قال: لا نعلم يروىٰ مرفوعًا إلا من هٰذا الوجه، تفرَّدَ به محمدُ بن يزيد بن سنان عن أبيه، وقد حدَّثَ عنه جماعةٌ من أهل العلم واحتَمَلوا حديثَه، ورواه غيرُهُ عن يحيىٰ بن سعيدٍ مرسلًا ولم يُسْنِدْهُ وإنما جَعَلَهُ من قول سعيدٍ.

قلت: وهٰذا الذي ذكره أبو عمرَ هو المحفوظ عن سعيدٍ؛ قولُه. وهكذا رُوِي عن وَهْب بن منبِّهٍ مثلُهُ. والله أعلم. ويزيد بن سنان أبو فَرْوة الرُّهاوي ضعيفٌ بمرَّة لا يُعتمد عليه.

وقد قيلَ: إنَّ نوحًا عليه السلام لم يولَدْ له هؤلاء الأولادُ الثلاثةُ إلَّا بعد الطُّوفانِ، وإنَّما وُلِدَ له قبل السفينةِ كنعانُ الذي غرق، وعابرٌ ماتَ قبل الطُّوفانِ. والصحيحُ أنَّ الأولادَ الثلاثةَ كانوا معه في السفينة هم ونساؤهم وأمُّهم. وهو نصُّ التوراة(١).

وقد ذُكِرَ أنَّ حامًا واقَعَ امرأتَه في السفينةِ، فَدَعا عليه نوحٌ أن تشوَّهَ خِلْقة نُطْفَاهِ، فوُلَدَ له ولدٌ أسودُ، وهو كنعانُ بن حام جدُّ السَّودانِ. وقيل: بل رأىٰ أباه نائمًا، وقد بدتْ عورتُهُ، فلم يَسْتُرْها، وسَتَرَها أخواهُ؛ فلهٰذا دعا عليه أن تُغَيَّرَ نُطْفَتُهُ، وأن يكونَ أولادُهُ عبيدًا لإخوتِهِ!

وذكر الإمام أبو جعفر بن جَريرٍ(٢) من طريق: عليِّ بن زيد بن جُدْعان، عن يوسف بن مِهْران، عن ابن عباس: أنَّه قال: قال الحواريُّون لعيسىٰ بن مريم: لو بعثتَ لنا رجُلًا شَهِدَ السفينةَ فحدَّثَنا

(١) «العهد القديم» (سفر التكوين / الأصحاح ٨ و٩).

(٢) في «التفسير» (٧/ ٣٦/ ١٨١٥١) و«التاريخ» (١/ ١١٣)، وعلي ويوسف ضعيفان.

عنها. قال: فانْطَلَقَ بهم حتىٰ أتىٰ إلىٰ كثيبٍ من ترابٍ، فأخذ كفًّا من ذٰلك الترابِ بكفِّهِ، وقال: أتدرونَ ما هٰذا؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: هٰذا كعبُ حام بن نوح. قال: وَضَرَبَ الكثيبَ بعصاه وقال: قُمْ بإذنِ الله. فإذا هو قائمٌ ينفُضُ التُّرابَ عن رأسِهِ قد شابَ. فقالَ له عيسىٰ عليه السلام: هكذا هَلَكْتَ؟ قال: لا، ولكنِّي متُّ وأنا شابٌّ، ولكنِّي ظننتُ أنَّها الساعةُ؛ فمن ثَمَّ شِبْتُ. قال: حدِّثنا عن سفينة نوح! قال: كان طولُها ألفَ ذراع ومئتي ذراع، وعرضُها ستَّ مئةِ ذراع، وكانت ثلاثَ طبقاتٍ؛ فطبقةٌ فيها الدوابُّ والوحشُ، وطبقةٌ فيها الإنسُ، وطبقةٌ فيها الطيرُ، فلمَّا كَثُرَ أرواثُ الدَّوابِّ؛ أوحىٰ الله عز وجل إلىٰ نوح عليه السلام أنِ اغْمِزْ ذَنَبَ الفيل. فغَمَزَهُ، فوقَعَ منه خنزيرٌ وخنزيرةٌ، فأقبلا علىٰ الرَّوْثِ. لمَّا وَقَعَ الفأرُ بجُرْزِ السفينةِ يقرضُه[1]؛ أوحىٰ الله عز وجل إلىٰ نوح عليه السلام: أنِ اضْرِبْ بين عيني الأسدِ. فخرجَ من مِنْخَرِهِ سِنَّوْرٌ وسِنَّوْرَةٌ، فأقبلا علىٰ الفأرِ. فقال له عيسىٰ: كيف عَلِمَ نوحٌ عليه السلام أنَّ البلادَ قد غَرِقَتْ[2]؟ قال: بَعَثَ الغرابَ يأتيه بالخبر، فوجَدَ جيفةً، فوقَعَ عليها، فدعا عليه بالخوفِ؛ فلذٰلك لا يألَفُ البيوتَ. قال: ثم بَعَثَ الحمامةَ، فجاءتْ بورقِ زيتونٍ بمنقارِها وطينٍ برِجْلِها، فعَلِمَ أنَّ البلادَ قد غرِقَتْ[2]، فطوَّقَها الخضرةَ التي في عُنُقِها، ودعا لها أن تكون في أنس وأمانٍ؛ فمِنْ ثَمَّ تألفُ البيوتَ. قال: فقالوا: يا رسول الله! ألا ننطَلِقُ به إلىٰ أهلينا فيجلِسَ معنا ويحدِّثَنا؟ قال: كيف يَتْبَعُكم مَن لا رِزْقَ له؟! قال: فقال له: عُدْ بإذنِ الله! فعاد تُرابًا. وهٰذا أثر غريبٌ جدًّا.

وروىٰ عِلْباءُ بن أحمر، عن عِكْرمة، عن ابن عباس؛ قال: كان مع نوح في السفينةِ ثمانون رجلًا معهم أهْلوهُم، وإنَّهم كانوا في السفينة مئة وخمسين يومًا، وإنَّ الله وجَّه السفينة إلىٰ مكة، فدارتْ بالبيت أربعينَ يومًا، ثم وجَّهها إلىٰ الجوديِّ فاستقرَّتْ عليه، فبعث نوحٌ عليه السلام الغرابَ ليأتِيَهُ بخَبَرِ الأرض، فذهبَ، فوقَعَ علىٰ الجيَفِ، فأبطأ عليه، فبعثَ الحمامةَ، فأتَتْهُ بورقِ الزيتونِ ولطَّخت رجليها بالطِّين، فعرف نوحٌ أنَّ الماء قد نَضَبَ، فهبط إلىٰ أسفل

(١) في جميع الأصول: «يخرز السفينة بقرضه»! ولا معنىٰ لها! والتصويب من مصادر التخريج. وجزر السفينة: وسطها. وربما كانت: «يَجْرُزُ السفينة بقرضه»؛ يعني: يأكلها ويحفر فيها بسرعة.

(٢) كذا وقع في جميع الأصول ومصادر التخريج! وهو مشكل، ولعل الصواب أن يُقال: فكيف علم نوحٌ أن الماء قد غاض؟ لأن الجيفة وغصن الزيتون والطين إنما ظهرت بعد انكشاف الطوفان وغيض الماء، ومعلومٌ أنها تدل علىٰ ظهور الأرض وانحسار الماء عنها لا العكس. وسيأتي كذٰلك علىٰ الصواب في الرواية التالية.

الجُودِيِّ، فابتنىٰ قريةً وسمَّاها ثمانين، فأصبحوا ذات يوم وقد تَبَلْبَلَتْ أَلسِنَتُهم علىٰ ثمانينَ لغةً إحداها العربيَّةُ، وكان بعضُهم لا يفقُه كلام بعضٍ، فكان نوحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْبُرُ عنهم.

وقال قتادةُ وغيرُه: ركِبوا في السفينة في اليوم العاشِر من شهر رجبٍ، فساروا مئةً وخمسين يومًا، واستقرَّتْ بهم علىٰ الجوديِّ شهرًا، وكان خروجُهم من السفينةِ في يوم عاشوراءَ من المحرَّم.

وقد روىٰ ابنُ جَرير خبرًا مرفوعًا يوافِقُ هٰذا، وأنَّهم صاموا يومَهم ذٰلك[1].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو جعفر، حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزديُّ، عن أبيه حبيب بن عبد الله، عن شُبَيْل[2]، عن أبي هريرة؛ قال: مرَّ النبيُّ ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء، فقال: «**ما هٰذا الصومُ؟**». فقالوا: هٰذا اليوم الذي نجَّىٰ الله فيه موسىٰ وبني إسرائيل من الغرقِ وغَرِقَ فيه فرعونُ، وهٰذا يومٌ استوتْ فيه السفينةُ علىٰ الجُودِيِّ، فصامه نوحٌ وموسىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ شكرًا لله عَزَّوَجَلَّ. فقال النبيُّ ﷺ: «**أنا أحقُّ بموسى وأحقُّ بصوم هٰذا اليوم**». وقال لأصحابِهِ: «**من كان منكم أصبحَ صائمًا؛ فَلْيُتِمَّ صومَهُ، ومَنْ كان منكم قد أصابَ من غداءِ أهلِهِ؛ فَلْيُتِمَّ بقيَّةَ يومَهِ**»[3]. وهٰذا الحديث له شاهدٌ في الصحيح من وجهٍ آخر، والمستغرَبُ ذِكْرُ نوح أيضًا. والله أعلمُ.

---

(١) (موضوع). رواه: الطبري في «التفسير» (٧/ ٤٧/ ١٨٢٠٢) و«التاريخ» (١/ ١١٨)، والطبراني (٦/ ٦٩/ ٣٨٥٥)، والأصبهاني في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٧٤٦/ ١٨٢٢)؛ من طريق عثمان بن مطر، عن عبد الغفور، عن عبد العزيز، عن أبيه، عن النبي ﷺ... قال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ١٩١): «رواه الطبراني في «الكبير»، وفيه عبد الغفور، وهو متروك». وقال الحافظ في «الإصابة» (٣/ ١٥٧): «عبد الغفور بن عبد العزيز هو الذي مضىٰ قبل ترجمة انقلب [يعني: هو عبد العزيز بن سعيد]. أخرج الطبري في ترجمة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ من «تاريخه» من طريق: عثمان بن مطر، عن عبد العزيز بن عبد الغفور، عن أبيه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «في أول يوم من رجب ركب نوح السفينة، فصام ذٰلك اليوم شكرًا...» الحديث. وهٰذا مقلوب، وفيه انقطاع، والصواب رواية عبد الغفور عن أبيه سعيد. هٰذا من حيث السند، وإلَّا؛ فرجاله ما بين ضعيف ومجهول» أهـ. قلت: ومنهم متروك. ثم قد اضطربوا في السند كما ترىٰ بصورة يصعب الوصول إلىٰ وجه الصواب فيها.

(٢) في جميع الأصول: «شبل»! والتصويب من مصادر التخريج.

(٣) (صحيح؛ إلا ذكر نوح والسفينة؛ فضعيف). رواه أحمد (٢/ ٣٥٩-٣٦٠) بالسند المذكور. قال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ١٨٧): «رواه أحمد، وفيه حبيب بن عبد الله الأزدي، لم يرو عنه غير ابنه». قلت: فعداده في المجاهيل، وابنه لين؛ فالسند ضعيف.

نعم؛ يشهد له حديث ابن عباس المتفق عليه في صوم عاشوراء، لكن ليس فيه ذكر لنوح ولا للسفينة؛ كما أفاد الحافظ ابن كثير. نعم؛ قد ذكر هٰذا في حديث عبد العزيز بن سعيد قبله، ولكن قد علمت حاله؛ فلا يفرح به.

وأما ما يذكُره كثيرٌ من الجَهَلَةِ: أنَّهم أكلوا من فضول أزوادِهم ومن حبوبٍ كانتْ معهم قد استَصْحَبوها، وطَحَنوا الحبوبَ يومئذٍ واكتحلوا بالإثمدِ لتقويةِ أبصارِهم لمَّا انهارتْ من الضياءِ بعدما كانوا في ظلمةِ السفينة؛ فكلُّ هٰذا لا يصحُّ فيه شيءٌ، وإنما يُذْكَرُ فيه آثارٌ منقطعةٌ عن بني إسرائيل لا يُعتمد عليها ولا يُقتدىٰ بها. والله أعلم.

وقال محمدُ بن إسحاق: لمَّا أرادَ اللهُ أن يَكُفَّ ذٰلك الطوفانَ؛ أرسل ريحًا علىٰ وجه الأرض، فسكنَ الماءُ، وانسدَّتْ ينابيعُ الأرض، فجعل الماءُ يَنْقُصُ ويَغيضُ ويُدْبِرُ، وكان استواءُ الفُلك علىٰ الجوديِّ فيما يزعُمُ أهلُ التوراةِ في الشهر السابع لسبعَ عشرةَ ليلةً مضتْ منه، وفي أول يوم من الشهرِ العاشرِ رُئِيَتْ رؤوسُ الجبال، فلمَّا مضىٰ بعد ذٰلك أربعونَ يومًا؛ فَتَحَ نوحٌ كُوَّةَ الفُلْكِ التي صَنَعَ فيها، ثم أرسل الغُرابَ لينظُرَ له ما فعل الماءُ، فلم يرجِعْ إليه، فأرسل الحمامةَ، فرجعتْ إليه، [و] لم يجدْ لرِجْلها موضعًا، فبَسَطَ يده للحمامةِ، فأخذها، فأدخلها، ثم مضت سبعةُ أيام، ثم أرسلها لِتَنْظُرَ له ما فعلَ الماءُ، فلم ترجِعْ، فرجَعَتْ حين أمستْ وفي فيها ورقُ زيتونةٍ، فعَلِمَ نوحٌ أنَّ الماء قد قلَّ عن وجهِ الأرض، ثم مَكَثَ سبعةَ أيام، ثم أرسلَها، فلم ترجِعْ إليه، فعلم نوحٌ أنَّ الماء قد قلَّ عن وجهِ الأرض، ثم مَكَثَ سبعةَ أيام، ثم أرسلَها، فلم ترجَعْ إليه، فعلم نوحٌ أنَّ الأرضَ قد بَرَزَتْ، فلما كَمَلَتِ السنةُ فيما بينَ أن أرسلَ اللهُ الطوفانَ إلىٰ أن أرسلَ نوحٌ الحمامةَ، ودخَلَ يومٌ واحدٌ من الشهر الأول من سنة اثنين؛ بَرَزَ وجهُ الأرض، وظَهَرَ البرُّ، وكَشَفَ نوحٌ غِطاء الفُلْكِ. وهٰذا الذي ذَكَرَهُ ابن إسحاقَ هو بعينِهِ مضمونُ سياق التَّوراة التي بأيدي أهل الكتاب[١].

وقال ابنُ إسحاقَ: وفي الشهرِ الثاني من سنةِ اثنين في ستٍّ وعشرينَ ليلةً منه؛ ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود: ٤٨].

وفيما ذَكَرَ أهل الكتاب[٢]: أنَّ الله كلَّم نوحًا قائلاً له: اخرُجْ من الفُلْكِ أنت وامرأتُك وبنوك ونساءُ بنيك معك وجميعُ الدَّوابِّ التي معك، ولْيَنْموا، ولْيكثُروا في الأرض. فخرجوا، وابتنىٰ نوحٌ مذبحًا لله ﷻ، وأخذَ من جميع الدوابِّ الحَلال والطيرِ الحَلال فذِبَحَها قُربانًا

(١) «العهد القديم» (سفر التكوين / الأصحاح ٨).

(٢) «العهد القديم» (سفر التكوين / الأصحاح ٨).

إلىٰ الله ﷻ، وعَهَدَ اللهُ إليه ألَّا يُعيدَ الطُّوفانَ علىٰ أهل الأرض، وجعل تَذْكارًا لميثاقِهِ إليه القوسَ الذي في الغمام، وهو قوسُ قُزَحَ الذي رُوِيَ عن ابن عباس أنَّه أمانٌ من الغرقِ[١]. قال بعضُهم: فيه إشارةٌ إلىٰ أنَّه قوسٌ بلا وترٍ؛ أي: أنَّ هٰذا الغمامَ لا يوجِدُ طوفانًا[٢] كأول مرةٍ.

۞ [الرد على من أنكر وقوع الطوفان]:

وقد أنكرت طائفةٌ من جَهَلَةِ الفرس وأهل الهندِ وقوعَ الطُّوفانِ! واعترفَ به آخرونَ منهم، وقالوا: إنَّما كان بأرض بابلَ ولم يَصِلْ إلينا! قالوا: ولم نزلْ نتوارثُ الملكَ كابرًا عن كابرٍ من لَدُنْ كيومرث (يعنون: آدم) إلىٰ زمانِنا هٰذا!

وهٰذا قاله مَن قاله من زنادقةِ المجوس عُبَّادِ النيران وأتباع الشيطان. وهٰذه سفسطةٌ منهم وكفرٌ فظيعٌ وجهلٌ بليغٌ ومكابرةٌ للمحسوساتِ وتكذيبٌ لربِّ الأرض والسماوات.

وقد أجمعَ أهل الأديانِ، الناقلون عن رسل الرحمٰن، مع ما تواتَرَ عندَ الناس في سائرِ الأزمان، علىٰ وقوع الطُّوفان، وأنه عمَّ جميعَ البلاد، ولم يُبْقِ اللهُ أحدًا من كَفَرَةِ العباد، استجابةً لدعوةِ نبيِّهِ المؤيَّدِ المعصوم، وتنفيذًا لما سَبَقَ في القدرِ المحتوم.

۞ ذكر شيء من أخبار نوح نفسه عليه السلام:

قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣﴾ [الإسراء: ٣]: **قيل:** إنَّه كان يَحْمَدُ اللهَ علىٰ طعامِهِ وشرابِهِ ولباسِهِ وشأنِهِ كلِّه.

---

(١) (**ضعيف جدًّا مرفوعًا صحيح موقوفًا**). رواه: ابن حبان في «الضعفاء» (١/ ٢٨٠)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ١٥٧/ ١١٤٧٩) و«الأوسط» (٧/ ٣٦٣/ ٦٧٠٥)؛ من طريق إسحاق بن سعيد (وفي الأوسط: سعد) بن الأركون، ثنا خليد بن دعلج، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس؛ قال: قال رسول الله ﷺ... فذكره.
قال الطبراني: «لم يرو هٰذا الحديث عن عطاء إلا خليد بن دعلج، تفرد به إسحاق بن سعد». وقال الحاكم (٤/ ٧٥) في هٰذا السند نفسه: «صحيح»! وتعقبه الذهبي فقال: «واهٍ، وفي إسناده ضعيفان»؛ يعني: إسحاق وخليدًا. وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١٩٥): «رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، وفيه خليد بن دعلج، وهو ضعيف». وقال الألباني في «الضعيفة» (٢/ ١٢٨/ ٦٨٣): «ضعيف جدًّا».
ورواه البخاري في «الأدب المفرد» (رقم ٧٦٧) موقوفًا علىٰ ابن عباس بسند صححه الألباني وقال: «لا يصح عندي شاهدًا (يعني: للمرفوع السابق) لأنه موقوف؛ فيحتمل أن يكون مما تلقاه ابن عباس عن أهل الكتاب». وهٰذا هو الراجح؛ لأنه نص «العهد القديم». والله أعلم.
(٢) في جميع الأصول: «طوفان»! ولا وجه لها.

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا أبو أسامةَ، حدثنا زكريَّا بنُ أبي زائدةَ، عن سعيد بن أبي بُردة، عن أنس بن مالكٍ؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ لَيَرْضى عن العبدِ أنْ يأكُلَ الأكلةَ فيَحْمَدَهُ عليها أو يَشْرَبَ الشُّرْبَةَ فيَحْمَدَهُ عليها**». وكذا رواه مسلمٌ والترمذيُّ والنسائيُّ من حديث أبي أسامة[1].

والظاهرُ أنّ الشَّكورَ هو الذي يعملُ بجميع الطاعاتِ القلبيَّةِ والقوليَّةِ والعمليَّةِ؛ فإنَّ الشُّكْرَ يكون بهٰذا وبهٰذا؛ كما قالَ الشاعرُ:

أفادَتْكُمُ النَّعْماءُ منِّي ثلاثةً يدِي ولِساني والضَّميرَ المُحجَّبا

۞ ذكر صومه عليه السلام:

وقال ابن ماجه: باب صيام نوح عليه السلام: حدثنا سهل بن أبي سهل، حدثنا سعيد بن أبي مريم، عن ابن لَهيعةَ، عن جعفر بن ربيعة، عن أبي فراس: أنَّه سمع عبد الله بن عمرو يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**صامَ نوحٌ الدَّهْرَ إلّا يومَ عيدِ الفطرِ ويومَ عيدِ الأضْحى**». هكذا رواهُ ابن ماجه من طريق عبد الله بن لَهيعةَ بإسنادِه ولفظِه.

وقد قال الطبرانيُّ: حدثنا أبو الزِّنباع رَوْحُ بن فَرَج، حدثنا عمرو بن خالد الحَرَّانيُّ، حدثنا ابن لَهيعة، عن أبي قَتادة، عن يزيد بن رباحٍ أبي فراس، أنَّه سمع عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**صامَ نوحٌ الدَّهْرَ إلّا يومَ الفطرِ والأضحى، وصام داوودُ نصفَ الدَّهْرِ، وصام إبراهيمُ ثلاثةَ أيّام من كلِّ شهرٍ؛ صام الدَّهْرَ وأفطرَ الدَّهْرَ**»[2].

---

(١) رواه: أحمد (٣/ ١١٧)، ومسلم (٤٨- الذكر، استجاب حمد الله، ٤/ ٢٠٩٥/ ٢٧٣٤)، والترمذي (٢٦ - الأطعمة، ١٨ - الحمد علىٰ الطعام، ٤/ ٢٦٥/ ١٨١٦)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١/ ٢٢٤/ ٨٥٧ - تحفة).

(٢) (ضعيف). رواه: ابن ماجه (٧- الصيام، ٣٢- باب، ١/ ٥٤٧/ ١٧١٤)، والطبراني في «الكبير» (٣/ ١٩٨ - مجمع)، والبيهقي في «الشعب» (٣/ ٣٨٨/ ٣٨٤٦)؛ من طريق ابن لهيعة... به فذكره.

قال المنذري في «الترغيب» (٢/ ٥٤/ ١٥٢٥): «رواه الطبراني في «الكبير» والبيهقي، وفي إسنادهما أبو فراس، لم أقف فيه علىٰ جرح ولا تعديل، ولا أراه يعرف». وقال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ١٩٨): «رواه الطبراني في «الكبير»، وفيه أبو قنان (والصواب: فراس)، ولم أعرفه». وأبو فراس هو يزيد بن رباح - كما ذكر الحافظ ابن كثير - ثقة من رجال مسلم، ولكن الحديث ضعيف لأجل ابن لهيعة، وحاله مشهور، ثم هو قد اضطرب فيه: فرواه مرة عن ابن ربيعة، ومرة عن أبي قتادة. وبه ضعفه الألباني.

ذكر حجه عليه السلام:

وقال الحافظ أبو يعلىٰ: حدثنا سفيان بن وَكيع، حدثنا أبي، عن زَمْعَةَ (وهو ابن صالح)[١]، عن سلمة بن وَهْرامَ، عن عِكرمة، عن ابن عباس؛ قال: حجَّ رسولُ الله ﷺ، فلما أتىٰ واديَ عُسْفانَ؛ قال: «**يا أبا بكر! أيُّ وادٍ هٰذا؟**». قال: هٰذا وادي عُسْفانَ. قال: «**لقد مَرَّ بهٰذا الوادي نوحٌ وهودٌ وإبراهيمُ على بَكَرَاتٍ لهم حُمْرٍ خُطُمُهُمُ الليفُ، أُزُرُهُمُ العَباءُ، وأَرْدِيَتُهَمُ النِّمارُ، يحجُّونَ البيتَ العتيقَ**»[٢]. فيه غرابةٌ.

ذكر وصيته لولده عليه السلام

قال الإمام أحمدُ: حدثنا سليمان بن حَرْب، حدثنا حمَّاد بن زيد، عن الصَّقْعَبِ بن زهير، عن زيد بن أسلم، (قال حمادٌ: أظنُّه) عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرٍو قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فجاء رجلٌ من أهل الباديةِ عليه جُبَّةُ سِيْجانَ[٣] مزرورةٌ بالدِّيباج، فقال: «ألا إنَّ صاحِبَكُم هٰذا قد وَضَعَ كلَّ فارسٍ ابنِ فارسٍ (أو قال: يريدُ أن يَضَعَ كلَّ فارسٍ ابنِ فارسٍ) ورَفَعَ كلَّ راعٍ ابنِ راعٍ». قال: فأخذَ رسول الله ﷺ بمجامع جُبَّتِهِ، وقال: «**ألا أرى عليك لباسَ مَنْ لا يَعْقِلُ؟**». ثم قال: «**إن نبيَّ الله نوحًا عليه السلام لما حَضَرَتْهُ الوفاةُ؛ قال لابنِهِ: إني قاصٌّ عليك الوصيَّةَ: آمُرُك باثنتينِ وأنهاك عن اثنتينِ: آمرُكَ بلا إلٰهَ إلَّا اللهُ؛ فإنَّ السماواتِ السبعَ والأرضينَ**

---

(١) في جميع الأصول: «وهو ابن أبي صالح»! وهو خطأ ظاهر.

(٢) (**ضعيف**). رواه: أحمد (١/ ٢٣٢) من طريق وكيع... به. ولم أجده في «مسند أبي يعلىٰ»، ولا نسبه إليه المنذري ولا الهيثمي، بل لقد أعاد المؤلف رحمه الله ذكره في (ص١٦٤-١٦٥) وقال: «وقد تقدم في قصة نوح من رواية الطبراني»! وليس كذٰلك كما ترىٰ، بل ولم أجده في معاجم الطبراني الثلاث! وكذٰلك فقد استغربه هنا وحسن إسناده هناك! فكأن في الأمر خطأ. فالله أعلم.

قال المنذري في «الترغيب» (٢/ ١٣٣/ ١٦٩٤): «رواه أحمد والبيهقي، كلاهما من رواية زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام، ولا بأس بحديثهما في المتابعات، وقد احتج بهما ابن خزيمة وغيره». وقال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٢٢٣): «رواه أحمد، وفيه زمعة بن صالح، وفيه كلام، وقد وثق». قلت: هو ضعيف وإن وثق، وبه ضعف الحديث أحمد شاكر في «شرح المسند» (٢٠٦٧).

وعُسُفان: وادٍ قريب من مكة. والبَكَرات: جمع بكْرة، وهي الناقة الفتيَّة. والنِّمار: جمع نمرة، وهي الكساء المخطط.

(٣) السيجان: الطيلسان الأخضر أو الأسود.

السبعَ لو وُضِعَتْ في كِفَّةٍ ووُضِعَتْ لا إلٰهَ إلّا اللهُ في كِفَّةٍ؛ رجحتْ بهنَّ لا إلٰهَ إلّا الله. ولو أنَّ السماواتِ السبعَ والأرضينَ السبعَ كُنَّ حلْقةً مبهمةً؛ قَصَمْتُهُن لا إلٰه إلا الله، وسبحانَ اللهِ وبحمدهِ؛ فإنَّها صلاةُ كلِّ شيءٍ، وبها يُرْزَقُ الخَلْقُ، وأنهاك عن الشِّرْكِ والكِبْرِ». قال: قلت (أو: قيل): يا رسول الله! هٰذا الشركُ قد عَرَفْناه؛ فلما الكِبْرُ؟ أن يكون لأحدِنا نعلانِ حسنَتانِ لهما شِراكان حسنانِ؟ قال: «لا». قال: هو أن يكونَ لأحِدنا حُلَّةٌ يَلْبسُها؟ قال «لا» قال: هو أن يكونَ لأحدِنا دابَّةٌ يركبُها؟ قال: «لا». قال: هُو أن يكونَ لأحِدنا أصحابٌ يجلِسون إليه؟ قال: «لا». قلتُ (أو: قيل): يا رسول الله! فما الكِبْرُ؟ قال: «سَفَهُ الحقِّ وغَمْطُ الناسِ»(١). وهٰذا إسنادٌ صحيحٌ ولم يخرِّجوه.

ورواه أبو القاسم الطبراني من حديث: عبد الرحيم بن سليمان، عن محمد ابن إسحاق، عن عمرو بن دينار، عن عبد الله بن عمرو: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «كان في وَصِيَّةِ نوح لابنِهِ: أوصيكَ بخَصْلَتَيْنِ وأنهاك عن خَصْلَتَيْنِ...» فذكر نحوه.

وقد رواه أبو بكر البزّارُ، عن إبراهيم بن سعيد، عن أبي معاوية الضَّرير، عن محمد بن إسحاق، عن عمرو بن دينار، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ... بنحوه! والظاهر أنه عن عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه أحمدُ والطبرانيُّ. والله أعلم.

۞ [ما جاء في عمر نوح عليه السلام]:

ويزعُمُ أهلُ الكتاب أن نوحًا عليه السلام لمَّا رَكِبَ في السفينةِ كان عمرُهُ ستَّ مئةِ سنةٍ، وقدَّمنا عن ابن عباس مثلَه، وزاد: وعاش بعد ذٰلك ثلاثَ مئةٍ وخمسينَ سنة! وفي هٰذا القول نظرٌ! ثم إن لم يُمْكِنِ الجمعُ بينَه وبينَ دِلالةِ القرآنِ؛ فهو خطأٌ محضٌ؛ فإنَّ القرآن يقتضي أنَّ نوحًا

---

(١) (صحيح). رواه أحمد (٢/ ١٦٩ و٢٢٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٤٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص١٢٨)؛ من طريق الصقعب بن زهير... به.

قال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٢٢٣): «رواه كله أحمد، ورواه الطبراني بنحوه، ورواه البزار من حديث ابن عمر. ورجال أحمد ثقات». وقال أيضًا (١٠/ ٨٧): «رواه البزار، وفيه محمد بن إسحاق، وهو مدلس، وهو ثقة، وبقية رجاله رجال الصحيح». والظاهر أن الصواب في رواية البزار أنها عن ابن عمرو - كما استظهر الحافظ ابن كثير-؛ لأن الطريق واحدة كما ترىٰ، ولعله لذٰلك حذفها الحافظ ابن حجر من «مختصر الزوائد».

وفي كل الأحوال؛ فالحديث صحيح بالطريق الأولىٰ؛ فكيف إذا ضُمَّ إليها ما بعدها؟! وقد صححه الألباني.

مَكَثَ في قومِهِ بعد البعثةِ وقبل الطُّوفانِ ألفَ سنةٍ إلَّا خمسينَ عامًا، فأخَذَهُمُ الطوفانُ وهم ظالمون. ثم الله أعلمُ كم عاش بعد ذٰلك. فإن كان ما ذُكِرَ محفوظًا عن ابن عباس - من أنَّه بُعِثَ وله أربعُ مئةٍ وثمانون سنةً، وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثَ مئةٍ وخمسين سنة -؛ فيكونُ قد عاش علىٰ هٰذا ألفَ سنةٍ وسبعَ مئةٍ وثمانين سنةً!

۞ [ما جاء في قبره عَلَيْهِ السَّلَامُ]:

وأما قبرُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فروىٰ ابنُ جَرير والأزرقيُّ عن عبد الرحمٰن بن سابطٍ أو غيره من التابعين مرسلًا: أنَّ قبر نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بالمسجد الحرام[١]. وهٰذا أقوىٰ وأثبتُ من الذي يذكُرُه كثيرٌ من المتأخِّرين من أنَّه ببلدةٍ بالبِقاع تُعْرَفُ اليوم بكرك نوح، وهناك جامعٌ قد بُنِيَ بسبب ذٰلك فيما ذكر! والله أعلم[٢].

---

(١) (مرسل ضعيف). انظر الحاشية التالية.

(٢) جاء بعد هٰذا الكلام في إحدىٰ النسخ الخطية لـ «البداية والنهاية» (١/ ١٩٠ -ط. الفكر) زيادة طويلة لا تناسب إضافتها وراءه؛ لأنها مبنية علىٰ نية حذف ما تقدم في ذكر قبر نوح ﷺ واستئناف الكلام فيه من جديد، وربما كانت إضافة من الحافظ ابن كثير فيما بعد، أو من بعض تلاميذه نقلًا من لسانه، أو أضافها أحد أهل العلم علىٰ حاشية النسخة فضمت إلىٰ متنها فيما بعد، فرأيت أن الأجدر بها أن توضع في الحاشية هنا، ولا سيما أن موضوعها دراسة ونقد الحديث المتقدم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن قال قائل: هل ورد في تعيين قبر نوح ﷺ شيء من الآثار؟ فالجواب: نعم؛ ورد في ذٰلك حديث مرسل: أورده الإمام أبو [جعفر] محمد بن جرير الطبري في «تفسيره» عند قوله تعالىٰ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]؛ فإنه قال: وقيل: إن الأرض التي ذكَرَها الله في هٰذه الآية هي مكةُ: حدثنا أبو حميد، حدثنا جريرٌ، عن عطاء، عن ابن سابط (واسمه: عبد الرحمن): أن النبي ﷺ قال: «دُحِيَتِ الأرضُ من مكَّةَ، وكانتِ الملائكةُ تطوفُ بالبيتِ؛ فهيَ أولُ مَن طاف به، وهي الأرضُ التي قال الله تعالىٰ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وكان النبيُّ إذا هَلَكَ قومُهُ ونجا هو والصالحونَ؛ أتاها هو ومن معه، فَعَبدوا الله بها حتىٰ يموتوا؛ فإن قبر نوح وهود وصالح وشعيب بين زمزم والرُّكْن والمقام».

ورواه الحافظ أبو القاسم بن عساكر في «تاريخه» من طريق: أبي البرثي، عن المفضَّل بن محمد، عن عبد الله بن أبي غسَّانَ، عن جرير، عن عطاء، عن عبد الرحمن بن سابط؛ قال: إن قبر نوح وهود وشعيب وصالح بين زمزم وبين الرُّكْنِ والمقام. فجعله موقوفًا علىٰ ابن سابط من كلامه...

ومداره علىٰ عطاء السائب الخراسانيِّ، وفيه ضعفٌ.

ولو صحَّ هٰذا؛ لأفادنا ضَعْفَ ما يتداولُهُ أهل هٰذه الأمصار من أنَّ نوحًا صلواتُ الله وسلامُه عليه مقبورٌ بهٰذا البلدة التي اشْتُهِر إضافتُها إليه، وهي كرك نوح، وهي بأرض البقاع غربي دمشق. وكذٰلك ما يزعُمُه بعض من =

= صنَّف في فضائل الشام من أن هودًا عليه السلام مقبورٌ في الحائط القِبْلِيِّ من جامع دمشقَ قريبًا من المأذنة الشرقيَّة، وثَمَّ علامة عليه تعرف. وقيل: إن قبر هود عليه السلام بحضر موت. رواه البخاري في «تاريخه الكبير» من حديث: ابن إسحاق، حدثني محمد بن عبد الله بن أبي سعيد الخزاعي، عن أبي الطفيل، سمعت عليًّا... يقول ذٰلك في كلام طويل ذكره في ترجمة محمد هٰذا.

ولو صح هٰذا الخبر المتقدم أيضًا؛ لدل أن مكة والبيت عمرا قبل إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وقد نقل ذٰلك بعض المفسرين عن عبد الله بن عباس وغيره، ولكن بلا إسناد، ولا يصح، وهو مخالف لظاهر الكتاب العزيز:

في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، وكذا قوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وكذا سياق الحديث الذي رواه البخاري عن عبد الله بن عباس في قصة بناء إبراهيم عليه السلام البيت الحرام.

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: ٢٦].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧]، وليس المراد بأنه أول بناء وضع علىٰ وجه الأرض كما يقوله من زعم أن آدم أول من وضعه أو أن الملائكة أول من بناه، وإنما المراد أنه أول بيت وضع مباركًا للعبادة، وهٰذا معنىٰ ما: رواه شعبة وأبو عوانة، عن سماك، عن خالد بن عرعرة، عن علي رضي الله عنه. وهكذا قال الحسن البصري ومطر الوراق وسعيد بن جبير. وهو الذي رجحه ابن جرير في «تفسيره». وهو الذي لا شك فيه؛ لأن الحال في قوله: ﴿مُبَارَكًا﴾: دالٌّ علىٰ ذٰلك، كأنه قال: أول بيت وضع علىٰ البركة - أي: حال كونه مباركًا - للذي ببكة. وهٰذا لا ينفي أن يكون وضع قبله بيوت كثيرة للمسلمين وغير ذٰلك، فدل ذٰلك علىٰ أن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنىٰ المسجد الحرام.

وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه؛ قال: قلت: يا رسول الله! أي مسجد وضع أولًا؟ قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أي؟ قال: «مسجد بيت المقدس». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة».

فظهر لك من سياق الآيات المذكورة مع هٰذا الحديث أن إبراهيم عليه السلام هو أول من بني المسجد الحرام، وهٰذا أشهر من أن يحتاج إلىٰ بسط أكثر من هٰذا.

ولهٰذا أشكل هٰذا الحديث علىٰ كثير من العلماء لما رأوا: أن إبراهيم هو أول من بنىٰ المسجد الحرام. وفي «سنن النسائي» و«صحيح أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة رحمه الله» أن سليمان بن داوود بنىٰ مسجد بيت المقدس. وفي حديث أبي ذر أن بينهما أربعين سنة. وقد علم كل أحد أن بين سليمان وإبراهيم أزيد من ذٰلك بأكثر من ألف سنة!!

فشرع أبو حاتم محمد بن حبان البستي يوهن حديث أبي ذر المذكور، فأخطأ في صنيعه ذٰلك؛ لأنه مخرج في الصحيحين بإسناد لا يشك في صحته - والإشكال الذي وقف عليه سأذكر حله إن شاء الله تعالىٰ - فرد حديث =

= أبي ذر هٰذا كما ذكرت لك، وقد أخرج في «صحيحه» حديثه المطول الذي تفرد به إبراهيم بن هشام بن يحيىٰ الغساني الدمشقي، وقد تكلم فيه الأئمة وكذبه أبو زرعة الرازي وغيره رحمهم الله، وفيه ما في الأول وزيادة؛ فهٰذا تناقض.

والإشكال ليس بلازم قطعًا؛ فإنه ليس في الحديث أن سليمان عليه السلام هو ابتدأ بيت المقدس: قيل: إنه بناه؛ وقد كان بيت المقدس قبل ذٰلك كهفًا وموئلًا لبني إسرائيل قبله، وقد كانوا بعد خروجهم من التيه وموت هارون ثم موسىٰ عليه السلام أووا إلىٰ بيت المقدس ونصبوا علىٰ الصخرة قبة العهد التي كان الله أمر موسىٰ عليه السلام بصنعتها، فكانوا يصلون إليها في التية، ثم لما نصبت علىٰ الصخرة؛ استمروا يصلون إليها، فلما ذهبت؛ استمروا يصلون إلىٰ الصخرة. وهٰذا مضمون ما ذكره غير واحد من أئمة العلماء. وقد رواه أبو داوود في كتاب «الناسخ والمنسوخ». وخروجهم من التية كان مع يوشع بن نون خليفة موسىٰ عليه السلام في النبوة صلوات الله وسلامه عليهما. فدل هٰذا كله علىٰ أن البيت المقدس كان موجودًا قبل نبي الله سليمان عليه السلام، والحديث ليس يدل علىٰ أنه ابتدأ بناءه قطعًا؛ فهو محمول علىٰ أنه جدد مصالحه أو بناه بناءً مستأنفًا علىٰ هيئة لم تكن.

فإن قيل: فمن أول من وضعه؟ فالجواب: قد ذكر غير واحد من الأئمة من علماء هٰذه الأمة أن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه هو الذي بناه أولًا، وهٰذا هو الذي يزعمه أهل الكتاب، وهو صحيح؛ لأنه قد دل عليه تاريخ الحديث المذكور عن أبي ذر في الصحيحين، والخبر الكتابي إذا شهد الشرع بصحته قبل.

فإن قيل: حديث أبي ذر دل علىٰ أن المسجد الحرام قبل المقدس بأربعين سنة، فسلمنا أن إبراهيم هو الذي وضع البيت الحرام لما تقدم؛ فلم قلت: إن يعقوب هو الذي وضع بيت المقدس؟ لم لا يجوز أن يكون وضعه غيره بعد بناء إبراهيم المسجد بأربعين سنة؟

فالجواب: دلت قرائن علىٰ صدق ذٰلك، وذٰلك أن يعقوب عليه السلام ولد في حياة إبراهيم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٧١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢]، ويعقوب كان مقيمًا بأرض بيت المقدس بعد موت إبراهيم، وما كان أحد في ذٰلك الحين يضع مسجدًا لله غيره وغير أبيه إسحاق؛ لأن أحدًا لم يكن نبيًا ذٰلك الحين غيرهما، ولا يفتئت أحد علىٰ الأنبياء في استباق الخيرات، بل هو أسبق البشر في ذٰلك، ولم يقل أحد: إن الذي وضعه إسحاق، فلزم أنه يعقوب عليه السلام. وأيضًا؛ فإن هٰذه المساجد الثلاث - وهي المسجد الحرام والمسجد الأقصىٰ ومسجد رسول الله ﷺ بالمدينة - إنما شرفت علىٰ سائر مساجد الأرض؛ لأن كل واحد منها بناه نبي، ولهٰذا لا تشد الرحال بالسفر الطويل إلىٰ مسجد معين من الأرض يراد التقرب بإعمال المطي إليه إلا إلىٰ هٰذه المساجد الثلاثة؛ كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلىٰ ثلاث مساجد: مسجدي هٰذا، والمسجد الحرام، ومسجد بيت المقدس». ورواه مسلم أيضًا عن أبي سعيد الخدري، وفي بعض ألفاظه: «لا تشدوا الرحال»؛ بصيغة النهي، واللفظ الأول خبر لفظًا وهو نهي معنىً، وهٰذا معلوم. ورواه النسائي وغيره من حديث أبي هريرة عن أبي نصرة عن النبي ﷺ. ولهٰذا جاء في تضعيف ثواب الصلاة في هٰذه المساجد الثلاثة علىٰ غيرها من المساجد أحاديث كثيرة في الصحاح وغيرها، ولها أحكام تمتاز بها عن غيرها من المساجد كثيرة؛ لو تقصيناها؛ لطال الفصل. والله ﷻ أعلم» أهـ.

قصة هود عليه السلام

۞ [عاد ونبيهم هود عليه السلام]:

وهو هودُ بنُ شالَحَ بنِ أرْفَخْشَذَ بن سامِ بنِ نوح عليه السلام. ويقال: إن هودًا هو عابرُ بن شالَحَ بنِ أرْفَخْشَذَ بن سام بن نوح. ويقال: هودُ بن عبد الله بن رباحٍ الجارودِ بن عادِ بن عُوصَ بنِ إرَمَ بنِ سامِ بن نوح عليه السلام. ذكره ابن جرير(١).

وكان من قبيلةٍ يقال لهم: عادُ بن عُوصَ [بن إرَمَ] بن سام بن نوح.

وكانوا عربًا يسكنون الأحقاف (وهي: جبالُ الرمل) وكانت باليمن بين عُمانَ وحضرموتَ، بأرض مطلَّةٍ علىٰ البحر، يُقال لها: الشَّحَرُ، واسمُ واديهم: مغيثٌ.

وكانوا كثيرًا ما يسكُنون الخيامَ ذواتِ الأعمدةِ الضِّخام؛ كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧﴾ [الفجر: ٦-٧]؛ أي: عادِ إرَمَ، وهم عادٌ الأولىٰ. وأما عادٌ الثانيةُ؛ فمتأخرةٌ كما سيأتي بيانُ ذٰلك في موضعه. وأمَّا عادٌ الأولىٰ؛ فهم عادُ ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾ [الفجر: ٧-٨]؛ أي: مثل القبيلة، وقيل: مثل العمد. والصحيح الأول كما بيَّنَّاه في «التفسير». ومن زعم أنَّ إرمَ مدينةٌ تدورُ في الأرض؛ فتارةً في الشام، وتارةً في اليمن، وتارةً في الحجاز، وتارةً في غيرِها؛ فقد أبعد النُّجْعَةَ، وقالَ ما لا دليلَ عليه، ولا بُرهانَ يُعَوَّلُ عليه، ولا مُسْتَنَدَ يُرْكَنُ إليه.

وفي «صحيح ابن جبان» عن أبي ذر في حديثه الطويل في ذكر الأنبياء والمرسلين؛ قال فيه: «**منهم أربعةٌ من العربِ: هودٌ، وصالحٌ، وشعيبٌ، ونبيُّك يا أبا ذرٍّ!**»(٢).

ويقال: إن هودًا عليه السلام أولُ من تكلَّم بالعربيةِ. وزعم وَهْبُ بن مُنَبِّهٍ أنَّ أباه أولُ من تكلَّم

---

(١) في «التاريخ» (١/ ١٣٣)، ووقع فيه: «خلود»؛ بدل: «الجارود»!

(٢) (ضعيف جدًّا). تقدم الكلام علىٰ حديث أبي ذر هٰذا في (ص٨٨-٨٩)، وهٰذه القطعة منه تفتقر إلىٰ الشواهد؛ فهي علىٰ ضعفها الشديد.

بها. وقال غيرُهُ: أولُ من تكلَّمَ بها نوحٌ. وقيلَ: آدمُ. وهو الأشبهُ. وقيل غيرُ ذٰلك. والله أعلم.

ويُقالُ للعربِ الذين كانوا قبل إسماعيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: العربُ العاربةُ، وهم قبائلُ كثيرةٌ؛ منهم: عادٌ، وثمودُ، وجُرْهُمٌ، وطَسْمٌ، وجَدِيسٌ، وأُمَيْمٌ، ومَدْيَنُ، وعِمْلاقٌ، وعُبَيْلٌ، وجاسِمٌ، وقَحْطانُ، وبنو يَقْطَنَ... وغيرهم.

وأما العربُ المُسْتَعْرِبَةُ؛ فهم من ولدِ إسماعيل بن إبراهيمَ الخليل، وكان إسماعيلُ بنُ إبراهيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أولَ من تكلَّمَ بالعربيَّةِ الفصيحةِ البليغةِ، وكان قد أخذَ كلامَ العربِ من جُرْهُمٍ الذين نزلوا عند أمِّه هاجَرَ بالحرم؛ كما سيأتي بيانُهُ في موضعِهِ إنْ شاءَ الله تعالىٰ[١]، ولٰكنْ أنْطَقَهُ اللهُ بها في غايةِ الفصاحةِ والبيان، وكذٰلك كان يتلفَّظُ بها رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

۞ [قصة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ كما فصلتها نصوص القرآن الكريم]:

والمقصودُ: أنَّ عادًا -وهم عادٌ الأولىٰ- كانوا أولَ من عَبَدَ الأصنامَ بعد الطُّوفانِ، وكانت أصنامُهُم ثلاثةً؛ صدًا وصمودًا، وهباء[٢]، فبَعَثَ اللهُ فيهم أخاهم هودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فدعاهُم إلىٰ الله:

كما قال تعالىٰ بعد ذِكْرِ قوم نوح وما كان من أمرهم في سورة الأعراف: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: ٦٥-٧٢].

وقال تعالىٰ بعد ذكر قصة نوح في سورة هود: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟

---

(١) انظر ما سيأتي (ص٢٥٤-٢٥٧).

(٢) اختلفت الأصول في أسماء هٰذه الأصنام اختلافًا كبيرًا، وكذٰلك الحال بالنسبة لـ «تاريخ الطبري» و«تفسيره» و«عرائس المجالس» و«تفسير ابن كثير» و«الدر»؛ فأثبت ما ترجح عندي من ذٰلك كله. والله أعلم.

ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود: ٥٠-٦٠].

وقال تعالىٰ في سورة قد أفلح المؤمنون بعد قصة قوم نوح: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون: ٣١-٤١].

وقال تعالىٰ في سورة الشعراء بعد قصةِ قوم نوح أيضًا: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٤٠].

وقال تعالىٰ في سورة حمٓ السجدة: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت: ١٥-١٦].

وقال تعالىٰ في سورة الأحقاف: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: ٢١-٢٥].

وقال تعالىٰ في الذاريات: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤١-٤٢].

وقال تعالىٰ في النجم: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [النجم: ٥٠-٥٥].

وقال تعالىٰ في سورة اقتربت: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [القمر: ١٨-٢٢].

وقال في الحاقة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة: ٦-٨].

وقال في سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ٦-١٤].

وقد تكلَّمنا علىٰ كلٍّ من هٰذه القَصَصِ في أماكِنِها من كتابنا «التفسير» ولله الحمدُ والمِنَّة.

وقد جرىٰ ذِكْرُ عادٍ في سورة براءة وإبراهيم والفرقان والعنكبوت وفي سورة ص وفي سورة ق.

۞ [عاد هم أول من عبد الأصنام بعد الطوفان]:

وَلْنَذْكُرْ مضمونَ القصةِ مجموعًا من هٰذه السياقاتِ مع ما يضافُ إلىٰ ذٰلك من الأخبار.

وقد قدَّمنا أنَّهم أولُ الأمم الذين عَبَدوا الأصنامَ بعد الطُّوفان، وذٰلك بيِّنٌ في قولِهِ لهم: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ﴾ [الأعراف: ٦٩]؛ أي: جعَلَهم أشدَّ أهل زمانهم في الخِلْقَةِ والشِّدَّةِ والبطش.

وقال في المؤمنون: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ٣١﴾ [المؤمنون: ٣١]، وهم قومُ هودٍ علىٰ الصحيح. وزعمَ آخرونَ أنَّهم ثمودُ؛ لقولِهِ: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ﴾ [المؤمنون: ٤١]؛ قالوا: وقومُ صالح هم الذين أُهلِكوا بالصَّيْحَةِ، ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦﴾ [الحاقة: ٦]. وهٰذا الذي قالوه لا يَمْنَعُ من اجتماع الصيحةِ والريح العاتيةِ عليهِم؛ كما سيأتي في قصةِ أهل مَدْيَنَ أصحابِ الأَيْكَةِ؛ فإنَّه اجتمعَ عليهم أنواعٌ من العقوباتِ.

ثم لا خلافَ أنَّ عادًا قبل ثمودَ.

۞ [هود يدعو قومه لإخلاص العبادة لله]:

والمقصودُ: أنَّ عادًا كانوا عربًا جُفاةً كافرينَ عتاةً متمرِّدين في عبادةِ الأصنام، فأرسلَ الله فيهم رَجُلًا منهم يَدْعوهم إلىٰ اللهِ وإلىٰ إفْرادِهِ بالعبادةِ والإخلاص له، فكذَّبوه وخالَفوه وتنقَّصوه، فأَخَذَهُمُ الله أَخْذَ عزيزٍ مقتدرٍ.

فلما أمرهم بعبادةِ الله، ورغَّبهم في طاعتِهِ واستغفارِهِ، ووَعَدَهم علىٰ ذٰلك خيرَ الدُّنيا والآخرة، وتوعَّدَهم علىٰ مخالفةِ ذٰلك عقوبةَ الدُّنيا والآخرة؛ ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾ [الأعراف: ٦٦]؛ أي: هٰذا الأمرُ الذي تدعونا إليه سَفَهٌ بالنسبةِ إلىٰ ما نحن عليه من عبادةِ هٰذه الأصنام التي يُرْتَجىٰ منها النصرُ والرزقُ، ومع هٰذا نظنُّ أنك تَكْذِبُ في دعواك أنَّ الله أرسلك.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧﴾ [الأعراف: ٦٧]؛ أي: ليس الأمرُ كما تظُنُّون ولا كما تعتقدونَ. ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ٦٨﴾ [الأعراف: ٦٨]: والبلاغ يستلزمُ عدمَ الكذبِ في أصل المبلَّغ، وعدمَ الزيادةِ فيه والنقص منه، ويستلزم إبلاغَهُ

بعبارةٍ فصيحة وجيزة جامعة مانعة لا لَبْس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب.

وهو مع هٰذا البلاغ علىٰ هٰذه الصفةِ في غاية النُّصح لقومِهِ والشفقةِ عليهم والحِرْص علىٰ هدايتهم، لا يبتغي منهم أجرًا ولا يطلب منهم جُعْلًا، بل هو مخلصٌ لله ﷻ في الدَّعوة إليه والنُّصح لخلقِهِ، لا يطلبُ أجرَهُ إلَّا من الذي أرسله؛ فإنَّ خيرَ الدُّنيا والآخرة كلَّه في يديهِ وأمرَهُ إليهِ، ولهٰذا وقال: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [هود: ٥١]؛ أي: أما لكم عقلٌ تميِّزونَ به وتفهمونَ أني أدعوكم إلىٰ الحقِّ المبينِ، الذي تشهد به فِطَرُكُمُ التي خُلِقْتُم عليها، وهو دينُ الحقِّ الذي بَعَثَ الله به نوحًا وأَهْلَكَ من خالَفَه من الخلق، وها أنا أدْعوكم إليهِ، ولا أسألُكم أجرًا عليه، بل أبتغي ذٰلك عند اللهِ، مالكِ الضُّرِّ والنفع؟! ولهٰذا قال مؤمن يٰسٓ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرًا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [يس: ٢١-٢٢].

وقال قومُ هودٍ له فيما قالوا: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾ [هود: ٥٣-٥٤]؛ يقولون: ما جئْتَنا بخارِقٍ يشهدُ لك بصدقِ ما جئتَ به، وما نحنُ بالذين نترُكُ عبادةَ أصنامنا لمجرَّدِ قولِكَ بلا دليل أقمتَه ولا برهانٍ نصبتَه، وما نظنُّ إلَّا أنك مجنونٌ فيما تزعُمه، وعندنا أنَّه إنَّما أصابك هٰذا لأنَّ بعض آلِهَتنا غَضِبَ عليك فأصابَكَ في عقلِكَ فاعتراك جنونٌ بسببِ ذٰلك، وهو قولُهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود: ٥٤-٥٥]: وهٰذا تحدٍّ منه لهم، وتبرُّؤٌ من آلهتهم، وتنقُّصٌ منه لها، وبيانُ أنها لا تنفعُ شيئًا ولا تضرُّ، وأنها جمادٌ حكمُها حكمُه وفعلُها فعلُه؛ فإن كانتْ كما تزعُمون من أنها تَنْصُرُ وتنفعُ وتضُرُّ؛ فها أنا بريءٌ منها لاعنٌ لها؛ فكيدوني ثم لا تُنْظِرونِ أنتم جميعًا بجميع ما يُمْكِنُكم أن تَصِلوا إليه وتقدِروا عليه، ولا تؤخِّروني ساعةً واحدةً ولا طرفةَ عين؛ فإنِّي لا أبالي بكم ولا أفكِّرُ فيكم ولا أنظرُ إليكم.

﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:

٥٦]؛ أي: أنا متوكِّلٌ علىٰ الله، ومتأيِّدٌ به، وواثقٌ بجَنابِهِ الذي لا يضيعُ مَن لاذَ به واستندَ إليه؛ فلستُ أبالي مخلوقًا سواه، لست أتوكَّلُ إلَّا عليه ولا أعبدُ إلَّا إيَّاه.

وهٰذا وحدَه برهانٌ قاطعٌ علىٰ أنَّ هودًا عَبْدُ الله ورسولُه، وأنَّهم علىٰ جهل وضَلال في عبادَتِهم غيرَ الله؛ لأنَّهم لم يَصِلوا إليه بسوءٍ ولا نالوا منه مكروهًا، فدلَّ علىٰ صدقه فيما جاءهم به، وبطلانِ ما هم عليه وفسادِ ما ذهبوا إليه.

وهٰذا الدليل بعينِهِ قد استدلَّ به نوحٌ عليه السلام قبلَهُ في قولِهِ: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ [يونس: ٧١].

وهكذا قال الخليلُ عليه السلام: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٣].

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المؤمنون: ٣٣-٣٥]: استبعدوا أن يبعثَ الله رسولًا بشريًّا! وهٰذه الشُّبْهَةُ أدلىٰ بها كثيرٌ من جهلَةِ الكفَرَةِ قديمًا وحديثًا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: ٩٤-٩٥]. ولهٰذا قال لهم هودٌ عليه السلام: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ﴾ [الأعراف: ٦٣]؛ أي ليس هٰذا بعجيب؛ فإنَّ الله أعلمُ حيثُ يَجْعَلُ رسالتَه.

وقوله: ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ۝٣٨ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝٣٩﴾ [المؤمنون: ٣٥-٣٩]: استبعدوا الميعادَ وأنكروا قيامَ الأجسادِ بعد صَيرورَتِها ترابًا وعظامًا، وقالوا: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾؛ أي: بعيدٌ بعيدٌ هٰذا الوعدُ. ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧﴾؛ أي: يموت قومٌ ويحيا آخرونَ. وهٰذا هو اعتقادُ الدَّهْرِيَّةِ؛ كما يقولُ بعضُ الجهلةِ من الزَّنادقة: أرحامٌ تدفعُ وأرضٌ تبلعُ! وأمَّا الدَّورِيَّة؛ فهمُ الذين يعتقدونَ أنَّهم يعودون إلىٰ هٰذه الدارِ بعد كلِّ ستةٍ وثلاثينَ ألفَ سنةٍ. وهٰذا كلُّه كذبٌ وكفرٌ وجهلٌ وضلالٌ وأقوالٌ باطلةٌ وخيالٌ فاسدٌ بلا برهانٍ ولا دليل يستميلُ عقلَ الفجرةِ الكفرةِ من بني آدمَ الذين لا يعقِلون ولا يهتَدون؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ۝١١٣﴾ [الأنعام: ١١٣].

وقال لهم فيما وَعَظَهُم به: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٢٩]؛ يقولُ لهم: أتَبْنونَ بكلِّ مكانٍ مرتفع بناءً عظيمًا هائلًا كالقصورِ ونحوها تَعْبَثونَ ببنائِها لأنَّه لا حاجةَ لكم فيه، وما ذاك إلَّا لأنَّهم كانوا يسكُنون الخيامَ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾ [الفجر: ٦-٨]؛ فعادُ إرَمَ هم عادٌ الأولىٰ الذين كانوا يسكُنون الأعمدةَ التي تَحْمِلُ الخيامَ، ومَن زَعَمَ أنَّ إرمَ مدينةٌ من ذهبٍ وفضةٍ وهي تنتقلُ في البلاد؛ فقد غَلِطَ وأخطأ وقال مالا دليلَ عليه. وقوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ [الشعراء: ١٢٩]: **قيل**: هي القصورُ، **وقيل**: بروجُ الحمام، **وقيل**: مآخذ الماء. ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩﴾ [الشعراء: ١٢٩]؛ أي: رجاءً منكم أن تُعَمَّروا في هٰذه الدار أعمارًا طويلةً. ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٣١ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٣٤ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣٥﴾ [الشعراء: ١٣٠-١٣٥].

وقالوا له ممَّا قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٧٠﴾ [الأعراف: ٧٠]؛ أي: أجئْتَنا لنعبدَ الله وحدَه ونخالفَ آباءَنا وأسلافَنا وما كانوا عليه؟! فإن كنتَ صادقًا فيما جئتَ به؛ فأتِنا بما تَعِدُنا من العذاب والنَّكال؛ فإنَّا لا نؤمنُ بك ولا نتَّبِعُك ولا نصدِّقُك.

كما قالوا: ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الشعراء: ١٣٦-١٣٨]: أمَّا علىٰ قراءة فتح الخاءِ؛ فالمرادُ به اختلاقُ الأوَّلين؛ أي: إنْ هٰذا الذي جئتَ به إلَّا اختلاقٌ منك، أخَذْتَهُ من كُتُبِ الأوَّلين، هكذا فَسَّرَهُ غيرُ واحدٍ من الصحابة والتَّابعينَ. وأما علىٰ قراءة ضمِّ الخاء واللام؛ فالمرادُ به الدِّينُ؛ أي: إنْ هٰذا الدِّينُ الذي نحنُ عليه إلَّا دينُ الأوَّلينَ الآباءِ والأجدادِ من الأسلافِ، ولن نتحوَّلَ عنه ولا نتغيَّرَ، ولا نزالُ متمسكينَ به. ويناسِبُ كلا القراءتينِ الأولىٰ والثانية قولُهُم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾.

۞ [هود ينذر قومه عذاب الله إن لم يتوبوا وينيبوا]:

قال: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف: ٧١]؛ أي: قد استحقَقْتم بهٰذه المقالة الرِّجْسَ والغَضَبَ من اللهِ، أتعارِضون عبادةَ الله وحدَه لا شريك له بعبادةِ أصنام نَحَتُّموها وسمَّيْتُموها آلهةً من تِلقاءِ أنفسِكُم اصْطَلَحْتُم عليها أنتم وآباؤُكم. ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ﴾؛ أي: لم يُنزِّلْ علىٰ ما ذهبتُم إليه دليلًا ولا برهانًا؟! وإذ أبَيْتُم قبولَ الحقِّ، وتماديْتُم في الباطل، وسواءٌ عليكم أنَهَيْتُكم عمَّا أنتم فيه أم لا؛ فانْتَظِروا الآن عذابَ اللهِ الواقعَ بكم وبأسَه الذي لا يُرَدُّ ونكالَهُ الذي لا يُصَدُّ.

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون: ٣٩-٤١].

وقال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: ٢٢-٢٥].

وقد ذكَرَ الله تعالىٰ خبَرَ إهلاكِهم في غير ما آيةٍ كما تقدَّم مُجملًا ومفصَّلًا؛ كقوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: ٧٢]، وكقولِهِ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ

جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود: ٥٨-٦٠]، وكقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون: ٤١]، وقال تعالىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾ [الشعراء: ١٣٩-١٤٠].

۞ [تفصيل الخبر في هلاك عاد ونزول النقمة بهم]:

وأمَّا تفصيل إهلاكِهم؛ فكما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الأحقاف: ٢٤]: كان هٰذا أولَ ما ابتدأَهُمُ العذابُ، أنَّهم كانوا مُمْحِلين مُسْنِتين[1]، فطَلَبوا السُّقْيا، فرأوا عارِضًا في السماءِ، وظنُّوه سُقيا رحمةٍ؛ فإذا هو سُقيا عذابٍ، ولهٰذا قال تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾؛ أي: من وقوع العذاب، وهو قولُهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأحقاف: ٢٢]، ومثلُها في الأعراف.

وقد ذكر المفسِّرون وغيرُهم هاهنا الخبرَ الذي ذَكَرَهُ الإمامُ محمدُ بن إسحاق بن يسار؛ قال: فلَمَّا أبَوْا إلَّا الكفرَ بالله ﷻ؛ أمسكَ عنهم القَطْرَ[2] ثلاثَ سنينَ حتَّىٰ جَهَدَهُم ذٰلك.

قال: وكان الناسُ إذا جَهَدَهُم أمرٌ في ذٰلك الزمان، فطلبوا من اللهِ الفَرَجَ منه؛ إنَّما يطلُبونه بحَرَمِهِ ومكان بيتِهِ، وكان معروفًا عند أهل ذٰلك الزمان، وبه العماليقُ مقيمونَ، وهم من سلالةِ عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وكان سيدُهم إذ ذاك رجلًا يُقال له: معاويةُ بن بكر، وكانت أمُّه من قوم عادٍ، واسمُها جلهدة ابنة الخيبري.

قال: فبعث عاد وفدًا قريبًا من سبعينَ رجلًا لِيَسْتَسْقوا لهم عند الحرم، فمرُّوا بمعاوية بن بكرٍ بظاهرِ مكَّةَ، فنَزَلوا عليه، فأقاموا عندَهُ شهرًا؛ يشربون الخمرَ، وتغنِّيهم الجَرادتانِ (قَيْنَتان لمعاوية)، وكانوا قد وصلوا إليه في شهرٍ، فلمَّا طال مُقامُهم عندَه، وأخذتْه شَفَقَةٌ علىٰ قومِهِ، واستحيا منهم أن يأمُرَهُم بالانصرافِ؛ عَمِلَ شِعرًا يُعَرِّضُ لهم فيه بالانصرافِ، وأمَرَ القَيْنَتَيْنِ أن تُغَنِّيَهم به، فقال:

---

(١) الممحلون: هم الذين أصابهم المحل، والمسنتون: هم الذين أصابتهم السنة؛ يعني القحط.

(٢) في نسخة: «المطر».

أَلا يـا قَـيْـلُ وَيْـحَـكَ قُـمْ فَـهَـيْـنِـمْ لَـعَـلَّ اللهَ يُـصْـحِـبُـنـا غَـمـامـا[(١)]

فَـيَـسْـقـي أَرْضَ عـادٍ إِنَّ عـادًا قَـدَ امْـسَـوْا لا يُـبِـيـنـونَ الـكَـلامـا

مِـنَ الـعَـطَـشِ الـشـديـدِ فليس نَـرْجـو بِـهِ الـشـيـخَ الـكـبـيـرَ ولا الـغُـلامـا

وقـد كـانـتْ نِـسـاؤُهُـمُ بـخـيـرٍ فـقَـدْ أَمـسـتْ نِـسـاؤُهُـمُ أيـامـى

وإنَّ الـوَحْـشَ يَـأتـيـهِـمْ جَـهـارًا ولا يَـخْـشـى لِـعـادِيٍّ سِـهـامـا

وأنـتُـمْ هـاهُـنـا فـيـمـا اشْـتَـهَـيْـتُـم نـهـارُكُـمُ ولَـيْـلُـكُـمُ تَـمـامـا

فَـقُـبِّـحَ وَفْـدُكُـمْ مِـنْ وَفْـدِ قَـوْمٍ ولا لُـقُّـوا الـتَّـحِـيَّـةَ والـسَّـلامـا

قال: فعند ذٰلك تنبَّه القومُ لما جاؤوا له، فَنَهضوا إلىٰ الحرم، ودَعَوْا لقومِهِم، فدعا داعيهم - وهو قَيْلُ بن عنزٍ -، فأنشأ اللهُ سحاباتٍ ثلاثةً؛ بيضاءَ وحمراءَ وسوداءَ، ثم ناداه منادٍ من السماءِ: اخترْ لنفسِكَ (أو: لقومِكَ) من هٰذا السحابِ! فقال: اخترتُ السحابةَ السوداءَ؛ فإنَّها أكثرُ السحابِ ماءً. فناداه منادٍ: اخترتَ رمادًا رِمْدِدًا، لا تُبقي من عادٍ أحدًا، لا والدًا تَتْرُكُ[(٢)] ولا ولدًا؛ إلَّا جَعَلَتْهُ هَمَدًا؛ إلَّا بني اللوذيَّةِ الهمدا. قال: وهم بطنٌ من عادٍ كانوا مقيمينَ بمكَّةَ، فلم يُصِبْهُم ما أصابَ قومَهم. قال: ومَن بَقِيَ من أنسابِهِم وأعقابِهِم هم عادٌ الآخرةُ.

وقال: وساقَ اللهُ السحابةَ السوداءَ التي اختارَها قَيْل بنُ عنزٍ بما فيها من النِّقْمَةِ إلىٰ عادٍ، حتىٰ تَخْرُجَ عليهم من وادٍ يُقالُ له: المغيثُ، فلما رَأَوْها؛ استَبْشَروا، وقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]. فيقولُ تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥]؛ أي: تُهْلِكُ كلَّ شيءٍ أُمِرَتْ به. فكان أولَ مَن أبصرَ ما فيها وعرَفَ أنَّها ريحٌ - فيما يَذْكُرون - امرأةٌ من عادٍ يُقال لها: مَهْدَدُ[(٣)]، فلما تَبَيَّنَتْ ما فيها؛ صاحتْ ثم صَعِقَتْ، فلما أفاقتْ؛ قالوا: ما رأيتِ يا مَهْدَدُ؟! قالت: رأيتُ ريحًا فيها شِبْهُ[(٤)] النارِ، أمامَها رجالٌ

---

(١) قيل: وافد عاد، وسيأتي. هَيْنِم: ادع الله بصوت خفي. يُصْحِبُنا: يمنحنا، وقد جاءت كذٰلك في نسخة.

(٢) في جميع الأصول: «يترك»! ولعلَّ ما أثبته أصوب.

(٣) في جميع الأصول: «مهد»! ولعلَّ ما أثبته أصوب.

(٤) في نسخة: «كشهب».

يقودونَها! فسخَّرَها اللهُ عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيَّامٍ حُسومًا (والحُسومُ: الدائمةُ)، فلم تَدَعْ من عادٍ أحدًا إلا هَلَكَ.

وقال: واعتزلَ هودُ عَلَيْهِ السَّلَامُ -فيما ذُكِرَ لي- في حَظيرةٍ هو ومَن معه من المؤمنينَ، ما يُصيبهم إلَّا ما تَلينُ عليه الجلودُ وتَلَذُّ الأنفُسُ، وإنها لتمرُّ علىٰ عاد بالطَّعْنِ فيما بين السماء والأرض وتدمَغُهُم بالحجارةِ... وذكر تمامَ القصَّة[1].

۞ [سياق آخر في تفصيل هلاك عاد]:

وقد روىٰ الإمام أحمد حديثًا في «مسنده» يشبِهُ هٰذه القصةَ، فقال: حدثنا زيدُ بن الحُباب، حدثني أبو المنذر سَلَّام بنُ سليمان النحويُّ، حدثنا عاصمُ بن أبي النَّجود، عن أبي وائل، عن الحارث (وهو: ابن حسان، ويقال: ابن يزيد) البكريِّ؛ قال: خرجتُ أشكو العلاءَ بنَ الحضرميِّ إلىٰ رسول الله ﷺ فمررت بالرَّبَذَةِ، فإذا عجوزٌ من بني تميم مُنْقَطَعٌ بها، فقالت لي: يا عبدَ اللهِ! إنَّ لي إلىٰ رسول الله ﷺ حاجةً؛ فهل أنت مُبْلِغي إليه؟ قال: فحملتُها، فأتيتُ المدينة؛ فإذا المسجد غاصٌّ بأهلِهِ، وإذا رايةٌ سوداءُ تخفِقُ، وإذا بلالٌ متقلِّدٌ السيفَ بين يدي رسول الله ﷺ، فقلتُ: ما شأنُ الناس؟ قالوا: يريد أن يبعثَ عمرَو بنَ العاص وجهًا. قال: فجلستُ. قال: فدخَلَ منزلَهُ (أو قال: رحلَهُ) فاستأذنتُ عليه، فأذِنَ لي، فدخلتُ، فسلمتُ، فقال: «**هل كانَ بينكُم وبينَ بني تَميم شيءٌ؟**». فقلت: نعم، وكانتْ لنا الدَّبَرَةُ عليهم، ومررتُ بعجوزٍ من بني تميم مُنْقَطَع بها، فسألَتْني أن أحمِلَها إليك، وها هي بالبابِ. فأذن لها، فدخلتْ. فقُلْتُ: يا رسول الله! إن رأيتَ أن تَجْعَلَ بيننا وبين بني تميم حاجزًا؛ فاجعلِ الدَّهْناءَ؛ فإنَّها كانت لنا. قال: فحميتِ العجوزُ واستوفزتْ وقالتْ: يا رسول الله! فإلىٰ أين تضطرُّ مُضَرَكَ؟ قال: فقلتُ: إنَّ مَثَلي ما قالَ الأولُ: مِعْزىٰ حَمَلَتْ حَتْفَها! حملتُ هٰذه الأمَةَ ولا أشعرُ أنَّها كانت لي خصمًا، أعوذُ باللهِ ورسولِهِ أن أكون كوافِدِ عادٍ! قال: «**هيه! وما وافدُ عادٍ؟**». وهو أعلمُ بالحديث منِّي ولكن يستطعِمُهُ. قلت: إن عادًا قُحِطوا، فبعثوا وافدًا لهم يُقال له: قَيْلٌ، فمرَّ بمعاويةَ بن بكر، فأقام عندَهُ شهرًا يسقيه الخمرَ، وتغنِّيه جاريتان يُقال لهما: الجَرادتَان، فلمَّا مضىٰ الشهرُ، خَرَجَ إلىٰ جبال تِهامةَ، فقال: اللهمَّ!

---

(١) وانظر: «تفسير الطبري» (٥/ ٥٢٤/ ١٤٨١٢)، و«تاريخه» (١/ ١٣٣)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٩/ ٢٧٩٨/ ١٥٨٣٩)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٠٩/ الأعراف٧٢)، و«الدر المنثور» (٣/ ١٧٨/ الأعراف ٧٢).

إنك تعلمُ أني لم أجئْ إلىٰ مريض فأداوِيه، ولا إلىٰ أسيرٍ فأفادِيه، اللهمَّ! اسقِ عادًا ما كنتَ تَسْقيه. فمرَّت به سحاباتٌ سودٌ، فنودِيَ منها: اخترْ! فأومأ إلىٰ سحابةٍ منها سوداءَ، فنودِيَ منها: خُذْها رمادًا رَمْدَدًا، لا تُبْقي من عادٍ أحدًا. قال: فما بَلَغَني أنَّه بَعَثَ عليهم من الرِّيح إلَّا كَقَدْرِ ما يجري في خاتمي هٰذا من الريح حتىٰ هَلَكوا. قال أبو وائل: وصَدَقَ، وكانت المرأةُ والرجل إذا بَعَثوا وافِدًا لهم؛ قالوا: لا تَكُنْ كوافِدِ عادٍ[1].

وهكذا رواه التِّرمذيُّ: عن عبد بن حميدٍ، عن زيد بن الحُباب... به. ورواه النَّسائيُّ: من حديث سلَّام أبي المنذر، عن عاصم بن بَهْدَلَةَ. ومن طريقه رواه ابن ماجه. وهكذا أورد هٰذا الحديث وهٰذه القصة عند تفسيرِ هٰذه القصة غيرُ واحدٍ من المفسِّرينَ كابن جَرير وغيره.

۞ [نصوص الكتاب والسنة بين عاد الأولى والآخرة]:

وقد يكون هٰذا السياق لإهلاك عادٍ الآخرة:

فإنَّ فيما ذَكَرَهُ ابنُ إسحاق وغيرهُ ذِكْرٌ لمكَّة، ولم تُبْنَ إلَّا بعد إبراهيم الخليل حين أسْكَنَ فيها هاجَرَ وابنَه إسماعيل فنزلت جُرْهُمٌ عندَهم كما سيأتي[2]، وعادٌ الأولىٰ قبلَ الخليل.

وفيه ذِكْرُ معاوية بن بكر وشِعْرُهُ، وهو من الشعر المتأخِّر عن زمان عادٍ الأولىٰ، ولا يشبهُ كلامَ المتقدِّمين.

---

(١) (صحيح). رواه: ابن أبي شيبة (٦/ ٥٣٧/ ٣٣٥٩١) مقتصرًا علىٰ أوله ولم يذكر أبا وائل، وأحمد (٣/ ٤٨٢)، وابن ماجه (٢٤- الجهاد، ٢٠- الرايات والألوية، ٢/ ٩٤١/ ٢٨١٦) من طريق ابن أبي شيبة، والترمذي (٤٨- التفسير، ٥٢- ومن سورة الذاريات، ٥/ ٣٩١/ ٧٢٧٣ و٧٢٧٤) ولم يصرح باسم الحارث في الموضع الأول، والنسائي في «الكبرىٰ» (٣/ ٤/ ٣٢٧٧ - تحفة)، وابن جرير في «التفسير» (٥/ ٥٢٧/ ١٤٨١٣ و١٤٨١٤) و«التاريخ» (١/ ١٣٣)، والطبراني (٣/ ٢٥٤/ ٣٣٢٥-٣٣٢٩)؛ من طريقين تقوي إحداهما الأخرىٰ عن عاصم... به فذكره.

وقال المزي: «ورواه أبو جناب الكلبي، عن إياد بن لقيط، عن الحارث بن حسان بطوله. وروىٰ عبد الله بن حسان العنبري، عن جدتيه صفية ودحيبة ابنتي علية، عن جدة أبيهما قيلة بنت مخرمة معنىٰ هٰذا الحديث، وهي العجوز المكني عنها في هٰذا الحديث، وسمته في حديثها حريث بن حسان».

فأما الطريق الأولىٰ؛ فحسنةٌ، وطريق أبي جناب الكلبي فيها ضعف ولا بأس بها في المتابعات، وحديث قيلة لا بأس به في المتابعات أيضًا. والحديث قال ابن كثير في «التفسير» (٤/ ١٤٥/ الأحقاف٢٥): «غريب جدًّا من غرائب الحديث وأفراده». وحسنه الألباني، ونقل تحسينه عن الحافظين ابن عبد البر وابن حجر، وهو صحيح بطريقته وشاهده إن شاء الله تعالىٰ.

(٢) انظر هٰذا في (ص٢٥٤-٢٥٧).

وفيه أنَّ في تلك السحابة شَرَرَ نارٍ، وعادٌ الأولىٰ إنَّما أُهْلِكوا ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ [الحاقة: ٦]: وقد قال ابنُ مسعودٍ وابنُ عباس وغيرُ واحدٍ من أئمةِ التابعين: هي الباردةُ. والعاتيةُ الشديدةُ الهبوبِ. ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]؛ أي: كواملَ متتابعاتٍ. قيل: كان أولُها الجمعةَ. وقيلَ: الأربعاءَ. ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة: ٦-٧]: شبَّههم بأعجاز النَّخْل التي لا رؤوسَ لها، وذٰلك لأنَّ الريحَ كانت تجيءُ إلىٰ أحِدهم، فتَحْمِلُه، فترْفَعُه في الهواء، ثم تُنْكِسُهُ علىٰ أمِّ رأسِهِ، فتَشْدَخُهُ، فيبقىٰ جثَّةً بلا رأس. كما قال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩﴾ [القمر: ١٩]؛ أي: في يوم نحس عليهم، مستمرٍّ عذابُهُ عليهم. ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾ [القمر: ٢٠]: ومن قالَ: إنَّ اليومَ النحسَ المستمرَّ يوم الأربعاءِ وتشاءمَ به لهٰذا الفهم؛ فقد أخطأ وخالفَ القرآنَ؛ فإنَّه قال في الآية الأخرىٰ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦]، ومعلومٌ أنَّها ثمانيةُ أيام متتابعاتٍ؛ فلو كانت نَحِساتٍ في أنفسِها؛ لكانتْ جميعُ الأيام السبعةِ المندرجةِ فيها مشؤومةً، وهٰذا لا يقولُهُ أحدٌ، وإنَّما المرادُ ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾؛ أي: عليهم. وقال تعالىٰ: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١﴾ [الذاريات: ٤١]؛ أي: التي لا تُنْتِجُ خيرًا؛ فإن الريح المفردةَ لا تُثير سحابًا ولا تُلْقِحُ شجرًا، بل هي عقيمٌ لا نتيجةَ خيرٍ لها، ولهٰذا قال: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾ [الذاريات: ٤٢]؛ أي: كالشيء البالي الفاني الذي لا يُنْتَفَعُ به بالكُلِّيَّة.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث: شُعبة، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ: أنَّه قال: «**نُصِرْتُ بالصَّبا، وأهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبورِ**»(١).

وأما قولُه تعالىٰ: ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٢١﴾ [الأحقاف: ٢١]؛ فالظاهرُ أنَّ عادًا هٰذه هي عادٌ الأولىٰ؛ فإنَّ سِياقَها شبيهٌ بسِياق قوم هودٍ، وهم الأولىٰ. ويُحتمل أن يكونَ المذكورونَ في هٰذه القصة هم عادًا الثانية، ويدلُّ عليه ما ذَكَرْنا وما سيأتي من الحديث عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وأما قولُهُ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]: فإنَّ عادًا

---

(١) رواه: البخاري (ذ٥- الاستسقاء، ٢٦- قول النبي ﷺ: نصرت بالصبا، ٢/ ٥٢٠/ ١٠٣٥)، ومسلم (٩- الاستسقاء، ٤- في ريح الصبا والدبور، ٢/ ٦١٧/ ٩٠٠).

لمَّا رأوا هٰذا العارض (وهو: الناشئُ في الجو كالسحاب)؛ ظنُّوه سحابَ مطرٍ؛ فإذا هو سحابُ عذابٍ، اعتَقَدوه رحمةً؛ فإذا هو نقمةٌ، رجوا فيه الخير؛ فنالوا منه غايةَ الشرِّ. قال الله تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٢٤]؛ أي: من العذاب، ثم فسَّره بقولِهِ: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الأحقاف: ٢٤]: يُحتَمَلُ أن ذٰلك العذاب هو ما أصابَهم من الريح، الصَّرْصَرِ، العاتية، الباردة، الشديدة الهُبوب، التي استمرَّت عليهم سبعَ ليال بأيامِها الثمانيةِ فلم تُبْقِ منهم أحدًا، بل تتبَّعَتْهُم حتىٰ كانت تدخُلُ عليهم كهوفَ الجبال والغيرانَ فَتَلُفُّهم وتُخرِجُهم وتُهلِكُهم، وتدمِّرُ عليهم البيوتَ المحكمةَ والقصورَ المَشِيدةَ؛ فكما مَنُّوا بشدَّتِهم وبقوَّتِهِم وقالوا: مَن أشدُّ منا قُوَّةً؟! سلَّطَ الله عليهم ما هو أشدُّ منهم قُوَّةً، وأقدرُ عليهم، وهو الريحُ العقيمُ.

ويُحتمل أنَّ هٰذه الريحَ أثارت في آخرِ الأمر سحابةً، ظنَّ من بَقِيَ منهم أنَّها سحابةٌ فيها رحمةٌ بهم وغياثٌ لمن بَقِيَ منهم، فأرسلها اللهُ عليهم شررًا ونارًا؛ كما ذَكَرَه غيرُ واحدٍ. ويكون هٰذا كما أصابَ أصحابَ الظُّلَّةِ من أهل مدينَ، وجَمَعَ لهم بين الريح الباردةِ والعذابِ بالنارِ، وهو أشدُّ ما يكونُ من العذابِ بالأشياء المختلفةِ المتضادَّةِ، مع الصيحةِ التي ذَكَرَها في سورة قد أفلح المؤمنون. والله أعلم.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن يحيىٰ بن الضريس، حدثنا ابن فضيل، عن مسلم، عن مجاهد، عن ابن عمر؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما فَتَحَ اللهُ على عادٍ من الريح التي أُهلِكوا بها إلَّا مثلَ موضع الخاتِم، فمرَّت بأهل الباديةِ، فحَمَلَتْهُم ومواشِيَهم وأموالَهم بين السماءِ والأرضِ، فلمَّا رأى ذٰلك أهلُ الحاضرةِ من عادٍ - الريحَ وما فيها -؛** ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ﴾ [الأحقاف: ٢٤]، **فألقتْ أهلَ الباديةِ ومواشِيَهم على أهل الحاضرة**»(١).

وقد رواه الطبرانيُّ: عن عبدانَ بن أحمد، عن إسماعيل بن زكريَّا الكوفيِّ، عن أبي مالك، عن مسلم المُلائيِّ، عن مجاهدٍ وسعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**ما فَتَحَ اللهُ على عادٍ من الرِّيح إلَّا مِثْلَ موضع الخاتم، ثم أُرْسِلَتْ عليهم [فَحَمَلَتْهُمُ]؛ البدوَ إلى الحضرِ، فلمَّا رآها أهلُ الحَضَرِ؛** ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ﴾ [الأحقاف: ٢٤]: **مستقبلُ أودِيَتِنا، وكان**

---

(١) (ضعيف جدًّا). انظر الحاشية التالية.

أهلُ البوادي فيها، فأُلْقِيَ أهلُ الباديةِ على أهل الحاضرةِ حتى هَلَكوا». قال: «**عَتَتْ على خُزَّانِها حتى خرجتْ من خلال الأبواب**»(١). قلت: وقال غيرُهُ: خرجتْ بغير سحابٍ(٢).

والمقصودُ: أنَّ هٰذا الحديث في رفعه نظرٌ، ثم اخْتُلِفَ فيه علىٰ مسلم الملائيِّ، وفيه نوعُ اضطرابٍ. والله أعلمُ. وظاهرُ الآية أنَّهم رأوا عارضًا، والمفهومُ منه لغةً السَّحابُ؛ كما دلَّ عليه حديثُ الحارثِ بن حسَّان البكريِّ إن جعلناه مفسِّرًا لهٰذه القصة.

وأصرح منه في ذٰلك ما رواه مسلمٌ في «صحيحه» حيث قال: حدثنا أبو الطاهرِ، حدثنا ابن وَهْبٍ؛ قال: سمعتُ ابن جُريج، يُحدِّثنا عن عطاء بن أبي رباح، عن عائشة ﵂؛ قالتْ: كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا عصفتِ الريحُ؛ قال: «**اللهمَّ! إنِّي أسألُكَ خَيْرَها وخيرَ ما فيها وخيرَ ما أُرْسِلَتْ به، وأعوذُ بك مِن شرِّها وشرِّ ما فيها وشرِّ ما أُرْسِلَتْ به**» قالت: وإذا تَخَيَّلَتِ السماءُ؛ تغيَّر لونُهُ وخرجَ ودخلَ وأقبلَ وأدبرَ؛ فإذا أمطرتْ؛ سُرِّيَ عنه. فعرفتْ ذٰلك عائشةُ، فسألتْه؟ فقال: «**لعلَّه يا عائشةُ كما قال قومُ عادٍ**: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]»(٣).

رواه التِّرمذيُّ والنَّسائيُّ وابن ماجه من حديث ابن جُريج.

طريقٌ أخرىٰ: قال الإمام أحمدُ: حدثنا هرون بن معروف، أنبأنا عبد الله بن وهب، أنبأنا عمرو (وهو ابن الحارث)، أنَّ أبا النضر حدَّثه، عن سليمان بن يسار، عن عائشة: أنها قالتْ:

(١) (**ضعيف جدًّا**). رواه: ابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٢٠٥ - بداية ونهاية)، والطبراني (١٢/ ٢٢٢/ ١٣٥٥٣)؛ من طريق مسلم الملائي، عن مجاهد، عن ابن عمر... به.
وهٰذا سند ضعيف جدًّا: مسلم الملائي هٰذا متروك أو يكاد، وقد اضطرب فيه: فرواه الطبراني (١٢/ ٣٣/ ١٢٤١٦) من طريقه، عن مجاهد وسعيد بن جبير، عن ابن عباس... به.
قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١١٦) في كلا الحديثين: «رواه الطبراني، وفيه مسلم الملائي، وهو ضعيف».
وضعفه الحافظ ابن كثير كما ترىٰ، وهو كذٰلك أو أشد.
وقد ورد هٰذا أو بعضه من كلام ابن عباس وابن عمر وابن عمرو موقوفًا عليهم بأسانيد خير من هٰذه، وحري به أن يكون كذٰلك.

(٢) في جميع الأصول: «حساب»! ويرده ما بعده.

(٣) رواه: أحمد (٦/ ٦٦)، والبخاري (٦٥- التفسير، ٤٦- الأحقاف، ٢- باب، ٨/ ٥٧٨/ ٤٨٢٨ و٤٨٢٩)، ومسلم (٩- الاستسقاء، ٣- التعوذ عند رؤية الريح، ٢/ ٦١٦/ ٨٩٩)، وابن ماجه (٣٤- الدعاء، ٢١- ما يدعو إذا رأىٰ السحاب والمطر، ٢/ ١٢٨٠/ ٣٨٩١)، وأبو داوود (٣٥- الأدب، ١٠٣- ما يقول إذا هاجت الريح، ٢/ ٧٤٧/ ٥٠٩٨)، والترمذي (٤٨- التفسير، ٤٧- ومن سورة الأحقاف، ٥/ ٣٨٢/ ٣٢٥٧)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٢/ ٢٣٨/ ١٧٣٨٦ - تحفة).

ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ مستجمِعًا ضاحكًا قطُّ حتىٰ أرىٰ منه لَهَواتِهِ، إنَّما كان يتبسَّمُ. وقالتْ: كان إذا رأىٰ غيمًا أو ريحًا؛ عُرِفَ ذٰلك في وجهِهِ. قالتْ: يا رسولَ الله! إنَّ الناس إذا رأوا الغيمَ؛ فرِحوا رجاءَ أن يكونَ فيه المطرُ، وأراكَ إذا رأيتَهُ؛ عُرِفَ في وجهِكَ الكراهيةُ؟ فقال: «**يا عائشةُ! ما يؤمِنُني أن يكونَ فيه عذابٌ؟! قد عُذِّبَ قومٌ**(١) **بالريح، وقد رأى قومٌ العذابَ فقالوا:** ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ﴾».

وهكذا رواه مسلمٌ عن هارونَ بنِ معروفٍ، وأخرجه البخاريُّ وأبو داوودَ من حديث ابن وهب.

فهٰذا الحديثُ كالصَّريح في تغايُرِ القصَّتين كما أشَرْنا إليه أولًا؛ فعلىٰ هٰذا تكونُ القصةُ المذكورةُ في سورةِ الأحقافِ خبرًا عن قوم عادٍ الثانية، وتكونُ بقيةُ السياقاتِ في القرآنِ خبرًا عن عادٍ الأولىٰ. والله أعلم بالصواب.

۞ [ما جاء في حج هود ﷺ]:

وقدَّمْنا حجَّ هودٍ ﷺ عند ذِكْرِ حجِّ نوح ﷺ(٢).

۞ [ما جاء في قبر هود ﷺ]:

ورُوِي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنَّه ذَكَرَ صفةَ قبر هودٍ ﷺ في بلادِ اليمنِ، وذَكَرَ آخرونَ أنه بدمشقَ، وبجامِعِها مكانٌ في حائطِهِ القبليِّ يزعُمُ بعض الناس أنه قبرُ هودٍ ﷺ(٣). والله أعلم.

۞ ۞ ۞

(١) في جميع الأصول: «قوم نوح»! ولا أصل لها في شيء من طرق الحديث! فالظاهر أنها سبق قلم، أو زيادة للبيان، وما هي بصحيحة، ولا عذب قوم نوح بالريح، ولا رأيت أحدًا من شراح الحديث يجعل هٰذا الكلام في قوم نوح!

(٢) انظره في (ص١٣٠).

(٣) تقدم ذكره وتضعيفه في حاشية (ص١٣٢).

قصة صالح عليه السلام
نبي ثمود

۞ [ثمود ونبيهم صالح عليه السلام]:

وهم قبيلةٌ مشهورةٌ، يقالُ لهم: ثمودُ باسم جدِّهم ثمودَ أخي جَدِيس، وهما ابنا جاثِرِ[١] بن إِرَمَ بن سام بن نوح، وكانوا عربًا من العارِبَةِ، يسكُنون الحِجْرَ الذي بين الحجاز وتبوكَ، وقد مرَّ به رسولُ الله ﷺ وهو ذاهبٌ إلىٰ تبوكَ بمن معه من المسلمين[٢]، وكانوا بعد قوم عادٍ، وكانوا يعبُدون الأصنامَ كأولٰئك، فَبَعَثَ اللهُ فيهم رجلًا منهم، وهو عبدُ اللهِ ورسولُه صالحُ بنُ عبيدِ بن [آسف بنِ] ماسخِ بن عُبيدِ بنِ حاذرِ بن ثَمودَ بن جاثَرِ بن إرمَ بن سامِ بن نوح[٣]، فدعاهم إلىٰ عبادة الله وحدَه لا شريك له، وأن يَخلَعوا الأصنامَ والأندادَ، ولا يشركوا به شيئًا، فآمنتْ به طائفةٌ منهم، وكَفَرَ جُمهورُهم، ونالوا منه بالمقال والفِعال، وهمُّوا بقتلِهِ، وقتلوا الناقةَ التي جعَلَها اللهُ حُجَّةً عليهم، فأخذَهُمُ اللهُ أَخْذَ عزيزٍ مقتدرٍ.

۞ [قصة صالح عليه السلام كما فصلتها نصوص القرآن الكريم]:

كما قال تعالىٰ في سورة الأعراف: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ

---

(١) في بعض الأصول: «عابر»! وهو خطأ، وعابر أخو سام بن نوح. وفي بعضها: «عائرة»! والتصويب من «العهد القديم» (سفر التكوين/ الأصحاح ١٠)، و«تاريخ الطبري» (١/ ١٣٨).

(٢) سيأتي بنصوصه وتخريجه (ص١٦٥-١٦٦).

(٣) واختلفوا فيه؛ فانظر: «تاريخ الطبري» (١/ ١٣٨)، و«عرائس المجالس» (ص٦٨).

أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٩].

وقال تعالىٰ في سورة هود: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود: ٦١-٦٨].

وقال تعالىٰ في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [الحجر: ٨٠-٨٤].

وقال ﷻ في سورة سبحان: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقال تعالىٰ في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾

قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾ [الشعراء: ١٤١-١٥٩].

وقال تعالىٰ في سورة النمل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل: ٤٥-٥٣]

وقال تعالىٰ في سورة حمٓ السجدة: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت: ١٧].

وقال تعالىٰ في سورة اقتربت: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾ [القمر: ٢٣-٣٢].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١١-١٥].

[خبر عاد وثمود عند أهل الكتاب]:

وكثيرًا ما يقرنُ الله في كتابِهِ بين ذِكْرِ عادٍ وثمودَ؛ كما في سورة براءة وإبراهيم والفرقان وسورة صٓ وسورة قٓ والنجم والفجر.

ويُقالُ: إنَّ هاتينِ الأمَّتَيْنِ لا يَعْرِفُ خبرَهُما أهلُ الكتاب، وليس لهما ذِكْرٌ في كتابِهِم التوراة، ولكن في القرآنِ ما يدُلُّ على أن موسىٰ أخبر عنهما؛ كما قال تعالىٰ في سورة إبراهيم: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ...﴾ الآية [إبراهيم: ٨-٩]؛ الظاهرُ أنَّ هٰذا من تَمام كلام موسىٰ مع قومِهِ، ولكن لمَّا كانَ هاتانِ الأمتانِ من العرب؛ لم يضبِطوا خبرَهما جيدًا، ولا اعْتَنَوا بحفظِهِ، وإن كان خَبَرُهما كان مشهورًا في زمانِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقد تكلَّمْنا علىٰ هٰذا كلِّه في «التفسير» مستقصًىٰ. ولله الحمدُ والمِنَّةُ.

والمقصودُ الآن ذِكْرُ قصَّتِهم، وما كان من أمرِهم، وكيف نجَّىٰ الله نبيَّه صالحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ ومَن آمنَ به؟ وكيف قَطَعَ دابرَ القوم الذين ظَلَموا بكفرِهم وعُتُوِّهم ومخالفتِهم رسولَهم عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

۞ [صالح يدعو قومه لإخلاص العبادة لله]:

وقد قدَّمْنا أنهم كانوا عربًا، وكانوا بعدَ عادٍ، ولم يعتَبروا بما كان من أمرِهم، ولهٰذا قال لهم نبيُّهم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٤]؛ أي: إنما جَعَلَكم خلفاءَ من بعدِهم لِتَعْتَبِروا بما كان من أمرِهم، وتَعْمَلوا بخلافِ عَمَلِهم، وأباح لكمْ هٰذه الأرض تبنونَ في سهولِها القصورَ. ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾؛ أي حاذقين في صَنْعتها وإتقانِها وإحْكامِها؛ فقابِلوا نعمة اللهِ بالشُّكرِ والعمل الصالح والعبادةِ له وحدَه لا شريكَ له، وإيَّاكم ومخالفتَهُ والعدولَ عن طاعته؛ فإنَّ عاقبةَ ذٰلك وخيمةٌ.

ولهٰذا وَعَظَهم بقولِهِ: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [الشعراء: ١٤٦-١٤٨]؛ أي: مُتَراكمٌ كثيرٌ حسنٌ بهيٌّ ناضجٌ. ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

[الشعراء: ١٤٩-١٥٢].

وقال لهم أيضًا: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]؛ أي: هو الذي خَلقَكُم، فأنْشأكم من الأرض، وجَعَلَكُم عُمَّارَها؛ أي: أعطاكُموها بما فيها من الزُّروع والثمار؛ فهو الخالق الرزاق، وهو الذي يستحقُّ العبادةَ وحدَه لا ما سواه. ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾ [هود: ٦١]؛ أي: أقلِعوا عمَّا أنتُم فيه وأقبِلوا علىٰ عبادتِهِ؛ فإنَّه يقبلُ منكم ويتجاوزُ عنكُم؛ ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ٦١﴾ [هود: ٦١].

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآ﴾ [هود: ٦٢]؛ أي: قد كُنَّا نرجو أن يكون عقلُك كاملًا قبلَ هٰذه المقالة، وهي دعاؤك إيَّانا إلىٰ إفرادِ العبادةِ، وتَرْكِ ما كُنَّا نعبدُهُ من الأنداد، والعدولِ عن دين الآباء والأجداد! ولهٰذا قالوا: ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٦٢﴾ [هود: ٦٢].

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ٦٣﴾ [هود: ٦٣]: وهٰذا تلطُّف منه لهم في العبارة، ولينُ الجانبِ، وحسنُ تأتٍّ في الدعوة لهم إلىٰ الخير؛ أي: فما ظنُّكم إن كان الأمرُ كما أقولُ لكم وأدعوكم إليه؟! ماذا يكونُ عُذْرُكُم عند الله؟! وماذا يُخلِّصُكُم بين يديه وأنتم تطلُبون منِّي أن أتْرُكَ دعاءَكم إلىٰ طاعتِهِ؟! وأنا لا يمكِنُني هٰذا؛ لأنَّه واجبٌ عليَّ، ولو تركتُه؛ لَما قَدَرَ أحدٌ منكُم ولا مِن غيرِكم أن يُجيرَني منه ولا ينصُرَني؛ فأنا لا أزالُ أدعوكم إلىٰ الله وحدَه لا شريكَ له حتىٰ يحكُمَ الله بيني وبينكم.

وقالوا له أيضًا: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣﴾ [الشعراء: ١٥٣]؛ أي: من المسحورينَ؛ يعنون: مسحورًا لا تدري ما تقولُ في دعائِكَ إيَّانا إلىٰ إفراد العبادةِ لله وحدَه وخَلْع ما سواه من الأندادِ، وهٰذا القول عليه الجمهورُ، وهو أنَّ المرادَ بالمسحَّرين: المسحورين. وقيل: ﴿مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣﴾؛ أي ممَّن له سَحْرٌ - وهو الرِّئَةُ -، كأنَّهم يقولون: إنما أنت بشرٌ له سَحْرٌ. والأول أظهر؛ لقولِهِم بعد هٰذا: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤]، وقولهم: ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٥٤﴾ [الشعراء: ١٥٤]: سألوا منه أن يأتِيَهم بخارقٍ يدلُّ علىٰ صدقِ ما جاءهم به.

❁ [إرسال الناقة آية على صدق صالح عليه السلام]:

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ١٥٥ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥٦﴾ [الشعراء: ١٥٥-١٥٦]؛ كما قال: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقد ذكر المفسِّرون أن ثمودَ اجْتَمَعوا يومًا في ناديهم، فجاءَهُم رسولُ الله صالحٌ، فدعاهم إلىٰ الله، وذكَّرَهُم وَحَذَّرَهم ووعَظَهم وأمَرَهم، فقالوا له: إن أنتَ أخرجتَ لنا من هٰذه الصخرة - وأشاروا إلىٰ صخرةٍ - هناكَ ناقةً من صِفَتِها كَيْتَ وكَيْتَ - وذَكَروا أوصافًا سَمَّوْها ونَعَتوها وتَعَنَّتوا فيها وأن تكونَ عُشَراءَ طويلةً[1] من صفتِها كذا وكذا-! فقال لهم النبيُّ صالحٌ عليه السلام: أرأيتُم إن أجبتُكم إلىٰ ما سألتُم علىٰ الوجهِ الذي طَلَبْتُم؛ أتُؤْمنون بما جئتُكم به وتصدِّقونني فيما أُرْسِلْتُ به؟ قالوا: نعم. فأخذَ عُهودَهُم ومواثيقَهُم علىٰ ذٰلك، ثم قامَ إلىٰ مُصَلَّاه، فصلَّىٰ لله عز وجل ما قُدِّرَ له، ثم دعا ربَّه عز وجل أن يُجيبَهم إلىٰ ما طلبوا، فأمر الله عز وجل تلك الصخرةَ أن تَنْفَطِرَ عن ناقةٍ عظيمةٍ عُشَراءَ علىٰ الوجهِ المطلوبِ الذي طَلَبوا وعلىٰ[2] الصفةِ التي نَعَتوا. فلمَّا عايَنوها كذٰلك؛ رأوا أمرًا عظيمًا ومنظرًا هائلًا وقدرةً باهرةً ودليلًا قاطعًا وبرهانًا ساطعًا، فآمنَ كثيرٌ منهم، واستمرَّ أكثرهم علىٰ كفرِهم وضلالِهم وعنادِهم، ولهٰذا قال: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾ [الإسراء: ٥٩]؛ أي: جَحَدوا بها ولم يَتَّبِعوا الحقَّ بسببَها؛ أي: أكثرهم. وكان رئيسُ الذين آمنوا جُنْدَعَ بن عمرو بن مخلاة بن لبيد بن جواس، وكان من رؤسائِهم، وهمَّ بقيَّةُ الأشرافِ بالإسلام، فصدَّهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحبُ أوثانِهم وربابُ بن صمعر بن جلهس، ودعا جندعٌ ابنَ عمِّه شهابَ بن خليفة، وكان من أشرافِهم، فهَمَّ بالإسلام، فنهاه أولٰئك، فمال إليهم، فقال في ذٰلك رجلٌ من المسلمين يُقال له: مهرش بن غنمة ابن الذميل رحمه الله:

وَكـانَـتْ عُـصْـبَـةٌ مِـنْ آلِ عَـمْـرٍو ... إلـى ديـنِ الـنَّـبِـيِّ دَعَـوْا شِـهـابا
عَـزيـزَ ثَـمـودَ كُـلِّـهِـمُ جميعًا ... فَـهَـمَّ بِـأَنْ يُـجيـبَ وَلَـوْ أجابا

(١) العُشَراء من النوق: التي مضىٰ علىٰ حملها عشرة أشهر أو ثمانية؛ كالنفساء من النساء.

(٢) في جميع الأصول: «أو علىٰ». والأولىٰ ما أثبته.

لأَصْبَحَ صالِحٌ فينا عَزِيزًا ... وما عَدَلوا بِصاحِبِهِمْ ذُؤابا
ولٰكِنَّ الغُواةَ مِن آل حِجْرٍ ... تَوَلَّوْا بَعْدَ رُشْدِهِمُ ذُبابا

ولهٰذا قال لهم صالحٌ عليه السلام: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٦٤]: أضافها للهِ ﷻ إضافةَ تشريفٍ وتعظيم؛ كقولِهِ: بيتُ الله، وعبدُ الله. ﴿لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا﴾ [هود: ٦٤]؛ أي: دليلًا علىٰ صدق ما جئتُكم به. ﴿تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾ [هود: ٦٤].

فاتَّفَقَ الحالُ علىٰ أن تبقىٰ هٰذه الناقةُ بين أظهُرِهم؛ تَرْعىٰ حيثُ شاءتْ من أرضِهم، وتَرِدُ الماءَ يومًا بعد يوم، وكانت إذا وَرَدَتِ الماءَ؛ تَشْرَبُ ماء البئرِ يومَها ذٰلك، فكانوا يرفعونَ حاجَتَهم من الماء في يومِهم لغدِهم. ويقال: إنَّهم كانوا يشربونَ من لبنها كفايَتَهم. ولهٰذا قال: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء: ١٥٥]؛ ولهٰذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ [القمر: ٢٧]؛ أي: اختبارًا لهم؛ أيؤمنونَ بها أم يكفُرون؟ واللهُ أعلم بما يفعلون. ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ [القمر: ٢٧]؛ أي: انتظرْ ما يكونُ من أمرِهم. ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧]: علىٰ أذاهُم فسيأتيكَ الخبرُ علىٰ جَلِيَّةٍ. ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر: ٢٨].

۞ [ثمود تكذب نبيها وتتمالأ على عقر الناقة]:

فلمَّا طالَ عليهم هٰذا الحالُ؛ اجتمع مَلَؤُهم، واتَّفَقَ رأيُهم علىٰ أن يعقِروا هٰذه الناقةَ؛ لِيَسْتَريحوا منها ويتوفَّر عليهم ماؤُهم، وزيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم؛ قال الله تعالىٰ: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف: ٧٧].

وكانَ الذي تولَّىٰ قَتْلَها منهُم رئيسَهم قُدارَ بنَ سالف بن جُنْدَع، وكان أحمرَ أزرقَ أصهبَ، وكان يقال: إنَّه ولدُ زانيةٍ[١] وُلِدَ علىٰ فراش سالفٍ، وهو ابنُ رجل يُقال له: صيبان، وكان فعلُهُ ذٰلك باتفاقِ جميعِهم؛ فلهٰذا نُسِبَ الفعلُ إليهم كلهم[٢].

وذَكَرَ ابنُ جرير[٣] وغيرُهُ من علماءِ المفسِّرين أنَّ امرأتينِ من ثمودَ: اسم إحداهما

---

(١) في نسخة: «زنية».

(٢) في نسخة: «إلىٰ جميعهم كلهم».

(٣) في «التفسير» (٥/ ٥٣٢/ ١٤٨٢٠)، وقد وقع خلافٌ كبير في الأسماء بين مختلف مطبوعات «البداية والنهاية»، و«قصص الأنبياء»، و«عرائس المجالس» (ص٦٩)، فأثبت ما في «تفسير الطبري»؛ لأنني وجدته الأصح ولأن النقل عنه.

صدوف بنت المحيا بن دهر بن المحيا، وكانت ذاتَ حَسَبٍ ومال، وكانت تحتَ رجل من أسلم، ففارقَتْهُ، فدعتِ ابنَ عمٍّ لها يُقال له: مصدع بن مهرج بن المحيا، وعَرَضَتْ عليه نفسَها إن هو عَقَرَ الناقةَ. واسم الأخرىٰ عنيزة بنت غنم بن مجلز، وتُكنىٰ أم غنمة، وكانت عجوزًا كافرةً، لها بناتٌ من زوجها ذؤاب بن عمرو أحد الرؤساء، فعرضت بناتِها الأربع علىٰ قُدارَ بن سالف؛ إنْ هو عَقَرَ الناقةَ؛ فله أيَّ بناتِها شاءَ، فانتدب هٰذان الشابَّانِ لِعقْرِها، وسَعَوْا في قومِهم بذٰلك، فاستجاب لهم سبعةٌ آخرونَ، فصاروا تسعةً، وهم المذكورونَ في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل: ٤٨]، وسَعَوا في بَقِيَّةِ القبيلةِ، وحسَّنوا لهم عَقْرَها، فأجابوهم إلىٰ ذٰلك وطاوَعوهم في ذٰلك، فانطلقوا يَرْصُدونَ الناقةَ، فلمَّا صَدَرَتْ من وِرْدها؛ كَمَنَ لها مصدع، فرماها بسهم فانْتَظَمَ عَضَلَةَ[١] ساقِها، وجاء النساءُ يُذَمِّرْنَ[٢] القبيلةَ في قتلِها، وحَسَرْنَ عن وجوهِهِنَّ ترغيبًا لهم في ذٰلك، فابْتَدَرَهُم قُدارُ بن سالفٍ، فشدَّ عليها بالسيفِ، فكشفَ عن عُرقوبها، فخرَّتْ ساقطةً إلىٰ الأرض، ورَغَتْ رغاةً واحدةً عظيمةً تحذِّرُ ولَدها، ثم طَعَنَ في لَبَّتِها فنَحَرها، وانطلقَ سَقْبُها (وهو فصيلُها)، فصَعَدَ جبلًا مَنيعًا، ورغا[٣] ثلاثًا.

وروىٰ عبد الرزاق[٤]، عن مَعْمَرٍ، عمَّن سمع الحسن: أنَّه قال: يا ربِّ! أين أمِّي؟ ثم دَخَلَ في صخرةٍ فغاب فيها. ويُقال: بل اتَّبعوه فعَقَروه أيضًا.

قال اللهُ تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾﴾ [القمر: ٢٩-٣٠].

وقال الله تعالىٰ: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾﴾ [الشمس: ١٢-١٣]؛ أي: احذروها. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١٤-١٥].

قال الإمام أحمدُ: حدثنا عبد الله بن نُمَيرٍ، حدثنا هشامُ بنُ عُروةَ[٥]، عن أبيه، عن عبد الله بن زَمْعةَ؛ قال: خطب رسولُ الله ﷺ، فَذَكَرَ الناقةَ، وذَكَرَ الذي عَقَرَها، فقال: «﴿إِذِ

(١) في نسخة: «عظم».
(٢) يُذَمِّر: يشجِّع ويحثُّ ويحرِّض.
(٣) في نسخة: «ودعا».
(٤) في «التفسير» (١/ ٢١٩/ ٩١٢).
(٥) في بعض الأصول: «هاشم أبو عزرة»! وفي بعضها: «هشام أبو عروة»!

﴿ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ۝١٢﴾ [الشمس: ١٢]: **انْبَعَثَ لها رَجُلٌ عارمٌ عزيزٌ منيعٌ في رهطِه مثلُ أبي زَمْعَةَ**»[١].

أخرجاه من حديث هشام... به. عارمٌ؛ أي: شهمٌ. عزيزٌ؛ أي: رئيسٌ. منيعٌ؛ أي: مطاعٌ في قومه.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني يزيد بن محمد بن خُثَيْم، عن محمد بن كعب، عن محمد بن خُثَيْم أبي[٢] يزيد، عن عمار بن ياسر؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ لعليٍّ: «**ألا أحدِّثُك بأشقى الناس؟**». قال: بلىٰ. قال: «**رجلانِ: أحدُهما أحيمرُ ثمودَ الذي عَقَرَ الناقةَ، والذي يضرِبُك يا عليُّ على هٰذا (يعني قرنَه) حتى تَبْتَلَّ منه هٰذه (يعني: لِحْيَتَهُ)**». رواه ابن أبي حاتم[٣].

[ثمود تكذب نبيها وتستعجل عذاب ربها]:

وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٧٧﴾ [الأعراف: ٧٧]: فجَمَعوا في كلامِهم هٰذا بين كفرٍ بليغ من وجوهٍ:

منها: أنَّهم خالَفوا الله ورسولَه في ارتكابَهم النهيَ الأكيدَ في عَقْرِ الناقةِ التي جعَلَها الله لهم آية.

ومنها: أنَّهم اسْتَعَجلوا وقوعَ العذابِ بهم فاستحقُّوه من وجهين:

أحدُهما: الشرطُ عليهم في قوله: ﴿تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ۝٦٤﴾ [هود: ٦٤]، وفي

---

(١) رواه: أحمد (٤/ ١٧)، والبخاري (٦٥- التفسير، ٩١-الشمس، ٨/ ٧٠٥/ ٤٩٤٢)، ومسلم (٥١- الجنة، ١٣- النار يدخلها الجبارون، ٤/ ٢١٩١/ ٢٨٥٥).

وأبو زمعة هٰذا هو الأسود بن المطلب بن أسد، جد الراوي عبد الله بن زمعة، وكان أحد المستهزئين بالنبي ﷺ وبالقرآن الكريم، ومات علىٰ كفره بمكة.

(٢) في جميع الأصول: «بن»! والتصويب من مصادر التخريج.

(٣) (**صحيح**). رواه: أحمد (٤/ ٢٦٣)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٤٣٨/ ١٩٣٥٢)، والحاكم (٣/ ١٤٠)؛ والبغوي في «التفسير»؛ كلهم من طريق محمد بن إسحاق... به.

قال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ١٣٩): «رواه أحمد والطبراني والبزار باختصار ورجال الجميع موثقون؛ إلا أن التابعي لم يسمع من عمار». قلت: ويزيد بن محمد بن خثيم وأبوه فيهما جهالة، وهما مقبولان في المتابعات كما قال الحافظ في «التقريب»

وله شاهد صحيح من حديث علي عند: أبي يعلىٰ (١/ ٤٣٠/ ٥٦٩)، والطبراني (١/ ١٠٦/ ١٧٣). وحسنه الهيثمي في «المجمع».

وله شاهد آخر من حديث صهيب عند الطبراني (٨/ ٣٨/ ٧٣١١) بسند ضعيف.

وبالجملة؛ فالحديث لا ينزل عن رتبة الحسن بمجموع شواهده، بل هو صحيح، وقد صححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وحسنه الهيثمي، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤/ ٣٢٤/ ١٧٤٣).

آيةٍ: ﴿عَظِيمٌ ۝٧﴾ [الشعراء: ١٥٦]، وفي الأخرىٰ: ﴿أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]، والكلُّ حقٌّ. **والثاني**: استعجالُهم علىٰ ذٰلك.

ومنها: أنَّهم كذَّبوا الرسولَ الذي قد قام الدليلُ القاطعُ علىٰ نبوَّتِهِ وصدقِهِ، وهم يعلَمون ذٰلك علمًا جازمًا، ولكن حَمَلَهُمُ الكفرُ والضلالُ والعناد علىٰ استبعادِ الحقِّ ووقوع العذابِ بهم.

۞ [تفصيل الخبر في هلاك ثمود ونزول النقمة بهم]:

قال الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ۝٦٥﴾ [هود: ٦٥]: وذكروا أنهم لمَّا عَقَروا الناقةَ؛ كان أول من سطا عليها قُدار بن سالف لَعَنَهُ الله، فعرْقَبَها(١)، فسقطت إلىٰ الأرض، ثم ابتدروها بأسيافهم يُقَطِّعونَها، فلما عاين ذٰلك سَقْبُها -وهو ولدُها-؛ شردَ عنهم، فعلا أعلىٰ الجبل هناك، ورغا ثلاثَ مرَّاتٍ؛ فلهٰذا قال لهم صالحٌ: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾، أي: غير يومِهم ذٰلك.

فلم يصدِّقوه أيضًا في هٰذا الوعد الأكيد! بل لَمَّا أمْسَوْا؛ همُّوا بقتلِهِ، وأرادوا -فيما يزعُمونَ- أن يُلْحِقوه بالناقةِ؛ ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل: ٤٩]؛ أي: لَنكْبِسَنَّه في داره مع أهله فَلَنَقْتُلَنَّهُ، ثم نَجْحَدَنَّ قتلَهُ، ولَنُنْكِرَنَّ ذٰلك إن طالَبَنا أولياؤُهُ بدمِهِ، ولهٰذا قالوا: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۝٤٩﴾ [النمل: ٤٩].

قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝٥٣﴾ [النمل: ٥٠-٥٣]: وذٰلك أنَّ الله تعالىٰ أرسلَ علىٰ أولٰئك النفرِ الذين قصدوا قتل صالح حجارةً رَضَخَتْهُمْ فأهْلَكَهُم سَلَفًا وتعجيلًا قبل قومِهِم.

وأصبحت ثمودُ يومَ الخميسِ -وهو اليومُ الأولُ من أيام النَّظِرَةِ- ووجوهُهم مصفرَّةٌ؛ كما أنْذَرَهُم صالحٌ عليه السلام، فلمَّا أمْسَوْا؛ نادَوْا بأجمعِهِم: ألا قد مضىٰ يومٌ من الأجل! ثم أصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل -وهو يومُ الجُمُعة- ووجوهُهُم محمرَّةٌ، فلما أمْسَوْا؛ نادَوْا: ألا قد مضىٰ يومانِ من الأجل! ثم أصْبَحوا في اليوم الثالث من أيام المَتاع -وهو يومُ السبت-

---

(١) يعني: ضرب عرقوبها فقطعه.

ووجوهُهم مسودَّةٌ، فلمَّا أمْسَوا؛ نادَوْا: ألا قد مضىٰ الأجل! فلمَّا كان صبيحةُ يوم الأحدِ؛ تحنَّطوا وتأهَّبوا وقَعَدوا ينتظرونَ ماذا يَحِلُّ بهم من العذابِ والنَّكالِ والنِّقْمَةِ، لا يدرون كيف يُفْعَلُ بهم، ولا من أيِّ جهةٍ يأتيهمُ العذابُ، فلما أشرقتِ الشمسُ؛ جاءتْهم صيحةٌ من السماءِ من فوقِهم ورجفةٌ شديدةٌ من أسفل منهُم، ففاضتِ الأرواح وزَهَقَتِ النفوسُ وسكنتِ الحركاتُ وخشعتِ الأصواتُ، وحَقَّتِ الحقائقُ، فأصبحوا في دارِهم جاثمينَ جُثثًا لا أرواحَ فيها ولا حَراكَ بها[١].

قالوا: ولم يبقَ منهم أحدٌ إلَّا جاريةً كانت مقعدةً، واسمُها كلبةُ بنتُ السلق (ويُقال لها: الذريعةُ)، وكانت شديدةَ الكفرِ والعداوةِ لصالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلمَّا رأتِ العذابَ؛ أُطْلَقَتْ رِجْلاها، فقامت تسعىٰ كأسرع شيءٍ، فأتت حيًّا من العربِ، فأخبرتْهم بما رأتْ وما حلَّ بقومِها، واستسقتْهم ماءً، فلما شربتْ؛ ماتتْ.

قال الله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ [هود: ٦٨]؛ أي: لم يُقيموا فيها في سَعةٍ ورزقٍ وغناءٍ. ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود: ٦٨]؛ أي: نادىٰ عليهم لسانُ القَدَرِ بهٰذا.

[ذكر خبر أبي رغال ودفع حرم الله عنه]:

قال الإمام أحمدُ: حدثنا عبد الرزَّاق، حدثنا مَعْمَرٌ، حدثنا عبدُالله بن عُثمان بن خُثَيْم، عن أبي الزبير، عن جابر؛ قال: لمَّا مر رسول الله ﷺ بالحِجْرِ قال: «**لا تَسْألوا الآياتِ؛ فقد سَألَها قومُ صالحٍ، فكانت (يعني: الناقة) تَرِدُ من هٰذا الفَجِّ، وتَصْدُرُ من هٰذا الفَجِّ، فَعَتَوْا عن أمرِ ربِّهم، فعَقَروها، وكانت تشربُ ماءَهم يومًا ويشرَبون لَبَنَها يومًا، فعَقَروها، فأخَذَتْهم صيحةٌ أهْمَدَ اللهُ مَن تحتَ أديمِ السَّماءِ منهم؛ إلَّا رجلًا واحدًا كان في حَرَمِ اللهِ**». قيلَ: من هو يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**هو أبو رِغالٍ، فلمَّا خَرَجَ من الحرم؛ أصابَهُ ما أصابَ قومَهُ**»[٢]. وهٰذا

---

(١) وما أظن هٰذا يخالف قوله تعالىٰ: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]؛ فإن التمتع هنا بمعنىٰ البقاء علىٰ قيد الحياة لا بمعنىٰ اللهو والسرور. خلافًا لمن رأىٰ غير ذٰلك. والله أعلم.

(٢) (صحيح). رواه: عبد الرازق في «التفسير» (١/ ٢١٩/ ٩١٥)، وأحمد (٣/ ٢٩٦)، وابن جرير في «التفسير» (٥/ ٥٣٥/ ١٤٨٢٤)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥١٦/ ٨٦٨٥ و٨٦٨٦)، والطبراني في «الأوسط» (١٠/ ٢٧/ ٩٠٦٥)، والحاكم (٢/ ٣٢٠ و٢٤٠)؛ من طريقين عن أبي الزبير... به.

وصححه الحاكم علىٰ شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٥٣): «ورجال أحمد رجال الصحيح». وفيه عنعنة أبي الزبير.لكنه صرح بالتحديث عند الحاكم (٢/ ٥٦٧) من طريق: =

الحديث علىٰ شرط مسلم، وليس هو في شيءٍ من الكتبِ السِّتَّةِ. والله تعالىٰ أعلم.

وقد قال عبدُ الرزاق أيضًا: قال مَعْمَرٌ: أخبرني إسماعيلُ بن أمية: أنَّ النبيَّ ﷺ مَرَّ بقبرِ أبي رغال، فقال: «أتَدْرون من هٰذا؟». قالوا: والله ورسولُه أعلمُ. فقال: «هٰذا قبرُ أبي رغالٍ، رجلٌ من ثمودَ، كان في حَرَمِ اللهِ، فَمَنَعَهُ حرمُ اللهِ عذابَ اللهِ، فلمَّا خَرَجَ؛ أصابَهُ ما أصابَ قومَه، فدُفِنَ هاهنا، ودُفِنَ معه غصنٌ من ذهبٍ». فنَزَلَ القومُ، فابْتَدَروهُ بأسيافِهم، فبَحَثوا عنه، فاسْتَخْرَجوا الغصنَ[1]. قال عبد الرزاق: قال مَعْمَرٌ: قال الزُّهري: أبو رِغال أبو ثقيفَ.

هٰذا مرسلٌ من هٰذا الوجه، وقد جاء من وجهٍ آخرَ متَّصلًا؛ كما ذكره محمدُ بن إسحاق في «السيرة»: عن إسماعيلَ بن أميَّةَ، عن بُجَيْر بن أبي بُجَيْر؛ قال سمعتُ عبد الله بن عمر يقولُ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ حين خَرَجْنا معه إلىٰ الطائفِ، فمرَرْنا بقبرٍ، فقال: «إنَّ هٰذا قبرُ أبي رِغالٍ، وهو أبو ثقيفَ، وكان من ثمودَ، وكان بهٰذا الحرم يَدْفَعُ عنه، فلَما خَرَجَ منه؛ أصابتْهُ النقمةُ التي أصابت قومَهُ بهٰذا المكان، فدفِنَ فيه، وآيةُ ذٰلك أَنَّه دُفِنَ معه غُصنٌ من ذهبٍ، إن أنتم نَبَشْتُمْ عنه؛ أَصَبْتُموه معه». فابْتَدَرَهُ الناسُ فاستخرجوا منه الغصنَ.

وهكذا رواه أبو داوود من طريق محمد بن إسحاق به.

قال شيخُنا الحافظُ أبو الحجَّاج المِزِّيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هٰذا حديثٌ حسنٌ عزيزٌ.

قلت: تفرَّدَ به بُجَيْرُ بنُ أبي بُجَيْر هٰذا، ولا يُعْرَفُ إلَّا بهٰذا الحديثِ، ولم يروِ عنه سوىٰ إسماعيلَ بنِ أميةَ. قال شيخُنا: فيُحْتَمَلُ أنَّه وَهِمَ في رفعِهِ، وإنَّما يكون من كلام عبد الله بن عمرٍو من زامِلَتَيْهِ[2]. والله أعلم. قلتُ: لكن في المرسل الذي قبلَه وفي حديث جابرٍ أيضًا شاهدٌ له. والله أعلم.

= حجاج بن محمد، قال ابن جريج، ثنا أبو الزبير، سمعت جابر بن عبد الله.... فذكره مرفوعًا دون قصة أبي رغال. وصححه الحاكم علىٰ شرط مسلم ووافقه الذهبي.

وله شاهد من حديث أبي الطفيل عامر بن واثلة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، رواه الطبري في «التريخ» (١/ ١٤١)، وسنده لا بأس به.

(١) (ضعيف). رواه: عبد الرازق في «التفسير» (١/ ٢١٩/ ٩١٦)، والطبري في «التفسير» (٥/ ٥٣٦/ ١٤٨٣٠)؛ عن إسماعيل بن أمية... به. وهٰذا معضل.

ووصله محمد بن إسحاق في «السيرة» (١/ ٢١٥ - بداية)، وعنه أبو داوود (١٤- الخراج، ٣٩- نبش القبور، ٢/ ١٩٨/ ٣٠٨٨)؛ بالسند المذكور.

وبُجير هٰذا مجهول؛ فالسند ضعيف كما أفاد المزي وابن كثير والألباني. نعم؛ يشهد لبعضه حديث جابر المتقدم، وأما أن يحسن كله؛ فبعيد. والله أعلم

(٢) الزاملة: الراحلة، والمقصود بها هنا ما وصل إلىٰ عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا من كتب الماضين من أهل الكتاب وغيرهم.

۞ [خطاب صالح لقومه بعد هلاكهم وهجرته عن محلتهم]:

وقوله تعالىٰ: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٧٩﴾ [الأعراف: ٧٩]: إخبارٌ عن صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّه خاطَبَ قومَهُ بعد هلاكِهم، وقد أخذَ في الذَّهاب عن مَحلَّتِهم إلىٰ غيرِها؛ قائلًا لهم: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾؛ أي: جَهَدْتُ في هدايَتِكم بكلِّ ما أمكنَني، وحرصتُ علىٰ ذٰلك بقولي وفعلي ونيَّتي. ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٧٩﴾؛ أي: لم تكُنْ سجاياكم تَقْبَلُ الحقَّ ولا تُريدُه؛ فلهٰذا صِرْتُم إلىٰ ما أنتم فيه من العذابِ الأليم المستمرِّ بكم المتَّصل إلىٰ الأبد، وليس لي فيكُم حيلةٌ ولا لي بالدَّفْع عنكم يدانِ، والذي وَجَبَ عليَّ من أداءِ الرسالةِ والنُّصْح لكم قد فَعَلْتُهُ وبَذَلْتُهُ لكم، ولٰكنَّ الله يفعلُ ما يريدُ.

وهكذا خاطبَ النبيُّ ﷺ أهلَ قليبِ بدرٍ بعد ثلاثِ ليال؛ وَقَفَ عليهم وقد رَكِبَ راحلتَهُ وأمرَ بالرحيل من آخرِ الليل فقال: «**يا أهلَ القليبِ! هل وَجَدْتُم ما وَعَدَكُم ربُّكم حقًّا؟ فإنِّي قد وجدتُ ما وَعَدَني ربِّي حقًّا**»[(١)]. وقالَ لهم فيما قال: «**بئسَ عشيرةُ النبيِّ كُنتم لِنبيِّكُم؛ كذَّبْتُموني وصدَّقَنِيَ الناسُ، وأخْرَجْتُموني وآوانيَ الناسُ، وقاتَلْتُموني ونَصَرَنِيَ الناسُ، فبئس عشيرةُ النبيِّ كنتُم لنبيِّكُم**». **فقال له عمرُ: يا رسولَ اللهِ! تخاطبُ أقوامًا قد جَيَّفوا؟! فقالَ: «والذي نفسي بيدِهِ؛ ما أنتُم بأسمعَ لِما أقولُ منهم، ولٰكنَّهم لا يُجيبونَ**»[(٢)].

ويقال: إنَّ صالحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ انتقلَ إلىٰ حرم اللهِ فأقام به حتىٰ ماتَ.

۞ [ما جاء في حج صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ]:

قال الإمام أحمدُ: حدثنا وَكِيعٌ، حدثنا زَمْعَةُ بن صالح، عن سلمةَ بن وَهْرامَ، عن عِكرمة،

---

(١) رواه: البخاري (٦٤-المغازي، ٨- قتل أبي جهل، ٧/ ٣٠٠/ ٣٩٧٦)، ومسلم (٥١-الجنة، ١٧- عرض مقعد الميت من الجنة والنار، ٤/ ٢٢٠٣/ ٢٨٧٤)؛ من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) (ضعيف). رواه أحمد (٦/ ١٧٠): ثنا هشيم، أنا مغيرة، عن إبراهيم، عن عائشة... فذكره مرفوعًا.

قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٩٣): «رجاله ثقات؛ إلا أن إبراهيم لم يسمع من عائشة، ولكنه دخل عليها». فالإسناد منقطع.

وله شاهد عند ابن إسحاق في «السيرة» (٣/ ٥٤- بداية ونهاية): حدثني بعض أهل العلم؛ أن رسول الله ﷺ قال... فذكره. وهٰذا معضل.

وآخر من حديث ابن عباس عند الطبراني (١١/ ٣٠٢/ ١٢٠٦٧). قال الهيثمي: «فيه نصر بن حماد الوراق؛ متروك».

فالحديث باق علىٰ ضعفه لضعف أصله وشدة ضعف شواهده.

عن ابن عباس؛ قال: لمَّا مَرَّ النبيُّ ﷺ بوادي عُسْفانَ حين حجَّ؛ قال: «**يا أبا بكرٍ! أيُّ وادٍ هٰذا؟**». قال: وادي عُسْفانَ. قال: «**لقدْ مَرَّ به هودٌ وصالحٌ عليهما السلام على بكراتٍ خُطُمُها الليفُ، أزُرُهُمُ العباءُ، وأرديَتُهُم النِّمارُ، يلبُّون، يحجُّونَ البيتَ العتيقَ**»(١).

إسنادٌ حسنٌ، وقد تقدَّم في قصةِ نوح عليه السلام من رواية الطَّبرانيِّ، وفيه نوحٌ وهودٌ وإبراهيمُ.

ذكر مرور النبي ﷺ بوادي الحجر من أرض ثمود عام تبوك:

قال الإمام أحمدُ: حدثنا عبد الصمد، حدثنا صَخْرُ بن جُوَيْرِيَةَ، عن نافع، عن ابن عمر؛ قال: لما نَزَلَ رسولُ اللهِ ﷺ بالناس علىٰ تبوكَ؛ نَزَلَ بهم الحِجْرَ عند بيوتِ ثمودَ، فاسْتَقىٰ الناسُ من الآبار التي كانت تشربُ منها ثمودُ، فعَجَنوا منها، ونَصَبوا القُدور، فأمَرَهم رسولُ الله؛ فأهْراقوا القُدورَ، وعَفَلوا العجينَ الإبلَ، ثم ارتحلَ بهم حتىٰ نَزَلَ بهم علىٰ البئرِ التي كانت تشربُ منها الناقةُ، ونهاهم أن يدخُلوا علىٰ القوم الذين عُذِّبوا، فقال: «**إنِّي أخشى أن يُصيبَكُم مثلُ ما أصابَهم؛ فلا تدخُلوا عليهم**»(٢).

وقال أحمدُ أيضًا: حدثنا عفَّانُ، حدثنا عبدُالعزيز بن مسلم، حدَّثنا عبد الله بن دينارٍ، عن عبد الله بن عمرَ؛ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ وهو بالحِجْر: «**لا تَدْخُلوا على هؤلاءِ المعذَّبينَ؛ إلا أن تكونوا باكينَ؛ فإنْ لم تكونوا باكينَ؛ فلا تَدْخُلوا عليهم؛ أنْ يُصيبَكُم مثلُ ما أصابَهم**».

أخرجاه في الصحيحين من غير وجه.

وفي بعض الروايات: أنَّه عليه السلام لمَّا مَرَّ بمنازِلِهم؛ قَنَّعَ رأسَه، وأسرعَ راحِلَتَهُ، ونهىٰ عن دخول منازِلِهم؛ إلا أن تكونوا باكينَ.

وفي رواية: «**فإنْ لم تَبْكوا؛ فتَباكَوْا؛ خشيةَ أن يُصيبَكم مثلُ ما أصابَهم**». صلواتُ الله وسلامه عليه.

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا يزيد بن هارونَ، حدثنا المسعوديُّ، عن إسماعيلَ بن أوسطَ،

---

(١) (ضعيف). وقد تقدم الكلام عنه في (ص١٣٠).

(٢) رواه: أحمد (٢/ ٩ و٥٨ و٦٦ و٧٢ و٧٤ بالسند الثاني و٩١ و٩٦ و١١٣ و١١٧ بالسند الأول و١٣٧)، والبخاري (٨- الصلاة، ٥٣- الصلاة في مواضع الخسف، ١/ ٥٣٠/ ٤٣٣)، ومسلم (٥٣- الزهد، ١- لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا، ٤/ ٢٢٨٥/ ٢٩٨٠ و٢٩٨١).

عن محمد بن أبي كبشةَ الأنماريِّ[(١)]، عن أبيه (واسمه: عمرو بن سعد، ويقال: عامر بن سعد)[(٢)] رضي الله عنه؛ قال: لمَّا كان في غزوةِ تبوكَ؛ تسارَعَ الناسُ إلىٰ أهل الحِجْرِ يدخُلون عليهم، فبَلَغَ ذٰلك رسولَ اللهِ ﷺ، فنادىٰ في الناس: «**الصلاةُ جامعةٌ**». قال: فأتيتُ النبيَّ ﷺ وهو ممسكٌ بعيرَهُ وهو يقولُ: «**ما تَدْخُلونَ على قوم غَضِبَ اللهُ عليهِمْ؟**». فناداه رجلٌ: نعجَبُ منهم يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**أفلا أُنبِّئُكُم بأعجبَ من ذٰلك؟ رجلٌ من أنفُسِكم يُنبِّئُكم بما كان قبلَكُم وما هو كائنٌ بعدَكم؛ فاسْتَقيموا وسَدِّدوا؛ فإنَّ الله لا يعبأُ بعذابِكُم شيئًا، وسيأتي قومٌ لا يَدْفَعونَ عن أنفسِهِم شيئًا**»[(٣)]. إسنادٌ حسنٌ ولم يخرِّجوه.

۞ [سياق آخر غريب لقصة صالح عليه السلام]:

وقد ذُكِرَ أنَّ قومَ صالح كانت أعمارُهم طويلةً، فكانوا يبنونَ البيوتَ من المَدَرِ فَتَخْرَبُ قبل موتِ الواحدِ منهم، فَنَحَتوا لهم بيوتًا في الجبال.

وذكروا أنَّ صالحًا عليه السلام لما سألوه آيةً، فأخرجَ الله لهُمُ الناقة من الصخرة؛ أمَرَهُم بها وبالولدِ الذي كان في جوفها، وحذَّرَهم بأسَ اللهِ إن هم نالوها بسوءٍ، وأخبرَهُم أنَّهم سيَعْقِرونها ويكونُ سببَ هلاكِهِم ذٰلك، وذكر لهم صفةَ عاقرِها، وأنَّه أحمرُ أزرقُ أصهبُ، فبَعَثوا القوابلَ في البلدِ متىٰ وَجَدوا مولودًا بهٰذه الصفةِ يَقْتُلْنَهُ، فكانوا علىٰ ذٰلك دهرًا طويلًا، وانقرضَ جيلٌ وأتىٰ جيلٌ آخرُ، فلمَّا كان في بعض الأعصارِ؛ خَطَبَ رئيسٌ من رؤسائِهِم علىٰ ابنهِ بنتَ آخرَ مثلِهِ في الرِّياسةِ، فزوَّجه، فوُلِدَ بينَهما عاقرُ الناقةِ (وهو: قدارُ بن سالفٍ)، فلم تتمكَّنِ القوابلُ من قتلِهِ لشرفِ أبويه وجدَّيْه فيهم، فنشأ نشأةً سريعةً، فكان يَشِبُّ في الجُمُعة كما يَشِبُّ غيرُه في شهرٍ، حتىٰ كان من أمرِهِ أن خَرَجَ مطاعًا فيهم رئيسًا بينَهم، فسوَّلَتْ له نفسُهُ عقرَ الناقةِ، واتَّبَعَهُ علىٰ ذٰلك ثمانيةٌ من أشرافِهِم، وهم التسعةُ الذين أرادوا قتلَ صالح عليه السلام. فلمَّا وَقَعَ

---

(١) في جميع الأصول: «الأنباري»! والتصويب من مصادر التخريج.

(٢) ويقال غير ذٰلك.

(٣) (حسن). رواه: أحمد (٤/ ٢٣١)، والطبراني (٢٢/ ٣٤٠/ ٨٥١ و٨٥٢)؛ من طرق عن المسعودي... به فذكره. قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٣٧): «رواه الطبراني من طريق المسعودي وقد اختلط، وبقية رجاله وثقوا». وقال (١٠/ ٢٩٣): «رواه الطبراني وأحمد بأسانيد، وأحدها حسن». قلت: ولا يخلو واحدٌ منها من المسعودي! ومحمد بن أبي كبشة لم يوثقه إلا ابن حبان. وعليه؛ ففي السند ضعف، لكن الحديث السابق يشهد لمعظمه، وبقيته لا تعدم الشواهد. فهو حسن كما أفاد الحافظان الهيثمي وابن كثير.

من أمرِهم ما وقعَ من عَقْرِ الناقةِ، وبَلَغَ ذٰلك صالحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ جاءهم باكيًا عليهم، فتَلقَّوْه يعتذِرون إليه ويقولون: إنَّ هٰذا لم يقعْ عن ملإٍ منَّا، وإنما فعل هٰذا هؤلاءِ الأحداثُ فينا. فيقال: إنَّ أمَرَهم باستدراك سَقْبِها حتىٰ يُحْسِنوا إليه عِوَضًا عنها، فذهبوا وراءَهُ فصَعِدَ جبلًا هناك، فلمَّا تصاعدوا فيه وراءه؛ تعالىٰ الجبلُ حتىٰ ارتفعَ فلا ينالُهُ الطيرُ، وبكىٰ الفصيلُ حتىٰ سالتْ دموعُهُ، ثم استقبلَ صالحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ ورَغا[١] ثلاثًا؛ فعندها قال صالحٌ: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود: ٦٥]، وأخبرهم أنَّهم يُصْبِحونَ من غَدِهِم صُفْرًا، ثم تَحْمَرُّ وجوهُهُم في الثاني، وفي اليوم الثالثِ تسودُّ وجوهُهم. فلمَّا كان في اليوم الرابع؛ أتَتْهُمْ صيحةٌ فيها صوتُ كلِّ صاعقةٍ، فأخذتْهم، فأصبحوا في دارِهِم جاثمين[٢].

وفي بعض هٰذا السياق نظرٌ ومخالفةٌ لظاهرِ ما يُفْهَمُ من القرآنِ في شأنِهم وقصَّتِهم كما قدَّمنا[٣]. والله ﷻ أعلمُ بالصواب.

❁ ❁ ❁

(١) في نسخة: «ودعا».

(٢) انظر لهٰذا: «تفسير الطبري» (٥/ ٥٣٠/١٤٨١٨ - ١٤٨٢٣)، و«تاريخه» (١/ ١٤٠).

(٣) لأن ظاهر هٰذا السياق أن أكثر قوم صالح كانوا كارهين لقتل الناقة مشفقين من مغبة ذٰلك وقد سعوا جاهدين لمنع وقوعه ثم سعوا جاهدين في الاعتذار منه واستدراك ما يمكن استدراكه! وهٰذا مخالف تمامًا لقوله تعالىٰ: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف: ٧٧].

قصة إبراهيم الخليل عليه السلام

[ذكر مولده ونسبه وزواجه ﷺ]:

هو إبراهيمُ بن تارَحَ (٢٠٥) بن ناحُورَ (١٤٨) بن سَروجَ (٢٣٠) بن رَعُوَ (٢٣٩) بن فالَحَ (٢٣٩) بن عابرَ (٤٦٤) بن شالَحَ (٤٣٣) بن أرْفَخْشَدَ (٤٣٨) بن سام (٦٠٠) بن نوح عليه السلام. هٰذا نصُّ أهل الكتاب في كتابهم، وقد أعْلَمْتُ علىٰ أعمارِهِم تحت أسمائِهِم بالهنديِّ كما ذَكَروه من المُدَدِ، وقدَّمنا الكلام علىٰ عُمُرِ نوح عليه السلام فأغنىٰ عن إعادتِهِ[١].

وحكىٰ الحافظُ ابن عساكرَ[٢] في ترجمة إبراهيم الخليل من «تاريخه» عن إسحاقَ بن بشرٍ الكاهليِّ صاحبِ كتابِ «المبتدإ» أنَّ اسمَ أمِّ إبراهيم أميلةَ. ثم أوردَ عنه في خبرِ ولادتِها له حكايةً طويلةً. وقال الكلبيُّ: اسمها بونا بنت كربتا بن كرثىٰ من بني أرفَخْشَذَ بن سام بن نوح.

وروىٰ ابنُ عساكر[٣] من غير وجهٍ عن عكرمةَ: أنَّه قال: كان إبراهيمُ عليه السلام يُكْنىٰ أبا الضِّيفانِ.

قالوا[٤]: ولما كان عُمُرُ تارَحَ خمسًا وسبعين سنةً؛ وُلِدَ له إبراهيمُ عليه السلام، وناحورُ وهارانُ، ووُلِدَ لهارانَ لوطٌ.

وعندهم أنَّ إبراهيمَ عليه السلام هو الأوسطُ، وأنَّ هارانَ مات في حياة أبيهِ في أرضِهِ التي وُلِدَ فيها، وهي أرضُ الكلدانيينَ؛ يعنونَ: أرضَ بابلَ.

وهٰذا هو الصحيحُ المشهورُ عند أهل السِّيَرِ والتواريخ والأخبارِ، وصحَّح ذٰلك الحافظُ

(١) انظر: «العهد القديم» (سفر التكوين/ الأصحاح١١)، وقد صوَّبت الأسماء والأرقام منه؛ فقد وقع فيها كثير من الخطإ والخلط في جميع الأصول..

(٢) في «التاريخ» (٦/ ١٦٨).

(٣) في «التاريخ» (٦/ ١٧٣).

(٤) يعني: أهل الكتاب. وهٰذا وما يليه في (سفر التكوين/ الأصحاح١١)، وفيه أن عمر تارح لما ولد له إبراهيم كان سبعين وليس خمسًا وسبعين.

ابن عساكرَ بعد ما روىٰ من طريق: هشام بن عمَّار، عن الوليد، عن سعيد بن عبد العزيز، عن مكحول، عن ابن عباس؛ قال: وُلِدَ إبراهيمُ بغوطة دمشقَ، في قريةٍ يُقال لها: برزةُ، في جبل يُقال له: قاسيون. ثم قال: والصحيحُ أنَّه وُلِدَ ببابلَ، وإنَّما نُسِبَ إليه هٰذا المقامُ لأنَّه صلَّىٰ فيه إذ جاء معينًا للوطٍ عليه السلام[١].

قالوا: فتزوَّج إبراهيمُ سارةَ وناحورُ مِلْكةَ ابنةَ هارانَ؛ يعنون: ابنة أخيه[٢].

قالوا: وكانتْ سارةُ عاقرًا لا تَلِدُ.

۞ [ذكر هجرة إبراهيم مع أبيه إلى أرض الكنعانيين]:

قالوا: وانطلق تارَحُ بابنِهِ إبراهيمَ وامرأتِهِ سارةَ وابنِ ابنه[٣] لوطِ بنِ هارانَ، فخرج بهم من أرض الكلدانيينَ إلىٰ أرض الكنعانيينَ، فنزلوا حَرَّانَ، فمات فيها تارَحُ وله مئتان وخمس سنين[٤].

وهٰذا يدُلُّ علىٰ أنَّه لم يولَدْ بحرَّانَ، وإنما مولدُهُ بأرضِ الكلدانيينَ، وهي أرضُ بابلَ وما والاها، ثم ارتحلوا قاصدينَ أرضَ الكنعانيينَ، وهي بلادُ بيتِ المقدس، فأقاموا بحرَّانَ، وهي أرض الكلدانيينَ في ذٰلك الزمان، وكذٰلك أرضُ الجزيرة والشام أيضًا، وكانوا يعبدُونَ الكواكبَ السبعةَ. والذين عَمَّروا مدينةَ دمشقَ كانوا علىٰ هٰذا الدين؛ يستقبلونَ القطبَ الشمالي، ويعبدون الكواكبَ السبعةَ بأنواع من الفِعال والمَقال، ولهٰذا كان علىٰ كلِّ بابٍ من أبوابِ دمشقَ السبعةِ القديمةِ هيكلٌ لكوكبٍ منها، ويعملونَ لها أعيادًا وقرابينَ. وهكذا كان أهلُ حرَّانَ يعبُدون الكواكبَ والأصنامَ. وكلُّ مَن كان علىٰ وجهِ الأرض كانوا كُفَّارًا؛ سوىٰ إبراهيمَ الخليل وامرأتِهِ وابنِ أخيه لوطٍ عليه السلام. وكان الخليلُ عليه السلام هو الذي أزال اللهُ به تلك الشرورَ، وأبطلَ به ذاك الضَّلالَ؛ فإنَّ الله ﷻ آتاهُ رُشْدَهُ في صِغَرِهِ، وابْتَعَثَهُ رسولًا واتَّخَذَهُ خليلًا في كِبَرِهِ.

---

(١) انظر: «تاريخ ابن عساكر» (٦/ ١٣٤)

(٢) وسيأتيك في (ص١٨٥) أن سارة ومِلْكة أختان، وأنهما ابنتا هاران، وأن هاران الأكبر عم إبراهيم وناحور لا أخوهما. وانظر أيضًا: «تاريخ الطبري» (١/ ١٤٨).

(٣) في جميع الأصول: «وابن أخيه»! وهو خطأ ظاهر علىٰ ما تقدم. والذي في «العهد القديم» أنه ابن ابنه. وانظر الحشية السابقة.

(٤) في الأصول: «مئتان وخمسون سنة»! وهو تحريف منشؤه أن الحافظ لم يقيد الرقم تقييدًا، وإنما كتبه كتابة، فقرئ خطأ. والتصويب من «العهد القديم» (سفر التكوين/ الأصحاح١١).

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾. أي: كان أهلًا لذٰلك.

وقال تعالى: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾
إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا
فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا
عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾
قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾
يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم
مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾
۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى
ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٦-٢٧].

ثم ذَكَرَ تعالىٰ مناظَرَتَهُ لأبيهِ وقومِهِ كما سنذكُرُه إن شاء الله تعالىٰ.

۞ [دعوته ﷺ لأبيه لإخلاص العبادة لله وحده]:

وكان أولُ دعوتِهِ لأبيهِ -وكان أبوهُ ممَّنْ يعبُدُ الأصنامَ-؛ لأنَّه أحقُّ الناس بإخلاص النصيحةِ له؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾
إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ
مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا
سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ
ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى
مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾ [مريم: ٤١-٤٨]:

فذَكَرَ تعالىٰ ما كان بينَه وبين أبيهِ من المحاورة والمجادلة، وكيف دعا أباه إلىٰ الحقِّ بألطفِ عبارةٍ وأحسنِ إشارة؛ بيَّن له بطلانَ ما هو عليه من عبادةِ الأوثانِ التي لا تسمعُ دعاءَ عابدِها ولا تُبْصِرُ مكانَه؛ فكيفَ تُغني عنه شيئًا أو تفعلُ به خيرًا من رزقٍ أو نصرٍ؟!

ثم قال له منبِّها علىٰ ما أعطاه الله من الهُدىٰ والعلم النافع، وإن كان أصغرَ سنًّا من أبيهِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾؛ أي: مستقيمًا واضحًا سهلًا حنيفًا يُفْضي بك إلىٰ الخيرِ في دُنياك وأُخراك.

فلما عَرَضَ هٰذا الرُّشْدَ عليه، وأهدىٰ هٰذه النصيحةَ إليه؛ لم يقبلْها منه، ولا أخَذَها عنه، بل تهدَّده وتوعَّده؛ قال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾؛ **قيل**: بالمَقال، **وقيل**: بالفَعال. ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾؛ أي: واقْطَعْني وأطِلْ هِجْراني.

فعندها قال له إبراهيمُ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾؛ أي: لا يَصِلُكَ منِّي مكروهٌ ولا ينالُك مني أذىٰ بل أنت سالمٌ من ناحيتي، وزاده خيرًا فقال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾: قال ابنُ عباس وغيرُهُ: أي: لطيفًا؛ يعني: في أنْ هداني لعبادتِهِ والإخلاص له. ولهٰذا قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾.

❁ [تبرؤه ﷺ من أبيه لما تبين له أنه عدو لله]:

وقد استغفر له إبراهيمُ عليه السلام كما وَعَدَهُ في أدعيتِهِ، فلمَّا تبيَّن له أنَّه عدوٌّ للهِ؛ تبرَّأ منه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤].

وقال البخاري: حدثنا إسماعيل بن عبد الله، حدثني أخي عبد الحميد، عن ابن أبي ذِئْبٍ، عن سعيد المَقْبُرِيِّ، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ؛ قال: **«يَلْقى إبراهيمُ أباه آزرَ يومَ القيامةِ وعلى وجهِ آزرَ قَتَرَةٌ وغَبَرَةٌ، فيقولُ له إبراهيمُ: ألم أقلْ لك لا تَعْصِني؟! فيقولُ له أبوهُ: فاليومَ لا أعصيكَ! فيقولُ إبراهيمُ: يا ربِّ إنَّك وَعَدْتني ألَّا تُخْزِيَني يومَ يُبْعَثونَ؛ فأيُّ خِزْيٍ أخزى من أبي الأبعدِ؟ فيقولُ اللهُ: إنِّي حَرَّمْتُ الجنةَ على الكافرينَ. ثم يُقالُ: يا إبراهيمُ! ما تحتَ**

رِجْلَيْكَ؟ فينظرُ؛ فإذا هو بذيخٍ مُتْلَطخٍ[(١)]، فيُؤْخَذُ بقوائمِهِ، فيُلْقى في النارِ»[(٢)]. هكذا رواه في قصة إبراهيم منفردًا.

وقال في «التفسير»: وقال إبراهيمُ بن طَهْمان، عن ابن أبي ذئبٍ[(٣)]، عن سعيد المَقْبُرِيِّ، عن أبيه، عن أبي هريرة.

وهكذا رواه النَّسائيُّ: عن أحمد بن حَفْص بن عبد الله، عن أبيه، عن إبراهيم بن طَهْمان... به.

وقد رواه البزار[(٤)] عن حديث: حمَّادِ بن سلمةَ، عن أيوبَ، عن محمد بن سِيرينَ، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ... بنحوه. وفي سياقه غرابةٌ.

ورواه أيضًا من حديث: قَتادة، عن عُقْبَةَ بن عبد الغافر، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ... بنحوه[(٥)].

۞ [ذكر الخلاف في اسم أبي إبراهيم ﷺ]:

وقال تعالى: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ

---

(١) في جميع الأصول: «بذبح متلطخ»! والتصويب من مصادر التخريج، و«الذيخ»: ذكر الضباع ذو الشعر الكثير. و«ملتطخ»: متمرغ في النتن.

(٢) رواه: البخاري (٦٠-الأنبياء، ٨- ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ١٢٥﴾، ٦/ ٣٨٦/ ٣٣٥٠) مسندًا و(٦٥- التفسير، ٢٦- سورة الشعراء، ١- ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ٨٧﴾، ٨/ ٤٩٩/ ٤٧٦٨) معلقًا، ووصله النسائي في «الكبرىٰ» (١٠/ ٣٠٩/ ١٤٣٢٤ - تحفة) من الوجه نفسه.

(٣) في نسخة: «ذؤيب»! وهو خطأ.

(٤) في «المسند» (١/ ١١٤/ ٦٩ - مختصر الزوائد). وقال: «لا نعلم رواه عن أيوب هكذا إلا حماد». وقال الهيثمي: «لم أره بهٰذا السياق». وقال في «المجمع» (١/ ١٢٣): «رواه البزار، ورجاله ثقات». وفيه ميمون بن أصبغ: لم يوثقه إلا ابن حبان، وروىٰ عنه جماعة؛ فلا بأس بحديثه، ولكنه خالف فرواه بالمعنىٰ وأورد فيه ألفاظًا وزيادات غريبة لا تحتمل من مثله.

(٥) (صحيح). رواه: البزار (١/ ١١٢/ ٦٧- مختصر الزوائد)، وأبو يعلىٰ (٢/ ٣١٥/ ١٠٤٩، ٢/ ٥٣٣/ ١٤٠٦)، وابن حبان (١/ ٤٨٦/ ٢٥٢، ٢/ ٤١٢/ ٦٤٦)، والحاكم (٤/ ٥٨٧)؛ من طرق عن المعتمر بن سليمان، سمعت أبي، عن قتادة... به.

قال الحاكم: «صحيح علىٰ شرط الشيخين». ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٢٣): «رواه أبو يعلىٰ والبزار، ورجالهما رجال الصحيح».

مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: ٧٤]: هٰذا يَدُلُّ علىٰ أنَّ اسمَ أبي إبراهيم آزرُ، وجمهورُ أهل النسب- منهم ابن عباس- علىٰ أن اسم أبيه تارَحُ، وأهلُ الكتاب يقولون: تارخ؛ بالخاء المعجمة[1]. فقيل: إنه لُقِّبَ بصنم كان يَعْبُدُه اسمُه آزرُ. وقال ابن جرير[2]: والصوابُ أنَّ اسمَهُ آزرُ، ولعلَّ له اسمانِ علمانِ، أو أحدُهما لقبٌ والآخرُ عَلَمٌ. وهٰذا الذي قاله محتملٌ. والله أعلم.

[ما جاء في براءته من شرك عباد الكواكب ومناظرته إياهم]

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٧٥ - ٨٣].

وهذا المَقامُ مقامُ مناظرةٍ لقومِهِ، وبيانٍ لهم أنَّ هذه الأجرامَ المشاهدةَ من الكواكب النيِّرة لا تَصلُحُ للألوهيَّةِ، ولا أن تُعبَدَ مع الله ﷻ؛ لأنها مخلوقةٌ مربوبةٌ مصنوعةٌ مدبَّرةٌ مسخَّرةٌ تَطْلُعُ تارةً وتأفُلُ أخرىٰ، فتغيبُ عن هذا العالم، والربُّ تعالىٰ لا يغيبُ عنه شيءٌ. ولا تخفىٰ عليه خافيةٌ، بل هو الدائمُ الباقي بلا زوالٍ لا إلٰه إلا هو، ولا ربَّ سواه.

فبيَّن لهم أولًا عدمَ صلاحِيَةِ الكوكبِ لذلك؛ قيل: هو الزُّهرةُ ثم ترقَّىٰ منها إلىٰ القمر الذي هو أضوأُ منها وأبهىٰ من حُسْنِها، ثم ترقَّىٰ إلىٰ الشمس التي هي أشدُّ الأجرام المشاهدةِ ضياءً وسناءً وبهاءً، فبيَّن أنها مسخَّرة مسيَّرة مقدَّرة مربوبةٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ

(١) لعله في اللفظ العبري، وإلا؛ فهو بالحاء المهملة في النسخة المعربة من «العهد القديم».

(٢) في «التفسير» (٥/ ٢٤٠/ الأنعام٧٤).

تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧]. ولهٰذا قال: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةً﴾ [الأنعام: ٧٨]. أي طالعة ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾. [الأنعام: ٧٨ - ٧٩]

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ﴾ [الأنعام: ٨٠]. أي لستُ أبالي هٰذه الآلهةَ التي تعبُدونَها من دون الله؛ فإنَّها لا تنفعُ شيئًا، ولا تسمعُ ولا تعقلُ، بل هي مربوبةٌ مسخَّرة -كالكواكب ونحوها- أو مصنوعةٌ منحوتةٌ منجورةٌ.

والظاهرُ أن موعِظتَهُ هذه في الكواكب لأهل حَرَّانَ؛ فإنَّهم كان يعبُدونَها، وهٰذا يَرُدُّ قولَ من زَعَمَ أنَّه قال هٰذا حين خَرَجَ من السرب لمَّا كان صغيرًا، كما ذَكَرَهُ ابنُ إسحاقَ وغيرُهُ، وهو مستنِدٌ إلىٰ أخبارٍ إسرائيليةٍ لا يوثَقُ بها، ولا سيَّما إذا خالفتِ الحقَّ.

[باب ما جاء في تكسيره الأصنام ومناظرته عبادها]

وأمَّا أهلُ بابلَ؛ فكانوا يعبُدون الأصنامَ، وهمُ الذين ناظَرَهم في عبادتِها، وكَسَّرها عليهم وأهانَها وبيَّنَ بُطْلانَها:

كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال في سورة الأنبياء: ﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ
وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ
وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي
فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمۡ
جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ
سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ
هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ
إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾

قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٥١-٧٠].

وقال في سورة الشُّعراء: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٩-٨٣].

وقال تعالىٰ في سورة الصافات: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات: ٨٣-٩٨].

يخبرُ الله تعالىٰ عن إبراهيمَ خليلِهِ عليه السلام أنَّه أنكرَ علىٰ قومِهِ عبادةَ الأوثان وحقَّرها عندهم وصغَّرها وتنقَّصها:

فقال: ﴿مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنبياء: ٥٢]؛ أي: معتكِفون عندها وخاضِعونَ لها. ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنبياء: ٥٣]؛ أي: ما كانَت حُجَّتُهم إلَّا صنيعَ الآباءِ والأجداد وما كانوا عليه من عبادةِ الأنداد. ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنبياء: ٥٤].

كما قال تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات: ٨٥-٨٧]: قال قَتادة: فما ظنُّكم به أنه فاعلٌ بكم إذا لَقيتموه وقد عبدتُم غيره؟!

وقال لهم: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الشعراء: ٧٢-٧٤]: سلَّموا له أنَّها لا تسمعُ ولا تنفعُ ولا تضرُّ شيئًا، وإنَّما الحامل لهم علىٰ عبادتها الاقتداءُ بأسلافِهم ومن هو مثلُهم في الضَّلال من الآباء الجُهَّال، ولهٰذا قال لهم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٥٥-٧٧]: وهٰذا برهانٌ قاطعٌ علىٰ بُطلانِ إلٰهيَّةِ ما ادَّعَوْه من الأصنام؛ لأنَّه تبرَّأ منها وتَنَقَّصَ بها؛ فلو كانت تَضُرُّ لضرَّته، أو تؤثِّر؛ لأثَّرتْ فيه.

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنبياء: ٥٥]: يقولون: هٰذا الكلامُ الذي تقولُهُ لنا، وتَتَنَقصُ به آلهتنا، وتطعَنُ بسببِهِ في آبائِنا؛ أتقولُهُ محقًّا جادًّا فيه أم لاعبًا؟! ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنبياء: ٥٦]؛ يعني: بل أقولُ لكم ذٰلك جادًّا محقًّا، إنما إلهكُمُ الله الذي لا إلٰهَ إلَّا هو، ربُّكم وربُّ كلِّ شيءٍ، فاطرُ السمواتِ والأرضِ، الخالقُ لهما علىٰ غيرِ مثال سَبَقَ؛ فهو المستحقُّ للعبادةِ وحدَه لا شريكَ له، وأنا علىٰ ذٰلكم من الشاهدينَ.

وقوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء: ٥٧]: أقسمَ لَيَكيدَنَّ هٰذه الأصنامَ التي يعبُدونها بعد أن يُوَلُّوا مدبِرين إلىٰ عيدهم؛ قيل: إنَّه قال هٰذا خُفْيَةً في نفسه. وقال ابن مسعودٍ: سَمِعَه بعضُهم.

وكان لهم عيدٌ يذهَبون إليه في كلِّ عام مرةً إلىٰ ظاهر البلد، فدعاه أبوه لِيَحْضُرَهُ، فقال: إنِّي سقيمٌ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات: ٨٨-٨٩]: عَرَّضَ لهم في الكلام حتىٰ توصَّل إلىٰ مقصودِهِ من إهانةِ أصنامهم ونُصرةِ دين اللهِ الحقِّ، وبُطلانِ ما هم عليه من عبادةِ الأصنام التي تستحقُّ أن تُكْسَرَ وأن تُهانَ غايةَ الإهانة.

فلما خرجوا إلىٰ عيدِهم، واستقرَّ هو في بلدِهم؛ (رَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ) [الصافات: ٩١]؛ أي: ذهب إليها مسرعًا مستخفيًا، فوجَدَها في بَهْوٍ عظيم، وقد وَضَعوا بين أيديها أنواعًا من الأطعمة قُربانًا إليها. ﴿فَقَالَ﴾ [الصافات: ٩١]؛ لها علىٰ سبيل التهكُّم والازدراءِ. ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات: ٩١-٩٣]؛ لأنها أقوىٰ وأبطشُ وأسرعُ وأقهرُ،

فكسَّرها بقَدُوم في يدِهِ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ [الأنبياء: ٥٨]؛ أي: حطامًا، كسَّرها كلَّها. ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء: ٥٨]: قيلَ: إنه وَضَعَ القَدُومَ في يد الكبيرِ؛ إشارةً إلىٰ أنَّه غار أن تُعبَدَ معه هٰذه الصغارُ!

فلما رَجَعوا من عيدِهم ووجَدوا ما حلَّ بمعبودِهِم؛ ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنبياء: ٥٩]: وهٰذا فيه دليلٌ ظاهرٌ لهم لو كانوا يعقِلون، وهو ما حَلَّ بآلهتِهِم التي كانوا يعبُدونها؛ فلو كانت آلهةً؛ لَدَفَعَتْ عن أنفسِها مَن أرادها بسوءٍ، لٰكنَّهم قالوا من جَهْلِهِم وقلةِ عقلِهِم وكثرةِ ضَلالهم وخَبالهم: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنبياء: ٥٩-٦٠]؛ أي: يذكُرُها بالعيبِ والتنقُّص لها والازدراءِ بها؛ فهو المقيمُ عليها والكاسرُ لها. وعلىٰ قول ابن مسعود؛ أي: يذكُرُهم بقوله: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء: ٥٧]. ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنبياء: ٦١]؛ أي: في الملإ الأكبرِ علىٰ رؤوسِ الأشهادِ؛ لعلهم يَشْهَدونَ مقالتَهُ، ويسمعون كلامَهُ، ويعاينون ما يحلُّ به من الاقتصاصِ منه. وكان هٰذا أكبر مقاصدِ الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنْ يَجْتمعَ الناسُ كلُّهم، فيقيمَ علىٰ جميع عُبَّادِ الاصنام الحُجَّةَ علىٰ بُطلان ماهم عليه؛ كما قال موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لفرعونَ: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه: ٥٩].

فلمَّا اجتمعوا وجاؤوا به كما ذكروا؛ ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٢-٦٣]: **قيلَ**: معناهُ: هو الحاملُ لىٰ علىٰ تكْسيرِها، وإنَّما عَرَّضَ لهم في القول. ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبياء: ٦٣]: وإنَّما أرادَ بقولِهِ هٰذا أن يبادِروا إلىٰ القول بأنَّ هٰذه لا تنطق، فيعترفوا بأنها جمادٌ كسائر الجمادات. ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنبياء: ٦٤]؛ أي: فعادوا علىٰ أنفسِهِم بالملامةِ، فقالوا إنَّكم أنتم الظالمونَ؛ أي: في تركِها لا حافظَ لها ولا حارسَ عندها. ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٦٥]: قال السُّدِّيُّ: أي: ثم رَجَعوا إلىٰ الفتنة. فعلىٰ هٰذا يكونُ قولُه: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾؛ أي: في عبادتِها. وقال قَتادة: أدركت القومَ حَيْرَةُ سَوْءٍ؛ أي: فأطْرقوا ثُمَّ قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا

هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ [الأنبياء: ٦٥]؛ أي: لقد علمتَ يا إبراهيمُ أن هٰذه لا تنطِقُ، فكيف تأمُرُنا بسؤالها؟! فعند ذٰلك قال لهمُ الخليلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧].

كما قال: ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الصافات: ٩٤]: قال مجاهدٌ: يُسْرِعونَ. ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الصافات: ٩٥]؛ أي: كيفَ تعبُدون أصنامًا أنتم تَنْحِتونَها من الخشبِ والحجارةِ، وتصوِّرونها وتشكِّلونها كما تريدونَ؟! ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦]: وسواءٌ كانتْ: ﴿مَا﴾ مصدريةً أو بمعنىٰ الذي؛ فمقتضىٰ الكلام أنَّكم مخلوقونَ، وهٰذه الأصنامُ مخلوقةٌ؛ فكيف يَتَعَبَّدُ مخلوقٌ لمخلوقٍ مثلِه؟! فإنَّه ليس عبادتُكم لها بأولىٰ من عبادتِها لكُم، وهٰذا باطلٌ، فالآخرُ باطلٌ للتحكُّم؛ إذ ليستِ العبادةُ تَصْلُحُ ولا تَجِبُ إلَّا للخالقِ وحدَه لا شريكَ له.

۞ [تفصيل الكلام في حادثة الإحراق]:

﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات: ٩٧-٩٨]: عَدَلوا عن الجدال والمناظرةِ لما انْقطَعوا وغُلِبوا، ولم تَبْقَ لهم حُجَّةٌ ولا شبهةٌ إلىٰ استعمال قوَّتِهم وسلطانِهم، لِيَنْصُروا ما هم عليه من سَفَهِهِم وطغيانِهم، فكادَهُم الربُّ جَلَّ جَلَالُهُ; وأعلىٰ كَلِمَتَهُ ودينَهُ وبرهانَهُ.

كما قال تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٦٨-٧٠].

وذٰلك أنَّهم شَرَعوا يجمعون حطبًا من جميع ما يمكِنُهم من الأماكنِ، فمَكَثوا مدةً يجمعونَ له حتىٰ إنَّ المرأةَ منهم كانت إذا مَرِضَتْ؛ تَنْذُرُ؛ لئنْ عُوفِيَتْ لِتَحْمِلَنَّ حطبًا لحريق إبراهيم! ثم عَمَدوا إلىٰ جَوْبَةٍ[1] عظيمةٍ فوضعوا فيها ذٰلك الحطبَ وأطلقوا فيه النارَ، فاضْطَرَمَتْ وتأجَّجَتْ والتهبتْ وعَلا لها شررٌ لم يُرَ مثلُه قطُّ، ثم وَضَعوا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في كِفَّةِ مِنْجَنيقٍ صَنَعَهُ لهم رجلٌ من الأكرادِ يُقال له: هيزنُ، وكان أولَ مَن صَنَعَ المجانيقَ، فخسفَ اللهُ به الأرض فهو يَتَجَلْجَلُ فيها إلىٰ يوم القيامةِ، ثم أخذوا يقيِّدونَه ويكتِّفونَه وهو يقولُ: لا إلٰه إلا أنت سبحانَكَ، ربَّ العالمينَ، لك الحمدُ ولك الملكُ، لا شريكَ لك.

(١) الجَوْبَة: الساحة.

فلمَّا وُضِعَ الخليلُ عليه السلام في كِفَّةِ المَنْجَنيقِ مقيَّدًا مكتوفًا، ثمَّ ألقَوْه منه إلى النارِ؛ قال: حسبُنا الله ونعمَ الوكيلُ؛ كما روى البخاري[١] عن ابن عباس أنَّه قال: حسبُنا الله ونِعْمَ الوكيلُ؛ قالَها إبراهيمُ حين أُلْقِيَ في النار، وقالها محمدٌ حين قيل له: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ...﴾ الآية [آل عمران: ١٧٣ -١٧٤].

وقال أبو يعلى: حدثنا أبو هشام الرِّفاعيُّ، حدثنا إسحاق بن سليمان، عن أبي جعفرٍ الرازيِّ، عن عاصم ابن أبي النَّجودِ، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال ﷺ: «**لما أُلْقِيَ إبراهيمُ في النارِ؛ قال: اللهمَّ إنَّك في السماءِ واحدٌ، وأنا في الأرض واحدٌ؛ أعبُدُكَ**»[٢].

وذَكَرَ بعضُ السَّلَفِ: أنَّ جبريلَ عَرَضَ له في الهواءِ فقال: يا إبراهيمُ! ألكَ حاجةٌ؟ فقالَ: أمَّا إليك؛ فلا.

وُيروىٰ عن ابنِ عباس وسعيدِ بن جُبَيْرٍ: أنَّه قال: جَعَلَ مَلَكُ المطرِ يقولُ: متىٰ أومَرُ فأرْسِلَ المطرَ؟ فكان أمرُ الله أسرعَ.

﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩]: قال عليُّ بن أبي طالبٍ: أيْ: لا تَضُرِّيهِ. وقال ابنُ عباس وأبو العاليةِ: لولا أنَّ الله قالَ: ﴿وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾؛ لآذىٰ إبراهيمَ بَرْدُها. وقال كعبُ الأحبار: لم ينتفعْ أهلُ الأرض يومئذٍ بنارٍ، ولم تُحْرِقْ منه سوىٰ وَثاقَهُ. وقال الضَّحَّاكُ: يُروىٰ أن جبريلَ عليه السلام كان معه يمسحُ العرقَ عن وجهِهِ لم يُصِبْهُ منها شيءٌ غيرَهُ. وقال السُّدِّيُّ: كان معه أيضًا مَلَكُ الظِّلِّ.

---

(١) (٦٥ - التفسير، ٣- آل عمران، ١٣- ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾، ٨/ ٢٢٩/ ٤٥٦٣ و٤٥٦٤).

(٢) (ضعيف). رواه البزار (٢/ ٢٦٤/ ١٨٤١) - مختصر الزوائد)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٩)، والخطيب في «التاريخ» (١٠/ ٣٤٦)، وابن عساكر في «التاريخ» (٦/ ١٩٠)؛ كلهم من طريق أبي هشام محمد بن يزيد الرفاعي... به فذكره.

قال البزار: «لا نعلم رواه عن عاصم إلا أبو جعفر، ولا عنه إلا إسحاق، ولم نسمعه إلا من أبي هشام». وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٠٤): «رواه البزار، وفيه عاصم بن عمر بن حفص: وثقه ابن حبان وقال: يخطئ، وضعفه الجمهور». وتعقبه الحافظ فقال: «بل هو عاصم بن أبي النجود؛ صدوق، والسند حسن». وقد صرح غير البزار بأنه ابن أبي النجود. وذكره الذهبي في «الميزان» في ترجمة أبي هشام محمد بن يزيد الرفاعي وقال: «غريب جدًا». وأبو هشام وأبو جعفر الرازي ليسا بالقويين، وبهما ضعفه الألباني.

وصار إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ في مَيْل الجَوْبَةِ؛ حولَهُ نارٌ وهو في روضةٍ خضراءَ، والناسُ ينظُرون إليه؛ لا يقدِرون علىٰ الوصول، ولا هو يخرُجُ إليهم.

فعن أبي هُريرة أنَّه قال: أحسنُ كلمةٍ قالَها أبو إبراهيمَ إذْ قال لمَّا رأىٰ وَلَدَهُ علىٰ تلك الحال: نِعْمَ الربُّ ربُّك يا إبراهيمُ!

وروىٰ ابنُ عساكر(١) عن عَكْرِمَةَ: أنَّ أمَّ إبراهيم نظرتْ إلىٰ ابنها عَلَيْهِ السَّلَامُ فنادتْه: يا بنيَّ! إنِّي أريدُ أن أجيءَ إليك؛ فادعُ الله أن يُنَجِّيَني من حرِّ النارِ حولَكَ، فقال: نعمْ. فأقبلت إليه لا يمسُّها شيء من حرِّ النارِ، فلمَّا وصلت إليه؛ اعْتَنَقَتْهُ وقبَّلَتْهُ ثم عادتْ.

وعن المِنهال بن عمرٍو: أنَّه قال: أُخْبِرْتُ أنَّ إبراهيم مَكَثَ هناك إما أربعينَ وإما خمسينَ يومًا، وأنَّه قال: ما كنتُ أيامًا ولياليَ أطيبَ عيشًا [منِّي] إذْ كنتُ فيها، ووِدِدْتُ أنَّ عَيْشي وحياتي كلَّها مثلُ إذْ كنتُ فيها. صلواتُ الله وسلامُهُ عليه.

فأرادوا أن يَنْتَصِروا فخُذِلوا، وأرادوا أن يَرْتَفِعوا فاتَّضعوا، وأرادوا أن يَغْلِبوا فَغُلِبوا: قال اللهُ تعالىٰ: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٧٠]، وفي الآية الأخرىٰ: ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات: ٩٨]، ففازوا بالخسارةِ والسَّفال؛ هٰذا في الدنيا، وأما في الآخرةِ؛ فإنَّ نارَهم لا تكون عليهم بردًا ولا سلامًا، ولا يُلَقَّوْنَ فيها تحيةً ولا سلامًا، بل هي كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: ٦٦].

[الوزغ هو الحيوان الوحيد الذي كان ينفخ النار على إبراهيم]:

قال البخاريُّ: حدثنا عبيدالله(٢) بن موسىٰ (أو: ابن سلام عنه)، أنبأنا ابن جُرَيْج، عن عبد الحميد بن جُبَيْر، عن سعيد بن المسيَّب، عن أم شَريكٍ: أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمَرَ بقتل الوزغ(٣)، وقالَ: «**كان ينفخ على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ**»(٤).

(١) في «التاريخ» (٦/ ١٨٤).

(٢) في جميع الأصول: «عبد الله»! والتصويب من «صحيح البخاري».

(٣) الوزغ: من صغار الزواحف، يسمىٰ بالسامّ الأبرص.

(٤) رواه: البخاري (٥٩ - بدء الخلق، ١٥- خير مال المسلم، ٦/ ٣٥١/ ٣٣٠٧) و(٦٠- الأنبياء، ٨- ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾، ٦/ ٣٨٩/ ٣٣٥٩)، ومسلم (٣٩- السلام، ٣٨- قتل الوزغ، ٤/ ١٧٥٧/ ٢٢٣٧)، وابن ماجه (٢٨- الصيد، ١٢- قتل الوزغ، ٢/ ١٠٧٦/ ٣٢٢٨)، والنسائي (٢٤- المناسك، ١١٥- قتل الوزغ، ٥/ ٢٠٩/ ٢٨٨٥)؛ بالأسانيد المذكورة.

ورواه مسلمٌ من حديث ابنِ جُرَيْج، وأخرجاه والنسائيُّ وابن ماجه من حديث سفيان بن عُيينة، كلاهما عن عبد الحميد بن جُبَيْر بن شَيْبَةَ... به.

وقال أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ابن جُرَيْج، أخبرني عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أبي أميَّة، أنَّ نافعًا مولىٰ ابن عمر أخبره، أنَّ عائشة أخبرته: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «**اقْتلوا الوزغَ؛ فإنَّه كان يَنْفُخُ النارَ على إبراهيم**». قال: فكانتْ عائشةُ تَقْتُلُهُنَّ.

وقال أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب عن نافع: أنَّ امرأةً دخلتْ علىٰ عائشةَ؛ فإذا رُمْحٌ منصوبٌ، فقالتْ: ما هٰذا الرُّمحُ؟ فقالت: نقتُلُ به الأوزاغَ. ثم حدَّثَتْ عن رسول الله ﷺ: «**إنَّ إبراهيم لما أُلْقِيَ في النارِ؛ جَعَلَتِ الدوابُّ كلُّها تطفِئُ عنه؛ إلَّا الوَزَغَ؛ فإنَّه جعل يَنْفُخُها عليه**».

تفرَّد به أحمدُ من هذين الوجهينِ.

وقال أحمدُ: حدثنا عفَّانُ، حدثنا جريرٌ، حدثنا نافعٌ، حدثتني سائبة[1] مولاةُ الفاكهِ بن المُغيرة؛ قالت: دخلتُ علىٰ عائشةَ، فرأيتُ في بيتِها رُمحًا موضوعًا، فقلتُ: يا أمَّ المؤمنين! ما تصنعينَ بهٰذا الرُّمح؟! قالت: هٰذا لهٰذه الأوزاغ نَقْتُلُهُنَّ به؛ فإنَّ رسولَ الله ﷺ حدثنا: «**إنَّ إبراهيمَ حينَ أُلْقِيَ في النارِ لم يَكُنْ في الأرضِ دابَّةٌ إلَّا تُطْفِئُ عنه النارَ؛ غيرَ الوَزَغَ؛ كان يَنْفُخُ عليه**». فأمَرَنا رسولُ الله ﷺ بقتلِهِ.

ورواهُ ابن ماجه عن أبي بكرِ بن أبي شَيْبة عن يونس بن محمد عن جرير بن حازم... به[2].

---

(١) في جميع الأصول: «سمامة»! والتصويب من «المسند» و«التهذيب».

(٢) (صحيح). وقد ذكر الحافظ ابن كثير له هنا ثلاثة أسانيد: فرواه أحمد (٦/ ٢٠٠) بالسند الأول. وعبد الله بن عبد الرحمن لم أجد من ترجمة فيما بين يدي من المراجع، ثم في السند انقطاع بينه ما بعده. ورواه: أحمد (٦/ ٢١٧)، وابن عساكر (٦/ ١٨٥)؛ بالسند الثاني، وفيه المرأة المبهمة الداخلة علىٰ عائشة، وقد بينها ما بعده، ورواه: ابن أبي شيبة (٤/ ٢٦٦/ ١٩٨٩١)، وأحمد (٦/ ٨٣ و١٠٩)، وابن ماجه (٢٨- الصيد، ١٢- قتل الأوزاغ، ٢/ ١٠٧٦/ ٣٢٣١)، وابن حبان (١٢/ ٤٤٧/ ٥٦٣١)، وابن عساكر (٦/ ١٨٦)، من طريق جرير... بالسند الثالث. قال البوصيري: «صحيح ورجاله ثقات». قلت: بل فيه ضعف؛ فسائبة هٰذه مجهولة لا تعرف إلا بهٰذا الحديث ولم يرو عنها إلا نافع ولم يوثقها إلا ابن حبان؛ فقصاراها أن تكون صالحة في الشواهد كما اختار =

۞ **ذكر مناظرة إبراهيم الخليل مع من أراد أن ينازع الجليل في إزار العظمة ورداء الكبرياء فادعى الربوبية، وهو أحد العبيد الضعفاء:**

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨].

يذكُرُ تعالىٰ مناظرةَ خليلِهِ مع هٰذه الملكِ الجبارِ المتمرِّدِ، الذي ادَّعىٰ لنفسِهِ الربوبيَّةَ، فأبطل الخليلُ عليه دليلَهُ، وبيَّن كَثْرَةَ جهلِهِ وقلةَ عقلِهِ، وألْجَمَهُ الحُجَّة، وأوْضَحَ له طريقَ المَحَجَّة.

قال المفسِّرون وغيرُهم من علماء النسبِ والأخبار: وهٰذا المَلِكُ هو مَلِكُ بابلَ، واسمُهُ النِّمرودُ بنُ كنعانَ بنِ كوشَ بنِ سامِ بنِ نوح[1]. قاله مجاهدٌ. وقال غيرُهُ: نِمرودُ بنُ فالَحَ بنِ عابرَ بنِ شالَحَ بنِ أَرْفَخْشَذَ بنِ سامِ بنِ نوح. قال مجاهدٌ وغيرُه: وكانَ أحدَ ملوكِ الدُّنيا، فإنَّه قد مَلَك الدُّنيا فيما ذَكَروا أربعةٌ؛ مؤمنانِ وكافرانِ؛ فالمؤمنانِ ذو القرنين، وسليمانُ، والكافرانِ النِّمرودُ، وبُخْتَنَصَّرَ. وذَكَروا أن نِمرودَ هٰذا استمرَّ في ملكِهِ أربعَ مئة سنة، وكان طغىٰ وبغىٰ، وتجبر وعتا، وآثر الحياة الدنيا.

ولمَّا دعاه إبراهيم الخليل إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، حمله الجهل والضلال وطول الآمال علىٰ إنكار الصانع، فحاج إبراهيم الخليل في ذٰلك، وادعىٰ لنفسه الربوبية.

فلما قال الخليلُ: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾؛ قالَ: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾: قال قَتادةُ والسُّدِّيُّ ومحمدُ بن إسحاقَ: يَعْني أنَّه إذا أُتِيَ بالرَّجُلَيْنِ قد تحتَّمَ قَتْلُهُما؛ فإذا أَمَرَ بقتل أحدِهما وعفا عن الآخرِ؛ فكأنَّه قد أحيا هٰذا وأماتَ الآخرَ. وهٰذا ليس بمعارضةٍ للخليل، بل هو كلامٌ خارجٌ عن مقام المُناظرةِ، ليس بمنع ولا بمعارضةٍ، بل هو تشغيبٌ محضٌ، وهو انقطاعٌ في الحقيقةِ؛

= الحافظ في «التقريب».

لكن للحديث شواهد كثيرة، ومنها الحديث الذي تقدم قبله؛ فهو صحيح به إن شاء الله، وقد صححه الألباني في «الصحيحة» (٤/ ١٠٨/ ١٥٨١).

(١) الذي في «العهد القديم» (سفر التكوين / الأصحاح ١٠) أنه نَمرود بن كوش بن حام؛ لا ابن سام! وكنعان هو أخو نمرود لا أبوه!! والظاهر أنه لا قول مجاهد هٰذا ولا ما في «العهد القديم» صحيح؛ فمن المستبعد جدًّا أن يكون بين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ونوح تسعة أجداد وبين النمرود الذي عاصر إبراهيم وبين نوح جدان فقط!! والله أعلم.

فإنَّ الخليلَ استدلَّ علىٰ وجودِ الصانع؛ [فاستدلَّ] بحدوثِ هٰذه المشاهداتِ من إحياءِ الحَيَوانات وموتِها، علىٰ وجودِ فاعل ذٰلك، الذي لابدَّ من استنادِها إلىٰ ووجودِهِ ضرورةَ عدمِ قيامِها بنفسِها، ولا بدَّ من فاعل لهٰذه الحوادثِ المشاهَدةِ، مِن خَلْقِها وتسخيرِها، وتسيير هٰذه الكواكبِ والرِّياح والسحابِ والمطرِ وخَلْقِ هٰذه الحيواناتِ التي توجد مشاهدةً ثم إماتتِها، ولهٰذا قال إبراهيمُ: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ فقوْلُ هٰذا المَلكِ الجاهل: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾: إنْ عَنىٰ أنَّه الفاعلُ لهٰذه المشاهَداتِ؛ فقد كابَرَ وعانَدَ، وإن عَنىٰ ما ذَكَرَهُ قَتادةُ والسُّدِّيُّ ومحمدُ بنُ إسحاق؛ فلم يقلْ شيئًا يتعلَّق بكلام الخليل؛ إذ لم يمنعْ مقدِّمةً، ولا عارضَ الدليلَ!

ولمَّا كان انقطاعُ معارضةِ[1] هٰذه المَلِكِ قد تَخفىٰ علىٰ كثيرٍ من الناس ممَّن حَضَرَهُ وغيرِهم؛ ذَكَرَ دليلًا آخر بَيَّنَ وجودَ الصانع وبُطلانَ ما ادَّعاه النِّمرودُ وانقطاعَهُ جَهْرَةً؛ قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾؛ أي: هٰذه الشمسُ مسخَّرةٌ، كلَّ يوم تطلُعُ من المشرقِ كما سَخَّرَها خالقُها ومسيِّرُها وقاهِرُها، وهو اللهُ الذي لا إلٰه إلا هو، خالِقُ كلِّ شيءٍ؛ فإنْ كنتَ كما زعمتَ من أنَّك الذي تحيي وتميت؛ فأْتِ بهٰذه الشمس من المغربِ؛ فإنَّ الذي يُحيي ويميت هو الذي يفعلُ ما يشاء ولا يمانَعُ ولا يغالَبُ، بل قد قَهَرَ كلَّ شيءٍ ودان له كلُّ شيءٍ؛ فإن كنتَ كما تَزْعُمُ؛ فافعلْ هٰذا؛ فإنْ لم تَفْعَلْهُ؛ فلستَ كما زعمتَ، وأنت تعلمُ وكلُّ أحدٍ أنَّك لا تقدِرُ علىٰ شيءٍ من هٰذا، بل أنت أعجزُ وأقلُّ من أن تَخْلُقَ بعوضةً أو تَنْتَصِرَ منها؛ فبيَّنَ ضلالَه وجهلَه وكَذِبَه فيما ادَّعاه وبطلانَ ما سَلَكَهُ وتبجَّحَ به عند جَهَلَةِ قومِهِ.

ولم يبقَ له كلامٌ يُجيبُ الخليلَ به، بل انقطَع وسكتَ ولهٰذا قال [الله تعالىٰ]: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨﴾.

وقد ذَكَرَ السُّدِّيُّ أنَّ هٰذه المناظرةَ كانت بين إبراهيمَ وبين النِّمرودِ يوم أن خَرَجَ من النار، ولم يكنِ اجتمعَ به [إلَّا] يومئذ، فكانت بينهما هٰذه المناظرةُ.

وقد روىٰ عبد الرزاق[2]: عن مَعْمَرٍ، عن زيد بن أَسْلَمَ: أنَّ النِّمرودَ كان عنده طعامٌ، وكان الناس يَفِدونَ إليه للمِيْرَةِ، فوفَدَ إبراهيمُ في جملةِ مَن وَفَدَ للمِيرةِ، ولم يكنِ اجتمعَ به

---

(١) في نسخة: «مناظرة».

(٢) في «التفسير» (١/ ١١٥/ ٣٢٨).

إلَّا يومئذٍ، فكانت بينهما هٰذه المناظرةُ، ولم يعطِ إبراهيمَ من الطعام كما أعطىٰ الناسَ، بل خَرَجَ وليس معهُ شيءٌ من الطعام، فلمَّا قَرُبَ مِن أهلِهِ؛ عَمَدَ إلىٰ كثيبٍ من التُّراب، فَمَلأ منه عِدْلَيْهِ وقال: أشْغَلُ أهلي إذا قدِمْتُ عليهم. فلما قَدِمَ؛ ووضع رِحالَه، وجاءَ فاتَّكأَ فنام، فقامتِ امرأتُهُ سارةُ إلىٰ العِدْلَيْنِ، فوجَدَتْهما ملآنيْنِ طعامًا طيبًا، فعملت منه طعامًا، فلمَّا استيقظَ إبراهيمُ؛ وَجَدَ الذي قد أصلحوه، فقالَ: أنَّىٰ لكم هٰذا؟ قالتْ: من الذي جئتَ بِهِ. فَعَرَفَ أنَّه رِزقٌ رَزَقَهُموهُ الله ﷻ.

قال زيدُ بن أسلمَ: وبعثَ الله إلىٰ ذٰلك المَلِكِ الجبارِ مَلَكًا يأمُرُه بالإيمانِ بالله فأبىٰ عليه، ثم دَعاهُ الثانيةَ فأبىٰ عليه، ثم دَعاهُ الثالثة فأبىٰ عليه، وقال: اجمعْ جموعَكَ وأجْمَعُ جُموعي. فجَمَعَ النِّمرودُ جيشَه وجنودَه وقتَ طُلوع الشمسِ، فأرسل اللهُ عليه ذُبابًا من البعوضِ بحيثُ لم يَرَوْا عينَ الشمس، وسلَّطَها الله عليهم، فأكلتْ لُحومَهم ودِماءَهم وتركَتْهم عِظامًا باديةً، ودخلتْ واحدةٌ منها في مَنْخرِ الملكِ، فمَكَثَتْ في مَنْخرِهِ أربعَ مئة سنةٍ؛ عذَّبه اللهُ تعالىٰ بها، فكان يُضْرَبُ رأسُه بالمرازِبِ في هٰذه المدةِ كلِّها، حتَّىٰ أهْلَكَهُ الله ﷻ بها.

۞ ذكر هجرة الخليل عليه السلام إلى بلاد الشام، ودخوله الديار المصرية واستقراره في الأرض المقدسة:

قال الله: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: ٢٦-٢٧]

وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧١-٧٣].

لمَّا هَجَرَ قومَهُ في الله، وهاجَرَ من بينِ أظهُرِهم، وكانتِ امرأتُهُ عاقرًا لا يُولَدُ لها، ولم يكنْ له من الولدِ أحدٌ، بل معهُ ابنُ أخيهِ لوطُ بنُ هارانَ بنِ آزرَ، وَهَبَهُ الله تعالىٰ بعد ذٰلك الأولادَ الصالحينَ، وَجعَلَ في ذُرِّيَّتِهِ النبوَّةَ والكتابَ؛ فكلُّ نبيٍّ بُعِثَ بعدَه فهو من ذُرِّيَّتِهِ، وكلُّ كتابٍ

نَزَلَ من السماءِ علىٰ نبيٍّ من الأنبياءِ من بعدِهِ؛ فعلىٰ أحدِ نسْلِهِ وعَقِبِهِ؛ خِلْعَةً من الله وكرامةً له حين تَرَكَ بلادَهُ وأهلَهُ وأقرباءَهُ وهاجَرَ إلىٰ بلدٍ يتمكَّنُ فيها من عبادةِ ربِّه ﷻ ودَعْوَةِ الخَلْقِ إليهِ.

والأرضُ التي قَصَدَها بالهجرةِ أرضُ الشام، وهيَ التي قالَ اللهُ ﷻ: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء: ٧١]: قاله أبيُّ بنُ كعبٍ وأبو العاليةِ وقَتادةُ وغيرُهم. وروىٰ العوفيُّ عن ابن عباس قولَهُ: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾: مكَّةَ، ألم تسمعْ إلىٰ قولِهِ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: ٩٦]؟ وزَعَمَ كعبُ الأحبارِ أنَّها حَرَّانُ! وقد قدَّمنا عن نَقْل أهل الكتابِ: أنَّه خَرَجَ من أرض بابلَ هو وابنُ أخيهِ لوطٌ، وأخوهُ ناحورُ وامرأةُ إبراهيمَ سارةُ وامرأةُ أخيهِ مِلْكَةُ، فَنَزلوا حرَّان، فمات تارحُ أبو إبراهيم بها.

وقال السُّدِّيُّ: انطلقَ إبراهيمُ ولوطٌ قِبَلَ الشام، فلَقِيَ إبراهيمُ سارةَ -وهي ابنةُ ملكِ حرَّانَ- وقد طَعَنَتْ علىٰ قومِها في دينهم، فتزوجها علىٰ ألَّا يغيرها. رواه ابنُ جريرٍ[1]. وهو غريبٌ.

والمشهورُ أنَّها ابنةُ عمِّه هارانَ الذي تُنْسَبُ إليه حَرَّانُ، ومَنْ زَعَمَ أنَّها ابنةُ أخيهِ هارانَ أختُ لوطٍ -كما حكاهُ السُّهَيْلِيُّ عن القُتَيْبِيِّ والنَّقَّاشِ؛ فقد أبعدَ النُّجعةَ وقال بلا علم، ومَنِ ادَّعىٰ أنَّ تَزْويجَ بنت الأخ كان إذْ ذاك مشروعًا؛ فليس له علىٰ ذٰلك دليلٌ، ولو فُرِضَ أنَّ هٰذا كان مشروعًا في وقتٍ -كما هو منقولٌ عن الرَّبَّانِيِّينَ من اليهودِ-؛ فإنَّ الأنبياءَ لا تتعاطاهُ. والله أعلمُ.

ثم المشهورُ أنَّ إبراهيمَ عليه السلام لمَّا هاجَرَ من بابلَ؛ خَرَجَ بسارةَ مهاجرًا من بلادِهِ كما تقدَّمَ. والله أعلمُ.

وذَكَرَ أهلُ الكتابِ أنَّه لما قَدِمَ الشامَ؛ أوحىٰ اللهُ إليه: إنِّي جاعلٌ هٰذه الأرضَ لِخَلَفِكَ من بعدِك. فابتنىٰ إبراهيمُ مذبحًا لله شُكرًا علىٰ هٰذه النعمة، وَضَرَبَ قُبَّتَهُ شرقيَّ بيتِ المقدسِ، ثم انطلقَ مرتحِلًا إلىٰ التيمُّنِ، وأنَّه كان جوعٌ (أي: قحطٌ وشدةٌ وغلاءٌ)، فارتحلوا إلىٰ مصرَ، وذكروا قصةَ سارةَ مع مَلِكِها، وأنَّ إبراهيمَ قال لها: قولي أنا أختُهُ! وذَكَروا إخدامَ المَلِكِ إيَّاها هاجرَ، ثم أخرَجَهُم منها فرَجعوا إلىٰ بلاد التيمُّنِ؛ يعني: أرضَ بيت المقدس وما والاها، ومعه دوابٌّ وعبيدٌ وأموالٌ[2].

---

(١) في «التفسير» (٩/ ٤٥/ ٢٤٦٧٤).

(٢) «العهد القديم» (سفر التكوين / الأصحاح ١٢ و١٣).

۞ [ذكر قصة الجبار الذي أراد سارة زوجة إبراهيم]:

وقد قال البخاريُّ: حدَّثنا محمد بن محبوب، حدثنا حمَّاد بن زيد، عن أيوب، عن محمد، عن أبي هريرةَ؛ قال: «لم يكذِبْ إبراهيمُ إلَّا ثلاثَ كِذْباتٍ، اثنتانِ منهنَّ في ذاتِ الله: قولُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات: ٨٩]. وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]. وقالَ: «بَيْنا هو ذاتَ يومٍ وسارةُ، إذ أتىٰ علىٰ جبارٍ من الجبابرةِ، فقيلَ له: إنَّ هاهُنا رجلًا معه امرأةٌ من أحسنِ الناسِ، فأرسلَ إليه وسألَهُ عنها؟ فقالَ: من هٰذه؟ قال: أختي. فأتىٰ سارةَ فقال: يا سارةُ! ليس علىٰ وجهِ الأرضِ مؤمنٌ غيري وغيرَكِ، وإنَّ هٰذا سألني فأخبرته أنَّك أختي؛ فلا تُكذِّبيني! فأرسلَ إليها، فلما دَخلَتْ عليه؛ ذَهَبَ يتناولُها بيدِهِ، فأُخِذَ، فقالَ: ادعِي اللهَ لي ولا أضرُّكِ، فدعتِ اللهَ، فأُطْلِقَ. ثم تناوَلَها الثانيةَ، فأُخِذَ مثلَها أو أشدَّ، فقال: ادعي اللهَ لي ولا أضرُّكِ. فَدَعَتْ، فأُطْلِقَ. فَدَعا بعضَ حَجَبَتِهِ فقالَ: إنَّكم لم تأتوني بإنسانٍ وإنما أتيتُموني بشيطانٍ! فأخْدَمَها هاجَرَ. فأتَتْهُ وهو قائمٌ يصلِّي، فأومأ بيده: مَهْيَمْ؟ فقالت: ردَّ اللهُ كيدَ الكافرِ (أو: الفاجرِ) في نحرِهِ، وأخْدَمَ هاجَرَ». قال أبو هريرةَ: فتلكَ أُمُّكم يا بني ماءِ السماء[(١)].

تفرَّدَ به من هٰذا الوجه موقوفًا.

وقد رواه الحافظُ أبو بكرٍ البزَّارُ، عن عمرِو بن عليٍّ الفلَّاسِ، عن عبد الوهَّابِ الثَّقفيِّ، عن هشام بنِ حسانَ، عن محمدِ بن سرينَ، عن أبي هُريرةَ، عن النبيِّ ﷺ؛ قال: **«إنَّ إبراهيمَ لم يَكْذِبْ قطُّ إلَّا ثلاثَ كذْباتٍ، كلُّ ذٰلك في ذاتِ اللهِ: قولُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾** [الصافات: ٨٩]. **وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾** [الأنبياء: ٦٣]. **وبينَما هو يسيرُ في أرض جبارٍ من الجبابِرة؛ إذ نَزلَ منزلًا، فأُتِيَ الجبارُ، فقيلَ له: إنَّه قد نَزَلَ هاهنا رجلٌ معهُ امرأةٌ من أحسنِ الناسِ. فأرسل إليه، فسألهُ عنها؟ فقال: إنَّها أختي. فلمَّا رَجَعَ إليها؛ قال: إنَّ هٰذا سألني عنكِ، فقلتُ: إنَّك أختي، وإنَّه ليس اليومَ مسلمٌ غيري وغيرَكِ، وإنَّكِ أختي في الدِّين؛ فلا تُكذِّبيني عندَه! فانطلقَ بها، فلما ذَهَبَ يتناوَلُها؛ أُخِذَ، فقال: ادعِي اللهَ لي ولا أضرُّكِ! فدعتْ له، فأرْسِلَ، فذهبَ يتناولُها فأُخِذَ**

(١) رواه أحمد (٢/ ٤٠٣) بالسند الآتي قريبًا. ورواه البخاري (٦٠-الأنبياء، ٨- ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾، ومسلم (٤٣- الفضائل، ٤١- من فضائل إبراهيم، ٤/ ١٨٤٠/ ٢٣٧١)؛ مرفوعًا. وله مواضع أخرىٰ عند البخاري.

مِثْلَها أو أشدَّ منها، فقالَ: ادعي اللهَ لي ولا أضرُّكِ. فدعتْ، فأرْسِلَ؛ ثلاثَ مراتٍ، فدعا أدنى حَشَمِهِ، فقالَ: إنَّك لم تأتِني بإنسانٍ، ولكن أتَيْتَني بشيطانٍ، أخْرِجْها وأعْطِها هاجَرَ. فجاءتْ وإبراهيمُ قائمٌ يصلِّي، فلمَّا أحسَّ بها؛ انصرفَ، فقال: مَهْيَمْ؟ فقالتْ: كفى اللهُ كيدَ الظالمِ، وأخْدَمَني هاجَرَ». وأخرجاه من [غير] حديث هشامٍ. ثم قال البَزَّارُ: لا نعلمُ أسنَدَه عن محمدٍ عن أبي هريرةَ إلَّا هشامٌ. ورواه غيرُه موقوفًا[١].

وقال الإمام أحمدُ: حدَّثنا علي بن حفص، عن ورقاءَ (هو ابنُ عمرَ اليَشْكُريُّ)، عن أبي الزِّنادِ، عن الأعرج، عن أبي هريرة؛ قالَ: قالَ رسول الله ﷺ: «لَمْ يَكْذِبْ إبراهيمُ إلَّا ثلاثَ كِذْباتٍ: قولُهُ حين دُعِيَ إلى آلهتِهِم، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩﴾ [الصافات: ٨٩]. وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]. وقولُهُ لسارةَ: إنَّها أختي». قال: «ودَخَلَ إبراهيم قريةً فيها مَلِكٌ من الملوكِ (أو: جبَّارٌ من الجبابرةِ)، فقيلَ: دَخَلَ إبراهيمُ الليلةَ بامرأةٍ من أحسن الناس». قال: «فأرسلَ إليه المَلِكُ (أو: الجبَّارُ): من هٰذه معكَ؟ قال: أختي. قال: فأرْسِلْ بها! قال: فأرسلَ بها إليه، وقال: لا تُكَذِّبي قولي؛ فإنِّي قد أخْبَرْتُهُ أنَّكِ أختي، إنْ على[٢] الأرض مؤمنٌ غيرى وغيرَكِ. فلما دخلتْ عليهِ؛ قام إليها، فأقبلتْ توضَّأ وتصلِّي وتقولُ: اللهمَّ! إن كنتَ تعلمُ أنِّي آمنتُ بك وبرسولِكَ وأحصنتُ فَرْجي إلَّا على زَوْجي؛ فلا تُسَلِّطْ عليَّ الكافرَ». قالَ: «فَغُطَّ حتَّى رَكَضَ[٣] برجلِهِ». قال أبو الزناد: قال أبو سلمة بنُ عبد الرحمٰن، عن أبي هريرة: أنَّها قالتْ: اللهمَّ! إن يَمُتْ؛ يُقالُ: هي قَتَلَتْهُ. قال: «فأُرْسِلَ». قال: «ثمَّ قامَ إليها». قال: «فقامت توضَّأ وتصلِّي وتقولُ: اللهمَّ! إنْ كنتَ تعلمُ أنِّي آمنتُ بك وبرسولِكَ وأحصنتُ فَرْجي إلَّا على زَوْجي؛ فلا تُسَلِّطْ عليَّ الكافرَ». قال: «فَغُطَّ حتَّى رَكَضَ برِجْلِهِ». قال أبو الزناد: وقال أبو سلمةَ، عن أبي هريرة: أنَّها قالتْ: اللهمَّ! إن يَمُتْ؛ يُقَلْ: هي قَتَلَتْهُ. قال: «فأُرْسِلَ». قال: فقالَ في الثالثةِ أو الرابعةِ: «ما أرسلتُمْ إليَّ إلَّا شيطانًا، أرْجِعوها إلى إبراهيمَ، وأعْطوها هاجَرَ».

---

(١) بل تابعه علىٰ رفعه أيوب السختياني عند الشيخين.

(٢) في نسخة: «إن ما علىٰ»! وفي نسخة: «إن ليس علىٰ»! والصواب ما أثبته من «المسند»، فـ(إن) هٰذه بمعنىٰ (ما)؛ فلا تحتاج لنفي بعدها.

(٣) ركض برجله: ضرب بها الأرض.

قال: «**فَرَجَعَتْ، فقالتْ لإبراهيمَ: أشَعَرتَ أنَّ اللهَ ردَّ كيدَ الكافر[١] وأخْدَمَ وليدةً؟**»[٢]. تفرَّدَ به أحمدُ من هٰذا الوجه وهو علىٰ شرط الصحيح.

وقد رواه البخاريُّ: عن أبي اليمانِ، عن شُعيب بن أبي حَمْزة، عن أبي الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ... به مختصرًا.

وقالَ ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سفيانُ، عن عليِّ بنِ زيدِ بنِ جُدعانَ، عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سعيدٍ؛ قال: قال رسول الله ﷺ في كلماتِ إبراهيمَ الثلاثِ التي قال: «**ما منها كلمةٌ إلّا ماحَلَ[٣] بها عن دينِ الله: فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩﴾** [الصافات: ٨٩]. **وقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾** [الأنبياء: ٦٣]. **وقال للملك حين أرادَ امرأتَهُ: هي أختي**»[٤].

فقوله في الحديث: «**هي أختي**»؛ أي: في دينِ اللهِ. وقوله لها: «**إنه ليس على وجه الأرض مؤمنٌ غيري وغيرَكِ**»؛ يعني: زوجينِ مؤمنينِ غيري وغيرك، ويتعيَّن حَمْلُهُ علىٰ هٰذا؛ لأنَّ لوطًا كان معهم، وهو نبيٌّ عليه السلام. وقوله لها لما رجعت إليه: «**مَهْيَمْ**»؛ معناه ما الخبر؟ فقالت: «**إنَّ اللهَ ردَّ كَيْدَ الكافر**[٥] (وفي رواية: الفاجر، وهو الملك)، **وأخدم جاريةً**».

وكان إبراهيمُ عليه السلام من وقتِ ذَهَبَ بها إلىٰ الملك؛ قام يُصلِّي لله عز وجل ويسألُه أنْ يَدفعَ عن أهلِهِ وأن يردَّ بأسَ هٰذا الذي أرادَ أهلَهُ بسوءٍ، وهكذا فعلت هي أيضًا، فلمَّا أرادَ عدوُّ اللهِ أنْ ينالَ منها أمرًا؛ قامتْ إلىٰ وُضوئِها وصلاتِها، ودعت اللهَ عز وجل بما تقدَّمَ من الدُّعاءِ العظيم، ولهٰذا قال تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، **فعَصَمَها اللهُ وصانَها لعصمةِ عبدِهِ ورسولِهِ وحبيبِهِ وخليلِهِ إبراهيمَ** عليه السلام.

وقد ذَهَبَ بعضُ العلماء إلىٰ نبوَّةِ ثلاثِ نسوةٍ؛ سارةَ وأمِّ موسىٰ ومريم عليهن السلام.

---

(١) في جميع الأصول: «الكافرين». وما أثبته من «المسند».

(٢) تقدم تخريجه قبل قليل.

(٣) ما حَلَ: خاصم وجادل. وقد جاءت في جميع المطبوعات: «ما حلَّ»! وتكلف بعضهم في تأويلها وتوجيهها؛ فما أتىٰ بشيء.

(٤) (**حسن صحيح**). رواه ابن أبي حاتم (ولم أجده في مطبوعة أسعد محمد الطيب). وسنده لا بأس به في الشواهد من أجل ابن جدعان. ثم الحديث الصحيح بحديث أبي هريرة المتقدم قبله.

(٥) في جميع الأصول: «الكافرين». وقد تقدم هٰذا.

والذي عليه الجمهورُ أنَّهنَّ صديقاتٌ رضي الله عنهنَّ وأرضاهنَّ.

ورأيتُ في بعض الآثارِ: أنَّ اللهَ ﷻ كَشَفَ الحجابَ فيما بين إبراهيمَ علىٰ السلامُ وبينَها، فلم يزلْ يَراها منذُ خرجتْ من عندِهِ إلىٰ أن رجعتْ إليه، وكان مشاهِدًا لها وهي عند الملكِ، وكيفَ عَصَمَها اللهُ منه؛ ليكونَ ذٰلك أطيبَ لقلبِهِ وأقرَّ لعينِهِ وأشدَّ لطمأنينتِهِ؛ فإنَّه كان يحبُّها حبًّا شديدًا؛ لدينِها وقرابتِها منه وحسنِها الباهرِ؛ فإنَّه قد قيل: إنَّه لم تكنِ امرأةٌ بعد حوَّاءَ إلىٰ زمانِها أحسنَ منها رضي الله عنها. ولله الحمدُ والمنةُ.

وَذَكَرَ بعضُ أهل التواريخ أنَّ فرعونَ مصرَ هٰذا كان أخًا للضحَّاكِ الملكِ المشهورِ بالظُّلم، وكان عاملًا لأخيه علىٰ مصرَ، ويقال: كان اسمُهُ سنانَ بنَ علوانَ بن عبيد بن عويج بن عملاقَ لاوذ بن سام بن نوحٍ. وذكر ابنُ هشام في «التيجان»: إنَّ الذي أرادَها عمرُو بن امرئ القيس بن مايلون بن سبإٍ، وكان علىٰ مصر. نقله السُّهَيْليُّ. والله أعلم.

ثم إن الخليلَ عليه السلام رجَعَ من بلادِ مصر إلىٰ أرض التيمُّنِ، وهي الأرضُ المقدَّسة التي كان فيها، ومعه أنعامٌ وعبيدٌ ومالٌ جزيلٌ، وصَحِبَتْهُمْ هاجَرُ القِبْطِيَّةُ المِصْرِيَّةُ.

ثم إنَّ لوطًا عليه السلام نَزَحَ بما له من الأموال الجزيلةِ بأمر الخليل له في ذٰلك، إلىٰ أرض الغورِ، والمعروفِ بغَوْرِ زَغَرٍ، فَنَزَلَ بمدينة سَدومَ، وهي أمُّ تلك البلادِ في ذٰلك الزمان، وكان أهلُها أشرارًا كفارًا فُجارًا.

۞ [بشارة الله تعالى لإبراهيم بأنه سيورث ذريته بلاد الشام]:

وأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ إبراهيمَ الخليل، فأمَرَه أنْ يَمُدَّ بَصَرَهُ ويَنْظُرَ شمالًا وجنوبًا وشرقًا وغربًا، وبشَّرَهُ بأنَّ هٰذه الأرضَ كلَّها سأجعلُها لك ولخَلَفِكَ إلىٰ آخرِ الدهر، وستكثُرُ ذُرِّيَّتُكَ حتىٰ يصيروا بعددِ تراب الأرض.

وهٰذه البشارةُ اتَّصلتْ بهٰذه الأمةِ، بل ما كَمَلَتْ ولا كانت أعمَّ(١) منها في هٰذه الأمةِ المحمديَّةِ، ويؤيِّدُ ذٰلك قولُ رسولِ الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ زوى ليَ الأرضَ، فرأيتُ مشارِقَها ومغارِبَها، وسَيَبْلُغُ ملكُ أمَّتي ما زُوِيَ لي منها**»(٢).

---

(١) في نسخة: «أعظم».

(٢) رواه مسلم (٥٢- الفتن، ٥- هلاك هٰذه الأمة بعضهم ببعض، ٤/ ٢٢١٥/ ٢٨٨٩) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

۞ [إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يستنقذ لوطًا من الأسر]:

قالوا: ثم إنَّ طائفةً من الجبَّارينَ تسلَّطوا علىٰ لوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأسَروه، وأخَذوا أموالَه، واستاقوا أنْعامَهُ! فلمَّا بَلَغَ الخبرُ إبراهيمَ الخليلَ؛ سار إليهم في ثلاثِ مئةٍ وثمانيةَ عشرَ رجلًا، فاسْتَنْقَذَ لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، واسترْجَعَ أموالَه، وقتَلَ من أعداءِ الله ورسولِهِ خَلْقًا كثيرًا، وهَزَمَهم، وساقَ في آثارِهم، حتىٰ وَصَلَ إلىٰ شمالي دمشقَ وعَسْكَرَ بظاهرِها عند برزةَ، وأظنُّ مقامَ إبراهيمَ إنَّما سُمِّيَ لأنَّه كان موقفَ جيش الخليل. والله أعلمُ.

ثم رَجَعَ مؤيَّدًا منصورًا إلىٰ بلادِهِ، وتلقَّاه ملوكُ بلادِ بيت المقدس معظِّمين له مكرِمين خاضعينَ، واستقرَّ ببلادِهِ صلواتُ الله وسلامه عليه.

۞ ذكر مولد إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ من هاجر:

قال أهلُ الكتابِ[١]: إنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سألَ اللهَ ذُرِّيَّةً طيبةً، وإنَّ الله بشَّرَهُ بذٰلك، وإنَّه لمَّا كان لإبراهيمَ ببلادِ بيتِ المقدس عشرونَ سنةً؛ قالتْ سارةُ لإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنَّ الرَّبَّ قد أحْرَمَني الولدَ؛ فادْخُل علىٰ أَمَتي هٰذه؛ لعلَّ اللهَ يَرْزُقُني منها ولدًا. فلمَّا وَهَبَتْها له؛ دَخَلَ بها إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فحينَ دَخَلَ بها؛ حَمَلَتْ منه. قالوا: فلمَّا حَمَلَتْ؛ ارتفعتْ نفسُها وتعاظمتْ علىٰ سيِّدتها، فغارتْ منها سارةُ، فشكتْ ذٰلك إلىٰ إبراهيمَ، فقال لها: افْعلي بها ما شئتِ! فخافتْ هاجَرُ، فهربتْ، فنزلتْ عند عينٍ هناك، فقالَ لها مَلَكٌ من الملائكةِ: لا تخافي! فإنَّ اللهَ جاعلٌ من هٰذا الغلام الذي حَمَلْتِ خيرًا. وأمَرَها بالرُّجوع، وبشَّرَها أنَّها سَتَلِدُ ابنًا، وتسمِّيه إسماعيلَ، ويكونَ وحشَ[٢] الناس، يدُهُ علىٰ الكُلِّ به، ويملِكُ جميعَ بلادِ إخوتِهِ. فشكرتِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ علىٰ ذٰلك.

وهٰذه البشارةُ إنَّما انطبقتْ علىٰ ولدِهِ محمدٍ صلواتُ الله وسلامه عليه؛ فإنَّه الذي به سادتِ العربُ، وملكتْ جميع البلادِ غربًا وشرقًا، وأتاها اللهُ من العلم النافع والعمل الصالح ما لم تُؤْتَ أمةٌ من الأمم قبلَهم، وما ذاك إلَّا بشرفِ رسولِها علىٰ سائر الرسل، وبركةِ رسالتِهِ، ويُمْنِ سِفارتِهِ[٣]، وكمالِهِ فيما جاء به، وعموم بعثتِهِ إلىٰ جميع أهل الأرض.

---

(١) «العهد القديم» (سفر التكوين/ الأصحاح ١٦).

(٢) يعني: يعيش وحده في مكان قفر لا ساكن فيه.

(٣) في نسخة: «بشارته».

ولما رجعتْ هاجرُ؛ وضعتْ إسماعيلَ عليه السلام. قالوا: ووَلَدَتْهُ ولإبراهيمَ من العُمُرِ ستٌّ وثمانونَ سنةً، قبل مولدِ إسحاقَ بثلاثَ عشرةَ سنةً.

ولما وُلِدَ إسماعيلُ؛ أوحىٰ اللهُ إلىٰ إبراهيمَ يبشِّرُهُ بإسحاقَ من سارةَ، فَخَرَّ للهِ ساجدًا، وقال لهُ: قد اسْتَجَبْتُ لك في إسماعيلَ، وباركتُ عليه، وكثَّرْتُهُ ونَمَّيْتُهُ جدًّا كثيرًا، ويولَد له اثنا عشر عظيمًا، وأجعلُهُ رئيسًا لشعبٍ عظيم.

وهٰذه أيضًا بشارةٌ بهٰذه الأمةِ العظيمةِ، وهؤلاء الاثنا عشر عظيمًا هم الخلفاءُ الرَّاشدونَ الاثنا عشرَ، المبشَّرُ بهم في حديث: عبد الملك بن عُمَيْر، عن جابر بن سَمُرة، عن النبيِّ ﷺ؛ قالَ: «**يكون اثنا عَشَرَ أميرًا**». ثم قال كَلِمَةً لم أفْهَمْها، فسألتُ أبي: ما قالَ؟ قال: «**كلُّهم من قريشٍ**».[(١)] أخرجاه في الصحيحين. وفي روايةٍ: «**لا يزالُ هٰذا الأمرُ قائمًا** (وفي رواية: عزيزًا) **حتَّى يكونَ اثنا عشر خليفةً، كلُّهم من قريشٍ**». فهؤلاء؛ منهم الأئمةُ الأربعةُ أبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ، ومنهم عمرُ بن عبد العزيز أيضًا، ومنهم بعضُ بني العباس. وليس المرادُ أنَّهم يكونونَ اثني عشر نَسَقًا[(٢)]، بل لا بدَّ من وجودِهم. وليس المرادُ الأئمةَ الاثني عشرَ الذين يعتقدُ فيهم الرافضةُ، الذين أولُهم عليُّ بن أبي طالب، وآخرُهُم المنتظرُ بسردابِ سامَرَّا، وهو محمدُ بن الحسن العسكريُّ فيما يزعُمون؛ فإنَّ أولٰئك لم يكن فيهم أنفعُ من عليٍّ وابنِهِ الحسن بن عليٍّ حين تَرَكَ القتالَ وسلَّمَ الأمر لمعاويةَ وأخمدَ نار الفتنةِ وسَكَّنَ رحىٰ الحربِ بين المسلمين، والباقونَ من جملةِ الرَّعايا، لم يكنْ لهم حكمٌ علىٰ الأمَّة في أمرٍ من الأمور. وأما ما يعتَقِدونَه بسردابِ سامَرَّا؛ فذاك هَوَسٌ في الرؤوسِ، وهَذَيانٌ في النفوسِ، لا حقيقةَ له ولا عينَ ولا أثَرَ.

والمقصودُ: أنَّ هاجَرَ عليها السلام لمَّا وُلِدَ لها إسماعيلُ؛ اشتدَّتْ غيرةُ سارةَ منها، وطلبتْ من الخليل أن يُغيِّبَ وجهَها عنها، فذهبَ بها وبولدِها، فسارَ بهما حتىٰ وضعَهُما حيثُ مكةَ اليومَ. ويقالُ: إنَّ ولدَها كان إذ ذاك رضيعًا. فلمَّا تَرَكَهُما هناك وولَّىٰ ظَهْرَهُ عنهما؛ قامت إليه هاجرُ، وتعلَّقَتْ بثيابِهِ، وقالتْ: يا إبراهيمُ! أين تذهبُ وتدعُنا هاهنا وليس معنا ما يَكْفينا؟! فلم يُجِبْها.

---

(١) رواه: البخاري (٩٣- الأحكام، ٥١- باب، ١٣/ ٢١١/ ٧٢٢٢ و٧٢٢٣)، ومسلم (٣٣- الإمارة، ١- الناس تبع لقريش، ٣/ ١٤٥٢/ ١٨٢١)؛ باللفظ الأول. واللفظ الآخر لمسلم في الموضع نفسه.

(٢) يعني: متتالين.

فلما ألَحَّتْ عليه وهو لا يُجيبُها؛ قالتْ له: آللهُ أمَرَكَ بهٰذا؟ قال: نعم. قالتْ: فإذنْ؛ لا يُضَيِّعُنا!

وقد ذَكَرَ الشيخُ أبو محمد بن أبي زيدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب «النوادر»: أنَّ سارةَ غَضِبَتْ علىٰ هاجرَ، فحلفتْ لَتَقْطَعَنَّ ثلاثةَ أعضاءٍ منها، فأمَرَها الخليلُ أن تَثْقُبَ أذُنَيْها، وأن تَخْفِضَها فتبَرَّ قَسَمَها. قال السُّهَيْليُّ: فكانت أولَ من اختتنَ من النساء، وأولَ من ثَقَبَتْ أذُنَها منهنَّ، وأولَ من طوَّلَتْ ذَيْلَها(١).

۞ ذكر مهاجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى جبال فاران وهي أرض مكة وبنائه البيت العتيق:

قال البخاريُّ: قال عبد الله بن محمد(٢) (هو أبو بكر بن أبي شيبة): حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن أَيُّوب السَّخْتيانيِّ وكثيرِ بن المطَّلب بن أبي وَداعةَ -يزيد أحدهما علىٰ الآخر-، عن سعيد بنِ جُبَيْر، عن ابن عباس؛ قال: أولَ ما اتَّخَذَ النساءُ المِنْطَقَ(٣) من قِبَلِ أمِّ اسماعيلَ، اتَّخذَتْ مِنْطَقًا لِتُعَفِّيَ أثَرَها علىٰ سارةَ(٤)، ثمَّ جاء بها إبراهيمُ وبابنِها إسماعيلَ وهي ترضِعُه، حتىٰ وَضَعَهُما عند البيتِ عند دوحةٍ فوق زمزمَ في أعلىٰ المسجدِ، وليس بمكةَ يومئذٍ أحدٌ وليس بها ماءٌ، فوضَعَهُما هنالكَ ووَضَعَ عندَهما جِرابًا فيه تمرٌ، وسِقاءً فيه ماءٌ، ثم قَفَّىٰ إبراهيمُ منطلِقًا، فتبِعَتْهُ أمُّ إسماعيلَ، فقالتْ: يا إبراهيمُ! أين تذهبُ وتَتْرُكُنا بهٰذا الوادي الذي ليس به إنسٌ ولا شيءٌ؟ فقالتْ له ذٰلك مرارًا، وجَعَلَ لا يلتفتُ إليها، فقالتْ له: آللهُ أمَرَكَ بهٰذا؟ قال: نعمْ. قالتْ: إذنْ؛ لا يُضَيِّعُنا. ثم رجعتْ.

فانْطَلَقَ إبراهيمُ، حتَّىٰ إذا كان عندَ الثَّنِيَّةِ حيث لا يَرَوْنَهُ استقبلَ بوجهِهِ البيتَ، ثم دعا بهٰؤلاءِ الدَّعواتِ ورَفَعَ يديهِ، فقالَ: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وجعلتْ أمُّ إسماعيلَ تُرْضِعُ إسماعيلَ وتَشْرَبُ من ذٰلك الماءِ، حتَّىٰ إذا نَفِدَ ما في السِّقاءِ؛

---

(١) ونقله الطبري في «التاريخ» (١/ ١٥٣) عن السُّدِّي.

(٢) في «الصحيح»: «حدثنا عبد الله بن محمد».

(٣) المِنْطَق: ما يُشدُّ به الوسط.

(٤) تعفي أثرها: تمحوه وتخفيه فلا تتبعها.

عَطِشَتْ، وعَطِشَ ابنُها، وجَعَلَتْ تنظرُ إليه يتلوَّىٰ (أو: قالَ: يتلبَّط)، فانطلقتْ كراهيةَ أن تنظرَ إليه، فوجدتِ الصَّفا أقربَ جبل في الأرض يَليها، فقامتْ عليه، ثم استقبلتِ الواديَ تَنْظُرُ هل ترىٰ أحدًا؟ فلم تَرَ أحدًا، فهبطتْ من الصَّفا، حتَّىٰ إذا بَلَغَتِ الواديَ؛ رفعتْ طَرَفَ دِرْعِها، ثمَّ سعتْ سَعْيَ الإنسانِ المجهودِ حتىٰ جاوزتِ الواديَ، ثم أتتِ المروةَ، فقامتْ عليها، ونظرت هل ترىٰ أحدًا؟ فلمَ تَرَ أحدًا، ففعلتْ ذٰلك سبع مراتٍ. قال ابن عباس: قال النبيُّ ﷺ: «**فلذٰلك سعي الناسُ بينَهما**».

فلما أشرفتْ علىٰ المروةِ؛ سمعتْ صوتًا، فقالت: صَهٍ[١] (تريدُ نفسَها)! ثم تسمَّعَتْ، فسمعتْ أيضًا، فقالتْ: قد أسمعتَ إن كان عندَكَ غَواثٌ[٢]. فإذا هي بالمَلَكِ عند موضع زَمْزَمَ، فبَحَثَ[٣] بِعَقِبِهِ (أو قال: بجناحِهِ) حتىٰ ظَهرَ الماء، فجعلتْ تُحَوِّضُهُ[٤] وتقولُ بيدِها هكذا، وجعلتْ تَغْرِفُ من الماء في سِقائها وهو يفورُ بعدَما تغرِفُ. قال ابنُ عباسٍ: قال النبيُّ ﷺ: «**يَرْحَمُ اللهُ أمَّ إسماعيلَ! لو تركتْ زمزمَ (أو قال: لو لم تَغْرِفْ من الماءِ)؛ لكانتْ زمزمُ عينًا مَعِينًا**». قال: فشربتْ، وأرضعتْ وَلَدَها، فقالَ لها المَلَكُ: لا تخافي الضَّيْعَةَ؛ فإنَّ هاهنا بيتَ اللهِ يَبْنيهِ هٰذا الغلامُ وأبوهُ، وإنَّ اللهَ لا يُضَيِّعُ أهلَهُ. وكان البيتُ مرتفِعًا من الأرض كالرَّابيةِ، تأتيه السُّيولُ فتأخذُ عن يمينِهِ وعن شمالِهِ.

فكانت كذٰلك حتَّىٰ مَرَّتْ بهم رُفْقَةٌ من جُرْهُمٍ، (أو: أهلُ بيتٍ من جُرْهُمٍ) مقبلينَ من طريق كَدَاءٍ، فنزلوا في أسفلِ مكةَ، فرأوا طائرًا عائفًا، فقالوا: إن هٰذا الطَّائرَ ليَدورُ علىٰ ماءٍ! لَعَهْدُنا بهٰذا الوادي وما فيه ماءٌ! فأرسَلوا جَرِيًّا أو جَرِيَّيْنِ[٥]؛ فإذا هم بالماءِ. فَرَجَعوا، فأخْبَروهم بالماءِ، فأقْبَلوا. قال: وأمُّ إسماعيلَ عند الماءِ. فقالوا: أتأذَنينَ لنا أن نَنْزِلَ عندَكِ؟ قالت: نعمْ، ولكن لا حقَّ لكم في الماء. قالوا: نعم. قال عبدُالله بن عباس: قال النبيُّ ﷺ: «**فألْفى ذٰلك أمَّ إسماعيلَ وهي تحبُّ الأنْسَ**».

فنزلوا، وأرسَلوا إلىٰ أهليهم فنزلوا معهم، حتَّىٰ إذا كان بها أهل أبياتٍ منهم، وشبَّ

---

(١) صه: اسكتي.

(٢) يعني: فأغثني.

(٣) بَحَثَ: ضرب الأرض.

(٤) تحوضه: تجعله مثل الحوض.

(٥) الجَرِيُّ: الرسول أو الوكيل أو الأجير.

الغلامُ، وتعلَّم العربيَّة منهم، وأنْفَسَهُم(١) وأعْجَبَهم حينَ شبَّ. فلمَّا أدرَك؛ زوَّجوهُ امرأةً منهم.

وماتتْ أمُّ إسماعيلَ، فجاء إبراهيمُ بعدما تزوَّجَ إسماعيلُ يطالعُ تَرِكَتَهُ(٢)، فلم يجدْ إسماعيلَ، فسألَ امرأتَهُ عنه؟ فقالت: خرجَ يبتغي لنا. ثم سألها عن عيشِهِم وهيئتِهِم؟ فقالت: نحنُ بشرٍّ، نحن في ضيقٍ وشدَّةٍ. وشكتْ إليه. قال: فإذا جاء زَوْجُكِ؛ فاقْرَئي عليه السلام، وقولي له يُغَيِّرُ عَتَبَةَ بابِهِ. فلمَّا جاء إسماعيلُ كأنَّه آنَسَ شيئًا، فقال: هل جاءَكُم من أحدٍ؟ فقالتْ: نعم؛ جاءَنا شيخٌ كذا وكذا، فسألَنا عنكَ؟ فأخبرتُهُ، وسألني كيف عَيْشُنا؟ فأخبرتُه أنَّا في جَهْدٍ وشِدَّةٍ. قال: فهل أوصاكِ بشيءٍ؟ قالتْ: نعم؛ أمَرَني أن أقرأ عليكَ السلامَ، ويقولُ لك: غيِّرْ عَتَبَةَ بابِكَ! قال: ذاك أبي، وقد أمَرَني أن أفارِقَك؛ فالْحَقي بأهلِكِ! فطلَّقَها، وتزوَّجَ منهم أخرىٰ.

ولَبِثَ عنهم إبراهيمُ ما شاء اللهُ، ثم أتاهُم بعدُ، فلم يَجِدْهُ، فَدَخَلَ علىٰ امرأتِهِ، فسألَها عنه، فقالت: خَرَجَ يَبْتَغي لنا. قال: كيف أنتُم؟ وسألها عن عيشِهِم وهيئتِهِم؟ فقالت: نحن بخيرٍ وسَعةٍ. وأثْنَتْ علىٰ الله. فقال: ما طعامُكم؟ قالتِ: اللحمُ. قال: فما شرابُكم؟ قالتِ: الماءُ. قال: اللهمَّ! بارِكْ لهم في اللحم والماءِ. قال النبيُّ ﷺ: «**ولم يَكُنْ لهمْ يَوْمَئِذٍ حبٌّ، ولو كان لهم حَبٌّ؛ لَدَعا لهم فيه**». قال: فَهُما لا يخلو عليهِما أحدٌ بغيرِ مكَّةَ إلَّا لم يوافِقاه(٣). قال: فإذا جاءَ زوجُكِ؛ فاقْرَئي عليه السلام، ومريه يُثْبِتُ عَتَبَةَ بابِهِ، فلمَّا جاء إسماعيلُ؛ قال: هل أتاكُم من أحدٍ؟ قالت: نعم؛ أتانا شيخٌ حسنُ الهيئةِ -وأثنتْ عليه-، فسألني عنك؟ فأخبرته، فسألني كيف عَيْشُنا؟ فأخبرتُه أنا بخيرٍ. قال: فأوصاكِ بشيءٍ؟ قالتْ: نعم؛ هو يقرأُ عليك السلامَ، ويأمُرُك أن تُثْبِتَ عَتَبَةَ بابِك. قال: ذاك أبي وأنتِ العَتَبَةُ، أمَرَني أن أمْسِكَكِ.

ثم لَبِثَ عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذٰلك وإسماعيلُ يَبْري نَبْلًا له تحت دَوْحَةٍ قريبًا من زمزمَ، فلمَّا رآه؛ قامَ إليه، فصَنَعا كما يصنعُ الوالدُ بالولدِ والولدُ بالوالدِ، ثم قال: يا إسماعيلُ! إنَّ الله أمَرَني بأمرٍ. قال: فاصْنَعْ ما أمَرَكَ به ربُّك! قال: وتُعينُني؟ قالَ: وأُعينُكَ. قال: فإنَّ اللهَ أمَرَني أنْ أبنِيَ هاهنا بيتًا -وأشارَ إلىٰ أكَمَةٍ علىٰ ما حَوْلَها-. قال: فعندَ ذٰلك رَفَعا القواعدَ من

---

(١) أي: رغَّبهم في مصاهرته لنفاسته عندهم.

(٢) يطالع تركته: يتفقد ما تركه.

(٣) يعني: ليس أحد يقتصر في طعامه علىٰ اللحم والماء إلا اشتكىٰ ومرض؛ إلا أهل مكة؛ ببركة دعاء الخليل عليه السلام لهم.

البيتِ، فجعلَ إسماعيلُ يأتي بالحجارةِ وإبراهيمُ يَبْني، حتَّىٰ إذا ارتفعَ البناءُ؛ جاء بهٰذا الحجرِ، فوضَعَهُ له، فقام عليه وهُو يبني وإسماعيلُ يناوِلُه الحجارةَ، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧]. قال: فجَعَلا يبنِيانِ حتَّىٰ يدورا حولَ البيتِ وهما يقولانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾.

ثم قال: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو، حدثنا إبراهيم بن نافع، عن كثير بن كثير، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس؛ قال: لَمَّا كان بينَ إبراهيم وبين أهلِهِ ما كان؛ خَرَجَ بإسماعيلَ وأمِّ إسماعيل، ومعهم شَنَّةٌ فيها ماءٌ... وذكَرَ تمامَه بنحوِ ما تقدَّم[(١)].

وهٰذا الحديث من كلام ابن عباس وموشَّحٌ برفع بعضِهِ، وفي بعضه غرابة، وكأنه مما تلقَّاه ابن عباس عن الإسرائيليات، وفيه أنَّ إسماعيل كان رضيعًا إذ ذاك.

وعندَ أهل التَّوراة[(٢)] أنَّ إبراهيمَ أمَرَه اللهُ بأن يَخْتِنَ ولدَه إسماعيلَ وكلَّ مَن عندَه من العبيد وغيرِهم، فختَنَهم، وذٰلك بعد مضيِّ تسع وتسعينَ سنةً من عمرِهِ، فيكون عمُرُ إسماعيلَ يومئذٍ ثلاثَ عشرةَ سنةً.

وهٰذا امتثالٌ لأمرِ اللهِ ﷻ في أهلِهِ، فيدُلُّ علىٰ أنه فَعَلَهُ علىٰ وجهِ الوجوبِ، ولهٰذا كان الصحيحَ من أقوال العلماءِ أنَّه واجبٌ علىٰ الرجال؛ كما هو مقرَّرٌ في موضعِهِ.

وقد ثَبَتَ في الحديث الذي رواه البخاريُّ: حدثنا قُتيبة بن سعيد، حدثنا مُغيرة بن عبد الرحمٰن القرشيُّ، عن أبي الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة؛ قال: قال النبيُّ ﷺ: «**اخْتَتَنَ إبراهيمُ النبيُّ عليه السلام وهو ابنُ ثمانينَ سنةً بالقَدُومِ**»[(٣)]. تابعه عبدُالرحمٰن بنُ إسحاق عن أبي الزناد، وتابعه عَجْلان عن أبي هريرة، ورواه محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن

(١) البخاري (٦- الأنبياء، ٩- يزفُّون، ٦/ ٣٩٦/ ٣٣٦٤ و٣٣٦٥).

(٢) (سفر التكوين/ الأصحاح١٧).

(٣) رواه: البخاري (٦٠-الأنبياء، ٨- ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾، ٦/ ٣٨٨/ ٣٣٥٦)، ومسلم (٤٣- الفضائل، ٤١- من فضائل إبراهيم، ٤/ ١٨٣٩/ ٢٣٧٠). وأما اللفظ الآخر؛ فعند أحمد (٢/ ٣٢٢).

أبي هريرة، وهكذا رواه مسلمٌ عن قُتيبة به. وفي بعض الألفاظ: «**اخْتَتَنَ إبراهيمُ بعدما أتتْ عليه ثمانون سنةً، واخْتَتَنَ بالقَدُوم**».

والقَدُومُ هو الآلةُ، وقيل: موضعٌ!

وهٰذا اللفظُ لا ينافي الزيادةَ علىٰ الثمانين[1] -والله أعلم-؛ لما سيأتي من الحديث عند ذكر وفاتِهِ[2] عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**اخْتَتَنَ إبراهيمُ وهو ابن مئةٍ وعشرين سنةً، وعاش بعد ذٰلك ثمانين سنةً**». رواه ابن حِبَّان في «صحيحه».

وليس في هٰذا السياق ذِكْرُ قصَّةِ الذبيح وأنَّه إسماعيل.

ولم يَذْكُرْ في قَدَمات إبراهيمَ عليه السلام إلَّا ثلاثَ مراتٍ؛ أولاهنَّ بعد أن تزوَّجَ إسماعيل بعد موتِ هاجَرَ! وكيف تَرَكَهُم من حين صِغَرِ الولد - علىٰ ما ذُكِر - إلىٰ حين تزويجِهِ لا ينظُرُ في حالهم؟! وقد ذُكِرَ أنَّ الأرض كانت تُطوىٰ له، وقيل: إنَّه كان يَرْكَبُ البُراقَ إذا سار إليهم؛ فكيف يتخلَّفُ عن مطالعةِ حالِهِم وهم في غايةِ الضَّرورةِ الشديدة والحاجةِ الأكيدة؟!

وكأنَّ بعضَ هٰذا السياق متلقَّىٰ من الإسرائيلياتِ، ومطرَّزٌ بشيء من المرفوعاتِ، ولم يُذْكَرْ فيه قصةُ الذبيح، وقد دَلَّلْنا علىٰ أنَّ الذبيحَ هو إسماعيلُ علىٰ الصحيح في سورة الصافات.

۞ قصة الذبيح

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات: ٩٩-١١٣].

يذكُرُ تعالىٰ عن خليلِهِ إبراهيم أنَّه لما هاجَرَ من بلادِ قومِهِ؛ سأَلَ ربَّهُ أنْ يَهَبَ له ولدًا صالحًا، فبشَّرَهُ اللهُ تعالىٰ بغلام حليم، وهو إسماعيلُ عليه السلام؛ لأنَّه أولُ مَن وُلِدَ له علىٰ رأس سِتٍّ وثمانين

(١) بل هو منافٍ لها كما هو ظاهر، وسيأتي مزيدٌ من الكلام في هٰذا.

(٢) (ص٢٢٤).

سنةً من عُمُرِ الخليل، وهٰذا ما لا خلافَ فيه بين أهل الملل؛ لأنَّه أولُ ولدِهِ وبِكْرُهُ.

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾؛ أي: شبَّ وصار يسعىٰ في مصالِحِهِ كأبيه. قال مجاهدٌ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾؛ أي: شبَّ وارتحلَ وأطاق ما يَفْعَلُهُ أبوه من السعي والعمل. فلمَّا كان هٰذا، رأىٰ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ في المنام أنَّه يُؤْمَرُ بذبح ولدِهِ هٰذا؛ وفي الحديث عن ابن عباس مرفوعًا: «**رُؤيا الأنبياءِ وَحْيٌ**»(١). قاله عُبَيْدُ بن عميرٍ أيضًا.

وهٰذا اختبارٌ من الله عَزَّ وَجَلَّ لخليلِهِ في أن يَذْبَح هٰذا الولدَ العزيزَ الذي جاءه علىٰ كِبَرٍ، وقد طَعَنَ في السنِّ، بعدَما أُمِرَ بأنْ يُسْكِنَهُ هو وأمَّهُ في بلادٍ قفرٍ ووادٍ ليس به حسيسٌ ولا أنيسٌ ولا زرعٌ ولا ضرعٌ، فامتثلَ أمرَ الله في ذٰلك، وتركَهُما هناك ثقةً بالله وتوكُّلًا عليه، فجعل اللهُ لهما فرجًا ومخرجًا ورَزَقَهما من حيثُ لا يحتسبان، ثمَّ لما أُمِرَ بعد هٰذا كلِّه بذبح ولدِهِ هٰذا الذي قد أفرَدَهُ عن أمرِ ربِّه، وهو بكرُهُ ووحيدُهُ الذي ليس له غيرُهُ؛ أجابَ ربَّه وامتثلَ أمرَهُ وسارع إلىٰ طاعتِهِ.

ثم عَرَضَ ذٰلك علىٰ ولدِهِ؛ ليكونَ أطيبَ لقلبِهِ وأهونَ عليه من أن يأخُذَهُ قسرًا ويذبَحَهُ قهرًا: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾؛ فبادرَ الغلامُ الحليم، سِرُّ والدِهِ الخليل إبراهيم، فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢﴾. وهٰذا الجوابُ في غاية السَّداد والطَّاعةِ للوالدِ ولربِّ العباد.

---

(١) (**ضعيف مرفوعًا صحيح موقوفًا**). رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٤/ ١٤/ الصافات ١١٣ - ابن كثير): ثنا علي بن الحسين بن الجنيد، ثنا أبو عبد الملك الكرندي، ثنا سفيان بن عيينة، عن إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة؛ عن ابن عباس... فذكره مرفوعًا.

وهٰذا سند ضعيف معلول من ثلاثة أوجه: **فأولها**: أبو عبد الملك هٰذا: ما وجدت له ترجمة. **والثاني**: رواية سماك عن عكرمة مضطربة. **والثالث**: أنه جاء عند الطبراني (١٢/ ٥/ ١٢٣٠٢) من طريق سفيان... به موقوفًا علىٰ ابن عباس. قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٧٩): «رواه الطبراني عن شيخه عبد الله بن محمد بن أبي مريم، وهو ضعيف، وبقية رجاله رجال الصحيح».

نعم؛ قد صح موقوفًا علىٰ عبيد بن عمير؛ رواه عنه البخاري (٤- الوضوء، ٥- التخفيف في الوضوء، ١/ ٢٣٨/ ١٣٨). قال الحافظ: «وقوله: «رؤيا الأنبياء وحي»: رواه مسلم مرفوعًا، وسيأتي في التوحيد من رواية شريك عن أنس». قلت: يريد ما جاء في حديث الإسراء: أن النبي ﷺ يرىٰ قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه وكذٰلك الأنبياء؛ فهو إنما قصد المعنىٰ، وإلا؛ فمسلم لم يخرج هٰذا اللفظ. والله أعلم.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾: قيل: ﴿أَسۡلَمَا﴾؛ أي: استسلما لأمر الله وعزما علىٰ ذٰلك. وقيل: وهٰذا من المقدَّم والمؤخَّر، والمعنىٰ: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾؛ أي: ألْقاه علىٰ وجهِهِ. قيل: أراد أن يَذْبَحَهُ من قفاه لئلَّا يشاهِدَه في حال ذبحه. قالَهُ ابنُ عباس ومجاهدٌ وسعيد بن جُبير وقَتادة والضحَّاك. وقيل: بل أضْجَعَهُ كما تُضْجَعُ الذبائحُ، وبقي طرفُ جبينِهِ لاصقًا بالأرض. و﴿أَسۡلَمَا﴾؛ أي: سَمَّىٰ إبراهيمُ وكَبَّرَ، وتَشَهَّدَ الولدُ للموت. قال السُّدِّيُّ وغيرُه: أمَرَّ السكينَ علىٰ حلقِهِ فلم تَقْطَعْ شيئًا. ويُقال: جُعِلَ بينَها وبين حلقِهِ صفيحةٌ من نحاس. والله أعلم.

فعند ذٰلك نُودِيَ من الله ﷻ: ﴿أَن يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾؛ أي: قد حَصَلَ المقصودُ من اختبارِكَ وطاعتِك ومبادرَتِكَ إلىٰ أمرِ ربِّك، وبَذْلك وَلَدَكَ للقربانِ، كَما سمحتَ ببدنِكَ للنِّيرانِ، وكما مالُكَ مبذولٌ للضِّيفانِ، ولهٰذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَـٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦﴾؛ أي: الاختبارُ الظاهر البيِّنُ.

وقولُهُ: ﴿وَفَدَيۡنَـٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧﴾؛ أي: وجعَلْنا فداءَ ذَبْح ولدِهِ ما يسَّره الله تعالىٰ له من العِوضِ عنه. والمشهورُ عن الجمهور أنَّه كبشٌ أبيضُ أعينُ أقرنُ رآه مربوطًا بِسَمُرَةٍ في ثبيرٍ. قال الثوري: عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس؛ قال: كبشٌ قد رَعىٰ في الجنَّةِ أربعينَ خريفًا. وقال سعيد بن جُبير: كان يَرْتَعُ في الجنةِ حتىٰ تشقَّقَ عنه ثبيرٌ، وكان عليه عِهْنٌ أحمرُ. وعن ابنِ عباس: هَبَطَ عليه من ثبيرٍ كبشٌ أعينُ أقرنُ له ثُغاءٌ فَذَبَحَهُ، وهو الكبش الذي قرَّبَه ابنُ آدمَ فتقبل منه. رواه ابن أبي حاتم[1]. قال مجاهدٌ: فَذَبَحه بمنًىٰ. وقال عُبيدُ بن عُميرٍ: ذَبَحَهُ بالمقام. فأما ما رُوِيَ عن ابن عباس أنَّه كان وعلًا! وعن الحسن أنَّه كان تيسًا من الأرْوىٰ، واسمُهُ جريرٌ! فلا يكادُ يَصِحُّ عنهما. ثم غالبُ ما هاهنا من الآثار مأخوذٌ من الإسرائيلياتِ، وفي القرآن كفايةٌ عمَّا جرىٰ من الأمرِ العظيم والاختبارِ الباهر، وأنَّهُ فُدِيَ بِذِبح عظيم.

وقد وَرَدَ في الحديث أنَّه كان كبشًا: قال الإمام أحمدُ: حدثنا سفيانُ، حدثنا منصورٌ، عن خاله مُسافع، عن صَفِيَّة بنت شَيْبَةَ؛ قالت: أخبرَتْني امرأةٌ من بني سُلَيْم وَلَّدَتْ عامَّةَ أهل دارِنا؛ قالتْ: أرسلَ رسولُ الله ﷺ إلىٰ عثمانَ بن طلحةَ. وقالتْ مرةً: إنَّها سألت عثمانَ: لم

(١) في «التفسير» (١٠/ ٣٢٢١/ ١٨٢٣٣).

دعاك رسولُ الله ﷺ؟ قال: قال لي رسولُ الله: «إنِّي كنتُ رأيتُ قَرْنَي الكبش حينَ دخلتُ البيتَ، فنسيتُ أن آمُرَكَ أن تُخَمِّرَهُما، فَخَمِّرْهُما؛ فإنَّه لا ينبغي أن يكونَ في البيتِ شيءٌ يَشْغَلُ المصلِّي». قال سفيانُ: لم يَزَلْ قرنا الكبشِ معلَّقَيْن في البيتِ حتَّىٰ احترقَ البيتُ فاحترقا[1].

وكذا رُوِيَ عن ابن عباس: أنَّ رأسَ الكبش لم يَزَلْ معلَّقًا عند ميزابِ الكعبةِ قد يَبِسَ.

۞ [ذكر شيء من الأدلة التي تبين أن الذبيح هو إسماعيل]:

وهٰذا وحدَه دليلٌ علىٰ أنَّ الذبيح إسماعيلُ؛ لأنَّه كان هو المقيمَ بمكَّة وإسحاق لا نعلمُ أنَّه قَدِمَها في حال صِغَرِه. والله أعلم.

وهٰذا هو الظاهرُ من القرآن، بل كأنَّه نصٌّ علىٰ أنَّ الذَّبيح هو إسماعيل؛ لأنَّه ذكر قصةَ الذبيح، ثم قال بعدَه: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢﴾ [الصافات: ١١٢]، ومن جَعَلَهُ حالًا؛ فقد تكلَّفَ، ومستَنَدُه أنَّه إسحاقُ إنَّما هو إسرائيلياتٌ، وكتابُهُم فيه تحريفٌ، ولا سيَّما هاهنا قطعًا، لا محيدَ عنه؛ فإنَّ عندَهم[2] أنَّ الله أمَرَ إبراهيم أن يَذْبَحَ ابنَه وحيدَه (وفي نسخة من المعربة: بِكْرَهُ) إسحاقَ؛ فَلَفْظَةُ (إسحاقَ) هاهنا مقحَمةٌ مكذوبةٌ مكتوبةٌ مفتراةٌ؛ لأنَّه ليس هو الوحيدَ ولا البكرَ، إنَّما ذاك إسماعيلُ، وإنَّما حَمَلَهُم علىٰ هٰذا حسدُ العرب؛ فإنَّ إسماعيلَ أبو العرب الذين يسكُنون الحجازَ، الذين منهم رسولُ اللهِ ﷺ، وإسحاقُ والدُ يعقوبَ، وهو إسرائيلُ الذي ينتسبونَ إليه، فأرادوا أن يَجُرُّوا هٰذا الشرفَ إليهم، فحَرَّفوا كلامَ الله وزادوا فيه، وهم قومٌ بُهْتٌ، ولم يُقِرُّوا بأنَّ الفضلَ بيد الله يُؤتيهِ مَن يشاءُ.

وقد قالَ بأنَّه إسحاقُ طائفةٌ كثيرةٌ من السَّلَفِ وغيرِهم، وإنَّما أخذوه - والله أعلم - من كعبِ الأحبارِ، أو من صُحُفِ أهل الكتابِ، وليس في ذٰلك حديثٌ صحيحٌ عن المعصوم حتىٰ نَتْرُكَ لأجلِهِ ظاهرَ الكتاب العزيزِ، ولا يُفْهَمُ هٰذا من القرآنِ، بل المفهومُ بل المنطوقُ بل النصُّ - عند التأمُّل - علىٰ أنَّه إسماعيلُ.

وما أحسنَ ما استدلَّ به محمدُ بنُ كعبٍ القُرَظِيُّ علىٰ أنَّه إسماعيلُ ولبس بإسحاقَ من

---

(١) (صحيح). رواه أحمد (٤/ ٦٨، ٥/ ٣٨٠) بالسند المذكور، وهو صحيح علىٰ شرط مسلم، وجهالة المرأة لا تضر؛ لأن صفية بنت شيبة لها رؤية، وروايتها عن كبار الصحابة وأمهات المؤمنين؛ فالمجهولة من الصحابة.

(٢) «العهد القديم» (سفر التكوين/ الأصحاح ٢٢).

قوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٧١]؛ قال: فكيفِ تقعُ البِشارةُ بإسحاقَ وأنَّه سيولدُ له يعقوبُ، ثم يُؤْمَرُ بِذَبْحِ إسحاقَ وهو صغيرٌ قبل أن يُولَدَ له؟! هٰذا لا يكونُ، لأنَّه يناقِضُ البِشارةَ المتقدِّمة. والله أعلم؟!

وقد اعترضَ السُّهَيْلِيُّ على هٰذا الاستدلال بما حاصلُهُ: أنَّ قولَه: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾: جملةٌ تامَّةٌ، وقولُهُ: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ جملةٌ أخرىٰ ليستْ في حَيِّزِ البِشارةِ. قال: لأنَّه لا يجوزُ من حيثُ العربيةُ أن يكونَ مخفوضًا إلَّا أن يُعادَ معه حرفُ الجرِّ، فلا يجوزُ أن يُقالَ: مررتُ بزيدٍ ومن بعدِهِ عمرٍو، حتَّىٰ يُقالَ: ومن بعده بعمرو. وقال: فقوله: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ منصوبٌ بفعل مُضْمَرٍ تقديرُهُ: وَوَهَبْنا لإسحاق يَعْقوبَ! وفي هٰذا الذي قالَهُ نظرٌ. ورجَّح أنَّه إسحاقُ، واحتجَّ بقولِهِ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ [الصافات: ١٠٢]؛ قال: وإسماعيلُ لم يكنْ عندَه، إنَّما كانَ في حال صِغَرِهِ هو وأُمُّه بجبال مكةَ؛ فكيف يبلُغُ معه السعيَ؟! وهٰذا أيضًا فيه نظرٌ؛ لأنَّه قد رُوِيَ أنَّ الخليل كان يذهبُ في كثيرٍ من الأوقات راكبًا البُراقَ إلىٰ مكَّةَ؛ يطَّلِعُ علىٰ ولدِهِ وابنِهِ ثم يرجعُ[(١)]. والله أعلم.

فمِمَّن حُكِيَ القولُ عنه بأنَّه إسحاقُ: كعبُ الأحبار. ورُوِيَ عن عمرَ والعباسِ وعليٍّ وابنِ مسعودٍ، ومسروقٍ وعِكرمةَ وسعيدِ بن جُبَيْرٍ ومجاهدٍ وعطاءٍ والشعبيِّ ومقاتل وعُبيدِ بن عُميرٍ وأبي مَيْسَرَةَ وزيدِ بن أسلمَ وعبد الله بن شقيقٍ والزُّهريِّ والقاسم وابن أبي بُرْدَةَ ومكحول وعثمانَ بن حاضرٍ والسُّدِّيِّ والحسن وقَتادة وأبي الهُذَيْل وابن سابطٍ، وهو اختيارُ ابن جَريرٍ، وهٰذا عجبٌ منه، وهو إحدىٰ الروايتينِ عن ابن عباس.

ولٰكنَّ الصحيحَ عنه وعن أكثرِ هؤلاء أنَّه إسماعيلُ عليه السلام: قال مجاهدٌ وسعيدٌ والشعبيُّ ويوسُفُ بن مِهْران وعطاءٌ وغير واحد عن ابن عباس: هو إسماعيلُ عليه السلام. وقال ابن جَريرٍ[(٢)]:

---

(١) ولو تأملنا ظاهر نص ابن عباس المتقدم في قصة بناء الكعبة؛ لتبين لنا أن إسماعيل عليه السلام كان يعرف أباه معرفة قوية في الوصف والشكل؛ مما يرجع أحد أمرين: فإما أن يكون إسماعيل عليه السلام قد عاش طفلًا في كنف أبيه، وهٰذا هو نص «العهد القديم»؛ فهم يزعمون أنه فارق أباه وسكن مع أمه بريَّةَ فاران (يعني مكة) وله ثلاث عشرة سنة. وأما الراوية التي تقدمت عن ابن عباس من كونه رضيعًا؛ فموقوفة موشحة ببعض المرفوع، وقد قال عنها ابن كثير: «وكأن بعضها متلقَّىٰ من الإسرائيليات».

وإما أن إبراهيم عليه السلام كان يتعهد تركته بين الفترة والأخرىٰ وينظر في أحوال ولده وأمه. وهٰذا أرجح. والله أعلم.

(٢) في «التفسير» (١٠/ ٥١٣/ ٢٩٥١٦).

حدَّثني يونس، أنبأنا ابن وَهْب، أخبرني عمرو بن قيس، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس: أنه قال: المُفَدَّىٰ إسماعيلُ، وزعمتِ اليهودُ أنَّه إسحاقُ، وكذبتِ اليهودُ. وقال عبد الله ابن الإمام أحمد عن أبيه: هو إسماعيلُ. وقال ابن أبي حاتم[1]: سألت أبي عن الذبيح؟ فقال: الصحيحُ أنَّه إسماعيلُ عليه السلام. قالَ ابنُ أبي حاتم: ورُوِيَ عن عليٍّ وابن عمر وأبي هريرةَ، وأبي الطُّفيل وسعيد بن المسيَّب وسعيد بن جُبَيْر والحسن ومجاهدٍ والشعبيِّ ومحمد بن كعبٍ، وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح: أنَّهم قالوا: الذبيح هو إسماعيل عليه السلام. وحكاه البغويُّ أيضًا عن الربيع بن أنس والكلبيِّ وأبي عمرو بن العلاء. قلت: ورُوي عن معاوية، وجاء عنه: أنَّ رجلًا قال لرسول الله ﷺ: يا ابنَ الذَّبيحينِ! فضحِكَ رسول الله ﷺ[2]. وإليه ذهبَ عُمر بن عبد العزيز ومحمدُ بن إسحاق بن يسار، وكان الحسنُ البصريُّ يقولُ: لا شكَّ في هٰذا.

وقال محمدُ بن إسحاق: عن بريدةَ، عن سفيانَ بن فَرْوَةَ الأسلميِّ، عن محمد بن كعب: أنَّه حدَّثهم أنَّه ذَكَرَ ذٰلك لعمرَ بن عبد العزيز وهو خليفةٌ إذْ كان معه بالشام (يعنىٰ: استدلالَه بقولِهِ بعد العصمةِ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١﴾ [هود: ٧١]) فقال له عمرُ: إنَّ هٰذا لَشيءٌ ما كنتُ أنظرُ فيه، وإنِّي لأراهُ كما قلتَ. ثم أرسلَ إلىٰ رجل كان عنده بالشام، كان يهوديًّا فأسلمَ وحَسُنَ إسلامُهُ، وكان يرىٰ أنه من علمائِهم. قال: فسألَهُ عمرُ بن عبد العزيز: أيُّ ابْنَيْ إبراهيمَ أُمِرَ بذَبْحِهِ؟ فقال: إسماعيلُ والله يا أمير المؤمنين! وإنَّ اليهودَ لتعلمُ بذٰلك، ولٰكنَّهم يَحْسُدونكُم معشرَ العربِ علىٰ أن يكون أباكمُ الذي كان من أمرِ الله فيه والفضل الذي ذَكَرَهُ الله منه لصبرِهِ لما أُمِرَ به؛ فهم يَجْحَدونَ ذٰلك ويزعُمون أنَّه إسحاقُ؛ لأنَّ إسحاق أبوهم!

وقد ذكرنا هٰذه المسألة مستقصاةً بأدلَّتِها وآثارِها في كتابنا «التفسير». ولله الحمد والمنة.

---

(١) في «التفسير» (١٠/ ٣٢٢٣/ ١٨٢٣٨).

(٢) (ضعيف جدًّا). رواه: ابن جرير في «التفسير» (١٠/ ٥١٤/ ٢٩٥٣٠)، والحاكم (٢/ ٥٥٤)؛ من طريق: إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة، ثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابي، عن عبيد بن محمد العتبي، عن أبيه، عن عبد الله بن سعيد، عن الصنابحي؛ قال: كنا عند معاوية... فذكره.

وسكت عنه الحاكم، وقال الذهبي: «إسناده واهٍ». وقال ابن كثير في «التفسير» (٤/ ١٧/ الصافات ١١٣): «غريب جدًّا». وضعفه السيوطي في «الدر» (٥/ ٥٢٩).

❁ ذكر مولد إسحاق عليه السلام:

قال الله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات: ١١٢-١١٣].

وقد كانتِ البِشارةُ به من الملاكة لإبراهيمَ وسارةَ لمَّا مَرُّوا بهما مُجتازين ذاهبينَ إلىٰ مدائنِ قوم لوطٍ لِيُدَمِّروا عليهم لِكُفْرِهم وفُجورِهم؛ كما سيأتي بيانُهُ في موضعِهِ إنْ شاء الله تعالىٰ.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٦٩-٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: ٥١: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات: ٢٤-٣٠].

يذكُرُ تعالىٰ: أنَّ الملائكة - قالوا: وكانوا ثلاثةً؛ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ - لَمَّا وَرَدوا علىٰ الخليل؛ حَسِبَهُم أولًا أضيافًا، فعامَلَهم معاملةَ الضُّيوفُ- وشوىٰ لهم عِجلًا سمينًا من خيارِ بقرِه، فلمَّا قَرَّبَهُ إليهم وعرَضَ عليهِم؛ لم يَرَ لهم هِمَّةً إلىٰ الأكل بالكُلِّيَّةِ، وذٰلك لأنَّ الملائكةَ ليس فيهم قُوَّةُ الحاجةِ إلىٰ الطعام، [فـ] ﴿نَكِرَهُمْ﴾ [هود: ٧٠] إبراهيمُ ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ [هود: ٧٠]؛ أي: لندمِّرَ عليهم. فاستبشرتْ عند ذٰلك سارةُ غضبًا للهِ عليهم، وكانت قائمةً علىٰ رؤوس الأضيافِ كما جَرَتْ به عادةُ الناس

من العربِ وغيرهم، فلمَّا ضَحِكَتِ استِبْشارًا بذٰلك؛ قال الله تعالىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٧١]؛ أي: بشَّرَتْها الملائكةُ بذٰلك. ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ [الذاريات: ٢٩]؛ أي: في صَرْخَةٍ. ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ [الذاريات: ٢٩]؛ أي: كما يفعلُ النساءُ عند التعجُّب، وقالتْ: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢]؛ أي: كيف يلدُ مثلي وأنا كبيرةٌ عقيمٌ أيضًا، ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى﴾؛ أي: زوجي، ﴿شَيْخًا﴾؟! تعجَّبتْ من وجود ولدٍ والحالةُ هٰذه، ولهٰذا قالتْ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٧٢-٧٣]. وكذٰلك تعجَّب إبراهيم عليه السلام استبشارًا بهٰذه البشارة وتثبيتًا لها وفرحًا بها؛ ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الحجر: ٥٤-٥٥]: أكَّدوا الخبر بهٰذه البِشارة وقرَّروه معه.

فَبَشَّروهُما بغلام عليم، وهو إسحاق، وأخوه إسماعيلُ غلامٌ حليمٌ؛ مناسبٌ لمقامِهِ وصبرِهِ، وهكذا وَصَفَهُ ربُّه بصِدق الوعدِ والصبر.

وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٧١]: وهٰذا ما استدلَّ به محمد بن كعبٍ القرظيُّ وغيرهُ علىٰ أنَّ الذبيحَ هو إسماعيلُ، وأنَّ إسحاق لا يجوزُ أن يُؤْمَرَ بذبحِهِ بعد أن وقعتِ البشارةُ بوجودِهِ ووجودِ ولدِهِ يعقوبَ المشتقِّ من العَقِبِ من بعدِهِ.

وعند أهلِ الكتاب[1]: أنَّه أحضرَ مع العجل الحنيذِ -وهو المشويُّ- رغيفًا من مكةَ فيه ثلاثةُ أكيال وسمنٌ ولبنٌ، وعندَهُم أنَّهم أكَلوا! وهٰذا غلطٌ محضٌ! وقيل: كانوا يُرَوْنَ أنَّهم يأكُلونَ والطعامُ يتلاشىٰ في الهواءِ.

وعندَهم أنَّ الله تعالىٰ قال لإبراهيمَ: أمَّا سارايُ امرأتُك؛ فلا يُدعىٰ اسمُها ساراي، ولكن اسمُها سارَةُ، وأبارِكُ عليها، وأُعطيك منها ابنًا، وأبارِكُه، ويكونُ الشعوبُ وملوكُ الشعوبِ منه. فخرَّ إبراهيمُ علىٰ وجهِهِ (يعني: ساجدًا)، وضحِكَ قائلًا في نفسِهِ: أبعد مئة سنةٍ يولَدُ لي غلامٌ؟! أو سارةُ تلدُ وقد أتت عليها تسعون سنةً؟!

وقال إبراهيمُ لله تعالىٰ: ليت إسماعيلَ يَعيشُ قدَّامَكَ! فقال اللهُ لإبراهيمَ: بحقٍّ إنَّ امرأتَك

---

(١) في (سفر التكوين/ الأصحاح ١٧)، وفيه أن اسم إبراهيم وسارة عليهما السلام كان قبل البشرىٰ أبرام وساراي، ثم أضيفت الهاء تكرمة ورفعة.

سارةُ تَلِدُ لك غلامًا وتدعو اسمَه إسحاقَ إلىٰ مثل هٰذا الحينِ من قابل، وأُوثِقُهُ ميثاقي إلىٰ الدهرِ ولِخَلَفِهِ من بعده، وقد استجبتُ لك في إسماعيلَ وباركتُ عليه وكَثَّرتُهُ ونمَّيْتُهُ جدًّا كثيرًا، ويولد له اثنا عشر عظيمًا، وأجعلُهُ رئيسًا لشعبٍ عظيم. وقد تكلمْنا علىٰ هٰذا بما تقدَّم. والله أعلم.

فقوله تعالىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٧١]: دليلٌ علىٰ أنَّها تستمتع بوجودِ ولدِها إسحاق، ثم من بعدِهِ يولَدُ ولدُهُ يعقوبُ؛ أي: يولَدُ في حياتِهما لِتَقَرَّ أعينُهُما به كما قَرَّتْ بوالدِهِ[1]، ولو لم يُرِدْ هٰذا؛ لم يَكُنْ لِذِكْرِ يعقوبَ وتخصيص التَّنْصيص عليه من دونِ سائرِ نَسْلِ إسحاقَ فائدةٌ، ولمَّا عُيِّنَ بالذِّكْرِ؛ دلَّ علىٰ أنَّهما يتمتعَّانِ به ويُسَرَّان بولدِهِ كما سُرَّا بمولِد أبيه من قبلِهِ.

وقال تعالىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ﴾ [الأنعام: ٨٤].

وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٤٩].

وهٰذا إن شاءَ ظاهرٌ قويٌّ، ويؤيِّدُه ما ثَبَتَ في الصحيحين[2] من حديث: سليمانَ بن مِهْرانَ الأعمشِ، عن إبراهيمَ بن يزيدَ التيميِّ، عن أبيه، عن أبي ذَرٍّ؛ قال: قلتُ: يا رسولَ الله! أيُّ مسجدٍ وُضِعَ أولُ؟ قال: «**المسجدُ الحرامُ**». قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «**المسجدُ الأقصى**». قلت: كم بينَهما؟ قال: «**أربعونَ سنةً**». قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: «**ثم حديثُ أدركتَ الصَّلاةَ؛ فصلِّ؛ فكلُّها مسجدٌ**».

وعندَ أهلِ الكتابِ[3]: أنَّ يعقوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذي أسَّس المسجدَ الأقصىٰ، وهو مسجدُ إيليا بيتِ المقدس شرَّفه الله. وهٰذا متَّجهٌ، ويشهدُ له ما ذكرناه من الحديث.

فعلىٰ هٰذا يكون بناءُ يعقوبَ (وهو إسرائيلُ) عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد بناءِ الخليل وابنِهِ إسماعيلَ المسجدَ الحرامَ بأربعين سنةً سواءً، وقد كان بناؤُهُما ذٰلك بعد وجودِ إسحاقَ؛ لأنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لمَّا دعا؛ قال في دعائِهِ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ

(١) في جميع الأصول: «بولده»! ولا يستوي الكلام إلا بما أثبتناه.

(٢) البخاري (٦٠-الأنبياء، ١٠- باب، ٦/ ٤٠٧/ ٣٣٦٦)، ومسلم (٥ - المساجد، ١/ ٣٧٠/ ٥٢٠).

(٣) في (سفر التكوين/ الأصحاح ٢٨ و٣٥).

أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥-٤١].

وما جاء في الحديثِ من أنَّ سليمانَ بن داوودَ عليهما السلام لما بني بيتَ المقدس؛ سألَ اللهَ خِلالًا ثلاثًا؛ كما ذكرناه عند قولِهِ: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص: ٣٥][1]، وكما سنورِدُه في قصتِهِ[2]؛ فالمرادُ من ذٰلك -والله أعلم- أنَّه جدَّد بناءَه؛ لما[3] تقدَّم من أنَّ بينَهما أربعينَ سنةً، ولم يقل أحدٌ: إنَّ بين سليمانَ وإبراهيمَ أربعين سنةً؛ سوىٰ ابن حِبَّانَ في «تقاسيمِهِ وأنواعِهِ»! وهٰذا القولُ لمْ يُوافَقْ عليهِ ولا سُبِقَ إليه.

۞ ذكر بناية البيت العتيق:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: ٢٦-٢٧][4].

وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧].

وقال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ

---

(١) يعني في «التفسير» (٤/ ٣٤).

(٢) انظرها في (ص٥٦١).

(٣) في جميع الأصول: «كما»! وما أثبته أولىٰ.

(٤) الضامر: الإبل والخيل وغيرها مما يركب.

وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٤ - ١٢٩][1].

يَذْكُرُ تعالىٰ عن عبدِهِ ورسولِهِ وصِفِيِّه وخليلِهِ إمام الحنفاء ووالدِ الأنبياءِ إبراهيم عليه أفضل صلاةٍ وتسليم أنَّه بنىٰ البيتَ العتيقَ -الذي هو أولُ مسجدٍ وُضِعَ لعموم الناس يعبدونَ الله فيه- وبوَّأه اللهُ مكانه؛ أي: أرشدَه إليه ودلَّه عليه. وقد رُوِّينا عن أميرِ المؤمنين عليِّ بن أبي طالب وغيره: أنَّه أُرْشِدَ إليه بوحي من الله ﷻ.

وقد ذَكَرْنا في صفةِ خَلْقِ السماواتِ[2] أنَّ الكعبةَ بحيال البيتَ المعمور؛ بحيثُ إنه لو سَقَطَ؛ لَسَقَطَ عليها، وكذٰلك معابدُ السماوات السبع؛ كما قال بعضُ السلفِ: إنَّ في كلِّ سماءٍ بيتًا يَعْبُدُ اللهَ فيه أهلُ كلِّ سماء وهو فيها كالكعبةِ لأهل الأرض.

فأمر اللهُ تعالىٰ إبراهيم عليه السلام أن يَبْنِيَ له بيتًا يكونُ لأهل الأرض كتلكَ المعابدِ لملائكة السماواتِ، وأرشَدَه الله إلىٰ مكانِ البيت المُهَيَّإِ له المعيَّنِ لذٰلك منذ خَلَقِ السماواتِ والأرضِ؛ كما ثبت في الصحيحين[3]: «**إنَّ هٰذا البلدَ حَرَّمَهُ اللهُ يومَ خَلَقَ السماواتِ والأرضَ؛ فهو حرامٌ بحرمةِ اللهِ إلى يوم القيامةِ**».

ولم يجئْ في خبرٍ صحيح عن [الـ] معصوم أنَّ البيتَ كان مبنيًّا قبل الخليل عليه السلام، ومن تمسَّك في هٰذا بقولِهِ: ﴿مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]؛ فليس بناهضٍ ولا ظاهرٍ؛ لأنَّ المرادَ مكانُه المقدَّرُ في علم الله، المقرَّر في قَدَرِه، المعظَّم عند الأنبياءِ موضعُهُ، مِن لَدُن آدمَ إلىٰ زمانِ إبراهيمَ. وقد ذَكَرْنا[4] أنَّ آدمَ نَصَبَ عليه قُبَّةً، وأنَّ الملائكةَ قالوا له: قد طُفْنا قبلَكَ بهٰذا البيت،

---

(١) مثابة: مجمعًا يأتون إليه من كافة البلدان. عهدنا: أمرنا.

(٢) في «البداية والنهاية» (١/ ٧٦).

(٣) رواه: البخاري (٢٨- جزاء الصيد، ١٠- لا يحل القتال بمكة، ٤/ ٤٦/ ١٨٣٤)، ومسلم (١٥- الحج، ٨٢- تحريم مكة، ٢/ ٩٨٦/ ١٣٥٣)؛ عن ابن عباس.

(٤) تقدم هٰذا في قصتي آدم ونوح عليهما السلام.

وأنَّ السفينةَ طافتْ به أربعينَ يومًا أو نحو ذٰلك، ولٰكنْ كلُّ هٰذه الأخبار عن بني إسرائيل، وقد قرَّرْنا أنَّها لا تُصدَّقُ ولا تكذَّبُ؛ فلا يُحتجُّ بها، فأما إن ردَّها الحقُّ؛ فهي مردودةٌ.

وقد قالَ الله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: ٩٦]؛ أي: أول بيتٍ وُضِع لعموم الناس للبركةِ والهُدىٰ البيتُ الذي بِبَكَّةَ: قيلَ: مكَّةُ، وقيل: محلُّ الكعبةِ. ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٩٦]؛ أي: علىٰ أنَّه بناءُ الخليل؛ والدِ الأنبياء من بعدِهِ، وإمامِ الحُنَفاءِ من ولدِهِ، الذين يقتدونَ به ويتمسَّكونَ بسُنَنِهِ. ولهٰذا قال: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بـ[آل عمران: ٩٦]؛ أي: الحجر الذي كان يَقِفُ عليه قائمًا لمَّا ارتفعَ البناءُ عن قامتِهِ، فوَضَعَ له ولدُهُ هٰذا الحجرَ المشهورَ؛ ليرتَفع عليه لما تعالىٰ البناءُ وعَظُم الفِناءُ؛ كما تقدَّمَ[1] في حديثِ ابن عباس الطويل. وقد كان هٰذا الحجرُ ملصقًا بحائطِ الكعبةِ علىٰ ما كان عليه من قديم الزمَّانِ إلىٰ أيام عمرَ بنِ الخطابِ ﵁، فأخَّره عن البيتِ قليلًا؛ لئلَّا يَشْغَلَ المصلِّينَ عندَه الطائفينَ بالبيت، واتُّبعَ عمر بن الخطاب ﵁ في هٰذا؛ فإنَّه قد وافقَهُ ربُّه في أشياءَ، منها قولُه لرسولِهِ ﷺ: لو اتَّخذْنا من مقام إبراهيمَ مصلًّىٰ! فأنزل اللهُ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥][2]. وقد كانت آثار قدمي الخليل باقيةً في الصخرةِ إلىٰ أول الإسلام. وقد قال أبو طالبٍ في قصيدتِهِ اللَّاميَّةِ المشهورةِ:

وَثَــوْرٍ وَمَــنْ أَرْسَــى ثَـبِـيـرًا مَكانَـهُ ... وراقٍ لِـبِـرٍّ في حِـراءٍ ونـازِلِ
وَبالبَيْتِ حَقِّ البَيْتِ مِنْ بَطْنِ مَكَّةٍ ... وبِـاللهِ إنَّ اللهَ لَـيْـسَ بِـغـافِـلِ
وَبالحَجَرِ المُسْوَدِّ إِذْ يَمْسَحونَهُ ... إذا اكْتَنَفوهُ بِالضُّحى والأصائِلِ
وَمَوْطِئِ إبراهيمَ في الصَّخْرِ رَطْبَةً ... على قَدَمَيْهِ حافِيًا غَيْرَ ناعِلِ

يعني: أنَّ رجلَه الكريمةَ غاصت في الصخرةِ؛ فصارت علىٰ قَدْرِ قَدَمِهِ حافيةً لا منتعلةً.

ولهٰذا قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]؛ أي: في حال قولِهما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧]؛ فهما في غايةِ الإخلاص والطاعةِ لله ﷻ وهما يسألانِ من اللهِ السميع العليم أن يَتَقَبَّلَ منهُما ما هما فيه من الطاعةِ

(١) انظره في (ص١٩٢ - ١٩٥).

(٢) رواه البخاري (٨- الصلاة، ٣٢- ما جاء في القبلة، ١/ ٥٠٤/ ٤٠٢).

العظيمةِ والسعي المشكور. ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾ [البقرة: ١٢٧- ١٢٨].

والمقصودُ: أنَّ الخليل بنىٰ أشرفَ المساجدِ في أشرفِ البقاع في وادٍ غير ذي زَرْع.

ودعا لأهلِها بالبركةِ، وأنْ يُرْزَقوا من الثمراتِ مع قِلَّةِ المياهِ وعدم الأشجارِ والزُّروعِ والثِّمارِ، وأنْ يَجْعَلَهُ حرمًا محرَّمًا وآمنًا محتَّمًا. فاستجابَ الله -وله الحمدُ- له مسألتَهُ، ولبَّىٰ دعوتَه؛ وآتاه طَلِبَتَهُ، فقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

وسألَ اللهَ أن يَبْعَثَ فيهم رسولًا منهم؛ أي: من جنسِهم، وعلىٰ لغتِهم الفصيحةِ البليغةِ النصيحةِ؛ لِتَتِمَّ عليهم النعمتانِ الدُّنيويَّةُ والدِّينيَّةُ؛ سعادةُ الأولىٰ والأخرىٰ. وقد استجابَ اللهُ له، فَبَعَثَ فيهم رسولًا -وأيَّ رسولٍ- خَتَمَ به أنبياءَهُ ورُسُلَهُ، وأكملَ له من الدِّين ما لم يؤتِ أحدًا قبلَه، وعمَّ بدعوتِهِ أهل الأرضِ علىٰ اختلافِ أجناسِهم ولغاتِهم وصفاتِهم، في سائر الأقطارِ والأمصارِ والأعصارِ إلىٰ يوم القيامةِ، وكان هٰذا من خصائصِهِ من بين سائرِ الأنبياءِ؛ لشرفِهِ في نفسِهِ، وكمال ما أُرْسِلَ به، وشرف بقعتِهِ، وفصاحةِ لغتِهِ، وكمال شفقتِهِ علىٰ أمتِهِ ولطفِهِ ورحمتِهِ، وكريم مَحْتِدِهِ وعظيم مولدِهِ، وطيب مصدرِهِ وموردِهِ.

ولهٰذا استحقَّ إبراهيمُ الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ -إذْ كان بانيَ الكعبةِ لأهل الأرض- أنْ يكونَ مَنْصِبُهُ ومحلُّه وموضِعُه في منازل السماواتِ ورفيع الدرجاتِ عند البيتِ المعمور، الذي هو كعبةُ أهل السماءِ السابعةِ المباركِ المبرورِ، الذي يدخُلُه كلَّ يوم سبعونَ ألفًا من الملائكةِ يتعبَّدونَ فيه ثم لا يعودونَ إليه إلىٰ يوم البعثِ والنُّشور.

وقد ذَكَرْنا في «التفسير» من سورة البقرة صفةَ بنائِهِ للبيت، وما وردَ في ذٰلك من الأخبارِ والآثارِ بما فيه كفايةٌ؛ فمن أرادَ؛ فليراجِعْه ثَمَّ. ولله الحمد.

فمن ذٰلك ما قال السُّدِّيُّ: لمَّا أَمَرَ اللهُ إبراهيمَ وإسماعيلَ أن يَبْنِيا البيتَ؛ لم يَدْرِيا أين مكانُه، حتىٰ بَعَثَ اللهُ ريحًا يُقالُ لها: الخَجوجُ، لها جناحانِ ورأسٌ في صورةِ حَيَّةٍ، فَكَنَسَتْ لَهُما ما حولَ الكعبةِ عن أساس البيتِ الأوَّلِ، واتَّبَعاها بالمعاول يحفِران حتىٰ وَضَعا الأساسَ،

وذٰلك حين يقولُ تعالىٰ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]. فلمَّا بلغا القواعِدِ وبنيا الرُّكْنَ؛ قال إبراهيمُ لإسماعيلَ: يا بنيَّ! اطلبْ لي حَجَرًا حسنًا أضعُهُ هاهنا. قال: يا أبت! إني كسلانُ تَعِبٌ. قال: علىٰ ذٰلك؛ فانْطَلِقْ. وجاءهُ جبريلُ بالحجرِ الأسودِ من الهندِ، وكان أبيضَ ياقوتةً بيضاءَ مثلَ الثَّغامةِ[١]، وكان آدمُ هَبَطَ به من الجنةِ فاسودَّ من خَطايا الناس، فجاءَهُ إسماعيلُ بِحَجَرٍ، فوجدَه عند الرُّكنِ، فقال: يا أبت! من جاءكَ بهٰذا؟ قال: جاء به مَن هو أنشطُ منكَ. فَبَنَيَا وهما يدعوانِ اللهَ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧].

وذَكَرَ ابنُ أبي حاتم[٢]: أنَّه بَناه من خمسةِ أجْبُل، وأنَّ ذا القرنينِ - وكان مَلِكَ الأرضِ إذ ذاك- مرَّ بِهِما وهما يبنيانِهِ، فقال: مَن أمَرَكُما بهٰذا؟ فقال إبراهيمُ: اللهُ أمَرَنا به. فقالَ: وما يُدْريني بما تقولُ؟ فشَهِدَتْ خمسةُ أكْبُشٍ أنَّه أمَرَهُ بذٰلك، فآمنَ وصدَّقَ.

وذكر الأزرقيُّ[٣] أنَّه طافَ مع الخليل بالبيتِ.

وقد كانتِ الكعبةُ علىٰ بناءِ الخليل مدَّةً طويلةً، ثم بعدَ ذٰلك يَنْتَهي قريشٌ فقصَّرَتْ بها عن قواعدِ إبراهيمَ من جهةِ الشَّمال مما يَلي الشامَ علىٰ ما هي عليه اليومَ.

وفي الصحيحين: من حديث مالك، عن ابن شهاب، عن سالم، أنَّ عبد الله بن محمد بن أبي بكر، أخبر ابنَ عمر، عن عائشة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«ألم تَرَيْ أنَّ قَوْمَكِ حين بَنَوا الكعبةَ اقْتَصَروا عن قواعد إبراهيمَ؟»**. فقلتُ: يا رسول الله! ألا تردُّها علىٰ قواعدِ إبراهيم. فقال: **«لو لا حِدْثانُ قَوْمِكِ بالكُفْرِ؛ لفعلتُ»**. وفي روايةٍ: **«لَوْلا أنَّ قومَكِ حديثو عهد بجاهليةٍ (أو قال: بكفرٍ)؛ لأنفقتُ كَنْزَ الكعبةِ في سبيل الله، ولَجَعلت بابَها بالأرضِ، ولأدخلتُ فيها الحِجْرَ»**[٤].

وقد بناها ابنُ الزُّبير رَحِمَهُ اللهُ في أيامه علىٰ ما أشار إليه رسولُ الله ﷺ حسبما أخبرتْه به خالتُهُ عائشةُ أمُّ المؤمنين عنه، فلمَّا قَتَلَهُ الحجَّاجُ في سنةِ ثلاثٍ وسبعينَ؛ كَتَبَ إلىٰ عبدِالملك بن مروان الخليفةِ

---

(١) الثغامة: نبتة لها زهر أبيض. وقد جاء في بعض الأصول: «مثل النعامة»! ولا يصح، وليست النعامة بيضاء عادة، وما كان منها كذٰلك؛ فلونه كدر لا يصلح لهٰذا التشبيه.

(٢) في «التفسير» (١/ ١٢٣١).

(٣) في «تاريخ مكة» (١/ ٧٤)

(٤) رواه: البخاري (٢٥- الحج، ٤٢- فضل مكة، ٣/ ٤٣٩/ ١٥٨٣ - ١٥٨٦)، (١٥- الحج، ٦٩- نقض الكعبة، ٢/ ٩٦٨/ ١٣٣٣).

إذ ذاك، فاعْتَقَدوا أنَّ ابنَ الزُّبير إنَّما صَنَعَ ذٰلك من تلقاءِ نفسِهِ، فأمَرَ بردِّها إلىٰ ما كانتْ عليه، فنَقَضوا الحائط الشاميَّ، أخْرَجوا منها الحِجْرَ، ثم سَدُّوا الحائِطَ ورَدَموا الأحجارَ في جَوْفِ الكعبةِ، فارتفعَ بابُها الشرقيُّ وسدُّوا الغربيَّ بالكلِّية؛ كما هو مشاهدٌ إلىٰ اليوم. ثم لمَّا بَلَغَهُم أنَّ ابن الزُّبير إنَّما فعل هٰذا لما أخبرتْهُ عائشةُ أمُّ المؤمنين؛ نَدِموا علىٰ ما فعلوا، وتأسَّفوا أن لو كانوا تَركوه وما تَولَّىٰ من ذٰلك(١).

ثم لما كان في زمن المهديِّ بن المنصور؛ استشارَ الإمامَ مالكَ بنَ أنس في ردِّها علىٰ الصفةِ التي بناها ابنُ الزُّبير؟ فقال له: إني أخشىٰ أن يتَّخِذَها الملوكُ لُعبةً. يعني: كلَّما جاء مِلكٌ؛ بناها علىٰ الصفةِ التي يريدُ. فاستقرَّ الأمرُ علىٰ ما هو عليه اليومَ(٢).

۞ ذكر ثناء الله ورسوله الكريم على عبده وخليله إبراهيم:

قال الله تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤]: لما وفَّىٰ ما أمره به ربُّه من التكاليف العظيمة؛ جعلَهُ للناس إمامًا يقتدونَ به ويأتمُّون بهَدْيه، وسأل الله أن تكون هٰذه الإمامةُ متَّصلةً بسببه وباقيةً في نسبه وخالدةً في عَقِبه، فأُجيبَ إلىٰ ما سأَل ورام، وسُلِّمَتْ إليه الإمامةُ بزِمام، واستُثْنِيَ من نيلها الظَّالمون، واخْتُصَّ بها من ذُرِيَّتِهِ العلماءُ العاملون.

كما قال تعالىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنعام: ٨٤-٨٧]: فالضميرُ في قولِهِ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾: عائدٌ علىٰ إبراهيم علىٰ المشهور، ولوطٌ؛ وإنْ كان ابنَ أخيه؛ إلَّا أنَّه دَخَلَ في الذُّرِّيَّةِ تَغْليبًا، وهٰذا هو الحامل للقائل الآخر: إنَّ الضميرَ علىٰ نوح؛ كما قدَّمنا في قصتِهِ. والله أعلم.

---

(١) روىٰ هٰذا مسلم في «الصحيح» (الموضع السابق).

(٢) انظر القصة وتعليق الحافظ عليها في «الفتح» (٣/ ٤٤٨).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ...﴾ الآية [الحديد: ٢٦].

فكلُّ كتابٍ أُنزل من السماءِ علىٰ نبيٍّ من الأنبياء بعد إبراهيمَ الخليل؛ فمن ذُرِّيَّتِهِ وشيعتِهِ، وهٰذه خِلْعة سَنِيَّةٌ لا تُضاهىٰ، ومرتبةٌ عَلِيَّةٌ لا تُباهىٰ، وذٰلك أنَّه وُلِدَ له لصلبِهِ وَلَدانِ ذَكَرانِ عظيمان: إسماعيلُ من هاجرَ، ثم إسحاقُ من سارةَ، ووُلِدَ لهٰذا يعقوبُ، وهو إسرائيلُ الذي يُنْسَبُ إليه سائرُ أسباطِهِم، فكانت فيهم النبوَّةُ، وكَثُروا جدًّا بحيث لا يَعْلَمُ عددَهم إلَّا الذي بَعَثَهُم واختصَّهم بالرسالةِ والنبوَّةِ، حتىٰ خُتِموا بعيسىٰ ابن مريمَ من بني إسرائيلَ. وأما إسماعيلُ عَلَيهِ السَّلَامُ؛ فكانت منه العربُ علىٰ اختلاف قبائلها؛ كما سنبيِّنُه فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ، ولم يوجدْ من سُلالته من الأنبياءِ سوىٰ خاتِمِهِم علىٰ الإطلاقِ وسيِّدِهم وفخرِ بني آدمَ في الدُّنيا والآخرة محمدِ بن عبد الله بن عبد المطَّلب بن هاشم القرشيِّ الهاشميِّ المكِّيِّ ثم المدنيِّ صلواتُ الله وسلامه عليه؛ فلم يوجد من هٰذا الفرع الشَّريف والغصنِ المُنيف سوىٰ هٰذه الجوهرةِ الباهرة، والدُّرَّةِ الزاهرة، وواسطةِ العِقْدِ الفاخرة، وهو السيدُ الذي يَفْتَخِرُ به أهلُ الجمع، ويغبِطُه الأوَّلون والآخرون يوم القيامة.

وقد ثبت عنه في «صحيح مسلم»[1] أنَّه قال: «**سَأقومُ مَقامًا يَرْغَبُ إليَّ الْخَلْقُ كلُّهم حتى إبراهيمُ**». فمدح إبراهيمَ أباهُ مِدْحَةً عظيمةً في هٰذا السياق، ودلَّ كلامُهُ علىٰ أنَّه أفضل الخلائقِ بعده عند الخلَّاق، في هٰذه الحياةِ الدُّنيا ويومَ يُكْشَفُ عن ساق.

وقال البخاريُّ: حدثنا عثمان بن أبي شَيْبة، حدثنا جَرير، عن منصور، عن المِنْهال، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس؛ قال: كان رسول الله ﷺ يُعَوِّذُ الحسنَ والحسينَ ويقول: «**إنَّ أباكُما كانَ يُعَوِّذُ بها إسماعيلَ وإسحاقَ: أعوذُ بكلماتِ الله التَّامَّة، من كلِّ شيطانٍ وهامَّة، ومن كلِّ عينٍ لامَّة**»[2]. ورواه أهل «السنن» من حديث منصور... به.

(١) (٦- صلاة المسافرين، ٤٨- القرآن علىٰ سبعة أحرف، ١/ ٥٦١/ ٨٢٠) عن أبيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه: البخاري (٦٠- الأنبياء، ١٠- باب، ٦/ ٤٠٨/ ٣٣٧٠)، وابن ماجه (٣١- الطب، ٣٦- ما عوذ به النبي ﷺ، ٢/ ١١٦٤/ ٣٥٢٥)، وأبو داوود (٣٤- السنة، ١٩- القرآن، ٢/ ٦٤٨/ ٤٧٣٧)، والترمذي (٢٩- الطب، ١٨- باب، ٤/ ٣٩٦/ ٢٠٦٠)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٤/ ٤٥٠/ ٥٦٢٦ - تحفة)؛ كلهم من الوجه المذكور.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢٦٠]: ذكر المفسِّرون لهٰذا السؤال أسبابًا بَسَطْناها في «التفسير» وقرَّرْناها بأتمِّ تقرير.

والحاصلُ أنَّ الله ﷻ أجابه إلىٰ ما سأل، فأمره أن يَعْمِدَ إلىٰ أربعةٍ من الطيورِ -واختلفوا في تعيينها علىٰ أقوالٍ، والمقصودُ حاصلٌ علىٰ كلِّ تقديرٍ-، فأمره أن يمزِّقَ لحومَهن وريشَهنَّ ويخلِطَ ذٰلك بعضَه في بعض، ثم يقسِمَه قسمًا، ويجعلَ علىٰ كلِّ جبل منهنَّ جزءًا، ففعل ما أُمِرَ به، ثم أُمِرَ أن يَدْعُوَهُنَّ بإذنِ ربِّهن، فلما دعاهنَّ؛ جَعَلَ كلُّ عضوٍ يطيرُ إلىٰ صاحبِهِ، وكلُّ ريشةٍ تأتي إلىٰ أختها، حتىٰ اجتمعَ بدنُ كلِّ طائر علىٰ ما كان عليه، وهو ينظرُ إلىٰ قدرةِ الذي يقولُ للشيء: كنْ! فيكونُ، فأتَيْنَ إليه سعيًا؛ ليكون أبينَ له وأوضحَ لمشاهدتِهِ من أن يأتينَ طيرانًا. ويقال: إنَّه أُمِرَ أن يأخذَ رؤوسهنَّ في يدِهِ، فجعلَ كلُّ طائرٍ يأتي فيلقىٰ رأسَه فيتركَّبُ علىٰ جُثَّتِهِ كما كان؛ فلا إلٰه إلا اللهُ.

وقد كان إبراهيمُ ﵇ يعلمُ قُدْرَةَ الله تعالىٰ علىٰ إحياء الموتىٰ علمًا يقينيًّا لا يَحْتَمِلُ النقيضَ، ولكن أحبَّ أن يشاهِدَ ذٰلك عِيانًا، ويترقَّىٰ من علم اليقينِ إلىٰ عين اليقينِ، فأجابَه الله إلىٰ سؤالِه وأعطاه غايةَ مأمولِه.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٨]: يُنْكِرُ تعالىٰ علىٰ أهل الكتاب من اليهود والنَّصارىٰ في دعوىٰ كلٍّ من الفريقينِ كونَ الخليل علىٰ مِلَّتِهم وطريقتِهم، فبرَّأه الله منهم، وبيَّن كثرة جهلِهم وقلَّة عقلِهم في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾؛ أي: فكيف يكونُ علىٰ دينِكم وأنتم إنَّما شُرِعَ لكم ما شُرِعَ بعده بمددٍ متطاولةٍ؟! ولهٰذا قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ...﴾ إلىٰ أن قال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾: فبيَّن أنَّه كان على دينِ الله الحنيف، وهو القصدُ إلى الإخلاصِ، والانحرافُ عمدًا عن الباطل إلى الحقِّ الذي هو مخالفٌ لليهوديَّةِ والنصرانيَّةِ والمشركيَّةِ.

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة: ١٣٠- ١٤١]: فنزَّه الله ﷻ خليلَه عليه السلام عن أن يكون يهوديًّا أو نصرانيًّا، وبيَّن أنه إنَّما كان حنيفًا مسلمًا ولم يَكُنْ من المشركين.

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ [آل عمران: ٦٨]؛ يعني: الذين كانوا على مِلَّتِه من أتباعِهِ في زمانِهِ ومن تَمَسَّكَ بدينِهِ من بعدِهم. ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ﴾ [آل عمران: ٦٨]؛ يعني: محمدًا ﷺ؛ فإنَّ الله شَرَعَ له الدينَ الحنيفَ الذي شَرَعَهُ للخليل، وكمَّله الله تعالى له، وأعطاه ما لم يعطِ نبيًّا ولا رسولًا من قبله.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦١ - ١٦٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٠- ١٣٢].

وقال البخاريُّ: حدثنا إبراهيم بن موسىٰ، حدثنا هشامٌ، عن مَعْمَر، عن أيوبَ، عن عِكرمة، عن ابن عباس: أنَّ النبيَّ ﷺ لما رأىٰ الصُّورَ في البيت؛ لم يدخل حتىٰ أمَرَ بها فمُحِيَتْ، ورأىٰ إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام، فقال: «قَاتَلَهُمُ اللهُ! واللهِ إنِ اسْتَقْسَما بالأزلام قطُّ». لم يخرجه مسلم. وفي بعض ألفاظ البخاري: «قاتلَهُمُ اللهُ! لقد علِموا أنَّ شيخَنا لم يَسْتَقْسِمْ بها قطُّ»(١).

وقوله: ﴿أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]؛ أي: قدوةً إمامًا، داعيًا إلىٰ الخير، يُقتدىٰ به فيه. ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ [النحل: ١٢٠]؛ أي: خاشعًا له في جميع حالاتِهِ وحركاتِهِ وسَكَناته. ﴿حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠]؛ أي: مخلصًا علىٰ بصيرة. ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١]؛ أي: قائمًا بشكر ربِّه بجميع جوارحه من قلبِهِ ولسانِهِ وأعمالِهِ. ﴿اجْتَبَاهُ﴾ [النحل: ١٢١]؛ أي: اختاره الله لنفسِهِ، واصطفاهُ لرسالتِهِ، واتَّخذه خليلًا، وجَمَعَ له بين خيري الدُّنيا والآخرةِ.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥]: يرغِّبُ تعالىٰ في اتِّباع إبراهيمَ عليه السلام؛ لأنَّه كان علىٰ الدِّين القويم والصِّراط المستقيم، وقد قام بجميع ما أمَرَهُ به ربُّه، ومَدَحه تعالىٰ بذٰلك، فقال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧]، ولهٰذا اتَّخذه اللهُ خليلًا، والخُلَّةُ هي غايةُ المحبةِ كما قالَ بعضُهم:

قَدْ تَخَلَّلْتِ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي   وبِذا سُمِّيَ الخَلِيلُ خَلِيلَا

وهكذا نال هٰذه المرتبة(٢) خاتمُ الأنبياء وسيدُ المرسلين محمدٌ صلوات الله وسلامه عليه: كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث جُنْدُب البَجَليِّ وعبد الله بن عمرو وابن مسعود

(١) رواه البخاري (٦٠- الأنبياء، ٨- ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾، ٦/ ٣٨٧/ ٣٣٥٢).

(٢) في نسخة: «المنزلة».

عن رسول الله ﷺ: أنَّه قال: «**أيُّها الناسُ! إنَّ اللهَ اتَّخَذَني خليلًا كما اتَّخَذَ إبراهيمَ خليلًا**»[(١)].

وقال أيضًا في آخر خطبةٍ خَطَبَها: «**أيُّها الناسُ! لو كنتُ متَّخِذًا من أهل الأرضِ خَليلًا؛ لاتَّخَذْتُ أبا بكرٍ خليلًا، ولٰكنَّ صاحِبَكُم خليلُ الله**»[(٢)].

أخرجاه من حديث أبي سعيد. وثبت أيضًا من حديث عبد الله بن الزبير وابن عباس وابن مسعود.

وروىٰ البخاريُّ في «صحيحه»[(٣)]: حدثنا سليمان بن حَرْب، حدثنا شُعبة، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جُبير، عن عمرو بن ميمون؛ قال: إنَّ مُعاذًا لَمَّا قَدِمَ اليمن؛ صَلَّىٰ بهم الصبحَ، فقرأ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥]، فقال رجلٌ من القوم: لقد قَرَّت عينُ أمِّ إبراهيم!

وقال ابن مَرْدَوَيْه: حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم، حدثنا إسمعيل ابن أحمد بن أسيد، حدثنا إبراهيم بن يعقوب الجوزجانيُّ بمكةَ، حدثنا عبد الله الحنفيُّ، حدثنا زَمْعَةُ بن صالح، عن سلمة بن وَهْرامَ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس؛ قال: جلسَ ناسٌ من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونَه، فخرجَ، حتَّىٰ إذا دَنا منهم؛ سمِعَهم يتذاكَرون، فسَمعَ حديثَهم، وإذا بعضُهم يقولُ: عجبًا! إنَّ الله اتَّخذ من خلقه خليلًا؛ فإبراهيم خليله. وقال آخرُ: ماذا بأعجبَ من أنَّ الله كلَّم موسىٰ تكليمًا؟! وقال آخرُ: فعيسىٰ رُوحُ الله وكلمتُهُ. وقال آخرُ: آدمُ اصطفاه الله. فخرج عليهم، فسلَّم، وقال: «**قد سمعتُ كلامَكم وعَجَبَكُم أنَّ إبراهيمَ خليلُ الله وهو كذٰلك، وموسى كليمُهُ وهو كذٰلك، وعيسى رُوحُهُ وكلمتُه وهو كذٰلك، وآدم اصطفاه اللهُ وهو كذٰلك، ألا وإني حبيبُ الله ولا فَخْرَ، ألا وإنِّي أولُ شافع وأوَّلُ مُشَفَّع ولا فخرَ، وأنا أولُ من يُحَرِّكُ حَلْقَةَ باب الجنَّة، فيفتحُهُ اللهُ، فيدخِلُنيها ومعي فقراءُ المؤمنينَ، وأنا أكرمُ الأوَّلينَ والآخِرينَ يومَ**

---

(١) رواه مسلم (٥- المساجد، ٣- النهي عن بناء المساجد علىٰ القبور، ١/ ٣٧٧/ ٥٣٢) من حديث جندب رضي الله عنه. وأما بقية المرويات؛ فأغلبها في الصحيحين أو أحدهما؛ فلا نطيل في التفصيل بتخريجها.

(٢) رواه: البخاري (٦٢- فضائل الصحابة، ٣- سدوا الأبواب كلها، ٧/ ١٢/ ٣٦٥٤)، ومسلم (٤٤- فضائل الصحابة، ١- فضائل أبي بكر، ٤/ ١٨٥٤ / ٢٣٨٢)؛ من حديث أبي سعيد. وأما بقية المرويات؛ فأغلبها في الصحيحين أو أحدهما؛ فلا نطيل في التفصيل بتخريجها.

(٣) (٦٤- المغازي، ٦٠- بعث أبي موسىٰ ومعاذ، ٨/ ٦٥/ ٤٣٤٨).

القيامة ولا فخرَ»[١]. هٰذا حديثٌ غريبٌ من هٰذا الوجه، وله شواهدُ من وجوهٍ أخرَ. والله أعلم.

وروىٰ الحاكم في «مستدركه»[٢] من حديث: قَتادة، عن عِكرمة، عن ابن عباس؛ قال: أتُنْكِرونَ أن تكون الخُلَّةُ لإبراهيم والكلامُ لموسىٰ والرؤيةُ لمحمد؛ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؟!

وقال ابن أبي حاتم[٣]: حدَّثنا أبي، حدَّثنا محمودُ بن خالد السلمي، حدثنا الوليد، عن إسحاق بن يسار؛ قالَ: لما اتَّخَذَ اللهُ إبراهيم خليلًا؛ ألْقىٰ في قلبِهِ الوجَلَ، حتَّىٰ إنْ كان خَفَقانُ قلبِهِ لَيُسْمَعُ من بعدٍ كما يُسْمَعُ خَفَقانُ الطير في الهواء.

وقال عُبيد بن عُمير: كان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يُضَيِّفُ الناسَ، فخرَجَ يومًا يلتمِس إنسانًا يُضَيِّفُهُ، فلم يجد أحدًا يضيِّفُهُ، فرجع إلىٰ دارِهِ، فوجَدَ فيها رجلًا قائمًا، فقال: يا عبد الله! ما أدخلك داري بغيرِ إذني؟ قال: دخلتُها بإذنِ ربِّها. قال: ومن أنت؟ قال: أنا مَلَكُ الموتِ، أرسلَني ربِّي إلىٰ عبدٍ من عبادِهِ، أبشِّرُهُ بأنَّ اللهَ قد اتَّخذه خليلًا. قال: من هُو؟ فواللهِ؛ إن أخبرْتَني به، ثم كان بأقصىٰ البلاد؛ لآتِيَنَّهُ، ثم لا أبرحُ له جارًا حتىٰ يفرِّقَ بينَنا الموتُ. قال: ذٰلك العبدُ أنت. قال: أنا؟! قال: نعم. فَبِمَ اتَّخَذَني ربِّي خليلًا؟ قال: بأنَّكَ تعطي الناسَ ولا تسألُهم. رواه ابن أبي حاتم[٤].

وقد ذَكَرَهُ الله تعالىٰ في القرآن كثيرًا في غير ما موضع بالثناءِ عليه والمدح له، فقيل: إنَّه مذكورٌ في خمسةٍ وثلاثينَ موضعًا، منها خمسةَ عشرَ في البقرة وحدها.

وهو أحدُ أولي العزم الخمسة المنصوص علىٰ أسمائهم تخصيصًا من بين سائرِ الأنبياء في آيتي الأحزاب والشورىٰ، وهما: قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ

---

(١) (ضعيف). رواه: الدرامي (١/ ٢٦)، والترمذي (٥٠- المناقب، ١- فضل النبي ﷺ، ٥/ ٥٨٧/ ٣٦١٦)، وابن مردويه (١/ ٢٥٥- بداية)؛ من طريق زمعة... به.

وهٰذا سند ضعيف من أجل زمعة هٰذا، وقد ضعفه الترمذي فقال: «هٰذا حديث غريب». ووافقه الحافظ ابن كثير كما ترىٰ. وتابعهما الألباني. نعم؛ مفردات الحديث صحيحة من وجوه أخر، أما الحديث بطوله؛ فلا.

(٢) (٢/ ٤٦٩)، وصححه علىٰ شرط البخاري، ووافقه الذهبي. وخالف أكثر الصحابة ابن عباس في مسألة الرؤية هٰذه، والراجح أنه ﷺ لم يَرَ ربَّه، وليس هٰذا محلَّ التفصيل فيها.

(٣) في «التفسير» (٤/ ١٠٧٥/ ٦٠١٥).

(٤) في «التفسير» (٤/ ١٠٧٥/ ٦٠١٦).

وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧]، وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ...﴾ الآية [الشورى: ١٣].

ثم هو أشرفُ أولي العزم بعد محمد ﷺ.

وهو الذي وَجَدَهُ عليه السلام في السماءِ السابعةِ مسنِدًا ظهرَهُ بالبيت المعمورِ الذي يَدْخُلُهُ كلَّ يوم سبعون ألفًا من الملائكةِ ثم لا يَعودون إليه آخر ما عليهم(١). وما وَقَعَ في حديثِ بن أبي نَمِرٍ(٢) عن أنسٍ في حديث الإسراء من أنَّ إبراهيمَ في السادسة وموسىٰ في السابعةِ! فممَّا انْتُقِدَ علىٰ شَريكٍ في هٰذا الحديث(٣). والصحيحُ الأولُ.

ثم مما يدلُّ علىٰ أنَّ إبراهيمَ أفضل من موسىٰ الحديث الذي قال فيه: «**وأخرتُ الثالثةَ ليوم يَرْغَبُ إليَّ الخلقُ كلُّهم حتى إبراهيمُ**»(٤). رواه مسلمٌ من حديث أُبيٍّ بن كعبٍ رضي الله عنه. وهٰذا هو المقامُ المحمودُ الذي أخبرَ عنه صلوات الله وسلامه عليه بقولِهِ: «**أنا سيِّدُ ولدِ آدمَ يومَ القيامةِ ولا فَخْرَ...**»، ثم ذَكَرَ استشفاعَ الناس بآدمَ، ثم بنوح، ثم إبراهيمَ، ثم موسىٰ، ثم عيسىٰ؛ فكلُّهم يَحيدُ عنها، حتىٰ يأتوا محمدًا ﷺ، فيقولُ: «**أنا لها، أنا لها...**» الحديث بتمامه(٥).

وقال البخاريُّ: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا يحيىٰ بن سعيد، حدثنا عبيدالله، حدثني سعيد، عن أبيه، عن أبي هريرة؛ قال: قيل: يا رسولَ الله! من أكرمُ الناس؟ قال: «**أتقاهم**». فقالوا: ليس عن هٰذا نسألُكَ. قال: «**فأكرمُ الناس يوسفُ نبيُّ اللهِ، ابنُ نبيِّ اللهِ، ابنِ نبيِّ اللهِ، ابنِ خليل اللهِ**». قالوا: ليس عن هٰذا نسألُك. قال: «**أفعنْ معادِنِ العربِ تسألونَني؟**». قالوا: نعمْ. قال: «**فخيارُهم في الجاهليةِ خيارُهم في الإسلام إذا فَقِهوا**»(٦).

---

(١) قطعة من حديث الإسراء الطويل الذي تقدم تخريجه (ص٩٠).

(٢) في جميع الأصول: «نمير»! والتصويب من مصادر التخريج.

(٣) رواه: البخاري (٩٧- التوحيد، ٣٧- ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾، ١٣/ ٤٧٨/ ٧٥١)، ومسلم (١- الإيمان، ٧٤- الإسراء بالرسول ﷺ، ١/ ١٤٨/ ١٦٢).

(٤) تقدم تخريجه (ص٢١١).

(٥) قطعة من حديث أبي هريرة الطويل في الشفاعة الذي تقدم (ص١١٠).

(٦) رواه: أحمد (٢/ ٣٣٢ و٤١٦)، والبخاري (٦٠- الأنبياء، ٨- ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾، =

وهكذا رواه البخاريُّ في مواضعَ أخرَ ومسلمٌ والنسائيُّ؛ من طرق عن: يحيىٰ بن سعيد القطَّانِ، عن عبيد الله (وهو ابن عمر العُمَرِيُّ)... به. ثم قال البخاريُّ: قال أبو أسامةَ ومعتمِرٌ: عن عبيدِالله، عن سعيدٍ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ.

قلتُ: وقد أسندَه في موضع آخرَ من حديثِهما وحديث عَبْدَةَ بنِ سليمانَ، والنسائيُّ من حديث محمد بن بشر؛ أربعتُهم عن عبيدالله بن عمرَ، عن سعيد، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ.

وقال[١] أحمدُ: حدثنا محمد بن بِشر، حدثنا محمد بن عمرو، حدثنا أبو سلمة، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ الكريمَ ابنَ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ يوسُفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بن إبراهيمَ خليلِ اللهِ**». تفرَّد به أحمد[٢].

وقال البخاريُّ[٣]: حدَّثنا عبدة وإسحاقُ بن منصور، أخبرنا عبد الصمد، حدثنا عبد الرحمٰن بن عبد الله، عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ؛ قالَ: «**الكريمُ ابنُ الكريمِ ابنِ الكريمِ يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ**».

تفرَّدَ به من طريق عبد الرحمٰن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن ابن عمر... به.

فأمَّا الحديث الذي رواه الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا يحيىٰ، عن سفيان، حدثني مغيرةُ بن النُّعمان، عن سعيدِ بن جُبَيْرٍ، عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ: «**يُحشَرُ الناسُ حُفاةً عُراةً غُرْلًا؛ فأولُ مَن يُكْسى إبراهيمُ** ﷺ. (ثم قرأ) ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]»[٤].

= ٦/ ٣٨٧/ ٢٣٥٣)، ومسلم (٤٣- الفضائل، ٤٤- من فضائل يوسف ﷺ، ٤/ ١٨٤٦/ ٢٣٧٨). والنسائي في «الكبرىٰ» (١٢٩٨٧ و١٤٣٠٧-تحفة).

(١) تكررت هٰذه الفقرة بطولها في جميع الأصول؛ فجاءت مرة هنا ومرة بعد قوله: «والصحيح الاول» المتقدم في الصفحة السابقة، والحق أن محلَّها هنا، وأما هناك؛ فحقها الحذف؛ فهي خطأ ووهم من النساخ يقطع تسلسل الكلام، ولذٰلك حذفتها.

(٢) أطال المؤلف رحمه الله الكلام في تخريج هٰذا الحديث، وقصده بيان أن الحديث ورد: مرة عن سعيد عن أبيه عن أبي هريرة، ومرة عن سعيد عن أبي هريرة، ومرة عن أبي سلمة عن أبي هريرة. وكله صحيح.

(٣) (٦٠- الأنبياء، ١٨- ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ و١٩- ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾، ٦/ ٤١٧ و٤١٩/ ٣٣٨٢ و٣٣٩٠). وقد جاء في بعض الأصول من طريق عبدة وحده، وفي بعضها من طريق إسحاق بن منصور وحده، والصواب جمعهما. والله أعلم.

(٤) رواه: أحمد (١/ ٢٢٣ و٢٢٩)، والبخاري (٦٠- الأنبياء، ٨- ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ١٢٥﴾، ٦/ ٣٨٦/ ٣٣٤٩)، ومسلم (٥١- الجنة، ١٤- فناء الدنيا، ٤/ ٢١٩٣/ ٢٨٦٠).

فأخرجاه في الصحيحين من حديث سفيانَ الثوريِّ وشعبةَ بن الحجَّاج، كلاهما عن مغيرة بن النعمان النَّخَعي الكوفي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس... به.

وهٰذه الفضيلةُ المعيَّنة لا تقتضي الأفضليَّة بالنسبةِ إلىٰ ما قابَلَها ممَّا ثَبَتَ لصاحبِ المقام المحمودِ الذي يَغْبِطُهُ به الأولون والآخِرونَ.

وأمَّا الحديثُ الآخرُ الذي قال الإمام أحمدُ: حدثنا وكيعٌ وأبو نُعيم، حدثنا سُفيان (هو الثوريُّ)، عن مُختار بن فُلْفُل، عن أنس بن مالك؛ قال: قال رجل للنبيِّ ﷺ: يا خيرَ البريَّةِ! فقال: «**ذاك إبراهيمُ**»[(١)]؛ فقد رواه مسلمٌ من حديث الثوريِّ وعبد الله بن إدريس وعلي بن مُسْهِر ومحمد بن فُضيل؛ أربعتهم عن المختار بن فلفل.

وهٰذا من باب الهضم والتواضع مع والده الخليل عليه السلام؛ كما قال: «**لا تُفَضِّلوني على الأنبياء (وقال: لا تُفَضِّلوني على موسى)؛ فإن الناسَ يُصْعَقونَ يومَ القيامةِ، فأكونُ أولَ من يفيقُ، فأجدُ موسى باطشًا بقائمةِ العرشِ؛ فلا أدري أفاقَ قبلي أم جُوزي بصَعْقَةِ الطورِ؟**»[(٢)].

وهٰذا كلُّه لا ينافي ما ثَبَتَ بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه من أنَّه سيِّد ولد آدم يوم القيامة[(٣)]، وكذٰلك حديث أبيّ بن كعب في «صحيح مسلم»: «**وأخَّرْتُ الثَّالِثَةَ ليوم يَرْغَبُ إليَّ الخَلْقُ كلُّهم حتى إبراهيمُ**»[(٤)].

ولما كان إبراهيمُ عليه السلام أفضلَ الرُّسل وأولي العزم بعد محمدٍ صلواتُ الله وسلامه عليهم أجمعين؛ أَمَرَ المصلِّيَ أن يقولَ في تشهُّدِهِ ما ثبت في الصحيحين من حديث كَعْب بن عُجْرة وغيرِهِ؛ قال: قلْنا: يا رسول الله! هٰذا السلامُ عليك قد عَرَفْناهُ؛ فكيفَ الصلاةُ عليك؟ قال: «**قولوا: اللهمَّ! صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ كما صَلَّيْتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيمَ؛ إنك حميدٌ مجيدٌ، وباركْ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ كما باركْتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم؛ إنك حميدٌ مجيدٌ**»[(٥)].

(١) رواه: أحمد (٣/ ١٧٨ و١٨٤)، ومسلم (٤٣- الفضائل، ٤- من فضائل إبراهيم ﷺ، ٤/ ١٨٣٩/ ٢٣٦٩).

(٢) سيأتي تخريجه (ص ٣٣٥ و٤١٥) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد.

(٣) قطعة من حديث أبي هريرة الطويل في الشفاعة الذي تقدم تخريجه (ص ١١٠).

(٤) تقدم تخريجه (ص٢١١).

(٥) رواه: البخاري (٦٠- الأنبياء، ١٠ - باب، ٦/ ٤٠٨/ ٣٣٧٠)، ومسلم (٤- الصلاة، ٧- الصلاة علىٰ النبي ﷺ، ١/ ٣٠٥/ ٤٠٦).

وقال الله تعالىٰ: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النجم: ٣٧]؛ قالوا: وفَّىٰ جميع ما أُمِر به، وقام بجميع خِصال الإيمان وشُعَبِهِ، وكان لا يَشْغَلُه مراعاةُ الأمر الجليل عن القيام بمصلحةِ الأمر القليل، ولا يُنسيه القيامُ بأعباءِ المصالح الكبارِ عن الصغارِ.

قال عبد الرزاق: أنبأنا معمرٌ، عن ابن طاووس، عن أبيه، عن ابن عباس؛ في قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٢٤]؛ قال: ابتلاه الله بالطهارةِ؛ خمسٌ في الرأس، وخمسٌ في الجسد: في الرأس: قصُّ الشاربِ، والمضمضةُ، والسواكُ، والاستنشاقُ، وفرقُ الرأس. وفي الجسد: تقليمُ الأظفارِ، وحلقُ العانةِ، والختانُ، ونتفُ الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء[1]. رواه ابن أبي حاتم، وقال: ورُوِيَ عن سعيد بن المسيَّب ومجاهدٍ والشعبيِّ والنخعيِّ وأبي صالح وأبي الجلد نحو ذٰلك.

قلت: وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ؛ قال: «**الفطرةُ خمسٌ: الخِتانُ، والاستحدادُ، وقصُّ الشاربِ، وتقليمُ الأظفارِ، ونتفُ الإبط**»[2].

وفي «صحيح مسلم» وأهل «السنن» من حديث: وكيع، عن زكريا بن أبي زائدة، عن مصعب بن شَيْبَةَ العبدريِّ المكيِّ الحَجَبِيِّ، عن طَلْق بن حبيب العَنَزِي، عن عبد الله بن الزبير، عن عائشة؛ قالت: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**عَشْرٌ من الفِطرةِ: قصُّ الشاربِ، وإعفاءُ اللحيةِ، والسواكُ، واستنشاقُ الماءِ، وقصُّ الأظفارِ، وغسلُ البراجم، ونتفُ الإبطِ، وحلقُ العانةِ، وانتقاصُ الماء (يعني: الاستنجاءَ)**»[3].

وسيأتي في ذِكْرِ مقدار عُمُرِهِ الكلامُ علىٰ الختان.

والمقصودُ: أنَّه عليه السلام كان لا يَشْغَلُهُ القيامُ بالإخلاصِ لله عز وجل وخشوع العبادةِ العظيمةِ عن

(١) رواه: عبد الرزاق في «التفسير» (١/ ٧٦/ ١١٦)، وابن جرير (١/ ٥٧٢/ ١٩١٢)، وابن أبي حاتم (١ذ/ ٢١٩/ ١١٦٥)، والحاكم (٢/ ٢٦٦) وصححه علىٰ شرطهما ووافقه الذهبي.

(٢) رواه: البخاري (٧٧- اللباس، ٦٣- قص الشارب، ١٠/ ٣٣٤/ ٥٨٨٩)، ومسلم (٢- الطهارة، ١٦- خصال الفطرة، ١/ ٢٢١/ ٢٥٧).

(٣) رواه: مسلم (٢- الإيمان، ١٦- خصال الفطرة، ١/ ٢٢٣/ ٢٦١)، وابن ماجه (١- الطهارة، ٨- الفطرة، ١/ ١٠٧/ ٢٩٣)، وأبو داوود (١- الطهارة، ٢٩- السواك من الفطرة، ١/ ٦١/ ٥٣)، والترمذي (٤٤- الأدب، ١٤ - تقليم الأظفار، ٥/ ٩١/ ٢٧٥٧)، والنسائي (٤٨- الزينة، ١- الفطرة، ٨/ ١٢٦/ ٥٠٥٥).

مراعاةِ مصلحةِ بدنِهِ وإعطاءِ كلِّ عضوٍ ما يستحقُّه من الإصلاح والتحسينِ وإزالةِ ما يَشينُ من زيادةِ شعرٍ أو ظفرٍ أو وجودِ قَلَحٍ أو وَسَخ.

فهٰذا من جملة قولِهِ تعالىٰ في حقِّه من المدح العظيم: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ٣٧﴾ [النجم: ٣٧].

۞ ذكر قصره في الجنة:

قال الحافظُ أبو بكر البزَّارُ: حدثنا أحمدُ بن سنانٍ القطَّانُ الواسطيُّ ومحمد بن موسىٰ القطان؛ قالا: حدثنا يزيدُ بن هارون، حدثنا حمادُ بن سَلَمة، عن سِماكٍ، عن عِكْرمة، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ في الجنةِ قَصْرًا (أحسِبُهُ قال: من لؤلؤةٍ)، ليس فيه فصمٌ ولا وَهْيٌ، أعدَّه الله لخليلِهِ إبراهيم عليه السلام نُزُلًا**»[(١)].

قال البزَّارُ: وحدثنا أحمد بن جميل المروزيُّ، حدثنا النضرُ بن شُمَيْل، حدثنا حمَّادُ بن سَلَمة، عن سِماكٍ، عن عِكْرمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ... بنحوه.

ثم قال: وهٰذا الحديث لا نعلم رواه عن حمادِ بن سَلَمَة فأسنده؛ إلَّا يزيدَ بن هارون والنَّضْر بن شُمَيْل، وغيرُهما يرويه موقوفًا.

قلتُ: لولا هٰذه العلة؛ لكان علىٰ شرطِ الصحيح، ولم يخرِّجوه.

۞ ذكر صفة إبراهيم عليه السلام:

قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا يونس وحُجَيْن؛ قالا: حدثنا الليثُ، عن أبي الزبير، عن جابر، عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «**عُرِضَ عليَّ الأنبياءُ؛ فإذا موسى ضَرْبٌ من الرجال كأنَّه من رجال شَنوءةَ، ورأيتُ عيسى بنَ مريمَ؛ فإذا أقربُ مَنْ رأيتُ به شَبَهًا عروةُ بنُ مسعودٍ، ورأيتُ إبراهيمَ [عليه السلام؛ فإذا أقربُ مَنْ رأيتُ به شَبَهًا صاحِبُكم (يعني: نفسه ﷺ)، ورأيتُ جبريلَ عليه السلام]؛ فإذا أقربُ من رأيتُ به شَبَهًا دِحْيَةُ**»[(٢)]. تفرَّد به الإمام أحمد من هٰذا الوجه وبهٰذا اللفظ.

---

(١) (ضعيف). رواه: البزار (٢/ ٢٦٣/ ١٨٣٨ و١٨٣٩ - مختصر الزوائد)، والطبراني في «الأوسط» (٧/ ٢٧٩/ ٦٥٣٩ و٩/ ٥٣/ ٨١١٠)، وابن عساكر في «التاريخ» (٦/ ٢٤٧)؛ من طريقين عن حماد بن سلمة... به.

قال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٠٤): «رواه الطبراني في «الأوسط» والبزار، ورجالهما رجال الصحيح». **قلت:** بل هو ضعيف له علتان: **فأولهما:** أن رواية سماك عن عكرمة مضطربة، ثم هي ليست علىٰ شرط مسلم. **والثانية:** ما ذكره البزار وتابعه عليه الطبراني من الاختلاف في رفعه ووقفه، ولعل هٰذا من الاضطراب الذي تقدم.

(٢) رواه: أحمد (٣/ ٣٣٤)، ومسلم (١- الإيمان، ٧٤- الإسراء، ١/ ١٥٣/ ١٦٧).

وقال أحمدُ: حدثنا أسودُ بن عامر، حدثنا إسرائيل، عن عثمان (يعني: ابن المغيرة)، عن مجاهدٍ، عن ابن عباس؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«رأيتُ عيسى بن مريم وموسى وإبراهيمَ: فأمَّا عيسى؛ فأحمرُ جَعْدٌ عريضُ الصدر، وأما موسى؛ فآدَمُ جسيمٌ». قالوا لهُ: فإبراهيمُ؟ قال: «انظُروا إلى صاحِبِكم (يعني: نفسه)»**[(١)].

وقال البخاريُّ: حدثنا بَيانُ بن عمرو، حدثنا النَّضْر، أخبرنا ابن عون، عن مجاهد، أنه سمع ابن عباس؛ وذَكَروا له الدَّجَّال، وأنه مكتوبٌ بين عينيه كافر أو (ك ف ر)، فقال: لم أسمعه. ولكنه قال ﷺ: **«أمَّا إبراهيمُ؛ فانظُروا إلى صاحِبِكُم، وأمَّا موسى؛ فجعدٌ آدمُ على جملٍ أحمرَ مخطومٍ بخُلْبَةٍ، كأنِّي أنظرُ إليه انحدرَ في الوادي»**.

ورواه البخاريُّ أيضًا ومسلمٌ، عن محمد بن المثنىٰ، عن ابن أبي عديٍّ، عن عبد الله بن عونٍ... به. وهكذا رواه البخاريُّ أيضًا في كتاب الحج وفي اللباس، ومسلم؛ جميعًا عن محمد بن المثنىٰ، عن ابن أبي عديٍّ، عن عبد الله بن عون... به.

۞ ذكر وفاة إبراهيم الخليل وما قيل في عمره:

ذكر ابن جرير في «تاريخه»[(٢)]: أنَّ مولِدَه كان في زمن النِّمرودِ بن كَنْعان. وهو -فيما قيل- الضحَّاكُ الملكُ المشهور، الذي يُقال: إنه مَلَكَ ألفَ سنةٍ، وكان في غاية الغَشْم والظلم. وذكر بعضُهم أنَّه من بني راسب[(٣)]، الذين بُعِثَ إليهم نوحٌ عليه السلام، وأنه كان إذ ذاك مَلِكَ الدنيا. وذكروا أنه طَلَعَ نجمٌ أخفىٰ ضوءَ الشمس والقمرِ، فهال ذٰلك أهلَ ذٰلك الزمانِ، وفَزِعَ النِّمرودُ، فجمع الكَهَنَةَ والمنجِّمين، وسألَهم عن ذٰلك؟ فقالوا: يولَدُ مولودٌ في رعيَّتِك يكون زوال مُلْكِكَ علىٰ يديهِ. فأمر عند ذٰلك بمنع الرِّجال عن النساءِ، وأن يُقْتَلَ المولودونَ من ذٰلك الحين، فكان مولدُ إبراهيمَ الخليل في ذٰلك الحين، فحماه اللهُ عز وجل وصانَه من كيدِ الفُجَّار، وشبَّ شبابًا باهرًا، وأنبتَهُ الله نباتًا حسنًا حتىٰ كان من أمرِهِ ما تقدَّم.

---

(١) رواه: أحمد (١/ ٢٤٥ و٢٥٩ و٢٧٧ و٢٩٦)، والبخاري (٦٠- الأنبياء، ٨- ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ۝١٢٥﴾، ٦/ ٣٨٨/ ٣٣٥٥)، ومسلم (١-الإيمان، ٧٤- الإسراء، ١/ ١٥٢/ ١٦٦). وله عندهما أسانيد أخرىٰ في مواضع أخرىٰ.

(٢) (١/ ١٤٢).

(٣) ذكرنا في (ص١٠١) أن «بنو راسب» تحريف، وصوابه «بيوراسب».

وكان مولده بالسوس، **وقيل**: ببابل، **وقيل**: بالسواد من ناحية كوثىٰ، وتقدَّم عن ابن عباس أنه وُلِدَ ببرزةَ شرقي دمشق.

فلمَّا أهلك اللهُ نِمْرودَ علىٰ يديهِ؛ هاجر إلىٰ حرَّانَ، ثم إلىٰ أرض الشام، وأقام ببلادِ إيليا كما ذَكَرْنا، ووُلِدَ له إسماعيلُ وإسحاق.

وماتت سارةُ قبله بقريةِ حبرونَ التي في أرضِ كنعانَ ولها من العمر مئةٌ وسبعٌ وعشرون سنةً فيما ذَكَرَ أهلُ الكتاب، فحزِنَ عليها إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ورَثاها رحمها اللهُ، واشترىٰ من رجل من بني حِثَّ، يُقالُ له: عِفْرونُ بنُ صخرٍ، مغارةً بأربعِ مئةِ مثقال، ودَفن فيها سارة هنالك.

قالوا[١]: ثم خَطَبَ إبراهيمُ علىٰ ابنِهِ إسحاقَ، فزوَّجه رِفْقَةَ بنت بَتوئيلَ بن ناحورَ بن تارَحَ، وبَعَثَ مولاه، فحمَلَهَا من بلادِها ومعها مرضعَتَها وجواريها علىٰ الإبل.

قالوا: ثم تزوَّجَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَطُورةَ[٢]، فولدتْ له زِمْرانَ ويَقْشانَ وَمَدانَ ومِدْيانَ ويِشباقَ وشُوحًا، وذَكَروا ما وَلَدَ كلُّ واحدٍ من هؤلاء أولاد قَطورَةَ.

وقد روىٰ ابن عساكر[٣] عن غير واحدٍ من السَّلف عن أخبارِ أهل الكتاب في صفة مجيء مَلَكِ الموتِ إلىٰ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أخبارًا كثيرةً اللهُ أعلمُ بصحَّتِها، وقد قيل: إنَّه مات فجأةً، وكذا داوود وسليمانُ، والذي ذَكَرَهُ أهل الكتاب وغيرُهم خلافُ ذٰلك.

قالوا: ثم مَرِضَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومات عن مئةٍ وخمس وسبعين (وقيل: وتسعين) سنةً، ودُفِنَ في المغارة المذكورة التي كانت بِحَبْرونَ[٤] عند امرأتِهِ سارةَ التي في مزرعةِ عِفْرونَ الحِثِّيِّ، وتولَّىٰ دفنَه إسماعيلُ وإسحاقُ صلوات الله وسلامُه عليهم أجمعين.

وقد وَرَدَ ما يدلُّ علىٰ أنه عاش مئتي سنةٍ؛ كما قالَه ابنُ الكلبيِّ:

فقال أبو حاتم بن حبانَ في «صحيحه»: أنبأنا المفضَّل بن محمد الجَنَدِيُّ بمكةَ، حدثنا علي بن زياد اللَّحَجِيُّ[٥]، حدثنا أبو قُرَّةَ، عن ابن جُريج، عن يحيىٰ بن سعيد، عن سعيد بن

---

(١) يعني: أهل الكتاب، وانظر: (سفر التكوين/ الأصحاح ٢٤ و٢٥).

(٢) في جميع الأصول: «قنطورا»! والتصويب من «العهد القديم».

(٣) في «تاريخه» (٦/ ٢٥٢).

(٤) في جميع الأصول: «بحبرون الحيثي»! ولا معنىٰ لذٰلك.

(٥) في نسخة: «اللخمي»، وفي أخرىٰ: «الحجبي»، والتصويب من مصادر التخريج.

المسيَّبِ، عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: **«اختتنَ إبراهيمُ بالقَدُوم وهو ابنُ عشرين ومئةِ سنةٍ، وعاش بعد ذٰلك ثمانين سنةً»**(١).

وقد رواه الحافظُ ابن عساكِرَ من طريق عِكرمةَ بن إبراهيم وجعفرِ بن عونٍ العُمَرِيِّ، عن يحيىٰ بن سعيدٍ، عن سعيدٍ، عن أبي هريرة... موقوفًا.

ثم قال ابن حبانَ: ذِكْرُ الخبرِ المُدْحِضِ قولَ مَنْ زَعَمَ أنَّ رافع(٢) هٰذا الخبر وَهِمَ: أخبرنا محمدُ بنُ عبدِالله بن الجُنَيْد بِبُسْتَ، حدثنا قُتيبة بنُ سعيد، حدثنا الليثُ، عن ابن عَجْلانَ، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ قال: **«اختتنَ إبراهيمُ حين بَلَغَ عشرين ومئةَ سنةٍ، وعاش بعد ذٰلك ثمانين سنةً، واختتنَ بقَدُوم»**.

وقد رواه الحافظُ ابنُ عساكرَ من طريق يحيىٰ بن سعيد، عن ابن عجلانَ، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ: **«وقد أتت عليه ثمانون سنة»**.

ثم روىٰ ابنُ حبانَ، عن عبد الرزاقِ أنه قال: القَدُومُ اسمُ القريةِ.

قلتُ: الذي في الصحيح أنه اختتن وقد أتت عليه ثمانونَ سنةً، وفي رواية **«وهو ابنُ ثمانينَ سنةً»**. وليس فيهما تعرُّضٌ لما عاش بعد ذٰلك. واللهُ أعلمُ.

وقال محمدُ بن إسماعيلَ الحسَّانيُّ الواسطيُّ: زاد في «تفسير وكيع» عنه فيما ذكره من

---

(١) (شاذ). رواه: ابن حبان (١٤/ ٨٤/ ٦٢٠٤)، والحاكم (٢/ ٥٥٢)، وابن عساكر (٦/ ١٩٨)؛ من طرق عن يحيىٰ بن سعيد... به. فذكره مرفوعًا. وسكت عنه الحاكم، وقال الذهبي: «علىٰ شرط البخاري ومسلم». وقال ابن عساكر: «رفعه علي بن مسهر، وقد خالف عليَّ بن مسهر عكرمةُ بن إبراهيم وجعفرُ بن عون فروياه موقوفًا». قلت: ثم ذكر روايتهما من وجوه. وكذا رواه البخاري في «الأدب» (١٢٥٠) موقوفًا بسند صحيح علىٰ شرط الشيخين.

ورواه ابن حبان (١٤/ ٨٦/ ٦٢٠٥) بالطريق الأخرىٰ. وسنده صحيح علىٰ شرط مسلم. لكن خالفه: أحمد (٢/ ٤٣٥)، وابن عساكر (٦/ ١٩٧)؛ فروياه من طريق يحيىٰ بن سعيد، عن ابن عجلان... به مرفوعًا بلفظ الصحيح الذي ذكره المؤلف بعد.

وعليه؛ فلا تسلم واحدة من هاتين الطريقين من مخالف لها في درجتها أو أقوىٰ منها، زد علىٰ أنهما كلتيهما مخالفتان لرواية: البخاري (٦٠- الأنبياء، ٨- ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ۝١٢٥﴾، ٦/ ٣٨٨/ ٣٣٥٦)، ومسلم (٤٣- الفضائل، ٤١- من فضائل إبراهيم عليه السلام، ٤/ ١٨٣٩/ ٢٣٦٩)؛ التي أشار إليها المصنف بعد؛ فلا غرو أن يعد الألباني في «الضعيفة» (٥/ ١٢٩/ ٢١١٢) رفعها شاذًّا أو منكرًا، ويصححها موقوفة ومقطوعة.

(٢) في جميع الأصول: «رفع». والتصويب من «صحيح ابن حبان».

الزِّياداتِ: حدَّثنا أبو معاويةَ، عن يحيىٰ بن سعيد، عن سعيد بن المسيَّبِ، عن أبي هريرة؛ قال: كان إبراهيمُ أولَ مَن تَسَرْوَلَ، وأولَ مَنْ فَرَقَ، وأولَ من استحدَّ، وأولَ من اختتنَ بالقَدُوم، وهو ابن عشرين ومئةِ سنةٍ، وعاش بعد ذٰلك ثمانين سنةً، وأولَ من قَرَىٰ الضيفَ، وأولَ مَن شابَ[١]. هكذا رواه موقوفًا، وهو أشبهُ بالمرفوع؛ خلافًا لابن حبانَ. والله أعلم.

وقال مالك[٢]: عن يحيىٰ بن سعيد، عن سعيد بن المسيِّبِ؛ قال: كان إبراهيمُ أولَ الناس ضيَّفَ الضيفَ، وأولَ الناس اختتنَ، وأولَ الناس قصَّ الشاربَ، وأولَ الناس رأىٰ الشيبَ. فقال: يا ربِّ! ما هٰذا؟ فقال الله ﷻ: وَقار. فقال: ربِّ! زِدْني وقارًا.

وزاد غيرُهُما[٣]: وأولَ مَنْ قَصَّ شارِبَه، وأولَ مَنِ استَحَدَّ، وأولَ مَنْ لَبِسَ السراويلَ.

فقبرُهُ وقبر ولدِهِ إسحاق وقبرُ ولدِ ولدِهِ يعقوبَ في المربعةِ التي بناها سليمانُ بن داودَ عليه السلام ببلد حَبْرونَ، وهو البلدُ المعروفُ بالخليل اليومَ، وهٰذا متلقًّىٰ بالتواتر أمةً بعد أمةٍ وجيلًا بعد جيل من زمن بني إسرائيل وإلىٰ زماننا هٰذا: أنَّ قبرَهُ بالمربعة تحقيقًا؛ فأما تعيينُه منها؛ فليسَ فيه خبرٌ صحيحُ عن معصوم؛ فينبغي أنْ تُراعىٰ تلك المَحَلَّةُ، وأن تُحْتَرَمَ احترامَ مثلِها، وأن تُبَجَّلَ وأن تُجَلَّ أن يُداسَ في أرجائِها؛ خشيةَ أن يكونَ قبرُ الخليل أو أحدِ أولادِهِ الأنبياءِ عليهم السلام تحتَها.

وروىٰ ابنُ عساكرَ[٤] بسندِهِ إلىٰ وَهْب بن مُنَبِّهٍ؛ قال: وُجِدَ عند قبر إبراهيم الخليل علىٰ حجرٍ كتابةٌ خَلَقَة:

أَلْهَىٰ جَهُولًا أَمَلُهْ ... يَموتُ مَنْ جا أَجَلُهْ
وَمَنْ دَنا مِنْ حَتْفِهِ ... لَمْ تُغْنِ عَنْهُ حِيَلُهْ
وَكَيْفَ يَبْقَىٰ آخرٌ ... قَدْ ماتَ عَنْهُ أَوَّلُهْ
والمَرءُ لا يَصْحَبُهُ ... في القَبْرِ إلَّا عَمَلُهْ

(١) ورواه ابن عساكر في «التاريخ» (٦/ ١٩٩) عنه من وجوه.
(٢) في «الموطأ» (٢/ ٩٢٢).
(٣) انظر: «تاريخ ابن عساكر» (٦/ ١٩٩).
(٤) في «التاريخ» (٦/ ٢٥٨) وصوبت منه التحريفات الكثيرة التي وقعت في جميع الأصول.

ذكر أولاد إبراهيم الخليل:

أولُ مَنْ وُلِدَ له إسماعيلُ من هاجَرَ القِبْطِيَّةِ المصريَّةِ. ثم وُلِدَ له إسحاقُ من سارةَ بنت عمِّ الخليل. ثم تزوَّجَ بعدَها قَطُورةَ بنتَ يقطنَ الكنعانيَّةَ، فولدت له ستةً: مِدْيانَ وزِمْرانَ وشوحًا ويَقْشانَ ويِشْباقَ ولم يسم السادس[1]. ثم تزوَّجَ بعدها حجونَ بنتَ أمين، فولدت له خمسةً؛ كيسانَ وسورجَ وأميمَ ولوطانَ ونافسَ. هكذا ذَكَرَهُ أبو القاسم السُّهيليُّ في كتابه: «التعريف والإعلام».

(١) تقدم في (ص ٢٢٣) أن اسمه مَدانُ.

قصة لوط عليه السلام

وممَّا وَقَعَ في حياة إبراهيمَ الخليل من الأمورِ العظيمة قصةُ قومِ لوط عليه السلام وما حلَّ بهم من النِّقْمَةِ العميمةِ.

[نسبه عليه السلام]:

وذٰلك أنَّ لوطًا ابنُ هارانَ بنِ تارَحَ (وهو آزَرُ كما تقدَّم)، ولوطٌ ابنُ أخي إبراهيم الخليل؛ فإبراهيمُ وهارانُ وناحورُ إخوةٌ كما قدَّمنا، ويقال: إنَّ هاران هٰذا هو الذي بنىٰ حَرَّانَ! وهٰذا ضعيفٌ؛ لمخالفتِهِ ما بأيدي أهل الكتابِ. والله تعالىٰ أعلم.

[القوم الذين أرسل إليهم]:

وكان لوطٌ قد نَزَحَ عن مَحَلَّةِ عمِّه الخليل عليهما السلام بأمرِهِ له وإذنِهِ، فنزل بمدينةِ سَدومَ من أرض غَوْر زَغَرَ. وكانت[1] أمَّ تلكَ المَحَلَّةِ، ولها أرضٌ ومُعْتَمَلاتٌ وقرًىٰ مضافةٌ إليها، ولها أهلٌ من أفجرِ الناس وأكفرِهم وأسوئِهم طَوِيَّةً وأردَئِهم سريرةً وسيرةً؛ يقطعونَ السبيلَ، ويأتون في نادِيهم المنكرَ، ولا يتناهَوْن عن منكرٍ فعلوه لبئسَ ما كانوا يفعلونَ، ابْتَدَعوا فاحشةً لم يسبِقْهم إليها أحدٌ من بني آدم، وهي إتْيانُ الذُّكْرانِ من العالمين، وتَرْكُ ما خَلَقَ اللهُ من النسوانِ لعبادِهِ الصالحين. فدعاهم لوطٌ إلىٰ عبادَةِ اللهِ تعالىٰ وحدَهُ لا شريكَ له، ونهاهُم عن تعاطي هٰذه المحرَّمات، والفواحش المُنْكَرات، والأفاعيل المُسْتَقْبَحات؛ فتمادوا علىٰ ضلالِهِم وطغيانِهم، واستمرُّوا علىٰ فجورِهِم وكفرانِهم، فأحلَّ اللهُ بهم من البأس الذي لا يُرَدُّ ما لم يكنْ في خَلَدِهِم وحُسبانِهِم، وجعلهم مُثْلَةً في العالَمين، وعبرةً يتَّعِظُ بها الألبَّاءُ من العالِمين.

[قصة لوط مع قومه كما فصلتها آيات اتلقرآن الكريم]

ولهٰذا ذَكَرَ الله تعالىٰ قصَّتَهم في غيرِ ما موضع في كتابِهِ المبينِ:

فقال تعالىٰ في سورة الأعراف: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ

---

(١) في جميع الأصول: «وكان»! وإنما الكلام عن مدينة سدوم.

مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا
كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ
وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف: ٨٠-٨٤].

وقال تعالىٰ في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن
جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ
قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ
وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ
إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ
مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا
لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾
قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟
يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا
مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا
حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٦٩-٨٣].

وقال تعالىٰ في سورة الحجر: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ
وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾
قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾
قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ
مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ
بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ

هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى
سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحجر: ٥١-٧٧].

وقال تعالىٰ في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾
أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ
تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ
وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾ [الشعراء: ١٦٠-١٧٥].

وقال تعالىٰ في سورة النمل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ
تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ
قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ
قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [النمل: ٥٤-٥٨].

وقال تعالىٰ في سورة العنكبوت: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا
سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ
فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟
إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن
فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ
وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾
إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ
ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٨-٣٥].

وقال تعالىٰ في سورة الصافات: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات: ١٣٣-١٣٨].

وقال تعالىٰ في الذاريات بعد قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم إياه بغلام عليم: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الذاريات: ٣١-٣٧].

وقال في سورة القمر[1]: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [القمر: ٣٣-٤٠].

وقد تكلَّمْنا علىٰ هٰذه القَصص في أماكنِها من هٰذه السور في «التفسير».

وقد ذكر الله لوطًا وقومَهُ في مواضعَ أخر من القرآن، تقدَّم ذِكْرُها مع نوح وعاد وثمود.

والمقصودُ الآن إيراد ما كان من أمرِهم، وما أحلَّ الله بهم مجموعًا من الآياتِ والآثارِ، وبالله المستعان.

۞ [لوط يدعو قومه لعبادة الله وحده وينهاهم عن الفواحش]:

وذٰلك أن لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لمَّا دعاهم إلىٰ عبادة اللهِ وحدَه لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي ما ذَكَرَ الله عنهم من الفواحشِ؛ لم يَسْتَجيبوا له، ولم يُؤْمنوا به، حتَّىٰ ولا رجلٌ واحدٌ منهم، ولم يتركوا ما عنه نُهوا، بل استمرُّوا علىٰ حالِهم، ولم يَرْعَووا[2] عن غَيِّهم وضلالهم، وهمُّوا بإخراج رسولِهم من بين ظَهْرانَيْهم[3]، وما كان حاصلُ جوابِهم عن خطابِهم - إذ كانوا لا يعقِلونَ - إلَّا أن قالوا: ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النمل: ٥٦]؛

(١) في نسخة: «الانشقاق». والمقصود سورة القمر، لأن أولها في ذكر انشقاقه.

(٢) في نسخة: «يرتدعوا».

(٣) يعني: من بينيهم.

فجعلوا غايةَ المدح ذمًّا يقتضي الإخراج! وما حَمَلَهُم علىٰ مقالتِهِم هٰذه إلَّا العنادُ واللَّجاج، فطهَّره الله وأهلَه إلَّا امرأتَه وأخرجَهم منها أحسنَ إخراج، وتَرَكَهم في مَحَلَّتِهم خالدينَ لكن بعدَما صيرَّها عليهم بحرةً منتنةً ذاتَ أمواج، لٰكنَّها عليهم في الحقيقةِ نارٌ تأجَّجُ وحرٌّ يتوهَّجُ وماؤها مِلحٌ أجاجٌ.

وما كان هٰذا جوابَهم إلَّا لمَّا نهاهُم عن ارتكابِ الطامَّةِ العُظمىٰ والفاحشةِ الكُبرىٰ التي لم يَسْبِقْهُم إليها أحدٌ من العالمين أهل الدنيا، ولهٰذا صاروا مُثْلَةً فيها وعبرةً لمن عليها.

وكانوا مع ذٰلك يقطعونَ الطريق، ويخونونَ الرَّفيق، ويأتون في ناديهم -وهو مجتمعُهم ومَحَلُّ حديثِهم وسمرِهم- المنكرَ من الأقوال والأفعال علىٰ اختلاف أصنافِهِ، حتىٰ قيل: إنَّهم كانوا يتضارَطون في مَجالِسِهم، ولا يَسْتَحْيونَ من مُجالِسِهِمْ، وربما وقع منهم الفَعْلَة العظيمةُ في المحافل، ولا يستنكفونَ ولا يَرْعَوون لوعظِ واعظٍ ولا نصيحةٍ من عاقل، وكانوا في ذٰلك وغيرِهِ كالأنعام بل أضلُّ سبيلا، ولم يقلِعوا عمَّا كانوا عليه في الحاضرِ، ولا ندِموا علىٰ ما سَلَفَ من الماضي، ولا راموا في المستقبل تحويلا، فأخَذَهم اللهُ أخذًا وبيلا.

وقالوا له فيما قالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩]: فطلبوا منه وقوعَ ما حذَّرَهم عنه من العذاب الأليم، وحلول البأس العظيم.

۞ [دعاؤه ﷺ على قومه واستجابة الله له]:

فعند ذٰلك دعا عليهم نبيُّهم الكريمُ، فسألَ من ربِّ العالَمين وإلٰه المرسلينَ أن يَنْصُرَهُ علىٰ القوم المفسدين، فغارَ الله لغيرتِهِ، وغضبَ لغَضْبَتِه، واستجابَ لدعوتِه، وأجابَهُ إلىٰ طَلِبَتِه، وبعث رُسُلَهُ الكرام، وملائكتَهُ العظام، فمروا علىٰ الخليل إبراهيم وبشَّروه بالغلام العليم، وأخبروه بما جاءوا له من الأمرِ الجسيم والخَطْبِ العميم: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الذاريات: ٣١-٣٤]، وقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [العنكبوت: ٣١-٣٢].

۞ [مجادلة إبراهيم عليه السلام في قوم لوط]:

وقال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾ [هود: ٧٤]: وذٰلك أنَّه كان يرجو أن يُجيبوا ويُنيبوا ويُسْلِموا ويُقْلِعوا ويرجِعوا، ولهٰذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود: ٧٦]؛ أي: أعرض عن هٰذا وتكلَّم غيرَه؛ فإنَّه قد حَتَمَ أمرُهم، ووَجَبَ عذابُهم وتدميرُهم وهلاكُهم؛ ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾؛ أي: قد أمر به مَنْ لا يُرَدُّ أمرُه، ولا يُرَدُّ بأسه، ولا مُعَقِّبَ لحكمِهِ. ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾.

وذكر سعيد بن جُبير والسُّدِّيُّ وقَتادة ومحمد بن إسحاق: أنَّ إبراهيم عليه السلام جعل يقول: أتُهْلِكونَ قريةً فيها ثلاثُ مئةِ مؤمن؟ قالوا: لا. قال: فمئتا مؤمن؟ قالوا: لا. قال: فأربعون مؤمنًا؟ قالوا: لا. قال: فأربعةَ عشرَ مؤمنًا؟ قالوا: لا... قال ابن إسحاقَ: إلىٰ أن قال: أفرأيتم إنْ كان فيها مؤمنٌ واحدٌ؟ قالوا: لا. الآية. ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا...﴾ الآية [العنكبوت: ٣٢].

وعند أهل الكتاب[1] أنَّه قال: يا ربِّ! أتهلِكُهم وفيهم خمسون رجلاً صالحًا؟ فقال الله: لا أُهلِكُهم وفيهم خمسون صالحًا. ثم تنازلَ إلىٰ عشرةٍ، فقال الله: لا أهلِكُهم وفيهم عشرةٌ صالحونَ.

۞ [ضيف لوط عليه السلام]:

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ [هود: ٧٧]:

قال المفسِّرون: لمَّا فَصَلَتِ الملائكةُ من عندِ إبراهيم -وهم جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ-؛ أقبلوا حتىٰ أتَوْا أرضَ سَدُومَ في صُوَرِ شُبَّانٍ حسانٍ؛ اختبارًا من الله تعالىٰ لقوم لوطٍ وإقامةً للحُجَّةِ عليهم، فاسْتَضافوا لوطًا عليه السلام، وذٰلك عند غروبِ الشمس، فَخَشِيَ إن لم يُضِفْهُمْ أن يُضيفَهم غيرُه، وحَسِبَهم بشرًا من الناس. و﴿سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾: قال ابنُ عباس ومجاهدٌ وقَتادةُ ومحمد بن إسحاق: شديدٌ بلاؤُهُ. وذٰلك

---

(١) في (سفر التكوين/ الأصحاح ١٨).

لما يعلمُ من مدافعتِهِ الليلةَ عنهُم؛ كما كان يُصْنَعُ به[١] في غيرِهِم، وكانوا قدِ اشترطوا عليه ألاَّ يُضيفَ أحدًا، ولكن رأىٰ مَن لا يمكنُ المحيدُ عنه.

وذكر قَتادة: أنَّهم وردوا عليه وهو في أرض له يعملُ فيها، فتضيَّفوا، فاستحيا منهم وانطلقَ أمامهم، وجَعَلَ يُعَرِّضُ لهم في الكلام لعلَّهم ينصرفونَ عن هٰذه القريةِ وينزِلون في غيرِها، فقال لهم فيما قالَ: والله يا هؤلاء؛ ما أعلمُ علىٰ وجه الأرض أهلَ بلدٍ أخبثَ من هؤلاء. ثم مشىٰ قليلًا، ثم أعاد ذٰلك عليهم، حتَّىٰ كَرَّرَهُ أربعَ مراتٍ. قال: وكانوا قَدْ أمِروا ألَّا يُهْلِكوهُم حتَّىٰ يَشْهَدَ عليهِم نَبِيُّهم بذٰلك.

وقال السُّدِّيُّ: خرجتِ الملائكةُ من عند إبراهيم نحوَ قريةِ لوط، فأتَوْها نصفَ النَّهارِ، فلما بَلَغوا نهر سدومَ؛ لقوا ابنةَ لوطٍ تستقي من الماءِ لأهلِها، وكانتْ له ابنتانِ؛ اسمُ الكبرىٰ ريثا والصغرىٰ زغرتا، فقالوا لها: يا جاريةُ! هل من منزل؟ فقالتْ لهم: نعم؛ مكانكم، لا تَدْخُلوا حتىٰ آتِيَكُم! فَرِقَتْ[٢] عليهم من قومِها، فأتتْ أباها فقالتْ: يا أبتاه! أرادَكَ فتيانٌ علىٰ باب المدينةِ، ما رأيتُ وجوهَ قوم قطُّ هي أحسنَ منهم، لا يأخُذُهم قومُك فيفضَحوهم.

وقد كان قومُهُ نَهَوْهُ أن يُضَيِّفَ رجلًا، فقالوا: خلِّ عنا؛ فلْنُضِفِ الرجال! فجاء بهم، فلم يعلم أحدٌ إلَّا أهلَ البيتِ، فخرجت امرأتُه فأخبرتْ قومَها فقالتْ: إنَّ في بيت لوطٍ رجالًا ما رأيتُ مثلَ وجوهِهِم قطُّ. فجاءَهُ قومُه يُهْرَعونَ إليه.

وقوله: ﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ٧٨]؛ أي: هٰذا مع ما سلف لهم من الذُّنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة.

۞ [جدال لوط عليه السلام لقومه ودفاعه عن ضيف]:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ [هود: ٧٨] يرشِدُهم إلىٰ غشيانِ نسائِهم، وهنَّ بناتُه شرعًا؛ لأنَّ النبيَّ للأمةِ بمنزلة الوالدِ؛ كما وَرَدَ في الحديث، وكما قال تعالىٰ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب: ٦]، وفي قول بعض الصحابة والسَّلف: وهو أبٌ لهم. وهٰذا كقوله تعالىٰ: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ

(١) في جميع الأصول: «بهم»! ولا يستوي الكلام إلا بما أثبته.

(٢) في نسخة: «شفقةً». وهو سائغ.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦]، وهٰذا هو الذي نصَّ عليه مجاهدٌ وسعيدُ بن جُبَيْرٍ والربيعُ بن أنس وقَتادة والسُّدِّيُّ ومحمد بن إسحاقَ، وهو الصوابُ. والقول الآخرُ خطأٌ مأخوذٌ من أهل الكتاب، وقد تصحَّفَ عليهم؛ كما أخطأوا في قولهم: إنَّ الملائكةَ كانوا اثنينِ، وإنَّهم تَعَشَّوْا عندَه! وقد خَبَّطَ أهلُ الكتابِ في هٰذه القصةِ تخبيطًا عظيمًا[1].

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ [هود: ٧٨]: نهيٌ لهم عن تعاطي ما لا يَليقُ من الفاحشة، وشهادةٌ عليهم بأنَّه ليس فيهم رجلٌ له مُسْكَةٌ[2] ولا فيه خيرٌ، بل الجميعُ سفهاءُ فجرةٌ أقوياءُ كفرةٌ أغبياءُ. وكان هٰذا من جملةِ ما أراد الملائكةُ أن يسمَعوه منه من قبل أن يسألوهُ عنه.

فقال قومُهُ -عليهم لعنةُ الله الحميدِ المجيد- مجيبينَ لنبيِّهم فيما أمَرَهم به من الأمرِ السَّديد: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾ [هود: ٧٩]: يقولون -عليهم لعائنُ الله-: لقد علمتَ يا لوطُ إنَّه لا أَرَبَ لنا في نسائِنا، وإنَّك لَتعلمُ مرادَنا وغَرَضَنا.

واجَهوا بهٰذا الكلام القبيح رسولَهم الكريم، ولم يخافوا سطوةَ العظيم، ذي العذاب الأليم، ولهٰذا قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود: ٨٠]: ودَّ أنْ لو كان له بهم قوَّةٌ، أو له مَنَعَةٌ وعشيرةٌ ينصرونَه عليهم، لِيُحِلَّ بهم ما يستحقُّونه من العذابِ علىٰ هٰذا الخطاب.

وقد قال الزُّهري: عن سعيد بن المسيَّب وأبي سَلَمة، عن أبي هريرة مرفوعًا: «**نحنُ أحقُّ بالشَّكِّ من إبراهيم، ويرحمُ اللهُ لوطًا؛ لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديدٍ، ولو لبثْتُ في السجنِ ما لَبِثَ يوسفُ؛ لأجبتُ الدَّاعي**»[3].

---

(١) إي والله قاتلهم الله! وانظر: (سفر التكوين / الأصحاح ١٩)؛ تر عجبًا!

(٢) مُسْكَة: عقل وافر.

(٣) رواه: البخاري (٦٠- الأنبياء، ١١- قوله تعالىٰ: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾، ٦/ ٤١٠/ ٣٣٧٢)، ومسلم (١- الإيمان، ٦٩- زيادة طمأنينة القلب، ١/ ١٣٣/ ١٥١) من الطريق الأولىٰ. والبخاري (٦٠- الأنبياء، ١٥- ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾، ٦/ ٤١٥/ ٣٣٧٥) من الطريق الثانية. وأحمد (٢/ ٣٣٢) من الطريق الثالثة. وقوله: «في ثروة من قومه»: في كثرة وعَدَد وعُدَد.

وشك إبراهيم ﷺ هو قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وقد تقدم الكلام عنه في (ص ٢١٢). وركن لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ سيأتي بيانه قريبًا. وداعي يوسف سيأتي بيانه في (ص ٢٨٥).

ورواه أبو الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة...

وقال محمد بن عمرو بن علقمةَ: عن أبي سَلَمة، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**رحمةُ الله على لوطٍ؛ إن كان ليأوي إلى ركنٍ شديدٍ (يعني: الله ﷻ)؛ فما بَعَثَ الله بعدَه من نبيٍّ إلّا في ثروةٍ من قومه**».

وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ۝٦٨ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ۝٦٩ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٠ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٧١﴾ [الحجر: ٦٧-٧١]: فأمرهم بقُربان نسائِهم، وحذَّرهم الاستمرارَ علىٰ طريقتِهم وسيئاتهم.

هٰذا؛ وهم في ذٰلك لا ينتهون ولا يَرْعَوون، بل كلَّما نهاهم[(١)]؛ يبالِغون في تحصيل هؤلاء الضيفانِ ويحرِصون، ولم يعلَموا ما حُمَّ به القَدَر[(٢)] ممَّا هم إليه صائرون، وصبيحةَ ليلتِهم إليه منقلِبون، ولهٰذا قال تعالىٰ مقسمًا بحياة نبيِّه محمدٍ صلواتُ الله وسلامه عليه: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾ [الحجر: ٧٢].

۞ [تفصيل الخبر في هلاك قوم لوط ونزول النقمة بهم]:

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ۝٣٦ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٣٧ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣٨﴾ [القمر: ٣٦-٣٨].

ذكر المفسِّرونَ وغيرُهم: أنَّ نبيَّ الله لوطًا عليه السلام جَعَلَ يمانِعُ قومَه الدُّخولَ ويدافِعُهم والبابُ مغلقٌ، وهم يرومونَ فتحَهُ وولوجَهُ، وهو يعِظُهم وينهاهُم من وراءِ الباب، وكلُّ ما لهم في إلحاح وإلعاج[(٣)]، فلمَّا ضاقَ الأمر وعَسُرَ الحال؛ قال ما قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠﴾ [هود: ٨٠]؛ لأحللتُ بكُمُ النَّكال. قالتِ الملائكةُ: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨٠-٨١]. وذَكَروا أنَّ جبريلَ عليه السلام خَرَجَ عليهم، فضربَ وجوهَهُم خفقةً بطرفِ جناحِهِ، فطَمَسَتْ أعْيُنَهم، حتىٰ قيل: إنَّها غارتْ بالكُلِّيَّةِ، ولم يبق لها محلٌّ ولا عينٌ ولا أثرٌ، فرَجَعوا يتحسَّسون مع الحيطان، ويتوعَّدونَ رسولَ الرحمن، ويقولونَ: إذا كان الغدُ؛ كان لنا ولهُ شان!

---

(١) في نسخة: «كل ما لهم».

(٢) حُمَّ به القدر: قُضِيَ به.

(٣) إلعاج: اتقاد في الشهود. وقد جاء في بعض الأصول: إلحاح وإنحاح». وفي بعضها: «إلجاج وإلعاج».

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾ [القمر: ٣٧-٣٨]: فذلك أنَّ الملائكة تقدَّمت إلىٰ لوطٍ عليه السلام آمرين له بأن يَسْرِيَ هو وأهلُه من آخرِ الليل، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ [هود: ٨١]؛ يعنىٰ عند سماع صوتِ العذابِ إذا حلَّ بقومِهِ، وأمروه أن يكونَ سيرُهُ في آخرِهم كالسَّاقةِ لهم. وقوله: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ [هود: ٨١]؛ علىٰ قراءة النصب: يُحتمل أن يكون مستثنًىٰ من قولِهِ: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [هود: ٨١]، كأنه يقولُ: إلَّا امرأتَكَ؛ فلا تَسْرِ بها. ويُحتمل أن يكون من قولِهِ: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتُكَ﴾ [هود: ٨١]؛ أي: فإنَّها ستلتفتُ فيصيبُها ما أصابَهم. ويقوِّي هٰذا الاحتمالَ قراءةُ الرفع، ولٰكنَّ الأولَ أظهرُ في المعنىٰ. والله أعلم. **قال السُّهَيْلِيُّ**: واسم امرأةُ لوطٍ والهة، واسم امرأة نوح والغةٌ. وقالوا له مبشِّرينَ بهلاكِ هؤلاء البغاةِ العُتاه، الملعونينَ النظراءُ والأشباه، الذين جعلَهم اللهُ سلفًا لكلِّ خائنٍ مُريبٍ: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود: ٨١].

فلمَّا خرج لوطٌ عليه السلام بأهلِهِ -وهم ابنتاه-؛ لم يتبَعْه منهم رجلٌ واحدٌ، ويقالُ: إنَّ امرأتَه خرجتْ معه. فالله أعلم. فلمَّا خَلَصُوا من بلادِهِم، وطلعتِ الشمسُ، فكانتْ عند شُروقِها؛ جاءَهُمْ من أمرِ اللهِ ما لا يُرَدّ، ومن البأس الشديدِ ما لا يُمْكِنُ أنْ يُصَدّ.

وعند أهلِ الكتاب(١): أنَّ الملائكةَ أمروه أن يَصْعَدَ إلىٰ رأسِ الجبل الذي هناك، فاستبعَدَه، وسأل منهُم أن يذهبَ إلىٰ قريةٍ قريبةٍ منهم، فقالوا: اذهبْ؛ فإنَّا ننتظِرُكَ حتىٰ تصير إليها وتستقرَّ فيها، ثم نُحِلُّ بهمُ العذابَ. فذَكَروا أنَّه ذَهَبَ إلىٰ قرية صُوغَرَ، التي يقولُ الناس: غَوْرُ زَغَرَ، فلما أشرقتِ الشمسُ؛ نزلَ بهمُ العذابُ.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٨٢-٨٣]: قالوا: اقتلعَهُنَّ جبريلُ بطرفِ جناحه من قرارهنَّ -وكنَّ سبعَ مدنٍ- بمَنْ فيهنَّ من الأمم، فقالوا: إنَّهم كانوا أربعَ مئةِ نسمةٍ، وقيل: أربعة آلاف نسمةٍ، وما معهم من الحيواناتِ، وما يتبعُ تلكَ المدنَ من الأراضي والأماكنِ والمُعْتَمَلات، فرفعَ الجميع حتىٰ بَلَغَ بهنَّ عنانَ السماء، حتىٰ سمعتِ

(١) (سفر التكوين / الأصحاح ١٧).

الملائكةُ أصواتَ دِيَكَتِهِم ونُباح كلابِهِم، ثم قَلَبَها عليهم، فجعلَ عاليَها سافلَها. قال مجاهدٌ: فكان أولَ ما سَقَطَ منها شُرُفاتُها. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢]: والسِّجِّيلُ فارسيٌّ معرَّبٌ، وهو الشديدُ الصُّلْبُ القويُّ. ﴿مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾؛ أي: يتبعُ بعضُها بعضًا في نزولها عليهم من السماء. ﴿مُّسَوَّمَةً﴾؛ أي: معلَّمَةٌ، مكتوبٌ علىٰ كل حجرٍ اسمُ صاحبِهِ الذي يهبطُ عليه فيَدْمَغُهُ؛ كما قال: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الذاريات: ٣٤]، وكما قال تعالىٰ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ [النمل: ٥٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [النجم: ٥٣-٥٥]؛ يعني: قَلَبَها فأهوىٰ بها منكَّسةً عاليها سافلها، وغشَّاها بمطرٍ من حجارةٍ من سِجِّيل متتابعةً مسوَّمةً مرقومةً علىٰ كل حجرٍ اسم صاحبه الذي سقط عليه؛ من الحاضرينَ منهم في بلدِهم، والغائبينَ عنها من المسافِرين والنازحينَ والشاذينَ منها.

۞ [خبر امرأة لوط وما حلَّ بها].

ويقال: إنَّ امرأةَ لوطٍ مكثتْ مع قومِها، ويقال: إنها خرجتْ مع زوجِها وبِنْتَيْها، ولكنها لما سمعتِ الصيحةَ وسقوطَ البلدةِ؛ التفتتْ إلىٰ قومِها، وخالفتْ أمرَ ربِّها قديمًا وحديثًا، وقالت: وا قوماه! فسَقَطَ عليها حجرٌ فَدَمَغَها وألْحَقَها بقومِها؛ إذ كانتْ علىٰ دينِهم، وكانتْ عينًا لهم علىٰ من يكون عند لوطٍ من الضِّيفانِ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ١٠]؛ أي: خانتاهما في الدين فلم يتبعاهما فيه، وليس المرادُ أنَّهما كانتا علىٰ فاحشةٍ -حاشا وكَلَّا ولَمَّا-؛ فإنَّ اللهَ لا يُقدِّرُ علىٰ نبيٍّ قطُّ أن تبغيَ امرأتُهُ؛ كما قال ابنُ عباس وغيرُه من أئمة السلف والخلف: ما بغتِ امرأةُ نبيٍّ قطُّ. ومن قالَ خلافَ هٰذا؛ فقد أخطأ خطأً كبيرًا؛ قال الله تعالىٰ في قصةِ الإفكِ لما أنزلَ براءةَ أمِّ المؤمنين عائشةَ بنتِ الصديق زوج رسولِ الله ﷺ حينَ قال لها أهل الإفكِ ما قالوا، فعاتبَ اللهُ المؤمنين وأنَّبَ وزَجَرَ، ووَعَظَ وحذَّر، قال فيما قال تعالىٰ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور: ١٥-١٦]؛ أي: سبحانك أن تكونَ زوجةُ نبيِّك بهٰذه المثابة.

۞ [عقوبة من عمل عمل قوم لوط]:

وقوله هاهنا: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٣﴾ [هود: ٨٣]؛ أي: وما هٰذه العقوبةُ ببعيدةٍ ممَّن أشبَهَهم في فعلِهِم. ولهٰذا ذهب من ذهب من العلماء إلىٰ أن اللائطَ يُرْجَمُ؛ سواءٌ كان محصنًا أو لا. نصَّ عليه الشافعيُّ وأحمدُ بن حنبل وطائفةٌ كثيرةٌ من الأئمة. واحتجُّوا أيضًا بما رواه الإمام أحمد وأهل «السنن» من حديث عمرو بن أبي عمرو، عن عِكْرمة، عن ابن عباس: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ وَجَدْتُموه يَعْمَلُ عَمَلَ قوم لوطٍ؛ فاقتُلوا الفاعل والمفعولَ به**»(١).

وذهبَ أبو حنيفةَ إلىٰ أن اللائطَ يُلقىٰ من شاهق جبل ويُتْبَعُ بالحجارة؛ كما فُعِلَ بقوم لوط؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٣﴾ [هود: ٨٣].

۞ [ولقد تركناها آية فهل من مدَّكر]:

وجعل اللهُ مكان تلك البلاد بحرةً منتنةً لا ينتفعُ بمائها ولا بما حَولها من الأراضي المتاخمةِ لِفنائِها لرداءتِها ودناءتِها، فصارت عبرةً ومُثْلَةً وعِظَةً وآيةً علىٰ قدرةِ الله تعالىٰ وعظمتِهِ وعزتِهِ في انتقامِهِ ممَّنْ خالفَ أمره وكذَّب رُسُلَهُ واتَّبع هواه وعصىٰ مولاه، ودليلًا علىٰ رحمتِهِ بعبادِهِ المؤمنين في إنجائِهِ إيَّاهم من المهلكاتِ وإخراجِهِ إيَّاهم من النور إلىٰ الظُّلمات؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾ [الشعراء: ٨-٩].

وقال الله تعالىٰ: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ۝٧٣ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ۝٧٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٧٧﴾ [الحجر: ٧٣-٧٧]؛ أي من نظر

---

(١) (**صحيح**). رواه: أحمد (١/ ٣٠٠)، وابن ماجه (٢٠- الحدود، ١٢- من عمل عمل قوم لوط، ٢/ ٨٥٦/ ٢٥٦١)، وأبو داوود (٣٢- الحدود، ٢٨- من عمل عمل قوم لوط، ٢/ ٥٦٤/ ٤٤٦٢)، والترمذي (١٥- الحدود، ٢٤- حد اللوطي، ٤/ ٥٧/ ١٤٥٦)، والحاكم (٤/ ٣٥٥)، والبيهقي (٨/ ٢٣٢)؛ من طرق عن عمرو... به.

قال المنذري في «الترغيب» (٣/ ٢٥٠/ ٣٥٦٩): «وعمرو هٰذا قد احتج به الشيخان وغيرهما، وقال ابن معين: ثقة ينكر عليه حديث عكرمة عن ابن عباس؛ يعني هٰذا» اهـ. **قلت**: ما باله ينكر عليه وهو لم يتفرد به بل توبع عليه؟! قال أبو داوود: «رواه عباد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس رفعه، ورواه ابن جريج عن إبراهيم عن داوود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس رفعه». وصححه الحاكم وابن القيم في «الداء والدواء» (ص٤٠٩ - ط. ابن خزيمة) والذهبي والألباني في «الإرواء» (٨/ ١٦/ ٢٣٥٠).

بعين الفِراسة والتوسُّم؛ فَهِمَ كيف غيَّر الله تلك البلادَ وأهلَها؟ وكيف جَعَلَها بعدما كانت آهلةً عامرة هالكةً غامرة؟ كما روىٰ الترمذيُّ وغيرُه مرفوعًا: «اتَّقوا فِراسَةَ المؤمنِ؛ فإنَّه يَنْظُرُ بنورِ الله». ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾[1]. وقوله: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾؛ أي: لَبطريقٍ مَهْيَع[2] مَسْلوكٍ إلىٰ الآن؛ كما قالَ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت: ٣٥]، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٧]؛ أي: تركْناها عبرةً وعظةً لمن خاف عذابَ الآخرة، وخَشِيَ الرحمن بالغيبِ، وخافَ مقامَ ربِّه، ونهىٰ النفسَ عن الهوىٰ، فانْزَجَرَ عن محارم الله وتركَ معاصِيَه، وخاف أن يشابِهَ قومَ لوطٍ، ومن تشبَّه بقوم؛ فهو منهُم، وإن لم يكنْ من كلِّ وجهٍ؛ فمن بعض الوجوهِ؛ كما قال بعضُهم:

فَإِنْ لَمْ تَكونوا قَوْمَ لُوطٍ بِعَيْنِهِمْ ... فما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمُ بِبَعيدِ

فالعاقلُ اللبيبُ الفاهمُ الخائفُ من ربِّه؛ يمتثِلُ ما أمَرَه الله به ﷻ، ويقبلُ ما أرشده إليه رسولُ الله ﷺ؛ من إتيانِ ما خَلَقَ اللهُ له من الزوجاتِ الحلال، والجواري من السَّراري ذوات الجمال، وإيَّاه أنْ يَتَّبِعَ كلَّ شيطانٍ مَريد، فيَحِقَّ عليه الوعيد، ويدخلَ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٨٣].

---

(١) (ضعيف). رواه: الترمذي (٤٨- التفسير، ١٦- ومن سورة الحجر، ٥/ ٢٩٨/ ٣١٢٧)، وابن جرير في «التفسير» (٧/ ٥٢٨/ ٢١٢٤٩ و٢١٢٥٠)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٧/ ٢٢٧٠/ ١٢٤٢٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٨١)، والخطيب في «التاريخ» (٧/ ٢٤٢)؛ من طرق عن: عمرو بن قيس، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري... فذكره مرفوعًا.

وعطية العوفي ضعيف مدلس، ولذلك ضعفه الترمذي، وأشار إلىٰ علة أخرىٰ، فقال: «هذا حديث غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه، وقد روي عن بعض أهل العلم»؛ يعني: من قولهم غير مرفوع، وأيده علىٰ ذلك العقيلي في «الضعفاء» (٣٩٦)، والخطيب في «التاريخ» (٣/ ١٩١)، ووهَّما رواية الرفع. وللحديث شواهد عن أبي أمامة وأبي هريرة وابن عمر وثوبان، وقد فصل الألباني القول فيها في «الضعيفة» (٤/ ٢٩٩/ ١٨٢١)، وبيَّن شدة وهائها، وانتهىٰ ضعف الحديث؛ فلينظره من شاء.

(٢) مَهْيَع: معروف بيِّن.

قصة مدين قوم شعيب عليه السلام

۞ [قصة شعيب عليه السلام كما فصلتها آيات القرآن الكريم]:

قال الله تعالىٰ في سورة الأعراف بعد قصة قوم لوط: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: ٨٥-٩٣].

وقال في سورة هود بعد قصة قوم لوط أيضًا: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ *بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا

مَا نَشَـٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود: ٨٥-٩٥].

وقال في الحجر بعد قصة قوم لوط أيضًا: ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿٧٩﴾﴾ [الحجر: ٧٨-٧٩].

وقال تعالىٰ في الشعراء بعد قصتهم: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٩١].

[قوم شعيب عليه السلام]:

كان أهلُ مدينَ قومًا عربًا يسكُنون مدينَتَهم مدينَ التي هي قريةٌ(١) من أرض معان من أطرافِ الشام مما يلي ناحية الحجاز قريبًا من بحيرة قوم لوط، وكانوا بعدَهم بمدَّةٍ قريبةٍ، ومدينُ مدينةٌ عُرِفتْ بها القبيلةُ، وهم من بني مَدْيَنَ بن مِدْيانَ بن إبراهيم الخليل.

(١) في نسخة: «قريبة».

۞ [نسب شعيب عليه السلام]:

وشعيبٌ نبيُّهم هو ابنُ ميكائيلَ بنِ يشجرَ. ذكره ابن إسحاق. قال: ويُقال له بالسُّريانية: يثرون. وفي هٰذا نظر. **ويقال**: شُعيبُ بنُ [جزي بن] يشجرَ بنِ لاوي بنِ يعقوبَ. **ويقال**: شعيبُ بنُ يَوْبَبَ بنِ عيفا بنِ مدينَ [بن مِدْيانَ] بنِ إبراهيم. **ويقال**: شعيبُ بنُ صيفونَ بن عيفا بنِ ثابتِ بن مدينَ [بن مِدْيانَ] بن إبراهيمَ. وقيل غير ذٰلك في نسبِهِ. قال ابنُ عساكرَ[١]: ويُقالُ جدته، ويقال أمه، بنتُ لوط.

وكان ممَّن آمنَ بإبراهيمَ وهاجر معهُ ودخل معه دمشقَ. وعن وَهْب بن مُنَبِّه: أنه قال: شعيبٌ وملغمٌ ممَّن آمن بإبراهيمَ يومَ أُحْرِقَ بالنارِ، وهاجرا معه إلىٰ الشام، فزوَّجهما بنتي لوطٍ عليه السلام. ذكَرَه ابنُ قتيبة. وفي هٰذا كلِّه نظرٌ أيضًا. والله تعالىٰ أعلم.

وذكر أبو عمر بن عبد البر في «الاستيعاب» في ترجمة سلمة بن سعد[٢] العَنَزِيِّ: أنه قَدِمَ علىٰ رسول اللهِ ﷺ، فأسلمَ، وانتسبَ إلىٰ عَنَزَةَ، فقال: «**نعم الحيُّ عنزة، مبغيٌّ عليهم منصورونَ، رهطُ**[٣] **شعيبٍ وأختانُ**[٤] **موسى**»[٥]. فلو صحَّ هٰذا؛ لدلَّ علىٰ أن شُعيبًا صِهْرُ موسىٰ[٦]، وأنَّه من قبيلةٍ من العربِ العاربةِ يُقال لهم: عَنَزة، لا أنهم من عَنَزة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن مَعَدِّ بن عدنان؛ فإنَّ هؤلاء بعدَه بدهرٍ طويل. والله أعلم.

---

(١) سقط من المطبوعة.

(٢) في بعض الأصول: «سعيد»، وكلاهما صحيح.

(٣) في نسخة: «قوم».

(٤) في بعض الأصول: «وأختار»! وفي بعضها: «وأختال»! والتصويب من «المعجم الكبير» للطبراني.

(٥) (**ضعيف جدًّا**). رواه: البزار في «المسند» (٢٦٨- زوائد)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧/ ٥٥/ ٦٣٦٤)؛ من طريق حفص بن سلمة، عن قيس بن سلمة، عن سلمة بن سعد... فذكره مرفوعًا.
وهٰذا إسناد ضعيف جدًّا، مسلسل بالمجاهيل، وفي سياق السند ورجاله خلف شديد لا يكاد يعرف وجه الصواب فيه، ولذٰلك قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٥٤): «وفيه من لم أعرفهم». وقال الحافظ في «الإصابة» (٢/ ٦٥): «وفي الإسناد من لا يعرف».

(٦) وهناك أدلة أخرىٰ علىٰ هٰذا؛ منها حديث شداد بن أوس الآتي (ص ٢٤٨)، وحديث عتبة بن النذر الآتي أيضًا (ص ٣٥٠). وكلها شديدة الضعف لا تصلح للتقوي ولا للاعتبار.

وفي حديث أبي ذرٍّ الذي في «صحيح ابن حبان» في ذِكْر الأنبياءِ والرُّسل؛ قال: «**أربعةٌ من العربِ: هودٌ وصالحٌ وشعيبٌ ونبيُّك يا أبا ذرَ**»(١).

۞ [ما جاء من أن شعيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ خطيب الأنبياء]:

وكان بعضُ السلف يسمي شُعيبًا خَطيب الأنبياء؛ يعني لفصاحتِهِ وعلوِّ عبارتِهِ وبلاغتِهِ في دعاية قومِهِ إلىٰ الإيمان برسالتِهِ.

وقد روىٰ ابن [إسحاق. و] إسحاق بن بشرٍ: عن جُوَيْبِرٍ ومقاتل، عن الضَّحَّاك، عن ابن عباس؛ قال: كانَ رسولُ الله ﷺ إذا ذكر شُعيبًا؛ قال: «**ذاك خطيبُ الأنبياءِ**»(٢).

۞ [دعوته عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه لتوحيد الله ونهيهم عن تعاطي القبائح]:

وكانَ أهلُ مَدْيَنَ كفَّارًا؛ يقطعونَ السبيلَ، ويخيفونَ المارَّةَ، ويعبُدون الأيكةَ، وهي شجرةٌ من الأيْكِ حولَها غيضةٌ ملتفَّةٌ بها، وكانوا من أسوإ الناس معاملةً؛ يبخسونَ المكيالَ والميزانَ، ويطفِّفونَ فيهما؛ يأخُذون بالزائدِ ويدفعونَ بالناقص. فبَعَثَ الله فيهم رجلًا منهم، وهو رسولُ الله شعيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فدعاهم إلىٰ عبادةِ الله وحده لا شريكَ له، ونهاهم عن تعاطي هٰذه الأفاعيل القبيحةِ من بَخْس الناس أشياءَهم وإخافتِهم لهم في سُبُلِهم وطُرُقاتهم، فآمن به

---

(١) (ضعيف جدًّا). تقدم تخريجه (ص ٨٨ - ٨٩).

(٢) (ضعيف جدًّا). وقد جاء من عدة أوجه:

* فأما الأول؛ فرواه ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٢٢/ ٨٧٢٦)، والحاكم (٢/ ٥٦٨)؛ من طريق ابن إسحاق، فيما ذكر لي يعقوب بن سلمة... فذكره مرسلًا. وسنده ضعيف علىٰ إرساله أو إعضاله.

* وأما الآخر؛ فمن طريق ابن بشر، عن جويبر ومقاتل، عن الضحاك، عن ابن عباس... فذكره مرفوعًا. وأظن هٰذا الحديث خطأً من هٰذا الوجه، وأنه زيادة من الناسخ انتقلت عينه إليها خطأً؛ حيث إني لم أر من نسب هٰذا إلىٰ ابن بشر، ولا حتىٰ ابن عساكر في «التاريخ» علىٰ استيعابه ولا السيوطي في «الدر» علىٰ توسعه. فالله أعلم. فإن كان محفوظًا هكذا؛ فهو ضعيف جدًّا تالف؛ من أجل ابن بشر وجويبر ومقاتل؛ فإنهم متروكون متهمون تالفون.

* وله وجه ثالث عند ابن عساكر (١٠/ ٣١٠- ابن منظور؛ فإنه ساقط من مطبوع الأصل)؛ من طريق الزبرقان، عن الأحنف... فذكره. وهٰذا - إن صح السند إلىٰ الزبرقان، وما إخاله - ضعيف لإرساله.

* وله وجه رابع عند ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٢٢/ ٨٧٢٥) بسند صحيح عن مالك موقوفًا.

* وله وجه خامس عند أبي الشيخ (٣/ ٦٢٩- الدر) موقوف علىٰ سفيان الثوري.

ومعلوم أن الضعف لازم هٰذا الحديث ولو اجتمعت أوجهه الخمسة؛ لشدة ضعف الأولين، وإرسال الثالث، ووقف الرابع والخامس.

بعضُهم وكَفَر أكثرُهم، حتىٰ أحلَّ اللهُ بهمُ البأسَ الشديدَ. وهو الوليُّ الحميدُ.

كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ﴾ [الأعراف: ٨٥]؛ أي: دلالةٌ وحُجَّةٌ واضحةٌ وبرهانٌ قاطعٌ علىٰ صدقِ ما جئتُكم به وأنَّه أرسلني، وهو ما أجرىٰ الله علىٰ يديهِ من المعجزاتِ التي لم تُنْقَلْ إلينا تفصيلًا، وإن كان هٰذا اللفظُ قد دلَّ عليها إجمالًا. ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٥]: أمرَهُم بالعدل ونهاهُم عن الظُّلم، وتوعَّدهم علىٰ خلاف ذٰلك، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ [الأعراف: ٨٥]؛ أي طريق. ﴿تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦]؛ أي: تتوعَّدون الناسَ بأخذِ أموالهم من مكوس وغيرِ ذٰلك وتخيفونَ السُّبُل. قال السُّدِّيُّ في تفسيره عن الصحابة: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾: إنَّهم كانوا يأخذونَ العشورَ من أموال المارَّة. وقال إسحاقُ بن بشرٍ، عن جُوَيْبِرٍ، عن الضَّحَّاك، عن ابن عباس؛ قال: كانوا قومًا طُغاةً بُغاةً يجلِسونَ علىٰ الطريق يَبْخَسونَ الناس (يعني: يعشِّرونَهم)، وكانوا أولَ من سَنَّ ذٰلك. ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٦]: فنهاهُم عن قطع الطريقِ الحسيَّة الدنيويَّة والمعنويَّة الدينيَّة. ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف: ٨٦]: ذكَّرهم بنعمةِ الله تعالىٰ عليهم في تكثيرِهم بعد القِلَّةِ، وحذَّرَهم نقمةَ الله بهم إن خالفوا ما أرشدَهم إليه ودلَّهم عليه.

كما قال لهم في القصة الأخرىٰ: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ [هود: ٨٤]؛ أي: لا تركبوا ما أنتم عليه وتستمرُّوا فيه فيَمْحَقَ اللهُ بركةَ ما في أيديكم ويُفْقِرَكم ويُذْهِبَ ما به يُغنيكم. وهٰذا مضافٌ إلىٰ عذابِ الآخرةِ، ومَنْ جُمعَ له هٰذا وهٰذا؛ فقد باء بالصفقةِ الخاسرةِ!

فنهاهُم أولًا عن تعاطي ما لا يَليقُ من التَّطْفيف، وحذَّرهم سلبَ نعمةِ الله عليهم في دُنياهم وعذابَه الأليم في أُخراهم وعنَّفهم أشدَّ تعنيف.

ثم قال لهم آمرًا، بعدما كان عن ضدِّه زاجرًا: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ

بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود: ٨٥-٨٦]: قال ابنُ عباس والحسنُ البصريُّ: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: رزقُ الله خيرٌ لكم من أخذِ أموال الناسِ. وقال ابنُ جريرٍ[١]: ما يَفْضُلُ[٢] لكم من الرِّبح بعد وفاءِ الكيل والميزان خيرٌ لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف. قال: وقد روي هٰذا عنِ ابن عباس. وهٰذا الذي قاله وحكاه حسنٌ، وهو شبيهٌ بقوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِۚ﴾ [المائدة: ١٠٠]؛ يعني: أنَّ القليلَ من الحلال خيرٌ لكم من الكثيرِ من الحرام؛ فإنَّ الحلالَ مباركٌ وإنْ قلَّ، والحرامَ ممحوقٌ وإنْ كَثُرَ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الرِّبا وإنْ كثُرَ؛ فإنَّ مَصيرَهُ إلى قُلٍّ**»[٣]. رواه أحمدُ. أي: إلىٰ قِلَّةٍ. وقال رسول الله ﷺ: «**البيِّعان بالخيارِ ما لم يتفرَّقا؛ فإنْ صَدَقا وَبيَّنا؛ بورِكَ لهما في بيعِهما، وإن كتَما وكَذَبا؛ مُحِقَتْ بَرَكَةُ بيعِهما**»[٤]. والمقصودُ: أنَّ الربح الحلالَ مباركٌ فيه وإن قلَّ، والحرامَ لا يُجدي وإن كَثُرَ. ولهٰذا قال نبيُّ الله شعيبٌ: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ﴾. وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾؛ أي: افعلوا ما آمُرُكم به ابتغاءَ وجهِ الله ورجاءَ ثوابِه، لا لأراكم أنا وغيري.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٨٧]: يقولونَ هٰذا علىٰ سبيل الاستهزاءِ والتنقُّص والتهكُّم! أصلاتُك

---

(١) في «التفسير» (٧/ ٩٨/ هود٨٦).

(٢) في نسخة: «فضل».

(٣) (صحيح). رواه: أحمد (١/ ٣٩٥و٤٢٤)، وابن ماجه (١٢- التجارات، ٥٨- التغليظ في الربا، ٢/ ٧٦٥/ ٢٢٧٩)، والحاكم (٢/ ٣٧، ٤/ ٣١٧)؛ من طريقين عن رُكين بن الربيع بن عميلة، عن أبيه، عن ابن مسعود... فذكره مرفوعًا.

قال الحاكم في الموضعين: «صحيح الإسناد». ووافقه المنذري في «الترغيب» (٢/ ٦٢٤/ ٢٧٧٧) والذهبي. وقال البوصيري في إسناد ابن ماجه: «إسناده صحيح ورجاله موثقون؛ لأن العباس بن جعفر وثقه ابن أبي حاتم وابن المديني وذكره ابن حبان في «الثقات»، وباقي رجال الإسناد علىٰ شرط مسلم». وقال الحافظ في «الفتح»: «إسناده حسن». وصححه الألباني.

(٤) رواه: البخاري (٣٤- البيوع، ١٩- إذا بيَّن البيِّعان، ٤/ ٣٠٩/ ٢٠٧٩)، ومسلم (٢١- البيوع، ١١- الصدق في البيع، ٣/ ١١٦٤/ ١٥٣٢)؛ من حديث حكيم بن حزام.

هٰذه التي تصليها هي الآمرةُ لك بأنْ تَحْجُرَ علينا؛ فلا نعبدَ إلَّا إلٰهك ونتركَ ما يعبدُ آباؤنا الأقدمونَ وأسلافُنا الأوَّلونَ، أو ألَّا نتعاملَ إلَّا علىٰ الوجه الذي ترتضيه أنت ونتركَ المعاملات التي تأباها وإن كنا نحن نرضاها؟! ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۝٨٧﴾ [هود: ٨٧]: قال ابن عباس وميمونُ بن مِهْرانَ وابن جُريج وزيدُ بن أسلمَ وابنُ جرير(١): يقولُ ذٰلك أعداءُ الله علىٰ سبيل الاستهزاء.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هود: ٨٨]: هٰذا تلطُّف معهم في العبارةِ، ودعوةٌ لهم إلىٰ الحقِّ بأبين إشارةٍ؛ يقولُ لهم: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾: أيُّها المكذِّبون. ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾؛ أي: علىٰ أمرٍ بيِّنٍ من الله تعالىٰ أنَّه أرسلني إليكم. ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾؛ يعني: النبوةَ والرسالةَ؛ يعني: وعُمِّيَ عليكم معرفتُها، فأيُّ حيلةٍ لي فيكم؟! وهٰذا كما تقدَّم عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّه قال لقومِهِ سواءٌ. وقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾؛ أي: لستُ آمرُكم بالأمرِ إلَّا وأنا أولُ فاعلٍ له، وإذا نهيتُكم عن الشيء؛ فأنا أولُ من يتركُه.

وهٰذه هي الصفة المحمودةُ العظيمةُ، وضدُّها هي المردودةُ الذميمةُ؛ كما تَلَبَّسَ بها علماءُ بني إسرائيل في آخرِ زمانِهم وخطباؤهُم الجاهلونَ؛ قال الله تعالىٰ: ﴿۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٤٤﴾ [البقرة: ٤٤]. وذكر عندها في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يُؤْتى بالرجل، فيُلْقى في النارِ، فتندَلِقُ أقتابُ بطنِهِ** (أي: تخرُجُ أمعاؤُهُ من بطنِهِ)، **فيدورُ بها كما يدور الحمارُ برحاه، فيجتمعُ أهلُ النارِ فيقولون: يا فلانُ! ما لكَ؟! ألم تكنْ تأمُرُ بالمعروفِ وتنهى عن المنكرِ؟! فيقولُ: بلى؛ كنتُ آمُرُ بالمعروفِ ولا آتيهِ، وأنهى عن المنكرِ وآتيهِ**»(٢). وهٰذه صفةُ مخالفي الأنبياءِ من الفُجَّار والأشقياءِ.

فأمَّا السادةُ من النُّجباءِ والألباءُ من العلماءِ الذين يخشَوْن ربَّهم بالغيبِ؛ فحالُهم كما قال نبيُّ الله شعيبٌ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هود: ٨٨] أي: ما أريدُ في جميع أمري إلَّا الإصلاح في الفَعال

---

(١) في «التفسير» (٧/ ١٠١/ هود٨٧).

(٢) رواه: البخاري (٥٩- بدء الخلق، ١٠- صفة النار، ٦/ ٣٣١/ ٣٢٦٧)، ومسلم (٥٣- الزهد، ٧- عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، ٢/ ٢٢٩٠/ ٢٩٨٩)؛ من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والمقال بجُهدي وطاقتي. ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ﴾؛ أي: في جميع أحوالي ﴿إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾؛ أي: عليه أتوكَّل في سائرِ الأمورِ، وإليه مَرْجِعي ومصيري في كلِّ أمري. وهٰذا مقام ترغيبٍ.

ثم انتقلَ إلىٰ نوع من التَّرهيبِ، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ [هود: ٨٩]؛ أي: لا تحملنَّكم مخالفتي وبُغْضُكُم ما جئتُكم به علىٰ الاستمرارِ علىٰ ضلالِكم وجهلِكم ومخالفتِكم، فَيُحِلَّ اللهُ بكمْ من العذابِ والنَّكال نظيرَ ما أحلَّه بنظرائِكُم وأشباهِكُم من قوم نوح وقوم هودٍ وقوم صالحٍ من المكذِّبين المخالفين.

وقوله: ﴿قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾: **قيلَ**: معناهُ: في الزَّمان؛ أي: ما بالعهدِ من قدمٍ ممَّا قد بَلَغَكُم ما أُحِلَّ بهم علىٰ كفرِهم وعتوِّهم.

وقيل: معناهُ: وماهم منكُم ببعيدٍ في المَحَلَّةِ والمكانِ. **وقيل**: في الصفاتِ والأفعال المُسْتَقْبَحاتِ؛ من قَطْع الطَّريق، وأخذِ أموال النَّاس جَهْرَةً وخُفْيَةً بأنواع الحيل والشُّبُهاتِ. والجمعُ بين هٰذه الأقوال ممكنٌ؛ فإنَّهم لم يكونوا بعيدينَ منهم لا زمانًا ولا مَكانًا ولا صفاتٍ.

ثم مَزَجَ الترهيبَ بالترغيب، فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾﴾ [هود: ٩٠]؛ أي: أَقْلِعوا عمَّا أنتُم فيه، وتوبوا إلىٰ ربكُمُ الرحيم الودودِ؛ فإنَّه مَن تابَ إليه؛ تابَ عليه، فإنَّه رحيمٌ بعبادِهِ، أرحمُ بهم من الوالدةِ بولَدِها، ﴿وَدُودٞ ﴿٩٠﴾﴾: وهو الحبيبُ، ولو بعدَ التوبةِ علىٰ عبدِهِ، ولو مِنَ الموبقاتِ العظام.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗا﴾ [هود: ٩١]: رُوِي عن ابن عباس وسعيدِ بن جُبير والثوريِّ أنَّهم قالوا: كان ضريرَ البصر. وقد روي في حديثٍ مرفوع: «**أنَّه بكى من حُبِّ الله حتى عَمِيَ، فردَّ اللهُ عليه بَصَرَهُ وقالَ: يا شُعَيْبُ! أتبكي خوفًا من النارِ، أو من شوقِك إلى الجنةِ؟ فقال: بل من مَحَبَّتِكَ؛ فإذا نظرتُ إليك؛ فلا أُبالي ماذا يُصْنَعُ بي. فأوحى اللهُ إليه: هنيئًا لك يا شعيبُ لقائي؛ فلذٰلك أخدمتُكَ موسى بن عمران كليمي**»[1]. رواه

(١) (موضوع). رواه: الواحدي في «التفسير»، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٦/ ٣١٥)، وابن عساكر في «التاريخ»، (٢٣/ ٧٣)؛ من طريقين عن علي بن الحسين (أو: الحسن) بن بندار... به فذكره.

وهٰذا سند ضعيف جدًّا: علي بن الحسن متهم تالف كان يختلق علىٰ هشام بن عمار. والحديث استنكره =

الواحديُّ: عن أبي الفتح محمد بن عليٍّ الكوفيِّ، عن علي بن الحسن بن بُنْدار، عن عبد الله محمد بن إسحاق الرمليِّ، عن هشام بن عمَّار، عن إسماعيل بن عياش، عن بَحير بن سعيد، [عن خالد بن معدان]، عن شدَّاد بن أوس، عن النبي ﷺ... بنحوه. وهو غريبٌ جدًّا، وقد ضعَّفه الخطيبُ البغداديُّ.

وقولهم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝٩١﴾ [هود: ٩١] هٰذا من كفرِهِمُ البليغ وعنادِهِم الشنيع؛ حيث قالوا: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾؛ أي: ما نفهمه ولا نعقله؛ لأنَّا لا نحبُّه ولا نريده، وليس لنا هِمَّةٌ إليه ولا إقبالٌ عليه، وهو كما قال كفارُ قريش لرسول اللهِ ﷺ: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾ [فصلت: ٥]. وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾؛ أي: مضطهدًا مهجورًا.

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾؛ أي: قبيلتُك وعشيرتُك فينا. ﴿لَرَجَمْنَاكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝٩١﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٩٢]؛ أي: تخافون قبيلتي وعشيرتي وتراعوني بسببِهم، ولا تخافونَ عذابَ الله(١) ولا تُراعوني لأنِّي رسول الله؛ فصار رَهْطي أعزَّ عليكم من اللهِ. ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ [هود: ٩٢]؛ أي: جانب الله وراء ظهوركم. ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝٩٢﴾ [هود: ٩٢]؛ أي: هو عليمٌ بما تعملونَه وما تصنعونَه، محيطٌ بذٰلك كلِّه، وسيَجْزيكم عليه يومَ تُرْجَعونَ إليه.

[إنذاره عليه السلام قومه حلول العذاب]:

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ۝٩٣﴾ [هود: ٩٣]: هٰذا أمرُ تهديدٍ شديدٍ ووعيدٍ أكيدٍ بأن يستمرُّوا علىٰ طريقتِهِم ومنهجِهِم وشاكِلَتِهِم؛ فسوف تعلمونَ مَنْ تكونُ له عاقبةُ الدارِ وَمَنْ يَحِلُّ عليه الهلاكُ والبوارُ. ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾؛ أي: في هٰذه الحياة الدنيا. ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٣٩﴾؛أي: في الآخرة. ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾؛ أي: مني ومنكم فيما أخبر وبشَّر وحذَّر.

= الخطيب البغدادي، وقال الذهبي في «الميزان»: (١/ ٢٣٩): «هٰذا حديث باطل لا أصل له». وأقره الحافظ في «اللسان». واستغربه جدًّا الحافظ ابن كثير كما ترىٰ.

(١) في نسخة: «جنبة الله».

﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ۝٩٣﴾: هٰذا كقوله: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأعراف: ٨٧].

۞ [دعاؤه عليه السلام على قومه]:

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ۝٨٨ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ۝٨٩﴾ [الأعراف: ٨٨-٨٩]: طلبوا بزعمِهم أن يردُّوا من آمن منهم إلىٰ مِلَّتهم، فانتصب شعيبٌ للمحاجَّة عن قومه، فقال: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ۝٨٨﴾؛ أي: هؤلاءِ لا يعودون إليكم اختيارًا، وإنما يعودون إليكم -إن عادوا- اضطرارًا مكرَهين، وذٰلك لأنَّ الإيمان إذا خالطتْ بشاشتهُ القلوبَ؛ لا يسخطه أحدٌ، ولا يرتدُّ أحدٌ عنه، ولا محيدَ لأحدٍ منه. ولهٰذا قال: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ﴾؛ أي: فهو كافينا، وهو العاصمُ لنا، وإليه ملجؤنا في جميع أمرنا. ثم استفتح علىٰ قومه، واستنصر ربَّه عليهم في تعجيل ما يستحقُّونه إليهم، فقال: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ۝٨٩﴾؛ أي: الحاكمين. فدعا عليهم، والله لا يردُّ دعاءَ رسلِهِ إذا استنصروه علىٰ الذين جَحَدوه وكَفَروه ورسولَهُ خالفوهُ.

ومع هٰذا؛ صمَّموا علىٰ ما هم عليه مشتملونَ وبه متلبِّسونَ: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ۝٩٠﴾ [الأعراف: ٩٠].

۞ [تفصيل الخبر في هلاك قوم شعيب ونزول النقمة بهم]:

قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۝٧٨﴾ [الأعراف: ٩١]:

ذكر في سورة الأعراف أنَّهم أخذتْهم رجفةٌ؛ أي: رجفت بهم أرضُهم وزُلْزِلَت زلزالًا شديدًا، أزهقتْ أرواحَهم من أجسادِها، وصيَّرتْ حيوانَ[1] أرضِهم كجمادِها، وأصبحت جُثَثُهُمْ جاثيةً؛ لا أرواحَ فيها، ولا حركاتٍ بها، ولا حواسَّ لها.

---

(١) في نسخة: «حيوانات».

وقد جمع اللهُ عليهم أنواعًا من العقوبات، وصُنوفًا من المَثُلات، وأشكالًا من البَلِيَّات، وذٰلك لما اتَّصفوا به من قبيح الصفات؛ سَلَّطَ اللهُ عليهم رجفةً شديدةً أسكنتِ الحركات، وصيحةً عظيمةً أخمدتِ الأصوات، وظُلَّةً أرسلَ عليهم منها شَرَرَ النارِ من سائرِ أرجائِها والجهات، ولكنه تعالىٰ أخبر عنهم في كل سورةٍ بما يناسبُ سياقَها ويوافقُ طِباقَها:

في سياق قصةِ الأعراف أرْجَفوا نبيَّ الله وأصحابَه، وتوعَّدوهم بالإخراجِ من قريتهم، أو لَيَعودُنَّ في مِلَّتهم راجعين، فقال تعالىٰ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف: ٩١]: فقابل الإرجافَ بالرجفةِ، والإخافة بالخيفةِ، وهٰذا مناسبٌ لهٰذا السِّياق ومتعلِّق بما تقدَّمه من السِّباق.

وأما في سورة هود؛ فذَكَرَ أنَّهم أخذتْهم الصيحةُ فأصبحوا في ديارِهم جاثمينَ، وذٰلك لأنَّهم قالوا لنبيِّ الله علىٰ سبيل التهكُّم والاستهزاءِ والتنقُّص: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٨٧]: فناسبَ أن يَذْكُرَ الصيحةَ التي هي كالزجرِ عن تعاطي هٰذا الكلام القبيح، الذي واجَهوا به هٰذا الرسولَ الكريمَ الأمينَ الفصيح، فجاءتْهُم صيحةٌ أسكَتَتْهم مع رجفةٍ أسكَنَتْهم.

وأما في سورة الشعراء؛ فذكر أنَّه أخذهم عذابُ يوم الظُّلَة، وكان ذٰلك إجابةً لما طلبوا، وتقريبًا إلىٰ ما إليه رَغِبوا؛ فإنهم قالوا: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الشعراء: ١٨٥-١٨٨] قال اللهُ تعالىٰ وهو السميع العليم: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء: ١٨٩].

۞ [أصحاب الأيكة وقوم مدين أمة واحدة]:

ومن زعم من المفسرين -كقَتادة وغيره- أنَّ أصحاب الأيكة أمةٌ أخرىٰ غير أهل مَدْيَنَ؛ فقولُه ضعيف، وإنَّما عمدتُهم شيئان:

أحدُهُما: أنَّه قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٧٧]، ولم يقلْ: أخوهم؛ كما قال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥].

والثاني: أنَّه ذَكَرَ عذابَهم بيوم الظُّلَّة، وذَكَرَ في أولٰئك الرجفةَ أو الصيحةَ.

والجواب عن الأول: أنَّه لم يَذْكُرِ الأخُوَّةَ بعد قوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٧٦﴾ [الشعراء: ١٧٦]؛ لأنه وَصَفَهم بعبادةِ الأيكة؛ فلا يناسِبُ ذِكر الأخوة هاهنا، ولمَّا نَسَبَهم إلىٰ القبيلة؛ ساغ ذِكْر شعيب بأنه أخوهم.

وهٰذا الفرقُ من النفائسِ اللطيفةِ العزيزةِ الشريفةِ.

وأما احتجاجُهم بيوم الظُّلَّة؛ فإن كان دليلًا بمجرَّدِهِ علىٰ أنَّ هؤلاء أمةٌ أخرىٰ؛ فليكن تَعْدادُ الانتقام بالرَّجْفة والصيحة دليلًا علىٰ أنَّهما أمتان أخريان، وهٰذا لا يقولُهُ أحدٌ يَفْهَمُ شيئًا من هٰذا الشان.

فأمَّا الحديثُ الذي أورده الحافظُ ابن عساكر في ترجمة النبيِّ شعيبٍ عليه السلام من طريق: محمد بن عثمان بن أبي شَيْبة، عن أبيه، عن معاوية بن هشام، عن هشام بن سعد، عن شقيق بن أبي هلال، عن ربيعة بن سيفٍ، عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا: «**إنَّ قومَ مَدْيَنَ وأصحابَ الأيكةِ أمَّتانِ بَعَثَ اللهُ إليهما شُعيبًا النبيَّ عليه السلام**»[1]؛ فإنَّه حديثٌ غريب، وفي رجالِهِ مَنْ تُكُلِّمَ فيه، والأشبه أنَّه من كلام عبد الله بن عمرو ممَّا أصابَه يومَ اليرموك من تلك الزاملتينِ من أخبار بني إسرائيل. والله أعلم.

ثم قد ذَكَرَ الله عن أهل الأيكةِ من المذمَّةِ ما ذَكَرَهُ عن أهل مدينَ من التطفيف في المكيال والميزان، فدلَّ علىٰ أنهم أمةٌ واحدةٌ، أهلِكوا بأنواع من العذاب، وذُكِرَ في كلِّ موضع ما يناسبُ من الخطاب.

۞ [عذاب يوم الظلة]:

وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٨٩﴾ [الشعراء: ١٨٩]: ذَكَروا أنَّهم أصابهم حرٌّ شديدٌ، وأسكن اللهُ هبوبَ الهواء عنهم سبعةَ أيَّام، فكان لا ينفعُهم مع ذٰلك ماءٌ ولا ظلٌّ ولا دخولُهم في الأسراب، فهربوا من مَحَلَّتِهم إلىٰ البريَّة، فأظلَّتهم سحابةٌ، فاجتمعوا تحتها

---

(١) (ضعيف). وهو ساقط من مطبوع ابن عساكر، لكن أحسن الحافظ ابن كثير رحمه الله بإيراد سنده؛ ففيه: محمد بن عثمان بن أبي شيبة: اختلفوا فيه. وشقيق بن أبي هلال: لم أجد له ترجمة. وربيعة بن سيف: صدوق له مناكير. فكأن هٰذا منها. والسند أحسن أحواله الضعف. والله أعلم.

ليستظِلُّوا بظلِّها، فلمَّا تكامَلوا فيه؛ أرسلَها اللهُ ترميهم بشررٍ وشُهُبٍ، ورَجَفَتْ بهمُ الأرضُ، وجاءَتْهمْ صيحةٌ من السماءِ، فأزهقتِ الأرواح وخرَّبتِ الأشباح. ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف: ٩١-٩٢].

۞ [نجاة من آمن مع شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ من العذاب]:

ونجَّىٰ الله شعيبًا ومن معه من المؤمنين؛ كما قال تعالىٰ -وهو أصدق القائلين-: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود: ٩٤-٩٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف: ٩٠-٩٢]. وهٰذا في مقابلة قولهم: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأعراف: ٩٠].

۞ [خطاب شعيب لقومه بعد هلاكهم وهجرته عن محلتهم]:

ثم ذَكَرَ تعالىٰ عن نبيِّهم أنَّه نعاهم إلىٰ أنفُسِهم موبِّخًا ومؤنِّبًا ومقرِّعًا، فقال تعالىٰ: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: ٩٣]؛ أي أعرض عنهم موليًا عن محلَّتِهم بعد هَلَكَتِهم قائلًا: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾؛ أي: قد أديتُ ما كان واجبًا عليَّ من البلاغ التامِّ والنصح الكامل، وحرصتُ علىٰ هدايتكم بكلِّ ما أقدرُ عليه وأتوصَّل إليه، فلم ينفعْكُم ذٰلك؛ لأنَّ الله لا يهدي مَن يَضِلُّ وما لهم من ناصرين؛ فلست أتأسفُ هٰذا عليكم؛ لأنَّكم لم تكونوا تقبلونَ النصيحة، ولا تخافونَ يوم الفضيحة. ولهٰذا قال: ﴿فَكَيْفَ آسَىٰ﴾؛ أي: أحزنُ. ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾؛ أي: لا يقبلون الحقَّ ولا يرجِعون إليه ولا يلتفتون إليه. فحلَّ بهم من بأس الله الذي لا يردُّ ما لا يُدافَعُ ولا يُمانَعُ، ولا محيدَ لأحدٍ أريد به عنه، ولا مناصَ منه.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكرَ في «تاريخه»[1] عن ابن عباس: أنَّ شُعيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كان بعدَ يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وعن وهب بن مُنبِّهٍ: أنَّ شُعيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ مات بمكَّةَ ومَن معه من المؤمنينَ، وقبورُهم غربيَّ الكعبةِ بين دار الندوة ودار بني سهم.

---

(١) (٢٣/ ٧٠ وما بعدها).

باب
ذكر ذرية إبراهيم عليه الصلاة والتسليم

قد قدَّمنا قصته مع قومِهِ، وما كان من أمرِهم، وما آل إليه أمرُهُ ﷺ والتحيَّة والإكرام، وذكرنا ما وقع في زمانِهِ من قصَّةِ قوم لوطٍ، وأتبعنا ذٰلك بقصة مدينَ قوم شُعيب عليه السلام؛ لأنَّها قرينتُها في كتابِ الله عز وجل في مواضع متعدِّدة، فذكَرَ تعالىٰ بعد قصة قوم لوط قصةَ مدينَ، وهم أصحابُ الأيكةِ علىٰ الصحيح كما قدَّمنا، فذكرْناها تِبْعًا لها اقتداءً بالقرآن العظيم.

ثم نشرعُ الآن في الكلام علىٰ تفصيل ذُرِّيَّةِ إبراهيم عليه السلام؛ لأنَّ الله جَعَلَ في ذُرِّيَّتِهِ النبوَّةَ والكتابَ؛ فكلُّ نبيٍّ أرسِلَ بعدَه؛ فمن ولدِهِ.

ذكر إسماعيل عليه السلام

[إسماعيل عليه السلام أكبر أولاد الخليل وأجلهم]:

وقد كان للخليل بنونَ كما ذكرنا، ولٰكنَّ أشهرَهم الأخوان النبيَّان العظيمان الرسولان، أسنُّهما وأجلُّهما -الذي هو الذبيح علىٰ الصحيح-: إسماعيلُ، بِكْرُ إبراهيمَ الخليل، من هاجَرَ القِبْطِيَّةِ المِصْرِيَّةِ عليها السلام مِن العَظيم الجليل، ومَنْ قال: إنَّ الذَّبيح هو إسحاق؛ فإنَّما تلقَّاه من نَقَلَةِ بني إسرائيل، الذين بدَّلوا وحرَّفوا وأوَّلوا التوراة والإنجيل، وخالفوا ما بأيديهم في هٰذا من التَّنزيل؛ فإنَّ إبراهيم أُمِرَ بذبح ولدِهِ البكر (وفي رواية: الوحيد)، وأيًّا ما كان؛ فهو إسماعيل بنصِّ الدليل؛ ففي نصِّ كتابهم[1] أنَّ إسماعيلَ وُلِدَ ولإبراهيم من العُمُرِ ستٌّ وثمانون سنةً، وإنَّما ولد إسحاق بعد مضي مئة سنة من عُمر الخليل؛ فإسماعيلُ هو البِكْرُ لا محالة، وهو الوحيدُ صورةً ومعنًىٰ علىٰ كل حالة: أمَّا في الصورة؛ فلأنه كان وحده ولدَه أزيدَ من ثلاث عشرةَ[2] سنةً. وأما أنه وحيدٌ في المعنىٰ؛ فإنَّه هو الذي هاجر به أبوه ومعه أمُّه هاجر-وكان صغيرًا رضيعًا فيما قيل-، فوضَعَهُما في وِهاد جبال فارانَ، وهي الجبالُ التي حولَ مكةَ نِعْمَ المَقيل، وتَرَكَهُما هنالك ليس معهما من الزادِ والماء إلَّا القليل، وذٰلك ثقةً بالله وتوكُّلًا عليه، فحاطَهما الله تعالىٰ بعنايتِهِ وكفايتِهِ فنعم الحسيبُ والكافي والوكيلُ والكفيل؛ فهٰذا هو الولد الوحيد في الصورة والمعنىٰ، ولكن أين مَن يتفطَّنُ لهٰذا السرِّ؟! وأين مَن يَحِلُّ هٰذا المحلَّ؟! والمعنىٰ لا يدركُه ويحيطُ بعلمه إلَّا كل نبيهٍ نبيل.

[ثناء الله تعالى على إسماعيل عليه السلام]:

وقد أثنىٰ اللهُ تعالىٰ عليه وَوَصَفَهُ بـ: الحِلْم، والصبر، وصدق الوعد، والمحافظة علىٰ الصلاة، والأمر بها لأهله لِيَقِيَهُمُ العذاب، مع ما كان يدعو إليه من عبادة ربِّ الأرباب.

---

(١) (سفر التكوين/ الأصحاح ٢٢)، وقد تقدم هٰذا.

(٢) في جميع الأصول: «ثلاثةَ عشر»! والصواب ما أثبته.

قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢)﴾ [الصافات: ١٠١-١٠٢]: فطاوعَ أباه على ما إليه دعاه، ووَعَده بأن سيصبرُ، فوفَّىٰ بذلك، وصبر علىٰ ذلك.

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥)﴾ [مريم: ٥٤-٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ (٤٨)﴾ [ص: ٤٥-٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٦)﴾ [الأنبياء: ٨٥-٨٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ الآية [النساء: ١٦٣].

وقال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ الآية [البقرة: ١٣٦].

ونظيرتها في السورة الأخرىٰ(١).

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ الآية [البقرة: ١٤٠].

فذكر الله عنه كلَّ صفةٍ جميلة، وجعله نبيَّه ورسولَه، وبرَّأه من كل ما نَسَبَ إليه الجاهلونَ، وأمَرَ بأنْ يُؤمِنَ بما أُنْزِلَ عليه عبادُه المؤمنونَ.

[ثناء النبي ﷺ على إسماعيل عليه السلام]:

وذكر علماءُ النسب وأيام الناس:

---

(١) إن كانت (الأخرىٰ) صفةً لـ (نظيرتها)؛ فنظيرتها هي الآية التي ذكرها بعدها. وإن كانت (الأخرىٰ) صفةً لـ (السورة)؛ فنظيرتها هي قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ [آل عمران: ٨٤].

أنَّه أولُ من رَكِبَ الخيلَ، وكانت قبل ذٰلك وحوشًا، فأنَّسَها ورَكِبَها.

وقد قال سعيد بن يحيىٰ الأمويُّ في «مغازيه»: حدثنا شيخٌ من قريش، حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز، عن عبد الله بن عمر: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**اتَّخِذوا الخَيْلَ واعْتَقِبوها؛ فإنَّها ميراثُ أبيكم إسماعيلَ**»(١). وكانت هٰذه العِرابُ(٢) وحوشًا(٣)، فدعا لها بدعوتِهِ التي كان أُعْطِيَ، فأجابتْه.

وأنَّه أولُ من تكلَّم بالعربيةِ الفصيحةِ البليغة، وكان قد تعلَّمَها من العرب العاربةِ الذين نزلوا عندهم بمكَّة من جُرْهُمٍ والعماليق وأهل اليمن من الأمم المتقدِّمين من العرب قبل الخليل. قال الأمويُّ: حدَّثني عليُّ بن المغيرةِ، حدثنا أبو عبيدةَ، حدثنا مسمعُ بن مالك، عن محمد بن علي بن الحسين، عن آبائه، عن النبيِّ ﷺ: أنه قال: «**أولُ مَن فَتِقَ لسانُهُ بالعربيةِ البيِّنةِ إسماعيلُ، وهو ابن أربع عشرة سنةً**»(٤). فقال له يونس: صدقتَ يا أبا سيَّار! هكذا أبو جري حدثني.

---

(١) (**ضعيف**). فيه إبهام الشيخ القرشي، وعبد الملك بن عبد العزيز هو ابن جريج؛ لم يسمع من ابن عمر؛ بينه وبينه رجل. ولم أجد هٰذا الحديث في شيء من أصول كتب السنة.

(٢) العِراب: الخيل الأصيلة غير الهجينة.

(٣) في نسخة: «وحشًا».

(٤) (**صحيح**). وقد ورد من حديث جماعة من الصحابة:

فرواه: الشيرازي في «الألقاب»، والزبير بن بكار؛ من حديث علي رضي الله عنه.

قال المناوي في «الفيض»: «رواه الزبير بن بكار من حديث علي رفعه باللفظ المذكور، وحسن ابن حجر إسناده».

ورواه: الطبراني، والديلمي؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال المناوي في «الفيض»: «خرجه الطبراني والديلمي؛ من حديث ابن عباس باللفظ المذكور، وقال ابن حجر: إسناده حسن».

ورواه الأموي بالسند الذي ذكره المصنف رحمه الله.

ورواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢١) موقوفًا علىٰ محمد بن علي وغيره من أهل العلم.

ورواه: الحاكم (٢/ ٥٥٣)، والبيهقي في «الشعب» (٢/ ٢٣٤/ ١٦٢٠)؛ من كلام ابن عباس موقوفًا عليه بسند ضعيف.

ويشهد لمعناه قصة إسماعيل في حفر زمزم وبناء البيت؛ ففيه أنه ﷺ شب وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم. فإن لم يصح الحديث بمجموع ما سبق؛ فهو صحيح بهٰذا الشاهد. والله أعلم.

۞ [ذكر أولاد إسماعيل عليه السلام]:

وقد قدَّمنا أنه تزوَّجَ لمَّا شبَّ امرأةً من العماليق، وأن أباه أمَرَه بفراقِها، ففارقها. قال الأمويُّ: هي عمارة بنت سعد بن أسامة بن أكيل العماليقي. ثم نكَحَ غيرَها، فأمره أن يستمرَّ بها، فاستمرَّ بها. وهي السيدة بنت مضاض بن عمرو الجُرْهُميِّ، وقيل: هٰذه ثالثةٌ، فولدتْ له اثني عشر ولدًا ذكرًا، وقد سمَّاهم محمدُ بن إسحاقَ رحمه الله، وهم نَبايُوتُ، وقِيدَارُ، وأدَبْئيلُ، ومِبْسامُ، ومِشْماعُ، ومَسَّا، ودُومَةُ، وحَدارُ، ويَطورُ، ونافيشُ، وتَيما، وقِدْمَةُ. وهكذا ذَكَرَهُم أهلُ الكتاب في كتابهم[1]، وعندهم أنَّهم الاثنا عشر عظيمًا المبشَّرُ بهم المتقدِّمُ ذكرُهم، وكذبوا في تأويلِهم ذٰلك.

۞ [ما جاء في وفاة إسماعيل عليه السلام ووصيته]:

وكان إسماعيلُ عليه السلام رسولًا إلىٰ أهل تلك الناحية وما والاها من قبائل جُرْهُمٍ والعماليقِ وأهل اليمن صلواتُ الله وسلامه عليه.

ولمَّا حضرتْهُ الوفاةُ؛ أوصىٰ إلىٰ أخيه إسحاقَ، وزوَّجَ ابنَتَه نسمةَ من ابن أخيه العيصِ بن إسحاقَ، فولدتْ له الرُّوم، ويقالُ لهم: بنو الأصفرِ؛ لصفرةٍ كانت في العيصِ، ووَلَدَتْ له اليونانَ في أحدِ الأقوالِ، ومِنْ وَلَدِ العيص الأسبانُ؛ قيل: منهما أيضًا. وتوقَّف ابن جرير رحمه الله.

ودُفِنَ نبيُّ الله إسماعيلُ بالحِجْرِ مع أمِّه هاجر، وكان عمرُهُ يومَ مات مئةً وسبعًا وثلاثين سنة.

وروي عن عمر بن عبد العزيز: أنَّه قال: شكا إسماعيلُ عليه السلام إلىٰ ربِّه عز وجل حرَّ مكة، فأوحىٰ الله إليه: إنِّي سأفتحُ لك بابًا إلىٰ الجنة إلىٰ الموضع الذي تُدفن فيه؛ يَجْري عليك رَوْحُها إلىٰ يوم القيامة.

وعربُ الحجازِ كلُّهم ينتسبون إلىٰ ولديه نَبايوتَ وقِيدَارَ.

۞ ۞ ۞

(١) (سفر التكوين/ الأصحاح ٢٥).

ذكر إسحاق بن إبراهيم الكريم ابن الكريم عليهما الصلاة والتسليم

[وذكر قصة يعقوب بن إسحاق عليهما الصلاة والتسليم]

قد قدَّمنا أنَّه وُلِدَ ولأبيه مئةُ سنة بعد أخيه إسماعيلَ بأربع عشرة سنةً، وكان عُمُرُ أمِّهِ سارة حين بُشِّرَتْ به تسعين سنة.

قال الله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات: ١١٢-١١٣].

۞ [ثناء الله ورسوله الكريم على إسحاق عليه السلام]:

وقد ذَكَرَهُ الله تعالىٰ بالثناء عليه في غير ما آية من كتابه العزيز.

وقدَّمنا في حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**إنَّ الكريمَ ابنَ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ يوسُفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ**»(١).

۞ [ذكر أبناء إسحاق عليه السلام]:

وذكر أهلُ الكتاب أنَّ إسحاق لمَّا تزوجَ رِفْقَةَ بنت بَتُوئيل في حياة أبيه؛ كان عُمُرُه أربعين سنةً، وأنها كانت عاقرًا، فدعا الله لها، فحَمَلَتْ، فولدتْ غلامينِ توأمينِ: **أولُهما**: اسمه(٢) عِيصو، وهو الذي تسمِّيه العرب العيصَ، وهو والد الروم. **والثاني**: خرج وهو آخذ بعقبِ أخيه، فسمَّوْه يَعْقوبَ، وهو إسرائيلُ الذي ينتسبُ إليه بنو إسرائيل.

---

(١) (سفر التكوين/ الأصحاح ٢٤-٣٥)، وقد اختصر الحافظ ابن كثير أشياء لا تليق منها فأحسن رحمه الله، ومع ذلك؛ ففي السياق هنا ما هو غريب ومنكر ومستبعد وغير لائق بأنبياء الله ورسله وصفوته من خلقه. فالله أعلم.

(٢) في نسخة: «سموه».

قالوا: وكان إسحاقُ يحبُّ عِيصو أكثرَ من يعقوبَ؛ لأنه بِكْرُهُ، وكانت أمُّهما رِفقَةُ تحبُّ يعقوبَ أكثر؛ لأنَّه الأصغرُ.

قالوا: فلمَّا كَبِرَ إسحاقُ وضَعُفَ بصرُهُ؛ اشتهىٰ علىٰ ابنِهِ العيصِ طعامًا؛ وأمَرَه أن يذهبَ فيصطادَ له صيدًا ويطبُخَه له ليباركَ عليه ويدعوَ له -وكان العيصُ صاحبَ صيدٍ-، فذهب يبتغي ذٰلك؛ فأمرتْ رِفْقَةُ ابنَها يعقوب أن يذبحَ جَدْيَيْنِ من خيار غنمِهِ، ويصنعَ منهُما طعامًا كما اشتهاه أبوهُ، ويأتي إليه به قبلَ أخيهِ لِيَدْعُوَ له، فقامتْ، فألبستْه ثيابَ أخيه، وجعلتْ علىٰ ذِراعَيْه وعُنُقِهِ من جلدِ الجَدْيَيْنِ؛ لأنَّ العيصَ كان أشعر الجسدِ ويعقوبُ ليس كذٰلك، فلمَّا جاء به وقرَّبه إليه؛ قال: من أنت؟ قال: ولدُك. فضمَّه إليه وجسَّه وجعلَ يقولُ: أمَّا الصَّوتُ؛ فصوتُ يعقوبَ، وأما الجَسُّ والثيابُ؛ فالعيصُ. فلمَّا أكَلَ وفَرَغَ؛ دَعا له أن يكونَ أكبرَ إخوتِهِ قَدْرًا، وكَلِمتُهُ عليهم وعلىٰ الشعوب بعدَه، وأن يَكْثُرَ رِزْقُهُ وولدُه. فلمَّا خَرَجَ من عندِهِ؛ جاؤ أخوه العيصُ بما أمَرَهُ به والدُهُ، فقرَّبَه إليه، فقال له: ما هٰذا يا بنيّ؟ قال: هٰذا الطعامُ الذي اشْتَهَيْتَهُ. فقال: أما جئتَني به قبلَ الساعةِ وأكلتُ منه ودعوتُ لك؟! فقال: لا والله! وعرَفَ أنَّ أخاه قد سَبَقَهُ إلىٰ ذٰلك، فوجَدَ في نفسِهِ عليه وَجْدًا كثيرًا، وذَكَروا أنَّه تواعَدَه بالقتل إذا مات أبوهُما، وسألَ أباه فدعا له بِدَعواتٍ أخرىٰ، وأن يَجْعَلَ لِذُرِّيتِهِ غليظَ الأرض، وأنَّ يُكَثِّرَ أرزاقَهم وثمارهم.

فلما سمعت أمُّهما ما يَتَواعَدُ به العيصُ أخاه يعقوبَ؛ أمرتِ ابنَها يعقوبَ أنْ يذهبَ إلىٰ أخيها لابانَ الذي بأرض حَرَّانَ، وأن يكونَ عندَه إلىٰ حين يَسْكُنُ غَضَبُ أخيه عليه، وأن يتزوَّجَ من بناتِهِ، وقالت لزوجِها إسحاقَ أن يأمُرَه بذٰلك ويوصِيَه ويدعوَ له، ففعلَ.

۞ [قصة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ]:

فخرج يعقوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ من عندِهم من آخرِ ذٰلك اليوم، فأدركَهُ المساءُ في موضع، فنام فيه، وأخذَ حَجَرًا، فوضَعَه تحت رأسِهِ ونام، فرأىٰ في نومِهِ ذٰلك مِعْراجًا منصوبًا من السماء إلىٰ الأرض، وإذا الملائكةُ يصعَدون فيه وينزِلون، والربُّ جَلَّ جَلَالُهُ يخاطِبُه ويقولُ له: إنِّي سأبارِكُ عليك، وأكثِّرُ ذُرِّيَّتَكَ، وأجعلُ لك هٰذه الأرضَ ولِعَقِبكَ من بعدِك. فلمَّا هبَّ من نومِهِ؛ فَرِحَ بما رأىٰ، ونَذَرَ لله لَئِنْ رَجَعَ إلىٰ أهله سالمًا؛ لَيَبْنِيَنَّ في هٰذا الموضع معبدًا لله عَزَّ وَجَلَّ، وأنَّ جميع ما يُرْزَقُهُ من شيءٍ

يكونُ لله عُشْرُهُ. ثم عَمَدَ إلىٰ ذٰلك الحجر، فجَعَلَ عليه دُهنًا يتعرَّفُه به، وسمَّىٰ ذٰلك الموضعَ: بيتَ إيل؛ أي: بيتَ اللهِ، وهو موضعُ بيت المقدسِ اليوم، الذي بناه يعقوبُ بعد ذٰلك كما سيأتي.

قالوا: فلمَّا قَدِمَ يعقوبُ علىٰ خالِهِ أرضَ حرَّانَ؛ إذا له ابنتانِ: اسمُ الكبرىٰ لَيا، واسم الصغرىٰ راحيلُ، وكانت أحسنَهما وأجملَهما، [فطلبَ يعقوبُ من خاله أن يزوِّجه ابنَتَه راحيلَ]، فأجابه إلىٰ ذٰلك؛ بشرطِ أن يرعىٰ غَنَمَه سبع سنينَ، فلمَّا مضتِ المدةُ علىٰ خاله لابانَ؛ صنع طعامًا، وجمعَ الناس عليه، وزفَّ إليه ليلًا ابنتَه الكبرىٰ لَيا، وكانت ضعيفةَ العينينِ قبيحةَ المنظرِ، فلمَّا أصبحَ يعقوبُ؛ إذا هي لَيا، فقال لخالِهِ: لمَ غدرتَ بي وأنت إنما خطبتُ إليك راحيلَ؟! فقال: إنَّه ليس من سُنَّتِنا أن نزوِّجَ الصغرىٰ قبل الكبرىٰ؛ فإن أحببتَ أختَها؛ فاعملْ سبعَ سنين أخرىٰ وأزوِّجُكَها. فعمل سبعَ سنين، وأدخَلَها عليه مع أختها. وكان ذٰلك سائغًا في مِلَّتِهم، ثم نُسِخَ في شريعةِ التوراة. وهٰذا وحده دليلٌ كافٍ علىٰ وقوعِ النسخ؛ لأنَّ فعل يعقوبَ ﵇ دليلٌ علىٰ جوازِ هٰذا وإباحته؛ لأنَّه معصوم. ووهَبَ لابانُ لكلِّ واحدةٍ من ابنتيه جاريةً؛ فوهب لِلَيا جاريةً اسمُها زِلْفَةُ، ووهب لراحيلَ جاريةً اسمُها بِلْهَةُ.

وجَبَرَ اللهُ تعالىٰ ضَعْفَ لَيا بأن وَهَبَ لها أولادًا، فكان أولَ مَنْ وَلَدَتْ ليعقوبَ روبينُ ثم شِمعونُ ثم لَاوي ثم يَهوذا. فغارت عند ذٰلك راحيلُ -وكانت لا تَحْبَلُ-، فوهبتْ ليعقوبَ جاريتَها بِلْهَةَ، فوطِئَها، فحملتْ، وولدتْ له غلامًا سمَّتْه دانًا، وحملتْ وولدت غلامًا آخر سمته نَفْتالي. فعَمَدت عند ذٰلك لَيا، فوهبت جاريتها زِلْفَةَ لِيعقوبَ[1] ﵇، فولدت له جادًا وأَشِيْرَ غلامين ذكرين. ثم حملت لَيا أيضًا فولدتْ غلامًا خامسًا منها وسمتْه يَسَّاكَرَ، ثم حملتْ ووَلَدَتْ غلامًا سادسًا سمته زَبولونَ، ثم حملتْ ووَلَدَتْ بنتًا سمتها دِينَة فصار لها سبعة من يعقوب. ثم دعت اللهَ تعالىٰ راحيلُ، وسألَتْه أنْ يَهَبَ لها غلامًا من يعقوبَ، فسمع الله نداءَها، وأجاب دعاءَها، فحملتْ من نبيِّ الله يعقوبَ، فولدتْ له غُلامًا عظيمًا شريفًا حسنًا جميلًا سمَّتْه يوسُفَ.

كلُّ هٰذا وهم مقيمونَ بأرض حَرَّانَ، وهو يَرْعىٰ علىٰ خالِهِ غَنَمَهُ بعدَ دخولِهِ علىٰ البنتين ستَّ سنين أخرىٰ، فصار مدَّةُ مُقامِهِ عشرين سنةً.

---

(١) في جميع الأصول: «من يعقوب»! وهو ضعيف.

فطلبَ يعقوبُ من خالِهِ لابانَ أن يسرِّحَه ليمرَّ إلىٰ أهله، فقال له خالُهُ: إنِّي قد بورِكَ لي بسببكَ؛ فسلْني من مالي ما شئتَ! فقال: تعطيني كلَّ حَمَلٍ يولَدُ من غنمِكَ هٰذه السنةَ أبقعَ[١]، وكلَّ حَمَلٍ ملمع أبيضَ بسوادٍ، وكلَّ أملحَ[٢] ببياضٍ، وكلَّ أجلحَ[٣] أبيضَ من المعز. فقال: نعم. فعَمَدَ بنوه، فأبرزوا مِن غنم أبيهم ما كان علىٰ هٰذه الصفاتِ من التُّيوس؛ لئلَّا يولدَ شيءٌ من الحملان علىٰ هٰذه الصفات، وساروا بها مسيرةَ ثلاثة أيام عن غنم أبيهم. قالوا: فَعَمَدَ يعقوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ قضبانٍ رطبةٍ بيضٍ من لوزٍ ودُلْبٍ[٤]، فكان يقشِرُها بُلْقًا ويَنْصِبُها في مساقي الغنم من المياهِ؛ لتنظرَ الغنمُ إليها، فتفزَعَ وتتحرَّكَ أولادُها في بطونِها، فتصيرَ ألوانُ حِمْلانها كذٰلك. وهٰذا يكون من باب خوارقِ العاداتِ، وينتظِمُ في سلك المعجزاتِ.

فصار ليعقوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أغنامٌ كثيرةٌ ودوابُّ وعبيدٌ، وتغيَّرَ له وجهُ خالِهِ وبنيه، وكأنَّهم انحصروا منه.

وأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ يعقوبَ أن يرجِعَ إلىٰ بلادِ أبيه وقومه، ووعَدَه بأن يكونَ معه، فعَرَضَ ذٰلك علىٰ أهلِهِ، فأجابوه مبادرينَ إلىٰ طاعتِهِ، فتحمَّلَ بأهلِهِ ومالِهِ، وسرقتْ راحيلُ أصنامَ أبيها، فلما جاوَزوا وتحيَّزوا عن بلادِهِم، لَحِقَهم لابانُ وقومُه، فلمَّا اجتمعَ لابانُ بيعقوبَ؛ عاتبَه في خروجِهِ بغيرِ علمِهِ، وهلَّا أعلَمَه فيُخْرِجَهم في فرحٍ ومزاهرَ وطبولٍ، وحتَّىٰ يودِّعَ بناتِهِ وأولادَهُنَّ، ولمَ أخَذوا أصنامَه معَهم؟ ولم يكن عند يعقوبَ علمٌ من أصنامِهِ، فأنكرَ أن يكونَ أخذوا له أصنامًا، فدخَلَ بيوتَ بناتِه وإمائِهِنَّ يفتِّشُ، فلم يجدْ شيئًا، وكانت راحيلُ قد جَعَلَتْهُنَّ في بَرْذَعَةِ الجمل وهي تحتَها، فلم تقمْ، واعتذرتْ بأنها طامثٌ.

فلم يقدِرْ عليهنَّ. فعندَ ذٰلك تواثقوا علىٰ رابيةٍ هناك يُقالُ لها جِلْعادُ علىٰ أنَّه لا يُهينُ بناتِهِ، ولا يتزوَّجُ عليهنَّ، ولا يجاوِزُ هٰذه الرابية إلىٰ بلادِ الآخرِ؛ لا لابانُ ولا يعقوبُ، وعَمِلا طعامًا، وأكل القوم معهُم وتودَّعَ كلٌّ منهما من الآخرِ. وتفارقوا راجعين إلىٰ بلادهم.

---

(١) اختلط بياضه بسواد.

(٢) اختلط سواده ببياض.

(٣) ليس له قرونٌ.

(٤) في بعض الأصول: «ولبٍّ»! وفي بعضها: «وولب»! والتصويب من «العهد القديم».

فلمَّا اقتربَ يعقوبُ من أرض ساعيرَ؛ تلقَّته الملائكةُ يبشرونَه بالقدوم، وبعثَ يعقوبُ البُرُدَ إلىٰ أخيه العيصِ يترفَّقُ له ويتواضَعُ له، فرجعتِ البُرُدُ وأخبرتْ يعقوبَ بأنَّ العيصَ قد رَكِبَ إليك في أربعِ مئةِ راجل. فخشيَ يعقوبُ من ذٰلك، ودعا الله ﷻ وصلَّىٰ له، وتضرَّع إليه وتَمَسْكَنَ لديهِ، وناشَدَه عَهْدَه ووَعْدَه الذي وَعَدَهُ به، وسألَه أن يكُفَّ عنه شرَّ أخيه العيصِ، وأعدَّ لأخيه هديةً عظيمةً، وهي: مئتا شاةٍ، وعشرون تيسًا ومئتا نعجةٍ، وعشرون كبشًا، وثلاثون لِقْحَةً، وأربعون بقرةً، وعشرةٌ منَ الثيران وعشرون أتانًا وعشرة من الحُمُرِ، وأمر عبيدَه أن يسوقوا كلًّا من هٰذه الأصناف وحدَه، وليكنْ بين كلِّ قطيعٍ وقطيعٍ مسافةٌ، فإذا لَقِيَهُمُ العيصُ، فقال للأوَّل: لمنْ أنت؟ ولمنْ هٰذه معك؟ فليقلْ: لعبدِكَ يعقوبَ، أهداها لسيِّدي العيصِ. وليقل الذي بعدَه كذٰلك، وكذٰلك الذي بعدَه، وكذٰلك الذي بعده... ويقولُ كلٌّ منهم: وهو جاء بعدَنا. وتأخَّر يعقوبُ بزوجتيهِ وأَمَتَيْهِ وبنيه الأحَدَ عشر بعد الكلِّ بليلتينِ، وجعل يسيرُ فيهما ليلًا ويكمُنُ نهارًا.

فلمَّا كان وقتُ الفجرِ من الليلة الثانية؛ تَبَدَّىٰ له مَلَكٌ من الملائكةِ في صورة رجل، فظنَّهُ يعقوبُ رجلًا من الناس، فأتاه يعقوبُ لِيُصارِعَه ويغالِبَه، فظهر عليه يعقوبُ فيما يُرىٰ؛ إلا أنَّ المَلَكَ أصابَ وَرِكَه، فعرجَ يعقوبُ، فلمَّا أضاء الفجرُ؛ قال له المَلَكُ: ما اسمُك؟ قال: يعقوبُ. قال: لا يَنْبَغي أن تُدْعىٰ بعدَ اليوم إلَّا إسرائيلَ. فقال له يعقوبُ: ومن أنتَ؟ وما اسمُك؟ فذهب عنهُ، فعلم أنَّه مَلَكٌ من الملائكةِ، وأصبح يعقوبُ وهو يعرجُ من رجلِهِ؛ فلذٰلك لا يأكُلُ بنو إسرائيلَ عِرْقَ النَّساء!

ورَفَعَ يعقوبُ عينيهِ؛ فإذا أخوه العيصُ قد أقبل في أربعِ مئةِ راجل، فتقدَّم أمام أهلِهِ، فلمَّا رأىٰ أخاه العيصَ؛ سَجَدَ له سبعَ مرَّاتٍ. وكانت هٰذه تحيَّتَهم في ذٰلك الزَّمانِ، وكانَ مشروعًا لهم؛ كما سجدتِ الملائكةُ لآدم تحيةً له، وكما سجد إخوةُ يوسفَ وأبواه له كما سيأتي. فلما رآه العيصُ؛ تقدَّم إليه واحتَضَنَه وقبَّلَه وبكىٰ، ورفع العيصُ عينيهِ، ونظر إلىٰ النساءِ والصبيانِ، فقالَ: من أين لك هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الذين وَهَبَ الله لعبدِكَ.

فدنَتِ الأمَتانِ وبنوهما فسجَدوا له، ودنتْ لَيا وبنوها فسجَدوا له، ودنت راحيلُ وابنُها يوسفُ فخرَّا سُجَّدًا له، وعَرَضَ عليه أن يقبلَ هديَّته وألحَّ عليه، فقبلَها.

ورجع العيصُ فتقدَّم أمامَه، ولَحِقَهُ يعقوبُ بأهلِهِ وما معه منَ الأنْعامِ[1] والمواشي والعبيدِ قاصدين جبالَ ساعيرَ، فلمَّا مرَّ بساحورَ؛ ابتنىٰ له بيتًا، ولدوابِّه ظلالًا، ثم مرَّ علىٰ أورشليم قرية شَكِيم، فنزل قِبَلَ القرية، واشترىٰ مزرعة شَكِيم بن حَمُور بمئةِ نعجةٍ، فضرب هنالِكَ فسطاطَه، وابْتَنىٰ ثَمَّ مَذْبحًا فسمَّاه إيلَ إلٰهَ إسرائيلَ، وأمره الله ببنائِهِ لِيَسْتَعْلِنَ له فيه، وهو بيتُ المقدسِ اليومَ، الذي جدَّدَه بعد ذٰلك سليمانُ بنُ داوودَ عليهما السلام، وهو مكانَ الصخرةِ التي علَّمَها بوضع الدُّهن عليها قبل ذٰلك؛ كما ذَكَرْنا أولًا.

۞ [خبر دينة بنت يعقوب عليه السلام]:

وذكر أهلُ الكتابِ هنا[2] قصةَ دِينَة بنت يعقوبَ بنت لَيا وما كان من أمرِها مع شَكِيم بن حَمُورَ الذي قَهَرَها علىٰ نفسها، وأدخَلَها منزِلَه، ثم خَطبها من أبيها وإخوتها، فقال إخوتُها: إلَّا أن تَخْتَتِنوا كلُّكم فنصاهِرَكم وتصاهِرونا؛ فإنَّا لا نصاهِرُ قومًا غُلْفًا. فأجابوهم إلىٰ ذٰلك واختَتَنوا كلُّهم، فلمَّا كان اليومُ الثالثُ واشتدَّ وَجَعُهم من ألم الختان؛ مالَ عليهم بنو يعقوبَ، فَقَتَلوهم عن آخرِهم، وقَتلوا شَكيمًا وأباه حَمُور لقبيح ما صَنَعوا إليهم مضافًا إلىٰ كُفْرِهِم وما كانوا يعبُدونَه من أصنامِهِم؛ فلهٰذا قَتَلَهم بنو يعقوبَ وأخذوا أموالَهم غنيمة.

ثم حملت راحيلُ فولدتْ غلامًا هو بَنْيامينُ؛ إلَّا أنَّها جُهِدَتْ في طَلْقِها بِهِ جَهْدًا شديدًا وماتت عَقيبَه، فدفَنَها يعقوبُ في أفْراتَةَ، وهي بيتَ لحم، وصنع يعقوبُ علىٰ قبرها حجرًا، وهي الحجارةُ المعروفةُ بقبر راحيلَ إلىٰ اليوم.

۞ [أولاد يعقوب عليه السلام]:

وكان أولادُ يعقوبَ الذكور اثني عشر رجلًا: فمن لَيا روبينُ وشِمعونُ ولَاوي ويَهوذا ويَسَّاكَرُ وزَبولونَ، ومن راحيلَ يوسفُ وبَنْيامينُ، ومن أمَةِ راحيلَ دانٌ ونَفْتالي، ومن أمَةِ لَيا جادٌ وأشَيْر؛ عليهم السلام.

---

(١) في نسخة: «الأغنام». وما أثبته أولىٰ.

(٢) يعني في آخر قصة يعقوب عليه السلام. وقد جاء هٰذا عندهم في: (سفر التكوين/ الأصحاح ٣٤).

۞ [وفاة إسحاق عليه السلام]:

وجاء يعقوبُ إلىٰ أبيه إسحاقَ، فأقامَ عنده بقرية حَبْرونَ التي في أرض كنعانَ حيثُ كان يسكنُ إبراهيمُ، ثم مَرِضَ إسحاقُ ومات عن مئةٍ وثمانينَ سنةً، ودفنه ابناه العيصُ ويعقوبُ مع أبيه إبراهيم الخليل في المغارة التي اشتراها كما قدمنا.

۞ ۞ ۞

ذكر ما وقع من الأمور العجيبة في حياة إسرائيل

فمن ذلك

قصة يوسف ابن راحيل

وقد أنزلَ الله ﷻ في شأنِهِ وما كان من أمرِهِ سورةً من القرآن العظيم؛ لِيُتَدَبَّرَ ما فيها من الحِكَم والمواعظِ والآداب والأمر الحكيم.

۞ [هيمنة القرآن على كل ما أنزل قبله من الكتاب]:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣﴾ [يوسف: ١-٣].

وقد تكلَّمْنا علىٰ الحروف المقطَّعة في أول تفسير سورة البقرة؛ فمن أراد تحقيقَهُ؛ فَلْيَنْظُرْهُ ثَمَّ.

وتكلَّمْنا علىٰ هٰذه السورة مستقصًىٰ في موضِعِها من «التفسير»، ونحن نذكُرُ هاهنا نُبَذًا ممَّا هناك علىٰ وجهِ الإيجاز والنَّجاز.

وجملةُ القول في هٰذا المقام: أنَّه تعالىٰ يمدَحُ كتابَهُ العظيمَ الذي أنزلَه علىٰ عبدِه ورسولِهِ الكريم، بلسانٍ عربيّ، فصيح بيِّنٍ واضح جليّ، يفهمُهُ كلُّ عاقل ذكيٍّ زكيّ؛ فهو أشرفُ كتاب نزل من السماءِ، أنزله أشرفُ الملائكةِ علىٰ أشرف الخلقِ في أشرف زمانٍ ومكانٍ، بأفْصَحِ لغةٍ وأظهرِ بيانٍ: فإنْ كان السياقُ في الأخبار الماضيةِ أو الآتية؛ ذَكَرَ أحسَنَها وأبينَها، وأظْهَرَ الحقَّ ممَّا اختلفَ الناسُ فيه، ودَفَعَ الباطلَ وزيَّفَه وردَّه. وإن كان في الأوامرِ والنَّواهي؛ فأعدلُ الشرائع، وأوضحُ المناهج، وأبينُ حُكْمًا، وأعدلُ حَكَمًا؛ فهو كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٥]؛ يعني: صدقًا في الأخبار، عدلًا في الأوامر والنواهي.

ولهٰذا قال تعالىٰ: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ

مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾؛ أي: بالنسبة إلىٰ ما أوحي إليك فيه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورىٰ: ٥٢-٥٣].

وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ [طه: ٩٩-١٠١]؛ يعني: من أعرضَ عن هٰذا القرآن واتَّبعَ غيرَهُ من الكتبِ؛ فإنَّه ينالُه هٰذا الوعيدُ.

كما قال في الحديث المرويِّ في «المسند» و«الترمذي» عن أمير المؤمنين عليٍّ مرفوعًا وموقوفًا: «**من ابْتغى الهُدى في غيرِهِ؛ أضلَّهُ الله**»(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيْجُ بن النُّعمان، حدثنا هشيْمٌ، أنبأنا مجالدٌ(٢)، عن الشعبيِّ، عن جابر: أنَّ عمر بن الخطاب أتى النبيَّ ﷺ بكتابٍ أصابَه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ. قال: فغَضِبَ وقال: «**أمُتهوِّكونَ فيها يا ابنَ الخطابِ؟! والذي نفسي بيدِهِ؛ لقد جئتُكم بها بيضاءَ نقيَّةً، لا تسألوهم عن شيءٍ؛ فيخبروكم بحقٍّ فتكذِّبوهُ، أو بباطل فتصدِّقوهُ**(٣)، **والذي نفسي بيده؛ لو أن موسى كان حيًّا، ما وَسِعَه إلَّا أن يَتَّبِعَني**»(٤). إسنادٌ صحيحٌ.

---

(١) (**حسن**). رواه: أحمد (١/ ٩١)، والدارمي (٢/ ٤٣٥)، والترمذي (٤٦-فضائل القرآن، ١٤- فضل القرآن، ٥/ ١٧٢/ ٢٩٠٦)؛ من طرق عن الحارث الأعور، عن علي... فذكره مرفوعًا في سياق طويل.
قال الترمذي: «هٰذا حديث لا نعرفه إلا من هٰذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال». وضعفه الألباني.
لكن هٰذه القطعة من الحديث لا ينبغي تضعيفها؛ فإن شواهدها من نصوص الكتاب والسنة كثيرة.

(٢) في جميع الأصول: «حدثنا هشام، أنبأنا خالد»! والتصويب من «المسند».

(٣) في جميع الأصول: «بحق فتكذبونه، أو بباطل فتصدقونه»! وهو خطأ لغة ورواية.

(٤) (**صحيح**). رواه: أحمد (٣/ ٣٨٧)، والدارمي (١/ ١١٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٧/ ٥٠)؛ من طرق عن مجالد... به فذكره. ومجالد ليس بالقوي وتغير بأخرة؛ فالسند لا بأس به في الشواهد.
لكن تشهد له الطريق الأخرىٰ التي ساق الحافظ ابن كثير لفظها، وهي عند أحمد (١/ ٤٧٠): ثنا عبد الرزاق، ثنا سفيان، عن جابر، عن الشعبي، عن عبد الله بن ثابت خادم النبي ﷺ... فذكره. وجابر هو الجعفي؛ ضعيف.
فالحديث حسن إن شاء الله بمجموع هذين الطريقين، وله طرق أخرىٰ يزداد بها قوة ذكرها الحافظ ابن كثير في «التفسير»، وخرج بعضها الألباني في (الإرواء» (٦/ ٣٤/ ١٥٨٩).

ورواه أحمدُ من وجهٍ آخر عن عمرَ، وفيه: فقالَ رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده؛ لو أصبحَ فيكم موسى، ثم اتَّبَعْتُموه وتركْتُموني؛ لَضَلَلْتم؛ إنَّكم حظِّي من الأمم، وأنا حظُّكم من النبيِّين**».

وقد أوردتُ طُرُقَ هٰذا الحديث وألفاظَهُ في أول سورة يوسف، وفي بعضها: أنَّ رسول الله ﷺ خَطَبَ الناسَ، فقال في خُطبتِهِ: «**أيُّها الناس! إنِّي قد أوتيتُ جوامعَ الكَلِم وخواتيمَهُ، واخْتُصِرَ لي اختِصارًا، ولقد أتيتُكم بها بيضاءَ نقيَّةً؛ فلا تتهوَّكوا، ولا يَغُرَّنَّكُمُ المتَهَوِّكونَ**». ثم أمر بتلك الصحيفةِ، فمُحِيَتْ حرفًا حرفًا[1].

[رؤيا يوسف عليه السلام]:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف: ٤-٦].

وقد قدَّمنا أن يعقوب كان له من البنين اثنا عشر ولدًا ذكرًا، وسمَّيْناهم، وإليهم تُنْسَبُ أسباط بني إسرائيلَ كلُّهم، وكان أشرفَهم وأجلَّهم وأعظمَهم يوسفُ عليه السلام.

وقد ذهب طائفةٌ من العلماءِ إلىٰ أنَّه لم يكنْ فيهم نبيٌّ غيرُه، وباقي إخوتِهِ لمْ يوحَ إليهِم. وظاهِرُ ما ذُكِرَ من فِعالهم ومَقالهم في هٰذه القصَّة يدلُّ علىٰ هٰذا القول.

ومَنِ استدلَّ علىٰ نبوَّتِهم بقولِهِ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وزعم أنَّ هؤلاءِ هم الأسباطُ؛ فليس استدلالُه بقويٍّ؛ لأنَّ المرادَ بالأسباطِ شعوبُ بني إسرائيلَ وما كان يوجَدُ فيهم من الأنبياءِ الذين يَنْزِلُ عليهم الوحيُ من السماءِ. والله أعلم[2].

---

(١) (صحيح). وانظر الحاشية قبله.

(٢) جاء في إحدىٰ الأصول الخطية للكتاب زيادة هٰذا نصها: «وقد اختار هٰذا القول الزمخشري، وحكاه فخر الدين عن طائفة، ويدل عليه كلام القاضي عياض بن موسىٰ السبتي في كتابه «الشفا»؛ حيث قال: وأما قصة يوسف وإخوته؛ فليس عن يوسف فيها تعقب، وأما إخوته؛ فلم تثبت نبوتهم، فيلزم الكلام علىٰ أفعالهم. و[قد جاء] =

ومِمَّا يؤيِّدُ أنَّ يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هو المختصُّ من بينِ إخوتِهِ بالرِّسالةِ والنبوَّةِ: أنَّه ما نُصَّ علىٰ واحدٍ من إخوتِهِ سواه، فدلَّ علىٰ ما ذكرناه.

ويُسْتَأْنَسُ لهٰذا بما قال الإمام أحمدُ: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد الرحمٰن بن[1] عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن ابن عمر: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**الكريمُ ابنُ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ يوسُفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ**». انفرد به البخاريُّ. فرواه عن عبد الله بن محمدٍ وعبدةَ، عن عبد الصمد بن عبد الوارث... به. وقد ذَكَرْنا طُرُقَهُ في قصةِ إبراهيم[2] بما أغنىٰ عن إعادتِهِ هاهنا. ولله الحمدُ والمنةُ.

قال المفسِّرون وغيرُهم: رأىٰ يوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو صغيرٌ قبل أن يَحْتَلِمَ كأنَّ أحدَ عشرَ كوكبًا - وهم إشارةٌ إلىٰ بقيَّةِ إخوتِهِ - والشمسَ والقمرَ - وهما عبارةٌ عن أبويه - قد سجدوا له، فهالَهُ ذٰلك، فلمَّا استيقَظَ؛ قصَّها علىٰ أبيه، فَعَرَفَ أبوهُ أنَّه سينالُ منزلةً عاليةً ورِفعةً عظيمةً في الدُّنيا والآخرة بحيث يخضعُ له أبواهُ وإخوتُه فيها، فأمَرَهُ بكتمانِها وأن لا يَقُصَّها علىٰ إخوتِهِ؛ كيلا يحسُدوه ويبغوا له الغوائلَ ويكيدوه بأنواع الحيل والمَكْر.

وهٰذا يدلُّ علىٰ ما ذَكَرْناه. ولهٰذا جاء في بعض الآثار: «**استَعينوا على قضاءِ حوائِجِكُم بِكِتْمانها؛ فإنَّ كلَّ ذي نعمةٍ محسودٌ**»[3].

وعند أهل الكتاب: أنَّه قصَّها علىٰ أبيه وإخوتِهِ معًا! وهو غلطٌ منهم[4].

= ذكر الأسباط وعدهم في القرآن [ضمن] ذكر الأنبياء: فقال المفسرون: يريد: من نبي من أبناء الأسباط. وقد قيل: إنهم كانوا حين فعلوا بيوسف ما فعلوه صغار الأسنان، ولهٰذا لم يميزوا يوسف حين اجتمعوا به، ولهٰذا قالوا: أرسل معنا أخانا نرتع ونلعب؛ وإن ثبت لهم نبوة بعد هٰذا. والله أعلم. انتهىٰ ما ذكره». وقد رأيت جعلها هنا في الحاشية لتفرد إحدىٰ النسخ بها دون البقية.

(١) في جميع الأصول: «عبد الرحمٰن عن عبد الله»! وهو خطأ بين.

(٢) انظرها (ص ٢١٧ - ٢١٨).

(٣) (جيد). رواه: ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص ١٨٧)، والسهمي في «تاريخ جرجان» (٢٢٣/ ٣٥٦)؛ من حديث أبي هريرة مرفوعًا. وجوَّد إسناده الألباني في «الصحيحة» (٣/ ٤٣٦/ ١٤٥٣)، ثم ذكر له وجوهًا أخرىٰ عن معاذ وعلي وابن عباس وأبي بردة مرسلًا، وبين ضعف أسانيدها الشديد بما لا يصلح للاعتبار. فلينظرها من رام التفصيل.

(٤) ستتكرر في هٰذا الفصل الإشارة إلىٰ أخطاء أهل الكتاب وتحريفاتهم في هٰذه القصة؛ فلا نطيل بالإحالة في كل =

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾؛ أي: وكما أراك هٰذه الرؤيا العظيمة؛ فإذا كَتَمْتَها؛ ﴿يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾؛ أي: يخصُّك بأنواع اللطفِ والرحمةِ. ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾؛ أي: يفهِّمك من معاني الكلام وتعبير المنام ما لا يُفَهِّمُهُ غيرَك. ﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾؛ أي: بالوحي إليك. ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾؛ أي: بسببك، ويحصُلُ لهم بك خيرُ الدُّنيا والآخرة. ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾؛ أي: ينعِمُ عليك ويحسِنُ إليك بالنبوَّة كما أعطاها أباك يعقوب وجدَّكَ إسحاق ووالدَ جدِّك إبراهيم الخليل. ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦﴾؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤]: لهٰذا قال رسولُ الله ﷺ لمَّا سُئِلَ: أيُّ الناس أكرمُ؟ قال: «**يوسُفُ نبيُّ اللهِ ابنُ نبيِّ اللهِ ابنِ نبيِّ اللهِ ابنِ خليلِ اللهِ**»(١).

وقد روىٰ ابنُ جرير وابن أبي حاتم في تفسيريهما وأبو يعلىٰ والبزار في مسنديهما من حديث الحكم بن ظُهَيْر -وقد ضعَّفه الأئمَّة-، عن السُّدِّيِّ، عن عبد الرحمٰن بن سابطٍ، عن جابر؛ قال: أتىٰ النبيَّ ﷺ رجلٌ من اليهود يُقالُ له: بُستانةُ اليهوديُّ، فقال: يا محمدُ! أخبِرْني عن الكواكبِ التي رآها يوسُفُ أنها ساجدةٌ له؛ ما أسماؤُها؟ قال: فسكتَ النبيُّ ﷺ فلم يُجِبْهُ بشيءٍ، ونزل جبريلُ عليه السلام بأسمائِها. قال: فبعثَ إليه رسولُ اللهِ، فقالَ: «**هل أنت مؤمنٌ إنْ أخبرتُك بأسمائِها؟**». قال: نعم. فقال: «**هي جريان والطارق والذيال وذو الكنفات وقابس ووثاب وعمودان والفليق والمصبح والضَّروح وذو الفرغ والضياء والنور**». فقال اليهودي: إي واللهِ؛ إنها لأسماؤها. وعند أبي يعلىٰ: «**فلما قصَّها على أبيهِ؛ قال: هٰذا أمرٌ مشتَّتٌ يجمعُهُ الله. والشمسُ أبوه، والقمرُ أمُّه**»(٢).

= موضع، بل نكتفي هنا بذكر أن القصة موجودة في (سفر التكوين/ الأصحاح ٣٧-٥٠).

(١) تقدمت طرقه وتخريجه (ص ٢١٧ - ٢١٨).

(٢) (موضوع). رواه: البزار في «المسند» (٢/ ٨٧/ ١٤٧٣-مختصر الزوائد)، وأبو يعلىٰ (٢/ ٤٢٦- ابن كثير)، وابن جرير في «التفسير» (٧/ ١٤٨/ ١٨٧٩٢)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٧/ ٢١٠١/ ١١٣٣٢)، والعقيلي في «الضعفاء» (١/ ٢٥٩)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٤٥)؛ كلهم من طريق الحكم بن ظهير... به.

قال العقيلي: «ولا يصح من هٰذه المتون عن النبي ﷺ شيء من وجه ثابت». وقال ابن حبان: «وهٰذا الحديث لا أصل له من حديث رسول الله ﷺ». وقال ابن الجوزي: «حديث موضوع». وأعله بالحكم والسدي. وقال =

۞ [إخوة يوسف يتشاورون في إبعاده وتغييبه عن أبيه عليه السلام]:

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يوسف: ٧-١٠].

ينبِّه تعالىٰ علىٰ ما في هٰذه القصة من الآياتِ والحكم والدِّلالات والمواعظِ والبيِّنات.

ثم ذَكَرَ حَسَدَ إخوةِ يوسفَ له علىٰ محبَّةِ أبيه له ولأخيهِ (يعنون: شقيقَه لأمِّه بَنْيامينَ) أكثرَ منهم، وهم عصبةٌ؛ أي: جماعةٌ؛ يقولونَ: فكنَّا نحن أحقَّ بالمحبة من هذين: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾؛ أي: بتقديمه حبَّهما علينا.

ثم اشْتَوَروا فيما بينَهم في قتل يوسفَ أو إبعادِهِ إلىٰ أرضٍ لا يَرْجِعُ منها؛ لِيَخْلُوَ لهم وجهُ أبيهم؛ أي: لِتَتَمَحَّضَ محبَّتُه لهم وتتوفَّرَ عليهم، وأضمروا التوبة بعد ذٰلك! فلمَّا تمالؤوا علىٰ ذٰلك وتوافَقوا عليه؛ ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾: قال مجاهدٌ: هو شِمْعون. وقال السُّدِّيُّ: هو يَهوذا. وقال قَتادة ومحمد بن إسحاق: هو أكبرُهم روبين. ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾؛ أي: المارَّة من المسافرين. ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾: ما تقولونَ لا محالةَ؛ فليكنْ هٰذا الذي أقولُ لكم؛ فهو أقربُ حالًا من قتلِهِ أو نفيِهِ وتغريبِهِ. فأجمعوا رأيَهم علىٰ هٰذا، فعند ذٰلك:

۞ [إخوة يوسف يراودون أباهم عن يوسف]:

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يوسف: ١١-١٤].

= الهيثمي (٧/ ٤٢): «رواه البزار، وفيه الحكم بن ظهير، وهو متروك». قلت: لكن لم ينفرد به، بل تابعه أسباط بن نصر عن السدي... به. رواه الحاكم (٤/ ٣٩٦). وصححه علىٰ شرط مسلم! وسكت عنه الذهبي! وأسباط هٰذا: كثير الخطأ، يغرب، له أحاديث منكرة. فكأن هٰذا منها. وفي السدي أيضًا نوع ضعف. ورواية ابن سابط عن جابر مرسلة. هٰذا ولم أجد الحديث في «مسند أبي يعلىٰ» المطبوع بين أيدينا.

ملاحظة: قد وقع اختلاف كبير في أسماء هٰذه النجوم في مختلف الروايات والأصول، فآثرت رواية الطبري في «التفسير»، وصححت عليها.

طلبوا من أبيهم أن يرسلَ معهم أخاهم يوسفَ، وأظهروا له أنَّهم يريدونَ أن يَرْعىٰ معهم وأن يَلْعَبَ ويَنْبَسِطَ، وقد أضمَروا له ما اللهُ به عليمٌ.

فأجابهم الشيخُ عليه من الله أفضلُ الصلاة والتسليم: يا بَنِيَّ! يشقُّ عليَّ أن أفارِقَه ساعةً من النهار، ومع هٰذا أخشىٰ أن تَشْتَغِلوا في لَعِبِكُم وما أنتم فيه، فيأتي الذئبُ فيأكلُهُ ولا يقدرُ علىٰ دفعِهِ عنه لصِغَرِهِ وغفلتِكُم عنه. ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ١٤﴾؛ أي: لَئِنْ عدا عليه الذئبُ فأكَلَه من بيننا، أو اشتَغَلْنا عنه حتىٰ وقع هٰذا، ونحن جماعةٌ؛ ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ١٤﴾؛ أي: عاجزون هالكون.

وعند أهلِ الكتاب: أنه أرسَلَه وراءهم يَتْبَعُهم، فضلَّ عن الطريقِ، حتَّىٰ أرشدَه رجلٌ إليهم! وهٰذا أيضًا من غَلَطِهم وخطَئِهم في التعريب؛ فإنَّ يعقوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان أحرصَ عليه من أن يَبْعَثَهُ معهم؛ فكيف يبعثُهُ وحدَه؟!

۞ [يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في الجب]:

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٥ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: ١٥-١٨].

لم يزالوا بأبيهم حتىٰ بَعَثَهُ معهم؛ فما كان إلَّا أن غابوا عن عينيه، فجعلوا يشتُمونَه ويُهينونه بالفِعال والمَقال، وأجمعوا علىٰ إلقائِهِ في غَيابةِ الجُبِّ؛ أي: في قعره، علىٰ راعونته، وهي الصخرة التي تكون في وسطِهِ، يقفُ عليها المائحُ، وهو الذي يَنْزِلُ ليملأ الدِّلاءَ إذا قلَّ الماءُ، والذي يرفَعُها بالحبل يسمىٰ الماتحَ.

فلمَّا ألقَوْه فيه؛ أوحىٰ اللهُ إليه: إنَّه لا بدَّ لك من فرجٍ ومخرجٍ من هٰذه الشدَّة التي أنت فيها، ولَتُخْبِرَنَّ إخوتَكَ بصنيعِهِم هٰذا في حال أنت فيها عزيزٌ، وهو محتاجون إليك خائفون منك، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٥﴾: قال مجاهدٌ وقتادةُ: وهم لا يَشْعُرونَ بإيحاءِ اللهِ إليه ذٰلك. وعن

ابنِ عبَّاس: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٥﴾؛ أي: لتخبرنَّهم بأمرِهم هٰذا في حال لا يعرِفونَكَ فيها. رواه ابن جريرٍ عنه[١].

فلمَّا وَضعوه فيه ورَجَعوا عنه؛ أخذوا قميصَه، فلطَّخوه بشيءٍ من دم، ورَجَعوا إلىٰ أبيهم عِشاءً وهم يبكونَ؛ أي: علىٰ أخيهم. ولهٰذا قال بعضُ السَّلف: لا يَغُرَّنَّكَ بكاءُ المتظلِّم؛ فربَّ ظالمٍ وهو باكٍ! وَذَكَرَ بكاءَ إخوةِ يوسفَ.

وقد ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ۝١٦﴾؛ أي: في ظلمة الليل؛ ليكون أمشىٰ لغَدْرِهم لا لعُذْرِهم. ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا﴾؛ أي: ثيابنا. ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾؛ أي: في غَيْبَتنا عنه في استباقنا.

وقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝١٧﴾؛ أي: وما أنتَ بِمُصَدِّقٍ لنا في الذي أخْبَرْناكَ من أكلِ الذِّئْبِ له، ولو كُنَّا غيرَ متَّهَمينَ عندكَ؛ فكيف وأنت تتَّهِمُنا في هٰذا؟! فإنَّك خشيتَ أن يأكُلَه الذئبُ، وضَمِنَّا لك ألا يأكُلَه لكثرتِنا حوله، فصِرنا غير مصدَّقين عندك؛ فمعذورٌ أنت في عدم تصديقِك لنا والحالةُ هٰذه.

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ﴾؛ أي: مكذوبٍ مفتعل؛ لأنَّهم عَمَدوا إلىٰ سخلةٍ ذبحوها، فأخذوا من دَمِها، فوضعوه علىٰ قميصِهِ؛ ليوهِموه أنَّه أكَلَه الذئبُ. قالوا: وَنَسوا أن يُخَرِّقوه! وآفة الكذبِ النسان! ولمَّا ظهرتْ عليهم علائمُ الرِّيبةِ؛ لم يَرُجْ صَنيعُهم علىٰ أبيهم؛ فإنَّه كان يفهمُ عداوتَهم له وحسدَهم إيَّاه علىٰ محبتِهِ له من بينِهم أكثر منهم؛ لما كان يتوسَّم فيه من الجلالة والمهابة التي كانت عليه في صِغَرِهِ؛ لما يريدُ الله أن يَخُصَّه بهِ من نُبُوَّتِهِ، ولَمَّا راوَدوه عن أخذِهِ، فبمجرَّدِ أن[٢] أخذوه أعْدَموه وغَيَّبوهُ عن عينيه وجاؤوا وهم يتباكَوْن وعلىٰ ما تمالؤوا يتواطؤون! ولهٰذا ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨﴾.

وعند أهلِ الكتابِ: أنَّ روبين أشار بوضعِهِ في الجُبِّ ليأخُذَه من حيثُ لا يشعرون ويردَّه إلىٰ أبيه، فغافَلوه وباعوه لتلك القافلةِ، فلمَّا جاءَ روبين آخرَ النهارِ ليُخْرِجَ يوسفَ؛ لم يَجِدْهُ، فصاح وشقَّ ثيابَه، وعَمَدَ أولٰئك إلىٰ جَدْيٍ، فذَبَحوه، ولطَّخوا من دمِهِ جُبَّةَ يوسفَ، فلمَّا علم

(١) في «التفسير» (٧/ ١٥٩/ ١٨٨٥١).

(٢) في نسخة: «فبمجرَّد ما».

يعقوبُ؛ شقَّ ثيابَهُ ولبس مئزرًا أسود وحزن علىٰ ابنه أيامًا كثيرةً. وهٰذه الركاكةُ جاءت من خطئِهم في التَّعبير والتَّصوير.

۞ [يوسف عليه السلام عند عزيز مصر]:

وقال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف: ١٩-٢٢].

يخبر تعالىٰ عن قصةِ يوسف حين وُضِعَ في الجُبِّ أنَّه جلس ينتظرُ فرج الله ولُطفَه به، فـ ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾؛ أي: مسافرون- **قال أهلُ الكتاب**: كانت بضاعَتُهم من الفستقِ والصَّنَوْبَرِ والبُطْم-قاصدين[1] ديار مصرَ من الشام، فأرسلوا بعضَهم لِيَسْتقوا من ذٰلك البئر، فلمَّا أدلىٰ أحدُهم دلوَهُ؛ تعلَّق فيه يوسف، فلمَّا رآه ذٰلك الرجلُ؛ ﴿قَالَ يَا بُشْرَىٰ﴾؛ أي: يا بشارتي! ﴿هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾؛ أي: أوهَموا أنه معهم غلامٌ من جُمْلَةِ مُتَّجَرِهِم.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾؛ أي: هو عالمٌ بما تمالأ عليه إخوتُهُ وبما يُسِرُّهُ واجِدوه من أنه بضاعةٌ لهم، ومع هٰذا لا يغيِّره تعالىٰ؛ لما له في ذٰلك من الحكمةِ العظيمة والقَدَرَ السابِق والرحمةِ بأهل مصرَ؛ بما يُجْري اللهُ علىٰ يدي هٰذا الغلام الذي يَدْخُلُها في صورةِ أسيرٍ رقيقٍ، ثم بعد هٰذا يُمَلِّكُهُ أزمةَ الأمور وينفعهم الله به في دنياهم وأخراهم بما لا يُحَدُّ ولا يوصَفُ.

ولمَّا استشعرَ إخوةُ يوسف بأخذِ السَّيَّارة له؛ لَحِقوهم، وقالوا: هٰذا غلامُنا أبَقَ مِنَّا، فاشْتَرَوْه منهم بثمنٍ بَخْسٍ؛ أي: قليل نَزْرٍ، وقيل: هو الزيف. ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾: قال ابنُ مسعود وابن عباس ونَوْفٌ البِكَالِيُّ والسُّدِّيُّ وقَتادة وعطيَّةُ العَوْفيُّ: باعوه بعشرين درهمًا؛ اقْتَسموها درهمينِ درهمينِ. وقال مجاهدٌ: اثنان وعشرون درهمًا. وقال عِكرمةُ ومحمد بن إسحاق: أربعون درهمًا. والله أعلم.

---

(١) كذا في جميع الأثول، وله وجه، والأصوب أن يقال: «قاصدون».

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾؛ أي: أحسني إليه.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾: وهٰذا من لطف الله به ورحمتِهِ وإحسانِهِ إليه بما يريدُ أن يؤخِّلَه له ويُعْطِيَهُ من خيري الدُّنيا والآخرة. قالوا: وكان الذي اشتراه من أهل مصر عزيزَها، وهو الوزيرُ بها، الذي الخزائنُ مسلَّمةٌ إليه.

قال ابن إسحاق: واسمه إطفير بن روحيب. قال: وكان مَلِكُ مصر يومئذٍ الريانَ بن الوليدِ؛ رجلٌ من العماليقِ. قال: واسمُ امرأةِ العزيزِ: راعيل بنت رعاييل. وقال غيرُهُ: كان اسمها زليخا، والظاهر أنه لقبها، وقيل: فكا بنت ينوس. رواهُ الثعلبيُّ(١) عن أبي هشامٍ الرفاعيِّ. وقال محمدُ بن إسحاق: عن محمد بن السائب، عن أبي صالح، عن ابن عباس: كان اسمُ الذي باعه بمصر (يعني: الذي جلبه إليها) مالك بن ذعر بن بُويب بن عفقان بن مَدْيان بن إبراهيم. فالله أعلم. وقال ابن إسحاق: عن أبي عبيدة، عن أبي مسعود؛ قال: أفرسُ الناس ثلاثةٌ: عزيزُ مصرَ حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾، والمرأةُ التي قالت لأبيها عن موسىٰ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: ٢٦]، وأبو بكر الصدِّيق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما. ثم قيل: اشتراه العزيزُ بعشرين دينارًا.

وقيل: بوزنه مسكًا، ووزنه حريرًا، ووزنه وَرِقًا. فالله أعلم.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: وكما قيَّضنا هٰذا العزيز وامرأتَهُ يحسِنان إليه ويعتَنِيان به؛ مَكَّنَّا له في أرض مصر. ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾؛ أي: فهمها، وتعبيرُ الرؤيا من ذٰلك. ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾؛ أي: إذا أراد شيئًا؛ فإنَّه يقيِّضُ له أسبابًا وأمورًا لا يهتدي إليها العبادُ، ولهٰذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾: فدلَّ علىٰ أنَّ هٰذا كلَّه كان وهو قبل بلوغ الأشدِّ، وهو حدُّ الأربعين الذي يُوحي الله فيه إلىٰ عبادِهِ النبيِّين عليهم الصلاة والسلام من ربِّ العالمين. وقد اختلفوا في مدة العُمُر الذي هو بلوغ الأشُدِّ: فقال مالكٌ وربيعة وزيدُ بن أسلم والعشبيُّ: هو الحُلُم. وقال سعيد بن جُبَيْر: ثماني عشرة سنةً. وقال

(١) في «عرائس المجالس» (ص ١٢٠).

الضحاكُ: عشرون سنة. وقال عكرمةُ: خمسٌ وعشرون سنةً. وقالَ السُّدِّيُّ: ثلاثون سنةً. وقال ابنُ عباسٍ ومجاهدٌ وقتادةُ: ثلاثٌ وثلاثون سنةً. وقال الحسنُ: أربعون سنةً. ويشهدُ له قولُه تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥].

۞ [امرأة العزيز تراود يوسف عن نفسه]:

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾

يذكُرُ تعالىٰ ما كان من مراودةِ امرأة العزيز ليوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عن نفسِهِ وطلبِها منه ما لا يَليق بحالِهِ ومقامِهِ، وهي في غاية الجمال والمالِ والمنصبِ والشبابِ، وكيف غلَّقَتِ الأبواب عليها وعليه، وتهيَّأَتْ له وتَصَنَّعَتْ ولَبِسَتْ أحسنَ ثيابِها وأفخرَ لِباسِها، وهي مع هٰذا كلِّه امرأةُ الوزير؛ قال ابن إسحاق: وبنتُ أختِ الملك الرَّيَّانِ بنِ الوليد صاحبِ مصرَ.

وهٰذا كلُّه مع أنَّ يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ شابٌّ بديعُ الجمال والبهاء؛ إلَّا أنَّه نبيٌّ من سلالة الأنبياء، فعصَمَه ربُّه من الفحشاء، وحماه عن مَكْرِ النساء؛ فهو سيد السادةِ النُّجباء، السبعةِ الأتقياء، المذكورين في الصحيحين عن خاتم الأنبياء، في قوله ﷺ من ربِّ الأرض والسماء: «**سبعةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظلُّه: إمام عادلٌ، ورجلٌ ذَكَرَ اللهَ خاليًا ففاضَتْ عيناه، ورجلٌ معلَّقٌ قلبُهُ بالمسجِدِ إذا خَرَجَ منه حتَّى يعودَ إليه، ورَجُلان تحابَّا في الله اجْتَمَعا عليه وتَفَرَّقا عليه، ورجلٌ تصدَّق بصدقةٍ فأخفاها حتَّى لا تَعْلَمَ شِمالُهُ ما تُنْفِقُ يمينُهُ، وشابٌّ نشأ في عبادةِ الله، ورجل دعَتْهُ امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمال فقال إني أخافُ الله**»(١).

(١) رواه: البخاري (١٠- الأذان، ٣٦- من جلس في المسجد، ٢/ ١٤٣/ ٦٦٠)، ومسلم (١٢-الزكاة، ٣٠- فضل إخفاء الصدقة، ٢/ ٧١٥/ ١٠٣١)؛ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والمقصودُ أنَّها دعته إليها، وحَرَصَت علىٰ ذٰلك أشدَّ الحرص، فقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾؛ يعني: زوجَها صاحبَ المنزل، سيدي. ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾؛ أي: أحسنَ إليَّ وأكرم مقامي عنده. ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾.

وقد تكلَّمْنا عن قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾؛ بما فيه كفايةٌ ومَقْنَعٌ في «التفسير». وأكثر أقوال المفسرين هاهنا متلقًّىٰ من كتب أهل الكتاب؛ فالإعراضُ عنه أولىٰ بنا. والذي يجبُ أن يُعْتَقَدَ أنَّ الله تعالىٰ عَصَمَهُ وبرَّأه ونزَّهه عن الفاحشةِ وحماه عنها وصانَه منها؛ ولهٰذا قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾.

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾؛ أي: هربَ منها طالبًا الباب لِيَخْرُجَ منه فرارًا منها، فاتَّبَعَتْهُ في أثرِهِ. ﴿وَأَلۡفَيَا﴾؛ أي: وجدا. ﴿سَيِّدَهَا﴾؛ أي: زوجها.

﴿لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾: فبَدَرَتْهُ بالكلام وحرَّضَتْه عليه. ﴿قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥﴾: اتَّهمَتْهُ وهي المُتَّهَمَةُ، وبرَّأت عِرْضَها ونَزَّهَتْ ساحَتَها.

فلهٰذا قال يوسفُ عليه السلام: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾: احتاجَ إلىٰ أن يقولَ الحقَّ عند الحاجة. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾: **قيل**: كان صغيرًا في المهدِ. قاله ابنُ عباس، ورُوي عن أبي هُريرة وهلال بن يِساف والحسن البصري وسعيد بن جُبير والضَّحَّاك، واختاره ابنُ جرير[1]، وروىٰ فيه حديثًا مرفوعًا عن ابن عباس[2]، ووقَفَهُ غيرُه عنه. **وقيل**: كان رجلاً قريبًا إلىٰ قطفيرَ بعلِها. **وقيل**: قريبًا إليها. وممَّن قال: إنَّه كان رجلًا: ابنُ عباسٍ وعِكرمةُ ومجاهدٌ والحسن وقَتادة

---

(١) في «التفسير» (٧/ ١٩٤/ يوسف ٢٨).

(٢) (منكر). رواه: أحمد (١/ ٣١٠)، وابن جرير في «التفسير» (٧/ ١٩٢/ ١٩١١٨)، والحاكم (٢/ ٤٩٦)؛ من طريقين عن حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ؛ قال: «تكلم في المهد أربعة وهم صغار...» فذكر فيهم شاهد يوسف.

قال الحاكم: «صحيح الإسناد»! ووافقه الذهبي! وليس كذٰلك، بل هو ضعيف فيه علل ثلاث: فأولاها: اختلاط عطاء، وحماد ممن روىٰ عنه قبل الاختلاط وبعده. والثانية: أن ابن جرير قد رواه (٧/ ١٩١/ ١٩١٠٩) من الطريق نفسها موقوفًا علىٰ ابن عباس، وهٰذا نوع اضطراب مرده-والله أعلم-تغير عطاء واختلاطه. والثالثة: أن فيه مخالفة صريحة لما ورد في الصحيحين من حصر المتكلمين في المهد بثلاثة ليس فيهم شاهد يوسف.

نعم؛ له شاهد عند الحاكم (٢/ ٢٩٥) عن أبي هريرة، لكن بيَّن الألباني في «الضعيفة» (٢/ ٢٧١/ ٨٨٠) أنه باطل وإن صححه الحاكم ووافقه الذهبي؛ فلا يفرح به.

والسُّدِّيُّ ومحمد بن إسحاق وزيد بن أسلم. فقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: لأنَّه يكون قد راوَدَها فَدافَعَتْهُ حتىٰ قدَّت مقدَّم قميصِه. ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: لأنَّه يكون قد هَرَبَ منها فاتَّبعته وتعلَّقت فيه فانشقَّ قميصُهُ لذٰلك.

وكذٰلك كان، ولهٰذا قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: هٰذا الذي جرىٰ من مَكْرِكُنَّ، أنت راودتِهِ عن نفسه، ثم اتَّهمتِهِ بالباطل.

ثم ضربَ بعلُها عن هٰذا صفحًا، فقال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾؛ أي: لا تذكرْهُ لأحدٍ؛ لأنَّ كتمانَ مثل هٰذه الأمور هو الأليقُ والأحسنُ، وأمَرَها بالاستغفارِ لِذَنْبِها الذي صَدَرَ منها، والتوبةِ إلىٰ ربِّها؛ فإنَّ العبدَ إذا تاب إلىٰ الله؛ تاب الله عليه. وأهلُ مصرَ، وإنْ كانوا يعبُدون الأصنام؛ إلَّا أنَّهم يعلمونَ أنَّ الذي يغفرُ الذُّنوب ويؤاخذُ بها هو اللهُ وحدَه لا شريكَ له في ذٰلكن ولهٰذا قال لها بعلُها [ما قال]، وعَذَرَها من بعضِ الوجوه؛ لأنَّها رأت ما لا صبرَ لها علىٰ مثلِهِ؛ إلَّا أنَّه عفيفٌ نزيهٌ بريءُ العِرْض سليم الناحيةِ، فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾.

۞ [نساء الأمراء والكبراء يبهرن ويؤخذن بحسن يوسف عليه السلام]:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف: ٣٠-٣٤].

يذكُرُ تعالىٰ ما كان من قِبَل نساء المدينة من نساء الأمراء وبنات الكبراء في الطَّعن علىٰ امرأة العزيز وعَيْبِها والتَّشْنيع عليها في مراودَتِها فتاها وحبِّها الشديد له، وهو لا يساوي هٰذا؛ لأنه مولىٰ من الموالي، وليس مثلُه أهلًا لهٰذا! ولهٰذا قُلْنَ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾؛ أي: في وضعها الشيء في غير محلِّه.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾؛ أي: بتشنيعِهِنَّ عليها والتنقُّص لها والإشارةِ إليها بالعيب والمذمَّةِ بحبِّ مولاها وعشقِ فتاها، فأظهرنَ ذمًّا وهي معذورةٌ في نفس الأمر؛ فلهٰذا أحبَّتْ أنْ تَبْسُطَ عذرَها عندهنَّ وتُبَيِّنَ أنَّ هٰذا الفتىٰ ليس كما حَسِبْنَ ولا من قَبيل ما لَدَيْهِنَّ، فأرسلتْ إليهنَّ، فجَمَعَتْهُنَّ في منزلها، وأعتدتْ لهنَّ ضيافةَ مثلِهِنَّ، وأحضرتْ من جملةِ ذٰلك شيئًا ممَّا يُقطَّعُ بالسكاكينِ كالأُتْرُجِّ ونحوِهِ، وآتت كلَّ واحدةٍ منهن سكِّينًا، وكانت قد هيَّأت يوسف عليه السلام وألبسته أحسن الثياب، وهو في غايةِ طراوةِ الشباب، وأمرته بالخروج عليهنَّ في هٰذه الحالة، فخرج وهو أحسنُ من البدر لا محالة. ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾؛ أي: أعظَمْنَه وأجلَلْنَه وهِبْنَه، وما ظَنَنَّ أن يكون مثلُ هٰذا في بني آدم، وبَهَرَهُنَّ حسنُه، حتىٰ اشتغَلْن عن أنفسهنَّ وجعلْنَ يَحْزُزْنَ في أيديهنَّ بتلك السكاكينِ ولا يَشْعُرْنَ بالجِراح، وقُلْنَ: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾. وقد جاء في حديث الإسراء: «**فمَرَرْتُ بيوسفَ، وإذا هو قد أُعْطِيَ شطرَ الحسنِ**»(١). **قال السُّهَيْليُّ وغيرُه من الأئمَّة**: معناه أنَّه كان علىٰ النِّصفِ من حُسْنِ آدم عليه السلام؛ لأنَّ الله تعالىٰ خَلَقَ آدمَ بيدِهِ، ونفخَ فيه من روحِهِ، فكان في غاية نهايةِ الحسنِ البشريِّ، ولهٰذا يدخُلُ أهلُ الجنةِ الجنةَ علىٰ طول آدمَ وحسنِهِ، ويوسفُ كان علىٰ النصفِ من حُسْنِ آدمَ، ولم يكنْ بينَهما أحسنُ منهما؛ كما أنَّه لم تكنْ أنثىٰ بعد حواءَ أشبهَ بها من سارةَ امرأةِ الخليل عليه السلام.

قال ابنُ مسعود: وكان وجهُ يوسفَ مثلَ البرقِ، وكان إذا أَتَتْهُ امرأةٌ لحاجةٍ؛ غطَّىٰ وجهَهُ.

وقال غيرُه: كان في الغالب مُبَرْقَعًا لئلَّا يراه الناس.

ولهٰذا؛ لمَّا قام عذرُ امرأةِ العزيز في محبَّتِها لهٰذا المعنىٰ المذكورِ، وجرىٰ لهنَّ وعليهنَّ ما جرىٰ من تقطيع أيديهنَّ بجراح السكاكين، وما رَكِبَهُنَّ من المهابةِ والدَّهَشِ عند رؤيتِهِ ومعاينتِهِ؛ ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾. ثم مدحته بالعفَّة(٢) التامَّة، فقالتْ: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾؛ أي: امتنع. ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

وكأنَّ بقيةَ النِّساءِ حرَّضْنَهُ علىٰ السَّمْع والطَّاعة لسيِّدته، فأبىٰ أشدَّ الإباء، ونأىٰ لأنَّه من سلالةِ الأنبياء، ودعا فقال في دعائِهِ لربِّ العالمين: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا

(١) تقدم تخريجه في (ص ٩٠).

(٢) في نسخة: «بالعصمة».

تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾؛ يعني: إن وَكَلْتني إلىٰ نفسي؛ فليس لي من نفسي إلا العجزُ والضَّعْفُ، ولا أملِكُ لنفسي نفعًا ولا ضرًّا إلَّا ما شاء الله؛ فأنا ضعيفٌ إلَّا ما قَوَّيْتَني وعَصَمْتَني وحَفِظْتَني وأحَطْتَني بحَوْلِكَ وقُوَّتك.

ولهٰذا قال تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾.

[يوسف عليه السلام في السجن]:

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ [يوسف: ٣٥-٤١].

يذكُرُ تعالىٰ عن العزيز وامرأته أنهم ﴿بَدَا لَهُم﴾؛ أي: ظهرَ لهم من الرأي بعدما علِموا براءة يوسفَ أن يسجُنوه إلىٰ وقتٍ؛ ليكونَ ذٰلك أقلَّ لكلام الناس في تلك القضيةِ وأخمدَ لأمْرِها، ولِيُظْهِروا أنَّه راوَدَها عن نفسِها فسُجِنَ بسببِها، فسجنوه ظلمًا وعدوانًا. وكان هٰذا ممَّا قدَّر الله له، ومنِ جملةِ ما عَصَمَهُ به، فإنه أبعدُ له عن معاشرتِهم ومخالطتِهم. ومن هنا استنبط بعضُ الصوفية ما حكاه عنهُم الشافعيُّ: أنَّ من العصمةِ أنْ لا تَجِدَ.

قال الله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾: قيل: كان أحدُهما ساقيَ الملك، واسمه فيما قيل: نبو، والآخر خبازُه؛ يعني: الذي يلي طعامَه، وهو الذي يقولُ له التركُ: الجاشنكير، واسمه فيما قيل: مجلث، وكان الملِكُ قد اتَّهَمَهُما في بعض الأمور فسجَنَهما. فلمَّا رأيا يوسفَ في السجن؛ أعجبَهما سمتُهُ وهديُهُ، ودَلُّهُ وطريقتُه، وقولُهُ وفعلُه، وكثرةُ عبادتِهِ ربَّه وإحسانِهِ إلىٰ

خلقِه، فرأىٰ كلُّ واحدٍ منهما رؤيا تناسبه. قال أهل التفسير: رأيا في ليلةٍ واحدةٍ: أمَّا الساقي؛ فرأىٰ كأنَّ ثلاثَ قضبان من حَبَلَةٍ وقد أورقتْ وأينَعَتْ عناقيدَ العنب فأخَذَها فاعْتَصَرها في كأس الملك وسقاهُ، ورأىٰ الخبازُ علىٰ رأسِهِ ثلاثَ سلال من خبزٍ وضواريَ الطيورِ تأكُلُ من السَّلِّ الأعلىٰ، فقصَّاها عليه، وطلبا منه أن يَعْبُرَها لهما، وقالا: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾. فأخْبَرهما أنه عليمٌ بتعبيرِها خبيرٌ بأمرها، وقال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾: قيل: معناه: مهما رأيتُما من حُلُم؛ فإني أعْبُرُه لكم قبل وقوعِهِ، فيكون كما أقول. وقيل: معناه: أنِّي أخبِرُكُما بما يأتيكما منَ الطعام قبل مجيئِهِ حلوًا أو حامضًا؛ كما قال عيسىٰ: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩]. وقال لهما: إنَّ هٰذا من تعليم الله إيَّاي؛ لأنِّي مؤمنٌ به، موحدٌ له، متَّبعٌ ملةَ آبائي الكرام إبراهيمَ الخليل وإسحاقَ ويعقوبَ. ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾؛ أي: بأن هدانا لهٰذا. ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: بأن أمَرَنا أنْ نَدْعُوَهم إليه ونُرْشِدَهم ونَدُلَّهم عليه وهو في فِطَرِهِم مركوزٌ، وفي جِبِلَّتِهِم[1] مغروزٌ. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾.

ثم دعاهم إلىٰ التوحيد، وذمَّ عبادةَ ما سوىٰ الله ﷻ، وصغَّر أمر الأوثان وحقَّرها وضعَّف أمرها، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾؛ أي: هو المتصرِّف في خلقِهِ، الفعَّال لِما يريدُ، الذي يَهْدي مَنْ يشاءُ ويُضِلُّ مَنْ يشاءُ. ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾؛ أي: وحده لا شريك له. و﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾؛ أي: المُسْتَقيمُ والصِّراطُ القَويمُ. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾؛ أي: فهُم لا يهتدونَ إليه مع وضوحِهِ وظهورِهِ. وكانت دعوتُهُ لهما في هٰذه الحال في غايةِ الكمال؛ لأنَّ نفوسَهما معظِّمةٌ له، ومنبعثةٌ علىٰ تلقِّي ما يقولُ بالقبول، فناسب أن يدعُوَهما إلىٰ ما هو الأنفعُ لهما ممَّا سألا عنه وطلبا منه.

ثمَّ لمَّا قام بما وَجَبَ عليه وأرشدَ إلىٰ ما أرشدَ إليه؛ قال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾: قالوا: وهو الساقي. ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾: قالوا:

---

(١) جبلتهم: أصل خليقتهم.

وهو الخباز. ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾؛ أي: وقع هٰذا لا محالةَ، ووجب كونُهُ علىٰ كلِّ حالة، ولهٰذا جاءَ في الحديث: «الرُّؤيا على رِجْل طائرٍ ما لَمْ تُعبَرْ؛ فإذا عُبِرَتْ؛ وَقَعَتْ»[1]. وقد رُوِيَ عن ابن مسعودٍ ومجاهدٍ وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم أنَّهما قالا: لم نر شيئًا! فقال لهما: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾.

۞ [يوسف عليه السلام يأخذ بالأسباب المشروعة للخروج من السجن]:

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف: ٤٢].

يُخبر تعالىٰ أنَّ يوسفَ عليه السلام قال للذي ظَنَّهُ ناجيًا منهما -وهو الساقي-: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾؛ يعني: اذكرْ أمري وما أنا فيه من السجن بغير جُرْم عند الملك. وفي دليلٌ علىٰ جوازِ السعي في الأسباب، ولا يُنافي ذٰلك التوكُّلَ علىٰ ربِّ الأرباب. وقوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: فأنسىٰ الناجيَ منهما الشيطانُ أن يَذْكُرَ ما وصَّاه به يوسفُ عليه السلام. قالَهُ مجاهدٌ ومحمدُ بن إسحاقَ وغيرُ واحدٍ، وهو الصوابُ، وهو منصوصُ أهل الكتاب. ﴿فَلَبِثَ﴾: يوسفُ. ﴿فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾: والبِضْع: ما بين الثلاثِ إلىٰ التسع، وقيل: إلىٰ السبع، وقيل: إلىٰ الخمس، وقيل: ما دونَ العَشَرَةِ. حكاها الثعلبيُّ. ويقالُ: بضعُ نسوةٍ وبضعةُ رجال. ومنع الفرَّاءُ استعمالَ البِضْع فيما دون العشرِ؛ قال: وإنَّما يُقالُ: نَيِّفٌ! وقال الله تعالىٰ: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾، وقال تعالىٰ: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٤]. وهٰذا

---

(١) (حسن). رواه: أحمد (٤/ ١٠و١٣)، والدارمي (٢/ ١٢٦)، وأبو داوود (٣٥-الأدب، ٨٨-الرؤيا، ٢/ ٧٢٣/ ٥٠٢٠)، والترمذي (٣٥-الرؤيا، ٦-تعبير الرؤيا، ٤/ ٥٣٦/ ٢٢٧٩)، وابن ماجه (٣٥-تعبير الرؤيا، ٦-الرؤيا إذا عبرت، ٢/ ١٢٨٨/ ٣٩١٤)، والحاكم (٤/ ٣٩٠)؛ كلهم من طريق يعلىٰ بن عطاء، عن وكيع بن عدس، عن أبي رزين العقيلي... فذكره مرفوعًا. ووكيع بن عدس مقبول في المتابعات، وإلا؛ فلين الحديث؛ فالسند لا بأس به في المتابعات.

وله شاهد عند الحاكم (٤/ ٣٩١) من طريق: عبد الرزاق، أنبأ معمر، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أنس... فذكره مرفوعًا بلفظ قريب، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وفيه عنعنة أبي قلابة.

وعلىٰ كل؛ فالحديث لا ينزل عن رتبة الحسن بشاهده هٰذا، وقد قال الترمذي: «حسن صحيح»، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وحسنه الحافظ، وصححه الألباني.

ردٌّ لقوله. قال الفراءُ: ويقالُ: بضعةَ عشرَ، وبضعةٌ وعشرونَ... إلىٰ التسعين، ولا يقالُ: بضعٌ ومئةٌ، وبضعٌ وألفٌ. وخالف الجوهريُّ فيما زاد علىٰ بضعةَ عشر، فمنَع أن يُقالَ: بضعةٌ وعشرونَ... إلىٰ تسعينَ. وفي الصحيح: «**الإيمانُ بضعٌ وستونَ (وفي رواية: وسبعون) شعبةً؛ أعلاها قولُ لا إله إلّا اللهُ، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق**»(١).

ومن قال: إنَّ الضميرَ في قولِهِ: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾: عائدٌ علىٰ يوسفَ؛ فقد ضُعِّفَ ما قاله، وإنْ كان قد رُوِيَ عن ابن عباس وعِكرمة.

والحديثُ الذي رواه ابن جرير(٢) في هٰذا الموضع ضعيفٌ من كل وجهٍ، تفرَّدَ بإسنادِهِ إبراهيم بن يزيد الخُوزيُّ المكيُّ، وهو متروكٌ، ومرسلُ الحسن وقَتادة لا يُقْبَلُ، ولا هاهنا بطريق الأولىٰ والأحرىٰ. والله أعلم.

فأمَّا قولُ ابنِ حِبَّانَ في «صحيحه» عند ذِكْرِ السَّبَبِ الذي من أجلِهِ لَبِثَ يوسُفُ في السجنِ ما لَبِثَ: أخبرنا الفضلُ بن الحُباب الجُمَحِيُّ، حدثنا مسدَّدُ بن مُسَرْهَدٍ، حدثنا خالدُ بن عبد الله، حدثنا محمدُ بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**رَحِمَ اللهُ يوسُفَ، لولا الكلمةُ التي قالَها ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾؛ ما لَبِثَ في السجن ما لَبِثَ، ورَحِمَ الله لوطًا، إنْ كان لَيَأوي إلى رُكْنٍ شديدٍ إذْ قال لقومِهِ: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠﴾**». قال: «**فما بعثَ الله نبيًّا بعدَه إلا في ثروةٍ من قومِهِ**»(٣).

---

(١) رواه: البخاري (٢-الإيمان، ٣-أمور الإيمان، ١/ ٥١/ ٩)، ومسلم (١-الإيمان، ١٢-عدد شعب الإيمان، ١/ ٦٣/ ٣٥)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) (**ضعيف جدًّا**). رواه: ابن جرير في «التفسير» (٧/ ٢٢١/ ١٩٣٢٢)، والطبراني (١١/ ١٩٩/ ١١٦٤٠)؛ من طريق عمرو بن محمد، عن إبراهيم بن يزيد، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس؛ قال: قال ﷺ: «**لو لم يقل يوسف الكلمة التي قال؛ ما لبث في السجن طول ما لبث**».

قال الهيثمي (٧/ ٤٢): «وفيه إبراهيم بن يزيد القرشي المكي، وهو متروك». نعم؛ قد جاء بأسانيد متعددة مرسلة عن الحسن وعكرمة وقتادة، ولكنها لا تصلح لتقويته لشدة ضعفه.

وله شاهد من حديث أبي هريرة، وهو الآتي بعده سياقًا وتخريجًا.

(٣) (منكر). رواه ابن حبان (١٤/ ٨٦/ ٦٢٠٦) بالسند المذكور. وأعله الحافظ ابن كثير كما ترىٰ. وتعقبه الألباني في «الصحيحة» (٤/ ٤٨٤/ ١٨٦٧) فقال: «ويحتمل عندي أن تكون النكارة من شيخ ابن حبان الفضل بن الحباب؛ فإن فيه بعض الكلام؛ فقد ساق له الحافظ ابن حجر في «اللسان» حديثًا آخر بلفظ: «من وسع علىٰ =

فإنَّه حديث منكرٌ من هٰذا الوجه، ومحمد بن عمرو بن علقمةَ له أشياءُ ينفرِدُ بها وفيها نكارةٌ، وهٰذه اللفظة من أنكرِها وأشدِّها، والذي في الصحيحين يشهدُ بغلطِها. والله أعلم.

۞ [يوسف عليه السلام يعبر رؤيا الملك]:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [يوسف: ٤٣-٤٩].

= نفسه وأهله يوم عاشوراء؛ وسع الله عليه سائر سنته». ورجاله كلهم ثقات، فاستظهر الحافظ أن الغلط فيه من الفضل، وقال: «لعله حدَّث به بعد احتراق كتبه». وإنما انصرفت عن نسبة النكارة إلىٰ محمد بن عمرو؛ لأنه قد رواه عنه محمد بن بشر باللفظ الأول المحفوظ، وابن بشر ثقة حافظ، وكذٰلك من تابعه عند الترمذي [رقم ٣١١٦] وغيره. وعن نسبتها إلىٰ خالد بن عبد الله وهو الطحان الواسطي؛ لأنه ثقة ثبت» اهـ. قلت: والأصوب عندي كلام ابن كثير؛ فإن شيخ ابن حبان لم يتفرد به، بل تابعه عليه أبو حاتم عن مسدد... به. كما رواه ابنه في «التفسير» (٧/ ٢١٤٨/ ١١٦٣٤)، فبرئ بذٰلك جانبه. ثم اختلاف الثقات في روايتهم عن محمد بن عمرو دليل علىٰ وهمه وقلة ضبطه للحديث، بل هو ما احتج به ابن معين وابن عدي في توهين أمره.

نعم؛ له شواهد عند: عبد الرزاق في «التفسير» (١/ ٢٨١/ ١٣١٠)، وأحمد في «الزهد» (ص١٠٣)، والطبري (٧/ ٢٢١/ ١٩٣١٩-١٩٣٢١)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٤٨/ ١١٦٣٥)؛ بأسانيد صحيحة عن عكرمة والحسن وقتادة؛ إلا أنها مرسلة.

والخلاصة: أن ما يخص يوسف عليه السلام من هٰذا الحديث قد جاء من حديث ابن عباس بسند ضعيف جدًّا، ومن حديث أبي هريرة بسند فيه ضعف ومتن فيه نكارة، ومن حديث عكرمة والحسن وقتادة بأسانيد صحيحة ولكنها مرسلة.

وعليه؛ فلا قواعد المصطلح تدعم تقوية الحديث بهٰذا المجموع، ولا النفس ترتاح لمثل هٰذا، بل هو علىٰ ضعفه ونكارته وغرابة متنه. والأظهر أنه مما تلقاه بعض التابعين عن علماء أهل الكتاب، فاختلط أمره علىٰ بعض الرواة، فضمَّه إلىٰ حديث أبي هريرة المرفوع. وأما ما يخص لوطًا عليه السلام من هٰذا الحديث؛ فتشهد له روايات الصحيحين المتقدمة في قصة لوط عليه السلام. والله أعلم.

هٰذا كان من جملةِ أسبابِ خروج يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ من السجن علىٰ وجه الاحترام والإكرام، وذٰلك أن مَلِكَ مصرَ -وهو الرَّيَّانُ بنُ الوليدِ بنِ ثروانَ بنِ أراشَةَ بنِ فارانَ بنِ عمرِو بن عملاقِ بنِ لاوذَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ- رأىٰ هٰذه الرؤيا.

قال أهلُ الكتاب: رأىٰ كأنَّه علىٰ حافةِ نهرٍ، وكأنَّه قد خرج منه سبعُ بقراتٍ سمانٍ، فجَعَلْنَ يَرْتَعْنَ في روضةٍ هناك، فخرجتْ سبعٌ هِزالٌ ضعافٌ من ذٰلك النهر، فَرَتَعْنَ معهنَّ، ثم مِلْنَ عليهنَّ فأكَلْنَهُنَّ؛ فاستيقظ مذعورًا! ثمَّ نامَ، فرأىٰ سبعَ سُنْبُلاتٍ خضرٍ في قَصَبَةٍ واحدةٍ، وإذا سبعٌ أُخرُ دِقاقٌ يابِساتٌ فأكَلْنَهُنَّ، فاستيقظَ مذعورًا!

فلمَّا قصَّها علىٰ مَلَئِهِ وقومِهِ؛ لم يكنْ فيهم مَن يُحْسِنُ تعبيرَها، بل ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾؛ أي: أخلاط أحلام من الليل، لعلَّها لا تعبيرَ لها، ومع هٰذا؛ فلا خبرةَ لنا بذٰلك، ولهٰذا قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

فعند ذٰلك تذكَّر الناجي منهما، الذي وصَّاه يوسفُ بأنْ يَذْكُرَهُ عند ربِّه، فنسِيَه إلىٰ حينِهِ هٰذا، وذٰلك عن تقدير الله عَزَّوَجَلَّ، وله الحكمةُ في ذٰلك، فلمَّا سمعَ رؤيا الملكِ، ورأىٰ عَجْزَ الناس عن تعبيرِها؛ تذكَّر أمرَ يوسفَ وما كان أوصاهُ به من التَّذْكار، ولهٰذا قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ﴾؛ أي: تذكر. ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾؛ أي: بعد مدة من الزمان، وهو بضعُ سنين. وقرأ بعضُهم كما حُكي عن ابن عباس وعكرمة والضحاك: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أَمَهٍ﴾؛ أي: بعد نسيانٍ. وقرأها مجاهد: ﴿بَعْدَ أَمْهٍ﴾؛ بإسكان الميم، وهو النسيان أيضًا، ويقال: أَمِهَ الرجلُ يَأْمَهُ أَمْهًا وأَمَهًا إذا نسي؛ قال الشاعر:

أَمِـهْـتُ وكُـنْـتُ لا أَنْـسـى حَـديـثًـا   كَـذاكَ الـدَّهْـرُ يُـزْري بـالـعُـقـولِ

فقالَ لقومِهِ وللملِك: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾؛ أي: فأرسلوني إلىٰ يوسفَ، فجاءَه، فقالَ: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

وعند أهلِ الكتاب: أنَّ المَلِكَ لمَّا ذَكَرَهُ له الساقي؛ استدْعاه إلىٰ حضرتِهِ، وقصَّ عليه ما رآهُ، ففسَّرَهُ له! وهٰذا غلطٌ، والصوابُ ما قصَّه الله في كتابِهِ القرآن، لا ما عرَّبَه هؤلاء الجهلةُ الثيران، من فِرًىٰ وهَذَيان.

فبَذَلَ يوسفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ما عندَه من العلم بلا تأخُّرٍ ولا شرطٍ، ولا طَلَبَ الخروجَ سريعًا، بل أجابَهُم إلىٰ ما سألوهُ، وعَبَرَ لهم ما كان مِن منام الملكِ الدَّالِّ علىٰ وقوع سبع سنينَ من الخِصْبِ ويَعْقُبُها سبعٌ جُدْبٌ. ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾؛ يعني: يأتيهمُ الغيثُ والخِصْبُ والرفاهيةُ.

﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾؛ يعني: ما كانوا يعصِرونَه من الأقصابِ والأعنابِ والزيتون والسمسم وغيرها.

فعَبَرَ لهم، وعلىٰ الخيرِ دلَّهم، وأرشدَهم إلىٰ ما يعتمِدونَه في حالتي خِصْبِهِم وجَدْبِهم، وما يفعلونَه من ادِّخار حبوب سني الخِصْبِ في السَّبْعِ الأولىٰ في سُنْبُلِهِ؛ إلَّا ما يُرْصَدُ بسبب الأكل، ومِنْ تقليل البَذْرِ في سني الجَدْب في السبع الثانيةِ؛ إذِ الغالبُ علىٰ الظنِّ أنَّه لا يُرَدُّ البِذْرُ من الحقل، وهٰذا يدلُّ علىٰ كمال العلم وكمال الرأي والفَهْم.

۞ [ظهور براءة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ]:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف: ٥٠-٥٣].

لمَّا أحاطَ الملكُ علمًا بكمال علم يوسفَ ﷺ وتمام عقلِهِ ورأيِهِ السَّديدِ وفهمِهِ؛ أمَرَ بإحضارِهِ إلىٰ حَضْرَتِه؛ ليكونَ من جملةِ خاصَّتِه، فلمَّا جاءه الرسولُ بذٰلك؛ أحبَّ ألَّا يخرجَ حتَّىٰ يتبيَّنَ لكلِّ أحدٍ أنَّه حُبِسَ ظلمًا وعدوانًا، وأنه بريءُ الساحة مما نَسَبوهُ إليه بهتانًا؛ ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ يعني: الملك. ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾:
قيل: معناه: إن سيدي العزيز يعلمُ براءتي ممَّا نُسِبَ إليَّ؛ أي: فمُرِ المَلِكَ فَلْيَسألْهُنَّ: كيف كان امتناعي الشديدُ عند مُراوَدَتِهِنَّ إيَّاي وحثِّهِنَّ لي علىٰ الأمر الذي ليس برشيدٍ ولا سديدٍ؟

فلمَّا سُئِلْنَ عن ذٰلك؟ اعتَرَفْن بما وَقَعَ من الأمرِ وما كانَ منه من الأمرِ الحميدِ،

و﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾. فعند ذٰلك ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾: وهي زليخا: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: ظهر وتبيَّن ووضح، والحقُّ أحقُّ أن يُتَّبع. ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١﴾؛ أي: فيما يقوله؛ من أنَّه بريءٌ، وأنه لم يراودْني، وأنه حُبس ظلمًا وعدوانًا وزورًا وبهتانًا.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ٥٢﴾: **قيل**: إنَّه من كلام يوسُفَ؛ أي: إنَّما طلبتُ تحقيقَ هٰذا ليعلمَ العزيزُ أنّي لم أخُنْهُ بِظَهْرِ الغيبِ. وقيلَ: إنَّه مِن تمام كلام زليخا؛ أي: إنَّما اعترفتُ بهٰذا لِيَعْلَمَ زَوْجي أنّي لم أخُنْهُ في نفس الأمرِ، وإنَّما كان مراودةً لم يقعْ معها فعلُ فاحشة. وهٰذا القول هو الذي نَصَرَهُ طائفةٌ كثيرةٌ من أئمَّة المتأخِّرين وغيرهم، ولم يحكِ ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم سوىٰ الأول(١).

﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٥٣﴾: **قيل**: إنه من كلام يوسف. **وقيل**: من كلام زليخا. وهو مفرَّعٌ علىٰ القولين الأوَّلَيْنِ. وكونُهُ من تمام كلام زليخا أظهرُ وأنسبُ وأقوىٰ. والله أعلم.

۞ [يوسف عليه السلام سلطان مصر وحاكمها]:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ٥٤ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ٥٥ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٥٦ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ٥٧﴾ [يوسف: ٥٤-٥٧].

لما ظهر للملكِ براءةُ عرضِهِ ونزاهةُ ساحتِهِ عمَّا كانوا أظهروا عنه ممَّا نسبوه إليه؛ قال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾؛ أي: أجْعَلُه من خاصَّتي ومن أكابر دَوْلَتي ومن أعيان حاشيتي. فلمَّا كلَّمه وسمع مقالَه وتبيَّن حالَه؛ ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ٥٤﴾؛ أي: ذو مكانةٍ وأمانةٍ.

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ٥٥﴾: طلب أن يُوَلِّيَه النظرَ فيما يتعلَّق بالأهْراءِ؛ لِمَا يَتَوَقَّعُ من حصول الخلل فيها بعد مضيِّ سبع سني الخصب؛ لينظرَ فيها بما يُرضي الله في خَلقِهِ من الاحتياطِ لهم والرِّفْق بهم، وأخبر الملكَ أنَّه حفيظٌ؛ أي: قويٌّ علىٰ حفظِ ما لديه،

(١) انظر: «تفسير ابن جرير» (٧/ ٢٣٥/ يوسف ٥٢)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٧/ ٢١٥٧/ يوسف ٥٢).

أمينٌ عليه، عليمٌ بضبط الأشياء ومصالح الأَهراء. وفي هٰذا دليلٌ علىٰ جواز طلب الولايةِ لِمَنْ عَلِمَ من نفسِهِ الأمانةَ والكفاءةَ.

وعند أهل الكتاب: أنَّ فرعونَ عَظَّمَ يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جدًّا، وسلَّطه علىٰ جميع أرض مصرَ، وألبسَه خاتِمَه، وألْبَسَهُ الحريرَ، وطَوَّقَه الذَّهَبَ، وحَمَلَه علىٰ مركَبِه الثَّاني، ونُودِيَ بين يديهِ: أنت ربٌّ ومسلَّطٌ! وقال له: لستُ أعظمَ منك إلَّا بالكرسيِّ. قالوا: وكان يوسفُ إذ ذاك ابنَ ثلاثين سنةً، وزوَّجه امرأةً عظيمةَ الشأنِ.

وحكىٰ الثعلبيُّ[1] أنَّه عَزَلَ قطفيرَ عن وظيفتِهِ وولاَّها يوسفَ. وقيل: إنَّه لمَّا مات؛ زوَّجه امرأتَهُ زليخا، فوجدها عذراء؛ لأنَّ زوجَها كان لا يأتي النساءَ، فولدتْ ليوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رجلينِ، هما: أفْرايِم ومَنَسَّا. قال: واستوثَقَ ليوسفَ ملكُ مصرَ، وعمل فيهم بالعدل، فأحبَّه الرجالُ والنساءُ.

وحَكىٰ أنَّ يوسفَ كان يومَ دخل علىٰ الملك عمرُهُ ثلاثين سنةً، وأنَّ الملك خاطَبَه بسبعينَ لغةً، وفي كلِّ ذٰلك يجاوِبُه بكلِّ لغةٍ منها، فأعجَبَهُ ذٰلك مع حداثة سنِّهِ. فالله أعلم.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾؛ أي: بعد السِّجن والضِّيق والحَصْر صارَ مُطْلَقَ الرِّكاب بديار مصر. ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾؛ أي: أين شاء حلَّ منها مكرمًا محسودًا معظَّمًا. ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾؛ أي: هٰذا كلُّه من جزاء الله وثوابه للمؤمن مع ما يَدَّخِرُ له في آخرتِهِ من الخير الجزيل والثواب الجميل، ولهٰذا قال: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

ويقالُ: إن قطفيرَ زوج زليخا كان قد ماتَ، فولَّاه الملكُ مكانَه، وزوَّجه امرأتَه زليخا، فكان وزيرَ صدقٍ. وذَكَرَ محمدُ بن إسحاق أنَّ صاحبَ مصرَ الوليدَ بنَ الرَّيَّانِ أسلم علىٰ يدي يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. فالله أعلمُ.

وقد قال بعضهم:

وَراءَ مَضيقِ الخَوْفِ مُتَّسَعُ الأمْنِ ... وأوَّلُ مَفْروحٍ بِهِ غايَةُ الحُزْنِ
فَلا تَيْأَسَنْ فاللهُ مَلَّكَ يوسُفًا ... خزائِنَهُ بَعْدَ الخَلاصِ مِنَ السِّجْنِ

---

(١) في «عرائس المجالس» (ص ١٢٩-١٣٠).

۞ [مجيء إخوة يوسف إليه في طلب الميرة]:

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يوسف: ٥٨-٦٢].

يُخبر تعالىٰ عن قدوم إخوة يوسف عليه السلام إلىٰ الدِّيارِ المصريَّةِ يمتارون طعامًا، وذٰلك بعد إتيانِ سِني الجدب وعمومِها علىٰ سائرِ العبادِ والبلادِ، وكان يوسفُ عليه السلام إذ ذاك الحاكمَ في أمور الديارِ المصريَّة دينًا ودُنيا، فلمَّا دَخلوا عليه؛ عَرَفَهم ولم يعرِفوه؛ لأنَّهم لم يخطُر ببالِهم ما صار إليه يوسفُ عليه السلام من المكانةِ والعظمةِ؛ فلهٰذا عَرَفَهُم وهم له منكرونَ.

وعند أهلِ الكتاب: أنَّهم لمَّا قدِموا عليه؛ سجدوا له، فعَرفَهم، وأراد ألا يعرِفوه؛ فأغلظَ لهم في القول، وقال: أنتم جواسيسُ، جئتم لنا لتأخُذوا خبَرَ بلادي. فقالوا: معاذَ الله! إنما جِئْنا نمتارُ لقومِنا من الجهد والجوع الذي أصابنا، ونحنُ بنو أبٍ واحدٍ من كنعانَ، ونحنُ اثنا عشر رجلًا ذهبَ منَّا واحدٌ وصَغيرُنا عند أبينا. فقال: لا بدَّ أن أستعلمَ أمرَكم. وعندهم: أنه حَبَسَهم ثلاثة أيَّام، ثم أخرجَهم واحتبسَ شمعونَ عنده ليأتوه بالأخ الآخر.

وفي بعض هٰذا نظر.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾؛ أي: أعطاهم من المِيْرة ما جرتْ به عادتُه من إعطاءِ كلِّ إنسان حِمْلَ بعيرٍ لا يزيدُه عليه. ﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾: وكان قد سألهم عن حالهم؟ وكم هم؟ فقالوا: كنا اثني عشر رجلًا، فذهب منا واحدٌ، وبقي شقيقُه عند أبينا. فقال: إذا قدِمْتُم من العام المقبل؛ فأتوني به معكم. ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾؛ أي: قد أحسنتُ نُزُلَكم وقِراكم. فرغَّبَهم ليأتوه به. ثم رهَّبَهم إن لم يأتوه به، فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾؛ أي: فلستُ أعطيكُم مِيْرةً، ولا أقربُكم بالكُلِّيَّةِ، عكس ما أسدىٰ إليهم أولًا. فاجتهدَ في إحضارِهِ معهم لِيَبُلَّ شوقَه منه بالترغيبِ والترهيبِ.

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾؛ أي: سنجتهد في مَجيئِهِ معنا وإتيانِهِ إليك بكُلِّ ممكنٍ. ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ۝٦١﴾؛ أي: وإنَّا لقادِرون علىٰ تحصيله.

ثم أمر فتيانَه أن يَضَعوا بضاعَتَهم -وهي ما جاؤوا به يتعوَّضون به من المِيرة- في أمتعتِهم من حيث لا يشعرون بها. ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٦٢﴾؛ قيل: أراد أن يردُّوها إذا وجدوها في بلادهم. وقيل: خشي ألا يكون عندَهم ما يرجِعون به مرة ثانيةً. وقيل: تذمَّم أن يأخذ منهم عوضًا عن الميرةِ. وقد اختلفَ المفسِّرون في بضاعتهم علىٰ أقوالٍ سيأتي ذِكْرُها، وعند أهل الكتاب أنَّها كانت صُررًا من وَرِقٍ، وهو أشبهُ. والله أعلم.

۞ [إخوة يوسف يراودون أباهم في إرسال أخيهم بنيامين معهم]:

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٦٣ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ۖ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝٦٤ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ۖ هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ۝٦٥ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ۝٦٦ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ۝٦٧ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ۚ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦٨﴾ [٦٣-٦٨].

يذكرُ تعالىٰ ما كان من أمرِهم بعد رُجوعِهم إلىٰ أبيهم وقولِهم له: ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾؛ أي: بعد عامِنا هٰذا إنْ لمْ تُرسِلْ معنا أخانا؛ فإن أرسلته معنا؛ لم يُمْنَعْ منا.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ۖ﴾؛ أي: أيَّ شيءٍ نريدُ وقد رُدَّت إلينا بضاعتنا؟! ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾؛ أي: نمتارُ لهم ونأتيهم بما يُصْلِحُهُم في سَنَتِهم ومَحْلِهم. ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ﴾: بسببِهِ. ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ﴾. قال الله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ۝٦٥﴾؛ أي: في مقابلة ذَهاب ولدِهِ الآخر.

وكان يعقوبُ عليه السلام أضنَّ شيءٍ بولدِهِ بَنْيامينَ؛ لأنَّه يشمُّ فيه رائحةَ أخيه، ويتسلَّىٰ به عنه،

ويتعوَّض بسبب منه؛ فلهٰذا قال: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾؛ أي: إلَّا أن تُغْلَبوا كلُّكم عن الإتيان به.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾: أكَّد المواثيقَ وقرَّر العهودَ واحتاطَ لنفسِهِ في ولدِهِ، ولن يُغني حذرٌ من قدرٍ، ولولا حاجتُهُ وحاجةُ قومِهِ إلىٰ المِيْرةِ؛ لَما بَعثَ الولدَ العزيزَ، ولٰكنَّ الأقدارَ لها أحكامٌ، والربُّ تعالىٰ يقدِّرُ ما يشاءُ، ويختارُ ما يريدُ، ويحكمُ ما يشاءُ، وهو الحكيمُ العليم.

ثم أمرهم ألَّا يدخُلوا المدينةَ من باب واحدٍ، ولكن لِيَدْخُلوا من أبواب متفرِّقةٍ. **قيلَ**: أرادَ ألَّا يُصيبَهم أحدٌ بالعينِ، وذٰلك لأنَّهم كانوا أشكالًا حسنةً وصورًا بديعة. قاله ابنُ عباس ومجاهدٌ ومحمد بن كعب وقَتادة والسُّدِّيُّ والضَّحَّاك. **وقيل**: أراد أن يتفرَّقوا العلَّهم يجِدونَ خبرًا ليوسفَ أو يُحَدَّثون عنه بأثرٍ. قاله إبراهيمُ النخعيُّ. والأولُ أظهرُ، ولهٰذا قال: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

وعند أهل الكتاب: أنَّه بعثَ معهم هديةً إلىٰ العزيز من الفستقِ واللَّوْزِ والصَّنَوْبَرِ والبُطْم والعسل، وأخذ الدَّراهِمَ الأولىٰ وعِوَضًا آخرَ.

۞ [يوسف عليه السلام يحتال للاحتفاظ بأخيه]:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [يوسف: ٦٩-٧٩].

يذكُر تعالىٰ ما كان من أمرِهم حين دَخلوا بأخيهم بَنْيامينَ علىٰ شقيقه يوسف، وإيوائه إليه، وإخباره له سرًّا عنهم بأنَّه أخوه، وأمرِهِ بكتْم ذٰلك عنهم، وسلَّاهُ عمَّا كانَ منهم من الإساءة إليه.

ثم احتالَ علىٰ أخذِهِ منهم وتركِهِ إيَّاه عندَه دونَهم، فأمر فتيانَه بوضع سِقايَتِهِ -وهي التي كان يشربُ بها ويكيلُ بها للناس الطعام- عن غِرَّةٍ في متاع بَنْيامينَ، ثم أعْلَمَهم بأنَّهم قد سَرَقوا صُواعَ الملك، ووعَدَهم جِعالةً علىٰ ردِّه حِمْلَ بعير، وضَمِنَهُ المنادي لهم.

فأقبلوا علىٰ مَن اتَّهمهم بذٰلك فأنَّبوه وهجَّنوه فيما قاله لهم؛ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾؛ يقولون: أنتم تعلَمون منَّا خلافَ ما رَمَيْتُمونا به من السرقة.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾: وهٰذه كانت شريعتَهم: أنَّ السارق يُدْفَعُ إلىٰ المسروقِ منه، ولهٰذا قالوا: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾؛ ليكونَ ذٰلك أبعدَ للتُّهمةِ وأبلغَ في الحيلةِ.

ثم قال اللهُ تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾؛ أي: لولا اعترافُهم بأنَّ جزاءَه مَن وُجِدَ في رحلِهِ فهو جزاؤُهُ؛ لما كان يَقْدِرُ يوسفُ علىٰ أخذِهِ منهم في سياسةِ ملك مصرَ. ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾؛ أي: في العلم. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾: وذٰلك لأنَّ يوسفَ كان أعلمَ منهم، وأتمَّ رأيًا، وأقوىٰ عزمًا وحزمًا، وإنما فَعَلَ ما فَعَلَ عن أمرِ الله له في ذٰلك؛ لأنَّه يترتَّبُ علىٰ هٰذا الأمر مصلحةٌ عظيمةٌ بعد ذٰلك؛ من قدوم أبيهِ وقومِهِ عليه ووُفودِهم إليه.

فلمَّا عاينوا استخراج الصُّواع من حِمْل بَنْيامين؛ ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾؛ يعنون: يوسفَ. قيل: كان قد سَرَقَ صنم جدِّه أبي أمه فكسَرَه. وقيل: كانت عمَّتُه قد علَّقت عليه بين ثيابِهِ وهو صغيرٌ منْطَقَةً كانت لإسحاقَ، ثم استخْرَجوها من بين ثيابِهِ وهو لا يشعُرُ بما صنعتْ، وإنَّما أرادت أنْ يكونَ عندَها وفي حضانَتِها لمحبَّتِها له. وقيلَ: كانَ يأخُذُ الطعام من البيتِ فيطعِمُهُ الفقراءَ. وقيلَ غيرُ ذٰلك. فلهٰذا قالوا: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ﴾: وهي كلمتُه بعدَها وقولُه: ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾: أجابَهم سرًّا لا جهرًا؛ حِلْمًا وكرمًا وصفحًا وعفوًا.

فدخلوا معه في الترفُّق والتعطُّف، فقالوا: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩﴾؛ أي: إن أطلَقْنا المتَّهم وأخذْنا البريءَ، وهٰذا ما لا نفعلُهُ ولا نسمحُ به، وإنَّما نأخُذُ مَن وَجدْنا متاعنا عنده.

وعند أهلِ الكتابِ: أنَّ يوسُفَ تعرَّفَ إليهم حينئذٍ! وهٰذا مما غَلِطوا فيه ولم يفهموهُ جيِّدًا.

۞ [يعقوب عليه السلام بين الحزن والرجاء]:

﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ٨١ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٨٢ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٨٣ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ٨٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ٨٥ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف: ٨٠-٨٧].

يقول تعالىٰ مخبراً عنهم أنَّهم لَمَّا استيأسوا من أخذِهِ منه؛ خَلَصوا يتناجَوْن فيما بينهم، قال كبيرُهم -وهو روبين-: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾: لتأتُنني به إلَّا أنْ يُحاط بكم؟ لقد أخلفتُم عَهْدَهُ، وفرَّطْتم فيه كما فرَّطْتم في أخيه يوسفَ من قبلِهِ، فلم يبقَ لي وجهٌ أقابِلُه به.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: لا أزال مُقيمًا هاهنا. ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾: في القدوم عليه. ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾: بأن يقدِّرَني علىٰ ردِّ أخي إلىٰ أبي. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾؛ أي: أخبِروه بما رأيتُم من الأمر في ظاهِرِ المُشاهدة. ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾؛ أي: فإنَّ هٰذا الذي أخبرناكَ به -مِنْ أخْذِهم أخانا لأنَّه سَرَقَ- أمرٌ اشتُهِر بمصرَ وعلِمَه العيرُ التي كنَّا نحنُ وهم هناك. ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾؛ أي: ليس الأمر كما ذكرتُم؛ لم يسرقْ؛ فإنَّه ليس سجيَّةً له ولا خُلُقَه، وإنَّما ﴿سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: قال ابنُ إسحاق وغيرُه: لمَّا كان التفريطُ منهم في بَنْيامينَ مترتِّبًا علىٰ صَنيعِهم في يوسفَ؛ قالَ لهم ما قالَ. وهٰذا كما قال بعضُ السَّلف: إن من جزاءِ السيئةِ السيِّئةَ بعدَها. ثم قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾؛ يعني: يوسفَ وبَنْيامينَ وروبين. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ أي: بحالي وما أنا فيه من فراقِ الأحبَّة. ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾: فيما يقدِّره ويفعلُه، وله الحكمةُ البالغةُ والحجةُ القاطعة.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾؛ أي: أعرضَ عن بنيه. ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾: ذَكَّرَهُ حزنُهُ الجديد بالحزنِ القديم، وحرَّكَ ما كان كامنًا؛ كما قال بعضُهم:

نَقِّلْ فُؤادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الهَوى ... ما الحُبُّ إلَّا لِلْحَبيبِ الأوَّلِ

وقال آخرُ:

لَقَدْ لامَني عِنْدَ القُبورِ عَلى البُكا ... رفيقي لِتَذْرافِ الدُّموعِ السَّوافِكِ
فَقالَ أَتَبْكي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ ... لِقَبْرٍ ثَوَى بَيْنَ اللِّوَى فالدَّكادِكِ
فَقُلْتُ لَهُ إنَّ الأسَى يَبْعَثُ الأسَى ... فَدَعْني فَهٰذا كُلُّهُ قَبْرُ مالِكِ

وقولُهُ: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾؛ أي: من كثرةِ البكاءِ. ﴿فَهُوَ كَظِيمٞ ۝٨٤﴾؛ أي: مُكْظَمٌ من كثرةِ حزنِهِ وأسفِهِ وشوقِهِ إلىٰ يوسفَ.

فلمَّا رأىٰ بنوه ما يقاسيه من الوَجْدِ وألم الفراق؛ ﴿قَالُواْ﴾ له علىٰ وجه الرحمةِ والرأفةِ به والحرصِ عليه: ﴿تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ۝٨٥﴾: يقولونَ: لا تزالُ تتذكَّرُهُ[1] حتىٰ يَنْحَلَ جسدُكَ وتضعفَ قوَّتُكَ؛ فلو رَفقْتَ بنفسِكَ؛ كان أولىٰ بكَ.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨٦﴾: يقولُ لبنيهِ: لستُ أشكو إليكم ولا لأحدٍ من الناس ما أنا فيه، وإنَّما أشكوهُ إلىٰ الله ﷻ، وأعلم أنَّ الله سيجعلُ لي ممَّا أنا فيه فَرَجًا ومخرَجًا، وأعلمُ أنَّ رؤيا يوسفَ لا بُدَّ أن تقعَ، ولا بدَّ أنْ أسْجُدَ له أنا وأنتم حسبَ ما رأىٰ، ولهٰذا قال: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٩٦﴾.

ثم قال لهم محرِّضًا علىٰ تطلُّب يوسفَ وأخيه وأن يبحثوا عن أمرِهما: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨٧﴾؛ أي: لا تيأسوا من الفرج بعد الشِّدَّة؛ فإنَّه لا ييأسُ من رَوْحِ الله وفَرَجِهِ وما يقدِّرُهُ من المخرج في المضايقِ إلَّا القومُ الكافرون.

۞ [يوسف عليه السلام يتعرف إلى إخوته]:

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ۝٨٨ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ۝٨٩ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٩٠ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٩٣﴾ [يوسف: ٨٨-٩٣].

يخبر تعالىٰ عن رُجوع إخوةِ يوسفَ إليه وقدومِهم عليه ورغبتِهم فيما لديهِ من الميرةِ

---

(١) في نسخة: «تذكره».

والصدقةِ عليهم بردِّ أخيهم بَنْيامينَ إليهم، ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾؛ أي: من الجدبِ وضيق الحال وكثرة العيال. ﴿وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾؛ أي: ضعيفةٍ لا يُقبلُ مِثْلُها منَّا؛ إلَّا أن تتجاوزَ عنَّا. قيل: كانتْ دراهمَ رديئةً، وقيل: قليلةً، وقيل: حبَّ الصَّنَوْبَرِ وحبَّ البُطْم ونحوَ ذٰلك، وعن ابن عباس: كانت خَلَقَ الغَرائرِ[1] والحبالِ ونحوَ ذٰلك. ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾: قيل: بقَبولها. قالَهُ السُّدِّيُّ. وقيل: بردِّ أخينا إلينا. قاله ابنُ جريج. وقال سفيان بن عُيينة: إنَّما حَرُمَتِ الصدقةُ علىٰ نبينا محمدٍ ﷺ. ونزع بهٰذه الآية. رواه ابن جرير[2].

فلمَّا رأىٰ ما هُم فيه من الحال، وما جاؤوا به ممَّا لم يبقَ عندَهم سِواه من ضعيفِ المال؛ تعرَّفَ إليهم وعَطَفَ عليهم؛ قائلًا لهم عن أمرِ ربِّه وربِّهم؛ وقد حَسَرَ لهم عن جبينِهِ الشريفِ وما يحويه من الخالِ الذي يعرفونَ فيه: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾؟

﴿قَالُوٓا۟﴾: وتعجَّبوا كلَّ العجب، وقد تردَّدوا إليه مرارًا عديدةً وهم لا يعرِفون أنَّه هو: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى﴾؛ يعني: أنا يوسُفُ الذي صنعتُم معه ما صنعتم، وسَلَفَ من أمركم فيه ما فرَّطْتُم.

وقوله: ﴿وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ﴾: تأكيدٌ لما قال، وتنبيهٌ علىٰ ما كانوا أضمروا لهما من الحسد وعملوا في أمرِهما من الاحتيال. ولهٰذا قال: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ﴾؛ أي: بإحسانه إلينا وصدقته علينا وإيوائه لنا وشدِّهِ معاقدَ عزِّنا، وذٰلك بما أسلَفْنا من طاعة ربِّنا وصَبْرِنا علىٰ ما كان منكم إلينا وطاعتِنا وبرِّنا لأبينا محبَّتِهِ الشديدةِ لنا وشفقتِهِ علينا. ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾؛ أي: فضَّلك وأعطاك ما لم يُعْطِنا. ﴿وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾؛ أي: فيما أسدَيْنا إليك، وها نحنُ بين يديكَ.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ﴾؛ أي: لست أعاتِبُكم[3] علىٰ ما كان منكم بعد يومِكُم هٰذا،

(١) الخلق: المهترئ البالي، والغرائر: جمع غرارة: وعاء كبير من جلد ونحوه؛ كالقفة.

(٢) في «التفسير» (٧/ ٢٨٩/ ١٩٧٩٢).

(٣) في نسخة: «أعاقبكم».

ثم زادهم على ذلك فقال: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾، ومنْ زَعَمَ أن الوقفَ على قولِهِ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾، وابتدأ بقولِهِ: ﴿ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ﴾؛ فقوله ضعيفٌ، والصحيحُ الأول.

ثم أمَرَهم بأن يذهبوا بقميصِهِ -وهو الذي يلي جَسَدَهُ- فيَضَعوهُ على عيني أبيه؛ فإنَّه يرجعُ إليه بصرُهُ بعدما كان ذَهَبَ بإذن الله، وهٰذا من خوارقِ العاداتِ ودلائل النبوَّاتِ وأكبرِ المعجزاتِ.

ثم أمَرَهم بأن يَتَحَمَّلوا بأهلِهِم أجمعينَ إلى ديارِ مصرَ... إلى الخيرِ والدَّعَةِ وجمع الشمل بعدَ الفُرْقَةِ على أكمل الوجوهِ وأعلى الامورِ.

۞ [يعقوب يتلقى البشارة بولده يوسف عليهما السلام]:

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [يوسف: ٩٤-٩٨].

قال عبد الرزاق(١): أنبأنا إسرائيل، عن أبي سنان، عن عبد الله بن أبي الهُذَيْل، سمعت ابن عباس يقول: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾؛ قال: لما خرجتِ العيرُ؛ هاجتْ ريحٌ، فجاءتْ يعقوبَ بريح قميص يوسفَ، فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾. قال: فوَجَدَ ريحَه من مسيرةِ ثمانيةِ أيام.

وكذا رواه الثوريُّ وشعبةُ وغيرُهم عن أبي سنانٍ به. وقال الحسنُ البصريُّ وابن جريج المكيُّ: كان بينهما مسيرةُ ثمانينَ فرسخًا، وكان له منذ فارقه ثمانون سنةً. وقوله: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾؛ أي: تقولون: إنَّما قلتَ هٰذا من الفَنَد، وهو الخرفُ وكِبَرُ السِّنِّ. قال ابن عباس وعطاءٌ ومجاهدٌ وسعيد بن جُبَيْرٍ وقَتادةُ: ﴿تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾: تسفِّهونِ. وقال مجاهدٌ أيضًا والحسنُ: تُهَرِّمونِ.

---

(١) في «التفسير» (١/ ٢٨٦/ ١٣٤٣).

﴿قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾: قال قَتادة والسُّدِّيُّ: قالوا له كلمةً غليظةً.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾؛ أي: بمجرَّد ما جاء ألقىٰ القميصَ علىٰ وجه يعقوبَ، فرجَعَ من فورِهِ بصيرًا بعدما كان ضريرًا، وقال لِبَنيه عندَ ذٰلك: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾؛ أي: أعلمُ أنَّ الله سيجمعُ شملي بيوسفَ، وسَيُقِرُّ عيني به، وسَيُريني فيه ومنه ما يسرُّني.

فعند ذٰلك ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾: طلبوا منه أن يستغفرَ لهم الله ﷻ عمَّا كانوا فعلوا ونالوا منه ومن ابنه وما كانوا عَزَموا عليه، ولمَّا كان من نيَّتِهم التوبةُ قبل الفعل؛ وَفَّقَهُمُ الله للاستغفارِ عند وقوع ذٰلك منهم.

فأجابهم أبوهم إلىٰ ما سألوا وما عليه عوَّلوا قائلًا: ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾: قال ابنُ مسعودٍ وإبراهيمُ التَّيْمِيُّ وعمرو بن قيس وابنُ جريج وغيرُهم: أرجأهم إل وقتِ السَّحَر. قال ابن جَرير[1]: حدثني أبو السائبِ، حدثنا ابنُ إدريسَ؛ قال: سمعتُ عبد الرحمٰن بن إسحاق، يذكر عن محاربِ بن دِثارٍ؛ قال: كان عمٌّ لي يأتي المسجد[2]، فسمعَ إنسانًا يقول: اللهمَّ! دعوتَني فأجبتُ، وأمرتَني فأطعتُ، وهٰذا السحرُ؛ فاغفرْ لي. قال: فاسْتَمَعَ الصوتَ؛ فإذا هو من دارِ عبد الله بن مسعودٍ، فسأل عبدَالله عن ذٰلك؟ فقال: إنَّ يعقوبَ أخَّر بنيه إلىٰ السحرِ بقوله: ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ﴾. وقد قال اللهُ تعالىٰ: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٧]. وثبت في الصحيحين عن رسولِ الله ﷺ أنَّه قال: «**ينزلُ ربُّنا كلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدُّنيا، فيقولُ: هل من تائب فأتوبَ عليه؟ هل من سائل فأعْطِيَهُ؟ هل من مستغفرٍ فأغفرَ له؟**»[3]. وقد ورد في حديث أنَّ يعقوب أرجأ بنيه إلىٰ ليلةِ الجُمُعة: قال ابنُ جريرٍ: حدَّثني المثنَّىٰ؛ قال: حدثنا سليمانُ بن عبد الرحمٰن أبو أيُّوب الدمشقيُّ، حدثنا الوليدُ، أنبأنا ابنُ جُريج، عن عطاءٍ وعِكْرِمَةَ، عن ابن عباس، عن رسول الله

---

(١) في «التفسير» (٧/ ٣٠٠/ ١٩٨٧٥).

(٢) في جميع الأصول: «كان عمر يأتي المسجد»! وليس كذٰلك! والتصويب من «التفسير» و«المجمع» (١٠/ ١٥٨).

(٣) رواه: البخاري: (١٩-التهجد، ١٤-الدعاء من آخر الليل، ٣/ ٢٩/ ١١٤٥)، ومسلم (٦-صلاة المسافرين، ٢٤-الترغيب في الدعاء آخر الليل، ١/ ٥٢١/ ٧٥٨)؛ من حديث أبي هريرة ﷺ.

عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾؛ يقول: «حتَّى ليلة الجمعةِ، وهو قول أخي يعقوبَ لبنيهِ»(١).
وهٰذا غريبٌ من هٰذا الوجه، وفي رَفْعِهِ نظرٌ، والأشبهُ أن يكون موقوفًا علىٰ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

❁ [اجتماع شمل آل يعقوب في مصر بعد طول فراق]:

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ٩٩-١٠١]:

هٰذا إخبارٌ عن حال اجتماع المتحابينَ بعد الفُرقةِ الطويلةِ، التي قيل: إنَّها ثمانونَ سنةً! **وقيل**: ثلاثٌ وثمانونَ سنةً! وهما روايتان عن الحسنِ: **وقيل**: خمسٌ وثلاثون سنةً. قالَه قَتادةُ. وقال محمدُ بنُ إسحاق: ذكروا أنه غاب عنه ثماني عشرةَ سنةً. قال: وأهلُ الكتابِ يزعُمون أنَّه غاب عنه أربعينَ سنةً. وظاهرُ سياقِ القِصَّةِ يرشدُ إلىٰ تحديدِ المدة تقريبًا؛ فإنَّ المرأةَ راوَدَتْهُ وهو شابٌّ ابن سبعَ عشرةَ سنةً -فيما قالَه غيرُ واحدٍ- فامتنعَ، فكانَ في السجن بضعَ سنينَ، وهي سبعٌ عند عِكرمة وغيره، ثم أُخْرِجَ فكانتْ سنواتُ الخِصْبِ السبعُ، ثم لما أمحلَ الناس في السبع البواقي؛ جاء إخوتُهُ يمتارون في السنةِ الأولىٰ وحدَهم، وفي الثانية ومعهُم أخوهُ بَنْيامينُ، وفي الثالثةِ تَعرَّفَ إليهم وأمَرَهم بإحضارِ أهلهم أجمعينَ، فجاؤوا كلُّهم.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾: واجتمعَ بهما خصوصًا وحدَهما دون إخوتِهِ.
﴿وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾: **قيلَ**: هٰذا من المقدَّم والمؤخَّر؛ تقديرُهُ: قال:

---

(١) (منكر). رواه: ابن جرير في «التفسير» (٧/ ٣٠٠/ ١٩٨٨٠)؛ من طريقين عن سليمان بن عبد الرحمٰن... به فذكره.

وسليمان بن عبد الرحمٰن قد قوَّىٰ الذهبي في «الميزان» أمره، ثم ذكر له حديثًا بهٰذا السند نفسه فقال: «وهو مع نظافة سنده حديث منكر جدًّا، في نفسي منه شيء؛ فالله أعلم، فلعل سليمان شُبِّه له وأُدْخِلَ عليه؛ كما قال فيه أبو حاتم: لو أن رجلًا وضع له حديثًا لم يفهم».

قلت: فهٰذا كذٰلك، وربما تكون العلة من الوليد الذي يدلس التسوية ولم يصرح بالتحديث في كافة طبقات السند، أو من ابن جريج الذي عنعن علىٰ تدليسه: فالله أعلم.

ادخُلوا مصرَ وآوىٰ إليه أبويه. وضعَّفَه ابنُ جرير[1] وهو معذورٌ. **قيل**: بل تلقَّاهما وآواهُما في منزل الخيام، ثم لمَّا اقترَبوا من باب مصرَ؛ ﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩﴾. قال السُّدِّيُّ. ولو **قيل**: إن الأمرَ لا يحتاجُ إلىٰ هٰذا أيضًا، وإنَّه ضَمَّنَ قولَه ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ معنىٰ اسكُنوا مصرَ أو أقيموا بها ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩﴾؛ لَكانَ صحيحًا مليحًا أيضًا.

وعند أهلِ الكتابِ: أنَّ يعقوب لمَّا وصلَ إلىٰ أرض جاسان- وهي أرض بلبيس-؛ خَرَجَ يوسفُ لِتَلَقِّيهِ، وكان يعقوبُ قد بَعَثَ ابنَه يهوذا بين يديه مبشرًا بقدومِهِ، وعندَهم أنَّ الملكَ أطلقَ لهم أرض جاسان؛ يكونون فيها ويُقيمونَ بها بنَعَمِهم ومواشيهم.

وقد ذَكَرَ جماعةٌ من المفسِّرين أنَّه لمَّا أَزِفَ قدومُ نبيِّ الله يعقوبَ -وهو إسرائيلُ-؛ أرادَ يوسفُ أن يخرُجَ لتلقِّيهِ، فرَكِبَ معه الملكُ وجنودُهُ؛ خدمةً ليوسفَ وتعظيمًا لنبيِّ اللهِ إسرائيلَ، وأنَّه دعا للملكِ، وأنَّ الله رفع عن أهل مِصْرَ بقيَّةَ سني الجَدْبِ ببركةِ قدومِهِ إليهم. فالله أعلم.

وكان جملةُ مَن قَدِمَ مع يعقوبَ من بنيهِ وأولادِهِم -فيما قالَهُ أبو إسحاقَ السبيعيُّ عن أبي عُبيدةَ عن ابن مسعودٍ- ثلاثةً وستينَ إنسانًا. وقال موسىٰ بن عُبيدة، عن محمد بن كَعْب، عن عبدِالله بن شدَّاد: كانوا ثلاثةً وثمانينَ إنسانًا. وقال أبو إسحاقَ، عن مسروقٍ: دَخَلوا وهُم ثلاثُ مئةٍ وتسعونَ إنسانًا. قالوا: وخَرَجوا مع موسىٰ وهم أزيدُ من ستِّ مئةِ ألف مقاتل. وفي نصِّ أهل الكتاب: أنَّهم كانوا سبعينَ نفرًا، وسمَّوْهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾: **قيل**: كانتْ أمُّه قد ماتتْ؛ كما هو عند علماءِ التوراة. وقال بعضُ المفسِّرين: أحياها الله تعالىٰ! وقال آخرونَ: بل كانت خالتُهُ لَيا، والخالةُ بمنزلةِ الأمِّ. وقال ابن جَرير[2] وآخرون: بل ظاهرُ القرآن يقتضي بقاءَ حياةِ أمِّه إلىٰ يومئذٍ؛ فلا يعوَّلُ علىٰ نقل أهل الكتاب فيما خالفَه. وهٰذا قويٌّ. والله أعلم. ورَفَعَهما علىٰ العرش؛ أي: أجلَسَهما معه علىٰ سريره. ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾؛ أي: سَجَدَ لهُ الأبوانِ والإخوةُ الأحد عشر تعظيمًا وتكريمًا، وكان هٰذا مشروعًا لهم، ولم يَزَلْ معمولًا به في سائرِ الشَّرائع حتَّىٰ حُرِّم في مِلَّتِنا. ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾؛ أي: هٰذا تعبيرُ ما كنتُ قَصَصْتُهُ عليك من رؤيتي الأحد

---

(١) في «التفسير» (١/ ٣٠٢/ يوسف ١٠٠).

(٢) في «التفسير» (٧/ ٣٠٢/ يوسف ١٠٠).

عشر كوكبًا والشمس والقمر حين رأيتُهم لي ساجدينَ وأمرتَني بِكتْمانها ووعدتَني ما وعَدْتني عند ذلك. ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾؛ أي: بعد الهمِّ والضيق جعَلني حاكمًا نافذَ الكلمةِ في الدِّيار المصريَّة حيث شئتُ. ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾؛ أي: البادية، وكانوا يسكنونَ أرض العربات من بلادِ الخليل. ﴿بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾؛ أي: فيما كان منهم إليَّ من الأمرِ الذي تقدَّم وسبقَ ذكرُهُ. ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾؛ أي: إذا أراد شيئًا؛ هيَّأ أسبابَه ويسَّرها وسهَّلها من وجوهٍ لا يهتدي إليها العبادُ، بل يقدِّرها وييسِّرها بلطيف صنعِهِ وعظيم قدرتِهِ. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ أي: بجميع الأمور. ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾: في خلقِهِ وشرعِهِ وقدرِهِ.

وعند أهل الكتاب: أن يوسفَ باعَ أهلَ مصرَ وغيرهم من الطعام الذي كان تحت يدِهِ بأموالهم كلِّها من الذَّهَبِ والفضَّةِ والعَقارِ والأثاثِ وما يملكونَه كلَّه، حتىٰ باعهم بأنفسِهم، فصاروا أرقاءَ، ثم أطلق لهم أرضَهم، وأعتقَ رقابهم؛ علىٰ أن يَعْمَلوا ويكونَ خُمُسُ ما يستغِلُّون من زرعِهم وثمارِهم للملكِ، فصارتْ سنةَ أهل مصر بعده[1].

وحكىٰ الثعلبيُّ[2]: أنَّه كان لا يشبعُ في تلك السنين حتىٰ لا ينسىٰ الجيعان، وأنَّه إنَّما كان يأكُلُ أكلةً واحدةً نصفَ النهار. قال: فمن ثَمَّ اقتدىٰ به الملوكُ في ذلك.

قلتُ: وقد كان أميرُ المؤمنينَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يشبع بطنُهُ عامَ الرَّمادةِ حتَّىٰ ذَهَبَ الجَدْبُ وأتىٰ الخِصْب. قال الشافعيُّ: قال رجلٌ من الأعراب لعمرَ بعدما ذهب عامُ الرَّمادةِ: لقدِ انجلتْ عنك وإنَّك لابنُ حُرَّةٍ!

۞ [يوسف عليه السلام يسأل ربه أن يتوفاه مسلمًا ويلحقه بالصالحين]:

ثم لمَّا رأىٰ يوسُف عليه السلام نعمتَه قد تَمَّتْ وشَمْلَهُ قد اجتمعَ؛ عَرَفَ أنَّ هٰذه الدارَ لا يَقَرُّ بها قرارٌ، وأنَّ كلَّ شيءٍ فيها ومَن عليها فانٍ، وما بعدَ التَّمام إلَّا النُّقصانُ؛ فعند ذٰلك أثنىٰ علىٰ ربِّه بما هو أهلُه، واعترف له بعظيم إحسانِهِ وفضلِهِ، وسأل منه- وهو خير المسؤولين- أن يتوفَّاه- أي: حين يتوفَّاه- علىٰ الإسلام، وأن يُلْحِقَه بعبادِهِ الصالحينَ، وهكذا كما يقال في الدُّعاء: اللهمَّ! أحْيِنا مسلمينَ وتوفَّنا مسلمينَ؛ أي: حين تتوفَّانا.

(١) وعندي أن هٰذا من الإسرائيليات المكذوبة التي لا تليق برسل الله عليهم السلام.

(٢) في «عرائس المجالس» (ص١٣١).

ويُحتمل أنَّه سأل ذٰلك عند احتضارِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ كما سأل النبيُّ ﷺ عند احتضارِهِ أن يرفعَ روحه إلىٰ الملإِ الأعلىٰ والرُّفقاءِ الصالحينَ من النبيِّينَ والمرسلينَ؛ كما قال: «**اللهمَّ! في الرفيق الأعلىٰ**»؛ ثلاثًا، ثم قضىٰ[(١)].

ويُحْتَمَلُ أنَّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ سأل الوفاةَ علىٰ الإسلام مُنْجَزًا في صحَّة بدنِهِ وسلامتِهِ، وأنَّ ذٰلك كان سائغًا في ملَّتهم وشِرْعَتِهم؛ كما رُوي عن ابن عباس أنَّه قال: ما تمنَّىٰ نبيٌّ قطُّ الموتَ قبل يوسفَ.

فأمَّا في شريعتِنا؛ فقد نُهِيَ عن الدُّعاء بالموت؛ إلَّا عند الفتن؛ كما في حديث معاذ في الدُّعاء الذي رواه أحمد: «**وإذا أردتَ بقوم فتنةً؛ فتوفَّنا إليك غيرَ مفتونين**»[(٢)]. وفي الحديث الآخر: «**ابنَ آدمَ! الموتُ خيرٌ لك من الفتنة**»[(٣)]. وقالت مريمُ عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم: ٢٣]. وتمنّىٰ الموتَ عليُّ بن أبي طالب لمَّا تفاقمتِ الأمورُ وعظمتِ

---

(١) رواه: البخاري (٧٥-المرضىٰ، ١٩-تمني الموت، ١٠/ ١٢٧/ ٥٦٧٤)، ومسلم (٤٤- الفضائل، ١٣- فضل عائشة، ٤/ ١٨٩٣/ ٢٤٤٤)؛ عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) (حسن صحيح). رواه: أحمد (٥/ ٢٤٣)، والترمذي (٤٨-التفسير، ٣٩-ومن سورة ص، ٥/ ٣٦٨/ ٣٢٣٥)، من طريق: جهضم بن عبد الله، ثنا يحيىٰ بن أبي كثير، ثنا زيد بن سلَّام، عن أبي سلَّام، ثنا عبد الرحمن بن عائش، عن مالك بن يخامر، عن معاذ بن جبل... فذكره في حديث اختصام الملإِ الأعلىٰ.
وهٰذا سند حسن من أجل جهضم بن عبد الله؛ ففيه كلام يسير، لكن له شاهد من حديث ابن عباس ذكره الترمذي قبله وحسنه ووافقه المنذري والألباني؛ فالحديث صحيح به.
والحديث قال الترمذي: «حسن صحيح، سألت محمد بن إسماعيل عن هٰذا الحديث؟ فقال: هٰذا حديث حسن صحيح». فحسبك به.

(٣) (صحيح). رواه: أحمد (٥/ ٤٢٧ و٤٢٨)، والبغوي (١٤/ ٢٦٧/ ٤٠٦٦)؛ من طريقين عن عمرو بن أبي عمرو، عن عاصم بن عمر، عن محمود بن لبيد... به مرفوعًا.
قال المنذري في «الترغيب» (٤/ ٥٢/ ٤٦٨٨): «رواه أحمد بإسنادين رواة أحدهما محتج بهم في الصحيح، ومحمود بن لبيد له رؤية، ولم يصح له سماع فيما أرىٰ». وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٦٠) مثله. وقال الألباني في «الصحيحة» (٢/ ٤٥٢/ ٨١٣): «وهٰذا إسناد جيد، رجاله ثقات رجال الشيخين، ومحمود بن لبيد صحابي صغير، وجل روايته عن الصحابة كما قال الحافظ في «التقريب»، ومراسيل الصحابة حجة كما هو مقرر في علم المصطلح».

الفتنُ واشتدَّ القتال وكَثُرَ القيل والقال. وتمنَّىٰ ذٰلك البخاريُّ أبو عبد الله صاحبُ «الصحيح» لمَّا اشتدَّ عليه الحال ولقيَ من مخالفيهِ الأهوال.

فأما في حال الرَّفاهية؛ فقد روىٰ البخاريُّ ومسلمٌ في صحيحيهما من حديث أنس بن مالك؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَتَمَنَّيَنَّ أحدُكُم الموتَ لِضُرٍّ نَزَلَ به: إمَّا محسنًا؛ فلعلَّه يزدادُ، وإما مسيئًا؛ فلعلَّه يُسْتَعْتَبُ، ولكن ليقل: اللهمَّ! أَحْيِني ما كانتِ الحياةُ خيرًا لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاةُ خيرًا لي**»[1]. والمرادُ بالضُّرِّ هاهنا ما يخصُّ العبدَ في بدنِهِ من مرضٍ ونحوه لا في دينِهِ.

والظاهرُ أن نبيَّ الله يوسفَ عليه السلام سألَ ذٰلك: إمَّا عندَ احتضارِهِ، أو إذا كانَ ذٰلك أن يكونَ كذٰلك[2].

۞ [وفاة يعقوب عليه السلام ووصيته].

وقد ذكر ابنُ إسحاق عن أهل الكتاب: أنَّ يعقوب أقام بديارِ مصرَ عند يوسفَ سبع عشرة سنة، ثم توفِّي عليه السلام، وكان قد أوصىٰ إلىٰ يوسفَ عليه السلام أن يُدْفَنَ عند أبويهِ إبراهيم وإسحاق. قال السُّدِّيُّ: فصبَّرهُ[3] وسيَّرَهُ إلىٰ بلاد الشام، فدَفَنَه بالمغارةِ عند أبيه إسحاقَ وجدِّه الخليل عليه السلام.

وعند أهل الكتاب: أنَّ عُمُرَ يعقوب يومَ دخل مصر مئةٌ وثلاثون سنة.

وعندهم أهل الكتاب: أنَّ عُمُرَ يعقوب يومَ دخل مصر مئةٌ وثلاثون سنة.

وعندهم أنَّه أقام بأرض مصر سبع عشرة سنةً. ومع هٰذا قالوا: فكان جميع عمره مئة وأربعين سنة! هٰذا نصُّ كتابهم! وهو غلطٌ: إما في النسخة، أو منهم، أو قد أسقطوا الكسرَ، وليس بعادتِهِم فيما هو أكثرُ من هٰذا؛ فكيف يستعمِلون هٰذه الطريقةَ هاهنا؟!

وقد قال تعالىٰ في كتابه العزيز: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ

---

(١) رواه: البخاري (٧٥-المرضىٰ، ١٩-تمني المريض الموت، ١٠/ ١٢٧/ ٥٦٧١)، ومسلم (٤٨-الذكر، ٤-كراهة تمني الموت، ٤/ ٢٠٦٤/ ٢٦٨٠).

(٢) أي: إذا حانت ساعة احتضاره أن يتوفاه مسلمًا ويلحقه بالصالحين.

(٣) من التَّصبير، وهو التحنيط الذي اشتهر به المصريون القدماء.

مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ [البقرة: ١٣٣]: يوصي بنيه بالإخلاص، وهو دين الإسلام الذي بَعَثَ الله به الأنبياء عليهم السلام.

وقد ذكر أهل الكتاب: أنه أوصىٰ بنيه واحدًا واحدًان وأخبرَهم بما يكونُ من أمرِهم، وبشَّرَ يهوذا بخروج نبيٍّ عظيمٍ من نسلِهِ تطيعُهُ الشعوبُ، وهو عيسىٰ ابنُ مريم. والله أعلم.

وذكروا: أنَّه لما ماتَ يعقوبُ؛ بكىٰ عليه أهلُ مصرَ سبعين يومًا، وأمر يوسفُ الأطباء فطَيَّبُوهُ بطيبٍ، ومَكَثَ فيه أربعينَ يومًا، ثم استأذنَ يوسفُ مَلِكَ مصرَ في الخروج مع أبيه ليدفِنَه عند أهله، فأذِنَ له، وخرجَ معه أكابرُ مصرَ وشيوخُها، فلمَّا وصلوا حَبْرونَ؛ دَفَنوهُ في المغارة التي كان اشتراها إبراهيمُ الخليل من عفرون بن صخر الحِثِّيِّ، وعمِلوا له عزاءً سبعة أيام.

قالوا: ثم رَجَعوا إلىٰ بلادِهم، وعزَّىٰ إخوةُ يوسفَ يوسفَ في أبيهم، وترقَّقوا له، فأكرمَهم، وأحسنَ مُنْقَلَبَهم، فأقاموا ببلاد مصر.

[وفاة يوسف عليه السلام ووصيته]:

ثم حَضَرَتْ يوسفَ عليه السلام الوفاةُ، فأوصىٰ أن يُحْمَلَ معهم إذا خرجوا من مصرَ فيدفَنَ عند آبائِهِ، فحنَّطوه ووضَعوهُ في تابوتٍ، فكان بمِصْرَ حتَّىٰ أخرجَه معه موسىٰ عليه السلام، فدفَنَهُ عند آبائِهِ؛ كما سيأتي(١). قالوا: فمات وهو ابنُ مئة سنة وعشر سنين. هٰذا نصُّهم فيما رأيتُه وفيما حكاه ابنُ جرير أيضًا(٢).

وقال مباركُ بن فَضالة عن الحسن: أُلْقِيَ يوسُفُ في الجُبِّ وهو ابنُ سبعَ عشرةَ سنةً، وغاب عن أبيه ثمانين سنةً، وعاش بعد ذٰلك ثلاثًا وعشرين سنةً، ومات وهو ابنُ مئة سنةٍ وعشرين سنة.

وقال غيرُهُ: أوصىٰ إلىٰ أخيه يهوذا صلوات الله عليه وسلامه.

❁ ❁ ❁

(١) في (ص ٤٠٠).

(٢) في «التاريخ» (١/ ٢١٩).

قصة أيوب عليه السلام

[نسب أيوب عليه السلام]:

قال ابنُ إسحاق: كان رجلًا من الروم، وهو أَيُّوبُ بن آموصَ بن زراح بن العِيْصِ بن إسحاقَ بن إبراهيم الخليل. وقال غيرُه: هو أَيُّوب بن آموص بن رَعُوئيل بن العِيْص بن إسحاق بن إبراهيم(١). وقيل غيرُ ذٰلك في نسبه.

وحكىٰ ابنُ عساكر(٢) أنَّ أمَّه بنتُ لوط عليه السلام. وقيل: كان أبوه ممَّن آمَنَ بإبراهيم عليه السلام يوم أُلقي في النار فلمْ تُحْرِقْهُ. والمشهورُ الأولُ؛ لأنَّه من ذرِّيَّة إبراهيم؛ كما قرَّرنا عند قوله تعالىٰ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ...﴾ الآيات [الأنعام: ٨٤] من أن الصحيح أنَّ الضمير عائدٌ علىٰ إبراهيم دون نوح عليهما السلام.

وهو من الأنبياء المنصوص علىٰ الإيحاء إليهم في سورة النِّساء في قولِهِ تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ﴾ الآية [النساء: ١٦٣].

فالصحيح أنه من سلالة العيص بن إسحاق.

وامرأتُه، **قيل**: اسمها ليا بنت يعقوب. **وقيل**: رحمة بنت أفرايِم.

وقيل: لَيا بنت مَنَسَّا بنِ يوسفَ بنِ يعقوب.

وهٰذا أشهر؛ فلهٰذا ذكرناه هاهنا، ثم نعطِفُ بذكر أنبياء بني إسرائيل بعد ذكر قصتِهِ إن شاء الله وبه الثِّقةُ وعليه التُّكلان.

[قصة أيوب عليه السلام كما جاءت في القرآن الكريم]:

قال الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا

(١) في جميع الأصول: «إسحاق بن يعقوب» فتأمَّل وتعجَّب.

(٢) في «التاريخ» (١٠/ ٥٨).

مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤١-٤٤].

۞ [ما جاء في زمان أيوب عليه السلام بين الأنبياء]:

وروىٰ ابن عساكر[١] من طريق الكلبيِّ: أنَّه قال: أولُ نبيٍّ بُعِثَ إدريسُ، ثم نوحٌ، ثم إبراهيمُ، ثم إسماعيلُ وإسحاقُ[٢]، ثم يعقوبُ، ثم يوسفُ، ثم لوطٌ، ثم هودٌ، ثم صالحٌ، ثم شعيبٌ، ثم موسىٰ وهارونَ، ثم إلياسَ، ثم اليسعَ بن عزىٰ بن شوتلح بن أفرايم بن يوسف بن يعقوب، ثم يونسُ بن متَّىٰ من بني يعقوب، ثم أيُّوب بن زراح بن آموص بن أليفاز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم.

وفي بعض هٰذا الترتيب نظرٌ؛ فإنَّ هودًا وصالحًا؛ المشهورُ أنَّهما بعد نوح وقبل إبراهيم. والله أعلم.

۞ [ما جاء في بلاء أيوب عليه السلام]:

قال علماءُ التفسير والتاريخ وغيرُهم: كان أيوبُ رجلًا كثيرَ المال من سائرِ صنوفِهِ وأنواعِهِ؛ من الأنعام والعبيدِ والمواشي والأراضي المتَّسِعة بأرض البَثْنَةِ من أرض حوران، وحكىٰ ابن عساكر[٣] أنَّها كلَّها كانت له، وكان له أولادٌ وأهلونَ كثيرٌ، فسُلِبَ منه ذٰلك جميعُه، وابتُلِيَ في جسدِهِ بأنواع من البلاءِ، ولم يَبْقَ منه عضوٌ سليمٌ سوىٰ قلبِهِ ولسانِهِ؛ يذكرُ الله عز وجل بهما، وهو في ذٰلك كلِّه صابرٌ محتسبٌ ذاكرٌ لله عز وجل في ليلِهِ ونهارِه وصباحِهِ ومسائِهِ.

وطال مرضُه حتىٰ عافَه الجليسُ، وأُوْحِشَ منه الأنيسُ، وأُخْرِجَ من بلدِهِ، وأُلقي علىٰ مزبلةٍ خارجَها، وانقطعَ عنه الناسُ، ولم يبقَ أحدٌ يحنو عليه سوىٰ زوجتِهِ؛ كانت ترعىٰ له حقَّه، وتعرف قديمَ إحسانِهِ إليها وشفقتِهِ عليها؛ فكانت تتردَّدُ إليه، فتصلحُ من شأنِهِ، وتعينُهُ علىٰ قضاء حاجتِهِ، وتقوم بمصلحتِهِ، وضَعُفَ حالُها، وقلَّ مالُها، حتىٰ كانت تخدُمُ الناس

(١) في «التاريخ» (١٠/ ٥٨).

(٢) في جميع الأصول: «ثم إسماعيل ثم إسحاق». والتصويب من ابن عساكر، وهو أولىٰ.

(٣) في «التاريخ» (١٠/ ٥٨).

بالأجر؛ لتطعِمَه وتقوم بأَوْدِهِ؛ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاها، وهي صابرةٌ معه علىٰ ما حلَّ بهما من فراقِ المال والولد، وما يختصُّ بها من المصيبةِ بالزوج وضيقِ ذات اليدِ وخدمةِ الناس بعد السعادةِ والنعمةِ والخدمةِ والحرمةِ؛ فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون!

وقد ثبت في الحديث[1] أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أشدُّ الناس بلاءً الأنبياءُ، ثم الصالحونَ، ثم الأمثلُ فالأمثلُ. يُبتلى الرجل على حسب دينه؛ فإن كان في دينِهِ صلابةٌ؛ زيد بلائِهِ**»[2].

ولم يزد هٰذا كلُّه أيوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلَّا صبرًا واحتسابًا وحمدًا وشكرًا، حتَّىٰ إنَّ المثلَ لَيُضْرَبُ بصَبْرِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويُضْرَبُ المثلُ أيضًا بما حَصَلَ له من أنواع البلايا.

وقد رُوي عن وهب بن منبِّهٍ وغيره عن علماء بني إسرائيل في قصة أيوبَ خبرٌ طويلٌ في كيفية ذهاب مالِهِ وولدِهِ وبلائِهِ في جسدِهِ. والله أعلم بصحته[3].

وعن مجاهدٍ أنه قال: كان أيوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أولَ مَن أصابه الجدريُّ.

وقد اختلَفوا في مدَّة بلواه علىٰ أقوال: فزعم وَهْبٌ أنَّه ابتُلي ثلاث سنين لا تزيدُ ولا تنقصُ. وقال أنسٌ: ابتُلي سبعَ سنين وأشهرًا، وألقي علىٰ مزبلةٍ لبني إسرائيلَ تختلفُ الدوابُّ في جسده حتىٰ فرَّجَ الله عنه وأعظمَ له الأجرَ وأحسنَ الثناءَ عليه. وقال حُميدٌ: مَكَثَ في بلواه ثماني[4] عشرة سنةً.

---

(١) في نسخة: «في الصحيح». والمعنىٰ: في الحديث الصحيح؛ لأنه ليس من مخرجات الصحيحين.

(٢) (**صحيح**). رواه: أحمد (١/ ١٧٢ و١٧٤ و١٨٠ و١٨٥)، والدارمي (٢/ ٣٢٠)، والترمذي (٣٧-الزهد، ٥٦-الصبر علىٰ البلاء، ٤/ ٦٠١/ ٢٣٩٨)، وابن ماجه (٣٦-الفتن، ٢٣-الصبر علىٰ البلاء، ٢/ ١٣٣٤/ ٤٠٢٤)، وابن حبان (٧/ ١٦٠/ ٢٩٠٠و٢٩٠١و٢٩٢١)، والحاكم (١/ ٤٠)؛ من طرق عن عاصم بن بهدلة، عن مصعب بن سعد، عن أبيه... به.

وهٰذا سند حسن من أجل عاصم، ولم يتفرد به عاصم، بل تابعه العلاء بن المسيب، عن أبيه، عن مصعب بن سعد، عن أبيه عند: ابن حبان (٧/ ١٨٣/ ٢٩٢٠) وسقط مصعب من السند عنده، والحاكم (١/ ٤٠) وصححه علىٰ شرطهما.

قال الترمذي: «وفي الباب عن أبي هريرة وأخت حذيفة بن اليمان». قلت: وأبي سعيد الخدري. والحديث صحيح بمجموع طريقيه؛ فكيف إذا انضمت هٰذه الشواهد؟! وقد صححه الترمذي والحاكم والذهبي والألباني.

(٣) رواه: الطبري في «تاريخه» (١/ ١٩٤)، وابن عساكر (١٠/ ٦٩). وهو نص «العهد القديم»؛ فانظر: (سفر أيوب/ الأصحاحات الأولىٰ).

(٤) في جميع الأصول: «ثمانية»!

وقال السُّدِّيُّ: تساقَطَ لحمُهُ حتىٰ لم يبقَ إلَّا العظمُ والعصبُ، فكانت امرأتُه تأتيه بالرمادِ تفرُشُه تحتَه، فلمَّا طال عليها؛ قالتْ: يا أيوبُ! لو دعوتَ ربَّك؛ لفرَّجَ عنك. فقال: قد عشتُ سبعين سنةً صحيحًا؛ فهل قليلٌ للهِ أن أصبرَ له سبعين سنةً؟ فَجَزِعَتْ من هٰذا الكلام! وكانت تخدُمُ الناس بالأجرِ وتطعِمُ أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم إنَّ الناس لم يكونوا يستخدِمونها؛ لعلمهم أنَّها امرأةُ أيوب؛ خوفًا أن ينالَهم من بلائِهِ أو تُعْدِيَهم بمخالطتِهِ، فلمَّا لم تجدْ أحدًا يستخدِمُها؛ عَمَدَتْ فباعت لبعض بناتِ الأشراف إحدىٰ ضفيرتَيْها بطعام طيِّبٍ كثيرٍ، فأتتْ به أيُّوبَ، فقالَ: من أين لكِ هٰذا؟! وأنكره! فقالت: خدمتُ به أناسًا. فلمَّا كان الغدُ؛ لم تجدْ أحدًا، فباعت الضَّفيرةَ الأخرىٰ بطعام، فأتته به، فأنكرَه وحَلَفَ لا يأكُلُه حتىٰ تخبِرَه من أين لها هٰذا الطعام؟ فكشفت عن رأسِها خمارَها، فلمَّا رأىٰ رأسها محلوقًا؛ قال في دعائه: ربِّ! إنِّي مسَّنِيَ الضُّرُّ وأنتَ أرْحَمُ الرَّاحِمينَ.

۞ [ما جاء في كشف بلائه عَلَيْهِ السَّلَامُ]:

وقال ابنُ أبي حاتم(١): حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا جرير بن حازم، عن عبد الله بن عبيد بن عُميرٍ؛ قال: كان لأيوبَ أخوانِ، فجاءا يومًا، فلم يستطيعا أن يدنُوا منه من ريحِهِ، فقاما من بعيدٍ، فقال أحدُهما لصاحبه: لو كان الله عَلِمَ من أيوبَ خيرًا؛ ما ابتلاه بهٰذا! فجَزِعَ أيوبُ من قولِهِما جَزَعًا لم يَجْزَعْ مثلَه من شيء قطُّ، فقال: اللهمَّ! إن كنت تعلمُ أني لم أبِتْ ليلةً قطُّ شبعانًا وأنا أعلم مكان جائع؛ فصدِّقْني! فصُدِّقَ من السماء وهما يسمعانِ. ثم قال: اللهمَّ! إن كنتَ تعلمُ أني لم يكن لي قميصان قطُّ وأنا أعلم مكان عارٍ؛ فصدِّقْني! فصُدِّقَ من السماء وهما يسمعانِ. ثم قال: اللهمَّ! بعزَّتِك. وخرَّ ساجدًا، فقال: اللهمَّ! بعزَّتك لا أرفعُ رأسي أبدًا حتىٰ تكشفَ عني. فما رَفَعَ رأسَه حتىٰ كُشِفَ عنه.

وقال ابنُ أبي حاتم وابنُ جرير جميعًا: حدثنا يونُسُ بن عبد الأعلىٰ، أنبأنا ابن وهب، أخبرني نافع بن يزيدَ، عن عُقيل، عن الزُّهري، عن أنس بن مالك: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ نبيَّ الله أيوب لَبِثَ به بلاؤُهُ ثماني عشرة سنةً، فرفَضَه القريبُ والبعيد؛ إلَّا رجلينِ من إخوانِهِ كانا من أخصِّ إخوانه به، كانا يغدُوان إليه ويروحان، فقال أحدُهما لصاحبِهِ: تَعْلَمُ؟ والله؛ لقد أذنبَ أيُّوبُ ذنبًا ما**

(١) في «التفسير» (٨/ ٢٤٥٩/ ١٣٦٩٥). ورواه ابن جرير في «التفسير» (٩/ ٦٨/ ٢٤٧٢٨)؛ من طريق جرير بن حازم عنه به.

أذنبه أحدٌ من العالَمين. قال لهُ صاحبُه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنةً لم يرحَمْه ربُّه فيكشِفَ ما به. فلمَّا راحا إليه؛ لم يصبِرِ الرجلُ حتى ذَكَرَ ذٰلك له. فقال أيوبُ: لا أدري ما تقولُ؛ غير أنَّ الله ﷻ يعلمُ أنِّي كنت أمرُّ على الرجلين يتنازعانِ، فيذكرانِ الله، فأرجِعُ إلى بيتي، فأكفِّرُ عنهما؛ كراهيةَ أن يُذْكَرَ اللهُ إلا في حق». قال: «وكان يخرج في حاجتِهِ؛ فإذا قضاها؛ أمسكت امرأتُهُ بيده حتى يرجِعَ. فلمَّا كان ذاتُ يوم؛ أبطأَتْ عليه، فأوحى الله إلى أيوب في مكانِهِ أنِ: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢﴾ [ص: ٤٢]، فاستبطأَتْه، فتلقَّتْه تنظرُ، وأقبل عليها قد أذهبَ الله ما به من البلاءِ، وهو على أحسنِ ما كان، فلمَّا رأتْه؛ قالتْ: أي بارك الله فيك! هل رأيتَ نبيَّ اللهِ هٰذا المبتلى؛ فواللهِ القديرِ على ذٰلك؛ ما رأيتُ رجلًا أشبه به منك إذ كان صحيحًا؟! قالك فإني أنا هو». قال: «وكان له أندرانِ[1] أَنْدَرٌ للقمح وأَنْدَرٌ للشعير، فبعث الله سحابتينِ، فلمَّا كانت إحداهُما على أندرِ القمح؛ أفرغتْ فيه الذهبَ حتى فاض، وأفرغتِ الأخرى في أَنْدَرِ الشعيرِ الوَرِقَ حتى فاضَ»[2].

هٰذا لفظُ ابن جرير، وهكذا رواه بتمامِهِ ابنُ حِبان في «صحيحه» عن: محمد بن الحسن بن قُتيبة، عن حرملة، عن ابن وهب... به. وهٰذا غريبٌ رفعُه جدًّا، والأشبه أن يكون موقوفًا.

وقال ابن أبي حاتم[3]: حدثنا أبي، حدثنا موسىٰ بن إسماعيل، حدثنا حمَّاد، أنبأنا علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس؛ قال: وأَلْبَسَهُ الله حُلَّةً من الجنةِ، فتنحَّىٰ أيوبُ وجلس في ناحيةٍ، فجاءتِ امرأتُه، فلم تعرِفْه، فقالت: يا عبدَ الله! أين ذهبَ هٰذا المُبْتَلىٰ الذي كان هاهنا؟ لعلَّ الكلابَ ذهبتْ به أو الذئابَ! وجعلت تُكَلِّمُه ساعةً، فقال: ويحكِ! أنا

---

(١) أندران: بَيْدَران.

(٢) (صحيح). رواه: البزار (٢/ ٢٦٨/ ١٨٤٩-مختصر الزوائد)، وأبو يعلىٰ (٦/ ٢٩٩/ ٨٦٢)، وابن جرير (١٠/ ٥٨٩/ ٢٩٩٤٨)، وابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٦٠/ ١٣٦٩٨)، وابن حبان (٧/ ١٥٧/ ٢٨٩٨)، والحاكم (٢/ ٥٨١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٧٤)؛ من طرق عن نافع بن يزيد... به فذكره.

وهٰذا سند صحيح علىٰ شرط الشيخين كما أفاد الحاكم ووافقه الذهبي. وقال أبو نعيم: «غريب من حديث الزهري، لم يروه عنه إلا عقيل، ورواته متفق علىٰ عدالتهم، تفرد به نافع».

وقال الهيثمي (٨/ ٢١١): «رواه أبو يعلىٰ والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح». وصححه الألباني في «الصحيحة» (١/ ٥٣/ ١٧). ولست أعلم وجهًا لاستغراب الحافظ ابن كثير له وترجيحه وقفه. والله أعلم.

(٣) في «التفسير» (٨/ ٢٤٦١/ ١٣٦٩٩).

أيوبُ! قالت: أتسخرُ مني يا عبدَ اللهِ؟! فقال: ويحكِ! أنا أيوب؛ قد ردَّ الله عليَّ جسدي. قال ابن عباس: وردَّ الله عليه مالَه وولدَه بأعيانِهم ومثلهم معهم.

وقال وَهْبُ بن مُنَبِّهٍ: أوحىٰ الله إليه: قد رددتُ عليك أهلَكَ ومالَكَ ومثلَهم معهم؛ فاغتسلْ بهٰذا الماءِ؛ فإنَّ فيه شفاءَكَ، وقَرِّبْ عن صحابتِكَ قُربانًا، واستغفرْ لهم؛ فإنَّهم قد عَصَوْني فيك. رواه ابن أبي حاتم(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعةَ، حدثنا عمرو بن مروزقٍ، حدثنا همَّامٌ، عن قَتادة، عن النَّضْر بن أنس، عن بشير بن نَهيك، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ قال: **«لما عافى اللهُ أيوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ أمطر عليه جَرادًا من ذَهَب، فجعلَ يأخُذُ منه بيدِهِ ويجعلُ في ثوبِهِ». قال: «فقيلَ له: يا أيُّوبُ! أما تشبع؟ قال: يا ربِّ! ومَنْ يَشْبَعُ من رحمتِك؟!»**(٢).

وهكذا رواه الإمام أحمدُ: عن أبي داوود الطيالسيِّ وعبد الصمد، عن همام، عن قَتادة... به. ورواه ابن حِبان في «صحيحه» عن: عبد الله بن محمد الأزْديِّ، عن إسحاقَ بن راهَوَيْهِ، عن عبد الصمد... به. ولم يخرِّجْه أحدٌ من أصحاب الكتبِ، وهو علىٰ شرط الصحيح. فالله أعلم.

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا سفيانُ، عن أبي الزنادِ، عن الأعرجِ، عن أبي هريرةَ: أُرْسِلَ علىٰ أيُّوبَ رِجْلٌ من جرادٍ من ذهبٍ، فجعل يقبِضُها في ثوبه، فقيل يا أيوبُ! ألم يكفِكَ ما أعطيناكَ؟ قالَ: أيْ ربِّ! ومَنْ يَسْتَغْني عن فضلِكَ؟! هٰذا موقوفٌ. وقد روي عن أبي هريرة من وجهٍ مرفوعًا.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن هَمَّام بن مُنَبِّهٍ؛ قال: هٰذا ما حدَّثنا أبو هريرة؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«بينَما أيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُريانًا؛ خرَّ عليه جرادٌ من ذهبٍ، فجعلَ أيوبُ يَحْثي في ثوبِهِ، فناداه ربُّه ﷻ: يا أيوبُ! ألم أكنْ أغنيتُك عما ترى؟ قال: بلى يا ربِّ! ولٰكنْ لا غنى بي عن بركتِكَ»**(٣). رواه البخاريُّ من حديث عبد الرزاق... به.

---

(١) ليست في المطبوع الذي جمعه أسعد محمد الطيب.

(٢) (صحيح). رواه: الطيالسي (٢٤٥٥)، وأحمد (٢/ ٣٠٤ و٤٩٠ و٥١١)، وابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٦١/ ١٣٧٠٠)، وابن حبان (١٤/ ١٢٢/ ٦٢٣٠)، والحاكم (٢/ ٥٨٢)؛ من طريق همام... به فذكره.

قال الحاكم: «علىٰ شرط البخاري». وقال الذهبي: «علىٰ شرط البخاري ومسلم». وهو كما قالا.

(٣) رواه: أحمد (٢/ ٢٤٣) بالسند الأول موقوفًا. ورواه: هو (٢/ ٣١٤) بالسند الثاني، والبخاري (٦٠-الأنبياء، ٢٠-﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾، ٦/ ٤٢٠/ ٣٣٩١).

وقوله: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ﴾ [ص: ٤٢]؛ أي: اضربِ الأرضَ برِجلك. فامتثَلَ ما أُمِرَ به، فأنبعَ الله له عينًا باردةَ الماء، وأُمِرَ أن يغتسلَ فيها ويشربَ منها، فأذهبَ الله عنه ما كان يجِدُه من الألم والأذىٰ والسَّقَم والمرض الذي كان في جسده ظاهرًا وباطنًا، وأبدله الله بعدَ ذٰلك كلِّه صحةً ظاهرةً وباطنةً وجمالًا تامًّا ومالًا كثيرًا حتىٰ صبَّ له من المال صبًّا مطرًا عظيمًا جرادًا من ذهب، وأخلف اللهُ له أهلَه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ [الأنبياء: ٨٤]: فقيل: أحياهم الله بأعيانهم. **وقيل**: آجَرَه فيمن سَلَف، وعوَّضه عنهم في الدُّنيا بَدَلهم، وجمعَ له شملَه بكلِّهم في الدار الآخرة. وقوله: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ [الأنبياء: ٨٤]؛ أي: رفعنا عنه شدَّته، وكشفْنا ما به من ضُرٍّ؛ رحمةً منا به ورأفةً وإحسانًا. ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٤]؛ أي: تذكرةً لمن ابْتُلِيَ في جسدِهِ أو مالِهِ أو ولدِهِ؛ فله أسوةٌ بنبيِّ الله أيوب؛ حيث ابتلاهُ الله بما هو أعظمُ من ذٰلك، فصبرَ واحتسبَ حتىٰ فَرَّجَ الله عنه. ومَن فَهِمَ من هٰذا اسم امرأتِهِ، فقال: هي رحمة! من هٰذه الآية؛ فقد أبعد النُّجعة وأغرقَ النَّزْع!! وقال الضحَّاك عن ابن عباس: رَدَّ الله إليها شبابَها، وزادَها، حتىٰ وَلَدَتْ له ستةً وعشرين ولدًا ذكرًا.

وعاش أيوبُ بعد ذٰلك سبعين سنةً بأرض الروم علىٰ دين الحنيفيَّةِ، ثم غيَّروا بعدَه دين إبراهيم.

۞ [إبرار الله تعالى ليمين عبده أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ]:

وقوله: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤٤]: هٰذه رخصةٌ من الله تعالىٰ لعبدِهِ ورسولِهِ أيوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما كان من حَلِفِهِ لَيَضرِبَنَّ امرأتَه مئةَ سوطٍ. **فقيلَ**: حَلِفُهُ ذٰلك لِبَيْعِها ضفائِرَها. **وقيل**: لأنه عارضَها الشيطانُ في صورة طبيبٍ يصفُ لها دواءً لأيوبَ، فأتته، فأخبرته، فعَرَفَ أنه الشيطان، فحَلَفَ لَيَضرِبَنَّها مئةَ سوطٍ. فلمَّا عافاه اللهُ عَزَّ وَجَلَّ؛ أفتاه أن يأخُذَ ضِغْثًا وهو كالعثكال الذي يجمعُ الشماريخ(١)، فيجمعَها كلَّها، ويضرِبَها به ضربةً واحدةً، ويكونَ هٰذا منزَّلًا منزلةَ الضربِ بمئةِ سوطٍ، ويَبَرَّ ولا يَحْنَثَ. وهٰذا من الفرج والمخرج لِمن اتَّقىٰ الله وأطاعَه، ولا سيَّما في حقِّ امرأتِهِ الصابرةِ المحتسبةِ المكابدةِ الصدِّيقةِ البارَّةِ الراشدةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. ولهٰذا عقَّبَ الله هٰذه الرُّخصةَ وعلَّلها بقولِهِ: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ

---

(١) الضِّغْث: حزمة رطبة من عيدان الأعشاب. والعثكال في التمر كالعنقود في العنب، والشمراخ بعضه أو العود الواحد منه.

أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤٤].

وقد استعملَ كثيرٌ من الفقهاءِ هٰذه الرخصةَ في باب الأيمان والنُّذور، وتوسَّعَ آخرونَ فيها حتىٰ وَضَعوا كتابَ الحيل في الخلاص من الأيْمانِ، وصدَّروه بهٰذه الآيةِ الكريمةِ، وأتوا فيه بأشياءَ من العجائبِ والغرائبِ! وسنذكُرُ طرفًا من ذٰلك في كتابِ الأحكام عندَ الوصول إليه إنْ شاءَ الله تعالىٰ.

۞ [وفاة أيوب عليه السلام ووصيته]:

وقد ذكر ابنُ جرير[1] وغيرُهُ من علماء التاريخ: أنَّ أيوبَ عليه السلام لمَّا توفِّيَ كان عُمُرُهُ ثلاثًا وتسعين سنةً. وقيل: إنَّه عاش أكثر من ذٰلك.

وقد رویٰ ليثٌ عن مجاهدٍ ما معناه: أنَّ الله يحتجُّ يومَ القيامة بسليمان عليه السلام علىٰ الأغنياء، وبيوسفَ عليه السلام علىٰ الأرِقَّاء، وبأيُّوبَ عليه السلام علىٰ أهل البلاء. رواهُ ابن عساكر[2] بمعناه.

وأنَّه[3] أوصىٰ إلىٰ ولده حومل، وقام بالأمر بعده ولده بشر بن أيوب، وهو الذي يزعُمُ كثيرٌ من الناس أنَّه ذو الكِفْل؛ فالله أعلم.

ومات ابنُهُ هٰذا، وكان نبيًّا فيما يزعُمون، وكان عمره من السنين خمسًا وسبعينَ.

ولْنَذْكُرْ هاهنا قِصَّةَ ذي الكِفْل؛ إذ قال بعضُهم: إنَّه ابنُ أيوبَ عليهما السلام، وهٰذه هي:

۞ ۞ ۞

(١) في «التاريخ» (١/ ١٩٥).

(٢) في «التاريخ» (١٠/ ٨٢).

(٣) معطوف علىٰ ما ذكره ابن جرير وعلماء التاريخ.

قصة ذي الكفل
الذي زعم قوم أنه ابن أيوب

۞ [القرآن الكريم يذكر ذا الكفل في جملة جماعة من الأنبياء]:

قال الله تعالىٰ بعد قصةِ أيوبَ في سورة الأنبياء: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥-٨٦].

وقال تعالىٰ بعد قصة أيوبَ أيضًا في سورة صٓ: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص: ٤٥-٤٨].

فالظاهرُ من ذِكْرِهِ في القرآن العظيم بالثَّناءِ عليه مقرونًا مع هؤلاء السادة الأنبياء أنَّه نبيٌّ عليه من ربِّه الصلاة والسلام، وهٰذا هو المشهور. وقد زعم آخرون أنَّه لم يكن نبيًّا، وإنما كان رجلًا صالحًا وحَكَمًا مُقْسطًا عادلًا.

وتوقَّف ابن جرير في ذٰلك[1]. فالله أعلم.

وروىٰ ابنُ جرير[2] [عن ابن جُريج] وابن أبي نَجيحٍ عن مجاهدٍ: أنَّه لم يكن نبيًّا، وإنَّما كان رجلًا صالحًا، وكان قد تكَفَّلَ لبني قومِهِ أنْ يَكْفِيَهم أمرَهم ويقضيَ بينَهم بالعدل، فسُمِّي ذا الكفل.

۞ [قصة ذي الكفل كما رواها أهل التفسير]:

وروىٰ ابن جَرير وابن أبي حاتم[3] من طريق: داوودَ بن أبي هندٍ، عن مجاهدٍ: أنَّه قال: لَمَّا كَبِرَ اليَسَعُ؛ قال: لو أني استخلفتُ رجلًا علىٰ الناس يعملُ عليهم في حياتي حتىٰ أنظرَ كيف يعملُ؟ فجمعَ الناسَ، فقال: مَنْ يَتَقَبَّلُ مني بثلاثٍ؛ أَسْتَخْلِفْهُ: يصومُ النهارَ، ويقومُ الليلَ، ولا

(١) انظر: «التفسير» (٩/ ٧٠/ الأنبياء ٨٦).

(٢) في «التفسير» (٩/ ٧١/ ٢٤٧٤٣ و٢٤٧٤٤).

(٣) انظر: «تفسير ابن جرير» (٩/ ٧١/ ٢٤٧٤٢)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٨/ ٢٤٦١/ ١٣٧٠٢).

يغضبُ. قال: فقام رجلٌ تزدريه العينُ، فقالَ: أنا. فقال: أنت تصومُ النهارَ وتقومُ الليلَ ولا تغضبُ؟! قال: نعم. قال: فردَّهم ذٰلك اليومَ، وقال مثلَها في اليوم الآخرِ، فسكتَ الناس، وقام ذٰلك الرجلُ، فقال: أنا! فاسْتَخْلَفَهُ. قال: فَجَعَلَ إبليسُ يقول للشياطين: عليكم بفلانٍ! فأعياهُم ذٰلك، فقال: دعوني وإيَّاه. فأتاهُ في صورةِ شيخ كبيرٍ فقيرٍ، وأتاه حين أخذَ مَضْجَعَهُ للقائلةِ، وكان لا ينامُ الليلَ والنهارَ إلَّا تلك النومةَ، فدقَّ البابَ، فقالَ: مَنْ هٰذا؟ قال: شيخٌ كبيرٌ مظلومٌ. قال: فقامَ، ففتحَ البابَ، فجعلَ يقصُّ عليه، فقال: إنَّ بيني وبين قومي خصومةً، وإنَّهم ظَلَموني وفعلوا بي وفعلوا... وجعل يطوِّلُ عليه حتىٰ حَضَرَ الرَّواحُ وذهبتِ القائلةُ. فقال: إذا رحتُ؛ فأْتِني آخُذْ لك بحقِّكَ؛ فانطلقْ. وراحَ، فكان في مجلسِهِ، فجعل ينظُرُ هل يرىٰ الشيخَ؟ فلم يَرَهُ، فقام يتبعُهُ! فلمَّا كان الغدُ؛ جَعَلَ يقضي بين الناسِ وينتظِرُهُ فلا يراهُ، فلما رَجَعَ إلىٰ القائلة فأخذَ مَضْجَعَهُ؛ أتاه، فَدَقَّ البابَ، فقال: من هٰذا؟ فقال: الشيخُ الكبيرُ المظلومُ. فَفَتَحَ له فقالَ: ألم أقلْ لكَ: إذا قعدتُ؛ فَأْتِني؟ قال: إنَّهم أخبثُ قوم، إذا عَرَفوا أنَّك قاعدٌ؛ قالوا: نحنُ نعطيكَ حقَّك، وإذا قمتَ؛ جَحَدوني. قال: فانطلق! فإذا رحتُ، فأْتِني! قال: ففاتَتْه القائلةُ، فراحَ، فجعلَ يَنْظُرُ[١] فلا يراه، وشقَّ عليه النعاسُ، فقال لبعضِ أهلِهِ: لا تَدَعَنَّ أحدًا يَقْرَبُ هٰذا البابَ حتىٰ أنامَ؛ فإنِّي قد شَقَّ عليَّ النومُ. فلمَّا كان تلك الساعةُ؛ جاء، فقال له الرجلُ: وراءَكَ وراءَكَ[٢]! فقال: إنِّي قد أتيتُهُ أمسِ فَذَكَرْتُ له أمري. فقال: لا واللهِ؛ لقد أمَرَنا أن لا نَدَعَ أحدًا يَقْرَبُهُ. فلمَّا أعياه؛ نَظَرَ، فرأىٰ كُوَّةً في البيت، فتسوَّر منها؛ فإذا هو في البيتِ، وإذا هو يدقُّ البابَ من داخل. قال: فاستيقظَ الرجلُ، فقال: يا فلانُ! ألم آمُرْك؟! قال: أمَّا مِنْ قِبَلِي واللهِ؛ فلم تؤتَ؛ فانظُرْ من أين أُتيتَ؟ قال: فقامَ إلىٰ الباب؛ فإذا هو مغلقٌ كما أغلَقَه، وإذا الرجلُ معه في البيتِ، فعَرَفَه، فقال: أعدوَّ اللهِ؟ قال: نعم؛ أَعْيَيْتَني في كلِّ شيءٍ ففعلتُ ما ترىٰ لأغضِبَك. فسمَّاه اللهُ ذا الكِفْل؛ لأنَّه تكَفَّلَ بأمرٍ فوفَّىٰ به!

وقد روىٰ ابنُ أبي حاتم[٣] أيضًا عن ابن عباس قريبًا من هٰذا السياق. وهكذا روي عن عبد الله بن الحارث ومحمد بن قيس وابن حجيرةَ الأكبر وغيرِهم من السلف نحوُ هٰذا.

---

(١) في جميع الأصول: «ينتظر». ولا بأس بها، والأصوب ما أثبته من ابن جرير.

(٢) يعني: ارجع.

(٣) في «التفسير» (٨/ ٢٤٦٢/ ١٣٧٠٣).

وقال ابن أبي حاتم[١]: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجماهر، أنبأنا سعيدُ بن بشير، حدثنا قَتادة، عن كِنانة بن الأخنس؛ قالك سمعتُ الأشعريَّ (يعني: أبا موسىٰ) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهُو علىٰ هٰذا المنبرِ يقولُ: ما كان ذو الكِفْل نَبِيًّا، ولكن كانَ رجلٌ صالحٌ يصلِّي كلَّ يوم مئةَ صلاةٍ، فتكفَّل له ذو الكِفْل من بعدِهِ، فكان يصلِّي كلَّ يوم مئةَ صلاةٍ، فسُمِّي ذا الكفل.

ورواه ابنُ جرير[٢] من طريق: عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة؛ قال: قال أبو موسىٰ الأشعري... فذكَرَه منقطعًا.

[بين الكفل وذي الكفل]:

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمدُ: حدثنا أسباطُ بن محمد، حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن عبد الله، عن سعد مولىٰ طلحة، عن ابن عمر؛ قال: سمعتُ من رسول الله ﷺ حديثًا؛ لو لم أسْمَعْهُ إلا مرةً أو مرتين (حتىٰ عد سبعَ مراتٍ)؛ لم أحدث به، ولكن قد سمعتُه أكثرَ من ذٰلك؛ قال: **«كانَ الكفْلُ من بني إسرائيل لا يتورَّعُ من ذنب عَمِلَهُ، فأتتْهُ امرأةٌ، فأعطاها ستينَ دينارًا على أن يَطَأَها، فلمَّا قَعَدَ منها مَقْعَدَ الرجل من امرأتِهِ؛ أُرْعِدَتْ وبَكَتْ، فقال لها: ما يبكيكِ؟ أكرهتُكِ؟ قالت: لا، ولكن هٰذا عملٌ لم أعْمَلْه قطُّ، وإنَّما حَمَلَتْني عليه الحاجةُ. قال: فتفعلينَ هٰذا ولم تفعليهِ قطُّ؟! ثم نَزَلَ فقالَ: اذْهبي؛ فالدَّنانيرُ لك. ثم قال: واللهِ؛ لا يعصي اللهَ الكِفْلُ أبدًا. فمات من ليلتِهِ، فأصبح مكتوبًا على بابِهِ: قد غَفَرَ اللهُ للكِفْل»**[٣].

---

(١) ساقطة من مطبوعة أسعد محمد الطيب.

(٢) في «التفسير» (٩/ ٧٢/ ٢٤٧٤٨. وانظر أيضًا: ٢٤٧٤٦).

(٣) (ضعيف). رواه: أحمد (٢/ ٢٣)، والترمذي (٣٨-صفة القيامة، ٤٨-باب، ٤/ ٦٥٦/ ٢٤٩٥)، والحاكم (٤/ ٢٥٤)؛ من طريقين عن الاعمش... به فذكره.

وهٰذا سند ضعيف: سعد مولىٰ طلحة هٰذا مجهول كما أفاد الحافظان ابن كثير وابن حجر. وقد أشار الترمذي إلىٰ علة أخرىٰ له فقال: «رواه شيبان وغير واحد عن الأعمش نحو هٰذا ورفعوه، وروىٰ بعضهم عن الاعمش فلم يرفعه».

نعم؛ رواه ابن حبان (٢/ ١١١/ ٣٨٧) من طريق: ابن عياش، عن الأعمش، عن عبد الله، عن ابن جبير، عن ابن عمر. لكن أعلها الترمذي فقال: «وروىٰ أبو بكر بن عياش هٰذا الحديث عن الأعمش فأخطأ فيه... وهو غير محفوظ». ثم الأعمش قد عنعن علىٰ تدليسه في كلا الطريقين. فالحديث ضعيف كما قال الحافظ ابن كثير وتابعه الألباني.

ورواه الترمذيُّ من حديث الأعمش به، وقال: حسنٌ. وذكر أن بعضَهم رواه فوقَفَه علىٰ ابن عمر. فهو حديث غريبٌ جدًّا، وفي إسناده نظرٌ؛ فإنَّ سعدًا هٰذا: قال أبو حاتم: لا أعرِفُه إلَّا بحديث واحد، ووثَّقه ابن حِبان، ولم يروِ عنه سوىٰ عبدِالله بن عبد الله الرازي هٰذا. فالله أعلم. وإن كان محفوظًا؛ فليس هو ذا الكِفْل، وإنَّما لفظ الحديث: الكِفْل؛ من غير إضافة؛ فهو رجلٌ آخرُ غير المذكورِ في القرآنِ. فالله تعالىٰ أعلم.

۞ ۞ ۞

باب ذكر أمم أهلكوا بعامة

وذلك قبلَ نزول التَّوراة؛ بدليل قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣].

كما رواه ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم والبزارُ من حديث: عوفٍ الأعرابيِّ، عن أبي نَضْرة، عن أبي سعيدٍ الخدريِّ؛ قال: ما أهْلَكَ اللهُ قومًا بعذابٍ من السَّماء أو من الأرض بعدَما أنزلتِ التوراةُ علىٰ وجه الأرض غيرَ القريةِ التي مُسِخوا قردةً، ألَمْ تَرَ أنَّ الله تعالىٰ يقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣][1]؟ ورفعه البزارُ في روايةٍ له، والأشبهُ-والله أعلم-وقفُهُ.

فدلَّ علىٰ أنَّ كلَّ أمةٍ أهْلِكَتْ بعامَّةٍ قبلَ موسىٰ عليه السلام.

فمنهم:

---

(١) (صحيح). رواه: البزار (٢/ ١٠٠/ ١٤٩٧-مختصر الزوائد)، والحاكم (٢/ ٤٠٨)؛ من طريقين عن عوف الأعرابي... به مرفوعًا.

ورواه: البزار (٢/ ٩٩/ ١٤٩٨-مختصر الزوائد)، وابن جرير (١٠/ ٧٦/ ٢٧٤٦٠)، وابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٨١/ ١٦٩٢٨)؛ من طرق عن عوف... به موقوفًا.

قلت: الذين وقفوا الحديث أكثر، ولكن الرَّافعَيْن ثقتان ثبتان احتج بهما الشيخان؛ فتعين الأخذ بهٰذه الزيادة، ولن يضرها الوقف بعد هٰذا، بل سيزيدها قوة إن شاء الله. وقد صححه مرفوعًا الحاكم والذهبي والهيثمي والعسقلاني.

أصحاب الرس

۞ [ذكر أصحاب الرس في القرآن الكريم]:

قال الله تعالىٰ في سورة الفرقان: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ [الفرقان: ٣٨، ٣٩].

وقال تعالىٰ في سورة قٓ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [ق: ١٢-١٤].

۞ [اختلاف أهل العلم في مكانهم وزمانهم]:

وهٰذا السياق والذي قبله يدلُّ علىٰ أنَّهم أهْلِكوا ودُمِّروا وتُبِّروا (وهو الهلاك).

وهٰذا يردُّ اختيار ابن جريرٍ[1] من أنهم أصحابُ الأخدودِ الذين ذُكِروا في سورة البروج؛ لأن أولٰئك عند ابن إسحاق وجماعةٍ كانوا بعدَ المسيح عليه السلام. وفيه نظرٌ أيضًا.

وروىٰ ابنُ جرير[2]؛ قالَ: قالَ ابنُ عباس: أصحابُ الرَّسِّ أهلُ قريةٍ من قرىٰ ثمودَ.

وقد ذكر الحافظُ الكبيرُ أبو القاسم بنُ عساكر في أول «تاريخه»[3] عند ذكر بناء دمشق عن «تاريخ أبي القاسم عبيدالله بن عبد الله بن خرداذبه»[4] وغيره: أنَّ أصحاب الرَّس كانوا بحَضُور، فبعث الله إليهم نبيًّا يُقال له: حنظلة بن صفوان، فكذَّبوه، وقَتَلوه، فسَار عادُ بن

---

(١) ابن جرير رحمه الله توقَّف في القضية، فقال في «التفسير» (٩/ ٣٩٠/ الفرقان ٣٩): «ولا أعلم قومًا كانت لهم قصة بسبب حفرة ذكرهم الله في كتابه إلا أصحاب الأخدود؛ فإن يكونوا هم المعنيين بقوله: ﴿وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾؛ فإنا سنذكر خبرهم إن شاء الله إذا انتهينا إلىٰ سورة البروج، وإن يكونوا غيرهم؛ فلا نعرف لهم خبرًا إلا ما جاء من جملة الخبر عنهم أنهم قوم رسُّوا نبيَّهم في حفرة؛ إلا ما...» ثم ذكر الخبر الآتي. ولم أجد له كلامًا غير هٰذا في تفسير سورة ق، ولا أشار إلىٰ أصحاب الرس أصلًا في سورة البروج.

(٢) في «التفسير» (٩/ ٣٩٠/ ٢٦٣٧٥).

(٣) (١/ ١٢).

(٤) في جميع الأصول: «عبد الله بن عبد الله بن جرداد»!! فإنا لله.

عوص بن إرم بن سام بن نوح بولده من الرَّسِّ، فنزل الأحقاف، وأهلكَ الله أصحابَ الرَّسِّ، وانتشروا في اليمن كلِّها، وفَشَوا مع ذٰلك في الأرض كلِّها، حتىٰ نزل جيرون بن سعد بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح دمشق، وبنىٰ مدينتها، وسمَّاها جيرون، وهي إرم ذات العماد، وليس أعمدةُ الحجارة في موضع أكثرَ منها بدمشق، فبعث الله هود بن عبد الله بن رباح بن خالد بن الخلود بن عادٍ إلىٰ عادٍ -يعني: أولاد عاد- بالأحقاف، فكذَّبوه، فأهلكهم الله ﷻ.

فهٰذا يقتضي أنَّ أصحاب الرَّسِّ قبل عادٍ بدُهورٍ متطاولة. فالله أعلم.

وروىٰ ابن أبي حاتم(١): عن أبي بكر بن أبي عاصم، عن أبيه، عن شَبيب بن بشر، عن عِكرمة، عن ابن عباس؛ قال: الرسُّ بئرٌ بأذربيجانَ. وقال الثوريُّ: عن أبي بكر، عن عكرمة؛ قال: الرسُّ بئرٌ رَسُّوا فيها نبيَّهم (أي: دفنوه فيها). وقال ابن جُريج: قال عكرمة: أصحاب الرس بفَلْجَ، وهم أصحاب يس. وقال قتادة: فَلْجُ من قرىٰ اليمامةِ.

قلت: فإن كانوا أصحاب يس كما زعمه عكرمة؛ فقد أهْلِكوا بعامَّة؛ قال الله تعالىٰ في قصتهم: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [يس: ٢٩]، وستأتي قصَّتُهم بعد هؤلاء. وإن كانوا غيرَهم -وهو الظاهر-؛ فقد أُهْلِكوا أيضًا وتُبِّروا. وعلىٰ كلِّ تقديرٍ؛ فيُنافي ما ذكره ابن جرير.

۞ [ذكر ما جاء في أصحاب الرس من المرويات]:

وقد ذكر أبو بكر محمد بن الحسن النقَّاش: أنَّ أصحاب الرَّسِّ كانت لهم بئرٌ ترويهم وتكفي أرضَهم جميعَها، وكان لهم ملِكٌ عادلٌ حسنُ السيرة، فلمَّا مات؛ وَجَدوا عليه وَجْدًا عظيمًا، فلمَّا كان بعد أيام؛ تصوَّرَ لهم الشيطانُ في صورتِهِ، وقال: إنِّي لم أمُتْ، ولكن تَغَيَّبْتُ عنكم حتىٰ أرىٰ صنيعَكم. ففرِحوا أشدَّ الفرح، وأمر بضرب حجابٍ بينَهم وبينَه، وأخبرهم أنَّه لا يموتُ أبدًا، فصَدَّقَ به أكثرُهم، وافتتنوا به، وعبَدوه، فبعثَ الله فيهم نبيًّا، فأخبرَهُم أنَّ هٰذا شيطانٌ يخاطِبُهم من وراء الحجابِ، ونهاهم عن عبادتِهِ، وأمَرَهُم بعبادةِ الله وحدَه لا شريك له. قال السُّهَيْلِيُّ: وكان يوحىٰ إليه في النوم، وكان اسمُهُ حنظلة بن صفوان. فعَدَوْا عليه، فقَتَلوه، وألقَوْه في البئر، فغار ماؤها، وعطِشوا بعد رِيِّهم، ويبِستْ أشجارُهم، وانقطعتْ

---

(١) في «التفسير» (٨/ ٢٦٩٥/ ١٥١٧٣).

ثمارُهم، وخَرِبَتْ دِيارُهم، وتبدَّلوا بعد الأنس بالوَحْشة وبعد الاجتماع بالفُرقة، وهَلَكوا عن آخرِهم، وسكن في مساكِنِهم الجنُّ والوحوشُ؛ فلا يُسمع ببقاعِهِم إلَّا عَزيفُ[1] الجنِّ وزَئيرُ الأسودِ وصوتُ الضِّباع.

فأمَّا ما رواه (أعني: ابن جرير): عن محمد بن حميد، عن سلمة، عن ابن إسحاق، عن محمد بن كعب القُرظي؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أول الناس يدخُلُ الجنةَ يومَ القيامةِ العبدُ الأسودُ**». وذٰلك أنَّ الله تعالىٰ بَعَثَ نبيًّا إلىٰ أهل قريةٍ، فلم يؤمن به من أهلِها إلَّا ذٰلك العبدُ الأسودُ، ثم إنَّ أهلَ القريةِ عَدَوْا علىٰ النبيِّ، فحفَروا له بئرًا، فألقَوْه فيها، ثم أطبقوا عليه بحجرٍ أصمَّ. قال: فكان ذٰلك العبدُ يذهبُ فيحتطِبُ علىٰ ظهرِهِ، ثم يأتي بحطبِهِ، فيبيعُهُ، ويشتري به طعامًا وشرابًا، ثم يأتي به إلىٰ ذٰلك البئر، فيرفعُ تلك الصخرةَ، ويعينُهُ اللهُ عليها، ويُدْلي إليه طعامَهُ وشرابَهُ، ثم يردُّها كما كانت. قال: فكان كذٰلك ما شاءَ الله أن يكونَ، ثم إنَّه ذَهَبَ يومًا يحتطِبُ كما كان يصنعُ، فجمع حَطَبَهُ، وحَزَمَ حزمتَهُ، وفرغ منها، فلمَّا أرادَ أن يحتمِلَها؛ وَجَدَ سِنَةً، فاضطجع، فنام، فضرب الله علىٰ أذُنِهِ سبعَ سنينَ نائمًا، ثم إنَّه هبَّ، فتمطَّىٰ، فتحوَّل لشقِّه الآخر، فاضطجعَ، فضربَ الله علىٰ أذنِهِ سبع سنين أخرىٰ، ثم إنَّه هبَّ، واحتمل حزمتَهُ، ولا يحسَبُ إلَّا أنَّه نام ساعةً من نهارٍ، فجاء إلىٰ القريةِ، فباع حزمتَهُ، ثم اشترىٰ طعامًا وشرابًا كما كان يصنعُ، ثم إنه ذهب إلىٰ الحفرة في موضِعِها الذي كانت فيه، فالْتَمَسَهُ، فلم يجدْه، وقد كان بدا لقومِهِ فيه بَداءٌ، فاستخرجوه وآمنوا به وصدَّقوه. قال: فكان نبيُّهم يسألُهم عن ذٰلك الأسود: ما فعلَ؟ فيقولون له: ما ندري. حتىٰ قَبَضَ اللهُ النبيَّ عليه السلام، وأهبَّ الأسودَ من نومتِهِ بعد ذٰلك، فقال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ ذٰلك الأسودَ لأوَّلُ من يَدْخُلُ الجنةَ**»[2]؛ فإنه حديثٌ مرسلٌ، ومثلُهُ فيه نظرٌ، ولعلَّ بسطَ قصتِهِ من كلام محمد بن كعبٍ القرظيِّ. والله أعلم.

ثم قد ردَّه ابنُ جرير نفسُه، وقال: لا يجوزُ أن يُحْمَلَ هؤلاء علىٰ أنَّهم أصحاب الرَّسِّ المذكورون في القرآن. قال: لأنَّ اللهَ أخبر عن أصحاب الرَّسِّ أنَّه أهلَكَهم، وهؤلاء قد بدا لهم فآمنوا بنبيِّهم، اللهمَّ؛ إلَّا أن يكونَ حدثتْ لهم أحداثٌ آمنوا بالنبيِّ بعد هلاك آبائِهم. والله أعلم.

(١) العزيف: صوت الجن.

(٢) (ضعيف جدًّا). رواه ابن جرير في «التفسير» (٩/ ٣٩٠/ ٢٦٣٨١)، وفيه كما ترىٰ:

ثم اختار(١) أنَّهم أصحابُ الأُخدود، وهو ضعيفٌ؛ لِما تقدَّم، ولِما ذُكِرَ في قصة أصحاب الأُخدودِ؛ حيث تُوُعِّدوا بالعذابِ في الآخرة إن لم يتوبوا، ولم يُذْكَرْ هلاكُهم، وقد صُرِّح بهلاكِ أصحاب الرَّسِّ. والله تعالىٰ أعلم.

❁ ❁ ❁

(١) قدمنا أنه لم يختر ذٰلك، بل توقف فيهم.

قصة قوم يٰس

وهم: أصحابُ القريةِ أصحابُ يٰس.

[قصة قوم يس كما جاءت في القرآن الكريم]:

قال الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [يس: ١٣-٢٩].

[اختلاف أهل العلم في أصحاب يس زمانًا ومكانًا].

اشْتُهِرَ عن كثيرٍ من السَّلف والخلف أنَّ هٰذه القريةَ أنطاكيةُ. رواه ابنُ إسحاق فيما بَلَغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن مُنبِّه. وكذا رُوِيَ عن بُريدة بن الحُصَيْب وعِكرمة وقَتادة والزُّهري وغيرهم.

قال ابنُ إسحاق فيما بَلَغَهُ عن ابن عباس وكعبٍ ووَهْب أنَّهم قالوا: وكان لها مَلِكٌ اسمُهُ أنطيخس بن أنطيخس، وكان يعبدُ الأصنامَ. فبَعَثَ اللهُ إليه ثلاثةً من الرُّسل، وهم صادقٌ ومصدوقٌ وشلومٌ، فكذَّبهم. وهٰذا ظاهرٌ أنَّهم رسلٌ من الله عَجَّلَك.

وزعم قَتادة أنَّهم كانوا رسلًا من المسيح. وكذا قال ابنُ جرير[1]: عن وَهْب، عن ابن سليمان، عن شعيب الجبائي: كان اسمُ الرسولين الأوَّلَيْن شمعونَ ويوحنَّا، واسمُ الثالث بولس، والقريةُ أنطاكية.

وهٰذا القول ضعيفٌ جدًّا؛ لأنَّ أهلَ أنطاكية لما بَعَثَ إليهم المسيحُ ثلاثةً من الحواريينَ؛ كانوا أولَ مدينةٍ آمنتْ بالمسيح في ذٰلك الوقتِ، ولهٰذا كانت إحدىٰ المُدُنِ الأربع التي تكون فيها بطاركةُ النَّصارىٰ، وهنَّ أنطاكيَّة والقدس وإسكندريَّة وروميَّة، ثم بعدَها القسطنطينيَّة، ولم يُهْلَكوا، وأهلُ هٰذه القرية المذكورة في القرآن أُهْلِكوا؛ كما قالَ في آخرِ قصَّتها بعد قتلِهِم صِدِّيقَ المرسلين: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ۝٢٩﴾.

ولكن؛ إن كان الرسلُ الثلاثةُ المذكورون في القرآنِ بُعِثوا إلىٰ أهل أنطاكيةَ قديمًا، فكَذَّبوهُم، وأهلَكَهُمُ الله، ثم عُمِرَتْ بعد ذٰلك، فلمَّا كان في زمن المسيح؛ آمنوا برسلِهِ إليهم؛ فلا يُمْنَعُ هٰذا. والله أعلم.

فأمَّا القولُ بأنَّ هٰذه القصةَ المذكورةَ في القرآنِ هي قصةُ أصحاب المسيح؛ فضعيفٌ؛ لما تقدَّم، ولأنَّ ظاهر سياقِ القرآن يقتضي أنَّ هؤلاء الرسلَ من عند الله.

۞ [أصحاب يٰس يكذبون رسل الله ويهددونهم]:

قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾؛ يعني: لقومك يا محمد. ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾؛ يعني: المدينةَ. ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٣ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾؛ أي: أيَّدْناهما بثالثٍ في الرسالة. ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝١٤﴾. فردوا عليهم بأنَّهم بشرٌ مثلُهم؛ كما قالت الأممُ الكافرةُ لرسلهم؛ يستبعدونَ أن يبعثَ الله نبيًّا بشريًّا. فأجابوهم بأنَّ الله يعلمُ أنَّا رسلُهُ إليكم، ولو كنَّا كَذَبْنا عليه؛ لعاقبَنا وانتقمَ مِنَّا أشدَّ الانتقام. ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝١٧﴾؛ أي: إنَّما عَلَيْنا أن نبلِّغكم ما أرسِلْنا به إليكم، والله هو الذي يهدىٰ مَنْ يشاءُ ويُضِلُّ مَنْ يشاءُ.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾؛ أي: تشاءمنا بما جِئْتُمونا به. ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾: **قيل:** بالمقال، **وقيل:** بالفِعال، ويؤيد الأول قوله: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨﴾: توعَّدوهم

(١) ليس هٰذا عن ابن جرير، بل عن ابن أبي حاتم؛ كما في «الدر» (٥/ ٤٩٠).

بالقتل والإهانةِ. ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ ﴾؛ أي: مردودٌ عليكم. ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ ﴾؛ أي: بسبب أنا ذَكَّرناكُم بالهدىٰ ودعوناكم إليه توعَّدْتمونا بالقتل والإهانة! ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾؛ أي: لا تقبلونَ الحقَّ ولا تريدونَه.

[خبر مؤمن أصحاب يس]:

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ ﴾؛ يعني: لنصرةِ الرُّسل وإظهارِ الإيمان بهم. ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١﴾؛ أي: يدعونكم إلىٰ الحقِّ المحضِ بلا أجرةٍ ولا جِعالةٍ. ثم دعاهم إلىٰ عبادةِ الله وحدَه لا شريكَ له، ونهاهم عن عبادةِ ما سواه ممَّا لا ينفعُ شيئًا لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ. ﴿ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤﴾؛ أي: إن تركتُ عبادةَ الله وعبدتُ معه ما سواهُ. ثم قال مخاطبًا للرسل: ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥﴾: **قيل**: فاستمِعوا مقالتي واشْهَدوا لي بها عند ربِّكم. **وقيل** معناه: فاسمَعوا يا قومي إيماني برُسُل اللهِ جهرةً.

فعند ذٰلك قتلوه: **قيل**: رجمًا. **وقيل**: عضًّا. **وقيل**: وثبوا إليه وثبةَ رجل واحدٍ فقتَلوه. وحكىٰ ابنُ إسحاق، عن بعض أصحابِهِ، عن ابن مسعودٍ؛ قال: وَطِئوهُ بأرجُلِهِم حتىٰ أخرَجوا قُصْبه[١] [من دُبُره].

وقد روىٰ الثوريُّ، عن عاصم الأحول، عن أبي مِجْلَزٍ: كان اسمُ هٰذا الرجل حبيبَ بنَ مري. ثم **قيل**: كان نجارًا. **وقيل**: حبَّالًا. **وقيل**: إسكافًا. **وقيل**: قصارًا. **وقيل**: كان يتعبَّدُ في غارٍ هناك. فالله أعلم.

وعن ابن عباس: كان حبيبُ النجارُ قد أسرعَ فيه الجُذامُ، وكان كثيرَ الصدقةِ، فقتَلَه قومُه، ولهٰذا قال تعالىٰ: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾؛ يعني: لما قتَلَهُ قومُه؛ أدخَلَه الله الجنة، فلما رأىٰ فيها من النضرة والسرور؛ ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾؛ يعني: ليؤمنوا بما آمنتُ به فيحصُلُ لهم ما حَصَل لي. قال ابن عباس: نصحَ قومَهُ في حياتِهِ

(١) في جميع الأصول: «قصبته»! والتصويب والزيادة من «ابن جرير» و«الدر». والقُصْب: الأمعاء.

بقولِهِ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٢٠﴾، وبعد مماتِهِ في قولِهِ: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٧﴾. رواه ابنُ أبي حاتم[1].

وكذٰلك قال قَتادة: لا يُلْقىٰ المؤمنُ إلَّا ناصحًا، لا يُلْقىٰ غاشًّا، لمَّا عاينَ ما عاينَ من كرامة الله؛ ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٧﴾: تمنَّىٰ والله أنْ يعلم قومُهُ بما عايَنَ من كرامة الله وما هو عليه! قال قَتادة: فلا والله؛ ما عاتبَ الله قومَه بعد قتلِهِ، ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ۝٢٩﴾.

۞ [نزول عذاب الله ونقمته في أصحاب يٰسٓ]:

وقولُه تعالىٰ: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨﴾؛ أي: وما احتجْنا في الانتقام منهم إلىٰ إنزال جندٍ من السَّماء عليهم. هٰذا معنىٰ ما رواه ابنُ إسحاق عن بعض أصحابِهِ عن ابن مسعود. قال مجاهدٌ وقتادةٌ: وما أنزل عليهم جندًا؛ أي: رسالةً أخرىٰ. قال ابنُ جَرير[2]:

والأولُ أولىٰ. قلتُ: وأقوىٰ. ولهٰذا قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨﴾؛ أي: وما كنا نحتاجُ[3] في الانتقام إلىٰ هٰذا حين كذَّبوا رُسُلَنا وقتلوا وليَّنا.

﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ۝٢٩﴾: قال المفسِّرونَ: بعثَ اللهُ إليهم جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأخَذَ بِعضادَتَي الباب الذي لبلدِهِم، ثم صاح بهم صيحةً واحدةً؛ فإذا هم خامدونَ؛ أي: قد أُخْمِدَتْ أصواتُهم، وسكنتْ حَرَكاتُهم، ولم يبقَ منهم عينٌ تطرفُ.

وهٰذا كلُّه مما يدلُّ علىٰ أنَّ هٰذه القرية ليست أنطاكيةَ؛ لأنَّ هؤلاء أُهْلِكوا بتكذيبِهِم رسلَ الله إليهم، وأهلُ أنطاكيةَ آمنوا واتَّبعوا رُسُلَ المسيح من الحواريِّين إليهم؛ فلهٰذا قيل: إن أنطاكيةَ أوَّلُ مدينةٍ آمنتْ بالمسيح.

---

(١) ساقطة من التفسير الذي جمعه أسعد محمد الطيب.

(٢) في «التفسير» (١٠/ ٤٣٧/ يس٢٩).

(٣) في نسخة: «محتاجين».

۞ [ذكر خبر لا يصح في مؤمن أصحاب يٰسٓ]:

فأمَّا الحديثُ الذي رواه الطبرانيُّ من حديث: حسينٍ الأشقرِ، عن سفيانَ بن عُيينةَ، عن ابن أبي نَجيحٍ، عن مجاهدٍ، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ؛ قال: «**السُّبَّقُ ثلاثةٌ: فالسابقُ إلى موسى يوشعُ بن نون، والسابقُ إلى عيسى صاحبُ يس، والسابقُ إلى محمدٍ عليُّ بنُ أبي طالب**»[1]، فإنَّه حديثٌ لا يَثْبُتُ؛ لأن حُسينًا هٰذا متروكٌ شيعيٌّ من الغُلاةِ، وتفرُّدُه بهٰذا ممَّا يدلُّ على ضَعْفه بالكُلِّيَّة. والله أعلم.

۞ ۞ ۞

(١) (موضوع). رواه: العقيلي في «الضعفاء» (١/ ٢٤٩)، والطبراني (١١/ ٧٧/ ١١١٥٢)، وابن مردويه (٥/ ٤٩٢/ يس ٢٩ - الدر)؛ من هٰذه الطريق.

قال العقيلي: «لا أصل له عن ابن عيينة». وقال الهيثمي (٩/ ١٠٥): «فيه حسين بن حسن الأشقر؛ وثقه ابن حبان، وضعفه الجمهور، وبقية رجاله حديثهم حسن أو صحيح». ووهَّاه ابن كثير كما ترىٰ، وضعفه السيوطي في «الدر»، وقال الألباني في «الضعيفة» (١/ ٥٣٣/ ٣٥٨): «وهٰذا سند ضعيف جدًا إن لم يكن موضوعًا»، ثم بين أن فيه من هو أضعف من حسين هٰذا ممن حذفه الحافظ ابن كثير من السند.

قصة يونس عليه السلام

۞ [تفصيل ذكر يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه في آيات القرآن الكريم]:

قال الله تعالىٰ في سورة يونس: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: ٩٨].

وقال تعالىٰ في سورة الأنبياء: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

وقال تعالىٰ في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٩-١٤٨].

وقال تعالىٰ في سورة ن: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم: ٤٨-٥٠].

۞ [توبة الله تعالى على قوم يونس]:

قال أهلُ التفسير: بَعَثَ الله يونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ أهل نينوىٰ من أرض الموصل، فدَعاهم إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، فكذَّبوه، وتمرَّدوا علىٰ كفرِهم وعنادِهم، فلمَّ طال ذٰلك عليه من أمرِهم؛ خرجَ من بينِ أظْهُرِهم، ووعَدهم حلولَ العذابِ بهم بعد ثلاثٍ.

قال ابنُ مسعودٍ ومجاهدٌ وسعيدُ بن جُبير وَقَتادةُ، وغيرُ واحدٍ من السلف والخلف: فلمَّا خَرجَ من بين ظَهْرانَيْهم، وتحققوا نزولَ العذابِ بهم؛ قَذَفَ الله في قلوبِهم التوبَةَ والإنابةَ، وندِموا علىٰ ما كان منهم إلىٰ نبيِّهم، فلبِسوا المُسوحَ[1]، وفرَّقوا بين كلِّ بهيمةٍ وولدِها، ثم عَجُّوا[2] إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ،

(١) المسوح: ثياب سوداء من الشعر.

(٢) عجُّوا: رفعوا أصواتهم بالدعاء والابتهال.

وصَرَخوا، وتضرَّعوا إليه، وتَمَسْكَنوا لديه، وبكىٰ الرجال والنساءُ والبنون والبناتُ والأمهاتُ، وجأرتِ[1] الأنعامُ والدَّوابُّ والمواشي؛ فَرَغَتِ الإبلُ وفُصْلانُها، وخارتِ البقرُ وأولادُها، وثغتِ الغنمُ وحِمْلانُها، وكانت ساعةً عظيمةً هائلةً. فكشفَ الله العظيمُ بحولِهِ وقوَتِهِ ورأفَتِهِ ورحمتِهِ عنهم العذابَ الذي كان قد اتَّصَلَ بهم سببُهُ ودار علىٰ رؤوسِهِم كقِطَعِ الليل المُظْلِم.

ولهٰذا قال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ [يونس: ٩٨]؛ أي: هَلَّا وُجِدَتْ فيما سَلَفَ من القرونِ قريةٌ آمنتْ بِكَمالِها! فدلَّ علىٰ أنَّه لم يقع ذٰلك، بل كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ: ٣٤]. وقوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: ٩٨]؛ أي: آمَنوا بكمالِهِم.

۞ [إيمان قوم يونس رفع عنهم عذاب الدنيا والآخرة]:

وقد اختلفَ المفسِّرونَ: هل يَنْفَعُهم هٰذا الإيمانُ في الدَّارِ الآخرةِ فيُنْقِذَهم من العذابِ الأخرويِّ كما أنقَذَهم من العذاب الدُّنيويِّ؟ علىٰ قولين: الأظهرُ من السياقِ: نعم، والله أعلم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟﴾ [يونس: ٩٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: ١٤٧-١٤٨]، وهٰذا المتاعُ إلىٰ حينٍ لا ينفي أن يكونَ معه غيرُهُ من رفع العذاب الأخروي. والله أعلم.

۞ [عدد قوم يونس]:

وقد كانوا مئةَ ألفٍ لا محالةَ، واختلفوا في الزيادة: فعن مكحول: عشرةُ آلافٍ. وروىٰ الترمذيُّ وابن جرير وابن أبي حاتم: من حديث زُهير، عمن سمع أبا العالية، حدثني أبي بن كعب: أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الصافات: ١٤٧]؟ قال: «**يزيدون عشرين ألفا**»[2]. فلولا هٰذا الرجلُ المبهمُ؛ لكان هٰذا الحديثُ فاصلًا في هٰذا الباب. وعن ابن عباس: كانوا مئةَ ألف وثلاثين ألفًا. وعنه: بضعةً وثلاثين ألفًا. وعنه: بضعةً وأربعين ألفًا. وقال سعيد بن جبير: كانوا مئة ألف وسبعين ألفًا.

---

(١) جأر: رفع صوته بالدعاء والابتهال.

(٢) (**ضعيف**). رواه: الترمذي (٤٨-التفسير، ٣٨- ومن سورة الصافات، ٥/ ٣٦٤/ ٣٢٢٨)، وابن جرير (١٠/ ٥٣٢/ ٢٩٦٣٥)؛ من طريقين عن زهير... به فذكره.

قال الترمذي: «غريب»، وضعفه الحافظ ابن كثير بالرجل المبهم، وتابعه الألباني.

۞ [متى أرسل يونس عليه السلام إلى قومه]:

واختلفوا: هل كان إرسالُهُ إليهم قبل الحوتِ أو بعدَه؟ أو هما أمَّتان؟ علىٰ ثلاثةِ أقوال هي مبسوطةٌ في «التفسير».

۞ [يونس عليه السلام في بطن الحوت]:

والمقصودُ: أنَّه عليه السلام لمَّا ذَهَبَ مُغاضِبًا بسبب قومِهِ؛ رَكِبَ سفينةً في البحرِ، فَلَجَّتْ بهم واضطربتْ وماجتْ بهم وثَقُلَتْ بما فيها وكادوا يغرقونَ علىٰ ما ذَكَرَه المفسِّرون. قالوا: فتشاوَروا[1] فيما بينَهم علىٰ أن يَقْتَرِعوا؛ فمَنْ وَقَعَتْ عليه القُرعةُ؛ ألقَوْهُ من السفينةِ ليتخفَّفوا منه. فلمَّا اقْتَرَعوا؛ وقعتِ القرعةُ علىٰ نبيِّ الله يونسَ، فلم يسمَحوا به، فأعادوها ثانيةً، فوقعتْ عليه أيضًا، فشمَّرَ لِيَخْلَعَ ثِيابَهُ ويُلْقِيَ بنفسِهِ، فأبَوْا عليه ذٰلك، ثم أعادوا القُرعَةَ ثالثةً، فوقعتْ عليه أيضًا؛ لِما يريدُهُ اللهُ به من الأمر العظيم.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات: ١٣٩-١٤٢]: وذٰلك أنه لمَّا وقعت عليه القرعةُ؛ ألقيَ في البحر، وبعث الله ﷻ حوتًا عظيمًا من البحر الأخضر! فالتَقَمَهُ، وأمَرَه الله تعالىٰ ألَّا يأكُلَ له لحمًا ولا يَهْشِمَ له عظمًا؛ فليس لك برزقٍ! فأخَذَهُ، فطافَ بِهِ البحارَ كلَّها. **وقيل**: إنَّه ابتلعَ ذٰلك الحوتَ حوتٌ آخرُ أكبرُ منه. قالوا: ولمَّا استقرَّ في جوفِ الحوتِ؛ حَسِبَ أنه قد ماتَ، فحرَّكَ جوارِحَه، فتحركتْ؛ فإذا هو حيٌّ، فخرَّ لله ساجدًا، وقال: يا ربِّ! اتَّخذتُ لك مسجدًا في موضع لم يَعْبُدْكَ أحدٌ في مثلِهِ.

وقد اختلَفوا في مقدار لُبْثِهِ في بطنِهِ: فقال مجالدٌ عن الشعبيِّ: التقمَهُ ضحَىٰ ولَفَظَهُ عشيةً. وقال قَتادةُ: مَكَثَ فيه ثلاثًا. وقال جعفرٌ الصادقُ: سبعةَ أيام. ويشهدُ له شعرُ أميةَ بن أبي الصلت:

وأنْتَ بِفَضْلٍ مِنْكَ نَجَّيْتَ يُونُسًا ... وَقَدْ باتَ في أضْعافِ حُوتٍ لَياليا

وقال سعيدُ بن أبي الحسن وأبو مالكٍ: مَكَثَ في جَوْفِهِ أربعين يومًا. والله أعلم كم مقدارُ ما لَبِثَ فيه.

---

(١) في نسخة: «فاستوروا».

والمقصودُ: أنَّه لمَّا جَعَلَ الحوتُ يطوفُ به في قَرارِ البحارِ اللُّجِّيَّةِ، ويقتحمُ به لُجَجَ الموجِ الأُجاجِيِّ(١)، فسَمِعَ تسبيحَ الحيتانِ للرحمن، وحتىٰ سمعَ تسبيحَ الحصىٰ، لفالِقِ الحبِّ والنَّوىٰ، وربِّ السماواتِ السبعِ والأرضينَ السبعِ وما بينها وما تحتَ الثَّرىٰ؛ فعند ذٰلك وهنالك قال ما قال، بلسانِ الحالِ والمقالِ؛ كما أخبر عنه ذو العزَّةِ والجَلالِ، الذي يعلمُ السِّرَّ والنَّجْوىٰ، ويكشفُ الضُّرَّ والبلوىٰ، سامعُ الأصواتِ وإن ضَعُفَتْ، وعالمُ الخفِيَّاتِ وإنْ دَقَّتْ، ومجيبُ الدَّعَواتِ وإن عَظُمَتْ؛ حيث قال في كتابِهِ المبينِ، المنزَلِ علىٰ رسولِهِ الأمينِ، وهو أصدقُ القائلين وربُّ العالمين وإله المرسلين: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]؛ أي: إلىٰ أهله. ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨]: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾: أن نضيِّقَ عليه. وقيل: معناه: نُقَدِّر؛ من التقدير، وهي لغة مشهورةٌ: قَدَّرَ وقَدَرَ؛ كما قال الشاعر:

فلا عائِدٌ ذاكَ الزمانُ الذي مَضى ... تباركْتَ ما تَقْدَرْ يَكُنْ فلَكَ الأمْرُ

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: قال ابنُ مسعود، وابنُ عباس وعمرو بن ميمون وسعيدُ بن جُبير ومحمد بن كعب والحسنُ وقَتادةُ والضَّحَّاكُ: ظلمةُ الحوتِ، وظلمةُ البحر، وظلمةُ الليل. وقال سالم بن أبي الجعد: ابتلعَ الحوتَ حوتٌ آخرُ، فصارتْ ظلمةُ الحوتين مع ظلمةِ البحرِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤]: قيلَ: معناهُ: فلَوْلا أنَّه سَبَّحَ اللهَ هنالك وقالَ ما قالَ من التهليل والتسبيح والاعترافِ لله بالخضوع والتوبةِ إليه والرُّجوع إليه؛ للَبِثَ هنالك إلىٰ يوم القيامةِ، وَلَبُعِثَ من جَوْفِ ذٰلك الحوت. هٰذا معنىٰ ما روي عن سعيد بن جُبير في إحدىٰ الروايتين عنه. وقيل: معناه: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ﴾: من قبل أخذِ الحوت له. ﴿مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾؛ أي: المطيعين المصلِّين الذَّاكرين اللهَ كثيرًا. قاله: الضحَّاك بن قيس وابنُ عباس وأبو العالية ووَهْبُ بن منبِّه وسعيدُ بن جُبير والضَّحاكُ والسُّدِّيُّ وعطاء بن السائب والحسن البصريُّ وقَتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير(٢).

ويشهدُ لهٰذا ما رواه الإمام أحمدُ وبعضُ أهل «السنن» عن ابن عباس: أنَّ رسولَ الله ﷺ

---

(١) الأُجاجِيّ: المالح.

(٢) في «التفسير» (١٠/ ٥٢٧/ الصافات١٤٦).

قال له: «يا غلامُ! إنيِّ معلِّمُك كلماتٍ: احفظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احفظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجاهَكَ، تَعَرَّفْ إلى الله في الرَّخاءِ يَعْرِفْكَ في الشِّدَّة»[1].

وروىٰ ابن جرير في «تفسيره»، والبزار في «مسنده»: من حديث محمد بن إسحاق، عمَّن حدَّثه، عن عبد الله بن رافع مولىٰ أم سلمة؛ قال: سمعتُ أبا هريرة يقولُ: قال رسولُ الله ﷺ: «لمَّا أرادَ الله حَبْسَ يونُسَ في بطنِ الحوتِ؛ أوحى اللهُ إلى الحوت: أنْ خُذْهُ ولا تَخْدِش له لحمًا ولا تكسِرْ عظمًا. فلما انتهى به إلى أسفل البحر؛ سَمِعَ يونُسُ حسًّا، فقال في نفسِهِ: ما هٰذا؟ فأوحى اللهُ إليه وهو في بطنِ الحوتِ: إنَّ هٰذا تسبيحُ دوابِّ البحرِ». قال: «فسبَّحَ وهو في بطن الحوت، فسمعتِ الملائكةُ تسبيحَه، فقالوا: يا ربَّنا! إنا نسمعُ صوتًا ضعيفًا بأرضٍ غريبةٍ! قال: ذٰلك عبدي يونُسُ؛ عصاني، فحبستُهُ في بطنِ الحوتِ في البحرِ. قالوا: العبدُ الصالحُ الذي كان يَصْعَدُ إليكَ منه في كلِّ يوم وليلةٍ عملٌ صالحٌ؟ قال: نعم». قال: «فشفَعوا له عند ذٰلك، فأمر الحوتَ فَقَذَفَهُ في الساحل؟ كما قال الله: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ ١٤٥﴾ [الصافات: ١٤٥]»[2]. هٰذا لفظُ ابن جريرٍ إسنادًا ومتنًا. ثم قال البَزَّارُ: لا نعلمُهُ يُروىٰ عن النبيِّ ﷺ إلَّا من هٰذا الوجه بهٰذا الإسناد.

كذا قال! وقد قال ابن أبي حاتم في «تفسيره»: حدثنا أبو عُبيدالله أحمدُ بن عبد الرحمٰن

---

(١) (صحيح). رواه: أحمد (١/ ٢٩٣ و٣٠٣ و٣٠٧)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٣٨/ ٣١٦-٣١٨)، والترمذي (٣٨- صفة القيامة، ٥٩- باب، ٤/ ٦٦٧/ ٢٥١٦)، وأبو يعلىٰ (٤/ ٤٣٠/ ٢٥٥٦)، والحاكم (٣/ ٥٤١ و٥٤٢)؛ من طرق كثيرة عن ابن عباس. وبعض أسانيده صحيح لذاته (٢/ ١٠٤/ ١٥٠٢ - مختصر الزوائد)، وابن جرير في «التفسير» (٩/ ٧٧/ ٢٤٧٧٨)؛ من طريق محمد بن إسحاق... به.

(٢) (حسن). رواه: البزار (٢/ ١٠٤/ ١٥٠٢ - مختصر الزوائد)، وابن جرير في «التفسير» (٩/ ٧٧/ ٢٤٧٧٨)؛ من طريق محمد بن إسحاق... به.

قال البزار: «لا نعلمه موفوعًا بهٰذا اللفظ إلا بهٰذا الإسناد». وقال الهيثمي (٧/ ١٠١): «رواه البزار عن بعض أصحابه، ولم يسمه، وفيه ابن إسحاق، وهو مدلس، وبقية رجاله رجال الصحيح». قلت: خفي عليه الرجل المبهم لأنه سقط من سند البزار. وقال الحافظ: «منكر».

لٰكن له الشاهد الذي ذكره الحافظ ابن كثير بعده، وقد رواه: عبد الرزاق في «التفسير» (٢/ ١٢٧/ ٢٥٥٨)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٢٨/ ١٨٢٨١)، والطبري في «التفسير» (١٠/ ٥٢٨/ ٢٩٦٠١)، والطبراني في «الدعاء» (٤٧)؛ من طريق أبي صخر... به فذكره. وسنده ضعيف لأجل يزيد الرقاشي.

فلعل الحديث يتقوىٰ بمجموع هذين الطريقين كما أفاد الحافظ ابن كثير. والله أعلم.

ابن أخي [ابن] وَهْب، حدثنا عمي، حدثني أبو صخرٍ: أن يزيدَ الرَّقاشِيَّ حدثه؛ قال: سمعتُ أنس بن مالك، ولا أعلمُ إلَّا أنَّ أنسًا يرفعُ الحديث إلىٰ رسول الله ﷺ: «إنَّ يونُسَ النبيَّ عليه السلام حين بدا له أن يَدْعُوَ بِهٰذه الكلماتِ وهو في بطن الحوتِ؛ قال: اللهم! لا إلٰهَ إلَّا أنت، سبحانَكَ، إنِّي كنتُ من الظالمينَ. فأقبلتِ الدعوةُ تَحُفُّ بالعرش[1]، فقالتِ الملائكةُ: يا ربِّ! صوتٌ ضعيفٌ معروفٌ من بلادٍ غريبةٍ. فقال: أما تعرِفون ذاك؟ قالوا: لا يا ربِّ! ومن هو؟ قال: عبدي يونُسُ. قالوا: عبدُكَ يونُسُ الذي لم يزلْ يُرْفَعُ له عملٌ متقبَّلٌ ودعوةٌ مجابةٌ؟ قالوا: يا ربَّنا! أولا تَرْحَمُ ما كان يصنعُهُ في الرَّخاءِ فتُنْجيَهُ مِنَ البلاءِ؟ قال: بلى. فأمَرَ الحوتَ فطَرَحَه في العراء»[2].

ورواه ابنُ جَريرٍ، عن يونُسَ، عن ابن وهب... به.

زاد ابن أبي حاتم: قال أبو صخرٍ حُمَيْدُ بن زيادٍ: فأخبرني ابنُ قسيطٍ وأنا أحدِّثه هٰذا الحديثَ: أنَّه سَمِعَ أبا هريرة يقولُ: طُرِحَ بالعراءِ، وأنْبَتَ اللهُ عليه اليَقْطينةَ. قلنا: يا أبا هريرةَ! وما اليقطينةُ؟ قال: شجرةُ الدُّبَّاءِ. قال أبو هريرةَ: وهيَّأ الله له أُرْوِيَّةً[3] وحشيَّةً تأكُلُ من خَشاشِ الأرض (أو قال: هشاش الأرض). قال: فتفشخُ عليه فترويه من لَبَنِها كلَّ عشيةٍ وبُكرةٍ حتىٰ نَبَتَ. وقال أمية بن أبي الصَّلْت في ذٰلك بيتًا من شعره:

فَأَنْبَتَ يَقْطينًا عَلَيْهِ بِرَحْمَةٍ ... مِنَ اللهِ لَوْلا اللهُ أصْبَحَ ضاوِيا[4]

وهٰذا غريبٌ أيضًا من هٰذا الوجهِ، ويزيدُ الرِّقاشِيُّ ضعيفٌ، ولكن يتقوَّىٰ بحديث أبي هريرةَ المتقدِّم كما يتقوَّىٰ ذاك بهٰذا. والله أعلم.

وقد قال الله تعالىٰ: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾ [الصافات: ١٤٥]؛ أي: ألقيْناه. ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ [الصافات: ١٤٥]: وهو المكانُ القَفْر الذي ليس فيه شيءٌ من الأشجار، بل هو عارٍ منها. ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الصافات: ١٤٥]؛ أي: ضعيف البدن: قال ابنُ مسعود: كهيئة الفرخ ليس عليه ريشٌ. وقال ابن عباس والسُّدِّيُّ وابن زيد: كهيئة الصبيِّ حين يولد، وهو المنفوس[5] ليس عليه شيء.

(١) في بعض الأصول: «تحنُّ العرش»! وفي بعضها: «تحت العرش». وأثبت ما في «تفسير ابن أبي حاتم».

(٢) (حسن). وقد تقدم تخريجه في ص ٣٣٠.

(٣) الأروية: أنثىٰ الوعل، والجمع أراويُّ وأروىٰ.

(٤) الضاوي: الهزيل النَّف.

(٥) الحديث الولادة. وجاء في بعض الأصول: «المنفوس»! وفي بعضها: «المنفرش»!

﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةً مِّن يَقۡطِينٍ ١٤٦﴾ [الصافات: ١٤٦]: قال ابنُ مسعودٍ وابنُ عباس وعِكْرِمةُ ومجاهدٌ وسعيد بن جُبَيْرٍ ووَهْبُ بن منبِّهٍ وهلال بن يِساف وعبد الله بن طاووس والسُّدِّيُّ وقَتادة والضَّحاك وعطاءٌ الخراسانيُّ وغيرُ واحدٍ: هو القَرْع. قال بعضُ العلماء: في إنباتِ القَرْع عليه حِكَمٌ جَمَّةٌ؛ منها: أنَّ وَرَقَهُ في غاية النُّعومة، وكثيرٌ، وظليلٌ، ولا يقربُهُ ذبابٌ، ويوكَل ثمرُهُ من أول طلوعِهِ إلىٰ آخرِهِ؛ نيًّا ومطبوخًا، وبقشرِهِ وببزرِهِ أيضًا، وفيه نفعٌ كثيرٌ وتقويةٌ للدِّماغ وغير ذٰلك. وتقدَّم كلامُ أبي هريرة في تسخير الله تعالىٰ له تلك الأُرْوِيَّةَ التي كانت ترضِعُهُ لَبَنَها وترعىٰ في البريَّةِ وتأتيه بُكرةً وعشيَّة.

وهٰذا من رحمة الله به ونعمتِهِ عليه وإحسانِهِ إليه، ولهٰذا قال تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾ [الأنبياء: ٨٨]؛ أي: الكرب والضيق الذي كان فيه. ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الأنبياء: ٨٨]؛ أي: وهٰذا صنيعنا بكلِّ مَن دعانا واستجار بنا.

۞ [دعوة ذي النون نجاة من الغم]:

قال ابنُ جَرير: حدَّثني عِمرانُ بن بَكَّارٍ الكَلاعيُّ، حدثنا يحيىٰ بن صالح، حدثنا أبو يحيىٰ بنُ عبد الرحمٰن، حدثني بشرُ بن منصورٍ، عن علي بن زيدٍ، عن سعيد بن المسيَّب؛ قال: سمعتُ سعدَ بن مالكٍ (وهو ابنُ أبي وقاص) يقول: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «**اسمُ الله الذي إذا دُعِيَ به أجابَ وإذا سُئِلَ به أعطى: دعوةُ يونُسَ بنِ متَّى**». قال: فقلتُ: يا رسول الله! هي ليونُسَ خاصةً أم لجماعة المسلمين؟ قال: «**هي ليونُسَ خاصَّةً وللمؤمنين عامَّةً إذا دَعَوْا بها، ألم تسمعْ قولَ الله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨]؟ فهو شرطٌ من الله لمَن دعاه به**»[1].

---

(١) (منكر بهٰذا اللفظ). رواه ابن جرير في «التفسير» (٩/ ٧٨/ ٢٤٧٧٩)، وسَنده ضعيف من أجل علي بن زيد بن جدعان. وله طريق أخرىٰ عند الحاكم (١/ ٥٠٥) بلفظ قريب، لكن فيها بكر بن عمرو السكسكي المتروك؛ فلا يُفرح بها. وله شاهد عند ابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٦٥/ ١٣٧١٤) من حديث الحسن مرسلًا، ولكن فيه داوود بن المحبر المتروك؛ فهو ضعيف جدًا علىٰ إرساله. وزد علىٰ ذٰلك كله أن في المتن نكارة لمخالفته ما صح من الحديث في اسم الله الأعظم. والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو خالد الأحمرُ، عن كثير بن زيدٍ، عن المطَّلِبِ بن حَنْطَبٍ، قال أبو خالد: أحسبه: عن مصعب (يعني: ابن سعد)، عن سعدٍ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دعا بدُعاءِ يونُسَ؛ استُجيبَ له». قال أبو سعيدٍ الأشجُّ: يريد به: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾ [الأنبياء: ٨٨][(١)].

وهٰذان طريقانِ عن سعدٍ.

وثالثٌ أحسنُ منهما: قال الإمام أحمدُ: حدثنا إسماعيل بن عمر، حدثنا يونُس بن أبي إسحاقَ الهَمْداني، حدثنا إبراهيمُ بن محمد بن سعد، حدثني والدي محمد، عن أبيه سعد (وهو ابنُ أبي وقاصٍ) رضي الله عنه؛ قال: مررتُ بعثمان بن عفانَ في المسجد، فسلمتُ عليه، فملأ عينيه مني، ثم لم يردَّ علي السلامَ، فأتيتُ عمرَ بن الخطَّابِ، فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين! هل حَدَثَ في الإسلام شيءٌ؟ قال: لا؛ وما ذاك؟ قلت: لا؛ إلا أني مررتُ بعثمانَ آنفًا في المسجد، فسلمتُ عليه، فملأ عينيه منِّي، ثم لم يردَّ عليَّ السلامَ. قال: فأرسل عمرُ إلىٰ عثمانَ، فدعاه، فقال: ما مَنَعَكَ أن لا تكونَ رددتَ علىٰ أخيك السلام؟ قال: ما فعلتُ. قال سعدٌ: قلت: بلىٰ. حتىٰ حَلَفَ وحَلَفْتُ. قال: ثم إن عثمان ذَكَرَ فقالَ: بلىٰ، وأستغفرُ الله وأتوبُ إليه؛ أنَّك مررتَ بي آنفًا وأنا أحدِّثُ نفسي بكلمةٍ سمعتُها من رسول الله ﷺ، لا واللهِ؛ ما ذكرتُها قطُّ؛ إلا تَغَشَّىٰ بصري وقلبي غشاوةٌ. قال سعدٌ: فأنا أُنبِّئُكَ بها؛ إنَّ رسول الله ﷺ ذَكَرَ لنا أولَ دعوةٍ، ثم جاء أعرابيٌّ فشَغَلَه، حتىٰ قام رسولُ الله ﷺ، فاتَّبَعْتُهُ، فلمَّا أشفقتُ أن يسبِقَني إلىٰ منزلِهِ؛ ضربتُ بقدميَّ الأرضَ، فالتفتَ إليَّ رسولُ الله ﷺ، فقال: «مَن هٰذا؟ أبو إسحاق؟». قال: قلتُ: نعم يا رسول الله! قال: «فمه؟». قلتُ: لا والله؛ إلا أنَّك ذكرتَ لنا أولَ دعوةٍ، ثم جاء هٰذا الأعرابيُّ فشَغَلَكَ. قال: «نعم؛ دعوةُ ذي النون إذ هو في بطنِ الحوتِ، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾؛ فإنَّهُ لمْ يَدْعُ بها مسلمٌ ربَّهُ في شيءٍ قطُّ؛ إلَّا استجابَ له»[(٢)].

---

(١) (صحيح). انظر الحاشية التالية.

(٢) (صحيح). وقد ساق الحافظ ابن كثير له عدة أسانيد وألفاظ:

* فأما طريق ابن جرير؛ فقدمنا أنها ضعيفة، ومتنها منكر.

* وأما طريق ابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٦٥/ ١٣٧١٣)؛ ففيها المطلب بن عبد الله بن حنطب، وقد عنعن علىٰ =

ورواه الترمذيُّ والنسائيُّ من حديث إبراهيمَ بن محمد بن سعد... به.[١].

۞ ذكر فضل يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ:

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩﴾ [الصافات: ١٣٩].

وَذَكَرَهُ تعالىٰ في جملةِ الأنبياء الكرام في سورتي النساء والأنعام عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام.

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا وكيعٌ، حدثنا سفيانُ، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله؛ قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: «**لا يَنْبَغي لعبدٍ أنْ يقولِ أنا خيرٌ من يونُسَ بن متَّى**»[٢].

ورواه البخاريُّ من حديث سفيانَ الثوريِّ... به.

وقال البخاريُّ أيضًا: حدثنا حفص بن عمرَ، حدثنا شعبةُ، عن قَتادة، عن أبي العاليةِ، عن ابن عباسٍ، عن النبيِّ ﷺ؛ قال: «**ما يَنْبَغي لعبدٍ أنْ يقولَ: إنِّي خيرٌ من يونسَ بن متَّى**». ونسَبَه إلىٰ أبيه[٣].

ورواه أحمدُ ومسلمٌ وأبو داوودَ من حديث شعبةَ به. قال شعبةُ فيما حكاه أبو داوودَ عنه: لم يسمعْ قَتادة من أبي العاليةِ سوىٰ أربعةِ أحاديث، هٰذا أحدُها.

وقد رواه الإمام أحمدُ: عن عفَّان، عن حمَّاد بن سَلَمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن

= شدة تدليسه. فهي ضعيفة.

* وأما الطريق الثالثة؛ فعند: أحمد (١/ ١٧٠)، والترمذي (٤٩- الدعوات، ٨٢- باب، ٥/ ٥٢٩/ ٣٥٠٥)، والنسائي في «اليوم والليلة» (٦٦١)، والحاكم (١/ ٥٠٥، ٢/ ٣٨٢)، من طرق عن يونس... به فذكره. وهٰذا سند حسن لأجل يونس؛ لكنه لم ينفرد به، بل تابعه محمد بن مهاجر عند النسائي (٦٦٠).

فالحديث صحيح بمجموع طرقه، ولقد صححه الحاكم في الموضعين، ووافقه الذهبي، والمنذري في «الترغيب» (٢/ ٤٨٤/ ٢٤٥٠)، والهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٦٢)، والألباني.

(١) (صحيح). وقد تقدم الكلام عنه في الحاشية السابقة.

(٢) رواه: أحمد (١/ ٣٩٠ و٤٤٠ و٤٤٣)، والبخاري (٦٠- الأنبياء، ٣٥- ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩﴾، ٦/ ٤٥٠/ ٣٤١٢).

(٣) رواه: أحمد (١/ ٢٤٣ و٢٥٤ و٢٩٢ و٣٤٢ و٣٤٨)، والبخاري (٦٠- الأنبياء، ٣٥- ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩﴾، ٦/ ٤٥٠/ ٣٤١٢)، ومسلم (٤٣- الفضائل، ٤٣- ذكر يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، ٤/ ١٨٤٦/ ٢٣٧٧)، وأبو داوود (٣٤- السنة، ١٣- التخيير بين الأنبياء، ٢/ ٦٢٩/ ٤٦٦٩)، والطبراني (١١/ ٧٠/ ١١١٢٢). وقوله عن إسناد الطبراني: «جيد»! ليس بجيد؛ لأن أبا يحيىٰ القتات لين الحديث.

مِهْرانَ، عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ؛ قال: «**وَما يَنْبَغي لعبدٍ أن يقولَ: أنا خيرٌ من يونُسَ بن متَّى**» تفرَّد به أحمد.

ورواه الحافظُ أبو القاسم الطَّبَرانيُّ: حدثنا محمدُ بن الحسن بن كَيْسان، حدثنا عبدُالله بن رجاءٍ، أنبأنا إسرائيل، عن أبي يحيىٰ **القَتَّات**[1]، عن مجاهد، عن ابن عباس: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا يَنْبَغي لأحدٍ أن يقولَ: أنا عندَ اللهِ خيرٌ من يونُسَ بن متَّى**». إسناده جيِّد ولم يخرِّجوه.

وقال البخاريُّ: حدثنا أبو الوليد، حدَّثنا شعبةُ، عن سعد بن إبراهيم، سمعت حُمَيْد بن عبد الرحمٰن، عن أبي هُريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا يَنْبَغي لعبدٍ أن يقولَ أنا خيرٌ من يونُسَ بن مَتَّى**»[2].

وكذا رواه مسلمٌ من حديث شعبة... به.

وفي البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن الفضل، عن عبد الرحمٰن بن هرمز الأعرج، عن أبي هريرة... في قصَّةِ المسلم الذي لَطَمَ وجهَ اليهوديِّ حين قال: لا والذي اصطفىٰ موسىٰ علىٰ العالمين... قال البخاريُّ في آخرِهِ: «**ولا أقولُ: إنَّ أحدًا أفضلُ من يونُسَ بنِ مَتَّى**»[3].

وهٰذا اللفظُ يقوِّي أحدَ القولين من المعنىٰ: «**لا ينبغي لأحدٍ أن يقولَ: أنا خيرٌ من يونُسَ بن متَّى**»؛ أي: ليس لأحدٍ أن يفضِّلَ نفسَه علىٰ يونُس. والقولُ الآخرُ: لا ينبغي لأحدٍ أن يفضِّلَني علىٰ يونُسَ بن متَّىٰ؛ كما قد وَرَدَ في بعض الأحاديث: «**لا تفضِّلوني على الأنبياء، ولا على يونُسَ بن مَتَّى**»[4]. وهٰذا من باب الهضم والتواضُع منه صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه وعلىٰ سائرِ أنبياءِ الله والمرسلينَ.

❁ ❁ ❁

(١) في بعض الأصول: «العقاب»! وفي بعضها: «العتاب»! والتصويب من «التقريب».

(٢) رواه: أحمد (٢/ ٤٠٥ و٤٦٨ و٥٣٩)، والبخاري (٦٠- الأنبياء، ٣٥- ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾، ٦/ ٤٥١/ ٣٤١٦)، ومسلم (٤٣- الفضائل، ٤٣- ذكر يونس عليه السلام، ٤/ ١٨٤٦/ ٢٣٧٦).

(٣) رواه: البخاري (٦٠- الأنبياء، ٣٥- ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾، ٦/ ٤٥٠/ ٣٤١٤ و٣٤١٥)، ومسلم (٤٣- الفضائل، ٤٢- فضائل موسىٰ عليه السلام، ٤/ ١٨٤٣/ ٢٣٧٣).

(٤) لم أجده بهٰذا اللفظ فيما بين يدي من المراجع.

ذكر قصة موسى الكليم عليه الصلاة والتسليم

[نسبه عليه السلام]:

وهو موسىٰ بنُ عمرانَ بنِ قاهثَ بنِ عازرَ بنِ لاوي بنِ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ عليه السلام.

[موسى الرسول النبي المخلص وذكره في القرآن الكريم]:

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم: ٥١-٥٣].

وقد ذَكَرَهُ اللهُ تعالىٰ في مواضعَ كثيرةٍ متفرقةٍ من القرآن، وذكر قصَّته في مواضعَ متعدِّدةٍ مبسوطةٍ مطوَّلةٍ وغيرِ مطوَّلة، وقد تكلَّمْنا علىٰ ذلك كلِّه في مواضعِهِ من «التفسير»، وسنورِدُ سيرَتَه هاهنا من ابتدائِها إلىٰ آخرِها من الكتاب والسُّنة وما ورد في الآثارِ المنقولة من الإسرائيليَّاتِ التي ذَكَرَها السلفُ وغيرُهم إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان.

[ذكر استعباد فرعون لبني إسرائيل وتذبيحه أبناءهم واستحيائه نساءهم]:

قال الله تعالى: بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: ١-٦].

يذكُرُ تعالىٰ ملخَّصَ القصة، ثم يبسُطُها بعد هٰذا، فذكر أنَّه يتلو علىٰ نبيِّه خبر موسىٰ وفرعون بالحقِّ؛ أي: بالصدق الذي كأنَّ سامعَه مشاهدٌ للأمر معاين له.

﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا﴾؛ أي: تجبَّر وعتا وطغىٰ وبغىٰ وآثر الحياة

الدُّنيا، وأعرض عن طاعة الربِّ الأعلىٰ. ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾؛ أي: قسم رعيَّته إلىٰ أقسام وفرقٍ وأنواع؛ يستضعِفُ طائفةً منهم، وهم شعبُ بني إسرائيلَ الذين هم من سلالةِ نبيِّ الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله، وكانوا إذ ذاك خيارَ أهل الأرض، وقد سُلِّطَ عليهم هٰذا الملكُ الظالمُ الغاشمُ الكافرُ الفاجرُ؛ يستعبِدُهم، ويستخدِمُهم في أخسِّ الصنائع والحِرَف وأرداها وأدناها. ومع هٰذا ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾.

وكان الحاملُ له علىٰ هٰذا الصنيع القبيح أنَّ بني إسرائيلَ كانوا يتدارَسونَ فيما بينَهم ما يأثُرونه عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، من أنَّه سيخرُجُ من ذرِّيَّته غلامٌ يكون هلاكُ مَلِكِ مصر علىٰ يديه، وذلك -والله أعلم- حين كان جرىٰ علىٰ سارةَ امرأةِ الخليل من ملك مصرَ، من إرادتِهِ إيَّاها علىٰ السوءِ وعصمةِ الله لها، وكانت هٰذه البِشارةُ مشهورةً في بني إسرائيل، فتحدَّثَ بها القِبْط فيما بينَهم، ووصلتْ إلىٰ فرعونَ، فَذَكَرَها له بعضُ أمرائِهِ وأساوِرَتِهِ[1] وهم يَسْمُرون عنده، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل؛ حذرًا من وجودِ هٰذا الغلام، ولن يغنيَ حذرٌ من قدرٍ!

وذكر السُّدِّي؛ عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن أناس من الصحابة: أنَّ فرعون رأىٰ في منامِهِ كأنَّ نارًا قد أقبلتْ من نحوِ بيتِ المقدس، فأحرقتْ دورَ مصرَ وجميع القِبْطِ ولم تَضُرَّ بني إسرائيلَ، فلمَّا استيقظَ؛ هالَهُ ذلك، فجمع الكهنةَ والحزأةَ[2] والسحرةَ، وسألهم عن ذلك؟ فقالوا: هٰذا غلامٌ يولَد من هٰؤلاء، يكونُ سببُ هلاك أهل مصرَ علىٰ يديهِ! فلهٰذا أمر بقتل الغِلْمان وترك النسوان.

ولهٰذا قال الله تعالىٰ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾: وهم بنو إسرائيلَ. ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾﴾؛ أي: الذين يؤولُ ملكُ مصرَ وبلادها إليهم. ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾؛ أي: سنجعل الضعيفَ قويًّا والمقهورَ قاهرًا[3] والذليلَ عزيزًا.

وقد جرىٰ هٰذا كلُّه لبني إسرائيل؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ

---

(١) الأساورة: جمع أُسوار، وهو القائد، فارسية.

(٢) جمع حازٍ. والحازي والحزَّاء: الكاهن. وقد وقعت في بعض الأصول: «الحذقة»، ولها وجه، وما أثبته أولىٰ.

(٣) في نسخة: «قادرًا».

مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ...﴾ الآية [الأعراف: ١٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٩]، وسيأتي تفصيلُ ذلك في موضِعِه إن شاء الله.

والمقصودُ: أن فرعونَ احترزَ كلَّ الاحترازِ ألَّا يوجدَ موسىٰ، حتىٰ جعلَ رجالًا وقوابلَ يدورونَ علىٰ الحَبالىٰ، ويعلمونَ ميقاتَ وضعِهِنَّ، فلا تلدُ امرأةٌ ذكرًا؛ إلَّا ذَبَحَهُ أولئك الذَّبَّاحون من ساعتِهِ.

وعند أهلِ الكتاب(١): أنَّه إنَّما كان يأمُرُ بقتل الغلمانِ؛ لتضعُفَ شوكة بني إسرائيل؛ فلا يقاوِمونهم إذا غالبوهم أو قَاتلوهم! وهٰذا فيه نظرٌ، بل هو باطلٌ، وإنَّما هٰذا في الأمر بقتل الولدان بعد بعثة موسىٰ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ﴾ [غافر: ٢٥]، ولهٰذا قالت بنو إسرائيلَ لموسىٰ: ﴿أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ [الأعراف: ١٢٩]؛ فالصحيحُ أنَّ فرعونَ إنما أمر بقتل الغلمانِ أولًا حذرًا من وجود موسىٰ.

هٰذا؛ والقدرُ يقولُ: يا أيُّهٰذا(٢) الملكُ الجبارُ المغرورُ بكثرةِ جنودِهِ وسلطةِ بأسِهِ واتساع سلطانِهِ! قد حكمَ العظيمُ الذي لا يغالَبُ ولا يمانَعُ ولا تُخالَفُ أقدارُهُ أنَّ هٰذا المولودَ الذي تحترزُ منه -وقد قَتَلْتَ بسببِهِ من النفوس ما لا يُعَدُّ ولا يُحصىٰ- لا يكون مَرْباه إلَّا في دارِكَ وعلىٰ فراشِكَ، ولا يُغَذَّىٰ إلَّا بطعامِكَ وشرابِكَ في منزلِكَ، وأنت الذي تتبنَّاه وتربِّيه وتتفدَّاه، ولا تطَّلع علىٰ سرِّ معناه، ثم يكون هلاكُكَ في دنياك وأخراك علىٰ يديْهِ، لمخالفتِكَ ما جاءكَ به من الحقِّ المُبينِ، وتكذيبِك ما أوحِيَ إليه؛ لتعلمَ أنت وسائرُ الخلق أنَّ ربَّ السماواتِ والأرضِ هو الفعَّالُ لما يريد، وأنه هو القويُّ الشديد، ذو البأس العظيم، والحول والقوَّةِ والمشيئةِ التي لا مردَّ لها!

وقد ذَكَرَ غيرُ واحدٍ من المفسِّرين أنَّ القِبْطَ شَكَوْا إلىٰ فرعون قلة بني إسرائيل بسبب قتل ولدانِهم الذُّكورِ، وخُشِيَ أن تتفانىٰ الكبارُ مع قتل الصغار فيصيرونَ هم الذين يلونَ ما كان بنو إسرائيل يعالجونَ، فأمَرَ فرعونُ بقتل الأبناءِ عامًا وأن يُتْرَكوا عامًا فذكروا أنَّ هارون

(١) في (سفر الخروج/ الأصحاح١).

(٢) صحيح فصيح وإن كان وروده قليلاً.

عَلَيْهِ السَّلَامُ وُلِدَ في عام المسامحةِ عن قتل الأبناء، وأنَّ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وُلِدَ في عام قتلهم، فضاقتْ أمُّه به ذَرْعًا، واحْتَرَزَتْ من أول ما حَبِلَتْ، ولم يَكُنْ يظهرُ عليها مخايِلُ الحَبَل، فلمَّا وَضَعَتْ؛ أُلْهِمَتْ أنِ اتَّخذتْ له تابوتًا، فربطتْه في حبل، وكانت دارُها متاخمةً للنيل، فكانت تُرْضِعُهُ؛ فإذا خشيتْ من أحدٍ وضعتْه في ذلك التابوت، فأرسلتْه في البحر، وأمسكتْ طَرَفَ الحبل عندَها؛ فإذا ذهبوا؛ استرجعتْه إليها به.

[تنقله عَلَيْهِ السَّلَامُ من حضن أمه إلى اليم إلى أيدي آل فرعون]:

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [القصص: ٧-٩].

هٰذا الوحي وحيُ إلهام وإرشادٍ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ٦٨-٦٩]، وليس هو بوحي نبوَّةٍ كما زَعَمَهُ ابنُ حزم وغير واحدٍ من المتكلِّمين، بل الصحيحُ الأول؛ كما حكاه أبو الحسن الأشعريُّ عن أهل السنة والجماعة.

قال السُّهَيْليُّ: واسمُ أمِّ موسىٰ أيارخا، وقيل: أياذخت.

والمقصودُ: أنَّها أُرْشِدَتْ إلىٰ هٰذا الذي ذكرناه، وأُلْقِيَ في خَلَدِها ورُوعِها ألَّا تخافي ولا تحزني؛ فإنَّه إن ذَهَبَ؛ فإنَّ الله سيردُّه إليك، وإنَّ الله سيجعلُهُ نبيًّا مرسلًا؛ يعلي كَلِمَتَهُ في الدُّنيا والآخرة.

فكانت تصنعُ ما أُمِرَتْ به، فأرسلتْهُ ذاتَ يوم، وذَهِلَتْ أن تربطَ طرفَ الحبل عندَها، فذهبَ مع النيل، فمرَّ علىٰ دار فرعونَ ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾؛ قال الله تعالىٰ: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾: قال بعضُهم: هٰذه لام العاقبة، وهو ظاهرٌ إن كان متعلِّقًا بقولِهِ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ﴾، وأمَّا إن جُعِلَ متعلِّقًا بمضمون الكلام، وهو أنَّ آل فرعونَ قُيِّضوا لالتقاطِهِ ليكونَ لهم عدوًّا وحَزَنًا؛ صارت اللام معلِّلةً كغيرِها. والله أعلم. ويقوِّي هٰذا التقديرَ الثاني قولُهُ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ

وَهَـٰمَـٰنَ﴾: وهو الوزير السوء. ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾: التابعين لهما. ﴿كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ۝٨﴾؛ أي: كانوا على خلاف الصواب، فاستحقُّوا هٰذه العقوبةَ والحسرةَ.

وذكر المفسِّرون: أنَّ الجواريَ الْتَقَطْنَهُ من البحر في تابوتٍ مغلقٍ عليه، فلم يَتَجاسَرْنَ علىٰ فتحِهِ، حتىٰ وَضَعْنَهُ بين يدي امرأةِ فرعونَ آسيةَ بنتِ مزاحم بنِ عُبيدِ بنِ الرَّيَّانِ بنِ الوليدِ، الذي كان فرعونَ مصر في زمن يوسفَ. **وقيل**: إنَّها كانت من بني إسرائيلَ من سبطِ موسىٰ. **وقيل**: بل كانتْ عمَّتُه. **حكاه السُّهيليُّ**. فالله أعلمُ. وسيأتي مدحُها والثناءُ عليها في قصةِ مريمَ بنت عمران، وأنَّهما يكونانِ يومَ القيامةِ من أزواج رسول الله ﷺ في الجنةِ[1]. فلمَّا فتحتِ البابَ وكشفتِ الحجابَ؛ رأتْ وجهَهُ يتلألأُ بتلك الأنوارِ النبويَّة والجلالةِ الموسويَّة، فلمَّا رأتْه ووقَعَ نظرُها عليه؛ أحبَّتْه حبًّا شديدًا جدًّا، فلما جاء فرعونُ؛ قال: ما هٰذا؟! وأمر بذبحِهِ! فاستوهبتْهُ منه، ودفعتْ عنه، وقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾. فقال لها فرعونُ: أمَّا لكِ؛ فنعم، وأما لي؛ فلا! أي: لا حاجةَ لي به! والبلاءُ موكَّلٌ بالمنطقِ! وقولها: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾: قد أنالَها الله ما رَجَتْ من النفع: أمَّا في الدُّنيا؛ فهداها اللهُ به، وأما في الآخرةِ؛ فأسكنَها جنتَهُ بسببه. ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾: وذلك أنَّهما تبنَّياه؛ لأنَّه لم يكنْ يولدُ لهما ولدٌ. قال الله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾؛ أي: لا يدرون ماذا يريدُ اللهُ بهم أن قيَّضَهم لالتقاطِهِ من النقمةِ العظيمةِ بفرعونَ وجنودِهِ!

وعندَ أهلِ الكتابِ[2]: أن التي التقطتْ موسىٰ دربتةُ ابنةُ فرعونَ، وليس لامرأتِهِ ذِكْرٌ بالكُلِّيَّةِ، وهٰذا من غلطِهِم علىٰ كتاب الله ﷻ.

۞ [عودة موسى عليه السلام إلى حضانة أمه]:

قال الله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾ [القصص: ١٠-١٣].

قال ابن عباس ومجاهدٌ وعِكرمة وسعيد بن جُبير وأبو عبيدة والحسن وقَتادة والضَّحَّاك

---

(١) انظره في (ص٦٢٠ - ٦٢٢).

(٢) في (سفر الخروج/ الأصحاح٢).

وغيرهم: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾؛ أي: من كلِّ شيءٍ من أمور الدُّنيا إلَّا من موسىٰ. ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾؛ أي: لَتُظْهِرُ أمرَهُ وتسأَلُ عنه جَهْرَةً. ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾؛ أي: صبَّرْناها وثبَّتْناها؛ ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾: وهي ابنتُها الكبيرة. ﴿قُصِّيهِ﴾؛ أي: اتَّبعي أَثَرَه، واطْلُبي لي خَبَرَهُ. ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾: قال مجاهدٌ: عن بُعْدٍ. وقال قَتادة: جعلتْ تَنْظُرُ إليه وكأنَّها لا تريدُهُ. ولهٰذا قال: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

وذلك لأنَّ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لمَّا استقرَّ بدارِ فرعونَ؛ أرادوا أن يغذُّوه بِرَضاعةٍ، فلم يقبلْ ثَدْيًا ولا أخذ طعامًا، فحاروا في أمرِهِ، واجتهَدوا علىٰ تغذيتِه بكلِّ ممكنٍ، فلم يفعلْ، كما قال تعالىٰ: ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾؛ فأرسَلوه مع القوابل والنساءِ إلىٰ السوقِ لعلَّهم يجِدون مَن يوافِقُ رضاعَتَهُ؛ فبينما هم وقوفٌ به والنَّاسُ عكوفٌ عليه؛ إذ بَصُرَتْ به أختُهُ، فلم تظْهِرْ أنَّها تَعرِفُه، بل قالتْ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾: قال ابن عباس: لمَّا قالتْ ذلك، قالوا لها: ما يدريكِ بنُصْحِهم وشفقتِهم عليه؟! فقالتْ: رغبةً في سرورِ الملك ورجاءَ منفعتِهِ. فأطلَقوها وذهبوا معها إلىٰ منزِلِهم، فأخذتْه أمُّه، فلمَّا أرْضَعَتْهُ؛ التقمَ ثَدْيَها وأخذَ يمتصُّه ويرتضِعُه، ففرِحوا بذلك فرحًا شديدًا، وذهبَ البشيرُ إلىٰ آسيةَ يُعْلِمُها بذلك، فاستدعتْها إلىٰ منزِلها، وعرضتْ عليها أن تكونَ عندَها وأن تُحْسِنَ إليها، فأبتْ عليها وقالتْ: إنَّ لي بعلًا وأولادًا، ولستُ أقدِرُ علىٰ هٰذا إلَّا أن ترسليهِ معي! فأرسلتْهُ معها، ورتَّبَتْ لها رواتبَ، وأجرتْ عليها النفقاتِ والكساوي والهباتِ، فرجعتْ به تحوزُهُ إلىٰ رَحْلِها وقد جَمَعَ اللهُ شملَه بشملِها.

قال الله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾؛ أي: كما وَعَدْناها بردِّه ورسالته؛ فهٰذا ردُّه، وهو دليلٌ علىٰ صدق البشارةِ برسالتِهِ. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

وقد امتنَّ اللهُ علىٰ موسىٰ بهٰذا ليلةَ كلَّمه، فقال له فيما قال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٣٧-٣٩]: وذلك أنه كان لا يراه أحدٌ إلا أحبَّه.

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ۝٣٩﴾ [طه: ٣٩]: قال قَتادة وغير واحدٍ من السلف: أي: تُطْعَمَ وتُرَفَّهَ وتُغَذَّىٰ بأطيبِ المآكل وتُلْبَسَ أحسنَ الملابس بمرأىً مني، وذلك كلُّه بحفظي وكَلاءتي لك فيما صنعتُ بك ولك، وقدَّرْته من الأمورِ التي لا يَقْدِرُ عليها غيري. ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ﴾ [طه: ٤٠]: وسنورد حديث الفتون في موضعِهِ بعد هٰذا إن شاء الله تعالىٰ[1]، وبه الثقة وعليه التكلان.

[انتصار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ للإسرائيلي وقضاؤه على القبطي]:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٤ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ۝١٧﴾ [القصص: ١٤-١٧].

لمَّا ذكر تعالىٰ أنه أنعم علىٰ أمِّهِ بردِّه لها وإحسانِهِ بذلك وامتنانِهِ عليها، شرَعَ في ذِكْر أنَّه ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾: وهو احتكامُ الخَلْقِ والخُلُقِ، وهو سنُّ الأَربعين في قول الأكثرينَ، آتاه الله حكمًا وعلمًا، وهو النبوةُ والرسالةُ التي كان بَشَّرَ بها أمَّه حين قال: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص: ٧].

ثم شَرَعَ في ذِكْرِ سببِ خروجِهِ من بلاد مصرَ وذَهابه إلىٰ أرض مدينَ وإقامتِهِ هنالكَ، حتىٰ كَمُلَ الأجلُ وانقضىٰ الأمدُ وكان ما كان مِن كلام اللهِ له وإكرامِهِ بما أكرمَهُ به كما سيأتي:

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾: قال ابنُ عباس وسعيدُ بن جُبير وعِكرمةُ وقَتادةُ والسُّدِّيُّ: وذلك نصف النهار. وعن ابن عباس: بين العشاءين. ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾؛ أي: يتضارَبان ويتهارَشان[2]. ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾؛ أي: إسرائيليٌّ. ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي: قبطيٌّ. قاله ابن عباس وقَتادةُ والسُّدِّيُّ ومحمد بن إسحاق. ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾: وذٰلك أنَّ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كانتْ له بديارِ مصرَ صولةٌ بسبب نسبتِهِ إلىٰ تبنِّي فرعونَ له وتربيتِهِ في بيتِهِ، وكانتْ بنو إسرائيل قد عَزُّوا وصارتْ لهم وَجاهةٌ وارتفعتْ رؤوسُهم بسبب

(١) انظره في (٤٣٨- ٤٥٠).

(٢) في نسخة «يتهاوشان». وهما بمعنىً.

أنَّهم أرضعوهُ وهم أخوالُهُ؛ أي: من الرضاعة. فلما استغاث ذلك الإسرائيليُّ موسىٰ عليه السلام علىٰ ذٰلك القِبْطِيِّ؛ أقبلَ إليه موسىٰ، ﴿فَوَكَزَهُۥ﴾ قال مجاهدٌ: أي: طَعَنَهُ بِجُمْعِ كفِّه. وقال قَتادة: بعصًا كانت معه. ﴿فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾؛ أي: فمات منها. وقد كان ذٰلك القبطيُّ كافرًا مشركًا بالله العظيم، ولم يُرِدْ موسىٰ قَتْلَه بالكُلِّيَّة، وإنما أراد زجرَهُ وردْعَه، ومع هٰذا، قال موسىٰ: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ﴾؛ أي: من العزِّ والجاه. ﴿فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ١٧﴾.

۞ [افتضاح أمر موسى عليه السلام وتآمر القبط لقتله]:

﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ١٨ فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٩ وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢١﴾ [القصص: ١٨-٢١].

يخبرُ تعالىٰ أنَّ موسىٰ أصبحَ بمدينةِ مصرَ خائفًا؛ أي: من فرعونَ ومَلَئِهِ؛ أن يعلَموا أنَّ هٰذا القتيلَ الذي رُفِعَ إليه أمرُهُ إنَّما قتَلَهُ موسىٰ في نصرةِ رجل من بني إسرائيل، فتقوىٰ ظنونُهم أنَّ موسىٰ منهم، ويترتَّب علىٰ ذٰلك أمرٌ عظيمٌ، فصار يسيرُ في المدينةِ في صبيحةِ ذٰلك اليوم ﴿خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾؛ أي يتلفَّت، فبينما هو كذٰلك؛ إذا ذٰلك الرجلُ الإسرائيليُّ الذي استنصره بالأمس يستصرِخُه؛ أي: يصرُخُ به ويستغيثُهُ علىٰ آخرَ قد قاتَلَه، فعنَّفَه موسىٰ ولامَه علىٰ كثرةِ شرِّه ومخاصمتِهِ؛ قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ١٨﴾.

ثم أرادَ أن يبطِشَ بذٰلك القبطيِّ الذي هو عدوٌّ لموسىٰ وللإسرائيليِّ فيردَعَه عنه ويخلِّصَه منه، فلمَّا عزَمَ علىٰ ذٰلك وأقبل علىٰ القبطيِّ؛ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٩﴾: قال بعضُهم: إنَّما قال هٰذا الكلامَ الإسرائيليُّ الذي اطَّلع علىٰ ما كانَ صَنَعَ موسىٰ بالأمس، وكأنَّه لمَّا رأىٰ موسىٰ مقبلًا إلىٰ القبطيِّ؛ اعتقدَ أنَّه جاء إليه لما عنَّفه قبل ذٰلك بقوله: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ١٨﴾، فقال ما قال لموسىٰ، وأظْهَرَ الأمرَ الذي

كان وَقَعَ بالأمس، فذهب القبطيُّ فاستعدىٰ فرعونَ علىٰ موسىٰ. وهٰذا الذي لم يذكُرْ كثيرٌ من الناس سواه. ويُحتمل أنَّ قائل هٰذا هو القِبْطيُّ، وأنَّه لما رآه مقبلًا إليه؛ خافَه، ورأىٰ من سجيَّتِهِ انتصارًا جديدًا[1] للإسرائيلي، فقالَ ما قال من باب الظَّنِّ والفِراسةِ: إنَّ هٰذا لعلَّه قاتلُ ذاك القتيل بالأمس، أو لعلَّه فَهِمَ من كلام الإسرائيليِّ حين استصرَخه عليه ما دلَّه علىٰ هٰذا. والله أعلم.

والمقصودُ: أنَّ فرعونَ بَلَغَهُ أنَّ موسىٰ هو قاتلُ ذٰلك المقتول بالأمس، فأرسلَ في طلبِهِ، وسبقَهُم رجلٌ ناصحٌ من طريق أقربَ: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾: ساعيًا إليه مشفِقًا عليه. فقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾؛ أي: من هٰذه البلدة. ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: فيما أقوله لك.

قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾؛ أي: فخرج من مدينة مصرَ من فورِهِ علىٰ وجهِهِ لا يهتدي إلىٰ طريقٍ ولا يعرِفُه؛ قائلًا: ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾.

۞ [موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عند ماء مدين]:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص: ٢٢-٢٤].

يخبرُ تعالىٰ عن خروج عبدِهِ ورسولِهِ وكليمِهِ من مصر خائفًا يترقَّبْ، أي: يتلفَّتُ خشيةَ أن يدرِكَه أحدٌ من قوم فرعون، وهو لا يدري أين يتوجَّهُ ولا إلىٰ أين يذهبُ، وذٰلك لأنَّه لم يَخْرُجْ من مصر قبلها: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي: اتَّجه له طريقٌ يذهبُ فيه. ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: عسىٰ أن تكونَ هٰذه الطريق موصلةً إلىٰ المقصودِ. وكذا وَقَعَ؛ فقد أوصلتْهُ إلىٰ المقصودِ، وأي مقصودٍ!

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾: وكانتْ بئرًا يَسْتَقونَ منها، ومَدْيَنُ هي المدينةُ التي أهْلَكَ الله فيها أصحابَ الأيكةِ، وهم قومُ شعيبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد كان هلاكُهم قبل زمنِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ في أحدِ قولي

---

(١) في نسخة: «جيدًا».

العلماء. ولمَّا وَرَدَ الماء المذكورَ؛ ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي: تُكفْكِفانِ غنَمَهما أن تختلط بغنم الناس.

وعند أهل الكتاب[١]: أنهنَّ كنَّ[٢] سبع بناتٍ، وهٰذا أيضًا من الغلطِ، ولعلهنَّ كنَّ سبعًا، ولكن إنَّما كان تسقي اثنتان منهنَّ. وهٰذا الجمع ممكنٌ إن كان ذاك محفوظًا، وإلَّا؛ فالظاهرُ أنَّه لم يكن له سوىٰ بنتين. ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: لا نقدِرُ علىٰ ورودِ الماء إلَّا بعد صدورِ الرِّعاء؛ لضَعْفِنا، وسبب مباشرتِنا هٰذه الرعيةَ ضعفُ أبينا وكِبَرُهُ.

قال الله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾: قال المفسِّرونَ: وذٰلك أنَّ الرِّعاء كانوا إذا فرغوا من وِرْدِهم[٣]؛ وَضَعوا علىٰ فم البئر صخرةً عظيمةً، فتجيءُ هاتان المرأتانِ فيُشْرِعانِ[٤] غنَمِهُما في فضل أغنام الناس، فلمَّا كان ذٰلك اليوم؛ جاء موسىٰ فَرَفَعَ تلك الصخرةَ وحدَه، ثم استقىٰ لهما وسقىٰ غَنَمَهُما، ثم ردَّ الحجرَ كما كان. قال أمير المؤمنين عمر: وكان لا يرفعُهُ إلَّا عشرةٌ، وإنما استقىٰ ذَنوبًا[٥] واحدًا فكفاهُما. ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾: قالوا: وكان ظلَّ شجرةٍ من السَّمُر[٦]، وروىٰ ابن جرير[٧] عن ابن مسعود: أنَّه رآها خضراءَ ترِفُّ ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾: قال ابنُ عباس: سار من مصرَ إلىٰ مدينَ لم يأكلْ إلَّا البقلَ وورقَ الشجرِ، وكان حافيًا فسَقَطَتْ نَعْلَا قدميهِ[٨] من الحفاءِ، وجلسَ في الظلِّ -وهو صفوةُ اللهِ من خلقِهِ-؛ وإنَّ بطنَه لاصقٌ بظهرِهِ من الجوع، وإنَّ خَضِرَةَ البَقْل لَتُرىٰ من داخل جَوْفِهِ، وإنَّه لمحتاجٌ إلىٰ شِقِّ تمرةٍ. قال عطاء بن السائب: لما قال: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ أسمعَ المرأة.

---

(١) في (سفر الخروج/ الأصحاح ٢).

(٢) في نسخة: «وكأنه كنَّ».

(٣) الوِرْد: الإشراف علىٰ الماء.

(٤) يُشْرع: يسقي.

(٥) ذنوبًا: دلوًا.

(٦) السمر: شجر الطلح، من شجر البوادي.

(٧) في «التفسير» (١٠/ ٥٦/ ٢٧٣٤).

(٨) يعني: جلد أخمص قدميه.

[زواجه ﷺ من ابنة شيخ مدين]:

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص: ٢٥-٢٨].

لمَّا جَلَسَ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ في الظِّلِّ، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾؛ سمعته المرأتانِ فيما قيل، فذَهَبتا إلىٰ أبيهما، فيقالُ: إنَّه استنكرَ سرعة رجوعِهِما، فأخبرَتاه بما كان من أمر موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأمَرَ إحداهُما، أن تَذْهَبَ إليه فتدعُوَه.

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ أي: مشي الحرائر. ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾: صرَّحت له بهٰذا لئلَّا يوهِمَ كلامُها ريبةً، وهٰذا من تمام حيائها وصيانتها. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾: وأخبره خبره وما كان من أمرِهِ في خروجِهِ من بلادِ مصرَ فرارًا من فرعونها؛ قالَ لهُ ذٰلك الشيخ: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾؛ أي: خرجت من سلطانِهم فلستَ في دولتِهم.

وقد اختلفوا في هٰذا الشيخ من هو؟ فقيل: هو شعيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وهٰذا هو المشهورُ عند كثيرين، وممَّن نصَّ عليه الحسن البصري ومالك بن أنس، وجاء مصرَّحًا به في حديثٍ، ولكن في إسناده نظرٌ[1]، وصرَّح طائفةٌ بأنَّ شُعيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ عاشَ عُمُرًا طويلاً بعد هلاك قومِهِ حتَّىٰ أدركَه موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وتزوَّج بابنتِهِ، وروىٰ ابنُ أبي حاتم وغيرُه عن الحسن البصريِّ: أنَّ صاحبَ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ هٰذا اسمُهُ شعيبٌ، وكان سيدَ الماءِ، ولكن ليس بالنبيِّ صاحب مدينَ. وقيل: إنَّه ابنُ أخي شعيبٍ. وقيل: ابنُ عمه. وقيل: رجلٌ مؤمنٌ من قوم شعيبٍ. وقيل: رجلٌ

(١) بل جاء مصرَّحًا به في أكثر من حديث؛ فمنها: حديث سلمة بن سعد العنزي المتقدم (ص٢٤٢)، وحديث شداد بن أوس المتقدم (ص٢٤٨)، وحديث عتبة بن النُّدَّر الآتي (ص ٣٤٧) ، واجتماعها لا يزحزحها عن الضعف؛ لشدة وهائها. والله أعلم.

اسمُهُ يثرونَ، هٰكذا هو في كتبِ أهل الكتابِ[١]: يَثْرونُ كاهنُ مَدْيَنَ؛ أي: كبيرُها وعالمُها. وقال ابنُ عباس وأبو عبيدة بن عبد الله: اسمُه يثرونُ. زاد أبو عبيدةَ: وهو ابنُ أخي شعيبٍ. وزاد ابن عباسٍ: صاحبُ مدينَ.

والمقصودُ: أنَّه لما أضافَهُ وأكرمَ مثواه وقصَّ عليه ما كان من أمرِهِ؛ بشَّره بأنه قد نجا؛ فعند ذٰلك قالتْ إحدىٰ البنتين لأبيها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾؛ أي لرعي غنمِكَ، ثم مَدَحَتْه بأَنَّه قويٌّ أمين. قال عمر وابن عباس وشُرَيْح القاضي وأبو مالك وقَتادة ومحمد بن إسحاق وغير واحد: لمَّا قالتْ ذٰلك؛ قال لها أبوها: وما عِلْمُكِ بهٰذا؟ فقالتْ إنَّه رَفَعَ صخرةً لا يُطيقُ رَفْعَها إلَّا عشرةٌ، وإنَّه لمَّا جئتُ معه؛ تقدَّمْتُ أمامَهُ، فقال: كوني من ورائي؛ فإذا اختلفتِ الطريقُ؛ فاحذِفي لي بحصاةٍ؛ أعلمْ بها كيفَ الطريقُ! قال ابن مسعود: أفرسُ الناس ثلاثةٌ: صاحبُ يوسُفَ حين قال لامرأتِهِ: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ [يوسف: ٢١]، وصاحبةُ موسىٰ حين قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾، وأبو بكرٍ حين استخلفَ عمرَ بنَ الخطاب.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾:

استدلَّ بهٰذه جماعةٌ من أصحاب أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ صِحَّةِ ما إذا باعه أحدَ هٰذين العبدين أو الثوبين ونحو ذٰلك أنه يصحُّ؛ لقوله: ﴿إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾. وفي هٰذا نظرٌ؛ لأنَّ هٰذه مراوضةٌ لا معاقدةٌ. والله أعلم.

واستدلَّ أصحابُ أحمدَ علىٰ صحةِ الاستئجار[٢] بالطُّعمةِ والكسوةِ كما جرتْ به العادةُ. واستأنسوا بالحديث الذي رواه ابن ماجه في «سننه» مترجِمًا عليه في كتابه: باب استئجار الأجير علىٰ طعام بطنه:

حدثنا محمد بن المُصَفَّىٰ الحمصيُّ، حدثنا بقيةُ بن الوليد، عن مَسْلَمَةَ بن علي، عن سعيد بن أبي أيوب، عن الحارث بن يزيدَ، عن علي بن رَباح؛ قال: سمعتُ عتبةَ بن النُّدَّرِ يقول: كنَّا عند رسول الله ﷺ فقرأ: ﴿طسٓمٓ ١﴾، حتىٰ إذا بلغ قصة موسىٰ؛ قال: «**إنَّ موسى** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ **آجَرَ**

---

(١) في (سفر الخروج/ الأصحاح٣).

(٢) في نسخة: «الإيجار».

نفسَهُ ثمانيَ سنينَ (أو: عشرَ سنين) على عِفَّةِ فرجِهِ وطعام بطنِهِ»[١]. وهٰذا الحديث من هٰذا الوجه لا يصحُّ، لأنَّ مسلمة بن عليٍّ الخشنيَّ الدمشقيَّ البلاطي ضعيفٌ عند الأئمَّة لا يُحْتَجُّ بتفرُّدِهِ.

ولكن قد رُوِيَ من وجهٍ آخر، فقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيىٰ بن عبد الله بن بُكيْر[٢]، حدثني ابن لهيعة. ح: وحدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوانُ، حدثنا الوليدُ، حدثنا عبدُالله بن لهيعة، عن الحارث بن يزيدَ الحضرميِّ، عن عليِّ بن رباح اللخميِّ؛ قال: سمعتُ عتبة ابن النُّدَّر السُّلَميَّ صاحبَ رسول الله ﷺ يحدِّث: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ موسى عليه السلام آجَرَ نفسَهُ بعِفَّةِ فرجِهِ وطُعْمَةِ بطنِهِ»[٣].

ثم قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾: يقولُ: إنَّ موسىٰ قال لصهرِهِ: الأمرُ علىٰ ما قلت؛ فأيَّهما قضيتُ؛ فلا عدوانَ عليَّ، والله علىٰ مقالتِنا سامعٌ وشاهدٌ ووكيلٌ عليَّ وعليك.

ومع هٰذا؛ فلم يقضِ موسىٰ إلَّا أكملَ الأجلين وأتمَّهما، وهو العشرُ سنينَ كواملَ تامةً:

قال البخاريُّ: حدثنا محمَّد بن عبد الرحيم، حدثنا سعيدُ بن سُليمان، حدثنا مروان بن شُجاعٍ، عن سالمٍ الأفطسِ، عن سعيد بن جُبير؛ قال: سألني يهوديٌّ من أهل الحِيْرَةِ: أيَّ الأجلين قضىٰ موسىٰ؟ فقلت: لا أدري حتَّىٰ أَقْدَمَ علىٰ حَبْرِ العربِ فأسألُهُ. فقدِمْتُ، فسألتُ ابنَ عباس؟

---

(١) (ضعيف). رواه: ابن ماجه (١٦- الرهون، ٥- إجارة علىٰ طعام بطنه، ٢/ ٨١٧/ ٢٤٤٤)، ومن طريقه الطبراني (١٧/ ١٣٥/ ٣٣٣).

قال في «الزوائد»: «إسناده ضعيف؛ لأن فيه بقية، وهو مدلس». قال الألباني في «الإرواء»؛ فالسند ضعيف جدًّا» اهـ. يتصرف. فهذه طريق لا يُعَوَّل عليها.

لٰكن رواه: البزار (٢/ ٩٩/ ١٤٩٥- مختصر الزوائد)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٩٦٨/ ١٦٨٥٦ و١٦٨٦٧)؛ من طريقين عن ابن لهيعة... به، فذكره. وهٰذا سند لا بأس به في الشواهد؛ لما تعرف من حال ابن لهيعة. لٰكن شواهده واهية بمرة؛ فلا تطمئن النفس لتقويته بها، بل إلىٰ الضعف ما هو؛ كما قال الحافظان الهيثمي وابن كثير. ولا سيما أن له زيادة منكرة في آخره ستأتيك في (ص٣٥٠-٣٥١) يجزم الواقف عليها بأنها من الإسرائيليات التي تسربت إلىٰ علماء هذه الأمة. والله أعلم.

(٢) في جميع الأصول: «بكر»! والتصويب من مصادر التخريج.

(٣) (ضعيف). انظر تفصيل تخريجه في الحاشية السابقة.

فقال: قضىٰ أكْثَرَهُما وأطْيَبَهما؛ إنَّ رسولَ اللهِ إذا قال فعلَ. تفرَّدَ به البخاريُّ من هٰذا الوجه[١].

وقد رواه النَّسائيُّ في حديث الفتون -كما سيأتي[٢] - من طريق: القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جبير.

وقد رواه ابن جرير عن أحمد بن محمد الطُّوسيِّ، وابن أبي حاتم عن أبيه؛ كلاهما عن الحُمَيْدِيِّ، عن سفيان بن عُيينة، حدثني إبراهيم بن يحيىٰ بن أبي يعقوب، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**سألتُ جبريلَ: أيَّ الأجلينِ قضى موسى؟ قال: أتمَّهما وأكمَلَهُما**»[٣]. وإبراهيم هٰذا غير معروف إلاَّ بهٰذا الحديث.

وقد رواه البزار: عن أحمد بن أبانَ القرشيِّ، عن سفيانَ بن عُيينة، عن إبراهيم بن أعينَ، عن الحكم بن أبان، عن عكرمةَ، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ فذكره.

وقد رواه سُنَيْدٌ: عن حجَّاجٍ، عن ابن جُرَيْج، عن مجاهد؛ مرسلًا: أنَّ رسول الله سأل عن ذٰلك جبريلَ؟ فسأل جبريلُ إسرافيلَ؟ فسأل إسرافيلُ الربَّ ﷻ فقال: «**أبرَّهما وأوفاهُما**».

وبنحوه رواه ابنُ أبي حاتم من حديث يوسفَ بن سرج مرسلًا.

---

(١) انظر تفصيل تخريجه في نفس الصفحة.

(٢) في (ص٤٣٨ - ٤٥٠).

(٣) (**صحيح موقوفًا ومرفوعًا**). رواه: البخاري (٥٢-الشهادات، ٢٨-باب من أمر بإنجاز الوعد، ٥/ ٢٨٩/ ٢٦٨٤)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٤/ ٤٣٨/ ٥٥٩٨-تحفة)؛ من حديث ابن عباس موقوفًا. قال الحافظ: «وهو في حكم المرفوع؛ لأن ابن عباس كان لا يعتمد علىٰ أهل الكتاب».
ثم ذكر الحافظ ابن كثير طرقًا أخرىٰ للحديث:
فقد رواه: الحميدي (٥٣٥)، والبزار (٢/ ٩٩/ ١٤٩٤- مختصر الزوائد)، وأبو يعلىٰ (٤/ ٢٩٧/ ٢٤٠٨)، وابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٧٠/ ١٦٨٦٥)، وابن جرير (١٠/ ٦٦/ ٢٧٤٠٩)، والحاكم (٢/ ٤٠٧)؛ من ثلاث طرق عن الحكم بن أبان... به فذكره. وطريق أبي يعلىٰ حسنة.
ثم ذكر مرسل مجاهد الذي رواه ابن جرير (١٠/ ٦٦/ ٢٧٤١٠).
ثم ذكر مرسل يوسف بن السرج الذي رواه ابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٧٠/ ١٦٨٦٦).
ثم ذكر مرسل محمد بن كعب الذي رواه ابن جرير (١٠/ ٦٦/ ٢٧٤٠٨).
وبمجموع هذه الطرق؛ فلا ريب أن الحديث صحيح مرفوعًا، ولن يضره الوقف بعد هٰذا، بل سيزيده قوة إن شاء الله. والله أعلم.

ورواه ابن جرير من طريق محمد بن كعب: أنَّ رسول الله ﷺ سُئِلَ: أيَّ الأجلين قضىٰ موسىٰ؟ قال: «**أوفاهما وأتمَّهما**».

وقد رواه البزَّار وابنُ أبي حاتم من حديث: عُوَيْد ابن أبي عِمران الجَوْنيِّ -وهو ضعيف-، عن أبيه، عن عبد الله بن الصَّامت، عن أبي ذرٍّ: أن رسولَ الله ﷺ سئل: أيَّ الأجلين قضىٰ موسىٰ؟ قال: «**أوفاهُما وأبرَّهما**» قال: «**وإن سُئِلْتَ أيَّ المرأتين تزوَّجَ؟ فَقُلِ: الصُّغرى منهما**»[(١)].

وقد رواه البزار وابن أبي حاتم من طريق: عبد الله بن لَهيعةَ، عن الحارث بن يزيد الحضرميِّ، عن علي بن رباح، عن عتبة بن النُّدَّر: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ موسى آجَرَ نفسَه بعفَّةِ فرجِهِ وطعام بطنِهِ، فلمَّا وفَّى الأجل**». قيل: يا رسول الله! أيَّ الأجلينِ؟ قال: «**أبرَّهما وأوفاهُما. فلما أرادَ فراقَ شعيبٍ؛ أَمَرَ امرأتَهُ أن تسألَ أباها أن يُعْطِيَها من غنمِهِ ما يعيشون به، فأعطاها ما وَلَدَت غنمُهُ من قالِبِ لَوْنٍ**[(٢)] **من ولدِ ذٰلك العام، وكانت غنمُهُ سودًا حسانًا، فانطلقَ موسى** عَلَيْهِ السَّلَامُ **إلى عصًا، فشقَّها**[(٣)] **من طَرَفِها ثم وَضَعَها في أدنى الحوض، ثم أوردها فسَقاها، ووقف موسى** عَلَيْهِ السَّلَامُ **بإزاء الحوض، فلم يَصْدُرْ منها شاةٌ إلَّا ضَرَبَ جنبَها شاةً شاةً**». قال: «**فأتْأَمَتْ وآنثت ووضعت كلُّها قوالبَ ألوانٍ؛ إلَّا شاةً أو شاتين؛ ليس فيها فَشوشٌ ولا ضَبوبٌ ولا عَزوزٌ ولا ثَعولٌ ولا كَموشٌ تفوت الكفَّ**». قال النبيُّ ﷺ «**لو افتتحتُمُ**[(٤)] **الشامَ؛ وجدتُم بقايا تلك الغنم، وهي السَّامِرِيَّةُ**»[(٥)]. قال ابن لَهيعة: الفَشوشُ: واسعةُ الشَّخْبِ.

---

(١) (ضعيف جدًّا). رواه: البزار (٢/ ٩٨/ ١٤٩٣-مختصر الزوائد)، وابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٧٠/ ١٦٨٦٤)، والطبراني في «الأوسط» (٦/ ٢٠٥/ ٥٤٢٦) و«الصغير» (٣٤٢/ ٨١٦)؛ من طرق عن عُوَيْد... به. وعويدٌ هٰذا متروك منكر الحديث. فالسند واهٍ جدًّا. وما كان علىٰ هذه الحال؛ فلا تنفع فيه المتابعات والشواهد ولا تقويه ولا كرامة. وعلىٰ كل؛ فحديث ابن عباس المتقدم يغني عنه.

(٢) يعني: علىٰ غير لون أمهاتها، كأن اللون انقلب، وستوضحه رواية ابن جرير التالية.

(٣) في الأصول: «قسمها». وفي «تفسير ابن أبي حاتم»: «تسلَّمها»! ولعلَّ ما أثبته أصوب؛ بدليل ما تقدم في قصة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ. والمقصود من إخافتها كما تقدم هناك، فيأتي الوليد مختلفاً عن أمه -زعموا-! وهٰذا من خرافات الإسرائيليات التي لا تليق برسل الله الكرام، ولا يدعمها عقلٌ ولا نقلٌ.

(٤) في نسخة: «اقتحمتم».

(٥) (ضعيف). وقد تقدم الكلام عنه في (٣٤٨).

والضَّبوبُ: طويلةُ الضَّرْع تجرُّه. والعَزوزُ: ضيقةُ الشَّخْب. والثَّعولُ: الصغيرةُ الضَّرع كالحَلَمتين. والكَموش: التي لا يُحْكِمُ الكفُّ علىٰ ضَرْعِها لصِغَرِه.

وفي صحَّة رفع هٰذا الحديث نظرٌ، وقد يكون موقوفًا؛ كما قال ابن جرير(١): حدثنا محمد بن المثنَّىٰ، حدثنا معاذُ بن هشام، حدثنا أبي، عن قَتادة، حدثنا أنسُ بن مالك؛ قال: لما دعا نبيُّ الله موسىٰ صاحِبَه إلىٰ الأجل الذي كان بينهما، قال لهُ صاحبُهُ: كلُّ شاةٍ وَلَدَتْ علىٰ غيرِ لونِها فلك ولدُها. فعَمَدَ موسىٰ، فوضع خيالًا علىٰ الماء، فلما رأتِ الخيالَ؛ فَزِعَتْ، فجالتْ جولةً، فوَلَدْنَ كلُّهنَّ بُلقًا إلَّا شاةً واحدةً، فذهب بأولادهنَّ كلِّهن ذٰلك العام. وهٰذا إسنادٌ جيدٌ رجالهُ ثقاتٌ. والله أعلم.

وقد تقدَّم(٢) عن نقل أهل الكتاب عن يعقوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حين فارق خالَهُ لابانَ أنَّه أطلقَ له ما يولَدُ من غنمِهِ بُلقًا، ففعل نحو ما ذُكِرَ عن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ. فالله أعلم.

۞ [خطاب الله تعالى لموسى عند عودته لمصر وبعثه رسولًا]:

قال الله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: ٢٩-٣٢].

تقدَّم أنَّ موسىٰ قضىٰ أتمَّ الأجلينِ وأكملَهُما، وقد يؤخَذُ هٰذا من قولِهِ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾، وعن مجاهد: أنَّه أكملَ عشرًا وعشرًا بعدَها.

وقوله: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾؛ أي: من عند صهرِهِ؛ زاعمًا(٣) -فيما ذَكَرَهُ غيرُ واحدٍ من المفسِّرينَ وغيرِهِم- أنَّه اشتاقَ إلىٰ أهلِهِ، فقصدَ زيارَتَهم ببلادِ مصرَ في صورةٍ مختفٍ، فلمَّا سارَ بأهلِهِ

(١) في «التفسير» (١٠/ ٦٦/ ٢٧٤١٣).

(٢) في (ص٢٦١).

(٣) في نسخة: «ذاهبًا».

ومعه ولدانِ منهُم وغنمٌ قد استفادَها مدَّةَ مُقامِهِ. قالوا: واتَّفق ذٰلك في ليلةٍ مظلمةٍ باردةٍ، وتاهوا في طريقِهِم فلم يهْتدوا إلىٰ السُّلوكِ في الدَّرْبِ المألوف، وجعل يُوري زِنادَهُ(١) فلا يوري شيئًا، واشتدَّ الظلامُ والبردُ؛ فبينما هو كذٰلك؛ إذ أبصرَ عن بعدٍ نارًا تأجَّجُ في جانِب الطُّور -وهو الجبلُ الغربيُّ منه عن يمينِهِ-، فـ ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾: وكأنَّه -والله أعلم- رآها دونَهم؛ لأنَّ هٰذه النارَ هي نورٌ في الحقيقةِ، ولا يصلُحُ رؤيتها لكلِّ أحدٍ. ﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾؛ أي؛ لعلي أستعلمُ من عندها عن الطريق. ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾: فدَلَّ علىٰ أنَّهم كانوا قد تاهوا عن الطريقِ في ليلةٍ باردةٍ ومظلمةٍ؛ لقولِهِ في الآية الأخرىٰ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾ [طه: ٩-١٠]: فدلَّ علىٰ وجود الظَّلام وكونهم تاهوا عن الطريق، وجمع الكلَّ في سورة النمل في قوله: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [النمل: ٧]: وقد أتاهم بخبرٍ وأيِّ خبر! ووجدَ عندَها هدًىٰ وأيَّ هدًىٰ! واقتبس منها نورًا وأيَّ نورٍ!

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: ٣٠] وقال في النمل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾﴾ [النمل: ٨]. أي: سبحان اللهِ الذي يفعلُ ما يشاءُ ويَحْكُمُ ما يريدُ. ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ وقال في سورة طه: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه: ١١-١٦].

قال غير واحد من المفسِّرين من السَّلف والخلف: لمَّا قَصَدَ موسىٰ إلىٰ تلك النار التي رآها فانتهىٰ إليها؛ وجدَها تأجَّجُ في شجرةٍ خضراءَ من العَوْسَج(٢)، وكلُّ ما لتلك النارِ في اضطرام، وكلُّ ما لخضرةِ تلك الشجرةِ في ازديادٍ، فوقف متعجِّبًا، وكانت تلك الشجرة

(١) يوري زَنْده وزِناده: يقدحُ عودَه لإشعال النار.

(٢) العوسج: نبتة شجيرية شائكة معروفة.

في لِحْفِ[١] جبل غربيّ منه عن يمينه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [القصص: ٤٤]، وكان موسىٰ في وادٍ اسمُه طوًىٰ، فكان موسىٰ مستقبلًا القِبلة، وتلك الشجرةُ عن يمينِهِ من ناحية الغرب، فناداه ربُّه بالوادِ المقدَّس طوًىٰ.

فأُمِر أولًا بخلع نعليهِ تعظيمًا وتكريمًا وتوقيرًا لتلك البقعةِ المباركةِ، ولا سيَّما في تلك الليلةِ المباركةِ.

وعند أهل الكتاب[٢]: أنَّه وَضَعَ يَدَهُ علىٰ وجههِ من شدَّة ذٰلك النورِ، مهابةً له وخوفًا علىٰ بصرِهِ.

ثم خاطَبَه تعالىٰ كما يشاءُ قائلًا له: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: ٣٠]، ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١٤]؛ أي: أنا ربُّ العالمين، الذي لا إله إلَّا هو، الذي لا تَصْلُحُ العبادةُ وإقامةُ الصلاةِ إلَّا له.

ثم أخبره أنَّ هٰذه الدُّنيا ليستْ بدارِ قرارٍ، وإنَّما الدَّارُ الباقيةُ يومَ القيامة، التي لابدَّ من كونها ووجودها ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طه: ١٥]؛ أي: من خير وشرٍّ، وحضَّه وحثَّه علىٰ العمل لها ومجانبةِ من لا يؤمنْ بها ممَّن عصىٰ مولاه واتَّبع هواه.

ثم قال له مخاطبًا ومؤانسًا ومبيِّنًا له أنَّه القادرُ علىٰ كلِّ شيءٍ، الذي يقولُ للشيء كُنْ فيكونُ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه: ١٧]؛ أي: أما هٰذه عصاك التي تعرِفها منذُ صحبتَها؟ ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: ١٨]؛ أي: بلىٰ[٣] هٰذه عصاي التي أعرفها وأتحقَّقها. ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه: ١٩-٢٠]: وهٰذا خارقٌ عظيمٌ وبرهانٌ قاطعٌ علىٰ أن الذي يكلِّمه هو الذي يقول للشيء كنْ فيكونُ، وأنه الفعالُ بالاختيار.

وعند أهل الكتاب[٤]: أنَّه سأل برهانًا صادقًا علىٰ صدقه عند من يكذِّبه من أهل مصر،

---

(١) لِحْف الجبل: أصله.

(٢) في (سفر الخروج/ الأصحاح٣).

(٣) في جميع الأصول: «بل»! وما أثبته أولىٰ وأحرىٰ.

(٤) في (سفر الخروج/ الأصحاح٤).

فقال له الربُّ ﷻ: ما هٰذه التي في يدِكَ؟ قال: عصاي. قال: ألقِها إلىٰ الأرض. فألقاها؛ فإذا هي حيَّةٌ تَسْعىٰ! فهرب موسىٰ من قُدَّامها، فأمرهُ الربُّ ﷻ أن يَبْسُطَ يدَهُ ويأخُذَها بذنبِها، فلمَّا استمكنَ منها؛ ارتدَّت عصًا في يدِهِ.

وقد قال الله تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص: ٣١]؛ أي: قد صارتْ حيةً عظيمةً لها ضخامةٌ هائلةٌ وأنيابٌ تصكُّ، وهي مع ذٰلك في سرعة حركة الجانِّ، وهو ضربٌ من الحيات يُقال له: الجانُّ والجِنَّانُ، وهو لطيفٌ، ولٰكنْ سريع الاضطراب والحركة جدًّا؛ فهٰذه جمعتِ الضخامةَ والسرعةَ الشديدةَ. فلمَّا عاينها موسىٰ عليه السلام؛ ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ [القصص: ٣١]؛ أي: هاربًا منها؛ لأن طبيعتَه البشرية تقتضي ذٰلك. ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص: ٣١]؛ أي: ولم يلتفتْ. فناداه ربُّه قائلًا له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ القصص: ٣١]، فلمَّا رَجَعَ أمرَهُ الله تعالىٰ أن يمسِكَها؛ ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [طه: ٢١]: فيقالُ: إنَّه هابها شديدًا، فوضع يدَهُ في كُمِّ مِدْرَعَتِهِ[١]، ثم وضعَ يدَه في وَسَطِ فمِها -وعند أهل الكتاب: أمسك بذنبها-، فلمَّا استمكنَ منها؛ إذا هيَ قد عادتْ كما كانتْ عصًا ذاتَ شُعبتين! فسبحان القدير العظيم ربِّ المشرقين والمغربين!

ثم أمره تعالىٰ بإدخال يدِهِ في جيبِهِ، ثم أمَرَه بنزعِها؛ فإذا هي تتلألأ كالقمرِ بياضًا من غير سوءٍ؛ أي: من غير بَرَصٍ ولا بَهَقٍ[٢]، ولهٰذا قال: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢]: قيل: معناهُ: إذا خفتَ؛ فضعْ يدكَ علىٰ فؤادِكَ؛ يَسْكُنْ جأشُك. وهٰذا وإن كان خاصًا به؛ إلَّا أنَّ بركةَ الإيمانِ به حقٌّ بأن ينفعَ منِ استعملَ ذٰلك علىٰ وجه الاقتداء بالأنبياء.

وقال في سورة النمل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل: ١٢]؛ أي: هاتانِ الآيتانِ، وهما: العصا واليد، هما البرهانانِ المشارُ

---

(١) المِدْرَعة: ثوبٌ لا يكون إلاَّ من الصُّوف.

(٢) البهق (Vitiligo): داء معروف، يتظاهر بساحات بيضاء ثلجية بغيضة علىٰ الجلد، أسبابه متعددة جدًّا، ويستجيب للعلاج أحيانًا. وأما البرص؛ فيطلق علي البهق المتعمم في مختلف مناطق الجلد وعلىٰ أدواء أخرىٰ تشبه البهق المتعمم.

إليهما في قولِهِ: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: ٣٢]، ومع ذٰلك سبعُ آيات أخرىٰ؛ فذٰلك تسعُ آياتٍ بيناتٍ، وهي المذكورةُ في آخر سورة سبحانَ؛ حيث يقول تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠١-١٠٢]، وهي المبسوطة في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣٣]؛ كما سيأتي الكلامُ علىٰ ذٰلك في موضعِهِ. وهٰذه التسعُ الآياتُ غيرُ العشرِ الكلماتِ؛ فإنَّ التسعَ من كلماتِ الله القدريَّة، والعشرَ من كلماتِهِ الشرعيَّة[1]، وإنما نبَّهْنا علىٰ هٰذا لأنَّه قد اشتبه أمرُها علىٰ بعض الرُّواة، فظنَّ أن هٰذه هي هٰذه، كما قرَّرنا ذٰلك في تفسير آخر سورة بني إسرائيل.

۞ [موسى يسأل ربه تعالى أن يجعل هارون وزيرًا معينًا له]:

والمقصودُ: أنَّ الله سبحانه لمَّا أمر موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بالذَّهاب إلىٰ فرعونَ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٣٣-٣٥].

يقول تعالىٰ مخبرًا عن عبدِهِ ورسولِهِ وكليمِهِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ في جوابِهِ لربِّه عَزَّ وَجَلَّ حين أمَرَه بالذَّهاب إلىٰ عدوِّه الذي خرج من ديار مصرَ فرارًا من سطوتِهِ وظلمِهِ حين كان من أمره ما كان في قتل ذٰلك القبطيِّ، ولهٰذا ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص: ٣٣-٣٤]؛ أي

---

(١) الآيات التسع هي المعجزات التي أعطاها ﷺ لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إثباتًا لنبوته وتثبيتًا لمن آمن به وتخويفًا لمن أعرض واستكبر. والكلمات العشر هي وصايا عند أهل الكتاب: لا تقتل، ولا تسرق، ولا تزنِ... وانظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٦٣/ الإسراء١٠٤).

اجعله معي معينًا وردءًا ووزيرًا يساعدني ويعينني علىٰ أداء رسالِتكَ إليهم؛ فإنَّه أفصحُ مني لسانًا وأبلغ بيانًا. قال الله تعالىٰ مجيبًا له إلىٰ سؤالِهِ: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ [القصص: ٣٥]؛ أي: برهانًا. ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: ٣٥]؛ أي: فلا ينالون منكُما مكروهًا بسبب قيامِكُما ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [القصص: ٣٥]؛ **وقيل**: ببركةِ آياتنا. ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٣٥].

وقال في سورة طه: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾ [طه: ٢٤-٢٨]: **قيل**: إنَّه أصابه في لسانِهِ لَثْغَةٌ بسبب تلك الجمرةِ التي وَضَعها علىٰ لسانه، والتي كان فرعونُ أراد اختبارَ عقلِهِ حين أَخَذَ بلحيتِهِ وهو صغيرٌ، فهمَّ بقتلِهِ، فخافتْ عليه آسيةُ وقالتْ: إنه طفلٌ! فاختبرَهُ بوضع تمرةٍ وجمرةٍ بين يديهِ، فهمَّ بأخذِ التمرةِ، فصرفَ المَلَكُ يَدَه إلىٰ الجمرةِ، فأخَذَها، فوضعها علىٰ لسانِهِ، فأصابَهُ لَثْغَةٌ بسببها، فسأل زوالَ بعضِها بمقدارِ ما يفهمونَ قولَه ولم يسألْ زوالَها بالكلِّية. قال الحسن البصريُّ: والرسل إنَّما يسألونَ بحسبِ الحاجةِ. ولهٰذا بقيتْ في لسانِهِ بقيةٌ. ولهٰذا قال فرعونُ قبَّحه الله، فيما زَعَمَ أنَّه يَعيبُ به الكليمَ: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾؛ أي: يفصِحُ عن مرادِهِ، ويعبِّر عما في ضميره وفؤاده.

ثم قال موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه: ٢٩-٣٦]؛ أي: قد أَجَبْناك إلىٰ جميع ما سألتَ، وأعطيناكَ الذي طلبتَ. وهٰذا من وجاهتِهِ عند ربِّه عَزَّوَجَلَّ حين شَفَعَ أن يوحيَ الله إلىٰ أخيه فأوحىٰ إليه، وهٰذا جاهٌ عظيمٌ؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: ٦٩]. وقال تعالىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم: ٥٣]. وقد سمعت أمُّ المؤمنين عائشةُ رجلًا يقولُ لأناسٍ وهم سائرونَ في طريق الحجِّ: أيُّ أخ أمَنُّ علىٰ أخيه؟ فسكتَ القومُ، فقالتْ عائشةُ لِمَنْ حولَ هَوْدَجِها: هو موسىٰ بنُ عمرانَ حين شَفَعَ في أخيه هارونَ فأوحىٰ إليه؛ قالَ الله تعالىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم: ٥٣].

۞ [ما جاء في دعوة موسى وهارون لفرعون وجداله ومناظرته]:

وقال تعالىٰ في سورة الشعراء: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء: ١٠-٢٢].

تقديرُ الكلام: فأتَياه، فقالا له ذٰلك، وبلَّغاه ما أُرْسِلا به من: دعوتِهِ إلىٰ عبادةِ الله تعالىٰ وحدَه لا شريك له، وأن يفكَّ أسارىٰ بني إسرائيل من قبضتِهِ وقهرِهِ وسطوتِهِ ويتركَهم يعبُدونَ ربَّهم حيث شاؤوا ويتفرَّغون لتوحيدِهِ ودعائِهِ والتضرُّع لديهِ. فتكبَّر فرعونُ في نفسِهِ وعتا وطغىٰ، ونظر إلىٰ موسىٰ بعين الازدراءِ والتنقُّص قائلًا له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: أما أنتَ الذي ربَّيناه في منزلنا وأحْسَنَّا إليه وأنْعَمْنا عليه مدةً من الدَّهر؟! وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ فرعونَ الذي بُعِثَ إليه هو الذي فرَّ منه؛ خلافًا لِما عند **أهل الكتاب**[1]: من أنَّ فرعونَ الذي فرَّ منه مات في مدةِ مُقامِهِ بمدينَ وأنَّ الذي بُعِثَ إليه فرعونٌ آخرُ.

وقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾؛ أي: وقتلتَ الرجل القبطيَّ، وفَرَرْتَ منَّا، وجَحَدْتَ نعمتَنا. ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: قبل أن يوحىٰ إليَّ ويُنْزَلَ عليَّ. ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾.

ثم قال مجيبًا لفرعونَ عمَّا امتنَّ به من التربية والإحسانِ إليه: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: وهٰذه النعمة التي ذكرتَ من أنَّك أحسنتَ إليَّ وأنا رجلٌ واحدٌ من بني إسرائيل تقابِلُ ما استخدمتَ هٰذا الشعبَ العظيمَ بكمالِهِ واستعبدتَهم في أعمالِكَ وخدمتِكَ وأشغالِكَ. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٨]:

---

(١) انظر: «العهد القديم» (سفر الخروج/ الأصحاح٢).

يذكُرُ تعالىٰ ما كان بينَ فرعونَ وموسىٰ من المقاولةِ والمحاجَّة والمناظرةِ وما أقامه الكليمُ علىٰ فرعونَ اللئيم من الحجَّة العقليَّة المعنويَّة ثم الحسيَّة:

وذٰلك أنَّ فرعونَ -قبَّحه الله- أظهر جَحْدَ الصانع ﷻ، وزعمَ أنَّه الإلٰه، ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٣-٢٤]، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وهو في هٰذه المقالةِ معاندٌ؛ يعلمُ أنَّه عبدٌ مربوبٌ، وأنَّ الله هو الخالقُ البارئُ المصوِّرُ الإلٰه الحقُّ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤]، ولهٰذا قال لموسىٰ عليه السلام علىٰ سبيل الإنكارِ لرسالتِهِ والإظهارِ أنه ما ثَمَّ ربٌّ أرسلَه: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾؟! لأنهما قالا له: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾؛ فكأنَّه يقولُ لهُما: ومَنْ ربُّ العالمينَ الذي تزعُمان أنَّه أرسلكُما وابْتعثكُما؟

فأجابه موسىٰ قائلًا: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾؛ يعني: ربُّ العالمينَ خالقُ هٰذه السماواتِ والأرض المشاهَدَة وما بينهما من المخلوقات المتعدِّدة[1] من السَّحابِ والرِّياح والمطر والنَّباتِ والحيوانات، التي يعلمُ كلُّ موقنٍ أنَّها لم تَحْدُثْ بأنفسِها، ولابد لها من موجِدٍ ومحدثٍ وخالقٍ، وهو الله الذي لا إلٰه إلَّا هو رب العالمين.

﴿قَالَ﴾؛ أي: فرعونُ. ﴿لِمَنْ حَوْلَهُ﴾: من أمرائِهِ ومرازِبَتِهِ[2] ووزرائِهِ علىٰ سبيل التهكُّم والتنقُّص ما قرَّره موسىٰ عليه السلام: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾؛ يعني: كلامَه هٰذا!

﴿قَالَ﴾ موسىٰ مخاطبًا له ولهم: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: هو الذي خلقكُم والذين من قبلِكُم من الآباءِ والأجداد والقرون السالفةِ في الآباد، فإنَّ كلَّ أحدٍ يعلمُ أنَّه لم يخلُقْ نفسَه، ولا أبوه ولا أمُّه، ولا يحدُثْ من غير محدِثٍ، وإنَّما أوجدَه وخلقَه ربُّ العالمين.

وهٰذان المقامان هما المذكوران في قوله تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

ومع هٰذا كلِّه لم يستفقْ فرعونُ من رقدتِهِ، ولا نَزَعَ عن ضلالتِهِ، بل استمرَّ علىٰ طغيانِهِ وعنادِهِ وكفرانِهِ: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾.

(١) في نسخة: «المتجدِّدة».

(٢) المرازبة: جمع مَرْزُبان؛ كلمة فارسية. بمعني قائد أو رئيس.

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: هو المسخِّر لهٰذه الكواكب الزاهرة المسيِّرة للأفلاك الدائرة، خالق الظلام والضياء، وربُّ الأرض السماء، وربُّ الأولين والآخرين، خالقُ الشمس والقمر والكواكب السائرة والثوابت الحائرة، خالق الليل بظلامِهِ والنهار بضيائِهِ، والكلُّ تحت قهرِهِ وتسخيرِهِ وتسييره سائرون، وفي فلك يسبحون، يتعاقبون في سائر الأوقاتِ ويدورون؛ فهو تعالىٰ الخالقُ المالكُ المتصرِّف في خلقِهِ بما يشاء.

فلمَّا قامت الحججُ علىٰ فرعونَ وانقطعتْ شُبَهُهُ ولم يبقَ له قولٌ سوىٰ العناد؛ عَدَلَ إلىٰ استعمال سلطانِهِ وجاهِهِ وسطوتِهِ؛ ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٩-٣٣].

وهٰذان هما البرهانان اللّذان أيَّده الله بهما، وهما العصا واليدُ، وذٰلك مقامٌ أظهرَ فيه الخارقَ العظيمَ الذي بَهَرَ بِهِ العقولَ والأبصارَ، حين ألقىٰ عصاه؛ فإذا هي ثعبانٌ مبينٌ؛ أي: عظيمُ الشكل، بديعٌ في الضَّخامة والهول والمنظر العظيم الفظيع الباهرِ، حتىٰ قيل: إنَّ فرعونَ لمَّا شاهد ذٰلك وعايَنَه؛ أخذَهُ رَهَبٌ شديدٌ وخوفٌ عظيمٌ؛ بحيثُ إنَّه حَصَلَ له إسهالٌ عظيمٌ أكثرَ من أربعينَ مرةً في يوم، وكان قبل ذٰلك لا يتبرَّزُ في كلِّ أربعين يومًا إلَّا مرةً واحدةً، فانعكسَ عليه الحالُ! وهٰكذا لمَّا أدخلَ موسىٰ عليه السلام يَدَهُ في جيبِهِ واستخرَجها؛ أخرجَها وهي كفلقةِ القمرِ تتلألأ نورًا يبهرُ الأبصارَ؛ فإذا أعادها إلىٰ جيبِهِ واستخْرَجَها؛ رجعتْ إلىٰ صِفَتِها الأولىٰ.

ومع هٰذا كلِّه؛ لم ينتفعْ فرعونُ -لَعَنَهُ الله- بشيء من ذٰلك، بل استمرَّ علىٰ ما هو عليه، وأظهر أنَّ هٰذا كلَّه سحرٌ، وأراد معارضتَه بالسَّحرة، فأرسل يجمعُهم من سائر مملكتِهِ ومَن هم في رعيَّته وتحت قهرِهِ ودولتِهِ؛ كما سيأتي بسطُهُ وبيانُهُ في موضعِهِ من إظهارِ الله الحقَّ المبينَ والحجةَ الباهرةَ القاطعةَ علىٰ فرعون ومَلَئِهِ وأهل دولتِه وملَّتِهِ. ولله الحمد والمنة.

وقال تعالىٰ في سورة طه: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ

يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٠-٤٦].

يقول تعالىٰ مخاطبًا لموسىٰ فيما كلَّمه به ليلةَ أوحىٰ إليه وأنعم بالنبوَّةِ عليه وكلَّمه منه إليه: قد كنتُ مشاهدًا لك وأنت في دار فرعونَ، وأنت تحت كَنَفي وحفظي ولُطفي، ثم أخرجتُك من أرض مصر إلىٰ أرض مَدْيَنَ بمشيئتي وقُدرتي وتَدْبيري، فلبثتَ فيها سنينَ ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ أي: مني لذٰلك فوافَقَ ذٰلك تقديري وتسييري ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ أي: اصطفيتُك لنفسي؛ برسالتي وبكلامي. ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾؛ يعني: ولا تَفْتُرا في ذِكْري إذا قَدِمْتُما عليه ووفدتُما إليه؛ فإنَّ ذٰلك عونٌ لكُما علىٰ مخاطبتِهِ ومجاوبتِهِ وأداءِ[1] النصيحةِ إليه وإقامة الحجَّةِ عليه. وقد جاء في بعض الأحاديث: «**يقول الله تعالى: إنَّ عبدي كلَّ عبدي الذي يذكُرُني وهو ملاقٍ قِرْنَهُ**»[2]. وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥].

ثم قال تعالىٰ: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾: وهٰذا من حلمِهِ تعالىٰ وكرمِهِ ورأفتِهِ ورحمتِهِ بخلقِهِ، مع علمِهِ بكفر فرعونَ وعتوِّهِ وتجبرِهِ، وهو إذ ذاك أردىٰ خلقِهِ، وقد بعث إليه صفوتَهُ من خلقِهِ في ذٰلك الزمان، ومع هٰذا يقولُ لهما ويأمرُهما أن يدعُواه إليه بالتي هي أحسنُ برفقٍ ولينٍ، ويعامِلاه معاملةَ مَن يرجو أن يتذكَّر أو يخشىٰ؛ كما

(١) في نسخة: «وإهداء».

(٢) (ضعيف). رواه الترمذي (٤٩- الدعوات، ١١٩- باب، ٥/ ٥٧٠/ ٣٥٨٠) من طريق: أبي الوليد الدمشقي، ثنا الوليد بن مسلم، ثنا عفير بن معدان، سمع أبا دوس اليحصبي، يحدث عن ابن عائذ اليحصبي، عن عمارة بن زعكرة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله ﷻ يقول....**» فذكره.

عفير بن معدان: ضعيف. وعمارة بن زعكرة: له صحبة عند الأكثرين، وليس له إلا هٰذا الحديث، وقال ابن حبان: «يقال: إن له صحبة، وفي القلب منه شيء»؛ فالسند ضعيف.

والحديث قال البخاري: «لم يصح إسناده». وقال الترمذي: «غريب لا نعرفه إلا من هٰذا الوجه، ليس إسناده بالقوي، ولا نعرف لعمارة بن زعكرة عن النبي ﷺ إلا هٰذا الحديث الواحد». وقال ابن السكن: «لم يرو عنه غير حديث واحد، وفيه نظر». وذكره الذهبي في ما استنكر علىٰ عفير. وضعفه الألباني. وانظر: «الإصابة» (2/ ٥١٥)، و«تهذيب التهذيب» (٧/ ٣٦٥).

وأما قوله: «وهو ملاق قرنه»؛ فقال الترمذي: «يعني: عند القتال؛ يعني: أن يذكر الله في تلك الساعة».

قال لرسولِهِ: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. قال الحسن البصريُّ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾: أعذرا إليه؛ قولا له: إنَّ لك ربًّا، ولك مَعادًا، وإن بين يديك جنةً ونارًا. وقال وهب بن منبِّه: قولا له: إنِّي إلىٰ العفو والمغفرةِ أقربُ مني إلىٰ الغضبِ والعقوبةِ. قال يزيد الرَّقاشِيُّ عند هٰذه الآية: يا من يتحبَّب إلىٰ من يعاديه؛ فكيف بمن يتولَّاه ويناديه؟!

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾: وذٰلك أنَّ فرعون كان جبارًا عنيدًا وشيطانًا مريدًا، له سلطانٌ في بلادِ مصرَ طويلٌ عريضٌ، وجاهٌ وجنودٌ، وعساكرُ وسطوةٌ، فهاباه من حيث البشريَّة، وخافا أن يسطو عليهما في بادئ الأمر، فثبَّتهما تعالىٰ وهو العليُّ الأعلىٰ، فقال: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾؛ كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الشعراء: ١٥].

﴿ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [طه: ٤٧-٤٨]:

يذكُرُ تعالىٰ أنَّه أمَرَهما أن يذهبا إلىٰ فرعون فيدعواه إلىٰ الله تعالىٰ؛ أن يَعْبُدَهُ وحدَه لا شريك له، وأن يرسلَ معهُما بني إسرائيل ويطلِقَهم من أسرِهِ وقهرِهِ ولا يعذِّبهم.

﴿قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ﴾: وهو البرهانُ العظيم في العصا واليد. ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾: تقييدٌ مفيدٌ بليغٌ عظيمٌ. ثم تهدَّداه وتوعَّداه علىٰ التكذيبِ، فقالا: ﴿ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾؛ أي: كذَّب بالحق بقلبه، وتولَّىٰ عن العمل بقالبه.

وقد ذكر السُّدِّيُّ وغيرُه: أنَّه لمَّا قدم من بلاد مدينَ؛ دَخَلَ علىٰ أمه وأخيه هارون، وهما يتعشَّيان من طعام فيه الطفشيل (وهو اللفت)، فأكل معهما، ثم قال: يا هارونُ! إنَّ الله أمرني وأمرك أن ندعو فرعون إلىٰ عبادتِهِ؛ فقمْ معي! فقاما يقصدان بابَ فرعونَ؛ فإذا هو مغلقٌ، فقال موسىٰ للبوابينَ والحَجَبَةِ: أعلِموه أنَّ رسولَ الله بالبابِ. فجعلوا يسخرونَ منه ويستهزئون به! وقد زعم بعضُهم أنه لم يؤذنْ لهما عليه إلَّا بعد حينٍ طويل. وقال محمدُ بن إسحاقَ: أذِنَ لهما بعد سنتينِ؛ لأنَّه لم يكُ أحدٌ يتجاسَرُ علىٰ الاستئذانِ لهما. فالله أعلم. ويقالُ: إن موسىٰ تقدَّمَ إلىٰ الباب، فطَرَقَهُ بعصاه،

فانزعجَ فرعونُ، وأمر بإحضارِهما، فوقَفا بين يديه، فدَعَواه إلىٰ الله ﷻ كما أمرهما.

وعند أهل الكتاب[١]: أنَّ الله قال لموسىٰ ﵇: إنَّ هارونَ اللاَّويَّ (يعني: الذي من نسل لاوي بن يعقوب) سيخرجُ ويتلقَّاك. وأمَرَه أن يأخذَ معهُ مشايخَ بني إسرائيل إلىٰ عند فرعونَ، وأمره أن يُظْهِرَ ما آتاه من الآيات، وقال له: إني سأقسِّي قلبَهُ؛ فلا يرسِلُ الشَّعْبَ، وأكثِّرُ آياتي وأعاجيبي بأرض مصر. وأوحىٰ الله إلىٰ هارونَ أن يَخْرُجَ إلىٰ أخيه يتلقَّاه بالبريَّة عند جبل حوريبَ، فلمَّا تلقَّاه؛ أخبرَه موسىٰ بما أمره به ربُّه، فلمَّا دخلا مصر؛ جمعا شيوخَ بني إسرائيل، وذهبا إلىٰ فرعون، فلمَّا بلَّغاه رسالة اللهِ؛ قال: من هو اللهُ؟! لا أعرِفُه ولا أرسِلُ بني إسرائيل.

وقال الله مخبرًا عن فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾ [طه: ٤٩-٥٥].

يقول تعالىٰ مخبرًا عن فرعون أنَّه أنكر إثباتَ الصانع تعالىٰ قائلًا: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾؛ أي: هو الذي خَلَقَ الخَلْق، وقدَّر لهم أعمالًا وأرزاقًا وآجالًا، وكتب ذٰلك عنده في كتابه اللوح المحفوظِ، ثم هدىٰ كلَّ مخلوق إلىٰ ما قدَّره له، فطابق عملُهُ فيهم علىٰ الوجه الذي قدَّره وعَلِمَهُ لكمال علمِه وقدرتِه وقدرِه، وهٰذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلىٰ: ١-٣]؛ أي قدر قدرًا وهدىٰ الخلائق إليه. ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١﴾: يقول فرعون لموسىٰ: فإذا كان ربُّك هو الخالقَ المقدِّرَ الهاديَ الخلائق لِما قدَّره، وهو بهٰذه المثابة من أنه لا يستحقُّ العبادة سواه؛ فلم عَبَدَ الأولونَ غيرَه وأشركوا به من الكواكب والأندادِ ما قد علمتَ؟! فهلَّا اهتدىٰ إلىٰ ما ذكرتَه القرونُ الأولىٰ! ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾؛ أي: هم وإنْ عَبَدوا غيرَه؛ فليس ذٰلك بحجَّة لك، ولا يدلُّ علىٰ خلاف ما أقولُ؛ لأنَّهم جهلةٌ مثلُك، وكل شيء فعلوه مُسْتَطَرٌ عليهم في الزُّبر[٢] من صغير وكبير، وسيَجْزيهم علىٰ ذٰلك ربِّي ﷻ، ولا يظلمُ أحدًا مثقالَ

(١) في (سفر الخروج/ الأصحاح٤).

(٢) مستطر: مكتوب مسطر. الزبر: الكتب.

ذرَّة؛ لأن جميع أفعال العباد مكتوبةٌ عنده في كتاب لا يضلُّ عنه شيء ولا ينسىٰ ربِّي شيئًا.

ثم ذكر له عظمةَ الربِّ وقدرتَه علىٰ خَلْق الأشياء وجَعْلَه الأرض مهادًا والسماء سقفًا محفوظًا وتسخيرَهُ السحابَ والأمطار لرزق العبادِ ودوابِّهم وأنعامهم: كما قال: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾؛ أي: لذوي العقول الصحيحة المستقيمة والفطر القويمة غير السقيمة؛ فهو تعالىٰ الخالق الرَّازق. وكما قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

ولمَّا ذكر إحياءَ الأرض بالمطر، واهتزازها بإخراج نباتها فيه؛ نبَّه به علىٰ المعادِ، فقال: ﴿مِنْهَا﴾؛ أي من الأرض. ﴿خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾: كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧].

۞ [تكذيب فرعون بآيات ربه ومعارضته لها بالسحر]:

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه: ٥٦-٥٩].

يخبر تعالىٰ عن شقاء فرعونَ وكثرةِ جهلِهِ وقلةِ عقلِهِ؛ في تكذيبِهِ بآيات الله، واستكبارِهِ عن اتِّباعها، وقولِهِ لموسىٰ: إنَّ هٰذا الذي جئت به سحرٌ! ونحن نعارِضُك بمثلِهِ!! ثم طلب من موسىٰ أن يواعِدَه إلىٰ وقتٍ معلوم ومكانٍ معلوم، وكان هٰذا من أكبر مقاصدِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ أن يُظْهِرَ آياتِ الله وحججَه وبراهينَه جهرةً بحضرةِ الناس، ولهٰذا قال: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾: وكان يومَ عيدٍ من أعيادِهم ومجتمع لهم. ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾؛ أي: من أول النَّهار في وقت اشتدادِ ضياء الشمس، فيكونُ الحقُّ أظهرَ وأجلىٰ، ولم يطلبْ أن يكون ذٰلك ليلًا في ظلام كَيْما يروِّجَ عليهم محالًا وباطلًا، بل طَلَبَ أن يكونَ نهارًا جَهْرةً؛ لأنَّه علىٰ بصيرةٍ من ربِّه ويقينٍ بأنَّ الله سيظهِرُ كلمتَه ودينَه وإنْ رغمتْ أنوفُ القبطِ!

۞ [تفاصيل حادثة يوم الزينة وخبر سحرة فرعون]:

قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ [طه: ٦٠-٦٤].

يخبرُ تعالىٰ عن فرعونَ أنَّه ذهب فجمع من كان ببلادِهِ من السحرةِ، وكانت بلادُ مصر في ذٰلك الزمان مملوءةً سحرةً فضلاء في فنِّهم غايةً، فجمعوا له من كلِّ بلد ومن كلِّ مكان، فاجتمع منهم خلقٌ كثيرٌ وجمٌّ غفيرٌ، فقيل: كانوا ثمانين ألفًا. قاله محمد بن كعب. وقيل: سبعين ألفًا. قاله القاسم بن أبي بُردة. وقال السُّدِّيُّ: بضعة وثلاثين ألفًا. وعن أبي أمامة: تسعة عشر ألفًا. وقال محمد بن إسحاق: خمسة عشر ألفًا. وقال كعبُ الأحبار: كانوا اثني عشر ألفًا. وروىٰ ابن أبي حاتم[1] عن ابن عباس: كانوا سبعين رجلاً. ورُوي عنه أيضًا: أنهم كانوا أربعين غلامًا من بني إسرائيل، أمرهم فرعونُ أن يذهبوا إلىٰ العُرَفاء فيتعلَّموا السحرَ، ولهٰذا قالوا: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ [طه: ٧٣]. وفي هٰذا نظر. وحضر فرعونُ وأمراؤه وأهلُ دولته وأهل بلده عن بُكْرَةِ أبيهم، وذٰلك أنَّ فرعون نادىٰ فيهم أن يحضُروا هٰذا الموقفَ العظيم، فخرجوا وهم يقولون: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشعراء: ٤٠].

وتقدَّم موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ السَّحرة، فوعَظَهم، وزَجَرَهم عن تعاطي السِّحر الباطل الذي فيه معارضةٌ لآيات الله وحُجَجه، فقال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾[2].

﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾: قيل: معناه: أنهم اختلفوا فيما بينهم، فقائلٌ يقول: هٰذا كلام نبيٍّ وليس بساحرٍ! وقائلٌ منهم يقول: بل هو ساحرٌ! فالله أعلم. وأسرُّوا التَّناجي بهٰذا وغيره. ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾: يقولون: إنَّ هٰذا وأخاه هرون، ساحران عليمان مطبِقان متقِنان لهٰذه الصناعة، ومرادُهما أن يجتمعَ الناس عليهما ويَصولا علىٰ الملِكِ

---

(١) في «التفسير» (٧/ ٢٤٢٨/ ١٣٤٧٩).

(٢) ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾: يهلككم بعقوبة هلاكًا لا بقيَّة بعده.

وحاشيته، ويستأصلاكم عن آخركم، ويستأمِرا عليكم بهٰذه الصناعة. ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ۝٦٤﴾: وإنَّما قالوا الكلامَ الأوَّل ليتدبَّروا ويتواصَوْا ويأتوا بجميع ما عندهم من المكيدة والمَكْر والخَديعة والسِّحر والبُهتان. وهيهات! كذبتْ والله الظُّنونُ وأخطأتِ الآراءُ، أنَّىٰ يعارِضُ البهتان، والسحرُ والهذَيان، خوارقَ العادات التي أجراها الدَّيَّان، علىٰ يدي عبده الكليم ورسولِهِ الكريم المؤيَّدِ بالبرهان، الذي يبهَرُ الأبصارَ وتحار فيه العقولُ والأذهان؟! وقولهم: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾؛ أي: جميعَ ما عندكم. ﴿ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ﴾؛ أي: جملةً واحدةً. ثم حَضُّوا بعضُهم بعضًا علىٰ التقدُّم في هٰذا المقام؛ لأنَّ فرعون كان قد وَعَدَهم ومنَّاهم، وما يعِدُهُم الشيطانُ إلَّا غرورًا.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ۝٦٦ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٦٨ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ۝٦٩﴾ [طه: ٦٥-٦٩].

لمَّا اصطفَّ السَّحرة ووقف موسىٰ وهارونُ عليهما السلام تُجاهَهم؛ قالوا له: إمَّا أنْ تلقيَ قبلنا، وإمَّا أن نلقيَ قبلَك ﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ﴾: أنتم.

وكانوا قد عَمَدوا إلىٰ حبال وعِصِيٍّ، فأودعوها الزئبقَ وغيرَه من الآلات التي تضطربُ بسببها تلك الحبالُ والعِصِيُّ اضطرابًا يُخَيِّلُ للرائي أنَّها تسعىٰ باختيارها، وإنَّما تتحرَّكُ بسبب ذٰلك؛ فعند ذٰلك سَحَروا أعيُنَ الناس واسترْهبوهم، وألقَوْا حبالهم وعِصِيَّهم، وهم يقولون: ﴿بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ۝٤٤﴾ [الشعراء: ٤٤]! قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ۝١١٦﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ۝٦٦﴾.

﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ۝٦٧﴾؛ أي: خاف علىٰ الناس أن يَفْتَتِنوا بسحرِهم ومُحالِهم قبل أن يُلْقِيَ ما في يده؛ فإنَّه لا يصنعُ شيئًا قبل أن يُؤْمَرَ. فأوحىٰ الله إليه في الساعةِ الراهنةِ: ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٦٨ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ۝٦٩﴾: فعند ذٰلك ألقىٰ موسىٰ عصاه، وقال: ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ

لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس: ٨١-٨٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١١٧-١٢٢].

وذٰلك أنَّ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمَّا ألقاها؛ صارت حيَّةً عظيمةً ذاتَ قوائمَ -فيما ذكَرَهُ غيرُ واحدٍ من علماء السلف- وعُنُقٍ عظيم وشكل هائل مزعج؛ بحيثُ إنَّ الناس انحازوا منها وهربوا سِراعًا، وتأخَّروا عن مكانها، وأقبلتْ هي علىٰ ما ألقَوْه من الحبال والعِصِيِّ، فجعلتْ تَلْقَفُهُ واحدًا واحدًا في أسرع ما يكونُ من الحركة، والناس ينظُرون إليها ويتعجَّبون منها!

وأمَّا السَّحرةُ؛ فإنَّهم رأوا ما هالهم وحيَّرهم في أمرهم، واطَّلعوا علىٰ أمرٍ لم يكنْ في خَلَدِهِم ولا بالهم ولا يدخُلُ تحت صناعاتهم وأشغالهم؛ فعند ذٰلك وهنالك تحقَّقوا بما عندَهم من العلم أنَّ هٰذا ليس بسحرٍ ولا شعوذةٍ(١)، ولا مُحال ولا خَيال، ولا زورٍ ولا بهتانٍ ولا ضلال، بل حقٌّ لا يقدِرُ عليه إلَّا الحقُّ، الذي ابْتَعَثَ هٰذا المؤيَّدَ به بالحقِّ، وكشف الله عن قلوبهم غِشاوة الغفلة، وأنارها بما خلق فيها من الهُدىٰ وأزاح عنها القسوة، وأنابوا إلىٰ ربِّهم وخرُّوا له ساجدين، وقالوا جَهْرَةً للحاضرين، ولم يخشَوْا عقوبةً ولا بَلوىٰ: آمَنَّا بربِّ موسىٰ وهارون؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه: ٧٠].

﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه: ٧١-٧٦].

قال سعيد بن جُبير وعِكرمةُ والقاسمُ بن أبي بُردة والأوزاعيُّ وغيرهم: لمَّا سجد

---

(١) في نسخة: «شعبذة». وكلاهما صحيح.

السحرةُ؛ رأوا منازِلَهم وقصورهم في الجنة تُهَيَّأُ لهم وتُزَخْرَفُ لقدومهم، ولهٰذا لم يلتفِتوا إلىٰ تهويل فرعون وتهديده ووعيده.

وذٰلك لأنَّ فرعون لمَّا رأىٰ هٰؤلاء السحرةَ قد أسلموا وأشهروا ذِكْر موسىٰ وهارونَ في الناس علىٰ هٰذه الصفة الجميلة؛ أفزَعَهُ ذٰلك، ورأىٰ أمرًا بَهَرَه وأعمىٰ بصيرتَهُ وبصرَه، وكان فيه كيدٌ ومَكْرٌ وخِداعٌ وصنعةٌ بليغةٌ في الصَّدِّ عن سبيل الله، فقال مخاطبًا السحرةَ بحضرة الناس: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؛ أي: هلَّا شاوَرْتُموني فيما صنعتُم من الأمر الفظيع بحضرة رعيَّتي! ثم تهدَّد وتوعَّد، وأبرق وأرعد، وكذَّب فأبعد؛ قائلًا: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾، وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأعراف: ١٢٣].

وهٰذا الذي قاله من البُهتان، الذي يعلمُ كلُّ فردٍ عاقل ما فيه من الكفر والكَذِب والهَذَيان، بل لا يَروج مثلُهُ علىٰ الصِّبيان؛ فإنَّ الناس كلَّهم من أهل دولتِهِ وغيرهم يعلمون أنَّ موسىٰ لم يَرَهُ هٰؤلاء يومًا من الدَّهر؛ فكيف يكونُ كبيرُهم الذي علَّمهم السِّحْر؟! ثم هو لم يجمعْهم ولا عَلِمَ باجتماعهم، حتَّىٰ كان فرعونُ هو الذي استَدْعاهم واجْتَباهم، من كلِّ فجٍّ عميق ووادٍ سَحيق، من حواضر بلادِ مصر والأطراف ومن المدنِ والأرياف.

قال الله تعالىٰ في سورة الأعراف: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ
فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ
عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ
جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ
بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ
ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾
قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ
ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ
مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ

سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ
إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ
ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا
رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف: ١٠٣-١٢٦].

وقال تعالىٰ في سورة يونس: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا
فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ
لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا
ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ
لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ
عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس: ٧٥-٨٢].

وقال تعالىٰ في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ
جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ
يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم
بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ
عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن
كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا
لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ
أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء: ٢٩-٥١].

والمقصودُ: أنَّ فرعون كذَّب وافترىٰ وكَفَرَ غايةَ الكفر في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ

ٱلسِّحۡرَۗ﴾ [طه: ٧١]، وأتىٰ ببهتانٍ يعلمُه العالِمون بل العالَمون في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ١٢٣﴾ [الأعراف: ١٢٣].

وقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾ [الشعراء: ٤٩]؛ يعني: يقطعُ اليدَ اليمنىٰ والرجلَ اليسرىٰ وعكسه. ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٩﴾ [الشعراء: ٤٩]؛ أي: ليجعلنَّهم مُثلةً ونكالًا لئلَّا يقتديَ بهم أحدٌ من رعيَّته وأهل ملَّته، ولهٰذا قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه: ٧١]؛ أي: علىٰ جذوع النخل؛ لأنَّها أعلىٰ وأشهر. ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ٧١﴾ [طه: ٧١]؛ يعني: في الدنيا.

﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [طه: ٧٢]؛ أي: لن نطيعَك ونترك ما وَقَرَ في قلوبنا من البيِّنات والدَّلائل القاطعات. ﴿وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ﴾ [طه: ٧٢]: **قيل**: معطوف، **وقيل**: قسم. ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ [طه: ٧٢]؛ أي: فافعل ما قَدَرْتَ عليه. ﴿إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢﴾ [طه: ٧٢]؛ أي: إنما حكمُك علينا في هٰذه الحياة الدنيا؛ فإذا انتقَلْنا منها إلىٰ الدار الآخرة؛ صِرْنا إلىٰ حكم الذي أسلَمْنا له واتَّبعنا رسله. ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ٧٣﴾ [طه: ٧٣]؛ أي: ثوابه خيرٌ مما وَعَدْتنا به من التقريب والترغيب. ﴿وَأَبۡقَىٰٓ ٧٣﴾؛ أي: وأدوم من هٰذه الدار الفانية.

وفي الآية الأخرىٰ: ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ٥٠ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ [الشعراء: ٥٠-٥١]؛ أي: ما اجْترَمْناهُ من المآثم والمحارم. ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥١﴾ [الشعراء: ٥١]؛ أي: من القبط، بموسىٰ وهارون عليهما السلام.

وقالوا له أيضًا: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦﴾ [الأعراف: ١٢٦]؛ أي: ليس لنا عندك ذنبٌ إلَّا إيمانُنا بما جاءنا به رسولُنا واتباعُنا آياتِ ربِّنا لمَّا جاءتنا. ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ [الأعراف: ١٢٦]؛ أي: ثبِّتْنا علىٰ ما ابْتُلينا به من عقوبة هٰذا الجبار العنيد، والسلطان الشديد، بل الشيطان المريد، وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ.

وقالوا أيضًا يعظونه ويخوِّفونه بأس ربِّه العظيم: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤﴾ [طه: ٧٤]: يقولون له: فإياك أن تكون منهم. فكان منهم! ﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ٧٥﴾ [طه: ٧٥]؛ أي: المنازل العالية. ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ

خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه: ٧٦]: فاحرص أن تكون منهم. فحالت بينه وبين ذٰلك الأقدارُ التي لا تغالَب ولا تمانَع، وحكمُ العليِّ العظيم؛ بأنَّ فرعونَ لَعَنَهُ الله من أهل الجحيم؛ لِيباشرَ العذاب الأليم؛ يُصبُّ من فوق رأسِهِ الحميم، ويقال له علىٰ وجه التقريع والتوبيخ وهو المقبوح المنبوح والذَّميم اللئيم: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٩].

والظاهرُ من هٰذه السياقات أنَّ فرعونَ لَعَنَهُ الله صَلَبَهُمْ وعذَّبهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ؛ قال عبد الله بن عباس وعُبيد بن عُمير: كانوا [من] أول النهارِ سحرةً، فصاروا من آخرِهِ شهداءَ بررةً! ويؤيِّد هٰذا قولُهم: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف: ١٢٦].

۞ فصل [في تحريض كبراء القبط لفرعون على أذيَّة موسى وقومه]:

ولمَّا وقعَ ما وقع من الأمر العظيم، وهو الغَلْبُ الذي غُلِبَتْهُ القِبْطُ في ذٰلك الموقف الهائل، وأسلم السحرةُ الذين استنصروا بهم؛ لم يزِدْهُم ذٰلك إلا كفرًا وعنادًا وبعدًا عن الحقِّ.

قال الله تعالىٰ بعد قَصِّ ما تقدَّم في سورة الأعراف: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٢٧-١٢٩].

يخبر تعالىٰ عن الملإِ من قوم فرعون -وهم الأمراءُ والكبراءُ- أنَّهم حرَّضوا مَلِكَهم فرعونَ علىٰ أذيَّة نبيِّ الله موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ومقابلتِهِ -بدل التصديق بما جاء به- بالكفرِ والردِّ والأذىٰ؛ قالوا: (أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَإِلٰهَتَكَ)؛ يعنون قبَّحهم الله أنَّ دعوتَه إلىٰ عبادة الله وحدَه لا شريك له والنهيَ عن عبادةِ ما سواه فسادٌ بالنسبة إلىٰ اعتقاد القِبْط لعنهم اللهُ! وقرأ بعضهم: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾؛ أي: وعبادتك، ويَحْتَمِلُ شيئين: **أحدُهما**: ويَذَرُ دينك. وتقوِّيه القراءةُ الأخرىٰ. **والثاني**: ويَذَرُ أن يعبُدَكَ؛ فإنَّه كما يزعُمُ أنه إلٰهٌ لعنه الله. ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾؛ أي: لئلَّا يكثُرَ مقاتلتُهم. ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾؛ أي: غالبون.

و﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ۖ﴾؛ أي: إذا هُم همُّوا بأذيَّتِكُم والفتكِ بكم؛

فاستعينوا أنتم بربِّكم واصبروا علىٰ بليَّتكم. ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾؛ أي: فكونوا أنتم المتَّقين؛ لِتكونَ لكم العاقبةُ؛ كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝٨٤ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٨٦﴾ [يونس: ٨٤-٨٦].

وقولهم: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾؛ أي: قد كانتِ الأبناءُ تقتَّلُ قبلَ مجيئِكَ وبعد مجيئكَ إلينا. ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝١٢٩﴾.

وقال الله تعالىٰ في سورة حمَ المؤمن: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٩٦ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٢٤﴾ [غافر: ٢٣-٢٤]: وكان فرعونُ الملكَ وهامانُ الوزيرَ، وكان قارونُ إسرائيليًّا من قوم موسىٰ؛ إلا أنَّه كان علىٰ دين فرعون ومَلَئِهِ، وكان ذا مال جزيل جدًّا؛ كما ستأتي قصَّتُهُ فيما بعدُ إنْ شاء الله تعالىٰ.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ۝٢٥﴾ [غافر: ٢٥]: وهٰذا القتلُ للغِلْمان من بعد بعثة موسىٰ إنَّما كان علىٰ وجه الإهانة والإذلال والتقليل لملإٍ بني إسرائيل، لئلَّا يكونَ لهم شوكةٌ يمتنِعون بها، ويصولونَ علىٰ القِبْطِ بسببها، وكانت القِبْطُ منهم يحذرون، فلم ينفعْهُم ذٰلك ولم يردَّ عنهم قَدَرَ الذي يقول للشيء: كنْ! فيكون.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ۝٢٦﴾ [غافر: ٢٦]: ولهٰذا يقولُ الناس علىٰ سبيل التهكُّم: صار فرعون مذكِّرًا[1]! وهٰذا منه؛ فإنَّ فرعونَ في زعمه خافَ علىٰ الناس أن يُضِلَّهم موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ!

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝٢٧﴾ [غافر: ٢٧]؛ أي: عذتُ باللهِ ولجأتُ إليه واستجرتُ بجنابِهِ من أن يسطوَ فرعونُ وغيرُه عليَّ بسوء. وقوله: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾؛ أي: جبارٍ عنيدٍ لا يرعوي ولا ينتهي ولا يخاف عذابَ الله وعقابَه؛ لأنَّه لا يعتقدُ معادًا ولا جزاءً، ولهٰذا قال: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝٢٧﴾.

---

(١) كأنه من الأمثال الشعبية التي تضرب للمجرم يتصنَّع الصلاح.

[ما جاء من خبر مؤمن آل فرعون وموعظته لقومه]:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [غافر: ٢٨-٢٩].

وهٰذا الرجل هو ابنُ عمِّ فرعون، وكان يكتُمُ إيمانَه من قومه خوفًا منهم علىٰ نفسه، وزعمَ بعضُ الناس أنَّه كان إسرائيليًّا! وهو بعيدٌ ومخالفٌ لسياق الكلام لفظًا ومعنىٰ. والله أعلم. قال ابن جُرَيْج: قال ابن عباس: لم يؤمنْ من القِبْطِ بموسىٰ إلَّا هٰذا والذي جاء من أقصىٰ المدينة وامرأة فرعون. رواه ابن أبي حاتم[1]. وقال الدارقطني: لا يُعْرَفُ مَن اسمُهُ شمعانُ -بالشين المعجمة- إلاَّ مؤمنُ آل فرعون. حكاه السُّهيليُّ. وفي «تاريخ الطبري»[2]: أنَّ اسمه حبرك[3]. فالله أعلم.

والمقصود: أن هٰذا الرجل كان يكتُمُ إيمانَه، فلما همَّ فرعونُ لعنه الله بقَتْل موسىٰ عليه السلام وعَزَمَ علىٰ ذٰلك وشاوَرَ ملأه فيه؛ خافَ هٰذا المؤمنُ علىٰ موسىٰ، فتلطَّف في ردِّ فرعونَ بكلامٍ جَمَعَ فيه الترغيبَ والترهيبَ، فقال علىٰ وجه المشورة والرأي -وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أفضلُ الجهاد كلمةُ عَدْل عند سلطان جائر**»[4]، وهٰذا من أعلىٰ مراتب

---

(١) في «التفسير» (١٠/ ٣٢٦٦/ ١٨٤٣١).

(٢) في جميع الأصول: «تاريخ الطبراني»! وما علمت للطبراني تاريخًا!!

(٣) في جميع الأصول: «خير»، وما أثبتُّه من «تاريخ الطبري» (١/ ٢٤٢). وذكر في اسمه غير ذلك. ولست أدري والله كيف توصلوا إلىٰ معرفة اسم الرجل ثم اختلفوا فيه؛ وهو مما لا علم لأهل الكتاب به ولا خبر؟!

(٤) (**حسن صحيح**). رواه: ابن ماجه (٣٦- الفتن، ٢٠-الأمر بالمعروف، ٢/ ١٣٢٩/ ٤٠١١)، وأبو داوود (٣١-الملاحم، ١٧-الأمر والنهي، ٢/ ٥٢٧/ ٤٣٤٤)، والترمذي (٣٤-الفتن، ١٣-أفضل الجهاد، ٤/ ٤٧١/ ٢١٧٤)؛ من طريقين عن إسرائيل، عن محمد بن جحادة، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد... به.
قال الترمذي: «حسن غريب من هٰذا الوجه». وعطية ضعيف.
لٰكن رواه: أحمد (٣/ ١٩و٦١)، والحاكم (٤/ ٥٠٥)؛ من طريق علىٰ بن زيد بن جدعان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد.... به. وقال الحاكم: «لم يحتجا بعلي بن زيد». وقال الذهبي: «هو صالح الحديث». قلت: يعني في المتابعات.
فالحديث حسن بمجموع طريقيه إن شاء الله، ثم له شواهد أخرىٰ من حديث أبي أمامة وطارق بن شهاب =

هٰذا المقام؛ فإنَّ فرعونَ لا أشدَّ جَوْرًا منه! وهٰذا الكلامُ لا أعدلَ منه! لأنَّ فيه عصمةُ نبيٍّ -، ويُحتمل أنَّه كاشَفَهم[1] بإظهار إيمانه، وصرَّح لهم بما كان يكتُمُه. والأول أظهر. والله أعلم.

قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: من أجل أنَّه قال: ربِّي الله؟! فمثل هٰذا لا يُقابَلُ بهٰذا، بل بالإكرام والاحترام والموادعة وترك الانتقام؛ يعني: لأنه ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: بالخوارق التي دلَّت علىٰ صدقه فيما جاء به عمَّن أرسله؛ فهٰذا إن وادَعْتُموه، كنتُم في سلامة؛ لأنَّه ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾: ولا يضرُّكم ذٰلك. ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾: وقد تعرضتم له. ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾؛ أي: وأنتم تشفِقون أن ينالكم أيسرُ جزاءٍ ممَّا يتوعَّدكم به؛ فكيف بكم إن حلَّ جميعُه عليكم؟! وهٰذا الكلام في هٰذا المقام، من أعلىٰ مقامات التلطُّف والاحتراز والعقل التامِّ.

وقوله: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يحذِّرُهم أنْ يُسْلَبوا هٰذا الملك العزيز؛ فإنَّه ما تعرَّضت الدولُ للدِّين إلَّا سُلِبوا مُلكَهم وذَلُّوا بعد عزِّهم[2].

وكذا وقع لآل فرعون؛ ما زالوا في شكٍّ ورَيْبٍ ومخالفةٍ ومعاندةٍ لِما جاءهم موسىٰ به؛ حتىٰ أخرجهم اللهُ ممَّا كانوا فيه من المُلكِ والأملاكِ والدُّور والقصور والنِّعمة والحُبور، ثم حُوِّلوا إلىٰ البحرِ مهانين، ونُقِلَتْ أرواحُهم بعد العلوِّ والرِّفعة إلىٰ أسفل السافلين. ولهٰذا قال هٰذا الرجلُ المؤمنُ المصدِّقُ البارُّ الراشدُ التَّابعُ للحقِّ الناصحُ لقومه الكاملُ العقل: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: عالين علىٰ الناس حاكمين عليهم. ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾؛ أي: لو كنتُم أضعاف ما أنتُم فيه من العدد والعُدَّة، والقوَّةِ والشدَّة؛ لَما نَفَعَنا ذٰلك، ولا ردَّ عنا بأسَ مالك الممالك.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾؛ أي: في جوابِهِ هٰذا كلِّه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾؛ أي: ما أقولُ لكم إلَّا ما عندي. ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾: وكذب في كلٍّ من هٰذين القولين وهاتين المقدمتين:

= وجابر بن عبد الله والزهري مرسلًا، وقد فصل الألباني فيها في «الصحيحة» (١/ ٨٨٦/ ٤٩١)، وخلص إلىٰ صحة الحديث.

(١) في نسخة: «كاشرهم».

(٢) وانظر حال دول المسلمين اليوم؛ تر ما يصدق هٰذا كل التصديق. وإنا لله.

فإنَّه قد كان يتحقَّق في باطنه وفي نفسه أنَّ هٰذا الذي جاء به موسىٰ من عند الله لا محالةَ، وإنَّما كان يُظْهِرُ خلافَه بغيًا وعُدوانًا وعتوًّا وكفرانًا: قال الله تعالىٰ إخبارًا عن موسىٰ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢-١٠٤]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٣-١٤].

وأما قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾؛ فقد كذب أيضًا؛ فإنَّه لم يكن علىٰ رشادٍ من الأمر، بل كان علىٰ سَفَهٍ وضلال، وخَبَل وخيال، فكان أولًا ممَّن يعبدُ الأصنام والأمثال، ثم دعا قومَهُ الجهلةَ الضُّلَّال، إلىٰ أنِ اتَّبعوه وطاوعوه وصدَّقوه فيما زَعَمَ من الكفر والمُحال، في دعواه أنَّه ربٌّ، تعالىٰ اللهُ ذو الجلال!

قال الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف: ٥١-٥٦].

وقال تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات: ٢٠-٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ [هود: ٩٦-٩٩].

والمقصود بيانُ كذبِهِ في قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ وفي قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ

ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٣٠-٣٥].

يحذِّرُهم وليُّ الله إن كذَّبوا برسول الله موسىٰ أن يَحِلَّ بهم ما حلَّ بالأمم من قبلِهم من النِّقْمات والمَثُلات، ممَّا تواتر عندَهم وعند غيرهم، ممَّا حلَّ بقوم نوح وعادٍ وثمودَ ومَنْ بعدَهم إلىٰ زمانهم ذٰلك، ممَّا أقام [اللهُ] به الحُجَجَ علىٰ أهل الأرض قاطبةً في صدقِ ما جاءتْ به الأنبياء؛ لِما أنزلَ من النقمةِ بمكذِّبيهم من الأعداء، وما أنجىٰ اللهُ مَنِ اتَّبَعَهم من الأولياء. وخوَّفهم يومَ القيامة، وهو يوم التَّناد؛ أي: حين يُنادي الناسُ بعضُهم بعضًا، حين يُوَلُّونَ إن قَدَروا علىٰ ذٰلك، ولا إلىٰ ذٰلك سبيلًا: ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ [القيامة: ١٠-١٢](١)، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرحمٰن: ٣٣-٣٦](٢). وقرأ بعضهم: (يَوْمَ التَّنَادِّ)؛ بتشديد الدَّال؛ أي: يوم الفرار. ويُحتمل أن يكون يومَ القيامة، ويُحتمل أن يكون يومَ يُحِلُّ الله بهم البأسَ، فيَوَدُّون الفرارَ، ولاتَ حين مَناص: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٢-١٣].

ثم أخبرهم عن نبوَّة يوسُفَ في بلاد مصر، وما كان منه من الإحسان إلىٰ الخَلْقِ في دُنياهم وأخراهم، وهٰذا من سلالتِهِ وذُرِّيَّته، ويدعو الناس إلىٰ توحيد الله وعبادته، وألَّا يشركوا به أحدًا من بريَّته، وأخبر عن أهل الديار المصريَّة في ذٰلك الزمان، وأن من سَجِيَّتِهم التكذيبَ بالحقِّ ومخالفةَ الرسل، ولهٰذا قال: ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾؛ أي: وكذبتم في هٰذا، ولهٰذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ﴾؛ أي: يردُّون حُجَجَ الله وبراهينه ودلائلَ توحيدِهِ

---

(١) ﴿لَا وَزَرَ﴾: لا مكان تعتصمون به ولا ملجأ تلجؤون إليه.

(٢) ﴿تَنفُذُواْ﴾: تهربوا؛ يعني: من قدر الله وحكمه. ﴿شُوَاظٞ﴾: ألسنة اللهب.

بلا حُجَّةٍ ولا دليل عندَهم من الله؛ فإنَّ هٰذا أمرٌ يمقُتُه الله غايةَ المَقْت؛ أي: يبغِضُ من تلَبَّس به من الناس ومن اتَّصف به من الخلق، ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝٣٥﴾: قرِئ بالإضافة وبالنعت[1]، وكلاهما متلازمٌ؛ أي: هٰكذا؛ إذا خالفتِ القلوبُ الحقَّ -ولا تخالِفُه إلاَّ بلا برهانٍ-؛ فإنَّ الله يَطْبَعُ عليها؛ أي: يختِمُ عليها بما فيها.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ۝٣٧﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

كذَّبَ فرعونُ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعواه أنَّ الله أرسله، وزعم فرعونُ لقومِهِ ما كذَّبه وافتراه في قوله لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣٨﴾ [القصص: ٣٨]، وقال هاهُنا: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ أي: طرقها ومسالكها. ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ﴾: ويَحْتَمِلُ هٰذا معنيين:

أحدهما: وإني لأظنُّه كاذبًا في قوله: إنَّ للعالم ربًّا غَيْري.

والثاني: في دعواه أنَّ الله أرسله.

والأولُ أشبهُ بظاهر حال فرعون؛ فإنَّه كان يُنْكِرُ ظاهرًا إثباتَ الصانع، والثاني أقربُ إلىٰ اللفظ؛ حيث قال: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾؛ أي: فأسأله هل أرسله أم لا؟ ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ﴾؛ أي: في دعواه ذٰلك. وإنَّما كان مقصودُ فرعون أن يصدَّ الناس عن تصديق موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأن يحثَّهم علىٰ تكذيبِهِ.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ وقُرِئَ: ﴿وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾. ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ۝٣٧﴾: قال ابن عباس ومجاهد: يقول: إلَّا في خسارٍ. أي: باطل، لا يحصلُ له شيءٌ من مقصودِهِ الذي رامه؛ فإنَّه لا سبيل للبشر أن يتوصَّلوا بقُواهم إلىٰ نيل السماءِ أبدًا؛ أعني: السماءَ الدنيا؛ فكيف بما بعدها من السماواتِ العُلىٰ وما فوق ذٰلك من الارتفاع الذي لا يعلمه إلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ؟

(١) قراءة الإضافة: ﴿قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾؛ بكسرة واحدة. وقراءة النعت: (قلبٍ متكبِّرٍ)؛ بكسرتين.

وذكر غيرُ واحدٍ من المفسِّرين أنَّ هٰذا الصَّرْحَ -وهو القصرُ الذي بناه وزيرُهُ هامانُ له- لم يُرَ بناءٌ أعلىٰ منه، وأنَّه كان مبنيًّا من الآجرِّ المشويِّ بالنار، ولهٰذا قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ [القصص: ٣٨].

وعند أهل الكتاب[١]: أنَّ بني إسرائيل كانوا يُسَخَّرون في ضَرْبِ اللَّبِنِ، وكان ممَّا حُمِّلوا من التكاليفِ الفرعونيَّةِ أنَّهم لا يساعَدون علىٰ شيءٍ ممَّا يحتاجون إليه فيه، بل كانوا هم الذين يجمعونَ ترابَهُ وتِبْنَهُ وماءَه، ويُطْلب منهم كلَّ يوم قسطٌ معيَّنٌ؛ إنْ لم يفعلوه؛ ضُرِبوا[٢] وأهينوا غايةَ الإهانةِ وأُوذوا غايةَ الأذيَّةِ، ولهٰذا قالوا لموسىٰ: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٢٩]: فوعدهم بأنَّ العاقبةَ لهم علىٰ القِبْطِ، وكذٰلك وقع، وهٰذا من دلائل النبوَّةِ.

ولنرجع إلى نصيحة المؤمن وموعظتِهِ واحتجاجِهِ:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: ٣٨-٤٠].

يدعوهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلىٰ طريق الرشادِ الحقِّ[٣]، وهي متابعةُ نبيِّ الله موسىٰ وتصديقُهُ فيما جاء به من عند ربِّه، ثم زهَّدهم في الدُّنيا الدَّنِيَّةِ الفانيةِ المنقضيةِ لا محالةَ، ورغَّبهم في طلب الثوابِ عندَ الله، الذي لا يضيعُ عملُ عاملٍ لديه، القديرِ الذي مَلَكوتُ كلِّ شيءٍ بيديه، الذي يُعطي علىٰ القليل كثيرًا، ومن عدلِهِ لا يجازي علىٰ السيِّئةِ إلَّا مثلَها، وأخبرهم أنَّ الآخرةَ هي دارُ القرار، التي مَنْ وافاها مؤمنًا قد عمل الصالحات؛ فله الدرجاتُ[٤] العاليات، والغرفُ الآمنات، والخيراتُ الكثيرةُ الفائقات، والأرزاقُ الدائمةُ التي لا تَبيد، والخيرُ الذي كلُّ ما لهم منه في مَزيد.

ثم شَرَعَ في إبطال ما هم عليه وتخويفهم ممَّا يصيرون إليه، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ

(١) في (سفر الخروج/ الأصحاح٥)

(٢) في نسخة: «وإلا ضربوا»!

(٣) يعني: لا طريق الرشاد الفرعوني!

(٤) في نسخة: «الجنات».

إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤١-٤٦].

كان يدعوهم إلىٰ عبادة ربِّ السماوات والأرضِ الذي يقولُ للشيء: كُنْ! فيكون، وهم يدعونَهُ إلىٰ عبادةِ فرعونَ الجاهل الضالِّ الملعون، ولهٰذا قال لهم علىٰ سبيل الإنكار: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾.

ثم بيَّنَ لهم بطلانَ ما هم عليه من عبادةِ ما سوىٰ اللهِ من الأندادِ والأوثان، وأنَّها لا تملكُ من نفع ولا إضرار، فقال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾؛ أي: لا تملك تصرُّفًا ولا حُكمًا في هٰذه الدار؛ فكيف تملِكُه يوم القَرار؟! وأمَّا الله ﷻ؛ فإنَّه الخالق الرازق للأبرارِ والفُجَّار، وهو الذي أحيا العبادَ ويميتُهم ويبعثُهم، فيُدْخِلُ طائِعَهم الجنةَ، وعاصِيَهم إلىٰ النار.

ثم توعَّدَهم إن همُ استمرُّوا علىٰ العناد بقوله: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾. قال الله: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ﴾؛ أي: بإنكارِهِ سَلِمَ ممَّا أصابَهم من العقوبةِ؛ علىٰ كفرِهم باللهِ، ومكرِهم في صدِّهم عن سبيل الله، ممَّا أظهروا للعامَّةِ من الخيالات والمُحالات، التي لَبَّسوا(١) بها علىٰ عوامِّهم وطَغامِهم، ولهٰذا قال: ﴿وَحَاقَ﴾؛ أي: أحاط. ﴿بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ﴾؛ أي: تُعْرَضُ أرواحُهم في بَرْزَخِهِم صباحًا ومساءً علىٰ النار. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾: وقد تكلَّمْنا علىٰ دلالةِ هٰذه الآية علىٰ عذاب القبر في «التفسير». ولله الحمد.

---

(١) في نسخة: «ألبسوا».

۞ [استكبار آل فرعون وكفرهم مع تتالي الآيات البينات عليهم]:

والمقصودُ: أنَّ الله تعالىٰ لم يُهْلِكْهم إلا بعد إقامة الحجج عليهم، وإرسالِ الرسولِ إليهم، وإزاحةِ الشُّبَهِ عنهم، وأخذ الحُجَّةِ عليهم منهم؛ بالترهيبِ تارةً والترغيبِ أخرىٰ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣٣].

يخبر تعالىٰ أنه ابتلىٰ آل فرعون- وهم قومُهُ من القِبْطِ-بالسنين وهي أعوام الجَدْب التي لا يُسْتَغَلُّ فيها زرع ولا يُنْتَفَعُ فيها بِضَرْع-. وقوله: ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾: وهي قلَّةُ الثمار من الأشجار ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: فلم ينتفِعوا ولم يرتَدِعوا، بل تمرَّدوا واستمرُّوا علىٰ كفرهم وعنادهم.

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾: والخِصْبُ ونحوُه ﴿قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ﴾؛ أي: هٰذا الذي نستحقُّه، وهٰذا الذي يَليقُ بنا. ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾؛ أي: يقولون: هٰذا بشؤمهم أصابنا! هٰذا؛ ولا يقولون في الأول: إنَّه ببركتِهِم وحسنِ مجاورتِهِم لهم! ولٰكنَّ قلوبَهم منكِرَةٌ مستكبِرةٌ نافرةٌ عن الحقِّ، إذا جاء الشرُّ؛ أسندوه إليه، وإن رأوا خيرًا؛ ادَّعَوْه لأنفسِهم. قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أي: الله يَجْزيهم علىٰ هٰذا أوفَرَ الجزاء. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾؛ أي: مهما جئتَنا به من الآيات - وهي الخوارقُ للعاداتِ-؛ فلسنا نؤمنُ بك ولا نتَّبِعُكَ ولا نُطيعُك، ولو جئتَنا بكلِّ آيةٍ. وهٰكذا أخبر الله عنهم في قولِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾:

أَمَّا الطُّوفانُ؛ فعن ابن عباس: هو كَثْرَةُ الأمطار المغرِقة المتلِفة للزُّروع والثِّمار. وبه قال سعيدُ بن جُبير وقَتادة والسُّدِّيُّ والضَّحَّاكُ. وعن ابن عباس وعطاء: هو كَثْرَةُ الموت. وقال مجاهد: الطوفانُ الماءُ والطاعونُ علىٰ كلِّ حال. وعن ابن عباس: أمرٌ طاف بهم. وقد روىٰ ابنُ جريرٍ وابن مردويه من طريق: يحيىٰ بن يمان، عن المنهال بن خليفة، عن الحجَّاج، عن الحكم بن ميناء، عن عائشة، عن النبي ﷺ: أنَّه قال: «**الطُّوفانُ الموتُ**»(١). وهو غريبٌ.

وأما الجرادُ؛ فمعروفٌ. وقد روىٰ أبو داوود: عن أبي عثمان، عن سلمان الفارسي؛ قال: سُئِلَ رسولُ الله عن الجراد؟ فقال: «**أكثرُ جنودِ اللهِ؛ لا آكُلُه، ولا أحرِّمُه**»(٢). وتركُ النبيِّ ﷺ أكلَه إنَّما هو علىٰ وجه التقذُّرِ له؛ كما ترك أكل الضبِّ(٣)، وتنزَّه عن أكل البصل والثُّوم والكُرَّاثِ(٤)، لِما ثَبَتَ في الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفىٰ؛ قال: غَزَوْنا مع رسول الله ﷺ

(١) (ضعيف). رواه: ابن جرير (٦/ ٣٢/ ١٥٠٠٩)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٤٤/ ٨٨٥٥، ٨٨٥٦)، وابن مردويه؛ بهٰذا السند.

ويحيىٰ بن يمان: كثير الخطإ، وقد تغير بآخره. والمنهال: ضعيف. والحجاج: كثير الخطإ، وقد عنعن علىٰ كثرة تدليسه. فالسند ضعيف كما قال الحافظ ابن كثير.

(٢) (ضعيف). رواه: ابن ماجه (٢٨-الصيد، ٩-صيد الحيتان والجراد، ٢/ ١٠٧٣/ ٣٢١٩)، وأبو داوود (٢١-الأطعمة، ٣٤-أكل الجراد، ٢/ ٣٨٥/ ٣٨١٣و٣٨١٤)، والطبراني (٦/ ٢٥١/ ٦١٢٩و٦١٤٩)، والبيهقي (٩/ ٢٥٧). وقد اختلفوا في وصله وإرساله:

فرواه زكريا بن يحيىٰ بن عمارة، عن فائد أبي العوام، عن أبي عثمان النهدي، عن سلمان، عن النبي ﷺ - موصولًا. وخالفه حماد بن سلمة-وهو أوثق-فرواه عن فائد، عن أبي عثمان، عن النبي ﷺ مرسلًا.

ورواه أيضًا محمد بن الزبرقان، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي، عن سلمان، عن النبي ﷺ موصولًا. وخالفه المعتمر بن سليمان ومحمد بن عبد الله الأنصاري فروياه عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي، عن النبي ﷺ مرسلًا.

وعليه؛ فإرسال الحديث أقوىٰ علىٰ الوجهين، ولذلك مال أبو داوود والبيهقي إليها، ورجحها المنذري والألباني. فالحديث ضعيف لإرساله.

(٣) رواه: البخاري (٧٢-الذبائح، ٣٣-الضب، ٩/ ٦٦٣/ ٥٥٣٧)، ومسلم (٣٤-الصيد، ٧-إباحة الضب، ٣/ ١٥٤٣/ ١٩٤٥و١٩٤٦)؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) رواه: البخاري (١٠-الأذان، ١٦٠-ما جاء في الثوم، ٢/ ٣٣٩/ ٨٥٤و٨٥٥)، ومسلم (٥-المساجد، ١٧-نهي من أكل ثومًا، ١/ ٣٩٤/ ٥٦٤)؛ عن جابر.

سبعَ غَزَواتٍ نأكل الجرادَ[١]. وقد تكلَّمْنا علىٰ ما ورد فيه من الأحاديث والآثار في «التفسير».

والمقصودُ: أنَّه استاق خضراءَهم فلم يتركْ لهم زرعًا ولا ثِمارًا ولا سَبَدًا ولا لَبَدًا[٢].

وأمَّا القُمَّلُ؛ فعن ابن عباس: هو السُّوسُ الذي يخرُجُ من الحنطةِ. وعنه: أنَّه الجرادُ الصغار الذي لا أجنحةَ له. وبه قال مجاهدٌ وعكرمةُ وقتادةُ. وقال سعيدُ بن جبير والحسنُ: هو دوابُّ سودٌ صغارٌ. وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلمَ: القملُ هي البراغيثُ. وحكىٰ ابن جريرٍ[٣] عن أهل العربيَّة: أنَّها الحَمْنان، وهو صغارُ القِرْدانِ فوق القُمقامة[٤]، فدخل معهم البيوتَ والفُرُشَ، فلم يَقَرَّ لهم قرارٌ، ولم يمكِنْهُمْ معه الغمضُ ولا العيشُ. وفسَّره عطاء بن السائب بهٰذا القمل المعروفِ. وقرأها الحسنُ البصريُّ كذٰلك بالتخفيف.

وأما الضفادع؛ فمعروفةٌ. لبستْهم حتىٰ كانتْ تسقُطُ في أطعمتهم وأوانيهم، حتىٰ إنَّ أحدَهم إذا فتَحَ فاه لطعام أو شرابٍ؛ سقطتْ فيه ضفدعةٌ من تلك الضفادع.

وأما الدَّمُ؛ فكأنْ قد مُزِجَ ماؤهم كلُّه به؛ فلا يستقونَ من النيل شيئًا؛ إلَّا وجدوه دمًا عبيطًا[٥]، ولا من نهرٍ ولا بئرٍ ولا شيء؛ إلاَّ كان دمًا في الساعة الراهنة.

هٰذا كلُّه؛ ولم ينلْ بني إسرائيلَ من ذٰلك شيءٌ بالكُلِّيَّةِ!. وهٰذا من تمام المعجزة الباهرة، والحجَّة القاطعة؛ أنَّ هٰذا كلَّه يحصُلُ لهم عن فعل موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فينالُهم عن آخرِهِم، ولا يحصُلُ هٰذا لأحدٍ من بني إسرائيل، وفي هٰذا أدلُّ دليل.

قال محمد بن إسحاق: فَرَجَعَ عدوُّ الله فرعونُ حين آمنتِ السحرةُ مغلوبًا مغلولًا، ثم أبىٰ إلَّا الإقامةَ علىٰ الكفرِ والتَّمادي في الشرِّ، فتابع اللهُ عليه بالآيات، فأخذه بالسنين، فأرسل عليه الطوفانَ، ثم الجرادَ، ثم القُمَّلَ، ثم الضفادعَ، ثم الدمَ؛ آياتٍ مفصَّلاتٍ: فأرسل الطوفانَ -وهو الماء- ففاضَ علىٰ وجه الأرض ثم رَكَدَ؛ لا يقدرونَ علىٰ أن يَحْرُثوا ولا أن يعملوا شيئًا، حتىٰ جُهدوا جوعًا،

---

(١) رواه: البخاري (٧٢-الذبائح، ١٣-أكل الجراد، ٩/ ٦٢٠/ ٥٤٩٥)، ومسلم (٣٤-الصيد، ٨-إباحة الجراد، ٣/١٥٤٦/ ١٩٥٢).

(٢) لم يترك سَبَدًا ولا لَبَدًا: لم يترك قليلاً ولا كثيرًا.

(٣) في «التفسير» (٦/ ٣٤/ الأعراف ١٣٣).

(٤) القمقامة: من صغار القراد.

(٥) الدم العبيط: الطري الحديث السيلان.

فلمَّا بلغَهم ذٰلك؛ ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأعراف: ١٣٤]. فدعا موسىٰ ربَّه، فكشفه عنهم. فلمَّا لم يَفُوا له بشيء ممَّا قالوا؛ أرسل اللهُ عليهم الجرادَ، فأكل الشجر فيما بلغني، حتَّىٰ إنْ كان لَيأكُلُ مساميرَ الأبواب من الحديد حتَّىٰ تَقَعَ دورُهم ومساكنُهم، فقالوا مثلَ ما قالوا، فدعا ربَّه، فكشفَ عنهم، فلم يَفُوا له بشيء مما قالوا. فأرسل الله عليهم القُمَّلَ، فذُكِرَ لي أنَّ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أُمِرَ أن يمشيَ إلىٰ كثيبٍ حتَّىٰ يضرِبَه بعصاه، فمشىٰ إلىٰ كثيبٍ أَهْيَلَ عظيم، فضَرَبَه بها، فانثال عليهم قُمَّلًا، حتىٰ غلب علىٰ البيوت والأطعمة ومنعهُم النومَ والقَرار، فلمَّا جَهَدَهُم؛ قالوا له مثلَ ما قالوا له، فدعا ربَّه، فكشفَ عنهم، فلم يفوا له بشيء ممَّا قالوا. فأرسل[1] اللهُ عليهم الضفادعَ؛ فملأتِ البيوتَ والأطعمةَ والآنيةَ، فلم يكشف أحدٌ ثوبًا ولا طعامًا؛ إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه، فلمَّا جَهَدَهُم ذٰلك؛ قالوا له مثل ما قالوا، فدعا ربَّه، فكشف عنهم، فلم يفوا بشيء ممَّا قالوا. فأرسل الله عليهم الدَّمَ، فصارت مياهُ آل فرعون دمًا؛ لا يستقون من بئرٍ ولا نهرٍ، ولا يغترفون من إناءٍ؛ إلَّا عاد دمًا عبيطًا.

وقال زيدُ بن أسلم: المرادُ بالدَّم الرُّعاف. رواه ابنُ أبي حاتم[2].

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف: ١٣٤-١٣٦].

يخبر تعالىٰ عن كفرِهم وعتوِّهم واستمرارِهم علىٰ الضَّلال والجهل والاستكبارِ عن اتِّباع آياتِ الله وتصديق رسوله؛ مع ما أَيَّده به من الآياتِ العظيمةِ الباهرة، والحُجج البليغةِ القاهرة، التي أراهم اللهُ إيَّاها عِيانًا، وجعلَها عليهم دليلًا وبرهانًا، وكلَّما شاهدوا آيةً وعاينوها، وجَهَدَهَم وأضْنكَهُم؛ حلفوا وعاهدوا موسىٰ لَئِنْ كَشَفَ عنهم هٰذه؛ لَيُؤْمِنُنَّ به ولَيُرْسِلُنَّ معه من هو من حزبِهِ، فكلَّما رُفِعتْ عنهم تلك الآيةُ؛ عادوا إلىٰ شرٍّ ممَّا كانوا عليه، وأعرضوا عمَّا جاءهم به من الحقِّ ولم يلتفتوا إليه، فيرسلُ الله عليهم آيةً أخرىٰ هي أشدُّ ممَّا كانت قبلَها

(١) في نسخة: «فلما لم يفوا له بشيء مما قالوا؛ أرسل...» إلخ.

(٢) في «التفسير» (٥/ ١٥٤٩/ ٨٨٨٣).

وأقوىٰ، فيقولون ويكذبون، ويَعِدون ولا يَفُون: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾، فيُكْشَفُ عنهم ذٰلك العذابُ الوبيل، ثم يعودون إلىٰ جهلهم العريضِ الطويل.

هٰذا؛ والعظيمُ الحليمُ القدير؛ يُنْظِرُهم ولا يُعْجِّلُ عليهم، ويؤخِّرُهم ويتقدَّم بالوعيد إليهم، ثم أخذهم بعد إقامة الحجَّة عليهم، والإعذارِ(١) إليهم أخذَ عزيز مُقْتَدِر، فجعلهم عبرةً ونكالًا وسلفًا لمَن أشبهَهُم من الكافرين، ومَثَلًا لِمَنِ اتَّعَظَ من عباده المؤمنين!

كما قال ﷻ وهو أصدق القائلين، في سورة حمٓ والكتاب المبين: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف: ٤٦-٥٦].

يذكر تعالىٰ إرسالَه عبدَه الكليم الكريم، إلىٰ فرعون الخسيس اللئيم، وأنَّه تعالىٰ أيَّدَ رسولَه بآياتٍ بيناتٍ واضحات تستحقُّ أن تُقابَلَ بالتعظيم والتصديق وأن يرتدِعوا عمَّا هم فيه من الكفر ويرجعوا إلىٰ الحقِّ والصراط المستقيم؛ فإذا هم منها يضحكون، وبها يستهزِئون، وعن سبيل الله يَصُدُّون، وعن الحقِّ ينصرِفون، فأرسل الله عليهم الآياتِ تترىٰ يَتْبَعُ بعضُها بعضًا، وكلُّ آيةٍ أكبرُ من التي تتلوها؛ لأنَّ التوكيدَ أبلغُ ممَّا قبلَه، ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾: لم يكن لفظُ الساحر في زمنهم نقصًا ولا عيبًا؛ لأنَّ علماءَهم في ذٰلك الوقت هم السحرةُ، ولهٰذا خاطَبوه به في حال احتياجِهم إليه، وضراعتِهم لديه. قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

---

(١) في نسخة: «الإنذار».

ثم أخبر تعالىٰ عن تبجُّح فرعونَ بمُلكِهِ وعظمةِ بلدِهِ وحسنِها وتخرُّق الأنهار فيها- وهي الخلجانات التي يكسرونها أيام زيادة النيل-، ثم تبجَّح بنفسه وحِلْيَتِهِ، وأخذ يتنقَّصُ رسولَ الله موسىٰ عليه السلام، ويَزْدَريه بكونه ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾؛ يعني: كلامَه؛ بسبب ما كان في لسانه من بقيَّةِ تلك اللَّثغة، التي هي شرفٌ له وكمالٌ وجمالٌ، ولم تكن مانعةً له أن كلَّمه الله تعالىٰ وأوحىٰ إليه، وأنزل بعد ذٰلك التوراةَ عليه. وتنقَّصَه فرعونُ لعنهُ الله بكونِهِ لا أساورَ في يديه ولا زينةَ عليه! وإنَّما ذٰلك من حِلْيَةِ النساء، لا يَليقُ بشهامةِ الرجال؛ فكيف بالرُّسل الذين هم أكملُ عقلًا وأتمُّ معرفةً وأعلىٰ همةً وأزهدُ في الدُّنيا وأعلمُ بما أعدَّ الله لأوليائِهِ في الأخرىٰ؟!

وقوله: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝٥٣﴾: لا يحتاجُ الأمرُ إلىٰ ذٰلك: فإنْ كان المرادُ أن تعظِّمَهُ الملائكةُ؛ فالملائكةُ يعظِّمون ويتواضعون لمن هو دونَ موسىٰ عليه السلام بكثيرٍ، كما جاء في الحديث: «**إنَّ الملائكةَ لَتَضَعُ أجنحَتَها لطالبِ العلم رضًى بما يصنعُ**»[(1)]؛ فكيف يكونُ تواضُعُهم وتعظيمُهم لموسىٰ الكليم عليه الصلاة والتسليم والتكريم؟! وإن كان المرادُ شهادتهم له بالرسالةِ؛ فقد أُيِّدَ من المعجزات بما يدُلُّ قطعًا لذوي الألباب، ولِمَنْ قَصَدَ إلىٰ الحقِّ والصواب، ويَعْمىٰ عمَّا جاء به من البيناتِ والحجج والواضحاتِ مَنْ نَظَرَ إلىٰ القشورِ وتَرَكَ لُبَّ اللُّباب، وطَبَعَ علىٰ قلبِهِ ربُّ الأرباب، وخَتَمَ عليه بما فيه من الشكِّ والارتياب؛ كما هو حالُ فرعونَ القبطيِّ العَمِيِّ الكذاب.

---

(1) (صحيح). رواه: الطيالسي (١١٦٥)، وأحمد (٣/ ٢٣٩و ٢٤٠)، والترمذي (٤١- الدعوات، ٩٩-فضل التوبة، ٥-٥٤٥/ ٣٥٣٥و٣٥٣٦)، وابن خزيمة (١/ ١٣/ ١٧)، وابن حبان (٤/ ١٤٧/ ١٣١٩)؛ من طرق عن عاصم بن أبي النجود، عن زر بن حبيش، عن صفوان بن عسال... فذكره مرفوعًا وموقوفًا ضمن حديث يطول ويقصر.

قال الترمذي: «حسن صحيح». وعاصم بن أبي النجود فيه كلام لا ينزل به حديثه عن رتبه الحسن، لٰكنه لم ينفرد به: بل تابعه عليه عبد الوهاب بن بخت والمنهال بن عمرو عند الحاكم (١/ ١٠٠)، وصححه، ووافقه الذهبي والألباني.

وله شاهد مرفوع حسن من حديث أبي الدرداء. فهو صحيح بمجموع طرقه وشواهده بلا ريب.

وأما الاختلاف في وقفه ورفعه؛ فلا يضر؛ فقد قال الحاكم: «أسنده جماعة وأوقفه جماعة، والذي أسنه أحفظ، والزيادة منهم مقبولة». ووافقه الذهبي. ثم حديث أبي الدرداء يرجح كفة الرفع؟ هٰذا؛ مع أن للموقوف هنا حكم الرفع كما هو معلوم، لأنه لا يدرك بالرأي.

قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾؛ أي: استخفَّ عقولهم ودرَّجهم من حال إلىٰ حال إلىٰ أن صدَّقوه في دعواه الرُّبوبيَّةَ، لعنه الله وقبحهم. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾؛ أي: أغضبونا. ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾؛ أي: بالغرق، والإهانة، وسلبِ العزِّ، والتبدُّل بالذُّلِّ، وبالعذاب بعد النِّعمة، والهوانِ بعد الرَّفاهِيةِ، والنار بعد طيب العيش؛ عياذًا بالله العظيم، وسلطانِهِ القديم من ذٰلك. ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا﴾؛ أي: لمَنِ اتَّبعَهُم في الصفات. ﴿وَمَثَلًا﴾؛ أي: لمنِ اتَّعَظ بهم وخاف من وَبيل مصرعهم ممَّن بَلَغَهُ جَلِيَّةُ خبرهم وما كان من أمرِهم!

كما قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص: ٣٦-٤٢].

يخبر تعالىٰ أنَّهم لمَّا استكبروا عن اتِّباع الحقِّ، وادَّعىٰ ملِكُهُم الباطلَ، ووافقوه عليه، وأطاعوه فيه؛ اشتدَّ غضبُ الربِّ القدير العزيز الذي لا يغالَبُ ولا يُمانَعُ عليهم، فانتقمَ منهم أشدَّ الانتقام، وأغرقَهُ هو وجنودَه في صبيحةٍ واحدةٍ، فلم يَفْلَتْ منهم أحدٌ، ولم يبقَ منهم ديَّار، بل كلٌّ قد غَرِقَ فدخَلَ النار، وأُتبِعوا في هٰذه الدار لعنةً بين العالَمين، ويومَ القيامةِ، بئس الرِّفدُ المرفود، ويوم القيامة هم من المَقْبوحينَ.

۞ ذكر هلاك فرعون وجنوده:

لمَّا تمادىٰ قِبْطُ مصر علىٰ كفرِهم وعتوِّهم وعنادهم؛ متابعةً لملِكِهم فرعونَ، ومخالفةً لنبيِّ الله ورسولِهِ وكليمِهِ موسىٰ بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ أقامَ الله علىٰ أهل مصرَ الحججَ العظيمةَ القاهرةَ، وأراهم من خوارقِ العادات ما بَهَرَ الأبصار وحيَّرَ العقول، وهم مع ذٰلك لا يَرْعَوونَ

ولا ينتهون، ولا ينزِعونَ ولا يَرْجِعون، ولم يؤمنْ منهم إلَّا القليلُ قيل: ثلاثة، وهم امرأة فرعون -ولا عِلْمَ لأهل الكتاب بخبرِها-، ومؤمنُ آل فرعونَ الذي تقدَّمت حكايةُ موعظتِهِ ومشورتِهِ وحجَّتِهِ عليهم، والرجلُ الناصح الذي جاء يسعىٰ من أقصىٰ المدينة، فقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص: ٢٠]. قاله ابن عباس فيما رواه ابن أبي حاتم عنه[١]. ومرادُهُ غيرُ السحرة؛ فإنَّهم كانوا من القِبْط. وقيل: بل آمن به طائفةٌ من القِبْط من قوم فرعون، والسَّحَرةُ كلُّهم، وجميع شعب بني إسرائيل. ويدلُّ علىٰ هٰذا قولُه تعالىٰ: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [يونس: ٨٣]؛ فالضمير في قوله: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾: عائدٌ علىٰ فرعونَ؛ لأنَّ السياقَ يدلُّ عليه، وقيل: علىٰ موسىٰ لقربِهِ، والأولُ أظهرُ؛ كما هو مقرر في «التفسير». وإيمانُهم كان خفيًّا؛ لمخافتِهِم من فرعونَ وسطوتِه، وجَبَروتِهِ وسلطتِه، ومن ملئِهِم أن يَنُمُّوا عليهم إليه فيفتِنَهم عن دينهم.

قال الله تعالىٰ مخبراً عن فرعونَ -وكفىٰ باللهِ شهيدًا-: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: جبَّارٍ عنيدٍ مُسْتَعْلٍ بغير الحقِّ. ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: في جميع أموره وشؤونه وأحواله. ولٰكنَّه جُرْثومةٌ قد حان انْجِعافُها[٢]، وثمرةٌ خبيثةٌ قد آن قِطافها، ومُهْجَةٌ ملعونة قد حَتَمَ إتلافُها.

وعند ذٰلك قال موسىٰ: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [يونس: ٨٤-٨٦]: فأمرهم بالتوكُّل علىٰ الله، والاستعانة به والالتجاءِ إليه، فأْتَمَروا بذٰلك، فجعل اللهُ لهم ممَّا كانوا فيه فَرَجًا ومَخْرَجًا.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس: ٨٧].

أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ موسىٰ وأخيه هارونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أن يتَّخِذا لقومِهِما بيوتًا متميِّزة فيما بينهم عن بيوتِ القِبْط؛ لِيكونوا علىٰ أُهْبَةِ الرحيل إذا أُمروا به؛ ليعرِفَ بعضُهم بيوتَ بعض. وقوله:

(١) في «التفسير» (١٠/ ٣٢٦٦/ ١٨٤٣١).

(٢) جرثومة الشيء: أصله. انجعافُها: استئصالها.

﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾: قيل: مساجدَ. وقيل: معناه كثرةُ الصلاةِ فيها. قاله مجاهدٌ وأبو مالكٍ وإبراهيمُ النخعيُّ والربيع والضحَّاك وزيدُ بن أسلم وابنه عبد الرحمٰن وغيرهم. ومعناه علىٰ هٰذا: الاستعانةُ علىٰ ما هم فيه من الضُّرِّ والشِّدَّةِ والضيق بكَثْرة الصلاة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ٤٥]، وكان رسولُ الله ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ صلَّىٰ[1]. وقيل معناه: أنهم لم يكونوا حينئذ يقدِرون علىٰ إظهارِ عبادتِهم في مجتمعاتهم ومعابِدِهم، فأُمِروا أن يُصَلُّوا في بيوتهم عِوَضًا عمَّا فاتَهم من إظهار شعائرِ الدين الحقِّ في ذٰلك الزمان الذي اقتضىٰ حالُهم إخفاءَه خوفًا من فرعون ومَلَئِه، والمعنىٰ الأول أقوىٰ؛ لقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٧﴾، وإن كان لا ينافي الثاني أيضًا. والله أعلم. وقال سعيد بن جبير: ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾؛ أي: متقابلة.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨٩﴾ [يونس: ٨٨-٨٩].

هٰذه دعوةٌ عظيمةٌ دعا بها كليمُ الله موسىٰ علىٰ عدوِّ الله فرعون، غَضَبًا لله عليه؛ لتكبُّره عن اتِّباع الحقِّ وصدِّه عن سبيل الله ومعاندتِهِ وعتوِّهِ وتمرُّدِهِ واستمرارِهِ علىٰ الباطل ومكابرتِهِ الحقَّ الواضحَ الجليَّ الحسيَّ والمعنويَّ والبرهانَ القطعيَّ، فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ﴾؛ يعني: قومَه من القِبْط ومَنْ كان علىٰ مِلَّتِهِ ودان بدينِهِ. ﴿زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ﴾؛ أي: وهٰذا يغترُّ به مَن يعظِّم أمر الدُّنيا، فيحسبُ الجاهل أنَّهم علىٰ شيءٍ، ولٰكنَّ هٰذه الأموالَ وهٰذه الزينةَ من اللباس والمراكب الحسنةِ الهنيَّة، والدور الأنيقة والقصور المبنيَّة، والمآكل الشهيَّة والمناظر البهيَّة، والمُلك العزيز والتَّمكين، والجاه العريض؛ في الدنيا لا الدين. ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾: قال ابنُ عباس ومجاهدٌ: أي أهلِكْها. وقال أبو العالية والربيع بن أنس

---

(١) (ضعيف). رواه: أحمد (٥/ ٣٨٨)، وأبو داوود (٢-الصلاة، ٣١٢-وقت قيامه ﷺ من الليل، ٢/ ٤٢٠/ ١٣١٩)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٤٥١)، وابن عساكر (١٢/ ٢٨٣)؛ من طريق يحيىٰ بن زكريا، عن عكرمة بن عمار، عن محمد بن عبد الله الدؤلي، عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة، عن حذيفة... فذكره مختصرًا وفي سياق غزوة الخندق الطويل.

وهٰذا سند واهٍ: عكرمة: صدوق يخطئ. والدؤلي وابن أخي حذيفة: مجهولان. وأشار المنذري والمزي إلىٰ خلف في إسناد الحديث وإرساله، وضعفه الألباني.

والضحَّاك: اجعلْها حجارةً منقوشةً كهيئة ما كانت. وقال قَتادةُ: بلغنا أن زُروعهم صارت حجارةً. وقال محمد بن كعبٍ: جعل سُكَّرَهم حجارة. وقال أيضًا: صارت أموالُهم كلُّها حجارةً. ذُكِرَ ذٰلك لعمر بن عبد العزيز، فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له: قم ائتني بكيسٍ! فجاءه بكيسٍ؛ فإذا فيه حمصٌ وبيضٌ قد حُوِّلَ حجارةً! رواه ابن أبي حاتم(١). وقوله ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٨٨﴾ [يونس: ٨٨] قال ابنُ عباس: أي: اطبعْ عليها.

وهٰذه دعوةُ غضبٍ لله تعالىٰ ولدينِهِ ولبراهينِهِ، فاستجابَ الله تعالىٰ لها وحقَّقها وتقبَّلها كما استجابَ لنوح في قومِهِ حيث قال: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ۝٢٧﴾ [نوح: ٢٦-٢٧]، ولهٰذا قال تعالىٰ مخاطبًا لموسىٰ حين دعا علىٰ فرعون وملئِهِ وأمَّنَ أخوه هارونُ علىٰ دعائِهِ، فنزَّلَ ذٰلك منزلةَ الدَّاعي أيضًا؛ ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٨٩﴾.

<u>قال المفسِّرونَ وغيرُهم من أهل الكتاب</u>(٢): استأذن بنو إسرائيل فرعونَ في الخروج إلىٰ عيدٍ لهم، فأذِن لهم وهو كارهٌ، ولٰكنَّهم تجهَّزوا للخروج وتأهَّبوا له، وإنَّما كان في نفس الأمرِ مكيدةً بفرعونَ وجنودِهِ ليتخلَّصوا منهم ويخرُجوا عنهم، وأمرهم الله تعالىٰ -فيما ذَكَرَهُ أهلُ الكتاب(٣)- أن يستعيروا حُلِيًّا منهم، فأعاروهم شيئًا كثيرًا، فخرجوا بليل، فساروا مستمرِّين ذاهبين من فَوْرِهم طالبين بلادَ الشام، فلمَّا علم بذَهابهم فرعونُ؛ حَنَقَ عليهم كلَّ الحِنْقِ، واشتدَّ غضبُه عليهم، وشَرَعَ في استحثاث جيشه وجمع جنودِهِ لِيَلْحقَهم ويَمْحقَهم!

قال الله تعالى: ﴿۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٧ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٦٢ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ۝٦٦ إِنَّ فِي

---

(١) في «التفسير» (٦/ ١٩٧٨/ ١٠٥٤٠-١٠٥٤٥).

(٢) في (سفر الخروج/ الأصحاح ١١-١٣).

(٣) في (سفر الخروج/ الأصحاح ١١-١٣).

ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ [الشعراء: ٥٢-٦٨].

قال علماء التفسير: لمَّا ركب فرعونُ في جنودِهِ طالبًا بني إسرائيل يقفو أثرهم؛ كان في جيش كثيفٍ عَرَمْرَم، حتى قيل: كان في خيولِهِ مئةُ ألف فحل أدهمَ، وكانت عدَّةُ جنودِهِ تزيد علىٰ ألفِ ألفٍ وست مئة ألفٍ. فالله أعلم. وقيل: إن بني إسرائيل كانوا نحوًا من ستِّ مئة ألف مقاتل غيرَ الذُّرِّيَّة، وكان بين خروجهم من مصرَ صحبةَ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ودخولِهِم إليها صحبةَ أبيهم إسرائيلَ أربعُ مئة سنة وستٌّ وعشرون[1] سنة شمسيةً.

والمقصودُ: أنَّ فرعون لَحِقَهم بالجنود، فأدركَهم عند شروق الشمس، وتراءىٰ الجمعان، ولم يَبْقَ ثَمَّ رَيْبٌ ولا لَبْسٌ، وعاين كلٌّ من الفريقين صاحبَه وتحقَّقه ورآه، ولم يبقَ إلَّا المقاتَلَةُ والمجادَلَةُ والمحاماة؛ فعندها قال أصحابُ موسىٰ وهم خائفون: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾! وذٰلك لأنَّهم اضطُرُّوا في طريقهم إلىٰ البحر، فليس لهم طريقٌ ولا مَحيدٌ إلَّا سلوكَه وخوضَه، وهٰذا ما لا يستطيعه أحدٌ ولا يقدر عليه، والجبالُ عن يسرتهم وعن أيمانِهم، وهي شاهقةٌ منيفةٌ، وفرعونُ قد غالَقَهم وواجَهَهم وعاينوه في جنودِهِ وجُيوشِهِ وعددِهِ وعُدَدِه، وهم منه في غاية الخوف والذُّعْر؛ لِما قاسَوْا في سلطانِهِ من الإهانة والمَكْر، فشكَوْا إلىٰ نبيِّ الله ما هم فيه ممَّا قد شاهدوه وعاينوه، فقال لهم الرسولُ الصادقُ المصدوق: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾، وكان في السَّاقَةِ[2]، فتقدَّم إلىٰ المقدِّمة، ونظر إلىٰ البحر وهو يتلاطمُ بأمواجِهِ ويتزايدُ زبدُ أُجاجِهِ[3]، وهو يقول: ها هُنا أمرتُ! ومعه أخوه هارون، ويوشع ابن نون، وهو يومئذٍ من سادات بني إسرائيل وعلمائهم وعُبَّادهم الكبار، وقد أوحىٰ الله إليه وجعله نبيًّا بعد موسىٰ وهارونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ؛ كما سنذكُرُه فيما بعدُ إنْ شاء الله[4]، ومعهم أيضًا مؤمن آل فرعونَ وهم وُقوف، وبنو إسرائيلَ بكمالِهِم عليهم عُكوف، ويقالُ: إنَّ مؤمنَ آل فرعونَ جعلَ يقتحِمُ بفرسِهِ مرارًا في البحرِ؛ هل يمكِنُ سلوكُه؟! فلا يمكنُ!

---

(١) في بعض الأصول: «وستّ وعشرين»! وفي بعضها: «وستًّا وعشرون».

(٢) السَّاقة: مؤخرة الجيش.

(٣) الأجاج: الماء المالح.

(٤) انظره في (ص ٤٧١ وما بعدها).

ويقولُ لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا نبيَّ الله! هاهُنا أمرت؟! فيقول: نعم.

فلمَّا تفاقم الأمرُ وضاق الحالُ واشتدَّ الأمرُ، واقتربَ فرعونُ وجنودُهُ في جَدِّهم وحَدِّهم وحديدهم، وغَضَبِهم وحَنَقِهم، وزاغت الأبصارُ وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ؛ عند ذٰلك أوحىٰ الحليمُ العظيمُ، القدير ربُّ العرش الكريم، إلىٰ موسىٰ الكليم: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾! فلمَّا ضَرَبَه؛ **يقالُ**: إنَّه قال له: انْفَلِقْ بإذنِ الله! ويقالُ: إنَّه كناه بأبي خالد. والله أعلم. قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾[1]: **ويقالُ**: إنَّه انفلقَ اثني عشر طريقًا، لكلِّ سبطٍ طريقٌ يسيرون فيه، **حتى قيل**: إنَّه صار فيه أيضًا شبابيكُ لِيرىٰ بعضُهم بعضًا! وفي هٰذا نظر؛ لأنَّ الماء جِرْمٌ شفافٌ؛ إذا كان من ورائِه ضياءٌ؛ حكاه! وهٰكذا كان ماءُ البحر قائمًا مثلَ الجبال، مكفوفًا بالقدرةِ العظيمةِ الصادرةِ من الذي يقول للشيء: كنْ... فيكونُ! وأمر الله ريحَ الدَّبورِ فَلَفَحَتْ حال البحر فأذهبتْهُ حتىٰ صارَ يابسًا لا يَعْلَقُ في سنابكِ الخيول والدَّوابِّ[2]؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه: ٧٧-٧٩].

والمقصودُ: أنَّه لما آل أمرُ البحر إلىٰ هٰذه الحال بإذنِ الربِّ العظيم الشديدِ المِحال؛ أُمِرَ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يَجوزَه ببني إسرائيل، فانحَدَروا فيه مسرعين مستبشرينَ مبادِرين، وقد شاهدوا من الأمرِ العظيم ما يُحَيِّرُ الناظرين ويهدىٰ قلوبَ المؤمنين! فلمَّا جازوه[3] وجاوزوه، وخرج آخرهم منه وانفصلوا عنه، كان ذٰلك عند قُدوم أول جيش فرعون إليه ووفودهم عليه، فأراد موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يضربَ البحرَ بعصاه ليرجعَ كما كان عليه؛ لئلَّا يكون لفرعونَ وجنودِهِ وصولٌ إليه ولا سبيلٌ عليه، فأمره القديرُ ذو الجلال أن يتركَ البحرَ علىٰ هٰذه الحال؛ كما قال وهو الصادق في المقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ

---

(١) ﴿فرق﴾: طريق. ﴿الطود﴾: الجبل.

(٢) الدَّبور: ريحٌ قويَّةٌ مؤذية. لَفَح: ضَرَبَ. حال البحر: طينُه. السنابك: الحوافر.

(٣) في الأصول: «جاوزه». وما أثبته أقوىٰ. ومعناه: لما عبروا البحر وابتعدوا عنه.

أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم
مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾
وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟
مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾
وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الدخان: ١٧-٣٣]؛ فقوله تعالىٰ: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ﴾؛ أي: ساكنًا علىٰ هيئتِهِ، لا تغيِّره عن هٰذه الصفة. قاله عبد الله بن عباس ومجاهدٌ وعِكرمةُ والربيعُ والضحاكُ وقَتادةُ وكعبُ الأحبار وسِماكُ بن حَرْب وعبد الرحمٰن بن زيد بن أَسْلَم وغيرهم.

فلمَّا تركه علىٰ هيئَتِهِ وحالته، وانتهىٰ فرعونُ فرأىٰ ما رأىٰ وعاينَ ما عاينَ؛، هالَهُ هٰذا المنظرُ العظيم، وتحقَّقَ ما كان يتحقَّقُه قبل ذٰلك مِن أنَّ هٰذا من فعل ربِّ العرش الكريم، فأحجمَ ولم يتقدَّم، وندم في نفسِهِ علىٰ خروجه في طلبِهم والحالةُ هٰذه حيث لا ينفعُهُ النَّدم، لٰكنَّه أظهر لجنودِهِ تجلُّدا، وعاملهم معاملةَ العِدىٰ، وحملته النفسُ الكافرة والسجيَّة الفاجرة علىٰ أنْ قال لِمَنِ استخفَّهم فأطاعوه وعلىٰ باطلِهِ تابَعوه: انظُروا كيف انحسر البحرُ لي؛ لأدرك عبيدي الآبقين من يدي، الخارجين علىٰ طاعتي وبلدي! وجعل يوري في نفسه[1] أن يذهبَ خلفَهم ويرجو أن ينجوَ وهيهات، ويقدِمُ تارةً ويحجِمُ تارات! فذكروا أنَّ جبريل عليه السلام تبدَّىٰ في صورة فارس راكبٍ علىٰ رَمَكَةٍ حائل[2]، فمرَّ بين يدي فحل فرعونَ لعنه الله، فحَمْحَمَ إليها وأقبل عليها، وأسرعَ جبريلُ بين يديه فاقتحم البحر، واستبقَ الجوادُ وقد أجاد فبادر مسرعا، هٰذا وفرعونُ لا يملِكُ من نفسِهِ ضَرًّا ولا نفعا، فلمَّا رأتْه الجنود قد سَلَكَ البحرَ؛ اقتحموا وراءه مسرعين، فحَصَلوا في البحر أجمعين أكتعين أبصعين[3]، حتىٰ هَمَّ أولُهم بالخروج منه؛ فعند ذٰلك أمر الله تعالىٰ كليمَه فيما أوحاه إليه أن يضرِبَ بعصاهُ البحر، فضَرَبَه فارتطم عليهم البحرُ كما كان، فلم ينجُ منهم إنسان.

(١) يوري في نفسه: يحدثها ويشجعها ويستحثها.
(٢) رَمَكة حائل: فرس غير حامل.
(٣) أكتعين أبصعين: توكيدات لفظية لـ (أجمعين).

قال الله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء: ٦٥-٦٨]؛ أي: في إنجائِهِ أولياءَهُ فلم يغرقْ منهم أحد، وإغراقِهِ أعداءَهُ فلم يَخْلُصْ منهم أحد؛ آيةٌ عظيمةٌ وبرهانٌ قاطعٌ علىٰ قدرتِهِ تعالىٰ العظيمة وصِدق رسوله فيما جاء به عن ربِّه من الشريعة الكريمة والمناهج المستقيمة.

وقال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩٠-٩٢].

يُخْبِرُ تعالىٰ عن كيفيَّة غرق فرعونَ زعيم كَفَرَةِ القِبْط، وأنَّه لما جعلتِ الأمواجُ تخفِضُه تارةً وترفعُهُ أخرىٰ، وبنو إسرائيلَ ينظُرون إليه وإلىٰ جنودِهِ؛ ماذا أحلَّ اللهُ به وبهم من البأس العظيم والخطب الجسيم؟! لِيكونَ أقرَّ لأعينِ بني إسرائيلَ وأشفىٰ لنفوسهم. فلمَّا عاينَ فرعونُ الهَلَكَةَ وأُحيط به وباشر سكراتِ الموتِ؛ أناب حينئذٍ وتاب، وآمن حين لا ينفعُ نفسًا إيمانُها؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦-٩٧]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٤-٨٥].

وهٰكذا دعا موسىٰ علىٰ فرعونَ ومَلَئِهِ أنْ يُطْمَسَ علىٰ أموالهم ويُشْدَدَ علىٰ قلوبِهم فلا يؤمنوا حتىٰ يَرَوُا العذابَ الأليم؛ أي: حين لا ينفعُهم ذٰلك ويكون حسرةً عليهم، وقد قال تعالىٰ لهما -أي: لموسىٰ وهارون- حين دَعَوا بهٰذا: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩]؛ فهٰذا من إجابةِ الله تعالىٰ دعوةَ كليمِهِ وأخيه هارون عليهما السلام.

ومن ذٰلك: الحديثُ الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مِهْران، عن ابن عباس؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما قال فرعون:** ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]». **قال: «قال لي جبريل:**

لو رأيْتَني وقد أخذتُ من حالِ البحرِ، فدسَسْتُهُ في فيه؛ مخافةَ أن تنالَه الرحمةُ»(١).

ورواه الترمذيُّ وابنُ جرير وابن أبي حاتم عند هٰذه الآية من حديث حماد بن سلمة، وقال الترمذيُّ: حديثٌ حسن.

وقال أبو داوودَ الطيالسيُّ: حدثنا شعبة، عن عديٍّ بن ثابت وعطاء بن السَّائب، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال لي جبريل: لو رأيْتَني وأنا آخذُ من حال البحرِ فأدسُّه في فم فرعونَ مخافةَ أن تنالَه الرحمةُ**»(٢).

ورواه التِّرمذيُّ وابنُ جرير من حديث شعبةَ، وقال التِّرمذيُّ: حسنٌ غريبٌ صحيحٌ.

وأشارَ ابنُ جريرٍ في روايةٍ إلىٰ وقفِهِ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو خالدٍ الأحمرُ، عن عمر بن عبد الله بن يَعْلىٰ الثقفيِّ، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس؛ قال: لما أغرقَ الله فرعونَ؛ أشار بإصبعِهِ ورفعَ صوتَه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]. قال: فخاف

---

(١) (صحيح). وقد ساق له الحافظ ابن كثير عدة طرق وشاهدًا:

* فرواه: الطيالسي (٢٦٩٣)، وأحمد (١/ ٢٤٥و٣٠٩)، والترمذي (٤٨-التفسير، ١١-ومن سورة يونس، ٥/ ٢٨٧/ ٣١٠٧)، وابن جرير (٦/ ٦٠٥/ ١٧٨٧٥)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٨٢/ ١٠٥٦١)؛ من طريق حماد... به فذكره. وحسنه الترمذي. وفيه علي بن زيد بن جدعان: فيه ضعف، ولا بأس به في المتابعات.

* ورواه: الطيالسي (٢٦١٨)، وأحمد (١/ ٢٤٠و٣٤٠)، والترمذي (الموضع السابق، ٣١٠٨)، وابن جرير (٦/ ٦٠٥/ ١٧٨٧٢و١٧٨٧٣و١٧٨٧٦)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٨٢/ ١٠٥٦٢)، وابن حبان (١٤/ ٩٧/ ٦٢١٥)، والحاكم (٢/ ٣٤٠)؛ من طرق عن شعبة.... به فذكره. وقال الترمذي: «حسن صحيح غريب». وأشار ابن جرير في رواية إلىٰ وقفه. وقال الحاكم: «علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه؛ إلا أن أكثر أصحاب شعبة أوقفوه علىٰ ابن عباس». ووافقه الذهبي.

* ورواه: ابن جرير (٦/ ٦٠٦/ ١٧٨٨١)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٨٢/ ١٠٥٦٣)؛ من طريق أبي خالد الأحمر... به موقوفًا. وعمر بن عبد الله ضعيف.

وبالجملة؛ فالحديث رفعه جماعة من الثقات من طريق شعبة. وسنده صحيح. نعم؛ أكثر أصحاب شعبة علىٰ وقفه كما ذكر الحاكم والذهبي؛ إلا أنه جاء مرفوعًا أيضًا من طريق ابن جدعان. ويشهد له حديث أبي هريرة الآتي بعد. وعليه؛ فالنفس ترتاح إلىٰ تصحيح هٰذا الحديث مرفوعًا ولاسيما أن مثله لا يقال إلا عن توقيف. وقد صححه الألباني في «الصحيحة» (٥/ ٢٦/ ٢٠١٥).

(٢) تقدم الكلام عنه في الحاشية السابقة.

جبريلُ أن تسبِقَ رحمةُ الله فيه غضبَهُ، فجعل يأخذُ الحال بجناحيه، فيضرِبُ به وجهَهُ فيُرْمِسُه[(١)].

ورواه ابنُ جرير من حديث أبي خالد... به.

وقد رواه ابن جَرير من طريق كثير بن زاذان- وليس بمعروف-، عن[(٢)] أبي حازم، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**قال لي جبريلُ** عليه السلام: **يا محمدُ! لو رأيتَني وأنا أغُطُّهُ وأدسُّ من الحالِ في فيه مخافةَ أن تدرِكَه رحمةُ الله فيغفِرَ له**»؛ يعني: فرعونَ[(٣)].

وقد أرسله غير واحد من السلف؛ كإبراهيم التيميِّ، وقتادة، وميمون بن مهران. ويقالُ: إن الضحَّاك بن قيس خطب به الناس.

وفي بعض الروايات أنَّ جبريل قال: «**ما بغضتُ أحدًا بُغْضي لفرعونَ حين قال:** ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾ [النازعات: ٢٤]، **ولقد جعلتُ أدسُّ في فيه الطينَ حين قال ما قال**»[(٤)].

وقوله تعالىٰ: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١﴾ [يونس: ٩١]: استفهامُ إنكارٍ، ونصٌّ علىٰ عدم قَبوله تعالىٰ منه ذٰلك؛ لأنَّه -والله أعلم- لو رُدَّ إلىٰ الدُّنيا كما كان؛ لعاد إلىٰ ما كان عليه؛ كما أخبر تعالىٰ عن الكفَّارِ إذا عاينوا النار وشاهَدوها أنَّهم يقولونَ: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]؛ قال الله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٢٨﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢]: قال ابنُ عباس وغيرُ

---

(١) يرُمِسُه: يدفنه ويقبره.

(٢) في جميع الأصول: «وعن»! مما جعله وكأنه سند آخر!! والتصويب من مصادر التخريج.

(٣) (حسن). رواه: الطبري (٦/ ٦٠٥/ ١٧٨٧٤): ثنا ابن حميد، ثنا حكام، عن عنبسة، عن كثير بن زاذان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة... به. وهٰذا سند ضعيف: ابن حميد: حافظ ضعيف. وابن زاذان: مجهول.
لٰكن له طريق أخرىٰ عند الطبراني في «الأوسط» (٦/ ٣٨٦/ ٥٨١٩): ثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، ثنا أبو كريب، ثنا عثمان بن زفر، عن قيس بن الربيع، عن سعيد بن مسروق، عن أبي حازم، عن أبي هريرة... به.
وهٰذا سند رجاله ثقات إلا قيس بن الربيع؛ فقد تغير، وأدخل عليه ابنه ما ليس من حديثه فحدث به، فأخشىٰ أن يكون ابنه قد سرق هٰذا من الوجه الأول وأدخله عليه!
وعلىٰ هٰذا؛ فالحديث باق علىٰ ضعفه بمجموع هٰذين الطريقين، ولٰكنه يتقوىٰ فيحسن إن شاء الله بحديث ابن عباس المتقدم والمراسيل الآتية بعده.

(٤) ذكرها السيوطي في «الدر» (٣/ ٥٦٩/ يونس ٩٠) ونسبها إلىٰ أبي الشيخ من حديث أبي أمامة مرفوعًا.

واحدٍ: شكَّ بعضُ بني إسرائيل في موت فرعونَ، حتىٰ قالَ بعضُهم: إنَّه لا يموتُ! فأمر الله البحرَ، فرفَعَه علىٰ مرتفع؛ **قيل**: علىٰ وجه الماء، **وقيل**: علىٰ نَجْوَةٍ من الأرض[1]، وعليه دِرْعُهُ التي يعرفونها من ملابسه؛ ليتحققوا بذٰلك هلاكَه، ويعلَموا قدرةَ الله عليه، ولهٰذا قال: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾؛ أي: مصاحبًا درعَكَ المعروفةَ بك. ﴿لِتَكُونَ﴾؛ أي: أنت آيةً. ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾؛ أي: من بني إسرائيل، ودليلًا علىٰ قدرة الله الذي أهلكَكَ، ولهٰذا قرأ بعضُ السلف: ﴿لِتَكونَ لِمَنْ خَلْقَكَ آيَةً﴾. ويُحتمل أن يكونَ المرادُ: ننجِّيك بجسدِك مصاحبًا دِرْعَكَ؛ لتكونَ علامةً لِمَن وراءَكَ من بني إسرائيل علىٰ معرفِتكَ وأنَّك هلكتَ. والله أعلم.

وقد كان هلاكُهُ وجنودِهِ في يوم عاشوراء؛ كما قال الإمام البخاري في «صحيحه»: حدثنا محمدُ بن بشار، حدثنا غُنْدَرٌ، حدثنا شعبة، عن أبي بشرٍ، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس؛ قال: قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ واليهودُ تصوم يوم عاشوراء؛ فقال: «**ما هٰذا اليومُ الذي تصومونَه؟**». فقالوا: هٰذا يومٌ ظَهَرَ فيه موسىٰ علىٰ فرعونَ. قال النبيُّ ﷺ لأصحابه: «**أنتم أحقُّ بموسى منهُم؛ فصوموا**»[2]. وأصل هٰذا الحديث في الصحيحين وغيرهما. والله أعلم.

۞ فصل فيما كان من أمر بني إسرائيل بعد هلاك فرعون:

قال الله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف: ١٣٦- ١٤١].

---

(١) علىٰ نجوةٍ من الأرض: علىٰ مرتفعٍ منها.

(٢) رواه: البخاري (٦٥-التفسير، ١٠-يونس، ٢-﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾، ٨/ ٣٤٨/ ٤٦٨٠)، ومسلم (١٣-الصيام، ١٩-صوم عاشوراء، ٢/ ٧٩٥/ ١١٣٠).

يذكرُ تعالىٰ ما كان من أمرِ فرعونَ وجنودِهِ في غرقهم، وكيف سَلَبَهُم عزَّهم ومالَهم وأنفسهم، وأورثَ بني إسرائيل جميعَ أموالهم وأملاكهم؛ كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ [الشعراء: ٥٩]، وقال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [القصص: ٥]، وقال هاهُنا: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ۝١٣٧﴾ [الأعراف: ١٣٧]، أي: أهلك ذٰلك جميعَه، وسَلَبهم عزَّهم العزيز العريض في الدُّنيا، وهلك الملكُ وحاشيتُه وأمراؤه وجنودُه، ولم يبق ببلد مصر سوىٰ العامَّةِ والرَّعايا.

ذكر ابن عبد الحكم في «تاريخ مصر»(١): أنه من ذٰلك الزمان تسلَّط نساءُ مصر علىٰ رجالها؛ بسبب أنَّ نساء الأمراء والكبراء تزوَّجْنَ بمَن دونهنَّ من العامة، فكانت لهن السطوةُ عليهم، واستمرَّتْ هٰذه سُنَّةُ نساء مصر إلىٰ يومنا هٰذا!

وعند أهل الكتاب(٢): أنَّ بني إسرائيل لما أُمِروا بالخروج من مصر؛ جعل الله ذٰلك الشهرَ أولَ سَنَتِهِم، وأُمروا أن يذبحَ أهلُ كلِّ بيت حَمَلًا من الغنم؛ فإن كانوا لا يحتاجون إلىٰ حَمَل؛ فَلْيَشْتَرِكِ الجارُ وجارُه فيه؛ فإذا ذبحوه؛ فَلْيَنْضَحوا من دمِهِ علىٰ أعتاب أبوابهم؛ ليكونَ علامةً لهم علىٰ بيوتِهِم، ولا يأكلونَه مطبوخًا، ولكن مشويًّا برأسه وأكارِعِه وبطنِهِ، ولا يُبْقوا منه شيئًا، ولا يكسِروا له عظمًا، ولا يُخْرِجوا منه شيئًا إلىٰ خارج بيوتهم، وَلِيَكُنْ خبزُهم فَطيرًا سبعة أيام، ابتداؤها من الرابعَ عشرَ من الشهر الأوَّل من سَنَتِهِم، وكان ذٰلك في فصل الربيع؛ فإذا أكلوا؛ فَلْتَكُنْ أوساطُهم مشدودةً، وخفافُهم في أرجُلِهِم، وعِصِيُّهم في أيديهم، وليأكلوا بسرعةٍ قيامًا، ومهما فَضَلَ عن عَشائهم؛ فما بقي إلىٰ الغد؛ فَلْيُحْرِقوه بالنار، وشُرِعَ لهم هٰذا عيدًا لأعقابهم ما دامت التوراةُ معمولًا بها؛ فإذا نُسِخَتْ؛ بَطَلَ شرعُها. وقد وقع.

قالوا: وقَتَلَ الله ﷻ في تلك الليلةِ أبكارَ القِبْطِ وأبكار دوابِّهم؛ ليشتغلوا عنهم، وخرج بنو إسرائيل حين انتصفَ النهار، وأهلُ مصر في مناحةٍ عظيمةٍ علىٰ أبكار أولادِهم وأبكارِ

---

(١) «فتوح مصر وأخبارها» (ص ٣١).

(٢) انظره هٰذا وما بعده من كلام أهل الكتاب في (سفر الخروج/ الأصحاح ١٢-١٦).

أموالهم، ليس من بيتٍ إلَّا وفيه عويلٌ. وحين جاء الوحيُ إلىٰ موسىٰ؛ خرجوا مسرعين، فحملوا العجينَ قبل اختمارِهِ، وحملوا الأزوادَ في الأرديَةِ وألقَوْها علىٰ عواتِقِهم، وكانوا قد استعاروا من أهل مصر حُلِيًّا كثيرًا، فخرجوا وهم ستُّ مئةِ ألفِ رجل سوىٰ الذَّراري بما معهم من الأنعام، وكانت مدةُ مُقامِهِم بمصر أربعَ مئة سنةٍ وثلاثين سنةً. هٰذا نصُّ كتابهم. وهٰذه السنةُ عندهم تُسمَّىٰ سنةَ الفصح[1]، وهٰذا العيد عيدَ الفصح[2]، ولهم عيدُ الفطر[3]، وعيد الحمل، وهو أول السنة. وهٰذه الأعياد الثلاثة آكدُ أعيادهم، منصوصٌ عليها في كتابهم.

ولمَّا خرجوا من مصر؛ أخرجوا معهم تابوتَ يوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وخرجوا علىٰ طريق بحر سوفٍ، وكانوا في النهار يسيرون والسحابُ بين أيديهم يسير أمامهم فيه عمود نورٍ، وبالليل أمامهم عمودُ نار، فانتهىٰ بهم الطريقُ إلىٰ ساحل البحر، فنزلوا هنالك، وأدركهَم فرعونُ وجنودُه من المصريين، وهم هناك حلولٌ علىٰ شاطئِ اليَمِّ، فَقَلِقَ كثيرٌ من بني إسرائيل، حتىٰ قال قائلُهم: كان بقاؤنا بمصرَ أحبَّ إلينا من الموتِ بهٰذه البريَّةِ! فقال موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِمَنْ قال هٰذه المقالة: لا تَخْشَوْا؛ فإنَّ فرعونَ وجنودَهُ لا يرجِعون إلىٰ بلدهم بعد هٰذا.

قالوا: وأمرَ الله موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يضرِبَ البحرَ بعصاه، وأن يقسِمَه ليدخُلَ بنو إسرائيل في البحرِ واليَبَس، وصار الماء من هاهُنا وهاهُنا كالجبلين، وصار وسطُهُ يَبَسًا؛ لأنَّ الله سلَّط عليه ريح الجَنوبِ والسَّموم، فجاز بنو إسرائيل البحرَ، وأَتْبَعَهُمْ فرعونُ وجنودُه، فلما توسَّطوه؛ أمر الله موسىٰ، فضرب البحر بعصاه، فرجَعَ الماء كما كان عليهم.

لٰكنْ <u>عند أهل الكتاب</u>: أنَّ هٰذا كان في الليل، وأنَّ البحر ارتطمَ عليهم عند الصُّبح! وهٰذا من غلطِهِم وعدم فَهْمهم في تعريبهم. والله أعلم.

قالوا: ولمَّا أغرقَ الله فرعونَ وجنودِهِ؛ حينئذٍ سبَّحَ موسىٰ وبنو إسرائيل بهٰذا التسبيح للربِّ، وقالوا: «نسبِّحُ الربَّ البهيَّ، الذي قَهَرَ الجنود، ونبذَ فرسانَها في البحرِ المنيع المحمود... وهو تسبيحٌ طويلٌ.

---

(١) في الأصول: «الفسخ»! وهٰذا هو اللفظ العبري لكلمة (الفصح).

(٢) في الأصول: «الفسخ»! وهٰذا هو اللفظ العبري لكلمة (الفصح).

(٣) في نسخة: «الفطير». والصواب ما أثبته؛ لأن عيد الفطير هو عيد الفصح نفسه.

قالوا: وأخذت مريمُ النَّبيَّةُ أختُ هارونَ دفًّا بيدها، وخرج النساءُ في أثرِها كلُّهن بدفوفٍ وطبول، وجعلت مريمُ ترتِّلُ لهنَّ وتقول: سبحان الربِّ القهَّار، الذي قهر الخيولَ وركبانَها إلقاءً في البحر.

هٰكذا رأيتُه في كتابِهِم، ولعل هٰذا هو من الذي حمل محمَّد بن كعب القرظيَّ علىٰ زعمِهِ: أنَّ مريمَ بنتَ عمران أمَّ عيسىٰ هي أختُ هارون وموسىٰ، مع قوله: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨]! وقد بيَّنَّا غلطَه في ذٰلك! وأنَّ هٰذا لا يمكن أن يُقالَ! ولم يتابِعْه أحدٌ عليه، بل كلُّ واحد خالفه فيه. ولو قُدِّرَ أنَّ هٰذا محفوظٌ؛ فهٰذه مريمُ بنتُ عمرانَ أختُ موسىٰ وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وأمُّ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وافقَتْها في الاسم واسم الأب واسم الأخ؛ لأنَّهم كما قال رسول الله ﷺ للمغيرة بن شُعبة لمَّا سأله أهلُ نجران عن قوله: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨]؟ فلم يدرِ ما يقول لهم، حتىٰ سأل رسول الله ﷺ عن ذٰلك؟ فقال: «**أما علمتَ أنَّهم كانوا يسمُّون بأسماء أنبيائِهم؟**». رواه مسلمٌ(١).

وقولهم: «النبيَّة» كما يُقال للمرأة من بيت المُلْكِ ملكةٌ، ومن بيت الإمرةِ أميرةٌ، وإن لم تكنْ مباشِرَةً شيئًا من ذٰلك؛ فكذا هٰذه استعارةٌ لها، لا أنَّها نبيَّة حقيقةً يوحىٰ إليها.

وضربُها بالدُّفِّ في مثل هٰذا اليوم الذي هو أعظمُ الأعياد عندهم دليلٌ علىٰ أنه قد كان شَرْعُ مَنْ قَبْلَنا ضربَ الدُّفِّ في العيد، وهٰذا مشروعٌ لنا أيضًا في حقِّ النساء؛ لحديث الجاريتين اللتين كانتا عند عائشة يضربان بالدُّفِّ في أيام منىٰ، ورسولُ الله ﷺ مضطجعٌ مولٍّ ظهرَه إليهنَّ(٢)، ووجهُهُ إلىٰ الحائِط، فلمَّا دَخَلَ أبو بكر؛ زَجَرَهُنَّ وقال: أبمزمورِ الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟! فقال: «**دعْهُنَّ يا أبا بكر! فإنَّ لكلِّ قوم عيدًا، وهٰذا عيدُنا**»(٣). وهٰكذا يُشْرَعُ عندنا في الأعراس ولقدوم الغيَّاب كما هو مقرَّرٌ في موضعه. والله أعلم.

وذكروا أنَّهم لمَّا جازوا البحر وذهبوا قاصدين إلىٰ بلاد الشام؛ مكثوا ثلاثة أيام لا يجدون

---

(١) سيأتي للمؤلف تفصيل أطول في الكلام عليه وعلىٰ طرقه (ص ٦٣٩)؛ فانظر تخريجه هناك.

(٢) في جميع الأصول: «إليهم»! وما أثبته أولىٰ وأحرىٰ.

(٣) رواه: البخاري (١٣-العيدين، ٣-سنة العيدين لأهل الإسلام، ٢/ ٤٤٥/ ٩٥٢)، ومسلم (٨-العيدين، ٤-الرخصة في اللعب، ٢/ ٦٠٧/ ٨٩٢).

ماءً، فتكلَّم مَن تكلَّم منهم بسبب ذٰلك، فوجدوا ماء زُعافًا أُجاجًا(١) لم يستطيعوا شربه، فأمر الله موسىٰ، فأخذ خشبةً، فوضَعَها فيه، فحلا وساغَ شربُهُ، وعلَّمه الربُّ هنالك فرائضَ وسننًا، ووصَّاه وصايا كثيرةً.

وقد قال الله تعالىٰ في كتابه العزيز المهيمن علىٰ ما عداه من الكُتُب: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٣٩]: قالوا هٰذا الجهلَ والضلالَ وقد عايَنوا من آيات الله وقدرتِهِ ما دلَّهم علىٰ صدق ما جاءهم به رسولُ ذي الجلال والإكرام!!

وذٰلك أنَّهم مرُّوا علىٰ قوم يعبُدون أصنامًا؛ **قيل**: كانت علىٰ صور البقر، فكأنَّهم سألوهم: لِمَ يعبُدُونها؟ فزعموا لهم أنَّها تنفعُهم وتضرُّهم ويسترزِقون بها عند الضَّروراتِ! فكأنَّ بعضَ الجهَّال منهم صَدَّقوهم في ذٰلك، فسألوا نبيَّهم الكليم الكريم العظيم أن يجعلَ لهم آلهةً كما لأولئك آلهةٌ، فقال لهم مبيِّنًا لهم أنَّهم لا يعقِلون ولا يهتدونَ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾، ثم ذكَّرَهُم نعمةَ الله عليهم في تفضيلِهِ إيَّاهم علىٰ عالَمي زمانهم؛ بالعلم، والشرع، والرسول الذي بين أظهرهم، وما أحسنَ به إليهم، وما امتنَّ به عليهم؛ من إنجائِهِم من قبضة فرعونَ الجبارِ العنيدِ، وإهلاكِهِ إيَّاه وهم ينظُرون، وتوريثِهِ إيَّاهم ما كان فرعونُ ومَلَؤُهُ يجمعونَه من الأموال والسَّعادة وما كانوا يعرِشونَ، وبيَّن لهم أنَّه لا تَصْلُحُ العبادةُ إلا لله وحده لا شريك له؛ لأنَّه الخالقُ الرازقُ القهَّار.

وليس كلُّ بني إسرائيلَ سأل هٰذا السؤالَ، بل هٰذا الضمير عائدٌ علىٰ الجنس في قوله: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾؛ أي: قال بعضُهم؛ كما في قوله: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ [الكهف: ٤٧-٤٨]؛ فالذين زعموا هٰذا بعضُ الناس لا كلُّهم.

---

(١) الزُّعاف: المهلك المميت. والأجاج: الشديد الملوحة.

وقد قال الإمام أحمدُ: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمرٌ، عن الزهريِّ، عن سِنان بن أبي سِنان الدِّيلي، عن أبي واقدٍ الليثيِّ؛ قال: خرجْنا مع رسول الله ﷺ قِبَلَ حُنينٍ، فمررنا بسِدْرَةٍ[١]، فقلنا: يا رسول الله! اجعلْ لنا هٰذه ذاتَ أنواطٍ كما للكفَّار ذاتُ أنواطٍ! وكان الكفارُ ينوطون سلاحَهم بسِدْرَةٍ ويعكُفون حولها، فقال النبيُّ ﷺ: «**الله أكبر! هٰذا كما قالتْ بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾! إنَّكم تركبونَ سُنَنَ الذين من قبلكم**»[٢].

ورواه النسائي: عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق... به.

ورواه الترمذي: عن سعيد بن عبد الرحمٰن المخزومي، عن سفيان بن عيينة، عن الزهري... به، ثم قال: حسن صحيح.

وقد روىٰ ابن جرير من حديث: محمد بن إسحاق ومعمر وعُقيل، عن الزهري، عن سنان بن أبي سنان، عن أبي واقد اللَّيثي: أنَّهم خرجوا من مكَّة مع رسول الله ﷺ إلىٰ حُنين. قال: وكان للكفَّار سدرةٌ يعكُفون عندها، ويعلِّقون بها أسلحَتَهم، يقالُ لها: ذاتُ أنواطٍ. قال: فمررنا بسدرةٍ خضراء عظيمةٍ. قال: فقلنا: يا رسول الله! اجعلْ لنا ذاتَ أنواط كما لهم ذاتُ أنواطٍ! قال: «**قلتُم -والذي نفسي بيدِهِ- كما قال قومُ موسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾**»[٣].

۞ [خبر نكول بني إسرائيل ونكوصهم عن قتال الجبارين]:

والمقصود: أنَّ موسىٰ عليه السلام؛ لمَّا انفصلَ من بلاد مصرَ وواجه بلادَ بيت المقدس؛ وجد فيها قومًا من الجبَّارينَ؛ من الحثِّيِّين[٤] والفزاريين والكنعانيين وغيرهم، فأمرهم موسىٰ عليه السلام

---

(١) السِّدْر: شجر النبق.

(٢) (صحيح). رواه: عبد الرزاق في «المصنف» (١١/ ٣٦٩/ ٢٠٧٦٣) و«التفسير» (١/ ٢٢٢/ ٩٣١)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٧٩/ ٣٧٣٦٤)، وأحمد (٥/ ٢١٨)، والترمذي (٣٤-الفتن، ١٨-لتركبن سنن من كان قبلكم، ٤/ ٤٧٥/ ٢١٨٠)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١/ ١١٢/ ١٥٥١٦-تحفة)، وأبو يعلىٰ في «المسند» (٣/ ٣٠/ ١٤٤١)، وابن جرير (٦/ ٤٦/ ١٥٠٦٥-١٥٠٦٨)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٥٣/ ٨٩٠٦)؛ من طرق عن الزهري... به فذكره. وسنده صحيح غاية، وقد صححه الترمذي وتابعه الألباني.

(٣) تقدم الكلام عنه في الحاشية السابقة.

(٤) في الأصول: «الحيثانيين»! والأصوب ما أثبته.

بالدُّخول عليهم ومقاتَلَتِهم وإجلائِهِم إيَّاهم عن بيت المقدس؛ فإنَّ الله كَتَبَهُ لهم ووعدَهم إيَّاه علىٰ لسانِ إبراهيمَ الخليل وموسىٰ الكَليم الجَليل، فأبَوْا ونكلوا عن الجهاد، فسلَّطَ اللهُ عليهم الخوفَ، وألقاهم في التِّيه يسيرون ويَحِلُّون ويرتَحِلون ويذهبون ويجيئون، في مدَّة من السنينَ طويلةٍ هي من العددِ أربعون!

كما قال اللهُ تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢٠-٢٦].

يذكِّرهم نبيُّ الله نعمةَ اللهِ عليهم وإحسانَه إليهم بالنِّعم الدينيَّة والدنيويَّة، ويأمُرهم بالجهاد في سبيل الله ومقاتلةِ أعدائِه، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾؛ أي: تنكُصوا علىٰ أعقابكم، وتَنْكُلوا عن قتال أعدائكم. ﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾؛ أي: فتخسروا بعد الرِّبح، وتنقُصوا بعد الكمال.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾؛ أي: عتاةً كفرةً متمرِّدين. ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾: خافوا من هٰؤلاء الجبَّارين؛ وقد عاينوا هلاكَ فرعونَ؛ وهو أجبرُ من هٰؤلاء وأشدُّ بأسًا وأكثرُ جمعًا وأعظمُ جندًا!! وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّهم مَلومون في هٰذه المقالة، ومَذمومون علىٰ هٰذه الحالة؛ من الذِّلَّة عن مصاولة الأعداء، ومقاومة المَرَدَةِ الأشقياء.

وقد ذكر كثيرٌ من المفسِّرين هاهُنا آثارًا فيها مجازفاتٌ كثيرةٌ باطلةٌ يدُلُّ العقل والنقلُ علىٰ خلافِها؛ من أنَّهم كانوا أشكالًا هائلةً ضخامًا جدًّا، حتىٰ إنَّهم ذكروا أنَّ رسل بني إسرائيل لمَّا

قدموا عليهم؛ تَلَقَّاهُم رجلٌ من رُسُل الجبارين، فجعل يأخذُهم واحدًا واحدًا، ويَلُفُّهم في أكمامِهِ وحُجْزَةِ سراويلِهِ[١]، وهم اثنا عشر رجلاً، فجاء بهم، فنثَرَهم بين يدي ملك الجبَّارين، فقال: ما هٰؤلاء؟ ولم يعرفْ أنَّهم من بني آدم حتىٰ عرَّفوه!! وكل هٰذه هَذَياناتٌ وخرافات لا حقيقة لها... وأنَّ الملكَ بعث معهم عِنبًا، كلُّ عِنَبةٍ تكفي الرجلَ، وشيئًا من ثمارِهم؛ لِيَعْلَموا ضخامةَ أشكالهم!! وهٰذا ليس بصحيح...

وذكروا هاهُنا أن عُوجَ بنَ عَنَقَ خرج من عند الجبَّارين إلىٰ بني إسرائيل لِيُهْلِكَهم، وكان طوله ثلاثةَ آلاف ذراعٍ وثلاثَ مئةٍ وثلاثةً وثلاثين ذراعًا وثلثَ ذراع! هٰكذا ذكره البغويُّ[٢] وغيره! وليس بصحيح؛ كما قدَّمنا بيانَه عند قوله ﷺ: «**إنَّ الله خَلَقَ آدم طولُهُ ستُّون ذراعًا، ثم لم يزلِ الخَلْقُ ينقُصُ حتى الآن**»[٣]. قالوا: فعَمَدَ عوج إلىٰ قمةِ جبل، فاقْتَلَعَها، ثم أخذها بيديه لِيُلْقِيَها علىٰ جيش موسىٰ، فجاء طائرٌ، فَنَقَرَ تلك الصخرةَ، فخرقَها، فصارت طوقًا في عُنُق عُوج بنِ عَنَق، ثم عَمَدَ موسىٰ إليه، فوثب في الهواء عشرةَ أذرع، وطولُه عشرةُ أذرع، وبيده عصاه وطولُها عشرةُ أذرع، فوصل إلىٰ كعب قدمِهِ، فقتله!!

يُروىٰ هٰذا عن نَوْفٍ البِكَالِيِّ، ونقله ابن جريرٍ[٤] عن ابن عباس، وفي إسناده إليه نظرٌ، ثم هو مع هٰذا كلِّه من الإسرائيليَّات، وكل هٰذه من وضع جُهَّال بني إسرائيل؛ فإنَّ الأخبارَ الكاذبةَ قد كَثُرَتْ عندَهم، ولا تمييزَ لهم بين صحَّتِها وباطِلِها.

ثم لو كان هٰذا صحيحًا؛ لكان بنو إسرائيل معذورينَ في النُّكول عن قتالِهم، وقد ذمَّهم الله علىٰ نُكولهم، وعاقبَهم بالتِّيه علىٰ تَرْكِ جهادِهم ومخالفتِهِم رسولَهم!!

وقد أشار عليهم رجلانِ صالحان منهم بالإقدام، ونَهَياهم عن الإحْجام، ويُقالُ: إنَّهما يُوشَعُ بنُ نونٍ وكالِبُ بنُ يَفُنَّةَ. قالَه ابنُ عباس ومجاهدٌ وعكرمةُ وعطيةُ والسُّدِّيُّ والربيع بن أنس وغيرُ واحدٍ ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾؛ أي: يخافون الله، وقرأ بعضهم:

---

(١) حُجْزَة السراويل: موضع التِّكَّة. وقد جاء في جميع الأصول: «حجرة السراويل»! ولا معنىٰ لها. فإنا لله.

(٢) في «معالم التنزيل» (٢/ ٢٣٥).

(٣) تقدم تخريجه في (ص٧١).

(٤) في «لتفسير» (٤/ ٥١٥/ ١١٦٦٠).

﴿يَخَافُونَ﴾؛ أي: يُهابون. ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾؛ أي: بالإسلام والإيمان والطَّاعةِ والشَّجاعة. ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: إذا توكَّلْتم علىٰ الله واستعنتُم به ولجأتُم إليه؛ نَصَرَكُم علىٰ عدوِّكم وأيَّدكم عليهم وأظفركم بهم.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾: فصمَّم مَلَؤُهم علىٰ النُّكول عن الجهاد، ووقع أمرٌ عظيمٌ ووهنٌ كبيرٌ، فيُقال: إنَّ يوشعَ وكالِبَ لمَّا سمعا هٰذا الكلام؛ شَقَّا ثيابَهما، وإن موسىٰ وهارون سَجَدا؛ إعظامًا لهٰذا الكلام وغضبًا لله ﷻ وشفقةً عليهم من وَبيل هٰذه المقالةِ(١).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾: قالَ ابنُ عباس: اقضِ بيني وبينَهم.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾: عُوقبوا علىٰ نكُولهم بالتَّيهان في الأرض؛ يسيرونَ إلىٰ غير مقصدٍ، ليلًا ونهارًا وصباحًا ومساءً. ويُقالُ: إنَّه لم يخرجْ أحدٌ من التِّيه ممَّن دَخَلَه، بل ماتوا كلُّهم في مدة أربعين سنةً، ولم يبقَ إلَّا ذَراريهم، سوىٰ يوشعَ وكالِب عليهما السلام(٢).

لٰكنَّ أصحاب محمدٍ ﷺ يوم بدرٍ لم يقولوا له كما قال قومُ موسىٰ لموسىٰ، بل لمَّا استشارَهم في الذَّهاب إلىٰ النفيرِ؛ تكلَّم الصِّدِّيقُ فأحسنَ، وتكلَّمَ غيرُهُ من المهاجرين، ثم جَعَلَ يقول: «أشيروا عليَّ». حتىٰ قال سعدُ بن معاذ: كأنَّك تُعَرِّضُ بنا يا رسول الله! فوالذي بَعَثَك بالحقِّ؛ لو اسْتَعْرَضْتَ بنا هٰذا البحر، فخُضْتَه؛ لَخُضْناه معك، ما تخلَّف منا رجلٌ واحدٌ، وما نكرهُ أن تلقىٰ بنا عدوَّنا غدًا، إنَّا لَصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء، لعلَّ الله أن يُرِيَكَ منَّا ما تَقَرُّ به عينُك؛ فسر بنا علىٰ بركةِ الله! فسُرَّ رسولُ الله ﷺ بقول سعدٍ ونَشَّطَه ذٰلك(٣).

(١) وهٰذا نص «العهد القديم» (سفر العدد/ الأصحاح ١٤).

(٢) وسيأتيك تفصيل هٰذا في قصة يوشع بن نون عليه السلام.

(٣) (حسن صحيح). رواه: ابن أبي شيبة (٧/ ٣٥٣/ ٣٦٦٤٩)، وابن مردويه (٣/ ١٣-بداية ونهاية)؛ من طريق محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص، عن أبيه، عن جده. وحسن الحافظ هٰذا الإسناد في «التهذيب» في ترجمة علقمة. وهو حسن في الشواهد.

ورواه ابن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير... فذكره. ذكره: ابن هشام في «السيرة» =

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا وكيعٌ، حدثنا سفيانُ، عن مخارق بن عبد الله الأحمسيِّ، عن طارق (هو ابن شهاب): أنَّ المقدادَ قال لرسول الله ﷺ يوم بدرٍ: يا رسولَ اللهِ! إنَّا لا نقولُ لك كما قالتْ بنو إسرائيلَ لموسىٰ: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾، ولكنِ اذهبْ أنت وربُّك فقاتِلا إنَّا معكُما مقاتلون[1]. وهٰذا إسنادٌ جيدٌ من هٰذا الوجه، وله طرقٌ أخرىٰ.

قال أحمدُ: حدثنا أسودُ بن عامر، حدثنا إسرائيلُ، عن مخارقٍ، عن طارق بن شهابٍ؛ قال: قال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: لقد شهدتُ من المقداد مشهدًا؛ لأنْ أكونَ أنا صاحِبَه أحبُّ إليَّ ممَّا عُدِلَ به، أتىٰ رسولَ الله ﷺ وهو يدعو علىٰ المشركين، فقال: والله يا رسول الله! لا نقولُ لك كما قالتْ بنو إسرائيل لموسىٰ: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولٰكنَّا نقاتِلُ عن يمينك، وعن يسارك ومن بين يدَيْك ومن خلفِك. فرأيت وجهَ رسول الله ﷺ يُشْرِقُ لذٰلك وسُر بذٰلك[2].

رواه البخاريُّ في التفسير والمغازي من طرقٍ عن مخارق به.

وقال الحافظُ أبو بكر بن مَرْدَويه: حدَّثنا علي بن الحسين بن علي، حدثنا أبو حاتم الرازيُّ، حدثنا محمد بنُ عبد الله الأنصاريُّ، حدثنا حميدٌ، عن أنس: أنَّ رسول الله ﷺ لما سار إلىٰ بدر؛ استشار المسلمينَ، فأشار عليه عمرُ، ثم استشارَهم، فقالتِ الأنصارُ: يا معشرَ الأنصار! إيَّاكم يريدُ رسولُ الله ﷺ. قالوا: إذًا؛ لا نقولُ له كما قال بنو إسرائيلَ لموسىٰ:

= (٣/ ١٦١)، والطبري في «التاريخ» (٢/ ٢٧). وهو مرسل حسن.

فالحديث حسن بمجموع هٰذين الطريقين، ثم هو صحيح بالشواهد الآتية بعده، وقد قواه الحافظ ابن كثير.

وقد جاء هنا أن المتكلم هو سعد بن معاذ، وجاء في أحاديث أخرىٰ صحيحة أن المتكلم هو سعد بن عبادة. والظاهر أن كلًّا منهما قد تكلم؛ فإن سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج؛ فكل منهما رضي الله عنهما قد تكلم عن قومه. والله أعلم.

(١) (صحيح). رواه أحمد (٤/ ٣١٤)، وسنده صحيح علىٰ شرط البخاري.

(٢) رواه: أحمد (١/ ٣٨٩ بالسند المذكور و٤٢٨ و٤٥٠)، والبخاري (٦٤-المغازي، ٤-﴿إذ تستغيثون ربكم﴾، ٧/ ٢٨٧/ ٣٩٥٢).

﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾. والذي بَعَثَك بالحقِّ؛ لو ضَرَبْتَ أكبادَها إلىٰ برك الغِمادِ؛ لاتَّبَعْناك[1].

رواه الإمامُ أحمدُ: عن عبيدة بن حميد، عن حميد الطويل، عن أنس... به.

ورواه النسائيُّ: عن محمد بن المثنَّىٰ، عن خالد بن الحارث، عن حُميد، عن أنس... به نحوه.

وأخرجه ابن حبان في «صحيحه» عن: أبي يعلىٰ، عن عبد الأعلىٰ بن حماد، عن معتمر، عن حميد، عن أنس... به نحوه.

۞ فصل: في دخول بني إسرائيل التيه وما جرى لهم فيه من الأمور العجيبة:

قد ذَكَرْنا نُكولَ بني إسرائيلَ عن قتال الجبَّارين، وأنَّ الله تعالىٰ عاقَبَهم بالتِّيه، وحكم بأنَّهم لا يخرجون منه إلىٰ أربعين سنة.

ولم أرَ في كتاب أهل الكتاب قصَّةَ نُكولهم عن قتال الجبَّارينَ، ولكن فيها[2]: أنَّ يُوشَعَ جهَّزَه موسىٰ لقتال طائفةٍ من الكفار، وأنَّ موسىٰ وهارون وحُورَ[3] جلسوا علىٰ رأس أكَمَةٍ، ورفع موسىٰ عصاه؛ فكلَّما رفعها؛ انتصر يُوشَعُ عليهم، وكلَّما مالت يدُه بها من تعبٍ أو نحوه؛ غلبهم أولئك، وجعل هارونُ وحُورُ يدعمانِ يديه عن يمينِهِ وشمالِهِ ذٰلك اليوم إلىٰ غروب الشمس، فانتصر حِزْبُ يُوشَعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وعندهم أنَّ يَثْرونَ كاهنَ مَدْيَنَ وختنَ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بلغه ما كان من أمر موسىٰ، وكيف أظْفَرَه الله بعدوِّه فرعونَ، فقَدِم علىٰ موسىٰ مسلِمًا، ومعه ابنتُهُ صِفُّورَةُ زوجة موسىٰ وابناها منه جِرْشومُ وألِيْعازَرُ، فتلقَّاه موسىٰ وأكرمَه واجتمعَ به شيوخُ بني إسرائيل وعظَّموه وأجَلُّوه.

وذكروا أنه رأىٰ كثرةَ اجتماع بني إسرائيلَ علىٰ موسىٰ في الخُصومات التي تقعُ بينَهم، فأشار

---

(١) (صحيح). رواه: أحمد (٣/ ١٠٥و١٨٨)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١/ ١٨٥/ ٦٢٩-تحفة)، وأبو يعلىٰ (٦/ ٤٠٧/ ٣٧٦٦و٣٨٠٣)، وابن حبان (١١/ ٢٣/ ٤٧٢١)، من طرق عن حميد... به فذكره.
وأصل الحديث في مسلم بلفظ قريب دون ذكر الآية وبني إسرائيل.

(٢) انظر هٰذا وما بعده في: «العهد القديم» (سفر الخروج/ الأصحاح ١٧-٢٣).

(٣) في جميع الأصول: «وخور»؛ بالمعجمة، وهو اللفظ العبري له، وقد أثبت ما في «العهد القديم».

علىٰ موسىٰ أن يجعلَ علىٰ الناس رجالًا أمناءَ أتقياء أعفَّاء، يُبْغِضون الرِّشا والخيانةَ، فيجعلُهم علىٰ الناس رؤوسَ ألوف ورؤوسَ مئينَ ورؤوس خمسينَ ورؤوس عشرةٍ، فيقضوا بين الناس؛ فإذا أشكل عليهم أمرٌ؛ جاؤوك ففصلتَ بينَهم ما أشكلَ عليهم. ففعل ذٰلك موسىٰ عليه السلام.

قالوا: ودخل بنو إسرائيل البريَّةَ عند سيناء في الشهر الثالث من خروجهم من مصر، وكان خروجُهم في أوَّل السنة التي شُرِعَتْ لهم، وهي أولُ فصل الربيع. فكأنَّهم دخلوا التِّيه في أول فصل الصيف. والله أعلم.

قالوا: ونزل بنو إسرائيلَ حولَ طور سيناء، وصَعِدَ موسىٰ الجبلَ، فكلَّمَه ربُّه، وأمره أن يُذَكِّرَ بني إسرائيل ما أنعم به عليهم؛ من إنجائِهِ إيَّاهم من فرعونَ وقومِهِ، وكيف حَمَلَهم علىٰ مثل جناحي نسرٍ من يده وقبضتِهِ، وأمره أن يأمرَ بني إسرائيل بأن يتطهَّروا ويغتسِلوا ويغسِلوا ثيابَهم ولْيَسْتَعِدُّوا إلىٰ اليوم الثالث؛ فإذا كان في اليوم الثالثِ؛ فَلْيَجْتَمِعوا حول الجبل، ولا يقتربنَّ أحدٌ منهم إليه؛ فمن دنا منه؛ قُتِلَ، حتىٰ ولا شيءٌ من البهائم؛ ما داموا يسمعون صوت القرنِ؛ فإذا سَكَنَ القرنُ؛ فقد حلَّ لكم أن تَرْتَقوه. فسمع بنو إسرائيل ذٰلك وأطاعوا واغتسلوا وتنظَّفوا وتطيَّبوا، فلمَّا كان اليومُ الثالثُ؛ ركبَ الجبلَ غمامةٌ عظيمةٌ، وفيها أصواتٌ وبروقٌ وصوتُ الصُّورِ شديدٌ جدًا، ففزعَ بنو إسرائيل من ذٰلك فَزَعًا شديدًا، وخَرَجوا فقاموا في سفح الجبل، وغشي الجبلَ دخانٌ عظيمٌ، في وسطه عمودُ نورٍ(١)، وتَزَلْزَلَ الجبل كلُّه زلزلةً شديدةً، واستمرَّ صوتُ الصُّور- وهو البوقُ- واشتدَّ، وموسىٰ عليه السلام فوقَ الجبل، والله يكلِّمُه ويناجيه، وأمر الربُّ عز وجل موسىٰ أن ينزلَ، ويأمُرَ بني إسرائيل أن يَقْتَرِبوا من الجبل ليسمَعوا وصيَّة الله، ويأمُرَ الأحبار- وهم علماؤُهم- أن يدنوا فيصعَدوا الجبلَ ليتقدَّموا بالقُرَب. وهٰذا نصٌّ في كتابهم علىٰ وقوع النسخ لا محالة. فقال موسىٰ: يا ربِّ! إنَّهم لا يستطيعون أن يصعَدوا؛ وقد نهيتَهم عن ذٰلك! فأمره الله تعالىٰ أن يذهبَ فيأتيَ معه بأخيه هارون، ولِيَكُنِ الكَهَنَةُ- وهم العلماءُ-، والشعبُ -وهم بقية بني إسرائيل- غيرَ بعيدٍ. ففعل موسىٰ، وكلَّمه ربُّه عز وجل، فأمره حينئذٍ بالعشرِ الكلماتِ.

وعندهم أنَّ بني إسرائيل سمعوا كلام الله، ولٰكنْ لم يفهموا، حتىٰ فهَّمهم موسىٰ، وجعلوا يقولون لموسىٰ: بلِّغْنا أنت عن الربِّ عز وجل؛ فإنَّا نخافُ أن نموتَ. فبلَّغَهم عنه، فقال

(١) في نسخة: «نار». وهو نص «العهد القديم».

هٰذه العشرَ الكلماتِ، وهي: الأمرُ بعبادة الله وحدَه لا شريكَ له. والنهيُ عن الحَلِفِ بالله كاذبًا. والأمرُ بالمحافظة علىٰ السبتِ، ومعناه: تَفَرُّغُ يوم من الأسبوع للعبادةِ، وهٰذا حاصلٌ بيوم الجُمُعَةِ الذي نَسَخَ الله به السبت. أكرِمْ أباك وأمَّك لِيَطولَ عُمُرُك في الأرض. الذي يعطيكَ اللهُ ربُّك. لا تقتُلْ. لا تزنِ. لا تسرِقْ. لا تشهدْ علىٰ صاحِبكَ شهادَةَ زورٍ. ولا تَمُدَّ عينَك إلىٰ بيت صاحِبك. ولا تَشْتَهِ امرأةَ صاحِبك ولا عبدَه ولا أَمَتَهُ ولا ثورَهُ ولا حِمارَه ولا شيئًا من الذي لصاحِبك، ومعناه النهي عن الحسد.

وقد قال كثيرٌ من علماء السلف وغيرهم: مضمونُ هٰذه العشر الكلماتِ في آيتين من القرآن، وهما قولُهُ تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

وذكروا بعد العشر الكلماتِ وصايا كثيرةً وأحكامًا متفرِّقةً عزيزةً؛ كانتْ فزالتْ، وعُمِلَ بها حينًا من الدَّهرِ، ثم طرأ عليها عصيانٌ من المكلَّفين بها، ثم عَمَدوا إليها فبدلوها وحرَّفوها وأوَّلوها، ثم بعد ذٰلك كلِّه سُلِبُوها فصارتْ منسوخةً مبدَّلةً بعدَما كانت مشروعةً مكمَّلةً؛ فلله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ، وهو الذي يَحْكُمُ ما يشاء ويفعلُ ما يريدُ، ألا له الخَلْقُ والأمرُ، تباركَ الله ربُّ العالمين.

وقد قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِيۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٠-٨٢].

يذكُرُ تعالىٰ منَّته وإحسانه إلىٰ بني إسرائيل؛ بما أنجاهم من أعدائِهم، وخلَّصهم من

الضِّيق والحَرَج، وأنَّه وعدهم صحبةَ نبيِّهم إلىٰ جانبِ الطُّور الأيمن؛ أي: منهم؛ لِيُنْزِلَ عليه أحكامًا عظيمة فيها مصلحةٌ لهم في دنياهم وأخراهم، وأنه تعالىٰ أنزلَ عليهم في حال شدَّتِهم وضرورتِهم في سفرِهم في الأرض التي ليس فيها زرعٌ ولا ضَرْعٌ مَنًّا من السماء؛ يصبِحون فيجِدونه خلال بيوتِهم، فيأخُذون منه قَدْرَ حاجتهم في ذٰلك اليوم إلىٰ مثلِهِ من الغدِ، ومَنِ ادَّخر منه لأكثر من ذٰلك؛ فَسَدَ، ومن أخذ منه قليلًا؛ كفاه، أو كثيرًا؛ لم يفضُلْ عنه، فيصنعون منه مثلَ الخبز، وهو في غاية البياض والحلاوة؛ فإذا كان من آخر النَّهار؛ غَشِيَهم طيرُ السَّلْوىٰ، فيقتَنِصون منها بلا كُلفةٍ ما يحتاجون إليه حسب كفايَتِهم لعَشائِهم، وإذا كان فصلُ الصيف؛ ظلَّلَ الله عليهم الغَمام، وهو السَّحاب الذي يستُرُ عنهم حرَّ الشمس وضوءها الباهر.

كما قال تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ۝٤١ ...﴾ إلىٰ أن قال: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ۝٤٩ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ۝٥٠ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ۝٥١ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٥٢ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝٥٣ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٤ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٥٦ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٥٧ ...﴾ إلىٰ أن قال: ﴿۞ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٦٠ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو

بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة: ٤٠-٦١].

فذكر تعالىٰ إنعامَه عليهم وإحسانَه إليهم بما يسَّر لهم من المنِّ والسلوىٰ؛ طعامَيْن شَهِيَّيْنِ بلا كُلفةٍ ولا سعي لهم فيه، بل ينزِّلُ اللهُ المَنَّ باكرًا، ويرسِلُ عليهم طيرَ السَّلْوىٰ عَشِيًّا، وأنبعَ الماءَ لهم بضربِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَجَرًا كانوا يحمِلونَه معهم بالعصا، فَتَفَجَّرَ منه اثنتا عشرةَ عينًا، لكلِّ سبطٍ عينٌ منه؛ تنبجِسُ، ثم تتفجِرُ ماء زُلالًا، فيستقونَ، فيشربونَ ويسقونَ دوابَّهم ويدَّخرون كفايتهم، وظلَّل عليهم الغمامَ من الحرِّ.

وهٰذه نعمٌ من الله عظيمة، وعطياتٌ جسيمة؛ فما رَعَوْها حقَّ رعايتها، ولا قاموا بشكرِها وحقِّ عبادتِها، ثم ضَجِرَ كثيرٌ منهم منها وتبرَّموا بها وسألوا أن يُسْتَبْدَلوا منها ببدلها ممَّا تُنْبتُ الأرض من بَقْلِها وقثَّائها وفومها وعدسِها وبصلِها! فَقَرَّعَهُمُ الكليمُ ووبَّخهم وأنَّبهم علىٰ هٰذه المقالة وعنَّفهم قائلا: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْۗ﴾ [البقرة: ٦١]؛ أي: هٰذا الذي تطلبونه وتريدونه بدل هٰذه النعم التي أنتم فيها حاصلٌ لأهل الأمصار الصغار والكبار موجودٌ بها، وإذا هبطتم إليها؛ أي: ونزلتُم عن هٰذه المرتبةِ التي لا تَصْلُحون لمنصِبها؛ تجدونَ بها ما تشتهون وما ترومونَ ممَّا ذكرتُم من المآكل الدنيَّة والأغذية الرديَّة، ولكنِّي لست أجيبُكم إلىٰ سؤال ذٰلك هاهنا ولا أبلِّغُكم ما تعنَّتُّم به من المنىٰ.

وكلُّ هٰذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم تدلُّ علىٰ أنَّهم لم ينتهوا عمَّا نُهُوا عنه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِىۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه: ٨١]؛ أي: فقد هَلَكَ، وحُقَّ له والله الهلاكُ والدمار؛ وقد حلَّ عليه غضبُ الملكِ الجبَّار. ولٰكنَّه تعالىٰ مزج هٰذا الوعيدَ الشديد، بالرجاء لِمَنْ أناب وتاب ولم يستمرَّ علىٰ متابعة الشيطان المريد، فقال: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢].

۞ سؤال الرؤية:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةًۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا

وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ
تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠
أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ
ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ
قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ
وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ
يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ
حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأعراف: ١٤٢-١٤٧].

قال جماعةٌ من السلف منهم ابنُ عباس ومسروقٌ ومجاهدٌ: الثلاثون ليلةً هي شهر ذي القَعْدة بكماله، وأُتِمَّتْ أربعين ليلةً بعشرٍ من ذي الحجَّة. فعلىٰ هٰذا يكون كلامُ الله له يومَ عيدِ النحر، وفي مثلِهِ أكملَ اللهُ ﷻ لمحمدٍ ﷺ دينَه وأقام حجَّتَه وبراهينَه[١].

والمقصودُ: أنَّ موسىٰ عليه السلام لمَّا استكملَ الميقاتَ، وكان فيه صائمًا، يقال: إنَّه لم يستطعِمِ الطعامَ، فلمَّا كَمَلَ الشهرُ؛ أخذ لحاءَ شجرةٍ، فمضَغَه لِيَطيبَ ريحُ فمِهِ، فأمره الله أن يمسِكَ عشرًا أخرىٰ، فصارتْ أربعين ليلةً، ولهٰذا ثبت في الحديث: «**أنَّ خُلوفَ فم الصَّائم أطيبُ عند الله مِن ريح المِسْك**»[٢].

فلمَّا عَزَمَ علىٰ الذَّهاب؛ استخلف علىٰ شعبِ بني إسرائيل أخاه هارونَ المحبَّبَ المبجَّلَ الجليل، وهو ابنُ أمِّه وأبيه، ووزيرُه في الدَّعوة إلىٰ مصطفيه، فوصَّاه وأمره، وليس في هٰذا لعلوِّ منزلتِهِ في نبوَّتِهِ منافاةٌ.

---

(١) روىٰ: البخاري (٢-الإيمان، ٣٣-زيادة الإيمان ونقصانه، ١/ ١٠٥/ ٤٥)، ومسلم (٥٤-التفسير، ٤/ ٢٣١٢/ ٣٠١٧)؛ عن طارق بن شهاب؛ قال: قالت اليهود لعمر: لو علينا معشر يهود نزلت هذه الآية: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا﴾؛ نعلم اليوم الذي أنزلت فيه؛ لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا، قال: فقال عمر: فقد علمت اليوم الذي أنزلت فيه، والساعة، وأين رسول الله ﷺ حين نزلت؛ نزلت ليلة جمع، ونحن مع رسول الله ﷺ: بعرفات.

(٢) رواه: البخاري (٣٠-الصوم، ٢-فضل الصوم، ٤/ ١٠٣/ ١٨٩٤)، ومسلم (١٣-الصيام، ٣٠-فضل الصيام، ٢/ ٨٠٦/ ١١٥١)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾؛ أي: في الوقت الذي أُمِرَ بالمجيء فيه. ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾؛ أي: كلَّمه الله من وراء حجاب؛ إلَّا أنَّه أسمعه الخطاب، فناداه وناجاه وقرَّبه وأدناه، وهٰذا مقامٌ رفيع ومَعقِلٌ منيع، ومنصِبٌ شريف ومنزِلٌ مُنيف؛ فصلوات الله عليه تترىٰ، وسلامه عليه في الدنيا والأخرىٰ.

ولمَّا أُعْطِيَ هٰذه المنزلة العليَّة والمرتبة السنيَّة وسمع الخطاب؛ سأل رَفْعَ الحجاب، فقال للعظيم الذي لا تُدْرِكُهُ الأبصار القويِّ البرهان: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾.

ثم بيَّنَ تعالىٰ أنَّه لا يستطيعُ أن يَثْبُتَ عند تجلِّيه ﷻ؛ لأنَّ الجبلَ الذي هو أقوىٰ وأكبرُ ذاتًا وأشدُّ ثباتًا من الإنسان لا يَثْبُتُ عند التجلِّي من الرحمٰن، ولهٰذا قال: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾: وفي الكتب المتقدِّمة[1]: أنَّ الله تعالىٰ قال له: يا موسىٰ! إنَّه لا يراني حيٌّ إلَّا مات، ولا يابسٌ إلَّا تَدَهْدَه. وفي «الصحيح» عن أبي موسىٰ عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**حجابُهُ النُّورُ (وفي رواية: النار)؛ لو كَشَفَهُ؛ لأحْرَقَتْ سُبُحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصرُهُ من خلقِهِ**»[2]. وقال ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]: ذاك نورُهُ الذي هو نوره؛ إذا تجلَّىٰ لشيء؛ لا يقوم له شيءٌ. ولهٰذا قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾: قال مجاهدٌ: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾؛ فإنَّه أكبرُ منك وأشدُّ خلقًا.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾: فنظر إلىٰ الجبل لا يتمالك، وأقبلَ الجبلُ فدُكَّ علىٰ أوَّله، ورأىٰ موسىٰ ما يَصْنَعُ الجبلُ؛ فخرَّ صَعِقًا.

وقد ذكرنا في «التفسير» ما رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه ابن جرير والحاكم من طريق: حماد بن سلمة، عن ثابت (زاد ابن جرير: وليث)[3]، عن أنس: أنَّ رسول الله ﷺ

---

(١) ما وجدته في «العهد القديم». ولٰكن ركب له بعض الوضاعين إسنادًا جعله فيه من حديث ابن عباس مرفوعًا! رواه: الترمذي الحكيم في «النوادر» (٣/ ٢٢١/ الأعراف ١٤٤-الدر)، وعنه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٣٥)! وقوله: «تدهده»؛ يعني: تدحرج.

(٢) رواه: مسلم (١-الإيمان، ٧٩-إن الله لا ينام، ١/ ١٦١/ ١٧٩) من حديث أبي موسىٰ. وقد جاء في جميع الأصول: «في الصحيحين»! وما هو في البخاري؛ فالصواب ما أثبته.

(٣) كذا في جميع الأصول! وأورده كذلك في «التفسير» (٢/ ٢٢٦/ الأعراف ١٤٣)، وليس في مطبوع ابن جرير ذكر =

قرأ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾؛ قال هٰكذا بأصبعه، ووضع النبيُّ ﷺ الإبهامَ علىٰ المَفْصِل الأعلىٰ من الخِنْصَرِ، فساخ الجبل[١]. لفظ ابن جرير.

وقال السُّدِّيُّ: عن عكرمة، عن ابن عباس: ما تجلَّىٰ (يعنىٰ: من العظمة) منه إلَّا قَدْرُ الخِنْصَرِ، فجعل الجبلَ دكًّا؛ قال: ترابًا، ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾؛ أي: مغشيًّا عليه. وقال قتادة: ميتًا. والصحيحُ الأوَّل؛ لقوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾؛ فإنَّ الإفاقةَ إنما تكون عن غَشْي.

﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾: تنزيهٌ وتعظيمٌ وإجلالٌ أن يَراه بعظمتِهِ أحدٌ.

﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾؛ أي: فلستُ أسألُ بعدَ هٰذا الرؤيةَ، ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾: أنَّه لا يراك أحدٌ حيٌّ إلَّا مات، ولا يابسٌ إلا تَدَهْدَهَ.

وقد ثبت في الصحيحين من طريق: عمرو بن يحيىٰ بن عمارة بن أبي حسن المازني الأنصاري، عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تخيِّروني من بين الأنبياء؛ فإنَّ الناس يُصْعَقونَ يومَ القيامة، فأكونُ أولَ مَن يُفيقُ؛ فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمةٍ من قوائم العرش، فلا أدري أفاقَ قبلي أم جُوزِيَ بصَعْقَةِ الطُّور؟**»[٢]. لفظ البخاري. وفي أوله قصَّةُ اليهوديِّ الذي لَطَمَ وجهَه الأنصاريُّ حين قال: لا والذي اصطفىٰ موسىٰ علىٰ البشرِ. فقال رسولُ الله ﷺ: «**لا تخيِّروني من بين الأنبياء**».

وفي الصحيحين من طريق: الزهري، عن أبي سلمة وعبد الرحمٰن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ... بنحوه. وفيه: «**لا تخيِّروني على موسى...**» وذكر تمامَه[٣].

= لـ (ليث) هٰذا، بل هو فيه (ثابت) علىٰ الجادة: فإما أن الخطأ من نسخة الحافظ ابن كثير، أو تنبه محقق ابن جرير للخطإ فأصلحه دون إشارة!

(١) (**صحيح**). رواه: أحمد (٣/ ١٢٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢١٠/ ٤٨٠و٤٨١)، والترمذي (٤٨-التفسير، ٨-ومن سورة الأعراف، ٥/ ٢٦٥/ ٣٠٧٤)، وابن جرير (٦/ ٥٤/ ١٥٠٩٧و١٥٠٩٨)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٥٩/ ٨٩٣٦)، والحاكم (٢/ ٣٢٠)؛ من طريق حماد... به.

وهٰذا سند صحيح، وقد صححه الترمذي والحاكم والذهبي والألباني.

(٢) رواه: البخاري (٤٤-الخصومات، ١١-ما يذكر في الإشخاص والخصومة بين المسلم واليهود، ٥/ ٧٠/ ٢٤١٢)، ومسلم (٤٣- الفضائل، ٤٢- من فضائل موسىٰ ﷺ، ٤/ ١٨٤٥/ ٢٣٧٤).

(٣) تقدم بلفظه وتخريجه (ص٣٣٥) في آخر قصة يونس عليه السلام.

وهٰذا من باب: الهَضْم والتَّواضُع، أو النَّهْي عن التَّفْضيل بين الأنبياءِ علىٰ وجه الغَضَبِ والعصبيَّة، أو ليس هٰذا إليكُم، بل الله هو الذي رَفَعَ بعضَهم فوق بعض درجاتٍ، وليس يُنال هٰذا بمجرَّد الرأي، بل بالتوقيف. ومن قال: إنَّ هٰذا قاله قبل أن يعلم أنَّه أفضل، ثم نُسِخَ باطِّلاعه علىٰ أفضليَّتِهِ عليهم كلِّهم؛ ففي قوله نظرٌ؛ لأنَّ هٰذا من رواية أبي سعيد وأبي هريرة، وما هاجر أبو هريرةَ إلَّا عامَ حنينٍ متأخِّرًا، فيبعُدُ أنَّه لم يعلمْ بهٰذا إلَّا بعد هٰذا. والله أعلم.

ولا شكَّ أنَّه صلوات الله وسلامه عليه أفضلُ البشرِ، بل الخليقةِ: قال الله تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وما كَمَلوا إلا بشرفِ نَبِيِّهم. وثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه أنَّه قال: «**أنا سيِّدُ ولد آدم يومَ القيامةِ ولا فخر**...»(١)، ثم ذَكَرَ اختصاصه بالمقام المحمودِ، الذي يَغْبِطُهُ به الأوَّلون والآخرون، الذي تَحيد عنه الأنبياءُ والمرسَلون، حتىٰ أولو العزم الأكملون؛ نوحٌ وإبراهيمُ وموسىٰ وعيسىٰ ابنُ مريم.

وقوله ﷺ: «**فأكونُ أولَ مَن يُفيقُ، فأجِدُ موسى باطشًا بقائمةِ العَرْش (أي: آخذًا بها)؛ فلا أدري أفاقَ قبلي أم جُوزِيَ بصَعْقَةِ الطُّور؟**»: دليلٌ علىٰ أنَّ هٰذا الصَّعْقُ الذي يحصُلُ للخلائق في عَرَصات القيامة حين يتجلَّىٰ الربُّ لفصل القضاءِ بين عبادِهِ، فيُصْعَقون من شدَّة الهيبة والعظمة والجلاء، فيكونُ أولَهم إفاقةً محمدٌ خاتِمُ الأنبياء ومصطفىٰ ربِّ الأرض والسماء علىٰ سائر الأنبياء، فيجِدُ موسىٰ باطشًا بقائمة العرش.

قال الصادق المصدوق: «**أفلا أدري أصَعِقَ فأفاق قبلي؟**»؛ أي: وكانت صعقتُهُ خفيفةً؛ لأنَّه قد نالَه بهٰذا السبب في الدُّنيا صَعْقٌ. «**أو جوزِيَ بصَعْقَةِ الطُّور**»؛ يعني: فلم يَصْعَقْ بالكُلِّيَّة.

وهٰذا فيه شرفٌ كبير لموسىٰ عليه السلام من هٰذه الحيثيَّة، ولا يلزمُ تفضيلُه بها مطلقًا من كلِّ وجهٍ، ولهٰذا نبَّه رسولُ الله ﷺ علىٰ شرفِهِ وفضيلتِهِ بهٰذه الصفة؛ لأنَّ المسلم لمَّا ضَرَبَ وجهَ اليهوديِّ حين قال: لا والذي اصطفىٰ موسىٰ علىٰ البشر؛ قد يحصُلُ في نفوس المشاهدين لذٰلك هضمٌ بجناب موسىٰ عليه السلام، فبيَّنَ النبيُّ ﷺ فضيلتَه وشرفَه.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾؛ أي: في ذٰلك الزمان: لا ما قبله؛ لأنَّ إبراهيمَ الخليلَ أفضلُ منه؛ كما تقدَّم بيانُ ذٰلك في قصَّة إبراهيم، ولا ما بعده؛

(١) قطعة من حديث تقدم تخريجه (ص١١٠).

لأنَّ محمَّدًا ﷺ أفضلُ منهما؛ كما ظَهَرَ شرفُه ليلةَ الإسراء علىٰ جميع المرسلين والأنبياء، وكما ثبت أنَّه قال: «سأقوم مقامًا يَرْغَبُ إليَّ الخَلْقُ حتَّى إبراهيمُ»(١). وقوله تعالىٰ: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾؛ أي: فخُذْ ما أعطيتُك من الرسالة والكلام، ولا تسألْ زيادةً عليه، وكنْ من الشاكرين علىٰ ذٰلك.

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾: وكانت الألواحُ من جوهرٍ نفيس؛ ففي الصحيح: أنَّ الله كَتَبَ له التوراةَ بيدِهِ(٢)، وفيها مواعظُ عن الآثام، وتفصيلٌ لكلِّ ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام. ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾؛ أي: بعزم ونيَّةٍ صادقةٍ قويةٍ. ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾: أنْ يضعوها علىٰ أحسن وجوهِها وأجمل محامِلِها. ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾؛ أي: سَتَرَوْنَ عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفينَ لأمري المكذِّبين لرسلي.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ﴾؛ أي: عن فهمها وتدبُّرها وتعقُّل معناها الذي أُريدَ منها ودلَّ عليه مقتضاها. ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾؛ أي: ولو شاهدوا مهما شاهدوا من الخوارق والمعجزات؛ لا ينقادون لاتباعها. ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾؛ أي: لا يَسْلُكوه ولا يتَّبِعوه. ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: صَرَفْناهم عن ذٰلك لتكذيبِهم بآياتِنا وتغافُلِهم عنها وإعراضِهم عن التصديقِ بها والتفكيرِ في معناها وتركِ العمل بمقتضاها. ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾.

۞ قصة عبادتهم العجل في غيبة كليم الله عنهم:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ * وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢١١).

(٢) جاء هٰذا في بعض ألفاظ حديث أبي هريرة في محاجَّة آدم وموسىٰ وقد تقدم (ص٥٧ - ٦٠) مطولاً مفصلاً في قصة آدم عليه السلام.

غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ
ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾
قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ
سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟
مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى
نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف: ١٤٨-١٥٤].

وقال تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ
لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ
قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ
فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ
أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ
أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ
رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا
مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ
أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا
لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ
فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ
عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ
عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٨٣-٩٨].

يذكُرُ تعالىٰ ما كان من أمرِ بني إسرائيل حين ذهبَ موسىٰ عليه السلام إلىٰ ميقاتِ ربِّه، فمَكَثَ علىٰ الطُّورِ يُناجيه ربُّه ويسألُه موسىٰ عليه السلام عن أشياء كثيرةٍ وهو تعالىٰ يجيبُهُ عنها، فعَمَدَ رجلٌ منهم يُقالُ له: هارونُ السَّامِرِيُّ، فأخذ ما كانوا استعاروه من الحُلِيِّ، فصاغ منه عجلًا، وألقىٰ فيه قبضةً من التُّرابِ كان أخذَها من أثر فرس جبريلَ حين رآه يومَ أغرَقَ اللهُ فرعونَ علىٰ

يديه، فلمَّا ألقاها فيه؛ خارَ كما يَخورُ العجلُ الحقيقيُّ، ويُقالُ: إنَّه استحالَ عجلًا جسدًا؛ أي: لحمًا ودمًا حيًّا يَخورُ. قالَه قتادةُ وغيرُه. وقيل: بل كانتِ الريحُ إذا دخلتْ من دُبُرِهِ؛ خرجتْ من فمِهِ، فيخورُ كما تَخورُ البقرةُ، فيرقُصون حولَه ويفرحون! ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ٨٨﴾ [طه: ٨٨]؛ أي: فنسيَ موسىٰ ربَّه عندنا! وذَهَبَ يتطلَّبه وهو هاهنا!! تعالىٰ الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، وتقدَّست أسماؤُهُ وصفاتُه، وتضاعَفَتْ آلاؤُه وهباتُه[1]. قال الله تعالىٰ مبينًا بطلان ما ذهبوا إليه، وما عوَّلوا عليه من إلٰهية هٰذا الذي قصاراه أن يكون حيوانًا بهيمًا أو شيطانًا رجيمًا: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ٨٩﴾ [طه: ٨٩]، وقال: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨﴾ [الأعراف: ١٤٨]: فذكر أنَّ هٰذا الحيوانَ؛ لا يتكلَّم، ولا يردُّ جوابًا، ولا يملِكُ ضَرًّا ولا نفعًا، ولا يهدي إلىٰ رشدٍ؛ اتَّخذوه وهم ظالمون لأنفسهم، عالمون في أنفسهم بطلانَ ما هُم عليه من الجهل والضلال.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الأعراف: ١٤٩]؛ أي: ندموا علىٰ ما صنعوا. ﴿وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩﴾ [الأعراف: ١٤٩].

ولمَّا رَجَعَ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إليهم، ورأىٰ ما هم عليه من عبادةِ العجل، ومعه الألواح المتضمِّنَةُ التوراةَ؛ ألقاها، فيُقالُ: إنَّه كسرها -وهٰكذا هو عندَ أهل الكتابِ[2]- وإنَّ الله أبْدَلَه غيرها! وليس في اللفظِ القرآنيِّ ما يدلُّ علىٰ ذٰلك؛ إلَّا أنَّه ألقاها حين عاينَ ما عاينَ.

وعند أهل الكتاب[3]: أنَّهما كانا لوحينِ! وظاهرُ القرآن أنَّها ألواحٌ متعدِّدة، ولم يتأثَّر بمجرَّد الخبرِ من الله تعالىٰ عن عبادة العجل، فأمره بمعاينةِ ذٰلك، ولهٰذا جاء في الحديث الذي رواه الإمامُ أحمدُ وابنُ حبانَ عن ابن عباس؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليس الخَبَرُ كالمُعاينةِ»**[4].

---

(١) في نسخة: «وعداته».

(٢) في (سفر الخروج/ الأصحاح٣٢).

(٣) في (سفر الخروج/ الأصحاح٣٢).

(٤) (**صحيح**). رواه: أحمد (١/ ٢١٥ و٢٧١)، وابن حبان (١٤/ ٩٦/ ٦٢١٣)، والطبراني في «الأوسط» (١/ ٤٥/ ٢٥)، والحاكم (٢/ ٣٢١)؛ من طرق عن هشيم، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس... فذكره مرفوعًا.

وهٰذا سند صحيح لولا عنعنة هشيم علىٰ كثرة تدليسه. ولٰكنه لم ينفرد به، بل توبع:=

ثم أقبل عليهم فعنَّفَهم ووبَّخَهم وهجَّنَهم في صنيعهم هٰذا القبيح، فاعتذروا إليه بما ليس بصحيح؛ قالوا: إنَّا ﴿حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾﴾ [طه: ٨٧]: تحرَّجوا من تملُّكِ حُليِّ آل فرعونَ -وهم أهلُ حربٍ وقد أمَرَهُم الله بأخذِهِ وأباحَه لهم- ولم يتحرَّجوا بجهلِهِم وقلَّةِ علمِهِم وعقلِهِم من عبادةِ العجل الجسدِ الذي له خُوار مع الواحد الأحد الفرد الصَّمد القهَّار!

ثم أقبل علىٰ أخيه هارون عليه السلام قائلًا له: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ [طه: ٩٢-٩٣]؛ أي: هلَّا لمَّا رأيتَ ما صنعوا اتَّبَعْتَني فأعلَمْتني بما فعلوا! فقال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [طه: ٩٤]؛ أي: تركْتَهُم وجِئْتَني وأنت قد استخْلَفْتني فيهم. ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف: ١٥١].

وقد كان هارونُ عليه السلام نهاهم عن هٰذا الصَّنيع الفظيع أشدَّ النَّهي، وزَجَرَهم عنه أتمَّ الزَّجْر؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ﴾ [طه: ٩٠]؛ أي: إنَّما قدَّرَ اللهُ أمرَ هٰذا العجل وجَعَلَه يخورُ فتنةً واختبارًا لكم. ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ﴾ [طه: ٩٠]؛ أي: لا هٰذا. ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ [طه: ٩٠]؛ أي: فيما أقولُ لَكُم. ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه: ٩٠-٩١]: يشهدُ اللهُ لهارون عليه السلام -وكَفىٰ باللهِ شهيدًا- أنَّه نهاهم وزَجَرَهُم عن ذٰلك فلم يطيعوه ولم يتَّبِعوه[1].

ثم أقبل موسىٰ علىٰ السامري: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾﴾ [طه: ٩٥]؛ أي: ما حَمَلَكَ علىٰ ما صنعت؟ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ [طه: ٩٦]؛ أي: رأيتُ جبرائيلَ وهو راكبٌ

= فرواه: ابن حبان (١٤/ ٩٧/ ٦٢١٤)، والطبراني (١٢/ ٤٢/ ١٢٤٥١)، والحاكم (٢/ ٣٨٠)؛ من طريق أبي عوانة، عن أبي بشر... به، فذكره.

ورواه الطبراني في «الأوسط» (٧/ ٤٩٦/ ٦٩٨٢) من طريق حكيم بن حكيم بن عباد، عن سعيد بن جبير... به، فذكره.

فالحديث صحيح بهذه المتابعات، وقد صححه ابن حبان، والحاكم علىٰ شرط الشيخين ووافقه الذهبي في الموضعين، قال الهيثمي (١/ ١٥٨): «رواه أحمد والطبراني في «الكبير» و«الأوسط» ورجاله رجال الصحيح». وتابعهم الألباني في «الطحاوية» (٣٣٥/ ٤٠١).

(١) وهٰذا يردُّ ما جاء في «العهد القديم» (سفر الخروج/ الأصحاح ٣٢) من أن هارون عليه السلام هو الذي صنع العجل لبني إسرائيل!! قاتلهم الله.

فرسًا. ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ [طه: ٩٦]؛ أي: من أثرِ فرس جبريل. وقد ذَكَرَ بعضُهم أنَّه رآه؛ وكلَّما وَطِئَتْ بحوافِرِها علىٰ موضع؛ اخضرَّ وأعْشَبَ، فأخذ من أثرِ حافرها، فلمَّا ألقاه في هٰذا العجل المصنوع من الذهب؛ كان من أمره ما كان. ولهٰذا قال: ﴿فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [طه: ٩٦-٩٧]: وهٰذا دعاءٌ عليه بألَّا يَمَسَّ أحدًا؛ معاقبةً له علىٰ مسِّه ما لَمْ يَكُنْ له مسُّه، هٰذا معاقبةٌ له في الدُّنيا، ثم توعَّده في الأخرىٰ فقال: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ (وقرئ: لن نُخْلِفَهُ) وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ [طه: ٩٧]: قال: فعَمَدَ موسىٰ عليه السلام إلىٰ هٰذا العجل، فحرَّقَه: قيل: بالنارِ؛ كما قالَه قتادةُ وغيره. وقيل: بالمبارِدِ؛ كما قاله عليٌّ وابنُ عباس وغيرهما، وهو نصُّ أهل الكتاب[1]. ثم ذرَّاه في البحر، وأمر بني إسرائيل، فشربوا؛ فمَن كان من عابديه؛ عَلِقَ علىٰ شفاهِهِم من ذٰلك الرمادِ ما يدلُّ عليه، وقيل: بل اصفرَّتْ ألوانُهم.

ثم قال تعالىٰ إخبارًا عن موسىٰ أنَّه قال لهم: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأعراف: ١٥٢]: وهٰكذا وقع، وقد قال بعضُ السَّلَف: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾: مسجَّلةٌ لكلِّ صاحب بدعةٍ إلىٰ يوم القيامة.

ثم أخبر تعالىٰ عن حِلْمِهِ ورحمتِهِ بخلقِهِ وإحسانِهِ علىٰ عبيده في قَبوله توبةَ من تاب إليه بتوبته عليه، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأعراف: ١٥٣]: لٰكنْ لم يَقْبَلِ اللهُ توبةَ عابدي العجل إلا بالقتل؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة: ٥٤]: فيقال: إنهم أصبحوا يومًا وقد أخَذَ مَنْ لم يعبدِ العجلَ في أيديهم السيوفَ، وألقىٰ اللهُ عليهم ضبابًا حتىٰ لا يَعْرِفَ القريبُ قريبَه ولا النَّسيبُ نسيبَه، ثم مالوا علىٰ عابديه فقتَلوهم وحَصَدوهم، فيقال: إنَّهم قتَلوا في صبيحةٍ واحدةٍ سبعين ألفًا.

---

(١) في (سفر الخروج/ الأصحاح٣٢).

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ۝١٥٤﴾ [الأعراف: ١٥٤]: استدل بعضهم بقوله: ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾: علىٰ أنها تكسَّرَتْ! وفي هٰذا الاستدلال نظرٌ، وليس في اللفظِ ما يدلُّ علىٰ أنها تكسَّرتْ. والله أعلم.

وقد ذَكَرَ ابنُ عباس في حديث الفُتون -كما سيأتي[1] - أنَّ عبادتَهم العجلَ كانت علىٰ أثَرِ خروجِهم من البحر، وما هو ببعيدٍ؛ لأنَّهم حين خرجوا؛ ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]! وهٰكذا عند أهل الكتاب[2]؛ فإنَّ عبادتَهم العجلَ كانتْ قبل مجيئِهم بلادَ بيت المقدس، وذٰلك أنَّهم لمَّا أُمِروا بقتل مَنْ عَبَدَ العجلَ؛ قتلوا في أول يوم ثلاثةَ آلاف، ثم ذهب موسىٰ يستغفرُ لهم، فَغفَرَ لهم بشرط أن يدخلوا الأرضَ المقدَّسةَ.

۞ [سؤال بني إسرائيل رؤية الله جهرًا]:

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ۝١٥٥ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٥٧﴾ [الأعراف: ١٥٥-١٥٧].

ذكر السُّدِّيُّ وابنُ عباس وغيرُهما أنَّ هٰؤلاء السبعين كانوا علماءَ بني إسرائيل، ومعهم موسىٰ وهارونُ ويوشَعُ ونادابُ وأبيهو، ذهبوا مع موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ليعتذِروا عن بني إسرائيل في عبادةِ مَنْ عَبَدَ منهم العجلَ، وكانوا قد أُمِروا أن يتطيَّبوا ويتطهَّروا ويغتسِلوا، فلمَّا ذهبوا معه واقتربوا من الجبل وعليه الغَمامُ وعمودُ النورِ ساطعٌ؛ صَعِدَ موسىٰ الجبل: فذكر بنو إسرائيل[3]

---

(١) (ص٤٣٨-٤٥٠).

(٢) وبينهما حوادث كثيرة عندهم وانظر: (سفر الخروج/ الأصحاح ٣٢- سفر العدد/ الأصحاح١٣).

(٣) انظر (سفر الخروج/ الأصحاح ١٩-٢٤).

أنَّهم سمِعوا كلام الله! وهٰذا قد وافقهم عليه طائفةٌ من المفسِّرين!! وحملوا عليه قولَه تعالىٰ: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥]، وليس هٰذا بلازم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]؛ أي: مبلَّغًا، وهٰكذا هٰؤلاء سمعوه مبلَّغًا من موسىٰ عليه السلام. وزعموا أيضًا أنَّ السبعينَ رأوا الله، وهٰذا غلطٌ منهم؛ لأنَّهم لمَّا سألوا الرؤيةَ؛ أخذتْهُمُ الرجفةُ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦]، وقال هاهنا: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٥].

قال محمد بن إسحاق: اختار موسىٰ من بني إسرائيل سبعينَ رجلًا؛ الخَيِّرَ فالخَيِّرَ، وقال: انطَلِقوا إلىٰ الله؛ فتوبوا إليه بما صَنَعْتُم، وسلوه التوبةَ علىٰ مَنْ تركْتُم وراءكم من قومكم، صوموا، وتطهَّروا، وطهِّروا ثيابكم. فخرج بهم إلىٰ طور سيناء لميقاتٍ وقَّتَه له ربُّه، وكان لا يأتيه إلَّا بإذنٍ منه وعلم، فطلب منه السبعونَ أن يسمعوا كلامَ الله! فقال: أفعلُ. فلمَّا دنا موسىٰ من الجبل؛ وقع عليه عمودُ الغَمام حتىٰ تَغَشَّىٰ الجبلَ كلَّه، ودنا موسىٰ فدخل في الغَمام، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسىٰ إذا كلَّمَه اللهُ؛ وقع علىٰ جبهتِهِ نورٌ ساطعٌ لا يستطيعُ أحدٌ من بني آدم أن ينظُرَ إليه، فضُرِبَ دونَه الحجابُ، ودنا القومُ، حتىٰ إذا دَخلوا في الغمام؛ وقعوا سجودًا، فسمعوه وهو يكلِّمُ موسىٰ؛ يأمُرُه وينهاه: افعل ولا تفعل! فلمَّا فَرَغَ الله من أمرِهِ، وانكشف عن موسىٰ الغمامُ؛ أقبل إليهمْ، فقالوا: ﴿يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]! فأخذَتْهُمُ الرجفةُ - وهي الصاعقةُ - فأتلفتْ أرواحَهم فماتوا جميعًا. فقام موسىٰ يناشِدُ ربَّه ويدعوه ويرغَبُ إليه ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥]؛ أي: لا تؤاخِذْنا بما فعل السفهاءُ الذين عَبَدوا العجلَ منَّا؛ فإنا بُرآء ممَّا عملوا.

وقال ابن عباس ومجاهد وقَتادة وابن جُريج: إنَّما أخذَتْهُمُ الرجفةُ لأنَّهم لم يَنْهَوا قومَهم عن عبادة العجل.

وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]؛ أي: اختبارُك وابتلاؤُك وامتحانُك. قاله ابنُ

عباس وسعيدُ بن جُبير وأبو العاليةِ والربيع بن أنس وغيرُ واحدٍ من علماء السَّلف والخَلَف؛ يعني: أنت الذي قَدَّرْتَ هٰذا وخلَقْتَ ما كان من أمرِ العجل اختبارًا تختبِرُهم به؛ كما قالَ لهم هارونُ مَنْ قَبْلُ: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾ [طه: ٩٠]؛ أي: اختُبِرْتُم. ولهٰذا قال: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ﴾ [الأعراف: ١٥٥]؛ أي: مَن شئتَ أضلَلْتَه باختبارك إيَّاه، ومن شئتَ هديتَه، لك الحكمُ والمشيئةُ، ولا مانعَ ولا رادَّ لِما حكمتَ وقضيتَ. ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥ ۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: ١٥٥-١٥٦]؛ أي: تُبنا إليك ورجَعْنا وأنبنا. قالَهُ ابنُ عباس ومجاهدٌ وسعيدُ بن جُبيرٍ وأبو العالية وإبراهيم التيميُّ والضحَّاكُ والسُّدِّيُّ وقَتادة وغيرُ واحدٍ. وهو كذٰلك في اللغة.

﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦]؛ أي: أنا أعذِّبُ مَن شئتُ بما أشاءُ من الأمورِ التي أخلُقُها وأقدِّرُها. ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾: كما ثَبَتَ في الصحيحين عن رسول الله ﷺ؛ أنَّه قال: «**إنَّ الله لما فرغ من خلق السماوات والأرض كتب كتابا فهو موضوع عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي**»(١). ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦﴾؛ أي: فسأوجِبُها حتمًا لمن يتَّصِفُ بهٰذه الصفات. ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ...﴾ [الأعراف: ١٥٧] الآية: وهٰذا فيه تنويهٌ بذِكْر محمَّد ﷺ وأمَّتِهِ من الله لموسىٰ عليه السلام في جُملةِ ما ناجاه به وأعلَمَه وأطلَعَه عليه، وقد تكلَّمْنا علىٰ هٰذه الآيةِ وما بعدَها في «التفسير» بما فيه كفايةٌ ومَقْنَعٌ. ولله الحمد والمِنَّة.

۞ [ذكر بعض ما ورد في مناجاة موسى لربه تعالى]:

وقال قَتادةُ: قال موسىٰ: يا ربِّ! إنِّي أجدُ في الألواح أمَّةً هي خيرُ أمَّةٍ أخرِجَت للناس؛ يأمرونَ بالمعروف وينهَوْنَ عن المنكرِ، ربِّ! اجعلْهُم أمَّتي. قال: تلك أمَّةُ أحمدَ. قال: ربِّ! إنِّي أجدُ في الألواح أمَّةً هم الآخِرونَ في الخَلْقِ السابِقونَ في دخول الجنَّةِ، ربِّ! اجعلْهُم أمَّتي. قال: تلك أمَّةُ أحمدَ. قال: ربِّ! إنِّي أجدُ في الألواحِ أمَّةً أناجيلُهُم في صدورِهم يقرؤونَها، وكان مَنْ قبلَهم يقرؤونَ كِتابَهُم نَظَرًا، حتىٰ إذا رَفَعوها؛ لم يَحْفَظوا شيئًا ولم يعرِفوهُ، وإنَّ الله

(١) رواه: البخاري (٥٩- بدء الخلق، ١- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾، ٦/ ٢٨٧/ ٣١٩٤)، ومسلم (٤٩- التوبة، ٤- سعة رحمته تعالىٰ، ٤/ ٢١٠٧/ ٢٧٥١)؛ عن أبي هريرة.

أعطاهم[١] من الحفظِ شيئًا لم يُعْطِهِ أحدًا من الأمم. قال: ربِّ! اجعلْهم أمَّتي. قال: تلك أمَّةُ أحمدَ. قال: ربِّ! إنِّي أجدُ في الألواح أمَّةً يؤمنون بالكتابِ الأوَّل وبالكتاب الآخِرِ، ويقاتِلون فُضولَ الضَّلالةِ، حتىٰ يقاتِلوا الأعورَ الكذَّابَ؛ فاجعَلْهم أمتي. قال: تلك أمَّةُ أحمدَ. قال: ربِّ! إنِّي أجدُ في الألواح أمَّةً؛ صَدَقاتُهُم يأكلونَها في بطونِهِم ويُؤْجَرونَ عليها، وكان مَنْ قبلَهم من الأمم إذا تصدَّقَ بصدقةٍ، فقُبِلَتْ منه؛ بَعَثَ اللهُ عليها نارًا فأكلتها، وإن رُدَّتْ عليه؛ تُركَتْ فتأكُلُها السباعُ والطيرُ؛ وإنَّ الله أخَذَ صدقاتِهِم من غنيِّهِم لفقيرهم[٢]. قال: ربِّ! فاجعَلْهم أمَّتي. قال: تلك أمَّةُ أحمدَ. قال: ربِّ! فإنِّي أجِدُ في الألواح أمَّةً؛ إذا هَمَّ أحدُهم بحسنةٍ ثم لم يَعْمَلْها؛ كُتِبَتْ له حسنةٌ، فإنْ عَمِلَها؛ كُتِبَتْ له عشرةُ أمثالِها إلىٰ سبع مئةِ ضعفٍ. قال: ربِّ! اجعَلْهم أمَّتي. قال: تلك أمةُ أحمدَ. قال: ربِّ! إنِّي أجدُ في الألواح أمَّةً هم المُشَفَّعونَ المَشْفوعُ لهم؛ فاجعَلْهم أمَّتي. قال: تلك أمَّةُ أحمدَ. قال قَتادة: فذُكِرَ لنا أنَّ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ نبَذَ الألواحَ وقال: اللهمَّ! اجعَلْني من أمَّةِ أحمدَ[٣].

وقد ذَكَرَ كثيرٌ من الناس ما كان من مناجاةِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأورَدوا أشياءَ كثيرةً لا أصل لها، ونحنُ نذكُرُ ما تيسَّرَ ذِكرُهُ من الأحاديث والآثار بعونِ الله وتوفيقِه، وحسنِ هدايتِهِ ومعونتِهِ وتأييدِهِ.

قال الحافظُ أبو حاتم محمدُ بن حاتم بن حِبَّانَ في «صحيحه»: ذِكْرُ سؤالِ كليمِ اللهِ ربَّه عَزَّ وَجَلَّ عن أدنىٰ أهل الجنَّةِ وأرفعِهم منزلةً: أخبرنا عمرُ بن سعيد الطائيُّ بِمَنْبِج، حدثنا حامد بن يحيىٰ البَلْخِيُّ، حدثنا سفيانُ، حدثنا مطرِّفُ بن طريف وعبدُالملك بن أبْجَرَ شيخان صالحان؛ قالا: سمِعْنا الشعبيَّ يقولُ: سمعتُ المغيرةَ بن شعبةَ يقول علىٰ المنبرِ عن النبي ﷺ: «**إنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ سأل ربَّه عَزَّ وَجَلَّ: أيُّ أهلِ الجنة أدنى منزلةً؟ فقال: رجلٌ يجيء بعدما يدخُلُ أهلُ الجنةِ الجنةَ، فيُقالُ له: ادخُلِ الجنةَ. فيقولُ: كيفَ أدخُلُ الجنةَ وقد نَزَلَ الناس منازِلَهم وأخذوا أخَذاتِهم[٤]؟ فيُقالُ له: أترضى أن يكونَ لك من الجنَّةِ مثلُ ما كان لِمَلِكٍ من ملوك الدُّنيا؟ فيقول: نعم أي**

---

(١) في نسخة: «أعطاهم أيها الأمة».

(٢) في نسخة: «أخذ صدقاتكم من غنيكم لفقيركم».

(٣) رواه ابن جرير في «التفسير» (٦/ ٦٦/ ١٥١٤٢ و١٥١٤٣) موقوفًا من كلام قتادة.

(٤) في جميع الأصول: «إخاذاتهم». والتصويب من مصادر التخريج.

ربِّ! فيُقالُ: لك هٰذا ومثلُهُ ومثلُهُ [ومثلُهُ. فيقولُ: أي ربِّ! رضيتُ. فَيُقال له: إنَّ لك هٰذا وعشرةَ أمثالِهِ]. فيقولُ: أي ربِّ! رضيتُ. فيُقال له: لك مع هٰذا ما اشتهتْ نفسُكَ ولَذَّتْ عينُك. وسأل ربَّه: أيُّ أهل الجنَّةِ أرفعُ منزلةً؟ قال: سأحدِّثُك عنهم: غرستُ كرامَتَهُم بيدي، وختمتُ عليها؛ فلا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ على قلب بشر». ومصداقُ ذٰلك في كتابِ الله ﷻ: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة: ١٧][(١)].

وهٰكذا رواه مسلمٌ والترمذيُّ؛ كلاهما عن: ابن أبي عمر، عن سفيان (وهو ابنُ عُيينة)... به، ولفظ مسلم: «**فيُقالُ له: أترضى أن يكون لكَ مثلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ ملوك الدُّنيا؟ فيقولُ: رضيتُ ربِّ! فيقالُ له: لك ذٰلك ومثلُه ومثلُه ومثلُه ومثلُه. فيقولُ في الخامسةِ: رضيتُ ربِّ! فيقالُ: هٰذا لك وعشرةُ أمثالِهِ، ولكَ ما اشتهتْ نفسُك ولذَّتْ عينُك. فيقولُ: رضيتُ ربِّ! قال: ربِّ فأعلاهم منزلةً؟ قال: أولئك الذين أردتُ، غرسْتُ**[(٢)] **كرامتَهم بيدي؛ وختمتُ عليها؛ فلم تر عينٌ، ولم تسمع أذنٌ، ولم يخطرْ على قلبِ بشرٍ**». قال: ومصداقُهُ في[(٣)] كتابِ الله: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة: ١٧]. وقال الترمذيُّ: حسنٌ صحيح. قال: ورواه بعضُهم عن الشعبيِّ عن المغيرة فلم يرفَعْه، والمرفوع أصحُّ.

وقال ابنُ حِبان: ذِكْر سؤال الكليم ربَّه عن خصال سبع: حدَّثنا عبدُالله بن محمد بن سَلْم[(٤)] ببيتِ المقدسِ، حدثنا حَرْمَلَةُ بن يحيىٰ، حدثنا ابنُ وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، أنَّ أبا السَّمْح حدَّثه، عن ابن حُجَيْرَةَ، عن أبي هُريرة، عن النبيِّ ﷺ: أنَّه قال: «**سأل موسى ربَّه ﷻ عن ستِّ خصال كان يَظُنُّ أنَّها له خالصةً، والسابعةُ لم يكنْ موسى يحبُّها؟ قال: يا ربِّ! أيُّ عبادِك أتقى؟ قال: الذي يَذْكُرُ ولا يَنْسى. قال: فأيُّ عبادِكَ أهدى؟ قال: الذي يَتَّبِعُ الهُدى. قال: فأيُّ عبادِكَ أحكمُ؟ قال: الذي يَحْكُمُ للناس كما يَحْكُمُ لنفسِهِ. قال: فأيُّ عبادِكَ أعلم؟ قال: عالمٌ لا يشبعُ من العلم؛ يجمعُ علمَ الناس إلى علمِهِ. قال: فأيُّ عبادِكَ أعزُّ؟ قال: الذي إذا قَدَرَ**

---

(١) رواه: مسلم (١- الإيمان، ٨٤- أدنىٰ أهل الجنة منزلة فيها، ١/ ١٧٦/ ١٨٩)، والترمذي (٤٨- التفسير، ٣٣- ومن سورة السجدة، ٥/ ٣٤٧/ ٣١٩٨)، وابن حبان (١٤/ ٩٩/ ٦٢١٦، ١٦/ ٤٤٦/ ٧٤٢٦).

(٢) في جميع الأصول: «غرس». والتصويب من مصادر التخريج.

(٣) في جميع الأصول: «من». والتصويب من مصادر التخريج.

(٤) في جميع الأصول: «مسلم»! والتصويب من مصادر التخريج.

غَفَرَ. قال: فأيُّ عبادك أغنى؟ قال: الذي يَرْضى بما يُؤتى. قال: فأيُّ عبادِكَ أفقرُ؟ قال: صاحبُ منقوصٍ». وقال رسولُ الله ﷺ: «ليس الغِنى عن ظهرٍ، إنَّما الغنى غنى النفس، وإذا أراد بعبدٍ خيرًا؛ جعل غِناه في نفسِهِ وتُقاه في قلبِهِ، وإذا أراد بعبدٍ شرًّا؛ جَعَلَ فقرَهُ بين عينيْهِ»[1]. قال ابنُ حِبَّانَ: قولُهُ: «صاحبُ منقوصٍ»: يريدُ به منقوصَ حالتِهِ؛ يستَقِلُّ ما أوتي ويطلُبُ الفضلَ.

وقد رواه ابن جريرٍ في «تاريخه» عن: ابن حُميد، عن يعقوب القُمِّيِّ[2]، عن هارون بن عنترة[3]، عن أبيه، عن ابن عباس؛ قال: سأل موسىٰ ربَّه ﷻ... فذكر نحوَه، وفيه: قال: أي ربِّ! فأيُّ عبادِكَ أعلمُ؟ قال: الذي يَبْتَغي علمَ الناس إلىٰ علمِهِ، عسىٰ أن يَجِدَ كلمةً تهديه إلىٰ الهُدىٰ أو تردُّه عن ردًىٰ. قال: أي ربِّ! فهل في الأرض أحدٌ أعلمُ مني؟ قال: نعم؛ الخضِرُ. فسأل السبيلَ إلىٰ لُقِيِّهِ؟ فكان ما سنذكُرُه بعدُ إن شاء الله وبه الثِّقةُ.

۞ ذكر حديث آخر بمعنى ما ذكره ابن حبان:

قال الإمام أحمدُ: حدثنا يحيىٰ بن إسحاق، حدثنا ابن لَهيعة، عن درَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ الخدريِّ، عن النبي ﷺ: أنَّه قال: «إنَّ موسى قال: أي ربِّ! عبدُكَ المؤمنُ مقتَّرٌ عليه في الدُّنيا؟». قال: «ففُتِحَ له بابٌ من الجنَّةِ، فنظَرَ إليها؛ قال: يا موسى! هٰذا ما أعددتُ له. فقال موسى: يا ربِّ! وعزَّتِك وجلالِك؛ لو كان مقطَّعَ اليدين والرِّجْلَيْن يُسْحَبُ على وجهه منذ يوم خَلَقْتَه إلى يوم القيامةِ وكان هٰذا مصيرُهُ؛ لم يَرَ بؤسًا قطُّ». قال: «ثمَّ قال: أي ربِّ! عبدُك الكافرُ موسَّعٌ عليه في الدُّنيا؟». قال: «ففُتِحَ له بابٌ إلى النار، فقال: يا موسى! هٰذا ما أعددتُ له. فقال موسى: أي ربِّ! وعزَّتِك وجلالِك؛ لو كانتْ له الدُّنيا منذُ يوم خَلَقْتَهُ إلى يوم القيامةِ وكان هٰذا مصيرُهُ؛ لم يَرَ خيرًا قطُّ»[4]. تفرَّدَ به أحمدُ من هٰذا الوجه، وفي صحَّتِهِ نظرٌ. والله أعلم.

---

(١) (حسن). رواه ابن حبان (١٤/ ١٠٠/ ٦٢١٧) بهٰذا السند، ورجاله ثقات رجال مسلم؛ إلا دراجًا أبا السمح، ولا بأس بحديثه عن غير أبي الهيثم، وهٰذا منه.

وله شاهد موقوف عن ابن عباس رواه ابن جرير في «التاريخ» (١/ ٢٢٣) بالسند الذي ذكره المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وأما القطعة الأخيرة من الحديث؛ فقد صحت من غير ما وجه، وبعض شواهدها من مخرجات الصحيحين.

(٢) في جميع الأصول: «التميمي»! والتصويب من مصادر التخريج.

(٣) جاءت في الأصول مرة: «هبيرة»! ومرة: «عبيرة»! والتصويب من مصادر التخريج.

(٤) (حسن). رواه أحمد (٣/ ٨١) بهٰذا السند. قال الهيثمي (١٠/ ٢٧٠): «رواه أحمد، وفيه ابن لهيعة ودراج، وقد =

وقال ابنُ حِبَّانَ: ذِكْرُ سؤالِ كليمِ اللهِ ربَّه ﷺ أن يعلِّمَه شيئًا يذكُرُه به: حدَّثنا ابنُ سَلْمٍ[١]، حدثنا حَرْمَلَةُ بن يحيىٰ، حدثنا ابنُ وَهْبٍ، أخبرني عمرو بن الحارث: أنَّ درَّاجًا حدَّثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ، عن النبيِّ ﷺ: أنَّه قال: «**قال موسى: يا ربِّ! علِّمْني شيئًا أذكُرُكَ به وأدعوك به. قال: قُلْ يا موسى: لا إلٰهَ إلَّا اللهُ. قال: يا ربِّ! كُلُّ عبادِكَ يقولُ هٰذا. قال: قُلْ: لا إلٰه إلَّا اللهُ. قال: إنَّما أريدُ شيئًا تخصُّني به. قال: يا موسى! لو أنَّ أهلَ السماوات السبع والأرضينَ السبع في كَفَّةٍ، ولا إلٰه إلَّا اللهُ في كَفَّةٍ؛ مالتْ بهم لا إلٰه إلَّا اللهُ**»[٢].

ويشهدُ لهٰذا الحديثِ حديثُ البطاقة[٣].

= وثقا علىٰ ضعف فيهما». فالسند ضعيف، ولا سيما أنه من رواية دراج عن أبي الهيثم.

ولٰكنه يتقوىٰ إن شاء الله بما رواه مسلم (٥٠- صفات المنافقين، ١٢- صبغ أنعم أهل الدنيا في النار، ٤/ ٢١٦٢/ ٢٨٠٧) من حديث أنس؛ قال: قال ﷺ: «يؤتىٰ بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم! هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب! ويؤتىٰ بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم! هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب! ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط».

(١) في جميع الأصول: «سلمة»! والتصويب من مصادر التخريج.

(٢) (حسن). رواه: النسائي في «الكبرىٰ» (٣/ ٣٦١/ ٤٠٦٥ - تحفة)، وأبو يعلىٰ (٢/ ٥٢٨/ ١٣٩٣)، وابن حبان (١٤/ ١٠٢/ ٦٢١٨)؛ والحاكم (١/ ٥٢٨)؛ من طرق عن دراج... به فذكره.

وفي رواية دراج عن أبي الهيثم ضعف، ولٰكنه يتقوىٰ إن شاء الله بالشاهدين اللذين ذكرهما الحافظ ابن كثير بعده، وقد صححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وأقره المنذري في «الترغيب» (٢/ ٣٩٢/ ٢٢٥٧)، وصححه الحافظ في «الفتح» (١١/ ٢٠٨).

(٣) (صحيح). روىٰ: أحمد (٢/ ٢١٣ و٢٢١)، وابن ماجه (٣٧- الزهد، ٣٥- ما يرجىٰ من رحمة الله، ٢/ ١٤٣٧/ ٤٣٠٠)، والترمذي (٤١- الإيمان، ١٧- من يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، ٥/ ٢٤/ ٢٦٣٩)، وابن حبان (١/ ٤٦١/ ٢٢٥)، والحاكم (١/ ٦ و٥٢٩)؛ من طرق عن: أبي عبد الرحمن الحبلي، سمعت عبد الله بن عمرو، سمع النبي ﷺ يقول: «**إن الله سيخلص رجلًا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلًا؛ كل سجل مد البصر، ثم يقول له: أتنكر شيئًا من هٰذا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب! فيقول: أفلك عذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل، ويقول: يا رب! فيقول: بلى؛ إن لك عندنا حسنة، وأنه لا ظلم عليك اليوم. فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله. فيقول: احضر وزنك! فيقول: يا رب! ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلات في كفةٍ والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة**». قال: «**فلا يثقل اسم الله شيء**».=

وأقربُ شيءٍ إلىٰ معناه الحديثُ المرويُّ في «السنن» عن النبيِّ ﷺ: أنَّه قال: **«أفضلُ الدُّعاءِ دعاءُ عرفةَ، وأفضلُ ما قلتُ أنا والنبيُّونَ من قبلي: لا إلَّا اللهُ وحدَه، لا شريكَ له، له الملكُ، وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ»**[(١)].

وقال ابن أبي حاتم[(٢)] عند تفسير آية الكرسي: حدَّثنا أحمدُ بن القاسم بن عطيَّةَ، حدثنا أحمدُ بن عبد الرحمٰن الدَّشْتكِيُّ[(٣)]، حدثني أبي، عن أبيه، حدثنا أشعثُ بن إسحاقَ، عن جعفر بن أبي المغيرةِ، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس: أنَّ بني إسرائيلَ قالوا لموسىٰ: هل ينامُ ربُّك؟ قال: اتَّقوا اللهَ! فناداه ربُّه ﷻ: يا موسىٰ! سألوكَ هلْ ينامُ ربُّك؟ فخُذْ زجاجتينِ في يديكَ، فقم الليلَ. ففعل موسىٰ، فلما ذهب من الليل ثُلُثُهُ؛ نَعِسَ، فوقع لركبتيه، ثم انتعش فضَبَطَهما، حتىٰ إذا كان آخرُ الليل؛ نَعِسَ، فسقطتِ الزجاجتانِ، فانكسرتا، فقال: يا موسىٰ! لو كنتُ أنامُ؛ لسقطتِ السماواتُ والأرضُ فهَلَكْنَ كما هَلَكَتِ الزجاجتانِ في يديك! قال: وأنزل اللهُ علىٰ رسولِهِ آيةَ الكرسيِّ.

وقال ابنُ جرير: حدَّثنا إسحاقُ بن أبي إسرائيل، حدثنا هشامُ بن يوسفَ، عن أميَّة بن شبل، عن الحكم بن أبانَ، عن عكرمةَ، عن أبي هريرة؛ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يحكي عن موسىٰ عليه السلام علىٰ المنبرِ؛ قال: **«وَقَعَ في نفس موسى عليه السلام: هل ينامُ الله ﷻ؟ فأرسلَ الله**

= قال الترمذي: «حسن غريب». وصححه ابن حبان، والحاكم علىٰ شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وأقره المنذري في «الترغيب» (٢/ ٣٩٨/ ٢٢٧٠)، والألباني.

(١) (**صحيح**). رواه: الترمذي (٤٩- الدعوات، ١٢٣- دعاء يوم عرفة، ٥/ ٥٧٢/ ٣٥٨٥) من طريق: حماد بن أبي حميد، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده... فذكره مرفوعًا. قال الترمذي: «غريب من هٰذا الوجه، وحماد... ليس بالقوي عند أهل الحديث».

لٰكن له شاهد عند الطبراني في «فضل عشر ذي الحجة» (٤/ ٧/ ١٥٠٣ - الصحيحة) من حديث علي مرفوعًا، وإسناده حسن في الشواهد. وشاهد مرسل صحيح عند مالك في «الموطأ» (١/ ٤٢٢) وعنه البغوي في «شرح السنة» (٧/ ١٥٧/ ١٩٢٩) من حديث طلحة بن عبيدالله بن كريز. وثالث مرسل حسن عند الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» (٢/ ١٠١٠/ ٢٤٨٢) من حديث المطلب بن حنطب. وقد صحح الألباني الحديث بمجموع هذه الشواهد.

(٢) في «التفسير» (٢/ ٤٨٧/ ٢٥٨٠).

(٣) في جميع الأصول: «الدسكي»! والتصويب من مصادر التخريج.

إليه مَلَكًا، فأرَّقَهُ ثلاثًا، ثم أعطاه قارورتينِ؛ في كلِّ يدٍ قارورةٌ، وأمره أن يحتفظَ بهما». قال: «فجَعَلَ ينامُ، وكادت يداه تَلْتَقِيان، فيستيقظُ، فيَحْبِسُ إحداهما على الأخرى، حتى نام نومةً، فاصطفقَتْ يداه، فانكسرتِ القارورتانِ». قال: «ضَرَبَ اللهُ له مثلًا: أنْ لو كانَ ينامُ؛ لم تَسْتَمْسِكِ السماءُ والأرضُ»(١).

وهٰذا حديثٌ غريبٌ رفعُه، والأشبهُ أن يكون موقوفًا، وأن يكون أصلُه إسرائيليًّا.

۞ [ما جاء في أخذه تعالى ميثاق بني إسرائيل]:

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [البقرة: ٦٣-٦٤].

قال تعالى: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف: ١٧١].

قال ابنُ عباس وغيرُ واحدٍ من السَّلف: لمَّا جاءهم موسىٰ بالألواح فيها التَّوراةُ؛ أمرهم بقَبولها والأخذِ بها بقوَّةٍ وعزم، فقالوا: انشُرْها علينا؛ فإن كانتْ أوامرُها ونواهيها سهلةً؛ قبِلْناها! فقال: بل اقْبَلوها بما فيها! فراجعوه مرارًا!! فأمر اللهُ الملائكةَ، فرفعوا الجبلَ علىٰ رؤوسهم حتىٰ صار كأنَّه ظُلَّةٌ (أي: غمامةٌ) علىٰ رؤوسهم، وقيل لهم: إنْ لم تَقْبَلوها بما فيها، وإلَّا؛ سَقَطَ هٰذا الجبلُ عليكم. فقبِلوا ذٰلك، وأُمِروا بالسُّجود، فسجدوا، فجعلوا ينظرون إلىٰ الجبل بشِقِّ وجوهِهِم، فصارت سنَّةً لليهودِ إلىٰ اليوم؛ يقولون: لا سجدةَ أعظمُ من سجدةٍ رفعتْ عنَّا العذاب.

وقال سُنَيْد بن داوود: عن حجاج بن محمد، عن أبي بكر بن عبد الله؛ قال: فلمَّا نَشَرَها؛

---

(١) (منكر). رواه ابن جرير في «التفسير» (٣/ ٩/ ٥٧٨٢) بالسند المذكور. قال الذهبي في «الميزان»: «أمية بن شبل: يماني، له حديث منكر... (فذكر هٰذا الحديث). وخالفه معمر عن الحكم عن عكرمة... قوله. وهو أقرب، ولا يسوغ أن يكون هٰذا وقع في نفس موسىٰ ﷺ، وإنما روي أن بني إسرائيل سألوا موسىٰ ﷺ عن ذلك؟» أهـ. وأقره الحافظ في «اللسان». واستغربه الحافظ ابن كثير ورجح وقفه كما ترىٰ.

ورواية عكرمة الموقوفة التي أشار إليها الذهبي عند: عبد الرزاق في «التفسير» (١/ ١١٣/ ٣٢١)، وابن جرير (٣/ ٩/ ٥٧٨١)، وابن أبي حاتم (٢/ ٤٨٨/ ٢٥٨٤). وسندها أقوىٰ من سند المرفوع.

وأما الرواية التي فيها أن بني إسرائيل هم السائلون؛ فتقدمت قبل قليل، وسندها لا بأس به.

لم يبقَ علىٰ وجه الأرض جبلٌ ولا شجرٌ ولا حجرٌ إلَّا اهتزَّ، فليس علىٰ وجه الأرض يهوديٌّ صغيرٌ ولا كبيرٌ تُقرأ عليه التوراةُ؛ إلَّا اهتزَّ ونَفَضَ لها رأسَه(١).

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٤]؛ أي: ثم بعد مشاهدة هٰذا الميثاق العظيم والأمر الجسيم نكثتُم عهودكم ومواثيقكم. ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ [البقرة: ٦٤]: بأن تداركَكُم بالإرسال إليكم وإنزالِ الكُتُبِ عليكم. ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [البقرة: ٦٤].

۞ قصة بقرة بني إسرائيل:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٦٧-٧٣].

قال ابنُ عباس وعَبيدةُ السَّلْمانيُّ وأبو العالية ومجاهدٌ والسُّدِّيُّ، وغير واحدٍ من السلف: كان رجلٌ في بني إسرائيل كثيرَ المال، وكان شيخًا كبيرًا، وله بنو أخ، وكانوا يتمنَّوْن موتَه لِيرِثوه، فعَمَدَ أحدُهم فقتَلَه في الليل وطَرَحه في مجمع الطُّرُق -ويقال: علىٰ باب رجل منهم-، فلمَّا أصبحَ الناسُ؛ اختصموا فيه، وجاء ابن أخيه، فجعل يصرُخُ ويتظلَّمُ! فقالوا: ما لكم تختصمونَ ولا تأتون نبيَّ اللهِ؟! فجاء ابنُ أخيه، فشكا أمرَ عمِّه إلىٰ رسول الله موسىٰ ﷺ، فقال موسىٰ ﵇: أنشُدُ اللهَ رجلًا عنده علمٌ من أمر هٰذا القتيل إلَّا أعلَمَنا به. فلم يكنْ عند أحدٍ منهم علمٌ منه، وسألوه أن يسألَ في هٰذه القضية ربَّه ﷻ، فسأل ربَّه ﷻ في ذٰلك؟ فأمره اللهُ أن يأمُرَهم بذبح بقرةٍ، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ﴾؛ يعنون: نحن نسألُك عن أمر هٰذا القتيل؛ وأنت تقول لنا هٰذا؟! ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾؛ أي:

---

(١) ثم أعرض عمَّا فيها واتخذ الأحبار أربابًا من دون الله! فماذا ينفع الاهتزاز والانتفاض بعد هٰذا؟! هٰذا إن صح أنهم يهتزون لذلك وينتفضون!

أعوذ بالله أن أقولَ عنه غيرَ ما أوحىٰ إليَّ، وهٰذا هو الذي أجابني حين سألتُهُ عمَّا سألْتُموني[١] أن أسألَه فيه. قال ابنُ عباس وعَبيدةُ ومجاهدٌ وعِكْرِمةُ والسُّدِّيُّ وأبو العالية وغير واحدٍ: فلو أنَّهم عَمَدوا إلىٰ أيِّ بقرةٍ فذبَحوها؛ لَحَصَلَ المقصودُ منها، ولٰكنْ شدَّدوا فشُدِّد عليهم. وقد وَرَدَ فيه حديثٌ مرفوعٌ، وفي إسناده ضَعْفٌ[٢]. فسألوا عن صفتِها؟ ثم عن لونِها؟ ثم عن سنِّها؟ فأُجيبوا بما عزَّ وجودُه عليهم[٣]. وقد ذكرنا تفسير ذٰلك كلِّه في «التفسير».

والمقصود: أنَّهم أُمِروا بذبح بقرةٍ عَوانٍ، وهي الوسط النصف بين الفارِض (وهي الكبيرة) والبِكْر (وهي الصغيرة). قاله ابنُ عباس ومجاهدٌ وأبو العالية وعِكْرِمة والحسن وقَتادةُ وجماعةٌ. ثم شدَّدوا وضيَّقوا علىٰ أنفسهم، فسألوا عن لونِها؟ فأُمِروا بصفراءَ فاقع لونُها (أي: مُشْرَبٍ بحُمرة) تسرُّ الناظرين. وهٰذا اللونُ عزيزٌ. ثم شدَّدوا أيضًا؛ ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾: ففي الحديث المرفوع الذي رواه ابنُ أبي حاتم وابنُ مردويه: «**لولا أنَّ بني إسرائيلَ استَثْنَوْا؛ لَما أُعطوا**»[٤] وفي صحتِهِ نظرٌ. والله أعلم.

---

(١) في نسخة: «عما سألتموني عنه».

(٢) سيأتي تفصيل القول فيه قريبًا.

(٣) يعني: بما قلَّ ونَدَر حتىٰ لا يكاد يوجد.

(٤) (حسن). رواه: البزار في «المسند» (٦/ ٣١٧ -مجمع)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ١٤١/ ٧٢٢)، وابن مردويه في «التفسير» (١/ ٩٦/ البقرة ٧١- ابن كثير)؛ من طريق: سرور بن المغيرة بن زاذان، عن عباد بن منصور، عن الحسن، عن أبي رافع، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لولا أن بني إسرائيل قالوا: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾؛ ما أعطوا أبدًا، ولو أنهم اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها؛ لأجزأت عنهم، ولٰكن شدَّدوا فشدَّد الله عليهم**».

وهٰذا سند ضعيف: سرور بن المغيرة: فيه جهالة، وهو صاحب غرائب ومناكير. وعباد بن منصور: لين الحديث، تغير بأخرة، وكان يدلس، وقد عنعن. وقال الهيثمي: «ورواه البزار، وفيه عباد بن منصور، وهو ضعيف، وبقية رجاله ثقات». فلعله رواه من غير طريق سرور هٰذا. وقال ابن كثير: «وهٰذا حديث غريب من هٰذا الوجه، وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبي هريرة». ووافقه: أحمد شاكر في «عماد التفسير» (١/ ١٦٥)، والألباني في «الضعيفة» (٤/ ١٥٢/ ١٦٥٢).

لٰكن رواه ابن جرير في «التفسير» (١/ ٣٩٠/ ١٢٤٦ و١٢٤٨) عن ابن جريج مرسلًا بسند ضعيف، وعن قتادة مرسلًا بسند صحيح.

فحريٌّ بهٰذين المرسلين أن يشدَّا هٰذا المرفوع الضعيف ليدرك بهما درجة الحسن. والله أعلم.=

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾: وهٰذه الصفاتُ أضيقُ ممَّا تقدم؛ حيثُ أُمِروا بذبح بقرةٍ ليست بالذَّلول (وهي المذلَّلةُ بالحراثة وسقي الأرض بالسَّانية[1] مُسَلَّمَةٍ (وهي الصحيحةُ التي لا عيبَ فيها). قاله أبو العالية وقَتادة. وقولُه: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾؛ أي: ليس فيها لونٌ يخالِفُ لونَها، بل هي مُسَلَّمَةٌ من العيوب ومن مخالطة سائر الألوان غيرَ لونِها.

فلمَّا حدَّدها بهٰذه الصفات وحَصرها بهٰذه النُّعوت والأوصاف؛ ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾: ويقال: إنَّهم لم يجِدوا هٰذه البقرةَ بهٰذه الصفة إلَّا عند رجل منهم كان بارًّا بأبيه، فطَلَبوها منه، فأبىٰ عليهم، فأرغبوه في ثَمَنِها، حتىٰ أعطَوْه -فيما ذكرهُ السُّدِّيُّ- بوزنها ذهبًا، فأبىٰ عليهم، حتىٰ أعطوه بوزنها عشر مرات، فباعها منهم! فأمرهم نبيُّ الله موسىٰ بذبحها، ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾؛ أي: وهم يتردَّدون في أمرها.

ثم أمَرَهُم عن الله أن يضرِبوا ذٰلك القتيلَ ببعضها: **قيل**: بلحم فخِذِها. **وقيل**: بالعظم الذي يلي الغُضروفَ. **وقيل**: بالبَضْعَةِ التي بين الكتفين. فلمَّا ضَرَبوه ببعضِها؛ أحياه اللهُ تعالىٰ، فقام وهو يشخَبُ أوداجُهُ، فسأله نبيُّ الله موسىٰ: مَن قتَلَكَ؟ قال: قتلَني ابنُ أخي. ثم عاد ميتًا كما كان.

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾؛ أي: كما شاهدتُم إحياء هٰذا القتيل عن أمر الله له، كذٰلك أمرُهُ في سائر الموتىٰ؛ إذا شاء إحياءَهم؛ أحياهم في ساعةٍ واحدةٍ؛ كما قال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

قصة موسى والخضر عليهما السلام:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا

= نعم؛ قد صح الحديث موقوفًا علىٰ ابن عباس (١/ ٣٨٩/ ١٢٣٩) وغيره. ولٰكن هٰذا شيء وحديث أبي هريرة شيء آخر.

(١) في الأصول: «بالساقية»! ولا تستوي. والسقي بالسانية: استخراج الماء بالدلو وسقي الأرض به.

عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا
عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴿٦٦﴾ * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٦٧﴾ * وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ
إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴿٧٠﴾
فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن
تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ
قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٥﴾ قَالَ
إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا
فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا
فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ
فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا
طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ
فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ
مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ٦٠-٨٢].

قال بعضُ أهلِ الكتاب: إنَّ موسىٰ هٰذا الذي رَحَلَ إلىٰ الخَضِرِ هو موسىٰ بن مَنَسَّا بنِ يوسُفَ بنِ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ الخليل! وتابعهم علىٰ ذٰلك بعضُ مَنْ يأخُذُ من صُحُفِهِم وينقُلُ عن كتبهم! منهم نوفُ بن فَضالَةَ الحِمْيَرِيُّ الشاميُّ البِكَالِيُّ -ويقال: إنه دمشقيٌّ- وكانت أمُّه زوجةَ كعب الأحبار! والصحيحُ الذي دلَّ عليه ظاهرُ سياقِ القرآنِ ونصُّ الحديث الصحيح الصريح المتَّفَق عليه أنَّه موسىٰ بنُ عِمرانَ صاحبُ بني إسرائيل(١).

قال البخاريُّ: حدثنا الحميديُّ، حدثنا سفيانُ، حدثنا عمرو بن دينارٍ؛ قال: أخبرني سعيدُ بن جُبيرٍ؛ قال: قلتُ لابن عباس: إنَّ نَوْفًا البِكاليَّ يزعُمُ أنَّ موسىٰ صاحبَ الخضرِ ليس هو موسىٰ صاحبَ بني إسرائيل؟ فقال ابنُ عباس: كَذَبَ عدوُّ الله! حدثنا أُبَيُّ بن كعب: أنَّه سمع رسولَ الله

(١) رواه: البخاري (٦٥- التفسير، ١٨- الكهف، ٢- باب، ٨/ ٤٠٩/ ٤٧٢٥ بالسند الأول. و٤- باب، ٨/ ٤٢٢/ ٤٧٢٧ بالسند الثاني. و٣- باب، ٨/ ٤١١/ ٤٧٢٦ بالسند الثالث)، ومسلم (٤٣- الفضائل، ٤٦- من فضائل الخضر، ٤/ ١٨٤٧/ ٢٣٨٠).

ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيبًا في بني إسرائيلَ، فسُئِلَ: أيُّ الناس أعلمُ؟ فقال: أنا! فَعَتَبَ اللهُ عليه إذْ لم يَرُدَّ العلمَ إليه، فأوحى اللهُ إليه: إنَّ لي عبدًا بمَجْمَعِ البحرينِ هو أعلمُ منك. قال موسى: يا ربِّ! فكيفَ لي به؟ قال: تأْخُذُ معك حوتًا، فتجعلُهُ في مِكْتَلٍ(١)؛ فحيثما فقدتَ الحوتَ؛ فهو ثَمَّ. فأخذَ حوتًا، فجعله في مِكْتَلٍ، ثم انطلقَ وانطلقَ معه فتاهُ يوشَعُ بن نونٍ، حتى إذا أَتَيا الصَّخرةَ؛ وَضَعا رؤوسَهما فناما، واضطربَ الحوتُ في المِكْتَل، فخرج منه، فسقطَ في البحرِ، واتَّخَذَ سبيلَه في البحر سَرَبًا، وأمسكَ الله عن الحوتِ جِرْيَةَ الماء، فصار عليه مثلُ الطَّاقِ(٢)، فلمَّا استيقظَ؛ نسي صاحِبُه أن يخبِرَه بالحوت، فانطلقا بقيَّةَ يومهما وليلتهما، حتى إذا كانَ من الغدِ؛ قال موسى لِفتاه: آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفرنا هٰذا نَصَبًا». قال: «ولم يَجِدْ موسى النَّصَبَ حتى جاوز المكان الذي أَمَره اللهُ به. فقال له فتاهُ: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ؛ فإِنِّي نَسِيتُ الحُوتَ، وما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، واتَّخَذَ سَبِيلَهُ في البَحْرِ عَجَبًا». قال: «فكان للحوتِ سَرَبًا، ولموسى ولِفَتاه عَجَبًا. فقال موسى: ذٰلك ما كنَّا نَبْغِ فارْتَدَّا على آثارِهما قَصَصًا». قال: «فرجعا يَقُصَّانِ آثارَهما، حتى انْتَهَيا إلى الصخرةِ؛ فإذا رجلٌ مسجًّى بثوبٍ، فسلَّم عليه موسى، فقال الخَضِرُ: وأنَّى بأرضِكَ السلامُ؟! قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيلَ؟ قال: نعم؛ أتيتُكَ لِتُعَلِّمَني مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا. قال: إنَّك لَنْ تَسْتَطيعَ مَعِيَ صَبْرًا يا موسى! إنِّي على عِلْم من عِلْم الله عَلَّمَنِيهِ اللهُ لا تعلمُهُ أنت، وأنت على عِلْم من عِلْم اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لا أعلمُه. فقال موسى: سَتَجِدُني إنْ شاءَ اللهُ صابِرًا ولا أَعْصِي لكَ أَمْرًا. فقال له الخَضِرُ: فإنِ اتَّبَعْتَنِي؛ فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حتَّى أُحْدِثَ لكَ مِنْهُ ذِكْرًا. فانْطَلَقا يمشِيانِ على ساحل البحر، فمرَّتْ سفينةٌ، فكلَّموهم(٣) أنْ يحمِلُوهم، فعَرَفوا الخَضِرَ، فحَمَلوهم بغير نَوْلٍ(٤)، فلمَّا رَكِبا في السفينةِ؛ لم يَفْجَأْ إلَّا والخَضِرُ قد قَلَعَ لوحًا من ألواح السفينةِ بالقَدُوم(٥)! فقالَ له

---

(١) المِكْتَل: وعاء يشبه القُفَّة أو السلَّة.

(٢) يعني: بقي أثر مسلكه علىٰ الرمل كالحفرة ولم يؤثر به الماء ويُعَفِّيه.

(٣) في نسخة: «فكلَّمهم».

(٤) النول: الأجرة.

(٥) آلة مشهورة تشبه الفأس يستعملها النجارون.

موسى: قومٌ حَمَلونا بغيرِ نَوْل؛ عَمَدْتَ إلى سفينَتِهِم فخَرَقْتَه لِتُغْرِقَ أهْلَها؛ لَقدْ جِئْتَ شَيْئًا إمْرًا[(١)]! قالَ: أَلَمْ أَقُلْ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟ قالَ: لا تُؤاخِذْنِي بمَا نَسِيتُ ولا تُرهقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا». قال: وقال رسول الله ﷺ: «فكانتِ الأولى من موسى نِسيانًا». قال: «وجاء عصفورٌ، فوقع على حرفِ السفينةِ، فنَقَرَ في البحر نَقْرَةً، فقال له الخَضِرُ: ما علمي وعلمُكَ من علم الله إلَّا مثلُ ما نَقَصَ هٰذا العصفورُ من هٰذا البحر. ثم خرجا من السفينةِ؛ فبينما هما يمشيانِ على الساحل؛ إذ أبصرَ الخَضِرُ غلامًا يلعبُ مع الغِلْمانِ، فأخذ الخَضِرُ رأسه بيده، فاقتلعَهُ بيدِهِ، فقتلَه! فقال له موسى: أقَتَلْتَ نَفْسًا زاكيةً[(٢)] بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكرًا؟! قالَ: أَلَمْ أقلْ لَكَ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطيعَ مَعِيَ صبْرًا؟». قال: «وهٰذه أشدُّ من الأولى. قال: إنْ سألتُكَ عَنْ شَيءٍ بَعْدَها؛ فَلا تُصاحِبْني؛ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا. فانْطلقَا، حتَّى إذَا أَتَيَا أَهْل قَرْيةٍ؛ اسْتَطْعَما أهْلَها، فأبَوْا أنْ يُضيِّفوهُما، فَوَجدا فيها جِدارًا يُريدُ أنْ ينْقَضَّ». قال: «مائلٌ. فقام الخَضِرُ، فأقامَه بيدِهِ! فقال موسى: قومٌ أَتَيْناهم فلم يُطْعِمونا ولم يضيِّفونا؛ لَوْ شِئْتَ؛ لاتَّخذْتَ عليْهِ أجْرًا! قالَ: هٰذا فِراقُ بَيْني وبيْنِكَ سأُنَبِّئُكَ... إلى قوله: ذٰلك تأويلُ ما لَمْ تَسطِعْ عليْهِ صَبْرًا». فقال رسول الله ﷺ: «وَدِدْنا أنَّ موسى كان صَبَرَ حتى يَقُصَّ اللهُ علينا من خبرِهما». قال سعيدُ بن جُبير: فكان ابنُ عباس يقرأ: (وكانَ أمامَهُم مَلِكٌ يأخُذُ كلَّ سَفينةٍ صالِحَةٍ غَصْبًا)، وكان يقرأ: (وأمَّا الغلامُ فكانَ كافرًا وكانَ أبواه مُؤمِنَيْنِ).

ثم رواه البخاريُّ أيضًا عن: قُتيبةَ، عن سفيانَ بن عُيينةَ... بإسناده نحوه، وفيه: «فخرج موسى ومعه فتاه يوشَعُ بن نونٍ ومعهما الحوتُ، حتَّى انْتَهَيا إلى الصخرةِ، فنزلا عندَها». قال: «فوضع موسى رأسَه فنام». قال سفيان: وفي حديث غير عمرو؛ قال: «وفي أصل الصَّخْرةِ عينٌ، يُقالُ لها الحياةُ، لا يصيبُ من مائِها شيءٌ؛ إلَّا حَيِيَ، فأصاب الحوتَ من ماء تلك العين». قال: «فتحرَّكَ وانسلَّ من المِكْتَلِ، فدخل البحرَ، فلمَّا استيقظَ موسى؛ قال لفتاه[(٣)] ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ ...﴾ الآية...» وساق الحديث، وقال: «ووقع عصفورٌ على حرف السفينةِ، فغمس منقارَهُ

(١) إمرًا: منكرًا عجبًا.

(٢) في نسخة: «زكية». وهو نصُّ الآية في قراءتنا.

(٣) في جميع الأصول: «فلما استيقظ؛ قال موسىٰ لفتاه». وما أثبته هو نص «الصحيح».

في البحر، فقال الخَضِرُ لموسى: ما عِلْمي وعلمُك وعلمُ الخلائقِ في علم الله إلَّا مقدارُ ما غَمَس هٰذا العصفورُ منقارَه...» وذكر تمام الحديث.

وقال البخاريُّ: حدثنا إبراهيمُ بن موسىٰ، حدثنا هشامُ بن يوسفَ: أَنَّ ابنَ جُرَيْج أخبرهم؛ قال: أخبرني يعلىٰ بن مسلم وعمرو بن دينار، عن سعيدِ بن جُبير -يزيد أحدُهما علىٰ صاحبه، وغيرُهما قد سمعتُهُ يحدِّثُه عن سعيد بن جُبير-؛ قال: إنا لعندَ ابن عباس في بيتِهِ؛ إذ قال: سَلوني! فقلتُ: أيْ أبا عباس جعلني الله فداك! بالكوفة رجلٌ قاصٌّ، يُقالُ له: نوفٌ، يزعُم أنَّه[1] ليس بموسىٰ بني إسرائيل؟ أمَّا عمروٌ؛ فقال لي: قال: قد كذبَ عدوُّ الله. وأمَّا يعلىٰ؛ فقال لي: قال ابن عباس: حدَّثني أُبيُّ بن كعبٍ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «موسى رسولُ اللهِ». قال: «ذَكَّرَ الناسَ يومًا، حتى إذا فاضتِ العيونُ ورقَّتِ القلوبُ؛ ولَّى، فأدركه رجلٌ، فقال: أي رسولَ الله! هل في الأرض أحدٌ أعلمُ منك؟ قال: لا. فعَتَبَ اللهُ عليه إذ لم يَرُدَّ العلمَ إلى الله! قيلَ: بلى. قال أي ربِّ! فأين؟ قال: بمجمع البَحْرَيْن. قال: أي ربِّ! اجعلْ لي عَلَمًا[2] أعلمُ ذٰلك به». قال لي عمروٌ: «قال: حيثُ يفارِقُك الحوت». وقال لي يعلىٰ: «قال: خُذْ نونًا مَيِّتًا؛ حيث يُنْفَخُ فيه الرُّوحُ. فأخَذَ حوتًا، فجعله في مِكْتَل، فقال لفتاه: لا أكلِّفُك إلَّا أن تُخْبِرَني بحيثُ يفارِقُك الحوتُ. قال: ما كلَّفْتَ كثيرًا. فذٰلك قولُهُ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَـٰهُ﴾: يوشَعَ بن نونٍ». ليست عن سعيد بن جُبير. قال: «فبينما هو في ظلِّ صخرةٍ في مكانٍ ثَرْيانَ[3]؛ إذ تَضَرَّبَ[4] الحوتُ وموسى نائمٌ، فقال فتاه: لا أوقِظُه. حتى إذا استيقظَ؛ نسيَ أن يُخْبِرَه، وتضرَّبَ الحوتُ حتَّى دخل البحرَ، فأمسكَ الله عنه جِرْيَةَ البحرِ حتَّى كأنَّ أثَرَهُ في حجرٍ». قال لي عمروٌ هٰكذا: كأنَّ أثره في حجرٍ! وحلَّق بين إبهاميه واللتين تَلِيانِهما... ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾: قال: «قد قَطَعَ اللهُ عنك النصبَ». ليست هٰذه عن سعيدٍ.

---

(١) يعني: موسىٰ الخضر.

(٢) العَلَمُ: العلامة.

(٣) ثريان: مبلول.

(٤) تضرَّب: سار، من الضرب علىٰ الأرض.

«أخبرَه، فرَجَعا، فوجدا خَضِرًا». قال لي عثمان بن أبي سليمان: «على طِنْفسَةٍ(١) خضراءَ على كَبِدِ البحر(٢). قال سعيدُ بن جبيرٍ: «مسجًّى بثوبِهِ(٣)؛ قد جعل طرفَه تحتَ رجليه وطرفَه تحتَ رأسِهِ. فسلَّم عليه موسى، فكشفَ عن وجهِهِ وقال: هل بأرضي(٤) من سلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيلَ؟ قال: نعم. قال: فما شأنُك؟ قال: جئتُك لِتُعَلِّمَني ممَّا عُلِّمْتَ رُشدًا. قال: أما يكفيك أنَّ التوراةَ بيديْكَ وأنَّ الوحيَ يأتيك؟! يا موسى! إنَّ لي عِلْمًا لا ينبغي لك أنْ تعلَمَهُ، وإنَّ لك عِلْمًا لا ينبغي لي أن أعلَمَه. فأخذ طائرٌ بمنقارِهِ من البحر، فقال: واللهِ؛ ما عِلْمي وعلمُك في جَنْبِ علم الله إلَّا كما أخذَ هٰذا الطائرُ بمنقارِهِ من البحرِ»... ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ﴾: «وَجَدا معابِرَ صغارًا تحمِل أهلَ هٰذا الساحل إلى أهل هٰذا الساحل الآخر؛ عرفوه، فقالوا: عبد الله الصالحُ!». قال: فقلنا لسعيدٍ: خَضِرٌ؟ قال: نعم. «لا نحمِلُه بأجرٍ. فخرقَها ووَتَدَ فيها وتِدًا. قالَ موسى: أخرقْتَها لِتُغْرِقَ أهْلَها؟! لقدْ جِئْتَ شيئًا إمْرًا». قال مجاهدٌ: منكرًا. «قالَ: أَلَمْ أَقُلْ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟ كانت الأولى نسيانًا، والوسطى شرطًا، والثالثة عمدًا. قالَ: لا تُؤاخِذْنِي بمَا نَسِيتُ ولا تُرْهِقْني مِنْ أمْرِي عُسْرًا! فانْطَلَقا، حتَّى إذَا لَقِيا غُلامًا؛ فقتَلَهُ». قال يعلىٰ: قال سعيدٌ: وَجَدَ غِلْمانًا يلعبون، فأخَذَ غلامًا كافرًا ظريفًا، فأضجعَه، ثم ذبَحه بالسكين! «قالَ: أقَتَلْتَ نَفْسًا زَكيَّةً بغَيْرِ نَفْسٍ؟!». لم تعملْ بالحِنْث(٥). وكان ابنُ عباس قرأها: زكيَّةً زاكيةً مسلمةً؛ كقولك غلامًا زكيًّا... «فانطلقا... فَوجَدا جِدارًا يُريدُ أنْ ينقضَّ فأقامهُ». قال سعيدٌ بيدِهِ هٰكذا -ورفع يدَه- فاستقامَ. قال يعلىٰ: حسبتُ أنَّ سعيدًا قال: فمَسَحَهُ بيده فاستقام. «قالَ: لوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عليْهِ أجرًا». قال سعيدٌ: أجرًا نأكُلُه... «وكانَ وَراءهُمْ»: وكان أمامَهم؛ قرأها ابنُ عباس: أمامهم مَلِكٌ، يزعُمون عن غير سعيدٍ أنه هُدَدُ بنُ بُدَدٍ، والغلامُ المقتولُ اسمُه -يزعُمون- جَيْسورٌ. «مَلِكٌ يأخُذُ كلَّ سَفينَةٍ غَصْبًا، فأردتُ إذا هي مرَّتْ به أن يَدَعَها لِعَيْبِها؛ فإذا جاوزوا؛ أصلَحوها فانتفَعوا بها». ومنهم

(١) الطنفسة: بساط له خمل.

(٢) كبد البحر: وسطه.

(٣) مسجًّىٰ بثوبه: ملتف به.

(٤) في نسخة: «بأرضك». وما أثبته هو لفظ «الصحيح».

(٥) لم تعمل بالحنث: لم تذنب.

من يقولُ: سدُّوها بقارورةٍ. ومنهم من يقول: بالقارِ... «**كانَ أبواهُ مُؤمِنَيْن، وكان كافرًا، فخَشِينا أنْ يُرْهِقَهُما طُغْيانًا وكُفْرًا**»؛ أي: يحمِلَهُما حبُّه علىٰ أن يتابعاه علىٰ دينه. «**فأرَدْنا أنْ يُبْدِلَهُما ربُّهمَا خَيْرًا منْهُ زَكاةً**»؛ لقوله: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾. «**وأقْربَ رُحْمًا**»: هما به أرحمُ منهما بالأوَّل الذي قتَلَ خَضِرٌ. وزعم غيرُ سعيدِ بنِ جُبير أنهما أُبْدِلا جاريةً. وأما داوودُ بنُ أبي عاصم؛ فقال عن غير واحدٍ: إنَّها جاريةٌ.

وقد رواه: عبدُالرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس؛ قال: خَطَبَ موسىٰ بني إسرائيل، فقال: ما أحدٌ أعلمُ بالله وبأمرِهِ منِّي. فأُمِرَ أن يلقىٰ هٰذا الرجل... فذكر نحوَ ما تقدَّم.

وهٰكذا رواه: محمدُ بن إسحاقَ، عن الحسن بن عُمارة، عن الحكم بن عُيينة، عن سعيدِ بن جُبير، عن ابن عباس، عن أُبيِّ بن كعبٍ، عن رسول الله ﷺ كنحو ما تقدم أيضًا.

ورواه العوفيُّ عنه موقوفًا.

وقال الزهريُّ: عن عُبيدالله بن عبد الله بن عتبةَ بن مسعود، عن ابن عباس: أنَّه تَمارىٰ هو والحرُّ بن قيس بن حصنٍ الفَزارِيُّ في صاحب موسىٰ، فقال ابن عباس: هو خَضِرٌ. فمرَّ بهما أُبيُّ بن كعبٍ، فدعاه ابنُ عباس، فقال: إني تماريتُ أنا وصاحبي هٰذا في صاحب موسىٰ الذي سأَلَ السبيلَ إلىٰ لُقِياهُ؛ فهل سمعتَ من رسول الله فيه شيئًا؟ قال: نعم... وذكر الحديث.

وقد تقصَّيْنا طُرُقَ هٰذا الحديث وألفاظَه في تفسير سورة الكهف. ولله الحمد.

وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾: **قال السُّهَيْلِيُّ**: وهما أصرُم وصريمٌ ابنا كاشح. ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾: **قيل**: كان ذهبًا. قاله عِكْرمةُ. **وقيل**: عِلْمًا. قاله ابنُ عباس. والأشبهُ أنَّه كان لوحًا من ذهبٍ مكتوبًا فيه علمٌ.

قال البزَّارُ: حدثنا إبراهيمُ بن سعيدٍ الجوهريُّ، حدثنا بِشر بن المنذر، حدثنا الحارثُ بن عبد الله اليَحْصُبيُّ، عن عيَّاش بن عباس القِتْبانيِّ(١)، عن ابن حُجَيْرَةَ، عن أبي ذرٍّ، رفعه؛ قال: «**إن الكنزَ الذي ذَكَرَ الله في كتابه لوحٌ من الذهبِ مُصْمَتٌ مكتوبٌ فيه: عجبتُ لمَن أيقنَ بالقدر**

(١) في جميع الأصول: «الغسَّاني»! والتصويب من مصادر التخريج.

كيف نَصَبَ؟ وعجبتُ لمَن ذَكَرَ النار لم ضَحِكَ؟ وعجبتُ لمن ذَكَرَ الموت كيف غَفِلَ؟ لا إلٰه إلَّا الله محمدٌ رسول الله»[١].

وهٰكذا رُوي عن الحسن البصريِّ وعمرَ مولىٰ غُفْرَةَ وجعفرٍ الصادق نحو هٰذا.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾: **قيل**: إنَّه كان الأبَ السابعَ. **وقيل**: العاشرَ، وعلىٰ كل تقدير: فيه دلالةٌ علىٰ أنَّ الرجل الصالحَ يُحْفَظُ في ذُرِّيَّتِهِ. والله المستعان.

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: دليلٌ علىٰ أنَّه كان نبيًّا، وأنَّه ما فعل شيئًا من تلقاءِ نفسِهِ، بل بأمر ربِّه؛ فهو نبيٌّ. **وقيل**: رسولٌ. **وقيل**: وليٌّ. وأغربُ من هٰذا من قال: إنه كان مَلَكًا! قلت: وقد أغرب جدًّا من قال: هو ابنُ فرعونَ! **وقيل**: إنَّه ابن ضحَّاكٍ الذي مَلَكَ الدُّنيا ألف سنة. قال ابن جرير[٢]: والذي عليه جمهورُ أهل الكتابِ أنَّه كان في زمن أفريدونَ، ويقال: إنَّه كان علىٰ مقدِّمة ذي القرنين، الذي قيل: إنَّه كان أفريدونَ، وذو القرنين هو الذي كان في زمن الخليل، وزعموا أنَّه شربَ من ماء الحياة فخَلَدَ وهو باقٍ إلىٰ الآن! **وقيل**: إنَّه من وَلَدِ بعض مَنْ آمنَ بإبراهيم وهاجَرَ معه من أرض بابلَ. **وقيل**: اسمُهُ [بليا بن] ملكان. **وقيل**: إرْمِيَّا بن حَلْقِيَّا. **وقيل**: كان نبيًّا في زمن بشتاسب بن لهراسب. قال ابن جرير: وقد كان بين أفريدونَ وبين بشتاسب دهورٌ طويلةٌ لا يجهلُها أحدٌ من أهل العلم بالأنساب. قال ابنُ جرير: والصحيحُ أنَّه كان في زمن أفريدونَ، واستمرَّ حيًّا إلىٰ أن أدْرَكَهُ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانت نبوَّةُ موسىٰ في زمن مِنُوشِهْر، الذي هو من ولدِ أيرَج بن أفريدون أحد ملوك الفرس، وكان إليه الملكُ بعد جدِّه أفريدون لعهده، وكان عادلًا، وهو أولُ من خَنْدَقَ الخنادقَ، وأولُ من جَعَلَ في كلِّ قرية

---

(١) (ضعيف). رواه البزار في «المسند» (٢/ ٩١/ ١٤٧٩-مختصر الزوائد) بهٰذا السند. وقال: «لا نعلمه يُروىٰ عن أبي ذر إلا بهٰذا الإسناد». وقال في «المجمع» (٧/ ٥٧): «رواه البزار من طريق بشر بن المنذر عن الحارث بن عبد الله اليحصبي، ولم أعرفهما، وبقية رجاله ثقات».

قلت: أما بشر؛ فلعله قاضي المصيصة الذي ترجم له الحافظ في «اللسان» بما يفيد أنه صدوق علىٰ ضعف فيه ووهم. وأما الحارث؛ فما وجدت من ترجمه؛ فلعله علة هٰذا الحديث؛ فهو ضعيف مرفوعًا. والصواب فيه الوقف؛ كما في الروايات الأخرىٰ التي ذكرها الحافظ ابن كثير. والله أعلم

(٢) في «التاريخ» (١/ ٢٢٠-٢٢٧). وقد وقعت في جميع الأصول أخطاء كثيرة في الأعلام. فصوَّبتها منه. وكذلك الزيادة منه.

دِهْقانًا[١]، وكانت مدة ملكه قريبًا من مئة وخمسينَ سنةً. ويقال: إنه كان من سلالة إسحاقَ بن إبراهيم. وقد ذُكِرَ عنه من الخُطَبِ الحسانِ، والكَلِم البليغ النافع الفصيح ما يَبْهَرُ العقل ويحيِّرُ السامع، وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّه من سلالة الخليل. والله أعلم.

وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١]: فأخذَ الله ميثاقَ كلِّ نبيٍّ علىٰ أن يؤمنَ بمَن يجيءُ بعدَه من الأنبياء وينصُرَه، واستلزم ذٰلك الإيمانَ وأخذَ الميثاقِ لمحمَّدٍ ﷺ؛ لأنَّه خاتمُ الأنبياء، فحقٌّ علىٰ كلِّ نبيٍّ أدركَه أن يؤمن به وينصُرَه؛ فلو كان الخَضِرُ حيًّا في زمانه؛ لما وَسِعَه إلَّا اتِّباعُه والاجتماعُ به والقيامُ بنصرِهِ، ولكان من جملةِ مَن تحت لوائِهِ يومَ بدرٍ؛ كما كان تحتها جبريلُ وساداتٌ من الملائكة.

وقُصارىٰ الخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يكون نبيًّا وهو الحقُّ، أو رسولًا كما قيل، أو مَلَكًا فيما ذُكِر، وأيًّا ما كان؛ فجبريلُ رئيس الملائكة، وموسىٰ أشرفُ من الخضِرِ، ولو كان حيًّا لوجَبَ عليه الإيمانُ بمحمدٍ ونصرتُه؛ فكيف إن كان الخَضِرُ وليًّا كما يقولُه طوائفُ كثيرون؟! فأولىٰ أن يدخُلَ في عموم البعثةِ وأحرىٰ.

ولم يُنْقَلْ في حديث حسن بل ولا ضعيف يُعْتَمَدُ أنَّه جاء يومًا واحدًا إلىٰ رسول الله ﷺ، ولا اجتمعَ به، وما ذُكِرَ من حديث التعزيةِ فيه؛ وإنْ كان الحاكمُ قد رواه؛ فإسنادُهُ ضعيفٌ[٢]. والله أعلم. وسنُفْرِدُ للخَضِرِ ترجمةً علىٰ حِدَةٍ بعد هٰذا[٣].

۞ ذكر الحديث الملقب بحديث الفتون المتضمن قصة موسى مبسوطة من أولها إلى آخرها:

قال الإمامُ أبو عبد الرحمٰن النَّسائيُّ في كتاب التفسير من «سننه» عند قوله تعالىٰ في سورة طه: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]: حديثُ الفتونُ: حدثنا عبدُالله بن

---

(١) الدهقان: الرئيس الذي يرجع إليه في أمور قريته.

(٢) سيأتي الكلام عن هٰذا كله في (ص٤٩٥).

(٣) انظرها في (ص٤٨٤ - ٥٠٧).

محمد، حدثنا يزيدُ بن هارونَ، حدثنا أصبغُ بن زيدٍ، حدثنا القاسم بن أبي أيوبَ، أخبرني سعيدُ بن جُبير؛ قال: سألتُ عبد الله بن عباس عن قول الله تعالىٰ لموسىٰ: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]؟ فسألته عن الفتون: ماهي؟ فقال: استأنفِ النهارَ يا ابنَ جُبير؛ فإنَّ لها حديثًا طويلًا. فلمَّا أصبحتُ؛ غدوتُ إلىٰ ابن عباس لأنْتَجِزَ منه ما وعدني من حديثِ الفُتونِ، فقال: تذاكَرَ فرعونُ وجلساؤُه ما كَان الله وَعَدَ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنْ يجعلَ في ذُرِّيَّتِهِ أنبياءَ وملوكًا، فقال بعضُهم: إنَّ بني إسرائيل ينتظرونَ ذٰلك، ما يشكُّونَ فيه، وكانوا يظنُّونَ أنَّه يوسفُ بن يعقوبَ، فلمَّا هَلَكَ؛ قالوا: ليس هٰكذا كان وعدُ إبراهيم! فقال فرعونُ: فكيف ترونَ؟ فأْتَمروا وأجْمَعوا أمرَهم علىٰ أن يَبْعَثَ رجالًا معهم الشِّفارُ[1] يطوفونَ في بني إسرائيل؛ فلا يجدونَ مولودًا ذَكَرًا؛ إلاَّ ذَبَحوه! ففعلوا ذٰلك. فلمَّا رأَوْا أنَّ الكبارَ من بني إسرائيل يموتون بآجالهم، والصِّغارَ يُذَبَّحونَ؛ قالوا: توشِكون أن تُفْنوا بني إسرائيلَ، فتصيروا إلىٰ أن تُباشِروا من الأعمال والخِدْمَةِ التي كانوا يَكْفونكم! فاقتُلوا عامًا كلَّ مولودٍ ذَكَرٍ؛ وفيقلَّ نباتُهم[2]، ودعوا عامًا؛ فلا تقتُلوا منهم أحدًا، فيشِبَّ الصغارُ مكانَ مَنْ يموتُ من الكبارِ؛ فإنَّهم لن يكثُروا بمن تَسْتَحْيون منهم فتخافوا مكاثَرَتَهم إيَّاكم، ولن يَفْنَوْا بمَن تقتُلون وتحتاجون إليهم. فأجمَعوا أمرَهم علىٰ ذٰلك.

فحملت أمُّ موسىٰ بهارونَ في العام الذي لا يُذْبَحُ[3] فيه الغلمانُ، فولدتْه علانيةً آمنةً، فلمَّا كان من قابلٍ؛ حملتْ بموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فوقع في قلبها الهمُّ والحزنُ. وذٰلك من الفُتونِ يا ابن جبير! ما دَخَلَ عليه في بطنِ أمِّه ممَّا يُرادُ به. فأوحىٰ اللهُ إليها: أنْ لا تَخافي ولا تَحْزَني؛ إنَّا رادُّوهُ إلَيْكِ وجاعِلوه مِنَ المرْسَلينَ! فأمَرَها إذا وَلَدَتْ أن تجعَلَه في تابوتٍ وتُلْقِيَهُ في اليمِّ. فلمَّا وَلَدَتْ؛ فعلتْ ذٰلك، فلمَّا توارىٰ عنها ابنُها؛ أتاها الشيطانُ، فقالت في نفسِها: ما فعلتُ بابني؟! لو ذُبِحَ عندي فوارَيْتُه وكفَّنته؛ كان أحبَّ إليَّ من أن أُلْقِيَهُ إلىٰ دوابِّ البحر وحيتانِهِ!

فانتهىٰ الماءُ به حتىٰ أوفىٰ عند فُرْضَةٍ[4] تستقي منها جواري امرأةِ فرعونَ، فلمَّا رأيْنَه؛

---

(١) الشفار: جمع شفرة، وهي ما يذبح به.

(٢) في جميع الأصول: «بناتهم»! ولا جه له. والتصويب من «الكبرىٰ». ومعناه: يقل عددهم.

(٣) في نسخة: «يقتل».

(٤) الفُرْضَة: الثلمة أو الثغرة.

أخذْنَه، فهمَمْنَ أن يَفْتَحْنَ التابوتَ، فقال بعضُهُنَّ: إنَّ في هٰذا مالًا، وإنَّا إن فَتَحناه؛ لم تصدِّقْنا امرأةُ الملك بما وَجَدْنا فيه. فحَمَلْنَهُ كهيئتِهِ؛ لم يُخرِجْنَ منه شيئًا حتىٰ دَفَعْنَهُ إليها. فلمَّا فَتَحَتْهُ؛ رأتْ به غُلامًا، فألقىٰ الله عليه منها محبةً لم يُلْقِ منها علىٰ أحدٍ قطُّ.

وأصْبَحَ فُؤادُ أمِّ مُوسىٰ فارغًا من ذِكْرِ كلِّ شيء إلَّا مِن ذِكْرِ موسىٰ. فلمَّا سَمعَ الذَّبَّاحونَ بأمره؛ أقبلوا بشِفارِهم إلىٰ امرأة فرعونَ ليذبَحوه. وذٰلك من الفُتونِ يا ابن جُبير! فقالتْ لهم: أقِرُّوه؛ فإنَّ هٰذا الواحدَ لا يزيدُ في بني إسرائيل، حتىٰ آتيَ فرعونَ فأسْتَوْهِبَه منه؛ فإن وَهَبَهُ مني؛ كنتُم قد أحسنتُم وأجملْتُم، وإنْ أمَرَ بذبحِهِ؛ لم ألُمْكُم. فأتتْ فرعونَ فقالتْ: قُرَّةُ عَيْنٍ لي ولَكَ. فقال فرعونُ: يكون لك، فأمَّا لي؛ فلا حاجةَ لي فيه! فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**والذي يُحْلَفُ به؛ لو أقَرَّ فرعونُ أنْ يكونَ قُرَّةَ عَيْنٍ له كما أقرَّتِ امرأتُهُ؛ لهداهُ الله كما هداها، ولٰكنْ حَرَمَهُ ذٰلك**». فأرسلتْ إلىٰ مَنْ حولَها، إلىٰ كلِّ امرأةٍ لها؛ لأنْ تختارَ له ظِئْرًا[١]، فجعَلَ كلَّما أخذتْه امرأةٌ منهنَّ لِتُرْضِعَه؛ لم يُقْبِلْ علىٰ ثديِها، حتىٰ أشفقتِ امرأةُ فرعونَ أن يَمْتَنعَ من اللبنِ فيموتَ، فأحْزَنَها ذٰلك. فأمرتْ به، فأُخْرِجَ إلىٰ السوق ومجمع الناس؛ ترجو أن تَجِدَ له ظِئْرًا تأخُذُه منها، فلم يَقْبَلْ.

وأصبحت أمُّ موسىٰ والِهًا[٢]، فقالت لأخته: قُصِّي أثَرَهُ واطْلُبيه؛ هل تسمعينَ له ذِكْرًا؟ أحيٌّ ابني أم قد أكَلَتْهُ الدَّوابُّ؟ ونسيتْ ما كان الله وعدها فيه. فَبَصُرَتْ بِهِ أختُهُ عَنْ جُنُبٍ وهُم لا يَشْعُرونَ (والجُنُبُ: أن يسمُوَ بَصَرُ الإنسانِ إلىٰ شيء بعيدٍ وهو إلىٰ جنبِهِ لا يشعر به)، فقالتْ من الفرح حين أعياهُمُ الظَّؤوراتُ: أنا أدُلُكُمْ علَىٰ أهْلِ بيْتٍ يكْفُلونَه لَكُم وهُم لهُ ناصِحونَ. فأخَذوها، فقالوا: ما يدريكِ؟ ما نُصْحُهُم له؟ هل يَعْرِفونَهُ؟ حتىٰ شكُّوا في ذٰلك! وذٰلك من الفتونِ يا ابنَ جُبير! فقالت: نُصْحُهم له وشفقتُهم عليه رغبتَهم في صِهْرِ الملك ورجاءَ منفعةِ الملك. فأرسَلوها، فانطلقتْ إلىٰ أمِّها، فأخبرتْها الخبرَ، فجاءتْ أمُّه، فلمَّا وَضَعَتْهُ في حَجْرِها؛ نزا[٣] إلىٰ ثديِها فمصَّه حتىٰ امتلأ جَنْباه رِيًّا.

---

(١) الظئر: المرضع لولد غيرها.

(٢) الولَه: شدة الحزن والجزع.

(٣) نزا: وثب وأسرع.

وانطلقَ البشيرُ إلىٰ امرأة فرعونَ يبشِّرُها أنْ قد وَجَدْنا لابنِكِ ظِئْرًا. فأرسلتْ إليها، فأتتْ بها وبه، فلمَّا رأتْ ما يَصْنَعُ بها؛ قالت: امكُثي؛ تُرْضِعي ابني هٰذا؛ فإنِّي لم أحبَّ شيئًا حبَّه قطُّ. قالتْ أمُّ موسىٰ: لا أستطيعُ أن أتركَ بيتي وولدي فيضيعَ؛ فإنْ طابتْ نفسُكِ أن تُعْطِينيهِ، فأذهبَ به إلىٰ بيتي، فيكونَ معي لا آلوهُ خيرًا؛ فعلتُ؛ فإنِّي غيرُ تاركةٍ بيتي وولَدي. وذَكَرَتْ أمُّ موسىٰ ما كان الله وَعَدَها، فتعاسَرَتْ علىٰ امرأة فرعونَ، وأيقنتْ أنَّ اللهَ مُنْجِزُ موعودِهِ. فرجعتْ إلىٰ بيتِها من يومها، وأَنْبَتَهُ الله نباتًا حسنًا، وحَفِظَه لِما قد قضىٰ فيه. فلم يزل بنو إسرائيل وهم في ناحيةِ القريةِ ممتنعينَ من السُّخْرَةِ والظُّلم ما كان فيهم.

فلمَّا تَرَعْرَعَ؛ قالتِ امرأةُ فرعونَ لأمِّ موسىٰ: أزيريني[1] ابني. فوعدتْها يومًا تُزيرُها[2] إيَّاه فيه، وقالتِ امرأةُ فرعونَ لخُزَّانها وظُؤورِها وقهارِمَتها: لا يبقينَّ أحدٌ منكم إلَّا استقبلَ ابني اليومَ بهديَّةٍ وكرامةٍ! لأرىٰ ذٰلك فيه، وأنا باعثةٌ أمينًا يُحصي كلَّ ما يصنعُ كلُّ إنسان منكم! فلم تزل الهدايا والكرامةُ والنِّحَلُ تستقبلُه من حينَ خرجَ من بيتِ أمِّه إلىٰ أن دَخَلَ علىٰ امرأةِ فرعونَ، فلمَّا دَخَلَ عليها؛ نَحَلَتْه وأكرمتْه وفرحتْ به ونحلتْ أمَّه لحسنِ أثرِها عليها. ثم قالتْ: لآتِيَنَّ به فرعونَ فَلَيَنْحَلَنَّهُ وَلَيُكْرِمَنَّهُ.

فلمَّا دخلتْ به عليه؛ جَعَلَهُ في حَجْرِهِ، فتناول موسىٰ لحيةَ فرعونَ، فمدَّها إلىٰ الأرض، فقال الغُواةُ من أعداءِ الله لفرعونَ: ألا ترىٰ ما وَعَدَ اللهُ إبراهيم نبيَّه؟! إنَّه زَعَمَ أنْ يَرِثَك ويعلوَكَ ويصرَعَك! فأرسلَ إلىٰ الذَّبَّاحينَ لِيَذْبَحوه. وذٰلك من الفُتونِ يا ابن جُبير بعد كلِّ بلاء ابتُلِيَ به وأُريدَ به. فجاءتِ امرأةُ فرعونَ تسعىٰ إلىٰ فرعونَ، فقالت: ما بدا لك في هٰذا الغلام الذي وَهَبْتَهُ لي؟! فقال: ألا تَرَيْنَه يزعُمُ أنَّه يَصْرَعُني ويعلُوني؟ فقالتِ: اجعلْ بيني وبينَك أمرًا؛ تعرِفْ فيه الحقَّ، ائتِ بجمرتينِ ولؤلؤتينِ، فقرِّبْهُنَّ إليه؛ فإن بَطَشَ باللؤلؤتين واجتنبَ الجمرتين؛ عرفتَ أنَّه يعقِلُ، وإنْ تناول الجمرتينِ ولم يُرِدِ اللؤلؤتين؛ علمتَ أنَّ أحدًا لا يؤثِرُ الجمرتينِ علىٰ اللؤلؤتينِ وهو يعقِلُ. فقرَّبَ إليه الجمرتينِ واللؤلؤتينِ، فتناول الجمرتين! فانتزعوهُما

(١) في نسخة: «أريني».

(٢) في نسخة: «تريها»

منه مخافةً أن تُحْرِقا يده! فقالت المرأة: ألا ترىٰ؟ فصَرَفَه الله عنه بعدما كان هَّمَّ به، وكان اللهُ بالغًا فيه أمرَهُ.

فلمَّا بَلَغَ أشُدَّه وكان من الرجال؛ لم يكنْ أحدٌ من آل فرعونَ يَخْلُصُ إلىٰ أحدٍ من بني إسرائيلَ معه بظُلم ولا سُخرةٍ، حتىٰ امتنعوا كلَّ الامتناع.

فبينما موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ يمشي في ناحيةِ المدينة؛ إذا هو برجلين يقتتِلانِ، أحدُهما فرعونيٌّ والآخر إسرائيليٌّ، فاستغاثَه الإسرائيليُّ علىٰ الفرعونيِّ، فغضب موسىٰ غضبًا شديدًا، لأنَّه تناولَه وهو يعلمُ منزِلَتَه من بني إسرائيل وحِفْظَه لهم؛ لا يعلمُ الناس إلَّا أنَّه من الرَّضاع؛ إلَّا أمَّ موسىٰ؛ إلَّا أنْ يكونَ الله أطلعَ موسىٰ من ذٰلك علىٰ ما لم يُطْلِعْ عليه غيرَه[1]. فوكَزَ موسىٰ الفرعونيَّ، فقتَلَه، وليس يراهُما أحدٌ إلَّا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ والإسرائيليَّ، فقال موسىٰ حين قتل الرجلَ: هٰذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ؛ إنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مبين. ثم قال: رَبِّ! إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسي؛ فَاغْفِرْ لِي. فَغَفر له؛ إنَّه هُو الغَفورُ الرَّحِيمُ. قالَ: ربِّ بِمَا أنْعمْتَ عليَّ؛ فَلنْ أكُونَ ظَهيرًا للمُجرِمينَ.

فأصْبَحَ في المَدِينَةِ خائفًا يتَرقَّب الأخبارَ. فأُتِيَ فرعونُ، فقيل له: إنَّ بني إسرائيلَ قَتَلوا رجُلًا من آل فرعونَ؛ فخُذْ لنا بحقِّنا ولا تُرْخِصْ لهم! فقال: ابْغوني قاتِلَه ومَن يَشْهَدُ عليه؛ فإن المَلِكَ؛ وإن كان صَفْوُهُ مع قومه؛ لا ينبغي له أن يَقْتُلَ بغير بيِّنَةٍ ولا ثَبَتٍ؛ فاطلُبوا لي علمَ ذٰلك؛ آخذْ لكم بحقِّكم!

فبينما هم يطوفون لا يجدون بَيِّنَةً؛ إذا بموسىٰ من الغدِ قد رأىٰ ذٰلك الإسرائيليَّ يقاتِلُ رجلًا من آل فرعونَ آخرَ، فاستغاثَهُ الإسرائيليُّ علىٰ الفرعونيِّ، فصادَف موسىٰ وقد نَدِمَ علىٰ ما كانَ منه وكَرِهَ الذي رأىٰ، فغضِبَ الإسرائيليُّ وهو يريدُ أن يَبْطِشَ بالفرعونيِّ، فقال للإسرائيليِّ لِما فعلَ بالأمس واليوم: إنَّكَ لَغويٌّ مُبينٌ! فنَظَرَ الإسرائيليُّ إلىٰ موسىٰ بعدما قال له ما قالَ؛ فإذا هو غضبانُ كغَضَبِهِ بالأمس الذي قَتَلَ فيه الفرعونيَّ، فخاف أن يكونَ بعدما قالَ له: إنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبينٌ: أنْ يكونَ إيَّاه أرادَ، ولم يكن أرادَه، إنَّما أراد الفرعونيَّ، فخاف الإسرائيليُّ

(١) من المستبعد جدًّا أن لا يكون موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ في هٰذا العمر علىٰ اطلاع علىٰ حقيقة صلته بأمه وإخوته وبني إسرائيل؛ كيف وقد طلب من ربه سبحانه أول ما كلمه أن يجعل معه أخاه هارون نبيًّا؟! فتأمل أحداث القصة وخروج موسىٰ وعودته؛ تعلم صواب ما ذكرت لك. والله أعلم.

وقال: يا موسىٰ! أتُريدُ أنْ تَقْتُلَني كَما قَتَلْتَ نفسًا بالأَمْسِ؟ وإنَّما قال له مخافةَ أن يكونَ إيَّاه أراد موسىٰ لِيَقْتُلَه. فتتاركا. وانطلقَ الفرعونيُّ فأخبرهم بما سَمِعَ من الإسرائيليِّ من الخبر حين يقول: أتُريدُ أنْ تَقتُلَني كَما قَتَلْتَ نَفْسًا بالأَمْسِ؟

فأرسلَ فرعونُ الذَّبَّاحينَ لِيَقْتُلوا موسىٰ، فأخذ رسلُ فرعونَ في الطريق الأعظم يمشونَ علىٰ هِينَتِهم يطلُبون موسىٰ وهم لا يخافون أن يَفوتَهم، فجاء رجلٌ من شيعة موسىٰ من أقصىٰ المدينة، فاختصر طريقًا، حتَّىٰ سَبَقَهم إلىٰ موسىٰ، فأخبره. وذٰلك من الفتون يا ابنَ جُبير!

فخرج موسىٰ متوجِّهًا نحو مدينَ؛ لم يَلْقَ بلاءً قبل ذٰلك، وليس له بالطريق علمٌ إلَّا حُسْنَ ظنِّه بربِّه ﷻ؛ فإنَّه قال: عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبيلِ. ولمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ؛ وَجَدَ عليْه أُمَّةً مِنَ النَّاس يَسْقونَ، ووجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرأتَيْنِ تَذُودانِ؛ يعني بذٰلك: حابستينِ غَنَمَهما، فقال لهما: ما خَطْبُكُما مُعْتَزِلَتَيْنِ لا تسقيان مع الناس؟ قالتا: ليس لنا قوَّةٌ نزاحمُ القوم، وإنَّما ننتظرُ فضولَ حياضِهم. فسقىٰ لهما، فجعل يغترفُ من الدَّلْو ماء كثيرًا، حتىٰ كانَ أولَ الرِّعاءِ [فراغًا]، وانصرفتا بغنَمِهما إلىٰ أبيهما، وانصرف موسىٰ فاستظلَّ بشجرةٍ وقال: ربِّ! إنِّي لِما أنْزَلْتَ إليَّ مِنْ خيرٍ فَقيرٌ.

واستنكر أبوهما سرعةَ صدورِهما بغنمِهما حُفَّلًا بِطانًا[(١)]، فقال: إنَّ لكما اليومَ لشأنًا! فأخبرتاه بما صنع موسىٰ، فأمر إحداهما أن تَدْعُوَه، فأتت موسىٰ فَدَعَتْهُ، فلمَّا كلَّمَه؛ قالَ: لا تَخَفْ! نَجوْتَ مِنَ القَوْم الظَّالِمينَ، ليس لفرعونَ ولا لقومِهِ علينا من سلطان، ولَسْنا في مملكته. فقالتْ إحداهما: يا أبَتِ! اسْتأجِرْه؛ إنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتأجَرْتَ القَويُّ الأَمينُ. فاحتملَتْه الغَيْرَةُ علىٰ أنْ قال لها: ما يُدريكِ ما قوَّتُه وما أمانتُه؟! فقالت: أمَّا قوتُه؛ فما رأيتُ منه في الدَّلْوِ حين سقىٰ لنا، لم أرَ رجُلًا قطُّ أقوىٰ في ذٰلك السقي منه، وأمَّا الأمانةُ؛ فإنَّه نَظَرَ إليَّ حين أقبلتُ إليه وشخصتُ له، فلمَّا عَلِمَ أنِّي امرأةٌ؛ صَوَّبَ رأسَه فلم يرفَعْه حتىٰ بلَّغْتُه رسالتَكَ، ثم قال لي: امشي خلفي، وانعتي ليَ الطريق. فلم يفعلْ هٰذا إلَّا وهو أمينٌ. فَسُرِّيَ عن أبيها وصدَّقها، وظنَّ به الذي قالتْ. فقالَ له: هل لك أنْ أُنكِحَكَ إحْدىٰ ابْنتيَّ هاتَيْن عَلىٰ أنْ تأجُرَني ثَمانِيَ حَجَجٍ؛ فإنْ أتْممتَ عشْرًا؛ فَمِنْ عنْدِك، وما أُريدُ أنْ أشُقَّ عَليكَ، سَتَجِدُني إنْ شاءَ اللهُ مِنَ

(١) الحُفَّل: الممتلئة الضروع باللبن. والبطان: الممتلئة البطون بالطعام.

الصَّالِحينَ؟ ففعلَ، فكانت علىٰ نبيِّ الله موسىٰ ثمانُ سنينَ واجبةً، وكانت السنتانِ عِدَةً منه، فقضىٰ الله عنه عِدَتَهُ، فأتمَّها عشرًا.

قال سعيدٌ (وهو ابن جبير): فلَقِيَني رجلٌ من أهل النَّصْرانيَّةِ من علمائِهِم، فقال: هل تدري أيَّ الأجلين قَضىٰ موسىٰ؟ قلتُ: لا؛ وأنا يومئذٍ لا أدري. فلقيتُ ابنَ عباس، فذكرتُ ذٰلك له، فقال: أما علمتَ أنَّ ثمانيةً كانت علىٰ نبيِّ اللهِ واجبةً؛ لم يكنْ نبيُّ الله لِيَنْقُصَ منها شيئًا، وتعلمُ أنَّ الله كان قاضيًا عن موسىٰ عِدَتَهُ التي وَعَدَهُ؟! فإنَّه قضىٰ عشر سنينَ. فلقيتُ النصرانيَّ، فأخبرتُه ذٰلك، فقال: الذي سألْتَهُ فأخبركَ أعلمُ منك بذٰلك؟ قلت: أجلْ، وأولىٰ.

فلمَّا سار موسىٰ بأهلِهِ؛ كان من أمرِ النَّارِ والعصا ويده ما قصَّ اللهُ عليك في القرآن، فشكا إلىٰ الله تعالىٰ ما يتخوَّفُ من آل فرعونَ في القتيل وعُقْدَةَ لسانِهِ؛ فإنَّه كان في لسانِهِ عُقْدَةٌ تمنعُه من كثيرٍ من الكلام، وسأل ربَّه أن يُعينَه بأخيه هارونَ؛ يكون له رِدْءًا[1]، ويتكلَّم عنه بكثيرٍ ممَّا لا يُفْصِحُ به لسانُه، فآتاه الله ﷻ سُؤْلَهُ، وحلَّ عُقدةً من لسانِهِ، وأوحىٰ الله إلىٰ هارون فأمره أن يَلْقاه.

فاندفَعَ موسىٰ بعصاه حتىٰ لقي هارونَ، فانطلقا جميعًا إلىٰ فرعونَ، فأقاما علىٰ بابِهِ حينًا لا يُؤْذَنُ لهما، ثم أُذِنَ لهما بعد حجابٍ شديدٍ، فقالا: إنَّا رَسُولا رَبِّك. قال: فَمنْ رَبُّكُما؟! فأخبراه بالذي قصَّ اللهُ عليكَ في القرآن. قال: فما تريدانِ؟ وذَكَّرَهُ القتيلَ. فاعتذر بما قد سمعتَ. قال: أريدُ أن تؤمِنَ بالله وترسِلَ معي بني إسرائيلَ. فأبىٰ عليه، وقال: ائتِ بآيةٍ إنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقينَ! فألقَىٰ عَصَاهُ؛ فإذا هِيَ حيَّةٌ عظيمةٌ فاغرةٌ فاها مسرعةٌ إلىٰ فرعون، فلمَّا رآها فرعونُ قاصدةً إليه؛ خافها، فاقتحم عن سريرِهِ، واستغاث بموسىٰ أن يَكُفَّها عنه! ففعل. ثم أخرج يدَه من جيبِهِ، فرآها بيضاءَ من غير سوءٍ، يعني: من غير بَرَصٍ، ثم ردَّها، فعادت إلىٰ لونها الأول.

فاستشار الملأ حولَه فيما رأىٰ؟ فقالوا له: إنْ هٰذانِ لَساحِرانَ يُريدانِ أنْ يُخْرِجاكُم مِنْ أرْضِكُم بِسحْرِهما ويَذْهَبا بطَريقَتِكُم المُثْلىٰ! يعني: مُلْكَهُم الذي هم فيه والعيشَ. وأبوا علىٰ موسىٰ أن يُعطوه شيئًا ممَّا طَلَبَ، وقالوا له: اجمع السحرةَ؛ فإنَّهم بأرضِك كثيرٌ، حتىٰ تَغْلِبَ بسحرِك سحرَهما!

---

(١) الرِّدْء: الناصر والمعين والمساعد.

فأرسل إلىٰ المدائن، فحَشَرَ له كلَّ ساحرٍ مُتَعالِم، فلمَّا أَتَوْا فرعونَ؛ قالوا: بم يعملُ هٰذا الساحرُ؟ قالوا: يعملُ بالحيَّاتِ. قالوا: فلا والله؛ ما أحدٌ في الأرض يعملُ السحرَ بالحيَّاتِ والحبال والعصيِّ الذي نعملُ! فما أجْرُنا إنْ نحنُ غَلَبْنا؟ قال لهم: أنتُم أقاربي وخاصَّتي، وأنا صانعٌ إليكم كلَّ شيء أحببتُم. فتواعَدوا يَوْم الزِّينةِ وأنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحىٰ. قال سعيدٌ: فحدَّثني ابنُ عباس أنَّ يوم الزينةِ -اليومَ الذي أظهر الله فيه موسىٰ علىٰ فرعونَ والسحرةِ- هو يومُ عاشوراءَ.

فلمَّا اجتَمَعوا في صعيدٍ؛ قال الناسُ بعضُهم لبعض: انطَلِقوا؛ فلنحضُرْ هٰذا الأمرَ؛ لعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إنْ كانُوا هُمُ الغَالِبين! يعنون: موسىٰ وهارون؛ استهزاءً بهما! فقالوا: يا موسىٰ -بعد تريُّثِهم بسحرهم-: إمَّا أنْ تُلقِيَ وإمَّا أنْ نكونَ نَحنُ المُلْقينَ. قال: بل ألقوا! فألْقَوا حِبالَهُم وعِصيَّهُمْ وقالوا: بعزَّةِ فِرْعَون؛ إنَّا لنَحنُ الغالبونَ! فرأىٰ موسىٰ من سحرِهم ما أوجسَ في نفسه خيفةً، فأوحىٰ الله إليه: أنْ ألْقِ عَصاكِ! فلمَّا ألقاها؛ صارت ثُعبانًا عظيمةً فاغرةً فاها، فجعلت العصا تلتبسُ بالحبال، حتىٰ صارت جُرَزًا[1] إلىٰ الثعبانِ تدخُلُ فيه، حتىٰ ما أبقتْ عصًا ولا حبلاً إلاَّ ابتلعتْه!! فلمَّا عَرَفَ السحرةُ ذٰلك؛ قالوا: لو كان هٰذا سحرًا؛ لم يَبْلُغْ من سحرِنا كلَّ هٰذا، ولٰكنَّه أمرٌ من الله تعالىٰ، آمنَّا بالله وبما جاء به موسىٰ، ونتوبُ إلىٰ الله ممَّا كُنَّا عليه. فكَسَرَ الله ظهرَ فرعون في ذٰلك الموطن وأشياعَه، وظهر الحقُّ، وبَطَل ما كانُوا يعْمَلونَ، فَغُلبوا هُنالكَ وانْقلبوا صاغرينَ.

وامرأةُ فرعونَ بارزةٌ مُتَبَذِّلَةٌ[2] تدعو الله بالنصر لموسىٰ علىٰ فرعونَ وأشياعِهِ؛ فمَن رآها من آل فرعونَ؛ ظنَّ أنَّها إنَّما ابْتَذَلَتْ للشفقةِ علىٰ فرعونَ وأشياعِهِ، وإنَّما كان حزنُها وهمُّها لموسىٰ.

فلمَّا طال مُكْثُ موسىٰ بمواعيدِ فرعونَ الكاذبةِ، كلَّما جاء بآيةٍ؛ وَعَدَهُ عندها أن يرسلَ معه بني إسرائيل؛ فإذا مضتْ؛ أخلفَ موعِدَه[3] وقال: هل يستطيعُ ربُّك أن يصنَعَ غيرَ هٰذا؟! فأرسلَ اللهُ علىٰ قومِهِ الطُّوفانَ والجرادَ والقُمَّلَ والضفادعَ والدَّمَ آياتٍ مفصَّلاتٍ؛ كلُّ ذٰلك يشكو إلىٰ موسىٰ، ويطلبُ إليه أن يَكُفَّها عنه، ويوافقُهُ علىٰ أن يرسلَ معه بني إسرائيل؛ فإذا كَفَّ ذٰلك عنه؛ أخلف بوعدِهِ ونكَثَ عهدَه!!

---

(١) جرزًا: حزمًا وجماعات.

(٢) في جميع الأصول: «مبتذلة»! وما أثبته أولىٰ، ومعناها: غير معتنية بثيابها وزينتها.

(٣) في نسخة: «أخلف من غده».

حتَّىٰ أمر الله موسىٰ بالخروج بقومِهِ، فخرج بهم ليلًا، فلمَّا أصبح فرعونُ ورأىٰ أنَّهم قد مَضَوْا؛ أرسل في المدائنِ حاشرينَ، فتبِعَهُ بجنودٍ عظيمةٍ كثيرةٍ، وأوحىٰ الله إلىٰ البحرِ: إذا ضَرَبَكَ موسىٰ عبدي بعصاهُ؛ فانْفَلِقِ اثنتي عشرةَ فرقةً، حتىٰ يجوزَ موسىٰ ومن معه، ثم الْتَقِ علىٰ مَن بَقِيَ بعدُ من فرعون وأشياعه! فنسي موسىٰ أن يضرِبَ البحر بالعصا، وانتهىٰ إلىٰ البحر وله قَصِيفٌ[1]؛ مخافةَ أن يضرِبَه موسىٰ بعصاه وهو غافلٌ؛ فيصيرَ عاصيًا لله ﷻ! فلمَّا تراءىٰ الجمعانِ وتقاربا؛ قالَ أصْحابُ موسىٰ: إنَّا لَمُدْرَكونَ! افعلْ ما أمَرَكَ به ربُّك؛ فإنَّه لم يكذِبْ ولم تكذِبْ! قال: وَعَدَني ربِّي إذا أتيتُ البحرَ؛ انفرقَ اثنتي عشرة فرقةً حتىٰ أجاوِزَه. ثم ذَكَرَ بعد ذٰلك العصا، فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائلُ جُنْدِ فرعونَ من أواخِرِ جند موسىٰ، فانفرقَ البحرُ كما أمَرَهُ ربُّه، وكما وعد موسىٰ، فلما أن جاوَزَ موسىٰ، وأصحابُه كلُّهم البحرَ، ودخل فرعونُ وأصحابُهُ؛ التقىٰ عليهم البحرُ كما أُمِرَ، فلمَّا جاوَزَ موسىٰ البحرَ؛ قال أصحابُه: إنَّا نخاف ألَّا يكونَ فرعونُ غَرِقَ ولا نؤمِنُ بهلاكِهِ! فدعا ربَّه، فأخرجَه له ببدنِهِ حتىٰ استيقَنوا بهلاكه.

ثم مرُّوا بعد ذٰلك علىٰ قوم يعكُفون علىٰ أصنام لهم؛ قالُوا: يا موسىٰ! اجْعَل لَنا إلٰهًا كَما لَهمْ آلِهَةٌ! قالَ: إنَّكُم قَومٌ تَجْهلون! إنَّ هٰؤلاء مُتَبَّرٌ ما هُمْ فيهِ وباطِلٌ ما كانوا يعْمَلونَ! قد رأيتم من العِبَرِ وسمعتُم ما يكفيكم! ومضىٰ، فأنزلهم موسىٰ منزِلًا، وقال: أطيعوا هارونَ؛ فإنَّ الله قد استَخْلَفَه عليكم؛ فإنِّي ذاهبٌ إلىٰ ربِّي! وأجَّلهم ثلاثين يومًا أن يرجِعَ إليهم فيها.

فلما أتىٰ ربَّه ﷻ وأراد أن يُكَلِّمَه في ثلاثين يومًا وقد صامَهُنَّ ليلَهُنَّ ونهارَهُنَّ؛ كره أن يكلِّمَ ربَّه وريحُ فيه ريحُ فم الصائم، فتناول موسىٰ شيئًا من نبات الأرض، فمضَغَه، فقال له ربُّه حين أتاه: لم أفطرتَ؟ وهو أعلم بالذي كان. قال: يا ربِّ! إنِّي كرهتُ أن أكلِّمَكَ إلَّا وفمي طيِّبُ الريح. قال: أو مَا علمتَ يا موسىٰ أنَّ ريحَ فم الصائم أطيبُ عندي من ريح المسكِ؟! ارجعْ فَصُمْ عشرًا ثم ائْتِني! ففعل موسىٰ ما أمره به ربُّه.

فلمَّا رأىٰ قومُ موسىٰ أنَّه لم يرجِعْ إليهم في الأجَل؛ ساءَهم ذٰلك، وكان هارونُ قد خَطَبَهم فقال: إنَّكم خرجتُم من مصر، ولقوم فرعونَ عندَكم عَوارِيُّ[2] وودائعُ، ولكُمْ فيها مثلُ ذٰلك،

---

(١) القصيف: صوت تكسُّر أمواج البحر.

(٢) جمع عاريَّة مشددة، ويصح فيها أيضًا: عوارٍ؛ جمع عاريةً مخففة؛ كما في بعض الأصول، وهي ما يأخذه المرء علىٰ نيَّة ردِّه إلىٰ صاحبه فيما بعد.

وأنا أرىٰ أن تَحْتَسِبوا ما لكم عندَهم، ولا أُحِلُّ لكم وديعةً استودِعْتُموها ولا عاريَّةً، ولسنا برادِّينَ إليهم شيئًا من ذٰلك ولا ممسكيهِ لأنفسِنا. فحَفَرَ حَفيرًا[١]، وأمر كلَّ قومٍ عندَهم من ذٰلك متاعٌ أو حِلْيَةٌ أن يقذِفوه في ذٰلك الحفير، ثم أوقدَ عليه النار، فأحرقَه، فقال: لا يكونُ لنا ولا لهم.

وكان السامريُّ من قوم يعبُدون البقر جيرانٍ لبني إسرائيل، ولم يكن من بني إسرائيل، فاحْتَمَلَ مع موسىٰ وبني إسرائيل حين احْتَمَلوا، فقُضِيَ له أن رأىٰ أثرًا، فقبضَ منه قبضةً، فمرَّ بهارونَ، فقال له هارونُ: يا سامريُّ! ألا تُلْقي ما في يديكَ؟ وهو قابضٌ عليه لا يراهُ أحدٌ طوال ذٰلك. فقال: هٰذه قبضةٌ من أثرِ الرَّسول الذي جاوزَ بكم البحرَ، ولا ألقيها لشيء؛ إلَّا أنْ تَدْعُوَ الله إذا ألقيتُها أن يكونَ ما أريدُ. فألقاها، ودعا له هارونُ، فقال: أريدُ أن تكونَ عِجْلًا. فاجتمع ما كان في الحفرة من متاع أو حِلْيَةٍ أو نُحاس أو حديدٍ، فصار عِجْلًا أجوف، ليس فيه روحٌ وله خُوارٌ. قال ابن عباس: لا والله؛ ما كان فيه صوتٌ قطُّ، إنَّما كانت الريحُ تدخُلُ من دُبُرِه وتخرجُ من فيه، فكان ذٰلك الصوتُ من ذٰلك! فتفرَّقَ بنو إسرائيل فِرَقًا، فقالتْ فرقةٌ: يا سامريُّ! ما هٰذا؛ وأنت أعلمُ به؟ قال: هٰذا ربُّكم، ولٰكنَّ موسىٰ أضلَّ الطريق! وقالت فرقةٌ: لا نكذب بهٰذا حتىٰ يرجِعَ إلينا موسىٰ؛ فإنْ كان ربَّنا؛ لم نكنْ ضيَّعْناه وعَجَزْنا فيه[٢] حين رأيناه، وإن لم يكنْ ربَّنا؛ فإنا نتَّبِعُ قولَ موسىٰ. وقالت فرقةٌ: هٰذا من عمل الشيطان، وليس بربِّنا، ولا نؤمنُ به ولا نصدِّقُ، وأُشْرِبَ فرقةٌ في قلوبهم الصدقَ بما قال السامريُّ في العجل، وأعلنوا عدمَ التَّكذيب به. فقال لهم هارونُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا قَوْمِ! إنَّما فُتِنْتُمْ به، وإنَّ ربَّكُمُ الرحمٰن، ليس هٰذا! قالوا: فما بالُ موسىٰ وَعَدَنا ثلاثين يومًا ثم أَخْلَفَنا؟! هٰذه أربعون يومًا قد مضت. وقال سفهاؤهم: أخطأ ربَّه فهو يطلُبُه ويبتغيه.

فلمَّا كلَّم الله موسىٰ، وقال له ما قالَ؛ أخبره بما لَقِيَ قومُهُ من بعدِهِ، فَرجَعَ موسىٰ إلىٰ قَومِهِ غَضْبانَ أسِفًا، فقال لهم ما سمعتُم في القرآن، وأَخَذَ برَأسِ أخيهِ يَجُرُّه إليْهِ، وألقىٰ الألواحَ من الغضب، ثم إنَّه عَذَرَ أخاه بعذرِهِ واستغفرَ له، وانصرفَ إلىٰ السامريِّ، فقال له: ما حَمَلَكَ علىٰ ما صنعتَ؟ قال: قبضتُ قبضةً من أثَرِ الرَّسول، وفطِنْتُ لها، وعُمِّيَتْ عليكم، فَقَذَفْتُها[٣] وكذٰلك سَوَّلَتْ لي نَفْسي! قالَ: فاذْهَبْ؛ فإنَّ لكَ في الحَياةِ أنْ تَقولَ: لا مِساسَ، وإنَّ لكَ

---

(١) الحَفير: القبر. وفي بعض الأصول: «حُفَيْرة». وكله صحيح.

(٢) في نسخة: «وعكفنا عليه».

(٣) في نسخة: «فنبذتها».

مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ، وانْظُر إلىٰ إلٰهكَ الَّذِي ظَلْتَ[1] عليْهِ عاكِفًا؛ لنُحرِّقنَّه ثمَّ لَنَنْسِفَنَّه في اليَمِّ نَسْفًا. ولو كان إلٰها؛ لم يُخْلَصْ إلىٰ ذٰلك منه.

فاستيقنَ بنو إسرائيل بالفتنةِ، واغتبطَ الذين كان رأيُهم فيه مثلَ رأي هارون، فقالوا لجماعتِهم: يا موسىٰ! سلْ لنا ربَّك أن يفتحَ لنا بابَ توبةٍ نصنعُها فتكفِّرَ عنَّا ما عَمِلْنا!

فاختار موسىٰ من قومِهِ سبعين رجلًا لذٰلك، لا يألو الخيرَ، خيار بني إسرائيل ومن لم يشرِكْ في الحقِّ، فانطلقَ بهم يسألُ لهم التوبةَ، فرجفتْ بهم الأرضُ، فاستحيا نبيُّ الله عليه السلام من قومِهِ ومن وفدِهِ حين فُعِلَ بهم ما فُعِلَ، فقال: ربِّ! لَو شِئْتَ أهْلَكْتَهُم مِنْ قَبلُ وإيَّاي، أتُهْلِكُنا بما فَعَل السُّفهاءُ مِنَّا؟ وفيهم من كان اللهُ اطَّلَعَ منه علىٰ ما أُشْرِبَ قلبُه من حبِّ العجل وإيمانِهِ به؛ فلذٰلك رجفت بهم الأرضُ، فقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَىٰةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧]. فقال: يا ربِّ! سألْتُك التوبة لقومي، فقلتَ: إنَّ رحمتي كتبتُها لقوم غيرِ قومي! فليتَكَ أخَّرْتَني حتىٰ تُخرِجَني في أمة ذٰلك الرجل المرحوم! فقال له: إنَّ توبتَهُم أن يَقْتُلَ كلُّ رجل منهم مَنْ لَقِيَ من والدٍ وولدٍ، فيقتُلَه بالسيفِ ولا يبالي مَنْ قَتَلَ في ذٰلك الموطن. وتاب أولئك الذين كان خَفِيَ علىٰ موسىٰ وهارونَ ما اطَّلَعَ الله [عليه] من ذنوبهم، فاعترفوا بها، وفعلوا ما أُمِروا، وغفر الله للقاتل والمقتول.

ثم سار بهم موسىٰ عليه السلام متوجِّهًا نحو الأرض المقدسةِ، وأخذ الألواحَ بعدما سكتَ عنه الغضبُ، فأمرهم بالذي أُمِرَ به من الوظائفِ، فثَقُل ذٰلك عليهم، وأبوا أن يُقِرُّوا بها، فنَتَقَ[2] الله عليهم الجبلَ كأنَّه ظُلَّةٌ، ودنا منهم حتَّىٰ خافوا أن يقعَ عليهم، فأخذوا الكتاب بأيْمانِهم وهم مصغونَ ينظُرون إلىٰ الجبل، والكتابُ بأيديهم، وهم من وراء الجبل؛ مخافةَ أن يَقَعَ عليهم.

ثم مضَوْا حتىٰ أتَوُا الأرضَ المقدَّسة، فوجدوا مدينةً فيها قومٌ جبارون؛ خَلْقُهُم خَلْقٌ منكرٌ، وذكروا من ثمارهم أمرًا عَجَبًا من عِظَمِها، فقالوا: يا مُوسىٰ! إنَّ فيها قَوْمًا جَبَّارينَ، لا طاقةَ لنا بهم، ولا ندخُلُها ما داموا فيها؛ فإنْ يخرُجوا مِنْها؛ فإنَّا داخِلُون. ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ

---

(١) ظَلْتَ: ظَلَلْتَ؛ مخففة.

(٢) نتق الجبل: هزه وزعزعه ورفعه فوق رؤوسهم قريبًا جدًّا منهم.

﴿يَخَافُونَ﴾ [المائدة: ٢٣]: قيل ليزيد: هٰكذا قرأه؟ قال: نعم؛ من الجبارينَ، آمَنا بموسىٰ وخَرجا إليه، فقالوا: نحن أعلم بقومنا؛ إن كنتُم إنَّما تخافون ما رأيتُم من أجسامِهم وعَدَدِهم؛ فإنَّهم لا قلوبَ لهم ولا مَنَعَةَ عندهم؛ فادخُلوا عليهم البابَ؛ فإذا دَخَلْتُموه؛ فإنَّكم غالبون. ويقول أناسٌ: إنَّهم من قوم موسىٰ. فقال الذين يَخافونَ من بني إسرائيل؛ قالوا: يا موسىٰ! إنَّا لَنْ نَدْخُلَها أبدًا ما دامُوا فِيها؛ فاذهَبْ أنْتَ وربُّكَ فَقاتِلا إنَّا هاهنا قاعِدُونَ! فأغضبوا موسىٰ، فدعا عليهم، وسمَّاهم فاسقينَ، ولم يَدْعُ عليهم قبلَ ذٰلك لِما رأىٰ منهم من المعصيةِ وإساءَتِهم حتَّىٰ كان يومئذٍ، فاستجابَ اللهُ له، وسمَّاهم كما سمَّاهم موسىٰ فاسقينَ، فحرَّمَها عليهم أربعين سنةً يتيهون في الأرض؛ يصبِحونَ كلَّ يوم، فيسيرونَ؛ ليس لهم قَرارٌ!

ثم ظَلَّلَ عليهم الغمام في التِّيهِ، وأنزل عليهم المَنَّ والسَّلْوىٰ، وجعل لهم ثِيابًا لا تَبْلىٰ ولا تتَّسِخُ، وجعل بين ظَهْرانَيْهِم حجرًا مربَّعًا، وأمر موسىٰ، فضربَه بعصاه، فانفجرتْ منه اثنتا عشرةَ عينًا، في كلِّ ناحيةٍ ثلاثةُ أعين، وأعلم كلَّ سِبْطٍ عَيْنَهم التي يشربون منها؛ فلا يرتحِلون من محلَّةٍ إلَّا وَجَدوا ذٰلك الحجرَ بينهم بالمكان الذي كان فيه بالأمس.

رفع ابنُ عباس هٰذا الحديثَ إلىٰ النبيِّ ﷺ، وصَدَّقَ ذٰلك عندي أنَّ معاوية سَمعَ ابنَ عباس يحدِّثُ هٰذا الحديث، فأنكر عليه أن يكونَ الفرعونيُّ الذي أفشىٰ علىٰ موسىٰ أمرَ القتيل الذي قَتَلَ، فقال: كيف يُفْشي عليه ولم يكنْ عَلِمَ به ولا ظَهَرَ عليه إلَّا الإسرائيليُّ الذي حَضَرَ ذٰلك؟! فغضب ابنُ عباس، فأخذ بيدِ معاويةَ، وانطلق به إلىٰ سعدِ بن مالك الزهريِّ، فقال له: يا أبا إسحاق! هل تَذْكُرُ يومَ حدَّثنا رسولُ الله ﷺ عن قتيل موسىٰ الذي قَتَلَ مِن آل فرعون؟ الإسرائيليُّ الذي أفشىٰ عليه أم الفرعونيُّ؟ قال: إنما أفشىٰ عليه الفرعونيُّ بما سَمِعَ من الإسرائيليِّ الذي شَهِدَ ذٰلك وحَضَرَهُ(١).

(١) (موقوف حسن، وصح بعضه مرفوعًا). رواه: النسائي في «الكبرىٰ» (٤/ ٤٣٨/ ٥٥٩٨ - تحفة، و٦/ ٣٩٦/ ١١٣٢٦/ ١- كبرىٰ)، وأبو يعلىٰ (٥/ ١٠/ ٢٦١٨)، والطبري في «التفسير» (٨/ ٤١٥/ ٢٤١٣١)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (لم أجده في مطبوعة أسعد محمد الطيب)؛ كلهم من طريق يزيد بن هارون... به، فذكره.

قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٦٩): «رواه أبو يعلىٰ، ورجاله رجال الصحيح؛ غير أصبغ بن زيد والقاسم بن أبي أيوب، وهما ثقتان». وأصبغ بن زيد فيه كلام لا ينزل بحديثه عن رتبة الحسن. وقد استبعد الحافظ ابن كثير كما ترىٰ رفعه، ورجح كونه موقوفًا وكون غالبه متلقّي عن الإسرائيليات وأن في بعضه نكارة، ونقل ذلك عن =

هٰكذا ساق هٰذا الحديث الإمامُ النسائيُّ، وأخرجه ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم في «تفسيرهما» من حديث يزيد بن هارون، والأشبه -والله أعلم- أنه موقوفٌ، وكونُه مرفوعًا فيه نظرٌ، وغالبُهُ متلقًّىٰ من الإسرائيلياتِ، وفيه شيءٌ يسيرٌ مصرَّحٌ برفعه في أثناء الكلام، وفي بعض ما فيه نظرٌ ونكارةٌ، والأغلبُ أنَّه من كلام كعب الأحبار، وقد سمعتُ شيخَنا الحافظَ أبا الحجاج المِزِّيَّ يقول ذٰلك. والله أعلم.

۞ ذكر بناء قبة الزمان:

قال أهلُ الكتاب[1]: وقد أمر الله موسىٰ عليه السلام بعمل قُبَّةٍ من خَشَبِ الشمشاز[2] وجلود الأنعام وشعر الأغنام، وأمر بزينتِها بالحريرِ المُصَبَّغ والذَّهب والفضَّة علىٰ كيفيَّات مفصَّلةٍ عند أهل الكتاب، ولها عشرُ سُرادِقاتٍ[3]؛ طولُ كلِّ واحد ثمانيةٌ وعشرون ذراعًا، وعرضُه أربعةُ أذرع، ولها أربعةُ أبوابٍ وأطنابٌ[4] من حريرٍ ودِمَقْسٍ[5] مصبَّغ، وفيها رفوفٌ وصفائحُ من ذهب وفضَّة، ولكلِّ زاويةٍ بابان وأبوابٌ أُخَرُ كبيرةٌ وستورٌ من حرير مصبَّغ وغير ذٰلك ممَّا يطولُ ذِكْرُهُ.

وبعمل تابوتٍ من خشب الشمشاز[6] يكون طولُه ذراعين ونصفًا، وعرضُه ذراعًا

= شيخه المزِّي، وحسبك به. وأما التصريح بالرفع آخر الحديث؛ فالظاهر أنه من كلام أصبغ، وهو صدوق يغرب، فلعله من غرائبه، وإلَّا؛ فهو محمول علىٰ بعضه لا كلِّه؛ لأن ظاهر المتن ناطق بالوقف، والتصريح برفع بعضه يؤكد هٰذا، والظاهر أن الحافظ قد مال إلىٰ هٰذا في «الفتح» (٦/ ٤٢٧/ ٣٣٩٣)، فقال: «لمح المصنف (يعني: البخاري) بهذه التفاسير (يعني: لبعض آيات سورة طه) لما جرىٰ لموسىٰ في خروجه إلىٰ مدين، ثم في رجوعه إلىٰ مصر، ثم في أخباره مع فرعون، ثم في غرق فرعون، ثم في ذهابه إلىٰ الطور، ثم في عبادة بني إسرائيل العجل، وكأنه لم يثبت عنده في ذلك من المرفوعات ما هو علىٰ شرطه، وأصح ما ورد في جميع ذلك ما أخرجه النسائي وأبو يعلىٰ بإسناد حسن عن ابن عباس في حديث الفتون الطويل» اهـ. فظاهر هٰذا أنه عنده موقوف. والله أعلم.

(١) في (سفر الخروج/ الأصحاح ٢٥-٣١).

(٢) كذا في جميع الأصول! والذي عند أهل الكتاب أنه من خشب السَّنْط. والظاهر أنه هو هو، وأن لفظ «الشمشاز» علىٰ أصله العبري، وأن الحافظ ابن كثير يرحمه الله تعالىٰ قد رجع إلىٰ هٰذا الأصل العبري مباشرة، أو إلىٰ ترجمة عربية سقيمة مما كان منتشرًا في عصره، ثم اعتمدت الكنيسة المعاصرة تعريبه علىٰ «السنط». والله أعلم.

(٣) جمع سُرداق، وهو الخيمة أو الستر الذي يسوَّر به موضع ما.

(٤) جمع طُنُب، وهو حبل طويل يشدُّ به سُرادق البيت.

(٥) الدِّمَقْس: الديباج.

(٦) كذا في جميع الأصول! وقد بينته في ص ٤٥٠.

ونصفًا[١]، وارتفاعُه ذراعًا ونصفًا، ويكون مضبَّبًا بذهب[٢] خالص من داخله وخارجه، وله أربعُ حِلَقٍ في أربع زواياه، ويكون علىٰ حافتيه كَروبانِ[٣] من ذهبٍ (يعنون: صفةَ مَلَكَيْنِ بأجنحةٍ)، وهما متقابلان؛ صنعةَ رجُل اسمُهُ: بَصَلْئيلُ.

وأمره أن يعملَ مائدةً من خشب الشمشاز؛ طولُها ذراعان، وعرضُها ذراعٌ، [وارتفاعُها ذراعٌ] ونصفٌ، لها ضِبابُ ذهبٍ وإكليلُ ذهبٍ، بشفةٍ مرتفعةٍ بإكليل من ذهب، وأربعُ حِلَقٍ من نواحيها من ذهبٍ، مغرزةٌ في مثل الرُّمَّان من خشبٍ ملبَّس ذهبًا[٤]. وأن يعملَ صِحافًا ومصافيَ وقِصاعًا علىٰ المائدة.

ويصنَع منارةً من الذهب، دُلِّيَ فيها ستُّ قصباتٍ من ذهب، من كل جانب ثلاثةٌ، علىٰ كلِّ قصبة ثلاثةُ سُرُج، ولِيَكُنْ في المنارة أربعُ قناديلَ، ولتكُنْ هي وجميعُ هٰذه الآنية من قنطارٍ من ذهب.

صنع ذٰلك بَصَلْئيلُ أيضًا.

وهو الذي عَمِلَ المذبحَ أيضًا.

ونُصِبَتْ[٥] هٰذه القبة أولَ يوم من سنتهم، وهو أولُ يوم من الربيع، ونُصِبَ تابوتُ الشهادة، وهو -والله أعلم- المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: ٢٤٨].

وقد بُسِطَ هٰذا الفصل في كتابهم مطوَّلًا جدًّا، وفيه شرائعُ لهم وأحكامٌ وصفةُ قُربانِهم وكيفيَّته، وفيه أنَّ قُبَّةَ الزمان كانت موجودةً قبل عبادتهم العِجْلَ الذي هو متقدِّم علىٰ مجيئهم[٦] بيتَ

(١) في جميع الأصول: «ذراعين». والتصويب من «العهد القديم».

(٢) المضبَّب بالذهب: المغلَّف به والمطلي به والملبَّس به.

(٣) في جميع الأصول: «كروبيان». والتصويب من «العهد القديم». وقد ذكر الحافظ ابن كثير أنهما منحوتان علىٰ صورة ملكين. فالله أعلم.

(٤) الجملة غير واضحة، والمعنىٰ كما أفدته من نص أهل الكتاب أن هذه الحلق الأربع يعزز فيها عصوان من خشب ملبَّس بالذهب لِتُحمل المائدة بواسطتهما.

(٥) في نسخة: «ونصب».

(٦) في نسخة: «مجيء».

المقدس، وأنَّها كانت لهم كالكعبةِ يصلُّون فيها وإليها ويتقرَّبون عندَها، وأنَّ موسىٰ عليه السلام كان إذا دَخلَها؛ يقفونَ عندها، وينزلُ عمودُ الغمام علىٰ بابها، فيخِرُّون عند ذٰلك سجَّدًا لله عز وجل، ويكلِّمُ الله موسىٰ عليه السلام من ذٰلك العمودِ الغمامِ الذي هو نورٌ ويخاطبُه ويناجيه ويأمُره وينهاهُ وهو واقفٌ عند التابوتِ صامدٌ إلىٰ ما بين الكَروبَيْن؛ فإذا فَصَلَ الخطابَ؛ يخبرُ بني إسرائيلَ بما أوحاه الله عز وجل إليه من الأوامر والنَّواهي، وإذا تحاكَموا إليه في شيء ليس عندَه من الله فيه شيءٌ؛ يجيءُ إلىٰ قُبَّةِ الزمانِ، ويقفُ عند التابوتِ، ويَصْمُدُ لِما بين ذَيْنِكَ الكَروبَيْن، فيأتيه الخطابُ بما فيه فَصْلُ تلك الحكومةِ.

وقد كان هٰذا مشروعًا لهم في زمانهم؛ أعني: استعمالَ الذهب والحرير المُصَبَّغ واللآلئ في مَعْبَدِهم وعند مُصَلَّاهم. فأمَّا في شريعتنا؛ فلا، بل قد نُهينا عن زخرفةِ المساجدِ وتزيينها[١]، لئلَّا تَشْغَلَ المصلين؛ كما قال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه لَمَّا وَسَّعَ في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم للذي وَكَلَهُ علىٰ عِمارتِهِ: ابنِ للناس ما يُكِنُّهم[٢]، وإيَّاكَ أن تُحَمِّرَ أو تُصَفِّرَ؛ فتفتِنَ الناس[٣]! وقال ابنُ عباس: لَتُزَخْرِفُنَّها كما زخرفتِ اليهودُ والنصارىٰ كنائِسَهُم[٤]! وهٰذا من باب التشريف والتكريم والتَّنزيه؛ فهٰذه الأمةُ غيرُ مشابهةٍ مَنْ كان قبلَهم من الأمم؛ إذ جَمَعَ الله هِمَمَهُم[٥] في صلاتهم علىٰ التوجُّه إليه والإقبال عليه، وصان أبصارَهم وخواطِرَهم عن الاشتغال والتَّفكُّرِ في غير ما هم بصددِهِ[٦] من العبادة العظيمةِ[٧]. فلله الحمدُ والمِنَّة.

---

(١) وقد صح في ذلك أحاديث عدة، منها قوله صلى الله عليه وسلم «ما أُمِرْتُ بتشييد المساجد». رواه أبو داوود (٢- الصلاة، ١٢- بناء المساجد، ١/ ١٧٦/ ٤٤٨) من حديث ابن عباس. وصححه الألباني. والتشييد: هو تعلية البناء وتطويله وتزويقه.

(٢) يكنُّهم: يؤويهم.

(٣) علقه البخاري في «الصحيح» (٨- الصلاة، ٦٢-بنيان المسجد، ١/ ٥٣٩). قال الحافظ: «وهو طرف من قصة في ذكر تجديد المسجد النبوي».

(٤) علقه البخاري في «الصحيح» في الموضع السابق، ووصله أبو داوود بسند صحيح، وهو قطعة موقوفة من الحديث الذي تقدم في الحاشية قبل السابقة.

(٥) في نسخة: «همهم».

(٦) في نسخة: «في غير ما هم فيه».

(٧) ووجه التشريف والتكريم في هٰذا أن الإسلام توجه إلىٰ العقلاء الألباء الذين لا تغرهم المظاهر ولا يخدعهم البريق، وإنما مقصودهم الحقائق والغايات.

وقد كانت قُبَّةُ الزمان هٰذه مع بني إسرائيل في التِّيهِ(١)، يصلُّون إليها، وهي قِبْلَتُهم وكعبتُهم، وإمامُهم كليمُ الله موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومقدِّمُ القُرْبانِ أخوه هارونُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلمَّا مات هارون ثم موسىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ؛ استمرَّ بنو هارونَ في الذي كان يليه أبوهم من أمرِ القُرْبانِ، وهو فيهم إلىٰ الآن، وقام بأعباء النبوَّةِ بعد موسىٰ وتدبيرِ الأمر بعدَهُ فتاه يوشَعُ بن نونٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو الذي دَخَلَ بهم بيتَ المقدس كما سيأتي بيانُه(٢).

والمقصودُ هنا: أنَّه لما استقرَّت يدُه علىٰ البيتِ المقدَّس؛ نصبَ هٰذه القبةَ علىٰ صخرة بيت المقدس، فكانوا يصلُّون إليها، فلمَّا بادتْ؛ صَلَّوْا إلىٰ مَحَلَّتِها، وهي الصخرةُ؛ فلهٰذا كانت قبلةَ الأنبياء بعدَه إلىٰ زمان رسول الله ﷺ.

وقد صلىٰ إليها رسولُ الله ﷺ قبلَ الهجرة، وكان يجعلُ الكعبةَ بين يديه، فلمَّا هاجر؛ أُمِرَ بالصلاةِ إلىٰ بيت المقدس، فصلىٰ إليها ستة عشر (وقيل: سبعة عشر) شهرًا، ثم حُوِّلَتِ القبلةُ إلىٰ الكعبة -وهي قبلةُ إبراهيمَ- في شعبان سنة اثنتين في وقت صلاةِ العصر وقيلَ: الظُّهر؛ كما بَسَطْنا ذٰلك في «التفسير» عند قوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ...﴾ إلىٰ قوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ الآيات: [البقرة: ١٤٢-١٤٤](٣).

۞ قصة قارون مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ

(١) يعني: وكانوا يحملونها ويسيرون بها حيث ساروا.

(٢) انظره: في قصته (ص٤٧١-٤٨٣).

(٣) والأحاديث في هٰذا كله كثيرة ومشهورة ومخرجة في الصحيحين؛ فلا نطيل في الكلام فيها؛ فمن رام التفصيل؛ فعليه بـ«تفسير ابن كثير».

خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٧٦-٨٣].

قال الأعمشُ: عن المِنْهال بن عمرو، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس؛ قال: كان قارونُ ابنَ عمِّ موسىٰ. وكذا قال إبراهيمُ النَّخَعِيُّ وعبدُالله بن الحارث بن نوفل وسماكُ بن حَرْب وقَتادةُ ومالكُ بن دينار وابنُ جُرَيْج وزاد فقال: هو قارونُ بنُ يصهرَ بنِ قاهثَ، وموسىٰ بنُ عمرانَ بنِ قاهثَ. قال ابن جرير[1]: وهٰذا قولُ أكثر أهل العلم؛ أنَّه كانَ ابنَ عمِّ موسىٰ. وردَّ قولَ ابن إسحاقَ أنَّه كان عمَّ موسىٰ.

قال قَتادةُ: وكان يُسمَّىٰ المُنَوَّرَ؛ لحُسْنِ صوتِهِ بالتوراة، ولٰكنَّ عدوَّ الله نافقَ كما نافقَ السامريُّ، فأهلكه البغيُ؛ لكثرة مالِهِ.

وقال شَهْر بن حَوْشب: زاد في ثيابِهِ شبرًا طولًا ترفُّعًا علىٰ قومِهِ.

وقد ذكر الله تعالىٰ كَثْرَةَ كنوزِهِ، حتىٰ إنَّ مفاتِحَه كان يَثْقُلُ حَمْلُها علىٰ الفئام من الرجال الشِّداد[2]، وقد قيل: إنَّها كانت من الجُلود، وإنَّها كانت تُحْمَلُ علىٰ ستين بغلاً. فالله أعلم.

وقد وَعَظَهُ النُّصحاءُ من قومه قائلين: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ﴾؛ أي: لا تَبْطَرْ بما أُعطيت وتفخرْ علىٰ غيرك. ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾: يقولون: لِتكنْ هِمَّتُك مصروفةً لتحصيل ثواب الله في الدار الآخرة؛ فإنَّه خيرٌ وأبقىٰ، ومع هٰذا: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾؛ أي: وتناولْ منها بمالِكَ ما أحلَّ الله لك؛ فَتُمَتِّعَ لنفسِكَ بالملاذِّ الطيِّبة الحلال. ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾؛ أي: وأحسنْ إلىٰ خَلْقِ الله كما أحسنَ اللهُ خالقُهم وبارِئُهم إليك. ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾؛ أي: ولا تُسِئْ إليهم ولا تُفْسِدْ فيهم فتقابلْهم ضدَّ ما أُمِرْتَ فيهم؛ فيُعاقِبَك ويسلُبَك ما وَهَبَك. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

فما كان جوابُه لقومِهِ علىٰ هٰذه[3] النصيحة الصحيحة الفصيحة؛ إلاَّ أنْ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ

(١) في «التاريخ» (١/ ٢٦٢). في نسخة: «ابن جريج»!

(٢) الجماعة من الرجال الأشداء الأقوياء.

(٣) في نسخة: «فما كان جواب قومه لهذه»!

عِندِيٓ﴾؛ يعني: أنا لا أحتاجُ إلىٰ استماع[1] ما ذَكَرْتُم، ولا إلىٰ ما إليه أشرتُم؛ فإنَّ الله إنَّما أعطاني هٰذا لعلمِهِ أنِّي أستحقُّه وأنِّي أهلٌ له، ولولا أنِّي حبيبٌ إليه وحَظِيٌّ عندَه؛ لَما أعطاني ما أعطاني.

قال الله تعالىٰ ردًّا عليه فيما ذهبَ إليه: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨﴾؛ أي: قد أهلَكْنا من الأمم الماضين بذُنوبهم وخطاياهم مَن هو أشدُّ من قارونَ قوَّةً وأكثرُ أموالًا وأولادًا؛ فلو كان ما قال صحيحًا؛ لم نعاقبْ أحدًا ممَّن كان أكثرَ مالًا منه، ولم يكن مالُهُ دليلًا علىٰ محبَّتِنا له واعتنائنا به؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ [سبأ: ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

وهٰذا الردُّ عليه يدلُّ علىٰ صحة ما ذهبنا إليه من معنىٰ قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾، وأمَّا مَن زعم أنَّ المراد من ذٰلك أنه كان يعرِفُ صَنْعَةَ الكيمياءِ، أو أنَّه كان يحفَظُ الاسمَ الأعظمَ فاستعْمَلَه في جمع الأموال؛ فليس بصحيح؛ لأنَّ الكيمياءَ تخييلٌ وصبغةٌ[2] لا تُحيلُ الحقائق ولا تُشابِهُ صنعةَ الخالق، والاسمَ الأعظمَ لا يصعَدُ الدُّعاءُ به من كافرٍ به، وقارون كان كافرًا في الباطن منافقًا في الظاهر. ثم لا يصح جوابه لهم بهٰذا علىٰ هٰذا التقدير، ولا يبقىٰ بين الكلامين تلازمٌ، وقد وضَّحْنا هٰذا في كتابنا «التفسير». ولله الحمد.

قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ﴾: ذَكَرَ كثيرٌ من المفسِّرين أنَّه خرج في تجمُّل عظيم؛ من ملابسَ ومراكبَ وخَدَم وحَشَم، فلمَّا رآه من يُعَظِّمُ زهرةَ الحياة الدُّنيا؛ تَمنَّوْا أنْ لو كانوا مثله، وغَبَطوهُ بما عليه وله، فلمَّا سمع مقالَتَهُم العلماء ذوو الفهم الصحيح الزُّهَّادُ الألبَّاء؛ قالوا لهم: ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾؛ أي: ثوابُ الله في الدار الآخرة خيرٌ وأبقىٰ وأجلُّ وأعلىٰ. قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠﴾؛ أي: وما يُلَقَّىٰ هٰذه النصيحةَ وهٰذه المقالةَ وهٰذه الهمَّةَ السامية إلىٰ الدَّارِ الآخرةِ العليَّة، عند النَّظَرِ إلىٰ زهرةِ هٰذه الدُّنيا الدَّنِيَّة؛ إلَّا مَنْ هدىٰ اللهُ قلبه وثَبَّتَ فؤادَه، وأَيَّدَ لُبَّه وحقَّقَ مرادَه. وما أحسنَ ما قال بعض

---

(١) في نسخة: «استعمال».

(٢) إنما يصدق هٰذا علىٰ كيمياء عصر المصنف رحمة الله عليه، ولا ريب أن الأمر قد تغير كثيرًا في عصرنا الحاضر، ولم تعد الكيمياء تخييلًا وصبغة كما هو معلوم.

السَّلف: إنَّ الله يحبُّ البصرَ النافذَ عند ورود الشُّبُهات، والعقلَ الكامل عند حُلول الشَّهَوات!

قال الله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾: لمَّا ذَكَرَ تعالىٰ خروجَه في زينتِهِ واختيالَه فيها وفَخْرَه علىٰ قومه بها؛ قال: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾؛ كما رویٰ البخاريُّ من حديث: الزُّهريِّ، عن سالم، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «**بينا رَجُلٌ يَجُرُّ إزارَه؛ إذْ خُسِفَ به؛ فهو يتجَلْجَلُ في الأرض إلى يوم القيامة**»[١].

ثم رواه البخاريُّ من حديث: جرير بن زيدٍ، عن سالم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ... نحوه[٢].

وقد ذُكِرَ عن ابن عباس والسُّدِّيِّ: أنَّ قارونَ أعطىٰ امرأةً بَغِيًّا مالًا علىٰ أنْ تقولَ لموسىٰ عليه السلام وهو في ملإٍ من الناس: إنَّك فعلت بي كذا وكذا! فيُقالُ: إنَّها قالتْ له ذٰلك، فأُرْعِدَ من الفَرَقِ[٣]، وصلَّىٰ ركعتين، ثم أقبل عليها، فاستَحْلَفَها: مَن دَلَّكِ علىٰ ذٰلك[٤]؟ وما حَمَلَكِ عليه؟ فذكرتْ أنَّ قارونَ هو الذي حَمَلَها علىٰ ذٰلك، واستغفرت اللهَ وتابتْ إليه. فعند ذٰلك خرَّ موسىٰ للهِ ساجدًا، ودعا اللهَ علىٰ قارونَ، فأوحىٰ الله إليه: إنِّي قد أمرتُ الأرضَ أن تُطيعَكَ فيه. فأمَرَ موسىٰ الأرضَ أن تَبْتَلعَه ودارَه، فكان ذٰلك. فالله أعلم.

وقد قيل: إنَّ قارون لمَّا خرج علىٰ قومِهِ في زينتِهِ؛ مرَّ بِجَحْفَلِهِ[٥] وبغاله وملابسه علىٰ مجلس موسىٰ عليه السلام وهو يُذَكِّرُ قومَه بأيَّام الله، فلمَّا رآه الناسُ؛ انصرفت وجوهُ كثيرٍ منهم[٦] ينظُرون إليه، فدعاه موسىٰ عليه السلام، فقال له: ما حَمَلَكَ علىٰ هٰذا؟! فقال: يا موسىٰ! أما لَئِنْ كنتَ فُضِّلْتَ عليَّ بالنبوَّة؛ فقد فُضِّلْتُ عليك بالمال، ولئن شئتَ؛ لَتخرُجَنَّ فَلَتَدْعُوَنَّ عليَّ ولأدْعُوَنَّ عليك! فخرج موسىٰ وخرج قارونُ في قومه، فقال له موسىٰ: تَدْعو أو أدعو أنا؟ قال: أدعو أنا. فدعا قارونُ، فلم يُجَبْ له في موسىٰ. فقال موسىٰ: أدعو؟ قال: نعم. فقال

---

(١) رواه: البخاري (٦٠-الأنبياء، ٥٤-باب، ٦/ ٥١٥/ ٣٤٨٥).

(٢) رواه: البخاري (٧٧-اللباس، ٥- من جرَّ ثوبه، ١٠/ ٢٥٨/ ٥٧٩٠)، ومسلم (٣٧-اللباس، ١٠- تحريم التبختر، ٣/ ١٦٥٣/ ٢٠٨٨).

(٣) أُرْعِدَ من الفَرَق: أخذته الرعدَة (الرجفة والقشعريرة) من الخوف.

(٤) في جميع الأصول: «من ذلك علىٰ ذلك»! ولا وجه لها. فإنا لله.

(٥) الجحفل: الجيش الكبير.

(٦) في نسخة: «كثير من الناس».

موسىٰ: اللهمَّ! مُرِ الأرضَ فَلْتُطِعْني اليومَ! فأوحىٰ الله إليه: إنِّي قد فعلتُ. فقال موسىٰ: يا أرضُ! خُذيهم! فأخذتْهم إلىٰ أقدامهم، ثم قال: خُذيهم! فأخذتْهم إلىٰ رُكَبهم، ثم إلىٰ مناكبهم، ثم قال: أقبِلي بكُنوزِهم وأموالِهم! فأقبلتْ بها حتىٰ نظروا إليها، ثم أشار موسىٰ بيدِهِ فقال: اذهبوا بني لاوي! فاستوتْ بهم الأرضُ.

وقد رُوِيَ عن قَتادة: أنَّه قال: يُخْسَفُ بهم كلَّ يوم قامةٌ إلىٰ يوم القيامة.

وعن ابن عباس: أنَّه قال: خُسِفَ بهم إلىٰ الأرض السابعة.

وقد ذكر كثيرٌ من المفسرين هاهنا إسرائيلياتٍ كثيرةً ضَرَبْنا(١) عنها صَفْحًا وتركناها قصدًا.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾: لم يكن له ناصرٌ من نفسه ولا من غيره؛ كما قال: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾ [الطارق: ١٠].

ولمَّا حلَّ به ما حلَّ؛ من الخسفِ وذَهابِ الأموال وخرابِ الدار، وإهلاكِ النفس والأهل والعَقار؛ نَدِمَ مَنْ كان تمنَّىٰ مثلَ ما أوتي، وشكروا الله تعالىٰ، الذي يدبِّرُ عبادَه بما يشاءُ من حُسْنِ التَّدْبير المخزون، ولهٰذا قالوا: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾: وقد تكلَّمْنا علىٰ لفظ ﴿وَيْكَأَنَّ﴾ في «التفسير»، وقد قال قَتادةُ: ﴿وَيْكَأَنَّ﴾؛ بمعنىٰ: ألم تر أن. وهٰذا قولٌ حسنٌ من حيث المعنىٰ. والله أعلم.

ثم أخبر تعالىٰ أنَّ الدَّارَ الآخِرَة، وهي دارُ القَرارِ، وهي الدَّارُ التي يُغْبَطُ مَن أُعْطِيَها ويُعَزَّىٰ مَن حُرِمَها؛ إنَّما هي مُعَدَّةٌ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ﴾: فالعلوُّ هو التكبُّر والفَخر والأشَرُ والبطر، والفسادُ هو عمل المعاصي اللازمةِ والمتعدِّية؛ من أخْذِ أموال الناس وإفسادِ معايِشِهم، والإساءةِ إليهم وعدم النُّصْح لهم. ثم قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾.

وقصةُ قارونَ هٰذه قد تكونُ قبل خروجِهم من مصرَ؛ لقوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾؛ فإنَّ الدَّارَ ظاهرةٌ في البُنيان، وقد تكونُ بعد ذٰلك في التِّيهِ، وتكونُ الدارُ عبارةً عن المحلَّةِ التي تُضْرَبُ فيها الخيامُ؛ كما قال عنترةُ:

يا دارَ عَبْلَةَ بِالجِواءِ تَكَلَّمي وعِمي صَباحًا دارَ عَبْلَةَ وَاسْلَمي

والله أعلم.

---

(١) في جميع الأصول: «أضربنا» والمعروف: أضربت عنه، وضربت عن صفحًا. وأما الجمع بينهما؛ فلا أظنه يصح.

وقد ذَكَرَ الله تعالىٰ مَذَمَّة قارون في غيرِ ما آيةٍ من القرآن:

قال اللهُ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر: ٢٣-٢٤].

وقال تعالىٰ في سورة العنكبوت بعد ذِكْر عادٍ وثَمودَ: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٣٩-٤٠]: فالذي خُسِفَ به الأرضُ قارونُ كما تقدَّم، والذي أُغْرِقَ فرعونُ وهامانُ وجنودُهما إنَّهم كانوا خاطئين.

وقد قال الإمام أحمدُ: حدثنا أبو عبد الرحمٰن، حدثنا سعيدٌ، حدثنا كَعْبُ بن علقمةَ، عن عيسىٰ بن هلال الصَّدَفيِّ، عن عبد الله بن عمرٍو، عن النبي ﷺ: أنه ذَكَرَ الصلاةَ يومًا، فقال: «**مَنْ حافَظَ عليها؛ كانتْ له نورًا وبُرهانًا ونجاةً يومَ القيامةِ، ومَنْ لم يُحافِظْ عليها؛ لم يكنْ له نورٌ ولا برهانٌ ولا نجاةٌ، وكان يوم القيامةِ مع قارونَ وفرعونَ وهامانَ وأُبيِّ بنِ خَلَفٍ**»[1]. انفرد به أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

باب ذكر فضائل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وشمائله وصفاته ووفاته:

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم: ٥١-٥٣].

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وتقدم[2] في الصحيحين عن رسول الله ﷺ: أنَّه قال: «**لا تفضِّلوني على موسى؛ فإنَّ**

---

(١) (حسن). رواه: أحمد (٢/ ١٦٩)، والدارمي (٢/ ٣٠١)، وابن حبان (٤/ ٣٢٩/ ١٤٦٧)، والطبراني في «الأوسط» (٢/ ٤٥٦/ ١٧٨٨)؛ من طريق أبي عبد الرحمن عبد الله بن يزيد... به، فذكره.

كعب بن علقمة صدوق من رجال مسلم. وعيسىٰ بن هلال وثقه ابن حبان وروىٰ عنه اثنان وقال الحافظ: «صدوق»؛ فحديثه لا بأس به. وبقية رجاله ثقات. فالسند حسن. وقد صححه ابن حبان، وجوده المنذري في «الترغيب» (١/ ٤٤٠/ ٨٢٠)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٢٩٧): «رواه أحمد والطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، ورجال أحمد ثقات».

(٢) انظره وتخريجه في (ص٣٣٥).

الناس يُصْعَقونَ يومَ القيامة، فأكونُ أوَّلَ مَنْ يُفيقُ، فأجِدُ موسى باطشًا بقائمةِ العرش؛ فلا أدري؛ أَصَعِقَ فأفاق قبلي؟ أم جُوزيَ بصَعْقَة الطُّور؟». وقد قدَّمنا[١] أنَّه من رسول الله ﷺ من باب الهضم والتواضع، وإلَّا؛ فهو صلواتُ الله وسلامُه عليه خاتِم الأنبياء وسيِّدُ وَلَدِ آدم في الدُّنيا والآخرة قطعًا جزمًا لا يَحْتَمِل النقيضَ.

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ...﴾ إلىٰ أن قال: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٤].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: ٦٩].

قال الإمام أبو عبد الله البخاريُّ: حدثنا إسحاقُ بن إبراهيم، عن[٢] رَوْح بن عُبادة، عن عَوف، عن الحسن ومحمدٍ وخلاسٍ، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن موسى كان رجلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا لا يُرى من جلدِهِ شيءٌ استحياءً منه، فآذاه مَنْ آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستترُ هٰذا التسترَّ إلَّا من عيبٍ بجلدِهِ: إمَّا برصٍ، وإما أُدْرَةٍ[٣] وإمَّا آفةٍ! وإنَّ الله ﷻ أراد أن يُبرِّئَهُ ممَّا قالوا لموسى، فخلا يومًا وحدَه، فوضع ثيابَه على الحجرِ ثم اغتسلَ، فلمَّا فَرَغَ؛ أقبل على ثيابِهِ ليأخُذَها، وإنَّ الحجرَ عدا بثوبِهِ، فأخذ موسى عصاهُ وطَلَبَ الحجرَ، فجعل يقولُ: ثوبي حَجَرُ! ثوبي حَجَرُ! حتى انتهى إلى ملإٍ من بني إسرائيل، فرأوه عُرْيانًا أحسنَ ما خَلَقَ اللهُ، وبرَّأه الله ممَّا يقولونَ، وقام الحجرُ، فأخذَ ثوبَه، فلَبِسَهُ، وطَفِقَ بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله؛ إنَّ بالحجر لَنَدَبًا من أثر ضربِهِ ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا؛ فذٰلك قولُهُ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: ٦٩].»**[٤]

---

(١) انظره في (ص ٣٣٥).

(٢) في جميع الأصول: «بن»!

(٣) الأدْرة: انتفاخ الخصية.

(٤) رواه: أحمد (٢/ ٣١٥ و٣٩٢ و٥١٥ و٥٢٥)، والبخاري (٦٠-أحاديث الأنبياء، ٢٨- باب، ٦/ ٤٣٦/ ٣٤٠٤) بهٰذا السند والمتن، و(٥- الغسل، ٢٠- من اغتسل عُريانًا وحده، ١/ ٣٨٥/ ٢٧٨) بالسند الآخر، ومسلم (٣- الحيض، ١٨- جواز الاغتسال عُريانًا في الخلوة، ١/ ٢٦٧/ ٣٣٩) بالسند الأول، و(٤٣-الفضائل، ٤٢- من فضائل موسىٰ ﷺ، ٤/ ١٨٤٢/ ٣٣٩) بالسند الآخر.

وقد رواه الإمامُ أحمدُ من حديث: عبد الله بن شقيق وهمَّام بن منبِّهٍ، عن أبي هريرة... به.

وهو في الصحيحين من حديث: عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن هَمَّام، عنه... به.

ورواه مسلم من حديث عبد الله بن شقيق العقيلي: عنه...

قال بعضُ السلف: كان من وجاهتِهِ أنَّه شَفَعَ في أخيه عند الله، وطَلَبَ منه أن يكونَ معه وزيرًا، فأجابه الله إلىٰ سؤالِهِ وأعطاه طَلِبَتَهُ وجعله نبيًّا؛ كما قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم: ٥٣].

ثم قال البخاري: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، عن الأعمش؛ قال: سمعت أبا وائل؛ قال: سمعت عبد الله؛ قال: قَسَمَ رسولُ الله ﷺ قَسْمًا، فقال رجل: إنَّ هٰذه لَقِسْمَةٌ ما أُرِيدَ بها وجهُ الله! فأتيتُ النبيَّ ﷺ، فأخبرتُهُ، فَغَضِبَ حتىٰ رأيتُ الغضبَ في وجهه، ثم قال: «**يرحمُ اللهُ موسى؛ قد أوذِيَ بأكثرَ من هٰذا فصبر**»(١).

وكذا رواه مسلمٌ من غير وجهٍ عن سليمان بن مهران الأعمش... به.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حجاج(٢)، سمعت إسرائيل بن يونس، عن الوليد بن أبي هاشم مولىٰ لهَمْدان، عن زيد بن أبي زائد(٣)، عن عبد الله بن مسعود؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ لأصحابه: «**لا يُبَلِّغْني أحدٌ عن أحدٍ شيئًا؛ فإنِّي أحبُّ أن أخْرُجَ إليكم وأنا سليمُ الصدرِ**». قال: وأتىٰ رسولَ الله ﷺ مالٌ، فقسمه. قال: فمررتُ برجلينِ، وأحدُهما يقولُ لصاحِبِه: واللهِ؛ ما أراد محمدٌ بقسمتِهِ وجهَ الله ولا الدارَ الآخرةَ. فثبتُّ حتىٰ سمعتُ ما قالا، ثم أتيتُ رسول الله، فقلتُ يا رسول الله! إنَّك قلتَ لنا: لا يُبَلِّغْني أحدٌ عن أحدٍ من أصحابي شيئًا، وإنِّي مررتُ بفلانٍ وفلانٍ وهما يقولان كذا وكذا. فاحمرَّ وجهُ رسول الله ﷺ وشقَّ عليه، ثم قال: «**دَعْنا منكَ؛ فقد أوذي موسى أكثرَ من ذٰلك فَصَبَرَ!**»(٤).

---

(١) رواه: أحمد (١/ ٣٩٦)، والبخاري (٣٠- الأنبياء، ٢٨-باب، ٦/ ٤٣٦/ ٣٤٠٥)، ومسلم (١٢- الزكاة، ٤٦- إعطاء المؤلفة قلوبهم، ٢/ ٧٣٩/ ١٠٦٢)، وأبو داوود (٣٥- الأدب، ٢٨-رفع الحديث من المجلس، ٢/ ٦٨١/ ٤٨٦٠)، والترمذي (٥٠- المناقب، ٦٤-فضل أزواج النبي ﷺ، ٥/ ٧١٠/ ٣٨٩٦ و٣٨٩٧).

(٢) في جميع الأصول: «حدثنا أحمد بن حجاج»! وهو خطأ ظاهر.

(٣) في جميع الأصول: «عن زيد بن أبي زائد»! وهو كذلك في «المسند»!! ولم يذكر أحد زيادة (أبي) في اسمه؛ لا في «الميزان» ولا «التهذيب» ولا «السنن».

(٤) تقدم تخريجه في ص ٤٥٩.

وهٰكذا رواه أبو داوود والتِّرمذيُّ من حديث: إسرائيل، عن الوليد ابن أبي هاشم... به.

وفي رواية للتِّرمذيِّ ولأبي داوود من طريق: ابن عبدٍ، عن إسرائيلَ، عن السُّدِّيِّ، عن الوليد.... به. وقال الترمذيُّ: غريبٌ من هٰذا الوجه.

وقد ثبت في الصحيحين في أحاديث الإسراء(١): أنَّ رسولَ الله ﷺ مرَّ بموسىٰ وهو قائمٌ يصلِّي في قبرِهِ. ورواه مسلمٌ عن أنس.

وفي الصحيحين من رواية: قَتادة، عن أنس، عن مالك بن صعصعةَ، عن النبيِّ ﷺ: أنَّه مرَّ ليلةَ أُسري به بموسىٰ في السماء السادسة، فقال له جبريلُ: هٰذا موسىٰ؛ فسلِّمْ عليه! قال: «**فسلمتُ عليه، فقال: مرحبًا بالنبيِّ الصالح والأخ الصالح. فلمَّا تجاوزتُ؛ بكى. قيلَ له: ما يُبكيكَ؟ قال: أبْكي لأنَّ غُلامًا بُعِثَ بعدي يدخُلُ الجنةَ من أمَّتِهِ أكثرُ ممَّا يدخُلها من أمَّتي**»(٢)! وذَكَرَ إبراهيمَ في السماء السابعة، وهٰذا هو المحفوظُ، وما وقع في حديث شَريكِ بن أبي نَمِرٍ عن أنس(٣)؛ من أن إبراهيم في السادسةِ وموسىٰ في السابعة بتفضيل كلام الله؛ فقد ذَكَرَ غيرُ واحدٍ من الحفَّاظ أنَّ الذي عليه الجادَّةُ أنَّ موسىٰ في السادسةِ وإبراهيمَ في السابعةِ، وأنَّه مسنِدٌ ظهرَه إلىٰ البيت المعمور، الذي يدخُلُه كلَّ يوم سبعون ألفًا من الملائكة ثم لا يعودونَ إليه آخرَ ما عليهم.

واتفقت الرواياتُ كلُّها(٤) علىٰ أنَّ الله تعالىٰ لمَّا فَرَضَ علىٰ محمدٍ ﷺ وأمَّتِهِ خمسين صلاةً في اليوم والليلة؛ مرَّ بموسىٰ، فقال: ارجِعْ إلىٰ ربِّك؛ فسَلْه التخفيفَ لأمَّتك؛ فإنِّي قد عالجتُ بني إسرائيل قبلَكَ أشدَّ المعالجة، وإنَّ أمَّتك أضعفُ أسماعًا وأبصارًا وأفئدةً. فلم يزلْ يتردَّدُ بين موسىٰ وبين الله ﷻ، ويخفِّفُ عنه في كلِّ مرةٍ، حتىٰ صارت إلىٰ خمس صلواتٍ في اليوم والليلة، وقال الله تعالىٰ: هي خمسٌ، وهي خمسونَ. أي: بالمضاعفةِ؛ فجزىٰ اللهُ عنَّا محمدًا ﷺ خيرًا، وجزىٰ الله عنَّا موسىٰ عليه السلام خيرًا.

وقال البخاري: حدثنا مسدَّدٌ، حدثنا حُصين بن نُميرٍ، عن حُصين بن عبد الرحمٰن، عن

---

(١) تقدم الكلام عنها في (ص٩٠).

(٢) انظر (ص٩٠).

(٣) انظر (ص٩٠).

(٤) انظر (ص٩٠).

سعيد بن جُبيرٍ، عن ابن عباس؛ قال: خَرَجَ علينا رسولُ الله ﷺ يومًا، فقال: «**عُرِضَتْ عليَّ الأممُ، ورأيتُ سوادًا كثيرًا سدَّ الأفُقَ، فقيل: هٰذا موسى في قومه**»[1]. هٰكذا روىٰ البخاريُّ هٰذا الحديثَ هاهنا مختصرًا.

وقد رواه الإمامُ أحمدُ مطولًا، فقال: حدثنا سُرَيْجٌ، حدثنا هُشَيْمٌ[2]، حدثنا حُصَيْنُ بن عبد الرحمٰن؛ قال: كنتُ عند سعيد بن جُبير، فقال: أيُّكُم رأىٰ الكوكبَ الذي انقضَّ البارحةَ؟ قلتُ: أنا. ثم قلتُ: إنِّي لم أكنْ في صلاةٍ، ولٰكنْ لُدِغْتُ. قال: وكيف فعلتَ؟ قلتُ: استرقيتُ. قال: وما حَمَلَكَ علىٰ ذٰلك؟ قال: قلتُ: حديثٌ حدَّثَناه: الشعبيُّ، عن بريدةَ الأسلميِّ: أنَّه قال: لا رُقْيَةَ إلَّا من عينٍ أو حُمَةٍ[3]، فقال سعيدٌ (يعني: ابن جبير): قد أحسنَ من انتهىٰ إلىٰ ما سمع. ثم قال: حدَّثنا ابنُ عباس، عن النبي ﷺ؛ قال: «**عُرِضَتْ عليَّ الأممُ، فرأيتُ النبيَّ ومعه الرهطُ، والنبيَّ معه الرجلُ والرجلانِ، والنبيَّ وليس معه أحدٌ؛ إذ رُفِعَ لي سوادٌ عظيمٌ، فقلتُ: هٰذه أُمَّتي؟ فقيل: هٰذا موسى وقومُهُ، ولكنِ انظُرْ إلى الأفقِ. فإذا سوادٌ عظيمٌ، ثم قيلَ: انظُرْ إلى هٰذا الجانب. فإذا سوادٌ عظيمٌ، فقيل: هٰذه أمتُك، ومعهم سبعون ألفًا يدخُلونَ الجنَّةَ بغير حسابٍ ولا عذابٍ**». ثم نهض رسولُ الله ﷺ فدخلَ، فخاضَ القومُ في ذٰلك، فقالوا: مَنْ هٰؤلاء الذين يدخُلونَ الجنة بغيرِ حسابٍ ولا عذابٍ؟ فقال بعضُهم: لعلَّهم الذين صَحِبوا النبيَّ ﷺ. وقال بعضُهم: لعلَّهم الذين وُلِدوا في الإسلام ولم يُشْرِكوا باللهِ شيئًا قطُّ... وذَكَروا أشياءَ. فخرج إليهم رسولُ الله ﷺ فقال: «**ما هٰذا الذي كنتمُ تخوضونَ فيه؟**». فأخبروه بمقالَتِهِم، فقال: «**هُمُ الذين لا يَكْتَوونَ ولا يَسْتَرْقونَ ولا يتطيَّرونَ وعلىٰ ربِّهم يتوكَّلونَ**». فقام عُكَّاشَةُ بنُ مِحْصَنٍ الأسديُّ، فقال: أنا منهم يا رسول الله؟ قال: «**أنت منهم**». ثم قام آخرُ فقال: أنا منهم يا رسول الله؟ فقال: «**سَبَقَكَ بها عُكَّاشَةُ**»[4].

(١) رواه: أحمد (١/ ٢٧١) كما ذكره ابن كثير هنا. والبخاري (٦٠- الأنبياء، ٣١- وفاة موسىٰ، ٦/ ٤٤١/ ٣٤١٠) مختصرًا كما هنا. ورواه: هو (٧٦- الطب، ١٧- من اكتوىٰ أو كوىٰ غيره، ١٠/ ١٥٥/ ٥٧٠٥)، ومسلم (١- الإيمان، ٩٤- دخول طوائف من المسلمين الجنة، ٢/ ١٩٩/ ٢٢٠)؛ مطولًا كرواية أحمد.

(٢) في جميع الأصول: «حدثنا شريح حدثنا هشام»!! والمثبت من «المسند».

(٣) الحمة: القرصة أو اللدغة من كل ذات سم من الهوام.

(٤) تقدم تخريجه (ص٤٦٢).

وهٰذا الحديثُ له طرقٌ كثيرةٌ جدًّا، وهو في الصحاح والحسان وغيرها، وقد أورَدْناها[1] في باب صفة الجنَّة عند ذِكْرَ أحوال القيامةِ وأهوالِها[2].

وقد ذَكَرَ اللهُ تعالىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآنِ كثيرًا، وأثنىٰ عليه، وأوردَ قصَّتَه في كتابه العزيز مرارًا، وكرَّرَها كثيرًا؛ مطولةً ومبسوطةً ومختصرةً، وأثنىٰ عليه ثناءً بليغًا.

وكثيرًا ما يقرِنُه اللهُ ويذكُرُه ويذكُرُ كتابَه مع محمدٍ ﷺ وكتابِه:

كما قال في سورة البقرة: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ [آل عمران: ١-٤].

وقال تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام: ٩١-٩٢]: فأثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ التوارة، ثم مدح القرآن العظيم مدحًا عظيمًا.

وقال تعالىٰ في آخرها: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٤-١٥٥].

وقال تعالىٰ في سورة المائدة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ إلىٰ أن قال: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا

---

(١) في نسخة: «وسنوردها إن شاء الله تعالىٰ». وكلاهما صائب.

(٢) يعني في «نهاية البداية والنهاية» (١٠/ ٥٧٨/ فصل أمة محمد ﷺ أكثر أهل الجنة عددًا وأعلاهم مكانًا ومكانة).

...﴾ الآية [المائدة: ٤٤-٤٨]: فجعل القرآنَ حاكمًا على سائرِ الكتبِ غيرِه، وجعلَه مصدِّقًا لها ومبيِّنًا ما وَقَعَ فيها من التَّحريف والتَّبديل؛ فإنَّ أهلَ الكتاب استُحْفِظوا على ما بأيديهم من الكتبِ، فلم يقدِروا على حِفْظِها ولا على ضَبْطِها وصَوْنِها؛ فلهٰذا دَخلَها ما دَخلَها من تغييرهم وتبديلهم؛ لسوءِ فُهومِهِم، وقصورِهم في علومهم، ورداءة قصودِهِم، وخيانَتِهم لمعبودِهِم؛ عليهم لَعائنُ الله المتتابعةُ إلى يوم القيامة، ولهٰذا يوجد في كُتُبِهِم من الخطإِ البيِّنِ على الله وعلى رسوله؛ ما لا يُحَدُّ ولا يوصَف، وما لا يوجدُ مثلُه ولا يُعْرَف.

وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨-٥٠].

وقال الله تعالى في سورة القصص: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [القصص: ٤٨-٤٩]: فأثنى الله على الكتابين وعلى الرَّسولين عليهما السلام.

وقالت الجنُّ لقومهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وقال ورقُة بن نَوْفَل لمَّا قصَّ عليه رسولُ الله ﷺ خبرَ ما رأى من أول الوحي وتلا عليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ١-٥]؛ قال: سُبُّوحٌ سُبُّوحٌ، هٰذا الناموس الذي أُنزِلَ على موسى بن عمران[١].

وبالجملة؛ فشريعةُ موسى عليه السلام كانت شريعةً عظيمةً، وأمتُهُ كانت أمةً كثيرةً، وُوُجِدَ فيها أنبياءُ وعلماء، وعبادٌ وزهادٌ وألباء، وملوكٌ وأمراء، وساداتٌ وكُبراء، لٰكنَّهم كانوا فبادوا وتبدَّلوا كما بُدِّلَتْ شريعتُهم، ومُسِخوا قردةً وخنازيرَ ثم نُسِخَتْ بعدَ كلِّ حساب ملَّتُهم، وجرت عليهم خطوبٌ وأمورٌ يطولُ ذِكرُها، ولٰكنْ سنورِدُ ما فيه مَقْنَعٌ لِمَنْ أراد أن يَبْلُغَه خبرُها إن شاء الله، وبه الثقةُ وعليه التُّكلان.

---

(١) قطعة من حديث أم المؤمنين عائشة الطويل في بدء الوحي الذي رواه: البخاري (١- بدء الوحي، ٣- باب، ١/ ٢٢/ ٣)، ومسلم (١- الإيمان، ٧٣- بدء الوحي، ١/ ١٣٩/ ١٦٠).

۞ ذكر حجه عليه السلام إلى البيت العتيق:

قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم، حدثنا داوود بن أبي هند، عن أبي العالية، عن ابن عباس: أنَّ رسولَ الله ﷺ مر بوادي الأزرق، فقال: «**أيُّ وادٍ هٰذا؟**». قالوا: وادي الأزرقِ. قال: «**كأنِّي أنظرُ إلى موسى، وهو هابطٌ من الثَّنِيَّةِ، وله جُؤارٌ**[١] **إلى الله ﷻ بالتلبيةِ**». حتىٰ أتىٰ علىٰ ثَنِيَّةِ هرشاءَ، فقال: «**أيُّ ثنيَّةٍ هٰذه؟**». قالوا هٰذه ثنيَّةُ هرشاءَ. قال: «**كأني أنظرُ إلى يونسَ بن مَتَّى، على ناقةٍ حمراءَ، عليه جُبَّةٌ من صوف، خِطامُ ناقتِهِ خُلْبَةٌ (قال هُشَيْمٌ: يعني: ليفًا)، وهو يلبِّي**»[٢].

أخرجه مسلم من حديث داوود بن أبي هند... به.

ورویٰ الطبرانيُّ عن ابن عباس مرفوعًا: أنَّ موسىٰ حجَّ علىٰ ثورٍ أحمرَ[٣]. وهٰذا غريبٌ جدًّا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن ابن عون، عن مجاهد؛ قال: كنَّا عند ابن عباس، فذكروا الدَّجَّالَ، فقالوا[٤]: إنَّه مكتوبٌ بين عينيه (ك ف ر). قال: ما يقولون؟ قال: يقولون: مكتوبٌ بين عينيه (ك ف ر). فقال ابنُ عباس: لم أسمعْه قال ذٰلك، ولٰكنْ قال: «**أمَّا إبراهيمُ؛ فانْظُروا إلى صاحِبِكم، وأمَّا موسى؛ فرجلٌ آدمُ جَعْدُ الشَّعَرِ على جمل أحمرَ مخطومٍ بخُلْبَةٍ، كأني أنظرُ إليه وقدِ انحدرَ في الوادي يلبِّي**»[٥]. قال هُشَيْمٌ: الخُلْبَةُ: الليفُ.

ثم رواه الإمامُ أحمد: عن أسودَ، عن إسرائيلَ، عن عثمان بن المغيرة، عن مجاهد، عن ابن عباس؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**رأيتُ عيسى ابنَ مريم وموسى وإبراهيمَ: فأمَّا عيسى؛ فأحمرُ**

---

(١) الجؤار: رفع الصوت بالدعاء والابتهال إلىٰ الله.

(٢) رواه: أحمد (١/ ٢١٥)، ومسلم (١-الإيمان، ٧٤-الإسراء برسول الله ﷺ، ١/ ١٥٢/ ١٦٦).

(٣) (منكر). رواه الطبراني (١٢/ ٥٧/ ١٢٥١٠): ثنا عليٰ بن سعيد الرازي، ثنا الحسين بن عيسىٰ بن ميسرة، ثنا جرير، عن ليث، عن عبد الملك، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس.... به.
والحديث استغربه الحافظ ابن كثير جدًّا كما ترىٰ. وقال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٢٢٤): «رواه الطبراني، وفيه ليث بن أبي سليم، وهو ثقة، ولٰكنه مدلس، وبقية رجاله ثقات». قلت: ما هو بالثقة ولا بالمدلس، ولٰكن لخَّص الحافظ في «التقريب» حاله بقوله: «صدوق، اختلط أخيرًا، ولم يتميَّز حديثه، فتُرك». وعلي بن سعيد: ليس بالقوي. والحسين بن عيسىٰ: لم اعرفه. فالسند ضعيف. ثم إن البقر والثيران لم تخلق للركب وقطع الصحاري كما هو معلوم، والأنبياء عليهم السلام أولىٰ الناس بالرحمة بالحيوان والرفق به.

(٤) في جميع الأصول: «فقال»! والتصويب من «المسند» (١/ ٢٧٧).

(٥) تقدمت طرق هٰذا الحديث وتخريجه في (ص٢٢١) في صفة إبراهيم ﷺ.

جَعْدٌ عريضُ الصَّدْر، وأما موسى؛ فآدَمُ جَسيمٌ». قالوا: فإبراهيمُ؟ قال: «**انظُروا إلى صاحِبِكُم**»[١].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يونسُ، حدثنا شيبانُ؛ قال: حدثَّ قَتادةُ، عن أبي العاليةِ، حدثنا ابنُ عمِّ نبيِّكُم ابنُ عباس؛ قال: قال نبيُّ الله ﷺ: «**رأيتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي موسى بنَ عِمْرانَ رَجُلًا [آدَمَ] طُوالًا جَعْدًا كأنَّه من رجال شَنوءةَ، ورأيتُ عيسى ابنَ مَرْيَمَ مربوعَ**[٢] **الخَلْقِ إلى الحُمْرَةِ والبياض، سَبْطَ الرأس**»[٣].

وأخرجاه من حديث قتادة به[٤].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبدُالرازقِ، حدثنا مَعْمَرٌ، قالَ الزهريُّ: وأخبرني سعيدُ بن المسيَّبِ، عن أبي هريرة؛ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ حين أُسْرِيَ به: «**لقيت موسى (فَنَعَتَهُ؛ قال): رَجُلٌ (قال: حسبتُه قال) مُضْطَرِبٌ**[٥] **رجِلُ الرأس كأنَّه من رجال شَنوءةَ، ولقيتُ عيسى (فَنَعَتَهُ رسولُ الله ﷺ، فقال) رَبْعَةٌ أحمرُ كأنَّما خَرَجَ من ديماس (يعني: حمَّامًا)**». **قال: ورأيتُ إبراهيمَ، وأنا أشبهُ ولدِهِ به...**» الحديث[٦].

وقد تقدمَّ غالبُ هٰذه الأحاديثِ في ترجمة الخليل.

۞ ذكر وفاته عليه السلام:

قال البخاري في «صحيحه»: وفاة موسىٰ عليه السلام: حدثنا يحيىٰ بنُ موسىٰ، حدثنا عبدُالرزاق، أنبأنا معمرٌ، عن ابن طاووس، عن أبيه، عن أبي هريرة؛ قال: أُرْسِلَ مَلَكُ الموت إلىٰ موسىٰ عليه السلام، فلمَّا جاءه؛ صَكَّهُ[٧]، فرجع إلىٰ ربِّه عز وجل، فقال: أرسَلْتَني إلىٰ عبدٍ لا يريدُ الموتَ. قالَ ارجِعْ إليه، فقلْ لهُ يَضَعُ يدَه علىٰ مَتْنِ ثورٍ[٨]، فله بما غَطَّتْ يدُهُ بكلِّ شعرةٍ سَنَةٌ. قال: أيْ ربِّ!

---

(١) تقدمت طرق هٰذا الحديث وتخريجه في (ص٢٢١) في صفة إبراهيم ﷺ.

(٢) المربوع: بين الطويل والقصير

(٣) تقدمت طرق هٰذا الحديث وتخريجه في (ص٢٢١) في صفة إبراهيم ﷺ.

(٤) تقدمت طرق هٰذا الحديث وتخريجه في (ص٢٢١) في صفة إبراهيم ﷺ.

(٥) مضطرب: مفتعل من الضرب، والضرب: الرجل خفيف اللحم.

(٦) تقدمت طرق هٰذا الحديث وتخريجه في (ص٢٢١) في صفة إبراهيم ﷺ.

(٧) صَكَّه: لطمه بقوَّة.

(٨) متن الثور: ظهره

ثمَّ ماذا؟ قال: ثم الموتُ. قال: فالآنَ. قال: فسألَ اللهَ ﷻ أن يُدْنِيَهُ من الأرض المقدَّسة رميةً بحجرٍ. قال أبو هريرة: فقال رسولُ الله ﷺ: «**فلو كنتُ ثَمَّ؛ لأرَيْتُكُم قبرَه إلى جانب الطَّريق عند الكثيبِ الأحمر**»[١].

قال: وأنبأنا معمرٌ، عن همَّام، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ... نحوه.

وقد روىٰ مسلمٌ الطريقَ الأولَ من حديث عبد الرزاق... به.

ورواه الإمامُ أحمدُ من حديث: حمَّادِ بن سلمة، عن عمارِ بن أبي عمار، عن أبي هريرة مرفوعًا. وسيأتي[٢].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا الحسنُ، حدثنا ابنُ لَهيعةَ، حدثنا أبو يونس (يعني: سُلَيْمَ بنَ جُبَيْر)، عن أبي هريرة (قال الإمام أحمد: لم يرفعه)؛ قال: جاء مَلَكُ الموت إلىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال: أجبْ ربَّكَ! فلَطَمَ موسىٰ عينَ مَلَكِ الموت، ففقأها، فرجَعَ المَلَكُ إلىٰ الله، فقال: إنَّك بَعَثْتَني إلىٰ عبدٍ لك لا يريدُ الموتَ. قال: وقد فقأ عَيْني. قال: فردَّ اللهُ عَيْنَه، وقال: ارجِعْ إلىٰ عبدي؛ فقل له: آلحياةَ تريدُ؟ فإنْ كنتَ تريدُ الحياةَ؛ فضعْ يَدَكَ علىٰ مَتْنِ ثورٍ، فما وارتْ يَدُكَ من شعرِهِ؛ فإنك تعيشُ بها سنةً. قال: ثم مَهْ؟ قال: ثم الموتُ. قال: فالآنَ يا ربِّ من قريبٍ[٣]! تفرَّد به أحمد، وهو موقوفٌ بهٰذا اللفظ.

وقد رواه ابن حِبان في «صحيحه» من طريق: معمرٍ، عن ابن طاووس، عن أبيه، عن أبي هريرة، [عن رسول الله ﷺ][٤]... قال معمرٌ: وأخبرني من سمع الحسنَ، عن رسول الله ﷺ... فذكره[٥].

ثم استشكله ابنُ حِبان، وأجاب عنه بما حاصله: أنَّ مَلَكَ الموت لمَّا قال له هٰذا؛ لم يعرِفْه؛ لمجيئِهِ له علىٰ غير صورةٍ يعرِفها موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ كما جاء جبريلُ في صورة أعرابيٍّ[٦]،

---

(١) رواه: أحمد (٢/ ٥٣٣ بالسند الأول، و٢/ ٣٥١ بالسند الثاني)، والبخاري (٦٠- الأنبياء، ٣١- وفاة موسىٰ، ٦/ ٣٤٠٧/٤٤٠)، ومسلم (٤٣- الفضائل، ٤٢- من فضائل موسىٰ، ٤/ ١٨٤٢/ ٢٣٧٢)، وابن جرير في «التاريخ» (١/ ٢٥٦)، وابن حبان (١٤/ ١١٢/ ٦٢٢٣ بالسند الأول و٦٢٢٤ بالسند الثاني).

(٢) انظره بطوله في (ص٤٧٠).

(٣) تقدم تخريجه قبل قليل.

(٤) زيادة ضرورية من «صحيح ابن حبان».

(٥) تقدم تخريجه قبل قليل.

(٦) وذلك في عدة مناسبات، وأشهرها مجيئه لتعليم المسلمين أركان الإسلام والإيمان والإحسان، وقد أخرجاه في الصحيحين.

وكما وردتِ الملائكةُ علىٰ إبراهيم ولوطٍ في صورة شبابٍ فلم يعرِفْهم إبراهيمُ ولا لوطٌ أولًا[١]، وكذٰلك موسىٰ لعلَّه لم يعرِفْه؛ لذٰلك لَطَمَهُ، ففقأ عينَه؛ لأنَّه دَخَلَ دارَه بغيرِ إذنٍ، وهٰذا موافقٌ لشريعتنا في جواز فَقْءِ عينِ من نظر إليك في دارك بغير إذن.

ثم أورد الحديثَ من طريق: عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن همَّام، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**جاء مَلَكُ الموتِ إلى موسى ليقبِضَ رُوحَه؛ قال له: أجبْ ربَّكَ! فَلَطَمَ موسى عينَ مَلَكِ الموتِ، ففقأ عينَه...**»[٢]، وذَكَرَ تمامَ الحديث كما أشار إليه البخاريُّ، ثم تأوَّله علىٰ أنَّه لمَّا رَفَعَ يَدَهُ لِيَلْطِمَه؛ قال له: أجبْ ربَّك!

وهٰذا التأويلُ لا يتمشَّىٰ علىٰ ما وَرَدَ به اللفظُ من تعقيبِ قولِهِ: أجبْ ربَّك! بلطمِهِ، ولو استمرَّ علىٰ الجواب الأوَّل؛ لتمشَّىٰ له، وكأنَّه لم يعرِفْه في تلك الصورة، ولم يحمِلْ قولَه هٰذا علىٰ أنَّه مطابقٌ؛ إذْ لم يتحقَّقْ في تلك الساعةِ الراهنةِ أنَّه مَلَكٌ كريم؛ لأنَّه كان يرجو أمورًا كثيرةً كان يحبُّ وقوعَها في حياتِهِ؛ من خروجِهِم من التِّيه، ودخولِهِمُ الأرضَ المقدسةَ... وكان قد سَبَقَ في قَدَرِ الله أنَّه عليه السلام يموت في التِّيه بعد هارونَ أخيه؛ كما سنبيِّنُه إن شاء الله تعالىٰ.

وقد زعم بعضُهم أنَّ موسىٰ عليه السلام هو الذي خَرَجَ بهم من التِّيه ودَخَلَ بهم الأرضَ المقدَّسة! وهٰذا خلافُ ما عليه أهلُ الكتاب وجمهورُ المسلمين!! وممَّا يدلُّ علىٰ ذٰلك قولُه لمَّا اختار الموت: ربِّ! أدْنِني إلىٰ الأرضِ المقدَّسةِ رميةَ حجرٍ! ولو كان قد دَخَلَها؛ لم يسأل ذٰلك، ولٰكنْ لمَّا كان مع قومِهِ بالتِّيهِ، وحانتْ وفاتُهُ عليه السلام؛ أحبَّ أن يتقرَّبَ إلىٰ الأرض التي هاجر إليها وحثَّ قومَه عليها -ولٰكنْ حال بينَهم وبينها القدر- رميةً بحَجَر، ولهٰذا قال سيدُ البشر، ورسولُ الله إلىٰ أهل الوَبَرِ والمدر: «**فلو كنتُ ثَمَّ؛ لأريتُكُم قبرَه عند الكثيب الأحمر**».

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا عفانُ، حدثنا حمادٌ، حدثنا ثابتٌ وسليمانُ التيميُّ، عن أنس بن مالك: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لَمَّا أسْرِيَ بي؛ مررتُ بموسى وهو قائمٌ يصلِّي في قبرِهِ عند الكثيبِ الأحمر**»[٣].

---

(١) وقد تقدم هٰذا في قصتيهما عليهما الصلاة والسلام.

(٢) تقدم تخريجه قبل قليل.

(٣) رواه: أحمد (٣/ ٢٤٨)، ومسلم (٤٣- الفضائل، ٤٢ - من فضائل موسىٰ، ٤/ ١٨٤٥ ٢٣٧٥).

ورواه مسلمٌ من حديث حمَّاد بن سلمة... به.

وقال السُّدِّيُّ: عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة؛ قالوا: ثمَّ إنَّ الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ موسىٰ أنِّي مُتَوَفٍّ هارونَ؛ فأْتِ به جَبَلَ كذا وكذا! فانطلق موسىٰ وهارونُ نحو ذٰلك الجبل؛ فإذا هم بشجرةٍ لم تُرَ شَجَرَةٌ مثلُها، وإذا هم ببيتٍ مبنيٍّ، وإذا هم بسريرٍ عليه فرشٌ، وإذا فيه ريحٌ طيِّبةٌ، فلمَّا نَظَرَ هارونُ إلىٰ ذٰلك الجبل والبيت وما فيه؛ أعجبَه؛ قال: يا موسىٰ!: إنِّي أحبُّ أن أنام علىٰ هٰذا السرير. قال له موسىٰ: فَنَمْ عليه! قال: إنِّي أخافُ أن يأتِيَ ربُّ هٰذا البيتِ فَيَغْضَبَ عليَّ. قال له: لا تَرْهَبْ! أنا أكفيكَ ربَّ هٰذا البيت؛ فنم! قال: يا موسىٰ! بل نَمْ معي؛ فإنْ جاء ربُّ هٰذا البيت؛ غَضِبَ عليَّ وعليك جميعًا. فلمَّا ناما؛ أَخَذَ هارونَ الموتُ، فلمَّا وَجَد حِسَّهُ؛ قال: يا موسىٰ! خَدَعْتَني! فلمَّا قُبِضَ؛ رُفِعَ ذٰلك البيت، وذهبت تلك الشجرةُ، ورُفِعَ السرير به إلىٰ السماء. فلمَّا رَجَعَ موسىٰ إلىٰ قومِهِ وليس معه هارونُ؛ قالوا: إنَّ موسىٰ قَتَلَ هارون وحَسَدَه علىٰ حُبِّ بني إسرائيل له! وكان هرون أكفَّ عنهم وألينَ لهم من موسىٰ، وكان في موسىٰ بعضُ الغِلْظَةِ[1] عليهم. فلمَّا بَلَغَهُ ذٰلك؛ قال لهم: ويحكُم! كانَ أخي! أفتَرَوْني أقتُلُه؟! فلمَّا أكْثَروا عليه؛ قام، فصلَّىٰ ركعتين، ثم دعا الله، فنزلَ السريرُ، حتَّىٰ نَظَروا إليه بين السماء والأرض. ثم إنَّ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بينما هو يمشي ويوشَعُ فتاهُ؛ إذْ أقبلتْ ريحٌ سوداءُ، فلمَّا نَظَرَ إليها يوشَعُ؛ ظنَّ أنَّها الساعةُ، فالتزم موسىٰ وقالَ: تقوم الساعةُ وأنا ملتزمٌ موسىٰ نبيَّ الله. فاستُلَّ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ من تحتِ القميص، وتُرِكَ القميصُ في يدي يوشَعَ، فلمَّا جاء يوشَعُ بالقميص؛ أخذتْه بنو إسرائيلَ، وقالوا قتلتَ نبيَّ الله؟! فقال: لا والله؛ ما قتلتُهُ، ولكنه استُلَّ مني. فلم يصدِّقوه، وأرادوا قتله. قال: فإذا لم تصدِّقوني؛ فأخِّروني ثلاثة أيام. فدعا اللهَ، فأُتِيَ كلُّ رجل ممَّن كان يحرسُهُ في المنام، فأُخْبِرَ أنَّ يوشعَ لم يقتُلْ موسىٰ وأنَّا قد رَفَعْناه إلينا. فتركوه. ولم يَبْقَ أحدٌ ممَّنْ أبىٰ أن يدخُلَ قريةَ الجبَّارين مع موسىٰ إلَّا ماتَ ولم يشهدِ الفتحَ.

---

(١) إن كان هٰذا محفوظًا؛ فإنما هو لكثرة تلكُّئهم وتولِّيهم واستكانتهم وعدم إجابتهم لأمر ربِّهم وكثرة سؤالهم ما لا يعينهم وقلة صبرهم، وإلَّا؛ فقد شهدتَ رحمةَ موسىٰ ﷺ بأمة محمد ﷺ في شأن الصلاة، وكيف أوصىٰ ﷺ ربَّه التخفيف مرة بعد مرة؛ فرحمته بأمته من باب أولىٰ.

وفي بعض هٰذا السياق نكارةٌ وغرابةٌ. والله أعلم.

وقد قدَّمْنا أنَّه لم يَخْرُجْ أحدٌ من التِّيه ممَّن كان مع موسىٰ سوىٰ يوشَعَ بن نونٍ وكالِبِ بنِ يَفُنَّةَ، وهو زوجُ مريمَ أختِ موسىٰ وهارون، وهما الرجلانِ المذكوران فيما تقدَّم[١]، اللَّذان أشارا علىٰ ملإٍ بني إسرائيلَ بالدُّخول عليهم.

وذَكَرَ وَهْبُ بن منبِّه أنَّ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مرَّ بملإٍ من الملائكةِ يحفُرون قبرًا، فلم يَرَ أحسنَ منه ولا أنضرَ ولا أبهجَ، فقال: يا ملائكةَ الله! لِمَنْ تحفُرونَ هٰذا القبرَ؟ فقالوا: لعبدٍ من عبادِ الله كريمٍ؛ فإنْ كنتَ تحبُّ أن تكونَ هٰذا العبدَ؛ فادخُل القبرَ، وتمدَّدْ فيه، وتوجَّهْ إلىٰ ربِّك، وتنفَّسْ أسهلَ تنفُّس! ففعل ذٰلك، فمات صلواتُ الله وسلامُه عليه، فصلَّتْ عليه الملائكةُ ودَفَنوه.

وذكر أهلُ الكتاب وغيرُهم أنَّه مات وعمره مئة وعشرون سنةً.

وقد قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا أميةُ بن خالد ويونُسُ؛ قالا: حدَّثنا حمادُ بن سلمةَ، عن عمار بن أبي عمارٍ، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ (قال يونسُ: رَفَعَ هٰذا الحديث إلىٰ النبيِّ ﷺ)؛ قال: **«كان مَلَكُ الموت يأتي الناس عِيانًا». قال: فأتى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَطَمَهُ، ففقأ عينَه، فأتى ربَّه، فقال: يا ربِّ! عبدُك موسى فَقَأ عيني، ولولا كرامتُهُ عليك؛ لَعَنُفْتُ به**[٢] (وقال يونسُ: **لَشَقَقْتُ عليه). قال له: اذهبْ إلى عبدي، فقل له: فَلْيَضَعْ يدَه على جلدِ (أو: مَسْكِ) ثورٍ؛ فله بكلِّ شعرةٍ وارتْ يَدُهُ سنةٌ. فأتاه، فقال له، فقال: ما بعد هٰذا؟ قال: الموتُ. قال: فالآنَ. قال: فَشَمَّهُ شَمَّةً فقبَضَ رُوحَه»**[٣]. قال يونُسُ: **«فردَّ اللهُ عليه عينَه، وكان يأتي الناس خُفْيَةً»**[٤].

وكذا رواه ابنُ جرير: عن أبي كُريب، عن مصعب بن المقدام، عن حماد بن سلمة... به، فرفعه أيضًا[٥].

---

(١) انظره في (ص٤٠٣).

(٢) في جميع الأصول: «لعتبت عليه»! والتصويب من «المسند» (٢/ ٥٣٣).

(٣) أعاد ذكره هنا من أجل الزيادة التي في آخره، وهي صحيحة، ولردِّ رواية وهب المتقدمة قبل قليل في وفاة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد تقدمت طرق الحديث وتخريجه في (ص٤٦٩-٤٧١).

(٤) يعني: أصبح ملك الموت يأتي الناس بعد هذه الحادثة خفية.

(٥) تقدمت طرق الحديث وتخريجه في (ص٤٦٦-٤٦٨).

ذكر نبوة يوشع
وقيامه بأعباء بني إسرائيل
بعد موسى وهارون عليهما السلام

۞ [نسبه عليه السلام]:

هو يوشعُ بنُ نونِ بنِ أفْرايِمَ بنِ يوسفَ بنِ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ عليهم السلام.
وأهلُ الكتاب يقولون: يوشعُ ابنُ عم هود(١).

۞ [ذكره في القرآن الكريم]:

وقد ذَكَرَهُ اللهُ تعالىٰ في القرآن غير مصرَّح باسمِهِ في قصَّة الخَضِر؛ كما تقدَّم من قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ [الكهف: ٦٠]، ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ﴾ [الكهف: ٦٢]، وقدَّمنا ما ثبت في «الصحيح» من رواية أُبيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم من أنَّه يوشع بن نون(٢).

۞ [يوشع نبي الله لبني إسرائيل من بعد موسى]:

وهو متَّفقٌ علىٰ نبوَّتِهِ عند أهل الكتاب؛ فإنَّ طائفةً منهم -وهم السَّامرة- لا يُقِرُّون بنبوَّة أحدٍ بعد موسىٰ إلَّا يوشعَ بنَ نونٍ؛ لأنَّه مصرَّح به في التوراة، ويَكْفُرونَ بما وراءه، وهو الحقُّ مصدِّقًا لِما معهم من ربِّهم؛ فعليهم لعائنُ الله المتتابعةُ إلىٰ يوم القيامة!

وأمَّا ما حكاه ابنُ جريرٍ(٣) وغيرُه من المفسِّرين عن محمد بن إسحاق من أنَّ النبوَّة حُوِّلَتْ من موسىٰ إلىٰ يوشعَ في آخرِ عُمُرِ موسىٰ، فكان موسىٰ يَلْقىٰ يوشَعَ، فيسألُهُ ما أحدثَ الله إليه من الأوامرِ والنَّواهي؟ حتىٰ قال له: يا كليم الله! إنِّي كنتُ لا أسألُك عمَّا يوحي اللهُ إليك حتىٰ تخبِرَني أنت ابتداءً من تلقاءِ نفسك! فعند ذٰلك كرِه موسىٰ الحياةَ وأحبَّ الموتَ. ففي هٰذا نظرٌ؛

(١) لم أجده في «العهد القديم» وهو جدٌّ بعيد! فالله أعلم.
(٢) في (ص ٤٣١).
(٣) في «تاريخه» (ص٥٨٤).

لأنَّ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يزل الأمرُ والوحيُ والتشريعُ والكلامُ من الله إليه من جميع أحوالِهِ حتىٰ توفَّاه الله عَزَّوَجَلَّ، ولم يزلْ معزَّزًا مكرَّمًا مدلَّلًا وجيهًا عند الله؛ كما قدَّمنا[١] في «الصحيح» من قصة فقئِهِ عينَ مَلَك الموت، ثم بَعَثَهُ الله إليه: إنْ كان يريدُ الحياة؛ فَلْيَضَعْ يَدَهُ علىٰ جلدِ ثورٍ؛ فله بكلِّ شعرةٍ وارتْ يدُهُ سنةً يعيشُها. قال: ثم ماذا؟ قال: الموتُ. قال: فالآن يا ربِّ! وسأل اللهَ أن يدنِيَه إلىٰ بيت المقدِس رميةً بحجرٍ. وقد أجيبَ إلىٰ ذٰلك صلوات الله وسلامُه عليه.

فهٰذا الذي ذَكَرَهُ محمدُ بنُ إسحاقَ: إن كان إنَّما يقولُه من كُتُبِ أهل الكتابِ؛ ففي كتابِهِم الذي يسمُّونه التوراة[٢]: أنَّ الوحي لم يزلْ ينزِلُ علىٰ موسىٰ في كلِّ حين يحتاجون إليه إلىٰ آخرِ مدَّةِ موسىٰ؛ كما هو المعلومُ من سياق كتابِهِم عند تابوت الشَّهادة في قُبَّةِ الزمانِ[٣].

[بنو إسرائيل يتأهبون لقتال الجبارين]:

ولقد ذكروا في السِّفْر الثالث[٤]: أنَّ الله أمر موسىٰ وهارون أن يَعُدَّا بني إسرائيل علىٰ أسباطِهِم، وأن يَجْعَلا علىٰ كلِّ سبطٍ من الاثني عشر أميرًا، وهو النقيبُ، وما ذاك إلَّا ليتأهَّبوا للقتال -قتال الجبَّارينَ- عند الخُروج من التِّيه، وكان هٰذا عند اقتراب انقضاء الأربعينَ سنةً.

ولهٰذا قال بعضُهم: إنَّما فقأ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عينَ مَلَكِ الموت؛ لأنَّه لم يعرِفْه في صورتِهِ تلك، ولأنَّه كان قد أُمِرَ بأمرٍ كان يرتجي وقوعَهُ في زمانِهِ، ولم يكنْ في قَدَرِ الله أن يَقَعَ ذٰلك في زمانه، بل في زمان فتاه يوشَعَ بنِ نونٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

كما أنَّ رسولَ الله ﷺ كان قد أراد غَزْوَ الرُّوم بالشام، فوصلَ إلىٰ تبوكَ، ثم رَجَعَ عامَه ذٰلك في سنة تسع، ثم حجَّ في سنة عشر، ثم رجع فجهَّزَ جيش أسامةَ إلىٰ الشام طليعةً بين يديه، ثم كان علىٰ عزم الخروج إليهم؛ امتثالًا لقوله تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة: ٢٩]. ولمَّا جهَّز رسولُ الله جيش أسامة؛ توفِّي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

---

(١) في (ص ٤٦٦-٤٦٨ وما بعدها).

(٢) في (سفر التثنية/ الأصحاح ٢٨-٣٤).

(٣) يعني: وإن كان عن غير أهل الكتاب؛ فهو أولىٰ بالاطِّراح.

(٤) بل في السفر الرابع، وهو سفر العدد، وانظر هٰذا الكلام في (الأصحاح ١ و٢).

وأسامةُ مخيِّمٌ بالجُرُفِ، فنفَّذه صِدِّيقُه وخليفتُه أبو بكر الصديقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ثم لمَّا لَمَّ شَعَثَ جزيرة العرب وما كان دَهَا من أمرِ أهلها وعاد الحقُّ إلىٰ نصابه؛ جَهَّزَ الجيوشَ يمنةً ويسرةً إلىٰ العراق أصحاب كسرىٰ ملك الفرس وإلىٰ الشام أصحاب قيصر ملك الروم، ففتحَ اللهُ لهم ومكَّن لهم وبهم وملَّكهم نواصيَ أعدائهم؛ كما سنوردُهُ عليكَ في موضعِهِ إذا انتهَيْنا إليه مفصَّلًا إن شاء الله بعونِهِ وتوفيقه وحسنِ إرشادِهِ[1].

وهٰكذا موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ كان الله قد أمرَهُ أن يجنِّدَ بني إسرائيل وأن يجعلَ عليهم نقباءَ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة: ١٢]: يقولُ لهم: لَئِنْ قمتُم بما أوجبتُ عليكم، ولم تَنْكُلوا عن القتال كما نكَلْتُم أولَ مرة؛ لأجْعلَنَّ ثوابَ هذ مكفِّرًا لِما وقع عليكم من عقاب تلك؛ كما قال تعالىٰ لِمَنْ تخلَّفَ من الأعراب عن رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [الفتح: ١٦]، وهٰكذا قال تعالىٰ لبني إسرائيل: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة: ١٢]، ثم ذمَّهم تعالىٰ علىٰ سوء صَنيعهم ونَقْضِهِم مواثيقَهم كما ذمَّ مَنْ بعدَهم من النَّصارىٰ علىٰ اختلافِهِم في دينِهم وأديانِهِم، وقد ذكرنا ذٰلك في «التفسير» مستقصًىٰ. ولله الحمد.

والمقصودُ: أنَّ الله تعالىٰ أمَرَ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يَكْتُبَ أسماءَ المقاتلَةِ من بني إسرائيل، ممَّن يحمِلُ السلاح ويقاتِلُ، ممَّن بَلَغَ عشرين سنةً فصاعدًا، وأن يَجْعَلَ علىٰ كلِّ سبطٍ نقيبًا منهم: **السِّبْطُ الأوَّلُ**: سبطُ روبينَ؛ لأنَّه بِكْرُ يعقوبَ، وكان عدَّةُ المقاتلة منهم ستة وأربعين ألفًا وخمسَ مئة، ونقيبُهم منهم، وهو أَلِيصُورُ بنُ شَدَيْؤور. **السِّبْطُ الثاني**: سِبْطُ شِمْعُونَ، وكانوا تسعة وخمسين ألفًا وثلاثَ مئة، ونقيبُهم شَلومِيئيلُ ابنُ صُورِيشَدَّاي، **السِّبْطُ الثالثُ**: سِبْطُ يَهوذا، وكانوا أربعة وسبعين ألفًا وستَّ مئة، ونقيبُهم نَحْشُونُ بنُ عَمِّيناداب. **السِّبْطُ**

---

(١) يعني في قسم السيرة النبوية من «البداية والنهاية» وما بعده من سيرة الخلفاء الراشدين.

الرابعُ: سِبطُ يَسَّاكَرَ، وكانوا أربعة وخمسين ألفًا وأربعَ مئة، ونقيبُهم نَثَنائِيلُ بن صُوغَرَ. **السِّبْطُ الخامسُ**: سِبطُ يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانوا أربعين ألفًا وخمسَ مئة، ونقيبُهم يُوشَعُ بن نونٍ. **السِّبْطُ السادسُ**: سِبطُ مَنَسَّا، وكانوا اثنين[1] وثلاثين ألفًا ومئتين، ونقيبُهم جَمْلِيئيلُ بن فَدَهْصُورَ. **السِّبْطُ السابعُ**: سِبطُ بَنْيامينَ، وكانوا خمسة وثلاثين ألفًا وأربعَ مئة، ونقيبهم أَبِيدَنُ بنُ جِدْعُوني. **السِّبْطُ الثامنُ**: سِبْطُ جادٍ، وكانوا خمسة وأربعين ألفًا وستَّ مئة وخمسين رجلًا، ونقيبُهم أَلِيَاسَافُ بنُ رَعُوئيلَ. **السِّبْطُ التاسعُ**: سِبْطُ أشيرَ، وكانوا أحدًا وأربعين ألفًا وخمس مئة، ونقيبُهم فَجْعِيئيلُ بنُ عُكْرَنَ. **السِّبْطُ العاشرُ**: سِبْطُ دانٍ، وكانوا اثنين وستين ألفًا وسبعَ مئة، ونقيبُهم أَخِيعَزَرُ بنُ عَمِّيشَدَّاي. **السِّبْطُ الحادي عشر**: سِبْطُ نَفْتالي، وكانوا ثلاثة وخمسين ألفًا وأربعَ مئة، ونقيبُهم أَخِيرعُ بنُ عِينَنَ. **السِّبْطُ الثاني عشر**: سِبطُ زَبُولُونَ، وكانوا سبعةً وخمسين ألفًا وأربع مئةٍ، ونقيبُهم أَلِيآبُ بنُ حِيْلونَ. هٰذا نصُّ كتابهم الذي بأيديهم[2].

والله أعلم. وليس منهم بنو لاوي؛ فقد أمر الله موسىٰ أَلَّا يَعُدَّهم معهم؛ لأَنَّهم موكلون بحمل قُبَّةِ الشهادة وضربِها وخزنِها ونَصْبِها وحملِها إذا ارتحلوا، وهم سِبطُ موسىٰ وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وكانوا اثنين وعشرين ألفًا، من ابن شهرٍ فما فوقَ ذٰلك، وهم في أنفسهم قبائلُ، عُهِدَ إلىٰ كلِّ قبيلةٍ طائفةٌ من قُبَّةِ الزمان يحرُسونها ويحفَظونها ويقومون بمصالِحِها ونصبِها وحملِها، وهم كلُّهم حولَها؛ ينزِلون ويرتَحِلون أمامها ويَمْنَتَها وشمالَها ووراءَها.

وجُملة ما ذُكِرَ من المقاتلة غير بني لاوي خمسُ مئة ألفٍ وأحَدٌ وسبعون ألفًا وستُّ مئة وستة وخمسون. لٰكنْ قالوا: فكان عددُ بني إسرائيلَ ممَّن عُمُرُهُ عشرون سنةً فما فوق ذٰلك ممَّن حمل السلاح ستَّ مئةِ ألفٍ وثلاثة آلاف وخمس مئة وخمسين[3] رجلاً سوىٰ بني لاوي! وفي هٰذا نظرٌ؛ فإنَّ جميعَ الجُمَل المتقدِّمة؛ إن كانت كما وَجَدْنا في كتابهم؛ لا تطابِقُ الجملةَ التي ذكروها! والله أعلم.

فكانَ بنو لاوي الموكَلون بحِفْظِ قُبَّةِ الزمان يسيرونَ في وسطِ بني إسرائيل، وهم القلبُ،

(١) في جميع الأصول: «أحدًا»! والتصويب من «العهد القديم» (سفر العدد/ الأصحاح١).

(٢) في (سفر العدد/ الأصحاح ١ و٢)، وقد صححتُ الأسماء منه.

(٣) في جميع الأصول: «وخمسة وخمسين رجلاً». والتصويب من (سفر العدد/ الأصحاح١).

ورأسُ الميمنةِ بنو روبينَ، ورأس الميسرةِ بنو دانٍ، وبنو نَفْتالي يكونون ساقةً.

وقرَّر موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ - بأمرِ الله تعالىٰ له - الكِهانَةَ في بني هارون؛ كما كانت لأبيهم من قبلِهِم؛ وهم: ناداب وهو بِكْرُهُ، وأبيهُو، وألِعَازارُ، وإيثَامَار.

والمقصودُ: أنَّ بني إسرائيلَ لم يبقَ منهم أحدٌ ممَّن كان نكَلَ عن دُخول مدينة الجبَّارين الذين قالوا: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: ٢٤]. قاله الثوريُّ عن أبي سعيدٍ عن عكرمةَ عن ابن عباس، وقاله قَتادة وعَكْرِمَةُ، ورواه السُّدِّيُّ عن ابن عباس وابن مسعودٍ وناس من الصحابةِ، حتىٰ قالَ ابنُ عباس وغيرُهُ من علماء السَّلَف والخَلَف: ومات موسىٰ وهارونُ قبلَه كلاهما في التِّيهِ جميعًا.

[ذكر خبر بلعام بن بعور]:

وقد زَعَمَ ابنُ إسحاقَ أنَّ الذي فَتَحَ بيتَ المقدس هو موسىٰ، وإنَّما كان يوشَعُ علىٰ مقدِّمتِهِ، وذكر في مروره إليها قصةَ بَلْعامَ بن بَعُورَ، الذي قال تعالىٰ فيه: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٧٧﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٧]، وقد ذَكَرْنا قصته في «التفسير»، وأنَّه كان -فيما قاله ابنُ عباس وغيرُه- يعلمُ الاسمَ الأعظم، وأنَّ قومَه سألوه أن يَدْعُوَ علىٰ موسىٰ وقومِهِ، فامتنعَ عليهم، ولمَّا ألحُّوا عليه؛ رَكِبَ حمارةً له، ثم سار نحو معسكرِ بني إسرائيل، فلمَّا أشرفَ عليهم؛ رَبَضَتْ به حمارتُه، فضَرَبها حتىٰ قامتْ، فسارت غيرَ بعيدٍ وربضتْ، فضربها ضربًا أشدَّ من الأوَّل، فقامت ثم رَبَضَتْ، فضربها، فقالتْ له: يا بَلْعامُ! أين تذهبُ؟ أما ترىٰ الملائكةَ أمامي تَرُدُّني عن وجهي هٰذا؟! أتذهبُ إلىٰ نبيِّ الله والمؤمنينَ تدعو عليهم؟! فلم يَنْزِعْ عنها، فضَرَبَها حتىٰ سارتْ به، حتىٰ أشرفَ عليهم من رأس جبل حسبان، ونظر إلىٰ معسكر موسىٰ وبني إسرائيل، فأخذَ يدعو عليهم، فجعلَ لسانُه لا يُطيعُه إلَّا أنْ يدعُوَ لموسىٰ وقومِهِ ويدعُوَ علىٰ قوم نفسِهِ، فلاموه علىٰ ذٰلك، فاعتذَرَ إليهم بأنَّه لا يجري علىٰ

لسانه إلَّا هٰذا، واندلع لسانُهُ(١) حتىٰ وَقَعَ علىٰ صدرِه، فقال لقومه: قد ذهبتِ الآنَ منِّي الدُّنيا والآخرة، ولم يبقَ إلَّا المكرُ والحيلةُ!! ثم أمر قومَه أن يزيِّنوا النساء ويَبْعَثوهنَّ بالأمتعةِ يَبِعْنَ عليهم ويتعرَّضْنَ لهم لعلَّهم يقعون في الزِّنىٰ؛ فإنَّه متىٰ زنىٰ رجلٌ منهم؛ كُفيتُموهم. ففعلوا، وزيَّنوا نساءهم، وبعثوهنَّ إلىٰ المعسكر، فمرَّتِ امرأةٌ منهم اسمها كُزْبي برجل من عظماء بني إسرائيل، وهو زِمْرِي بن سالو، يُقال: إنَّه كان رأسَ سِبْطِ بني شِمْعونَ بن يعقوبَ، فدخَلَ بها قُبَّتَهُ، فلمَّا خلا بها؛ أرسل اللهُ الطاعونَ علىٰ بني إسرائيل، فجعلَ يجوسُ فيهم، فلمَّا بَلَغَ الخبرُ إلىٰ فينحاسَ بن ألِعازارَ بن هارونَ؛ أخذ حَرْبَتَه، وكانت من حديدٍ، فدخل عليهما القُبَّةَ، فانتظمَهُما جميعًا فيها، ثم خَرَجَ بهما علىٰ الناس والحربةُ في يدِهِ، وقد اعتمدَ علىٰ خاصرته، وأسندَها إلىٰ لحيتِهِ، ورفَعَهُما نحو السماء، وجعل يقول: اللهمَّ! هٰكذا نفعلُ بمَن يعصيك. ورُفِعَ الطاعونُ. فكان جملةُ مَن ماتَ في تلك الساعةِ سبعين ألفًا، والمقلِّلُ يقول: عشرينَ ألفًا. وكان فينحاسُ بكرَ أبيه ألِعازارَ بن هارونَ؛ فلهٰذا يجعلُ بنو إسرائيل لولد فينحاسَ من الذبيحة اللَّبَّةَ والذِّراعَ واللَّحْيَ(٢)، ولهم البكر من كلِّ أموالهم وأنْفَسُها.

وهٰذا الذي ذكره ابنُ إسحاقَ من قصَّةِ بَلْعامَ صحيحٌ، وقد ذَكَرَهُ غيرُ واحدٍ من علماء السلف، لكن لعلَّه لمَّا أراد موسىٰ دخولَ بيت المقدس أولَ مَقْدَمِهِ من الديار المصريَّة، ولعلَّه مرادُ ابنِ إسحاق، ولٰكنَّه غير ما فهمه بعضُ الناقلين عنه، وقد قدَّمْنا عن نصِّ التوراة ما يشهدُ لبعض هٰذا(٣)، والله أعلم.

ولعلَّ هٰذه قصَّةٌ أخرىٰ كانت في خلال سَيْرِهم في التِّيه؛ فإنَّ في هٰذا السياق ذِكْرَ حسبان، وهي بعيدةٌ عن أرض بيت المقدس، أو لعلَّه كان هٰذا لجيشِ موسىٰ الذين عليهمْ يوشَعُ بنُ نونٍ حين خَرَجَ بِهِم من التِّيهِ قاصدًا بيتَ المقدس؛ كما صرَّحَ به السُّدِّيُّ. والله أعلم.

۞ [ما جاء في خروج يوشع عليه السلام ببني إسرائيل من التيه]:

وعلىٰ كلِّ تقديرٍ؛ فالذي عليه الجمهورُ: أنَّ هارونَ توفِّي بالتِّيه قبل موسىٰ أخيه بنحوٍ من

(١) اندلع لسنه: خرج وعظم واسترخىٰ. وفي نسخة: «اندفع».
(٢) اللَّبَّة: لحم العنق وأعلىٰ الصدر. والذراع معروف. واللَّحْيُ: لحم الخدّ.
(٣) وهذه القصة مذكورة مطولة في (سفر العدد/ الأصحاح ٢٢-٢٦).

سنتين، وبعده موسىٰ في التِّيهِ أيضًا كما قدَّمْنا، وأنَّه سأَلَ ربَّه أن يُقَرِّبَه إلىٰ بيت المقدس فأجيبَ إلىٰ ذٰلك، فكان الذي خَرَجَ بهم من التِّيهِ وقصدَ بهم بيتَ المقدس، هو يوشعَ بنَ نونٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فذكر أهلُ الكتاب[1] **وغيرُهم**: من أهل التاريخ أنَّه قَطَعَ ببني إسرائيلَ نهر الأردن، وانتهىٰ إلىٰ أريحا، وكانت من أحصن المدائن سورًا وأعلاها قصورًا وأكثرها أهلًا، فحاصرها ستَّة أشهرٍ، ثم إنَّهم أحاطوا بها يومًا، وضربوا بالقرونِ (يعني: الأبواقَ)، وكبَّروا تكبيرةً رجل واحدٍ، فتفسَّخ سورُها وسقط وجبةً واحدة، فدَخَلوها، وأخذوا ما وجدوا فيها من الغنائم، وقتلوا اثني عشر ألفًا من الرجال والنساء، وحاربوا ملوكًا كثيرةً. ويقال: إنَّ يوشَعَ ظَهَرَ علىٰ أحدٍ وثلاثين ملكًا من ملوك الشام. وذكروا أنَّه انْتَهىٰ محاصَرَتُه لَها إلىٰ يوم الجمعة بعد العصر، فلمَّا غربتِ الشمسُ أو كادتْ تغربُ ويدخلُ عليهم السبت الذي جُعِلَ عليهم وشُرِعَ لهم ذٰلك الزمان؛ قالَ لها: إنَّك مأمورةٌ وأنا مأمورٌ، اللهمَّ! احبِسْها عليَّ. فحَبَسَها اللهُ عليه حتىٰ تمكَّن من فتح البلد، وأمر القمر فوقف عند الطُّلوع. وهٰذا يقتضي أنَّ هٰذه الليلةَ كانت الليلة الرابعة عشر من الشهر.

الأول -وهو قصة الشمس المذكورة- في الحديث الذي سأذكره. وأمَّا قصَّة القمر؛ فمِن عند أهل الكتاب، ولا ينافي الحديثَ، بل فيه زيادةٌ تُستفادُ؛ فلا تصدَّقُ ولا تكذَّب.

ولٰكنَّ ذِكْرَهم أنَّ هٰذا في فتح أريحا فيه نظرٌ، والأشبه - والله أعلم - أنَّ هٰذا كان في فتح بيت المقدس، الذي هو المقصودُ الأعظمُ، وفتحُ أريحا كان وسيلةً إليه. والله أعلم.

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أسودُ بن عامر، حدثنا أبو بكرٍ، عن هشام، عن ابن سيرينَ، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ الشمس لم تُحْبَسْ لبشرٍ إلَّا ليوشَعَ لياليَ سار إلى بيت المقدس**»[2]. انفردَ به أحمدُ من هٰذا الوجه، وهو علىٰ شرط البخاريِّ.

وفيه دلالةٌ علىٰ أنَّ الذي فَتَحَ بيتَ المقدس هو يوشعُ بنُ نونٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لا موسىٰ، وأن حَبْسَ الشمس كان في فتح بيتِ المقدس لا أريحا كما قُلْنا.

---

(١) في (سفر يشوع/ الأصحاح ٢-٦).

(٢) (**صحيح**). رواه: أحمد (٢/ ٣٢٥)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢/ ١٠)؛ من طرق عن الأسود... به، فذكره.
وهٰذا سند صحيح علىٰ شرط البخاري كما ذكر ابن كثير. وقد صححه: الذهبي، والعسقلاني في «الفتح» (٦/ ٢٢١/ ٣١٢٤)، وجوَّد إسناده الألباني في «الصحيحة» (١/ ٣٩٤/ ٢٠٢). وله أصل في الصحيحين بغير هٰذا اللفظ.

وفيه: أنَّ هٰذا كان من خصائص يوشع عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيدُلُّ علىٰ ضَعْفِ الحديث الذي رُوِّيناه: أنَّ الشمسَ رجعتْ حتىٰ صلَّىٰ عليُّ بن أبي طالبٍ صلاةَ العصر بعدما فاتَتْه بسبب نوم النبيِّ ﷺ علىٰ ركبتِهِ، فسألَ رسولَ الله أن يردَّها الله عليه حتىٰ يصليَ العصر، فرجعتْ[١]. وقد صححهُ أحمدُ بن صالح المصريُّ[٢]، ولٰكنَّه منكرٌ ليس في شيءٍ من الصحاح ولا الحسان، وهو ممَّا تتوافرُ الدَّواعي علىٰ نقلِهَ، وتفردت بنقلِهِ امرأةٌ من أهل البيت مجهولةٌ لا يُعْرَفُ حالُها. والله أعلم.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبدُالرزاق، حدثنا معمر، عن همَّام، عن أبي هُريرة؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**غزا نبيٌّ من الأنبياء، فقال لقومِهِ: لا يَتْبَعْني رجلٌ قد مَلَكَ بُضْعَ[٣] امرأةٍ وهو يريدُ أنْ يَبْنِيَ بها ولمَّا يَبْنِ، ولا آخرُ قد بنى بُنيانًا ولم يرفَعْ سُقُفَها، ولا آخرُ قدِ اشترى غَنمًا أو خَلِفاتٍ[٤] وهو ينتظرُ أولادَها**». قال: «**فغزا فدَنا من القريةِ حين صلَّى العصرَ أو قريبًا من ذٰلك، فقال للشمس: أنتِ مأمورةٌ وأنا مأمورٌ، اللهمَّ! احبِسْها عليَّ شيئًا. فحُبِسَت عليه حتى فَتَحَ الله عليه**». قال: «**فَجَمعوا ما غَنِموا، فأتتِ النارُ لِتَأْكُلَه، فأبتْ أنْ تَطْعَمَهُ، فقال: فيكم غلولٌ[٥]! فَلْيُبايِعْني من كلِّ قبيلةٍ رجلٌ. فبايَعوه، فلَصْقَتْ يدُ رجل بيدِهِ، فقال: فيكمُ الغلولُ. فَلْتُبايِعْني**

(١) (موضوع). رواه: الطحاوي في «مشكل الآثار» (٢/ ٨ و٩، ٤/ ٣٨٨)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ١٤٤/ ٣٨٢ و٣٩٠)، وابن شاهين (١/ ٣٥٦- الموضوعات)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٣٥٦)؛ من ثلاث طرق واهية بمرة عن أسماء بنت عميس... فذكرته.

قال ابن الجوزي: «موضوع بلا شك». وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السنة النبوية» (٨/ ١٦٤ - ١٩٨): «المحققون من أهل العلم والمعرفة بالحديث يعلمون أن هٰذا الحديث كذب موضوع...» ثم أفاض في نقد متنه وسنده بصورة لا مثيل لها رحمة الله عليه. وقد نقل الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٢/ ٣٩٥/ ٩٧١) طرفًا من كلامه هٰذا، وأقره عليه، ونقل إيضًا إقرار الذهبي وابن كثير له علىٰ ذلك، ثم ختم الكلام بقوله: «وجملة القول أن العاقل إذا تأمل فيما سبق من كلام هٰؤلاء الحفاظ علىٰ هٰذا الحديث من جهة متنه، وعلم قبل ذلك أنه ليس له إسناد يُحتجُّ به؛ تيقَّن أن الحديث كذب موضوع لا أصل له» أهـ.

(٢) في بعض الأصول: «أحمد بن أبي صالح المصري»! وفي بعضها: «علي بن صالح المصري»! وكلاهما خطأ، وقد وقع علىٰ الصواب عند الطحاوي في «مشكل الآثار»، والرجل حافظ معروف.

(٣) البُضْع: الفرج. والمعنىٰ: عقد علىٰ امرأة ولم يقربها بعد.

(٤) الخلفات: جمع خلفة، وهي الحامل من النوق.

(٥) الغلول: الاختلاس من الغنيمة.

قبيلَتُك. فبايَعَتْه قبيلتُهُ». قال: «فَلَصِقَتْ بيدِ رجلينِ أو ثلاثةٍ، فقال: فيكمُ الغلولُ، أنتُم غَلَلْتُم». قال: «فأخْرَجوا له مِثْلَ رأس بقرةٍ من ذهبٍ». قال: «فَوَضَعوه بالمال وهو بالصَّعيدِ، فأقبلتِ النارُ، فأكَلَتْهُ. فلم تَحِلَّ الغنائمُ لأحدٍ من قبلِنا، ذٰلك بأنَّ الله رأى ضَعْفَنا وعَجْزَنا فطيَّبَها لنا»(١).

انفردَ به مسلمٌ من هٰذا الوجه.

وقد روىٰ البزار من طريق: مُبارَكِ بن فَضالةَ، عن عُبيدالله، عن سعيد المَقْبُرِيِّ. عن أبي هريرة، عن النبيِّ... نحوه. قال: ورواه: محمد بن عجلان، عن سعيد المَقْبُرِيِّ. قال: ورواه قتادةُ، عن سعيد بن المسيَّبِ، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ.

۞ [بنو إسرائيل يخالفون أمر ربهم ويستهزئون بكلامه]:

والمقصودُ: أنَّه لمَّا دَخَلَ بهم بابَ المدينة؛ أُمِروا أن يَدْخُلوها سجَّدًا؛ أي: ركَّعًا متواضعين شاكرين لله ﷻ علىٰ ما منَّ به عليهم من الفتح العظيم الذي كان اللهُ وَعَدَهم إيَّاه، وأن يقولوا حالَ دخولهم: حِطَّةٌ؛ أي: حُطَّ عنا خطايانا التي سَلَفَتْ من نُكولنا الذي تقدَّم منا!

ولهٰذا؛ لمَّا دَخَلَ رسولُ الله ﷺ مكةَ يوم فتَحَها؛ دَخَلَها وهو راكبٌ ناقتَه، وهو متواضعٌ حامدٌ شاكرٌ، حتىٰ إنَّ عُثْنونَه (وهو طرف لحيته) لَيَمَسُّ مُوَرِّكَ رَحْلِهِ ممَّا يُطأطِئُ رأسَه خُضْعانًا لله ﷻ(٢)، ومعه الجنودُ والجيوش ممَّن لا يُرىٰ منه إلاَّ الحَدَقُ، ولا سيَّما الكتيبةِ الخضراءِ

(١) رواه: أحمد (٢/ ٣١٨)، والبخاري (٥٧- فرض الخمس، ٨- أحلت لكم الغنائم، ٦/ ٢١٩/ ٣١٢٤)، ومسلم (٣٢- الجهاد، ١١- تحليل الغنائم، ٣/ ١٣٦٦/ ١٧٤٧).

(٢) (حسن). رواه ابن إسحاق في «السيرة» (٥/ ٦٣- ابن هشام)، ومن طريقه البيهقي في «الدلائل» (٥/ ٦٨): حدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم: إن رسول الله ليضع رأسه تواضعًا لله حين رأىٰ ما أكرمه الله به من الفتح، حتىٰ إن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل. وهٰذا مرسل حسن.

رواه: أبو يعلىٰ (٦/ ١٢٠/ ٦٣٨)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٥٧١)، والحاكم (٣/ ٤٧)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٦٨)؛ من طريق عبد الله بن أبي بكر المقدمي، ثنا جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس؛ قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذقنه علىٰ رحله متخشعًا. وصححه الحاكم علىٰ شرط مسلم! وسكت عنه الذهبي، والمقدمي ضعفوه كما في «الميزان» و«اللسان». لٰكن قال ابن عدي: «وهٰذا الحديث قد رأيت من رواه عن جعفر غير المقدمي». إنما لم يذكر لنا حال من تابع المقدمي عليه.

وعلىٰ كل؛ فالضعف في هٰذا الطريق يسير؛ فحريٌّ بها أن تتقوىٰ وتحسن بالمرسل السابق، ولا سيما أن هٰذا الحديث قد تلقاه معظم من كتب في السيرة بالقبول؛ كابن إسحاق وابن هشام وابن القيم وابن كثير.. والله أعلم.

التي فيها رسولُ الله ﷺ، ثم لمَّا دَخلَها؛ اغتسلَ وصلَّىٰ ثمانيَ رَكَعاتٍ، وهي صلاةُ الشُّكْرِ علىٰ النصر علىٰ المشهورِ من قول العلماء. وقيل: إنَّها صلاة الضُّحىٰ. وما حمل هٰذا القائلَ علىٰ قولِهِ هٰذا إلَّا لأنَّها وقعتْ وقتَ الضُّحىٰ(١).

وأما بنو إسرائيل؛ فإنَّهم خالفوا ما أُمِروا به قولًا وفعلًا، فدخلوا البابَ يَزْحَفون علىٰ أستاهِهِم(٢) وهم يقولون: حبَّةٌ في شعرةٍ! وفي رواية: حنطةٌ في شعرةٍ! وحاصلُهُ أنَّهم بدَّلوا ما أمِروا به واستهزؤوا به:

كما قال تعالىٰ حاكيًا عنهم في سورة الأعراف -وهي مكِّية-: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأعراف: ١٦١-١٦٢].

وقال في سورة البقرة -وهي مدنيَّة- مخاطبًا لهم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: ٥٨-٥٩].

وقال الثوريُّ: عن الأعمش، عن المِنْهال بن عمرو، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾؛ قال: رُكَّعًا من باب صغير. رواه الحاكم وابنُ جرير وابن أبي حاتم(٣)، وكذا روىٰ العوفيُّ عن ابن عباس. وكذا روىٰ الثوريُّ عن ابن إسحاق عن البراء. قال مجاهد والسُّدِّيُّ والضحَّاكُ: والباب هو بابُ حطَّةٍ من بيت إيلياء بيت المقدس. قال ابنُ مسعود: فَدَخلوا مُقْنِعي رؤوسِهم ضدَّ ما أُمِروا به. وهٰذا لا ينافي قولَ ابن عباس: إنَّهم

(١) رواه: البخاري (٦٤- المغازي، ٥٠- منزلة ﷺ يوم الفتح، ٨/ ١٩/ ٤٢٩٢)، ومسلم (٣- الحيض، ١٦- تستُّر المغتسل، ١/ ٢٦٥/ ٣٣٦).

(٢) الأستاه: جمع است، وهو المؤخرة.

(٣) انظر: «تفسير ابن جرير» (١/ ٣٣٩/ ١٠٠٨)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ١١٧/ ٥٧٦)، و«مستدرك» الحاكم (٢/ ٢٦٢).

دخلوا يزحَفون علىٰ أستاهِهِم. وهٰكذا في الحديث الذي سنوردُه بعد؛ فإنَّهم دخلوا يزحفون وهم مقنعو رؤوسِهم.

وقوله: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾: الواو هنا حاليَّة لا عاطفةٌ؛ أي: ادخُلوا سجَّدًا في حال قولكم: حِطَّة.

قال ابن عباس وعطاءٌ والحسنُ وقَتادة والربيعُ: أُمِروا أن يَسْتَغْفِروا.

قال البخاريُّ: حدثنا محمدٌ، حدثنا عبد الرحمٰن بن مهديٍّ، عن ابن المباركِ، عن مَعْمرٍ، عن همَّام بن مُنبِّهٍ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ؛ قال: «**قيل لبني إسرائيل: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾. فدخلوا يزحَفون على أستاهِهِم، فبدَّلوا وقالوا: حِطَّةٌ؛ حبَّةٌ في شعرةٍ**»(١).

وكذا رواه النسائيُّ من حديث ابن المبارَكِ... ببعضه. ورواه عن: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، عن ابن مهدي... به موقوفًا.

وقد قال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَرٌ، عن همَّام بن مُنبِّهٍ، أنَّه سمع أبا هريرة يقولُ: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله لبني إسرائيل: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيَٰٓـَٔتِكُمْ﴾؛ فبدَّلوا، فدخلوا الباب يزحَفون على أستاهِهِم، فقالوا: حبَّةٌ في شعرةٍ**»(٢).

ورواه البخاريُّ ومسلمٌ والترمذيُّ من حديث عبد الرزاق، وقال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ.

وقال محمدُ بن إسحاق: كان تبديلُهم كما حدَّثني صالحُ بن كَيْسان؛ عن صالحٍ مولىٰ التَّوْأمة عن أبي هريرة، وعمَّن لا أتَّهم عن ابن عباس: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**دَخَلوا الباب**

---

(١) رواه: عبد الرازق في «التفسير» (١/ ٦٩/ ٥٨ وحاشيتها)، والبخاري (٦٥- التفسير، ٢- البقرة، ٥- ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، ٨/ ١٦٤/ ٤٤٧٩) بالسند الأول، و(٦٠- الأنبياء، ٢٨- باب، ٦/ ٤٣٦/ ٣٤٠٣) من طريق عبد الرزاق، ومسلم (٥٤- التفسير، ٤/ ٢٣١٢/ ٣٠١٥)، والترمذي (٤٨- التفسير، ٣- ومن سورة البقرة، ٥/ ٢٠٥/ ٢٩٥٦)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٠/ ٣٩٥/ ١٤٦٨٠ - تحفة)، وابن جرير في «التفسير» (١/ ٣٤٣/ ١٠٢٠ و١٠٢١ و١٠٢٣).

(٢) رواه: عبد الرازق في «التفسير» (١/ ٦٩/ ٥٨ وحاشيتها)، والبخاري (٦٥- التفسير، ٢- البقرة، ٥- ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، ٨/ ١٦٤/ ٤٤٧٩) بالسند الأول، و(٦٠- الأنبياء، ٢٨- باب، ٦/ ٤٣٦/ ٣٤٠٣) من طريق عبد الرزاق، ومسلم (٥٤- التفسير، ٤/ ٢٣١٢/ ٣٠١٥)، والترمذي (٤٨- التفسير، ٣- ومن سورة البقرة، ٥/ ٢٠٥/ ٢٩٥٦)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٠/ ٣٩٥/ ١٤٦٨٠ - تحفة)، وابن جرير في «التفسير» (١/ ٣٤٣/ ١٠٢٠ و١٠٢١ و١٠٢٣).

الذي أُمِروا أن يدخلوا فيه سُجَّدًا يزحَفون على أستاهِهِم، وهم يقولون حنطةٌ في شعيرةٍ»(١).

وقال أسباطٌ: عن السُّدِّيِّ، عن مُرَّة، عن ابن مسعود؛ قال في قوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾؛ قال: قالوا: هطىٰ سقاثا أزبة مزبا! فهي في العربيةِ: حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء!!

وقد ذكر الله تعالىٰ أنَّه عاقبهم علىٰ هٰذه المخالفةِ بإرسال الرِّجْزِ الذي أنزلَه عليهم، وهو الطاعونُ:

كما ثبت في الصحيحين: من حديث الزهريِّ عن عامر بن سعد، ومن حديث مالك عن محمد بن المُنكَدِر وسالم أبي النضر عن عامر بن سعد؛ عن أسامة بن زيد، عن رسول الله ﷺ: أنَّه قال: «إن هٰذا الوجع (أو: السَّقَم) رجزٌ عُذِّبَ به بعضُ الأمم قبلَكم»(٢).

وروىٰ النسائيُّ وابن أبي حاتم -وهٰذا لفظُه- من حديث: الثوريِّ، عن حَبيب بن أبي ثابت، عن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه وأسامة بن زيد وخُزيمة بن ثابت؛ قالوا: قال رسول الله ﷺ: «الطاعونُ رِجْزٌ عُذِّبَ به مَن كان قبلَكم»(٣).

وقال الضحاك: عن ابن عباس: الرِّجْزُ العذاب. وكذا قال مجاهدٌ وأبو مالك والسُّدِّيُّ

---

(١) (صحيح). أما حديث أبي هريرة؛ فرواه ابن جرير في «التفسير» (١/ ٣٤٣/ ١٠٢١) من هذه الطريق، وقد تقدم الكلام عنه في الحاشية السابقة.

وأما حديث ابن عباس؛ فرواه ابن جرير أيضًا (١/ ٣٤٣/ ١٠٢٢): حُدِّثت (يعني: ابن إسحاق) عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ... فذكره. وهٰذا سند ضعيف: فيه انقطاع، ومحمد بن أبي محمد مولىٰ زيد بن ثابت مجهول.

لٰكن رواه: ابن جرير (١/ ٣٤٤/ ١٠٢٦ و١٠٣١ و١٠٣٥ و١٠٣٦)، وابن أبي حاتم (١/ ١١٩/ ٥٩٠)؛ من أوجه عدة عن ابن عباس موقوفًا بمجموعها. ثم مثله لا يقال من جهة الرأي: فإما أن يكون من كلام أهل الكتاب، وإما أن يكون من كلام النبي ﷺ. والذي يرجح هٰذا الأخير طريق ابن إسحاق الضعيفة المرفوعة، وحديث أبي هريرة المتقدم. والله أعلم.

(٢) رواه: البخاري (٩٠- الحيل، ١٣- ما يكره من الاحتيال، ١٢/ ٣٤٤/ ٦٩٧٤) من الطريق الأولىٰ و(٦٠- الأنبياء، ٥٤- باب، ٦/ ٥١٣/ ٣٤٧٣) من الطريق الأخرىٰ، ومسلم (٣٩- السلام، ٣٢- الطاعون والطيرة، ٤/ ١٧٣٧/ ٢٢١٨).

(٣) رواه: مسلم (الموضع السابق، ٤/ ١٧٣٩/ ٢٢١٨)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١/ ٤٣/ ٨٤- تحفة)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ١٢٠/ ٥٩١)؛ من طريق الثوري... به فذكره.

والحسن وقَتادة. وقال أبو العالية: هو الغَضَبُ. وقال الشعبيُّ: الرِّجْزُ إمَّا الطاعونُ وإمَّا البردُ. وقال سعيدُ بن جُبير: هو الطاعون.

۞ [وفاة يوشع بن نون عَلَيْهِ السَّلَامُ]:

ولمَّا استقرَّتْ يدُ بني إسرائيل علىٰ بيت المقدس؛ استمرُّوا فيه، وبين أظهُرِهم نبيُّ الله يوشعُ يحكم بينَهم بكتاب الله التوراة، حتىٰ قَبَضَهُ الله إليه، وهو ابن مئة وسبع وعشرين سنة، فكانت مدة حياته بعد موسىٰ سبعًا وعشرين سنة.

۞ ۞ ۞

[قصة الخضر عليه السلام]

ذِكْرُ قصَّتَي الخَضِرِ وإلياسَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

أمَّا الخَضِرُ؛ فقد تقدَّم أنَّ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَحَلَ إليه في طلبِ ما عنده من العلم اللَّدُنِّيِّ، وقصَّ الله من خبرِهما في كتابه العزيز في سورة الكهف، وذكَرْنا في تفسير ذٰلك هنالك، وأوردنا هنا[1] ذِكْرَ الحديث المُصَرِّح بذِكْرِ الخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنَّ الذي رَحَلَ إليه هو موسىٰ بنُ عمران نَبِيُّ بَني إسرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي أُنْزِلَتْ عليه التوراة.

[ذكر الخلاف في اسمه ونسبه عَلَيْهِ السَّلَامُ]:

وقد اختلف في الخَضِر؛ في اسمه، ونسبه، ونبوَّته، وحياته إلىٰ الآن... علىٰ أقوال سأذكُرُها لك هاهُنا إن شاء الله وبحولِهِ وقوتِهِ:

قال الحافظُ ابنُ عساكر[2]: يُقالُ: إنَّه الخَضِرُ بن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لصُلْبه. ثم روىٰ من طريق: الدارقطنيِّ، حدثنا محمدُ بن الحسن[3] القَلانِسِيُّ، حدثنا العباسُ بن عبد الله التَّرْقُفِيُّ[4]، حدثنا رَوَّادُ بن الجَرَّاح، حدثنا مقاتلُ بن سليمان، عن الضَّحَّاك، عن ابن عباس؛ قال: الخَضِرُ ابنُ آدمَ لِصُلْبِهِ، ونُسِئَ له في أجَلِهِ حتىٰ يكذِّبَ الدَّجَّال. وهٰذا منقطعٌ وغريبٌ[5]. وقال أبو حاتم سَهْلُ بن محمدِ بن عثمانَ السِّجِسْتانيُّ: سمعتُ مشيخَتَنا -منهم أبو عُبَيْدَةَ وغيرُه-؛ قالوا: إنَّ أطولَ بني آدمَ عُمُرًا الخضرُ، واسمه خَضِرونُ بنُ قابيلَ بن آدمَ. قال[6]: وَذَكَرَ ابنُ

---

(١) يعني: في هٰذا الكتاب، وقد تقدم ذلك في (٤٣١ - ٤٣٦).

(٢) في «التاريخ» (١٦/ ٣٩٩).

(٣) في جميع الأصول: «الفتح»! والتصويب من «تاريخ ابن عساكر». ولم أعرفه.

(٤) في جميع الأصول: «الرومي»! والتصويب من «تاريخ ابن عساكر». وله ترجمة في «السير» (١٣/ ١٢).

(٥) بل هو موضوع على ابن عباس: روَّاد: اختلط بآخره فترك. ومقاتل بن سليمان: كذبوه وهجروه. والضحاك: لم يسمع من ابن عباس. وقال الحافظ في «الفتح» (٦/ ٤٣٣/ ٣٤٠٢): «ضعيف منقطع».

(٦) ما زال الكلام لابن عساكر.

إسحاقَ: أنَّ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لمَّا حَضَرَتْهُ الوفاةُ؛ أخبر بنيه أن الطُّوفانَ سيقعُ بالناس، وأوصاهم إذا كان ذٰلك أن يحمِلوا جَسَدَه معهم في السفينة، وأن يدفَنوه معهم في مكان عَيَّنَه لهم، فلمَّا كان الطُّوفان؛ حملوه معهم، فلمَّا هبطوا إلىٰ الأرض؛ أمر نوحٌ بنيه أن يذهبوا ببدنِهِ فيدفِنوه حيث أوصىٰ، فقالوا: إنَّ الأرض ليس بها أنيسٌ وعليها وَحْشَةٌ! فحرَّضَهم وحثَّهم علىٰ ذٰلك، وقال: إنَّ آدمَ دعا لِمَنْ يلي دفنَه بطول العُمُر. فهابوا المسيرَ إلىٰ ذٰلك الموضع في ذٰلك الوقت، فلم يزلْ جسدُهُ عندَهم، حتىٰ كان الخَضِرُ هو الذي تولَّىٰ دَفْنَه، وأنجز اللهُ ما وَعَدَه؛ فهو يحيا إلىٰ ما شاء الله لهُ أن يحيا. وذكر ابن قُتيبة في «المعارف»(١) عن وَهْب بن مُنَبِّه: أنَّ اسمَ الخَضِرِ بَلْيا (**ويقال**: إيليا) بن مَلْكان بن فالغ بن عابرَ بن شَالَحَ بن أَرْفَخْشَدَ بن سام بن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ. **وقال إسماعيلُ بنُ أبي أويس**: اسمُ الخَضِرِ -فيما بلغنا والله أعلم- المُعَمَّرُ بن مالكِ بن عبد الله بن نصرِ بن الأزدِ. **وقال غيرُهُ**: هو خَضِرون بن عمياييل بن أليفازَ بن العيصِ بن إسحاقَ بنِ إبراهيم الخليل. **ويُقال هو**: إرْمِيًّا بن حَلْقِيًّا. فالله أعلم. **وقيل**: إنَّه كان ابنَ فرعون صاحب موسىٰ مَلِكِ مصر. وهٰذا غريب جدًّا! قال ابن الجوزي: رواه محمدُ بن أيوب عن ابن لَهيعة، وهما ضعيفان. **وقيل**: إنَّه ابنُ مالك، وهو أخو إلياس. قاله السُّدِّيُّ كما سيأتي. **وقيل**: إنَّه كان علىٰ مقدِّمةِ ذي القرنين. **وقيل**: كان ابنَ بعض مَن آمَنَ بإبراهيم الخليل وهاجر معه. **وقيل**: كان نبيًّا في زمن بشتاسب بن لهراسب. قال ابنُ جرير(٢): والصحيحُ أنَّه كان متقدِّمًا في زمن أفريدون بن إثفيان، حتىٰ أدركه موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وروىٰ الحافظُ ابنُ عساكر(٣) عن سعيد بن المسيَّب: أنَّه قال: الخَضِرُ؛ أمُّه روميَّة، وأبوه فارسيٌّ.

وقد وردَ ما يدلُّ علىٰ أنَّه كان من بني إسرائيل في زمان فرعونَ أيضًا:

قال أبو زُرعة في «دلائل النبوة»: حدثنا صفوانُ بن صالح الدمشقيُّ، حدثنا الوليدُ، حدثنا سعيدُ بن بشيرٍ، عن قَتادة، عن مجاهدٍ، عن ابن عباس، عن أُبيِّ بن كعبٍ، عن رسول الله ﷺ: أنَّه ليلةَ أُسْرِيَ به؛ وجد رائحةً طيبةً، فقال: «**يا جبريلُ! ما هٰذه الرائحةُ الطيبةُ؟**». قال: هٰذه ريح

(١) ونقله عنه ابن عساكر في «التاريخ» (١٦/ ٣٩٩).

(٢) في «تاريخه» (١/ ٢٢٥).

(٣) في «تاريخه» (١٦/ ٤٠١).

قبر الماشطة وابنَيْها وزوجِها. وقال: «وكان بدءُ ذٰلك أنَّ الخَضِرَ كان من أشراف بني إسرائيل، وكان ممرُّه براهبٍ في صومعته، فتطلَّع عليه الراهبُ، فعلَّمه الإسلامَ، فلمَّا بلغ الخَضِرُ؛ زوَّجه أبوه امرأةً، فعلَّمَها الإسلام، وأخذ عليها ألَّا تُعْلِمَ أحدًا، وكان لا يَقْرَبُ النساء، ثم طَلَّقَها، ثم زوَّجه أبوه بأخرى، فعلَّمها الإسلامَ، وأخذ عليها ألا تُعْلِمَ أحدًا، ثم طَلَّقَها، فكتمتْ إحداهُما وأفشتْ عليه الأخرى، فانطلق هاربًا، حتى أتى جزيرةً في البحر، فأقبل رجلانِ يحتطبانِ، فرأياه، فكَتَمَ أحدُهما وأفشى عليه الآخرُ؛ قال: قد رأيتُ الخَضِرَ. قيل: ومَنْ رآه معك؟ قال: فلانٌ. فسُئِلَ؟ فكَتَمَ، وكان من دينهم أنَّه مَنْ كَذَبَ قُتِلَ، فقُتِل، وكان قد تزوَّج الكاتمُ المرأةَ الكاتمةَ. قال: فبينما هي تمشُطُ بنتَ فرعون؛ إذ سَقَطَ المِشْطُ من يدِها، فقالتْ: تَعِسَ فرعونُ. فأخبرتْ أباها، وكان للمرأةِ ابنانِ وزوجٌ، فأرسل إليهم، فراودَ المرأة وزوجَها أن يرجِعا عن دينِهما، فأبيا، فقال: إني قاتِلُكُما، فقالا: إحسانٌ منكَ إلينا إنْ أنتَ قَتَلْتَنا أن تَجْعَلَنا في قبرٍ واحدٍ. فجَعَلَهما في قبرٍ واحد». فقال: «وما وجدت ريحا أطيب منهما، وقد دخلت الجنة»[(١)]. وقد تقدَّمت قصةُ مائلة[(٢)] بنتِ فرعونَ، وهٰذا المشط في أمر الخَضِرِ قد يكون مُدْرَجًا من كلام أُبيٍّ بن كعب أو عبد الله بن عباس. والله أعلم.

وقال بعضُهم: كنيتُهُ أبو العباس، والأشبه -واللهُ أعلم- أنَّ الخَضِرَ لقبٌ غَلَبَ عليه.

قال البخاري[(٣)] رَحِمَهُ اللَّهُ: حدثنا محمدُ بن سعيد الأصبهانيُّ، حدثنا ابنُ المباركِ، عن مَعْمَرٍ، عن همَّام، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ؛ قال: «إنَّما سُمِّيَ الخَضِرُ لأنَّه جلس على فروةٍ بيضاء؛ فإذا هي تهتزُّ من خلفِهِ خضراءَ». تفرَّد به البخاريُّ. وكذٰلك رواه عبدُالرزاق عن مَعْمَرٍ... به.

---

(١) (منكر). رواه: أحمد (١/ ٣٠٩)، وابن ماجه (٣٦- الفتن، ٢٣- الصبر على البلاء، ٢/ ١٣٢٧/ ٤٠٣٠)؛ من طريق الوليد بن مسلم... به، فذكره.

قال البوصيري في «الزوائد»: «في إسناده سعيد بن بشير: قال فيه البخاري: يتكلمون في حفظه. وقال أبو حاتم: سمعت أبي وأبا زرعة؛ قالا: محله الصدق عندنا. قلت: يحتجُّ به؟ قالا: لا. وضعفه غيرهم». قلت: هو ضعيف قطعًا في حديثه عن قتادة، وهٰذا منه، وقد ضعفه الحافظ في «التقريب» على العموم. وقد جاءت قصة الماشطة من أوجه أخرى تفيد أن لها أصلًا، لٰكن ليس في شيء منها ذكر للخضر؛ فذكره في هٰذا السياق منكر. وقد ضعفه الألباني.

(٢) كذا في جميع الأصول! وما علمت لفرعون ابنة اسمها مائلة! وإنما ورد ذكر دربتة ابنة فرعون، وليس هناك قصة لها. وربما كانت محرفة عن «ماشطة»، ولٰكنه لم يرد لها ذكر قبل الآن. فالله أعلم.

(٣) (٦٠- الأنبياء، ٢٧- حديث الخضر مع موسى، ٦/ ٤٣٣/ ٣٤٠٢).

ثم قال عبدُالرزاق: الفروةُ: الحشيشُ الأبيضُ وما أشبهَ؛ يعني: الهشيمَ اليابسَ. وقال الخطابيُّ: وقال أبو عُمَرَ: الفروةُ: الأرضُ البيضاءُ التي لا نباتَ فيها. وقال غيرُه: هو الهشيمُ اليابسُ شَبَّهه بالفروة، ومنه قيل: فروةُ الرأس، وهي جلدتُهُ بما عليها من الشَّعَر؛ كما قال الراعي:

وَلَقَدْ تَرى الحَبَشِيَّ حَوْلَ بُيوتِنا جـذِلًا إذا ما نالَ يَوْمًا مَأكَلا
صَعْلًا أَسَكَّ كَأَنَّ فَرْوَةَ رأسِهِ بذِرَتْ فأَنْبَتَ جانِباه فُلْفُلا[١]

قال الخطابيُّ: ويقالُ: إنَّما سُمِّي الخَضِر خَضِرًا لحسنِهِ وإشراقِ وجهِهِ. قلتُ: وهٰذا لا ينافي ما ثبت في الصحيح، فإن كان ولا بدَّ من التعليل بأحدِهما؛ فما ثبتَ في الصحيح أولىٰ وأقوىٰ، بل لا يُلْتَفَتُ إلىٰ ما عداه.

وقد روىٰ الحافظُ ابنُ عساكر[٢] هٰذا الحديثَ أيضًا من طريق: أبي إسماعيلَ حفص بن عمرَ الأُبُلِّي[٣]، حدثنا عثمانُ وأبو جزيٍّ وهمَّام بن يحيىٰ، عن قَتادة، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل، عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ؛ قال: «**إنَّما سُمِّيَ الخَضِرُ خَضِرًا؛ لأنَّه صلَّى على فروةٍ بيضاءَ، فاهتزَّتْ خضراءَ**»[٤]. وهٰذا غريبٌ من هٰذا الوجه.

وقال قَبيصةُ: عن الثوريِّ، عن منصورٍ، عن مجاهدٍ؛ قال: إنَّما سُمِّيَ الخَضِرَ؛ لأنَّه كان إذا صلَّىٰ؛ اخضرَّ ما حولَه.

۞ [ذكر الخلاف في نبوة الخضر وولايته]:

وتقدم أن موسىٰ ويوشع عليهما السلام لمَّا رَجعا يَقُصَّانِ الأثَرَ؛ وَجَداه علىٰ طِنْفِسَةٍ خضراءَ، علىٰ كَبِدِ البحرِ، وهو مسجًّىٰ بثوب[٥]، قد جعَلَ طرفاه من تحت رأسِهِ وقدميه، فسلَّم موسىٰ عليه السلام،

---

(١) الصَّعْل: دقيق الرأس والعنق، ووقع في بعض الطبعات: «جعدًا». والأسكّ: صغير الأذنين ملزقهما بالرأس، ووقع في بعض الطبعات: «أصك». وقد أثبت البيتين كما هما في «تاريخ ابن عساكر» (١٦/ ٤٠٢)، وهما في «الديوان» (ص٢٥٠) باختلاف يسير.

(٢) في «التاريخ» (١٦/ ٤٠٢).

(٣) في جميع الأصول: «من طريق إسماعيل بن حفص بن عمر الأيْلي»! والتصويب من «تاريخ ابن عساكر» (١٦/ ٤٠٢). وله ترجمة مظلمة في «الميزان» و«اللسان».

(٤) (ضعيف جدًّا). رواه ابن عساكر (١٦/ ٤٠٢) من طريق حفص بن عمر... به، فذكره. وحفص بن عمر هٰذا كذَّبوه واتهموه؛ فالسند شديد الضعف؛ فلا يصلح ليتقوىٰ بحديث أبي هريرة المتقدم، ولا كرامة.

(٥) الطِّنْفِسَة: بساط له خمل. كبِد البحر: وسطه. مسجًّىٰ بثوب: قد لف بدنه به.

فكشفَ عن وجهِهِ، فردَّ، وقال: أنَّىٰ بأرضِكَ السلامُ؟ من أنت؟ قال: أنا موسىٰ. قال: نَبِيُّ بَنِي إسرائيلَ؟ قال: نعم... فكان من أمرِهما ما قصَّه اللهُ في كتابِهِ عنهما[١].

وقد دلَّ سياق القصَّة علىٰ نبوَّتِهِ من وجوه:

أحدُها: قولُه تعالىٰ: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: ٦٥].

الثاني: قول موسىٰ له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف: ٦٦-٧٠]؛ فلو كان وليًّا وليس بنبيٍّ؛ لم يخاطِبْه موسىٰ بهٰذه المخاطبة، ولم يردَّ علىٰ موسىٰ هٰذا الردَّ، بل موسىٰ إنَّما سأل صُحبته لينالَ ما عندَه من العلم الذي اختصَّه الله به دونَه؛ فلو كان غير نبيٍّ؛ لم يكن معصومًا، ولم تكن لموسىٰ - وهو نبيٌّ عظيم ورسولٌ كريم واجبُ العصمة - كبيرُ رغبة ولا عظيمُ طَلِبة في علم وليٍّ غيرِ واجب العصمة، ولَمَا عَزَمَ علىٰ الذَّهاب إليه والتفتيش عنه ولو أنَّه يمضي حُقُبًا من الزمان - قيلَ: ثمانينَ سنةً[٢] -، ثم لمَّا اجتمع به؛ تواضَعَ له وعظَّمه واتَّبعه في صورة مستفيدٍ منه، فدلَّ علىٰ أنَّه نبيٌّ مثلُه؛ يوحىٰ إليه كما يوحىٰ إليه، وقد خُصَّ من العلوم اللَّدُنِّيَّة والأسرار النبويَّة بما لم يُطْلِعِ اللهُ عليه موسىٰ الكَليم، نَبيَّ بَنِي إسرائيلَ الكريم. وقد احتجَّ بهٰذا المسلكِ بعينِهِ الرُّمَّانيُّ علىٰ نبوَّة الخَضِر عليه السلام.

الثالث: أن الخَضِرَ أقدم علىٰ قتل ذٰلك الغلام، وما ذاك إلَّا للوحي إليه من المَلِكِ العلَّام، وهٰذا دليلٌ مستقلٌّ علىٰ نبوَّتِه، وبرهانٌ ظاهرٌ علىٰ عصمتِه؛ لأنَّ الوليَّ لا يجوزُ له الإقدامُ علىٰ قتل النفوس بمجرَّدِ ما يُلقىٰ في خَلَدِه؛ لأنَّ خاطِرَه ليس بواجب العصمة؛ إذ يجوزُ عليه الخطأ بالاتِّفاق، ولمَّا أقْدَمَ الخضرُ علىٰ قتل ذٰلك الغلام الذي لم يَبْلُغ الحُلُم -علمًا منه بأنَّه إذا بَلَغ

---

(١) انظر ما تقدم (ص٤٣١-٤٣٦).

(٢) يعني: أن موسىٰ قد عزم أن يفتش عن الخضر عليه السلام ولو امتد به ذلك إلىٰ سبعين أو ثمانين أو أكثر من السنين، لا أنه الذي حصل في نفس الأمر! فمعلوم أن موسىٰ ﷺ لم يترك بني إسرائيل ويجوب القفار مثل هذه المدة ولا دونها بكثير! وإذا كان قد غاب عن بني إسرائيل أربعين يومًا فعبدوا العجل؛ فكيف لو غاب سنة أو سنتين أو ثمانين سنة؟!

يكفُرُ، ويحمِلُ أبويه على الكفرِ لشدَّة محبَّتِهما له فيتابعانِهِ عليه؛ ففي قتلِهِ مصلحةٌ عظيمةٌ تربو على بقاء مُهجتِهِ؛ صيانةً لأبويه عن الوقوع في الكفرِ وعقوبتِه-؛ دلَّ ذلك على نبوَّته، وأنَّه مؤيَّد من الله بعصمتِهِ. وقد رأيتُ الشيخ أبا الفرج بنَ الجوزيِّ طَرَقَ هذا المسلَك بعينه في الاحتجاج على نبوَّة الخضر وصَحَّحَه، وحكى الاحتجاجَ عليه الرمانيُّ أيضًا.

الرابع: أنَّه لَمَّا فَسَّرَ الخَضِرُ تأويلَ تلك الأفاعيل لموسى، ووضَّح له عن حقيقةِ أمرِهِ وجَلَّى؛ قال بعد ذلك كلِّه: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ﴾ [الكهف: ٨٢]؛ يعني: ما فعلتُهُ من تِلْقاء نفسي، بل أمرٌ أُمِرْتُ به وأوحي إليَّ فيه.

فدلَّت هذه الوجوه على نبوَّتِهِ، ولا ينافي ذلك حصولَ ولايتِهِ، بل ولا رسالتِهِ؛ كما قاله آخرون. وأما كونُهُ مَلَكًا من الملائكة؛ فقولٌ غريبٌ جدًّا.

وإذا ثبتتْ نبوَّتُه -كما ذكرناه-؛ لم يبقَ لِمَنْ قال بولايتِهِ وأنَّ الوليَّ قد يطَّلِع على حقيقةِ الأمور دون أربابِ الشرع الظاهر مُسْتَنَدٌ يستَنِدون إليه ولا مُعْتَمَدٌ يعتَمِدونَ عليه(١).

۞ [ذكر الأدلة التي احتج بها من يرى حياة الخضر إلى يومنا هذا]:

وأمَّا الخلافُ في وجودِهِ إلى زمانِنا هذا؛ فالجمهورُ على أنَّه باقٍ إلى اليوم(٢): قيل: لأنَّه دَفَنَ آدمَ بعد خروجِهِم من الطُّوفانِ فنالتْه دعوةُ أبيه آدمَ بطول الحياةِ! وقيل: لأنَّه شربَ من عين الحياة فحَيِيَ! وذكروا أخبارًا استشهدوا بها على بقائِهِ إلى الآن، وسنورِدُها مع غيرِها إنْ شاء الله تعالى وبه الثقةُ.

وهذه وصيَّتُهُ لموسى حين: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف: ٧٨]: روي في ذلك آثارٌ منقطعةٌ كثيرةٌ:

---

(١) رحم الله الحافظ ابن كثير رحمة واسعة؛ فقد نسف باستدلاله هذا الأسس والقواعد التي بنى عليها الصوفية مذهبهم الباطل الفاسد في تعظيم الشيوخ بل تعظيم كثير من الفساق والماجنين والمجرمين، ورفعهم فوق خيار خلق الله وصفوتهم، بل أسبغوا عليهم كثيرًا من الأوصاف التي لا تنبغي إلا لله ﷻ.

(٢) ما أدري من هم هؤلاء الجمهور؟! أهم جمهور الصحابة؟ أم جمهور التابعين؟ أم الأئمة الأربعة؟ أم الأئمة الستة؟ أم أهل التفسير؟ أم أهل الحديث؟ أم جمهور الصوفية والمخرفين؟ هذه دعوى طويلة عريضة لا يصمد عُظْمُها عند البحث والتمحيص والتدقيق في النقلة والأسانيد، وما أظن المقام يتسع للتوسع فيها هنا، وإنما أشرت لذلك إشارة، وحسب البيب الإشارة.

قال البيهقي[١]: أنبأنا أبو سعيدِ بنُ أبي عمرٍو، حدثنا أبو عبد الله الصفَّارُ، حدثنا أبو بكر بنُ أبي الدُّنيا، حدثنا إسحاقُ بن إسماعيل، حدثنا جريرٌ، حدثني أبو عبد الله المَلَطِيُّ؛ قال: لمَّا أراد موسىٰ أن يفارِقَ الخَضِر؛ قال له موسىٰ: أوْصِني! قال: كُنْ نفَّاعًا ولا تكنْ ضَرَّارًا، كنْ بشَّاشًا ولا تَكُنْ غضبانَ، ارجعْ عن اللَّجاجة ولا تمشِ في غير حاجة! وفي روايةٍ من طريقٍ أخرىٰ زيادةُ: ولا تَضْحَكْ إلَّا من عجب!

وقال وَهْبُ بن مُنَبِّهٍ: قال الخَضِرُ: يا موسىٰ! إنَّ الناس معذَّبون في الدنيا علىٰ قدر همومِهم بها.

وقال بشرُ بن الحارثِ الحافي: قال موسىٰ للخَضِرِ: أوصِني! فقال: يَسَّرَ الله عليك طاعتَهَ.

وقد ورد في ذٰلك حديثٌ مرفوعٌ رواه ابنُ عساكِرَ من طريق: زكريَّا بن يحيىٰ الوَقار[٢] (إلَّا أنَّه من الكذَّابين الكبار)؛ قال: قُرِئَ علىٰ عبدِالله بن وَهْبٍ وأنا أسمعُ: قال الثوريُّ: قال مُجالِدٌ: قال أبو الوَدَّاكِ: قال أبو سعيدٍ الخدريُّ: قال عمرُ بن الخطاب: قال رسولُ الله ﷺ **«قال أخي موسى: يا ربِّ! (وذَكَرَ كَلِمَةً)[٣]. فأتاه الخَضِرُ، وهو فتًى طيِّبُ الريح حسنُ بياض الثياب مشمَّرُها، فقال: السلامُ عليكَ ورحمةُ الله يا موسى بنَ عمرانَ! إنَّ ربَّك يقرأ عليكَ السلامَ. قال موسى: هو السلامُ، وإليه السلامُ، والحمدُ لله ربِّ العالمين؛ الذي لا أُحصي نِعَمَه، ولا أقدِرُ على أداءِ شكرِهِ إلَّا بمعونتِه. ثمَّ قال موسى: أريدُ أن توصِيَني بوصيةٍ يَنْفَعني الله بها بعدَك. فقال الخَضِرُ: يا طالبَ العلم! إنَّ القائلَ أقلُّ ملالةً من المستمع؛ فلا تُمِلَّ جلساءك إذا حدَّثْتَهم. واعلم أنَّ قلبك وعاءٌ؛ فانْظُرْ ماذا تحشو به وعاءك؟ واعزِفْ عن الدُّنيا وانبِذْها وراءك؛ فإنَّها ليست لك بدار، ولا لك فيها محلُّ قَرار، وإنَّما جُعِلَتْ بُلْغَةً للعباد والتزوُّدِ منها ليوم المعاد. وَرُضْ نفسَك على الصبر؛ تخلُصْ من الإثم. يا موسى! تفرَّغْ للعلم إن كنتَ تريدُه؛ فإنَّما العلمُ لِمَنْ تفرَّغَ له. ولا تكنْ مِكْثارًا بالمنطقِ[٤] مِهْذارًا؛ فإنَّ كثرة المنطقِ تَشينُ**

(١) ومن طريقه ابن عساكر في «التاريخ» (١٦/ ٤١٦)، وروىٰ أيضًا ما يليه من كلام وهب وبشر.

(٢) في جميع الأصول: «الوقَّاد»! والتصويب من ابن عساكر و«الميزان» و«اللسان».

(٣) في جميع الأصول: «وذكر كلمته». والتصويب من «تاريخ ابن عساكر»، والمعنىٰ: ذكر موسىٰ عليه السلام كلمةً علَّمه الله إياها يُسْتَحْضَر بها الخضر عليه السلام، فأتاه الخضر علىٰ إثرها!!

(٤) في جميع الأصول: «مكثارًا للعلم»! ولا يستوي هٰذا؛ إلا أن يكون واضع هٰذا الحديث صوفيًّا محترقًا، والتصويب من «تاريخ ابن عساكر».

العلماء وتبدي مساوِئَ السُّخفاء. ولكن عليك بالاقتصاد؛ فإنَّ ذٰلك من التوفيق والسَّداد. وأعرِضْ عن الجُهَّال وباطِلِهم(١) واحْلُمْ عن السفهاء؛ فإنَّ ذٰلك فعلُ الحكماء وزَيْنُ العلماء. وإذا شتمكَ الجاهلُ؛ فاسكُتْ عنه حِلْمًا، وجانِبْه حَزْمًا؛ فإنَّ ما بقي من جهلِهِ عليك وسبِّه إيَّاك أكثرُ وأعظمُ. يا ابنَ عمران! ولا ترى أنك أوتيت من العلم إلَّا قليلًا؛ فإنَّ الاندلاث(٢) والتعسُّف من الاقتحام والتكلُّف. يا ابن عمران! لا تفتحنَّ بابًا لا تدري ما غَلْقُه، ولا تغلقنَّ بابًا لا تدري ما فَتْحُه. يا ابنَ عمران! مَن لا تنتهي من الدُّنيا نَهْمَتُه، ولا تنقضي منها رغبتُه، ومن يَحْقِرُ حالَه، ويتَّهِمُ الله فيما قضى له؛ كيف يكون زاهدًا؟! هل يكُفُّ عن الشهوات من غلب عليه هواه؟! أو ينفعُهُ طلبُ العلم والجهل قد حواه؟! لانَ سعيُه إلى آخرتِهِ وهو مقبلٌ على دنياه. يا موسى! تعلَّمْ ما تعلَّمْتَ لتعملَ به، ولا تَعَلَّمْهُ لتحدِّثَ به؛ فيكونَ عليك بوارُه، ولغيرك نورُه. يا موسى بنَ عمران! اجعل الزُّهدَ والتقوى لِباسَك، والعلم والذِّكْرَ كلامَك، واستكثِرْ من الحسناتِ؛ فإنك مصيبٌ السيئات، وزعزِعْ بالخوف قلبَك؛ فإنَّ ذٰلك يُرضي ربَّك، واعملْ خيرًا؛ فإنَّك لا بدَّ عاملٌ سوءًا، قد وُعِظْتَ إن حَفِظْتَ». قال: «فتولَّى الخَضِرُ وبقي موسى محزونًا مكروبًا يَبْكي»(٣).

لا يصحُّ هٰذا الحديثُ، وأظنُّه من صَنْعَةِ زكريَّا بن يحيىٰ الوقَارِ(٤) المصريِّ، وقد كذَّبه غيرُ واحدٍ من الأئمة، والعَجَبُ أنَّ الحافظ ابن عساكر سَكَتَ عنه.

وقال الحافظُ أبو نعيم الأصبهانيُّ: حدَّثنا سليمانُ بن أحمدَ بن أيوبَ الطبرانيُّ، حدثنا عمرو بن إسحاقَ بنِ إبراهيم بن العلاء الحمصيُّ، حدثنا محمدُ بن الفضل بن عمرانَ الكنديُّ، حدثنا بقيةُ بنُ الوليدِ، عن محمد بن زيادٍ، عن أبي أمامة: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال

---

(١) في جميع الأصول: «وماطِلْهم»! والتصويب من «تاريخ ابن عساكر».

(٢) الاندلاث: التعجل والتقدم بلا فكرة ولا رويَّة.

(٣) (موضوع). رواه: ابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٠٧٢) وابن عساكر في «التاريخ» (١٦/ ٤١٤)، وفي سنده: مجالدٌ، وهو ضعيف. ولٰكن الآفة كما ترىٰ من زكريا بن يحيىٰ الوَقَّار؛ فقد كذَّبه عدد من أهل العلم، وقال ابن عدي: «يضع الحديث». ثم آيات الصنعة ظاهرة علىٰ المتن. والظاهر أنه من كلام بعض المتأخرين، فركب له هٰذا سندًا وجعله مرفوعًا.

(٤) في جميع الأصول: «الوقَّاد»! وقد تقدم الكلام في تصويبه.

لأصحابه: «ألا أحدِّثُكُم عن الخضِرِ؟». قالوا: بلىٰ يا رسول الله! قال: «بينما هو ذاتَ يوم يمشي في سوق بني إسرائيلَ؛ أبصَرَه رجل مكاتَبٌ[١]، فقال: تصدَّقْ عليَّ بارك الله فيك! فقال الخَضِرُ: آمنتُ بالله، ما شاء اللهُ من أمرٍ يكونُ، ما عندي من شيءٍ أُعطيكَه. فقال المسكينُ: أسألُك بوجهِ الله لَما تصدَّقْتَ عليَّ؛ فإنِّي نظرتُ إلى السيماءِ[٢] في وجهِك، ورجوتُ البركة عندَك. فقال الخَضِرُ: آمنتُ بالله، ما عندي شيءٌ أُعطيكَه؛ إلَّا أن تأخُذَني فتبيعَني. فقال المسكينُ: وهل يستقيمُ هٰذا؟ قال: نعم؛ الحقَّ أقولُ لك، لقد سألتني بأمرٍ عظيم، أما إنِّي لا أُخيِّبُك بوجه ربِّي؛ بِعْني. قال: فقدَّمه إلى السوق، فباعه بأربعِ مئة درهم، فمكثَ عندي المشتري زمانًا لا يستعمِلُه في شيء، فقالَ له: إنَّك إنَّما ابتَعْتَني التماسَ خيرٍ عندي؛ فأوصِني بعمل. قال: أكرهُ أن أَشُقَّ عليك؛ إنَّك شيخٌ كبيرٌ ضعيفٌ. قال: ليس يَشُقُّ عليَّ. قال: فانقُلْ هٰذه الحجارة. وكان لا يَنْقُلُها دونَ ستةِ نفرٍ في يوم. فخرج الرجلُ لبعض حاجاتِه، ثم انصرفَ وقد نَقَلَ الحجارةَ في ساعةٍ! فقال: أحسنتَ وأجملتَ وأطَقْتَ ما لم أرك تُطيقُه. ثم عَرَضَ للرجل سفرٌ، فقال: إني أحسِبُك أمينًا؛ فاخْلُفْني في أهلي خلافةً حسنةً. قال: فأوصِني بعمل. قال: إني أكرهُ أن أَشُقَّ عليك. قال: ليس تَشُقُّ عليَّ. قال: فاضرِبْ من اللَّبِنِ لبيتي حتى أقدُمَ عليك. فمضى الرجل لسفرِه، فرجع وقد شُيِّدَ بناؤه. فقال: أسألُك بوجهِ الله؛ ما سبيلُك وما أمرُك؟ فقال: سألتني بوجهِ الله، والسؤالُ بوجهِ الله أوقعني في العبوديَّةِ، سأخبِرُك من أنا، أنا الخَضِرُ الذي سمعتَ به، سألني مسكينٌ صدقةً، فلم يَكُنْ عندي من شيء أعطيه، فسألني بوجهِ الله، فأمكنتُهُ من رَقَبتي، فباعني. وأخبِرُكَ أنَّه مَنْ سُئِلَ بوجه الله، فردَّ سائِلَهُ وهو يقدِرُ؛ وقف يومَ القيامة جِلْدَةً لا لحمَ له ولا عظمَ يتقعقعُ[٣]. فقال الرجلُ: آمنتُ بالله، شققتُ عليك يا نبيَّ الله ولم أعلَمْ. فقال: لا بأسَ؛ أحسنتَ وأبقيتَ. فقال الرجلُ: بأبي وأمي يا نبيَّ الله! احكُمْ في أهلي ومالي بما أراكَ اللهُ، أو أخيِّرُك فأُخلي سبيلك؟ فقال: أحبُّ أن تخليَ سبيلي فأعبدَ ربي. فخلَّى سبيلَه،

---

(١) المكاتب: المملوك يتفق مع سيده علىٰ العتق مقابل مبلغ من المال؛ فهو يسعىٰ ويعمل لتسديد هٰذا المبلغ.

(٢) في جميع الأصول: «السماء»! والتصويب من «تاريخ ابن عساكر»، ويؤكده ما جاء عند ابن العديم في «بغية الطلب» (٧/ ٣٢٩٧): «سيماء الخير». عن حاشية ابن عساكر.

(٣) يتقعقع: يضطرب ويتحرك.

فقال الخَضِرُ: الحمدُ لله الذي أوقعني في العبوديَّةِ ثم نجَّاني منها»(١).

وهٰذا حديثٌ رفعُهُ خطأ، والأشبه أن يكون موقوفًا، وفي رجاله من لا يُعْرَفُ، فالله أعلم.

وقد رواه ابنُ الجوزيِّ في كتابه «عُجالة المنتظِر في شرح حال الخضِر» من طريق: عبد الوهاب بن الضحاك وهو متروك عن بقيَّةَ.

وقد روىٰ الحافظُ ابنُ عساكرَ(٢) بإسنادِهِ إلىٰ السُّدِّيِّ: أنَّ الخَضِرَ وإلياسَ كانا أخوين، وكان أبوهما مَلِكًا، فقال إلياسُ لأبيه: إنَّ أخي الخَضِرَ لا رغبةَ له في المُلك؛ فلو أنَّك زوَّجْتَه؛ لعلَّه يجيءُ منه ولدٌ يكون المُلْكُ له. فزوَّجه أبوه بامرأةٍ حسناء بكرٍ، فقال لها الخَضِرُ: إنَّه لا حاجةَ لي في النساء؛ فإن شئتِ؛ أطلقتُ سراحَك، وإن شئتِ؛ أقمتِ معي تعبُدين الله ﷻ وتكتُمين عليَّ سِرِّي. فقالت: نعم. وأقامتْ معه سنةً، فلمَّا مضتِ السنةُ؛ دعاها المَلِكُ، فقال: إنَّك شابةٌ وابني شابٌ؛ فأين الولدُ؟ فقالت: إنَّما الولدُ من عند الله؛ إن شاء كانَ وإن لم يشأ لم يكنْ. فأمره أبوه، فطَلَّقها، وزوَّجه بأخرىٰ ثيِّبًا قد وُلِدَ لها، فلما زُفَّتْ إليه؛ قال لها كما قال للتي قبلَها، فأجابتْ إلىٰ الإقامةِ عنده، فلمَّا مضتِ السنةُ؛ سألَها المَلَكُ عن الولد؟ فقالت: إنَّ ابنَك لا حاجةَ له بالنساء! فتطَلَّبه أبوه، فهربَ، فأرسل وراءه، فلم يقدِروا عليه، فيُقال: إنَّه قتَلَ المرأةَ الثانية؛ لكونِها أفشتْ سرَّه، فهربَ من أجل ذٰلك!! وأطلق سراحَ الأخرىٰ، فأقامتْ تعبد الله في بعض نواحي تلك المدينة، فمرَّ بها رجلٌ يومًا، فسمعتْه يقولُ: باسم الله. فقالتْ له: أنَّىٰ لك هٰذا الاسمُ؟ فقال: إنِّي من أصحاب الخَضِر. فتزوَّجَتْه، فولدتْ له أولادًا، ثم صار من أمرِها أن صارت ماشطةَ بنتِ فرعونَ، بينما هي يومًا تمشُطُها؛ إذ وَقَعَ المشطُ من يدها، فقالت: باسم الله. فقالتِ ابنةُ فرعونَ:

---

(١) (ضعيف). رواه: ابن عدي في «الكامل» (٢/ ٥٠٨)، والطبراني (٨/ ١١٢/ ٧٥٣٠)، وابن عساكر في «التاريخ» (١٦/ ٤١٦)، وابن الجوزي في «عجالة المنتظر»؛ من طريق بقية... به، فذكره.

قال ابن عدي: «قال لنا أبو عمير: سألت ابن عوف عن هٰذا الحديث؟ فقال: حديث منكر، ومحمد بن زياد معروف، ولا يشبه حديثه. وهٰذا الحديث لا أعلم رواه عن بقية غير سلمان بن عبيدالله الرقي، وقد ادعاه عبد الوهاب بن الضحاك، فرواه عن بقية، وعبد الوهاب لا اعتماد عليه». وقال الهيثمي (٨/ ٢١٦): «رواه الطبراني، ورجاله موثقون؛ إلا أن بقية مدلس». وخطَّأ الحافظ ابن كثير رفع هٰذا الحديث كما ترىٰ. وقال الحافظ في «الإصابة» (١/ ٤٣٥/ ت ٢٢٧٠): «وسند هٰذا الحديث حسن لولا عنعنة بقية، ولو ثبت؛ لكان نصًا أن الخضر نبي؛ لحكاية النبي ﷺ قول الرجل: يا نبي الله! وتقريره علىٰ ذلك». فالسند ضعيف، والقصة منكرة.

(٢) في «تاريخه» (١/ ٤١٩). وسنده ضعيف علىٰ وقفه.

أبي؟ فقالت: لا؛ ربِّي وربُّك وربُّ أبيك الله. فأعلمتْ أباها، فأمر بنُقْرَةٍ[١] من نحاس فأُحْمِيَتْ، ثم أمر بها فأُلْقِيَت فيها، فلما عاينتْ ذٰلك؛ تقاعستْ أن تَقعَ فيها، فقال لها ابنٌ معها صغيرٌ: يا أمَّه اصبِري؛ فإنَّك علىٰ الحقِّ. فألقت نفسَها في النارِ، فماتتْ، رحمها الله.

وقد روىٰ ابنُ عساكرَ عن: أبي داوود الأعمىٰ نُفَيْعٍ (وهو كذابٌ وضاعٌ)، عن أنس بن مالك. ومن طريق كثيرِ بن عبد الله بن عمرو بن عَوْف (وهو كذابٌ أيضًا)، عن أبيه، عن جده: أن الخَضِرَ جاء ليلةً، فسمعَ النبيَّ ﷺ وهو يدعو ويقولُ: «**اللهمَّ! أعِنِّي على ما يُنْجيني ممَّا خَوَّفْتَني، وارزُقْني شَوْقَ الصالحين إلى ما شَوَّقْتَهم إليه**». فبعث إليه رسولُ الله ﷺ أنسَ بن مالك، فسلَّم عليه، فردَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقال: قُل له: إنَّ الله فضَّلك علىٰ الأنبياءِ كما فَضَّلَ شهرَ رمضان علىٰ سائرِ الشهور، وفضَّلَ أمَّتك علىٰ الأمم كما فضَّل يوم الجمعةِ علىٰ غيره... الحديث[٢].

---

(١) اختلف فيها هل هي بَقَرَة؛ بالباء، أو نُقْرة؛ بالنون، وقد ذكرها ابن منظور في «اللسان» علىٰ الوجهين، وهي -علىٰ أي الحالين- وعاء لتسخين الماء.

(٢) (موضوع). وقد جاء من حديث عمرو بن عوف وأنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا:

فاما حديث عمرو بن عوف؛ فرواه: ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢٠٨٣)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٤٢٣)، وابن عساكر (١٦/ ٤٢٢)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٩٣)؛ من طريق عبد الله بن نافع، عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف... به، فذكره. وعبد الله بن نافع هٰذا متروك صاحب مناكير. وكثير مجمع علىٰ ضعفه، ونسبه غير واحد إلىٰ الكذب، وله ترجمة مظلمة في «التهذيب»؛ فالسند ضعيف جدًّا. وقد ضعفه البيهقي، والحافظ في «الفتح» (٦/ ٤٣٥/ ٣٤٠٢)، وقال ابن الجوزي: «باطل» وقال السيوطي في «اللآلئ» (١/ ١٦٤): موضوع».

وأما حديث أنس؛ فرواه: ابن المنادي (١/ ٤٣٧- إصابة)، والطبراني في «الأوسط» (٤/ ٧٢/ ٣٠٩٥)، وابن عساكر (١٦/ ٤٢٢)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٩٤)؛ من طريق محمد بن سلَّام المنبجي، ثنا الوضاح بن عباد الكوفي، عن عاصم الأحول، عن أنس... فذكره. قال الطبراني: «لم يروه عن أنس إلا عاصم، ولا عنه إلا وضاح، تفرد به محمد بن سلَّام». وقال ابن المنادي: «هٰذا حديث واه بالوضاح وغيره، وهو منكر الإسناد سقيم المتن». وأقره ابن الجوزي والسيوطي. وكذا ضعفه به الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢١٥). وظاهر ترجمة الوضاح هٰذا في «الميزان» و«اللسان» أنه لا يعرف إلا بهٰذا الحديث.

ورواه ابن عساكر في «تاريخه» (١٦/ ٤٢٣) من طريق أبي داوود الأعمىٰ، عن أنس... به، فذكره. وأبو داوود هٰذا متروك كذبه ابن معين. وضعفه الحافظ في «الفتح» (٦/ ٤٣٥/ ٣٤٠٢) فقال: «أوهىٰ من حديث عمرو بن عوف».

ورواه: الدارقطني في «الأفراد» (١/ ٤٣٨- إصابة)، وابن شاهين (١/ ٤٣٧- إصابة)؛ من طريق محمد بن عبد الله الأنصاري، ثنا حاتم بن أبي رواد، عن معاذ بن عبد الله بن أبي بكر، عن أبيه، عن أنس... فذكره. قال =

وهو مكذوبٌ لا يصحُّ سندًا ولا متنًا؛ فكيف لا يتمثَّل بين يدي رسول اللهِ ﷺ ويجئ بنفسِهِ مسلمًا ومتعلِّمًا؛ وهم[1] يذكُرون في حكاياتِهِم وما يسنِدونَه عن بعض مشايِخِهم أنَّ الخَضِرَ يأتي إليهم ويسلِّم عليهم ويَعْرِفُ أسماءَهم ومنازِلَهم ومحالَّهم؟! وهو مع هٰذا لا يعرِفُ موسىٰ بنَ عمران كليمَ الله، الذي اصطفاه اللهُ في ذٰلك الزمان علىٰ مَنْ سواه، حتىٰ يتعرَّفَ إليه بأنَّه موسىٰ بني إسرائيل!! وقد قال الحافظُ أبو الحسين بنُ المنادي بعد إيرادِهِ حديثَ أنس هٰذا: وأهل الحديث متَّفِقون علىٰ أنَّه حديثٌ منكرُ الإسنادِ سقيمُ المتن يتبيَّنُ فيه أثرُ الصنعة.

فأمَّا الحديثُ الذي رواه الحافظُ أبو بكرٍ البيهقيُّ؛ قائلًا: أنبأنا أبو عبدِالله الحافظُ، أنبأنا أبو بكر ابن بالَوَيْهِ، حدثنا محمدُ بنُ بشر بن مطرٍ، حدثنا كاملُ بن طلحة، حدثنا عبَّادُ بن عبد الصمد، عن أنس بن مالك؛ قال: لمَّا قُبِضَ رسولُ الله ﷺ؛ أحدق به أصحابُه، فبَكَوْا حولَه واجتمعوا، فدخَلَ رجلٌ أشهبُ اللحيةِ جسيمٌ صبيحٌ[2]، فتخطَّىٰ رقابَهم، فبكىٰ، ثم التفتَ إلىٰ أصحابِ رسول الله ﷺ، فقال: إنَّ في اللهِ عزاءً من كلِّ مصيبةٍ، وعِوَضًا من كلِّ فائتٍ، وخَلَفًا من كلِّ هالك؛ فإلىٰ اللهِ فأنيبوا، وإليه فارْغَبوا، وقد نَظَرَ إليكم في البلاءِ؛ فانْظُروا؛ فإنَّ المُصاب مَنْ لم يُجْبَر. وانصرف. فقال بعضُهم لبعض: أتعرِفونَ الرجلَ؟ فقال أبو بكر وعليٌّ: نعم؛ هو أخو رسول الله ﷺ الخَضِرُ عليه السلام[3].

= الحافظ: «ومحمد بن عبد الله هٰذا هو أبو سلمة الأنصاري، وهو واهي الحديث جدًّا، وليس هو شيخ البخاري قاضي البصرة، ذاك ثقة، وهو أقدم من أبي سلمة». وأقره السيوطي في «اللآلئ» (١/ ١٦٦).

وعليه؛ فليس لهٰذا الحديث إسناد قائم، بل أسانيده ضعيفة جدًّا واهية لا تصلح للاعتبار ولا تتقوىٰ بالكثرة ولا كرامة، زد علىٰ ذلك أنه متنه غريب شديد النكارة، ولذلك قال الحافظ ابن المنادي: «منكر الإسناد سقيم المتن». واستبعده ابن الجوزي من جهة إمكان لقيه النبي ﷺ واجتماعه معه ثم لا يجيء إليه. وأقرهما الحافظ في «الإصابة». وقال الإمام ابن القيم في «المنار» (ص٦٧): «الأحاديث التي يذكر فيها الخضر وحياته كلها كذب، ولا يصح في حياته حديث واحد». وقال ابن كثير: «مكذوب».

(١) يعني المخرفين من الصوفية والدجالين والمتأكلين.

(٢) أشهب اللحية: اختلط في لحيته السواد بالبياض. صبيح: جميل الوجه.

(٣) (موضوع). وقد جاء من حديث: أنس، وعلي بن أبي طالب، وجابر:

فرواه: ابن أبي الدنيا (١/ ٤٤٣- الإصابة)، والطبراني في «الأوسط» (٩/ ٥٥/ ٨١١٦)، والحاكم (٣/ ٥٨)، =

وقد رواه أبو بكر بنُ أبي الدنيا عن كامل بن طلحة... به. وفي متنِهِ مخالفةٌ لسياق البيهقي.

ثم قال البيهقيُّ: عبادُ بن عبد الصمد ضعيفٌ، وهٰذا منكرٌ بمرَّةٍ. قلتُ: عباد بن عبد الصَّمد هٰذا هو ابنُ معمر البصريُّ، روىٰ عن أنس نسخةً؛ قال ابنُ حبان والعُقَيْلِيُّ: أكثرُها موضوعٌ. وقال البخاري: منكرُ الحديث. وقال أبو حاتم: ضعيفُ الحديث جدًّا منكرُه. وقال ابن عديٍّ: عامة ما يرويه في فضائل عليٍّ وهو ضعيفٌ غالٍ في التشيُّع.

= والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ٢٦٩)، وابن عساكر (١٦/ ٤٢٤)؛ من طريق كامل بن طلحة، عن عباد بن عبد الصمد، عن أنس... فذكره. قال الطبراني: «لا يروىٰ هٰذا الحديث عن أنس إلا بهٰذا الإسناد، تفرد به عباد بن عبد الصمد». وقال الحاكم: «هٰذا شاهد لما تقدم، وإن كان عباد بن عبد الصمد ليس من شرط كتابنا هٰذا». وأقره الذهبي. قلت: لعبَّاد ترجمة مظلمة جدًّا في «الميزان» و«اللسان»، وسيأتيك بعضها في كلام الحافظ ابن كثير نفسه. ولذلك قال البيهقي: «عباد بن عبد الصمد ضعيف، وهٰذا منكر بمرة». وقال الحافظ في «الفتح» (٦/ ٤٣٥/ ٣٤٠٢): «واه». فالسند ضعيف جدًّا.

ثم روىٰ من عدة أوجه عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: فرواه الشافعي في «الأم» (١/ ٢٧٨) والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ٢٦٨) عنه عن أبيه عن جده علي بن الحسين مرسلًا، ورواه ابن أبي حاتم (وما وجدته في مطبوعة أسعد الطيب) وأبو نعيم في «الدلائل» (٢/ ٥٦٥/ ٥٠٨) وابن الجوزي في «العجالة» عنه عن أبيه عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه ابن أبي عمر العدني في «مسنده» (١/ ٤٤٣ - الإصابة) عنه عن أبيه عن جده علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه البيهقي في «الدلائل» (٧/ ٢٦٩) عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله. وهذه الأسانيد علىٰ اختلافها واضطرابها وانقطاعها وإرسالها لا يخلو واحد منها من متروك أو متهم أو من ألصقت به الموضوعات.

ثم هناك اختلافات كبيرة في متون هذه الأحاديث: فتارة يدخل الخضر شابًّا يتخطىٰ أصحاب النبي ﷺ ويبكي معهم، وتارة يُسمع صوته ولا يُرىٰ شخصه، وتارة يقف بالباب ويتكلم فيخرجون فلا يجدونه، وتارة يأتي مع إلياس عَلَيْهِمَا السَّلَامُ!

ثم ليس في شيء من هذه المتون أن الرجل عرَّف عن نفسه بأنه الخضر، وإنما هو شيء توهمه الموجودون وتخيلوه؛ قال الإمام ابن القيم في «المنار» (ص٧٥): «فيالله العجب! هل للخضر علامة يعرفه بها من رآه؟!».

ثم أصح ما ورد في هٰذا الباب ما رواه الحاكم (٣/ ٥٧) وصححه ووافقه الذهبي من حديث: جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر؛ قال: لما توفي رسول الله ﷺ؛ عزتهم الملائكة؛ يسمعون الحس ولا يرون الشخص، فقالت... فذكر الكلام المنسوب للخضر. فهٰذا أرجح سندًا وأقبل متنًا؛ فمثله لا يترك لمثل تلك الأسانيد والمتون.

وبالجملة؛ فحديث التعزية هٰذا؛ أسانيده واهية جدًّا مضطربة ساقطة، ومتونه منكرة متهافتة متضاربة، فالأولىٰ بمثله أن يلحق بالمصنوعات والموضوعات؛ فرحم الله الإمام الرباني وشيخ الإسلام الثاني إذ قال في «المنار المنيف» (ص٦٧): «الأحاديث التي يُذكر فيها الخضر وحياته، وكلها كذب، ولا يصح في حياته حديث واحد».

وقال الشافعيُّ في «مسنده»: أنبأنا القاسم بنُ عبد الله بن عُمَرَ، عن جعفرِ ابن محمدٍ، عن أبيه، عن جدِّه علي بن الحسين قال: لما تُوُفِّي رسول الله ﷺ، وجاءتِ التعزيةُ؛ سمعوا قائلًا يقولُ: إنَّ في الله عزاءً من كلِّ مصيبةٍ، وخَلَفًا من كلِّ هالكٍ، ودَرَكًا من كل فائتٍ؛ فبالله فثقوا، وإيَّاه فارجوا؛ فإنَّ المصابَ مَن حُرِمَ الثواب. قال عليُّ بن الحسين: أتدرون من هٰذا؟ هٰذا الخضرُ[1].

شيخُ الشافعيِّ القاسمُ العمريُّ متروكٌ: قال أحمدُ بن حنبل ويحيىٰ بنُ مَعين: يكذبُ. زاد أحمدُ: ويضعُ الحديث. ثم هو مرسلٌ، ومثلُه لا يُعْتَمَدُ عليه هاهنا. والله أعلم.

وقد روي من وجه آخر ضعيفٍ: عن جعفرِ بن محمد، عن أبيه، عن جدِّه، عن أبيه، عن علي. ولا يصحُّ[2].

وقد رویٰ عبدُالله بن وَهْب، عمَّن حدَّثه، عن محمد بن عَجْلان، عن محمد بن المنكدر: أنَّ عمرَ بن الخطاب بينما هو يصلِّي علىٰ جنازةٍ؛ إذ سَمعَ هاتِفًا وهو يقولُ: لا تَسْبِقْنا يرحمُك الله! فانتظره حتىٰ لَحِقَ بالصفِّ... فذكر دعاءَهُ للميِّت: إنْ تعذِّبْه؛ فكثيرًا عصاك، وإن تَغْفِرْ له؛ ففقيرٌ إلىٰ رحمتك. ولمَّا دُفِنَ؛ قال: طوبىٰ لك يا صاحبَ القبر إنْ لم تكنْ عريفًا أو جابيًا أو خازنًا أو كاتبًا أو شرطيًّا. فقال عمرُ: خُذوا الرجل نَسْأله عن صلاتِهِ وكلامِهِ عمَّنْ هو؟ قال: فتواریٰ عنهم، فنظروا؛ فإذا أثرُ قدمِهِ ذراعٌ! فقال عمر: هٰذا والله الخَضِر الذي حدَّثنا عنه رسولُ الله ﷺ[3].

وهٰذا الأثر فيه مبهمٌ، وفيه انقطاعٌ، ولا يصحُّ مثلُه.

---

(١) تقدم الكلام عنه في الحاشية السابقة.

(٢) تقدم الكلام عنه في الحاشية السابقة.

(٣) رواه ابن شاهين في «الجنائز» (١/ ٤٤٤- إصابة)، وابن عساكر في «التاريخ» (١٦/ ٤٢٤). قال ابن الجوزي: «فيه مجهول وانقطاع بين ابن المنكدر وعمر». وأقره عليه الحافظ في «الفتح» (٦/ ٤٣٥/ ٣٤٠٢). وابن كثير كما ترىٰ.

ثم في متنه نكارة ظاهرة؛ من ضخامة حجم الرجل، ومن ذمه العرفاء والجباة والخزنة الصالحين الذين كان عمر رضي الله عنه يتحرىٰ أعظم التحري في اختيارهم. ثم ما باله يتكلم عن الشرط، وهم إنما استحدثوا بعد عصر عمر؟!

وروىٰ الحافظ ابنُ عساكرَ[١]: عن الثوريِّ، عن عبد الله بن المحرَّرِ[٢]، عن يزيدَ بن الأصمِّ، عن علي بن أبي طالبٍ؛ قال: دخلتُ الطوافَ في بعض الليل؛ فإذا أنا برجل متعلِّقٍ بأستار الكعبةِ وهو يقولُ: يا مَن لا يمنَعُه سمعٌ عن سمع! ويا مَن لا تُغَلِّطُه المسائل! ويا مَن لا يُبْرِمُه إلحاحُ الملحِّين ولا مسألةُ السائلين! ارزُقْني بَرْدَ عفوِك وحلاوةَ رحمتِك! قال: فقلت: أعِدْ عليَّ ما قلتَ! فقال لي: أوَسمِعْتَه؟ قلتُ: نعم. فقال لي: والذي نفس الخَضِرِ بيده (قال: وكان هو الخَضِرَ)؛ لا يقولُها عبدٌ خلفَ صلاةٍ مكتوبةٍ؛ إلَّا غَفَرَ الله له ذُنوبَه، ولو كانت مثل زَبَدِ البحرِ وورق الشجرِ وعددِ النُّجوم؛ لَغفَرَها الله له.

وهٰذا ضعيفٌ من جهةِ عبدِاللهِ بن المُحَرَّر؛ فإنَّه متروكُ الحديث، ويزيدُ بن الأصمِّ لم يدرِكْ عليًّا، ومثل هٰذا لا يصحُّ. والله أعلم.

وقد رواه أبو إسماعيلَ الترمذيُّ[٣]: حدَّثنا مالكُ بن إسماعيل، حدثنا صالحُ بن أبي الأسودِ، عن محفوظِ بنِ عبد الله الحضرميِّ، عن محمدِ بن يحيىٰ؛ قال: بينما عليُّ بنُ أبي طالب يطوفُ بالكعبةِ؛ إذا هو برجُل متعلِّق بأستارِ الكعبةِ وهو يقول: يا مَن لا يَشْغَلُه سمعٌ عن سمع! ويا مَن لا يُغَلِّطُهُ السائلونَ! ويا مَن لا يتبرَّم بإلحاح الملحِّين! ارزُقْني بَرْدَ عفوِك وحلاوةَ رحمتِك. قال: فقال له عليٌّ: يا عبد الله! أعِدْ دعاءَكَ هٰذا. قال: أوَقد سمعتَه؟ قال: نعم. قال: فادعُ به في دُبُرِ كلِّ صلاةٍ؛ فوالذي نفسُ الخَضِر بيده؛ لو كان عليك من الذُّنوبِ عددُ نجوم السماءِ ومطرِها وحصباءِ الأرض وترابِها؛ لَغُفِرَ لك أسرعَ من طَرْفَةِ عين.

وهٰذا أيضًا منقطعٌ، وفي إسنادِهِ مَنْ لا يُعرف. والله أعلم.

---

(١) في «التاريخ» (١٦/ ٤٢٥). وكذلك ابن الجوزي في «الموضوعات» (١م١٩٨).
قال ابن الجوزي: «هٰذا حديث لا يصح... وابن محرر: متروك. وقال أحمد: ترك الناس حديث عبد الله بن محرر: وقال ابن المنادي: لقيته وكانت بعرة أحب إلي منه».

(٢) في جميع الأصول، بل وفي «تاريخ ابن عساكر»: «عبد الله بن محرز»! وما هو بصحيح، وليس هناك في الرواة من اسمه عبد الله بن محرز. والتصويب من «الميزان» و«التهذيب». وإنا لله وإنا إليه راجعون.

(٣) ومن طريقه ابن عساكر في «التاريخ» (١٦/ ٤٢٦). وصالح: واه. ومحفوظ: مجهول. ومحمد بن يحيىٰ: الله أعلم به؛ فإنهم كثر.

وقد رواه ابنُ الجوزيِّ[١] من طريق أبي بَكْرِ بن أبي الدُّنيا: حدَّثنا يعقوبُ بن يوسفَ، حدَّثنا مالكُ بن إسماعيل... فذكر نحوه. ثم قال: وهٰذا إسنادٌ مجهولٌ منقطعٌ، وليس فيه ما يدلُّ علىٰ أنَّ الرجلَ الخَضِرُ.

وقال الحافظُ أبو القاسم بنُ عساكرَ: أنبأنا أبو القاسم بنُ الحُصَيْن، أنبأنا أبو طالبٍ محمدُ بن محمد، أنبأنا أبو إسحاقَ المُزَكِّي، حدثنا محمدُ بنُ إسحاقَ بن خُزيمة، حدثنا محمدُ بن أحمد بن زيد[٢] أملاه علينا بِعبَّادان، أنبأنا عمرو بن عاصم، حدثنا الحسنُ بن رَزينٍ، عن ابن جُرَيْج، عن عطاءٍ، عن ابن عباس (قال: ولا أعلمه إلا مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ)؛ قال: «**يَلْتَقي الخَضِرُ وإلياسُ كلَّ عام في الموسم، فَيَحْلِقُ كلُّ واحدٍ منهما رأسَ صاحبِهِ، ويتفرَّقانِ عن هٰؤلاء الكلماتِ: باسم الله، ما شاءَ الله؛ لا يسوقُ الخيرَ إلَّا الله، ما شاءَ الله؛ لا يصرفُ السوءَ إلَّا الله، ما شاءَ الله؛ ما كان من نعمةٍ فَمِنَ الله، ما شاء الله؛ لا حولَ ولا قوةَ إلَّا بالله**»[٣]. قال: وقالَ ابنُ عباس: من قالهنَّ حين يُصْبِحُ وحين يُمسي ثلاثَ مراتٍ؛ أمَّنه الله من الغَرَقِ والحَرَقِ والسَّرَقِ. قال: وأحسبه قال: ومن الشيطان والسلطان والحيَّة والعقرب.

(١) يعني في «عجالة المنتظر في شرح حال الخضر». وانظر: «الإصابة» (١/ ٤٤٥).

(٢) في جميع الأصول: «يزيد»! والتصويب من مصادر التخريج.

(٣) (موضوع). رواه: العقيلي في «الضعفاء» (١/ ٢٢٤)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٧٤٠)، وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد المزكي في «فوائده» (١/ ٤٣٨ - إصابة)، وابن عساكر في «التاريخ» (١/ ٤٢٦)، وابن الجوزي «الموضوعات» (١/ ١٩٥)؛ كلهم من طريق الحسن بن رزين... به، فذكره. وقد علمت حال هذه الطريق مما نقله الحافظ ابن كثير من أقوال أهل العلم.

وله طريق أخرىٰ أخرجها ابن الجوزي في «العجالة» (١/ ٤٣٨ - إصابة) من طريق: أحمد بن عمار، حدثنا محمد بن مهدي، حدثنا مهدي بن هلال، حدثني ابن جريج... به، فذكره بلفظ مقارب. قال ابن الجوزي: «أحمد بن عمار متروك عند الدارقطني، ومهدي بن هلال مثله، وقال ابن حبان: مهدي بن هلال يروي الموضوعات». وقال الحافظ عن سنده: «واه جدًّا». وأقره السيوطي في «اللآلئ» (١/ ١٦٧).

ورواية محمد بن كثير العبدي عن الحسن بن رزين لهٰذا الحديث موقوفة، رواها العقيلي في «الضعفاء» (١/ ٢٢٥)، وقال: «ولا يتابع عليه مسندًا ولا موقوفًا».

والحديث أودعه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٩٥)، والذهبي في الميزان» والحافظ في اللسان» في منكرات الحسن بن رزين، وقال ابن القيم في «المنار» (ص٦٧): «الأحاديث التي يذكر فيها الخضر وحياته؛ كلها كذب، ولا يصح في حياته حديث واحد».

قال الدارقطنيُّ في «الأفراد»: هٰذا حديثٌ غريبٌ من حديث ابن جُريج، لم يحدِّثْ به غيرُ هٰذا الشيخ عنه (يعني: الحسن بن رَزين هٰذا). وقد رواه[1] عنه محمد بن كَثيرٍ العبديُّ أيضًا، ومع هٰذا قال فيه الحافظُ أبو أحمد بن عديٍّ: ليس بالمعروف. وقال الحافظُ أبو جعفر العُقَيْليُّ: مجهولٌ، وحديثُه غيرُ محفوظ. وقال أبو الحسين بنُ المنادي: هو حديث واهٍ بالحسن بن رزين.

وقد روىٰ ابنُ عساكر نحوَه من طريق: علي بن الحسن الجهضميِّ (وهو كذاب)، عن ضَمْرَةَ بن حبيب المقدسيِّ، عن أبيه، عن العلاء بن زياد القشيريِّ، عن عبد الله بن الحسنِ، عن أبيه، عن جدِّه، عن عليِّ بن أبي طالب مرفوعًا؛ قال: «**يجتمع كلَّ يومِ عرفةَ بعرفاتٍ جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ والخَضِرُ**...»[2] وذكر حديثًا طويلاً موضوعًا تَرَكْنا إيرادَه قصدًا. ولله الحمد.

وروىٰ ابنُ عساكرَ[3] من طريق: هشام بن خالدٍ، عن الحسن بن يحيىٰ الخُشَنيِّ، عن ابن أبي روَّادٍ؛ قال: إلياسُ والخَضِرُ يصومانِ شهرَ رمضانَ ببيت المقدس، ويَحُجَّانِ في كلِّ سنةٍ، ويشربانِ من ماء زمزمَ شربةً واحدةً تكفيهما إلىٰ مثلِها من قابل.

وروىٰ ابن عساكرَ[4]: أنَّ الوليدَ بن عبدِالملك بنِ مروانَ باني جامع دمشقَ أحبَّ أن

(١) في جميع الأصول: «روي»! ولا يستوي بها الكلام.

(٢) (موضوع). رواه: ابن عساكر في «التاريخ» (١٦/ ٤٢٧)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٩٦)؛ من هذه الطريق. قال ابن الجوزي: «فيه عدة مجاهيل لا يعرفون». وقال الحافظ في «التهذيب»: «ضمرة بن حبيب المقدسي: روىٰ عن أبيه عن العلاء بن زياد حديثًا طويلًا منكرًا من حديث علي في اجتماع جبريل وميكائيل والخضر بعرفة، وعنه به علي بن الحسن الجهضمي، شيخ لمحمد بن عطية الحارثي. رواته مجاهيل». وقال السيوطي في «اللآلئ»: «باطل».

وله طريق أخرىٰ رواها ابن الجوزي في «العجالة» (١/ ٤٣٨- إصابة) من طريق: عبيد بن إسحاق العطار، ثنا محمد بن ميسر، عن عبد الله بن الحسن... به، فذكره. قال الحافظ: «وعبيد بن إسحاق متروك الحديث».

والحديث مصنوع عليه أمارات الوضع، وقد تقدم لك قول ابن القيم فيه وفي أمثاله من قريب، وقال الحافظ ابن كثير- كما ترىٰ-: «موضوع».

(٣) في «التاريخ» (١٦/ ٤٢٨)، وقال الحافظ في «الفتح» (٦/ ٤٣٥): «معضل».

(٤) في «التاريخ» (١٦/ ٤٠٢). وفي سنده مجاهيل.

يتعبَّدَ ليلةً في المسجد، فأمَرَ القَوَمَةَ(١) أن يُخْلوه له، ففعلوا، فلمَّا كانَ من الليل؛ جاء في بابِ الساعاتِ، فَدَخَلَ الجامع؛ فإذا رجلٌ قائمٌ يصلِّي فيما بينَه وبين باب الخَضراءِ، فقالَ للقَوَمَةِ: ألمْ آمُرْكُم أن تُخْلوه؟ فقالوا: يا أميرَ المؤمنينَ! هٰذا الخَضِرُ يجيء كلَّ ليلة يصلِّي هاهُنا!

قال ابنُ عساكرَ أيضًا(٢): أنبأنا أبو القاسم بن إسماعيل بن أحمد، أنبأنا أبو بكر بن الطبريِّ، أنبأنا أبو الحسين بن الفضل، أنبأنا عبدُالله بن جعفرٍ، حدَّثنا يعقوبُ (هو ابن سفيان الفَسَويُّ)، حدثني محمدُ بن عبد العزيز، حدثنا ضَمْرَةُ، عن السريِّ بن يَحْيىٰ، عن رياح(٣) بن عَبيدة؛ قال: رأيتُ رَجُلًا يُماشي عُمَرَ بن عبدِالعزيز معتمِدًا علىٰ يديهِ، فقلتُ في نفسي: إنَّ هٰذا الرجلَ جافٍ(٤). قال: فلمَّا انصرفَ من الصلاة؛ قلتُ: من الرجل الذي كان معتمِدًا علىٰ يدِك آنفًا؟ قال: وهل رأيتَه يا رياح(٥)؟ قلتُ: نعم. قال: ما أحسِبُك إلاَّ رجلاً صالحًا، ذاك أخي الخَضِرُ بشَّرَني أنِّي سألي وأعدِلُ.

قال الشيخُ أبو الفرج بنُ الجوزيِّ: الرمليُّ مجروحٌ عند العلماء، وقد قَدَحَ أبو الحسين بنُ المنادي في ضَمْرَةَ والسريِّ ورياح(٦)، ثم أوردَ من طرقٍ أخر عن عمرَ بن عبدِالعزيز أنَّه

---

(١) جمع قيِّم، وهم القائمون علىٰ إدارة شؤون المسجد. وفي «تاريخ ابن عساكر»: «القوَّام». وكلاهما صحيح.

(٢) في «التاريخ» (١٦/ ٣٤٢). ورواه أيضًا ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٩٩).

(٣) في جميع الأصول: «رباح»! والتصويب من «تاريخ ابن عساكر» و«التهذيب».

(٤) في بعض الأصول: «حافي»! وفي بعضها: «حافٍ»! وفي «تاريخ ابن عساكر» (١٦/ ٣٤٢): «حافي»! والصواب ما أثبته من «حلية الأولياء» (٥/ ٢٥٤). والجافي: الجلف، الغليظ.

(٥) في جميع الأصول: «رباح»! والتصويب من «تاريخ ابن عساكر» و«التهذيب».

(٦) قلت: أما محمد بن عبد العزيز الرملي؛ فصدوق له أوهام وغرائب، لٰكنه لم يتفرد به، بل تابعه أيوب بن محمد الوزان عن ضمرة... به؛ عند: أبي عروبة الحراني في «تاريخه» (١/ ٤٥٠- إصابة)، وأبي نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٥٤). وأيوب ثقة. وأما رياح؛ فثقة من خواص عمر بن عبد العزيز وجلسائه. والسري بن يحيىٰ: أجمعوا علىٰ توثيقه، وشذ الأزدي فقال: «حديثه منكر»، فقال ابن عبد البر: «هو أوثق من الأزدي بمئة مرة». وضمره: وثقه الأكثرون، وأشد ما قيل فيه قول الساجي: «صدوق، يهم، عنده مناكير». وله حديث منكر قال فيه الترمذي: «لا يُتابع ضمرة عليه، وهو خطأ عند أهل الحديث». فما أرىٰ وجهًا للقدح في هٰؤلاء. وقد قال الحافظ في «الفتح» (٦/ ٤٣٥/ ٣٤٠٢): «ولم يقع لي إلىٰ الآن خبر ولا أثر بسند جيد غيره». قلت: لٰكن جودة السند لا تعني جودة المتن؛ فالوهم متطرق إلىٰ أوثق الرواة؛ فكيف بمن كان دون ذلك بكثير؟! وإذا كانوا قد ذكروا لضمرة مناكير لا يُتابع عليها في حديثه عن النبي ﷺ؛ فكيف بمثل هذه الأخبار التي لا تُتحرىٰ فيها الدقة عادة؟! ثم نكارة المتن =

اجتمعَ بالخَضِر، وضعَّفها كلَّها.

وروىٰ ابنُ عساكِرَ أيضًا[١] أنَّه اجتمعَ بإبراهيم التَّيْمِيِّ وبسفيانَ بن عُيَيْنَةَ وجماعةٍ يطولُ ذِكْرُهم.

وهٰذه الرواياتُ والحكاياتُ هي عُمْدَةُ من ذهب إلىٰ حياتِهِ إلىٰ اليوم. وكلٌّ من الأحاديث المرفوعة ضعيفةٌ جدًّا، لا يقومُ بمثلها حُجَّةٌ في الدِّين، والحكاياتُ لا يَخْلو أكثرُها عن ضَعْفٍ في الإسناد، وقُصاراها أنَّها صحيحة إلىٰ مَن ليس بمعصوم من صحابيٍّ أو غيرِهِ؛ لأنَّه يجوزُ عليه الخطأ. والله أعلم.

وقال عبدُالرزاق: أنبأنا معمرٌ، عن الزهريِّ، أخبرني عبيدُالله بنُ عبدِالله بن عُتبة، أنَّ أبا سعيدٍ قال: حدَّثنا رسولُ الله ﷺ حديثًا طويلًا عن الدَّجّال، وقال فيما يحدِّثُنا: «**يأتي الدَّجَّالُ وهو محرَّمٌ عليه أن يدخُلَ نِقابَ المدينة، فيخرُجُ إليه يومئذٍ رجلٌ هو خيرُ الناس (أو: مِنْ خيرِهم)، فيقولُ: أشهدُ أنَّك أنت الدَّجَّالُ الذي حدَّثنا عنك رسولُ الله ﷺ بحديثِهِ. فيقولُ الدَّجَّالُ: أرأيتُم إن قتلتُ هٰذا ثم أحْيَيْتُهُ أتشكُّون في الأمرِ؟ فيقولونَ: لا. فيقتُلُه ثم يُحْييه، فيقولُ حين يَحْيا: والله؛ ما كنتُ أشدَّ بصيرةً فيك منِّي الآن. قال: فيريدُ قَتْلَه الثانيةَ؛ فلا يسلَّطُ عليه**»[٢]. قال معمرٌ[٣]: بَلَغَني أنَّه يُجعَلُ علىٰ حلقِهِ صحيفةٌ من نُحاس، وبلغني أنَّه الخَضِرُ الذي يقتُلُه الدَّجَّال ثم يُحييه[٤]. وهٰذا الحديث مخرَّجٌ في الصحيحين من حديث الزهريِّ به. وقال أبو إسحاقَ إبراهيمُ

= لا تخفىٰ علىٰ الموفق؛ فما بال الخضر يقول لموسىٰ عليهما السلام: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾، ولا يبشره بشيء، ولا يأتي رسول الله ﷺ وأصحابه فيبشرهم بما يسرهم من النصر علىٰ أهل الردة والفرس والروم وغير ذلك، ثم يأتي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فيبشره بما هو له كاره وبالله منه مستجير؟! ثم ما بال عمر رضي الله عنه يقول عن الخضر عليه السلام: «ذاك أخي الخضر»! فإن كان عنده نبيًّا؛ فحقه أن يقول: نبي الله عليه السلام، وإن كان عنده وليًّا؛ فقد علمنا منه التواضع لا المزاحمة والمساماة؟! ثم هل الخضر عليه السلام مَلَك لا يراه إلَّا الصالحون حتىٰ يتعجب من رؤيته له؟! ثم قد تحيَّرنا في هيئة الخضر عليه السلام؛ أشاب هو أم شيخ؟! أضخم أم علىٰ هيئتنا؟! فما أقرب هذه القصة إلىٰ حكايات الصوفية المصنوعة!

(١) في «تاريخه» (١٦/ ٤٢٨ وما بعدها).

(٢) رواه: عبد الرزاق في «المصنف» (١١/ ٣٩٣/ ٢٠٨٢٤)، والبخاري (٩٢- الفتن، ٢٧- لا يدخل الدجال المدينة، ١٣/ ١٠١/ ٧١٣٢)، ومسلم (٥٢- الفتن، ٢١- صفة الدجال، ٤/ ٢٢٥٦/ ٢٩٣٨).

(٣) في «جامعة» (١١/ ٣٩٣ - عبد الرزاق).

(٤) قال الحافظ العسقلاني في «الفتح» (١٣/ ١٠٤) معلقًا علىٰ قول معمر هٰذا: «وهذه دعوىٰ لا برهان لها». قلت: ولذلك أسقطها البخاري ومسلم من روايتهما للحديث مع أنهما رواياه من هذه الطريق نفسها.

بنُ محمدِ بن سفيانَ الفقيهُ الراوي عن مسلم: «الصحيحَ» يقال[1]: إنَّ هٰذا الرجلَ الخَضِرُ.

وقولُ مَعْمَرٍ وغيرِهِ: «بَلَغني»؛ ليس فيه حُجَّة. وقد ورد في بعض ألفاظِ الحديث: فيأتي بشابٍّ ممتلئٍ شبابًا، فيقتُلُه. وقولُهُ: الذي حدَّثنا عنه رسولُ الله ﷺ: لا يقتضي المشافهةَ، بل يكفي التواترُ[2].

وقد تصدَّىٰ الشيخُ أبو الفرج بنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ اللهُ في كتابِهِ: «عُجالة المُنْتَظِر في شرح حالة الخضر» للأحاديثِ الواردة في ذٰلك؛ من المرفوعاتِ فبيَّنَ أنَّها موضوعةٌ، ومن الآثارِ عن الصحابةِ والتابعين فَمَنْ بعدَهم فبيَّنَ ضعفَ أسانيدِها ببيانِ أحوالِها وجهالةِ رجالِها، وقد أجادَ في ذٰلك وأحسن الانتقاد.

۞ [ذكر الأدلة التي احتج بها من يرى أن الخضر قد مات]:

وأما الذين ذهبوا إلىٰ أنَّه قد مات -ومنهم البخاريُّ وإبراهيمُ الحربيُّ وأبو الحسين بنُ المنادي والشيخُ أبو الفرج بنُ الجوزيِّ وقد انتصر لذٰلك وألَّف[3] فيه كتابًا أسماه «عُجالة المنتظر في شرح حالة الخضر» -؛ فَيُحْتَجُّ لهم بأشياءَ كثيرةٍ:

* منها: قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]؛ فالخَضِرُ إن كان بشرًا؛ فقد دَخَلَ في هٰذا العموم لا محالةَ، ولا يجوز تخصيصُهُ منه إلَّا بدليل صحيح، والأصلُ عدمُه حتىٰ يثبتَ، ولم يُذْكَرْ فيه دليلٌ علىٰ التخصيص عن معصوم يجبُ قَبوله.

* ومنها: أنَّ الله تعالىٰ قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١] قال ابنُ عباس: ما بعثَ الله نبيًّا؛ إلا أخَذَ عليه الميثاقَ؛ لَئِنْ بُعِثَ محمدٌ وهو حيٌّ لَيُؤمِنَنَّ به ولَيَنْصُرَنَّه. وأمره أن يأخذَ علىٰ أمَّتِهِ الميثاقَ؛ لَئِنْ بُعِثَ محمدٌ وهم أحياءُ؛ لَيُؤمِنُنَّ به ولَيَنْصُرُنَّه. ذكره البخاري[4] عنه.

---

(١) في جميع الأصول: «قال أبو إسحاق... الراوي عن مسلم: الصحيحُ أن يقال...» إلخ! والتصويب من «صحيح مسلم». فانظر كيف انقلب المعنىٰ وأصبح بالجزم والتحقيق بعد أن كان علىٰ الظن والتخمين!

(٢) بل تكفي الآحاد الصحيحة.

(٣) في نسخة: «وصنف».

(٤) كذا! ولم أجده في «الصحيح»، وإنما رواه ابن جرير في «مسنده» (٣/ ٣٣٠/ ٧٣٢٧) عن علي رضي الله عنه، ورواه أيضًا (٣/ ٣٣١/ ٧٣٣١) بنحوه عن ابن عباس.

فالخَضِرُ إنْ كان نبيًّا أو وليًّا؛ فقد دخل في هٰذا الميثاق؛ فلو كان حيًّا في زمن رسول الله ﷺ؛ لَكانَ أشرفَ أحوالِهِ أنْ يكونَ بين يديه؛ يؤمنَ بما أنزل الله عليه، وينصُرُه أنْ يَصِلَ أحدٌ من الأعداءِ إليه؛ لأنَّه إن كان وليًّا؛ فالصدِّيق أفضلُ منه، وإن كان نبيًّا؛ فموسىٰ أفضلُ منه.

وقد روىٰ الامام أحمدُ في «مسنده»: حدثنا شُرَيْحُ بن النُّعمان، حدثنا هشيمٌ، أنبأنا مُجالدٌ، عن الشعبيِّ، عن جابر بن عبد الله: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده؛ لو أنَّ موسى كان حيًّا؛ ما وَسِعَهُ إلَّا أن يَتَّبِعَني**»(١). وهٰذا الذي يُقْطَعُ به ويُعْلَمُ من الدِّين علمَ الضَّرورة.

وقد دلَّتْ عليه هٰذه الآيةُ الكريمة(٢) أنَّ الأنبياءَ كلَّهم؛ لو فُرِضَ أنَّهم أحياءُ مكلَّفون في زمن رسول الله ﷺ؛ لكانوا كُلُّهم أتباعًا له وتحت أوامرِهِ وفي عموم شرعِهِ؛ كما أنَّه صلواتُ الله وسلامه عليه لَمَّا اجتمع بهم ليلةَ الإسراءِ؛ رُفِعَ فوقَهم كلِّهم، ولمَّا هبطوا معه إلىٰ بيتِ المقدس وحانتِ الصلاةُ؛ أمره جبريلُ عن أمر الله أن يؤمَّهم، فصلَّىٰ بهم في محلِّ ولايتِهم ودارِ إقامتهم(٣)؛ فدلَّ علىٰ أنَّه الإمام الأعظم، والرسولُ الخاتِمُ المبجَّلُ المقدَّم، صلوات الله وسلامُه عليه وعليهم أجمعينَ.

فإذا عُلِمَ هٰذا -وهو معلومٌ عند كلِّ مؤمن-؛ عُلِمَ أنَّه لو كان الخَضِرُ حيًّا؛ لكان من جملةِ أمَّةِ محمدٍ ﷺ، وممَّنْ يقتدي بشرعِهِ؛ لا يسعُهُ إلَّا ذٰلك... هٰذا عيسىٰ ابن مريمَ عليه السلام إذا نَزَلَ في آخر الزمان؛ يحكُمُ بهٰذه الشريعة المطهَّرة؛ لا يخرجُ منها ولا يَحيدُ عنها(٤)؛ وهو أحدُ أولي العزم الخمسة المُرْسَلين وخاتِمُ أنبياء بني إسرائيل... والمعلومُ أنَّ الخَضِرَ لم يُنْقَلْ بسند صحيح ولا حسنٍ تسكُنُ النفس إليه أنَّه اجتمع برسول الله ﷺ في يوم واحد، ولم يشهدْ معه قتالًا في مشهدٍ من المشاهد... وهٰذا يومُ بدرٍ يقول الصادقُ المصدوقُ فيما دعا به لربِّه ﷻ واستنصَرَه واستفتَحه علىٰ مَن كَفَرَهُ: «**اللهمَّ! إنْ تَهْلِكْ هٰذه العصابةُ؛ لا تُعْبَدْ بعدَها في الأرض**»(٥). وتلك العصابةُ كان تحتَها سادةُ المسلمين يومئذٍ، وسادةُ الملائكة، حتىٰ جبريلُ عليه السلام؛ كما قال حسانُ بن ثابت في قصيدةٍ له في بيتٍ يُقالُ: إنَّه أفخرُ بيتٍ قالتْه العربُ:

---

(١) (صحيح). وقد تقدم تخريجه في (ص٢٦٦).

(٢) في جميع الأصول: «وقد دلت عليه هذه الآية الكريمة أن...» إلخ! وله وجه ضعيف، والأولىٰ ما أثبتناه.

(٣) تقدم تخريج حديث الإسراء في (ص٩٠).

(٤) سيأتي الكلام في هٰذا وتخريجه (ص ٦٩٣-٦٩٤).

(٥) رواه مسلم (٣٢- الجهاد، ١٨- الإمداد بالملائكة، ٣/ ١٣٨٣/ ١٧٦٣).

وبِبِئْرِ بَدْرٍ إذْ يَرُدُّ وُجوهَهُمْ   جبْريلُ تَحْتَ لِوائِنا وَمُحَمَّدُ

فلو كان الخَضِرُ حيًّا؛ لكانَ وقوفُهُ تحتَ هٰذه الراية أشرفَ مقاماتِهِ وأعظمَ غزَواتِهِ.

قال القاضي أبو يعلىٰ محمدُ بن الحسين بنِ الفَرَّاءِ الحنبليُّ: سُئِلَ بعضُ أصحابنا عن الخضر: هل مات؟ فقال: نعم. قال: وبَلَغَني مثلُ هٰذا عن أبي طاهر بن العبادي[1]؛ قال: وكان يحتجُّ بأنَّه لو كان حيًّا؛ لجاءَ إلىٰ رسول الله ﷺ. نقله ابنُ الجوزيِّ في «العجالة».

فإن قيلَ: فهل يُقالُ إنَّه كان حاضرًا في هٰذه المواطن كلِّها؛ ولٰكنْ لم يكنْ أحدٌ يراهُ؟ **فالجوابُ**: أنَّ الأصلَ عدمُ هٰذا الاحتمال البعيد، الذي يلزمُ منه تخصيصُ العموماتِ بمجرَّدِ التوهُّمات!! ثم ما الحاملُ له علىٰ هٰذا الاختفاء؛ وظهورُهُ أعظمُ لأجرِهِ وأعلىٰ في مرتبتِهِ وأظهرُ لمعجزتِهِ؟! ثم لو كان باقيًا بعدَه؛ لكانَ تبليغُه عن رسولِ اللهِ ﷺ الأحاديثَ النبويَّة والآياتِ القرآنيَّة، وإنكارُه لِما وَقَعَ من الأحاديثِ المكذوبةِ والرواياتِ المقلوبةِ والآراءِ البدعيَّةِ والأهواءِ العصبيَّة، وقتالُه مع المسلمين في غَزَواتِهم، وشهودُ جُمَعِهم وجماعاتِهم، ونفعُهُ إيَّاهم، ودفعُهُ الضَّرر عنهم ممَّن سواهم، وتسديدُه العلماءَ والحكَّام، وتقريرُه الأدلةَ والأحكام؛ أفضلَ ممَّا يُقال عنه من كونِهِ في الأمصار، وجَوْبِهِ الفيافي والأقطار، واجتماعِهِ بعبادٍ لا يُعْرَفُ أحوالُ كثيرٍ منهم، وجعلِهِ لهم كالنقيب المترجِم عنهم. وهٰذا الذي ذَكَرْناه لا يتوقَّف فيه أحدٌ بعد التَّفهيم، والله يهدي مَنْ يشاءُ إلىٰ صراطٍ مستقيم.

* **ومن ذٰلك**: ما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن عبد الله بن عمر: أنَّ رسول اللهِ ﷺ صلَّىٰ ليلةَ العشاءِ، ثم قال: «**أرأيتُم لَيْلَتَكُم هٰذه؟ فإنَّه إلى مئة سنة لا يبقى ممَّنْ هو على وجهِ الأرض اليومَ أحدٌ (وفي روايةٍ: عينٌ تَطْرِفُ)**». قال ابنُ عمر: فَوَهَلَ الناسُ من مقالةِ رسول الله ﷺ هٰذه، وإنما أرادَ انْخِرامَ قرنِهِ[2].

قال الإمام أحمدُ: حدَّثنا عبدُالرزاق، أنبأنا مَعْمَرٌ، عن الزهريِّ؛ قال: أخبرني سالمُ بن عبد الله وأبو بكر بن سليمان بن أبي خَيْثَمَةَ: أنَّ عبدَالله بن عمرَ؛ قال: صلَّىٰ رسولُ الله ﷺ

(١) في جميع الأصول: «الغباري»! ولم أجد لهذه النسبة أصلاً، وما أثبته من «الإصابة»، ولم أعرفه.

(٢) رواه: أحمد (٢/ ٨٨ بالسند المذكور و١٢١ و١٣١)، والبخاري (٣- العلم، ٤١- السمر في العلم، ١/ ٢١١/ ١١٦)، ومسلم (٤٤- فضائل الصحابة، ٥٣- لا تأتي مئة سنة، ٤/ ١٩٦٥/ ٢٥٣٧). ووهل الناس: أي غلطوا وذهب ذهنهم إلىٰ غير المقصود. وانخرام القرن: انقطاعه وانقضاؤه.

ذاتَ ليلةٍ صلاة العشاءِ في آخر حياته، فلمَّا سَلَّمَ؛ قام فقال: **«أرأيتُم لَيْلَتكُمْ هٰذه؟ فإنَّ على رأس مئةِ سنةٍ لا يبقى ممَّن على ظهرِ الأرض أحدٌ»**[(١)].

وأخرجه البخاريُّ ومسلمٌ من حديث الزُّهري.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا محمدُ بن أبي عديٍّ، عن سليمانَ التَّيْمِيِّ، عن أبي نَضْرَةَ، عن جابر بن عبد الله؛ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ قبل موتِهِ بقليل أو بشهر: **«ما مِنْ نفس منفوسةٍ (أو: ما منكُم من نفسٍ اليومَ منفوسةٍ) يأتي عليها مئةُ سنةٍ وهي يومئذٍ حيَّةٌ»**[(٢)].

وقال أحمدُ: حدثنا موسىٰ بن داوودَ، حدثنا ابنُ لَهيعةَ، عن أبي الزُّبيرِ، عن جابرٍ، عن النبيِّ ﷺ: أنَّه قال قبل أنْ يموتَ بشهرٍ: **«يسألونَني عن الساعةِ؟ وإنَّما علمُها عند الله، أقسِمُ باللهِ؛ ما على الأرض نفسٌ منفوسةٌ اليومَ يأتي عليها مئةُ سنةٍ»**[(٣)].

وهٰكذا رواه مسلمٌ من طريق أبي نَضْرَةَ وأبي الزُّبير كلٌّ منهما عن جابر بن عبد الله... به نحوَه[(٤)].

وقال التِّرمذيُّ: حدثنا هنَّادٌ[(٥)]، حدثنا أبو معاويةَ، عن الأعمش، عن أبي سفيانَ، عن جابرٍ؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«ما على الأرض من نفسٍ منفوسةٍ يأتي عليها مئةُ سنةٍ»**[(٦)].

وهٰذا أيضًا علىٰ شرط مسلم.

قال ابنُ الجوزيِّ: فهٰذه الأحاديثُ الصحاحُ تقطعُ دابِرَ دعوىٰ حياةِ الخَضِر.

قالوا: فالخَضِرُ إنْ لم يكن قد أدركَ زمانَ رسول الله ﷺ كما هو المظنونُ الذي يَتَرَقَّىٰ في القوَّةَ إلىٰ القطع؛ فلا إشكالَ، وإنْ كان قد أدْرَكَ زمانَه؛ فهٰذا الحديثُ يقتضي أنَّه لم يَعِشْ بعد مئةِ سنة، فيكونَ الآنَ مفقودًا لا موجودًا؛ لأنَّه داخلٌ في هٰذا العموم، والأصلُ عدم المخصِّص له حتَّىٰ يثبتَ بدليل صحيح يجب قَبولُه. والله أعلم.

---

(١) انظر الحاشية السابقة.

(٢) رواه: أحمد (٣/ ٣٠٥ بالسند الأول و٣١٤ و٣٢٢ و٣٤٥ بالثاني و٣٧٩ و٣٨٥)، ومسلم (الموضع السابق، ٤/ ١٩٦٦/ ٢٥٣٨)، والترمذي (٣٤- الفتن، ٦٤- باب، ٤/ ٥٢٠/ ٢٢٥٠).

(٣) انظر الحاشية السابقة.

(٤) انظر الحاشية السابقة.

(٥) في جميع الأصول: «عبَّاد»! والتصويب من «سنن الترمذي»، وهو ابن السري.

(٦) انظر الحاشية السابقة.

وقد حكى الحافظ أبو القاسم السُّهَيْلِيُّ في كتابه: «التعريف والإعلام» عن البخاريِّ وشيخِهِ أبي بكرٍ بن العربي: أنَّه أدركَ حياةَ النبيِّ ﷺ، ولٰكنْ مات بعده؛ لهٰذا الحديث! وفي كونِ البخاريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ بهٰذا وأنَّه بقي إلىٰ زمان النبيِّ ﷺ نظرٌ. ورجَّح السهيليُّ بقاءه، وحكاه عن الأكثرين. قال: وأما اجتماعُهُ مع النبيِّ ﷺ وتعزِيَتُهُ لأهل البيت بعدَه؛ فمرويٌّ من طرق صحاح! ثم ذَكَرَ ما تقدَّم ممَّا ضعَّفْناه، ولم يورِدْ أسانيدَها[١]. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

(١) انظر الحاشية السابقة.

[قصة إلياس عليه السلام]

۞ [ذكره في القرآن الكريم]:

وأمَّا إلياسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقال الله تعالىٰ بعد قصة موسىٰ وهارون من سورة الصافات: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الصافات: ١٢٣-١٣٢].

۞ [نسبه عَلَيْهِ السَّلَامُ]:

قال علماء النسب هو: إلياسُ التِّشْبِيُّ. ويقال: ابنُ ياسينَ بنِ فَنْحاصَ بنِ ألِيعازارَ بنِ هارونَ. وقيل: إلياس بنُ أَلِيعازار بن ألعِيزار[1] بنِ هارونَ بنِ عمرانَ.

۞ [قومه عَلَيْهِ السَّلَامُ]:

قالوا: وكان إرسالُه إلىٰ أهل بَعْلَبَكَّ غربي دمشقَ، فدعاهم إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، وأن يتركوا عبادةَ صنم لهم كانوا يسمُّونَه بعلًا، **وقيل**: كانت امرأةَ اسمُها بعلٌ. والله أعلم. والأولُ أصحُّ، ولهٰذا قال لهم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾! فكذَّبوه وخالفوه وأرادوا قتلَه! فيقالُ: إنَّه هربَ منهم واختفىٰ عنهم:

۞ [ذكر جملة الأخبار الموضوعة المنسوبة إليه عَلَيْهِ السَّلَامُ]:

قال أبو يعقوبَ الأذرعيُّ: عن يزيد بن عبد الصمد، عن هشام بن عمار؛ قال: وسمعتُ مَنْ يذكُرُ عن كعب الأحبار أنَّه قال: إنَّ إلياسَ اختفىٰ من مَلِكِ قومِهِ في الغار الذي تحت الدَّم

---

(١) كذا في الأصول! وما هو بصحيح؛ فهذه التسميات كلها من الإسرائيليات، وأصل الإسرائيليات هو «العهد القديم»، وليس فيه أن لهارون عَلَيْهِ السَّلَامُ ولدًا اسمه أليعازار وآخر اسمه ألعِيزار! بل هو أليعازار لا غير؛ فلا أدري من أين أتوا بهٰذا الآخر؟!

عشرَ سنين، حتىٰ أهلكَ الله المَلِكَ، وولَّىٰ غيرَهُ، فأتاه إلياسُ، فعَرَضَ عليه الإسلام، فأسلمَ، وأسلمَ من قومِهِ خَلْقٌ عظيمٌ غيرَ عشرة آلاف منهم، فأمرَ بهم، فقُتلوا عن آخِرِهم.

وقال ابنُ أبي الدنيا: حدثني أبو محمدٍ القاسمُ بن هشام(١)، حدَّثنا عمرُ بن سعيدٍ الدمشقيُّ، حدثنا سعيدُ بن عبد العزيز، عن بعض مشيخةِ دمشقَ؛ قال: أقامَ إلياسُ عليه السلام هاربًا من قومه في كهفِ جبل عشرينَ ليلةً (أو قال: أربعين ليلةً) تأتيه الغربانُ برِزْقِهِ.

وقال محمدُ بن سعدٍ كاتبُ الواقديِّ(٢): أنبأنا هشامُ بن محمدِ بن السَّائب الكلبيُّ، عن أبيه؛ قال: أولُ نبيٍّ بُعِثَ إدريسُ، ثم نوحٌ، ثم إبراهيمُ، ثم إسماعيلُ وإسحاقُ، ثم يعقوبُ، ثم يوسفُ، ثم لوطٌ، ثم هودٌ، ثم صالحٌ، ثم شعيبٌ، ثم موسىٰ وهارونُ ابنا عمرانَ، ثم إلياسُ التِّشْبِيُّ بنُ ألِيعازارَ بنِ هارونَ بنِ عمرانَ بنِ قاهثَ بنِ لاوي بنِ يعقوبِ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيم عليه السلام. هٰكذا قال! وفي هٰذا الترتيب نظرٌ.

وقال مكحولٌ: عن كعبٍ: أربعةُ أنبياءَ أحياءٌ: اثنان في الأرض: إلياس والخضر، واثنان في السماء: إدريس وعيسىٰ؛ عليهم السلام.

وقد قدَّمنا قولَ مَنْ ذَكَرَ أنَّ إلياس والخَضِرَ يجتمعان في كلِّ عام في شهر رمضان ببيتِ المقدس، وأنَّهما يَحُجَّانِ كلَّ سنة، ويشربان من زمزمِ شربةً تكفيهما إلىٰ مثلِها من العام المقبل! وأورَدْنا الحديث الذي فيه أنَّهما يجتمعانِ بعرفاتٍ كلَّ سنة! وبيَّنَّا أنَّه لم يصحَّ شيءٌ من ذٰلك، وأن الذي يقومُ عليه الدليل: أنَّ الخَضِرَ ماتَ، وكذٰلك إلياسُ؛ عليهما السلام(٣).

وما ذكره وَهْبُ بن منبِّه وغيره: أنَّه لمَّا دعا ربَّه عز وجل أن يقبِضَه إليه لمَّا كذَّبوه وآذَوْه؛ فجاءتْه دابَّةٌ لونُها لونُ النار، فرَكِبَها، وجعلَ الله له ريشًا، وألبسَه النُّورَ، وقَطَعَ عنه لذَّةَ المطعم والمشرب، وصار مَلَكيًّا بشريًّا سماويًّا أرضيًّا، وأوصىٰ إلىٰ اليَسَع بن أخطوبَ! ففي هٰذا نظرٌ، وهو من الإسرائيلياتِ التي لا تصدَّقُ ولا تكذَّبُ، بل الظاهرُ أنَّ صحَّتها بعيدةٌ. والله أعلم.

فأمَّا الحديثُ الذي رواه الحافظ أبو بكر البيهقيُّ، أخبرنا أبو عبدِاللهِ الحافظُ، حدَّثني

---

(١) في الأصول: «هاشم». وما أثبته من ابن عساكر (٩/ ٢٠٦). ولم أعرف أيًّا منهما.

(٢) في «الطبقات» (١/ ٢٣).

(٣) ارجع إلىٰ قصة الخضر وإلياس عليهما السلام إن شئت التفصيل.

أبو العباس أحمدُ بن سعيد المَعْدانيُّ ببخارىٰ، حدثنا عبدُالله بنُ محمود، حدثنا عبدانُ بن يسار[١]، حدثني أحمدُ بن عبد الله البرقيُّ، حدثنا يزيدُ بن يزيدَ البَلَويُّ، حدثنا أبو إسحاق الفَزاريُّ، عن الأوزاعيِّ، عن مكحول، عن أنس بن مالك؛ قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ في سفرٍ، فنزلْنا منزلًا؛ فإذا رجلٌ في الوادي يقول: اللهمَّ! اجْعَلْني من أمةِ محمدٍ ﷺ المرحومة المغفورة المُثاب لها. قال: فأشرفتُ علىٰ الوادي؛ فإذا رجلٌ طولُه أكثر من ثلاث مئة ذراع، فقال لي: من أنت؟ فقلت: أنسُ بنُ مالكٍ خادمُ رسول الله ﷺ. قال: فأين هو؟ قلتُ: هو ذا يسمعُ كلامكَ. قال: فأْته فأقرِئْه مني السلامَ، وقل له: أخوكَ إلياسُ يُقْرِئُكَ السلامَ. قال: فأتيتُ النبيَّ ﷺ، فأخبرتُه، فجاء حتىٰ لَقِيَهُ فعانَقَهُ، وسلَّم، ثم قعدا يتحادثان، فقال له: يا رسول الله! إنِّي ما آكُلُ في السنةِ إلَّا يومًا، وهٰذا يومُ فِطري، فآكُلُ أنا وأنت. قال: فنزلتْ عليهما مائدةٌ من السماء، عليها خبزٌ وحوتٌ وكرفسٌ[٢]، فأكلا وأطعماني، وصلَّيْنا العصر، ثم ودَّعَه، ورأيتُه مرَّ في السحابِ نحو السماء[٣]. فقد كفانا البيهقيُّ أمرَه وقال: هٰذا حديثٌ ضعيفٌ بمرَّة.

والعجبُ أنَّ الحاكم أبا عبد الله النيسابوريَّ أخرجه في «مستدركه علىٰ الصحيحين»! وهٰذا ممَّا يُسْتَدْرَكُ به علىٰ «المستدرك»؛ فإنَّه حديثٌ موضوعٌ، مخالفٌ للأحاديث الصحاح من وجوه، ومعناه لا يصحُّ أيضًا: فقد تقدَّم[٤] في الصحيحين: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ طولُهُ ستونَ ذِراعًا في السماءِ...**» إلىٰ أن قال: «**ثم لم يَزَلَ الخلقُ يَنْقُصُ حتى الآن**».

(١) في جميع الأصول و«تاريخ ابن عساكر»: «عبدان بن سنان». واضطربوا في «الميزان» و«اللسان»؛ فجاء مرة: «عبدان بن يسار»، وأخرىٰ في ترجمة البلوي: «عبدان بن سيار»، وأثبت ما ترجع عندي، وهو نص «المستدرك»، و«المغني في الضعفاء».

(٢) الحوت: السمك. والكرفس: عشبة خضراء تستعمل لتطييب الطعام بنكهتها.

(٣) (موضوع). رواه: أبو الشيخ في «العظمة» (١٠١٢/٤٣٩)، والحاكم (٦١٧/٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٤٢١)، وابن عساكر في «التاريخ» (٩/ ٢١٢)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٩٩)؛ من هذه الطريق. قال الحاكم:؛ «صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وتعقبه الذهبي فقال: «بل موضوع، قبح الله من وضعه». وقال مرة: «فما استحىٰ الحاكم من الله تعالىٰ يصحح مثل هٰذا!». وقال البيهقي: «إسناد حديثه ضعيف». وقال ابن الجوزي: «موضوع لا أصل له». وأقرهم السيوطي. وعبدان هٰذا لا يعرف، ولٰكن الجنابة معصبة بيزيد البلوي؛ فقد نقل في «اللسان» عن الذهبي قوله: «وهٰذا مما افتراه يزيد البلوي».

(٤) في (ص٧١) بنصه وتخريجه.

وفيه أنَّه لم يأتِ إلىٰ رسولِ الله ﷺ حتىٰ كان هو الذي ذَهَبَ إليه! وهٰذا لا يصحُّ؛ لأنَّه كان أحقَّ بالسَّعْي إلىٰ بين يدي خاتم الأنبياء. وفيه أنَّه يأكلُ في السنةِ مرَّةً! وقد تقدَّم عن وهب أنَّه سَلَبَهُ الله لَذَّةَ المطعم والمشرب! وفيما تقدم عن بعضهم أنَّه يَشْرَبُ من زمزمَ كلَّ سنةٍ شُرْبَةً تكفيهِ إلىٰ مثلها من الحَوْل الآخر! وهٰذه أشياء متعارضةٌ، وكلُّها باطلةٌ، لا يصحُّ شيءٌ منها.

وقد ساق ابنُ عساكر هٰذا الحديث من طريق أخرىٰ، واعترفَ بضَعْفِها، وهٰذا عجبٌ منه؛ كيف تكلَّمَ عليه[(١)]؟! فإنَّه أورده من طريق: خير بن عَرَفة[(٢)]، عن هانئ بن الحسن، عن بقيَّة، عن الأوزاعيِّ، عن مكحول، عن واثلةَ بن الأسقع... فذكَرَ نحو هٰذا مطوَّلًا. وفيه: أنَّ ذٰلك كان في غزوة تبوكَ، وأنَّه بعثَ إليه رسولُ الله ﷺ أنسَ بن مالك وحذيفةَ بن اليمان؛ قالا: فإذا هو أعلىٰ جسمًا منَّا بذراعين أو ثلاثة، واعتذر بعدم قدرتِهِ [علىٰ دخولِ عسكرِ المسلمين]؛ لئلَّا تَنْفِرَ الإبل. وفيه: أنَّه لمَّا اجتمع به رسولُ الله ﷺ؛ أكلا من طعام الجنة، وقال: إنَّ لي في كلِّ أربعين يومًا أكلةً، وفي المائدة خبزٌ ورمانٌ وعنبٌ وموزٌ ورُطَبٌ وبقلٌ ما عدا الكُرَّاثَ. وفيه: أنَّ رسول الله ﷺ سأله عن الخَضِر؟ فقال: عهدي به عامَ أول، وقال لي: إنَّك ستلقاه قَبْلي؛ فأقرِئه منِّي السلام[(٣)]! وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ الخَضِرَ وإلياسَ - بتقدير وجودِهما وصحَّةِ هٰذا الحديث

---

(١) يعني أنه كثيرًا ما يروي الواهيات والموضوعات ثم لا يتعقبها بشيء.

(٢) في جميع الأصول: «حسين بن عرفة»! والتصويب من مصادر التخريج.

(٣) (موضوع). رواه ابن شاهين (١/ ٤٣٩- إصابة)، وابن عساكر (٩/ ٢١٣)؛ من طريق محمد بن أحمد بن عبد العزيز الحراني، عن خير بن عرفة... به، فذكر ما لخصه ابن كثير في سياق غريب طويل جدًّا.

قال الحافظ ابن عساكر: «هٰذا حديث منكر، وإسناده ليس بالقوي». وقال ابن الجوزي: «لعل بقية سمع هٰذا من كذاب فدلسه عن الأوزاعي، وخير بن عرفة لا يعرف». وتعقبه الحافظ فقال: «هو محدث مصري مشهور، واسم جده عبد الله بن كامل، يكني أبا الطاهر، روىٰ عنه أبو طالب الحافظ شيخ الدارقطني وغيره». قلت: وما هٰذا بالتوثيق؛ فكم من شيخ مشهور بالكذب! وكم من حافظ روىٰ عن مجاهيل وكذابين! ومحمد بن أحمد بن عبد العزيز الحراني (وعند ابن عساكر: أحمد بن عبد العزيز الحراني) وهانئ بن الحسن: لم أعرفهما. ومتن الحديث ظاهر الصناعة والنكارة لا يتردد الواقف عليه علىٰ الجزم بوضعه؛ كما فعل الحافظ ابن كثير.

وله شاهد من حديث أنس رواه ابن أبي الدنيا (١/ ٤٤٠- الإصابة): ثني إبراهيم بن سعيد الجوهري، ثنا يزيد بن يزيد الموصلي، ثنا أبو إسحاق الجرشي، عن الأوزاعي، عن مكحول، عن أنس... فذكر نحوه. قال ابن الجوزي: «يزيد و[أبو] إسحاق لا يعرفان، وقد خالف هٰذا الذي قبله في طول إلياس». قلت: يزيد هو ابن البلوي افترىٰ الحديث قبل هٰذا. فعاد الأمر بالحديث إلىٰ الوضع.

-لم يَجْتَمِعا به إلىٰ سنة تسع من الهجرة، وهٰذا لا يسوغُ شرعًا. وهٰذا موضوعٌ أيضًا.

وقد أورد ابنُ عساكر[(١)] طُرُقًا فيمن اجتمع بإلياسَ من العباد، وكلُّها لا يُفْرَحُ بها؛ لِضَعْفِ إسنادها، أو لجهالة المُسْنَدِ إليه فيها، ومن أحسنِها ما قالَه أبو بكرِ بنُ أبي الدُّنيا: حدَّثني بِشْرُ بن معاذٍ: حدثنا حمَّادُ بن واقدٍ، عن ثابتٍ؛ قال: كنَّا مع مصعبِ بن الزُّبير بسواد الكوفة، فدخلتُ حائطًا أصلِّي فيه ركعتينِ، فافتتحتُ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ [غافر: ١-٣]؛ فإذا رجلٌ من خلفي علىٰ بغلةٍ شهباءَ عليه مقطَّعاتٌ يمنيَّةٌ[(٢)]، فقال لي: إذا قلتَ: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ فقلْ: يا غافر الذنب! اغفِرْ لي ذنبي. وإذا قلتَ: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾؛ فقل: يا قابلَ التَّوْبِ! تقبَّلْ توبتي. وإذا قلت: ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝١٩٦﴾؛ فقلْ: يا شديدَ العقاب! لا تعاقبْني. وإذا قلتَ: ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾؛ فقل: يا ذا الطَّوْل! تطوَّلْ عليَّ برحمةٍ. فالتفتُّ؛ فإذا لا أحدَ! وخرجتُ، فسألتُ: مرَّ بكم رجلٌ علىٰ بغلةٍ شهباءَ عليه مقطَّعاتٌ يمنيَّةٌ؟! فقالوا: ما مرَّ بنا أحدٌ! فكانوا لا يرون إلَّا أنه إلياس[(٣)].

[بين إلياس وإدريس عَلَيْهِمَا السَّلَامُ]:

وقوله تعالىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ۝١٢٧﴾؛ أي: للعذاب: إما في الدُّنيا والآخرة، أو في الآخرة، والأولُ أظهرُ علىٰ ما ذكره المفسِّرون والمؤرِّخون.

وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٤٠﴾؛ أي: إلَّا مَنْ آمنَ منهم.

وقوله: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝٧٨﴾؛ أي: أبقْينا بعدَه ذِكْرًا حسنًا له في العالمين؛ فلا يُذْكَرُ إلَّا بخيرٍ.

ولهٰذا قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ۝١٣٠﴾؛ أي: سلامٌ علىٰ إلياسَ، والعربُ تُلْحِقُ النونَ في أسماءٍ كثيرةٍ وتبدِلُها من غيرِها؛ كما قالوا: إسماعيلَ وإسماعينَ، وإسرائيل وإسرائينَ، وإلياس وإلياسينَ. وقد قرئ: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ آل يَاسِينَ﴾؛ أي: علىٰ آل محمد. وقرأ ابنُ مسعودٍ

---

(١) في «التاريخ» (٩/ ٢١٤ وما بعدها).

(٢) برود يمنيَّة موشَّاة.

(٣) رواه الحافظ ابن عساكر في «التاريخ» (٩/ ٢١٦). وسنده ضعيف: حماد بن واقد هٰذا ضعيف منكر الحديث. ثم ما فيه إلا الوهم والافتراض والظن، ولا يغني الظن من الحق شيئًا، بل هو أكذب الحديث. وهٰذا أحسنها؛ فما بالك بما بقي؟!

وغيرُه: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِدْرَايَاسِينَ﴾. ونُقَلَ عنه من طريق: [أبي] إسحاقَ، عن عبيدة بن ربيعةَ، عن ابن مسعودٍ: أنَّه قال: إلياسُ هو إدريسُ[1]. وإليه ذَهَبَ الضحَّاك بن مزاحم، وحكاه قَتادةُ ومحمدُ بن إسحاقَ. والصحيحُ أنَّه غيرُه؛ كما تقدم. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

(١) رواه الحافظ ابن عساكر في «التاريخ» (٩/ ٢١٦). وسنده ضعيف: حماد بن واقد هذا ضعيف منكر الحديث.
ثم ما فيه إلا الوهم والافتراض والظن، ولا يغني الظن من الحق شيئًا، بل هو أكذب الحديث. وهذا أحسنها؛ فما بالك بما بقي؟!

باب
ذكر جماعة من أنبياء بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام
ثم نتبعهم بذكر داوود وسليمان عليهما السلام

قال ابنُ جريرٍ في «تاريخه»(١): لا خلافَ بين أهل العلم بأخبارِ الماضينَ وأمورِ السَّالفينَ من أمَّتِنا وغيرِهم أنَّ القائم بأمورِ بني إسرائيل بعد يوشَعَ: كالِبُ بن يَفُنَّة. يعني: أحدَ أصحابِ موسىٰ عليه السلام، وهو زوجُ أختِهِ مريمَ، وهو أحد الرجلينِ اللَّذين ممَّن يخافونَ الله، وهما يوشَعُ وكالِب، وهما القائلان لبني إسرائيلَ حين نكَلوا عن الجهادِ: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة: ٢٣].

قال ابنُ جرير(٢): ثم من بعدِهِ كان القائمَ بأمور بني إسرائيل حَزْقِيالُ بنُ بُوزِي، وهو الذي دعا الله فأحيا الذين خَرَجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حَذَرَ الموتِ.

---

(١) (١/ ٢٧١).

(٢) (١/ ٢٧١).

قصة حزقيال

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة: ٢٤٣].

قال محمد بن إسحاق: عن وَهْب بن مُنبه: إنَّ كالِب بن يَفُنَّة لمَّا قَبَضَه الله إليه بعد يوشَعَ؛ خَلَّف في بني إسرائيلَ حَزْقِيَال بنَ بُوزِي، وهو ابنُ العجوز، وهو الذي دعا للقوم الذين ذكرهم الله في كتابه فيما بلغنا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾. قال ابنُ إسحاق: فَرُّوا من الوباء، فنزلوا بصعيدٍ من الأرض، فقال لهم الله: موتوا! فماتوا جميعًا، فحَظَروا عليهم حظيرةً دون السِّباع[1]، فمضتْ عليهم دهورٌ طويلةٌ، فمرَّ بهم حَزْقِيَال عليه السلام، فوقف عليهم متفكِّرًا، فقيل له: أتحبُّ أن يَبْعَثَهم اللهُ وأنت تنظُرُ؟ فقال: نعم. فأُمِرَ أن يَدْعُوَ تلك العظامَ أن تكتسيَ لحمًا وأن يتَّصِلَ العصبُ بعضُه ببعض، فناداهم عن أمرِ الله له بذلك، فقامَ القومُ أجمعون وكبَّروا تكبيرةَ رجل واحدٍ.

وقال أسباطٌ: عن السُّدِّيِّ؛ عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن أناس من الصحابة؛ في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ﴾؛ قالوا: كانت قريةٌ يُقال لها داوَرْدانُ قِبَلَ واسطٍ، وقع بها الطَّاعونُ، فهرب عامةُ أهلِها، فنزلوا ناحيةً منها، فهَلَكَ مَن بَقِيَ في القرية، وسلم الآخرون، فلم يمتْ منهم كثيرٌ، فلمَّا ارتفع الطَّاعونُ؛ رجعوا سالمين، فقال الذين بَقوا: أصحابُنا هٰؤلاء كانوا أحزمَ منَّا، لو صَنَعْنا كما صنعوا؛ بقينا، ولئنْ وقع الطاعونُ ثانيةً؛ لَنَخْرُجَنَّ معهم. فوقع في قابل، فهربوا وهم بضعةٌ وثلاثون ألفًا، حتىٰ نزلوا ذٰلك المكان، وهو وادٍ أَفْيَحُ[2]، فناداهم مَلَكٌ من أسفل الوادي وآخرُ من أعلاه: أنْ موتوا. فماتوا، حتىٰ إذا هَلَكوا وبقيتْ أجسادُهم؛

(١) يعني: لحمايتهم من الحيوانات المفترسة.

(٢) الأفيح: الواسع.

مرَّ بهم نبيٌّ يُقال له: حَزْقِيَالُ، فلمَّا رآهم؛ وَقَفَ عليهم، فجعل يتفكَّر فيهم ويلوي شِدْقَيْه وأصابِعَه، فأوحىٰ الله إلَيه: تريدُ أن أرِيَكَ كيف أحييهم؟ قال: نعم. وإنَّما كان تفكيرُهُ أنَّه تعجَّب من قدرة الله عليهم. فقيل له: نادِ! فنادىٰ: يا أيتها العظامُ! إنَّ الله يأمُرُكِ أن تَجْتَمعي. فجعلتِ العظامُ يطير بعضُها إلىٰ بعض، حتىٰ كانت أجسادًا من عظام. ثم أوحىٰ اللهُ إليه: أن نادِ: يا أيتها العظامُ! إنَّ الله يأمُرِكِ أن تَكْتَسي لحمًا. فاكْتَسَتْ لحمًا ودمًا وثيابَها التي ماتت فيها. ثم قيل له: نادِ! فنادىٰ: أيتها الأجسادُ! إنَّ الله يأمُرُكِ أن تقومي. فقاموا. قال أسباطٌ: فزعم منصورٌ عن مجاهدٍ: أنَّهم قالوا حين أُحيوا: سبحانَكَ اللهمَّ وبحمدِكَ لا إلٰه إلَّا أنت! فرجعوا إلىٰ قومهم أحياءً؛ يعرفون أنَّهم كانوا موتىٰ، سَحْنَةُ[1] الموت علىٰ وجوههم، لا يَلْبَسون ثوبًا إلَّا عاد رسمًا[2]، حتىٰ ماتوا لآجالهم التي كُتبت لهم.

وعن ابن عباس أنهم كانوا أربعةَ آلاف. وعنه: ثمانيةَ آلاف. وعن أبي صالح: تسعةَ آلاف. وعن ابن عباس أيضًا: كانوا أربعين ألفًا. وعن سعيد بن عبد العزيز: كانوا من أهل أذرعاتٍ. وقال ابن جُريج عن عطاء: هٰذا مَثَلٌ! يعني: أنه سِيقَ مَثَلًا مبيِّنًا أنَّه لن يُغْنِيَ حذرٌ من قدرٍ! وقول الجمهور أقوىٰ أنَّ هٰذا وَقَعَ.

وقد روىٰ الإمام أحمدُ وصاحبا «الصحيح» من طريق: الزهريِّ، عن عبد الحميد بن عبد الرحمٰن بن زيدِ بن الخطَّابِ، عن عبد الله [بن عبد الله] بن الحارِثِ بن نَوْفل، عن عبد الله بن عباس: أن عُمَرَ بن الخطَّاب خَرَجَ إلىٰ الشام، حتىٰ إذا كان بِسَرْغٍ؛ لَقِيَهُ أمراء الأجناد؛ أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أنَّ الوباء وقع بالشام... فذكر الحديث (يعني: في مشاورته المهاجرين والأنصار فاختلفوا عليه)، فجاءه عبدُالرحمٰن بن عوف، وكان متغيِّبًا ببعض حاجته، فقال: إنَّ عندي من هٰذا علمًا، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **«إذا كان بأرضٍ وأنتم بها؛ فلا تَخْرُجوا فرارًا منه، وإذا سَمِعْتُم به بأرض؛ فلا تَقْدُموا عليه»**. فحمد اللهَ عمرُ ثم انصرف[3].

---

(١) سحنة: هيئة.

(٢) الرسم: البالي.

(٣) رواه: أحمد (١/ ١٩٣)، والبخاري (٧٦- الطب - ما يذكر في الطاعون، ١٠/ ١٧٩/ ٥٧٢٩)، ومسلم (٣٩-السلام، ٣٢- الطاعون، ٤/ ١٧٤٠/ ٢٢١٩)؛ من الطريق الأولىٰ. وأحمد (١/ ١٩٤)، =

وقال الإمام [أحمد]: حدثنا حجاجٌ ويزيدُ المعنىٰ[1] قالا: حدثنا ابن أبي ذئبٍ[2]، عن الزُّهريِّ، عن سالم، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة: أنَّ عبد الرحمٰن بن عوف أخبر عُمَرَ وهو في الشام عن النبي ﷺ: «**إنَّ هٰذا السَّقَم عُذِّبَ به الأممُ قبلَكم؛ فإذا سمعتُم به في أرض؛ فلا تَدْخُلوها، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها؛ فلا تَخْرُجوا فرارًا منه**». قال: فَرَجَعَ عمرُ من الشام[3].

وأخرجاه من حديث: مالك، عن الزهري... بنحوه.

۞ [ذكر وفاة حزقيال ومن جاء بعده من أنبياء بني إسرائيل]:

قال محمدُ بن إسحاق: ولمْ يُذْكَر لنا مدةُ لَبْثِ حَزِقْيال في بني إسرائيل، ثم إنَّ الله قَبَضَهُ إليه، فلمَّا قُبِضَ؛ نسي بنو إسرائيل عهدَ الله إليهم، وعظُمَتْ فيهم الأحداثُ، وعبدوا الأوثانَ، وكان في جملة ما يعبدُونه من الأصنام صنمٌ يقالُ له: بعلٌ، فبعث الله إليهم إلياسَ بنَ ياسينَ بنِ فِنْحاص بن أَلِيعازارَ بنِ هارون بن عِمران.

قلتُ: وقد قدَّمنا قصة إلياس تَبَعًا لقصَّة الخضر؛ لأنَّهما يُقْرَنان في الذِّكْر غالبًا، ولأجل أنها بعد قصَّة موسىٰ في سورة الصافات، فتعجَّلْنا قصَّتَه لذٰلك. والله أعلم.

قال محمد بن إسحاقَ فيما ذُكِرَ له عن وَهْب بن منبِّه؛ قال: ثم تنبَّأ فيهم بعدَ إلياسَ وصِيُّه اليَسَعُ بنُ أخطوب عليه السلام. وهٰذه:

= والبخاري (الموضع السابق، ٥٧٣٠)، ومسلم (الموضع السابق، ٢٢١٩)؛ من الطريق الأخرىٰ، لٰكنه عند الشيخين: عن الزهري، عن عبد الله بن عامر... به؛ بإسقاط سالم.

(١) في جميع الأصول: «المفتي»!! والمقصود أن حجاجًا حدث باللفظ ويزيد بمعناه.

(٢) في جميع الأصول: «ذؤيب»!! ولا يمكن هٰذا! والتصويب من مصادر التخريج.

(٣) تقدم تخريجه قبل قليل.

قصة اليسع عليه السلام

۞ [ذكره في القرآن الكريم]:

وقد ذكره الله تعالىٰ مع الأنبياء في سورة الأنعام في قولِهِ: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: ٨٦].

وقال الله تعالىٰ في سورة ص: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص: ٤٨].

۞ [ذكر نسبه ووفاته ووصيه من بعده]:

قال إسحاقُ بنُ بشرٍ أبو حذيفةَ: أنبأنا سعيدٌ، عن قَتادة، عن الحسنِ؛ قال: كان بعدَ إلياسَ اليَسَعُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فمَكَثَ ما شاء الله أن يَمْكُثَ؛ يدعوهم إلىٰ الله؛ مستمسِّكًا بمنهاج إلياسَ وشريعتِهِ، حتىٰ قَبَضَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ إليه، ثم خَلَفَ فيهم الخُلوفُ، وعظُمَتْ فيهم الأحداثُ والخطايا، وكَثُرَتِ الجبابرةُ وقتَلوا الأنبياءَ، وكان فيهم ملكٌ عنيدٌ طاغ، ويُقالُ: إنَّه الذي تكَفَّلَ له ذو الكفل؛ إنْ هو تاب ورَجَعَ؛ دَخَلَ الجنةَ، فسُمِّيَ ذا الكفل.

قال محمدُ بن إسحاقَ: هو اليَسَعُ بن أخطوب.

وقال الحافظُ أبو القاسم بنُ عساكرَ في حرف الياء من «تاريخه»(١): اليسعُ، وهو الأسباطُ بنُ عديِّ بنِ شوتلم بنِ أفرايِمَ بنِ يوسفَ بنِ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ الخليل. ويقال: هو ابنُ عمِّ إلياسَ النبيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ. ويقالُ: كان مستخفيًا معه بجبل قاسيونَ من مَلِكِ بَعْلَبَكَّ، ثم ذهب معه إليها، فلمَّا رُفعَ إلياسُ؛ خَلَفَه اليَسَعُ في قومه، ونبَّأه الله بعدَه. ذكر ذٰلك عبد المنعم بنُ إدريس بنِ سنان، عن أبيه، عن وَهْبِ بن مُنَبِّهٍ. قال: وقال غيرُهُ: وكان الأسباطُ ببانياسَ. ثم ذكر ابنُ عساكر(٢) قراءةَ من قَرَأَ اليَسَعَ بالتخفيف والتشديد ومن قرأ: واللَّيْسَعَ، وهو اسمٌ واحدٌ لنبيٍّ من الأنبياء.

قلتُ: قد قدَّمنا قصَّة ذا الكفل بعد قصة أيوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّه قد قيل: إنَّه ابنُ أيوبَ. فالله تعالىٰ أعلم.

---

(١) غير مطبوع بعد. لٰكن ينظر لهٰذا: «مختصره» (٢٨/ ٣٦-٣٧).

(٢) انظر: «مختصره» (٢٨/ ٣٧).

۞ فصل [في ذكر طرف من أخبار بني إسرائيل في هٰذه الفترة]:

قال ابنُ جريرٍ[(١)] وغيرُه: ثمَّ مَرَجَ أمرُ بني إسرائيل، وعَظُمَتْ منهم الخُطوبُ والخطايا، وقَتَلوا مَنْ قَتَلوا من الأنبياءِ، وسَلَّطَ الله عليهم بدلَ الأنبياءِ ملوكًا جبَّارينَ يَظْلِمونَهم ويسفِكون دماءَهم، وسلَّطَ الله عليهم الأعداءَ من غيرِهم أيضًا، وكانوا إذ قاتلوا أحدًا من الأعداء؛ يكونُ معهمْ تابوتُ الميثاقِ الذي كان في قبةِ الزمان؛ كما تقدَّم ذِكْره[(٢)]، فكانوا يُنصرون ببركتِهِ وبما جَعَلَ اللهُ فيه من السَّكينة والبقيَّة ممَّا تركَ آل موسىٰ وآل هارون، فلمَّا كان في بعضِ حروبهم مع أهل غزةَ وعسقلانَ؛ غلبوهم وقَهروهم علىٰ أخذِهِ، فانتزعوه من أيديهم، فلمَّا عَلِمَ بذٰلك مَلِكُ بنىٰ إسرائيل في ذٰلك الزمان؛ مالتْ عُنُقُهُ فماتَ كَمَدًا، وبقي بنو إسرائيلَ كالغنم بلا راع، حتىٰ بَعَثَ الله فيهم نبيًّا من الأنبياء يقالُ له: شَمويل، فطلبوا منه أن يقيمَ لهم مَلِكًا لِيُقاتلوا معه الأعداء، فكان من أمرهم ما سنذكُرُه ممَّا قصَّ الله في كتابه.

قال ابنُ جريرٍ[(٣)]: فكان من وفاة يوشعَ بن نون إلىٰ أن بَعَثَ الله ﷻ شَمويل بنَ بالي أربع مئة سنةٍ وستون سنةً... ثم ذكر تفصيلَها بمددِ الملوك الذين مَلَكوا عليهم وسَمَّاهم واحدًا واحدًا. تركنا ذِكْرَهم قصدًا.

۞ ۞ ۞

(١) في «التاريخ» (١/ ٢٧٥).

(٢) انظر (ص٤٥٠-٤٥٣).

(٣) في «التاريخ» (١/ ٢٧٥).

قصة شمويل عليه السلام
وفيها بدء أمر داوود عليه السلام

❁ **[ما جاء في نسبه ﷺ]:**

هو شَمويل (ويقالُ: أشْمُويل) بنُ بالي بنِ علقمةَ بنِ يرخَام بنِ أليهو بنِ تهو بنِ صوفِ بنِ علقمةَ بنِ ماحثَ بنِ عموصا بن عزريا. قال مقاتل: وهو من ورثةِ هارون. وقال مجاهدٌ: هو أشمويل بن هلفانا. ولم يرفع في نسبه أكثر من هٰذا(١). فالله أعلم.

❁ **[ذكر نبوته ﷺ]:**

حكىٰ السُّدِّيُّ بإسنادِهِ عن ابن عباس وابن مسعودٍ وأناس من الصحابة، والثعلبيُّ(٢)، وغيرُهم: أنَّه لمَّا غَلَبَتِ العمالقةُ من أرض غَزَّةَ وعسقلانَ علىٰ بني إسرائيل، وقتلوا منهم خَلْقًا كثيرًا وسَبَوا من أبنائهم جَمْعًا كثيرًا، وانقطعتِ النبوَّةُ من سبط لاوي، ولم يبقَ فيهم إلَّا امرأةٌ حُبْلىٰ، فجعلتْ تدعو الله ﷻ أن يرزُقَها ولدًا ذكرًا، فولدت غلامًا، فسمتْه أشْمُويل، ومعناه بالعبرانية: إسماعيل؛ أي: سمع الله دعائي. فلمَّا ترعرع؛ بعثَتْه إلىٰ المسجدِ، وأسلمتْه عند رجل صالح فيه يكونُ عندَه ليتعلَّم من خيرِهِ وعبادته، فكان عندَه، فلمَّا بَلَغَ أشُدَّه، بينما هو ذاتَ ليلةٍ نائمٌ؛ إذا صوتٌ يأتيه من ناحيةِ المسجدِ، فانتبه مذعورًا، فظنَّه الشيخَ يدعوه، فسأله: أدعوتَني؟ فكره أن يُفْزِعَه، فقال: نعم؛ نَمْ. فنام، ثم ناداه الثانيةَ؛ فكذٰلك، ثم الثالثةَ؛ فإذا جبريلُ يدعوه، فجاءه، فقال: إنَّ ربَّك قد بَعَثَكَ إلىٰ قومك. فكان من أمرِهِ معهم ما قصَّ الله في كتابِهِ.

(١) والذي عند أهل الكتاب في (سفر صموئيل الأول/ الأصحاح١) أنه صموئيل بن ألقانَة بن يَروحام بن أليهو بن تُوحُو بن صوف. وأنه أفرايمي. وصموئيل هو تعريب صحيح وسليم لشمويل، وهو أجمل وألطف من اللفظ العبري، ولٰكن آثرت إبقاءه علىٰ ما هو عليه -مخالفًا ما جريت عليه في سائر الكتاب- نظرًا للروايات التي ستأتي بزيادة الهمزة علىٰ اسمه، ومتابعة للمؤرخين المسلمين الذين أجمعوا علىٰ أنه شمويل.

(٢) في «عرائس المجالس» (ص٢٦٥).

۞ [ذكر خبر طالوت وجالوت وبدء أمر داوود عليه السلام]:

قال الله تعالىٰ في كتابه العزيز: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٤٦-٢٥١].

قال أكثرُ المفسرين: كان نبيُّ هٰؤلاء القوم المذكورين في هٰذه القصة هو شمُويل. **وقيل**: شمعون. **وقيل**: هما واحدٌ. **وقيل**: يوشَعُ. وهٰذا بعيدٌ؛ لِما ذكره الامام أبو جعفر بن جرير في «تاريخه»(١): أنَّ بين موت يوشَعَ وبعثةِ شمويلَ أربع مئة وستين سنةً. فالله أعلم.

والمقصودُ: أنَّ هٰؤلاء القوم لمَّا أنهكَتْهُمُ الحروبُ وقَهَرهم الأعداءُ؛ سألوا نبيَّ الله في ذٰلك الزمانِ، وطلبوا منه أن يَنْصِبَ لهم مَلِكًا يكونون تحت طاعته؛ ليقاتِلوا من ورائِهِ ومعه وبين يديه الأعداء، فقال لهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا

(١) (١/ ٢٧٥).

﴿أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وأيُّ شيءٍ يمنعُنا من القتال. ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾؛ يقولون: نحن محروبون موتورون؛ فحقيقٌ لنا أن نقاتِلَ عن أبنائِنا المنهورينَ المستضعفينَ فيهم المأسورينَ في قبضتِهِم.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾؛ كما ذَكَرَ في آخر القصةِ أنَّه لم يجاوزِ النهرَ مع الملك إلَّا القليلُ، والباقون رَجَعوا ونكَلوا عن القتال.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ﴾: قال الثعلبيُّ[1]: وهو طالوتُ بنُ قَيْسِ بنِ أبيئيلَ بنِ صَرُورَ بنِ بَكُورَةَ بن أَفِيحَ بن أنيس بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. قال عِكْرِمَةُ والسُّدِّيُّ: كان سقاءً. وقال وَهْبُ بن منبِّهٍ: كان دبَّاغًا. وقيل غير ذٰلك. والله أعلم.

ولهٰذا قالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ﴾: وقد ذَكَروا أنَّ النبوَّةَ كانت في سِبْطِ لاوي، وأنَّ المُلْكَ كان في سِبْطِ يهوذا، فلمَّا كان هٰذا من سبط بَنيامينَ؛ نفروا منه، وطعنوا في إمارتِهِ عليهم، وقالوا: نحنُ أحقُّ بالملكِ منه! وقد ذكروا أنَّه فقيرٌ لا سَعَةَ من المال معه؛ فكيف يكون مثلُ هٰذا ملكًا؟!

﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ﴾: **قيل**: كان الله قد أوحىٰ إلىٰ شَمويلَ أن أيَّ بني إسرائيل كان طولُهُ علىٰ طولِ هٰذه العصا، وإذا حَضَرَ عندَك يفورُ هٰذا القرن الذي فيه من دُهنِ القدس؛ فهو مَلِكُهُم. فجعلوا يدخُلون ويقيسون أنفسَهم بتلك العصا، فلم يكنْ أحدٌ منهم علىٰ طولها سوىٰ طالوتَ، ولمَّا حَضَرَ عند شَمويلَ؛ فار ذٰلك القرنُ، فَدَهَنَهُ منه، وعيَّنَه للمَلِكَ[2] عليهم، وقال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ﴾: **قيل**: في أمر الحروب. **وقيل**: بل مطلقًا ﴿وَٱلْجِسْمِ ۖ﴾: **قيل**: الطول. **وقيل**: الجمال. والظاهر من السياق أنَّه كان أجملَهم وأعلَمَهم بعد نبيِّهم ﷺ. ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ﴾: فله الحُكْمُ وله الخَلْقُ والأمرُ. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾.

---

(١) في «عرائس المجالس» (ص٢٦٨). وقد اختلفوا في نسبه اختلافًا شديدًا، فأثبتُّ ما في «العهد القديم» (سفر صموئيل الأول/ الأصحاح٩).

(٢) في نسخة: «للملك».

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾: وهٰذا أيضًا من بركة ولاية هٰذا الرجل الصَّالح عليهم ويُمْنِهِ عليهم أنْ يَرُدَّ اللهُ عليهم التابوتَ الذي كان سُلِبَ منهم وقَهَرَهُم الأعداءُ عليه، وقد كانوا يُنْصَرون علىٰ أعدائهم بسببه. ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: قيل: طَسْتٌ من ذهبٍ كان يُغْسَلُ فيه صدورُ الأنبياء. وقيل: السكينةُ مثل الريح الخَجوج[1]. وقيل: صورتُها مثلُ الهرَّة؛ إذا صَرَخَت في حال الحرب؛ أيقن بنو إسرائيل بالنصر. ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾: قيل: كان فيه رُضاضُ الألواح[2] وشيءٌ من المَنِّ الذي كان نَزَلَ عليهم بالتِّيه. ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: تأتيكم به الملائكةُ يحمِلونه وأنتم ترونَ ذٰلك عيانًا؛ ليكونَ آيةَ الله عليكم وحُجَّةً باهرةً علىٰ صدق ما أقولُه لكم وعلىٰ صحَّة ولايةِ هٰذا الملك الصالح عليكم. ولهٰذا قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾.

وقيل: إنَّه لَمَّا غَلَبَ العمالقةُ علىٰ هٰذا التابوت، وكان فيه ما ذُكِرَ من السكينةِ والبقيةِ المباركة، وقيل: كان فيه التوراةُ أيضًا، فلمَّا استقرَّ في أيديهم؛ وَضَعوه تحتَ صنم لهم بأرضِهم، فلمَّا أصبحوا؛ إذا التابوتُ علىٰ رأس الصنم، فوضعوه تحته، فلمَّا كان اليومُ الثاني؛ إذا التَّابوتُ فوقَ الصنم، فلمَّا تكرَّر هٰذا؛ علموا أنَّ هٰذا أمرٌ من الله تعالىٰ، فأخرجوه من بلدِهِم، وجعلوه في قريةٍ من قُراهم، فأخذهم داءٌ في رقابِهِم، فلمَّا طال عليهم هٰذا؛ جَعَلوه في عَجَلَةٍ، وربطوها في بقرتين، وأرسلوهما، فيقالُ: إنَّ الملائكةَ ساقَتْهُما حتىٰ جاؤوا بهما ملأ بني إسرائيلَ وهم ينظرون كما أخبرهم نبيُّهم بذٰلك. فالله أعلم علىٰ أيِّ صفةٍ جاءتْ به الملائكةُ. والظاهرُ أنَّ الملائكةَ كانت تحمِلُه بأنفسهم كما هو المفهوم من الآيةِ. والله أعلم. وإن كان الأولُ قد ذَكَرَهُ كثيرٌ من المفسِّرين أو أكثرُهم.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾: قال ابنُ عباس وكثيرٌ من المفسِّرين: هٰذا النهر هو نهرُ الأردنِّ، وهو المسمَّىٰ بالشَّريعة، فكان من أمرِ طالوتَ بجنودِهِ عند هٰذا النهر عن أمرِ نبيِّ اللهِ له عن أمرِ اللهِ له اختبارًا وامتحانًا: أنَّ مَنْ شَرِبَ من هٰذا النهر؛ فلا يَصْحَبْني في هٰذه

(١) الريح الخجوج: الريح الشديدة، أو الملتوية في هبوبها.

(٢) الرضاض: الفتات والكسارة. والألواح: هي التي أنزلها الله سبحانه علىٰ موسىٰ عليه السلام. وكتب له فيها التوراة.

الغزوة، ولا يَصْحَبْني إلَّا مَن لمْ يَطْعَمْه؛ إلَّا غُرفةً بيدِهِ. قال الله تعالىٰ: ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾: قال السُّدِّيُّ: كان الجيشُ ثمانين ألفًا، فشرب منه ستةٌ وسبعون ألفًا، فبقي معه أربعةُ آلافٍ. كذا قال! وقد روىٰ البخاريُّ في «صحيحه»[1] من حديث: إسرائيل وزهير والثوريِّ، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب؛ قال: كنَّا أصحابَ محمدٍ ﷺ نتحدَّثُ أنَّ عِدَّةَ أصحابِ بدرٍ علىٰ عدَّةِ أصحاب طالوتَ الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوِزْ معه إلَّا بضعةَ عشرَ وثلاثُ مئةِ مؤمن. وقولُ السُّدِّيِّ: إنَّ عِدَّةَ الجيشِ كانوا ثمانين ألفًا! فيه نظرٌ؛ لأنَّ أرض بيتِ المقدس لا تحتملُ أن يَجْتَمعَ فيها جيشُ مقاتلةٍ يبلغون ثمانين ألفًا. والله أعلم.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾؛ أي: استقلُّوا أنفسَهم واستَضْعَفوها عن مقاومةِ أعدائهم بالنسبة إلىٰ قِلَّتِهم وكثرةِ عدد عدوِّهم! ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾؛ يعني: ثَبَّتَهُم الشجعانُ منهم[2] والفرسان، أهل الإيمانِ والإيقان، الصابرون علىٰ الجِلاد والجِدال والطِّعان.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾: طلبوا من الله أن يُفْرِغَ عليهم الصبرَ؛ أي: يَغْمُرَهم به من فوقهم، فتستقرَّ قلوبُهم ولا تقلقَ، وأن يُثَبِّتَ أقدامَهم في مجال الحرب ومُعْتَرَكِ الأبطال وحَوْمَةِ الوَغىٰ والدُّعاء إلىٰ النِّزال، فسألوا التثبيتَ الظاهِرَ والباطن، وأن يُنْزِلَ عليهم النصرَ علىٰ أعدائِهِم وأعدائه من الكافرين الجاحدين بآياتِهِ وآلائه.

فأجابَهُم العظيمُ القدير السميعُ البصير الحكيمُ الخبير إلىٰ ما سألوا، وأنالهم ما إليه فيه رغبوا، ولهٰذا قال: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بحول الله لا بِحَوْلِهم، وبقوة اللهِ ونصره لا بقوَّتِهم وعَدِدِهم، مع كثرة أعدائِهم وكمال عُدَدِهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ﴾:

---

(١) (٦٤- المغازي، ٦-عدة أصحاب بدر، ٧/ ٢٩٠/ ٣٩٥٧-٣٩٥٩).

(٢) في نسخة: «يعني بها الفرسان منهم».

فيه دلالةٌ علىٰ شجاعة داوودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنَّه قتله قتلًا أذلَّ به جندَه وكسرَ جيشَه، ولا أعظمَ من غزوةٍ يَقْتُلُ فيها مَلِكٌ عدوَّه، فيغنمَ بسببِ ذٰلك الأموال الجزيلة، ويأسُرَ الأبطالَ والشجعانَ والأقران، وتعلوَ كلمةُ الإيمان علىٰ الأوثان، ويُدالَ لأولياءِ الله علىٰ أعدائه، ويظهرَ الدينُ الحقُّ علىٰ الباطل وأوليائه.

وقد ذكر السُّدِّيُّ فيما يرويه: أنَّ داوودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان أصغرَ أولادِ أبيه، وكانوا ثلاثةَ عشر ذَكَرًا، كان سَمِعَ طالوتَ مَلِكَ بني إسرائيل وهو يحرِّضُ بني إسرائيل علىٰ قَتْلِ جالوتَ وجنودِهِ وهو يقولُ: مَنْ قَتَلَ جالوتَ؛ زَوَّجْتُه بابنتي وأشْرَكْتُه في مُلْكي. وكان داوودُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يرمي بالقَذَّافةِ -وهو المِقْلاعُ- رميًا عظيمًا؛ فبينا هو سائرٌ مع بني إسرائيلَ؛ إذ ناداه حجرٌ أنْ خُذْني؛ فإنَّ بي تَقْتُلُ جالوتَ! فأخذَه، ثم حجرٌ آخرُ كذٰلك، ثم آخرُ كذٰلك، فأخذ الثلاثةَ في مِخْلاتِهِ، فلمَّا تواجَهَ الصفَّانِ؛ برز جالوتُ! ودعا إلىٰ نفسِهِ، فتقدَّم إليه داوودُ، فقال له: ارجِعْ؛ فإنِّي أكرهُ قتلَكَ! فقال: لكنِّي أحبُّ قتلَكَ. وأخذ تلكَ الأحجارَ الثلاثة، فوضَعَها في القذَّافةِ، ثم أدارَها، فصارت الثلاثةُ حجرًا واحدًا، ثم رمىٰ بها جالوتَ، ففلقَ رأسَه، وفرَّ جيشُه منهزمًا، فوفىٰ له طالوتُ بما وَعَدَه، فزوَّجَه ابنتَه، وأجرىٰ حُكْمَهُ في مُلْكِهِ، وعَظُم داوودُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عند بني إسرائيل، وأحبُّوه ومالوا إليه أكثرَ من طالوتَ، فذكروا أنَّ طالوتَ حَسَدَه، وأرادَ قَتْلَه، واحتال علىٰ ذٰلك، فلم يَصِلْ إليه، وجعل العلماءُ يَنْهَوْنَ طالوت عن قتل داوودَ، فتسلَّطَ عليهم، فقَتَلَهم حتىٰ لم يَبْقَ منهم إلَّا القليلُ، ثم حصل له توبةٌ وندمٌ وإقلاعٌ عمَّا سَلَفَ منه، وجعل يُكْثِرُ من البكاء ويَخْرُجُ إلىٰ الجبَّانةِ[1] فيبكي حتىٰ يَبُلَّ الثَّرىٰ بدموعِهِ، فنودي ذاتَ يوم من الجَبَّانة: أن يا طالوتُ! قَتَلْتَنا ونحنُ أحياءٌ وآذيْتَنا ونحن أمواتٌ! فازداد لذٰلك بكاؤه وخوفُه، واشتدَّ وَجَلُه، ثم جعل يسأَلُ عن عالم يسأَلُهُ عن أمرِهِ وهل له من توبةٍ؟ فقيل له: وهل أبقيتَ عالمًا؟! حتىٰ دُلَّ علىٰ امرأةٍ من العابداتِ، فأخذتْه، فذهبتْ به إلىٰ قبرِ يوشعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. قالوا: فدعتِ اللهَ، فقام يوشَعُ من قبرِهِ، فقال: أقامتِ القيامةُ؟ فقالت: لا، ولٰكنْ هٰذا طالوتُ يسأَلُك: هل له من توبةٍ؟ فقال: نعم؛ ينخَلِعُ من الملكِ، ويذهبُ فيقاتِلُ في سبيل الله

(١) الجبَّانة: المقبرة.

حتىٰ يقتلَ. ثم عاد ميتًا. فترك المُلْكَ، لداوودَ عليه السلام، وذهب ومعه ثلاثة عشر من أولادِهِ، فقاتلوا في سبيل الله حتىٰ قُتِلوا. قالوا: فذٰلك قولُه: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾. هٰكذا ذَكَرَهُ ابن جريرٍ في «تاريخه»[1] من طريق السُّدِّيِّ بإسناده! وفي بعض هٰذا نظرٌ ونكارةٌ. والله أعلم.

وقال محمدُ بن إسحاق: النبيُّ الذي بُعِثَ فأخبر طالوتَ بتوبتِهِ هو اليسعُ بن أخطوبَ. حكاهُ ابن جريرٍ أيضًا[2].

وذكر الثعلبيُّ[3] أنَّها أتت به إلىٰ قبر شمويلَ، فعاتَبَه علىٰ ما صَنَع بعدَه من الأمور. وهٰذا أنسبُ. ولعلَّه إنَّما رآهُ في النوم، لا أنَّه قام من القبرِ حيًّا؛ فإنَّ هٰذا إنَّما يكون معجزةً لنبيٍّ، وتلك المرأةُ لم تكنْ نبيَّةً. والله أعلم.

قال ابن جريرٍ[4]: وزعمَ أهلُ التوراة أنَّ مدَّة ملك طالوتَ إلىٰ أن قُتِلَ مع أولادِهِ أربعون سنةً. فالله أعلم.

(١) (١/ ٢٧٨-٢٨٠).
(٢) (١/ ١٧٨-٢٨٠).
(٣) في «العرائس» (ص٢٧٦-٢٧٧).
(٤) (١/ ٢٧٨-٢٨٠).

قصة داوود عليه السلام
وما كان في أيامه
وذكر فضائله وشمائله ودلائل نبوته وأعلامه

۞ [ذكر نسبه وصفته ﷺ]:

هو داوودُ بنُ يَسَّىٰ بنِ عُوبيدَ بنِ بُوعَزَ بنِ سَلْمونَ بنِ نَحْشونَ بنِ عَمِّيناداب بنِ أرامَ بنِ حَصْرُونَ بنِ فارِصَ بنِ يَهوذا بنِ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ الخليل، عبدُالله ونبيُّه وخليفتُهُ في أرض بيت المقدس.

قال محمدُ بن إسحاقَ: عن بعض أهل العلم، عن وَهْب بن مُنَبِّه: كان داوود عليه السلام قصيرًا، أزرق العينين، قليل الشعر، طاهر القلب ونقيَّه.

۞ [ذكر بدء أمره ﷺ]:

تقدَّم أنه لمَّا قَتَلَ جالوتَ -وكان قتلُهُ له فيما ذَكَرَ ابنُ عساكرَ[1] عند قصرِ أمِّ حكيم بقرب مَرْج الصُّفَّر[2] -؛ فأحبَّتْه بنو إسرائيل ومالوا إليه وإلىٰ مُلْكِهِ عليهم، فكان من أمرِ طالوت ما كان، وصار الملكُ إلىٰ داوودَ عليه السلام، وجمع اللهُ له بين الملكِ والنبوَّةِ؛ بين خير الدنيا والآخرة، وكان المُلْكُ يكون في سِبْطٍ والنبوَّةُ في آخر، فاجتمعَ في داوود هٰذا.

وهٰذا كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥١]؛ أي: لولا إقامةُ الملوك حكامًا علىٰ الناس؛ لأكل قويُّ

---

(١) في «تاريخه» (١٧/ ٨٠).

(٢) مرج الصُّفَّر: موضع قريب من دمشق.

الناس ضعيفَهم. ولهٰذا جاءَ في بعض الآثار: السلطانُ ظِلُّ الله في أرضِهِ[١]. وقال أميرُ المؤمنينَ عثمانُ بنُ عفان: إنَّ اللهَ لَيَزَعُ بالسلطانِ ما لا يَزَعُ بالقرآن.

وقد ذكر ابنُ جرير في «تاريخه»[٢]: أنَّ جالوت لمَّا بارزَ طالوتَ، فقال له: اخْرُجْ إليَّ وأَخْرُجُ إليكَ. فندبَ طالوتُ الناسَ، فانتدب داوودُ، فقتل جالوتَ. قال وَهْبُ بن منبِّهٍ: فمال الناس إلىٰ داوود، حتىٰ لم يكنْ لطالوتَ ذكرٌ، وخلعوا طالوتَ، وولَّوْا عليهم داوود. وقيل: إنَّ ذٰلك عن أمرِ شَمويل، حتىٰ قال بعضُهم: إنَّه ولَّاه قبل الوقعةِ. قال ابنُ جَريرٍ[٣]: والذي عليه الجمهورُ أنَّه إنَّما وَلِيَ ذٰلك بعد قتل جالوت. والله أعلم.

وروىٰ ابنُ عساكر[٤] عن سعيد بن عبد العزيز: أنَّ قَتْلَهُ جالوتَ كان عند قصرِ أمِّ حكيم، وأنَّ النهر الذي هناك هو المذكورُ في الآية. فالله أعلم.

❁ [ما جاء في أن داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يأكل من كسب يده]:

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ: ١٠-١١].

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء: ٧٩-٨٠].

أعانه الله علىٰ عمل الدُّروع من الحديد؛ لِيُحْصِنَ المقاتلةَ من الأعداء، وأرشَدَه إلىٰ صنعتِها وكيفيَّتِها، فقال: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١]؛ أي: لا تُدِقَّ المسمارَ فَيَقْلَقَ، ولا تُغْلِظْهُ فيَفْصِمَ. قاله مجاهدٌ وقَتادةُ والحكمُ وعكرمةُ. قال الحسنُ البصريُّ وقَتادةُ والأعمشُ: كان اللهُ قد ألانَ له الحديدَ حتىٰ كان يفتِلُه بيدِهِ لا يحتاجُ إلىٰ نار ولا مطرقةٍ. قالَ قَتادة: فكان أولَ مَن عَمِلَ الدُّروع من زُرَدٍ، وإنَّما كانت قبل ذٰلك من صفائحَ. قال ابن شَوْذبٍ: كان يعملُ كلَّ يوم

---

(١) قد أحسن الحافظ ابن كثير إذ لم يرفعها؛ فالمرفوعات في هٰذا المعنىٰ ضعيفة جدًّا ومنكرة. وانظر: «السلسلة الضعيفة» (٤/ ١٥٩/ ١٦٦١-١٦٦٤).

(٢) (١/ ٢٨٢).

(٣) (١/ ٢٨٢).

(٤) في «التاريخ» (١٧/ ٨٠).

دِرْعًا يبيعُها بستَّةِ آلاف درهم. وقد ثبت في الحديث: «**إنَّ أطيبَ ما أكلَ الرجلُ من كسبِهِ، وإنَّ نبيَّ الله داوودَ كان يأكُلُ من كسب يده**»(١).

۞ [ما جاء في تسبيح داوود وعبادته عليه السلام]:

وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝١٩ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ۝٢٠﴾ [ص: ١٧-٢٠].

قال ابنُ عباس ومجاهدٌ: الأَيْدُ: القوَّةُ في الطاعة. يعني: ذا قوَّةٍ في العبادة والعمل الصالح. قال قَتادة: أُعْطِي قوةً في العبادة وفقهًا في الإسلام. قال: وقد ذُكِرَ لنا أنَّه كان يقومُ الليل ويصومُ نصفَ الدَّهر. وقد ثبت في الصحيحين: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أحبُّ الصلاةِ إلى الله صلاةُ داوودَ، وأحبُّ الصيام إلى اللهِ صيامُ داوودَ: كان ينام نصفَ الليلِ ويقومُ ثُلُثَهُ وينام سُدُسَه، وكان يصومُ يومًا ويُفْطِرُ يومًا ولا يَفِرُّ إذا لاقى**»(٢).

وقوله: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝١٩﴾: كما قال: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ﴾؛ أي: سبِّحي معه. قاله ابنُ عباس ومجاهدٌ وغيرُ واحد في تفسير هٰذه الآية. ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ۝١٨﴾؛ أي: عند آخر النهار وأولِهِ، وذٰلك أنَّه كانَ الله تعالىٰ قد وَهَبَهُ من الصوت العظيم ما لم يُعْطَهُ أحدٌ؛ بحيثُ إنَّه كان إذا تَرَنَّمَ بقراءةِ كتابِهِ؛ يَقِفُ الطيرُ في الهواء يُرَجِّعُ بترجيعِهِ ويسبِّحُ بتسبيحِهِ، وكذٰلك الجبالُ تجيبُهُ وتسبِّحُ معه كلَّما سبَّحَ بُكرةً وعشيًّا صلوات الله وسلامه عليه.

وقال الأوزاعيُّ: حدثني عبدُالله بن عامر؛ قال: أُعطِيَ داوودُ من حُسْنِ الصوتِ ما لم يُعْطَ أحدٌ قطُّ، حتىٰ إنْ كان الطيرُ والوحشُ ينعكِفُ حولَه حتىٰ يموتَ عَطَشًا وجوعًا، وحتىٰ إنَّ الأنهار لتقفُ.

وقال وهبُ بن منبِّهٍ: كان لا يسمعُهُ أحدٌ إلَّا حَجَلَ كهيئةِ الرقص، وكان يقرأُ الزَّبورَ بصوتٍ لم

---

(١) رواه: البخاري (٣٤- البيوع، ١٥-كسب الرجل وعمله بيده، ٤/ ٣٠٣/ ٢٠٧٢) من حديث المقدام. وفي الباب عن أبي هريرة عندهما.

(٢) رواه: البخاري (٦٠- الأنبياء، ٣٨-أحب الصلاة إلىٰ الله، ٦/ ٤٥٥/ ٣٤٢٠)، ومسلم (١٣- الصيام، ٣٥- النهي عن صوم الدهر، ٢/ ٨١٢/ ١١٥٩)؛ من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما.

تسمعِ الآذانُ بمثلِهِ، فَيَعْكُفُ الجنُّ والإنسُ والطيرُ والدوابُّ علىٰ صوتِهِ حتىٰ يَهْلِكَ بعضُها جوعًا.

وقال أبو عَوانَةَ الإسفراييني: حدَّثنا أبو بكر بنُ أبي الدُّنيا، حدثنا محمد بن منصور الطُّوسيُّ: سمعت صبيحًا أبا ترابٍ. ح: قال أبو عَوانة: وحدَّثني أبو العباس المُرِّيُّ(١)، حدثنا محمدُ بنُ صالح العدويُّ، حدثنا سيارٌ (هو ابنُ حاتم)، عن جعفر، عن مالك؛ قال: كان داوودُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا أَخَذَ في قراءة الزَّبورِ؛ تفتَّقَتِ العذارىٰ. وهٰذا غريبٌ.

وقال عبد الرزاقِ(٢): عن ابن جُريج، سألتُ عطاءً عن القراءة علىٰ الغناءِ؟ فقال: وما بأسٌ بذٰلك؟! سمعتُ عبيد بن عمر يقولُ: كان داوودُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يأخُذُ المِعْزَفَةَ، فيضرِبُ بها، فيقرأُ عليها، فتردُّ عليه صوتَه. يريدُ بذٰلك أنْ يَبْكىٰ ويُبْكىٰ.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبدُالرزاقِ، حدثنا معمرٌ، عن الزهريِّ، عن عُروةَ، عن عائشةَ؛ قالت: سمع رسولُ اللهِ ﷺ صوتَ أبي موسىٰ الأشعريِّ وهو يقرأُ، فقال: «**لقد أوتِيَ أبو موسى من مزاميرِ آلِ داوودَ**»(٣). وهٰذا علىٰ شرط الشيخين ولم يخرِّجاه من هٰذا الوجه.

وقال أحمدُ: حدَّثنا حسنٌ، حدثنا حمَّادُ بن سَلَمة، عن محمدِ بن عمرَ، عن أبي سلمةَ، عن أبي هريرة: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**لقد أُعْطِيَ أبو موسى من مزاميرِ داوودَ**»(٤). علىٰ شرط مسلم.

(١) في جميع الأصول: «المدني». والتصويب من «تاريخ ابن عساكر» (١٧/ ١٠٠).

(٢) في «المصنف» (٢/ ٤٨١/ ٤١٦٥)، وعنه ابن عساكر (١٧/ ١٠٠).

(٣) (**صحيح**). رواه: عبد الرازق (٢/ ٤٨٥/ ٤١٧٧)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣٨٩/ ٣٢٢٤٩ و٣٢٢٥٠)، وأحمد (٦/ ٣٧ و١٦٧ بهٰذا السند)، والدارمي (١/ ٣٤٩)، والنسائي (١١-الافتتاح، ٨٣- تزيين القرآن، ٢/ ١٨٠/ ١٠١٩ و١٠٢٠)، وابن حبان (١٦/ ١٦٧/ ٧١٩٥)؛ من هٰذا الطريق وغيره. وسند عبد الرازق صحيح علىٰ شرط الشيخين. وصححه الألباني. وهو في الصحيحين من حديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) (**صحيح**). رواه: أحمد (٢/ ٣٦٩ و٤٥٠)، والدارمي (٢/ ٤٧٣)، وابن ماجه (٥-إقامة الصلاة، ١٧٦- حسن الصوت بالقرآن، ١/ ٤٢٥/ ١٣٤١)، والنسائي (الموضع السابق، ١٠١٦-١٠١٨)، وابن حبان (١٦/ ١٦٨/ ٧١٩٦)؛ من طرق عن أبي سلمة بن عبد الرحمن... به.

قال في «الزوائد»: «أصله في الصحيحين من حديث أبي موسىٰ، وفي مسلم من حديث بريدة، وفي النسائي من حديث عائشة، وإسناد حديث أبي هريرة رجاله ثقات». قلت: بعض أسانيد النسائي علىٰ شرط الشيخين. وصححه الألباني.

وقد رُوِّينا عن أبي عثمانَ النَّهْدِيِّ: أنَّه قال: لقد سمعتُ البَرْبَطَ(١) والمزمارَ؛ فما سمعتُ صوتًا أحسنَ من صوت أبي موسىٰ الأشعريِّ.

وقد كانَ مع هٰذا الصوتِ الرخيم سريعَ القراءةِ لكتابِهِ الزَّبورِ:

كما قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا عبدُالرزاق، حدثنا معمرٌ، عن همَّام، عن أبي هُريرة؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**خُفِّفَ على داوودَ القراءةُ، فكان يأمُرُ بدابَّتِهِ فتُسْرَجُ، فكان يقرأُ القرآنَ مِنْ قَبْلِ أنْ تُسْرَجَ دابَّتُه، وكان لا يأكُلُ إلَّا من عَمَلِ يديهِ**»(٢).

وكذٰلك رواه البخاريُّ منفردًا به عن: عبد الله بن محمد، عن عبد الرزاق... به، ولفظه: «**خُفِّفَ على داوودَ القرآنُ، فكان يأمُرُ بدوابِّهِ، فتُسْرَجُ، فيقرأُ القرآنَ قبل أن تُسْرَجَ دوابُّه، ولا يأكُلُ إلَّا مِن عمل يديه**»(٣). ثم قال البخاريُّ: ورواه موسىٰ بنُ عقبةَ، عن صفوانَ (هو ابنُ سليم)، عن عطاء بن يسارٍ، عن أبي هريرةَ، عن النبي ﷺ.

وقد أسنده ابنُ عساكرَ في ترجمة داوودَ عليه السلام في «تاريخه»(٤) من طرق عن: إبراهيمَ بن طهمان، عن موسىٰ بن عقبة. ومن طريق: أبي عاصم، عن أبي بكر السَّبْري، عن صفوان بن سليم... به.

والمرادُ بالقرآن هاهنا الزَّبور، الذي أنزله اللهُ عليه وأوحاه إليه، وذِكْرُ «دوابِّه»(٥) أشبه أن يكون محفوظًا؛ فإنه كان ملكًا له أتباعٌ، فكان يقرأُ الزَّبور بمقدار ما تُسْرَجُ الدوابُّ، وهٰذا أمرٌ سريعٌ مع التدبُّرِ والترنُّم والتغنِّي به علىٰ وجه التخشُّع صلواتُ الله وسلامه عليه.

وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣]: والزبورُ: كتابٌ مشهورٌ،

---

(١) البَرْبَط: العود؛ فارسية معربة.

(٢) رواه: أحمد (٢/ ٣١٤)، والبخاري (٦٠- الأنبياء، ٣٧- ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾، ٦/ ٤٥٣/ ٣٤١٧).

(٣) رواه: أحمد (٢/ ٣١٤)، والبخاري (٦٠- الأنبياء، ٣٧- ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾، ٦/ ٤٥٣/ ٣٤١٧).

(٤) (١٧/ ٨٩-٩٠).

(٥) في جميع الأصول: «وذكر رواية أشبه أن يكون محفوظًا»! ولا معنىٰ لها، والصواب ما أثبته. والمعنىٰ: أن المحفوظ في الحديث ذكر «دوابه» لا «دابته».

وذكرنا في «التفسير» الحديث الذي رواه أحمدُ وغيرُه أنَّه أنْزِلَ في شهر رمضان[1]، وفيه من المواعظِ والحِكَم ما هو معروفٌ لِمَنْ نَظَرَ فيه.

۞ [اجتماع الملك والنبوة في داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ]:

وقوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص: ٢٠]؛ أي: أعطيناه مُلكًا عظيمًا وحُكمًا نافذًا: روىٰ ابنُ جريرٍ وابنُ أبي حاتم[2] عن ابن عباس: أنَّ رجلينِ تَداعيا إلىٰ داوودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في بقرٍ ادَّعىٰ أحدُهما علىٰ الآخر أنَّه اغتصَبَها منه، فأنكر المدَّعىٰ عليه، فأرجأ أمرَهما إلىٰ الليل، فلمَّا كان الليلُ؛ أوحىٰ اللهُ إليه أنْ يَقْتُلَ المدَّعي، فلمَّا أصبح؛ قال له داوودُ: إنَّ الله قد أوحىٰ إليَّ أن أقتُلَك؛ فأنا قاتِلُك لا محالةَ؛ فما خبرُك فيما ادعيتَه علىٰ هٰذا؟ قال: والله يا نبيَّ الله؛ إنِّي لَمُحِقٌّ فيما ادعيتُ عليه، ولكنِّي كنتُ اغْتَلْتُ أباه قبلَ هٰذا. فأمر به داوودُ، فقُتِلَ. فعَظُمَ أمرُ داوودَ في بني إسرائيلَ جدًّا، وخضعوا له خضوعًا عظيمًا. قال ابنُ عباس: وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾؛ أي: النبوَّة. ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾: قال شريحٌ والشعبيُّ وقَتادةُ وأبو عبد الرحمٰن السُّلَمِيُّ وغيرُهم: فصلُ الخطابِ الشُّهود والأيمانُ؛ يعنونَ بذٰلك: البيِّنَةُ علىٰ المُدَّعي، واليمينُ علىٰ مَنْ أنْكَرَ. وقال مجاهدٌ والسُّدِّيُّ: هو إصابةُ القضاء وفَهْمُه. وقال مجاهدٌ: هو الفصلُ في الكلام وفي الحكم. واختاره ابن جريرٍ[3]. وهٰذا لا ينافي ما رُوِي عن أبي موسىٰ أنَّه قولُ: أمَّا بعدُ.

---

(١) يشير إلىٰ الحديث الذي رواه: أحمد (٤/ ١٠٧)، وابن جرير في «التفسير» (٢/ ١٥٠/ ٢٨٢١)، والطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٧٥/ ١٨٥) و«الأوسط» (٤/ ٤٤٤/ ٣٧٥٢)، والأصبهاني في «الترغيب» (٢/ ٧٣٤/ ١٧٩١)؛ من طرق عن: عمران القطان، عن قتادة، عن أبي المليح، عن واثلة بن الأسقع، عن النبي ﷺ؛ قال: **«أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة مضت من رمضان، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان»**. قال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٢٠٢): «رواه أحمد والطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، وفيه عمران بن داور القطان؛ ضعفه يحيىٰ، ووثقه ابن حبان، وقال أحمد: أرجو أن يكون صالح الحديث، وبقية رجاله ثقات». وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٤/ ١٠٤/ ١٥٧٥). وفي الباب عن ابن عباس عند ابن عساكر (١٧/ ٨٤) وسنده منقطع. وعن جابر موقوفًا عند أبي يعلىٰ وابن مردويه، وسنده ضعيف جدًّا.

(٢) انظر: «تفسير ابن جرير» (١٠/ ٥٦٣/ ٢٩٨١١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/ ٣٣٧/ ١٨٣٤٠).

(٣) في «التفسير» (١٠/ ٥٦٥).

وقال وَهْبُ بن مُنَبِّهٍ: لمَّا كَثُرَ الشرُّ وشهاداتُ الزُّورِ في بني إسرائيل؛ أُعْطِيَ داوودُ سلسلةً لفصل القضاء، فكانت ممدودةً من السماء إلىٰ صخرةِ بيت المقدس، وكانت من ذهبٍ؛ فإذا تشاجر الرجلانِ في حقٍّ؛ فأيُّهما كان محقًّا؛ نالها، والآخر لا يصلُ إليها. فلم تزل كذٰلك حتىٰ أَوْدَعَ رجلٌ رجلًا لؤلؤةً، فجَحَدها منه، وأخذ عُكَّازًا وأَوْدَعَها فيه، فلمَّا حضرا عند الصخرةِ؛ تناوَلَها المدَّعي، فلمَّا قيلَ للآخرِ: خُذْها بيدِك؛ عَمَدَ إلىٰ العُكَّازِ، فأعطاه المدَّعي، وفيه تلك اللؤلؤةُ، وقال: اللهمَّ! إنَّك تعلمُ أنِّي دفعتُها إليه. ثم تناول السلسلةَ، فنالَها. فأشكل أمرُها علىٰ بني إسرائيلَ، ثم رُفِعَتْ سريعًا من بينِهِم. ذكرهُ بمعناه غيرُ واحدٍ من المفسِّرين، وقد رواه إسحاقُ بنُ بشرٍ: عن إدريسَ بن سنانٍ، عن وَهْبٍ... به، بمعناه.

۞ [ذكر توبة داوود ﷺ]:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص: ٢١-٢٥].

وقد ذكر كثيرٌ من المفسِّرين من السلف والخلف هاهنا قِصصًا وأخبارًا أكثرُها إسرائيلياتٌ، ومنها ما هو مكذوبٌ لا محالةَ، تَرَكْنا إيرادَها في كتابنا قصدًا؛ اكتفاءً واقتصارًا علىٰ مجرَّدِ تِلاوةِ القصَّةِ من القرآن العظيم، واللهُ يهدي مَنْ يشاءُ إلىٰ صراطٍ مستقيم[١].

وقد اختلفَ الأئمَّةُ في سجدةِ صٓ؛ هل هي من عزائم السُّجود، أو إنَّما هي سجدةُ شكرٍ ليست من عزائم السجود؟ علىٰ قولين:

قال البخاريُّ: حدَّثنا محمدُ بنُ عبد الله، حدَّثنا محمد بن عبيدٍ الطَّنافسيُّ، عن العوَّام؛ قال: سألتُ مجاهدًا عن سجدة ص؟ فقال: سألت ابن عباس: من أين سجدتَ؟ قال: أو ما تقرأُ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ ... أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام: ٨٤-٩٠]؛ فكان

---

(١) رحم الله الحافظ ابن كثير ما أحسن مقالته هذه وما أولىٰ أهل العلم أن يأخذوا بها. والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم.

داوودُ ممَّنْ أُمِرَ نبيُّكم ﷺ أن يقتديَ به، فسَجَدَها داوودُ عليه السلام، فسجَدَها رسولُ الله ﷺ(١).

وقد قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا إسماعيلُ (هو ابنُ عُلَيَّةَ)، عن أيوبَ، عن عِكرمةَ، عن ابن عباس: أنَّه قال في السجودِ في صٓ: ليست من عزائم السُّجود، وقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ يسجُدُ فيها(٢).

وكذا رواه البخاريُّ وأبو داوود والترمذيُّ والنسائيُّ من حديث أيوب، وقال الترمذيُّ: حسنٌ صحيح.

وقال النسائيُّ: أخبرني إبراهيمُ بن الحسن المِقْسَمِيُّ، حدثنا حجَّاجُ بن محمدٍ، عن عمر بن ذرٍّ، عن أبيه، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس: أنَّ النبيَّ ﷺ سَجَدَ في صٓ، وقال: «**سجدها داوودُ توبةً، ونسجُدُها شُكرًا**»(٣). تفرَّد به أحمدُ [بن شعيب النسائيُّ](٤)، ورجالُه ثقاتٌ.

وقال أبو داوودَ: حدثنا أحمدُ بن صالح، حدثنا ابنُ وَهْب، أخبرني عمرو بن الحارثِ، عن سعيد بن أبي هلال، عن عِياض بن عبدِالله بن سعد بن أبي سَرْح، عن أبي سعيدٍ الخدريِّ؛ قال: قرأ رسولُ الله ﷺ وهو على المنبر صٓ، فلمَّا بَلَغَ السجدةَ؛ نزل، فسجدَ وسجدَ معه الناسُ. فلمَّا كانَ يومٌ آخرُ؛ قرأها، فلمَّا بلغ السجدةَ؛ تَشَزَّنَ(٥) الناس للسجود، فقال: «**إنَّما هي توبةُ نبيٍّ، ولٰكنْ رأيتُكُم تشزَّنْتُم**». فنزلَ وسجدَ(٦). تفرَّدَ به أبو داوودَ، وإسنادُهُ علىٰ شرطِ الصحيح.

---

(١) رواه البخاري (٦٥- التفسير، ٣٨- ص، ٨/ ٥٤/ ٤٨٠٧).

(٢) رواه: أحمد (١/ ٣٥٩)، والبخاري (٦٠- الأنبياء، ٣٩- ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾، ٦/ ٤٥٦/ ٣٤٢٢)، وأبو داوود (٢- الصلاة، ٥- السجود في ص، ١/ ٤٤٧/ ١٤٠٩)، والترمذي (٢- الصلاة، ٤٠٥-السجدة في ص، ٢/ ٤٦٩/ ٥٧٧)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٥/ ١٠٩/ ٥٩٨٨ -تحفة).

(٣) (**صحيح**). رواه: عبد الرازق (٣/ ٣٣٨/ ٥٨٧٠)، والنسائي (١١- الافتتاح، ٤٨- سجود القرآن، ٢/ ١٥٩/ ٩٥٦)، والطبراني في «الكبير» (١٢/ ٢٧/ ١٢٣٨٦-١٢٣٨٧)، «الأوسط» (٢/ ١١/ ١٠١٢)، والدار قطني (١/ ٤٠٧) والبيهقي (٢/ ٣١٩)؛ من طرق عن عمر بن ذر... به، فذكره. وسنده صحيح علىٰ شرط البخاري. ونقل الحافظ في «التلخيص» (٢/ ٩) عن ابن السكن تصحيحه، وجوَّده السيوطي في «الدر» (٥/ ٥٧١/ ص ٢٤)، وصححه الألباني.

(٤) زيادة لابدَّ منها ليصحَّ الكلام، وإلا؛ فالإمام أحمد رحمه الله لم يروه أصلاً.

(٥) تشزن: تهيأ واستوفز.

(٦) (**حسن صحيح**). رواه: الدارمي (١/ ٣٤٢)، وأبو داوود (٢- الصلاة، ٥-السجود في ص، ١/ ٤٤٨/ ١٤١٠)، =

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عفَّانُ، حدثنا يزيدُ بن زُرَيع، حدثنا حُمَيْدٌ، حدثنا بكرٌ (هو ابن عمرو أبو الصديق[١] الناجي)، أنَّه أخبره: أنَّ أبا سعيد الخدريَّ رأىٰ رؤيا أنَّه يكتُبُ صٓ، فلمَّا بَلَغَ إلىٰ التي يُسْجَدُ بها؛ رأىٰ الدَّواةَ والقلمَ وكلَّ شيءٍ بحضرتِهِ انقلبَ ساجدًا. قال: فقصَّها علىٰ النبيِّ ﷺ، فلم يزلْ يسجدُ بها بعدُ[٢]. تفرَّد به أحمد.

ورویٰ الترمذيُّ وابنُ ماجه من حديث: محمدِ بن يزيدَ بن خُنَيْسٍ، عن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيدَ؛ قال: قال لي ابنُ جُريج: حدَّثني جدُّك عبيدالله بن أبي يزيدَ، عن ابن عباس؛ قال: جاء رجلٌ إلىٰ النبيِّ ﷺ، فقال: يا رسول الله! إنِّي رأيتُ فيما يرىٰ النائم كأني أصلِّي خلفَ شجرةٍ، فقرأتُ السجدةَ، فسجدتِ الشجرةُ لسُجودي، فسمعتها تقولُ وهي ساجدةٌ: «**اللهمَّ! اكتبْ لي بها عندَكَ أجرًا، واجْعَلْها لي عندَكَ ذُخرًا، وضَعْ عنِّي بها وِزرًا، واقبلْها منِّي كما قبلتَ من عبدك داوودَ**». قال ابنُ عباس: فرأيتُ النبيَّ ﷺ قام، فقرأ السجدةَ، ثم سجدَ، فسمعته يقولُ وهو ساجد كما حكىٰ الرجلُ عن كلام الشجرة[٣]. ثم قال الترمذي: غريبٌ لا نعرِفُه إلاَّ من هٰذا الوجه.

= وابن خزيمة (٣/ ١٤٨/ ١٧٩٥)، وابن حبان (٦/ ٤٧٠/ ٢٧٦٥)، والدارقطني (١/ ٤٠٨)، والحاكم (١/ ٢٨٤، ٢/ ٤١)، والبيهقي (٢/ ٣١٨)؛ من طرق عن ابن أبي هلال... به، فذكره. وصححه الحاكم في الموضعين علىٰ شرط الشيخين، ووافقه الذهبي وابن أبي هلال وإن أخرج له الشيخان؛ فحديثه لا يرقىٰ إلىٰ الصحة. نعم؛ هو صحيح بما قبله وبعده.

(١) في جميع الأصول: «هو ابن عمر وأبو الصديق»! فتأمل.

(٢) (صحيح). رواه: أحمد (٣/ ٧٨)، والحاكم (٢/ ٤٣٢)، والبيهقي (٢/ ٣٢٠)؛ من طريق حميد... به، فذكره. وسنده صحيح. وصححه الذهبي علىٰ شرط مسلم.

(٣) (حسن). رواه: الترمذي (٤٩- الدعوات، ٣٣- ما يقول في سجود القرآن، ٥/ ٤٨٩/ ٣٤٢٤)، وابن ماجه (٥- الصلاة، ٧٠- سجود القرآن، ١/ ٣٣٤/ ١٠٥٣)، وابن حبان (٦/ ٤٧٣/ ٢٧٦٨)، والطبراني (١١/ ١٠٥/ ١١٢٦٢)، والحاكم (١/ ٢١٩)، والبيهقي (٢/ ٣٢٠)؛ من طرق عن محمد بن يزيد بن خنيس... به، وقال الحاكم: «صحيح، رواته مكيون لم يذكر واحد منهم بجرح». وقال الذهبي: «صحيح ما في رواته مجروح»! كذا قال هنا، مع أنه ترجم للحسن بن محمد في «الميزان» بما يفيد جهالته، وقال الحافظ في «التقريب»: «مقبول»؛ يعني عند المتابعة، وإلا؛ فلين الحديث. فالسند لين.

وله شاهد من حديث أبي سعيد -وهو الذي أشار له الترمذي آنفًا- عند: أبي يعلىٰ (٢/ ٣٣٠/ ١٠٦٩)، والطبراني في «الأوسط» (٥/ ٣٨٦/ ٤٧٦٥)؛ بسند فيه مجهول.

وآخر مرسل عند عبد الرازق في «المصنف» (٣/ ٣٣٧/ ٥٨٦٩): عن ابن عيينة، عن عاصم بن سليمان، عن =

وقد ذكر بعضُ المفسِّرين أنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ مكث ساجدًا أربعين يومًا وقالَه مجاهدٌ والحسنُ وغيرُهما، ووردَ في ذلك حديثٌ مرفوعٌ، لكنه من رواية يزيدَ الرَّقاشِيِّ، وهو ضعيفٌ متروكُ الرِّوايةِ[١].

قال الله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص: ٢٥]؛ أي: إنَّ له يوم القيامة لَزُلْفىٰ، وهي القُربة التي يقرِّبُه الله بها ويُدنيه من حظيرة قدسِهِ بسببها:

كما ثبتَ في حديث: «**المقسِطونَ على منابرَ من نورٍ عن يمينِ الرحمٰن، وكِلْتا يديهِ يمينٌ، الذين يُقْسِطونَ في أهْليهم وحُكْمِهِم وما وَلوا**»[٢].

وقال الإمامُ أحمدُ في «مسنده»: حدثنا يحيىٰ بنُ آدمَ، حدَّثنا فضيلٌ، عن عطيةَ، عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ أحبَّ الناس إلى الله يومَ القيامةِ وأقْرَبَهُم منه مجلسًا إمامٌ عادلٌ، وإنَّ أبغضَ الناس إلى اللهِ يومَ القيامةِ وأشدَّهم عذابًا إمامٌ جائرٌ**»[٣].

وهٰكذا رواه الترمذيُّ من حديث فُضيل بن مرزوق الأغر... به، وقال: لا نعرِفُه مرفوعًا إلَّا من هٰذا الوجه.

وقال ابنُ أبي حاتم[٤]: حدَّثنا أبو زُرعة، حدَّثنا عبدُالله بن أبي زيادٍ، حدَّثنا سيَّارٌ، حدَّثنا جعفرُ بن سليمانَ، سمعتُ مالكَ بنَ دينارٍ؛ في قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾: قال: يقومُ داوودُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يومَ القيامةِ عند ساق العرشِ، فيقولُ الله: يا داوود! مَجِّدْني اليومَ بذٰلك

= بكر بن عبد الله المزني: أن رجلًا... فذكره بنحوه. وسنده صحيح.

وبمجموع هذه الشواهد؛ فالحديث لا ينزل عن رتبة الحسن، وقد حسنه النووي في «المجموع» (٤/ ٦٤)، ونقل الحافظ في «التهذيب» في ترجمة الحسن بن محمد بن عبيدالله عن الخليلي قوله: «هٰذا حديث غريب صيح». وقال في «أمالي الأذكار» (٢٢٧٦- الفتوحات): «حديث حسن». وحسنه الألباني.

(١) وهو بعض الحديث الذي أعرض عنه الحافظ ابن كثير في قصة خطيئة داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ. وانظر ما تقدم (ص٥٣٣).

(٢) رواه مسلم (٣٣-الإمارة، ٥-فضيلة الإمام العادل، ٣/ ١٤٥٨/ ١٨٢٧) من حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) (حسن). رواه: أحمد (٣/ ٢٢ و٥٥)، والترمذي (١٣- الأحكام، ٤- الإمام العادل، ٣/ ٦١٧/ ١٣٢٩)، والبيهقي في «الشعب» (٦/ ١٤/ ٧٣٦٦) و«السنن» (١٠/ ٨٨)، والقضاعي في «الشهاب» (٢/ ٢٥٥/ ١٣٠٥)؛ من طريق فضيل بن مرزوق... به، فذكره. قال الترمذي: «حسن غريب لا نعرفه إلا من هٰذا الوجه». قلت: عطية العوفي ضعيف.

وله شاهد عن الطبراني في «الأوسط» (١/ ٢٣٠/ ٣٥٠) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسند فيه ضعف؛ فالحديث حسن بهٰذا الشاهد كما ذكر الترمذي.

(٤) في «التفسير» (١٠/ ٣٢٤٠/ ١٨٣٤٨).

الصوتِ الحسن الرَّخيم الذي كنتَ تمجِّدُني به في الدُّنيا! فيقولُ: وكيفَ وقد سُلِبْتُهُ؟! فيقولُ: إنِّي أردُّه عليك اليوم. قال: فيرفعُ داوودُ بصوتٍ يستفرغُ نعيمَ أهل الجنان.

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦]: هٰذا خطابٌ من الله تعالىٰ مع داوود، والمرادُ ولاةُ الأمور وحكَّام الناس، وأمْرُهُم بالعدل واتِّباع الحقِّ المنزَّل من الله، لا ما سواه من الآراءِ والأهواء، وتوعُّدُ مَن سَلَكَ غيرَ ذٰلك وحَكَمَ بغير ذٰلك.

[ذكر شيء من فضائل داوود وشمائله ﷺ]:

وقد كان داوودُ عليه السلام هو المُقْتَدىٰ به في ذٰلك الزمان(١) في العدل وكثرةِ العبادةِ وأنواع القُرُبات، حتىٰ إنَّه كان لا يَمْضي ساعةٌ من آناءِ الليل وأطرافِ النَّهارِ إلَّا وأهل بيتِهِ في عبادةٍ ليلًا ونهارًا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

قال أبو بكر بنُ أبي الدُّنيا(٢): حدثنا إسماعيلُ بن إبراهيم بن بسام، حدثنا صالحٌ المُرِّيُّ، عن أبي عِمْران الجَوْنيِّ، عن أبي الجَلْدِ؛ قال: قرأتُ في مسألةِ داوودَ عليه السلام أنَّه قال: يا ربِّ! كيف لي أن أشكُرَكَ وأنا لا أصِلُ إلىٰ شكرِك إلَّا بنعمتِكَ؟! قال: فأتاه الوحيُ: أنْ يا داوودُ! ألست تعلمُ أنَّ الذي بك من النِّعم منِّي؟ قال: بلىٰ يا ربِّ! قال: فإنِّي أرضىٰ بذٰلك منك.

وقال البيهقيُّ(٣): أنبأنا أبو عبد الله الحافظُ، أنبأنا أبو بكر بنُ بالويهِ، حدَّثنا محمد بن يونس القرشيُّ، حدثنا رَوْحُ بن عُبادة، حدثني عبد الله بنُ لاحقٍ، عن ابن شهابٍ؛ قال: قال داوودُ: الحمد لله كما ينبغي لِكَرَم وجهِهِ وعزِّ جلالِهِ. فأوحىٰ اللهُ إليه: إنَّك أتعبتَ الحَفَظَةَ يا داوودُ!

ورواه أبو بكر بنُ أبي الدُّنيا(٤) عن: علي بن الجعد، عن الثوري... مثلَه.

وقال عبدُالله بنُ المبارك في كتاب «الزهد»(٥): أنبأنا سفيانُ الثوريُّ، عن رجل، عن وَهْبِ بن منبِّهٍ؛ قال: إنَّ في حكمةِ آل داوودَ: حقٌّ علىٰ العاقل ألا يغفلَ عن أربع ساعاتٍ: ساعة يناجي فيها

---

(١) في نسخة: «الوقت».

(٢) وعنه ابن عساكر في «التاريخ» (١٧/ ٩٧-٩٩).

(٣) وعنه ابن عساكر في «التاريخ» (١٧/ ٩٧-٩٩)

(٤) وعنه ابن عساكر في «التاريخ» (١٧/ ٩٧-٩٩)

(٥) (١/ ١٠٥/ ٣١٣).

ربَّه، وساعة يحاسِبُ فيها نفسَه، وساعة يُفْضي فيها إلىٰ إخوانِهِ الذين يخبِرونه بعيوبه ويَصْدُقونَه عن نفسِه، وساعة يُخَلِّي بينَ نفسِهِ وبينَ لذَّاتها فيما يَحِلُّ ويَجْمُلُ؛ فإنَّ هٰذه الساعة عونٌ علىٰ هٰذه الساعات وإجمامٌ للقلوب(١). وحقٌّ علىٰ العاقل أن يعرِفَ زمانَه ويحفَظَ لسانَه ويُقْبِلَ علىٰ شأنه. وحقٌّ علىٰ العاقل ألَّا يَظْعَنَ(٢) إلاَّ في إحدىٰ ثلاث: زادٍ لِمَعاده، ومَرَمَّةٍ(٣) لمعاشِه، ولذَّةٍ في غير محرَّم.

وقد رواه أبو بكر بنُ أبي الدُّنيا، عن أبي بكر بن أبي خَيْثَمَةَ، عن ابن مَهْديٍّ، عن سفيان، عن أبي الأغر، عن وَهْب بن منبِّه... فذكره.

ورواه أيضًا عن: عليِّ بن الجَعْد، عن عمر بن الهيثم الرِّقاشيِّ، عن أبي الأغَرِّ، عن وَهْبِ بن منبِّه... فذكره.

وأبو الأغرِّ هٰذا هو الذي أبهمَه ابنُ المبارك في روايتِهِ.

قال ابن عساكر(٤): وقال عبدُالرزاق: أنبأنا بشرُ بنُ رافع، حدثنا شيخٌ من أهل صنعاءَ يُقال له: أبو عبد الله؛ قال: سمعتُ وهبَ بن منبِّهٍ... فذَكَرَ مثلَه.

وقد أورد الحافظُ ابنُ عساكرَ في ترجمةِ داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ أشياءَ كثيرةً مليحةً(٥): منها: قوله: كنْ لليتيم كالأبِ الرحيم، واعلمْ أنَّك كما تزرعُ كذٰلك تحصُدُ.

وروىٰ بسندٍ غريب مرفوعًا: قال داوودُ: يا زارعَ السيئاتِ! أنت تَحْصُدُ شوكَها وحَسَكها(٦).

وعن داوودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنَّه قال: مَثَلُ الخطيبِ الأحمقِ في نادي القوم كَمَثَل المغنِّي عند رأس الميِّت.

---

(١) إجمام القلوب: ترويحها وتسليتها.

(٢) يظعن: يرحل.

(٣) مرمَّة: إصلاح.

(٤) ساقط من الأصل؛ فانظره في «مختصره» (٨/ ١٢٦).

(٥) لٰكن أكثرها -وللأسف الشديد- قد سقط من مطبوع «تاريخ دمشق» تبعًا لما سقط من الأصول، وكان حريًّا بالقائمين علىٰ طباعة هٰذا السفر العظيم أن يضيفوا هنا ما ورد من ذلك في «المختصر»؛ فلا يكون «المختصر» أغنىٰ من الأصل!

(٦) (ضعيف). رواه ابن عساكر في «التاريخ» (٨/ ١٢٧-ابن منظور). ولم أقف علىٰ سنده؛ لأنه محذوف الأسانيد، وهو ساقط من مطبوع الأصل. ومثل هٰذا الحديث أحسن أحواله الضعف؛ فإن الغالبية العظمىٰ مما انفرد به ابن عساكر ضعيف، وقد استغربه الحافظ ابن كثير كما ترىٰ. والله أعلم.

وقال أيضًا: ما أقبحَ الفقرَ بعد الغنىٰ! وأقبحُ من ذٰلك الضَّلالةُ بعد الهدىٰ.

وقال: انظُرْ ما تكرهُ أن يُذْكَرَ عنك في نادي القوم؛ فلا تَفْعَلْهُ إذا خلوتَ.

وقال: لا تَعِدَنَّ أخاك بما لا تُنْجِزُهُ له؛ فإنَّ ذٰلك عداوةٌ بينك وبينه.

وقال محمدُ بن سعدٍ[١]: أنبأنا محمدُ بن عمر الواقديُّ، حدثني هشامُ بن سعدٍ، عن عمر مولىٰ غُفْرَةَ؛ قال: قالتْ يهودُ لمَّا رأتْ رسولَ الله ﷺ يتزوَّجُ النساءَ: انظُروا إلىٰ هٰذا الذي لا يَشْبَعُ من الطعام! ولا والله؛ ما له هِمَّةٌ إلَّا إلىٰ النساءِ! حسدوه لكثرة نسائِهِ وعابوه بذٰلك، فقالوا: لو كان نبيًّا؛ ما رَغِبَ في النساء! وكان أشدَّهم في ذٰلك حييُّ بن أخطب، فأكذَبهم اللهُ، وأخبرَهُم بفضل الله وسَعَتِهِ علىٰ نبيِّه صلوات الله وسلامه عليه، فقال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤]؛ يعني بـ ﴿ٱلنَّاسِ﴾: رسولَ الله ﷺ. ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝٥٤﴾ [النساء: ٥٤]؛ يعني: ما آتىٰ اللهُ سليمانَ بن داوودَ؛ كانت له ألفُ امرأةٍ، سبعُ مئةٍ مَهْرِيَّةٍ وثلاثُ مئةٍ سُرِّيَّةٍ، وكانت لداوودَ عليه السلام مئةُ امرأةٍ، منهن امرأةُ أوريا[٢] أمُّ سليمانَ بن داوودَ التي تزوَّجها بعدَ الفتنةِ. هٰذا أكثرُ ممَّا لمحمدٍ ﷺ.

وقد ذكر الكلبيُّ[٣] نحو هٰذا، وأنَّه كان لداوودَ عليه السلام مئةُ امرأةٍ، ولسليمان ألفُ امرأةٍ، منهن ثلاثُ مئة سُرِّيَّةٍ.

وروىٰ الحافظ في «تاريخه» في ترجمة صدقةَ الدمشقيِّ الذي يروي عن ابن عباس من طريق: الفرجِ بن فَضالة الحمصيِّ، عن أبي هُريرة الحمصيِّ، عن صَدَقَةَ الدمشقيِّ: أنَّ رجلًا سأل ابن عباس عن الصيام؟ فقال: لأحدِّثَنَّكَ بحديثٍ كان عندي في التختِ[٤] مخزونًا: إن شئتَ أنبأتُك بصومُ داوود؛ فإنَّه كان صوَّامًا قوَّامًا، وكان شجاعًا لا يفرُّ إذا لاقىٰ، وكان يصومُ يومًا ويُفْطِرُ يومًا، وقال رسولُ الله ﷺ: «**أفضلُ الصيام صيامُ داوود**»، وكان يقرأُ الزَّبورَ بسبعينَ صوتًا يُلَوِّنُ[٥] فيها، وكانت له ركعةٌ من الليل؛ يبكي فيها نفسَه، ويبكي لبكائِهِ كلُّ

(١) في «الطبقات» (٨/ ٣٥٠). والواقدي تالف متهم.

(٢) في جميع الأصول: «منهن امرأته أوريا»! والصواب ما أثبتناه.

(٣) وهٰذا أيضًا تالف متهم.

(٤) في جميع الأصول: «البحث»! والتصويب من «تاريخ ابن عساكر» (٢٤/ ٤٧)، والتخت وعاء تصان فيه الثياب.

(٥) في جميع الأصول وفي «تاريخ ابن عساكر» (٢٤/ ٤٦): «يكون فيها»! والتصويب من «مختصر ابن عساكر» لابن منظور (١١/ ٧٥).

شيء، ويَطْرَبُ لصوتِهِ[(١)] المهمومُ والمحمومُ. وإنْ شئتَ أنبأتُكَ بصوم ابنِهِ سليمان؛ فإنَّه كان يصومُ من أوَّلِ الشهرِ ثلاثةَ أيام، ومن وسطِهِ ثلاثةَ أيام، ومن آخرِهِ ثلاثةَ أيام؛ يستفتحُ الشهرَ بصيام، ووسطَه بصيام، ويختِمُه بصيام. وإن شئتَ أنبأتُك بصوم ابنِ العذراءِ البَتول عيسىٰ ابن مريمَ؛ فإنَّه كان يصومُ الدَّهْرَ، ويأكل الشعيرَ، ويلبَسُ الشعر؛ يأكُلُ ما وَجَدَ، ولا يسألُ عمَّا فَقَدَ، ليس له ولدٌ يموتُ ولا بيتٌ يَخْرَبُ، وكان أينما أدركه الليلُ؛ صفَّ بين قدميه[(٢)]، وقام يصلِّي حتىٰ يصبِحَ، وكان راميًا لا يفوتُهُ صيدٌ يريدُه، وكان يمرُّ بمجالس بني إسرائيلَ، فيقضي لهم حوائِجَهم. وإن شئتَ أنبأتُك بصوم أمِّه مريمَ بنتِ عمرانَ؛ فإنَّها كانت تصومُ يومًا وتفطِرُ يومين. وإن شئتَ أنبأتُك بصوم النبيِّ العربيِّ الأمِّيِّ محمدٍ ﷺ؛ فإنَّه كان يصومُ من كلِّ شهرٍ ثلاثةَ أيام، ويقول: «**إنَّ ذٰلك صَوْمُ الدَّهْرِ**»[(٣)].

وقد رویٰ الإمامُ أحمدُ[(٤)] عن: أبي النضر، عن فَرَج بن فَضالةَ، عن أبي هرم، عن صَدَقَةَ، عن ابن عباس مرفوعًا في صوم داوود.

۞ ذكر كمية حياته وكيفية وفاته:

قد تقدَّم في ذِكْرِ الأحاديث الواردةِ في خَلْقِ آدم أنَّ الله لمَّا استخرجَ ذُرِّيَّتَه من ظهرِهِ، فرأىٰ فيهم الأنبياءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ورأىٰ فيهم رجلًا يُزْهِرُ، فقال: أي ربِّ! مَنْ هٰذا؟ قال: هٰذا ابنُك داوودُ. قال: أي ربِّ! كم عُمُرُهُ؟ قال: ستونَ عامًا. قال: أي ربِّ! زِدْ في عُمُرِهِ! قال: لا؛ إلَّا

---

(١) في جميع الأصول: «ويصرف بصوته»! وفي «تاريخ ابن عساكر» (٢٤/ ٤٧): «يضطرب»! والصواب ما أثبته، وقد جاءت كذلك في إحدىٰ روايات ابن عساكر (٢٤/ ٤٨).

(٢) في بعض الأصول: «صرف بين قدميه»! وفي بعضها: «صفن بين قدميه»! وفي إحدىٰ روايات ابن عساكر: «صفق بيديه»، وهذه لها وجه. وما أثبته من الرواية الأخرىٰ لابن عساكر.

(٣) (**ضعيف جدًّا**). رواه ابن عساكر في «التاريخ» (٢٤/ ٤٦) من طريقين عن الفرج.. به، فذكره موقوفًا. والفرج بن فضالة ضعيف، وأبو هريرة (أو: أبو هرم) الحمصي لم أجد من ترجم له، وصدقة الدمشقي ترجم له ابن عساكر في «التاريخ» بما يفيد جهالته، وليس هو صدقة بن خالد الدمشقي؛ فما هو من هذه الطبقة.

وقوله: «**أفضل الصيام صيام داوود**»: متفق عليه، وقد تقدم في (ص٥٢٩).

وقوله: كان يصوم ثلاثة أيام من كل شهر، ويقول: «**إن ذلك صوم الدهر**». صحيح أيضًا. رواه أصحاب «السنن» من حديث قتادة بن ملحان، والنسائي من حديث جرير، وصححه الحافظ في «الفتح» (٤/ ٢٢٦).

(٤) في «المسند» (١/ ٣١٤). وانظر ما تقدم في الحاشية السابقة.

أنْ أزيدَه مِن عُمُرِكَ. وكان عمرُ آدم ألفَ عام، فزاده أربعينَ عامًا، فلمَّا انقضىٰ عُمُرُ آدمَ؛ جاءه ملكُ الموتِ، فقال: بقي من عمري أربعونَ سنةً. ونسيَ آدم ما كان وَهَبَهُ لولدِهِ داوودَ، فأتمَّها الله لآدمَ ألفَ سنةٍ، ولداوودَ مئة سنة. رواه أحمدُ عن ابنِ عباس، والترمذيُّ وصححَّه عن أبي هُريرةَ، وابنُ خزيمةَ، وابنُ حبان. وقال الحاكم: علىٰ شرطِ مسلم. وقد تقدَّم ذِكْرُ طرقِهِ وألفاظِهِ في قصَّة آدمَ[1].

قال ابنُ جرير[2]: وقد زعم بعضُ أهلِ الكتاب أنَّ عُمُرَ داوودَ كان سبعًا وسبعينَ سنةً.
قلت: هٰذا غلطٌ مردودٌ عليهم[3].

قالوا: وكانت مدَّةُ ملكِهِ أربعينَ سنةً. وهٰذا قد يُقْبَلُ نقلُه؛ لأنَّه ليس عندنا ما ينافيه ولا ما يقتضيه.

وأمَّا وفاتُه عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقال الإمامُ أحمدُ في «مسنده»: حدثنا قتيبةُ[4]، حدثنا يعقوبُ بنُ عبد الرحمٰن بن محمدٍ، عن[5] عمروِ بن أبي عمروٍ، عن المطَّلِبِ، عن أبي هريرةَ: أن رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**كان داوودُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فيه غَيْرةٌ شديدةٌ، فكان إذا خَرَجَ؛ أغلق الأبوابَ، فلم يدخُلْ على أهلِهِ أحدٌ حتى يرجِعَ**». قال: «**فخرجَ ذاتَ يوم، وغُلِّقَتِ الدارُ، فأقبلتِ امرأتُه تَطَّلِعُ إلى الدار؛ فإذا رجلٌ قائم وَسْطَ الدار! فقالت لمن في البيت: من أين دَخَلَ هٰذا الرجل والدارُ مغلقةٌ، واللهِ؛ لَتُفْتَضَحُنَّ بداوودَ. فجاء داوودُ؛ فإذا الرجلُ قائمٌ في وسط الدار، فقال له داوودُ: من أنت؟ فقال: أنا الذي لا أهابُ الملوكَ ولا أُمْنَعُ من الحجاب. فقال داوودُ: أنت واللهِ إذن مَلَكُ الموت؛ مرحبًا بأمرِ الله. ثم مَكَثَ حتى قُبِضَتْ روحُه فلمَّا غُسِّلَ وكُفِّنَ وفُرِغَ من شأنِهِ؛ طلعت عليه الشمسُ، فقال سليمانُ للطيرِ: أظِلِّي على داوودَ! فأظلَّتْه الطيرُ حتى أظلمتْ عليه الأرضُ. فقال سليمانُ للطير: اقبِضي جناحًا**». قال أبو هريرة: فطَفِقَ رسولُ الله ﷺ يُرينا كيفَ فَعَلَتِ

---

(١) انظره في (ص٦٧-٧٠).

(٢) في «التاريخ» (١/ ٢٨٦).

(٣) لأن الذي ثبت في الأحاديث الصحيحة التي تقدمت أن الذي كتبه الله له ستون؛ فإن كان الإتمام إلىٰ مئة محفوظًا؛ فهو كذلك، وإلَّا؛ فستون لا غير.

(٤) في جميع الأصول: «قبيصة»! والتصويب من «المسند»، وهو ابن سعيد.

(٥) في جميع الأصول: «بن»! والتصويب من «المسند».

الطيرُ، وقبض رسولُ الله ﷺ بيدِهِ، وغلبتْ عليه يومئذٍ المَضْرَحِيَّة[١]. انفرد بإخراجه الإمامُ أحمدُ وإسناده جيدٌ قويٌّ رجاله ثقاتٌ، ومعنىٰ قوله: «**وغلبت عليه يومئذٍ المَضْرَحِيَّةُ**»؛ أي: وغلبتْ علىٰ التَّظليل عليه المَضْرَحِيَّة، وهي الصقورُ الطوالُ الأجنحةِ، واحدها مَضْرَحِيٌّ. قال الجوهريُّ: وهو الصقرُ الطويل الجناح.

وقال السُّدِّيُّ: عن أبي مالك، عن ابن عباس؛ قال: ماتَ داوودُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فجأةً، وكان بسبتٍ، وكانت الطيرُ تُظِلُّه.

وقال السُّدِّيُّ أيضًا: عن أبي مالك، وعن سعيد بن جبير؛ قال: مات داوودُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يوم السبت فجأةً.

وقال إسحاقُ بن بشر: عن سعيد بن أبي عَروبة، عن قَتادة، عن الحسن؛ قال: مات داوودُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو ابن مئةِ سنةٍ، ومات يومَ الأربعاءِ فجأةً.

وقال أبو السكن الهجريُّ: مات إبراهيمُ الخليل فجأةً، وداوودُ فجأةً، وابنُه سليمانُ فجأةً؛ صلوات الله وسلامُه عليهم أجمعين. رواه ابنُ عساكر[٢].

ورُوِيَ عن بعضهم أنَّ مَلَكَ الموت جاءه وهو نازلٌ من محرابِهِ، فقال له: دَعْني؛ أنزلْ أو أصعدْ! فقال: يا نبيَّ اللهِ! قد نَفَدَتِ السنونُ والشهورُ والآثارُ والأرزاقُ. قال: فخرَّ ساجدًا علىٰ مِرقاةٍ من تلك المراقي، فقبضَه وهو ساجدٌ.

وقال إسحاقُ بن بشر: أنبأنا وافرُ بن سليمان[٣]، عن أبي سليمان الفلسطينيِّ، عن وَهْب بن مُنبِّهٍ؛ قال: إنَّ الناس حَضَروا جنازةَ داوودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فجلسوا في الشمس في يوم صائفٍ. قال: وكان قد شَيَّعَ جنازتَهَ يومئذٍ أربعون ألف راهبٍ، عليهم البرانسُ، سوىٰ غيرِهم من الناس، ولم يمتْ في بني إسرائيلَ بعد موسىٰ وهارونَ أحدٌ كانت بنو إسرائيلَ أشدَّ جزعًا عليه منهم

---

(١) (ضعيف). رواه أحمد (٢/ ٤١٩) من هذه الطريق. قال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢١٠): «رواه أحمد، وفيه المطلب بن عبد الله بن حنطب، وثقه أبو زرعة وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح». قلت: هو ثقة؛ كما قال الحافظ ابن كثير هنا، ولٰكنه كثير الإرسال والتدليس، وهٰذا من ذاك؛ فقد قال البخاري: «لا يعرف للمطلب سماع من أبي هريرة». وقال أبو حاتم الرازي: «[روىٰ] عن أبي هريرة مرسلًا». فالسند منقطع ضعيف. والله أعلم.

(٢) في «تاريخه» (٦/ ٢٥٧).

(٣) كذا في الأصول، ولم أعرفه، والغالب أنه محرف.

علىٰ داوودَ. قال: فآذاهمُ الحرُّ، فنادَوْا سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنْ يَعْمَل لهم وقايةً لِما أصابَهم من الحرِّ، فخرج سليمانُ، فنادىٰ الطيرَ، فأجابتْ، فأمَرَها أن تُظِلَّ الناس، فتراصَّ بعضُها إلىٰ بعضٍ من كلِّ وجه، حتىٰ استمسكتِ الريحُ، فكاد الناس أن يَهْلِكوا غمًّا، فصاحوا إلىٰ سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ من الغمِّ، فخرج سليمانُ، فنادىٰ الطير أن أظِلِّي الناس من ناحيةِ الشمس وتَنَحَّيْ عن ناحية الريح! ففعلتْ، فكان الناسُ في ظلٍّ، تهبُّ عليهم الريحُ، فكان ذٰلك أولَ ما رأوْه من مُلك سليمان.

وقال الحافظُ أبو يعلىٰ: حدَّثنا أبو همَّام الوليدُ بن شجاع، حدثني الوليدُ بن مسلم، عن الهيثم بن حميدٍ، عن الوضين بن عطاء، عن نَصْرِ بن علقمةَ، عن جُبَيْرِ بن نُفير، عن أبي الدَّرْداءِ؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لقد قَبَضَ اللهُ داوودَ من بينِ أصحابه؛ ما فتنوا ولا بدَّلوا، ولقد مكثَ أصحابُ المسيح على سنِنِه وهديِهِ مئتي سنةٍ**»(١). هٰذا حديثٌ غريبٌ، وفي رفعه نظرٌ، والوضين بن عطاءٍ كان ضعيفًا في الحديث. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

---

(١) (ضعيف). رواه ابن حبان في «الصحيح» (١٤/ ١٣٠/ ٦٢٣٦) من طريق أبي يعلي هذه. قال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢١٠): «رواه الطبراني، ورجاله ثقات، وفي بعضهم خلاف». قلت: الوضع سيئ الحفظ، وقال أبو حاتم: نصر بن علقمة عن جبير بن نفير؛ مرسل. ففي السند انقطاع علىٰ ضعفه. وقد ضعفه الحافظ ابن كثير كما ترىٰ، وأعاد ذلك في قصة عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال: «غريب جدًّا وإن صححه ابن حبان».

قصة سليمان بن داوود عليهما السلام

[نسبه عليه السلام]:

قال الحافظُ ابنُ عساكرَ[١]: وهو سليمانُ بنُ داوود بنِ يَسَّىٰ بنِ عُوْبيد بنِ بُوعَز بنِ سَلْمونَ بنِ نَخْشونَ بن عَمِّيناداب بنِ أرامَ بنِ حَصْرُونَ بنِ فارِصَ بنِ يَهوذا بنِ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بن إبراهيمَ أبو[٢] الربيع نبيُّ الله ابنُ نبيِّ الله. جاء في بعض الآثارِ أنَّه دخل دمشقَ.

قال ابنُ ماكولا[٣]: فارص؛ بالصاد المهملة. وذَكَرَ نسبه قريبًا مما ذكره ابنُ عساكر.

[سليمان خليفة داوود عليه السلام في الملك والنبوة]:

قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [النمل: ١٦].

أي: وَرِثَه في النبوَّةِ والملكِ، وليس المرادُ وَرِثَه في المال؛ لأنَّه قد كان له بنون غيرُه؛ فما كان لِيُخَصَّ بالمال دونَهم، ولأنه قد ثبت في الصحاح من غير وجهٍ عن جماعة من الصحابة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا نورَثُ؛ ما تَركْنا فهو صدقةٌ**». وفي لفظٍ: «**نحنُ معاشرَ الأنبياءِ لا نورَثُ**»[٤]. فأخبر الصادقُ المصدوق أنَّ الأنبياء لا تورثُ أموالُهم عنهم كما يورثُ غيرُهم، بل تكونُ أموالُهم صدقةً من بعدِهم علىٰ الفقراء والمحاويج؛ لا يَخُصُّون بها أقرباءَهم؛ لأنَّ الدُّنيا كانت أهونَ عليهم وأحقرَ عندهم من ذٰلك؛ كما هي عند الذي أرسلهم واصطفاهم وفضَّلهم.

[سعة علمه وعظيم ملكه عليه السلام]:

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ يعني: أنه عليه السلام كان يعرفُ ما

(١) في «التاريخ» (٢٢/ ٢٣٠)، مع تعديل بسيط علىٰ بعض الأحرف بالاستفادة من «العهد الجديد» (إنجيل متىٰ/ الأصحاح ١).

(٢) في جميع الأصول: «أبي الربيع»! وهو خطأ ظاهر، وقد جاء علىٰ الصواب عند ابن عساكر.

(٣) في «الإكمال» (٧/ ٥٢).

(٤) انظر تفصيل تخريجه في (ص ٥٩٦).

تتخاطبُ به الطيور بلُغاتها ويعبِّرُ للناس عن مقاصدِها وإرادتها.

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقيُّ: أنبأنا أبو عبد الله الحافظُ، أنبأنا عليُّ بن حمشاذ، حدثنا إسماعيلُ بن قُتيبة، حدثنا عليُّ بن قُدامة، حدثنا أبو جعفر الأُسْتُوائي[١] (يعني: محمدَ بنَ عبد الرحمٰن)، عن يعقوب القُمِّيِّ[٢]، حدثني أبو مالك؛ قال: مرَّ سليمانُ بن داوودَ بعصفورٍ يدور حول عصفورةٍ، فقال لأصحابِهِ: أتدرونَ ما يقول؟ قالوا: وما يقولُ يا نبيَّ اللهِ؟ قال: يخطِبُها إلىٰ نفسِهِ ويقولُ: تزوَّجيني؛ أسْكِنْكِ أيَّ غرفِ دمشقَ شئتِ! قال سليمانُ عليه السلام: لأنَّ غرفَ دمشقَ مبنيَّةٌ بالصخر، لا يقدِرُ أن يسكُنَها أحدٌ، ولكن كلُّ خاطبٍ كذابٌ! رواه ابنُ عساكرَ: عن أبي القاسم زاهرِ بنِ طاهرٍ، عن البيهقيِّ... به.

وكذٰلك ما عداها من الحيواناتِ وسائرِ صنوف المخلوقاتِ، والدليلُ علىٰ هٰذا قولُه بعد هٰذا من الآيات: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: من كلِّ ما يحتاجُ المُلْكُ إليه من العُدَدِ والآلاتِ والجنودِ والجيوشِ والجماعاتِ من الجنِّ والإنسِ والطيورِ والوحوش والشياطينِ السارحات والعلوم والفُهوم والتعبير عن ضَمائر المخلوقاتِ من الناطقات والصامتات.

ثم قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾؛ أي: من بارئ البريَّات وخالق الأرض والسماوات.

[سماعه عليه السلام لخطاب النمل وفهمه لغاتها]:

كما قال تعالىٰ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٧-١٩].

يخبر تعالىٰ عن عبدِهِ ونبيِّه وابن نبيِّه سليمان بن داوود عليهما الصلاة والسلام أنَّه رَكِبَ يومًا في جيشِهِ جميعِهِ من الجنِّ والإنسِ والطيرِ؛ فالجنُّ والإنسُ يسيرونَ معه، والطيرُ سائرةٌ

---

(١) في جميع الأصول: «الأسواني»! والتصويب من ابن عساكر.

(٢) في جميع الأصول: «عن أبي يعقوب العَمِّي»! والصواب ما أثبته، وهو يعقوب بن عبد الله؛ من رجال «التهذيب».

معه تُظِلُّه بأجنحتِها من الحرِّ وغيره، وعلىٰ كلٍّ من هٰذه الجيوش الثلاثة وَزَعَةٌ (أي: نقباءُ) يَرُدُّون أوَّله علىٰ آخره؛ فلا يتقدَّم أحدٌ عن موضعه الذي يسير فيه ولا يتأخَّر عنه.

قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾: فأمرتْ وحذَّرتْ واعتذرتْ عن سليمان وجنودِهِ بعدم الشعور. وقد ذكر وهبٌ أنَّه مرَّ وهو علىٰ البساط بوادٍ بالطائف، وأنَّ هٰذه النملةَ كان اسمُها جرسىٰ، وكانت من قبيلةٍ يُقال لها: بنو الشيصبان، وكانت عرجاءَ، وكانت بقدر الذئبِ[1]! وفي هٰذا كلِّه نظرٌ، بل في هٰذا السياق دليلٌ علىٰ أنَّه كان في موكبِهِ راكبًا في خيولِهِ وفرسانِهِ، لا كما زعم بعضُهم من أنَّه كان إذ ذاك علىٰ البساطِ؛ لأنَّه لو كان كذٰلك؛ لم ينل النملَ منه شيءٌ ولا وطءٌ؛ لأنَّ البساطَ كان عليه جميعُ ما يحتاجون إليه من الجُيوش والخُيول والجِمال والأثقال والخِيام والأنعام، والطيرُ من فوقِ ذٰلك كلِّه؛ كما سنبيِّنُه بعد ذٰلك إنْ شاء الله تعالىٰ.

والمقصودُ: أنَّ سليمان عليه السلام فَهِمَ ما خاطبتْ به تلك النملةُ لأمَّتها من الرأي السديد والأمر الحميد، وتبسَّم من ذٰلك علىٰ وجه الاستبشارِ والفرح والسُّرور بما أطْلَعَهُ الله عليه دون غيرِهِ، وليس كما يقولُهُ بعضُ الجهلة من أنَّ الدَّوابَّ كانت تَنْطِقُ قبلَ سليمان وتخاطِبُ الناس، حتىٰ أخذ عليهم سليمانُ بن داوودَ العهدَ وألْجَمَها فلم تتكلَّمْ مع الناس بعدَ ذٰلك؛ فإن هٰذا لا يقولُه إلَّا الذين لا يعلمون، ولو كان هٰذا هٰكذا؛ لم يكنْ لسليمانَ في فَهْم لُغاتِها[2] مزيَّةٌ علىٰ غيره؛ إذ قد كان الناسُ كلُّهم يفهمون ذٰلك، ولو كان قد أخذ عليها العهدَ ألَّا تتكلَّمَ مع غيرِهِ وكان هو يفهمُها؛ لم يكن في هٰذا أيضًا فائدةٌ يُعَوَّلُ عليها.

ولهٰذا قال: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾؛ أي: ألْهِمْني وأرشِدْني. ﴿أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾: فطلبَ من الله أن يُقَيِّضَه للشكر علىٰ ما أنعم به عليه وعلىٰ ما خصَّه به من المزيَّة علىٰ غيره، وأن ييسِّرَ عليه العمل الصالح، وأن يَحْشُرَه إذا توفَّاه مع عبادِهِ الصالحين، وقد استجابَ الله تعالىٰ له.

---

(١) كذا! وفي «الدر المنثور» (٥/ ١٩٦/ النمل ١٩): أمثال الذباب. وهو أقرب، لا للصواب، ولٰكن لأن يَرِدَ عن أحد من أهل العلم. فلعله تصحف أولًا ثم أفرد فأصبح ذئبًا!

(٢) في نسخة: «مقالها».

والمراد بوالديه: أبوه داوودُ ﷺ، وأمُّه، وكانت من العابداتِ الصالحاتِ؛ كما قال سُنَيْدُ بن داوودَ، عن يوسف بن محمد بن المنكَدِرِ، عن أبيه، عن جابرٍ، عن النبيِّ ﷺ؛ قال: **«قالت أمُّ سليمانَ بنِ داوودَ: يا بنيَّ! لا تُكْثِرِ النومَ بالليل؛ فإنَّ كثرةَ النوم بالليل تَدَعُ العبدَ فقيرًا يوم القيامة»**(١). رواه ابن ماجه عن أربعةٍ من مشايخه عنه... به، نحوه.

وقال عبدُالرزاق: عن مَعْمرٍ، عن الزُّهريِّ: إنَّ سليمان بنَ داوود ﷺ خرج هو وأصحابُهُ يستسقونَ، فرأىٰ نملةً قائمةً رافعةً إحدىٰ قوائِمِها تستسقي، فقال لأصحابِهِ: ارجِعوا؛ فقد سُقيتم، إنَّ هٰذه النملةَ استسقتْ فاستُجيبَ لها.

قال ابنُ عساكِرَ(٢): وقد رُوِيَ مرفوعًا ولم يُذْكَرْ فيه سليمانُ. ثم ساقَه من طريق: محمد بن عزيز، عن سلامةَ بن روح بن خالد، عن عقيل، عن ابن شهاب، حدثني أبو سلمة، عن أبي هريرة: أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«خَرَجَ نبيٌّ من الأنبياءِ بالناس يستسقونَ الله؛ فإذا هم بنملةٍ رافعةٍ بعضَ قوائِمِها إلى السماءِ، فقال النبيُّ: ارجِعوا؛ فقدِ استُجيب لكُم من أجل هٰذه النملةِ»**(٣).

---

(١) (ضعيف). رواه ابن ماجه (٥- الصلاة، ١٧٤- قيام الليل، ١/ ٤٢٢/ ١٣٣٢)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ١٨٣/ ٤٧٤٦)، وابن عساكر في «التاريخ» (٢٢/ ٢٧٦)؛ من طرق عن سنيد بن داوود... به. قال المنذري في «الترغيب» (١/ ٤٩٩/ ٩٤٥): «في إسناده احتمال للتحسين». وقال في «الزوائد»: «فيه سنيد بن داوود وشيخه يوسف بن محمد، وهما ضعيفان». وقال السيوطي: «أورده ابن الجوزي في «الموضوعات»، وأعله بيوسف بن محمد بن المنكدر؛ فإنه متروك». والحق أنه لا قابل للتحسين ولا موضوع، بل هو ضعيف بسنيد وشيخه، وقد ضعفه الألباني.

(٢) في «التاريخ» (٢/ ٢٨٨).

(٣) (ضعيف). رواه: الطحاوي في «مشكل الآثار» (١/ ٣٧٣)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٢/ ٦٥)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٢/ ٢٨٨)؛ من طريق محمد بن عزيز... به، فذكره. وسنده ضعيف: سلامة صدوق له أوهام، وقيل: لم يسمع من عمه عقيل. كما في «التقريب». ومحمد بن عزيز: فيه ضعف، وتكلموا في صحة سماعه من عمه سلامة.
لٰكن له طريق أخرىٰ عند: الدارقطني في «السنن» (٢/ ٦٦)، والحاكم (١/ ٣٢٥)؛ من طريق: عبد العزيز بن أبي سلمة، عن محمد بن عون بن الحكم، عن أبيه، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة... فذكره. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وتعقبها الألباني في «الإرواء» (٣/ ١٣٧/ ٦٧٠) فقال: «محمد بن عون وأبوه لم أجد من ترجمها، والغالب في مثلهما الجهالة». فمثل هٰذا لا يجبر ضعف الطريق الأولىٰ. ولذلك ضعفه الألباني في «الإرواء». والله أعلم.

وقال السُّدِّيُّ: أصاب الناس قحطٌ علىٰ عهد سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأمر الناس، فَخرجوا؛ فإذا بنملةٍ قائمةٍ علىٰ رجليها باسطةٍ يديها وهي تقولُ: اللهمَّ! إنَّا خلقٌ من خلقِكَ، ولا غناء بنا عن فضلك. قال: فصبَّ اللهُ عليهم المطرَ.

۞ [ذكر ما كان من أمره مع بلقيس ملكة سبإ]:

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾
لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا
لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ
عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾
ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب
بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن
سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا
كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ
إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ
فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ
تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النمل: ٢٠-٣٧].

يذكر تعالىٰ ما كان من أمر سليمان والهدهدِ، وذٰلك أنَّ الطُّيور كان علىٰ كلِّ صنفٍ منها مقدَّمون؛ يقدمون بما يُطْلَبُ منهم، ويحضُرون عندَه بالنوبةِ؛ كما هي عادةُ الجنود مع الملوك.

وكانت وظيفةُ الهدهدِ علىٰ ما ذَكَرَهُ ابنُ عباس وغيرهُ أنَّهم كانوا إذا أعوزوا الماءَ في القفار في حال الأسفار؛ يجيءُ فينظرُ لهم: هل بهٰذه البقاع من ماءٍ، وفيه من القوَّةِ التي أودعها اللهُ تعالىٰ فيه أن ينظرَ إلىٰ الماء تحت تُخوم الأرض؛ فإذا دَلَّهُم عليه؛ حفروا عنه واستنبطوه وأخرجوه واستعملوه لحاجتهم. فلمَّا تطلَّبه سليمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذاتَ يوم؛ فَقَدَهُ ولم يَجِدْه في موضعِهِ من محلِّ خدمتِهِ. ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: ما له مفقودٌ من

هاهنا، أو: قد غاب عن بصري؛ فلا أراه بحضرتي. ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾: توعَّده بنوع من العذاب اختلف المفسِّرون فيه، والمقصودُ حاصلٌ علىٰ كل تقدير. ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾؛ أي: بحُجَّةٍ تُنَجِّيه من هٰذه الورطة.

قال الله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾؛ أي: فغاب الهدهدُ غيبةً ليست بطويلةٍ، ثم قدم منها. ﴿فَقَالَ﴾ لسليمانَ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾؛ أي: اطَّلعتُ علىٰ ما لم تَطَّلعْ عليه. ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: بخبر صادق.

﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾: يذكرُ ما كان عليه ملوكُ سبإٍ في بلاد اليمن من المملكة العظيمة والتبابعة[1] المتوَّجين، وكان المُلْك قد آل في ذٰلك الزمان إلىٰ امرأة منهم ابنة مَلِكِهم لم يخلِّفْ غيرَها، فملَّكوها عليهم. وذكر الثعلبيُّ[2] وغيرُه أنَّ قومها مَلَّكوا عليهم بعد أبيها رجلًا، فعمَّ به الفسادُ، فأرسلتْ إليه تخطِبُه، فتزوَّجها، فلمَّا دخلتْ عليه؛ سقتْه خمرًا، ثم حزَّتْ رأسَه ونصبتْه علىٰ بابِها، فأقبلَ الناسُ عليها وملَّكوها عليهم، وهي: بلقيسُ بنتُ اليشرح[3] (وهو الهدهاد). وقيل: شراحيل بن ذي جدن بن اليشرح[4] بن الحارث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وكان أبوها من أكابر الملوكِ، وكان قد تأبَّىٰ أن يتزوَّجَ من أهل اليمن، فيقالُ: إنَّه تزوَّج بامرأةٍ من الجنِّ اسمُها ريحانةُ بنت السكن، فولدتْ له هٰذه المرأةَ، واسمها تلقمةُ، ويقالُ لها: بلقيس.

وقد روىٰ الثعلبيُّ من طريق: سعيد بن بشير، عن قَتادة، عن النضر بن أنس، عن بشير بن نَهيكٍ، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ: أنَّه قال: «**كان أحدُ أبوي بلقيسَ جنيًّا**»[5]. وهٰذا حديثٌ غريبٌ وفي سنده ضعفٌ.

---

(١) التَّبابعة: ملوك اليمن الذين اجتمع لهم ملك حمير وحضرموت.

(٢) في «عرائس المجالس» (ص٣١٤). وفي نسبها اختلاف يسير عما هنا.

(٣) في جميع الأصول: «السيرح». والتصويب من «العرائس» و«تاريخ الطبري».

(٤) في جميع الأصول: «السيرح». والتصويب من «العرائس» و«تاريخ الطبري».

(٥) (منكر). رواه الثعلبي في «عرائس المجالس» (ص٣١٥). وسعيد بن بشير ضعيف في روايته عن قتادة. ثم قد خالفه معمر فرواه عن قتادة موقوفًا عليه. أخرجه الطبري في «التفسير» (٩/ ٥١٣/ ٢٦٩٤٨). ومعمر ثقة من رجال الستة؛ فالمعول علىٰ روايته، والرفع منكر.

وقال الثعلبيُّ: أخبرني أبو عبد الله بن ميمونة[١]، حدثنا أبو بكرِ بنُ حرجةَ، حدثنا ابنُ أبي الليثِ، حدثنا أبو كريبٍ، حدثنا أبو معاويةَ، عن إسماعيلَ بن مسلم، عن الحسنِ، عن أبي بكرةَ؛ قال: ذُكِرَتْ بلقيسُ عندَ رسول الله ﷺ، فقال: «**لا يُفْلحُ قومٌ وَلَّوْا أمرَهم امرأةً**»[٢]. إسماعيلُ بنُ مسلم هٰذا هو المكيُّ الضعيفُ.

وقد ثبت في «صحيح البخاري» من حديث: عوف، عن الحسن، عن أبي بَكْرة: أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا بَلَغَهُ أنَّ أهلَ فارس مَلَّكوا عليهم ابنةَ كِسْرىٰ؛ قال: «**لَنْ يُفلِحَ قومٌ ولَّوْا أمرَهُم امرأةً**»[٣].

ورواه الترمذيُّ والنسائيُّ من حديث: حميدٍ، عن الحسن، عن أبي بَكْرَةَ، عن النبي ﷺ.. بمثله. وقال الترمذيُّ: حسن صحيح.

وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: ممَّا من شأنه أن تؤتاه الملوك. ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾؛ يعني: سريرَ مملكتِها، كان مزخرفًا بأنواع الجواهرِ واللآلئ والذهبِ والحُليِّ الباهر.

ثم ذَكَرَ كُفْرَهم بالله، وعبادَتَهُمُ الشمسَ من دون الله، وإضلالَ الشيطان لهم، وصدَّه إيَّاهم عن عبادةِ الله تعالىٰ وحدَه لا شريكَ له، الذي يُخْرِجُ الخَبْءَ في السماواتِ والأرض[٤] ويعلمُ ما يُخفونَ وما يعلِنون؛ أي: يعلمُ السرائرَ والظواهرَ من المحسوسات والمعنويَّات. ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾؛ أي: له العرشُ العظيم الذي لا أعظمَ منه في المخلوقاتِ.

فعند ذٰلك بعث معه سليمانُ ﷺ كتابًا يتضمَّنُ دعوتَه لهم إلىٰ طاعةِ الله وطاعةِ رسولِهِ والإنابةِ والإذعانِ إلىٰ الدُّخول في الخُضوع لملكِهِ وسلطانِهِ، ولهٰذا قال لهم: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾؛

---

(١) في جميع الأصول: «ابن قبحونة»! والتصويب من «عرائس المجالس».

(٢) (منكر). رواه الثعلبي في «عرائس المجالس» (ص٣١٥) بهٰذا اللفظ، وإسماعيل ضعيف، وقد خالف رواية الثقات التي تأتي بعده. ومن تحت أبي كريب لم أعرفهم.

(٣) رواه: البخاري (٦٤- المغازي، ٨٢- كتاب النبي ﷺ إلىٰ كسرىٰ، ٨/ ١٢٦/ ٤٤٢٥)، والترمذي (٣٤- الفتن، ٧٥- باب، ٤/ ٥٢٧/ ٢٢٦٢)، والنسائي (٤٩- آداب القضاة، ٨- النهي عن استعمال النساء، ٨/ ٢٢٧/ ٥٤٠٣).

(٤) الخَبْء: المخبوء؛ أكان غيثًا أو نباتًا أو غيره.

أي: لا تستكبِروا عن طاعتي وامتثال أوامري. ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۝٣١﴾؛ أي: واقْدُموا عليَّ سامعينَ مطيعين بلا معاودةٍ ولا مراودةٍ.

فلمَّا جاءها الكتابُ مع الطيرِ -ومن ثَمَّ اتَّخذ الناسُ البطائقَ(١)، ولكن؛ أين الثُّريَّا من الثرىٰ؟! تلك البطاقةُ كانت مع طائرٍ سامع مطيع فاهم عالم بما يقولُ ويُقالُ له-؛ فذَكَرَ غيرُ واحدٍ من المفسِّرين وغيرِهم: أنَّ الهدهدَ حمل الكتاب، وجاء إلىٰ قصرِها، فألْقاه إليها وهي في خلوةٍ لها، ثم وَقَفَ ناحيةً ينتظر ما يكونُ من جوابها عن كتابِها.

فجمعتْ أمراءها ووزراءَها وأكابرَ دولتها إلىٰ مشورَتِها. ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ۝٢٩﴾. ثم قرأتْ عليهم عنوانَه أولًا ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾. ثم قرأتْه: ﴿وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣١﴾. ثم شاورَتْهم في أمرِها وما قد حلَّ بها، وتأدَّبتْ معهم، وخاطبتْهم وهم يسمعونَ. ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۝٣٢﴾؛ تعني: ما كنتُ لأبُتَّ أمرًا إلَّا وأنتم حاضرونَ ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾؛ يعنونَ: لنا قوَّةٌ وقدرةٌ علىٰ الجِلاد والقتال ومقاومةِ الأبطال؛ فإنْ أردتِ منَّا ذٰلك؛ فإنَّا عليه من القادرين. ومع هٰذا ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ۝٣٣﴾: فبذلوا لها السمعَ والطاعةَ، وأخبروها بما عندَهم من الاستطاعةِ، وفوَّضوا إليها في ذٰلك الأمرِ؛ لترىٰ فيه ما هو الأرشدُ لها ولهم، فكان رأيُها أتمَّ وأسدَّ من رأيِهم، وعلمتْ أنَّ صاحبَ هٰذا الكتابِ لا يُغالَبُ ولا يُمانَعُ ولا يُخالَفُ ولا يُخادَع.

﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٣٤﴾: تقولُ برأيها السديدِ: إنَّ هٰذا المَلِكَ؛ لو قد غلَبَ علىٰ هٰذه المملكة؛ لم يَخلُصِ الأمرُ من بينِكم إلَّا إليَّ، ولم تكنِ الحدَّةُ والشدَّةُ والسَّطْوةُ البليغةُ إلَّا عليَّ. ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣٥﴾: أرادتْ أن تصانِعَ عن نفسِها وأهل مملكَتِها بهديَّةٍ ترسلها وتُحَفٍ تبعثُها! ولم تعلمْ أنَّ سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يقبلُ منهم - والحالةُ هٰذه - صرفًا ولا عَدْلًا؛ لأنَّهم كافرون، وهو وجنودُهُ عليهم قادرون.

ولهٰذا؛ ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ۝٣٦﴾:

(١) البطائق: جمع بطاقة: الرقعة الصغيرة يكتب عليها.

هٰذا؛ وقد كانت تلك الهدايا مشتملةً علىٰ أمورٍ عظيمةٍ كما ذكره المفسِّرون. ثم قال لرسولِها إليه ووافِدها الذي قَدِمَ عليه والناسُ حاضرون يسمعون: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾: يقولُ: ارجعْ بهديَّتِك التي قدمتَ بها إلىٰ مَنْ قد منَّ بها؛ فإنَّ عندي ممَّا قد أنعم اللهُ عليَّ وأسداه إليَّ من الأموال والتُّحف والرجال ما هو أضعافُ هٰذا وخيرٌ من هٰذا الذي أنتم تفرحون به وتفخرون علىٰ أبناء جنسكم بسببه. ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾؛ أي: فلأَبْعثَنَّ إليهم بجنودٍ لا يستطيعونَ دفاعَهم ولا نِزالهم ولا ممانَعتَهم ولا قِتالَهم، ولأخرِجَنَّهم من بلادِهم وحَوْزَتِهم ومعاملتِهم ودولتِهم أذلَّةً. ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾: عليهم الصَّغارُ والعارُ والدمارُ.

فلمَّا بلَغَهم ذٰلك عن نبيِّ الله؛ لم يكنْ لهم بدٌّ من السمع والطاعة، فبادَروا إلىٰ إجابتِهِ في تلك الساعةِ، وأقبلوا صحبةَ الملكةِ أجمعين سامعين مطيعين خاضعينَ.

فلمَّا سمعَ بِقُدومهم عليه ووفودِهِم إليه؛ قال لِمَنْ بين يديه ممَّن هو مسخَّرٌ له من الجانِّ ما قصَّه الله عنه في القرآن:

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل: ٣٨-٤٤].

لمَّا طلب سليمانُ من الجانِّ أن يُحضِروا له عرشَ بلقيس -وهو سريرُ مملكتِها التي تجلِسُ عليه وقت حكمِها- قبلَ قدومِها عليه. ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾؛ يعني: قبلَ أنْ يَنْقَضِيَ مجلسُ حُكمِك، وكان فيما يُقالُ من أوَّل النهارِ إلىٰ قريبِ الزوال، يتصدَّىٰ لمهمَّاتِ بني إسرائيل وما لهم من الأشغال. ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾؛ أي:

وإنِّي لَذو قدرةٍ علىٰ إحضارِهِ إليك، وأمانةٍ علىٰ ما فيه من الجواهرِ النفيسةِ لديك.

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: المشهورُ أنه آصفُ ابن برخيا، وهو ابنُ خالةِ سليمانَ. وقيل: هو رجلٌ من مؤمني الجانِّ كان فيما يُقالُ يحفظُ الاسم الأعظم. وقيل: رجلٌ من بني إسرائيل من علمائِهِم. وقيل: إنَّه سليمانُ. وهٰذا غريبٌ جدًّا. وضعفَّه السُّهَيْلِيُّ بأنه لا يصحُّ في سياق الكلام. قال: وقد قيلَ فيه قولٌ رابعٌ، وهو: جبريل. ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾: قيل: معناه: قبل أنْ تَبْعَثَ رسولًا إلىٰ أقصىٰ ما ينتهي إليه طَرْفُك من الأرض ثم يعودَ إليك. وقيل: قبلَ أن يَصِلَ إليك أبعدُ مَنْ تراه من الناس.

وقيل: قبلَ أن يَكِلَّ طرفُك إذا أدمتَ النظرَ به قبل أن تُطْبِقَ جفنَكَ. وقيل: قبل أن يرجِعَ إليك طرفُك إذا نظرتَ به إلىٰ أبعدِ غايةٍ منك ثم أغمضْتَه. وهٰذا أقربُ ما قيل.

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾؛ أي: فلمَّا رأىٰ عرش بلقيس مستقرًّا عنده في هٰذه المدَّة القريبة من بلاد اليمن إلىٰ بيت المقدس في طرفةِ عينٍ. ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾؛ أي: هٰذا من فضل الله عليَّ، وفضلُهُ علىٰ عبيده لِيَخْتَبِرَهم علىٰ الشكر أو خلافِهِ. ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: إنما يعودُ نفعُ ذٰلك عليه. ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾؛ أي: غنيٌّ عن شكرِ الشاكرينَ، ولا يتضرَّرُ بكفر الكافرين.

ثم أمر سليمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يغيِّرَ حُلِيَّ هٰذا العرش ويُنكِّرَ لها ليختبرَ فهمَها وعقلَها، ولهٰذا قال: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾: وهٰذا من فطنتها وغزارةِ فهمِها؛ لأنَّها استبعدتْ أن يكونَ عرشَها؛ لأنَّها خلَّفَتْه وراءها بأرض اليمن، ولم تكنْ تعلمُ أنَّ أحدًا يقدِرُ علىٰ هٰذا الصنع العجيبِ الغريب.

قال الله تعالىٰ إخبارًا عن سليمانَ وقومِهِ: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾؛ أي: وَمَنَعَها عبادةُ الشمس التي كانت تسجُدُ لها هي وقومُها من دون اللهِ اتِّباعًا لدينِ آبائِهِم وأسلافِهِم، لا لدليل قادَهم إلىٰ ذٰلك ولا حَداهُم علىٰ ذٰلك.

وكان سليمانُ قد أمر ببناءِ صرح من زُجاج، وعَمِلَ في ممرِّه ماءً، وجعلَ عليه سَقْفًا من

زُجاج، وجعل فيه من السمكِ وغيرها من دوابِّ الماء، وأُمِرَتْ بدُخول الصرح وسليمانُ جالس علىٰ سريره فيه. ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾: وقد قيلَ: إنَّ الجنَّ أرادوا أن يُبَشِّعوا منظَرَها عند سليمانَ، وأن تبديَ عن ساقَيْها؛ ليرىٰ ما عليها من الشعرِ؛ فيُنَفِّرَهُ ذٰلك منها، وخشوا أن يتزوَّجها؛ لأنَّ أمَّها من الجانِّ فتتسلَّطَ عليهم معه! وذكر بعضهم أنَّ حافِرَها كان كحافِرِ الدَّابَّةِ!! وهٰذا ضعيفٌ وفي الأول أيضًا نظرٌ. والله أعلم.

إلَّا أنَّ سليمانَ؛ قيل: إنَّه لمَّا أراد إزالَتَه حين عَزَمَ علىٰ تزوُّجِها؛ سأل الإنسَ عن زوالِهِ؟ فذكروا له الموسىٰ، فامتنعتْ من ذٰلك، فسأل الجانَّ؟ فصنعوا له النُّوْرَةَ[(١)]، ووضعوا له الحمَّام، فكانَ أولَ مَنْ دَخَلَ الحمَّامَ، فلمَّا وَجَدَ مسَّه؛ قال: أَوَّهْ من عذاب [الله] أَوَّهْ، أَوَّهْ قبلَ أن لا يَنْفَعَ أَوَّهْ. رواه الطبرانيُّ مرفوعًا[(٢)]. وفيه نظرٌ.

وقد ذكر الثعلبيُّ[(٣)] وغيرُه أنَّ سليمانَ لمَّا تَزَوَّجَها؛ أقرَّها علىٰ مملكةِ اليمنِ، وردَّها إليه، وكان يزورُها في كلِّ شهرٍ مرةً، فيقيمُ عندَها ثلاثةَ أيام، ثم يعودُ علىٰ البساطِ، وأَمَرَ الجانَّ؛ فَبَنَوْا له ثلاثةَ قصور باليمن: غمدان وسالحين وبيتون. فالله أعلم. وقد روىٰ ابنُ إسحاقَ: عن بعض أهل العلم، عن وَهْب بن مُنَبِّهٍ: أنَّ سليمانَ لم يتزوَّجْها، بل زوَّجَها بِمَلِكِ هَمْدانَ، وأقرَّها علىٰ مُلْكِ اليمن، وسخَّرَ زوبعةَ مَلِكَ جِنِّ اليمن فبنىٰ لها القصورَ الثلاثة التي ذَكَرْناها باليمن. والأولُ أشهرُ وأظهرُ. والله أعلم.

---

(١) النُّورة: مركب استعمله الأقدمون لإزالة الشعر.

(٢) (ضعيف جدًّا). رواه: البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٣٦٢)، والعقيلي في «الضعفاء» (١/ ٨٤)، والطبراني في «الأوسط» (١/ ٢٨٥/ ٤٦٤)، والبيهقي في «الشعب» (٦/ ١٦٠/ ٧٧٧٨)، وابن عساكر في «التاريخ» (٢٢/ ٢٧٧)؛ من طرق عن: إبراهيم بن مهدي، ثنا أبو حفص الأبار، ثنا إسماعيل بن عبد الرحمن الأودي، عن أبي بردة، عن أبي موسىٰ، عن النبي ﷺ؛ قال: «**أول من صنعت له النُّورة ودخل الحمام...**» فذكره بنحوه.
قال البخاري: «فيه نظر، لا يتابع فيه». وأقره العقيلي. وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢١٠): «فيه إسماعيل بن عبد الرحمن الأودي، وهو ضعيف». **قلت**: هو منكر الحديث، لا يعرف إلا بخبرين هٰذا أحدهما. وقال الألباني: «ضعيف جدًّا».

(٣) في «عرائس المجالس» (ص٣٢٣).

۞ [ذكر ما كان من أمر سليمان مع الخيل الصافنات الجياد]:

وقال تعالىٰ في سورة ص: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة ص: ٣٠-٤٠].

يذكُر تعالىٰ أنَّه وهبَ لداوودَ سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم أثنىٰ الله تعالىٰ عليه، فقال: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾؛ أي: رجّاعٌ مطيعٌ لله.

ثم ذكر تعالىٰ ما كان من أمرِهِ في الخيل. ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾: وهي التي تقفُ علىٰ ثلاثةٍ وطرفِ حافرِ الرابعةِ. ﴿ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾: وهي المُضَمَّرة السِّراع. ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾؛ يعني: الشمس. وقيل: الخيل؛ علىٰ ما سنذكُره من القولين. ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾: **قيل**: مَسَحَ عراقيبَها وأعناقَها بالسُّيوفِ. **وقيل**: مَسَحَ عنها العرقَ لمَّا أجراها وسابَقَ بينها بين يديهِ علىٰ القول الآخر. والذي عليه أكثرُ السلفِ الأولُ، فقالوا: اشتغلَ بعرض تلك الخُيول حتىٰ خَرَجَ وقتُ العصر وغربتِ الشمس. ورُوي هٰذا عن عليِّ بن أبي طالب وغيرِهِ. والذي يُقْطَعُ به أنَّه لم يَتْرُكِ الصلاةَ عمدًا من غير عذرٍ، اللهمَّ إلَّا أن يقالَ: إنَّه كان سائغًا في شريعتِهِم! فأخَّر الصلاةَ لأجل أسباب الجهاد، وعرضُ الخيل من ذٰلك.

وقد ادَّعىٰ طائفةٌ من العلماء في تأخيرِ النبيِّ ﷺ صلاةَ العصرِ يومَ الخندق أنَّ هٰذا كان مشروعًا إذْ ذاك حتىٰ نُسِخَ بصلاةِ الخوف. قاله الشافعيُّ وغيرُه. وقال مكحولٌ والأوزاعيُّ: بل هو حُكْمٌ محكَمٌ إلىٰ اليوم: أنَّه يجوزُ تأخيرُها بعذرِ القتال الشديد؛ كما ذَكَرْنا تقرير ذٰلك في سورة النساء عند صلاة الخوف. وقال آخرون: بل كان تأخيرُ النبيِّ ﷺ صلاة العصر يوم الخندق نسيانًا(١). وعلىٰ هٰذا فيُحْمَلُ فعلُ سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ علىٰ هٰذا. والله أعلم.

---

(١) تأخير النبي ﷺ لصلاة العصر يوم الخندق مشهور؛ رواه: البخاري (٦٤- المغازي، ١٩- الخندق، ٧/٤٠٥/ ٤١١١ و٤١١٢)، ومسلم (٥- المساجد، ٣٦- الصلاة الوسطىٰ هي العصر، ١/ ٤٣٧/ ٦٢٨ و٦٣١)؛ من حديث علي وعمر رضي الله عنهما.

وأمَّا مَنْ قالَ: الضميرُ في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾: عائدٌ علىٰ الخيل، وإنَّه لم يَفُتْهُ وقتُ الصلاة، وإنَّ المرادَ بقولِهِ: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾؛ يعني: مَسْح العَرَق عن عراقيبِها وأعناقِها. فهٰذا القولُ اختارهُ ابنُ جرير[1]، ورواه الوالبيُّ عن ابن عباس في مسح العرقِ. ووَجَّهَ هٰذا القولَ ابنُ جرير بأنَّه ما كان لِيُعَذِّبَ الحيوانَ بالعَرْقَبَةِ[2] ويُهْلِكَ مالاً بلا سببٍ ولا ذنبٍ لها. وهٰذا الذي قاله فيه نظرٌ؛ لأنَّه قد يكونُ هٰذا سائغًا في ملَّتِهم! وقد ذهبَ بعضُ علمائِنا إلىٰ أنَّه إذا خاف المسلمون أن يَظْفَرَ الكفَّارُ علىٰ شيءٍ من الحيوانات من أغنام ونحوِها؛ جاز ذبحُها وإهلاكُها؛ لئلَّا يَتَقَوَّوْا بها. وعليه حُمِلَ صنيعُ جعفر بن أبي طالبٍ يومَ عَقَرَ فرسَه بمؤتةَ[3].

وقد قيل: إنَّها كانتْ خَيْلًا عظيمةً. **قيل**: كانتْ عشرةَ آلاف فرسٍ. **وقيل**: عشرينَ ألف فرسٍ. **وقيل**: كان فيها عشرونَ فرسًا من ذواتِ الأجنحةِ.

وقد روىٰ أبو داوود في «سننه»: حدثنا محمدُ بنُ عوفٍ، حدثنا سعيدُ بنُ أبي مريمَ، أنبأنا يحيىٰ بنُ أيوبَ، حدَّثني عُمارة بن غزيةَ، أن محمد بن إبراهيم حدَّثه، عن أبي سلمةَ بن

---

(١) في «التفسير»! (١٠/ ٥٧٩/ ص٣٣).

(٢) العرقوب: الوتر القاسي الذي يلي العقب، والعرقبة: هي قطع هٰذا الوتر، ممّا يعني شلل جزء كبير من حركة القدم.

(٣) وقول ابن جرير هو الراجح عندي من وجوه:

فأولها: أن الخيل لا ذنب لها في هٰذا حتىٰ تعاقب هذه العقوبة.

وثانيها: أن هٰذا نوع من التعذيب الذي يتنزه عنه آحاد الناس وترقُّ قلوبهم للحيوان لأجله؛ فكيف بهٰذا النبي الكريم، الذي عُلِّم منطق الطير والحيوان فصار أكثر رحمة به ورفقًا، حتىٰ رحم النملة وأنصف الهدهد؟! والاعتراض علىٰ هٰذا بأنه سائغ في ملتهم اعتراض واهٍ جدًّا؛ لأنه أمر مستبعد جدًّا أن يرضىٰ الرحيم الرحمن بتعذيب من لا ذنب له من الحيوان ويُسيغه للبشر في دين من الأديان. وحتىٰ إن كان الأمر كذلك - علىٰ التنزل-؛ فمقام النبوة يأباه.

ثالثها: وأما قصة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه؛ فصحيحة؛ رواها أحمد وأبو داوود والنسائي وصححها ابن حبان، وهي دليل قوي للمذهب الفقهي الذي ذكره المؤلف رحمه الله، لٰكن لا وجه لقياس هذه الحادثة عليها وجمعها علىٰ صعيد واحد.

رابعها: أن حمل هذه القصة علىٰ أحسن المحامل وأليقها بكرامة الرسل وفضيلتهم أولىٰ طالما أن اللفظ محتمل؛ فمن الممكن أن يكون عليه السلام قد أقبل عليها ففكَّ سروجها ومسح أعناقها وأرجلها بيديه تحبُّبًا ووداعًا وأطلقها لوجه الله تسير حرة كيف شاءت؛ فهذه الصورة أولىٰ وأليق بمقام النبوة من حمل السيف والهجوم عليها ضربًا وعقرًا وتقطيعًا انتقامًا لذنب ما اقترفه فعلَ المفسدين في الأرض. والله أعلم.

عبد الرحمٰن[١]، عن عائشةَ؛ قالتْ: قَدِمَ رسولُ الله ﷺ من غزوةِ تبوكَ أو خيبرَ، وفي سَهْوَتِها[٢] سِتْرٌ، فهبَّتِ الريحُ، فكشفتْ ناحيةَ الستر عن بناتٍ لعائشةَ لُعبٍ، فقال: «**ما هٰذا يا عائشةُ؟!**». فقالت: بناتي. ورأىٰ بينهنَّ فرسًا له جناحان من رِقاعٍ، فقال: «**ما هٰذا الذي أرى وَسْطَهُنَّ؟!**». قالت: فرسٌ. قال: «**وما الذي عليه هٰذا؟!**». قالت: جناحانِ. قال: «**فرسٌ له جناحانِ؟!**». قالت: أما سمعتَ أنَّ لسليمانَ خيلًا لها أجنحةٌ؟ قالت: فضَحِكَ حتىٰ رأيتُ نواجِذَه ﷺ[٣].

قال بعضُ العلماءِ: لمَّا تَرَكَ الخيلَ لله؛ عوَّضَه الله عنها بما هو خيرٌ له منها، وهو الريحُ التي كانت غُدُوُّها شهرٌ ورواحُها شهرٌ؛ كما سيأتي الكلام عليها؛ كما قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا إسماعيلُ، حدَّثنا سليمانُ بنُ المغيرةِ، عن حميدِ بن هلال، عن أبي قَتادة وأبي الدَّهْماء -وكانا يكثِرانِ السفرَ نحوَ البيت-؛ قالا: أتَيْنا علىٰ رجل من أهل الباديةِ، فقال البدويُّ: أخذَ بيدي رسولُ اللهِ ﷺ، فجعل يعلِّمُني ممَّا علَّمَه اللهُ ﷻ، وقال: «**إنَّك لا تَدَعُ شيئًا اتِّقاءَ اللهِ ﷻ؛ إلَّا أعطاكَ الله خيرًا منه**»[٤].

۞ [ذكر ما آتاه الله من الملك العظيم بعد تجديده بيت المقدس]:

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ [ص: ٣٤]: ذكر ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم وغيرُهما من المفسِّرين هاهنا آثارًا كثيرةً عن جماعةٍ من السَّلف، وأكثرُها أو كلُّها متلقاةٌ من الإسرائيليات، وفي كثيرٍ منها نكارةٌ شديدةٌ، وقد نبَّهْنا علىٰ ذٰلك في كتابنا «التفسير»، واقتصرْنا هاهنا علىٰ مجردِ التلاوةِ.

ومضمونُ ما ذكروه: أنَّ سليمان عليه السلام غاب عن سريرِهِ أربعين يومًا ثم عاد إليه، ولمَّا عادَ؛ أمرَ ببناءِ بيت المقدس، فبناه بناءً مُحكمًا! وقد قدَّمْنا أنَّه جدَّده، وأنَّ أوَّلَ من جعله مسجدًا إسرائيلُ

---

(١) في جميع الأصول: «عن محمد بن أبي سلمة بن عبد الرحمن»! والتصويب من مصادر التخريج.

(٢) السهوة: كوة تشبه ما يعرف اليوم بخزانة الحائط.

(٣) (**صحيح**). رواه: أبو داوود (٣٥- الأدب، ٥٤- اللعب بالبنات، ٢/ ٧٠١/ ٤٩٣٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٢/ ٣٥٧/ ١٧٧٤٢)؛ من طريق سعيد بن أبي مريم... به، فذكره. وسنده صحيح. وصححه الألباني.

(٤) (**صحيح**). رواه: وكيع في «الزهد» (٣٥٦)، وأحمد (٥/ ٧٨ بهٰذا السند و٣٦٣ من طريق وكيع)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١/ ١٩٩/ ١٥٦٦٠ - تحفة)، والقضاعي في «الشهاب» وصححه الألباني علىٰ شرط مسلم. وانظر: «السلسلة الضعيفة» (١/ ٦٢).

عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ كما ذَكَرْنا ذلك عند قول أبي ذرٍّ: قلتُ: يا رسول اللهِ! أيُّ مسجدٍ وُضِعَ أولًا؟ قال: «**المسجدُ الحرامُ**». قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «**مسجدُ بيتِ المقدسِ**». قلتُ: كم بينَهما؟ قال: «**أربعونَ سنةً**»(١). ومعلومٌ أنَّ بينَ إبراهيم الذي بنىٰ المسجدَ الحرام وبين سليمانَ بنِ داوودَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أزيدَ من ألفِ سنةٍ، دعْ أربعين سنةً!

وكان سؤالُهُ المُلْكَ الذي لا ينبغي لأحدٍ من بعدِه بعدَ إكمالِهِ البيت المقدَّس.

قال الإمامُ أحمدُ والنسائيُّ وابن ماجه وابنُ خزيمةَ وابنُ حِبَّانَ والحاكمُ بأسانيدهم عن: عبدِالله بنِ فيروزَ الديلميِّ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص؛ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ سليمانَ لَمَّا بنى بيتَ المقدِسِ؛ سألَ ربَّه عَزَّوَجَلَّ خِلالًا ثلاثًا، فأعطاه اثنتينِ، ونحنُ نرجو أن تكونَ له**(٢) **الثالثةُ: سأله حُكْمًا يصادِفُ حُكْمَه؛ فأعطاه إيَّاهُ. وسألَهُ مُلْكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعدِهِ؛ فأعطاه إياه. وسألَه أيُّما رجل خَرَجَ من بيتِهِ لا يريدُ إلَّا الصَّلاةَ في هٰذا المسجد؛ خرجَ من خطيئتِهِ مثلَ يوم وَلَدَتْه أمُّه. فنحنُ نرجو أنْ يكونَ اللهُ قد أعطاه**(٣) **إيَّاها**»(٤).

فأمَّا الحكمُ الذي يوافِقُ حكم الله تعالىٰ؛ فقد أثنىٰ اللهُ تعالىٰ عليه وعلىٰ أبيه في قولِهِ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ۝٧٨ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩]: وقد ذكر شُرَيْحٌ القاضي وغيرُ واحدٍ من السلف أنَّ هٰؤلاء القومَ كان لهم كَرْمٌ، فنفشتْ فيه غنمُ قوم آخرين؛ أي: رَعَتْه بالليل، فأكلتْ شَجَرَهُ بالكُلِّيَّةِ، فتحاكموا إلىٰ داوودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فحكم لأصحابِ الكرم بقيمتِهِ، فلمَّا خرجوا علىٰ سليمانَ؛ قال: بم حَكَمَ لك نبيُّ الله؟ فقالوا: بكذا وكذا. فقال: أما لو كنتُ أنا؛ لَما حكمتُ إلَّا

---

(١) تقدم هٰذا (ص٢٠٤).

(٢) في جميع الأصول: «لنا»! والتصويب من مصادر التخريج؛ فما فيها واحد علىٰ هٰذا اللفظ.

(٣) في جميع الأصول: «أعطانا»! والتصويب من مصادر التخريج؛ فما فيها واحد علىٰ هٰذا اللفظ.

(٤) (**صحيح**). رواه: أحمد (٢/ ١٧٦)، وابن ماجه (٥- إقامة الصلاة، ١٩٦- الصلاة في مسجد بيت المقدس، ١/ ٤٥٢/ ١٤٠٨)، والنسائي (٨- المساجد، ٦- فضل المسجد الأقصىٰ، ٢/ ٣٤/ ٦٩٢)، وابن خزيمة (٢/ ٢٨٨/ ١٣٣٤)، وابن حبان (٤/ ٥١١/ ١٦٣٣)؛ والحاكم (١/ ٣٠)؛ من طريق عبد الله بن فيروز... به، فذكره. قال الحاكم: «صحيح، قد تداوله الأئمة، وقد احتجا بجميع رواته، ولا أعلم له علة». ووافقه الذهبي. وأقره المنذري في «الترغيب» (٢/ ١٧٦/ ١٧٧٨). وتابعهم الألباني.

بتسليم الغنم إلىٰ أصحابِ الكرم فيستغِلُّونها نِتاجًا ودَرًّا حتىٰ يُصْلحَ أصحابُ الغنم كَرْمَ أولئك ويردُّوه إلىٰ ما كان عليه، ثم يتسلَّموا غَنَمَهم. فبلغ داوودَ ﷺ ذٰلك، فحكمَ به.

وقريبٌ من هٰذا ما ثبت في الصحيحين من حديث: أبي الزِّنادِ، عن الأعرج، عن أبي هريرة؛ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**بينما امرأتان مَعَهُما ابناهُما؛ إذ عدا الذئبُ، فأخذ ابنَ إحداهما، فتنازَعَتا في الآخرِ، فقالتِ الكُبرى: إنَّما ذهب بابنِكِ. وقالتِ الصُّغرى: بل إنَّما ذهب بابنِكِ. فتحاكَمَتا إلى داوودَ، فحَكَمَ به للكُبرى، فخرجَتا على سليمانَ، فقال: ائْتوني بالسِّكِّينِ أشُقُّهُ نصفينِ؛ لكلِّ واحدةٍ منكما نصفُه. فقالت الصغرى: لا تفعلْ يرحمُكَ اللهُ؛ هو ابنها. فقضى به لها**»[1].

ولعل كلًّا من الحُكمين كان سائغًا في شريعتهم، ولٰكنَّ ما قاله سليمانُ أرجحُ، ولهٰذا أثنىٰ الله عليه بما ألهمهُ إيَّاه، ومدح بعد ذٰلك أباه، فقال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء: ٧٩-٨٠].

ثم قال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الأنبياء: ٨١]؛ أي: وسخَّرْنا لسليمان الريحَ عاصفةً. ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنبياء: ٨١-٨٢].

وقال في سورة صٓ: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص: ٣٦-٤٠].

لمَّا تَركَ الخيلَ ابتغاءَ وجه الله؛ عوَّضَه الله منها الريحَ التي هي أسرعُ سيرًا وأقوىٰ وأعظمُ ولا كلفةَ عليه لها. ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [ص: ٣٦]؛ أي: حيثُ أراد من أيِّ البلاد، كان له بساطٌ مركبٌ من أخشابٍ؛ بحيثُ إنَّه يسعُ جميع ما يحتاجُ إليه من الدُّور المبنيَّةِ والقصور والخيام والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرِّجال من الإنس والجانِّ وغير ذٰلك من الحيواناتِ والطيورِ؛ فإذا أراد سفرًا أو مُتنزَّهًا أو قتالَ مَلِكٍ أو أعداءٍ من أيِّ بلادِ الله شاء؛ فإذا حمل هٰذه الأمورَ المذكورةَ علىٰ البساط؛ أمر الريح، فدخلتْ تحتَه، فرفعتْه؛ فإذا

---

(١) رواه: البخاري (٦٠- الأنبياء، ٤٠ - ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾، ٦/ ٤٥٨/ ٣٤٢٧)، ومسلم (٣٠- الأقضية، ١٠- اختلاف المجتهدين، ٣/ ١٣٤٤/ ١٧٢٠).

استقلَّ بين السماء والأرض؛ أمر الرُّخاء فسارتْ به؛ فإنْ أرادَ أسرعَ من ذٰلك؛ أمر العاصفةَ فحَمَلَتْه أسرعَ ما يكونُ، فوضعتْه في أيِّ مكانٍ شاء؛ بحيثُ إنَّه كان يرتَحِلُ في أول النهار من بيتِ المقدس، فتغدو به الريحُ، فتضعُهُ بإِصْطَخْرَ مسيرةَ شهرٍ، فيقيمُ هناك إلىٰ آخرِ النهار، ثمَّ يروح من آخرِهِ، فتردُّه إلىٰ بيت المقدس.

كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٢-١٣].

قال الحسنُ البصريُّ: كان يغدو من دمشقَ، فينزل بإِصْطَخْرِ، فيتغدَّىٰ بها، ويذهبُ رائحًا منها، فيبيت بِكابُلَ، وبين دمشقَ وبين إِصْطَخْرَ مسيرةُ شهرٍ، وبين إِصْطَخْرَ وكابُلَ مسيرةُ شهرٍ.

قلتُ: قد ذكر المتكلِّمون علىٰ العمرانِ والبلدانِ أنَّ إِصْطَخْرَ بَنَتْها الجانُّ لسليمانَ، وكان فيها قرارُ مملكة التُّرك قديمًا، وكذٰلك غيرُها من بلدانٍ شتَّىٰ كَتَدْمُرَ وبيتِ المقدسِ وبابِ جَيْرونَ وباب البريدِ اللذان بدمشقَ علىٰ أحدِ الأقوال.

وأمَّا القِطْرُ؛ فقالَ ابنُ عباس ومجاهدٌ وعِكرمةُ وقَتادةُ وغيرُ واحدٍ: هو النحاسُ. قال قَتادة: وكانت باليمنِ، أنْبَعَها الله له. قال السُّدِّيُّ: ثلاثةَ أيامٍ فقطْ؛ أخذَ منها جميعَ ما يحتاجُ إليه للبنايات وغيرها.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾؛ أي: وسَخَّرَ الله له من الجنِّ عُمَّالًا يعملون له ما يشاءُ لا يفتُرون ولا يخرُجون عن طاعتِهِ، ومن خَرَجَ منهم عن الأمر؛ عذَّبَه ونَكَّلَ به.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾: وهي الأماكنُ الحسنةُ وصدورُ المجالس. ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾: وهي الصُّوَرُ في الجدران، وكان هٰذا سائغًا في شريعتِهِم ومِلَّتِهِم. ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾: قالَ ابنُ عباس: الجَفْنَةُ كالجوبة من الأرض، وعنهُ: كالحياضِ. وكذا قال مجاهدٌ والحسنُ وقتادةُ والضحاكُ وغيرُهم. وعلىٰ هٰذه الرواية يكونُ الجوابُ جمعَ جابيةٍ، وهي الحوضُ الذي يُجبىٰ فيه الماء؛ قال الأعشىٰ:

تَـروحُ علـى آلِ الـمُـحـلَّـقِ جَـفْـنَـةٌ كـجابـيـةِ الشـيـخ الـعـراقـيِّ تـفـهـقُ(١)

وأمَّا القدورُ الرَّاسياتُ؛ فقال عكرمةُ: أثافيها منها؛ يعني: أنهنَّ ثوابتُ لا يَزلْنَ عن أماكنهنَّ. وهٰكذا قال مجاهدٌ وغيرُ واحدٍ. ولمَّا كان هٰذا بصددِ إطعام الطعام والإحسانِ إلىٰ الخلق من إنسانٍ وحيوانٍ(٢)؛ قال تعالىٰ: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ⑬﴾

وقال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ㊲ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ㊳﴾ [ص: ٣٧-٣٨]؛ يعني: أنَّ منهم مَنْ قد سَخَّرَهُ في البناء، ومنهم مَنْ يأمُرُه بالغوص في الماء لاستخراج ما هنالك من الجواهر واللآلئ وغير ذٰلك ممَّا لا يوجد إلَّا هنالك. وقوله: ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ㊳﴾؛ أي: قد عَصَوا فَقُيِّدوا مقرَّنينَ اثنينِ اثنينِ في الأصفادِ، وهي القيودُ. وهٰذا كلُّه من جملة ما هيأه الله وسخَّر له من الأشياء التي هي من تمام المُلك الذي لا ينبغي لأحدٍ من بعدِهِ ولم يكنْ أيضًا لِمَنْ كان قبلَه.

وقد قال البخاريُّ: حدثنا محمدُ بن بشارٍ، حدثنا محمدُ بن جعفرٍ، حدثنا شعبةُ، عن محمد بن زيادٍ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ؛ قال: «**إنَّ عفريتًا من الجنِّ تَفَلَّتَ عليَّ البارحةَ ليقطعَ عليَّ صلاتي، فأمْكَنَني اللهُ منه، فأخذْتُه، فأردتُ أنْ أربطَه إلى ساريةٍ من سواري المسجدِ حتى تنظُروا إليه كلُّكم، فذكرتُ دعوةَ أخي سليمانَ:** ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥]**، فرددتُه خاسئًا**»(٣). وكذا رواه مسلمٌ والنسائيُّ من حديث شعبة.

وقال مسلمٌ: حدثنا محمدُ بنُ سلمةَ المُراديُّ، حدثنا عبدُالله بنُ وهبٍ، عن معاويةَ بن صالح، حدثني ربيعةُ بنُ يزيدَ، عن أبي إدريس الخولانيِّ، عن أبي الدَّرداءِ؛ قال: قام رسولُ الله ﷺ يُصلِّي، فسمِعْناه يقولُ: «**أعوذُ باللهِ منكَ، ألعنُك بلعنةِ الله (ثلاثًا)**». وبسطَ يدَه كأنَّه يتناولُ شيئًا. فلمَّا فَرَغَ من الصلاةِ؛ قلْنا: يا رسول الله! قد سمعناكَ تقولُ في الصلاة شيئًا لم نسمَعْكَ تقولُه قبلَ ذٰلك، ورأيناكَ بسطتَ يدكَ! قال: «**إنَّ عَدُوَّ اللهِ إبليسَ جاء بشهابٍ من نارٍ لِيَجْعَلَه في وَجْهي،**

---

(١) تفهق: تفيض امتلاءً.

(٢) في نسخة: «وجان».

(٣) رواه: البخاري (٦٠- الأنبياء، ٤٠- ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ﴾، ٦/ ٤٥٧/ ٣٤٢٣)، ومسلم (٥- المساجد، ٨- جواز لعن الشيطان أثناء الصلاة، ١/ ٣٨٤/ ٥٤١)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٠/ ٣٢٥/ ١٤٣٨٤ - تحفة).

فقلتُ: أعوذُ بالله منك! ثلاث مراتٍ. ثم قلتُ: ألعنُك بلعنةِ اللهِ التامَّةِ! فلم يَسْتَأخِرْ! ثلاثَ مرَّاتٍ. ثم أردتْ أخذَه، واللهِ؛ لولا دعوةُ أخينا سليمانَ؛ لأصبح موثقًا يلعبُ به وِلدانُ أهل المدينة»[(١)].

وكذا رواه النَّسائيُّ عن محمد بن سلمة... به.

وقال أحمدُ: حدثنا أبو أحمدَ، حدثنا مَسَرَّة[(٢)] بن معبدٍ، حدثنا أبو عبيد صاحب[(٣)] سليمانَ؛ قال: رأيتُ عطاءَ بنَ يزيدَ الليثيَّ قائمًا يصلي، فذهبتُ أمرُّ بين يديهِ، فردَّني، ثم قال: حدثني أبو سعيدٍ الخُدريُّ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قام، فصلَّىٰ صلاةَ الصُّبح وهو خلفَه، فقرأ، فالتبستْ عليه القراءةُ، فلمَّا فَرَغَ من صلاتِهِ؛ قال: «**لو رَأَيْتُموني وإبليسَ، فأهويتُ بِيَدي، فما زلتُ أخنقُهُ حتى وجدتُ بردَ لُعابِهِ بين إصْبَعَيَّ هاتين الإبهام والتي تليها، ولولا دعوةُ أخي سليمانَ؛ لأصبحَ مربوطًا بساريةٍ من سواري المسجدِ يتلاعبُ به صبيانُ المدينةِ؛ فمَنِ استطاعَ منكم ألَّا يحولَ بينَه وبين القبلةِ أحدٌ؛ فليفعلْ**»[(٤)].

روىٰ أبو داوودَ منه: «**فمن استطاع...**» إلىٰ آخره عن: أحمدَ بن [أبي] سريج، عن [أبي] أحمد الزبيري... به.

وقد ذكر غيرُ واحدٍ من السلف أنَّه كانت لسليمانَ من النساء ألفُ امرأةٍ؛ سبع مئة بمهورٍ وثلاث مئة سراري. **وقيل بالعكس**: ثلاث مئةٍ حرائر وسبع مئةٍ من الإماء.

وقد كان يُطيق من التمتُّع بالنِّساءِ أمرًا عظيمًا جدًّا:

قال البخاريُّ: حدَّثنا خالدُ بن مخلدٍ، حدَّثنا مغيرةُ بن عبد الرحمٰن، عن أبي الزِّنادِ، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ؛ قال: «**قال سليمانُ بنُ داوودَ: لأطوفنَّ الليلةَ**

---

(١) رواه مسلم (الموضع السابق، ١/ ٣٨٥/ ٥٤٢)، والنسائي (١٣- السهو، ١٩- لعن إبليس والتعوذ منه، ٣/ ١٣/ ١٢١٤).

(٢) في جميع الأصول: «مرّة»! والتصويب من مصادر التخريج.

(٣) في جميع الأصول: «حاجب»، والتصويب من مصادر التخريج. ولعله صاحب سليمان بن عبد الملك وحاجبه. والله أعلم.

(٤) (حسن صحيح). رواه: أحمد (٣/ ٨٢)، وأبو داوود (٢- الصلاة، ١٠٦- الدنو من السترة، ١/ ٢٤٣/ ٦٩٩) بعضه؛ من هذه الطريق. ومسرَّة بن معبد: صدوق له أوهام؛ وبقية رجاله ثقات؛ فالسند لا بأس به. ولٰكنه يتقوىٰ ويصح بما تقدم. وقد سكت عنه المنذري. وقال الألباني: «حسن صحيح».

على سبعينَ امرأةً، تحملُ كلُّ امرأةٍ فارسًا يجاهِدُ في سبيل الله. فقال له صاحبُهُ: إنْ شاءَ اللهُ. فلم يَقُلْ. فلم تحمِلْ شيئًا؛ إلّا واحدًا ساقطًا أحدُ شِقَّيْهِ». فقال النبيُّ ﷺ: «**لو قالَها؛ لَجاهَدوا في سبيل الله**»(١). وقال شعيبٌ وابنُ أبي الزِّناد: «**تسعينَ**». وهو أصحُّ. تفرَّد به البخاريُّ من هٰذا الوجه.

وقال أبو يعلىٰ: حدثنا زهيرٌ، حدثنا يزيدُ، أنبأنا هشامُ بنُ حسانَ، عن محمدٍ، عن أبي هريرةَ؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**قالَ سليمانُ بن داوودَ: لأطوفنَّ الليلةَ على مئةِ امرأةٍ، كلُّ امرأةٍ منهنَّ تَلِدُ غُلامًا يضربُ بالسيفِ في سبيل الله. ولم يَقُلْ: إنْ شاءَ اللهُ. فطافَ تلك الليلةَ على مئةِ امرأةٍ، فلم تَلِدْ منهنَّ امرأةٌ؛ إلّا امرأةً وَلَدَتْ نصفَ إنسانٍ**». فقال رسولُ الله ﷺ: «**لو قال: إنْ شاءَ اللهُ؛ لولدت كلُّ امرأةٍ منهنَّ غُلامًا يضربُ بالسيفِ في سبيل الله ﷻ**»(٢). إسناده علىٰ شرط الصحيح ولم يخرِّجوه من هٰذا الوجه.

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا هشيمٌ، حدثنا هشام، عن ابن سيرينَ، عن أبي هُريرة؛ قال: قال سليمانُ بن داوودَ: لأَطوفنَّ الليلةَ علىٰ مئةِ امرأةٍ، تَلِدُ كلُّ واحدةٍ منهنَّ غُلامًا يقاتِلُ في سبيل الله. ولم يَسْتَثْنِ. فما ولدتْ إلّا واحدةٌ منهنَّ بِشِقِّ إنسانٍ. قال: قال رسولُ الله ﷺ «**لوِ اسْتَثْنى؛ لَوُلِدَ له مئةُ غلام، كلُّهم يقاتِلُ في سبيل الله ﷻ**»(٣). تفرد به أحمد أيضًا.

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمرٌ، عن ابن طاووسٍ، عن أبيهِ، عن أبي هُريرة؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**قال سليمانُ بن داوودَ: لأطوفنَّ الليلةَ بمئةِ امرأةٍ، تَلِدُ كلُّ امرأةٍ منهنَّ غُلامًا يقاتِلُ في سبيل الله**». قال: «**ونَسِيَ أنْ يقولَ: إنْ شاء اللهُ. فأطاف بهن**». قال: «**فلم تَلِدْ منهنَّ امرأةٌ إلّا واحدةً نصفَ إنسانٍ**». فقال رسول الله ﷺ: «**لو قالَ: إنْ شاءَ اللهُ؛ لم يَحْنَثْ، وكان دَرَكًا**

---

(١) رواه: أحمد (٢/ ٢٢٩ بالطريق الأولىٰ و٢٧٥ بالطريق الثانية)، والبخاري (٦٠ - الأنبياء، ٤٠- ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ﴾، ٦/ ٤٥٨/ ٣٤٢٤) بالطريق الأولىٰ، و(٦٧- النكاح، ١١٩- قول الرجل: لأطوفنّ الليلة، ٩/ ٣٣٩/ ٥٢٤٢) بالطريق الثانية، ومسلم (٢٧- الأيمان، ٥- الاستثناء، ٣/ ١٢٧٥/ ١٦٥٤)، وأبو يعلىٰ (٢٢/ ٢٥٨ - ابن عساكر)، ولم أجده في «المسند» بهٰذا السند، بل هو عنده (١١/ ١١٦/ ٦٢٤٤) من طريق طاووس عن أبي هريرة.

(٢) انظر الحاشية السابقة

(٣) انظر الحاشية السابقة.

لحاجتِهِ»[1]. وهٰكذا أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق... به، مثله.

قال إسحاقُ بنُ بشرٍ: أنبأنا مقاتلٌ عن أبي الزِّنادِ، وابنُ أبي الزِّنادِ عن أبيهِ؛ عن عبد الرحمٰن، عن أبي هريرةَ: أنَّ سليمانَ بن داوودَ كان له أربعُ مئةِ امرأةٍ وستُّ مئة سُرِّيَّةٍ، فقال يومًا: لأطوفنَّ الليلةَ علىٰ ألفِ امرأةٍ، فتحملُ كلُّ واحدةٍ منهنَّ بفارس يجاهِدُ في سبيل الله، ولم يَسْتَثْنِ، فطافَ عليهنَّ، فلم تحمِلْ واحدةٌ منهنَّ إلَّا امرأةً واحدةً منهنَّ جاءت بِشِقِّ إنسانٍ. فقال النبيُّ ﷺ: «**والذي نفسي بيدِهِ؛ لو استثنى، فقال: إنْ شاء اللهُ؛ لَوُلِدَ له ما قالَ؛ فرسانٌ، ولَجاهدوا في سبيل الله ﷻ**»[2]. وهٰذا إسنادٌ ضعيفٌ لحال إسحاق بن بشر؛ فإنَّه منكرُ الحديثِ، ولا سيَّما وقد خالف الرواياتِ الصحاحَ.

وقد كان له ﵇ من أمورِ المُلْكِ واتِّساع الدولةِ وكثرةِ الجنود وتنوُّعها ما لم يكنْ لأحدٍ قبلَه، ولا يعطيه اللهُ أحدًا بعدَه؛ كما قال: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦]، و﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٣٥﴾ [ص: ٣٥]، وقد أعطاهُ الله ذٰلك بنصِّ الصادقِ المصدوقِ.

ولمَّا ذَكَرَ تعالىٰ ما أنعم به عليه وأسْداه من النعم الكاملةِ العظيمةِ إليه؛ قال: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩﴾ [ص: ٣٩]؛ أي: أعطِ مَنْ شئتَ واحْرِمْ من شئتَ؛ فلا حسابَ عليك؛ أي: تصرَّفْ في المال كيفَ شئتَ؛ فإنَّ اللهَ قد سَوَّغَ لك كلَّ ما تفعلُه من ذٰلك، ولا يحاسِبُك علىٰ ذٰلك. وهٰذا شأنُ النبيِّ المَلِكِ؛ بخلاف العبدِ الرسول؛ فإنَّ مِنْ شأنِهِ ألَّا يُعْطِيَ أحدًا ولا يمنَعَ أحدًا إلَّا بإذنِ الله له في ذٰلك.

وقد خُيِّرَ نبيُّنا محمدٌ صلوات الله وسلامه عليه بين هٰذين المقامين، فاختار أن يكونَ عبدًا رسولًا. وفي بعض الرواياتِ أنَّه استشار جبريلَ في ذٰلك، فأشار إليه أنْ تواضَعْ. فاختارَ أنْ يكونَ عبدًا رسولًا صلواتُ الله وسلامه عليه[3]. وقدْ جَعَلَ اللهُ الخلافةَ والملكَ من بعدِهِ في

(١) انظر الحاشية السابقة.

(٢) (منكر). إسحاق بن بشر له ترجمة مظلمة في «الميزان» و«اللسان»، وقد كذبه بعض أهل العلم وتركوه، وقد خالف الروايات الصحيحة المتقدمة.

(٣) (صحيح). روىٰ أحمد (٢/ ٢٣١)، والبزار (٢٤٦٢)، وأبو يعلىٰ (١٠/ ٤٩١/ ٦١٠٥)، وابن حبان =

أمَّتِهِ إلىٰ يوم القيامة؛ فلا تزالُ طائفةٌ من أمَّتِهِ ظاهرينَ حتَّىٰ تقوم الساعةُ[(١)]. فلله الحمدُ والمِنَّةُ.

ولمَّا ذَكَرَ تعالىٰ ما وَهَبَهُ لنبيِّه سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ من خير الدنيا؛ نَبَّهَ علىٰ ما أعدَّه له في الآخرةِ من الثوابِ الجزيل والأجرِ الجميل والقُرْبَةِ التي تُقَرِّبُهُ إليه والفوزِ العظيم والإكرام بين يديه، وذٰلك يوم المعاد والحساب؛ حيث يقول تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص: ٤٠].

ذكر وفاته وكم كانت مدة ملكه وحياته:

قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: ١٤].

رویٰ ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم وغيرُهما من حديث: إبراهيمَ بن طهمان، عن عطاءِ بن السائبِ، عن سعيدِ بن جُبيرٍ، عن ابنِ عباس، عن النبيِّ ﷺ؛ قال: «**كان سليمانُ نبيُّ الله عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ إذا صلَّى؛ رأى شجرةً نابتةً بين يديهِ، فيقولُ لها: ما اسمُكِ؟ فتقولُ: كذا. فيقولُ: لأيِّ شيءٍ أنتِ؟ فإنْ كانتْ لغرسٍ؛ غُرِسَتْ، وإن كانتْ لدواءٍ؛ أُنبِتَتْ. فبينما هو يصلِّي ذاتَ يوم؛ إذ رأى شجرةً بينَ يديه، فقال لها: ما اسمُكِ؟ قالتِ: الخروبُ. قال: لأيِّ شيءٍ أنت؟ قالتْ: لخرابِ هٰذا البيتِ. فقال سليمانُ: اللهمَّ! عَمِّ على الجِنِّ موتي حتى تعلمَ الإنسُ أنَّ الجِنَّ لا يعلمونَ الغيبَ. فَنَحَتَها عصًا، فتوكَّأ عليها حَوْلًا والجِنُّ تعملُ، فأكلَتْها الأَرَضَةُ[(٢)]، فتبيَّنَتِ الإنسُ أنَّ الجنَّ لو كانوا يعلَمونَ الغيبَ؛ ما لَبِثوا حَوْلًا في العذابِ المُهين (قال: وكانَ ابنُ عباس يقرؤها**

= (١٤/ ٢٨٠/ ٦٣٦٥)؛ من طريق محمد بن فضيل، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة؛ قال: جلس جبريل إلىٰ النبي ﷺ، فنظر إلىٰ السماء، فإذا مَلَكٌ ينزل، فقال له جبريل: هٰذا المَلَكُ ما نزل منذ خُلِقَ قبل الساعة. فلما نزل؛ قال: يا محمد! أرسلني إليك ربك: أَمَلَكًا جعلك لهم أم عبدًا رسولًا؟ فقال له جبريل: تواضع لربك يا محمد! فقال ﷺ: «لا، بل عبدًا رسولًا».

قال البزار: «لا نعلمه يروىٰ عن أبي هريرة إلا بهٰذا الإسناد». وقال في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٢): «رواه أحمد والبزار وأبو يعلىٰ، ورجال الأولين رجال الصحيح». قلت: طريقهم جميعًا واحدة، رجالها رجال الشيخين؛ فالسند صحيح علىٰ شرطهما. لٰكن جاءت عند أحمد علىٰ الشك في الوصل والإرسال. وفي الباب عن عائشة وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(١) رواه: البخاري (٦١- المناقب، ٢٨- باب، ٦/ ٦٣٢/ ٣٦٤١)، ومسلم (٣٣- الإمارة، ٥٣- لا تزال طائفة، ٣/ ١٥٢٤/ ١٠٣٧)؛ من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الأرضة: دويبَّة بيضاء مثل كبار النمل، وهي آفة الخشب؛ تقرضه وتفتات به.

كذٰلك). فشكرتِ الجنُّ للأرَضَةِ، فكانتْ تأتيها بالماء»[١]. لفظَ ابن جرير.

وعطاءٌ الخراسانيُّ في حديثه نكارةٌ. وقد رواه الحافظُ ابنُ عساكرَ من طريق: سَلَمَةَ بنِ كُهيل، عن سعيدِ بن جُبير، عن ابن عباس؛ موقوفًا. وهو أشبه بالصواب. والله أعلم.

وقال السُّدِّيُّ في خبرٍ ذَكَره: عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن أناس من الصحابة: كان سليمانُ عليه السلام يتجرَّدُ في بيت المقدس السنةَ والسنتينِ والشهرَ والشهرينِ وأقلَّ من ذٰلك وأكثرَ؛ يدخل طعامه وشرابه، فدَخَلَه[٢] في المرة التي توفي فيها. فكان بدءُ ذٰلك أنَّه لم يكن يومٌ يصبِحُ فيه؛ إلَّا نبتتْ في بيتِ المقدس شجرةٌ، فيأتيها، فيسألها: ما اسمُكِ؟ فتقولُ الشجرةُ: اسمي كذا وكذا. فإن كانتْ لِغَرْسٍ؛ غَرَسَها، وإن كانت نبتتْ دواءً؛ قالتْ: نبتُّ دواءً لكذا وكذا. فيجعلُها كذٰلك، حتىٰ نبتتْ شجرةٌ يُقالُ لها: الخَرُّوبةُ، فسألها: ما اسمُكِ؟ فقالتْ: أنا الخَرُّوبةُ. فقال: ولأيِّ شيءٍ نَبَتِّ؟ فقالت: نَبَتُّ لخرابِ هٰذا المسجدِ. فقال سليمانُ: ما كان الله لِيُخْرِبَه وأنا حيٌّ، أنت التي علىٰ وجهِكِ هلاكي وخرابُ بيت المقدس! فَنَزَعَها، وغَرَسَها في حائطٍ له، ثم دخل المحرابَ، فقام يصلِّي متَّكئًا علىٰ عصاه، فماتَ، ولم تعلمْ به الشياطينُ، وهم في ذٰلك يعملون له، يخافونَ أن يَخْرُجَ فيعاقِبَهم، وكانتِ الشياطين تجتمعُ حول المحرابِ، وكان المحرابُ له كُوًىٰ بين يديه وخلفَه، فكان الشيطانُ الذي يريدُ أن يَخْلَعَ[٣] يقول: ألستُ جليدًا[٤] إن دخلتُ فخرجتُ من ذٰلك الجانب؟! فيدخُلُ حتىٰ يَخْرُجَ من الجانبِ الآخر. فدخل شيطانٌ من أولئك، فمرَّ! ولم يكن شيطانٌ ينظرُ إلىٰ سليمانَ عليه السلام وهو

(١) (ضعيف مرفوعًا حسن موقوفًا). رواه: البزار (٢/ ٢٦٧/ ١٨٤٧ - مختصر الزوائد) وابن أبي حاتم (وليس في مطبوعة أسعد محمد الطيب)، وابن جرير في «التفسير» (١٠/ ٣٥٨/ ٢٨٧٧٧) و«التاريخ» (١/ ٢٩٥)، والطبراني (١١/ ٣٥٧/ ١٢٢٨١)، وابن عساكر (٢٢/ ٢٩٥)؛ من طريق إبراهيم بن طهمان... به، فذكره مرفوعًا.
قال البزار: «لا نعلم أسنده إلا إبراهيم، ورواه جماعة عن عطاء موقوفًا». وقال الهيثمي (٨/ ٢١٠): «رواه الطبراني والبزار بنحوه مرفوعًا وموقوفًا، وفيه عطاء وقد اختلط، وبقية رجالهما رجال الصحيح». وخلاصة القول أن الحديث ضعيف من وجهين: فأولهما: اختلاط عطاء بن السائب. والآخر: اضطرابه فيه وقفًا ورفعًا. لٰكن رواية ابن عساكر (٢٢/ ٢٩٦) الأخرىٰ تقوي وقفه كما أفاد الحافظ ابن كثير. والله أعلم.

(٢) في جميع الأصول: «فأدخله»! والتصويب من «تفسير ابن جرير» (١٠/ ٣٥٨/ ٢٨٧٧٨).

(٣) يخلع: يخرج عن الطاعة.

(٤) جليد: قويٌّ صبورٌ.

في المحرابِ إلَّا احترقَ، [فمرَّ] ولم يَسْمَعْ صوتَ سليمانَ، ثم رَجَعَ فلم يَسْمَعْ، ثم رَجَعَ فوقع في البيتِ ولم يحترقْ، ونظر إلىٰ سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قد سَقَطَ ميتًا! فخَرَجَ، فأخبر الناس أنَّ سليمان قد ماتَ، ففتَحوا عنه، فأخرجوه، ووجدوا مِنْسَأتَه -وهي العصا بلسان الحبشة- قد أكَلَتْها الأَرَضَةُ، ولم يعلموا منذُ كم ماتَ، فوضعوا الأَرَضَةَ علىٰ العصا، فأكلتْ منها يومًا وليلةً، ثم حَسَبوا علىٰ ذٰلك النحو، فوجَدوه قد مات منذُ سنةٍ. (وهي قراءةُ ابن مسعودٍ: فمكثوا يدأبون له من بعدِ موتِهِ حولًا كاملًا). فأيقنَ الناس عند ذٰلك أنَّ الجِنَّ كانوا يكذِبونَ، ولو أنَّهم عَلِموا الغيبَ؛ لَعَلِموا بموتِ سليمان، ولم يَلْبَثوا في العذابِ سنةً يعمَلون له، وذٰلك قولُ الله عَجَّلَ: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: ١٤]: يقول: تبيَّنَ أمرُهم للناس أنَّهم كانوا يَكْذِبونهم. ثم إنَّ الشياطين قالوا للأَرَضَةِ: لو كنتِ تأكلينَ الطعام؛ لأتَيْناكِ بأطيبِ الطعام، ولو كنتِ تشربينَ الشراب؛ سقَيْناكِ أطيبَ الشراب، ولٰكنَّا سننقلُ إليك الماءَ والطينَ. قال: فإنَّهم ينقُلون إليها ذٰلك حيثُ كانت. قال: ألم تَرَ إلىٰ الطينِ الذي يكونُ في جَوْفِ الخشبِ، فهو ما يأتيها به الشيطانُ تشكُّرًا لها.

وهٰذا فيه من الإسرائيلياتِ التي لا تصدَّقُ ولا تكذَّبُ.

وقال أبو داوود في «كتاب القدر»(١): حدَّثنا عثمانُ بن أبي شيبةَ، حدثنا قَبيصةُ، حدثنا سفيانُ، عن الأعمش، عن خَيْثَمَةَ؛ قال: قال سليمانُ بن داوودَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لِمَلَكِ الموتِ: إذا أردتَ أن تَقْبِضَ روحي؛ فأعْلِمْني. قال: ما أنا أعلمُ بذاكَ منكَ، إنَّما هي كُتُبٌ يُلْقىٰ إليَّ فيها تسميةُ من يموتُ.

وقال أصبغُ بن الفرج وعبدُالله بن وَهْب: عن عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلمَ؛ قال: قال سليمانُ لِمَلَكِ الموت: إذا أُمِرْتَ بي؛ فأعْلِمْني. فأتاهُ، فقال: يا سليمانُ! قد أمِرْتُ بك، قد بقيتْ لك سُوَيْعَةٌ. فدعا الشياطينَ، فَبَنَوا عليه صرحًا من قواريرَ ليس له بابٌ، فقام يصلِّي، فاتَّكأ علىٰ عصاه. قال: فَدَخَلَ عليه مَلَكُ الموت، فَقَبَضَ روحه وهو مُتَوَكِّئٍ علىٰ عصاه، ولم يصنعْ ذٰلك فِرارًا من مَلَكِ الموت. قال: والجنُّ تعملُ بين يديهِ وينظُرون إليه يحسَبون أنَّه حيٌّ. قال: فَبَعَثَ الله دابَّةَ الأرض -يعني: إلىٰ مِنْسأتِهِ- فأكلتْها، حتىٰ إذا أكَلَتْ جوفَ العصا؛

(١) ومن طريقه رواه ابن عساكر في «التاريخ» (٢٢/ ٢٩٥).

ضَعُفَتْ، وثَقُلَ عليها، فخرَّ. فلمَّا رأت الجنُّ ذٰلك؛ انفضُّوا وذهبوا. قال: فذٰلك قولُه: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: ١٤]: قال أصبغُ: وبَلَغَني عن غيرِهِ أنَّها مكثتْ سنةً تأكُلُ من منسأتِهِ حتىٰ خرَّ.

وقد رُوِي نحو هٰذا عن جماعةٍ من السلف وغيرهم. والله أعلم.

قال إسحاقُ بن بشرٍ: عن محمدِ بنِ إسحاقَ، عن الزُّهريِّ وغيره: إنَّ سليمانَ عليه السلام عاش اثنتين وخمسين سنةً، وكان ملكُهُ أربعينَ سنة. وقال إسحاقُ: أنبأنا أبو روقٍ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس: أنَّ مُلْكَه كان عشرينَ سنةً. والله أعلم.

وقال ابنُ جريرٍ[١]: فكان جميعُ عُمُرِ سليمانَ بنِ داوودَ عليهما السلام نيفًا وخمسين سنةً، وفي سنة أربع من ملكِهِ ابتدأ ببناءِ بيتِ المقدس فيما ذُكِرَ، ثم مَلَكَ بعدَه ابنُه رَحُبْعامُ مدة سبع عشرةَ سنةً فيما ذكره ابنُ جرير، وقال: ثم تفرَّقتْ بعده مملكةُ بني إسرائيلَ.

❁ ❁ ❁

(١) في «التاريخ» (١/ ٢٩٦ و٣٠٤).

باب
ذكر جماعة من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام
ممن لا يعلم وقت زمانهم على التعيين
إلا أنهم بعد داوود وسليمان عليهما السلام
وقبل زكريا ويحيى عليهما السلام

فمنهم: إِشعياء بن اموص

قال محمدُ بن إسحاقَ: وكان قبلَ زكريَّا ويحيىٰ، وهو ممَّنْ بَشَّر بعيسىٰ ومحمدٍ عليهما السلام، وكان في زمانه مَلِكٌ اسمُهُ حَزَقِيًّا علىٰ بني إسرائيلَ ببلادِ بيت المقدس، وكان سامعًا مطيعًا لإشَعْياءَ فيما يأمره به ويَنْهاه عنه من المصالح، وكانت الأحداثُ قد عَظُمَتْ في بني إسرائيلَ، فمرضَ الملكُ، وخرجتْ في رجلِهِ قَرْحَةٌ، وقصدَ بيتَ المقدس ملكُ بابلَ في ذٰلك الزمانِ، وهو سِنْحاريبُ.

قال ابن إسحاق: في ستِّ مئةِ ألفِ رايةٍ، وفَزِعَ الناسُ فزعًا عظيمًا شديدًا، وقال المَلِكُ للنبيِّ إشَعْياءَ: ماذا أوحىٰ اللهُ إليك في أمر سِنْحاريبَ وجنودِهِ؟ فقال: لم يوحَ إليَّ فيهم شيءٌ بعدُ. ثم نزل عليه الوحيُ بالأمرِ للملكِ حَزَقِيًّا بأن يوصيَ ويستخلفَ علىٰ ملكِهِ مَنْ يشاءُ؛ فإنَّه قد اقتربَ أجلُه! فلمَّا أخبرَه بذٰلك؛ أقبل الملكُ علىٰ القِبْلَةِ، فصلَّىٰ، وسبَّح، ودعا، وبكىٰ، فقال وهو يبكي ويتضرَّعُ إلىٰ الله عز وجل بقلبٍ مخلصٍ وتوكُّلٍ وصبر: اللهمَّ! ربَّ الأرباب! وإلٰهَ الآلهة! يا رحمنُ! يا رحيمُ! يا مَنْ لا تأخذُهُ سِنَةٌ ولا نومٌ! اذكُرْني بعملي وفعلي وحُسْنِ قضائي علىٰ بني إسرائيل، وذٰلك كلُّه كان منك؛ فأنتَ أعلمُ به من نفسي، سرِّي وإعلاني لك. قال: فاستجابَ اللهُ له، ورحِمَه، وأوحىٰ الله إلىٰ إشَعْياءَ أن يبشِّرَه بأنَّه قد رَحِمَ بكاءه وقد أخَّر في أجلِهِ خمس عشرة سنةً وأنجاه من عدوِّهِ سَنْحاريبَ. فلمَّا قال له ذٰلك؛ ذهبَ منه الوجعُ، وانقطعَ عنه الشرُّ والحزنُ، وخرَّ ساجدًا، وقال في سجودِهِ: اللهمَّ! أنت الذي تعطي الملكَ من تشاءُ، وتنزِعُهُ ممَّنْ تشاءُ، وتُعِزُّ مَنْ تشاءُ، وتُذِلُّ مَنْ تشاءُ، عالمُ الغيب والشهادة، فأنت الأولُ والآخرُ والظاهرُ والباطنُ، وأنت ترحمُ وتستجيبُ دعوة المضطرِّين. فلمَّا رَفَعَ رأسَه؛ أوحىٰ الله إلىٰ إشَعْياءَ أن يأمُرَه أن يأخذَ ماءَ التينِ، فيجعلَه علىٰ قَرْحَتِهِ، فيُشفىٰ ويصبِحَ قد

برئ. ففعل ذٰلك، فشُفِيَ. وأرسل اللهُ علىٰ جيش سَنْحاريبَ الموتَ، فأصبحوا وقد هلكوا كلُّهم سوىٰ سَنْحاريبَ وخمسةٍ من أصحابِهِ، منهم بُخْتَنَصَّرُ. فأرسل ملكُ بني إسرائيلَ، فجاء بهم، فجعلَهم في الأغلال، وطافَ بهم في البلادِ علىٰ وجه التَّنْكيل بهم والإهانةِ لهم سبعين يومًا، ويُطْعِمُ كلَّ واحدٍ منهم كلَّ يوم رغيفين من شعير، ثم أَوْدَعَهُمُ السجنَ، وأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ إشَعْياءَ أنْ يأمرَ الملكَ بإرسالهم إلىٰ بلادهم لِيُنْذِروا قومَهم ما قد حلَّ بهم. فلمَّا رجعوا؛ جمع سَنْحاريبُ قومَه، وأخبرهم بما قد كان من أمرِهم، فقال له السحرةُ والكهنةُ: إنَّا أَخْبَرْناك عن شأن ربِّهم وأنبيائِهم؛ فلم تُطِعْنا، وهي أمةٌ لا يستطيعها أحدٌ من ربِّهم. فكان أمرُ سَنْحاريبَ ممَّا خوَّفَهم الله به، ثم مات سَنْحاريبُ بعد سبع سنين.

قال ابنُ إسحاقَ: ثم لمَّا مات حَزَقِيَّا ملكُ بني إسرائيل؛ مَرَجَ أمرُهم[1]، واختلطتْ أحداثُهم، وكَثُرَ شرُّهم، فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ إشَعْياءَ، فقام فيهم، فوعَظَهم، وذكَّرَهم، وأخبرَهم عن الله بما هو أهلُه، وأَنْذَرَهم بأسَه وعقابَه إن خالفوه وكذَّبوه، فلمَّا فَرَغَ من مقالته؛ عَدَوْا عليه، وطَلَبوه لِيَقْتُلوه، فهرب منهم، فمرَّ بشجرةٍ، فانْفَلَقَتْ له، فدخل فيها، وأدركَه الشيطانُ، فأخذَ بهُدْبَةِ ثوبهِ[2]، فأبرزَها، فلمَّا رأوا ذٰلك؛ جاؤوا بالمنشار، فوضَعوه علىٰ الشجرةِ، فنشروها ونشروه معها. فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

(١) مرج أمرهم: فسد واضطرب.

(٢) هدبة الثوب: طرفه وخملته.

ومنهم: إرميا بن حلقيا من سبط لاوي بن يعقوب

[ذكر نبوته عليه السلام]:

وقد قيل: إنَّه الخَضِرُ! رواه الضحَّاكُ عن ابن عباس. وهو غريبٌ وليس بصحيح.

قال ابنُ عساكر(١): جاء في بعض الآثارِ أنَّه وقف علىٰ دم يَحْيىٰ بن زكريَّا وهو يفورُ بدمشقَ، فقال: أيَّها الدم! فتنتَ الناس؛ فاسكنْ! فسكنَ ورسبَ حتىٰ غابَ.

وقال أبو بكرِ بنُ أبي الدنيا(٢): حدثني عليُّ بن أبي مريمَ، عن أحمدَ بنِ جَبابٍ(٣)، عن عبدِالله بن عبد الرحمٰن؛ قال: قال إرْمِيَّا: أيْ ربِّ! أيُّ عبادِكَ أحبُّ إليك؟ قال: أكثرُهم لي ذِكْرًا، الذين يشتَغِلون بذِكْري عن ذِكْرِ الخلائقِ، الذينَ لا تَعْرِضُ لهم وساوسُ الفناء، ولا يحدِّثونَ أنفسَهم بالبقاءِ، الذين إذا عَرَضَ لهم عيشُ الدُّنيا؛ قَلَوْهُ، واذا زُوِي عنهم؛ سُرُّوا بذٰلك، أولئك أنْحَلُهم محبَّتي وأعطيهم فوق غاياتِهِم(٤).

ذكر خراب بيت المقدس:

وقوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم

(١) في «تاريخه» (٨/ ٢٨).

(٢) وعنه ابن عساكر في «التاريخ» (٨/ ٣٠).

(٣) في جميع الأصول: «أحمد بن حباب»! والتصويب من «تاريخ ابن عساكر».

(٤) قلىٰ: كره وأبغض. زُوِي: أُبعد وغُيِّب. نَحَلَ: أعطىٰ وأهدىٰ.

بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإسراء: ٢ - ٨].

وقال وَهْبُ بن مُنَبِّه: أوحىٰ اللهُ إلىٰ نبيٍّ من أنبياء بني إسرائيل، يقالُ له: إرْمِيَّا، حين ظهرت فيهم المعاصي: أنْ قُمْ بين ظهراني قومِك، فأخبرْهم: أنَّ لهم قلوبًا ولا يفقهون وأعْيُنًا ولا يبصرون وآذانًا ولا يسمعون، وأنِّي تذكرتُ صلاحَ آبائهم فعطَّفَني ذٰلك علىٰ أبنائهم؛ فسَلْهُم: كيف وجدوا غِبَّ طاعتي؟ وهل سَعِدَ أحدٌ ممَّنْ عصاني بمعصيتي؟ وهل شَقِيَ أحدٌ ممَّنْ أطاعني بطاعتي؟ إن الدوابَّ تذكُرُ أوطانَها فتَنْزِعُ إليها، وإنَّ هٰؤلاء القوم تركوا الأمر الذي أكرمتُ عليه آباءَهم، والتمسوا الكرامةَ من غيرِ وجهها: أمَّا أحبارُهم؛ فأنكروا حقِّي، وأمَّا قراؤُهم؛ فعبدوا غيري، وأمَّا نُسَّاكُهم؛ فلم ينتفعوا بما علموا، وأمَّا ولاتُهم؛ فكذبوا عليَّ وعلىٰ رسلي؛ خزنوا المكرَ في قلوبهم، وعوَّدوا الكذِبَ ألسنتَهم. وإنِّي أقسم بجلالي وعزَّتي؛ لأهيجنَّ عليهم جيوشًا؛ لا يفقهون ألسنتهم، ولا يعرِفون وجوهَهم، ولا يرحمون بكاءَهم. ولأبعثنَّ فيهم ملكًا جبارًا قاسيًا، له عساكرُ كقطع السحاب، ومواكبُ كأمثال الفجاج[1]، كأنَّ خَفَقانَ راياتِهِ طيرانُ النسور، وكأنَّ حمل فرسانِهِ كرُّ العِقبان[2]؛ يعيدون العمران خرابًا، ويتركون القرىٰ وحشةً. فيا ويلَ إيليا وسكانِها؛ كيف أُذَلِّلُهم للقتل، وأسلِّطُ عليهم السِّباءَ[3]، وأعيدُ بعدَ لُجَبِ الأعراس صراخًا، وبعدَ صهيل الخيل عِواءَ الذئاب، وبعد شُرُفات القصور مساكنَ السِّباع، وبعد ضوء السُّرُج وَهْجَ العَجاج[4] وبالعزِّ الذُّلَّ[5]، وبالنعمة العبوديَّةَ، ولأَبْدِلَنَّ[6] نساءَهم بعد الطِّيبِ الترابَ، وبالمشي علىٰ الزَّرابي الخَبَبَ[7]، ولأجعلنَّ

(١) الفجاج: الطرق الواسعة بين الجبال.

(٢) العِقبان: جمع عُقاب، وهو النسر.

(٣) السِّباء: السَّبْي، وهو الأسر ثم الاسترقاق.

(٤) العجاج: غبار الحرب.

(٥) في نسخة: ذلاً

(٦) في جميع الأصول: «وأبدلنَّ». وما أثبته من «تاريخ ابن عساكر» أولىٰ.

(٧) الزرابي: الثمين والفخم مما يفرش في الأرض كالسجاد. الخبب: ضَرب من المشي السريع؛ كالعَدْو.

أجسادَهم زِبلًا للأرض، وعظامهم[١] ضاحيةً للشمس، ولأدوسنَّهم بألوانِ العذاب، ثم لآمرنَّ السماء فتكون طَبَقًا من حديد، والأرض سبيكةً من نحاس، فإن أمطرتْ؛ لم تنبتِ الأرضُ، وإن أنبتتْ شيئًا في خلال ذٰلك؛ فبرحمتي للبهائم، ثم أحبِسُه في زمان الزرع، وأرسله في زمان الحصادِ؛ فإنْ زَرَعوا في خلال ذٰلك شيئًا؛ سلَّطْتُ عليه الآفةَ، فإنْ خَلَصَ منه شيءٌ؛ نزعتُ منه البركةَ. فإن دَعَوْني؛ لم أجِبْهم، وإنْ سألوا؛ لم أعْطِهم، وإن بَكَوْا؛ لم أرْحَمْهم، وإن تضرَّعوا؛ صرفتُ وجهي عنهم. رواه ابنُ عساكر بهٰذا اللفظ[٢].

وقال إسحاقُ بن بِشْر: أنبأنا إدريسُ، عن وَهْبِ بن مُنَبِّهٍ؛ قال: إنَّ الله تعالىٰ لمَّا بَعَثَ إرْمِيَّا إلىٰ بني إسرائيل، وذٰلك حين عَظُمَتِ الأحداثُ فيهم فعَمِلوا بالمعاصي وقتلوا الأنبياءَ؛ طَمِعَ بُخْتَنَصَّرُ فيهم، وقَذَفَ اللهُ في قلبه وحدَّث نفسَهُ بالمسير إليهم؛ لِما أرادَ اللهُ أن ينتقمَ به منهم. فأوحىٰ الله إلىٰ إرْمِيَّا أنِّي مهلكٌ بني إسرائيل ومنتقمٌ منهم؛ فقمْ علىٰ صخرة بيت المقدس؛ يأتيكَ أمري ووحيي. فقام إرْمِيَّا، فشقَّ ثيابَه، وجعل الرمادَ علىٰ رأسِهِ، وخرَّ ساجدًا، وقال: يا ربِّ! وددتُ لو لأنَّ أمِّي لم تَلِدْني حين جَعَلْتَني آخرَ أنبياء بني إسرائيل، فيكون خرابُ بيت المقدس وبَوارُ بني إسرائيلَ من أجلي. فقال له: ارفعْ رأسَكَ. فرفع رأسَه، فبكىٰ، ثم قال: يا ربِّ! مَنْ تُسَلِّطُ عليهم؟ فقال: عبدةَ النيران؛ لا يخافون عقابي، ولا يرجون ثوابي. قُمْ يا إرْمِيَّا! فاستمعْ وحيي؛ أخبِرْكَ خَبَرَكَ وخبرَ بني إسرائيل: من قبل أن أخلُقَك اخترتُك، ومن قبل أن أصوِّرَك في رحم أمِّك قدَّسْتُك، ومن قبل أنْ أخرِجَكَ من بطن أمِّك طهَّرْتُك، ومن قبل أن تبلغَ نبَّأْتُك، ومن قبل أن تبلغَ الأشُدَّ اخترتُك، ولأمرٍ عظيم اجْتَبَيْتُك؛ فقمْ مع الملكِ تسدِّدُه وترشِدُه. فكان مع الملك يسدِّدُه ويأتيه الوحيُ من الله، حتىٰ عَظُمَتِ الأحداثُ، ونسوا ما نجَّاهُم الله به من عدوِّهم سِنْحاريبَ وجنودِهِ. فأوحىٰ الله إلىٰ إرْمِيَّا: قمْ؛ فاقصُصْ عليهم ما آمرُكَ به، وذكِّرْهم نعمتي عليهم، وعرِّفْهم أحْداثَهم. فقال إرْمِيَّا: يا ربِّ! إنِّي ضعيفٌ إنْ لم تقوِّني، عاجزٌ إن لم تُبَلِّغْني، مخطئ إن لم تسدِّدْني، مخذولٌ إن لم تنصُرْني، ذليلٌ إن لم تُعِزَّني. فقال الله تعالىٰ: أوَلَمْ تعلمْ أنَّ الأمور كلَّها تصدُرُ عن مشيئتي، وأنَّ الخلقَ والأمرَ كلَّه لي، وأنَّ

---

(١) في جميع الأصول: «وعظامهنَّ»! ولا يستوي هٰذا. والتصويب من ابن عساكر

(٢) في «التاريخ» (٨/ ٢٩).

القلوب والألسنةَ كلَّها بيدي فأقلِّبُها كيف شئتُ فتطيعُني؛ فأنا الله الذي ليس شيءٌ مثلي، قامت السماواتُ والأرضُ وما فيهنَّ بِكَلِمَتي، وأنَّه لا يُخْلَصُ التوحيدُ ولم تَتِمَّ القدرةُ إلَّا لي، ولا يَعْلَمُ ما عندي غيري، وأنا الذي كلمتُ البحار ففهمتْ قولي، وأمرتُها ففعلتْ أمري، وحددتُ لها حدودًا فلا تعدو حدِّي، وتأتي بأمواج كالجبال؛ فإذا بلغتْ حدِّي ألبستُها مذلةً لطاعتي وخوفًا واعترافًا لأمري، وإنِّي معك، ولن يصلَ إليك شيءٌ معي. وإنِّي بعثتُك إلىٰ خلق عظيم من خَلْقي؛ لتبلِّغَهم رسالاتي، فتستوجبَ بذٰلك أجرَ من اتَّبعك، ولا يَنْقُصُ ذٰلك من أجورِهم شيئًا. انطلقْ إلىٰ قومِكَ؛ فقم فيهم، وقلْ لهم: إنَّ الله قد ذَكَرَكُم بصلاح آبائكم؛ فلذٰلك استبقاكم. يا معشر أبناء الأنبياء! وكيف وجدَ آباؤكم مغبَّةَ طاعتي؟ وكيف وجدتُم مغبَّةَ معصيتي؟ وهل وجدوا أحدًا عصاني فسَعِدَ بمعصيتي؟ وهل علموا أحدًا أطاعني فشَقِيَ بطاعتي؟ إنَّ الدوابَّ إذا ذكرتْ أوطانَها الصالحة؛ نَزَعَتْ إليها، وإنَّ هٰؤلاء القوم رتعوا في مروج الهَلَكة، وتَرَكوا الأمر الذي به أكْرَمْتُ به آباءهم، وابتغوا الكرامةَ من غير وجهها: أمَّا أحبارُهم ورُهبانهم؛ فاتَّخَذوا عبادي خَوَلًا[1] يتعبَّدونَهم ويعملونَ فيهم بغير كتابي، حتىٰ أجْهَلوهم أمري وأنْسَوْهم ذِكْري وسُنَّتي وغرُّوهم عني، فدان لهم عبادي بالطاعةِ التي لا تنبغي إلَّا لي؛ فهم يُطيعونَهم في معصيتي. وأمَّا ملوكُهم وأمراؤُهم؛ فبطروا نعمتي، وأمِنوا مكري، وغرَّتْهم الدُّنيا؛ حتىٰ نَبَذوا كتابي ونَسُوا عهدي؛ فهم يحرِّفون كتابي، ويفترون علىٰ رُسُلي جرأةً منهم عليَّ وغِرَّةً بي[2]؛ فسبحان جلالي وعلوِّ مكاني وعظمةِ شأني! هل ينبغي أن يكون لي شريكٌ في ملكي؟! وهل ينبغي لبشرٍ أن يُطاع في معصيتي؟! وهل ينبغي لي أن أخْلُقَ عبادًا أجعلُهم أربابًا من دوني، أو آذنَ لأحدٍ بالطاعةِ لأحدٍ وهي لا تنبغي إلَّا لي؟! وأمَّا قُرَّاؤهم وفقهاؤهم؛ فيدرُسون ما يتخيَّرونَ، فينقادون للملوكِ؛ فيتابِعونَهم علىٰ البدع التي يبتَدِعون في ديني، ويطيعونَهم في معصِيَتي، ويوفون لهم بالعهودِ الناقضةِ لِعَهْدي؛ فهم جهلةٌ بما يعملونَ، لا ينتفعون بشيءٍ مما علموا من كتابي. وأمَّا أولادُ النبيِّين؛ فمقهورونَ ومفتونونَ، يخوضون مع الخائضين، يتمنَّوْن مثل نصري آباءهم والكرامة التي أكرمتُهم بها، ويزعُمون أنَّه لا أحد أولىٰ بذٰلك منهم؛ بغير

(١) الخول: العبيد والإماء.

(٢) غرة بي: اغترارًا بي.

صدقٍ منهم ولا تفكُّر، ولا يذكرون كيفَ كان صبرُ آبائهم، وكيف كان جهدُهُم في أمري حين اغترَّ المغترُّون، وكيف بذلوا أنفسَهم ودماءَهم فصبروا وصدقوا حتىٰ عزَّ أمري وظَهَرَ ديني. فتأنَّيتُ(١) هٰؤلاء القومَ لعلَّهم يَسْتَحْيون منِّي ويرجِعون، فتطوَّلتُ(٢) عليهم وصفحتُ عنهم، فأكثرتُ ومددتُ لهم في العُمُرِ وأعذرتُ(٣) لهم لعلَّهم يتذكَّرون، وكلُّ ذٰلك أمطِرُ عليهم السماءَ وأنبِتُ لهم الأرض وأُلْبِسُهُمُ العافيةَ وأُظْهِرُهُم علىٰ العدوِّ ولا يزدادون إلَّا طغيانًا وبعدًا منِّي؛ فحتىٰ متىٰ هٰذا؟ أبي يسخَرون؟ أم بي يتحرَّشونَ؟ أم إيَّايَ يُخادعون؟ أم عليَّ يجترئون؟ فإنِّي أقسِمُ بعزَّتي؛ لأتيحنَّ عليهم فتنةً يتحيَّرُ فيها الحليمُ(٤) ويَضِلُّ فيها رأيُ ذوي الرأي وحكمةُ الحكيم، ثم لأسلِّطنَّ عليهم جبارًا قاسيًا عاتيًا؛ أُلْبِسُهُ الهيبةَ وأنزِعُ من قلبه الرأفةَ والرحمة، وآليتُ(٥) أن يتبعه عددٌ وسوادٌ مثلُ الليل المظلم، له فيه عساكرُ مثلُ قطع السحابِ ومواكبُ مثل العجاج، وكأنَّ خفيق(٦) راياتِهِ طيرانُ النسور وحمل فرسانه كسرب العِقْبان؛ يعيدون العِمْرانَ خرابًا، والقرىٰ وحشًا، ويعيثون في الأرض فسادًا، ويتبِّرونَ ما عَلَوْا تتبيرًا، قاسية قلوبهم؛ لا يكترثون ولا يرقُّون(٧) ولا يرحمونَ ولا يبصرونَ ولا يسمعونَ، يجولون في الأسواقِ بأصواتٍ مرتفَعةٍ مثل زئير الأسدِ؛ تقشعرُّ من هيبتها الجلودُ، وتطيشُ من سمعِها الأحلامُ، بألسنةٍ لا يفقهونَها، ووجوهٍ ظاهرٍ عليها المنكر لا يعرِفونها. فوعزَّتي؛ لأعطلنَّ بيوتَهم من كُتبي وقُدُسي، ولأُخْلِيَنَّ مجالِسَهم من حديثِها ودُروسها، ولأوحِشَنَّ مساجِدَهم من عُمَّارِها وزُوَّارِها الذين كانوا يتزيَّنون بعِمارتها لغيري، ويتهجَّدون فيها ويتعبَّدون لكسبِ الدُّنيا بالدين، ويتفقَّهون فيها لغير الدين، ويتعلَّمون فيها لغيرِ العمل. لأبْدِلَنَّ ملوكَها بالعزِّ الذُّلَّ، وبالأمنِ الخوفَ، وبالغنىٰ الفقرَ، وبالنعمة الجوعَ، وبطول العافيةِ والرخاءِ ألوانَ(٨) البلاء، وبلباس الدِّيباج والحرير مدارعَ

(١) تأنيت: حلمت وصبرت.

(٢) تطولت: تفضَّلْتُ.

(٣) أعذرت لهم: فتحت لهم أبواب الاعتذار والتوبة.

(٤) في نسخة: «الحكيم».

(٥) آليت: أقسمت.

(٦) في نسخة: «حفيف».

(٧) في جميع الأصول: «يرقبون». والأولىٰ ما أثبته من «تاريخ ابن عساكر» (٨/ ٣٧).

(٨) في نسخة: «أنواع».

الوبر[١] والعباءَ، وبالأرواح الطيبةِ والأدهان[٢] جيفَ القتلىٰ، وبلباسِ التيجان أطواقَ الحديد والسلاسلَ والأغلالَ. ثم لأعيدنَّ فيهم بعد القصورِ الواسعة والحصونِ الحصينةِ الخرابَ، وبعد البروج المُشَيَّدة مساكنَ السباع، وبعد صهيل الخيل عواءَ الذِّئاب، وبعد ضَوْءِ السِّراج دخانَ الحريق، وبعد الأنسِ الوحشةَ والقفارَ. ثم لأبدلنَّ نساءها بالأسورةِ الأغلالَ، وبقلائد الدُّرِّ والياقوتِ سلاسلَ الحديدِ، وبألوان الطِّيبِ والأدهانِ النَّقْعَ والغبارَ، وبالمشي علىٰ الزرابي عبورَ الأسواق والأنهارِ والخببَ إلىٰ الليل في بطون الأسواق، وبالخدورِ والسُّتورِ الحسورَ عن الوجوه والسوقِ والإسفارَ، وبالأرواح[٣] السمومَ. ثم لأدوسنَّهم بأنواع العذابِ، حتىٰ لو كان الكائنُ منهم في حالقٍ[٤]؛ لوصل ذٰلك إليه. إنِّي إنَّما أكرمُ من أكرمني، وإنَّما أهينُ من هان عليه أمري. ثم لآمرنَّ السماء خلال ذٰلك فلتكوننَّ عليهم طَبَقًا من حديد، ولآمرنَّ الأرض فَلتكوننَّ سبيكةً من نحاس؛ فلا سماءَ تمطرُ، ولا أرضَ تُنبتُ؛ فإنْ أمطرتُ خلال ذٰلك شيئًا؛ سلَّطْتُ عليهم الآفةَ، فإنْ خلصَ منه شيءٌ؛ نزعتُ منه البركةَ. وإنْ دَعَوْني؛ لم أُجِبْهم، وإنْ سألوني؛ لم أُعْطِهم، وإن بَكَوْا؛ لم أرْحَمْهم، وإنْ تضرَّعوا إليَّ؛ صرفتُ وجهي عنهم، وإنْ قالوا: اللهمَّ! أنت الذي ابتدأتَنا وآباءنا من قبلِنا برحمتِكَ وكرامتِكَ، وذٰلك بأنَّك اخترتَنا لنفسِكَ، وجعلتَ فينا نبوَّتَك وكتابَكَ ومساجدَكَ، ثم مكَّنْتَ لنا في البلادِ، واستخلَفْتَنا فيها، وربَّيْتَنا وآباءنا من قبلنا بنعمتك صغارًا، وحفِظْتَنا وإيَّاهم برحمتِكَ كبارًا؛ فأنت أوفىٰ المنعِمينَ وإنْ غيَّرْنا، ولا تبدِّلْ وإنْ بدَّلْنا، وأتْمِمْ فضلَكَ ومَنَّك وطوْلَكَ[٥] وإحسانك. فإن قالوا ذٰلك؛ قلت لهم: إنِّي أبتدئ عبادي برحمتي ونعمتي؛ فإن قبلوا؛ أتممتُ، وإنِ استزادوا؛ زدتُ، وإن شكروا؛ ضاعفتُ، وإن غيَّروا؛ غيَّرْتُ، وإذا غيَّروا؛ غضبتُ، وإذا غضبتُ؛ عذَّبْتُ، وليس يقوم شيءٌ بغضبي.

قال كعبٌ: فقال إرْميًا: بوجهكَ أصبحتُ أتعلَّمُ بين يديك، وهل ينبغي ذٰلك لي وأنا أذلُّ

---

(١) مدارع الوبر: جمع مدرعة، وهي الجبة من الشعر.

(٢) الأرواح الطيبة والأدهان: الروائح العطرة والدُّهون المطيِّبة.

(٣) في جميع الأصول: «والأرواح» والصواب ما أثبته.

(٤) الخالق: الجبل المرتفع.

(٥) الطَّوْل: الفضل. وفي الأصول: «وأن تتمَّ فضلك...» إلخ. والأولىٰ ما أثبته.

وأضعفُ من أن ينبغيَ لي أن أتكلَّم بين يديكَ؟! ولٰكنْ برحمتِكَ أبقيتَني لهٰذا اليوم، وليس أحدٌ أحقَّ أن يخافَ هٰذا العذابَ وهٰذا الوعيد منِّي بما رضيتُ به من طول الإقامة(١) في دار الخاطئين وهم يعصونك حولي بغير نُكرٍ ولا تغييرٍ مني؛ فإن تعذِّبْني؛ فبذنْبي، وإن ترحَمْني؛ فذٰلك ظنِّي بك. ثم قال: يا ربِّ! سبحانك وبحمدك وتباركتَ ربَّنا وتعاليتَ، أتُهْلِكُ هٰذه القريةَ وما حولها وهي مساكنُ أنبيائِك ومنزلُ وحيِك؟! يا ربِّ سبحانك وبحمدك وتباركتَ ربَّنا وتعاليتَ لِمَخْرَبِ هٰذا المسجدِ وما حولَه من المساجدِ ومن البيوتِ التي رُفِعَتْ لذِكْرِك. يا ربِّ! سبحانَك وبحمدِك وتباركْتَ وتعاليتَ لِمقتل هٰذه الأمَّة وعذابِكَ إيَّاهم وهم من ولدِ إبراهيم خليلِكَ وأمَّةِ موسىٰ نجيِّكَ وقوم داوودَ صفيِّكَ. يا ربِّ! أيُّ القُرىٰ تأمنُ عقوبتك بعدُ؟! وأيُّ العباد يأمنونَ سطوتَكَ بعدَ ولدِ خليلِكَ إبراهيمَ وأمَّةِ نجيِّكَ موسىٰ وقوم خليفتِكَ داوودَ تسلِّطُ عليهم عبدةَ النيرانِ؟! قال الله تعالىٰ: يا إرْمِيَّا! مَنْ عصاني؛ فلا يستنكرْ نِقْمَتي؛ فإنِّي إنَّما أكرمتُ هٰؤلاء القومَ علىٰ طاعتي، ولو أنَّهم عَصَوْني؛ لأنزلْتُهم دارَ العاصين؛ إلَّا أنْ أتدارَكَهم برحمتي. قال إرْمِيَّا: يا ربِّ! اتَّخذتَ إبراهيم خليلًا وحَفِظْتَنا به، وموسىٰ قرَّبْتَه نَجِيًّا، فنسألُك أن تحفَظَنا ولا تتخطَّفَنا ولا تسلِّطَ علينا عدوَّنا. فأوحىٰ الله إليه: يا إرْمِيَّا! إنِّي قدَّسْتُك في بطن أمِّك، وأخرتُك إلىٰ هٰذا اليوم؛ فلو أنَّ قومَك حفظوا اليتامىٰ والأراملَ والمساكينَ وابنَ السبيل؛ لكنتُ الدَّاعمَ لهم، وكانوا عندي بمنزلةِ جَنَّةٍ ناعمٍ شجرُها طاهرٍ ماؤُها ولا يغورُ ماؤها ولا تبورُ ثمارُها ولا تنقطعُ. ولكن سأشكو إليك بني إسرائيلَ: إنِّي كنتُ لهم بمنزلة الرَّاعي الشفيق؛ أجنِّبُهم كلَّ قحطٍ وكل عسرةٍ، وأتبعُ بهم الخِصْبَ، حتَّىٰ صاروا كباشًا ينطحُ بعضُها بعضًا؛ فيا وَيْلَهم ثم يا وَيْلَهم! إنَّما أكرِمُ من أكرَمَني، وأهينُ من هان عليه أمري. إنَّ مَنْ كان قبلَ هٰؤلاء القوم من القرونِ يَسْتَخْفونَ بمعصيتي، وإنَّ هٰؤلاء القوم يتبرَّعون بمعصيتي تبرُّعًا، فيظهِرونها في المساجد والأسواق وعلىٰ رؤوس الجبال وظلال الأشجار، حتىٰ عجَّتِ السماءُ إليَّ منهم وعجَّتِ الأرضُ والجبالُ ونفرتْ منها الوحوشُ بأطراف الأرض وأقاصيها، وفي كلِّ ذٰلك لا ينتهون ولا ينتفعون بما عُلِّموا من الكتابِ(٢).

(١) في جميع الأصول: «مني طولاً والإقامة»! ولا معنىٰ لها.

(٢) ثم ما أحراني وإياك أيها القارئ الكريم أن نقيس هٰذا الكلام علىٰ أحوالنا - نحن المسلمين - اليوم! فقد انقلبت سفينتنا، وذهب عزنا، واستنسر عدوُّنا، واستحكم ذلنا وهواننا، حتىٰ لا يقيم أحدٌ لنا شأنًا ولا =

قال: فلمَّا بلَّغَهم إرْمِيًّا رسالة ربِّهم، وسمعوا ما فيها من الوعيد والعذاب؛ عَصَوْه وكذَّبوه واتَّهموه وقالوا: كذبتَ وأعظمتَ علىٰ الله الفِرْيَةَ! فتزعمُ أنَّ الله معطِّلٌ أرضَه ومساجدَه من كتابِهِ وعبادتِهِ وتوحيدِهِ؟! فمن يعبدُهُ حين لا يبقىٰ له في الأرض عابدٌ ولا مسجدٌ ولا كتابٌ؟! لقد أعظمت الفِرْيَةَ علىٰ الله واعتراك الجنونُ!! فأخذوه وقيَّدوه وسجنوه! فعند ذٰلك بعثَ الله عليهم بُخْتَنَصَّرَ، فأقبل يسيرُ بجنودِهِ، حتىٰ نزل بساحتِهِم، ثم حاصرهم، فكان كما قال تعالىٰ: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾ [الإسراء: ٥].

قال: فلمَّا طالَ بهم الحصرُ؛ نزلوا علىٰ حكمِهِ، ففتحوا الأبوابَ، وتخلَّلوا الأزِقَّةَ، وذٰلك قوله: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾، وحكم فيهم حكمَ الجاهليَّةِ وبطشَ الجبارينَ، فقتل منهم الثلثَ وسبىٰ الثلث وتَرَكَ الزَّمْنىٰ والشيوخ والعجائز، ثم وطِئَهم بالخيل، وهدمَ بيتَ المقدِس، وساق الصبيانَ، وأوقفَ النساء في الأسواقِ حاسراتٍ، وقتل المقاتلةَ، وخَرَبَ الحصونَ، وهَدَمَ المساجدَ، وحَرَقَ التوراةَ، وسأل عن دانيالَ الذي كان قد كَتَبَ له الكتابَ؟ فوجده قد مات، وأخرج أهلُ بيتِهِ الكتابَ إليه، وكان فيهم دانيالُ بنُ حَزْقِيالَ الأصغرُ ومِيْشائيلُ وعَزْريا وحَنَنْيا[1]، فأمضىٰ لهم ذٰلك الكتابَ. وكان دانيالُ بنُ حَزْقيالَ خلفًا من دانيالَ الأكبر. ودَخَلَ بُخْتَنَصَّرُ بجنودِهِ بيتَ المَقْدِسِ، ووطِئ الشامَ كلَّها، وقتل بني إسرائيلَ حتىٰ أفناهم، فلمَّا فَرَغَ منهم؛ انصرفَ راجعًا، وحمل الأموال التي كانتْ بها، وساق السَّبايا، فبَلَغَ معه عدَّةُ صبيانِهم من أبناء الأحبارِ والملوك تسعين ألفَ غلام، وقذف الكُناساتِ في بيت المقدس، وذَبَحَ فيه الخنازيرَ، وكان الغلمانُ: سبعةَ آلافِ غلام من بيت داوودَ، وأحد عشر ألفًا من سبطِ يوسفَ بن يعقوب وأخيه بَنْيامينَ، وثمانيةَ آلاف من سبطِ أَشِيرَ[2] بنِ يعقوبَ، وأربعةَ عشر ألفًا من سبطِ زَبولونَ ونَفْتالي ابني يعقوبَ، وأربعة عشر ألفًا من سبطِ دانَ بن يعقوبَ، وثمانيةَ آلاف من

= مكانًا... فهل كان هٰذا إلا بمعاصينا التي تابعنا فيها بني إسرائيل وغيرهم حذو القذة بالقذه؟! ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾﴾.

(١) في جميع الأصول: «وميشائيل وعزرائيل وميخائيل»! ومعلوم أن ميشائيل وميخائيل واحد، وإنما تغير اللفظ فحسب! والتصويب من: «العهد القديم» (سفر دانيال/ الأصحاح١). و«تاريخ الطبري» (١/ ٣٢٣).

(٢) في جميع الأصول: «من سبط إيشىٰ بن يعقوب»! وليس في ولد يعقوب عليه السلام من اسمه إيشىٰ، وإنما هو أشير، فتحرفت علىٰ الناسخ أو الطابع، وقد جاءت علىٰ الصواب في «تاريخ الطبري» (١/ ٣٢٣).

سبط يَسَّاكَرَ بنِ يعقوب، وألفين من سبط شِمعونَ[١] بن يعقوب، وأربعة آلاف من سبط روبينَ ولاوي، واثني عشر ألفًا من سائر بني إسرائيل. وانطلق حتىٰ قدم أرض بابل.

قال إسحاقُ بنُ بشرٍ: قال وَهْبُ بن منبِّهٍ: فلمَّا فَعَلَ ما فَعَلَ؛ قيل له: كان لهم صاحبٌ يحذِّرُهم ما أصابَهم، ويَصِفُك وخَبَرَكَ لهم، ويخبِرُهم أنَّك تقتُل مقاتلتهم وتَسْبي ذَراريهم وتهدِمُ مساجِدَهم وتُحْرِقُ كنائِسَهم، فكذَّبوه واتَّهموه وضَرَبوه وقيَّدوه وحبسوه. فأمر بُخْتَنَصَّرُ، فأُخرِجَ إرْمِيًّا من السجنِ، فقال له: أكنتَ تُحَذِّرُ هٰؤلاء القومَ ما أصابَهم؟ قال: نعم. قال: فأنَّي علمتَ ذٰلك؟! قال: أرسلني اللهُ إليهم فكذَّبوني. قال: كذَّبوك وضَرَبوك وسَجَنوك؟ قال: نعم. قال: بئس القومُ قومٌ كذَّبوا نبيَّهم وكذَّبوا رسالةَ ربِّهم! فهل لك أن تلحقَ بي فأكرِمَك وأواسِيَك؟ وإن أحببتَ أن تقيمَ في بلادِكَ؛ فقد أَمَّنْتُك. قال له إرْمِيًّا: إنِّي لم أزلْ في أمانِ الله منذ كنتُ، لم أخرجْ منه ساعةً قطُّ، ولو أنَّ بني إسرائيل لم يَخْرُجوا منه؛ لم يخافوك ولا غيرَكَ، ولم يكنْ لك عليهم سلطانٌ. فلمَّا سمع بُخْتَنَصَّرُ هٰذا القولَ منه؛ تركه، فأقام إرْمِيًّا مكانَه بأرض إيليا.

وهٰذا سياقٌ غريبٌ، وفيه حكمٌ ومواعظُ وأشياءُ مليحةٌ، وفيه من جهةِ التعريبِ غرابةٌ.

وقال هشامُ بن محمد بن السائبِ الكلبيُّ: كان بُخْتَنَصَّرُ أصفهبذًا[٢] لما بين الأهوازِ إلىٰ الروم للملكِ علىٰ الفرس، وهو لِهراسبُ، وكان قد بنىٰ مدينةَ بلخ التي تلقَّبُ بالخنساء، وقاتل التركَ وألجأهم إلىٰ أضيقِ الأماكن، وبعثَ بُخْتَنَصَّرَ لقتال بني إسرائيل بالشام، فلمَّا قدم الشامَ؛ صالحه أهلُ دمشقَ. وقد قيلَ: إنَّ الذي بعث بُخْتَنَصَّرَ إنَّما هو بَهْمَنُ ملك الفرس بعد بِشتاسبَ بنِ لِهراسبَ، وذٰلك لتعدِّي بني إسرائيلَ علىٰ رسلِهِ إليهم.

وقد روىٰ ابنُ جرير[٣]: عن يونسَ بنِ عبدِالأعلىٰ، عن ابنِ وَهْبٍ، عن سليمان بن بلال، عن يحيىٰ بن سعيدٍ الأنصاريِّ، عن سعيد بن المُسَيَّبِ: أنَّ بُخْتَنَصَّرَ لمَّا قَدِمَ دمشقَ؛ وجد بها دمًا يغلي علىٰ كِبًا (يعني: القمامة)، فسألهم: ما هٰذا الدَّمُ؟ فقالوا: أدركْنا آباءنا علىٰ هٰذا،

---

(١) في بعض الأصول: «زيكون»! وليس في أولاد يعقوب من له هٰذا الاسم! وفي بعض الأصول: «زبولون»! وقد تقدم قبل قليل! فلعل الصواب ما أثبته.

(٢) كلمة فارسية تعني الوالي أو العامل للملك.

(٣) في «التفسير» (٨/ ٢٨/ ٢٢٠٧٠).

وكلَّما ظهر عليه الكِبا؛ ظهر. قال: فقتل علىٰ ذٰلك سبعين ألفًا من المسلمينَ وغيرِهم، فسكن. وهٰذا إسنادٌ صحيحٌ إلىٰ سعيد بن المسيَّبِ.

وقد تقدَّم[١] من كلام الحافظ ابن عساكرَ ما يدلُّ علىٰ أنَّ هٰذا دمُ يحيىٰ بن زكريا، وهٰذا لا يصحُّ؛ لأنَّ يحيىٰ بنَ زكريا بعد بُخْتَنَصَّرَ بمدَّةٍ، والظاهر أنَّ هٰذا دمُ نبيٍّ متقدِّم، أو دمٌ لبعض الصالحين، أو لمنْ شاء اللهُ ممَّنِ الله أعلمُ به.

قال هشامُ بن الكلبيِّ: ثم قدم بُخْتَنَصَّرُ بيتَ المقدس، فصالَحه مِلكُها، وكان من آل داوودَ، وصانَعَه عن بني إسرائيل، وأخذ منه بُخْتَنَصَّرُ رهائنَ ورَجَعَ، فلمَّا بَلَغَ طبريَّةَ؛ بَلَغَهُ أنَّ بني إسرائيل ثاروا علىٰ مَلِكِهِمْ، فقتلوه؛ لأجل أنَّه صالحه، فضربَ رقاب من معه من الرهائنِ، ورجع إليهم، فأخذ المدينة عَنْوَةً، وقتل المقاتلةَ، وسبىٰ الذُّرِّيَّةَ.

قال: وبلغَنا أنه وَجَدَ في السجن إرْمِيًّا النبيَّ، فأخرجه، وقصَّ عليه ما كان من أمرِهِ إياهم وتحذيرِهِ لهم عن ذٰلك فكذَّبوه وسجنوه، فقال بُخْتَنَصَّرُ: بئس القومُ قومٌ عصوا رسول الله! وخلَّىٰ سبيلَه، وأحسن إليه، واجتمعَ إليه من بَقِيَ من ضعفاءِ بني إسرائيلَ، فقالوا: إنَّا قد أسأنا وظَلَمْنا، ونحن نتوبُ إلىٰ الله ﷻ ممَّا صَنَعْنا؛ فادعُ الله أن يقبلَ توبَتَنا! فدعا ربَّه، فأوحىٰ الله إليه أنَّه غيرُ فاعل؛ فإن كانوا صادقين؛ فلْيقيموا معك بهٰذه البلدةِ. فأخبرهم ما أَمَرَهُ الله تعالىٰ به، فقالوا: كيف نُقيم بهٰذه البلدة وقد خَرِبَتْ وغضبَ الله علىٰ أهلِها؟! فأبوا أن يقيموا.

قال ابنُ الكلبيِّ: ومن ذٰلك الزمان تفرَّقَتْ بنو إسرائيل في البلادِ: فنزلت طائفةٌ منهم الحجازَ، وطائفةٌ يثربَ، وطائفةٌ وادي القرىٰ، وذهبتْ شِرْذِمَةٌ منهم إلىٰ مصر، فكتب بُخْتَنَصَّرُ إلىٰ ملكِها يطلبُ منه مَنْ شَرَدَ منهم إليه، فأبىٰ عليه، فَرَكِبَ في جيشه، فقاتَلَه وقَهَرَه وغَلَبَه وسبىٰ ذرارِيَّهم، ثم ركب إلىٰ بلادِ المغرب، حتىٰ بلغ أقصىٰ تلك الناحيةِ.

قال: ثم انصرف بسبي كثيرٍ من أرض المغرب ومصر وأهل بيت المقدس وأرض فلسطين والأردنِّ، وفي السبي دانيالُ.

قلت: والظاهرُ أنَّه دانيالُ بن حَزْقِيالَ الأصغرُ لا الأكبرُ علىٰ ما ذَكَرَه وَهْبُ بن منبِّهٍ. والله أعلم.

---

(١) في (ص٥٧٢).

۞ ذِكْرُ شيء من خبر دانيال عَلَيْهِ السَّلَامُ:

قال ابنُ أبي الدُّنيا: حدثنا أحمدُ بن عبد الأعلىٰ الشيبانيُّ؛ قال: إن لمْ أكنْ سمعتُه من شعيب بن صفوانَ؛ فحدَّثني بعضُ أصحابنا عنه، عن الأجلح الكنديِّ، عن عبدِالله بن أبي الهُذيل؛ قال ضَرَّىٰ[١] بُخْتَنَصَّرُ أسدينِ، فألقاهما في جُبٍّ، وجاء بدانيالَ، فألقاه عليهما، فلم يُهيجاهُ[٢]. فمكث ما شاء اللهُ، ثم اشتهىٰ ما يشتهي الآدميُّونَ من الطعام والشرابِ، فأوحىٰ الله إلىٰ إِرْمِيَّا وهو بالشام: أنِ اعْدُدْ طعامًا وشرابًا لدانيالَ! فقال: يارَبِّ! أنا بالأرض المقدسةِ ودانيالُ بأرض بابلَ من أرض العراقِ! فأوحىٰ الله إليه: أنِ اعْدُدْ ما أمرناك به؛ فإنَّا سنرسلُ من يحمِلُك ويحملُ ما أعددتَ. ففعل، وأرسل [اللهُ] إليه مَنْ حَمَلَه وحَمَلَ ما أعدَّه، حتىٰ وقف علىٰ رأس الجُبِّ، فقال دانيالُ: مَن هٰذا؟ قال: أنا إِرْمِيَّا. فقال: ما جاء بك؟! فقال: أرسلني إليك ربُّك. قال: وقد ذَكَرني ربِّي؟ قال: نعم. فقال دانيالُ: الحمد لله الذي لا ينسىٰ مَنْ ذَكَرَهُ، والحمدُ لله الذي يُجيب مَنْ رجاه، والحمدُ لله الذي من وَثِقَ به لم يَكِلْه إلىٰ غيرِهِ، والحمدُ لله الذي يَجْزي بالإحسان إحسانًا، والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاةً، والحمدُ لله الذي هو يكشفُ ضُرَّنا بعد كَرْبِنا، والحمد لله الذي يقينا حين يسوءُ ظنُّنا بأعمالنا، والحمدُ لله الذي هو رجاؤنا حين تنقطعُ الحِيَلُ عنَّا.

وقال يونس بنُ بُكَيْرٍ: عن محمد بن إسحاق، عن أبي حازم[٣] بن دينارٍ، حدثنا أبو العاليةِ؛ قال: لمَّا افْتَتَحْنا تُسْتَرَ؛ وجدنا في مال بيت الهُرْمُزانِ سريرًا عليه رجل ميتٌ عند رأسه مصحفٌ، فأخذنا المصحفَ، فحملْناه إلىٰ عمر بن الخطابِ، فدعا له كعبًا، فنسخَه بالعربيَّةِ، فأنا أولُ رجل من العربِ قرأه، قرأتُه مثلما أقرأ القرآنَ هٰذا. فقلتُ لأبي العاليةِ: ما كان فيه؟ قال: سِيَرُكُم وأمورُكم ولحونُ كلامِكُم وما هو كائنٌ بعدُ. قلتُ: فما صنعتُم بالرجل؟ قال: حَفَرْنا بالنهارِ ثلاثة عشر قبرًا متفرِّقةً، فلمَّا كان بالليل؛ دَفَنَّاهُ وسوَّيْنا القبور كلَّها لِنُعَمِّيَه علىٰ الناس فلا يَنْبُشونَه. قلتُ: فما يرجونَ منه؟ قال: كانتِ السماءُ إذا حُبِسَتْ عنهم؛ برزوا بسريرِهِ، فيُمْطَرون. قلتُ: من كنتم تظنونَ الرجلَ؟ قال: رجلٌ يقالُ له: دانيالُ. قلتُ: منذ كم وجدتُموه

---

(١) ضَرَّىٰ: عوَّد علىٰ الصيد ودَرَّب عليه.

(٢) يَهيجُ: يؤذي ويثير.

(٣) في جميع الأصول: «خالد»!

قد ماتَ؟ قال: منذ ثلاث مئة سنةٍ؛ قلتُ: ما تغيَّرَ منه شيءٌ؟ قالَ: لا؛ شَعَراتٍ من قفاه، إنَّ لحوم الأنبياء لا تُبْليها الأرضُ ولا تأكُلُها السباعُ.

وهٰذا إسنادٌ صحيحٌ إلىٰ أبي العالية، ولكن إن كان تاريخُ وفاتِهِ محفوظًا من ثلاث مئة سنة؛ فليس بنبيٍّ، بل هو رجلٌ صالحٌ؛ لأنَّ عيسىٰ ابن مريمَ ليس بينَه وبين رسول الله ﷺ نبيٌّ بنصِّ الحديث الذي في البخاري[1]، والفترةُ التي كانت بينَهما أربعُ مئة سنة، وقيل: ستُّ مئة، وقيل: ستُّ مئة وعشرون سنة، وقد يكون تاريخُ وفاتِهِ من ثمان مئة سنةٍ[2]، وهو قريبٌ من وقت دانيالَ؛ إنْ كان كونُهُ دانيالَ هو المطابقَ لما في نفس الأمر؛ فإنَّه قد يكون رجلًا آخر إمَّا من الأنبياءِ أو الصالحينَ، ولكن قَرُبَتِ الظُّنونُ أنَّه دانيالُ؛ لأنَّ دانيالَ كان قد أَخَذَه مَلِكُ الفرس، فأقام عنده مسجونًا كما تقدَّمَ. وقد رُوي بإسنادٍ صحيح إلىٰ أبي العالية: أنَّ طولَ أنفه شبرٌ. وعن أنس بن مالكٍ بإسناد جيدٍ: أنَّ طولَ أنفه ذراعٌ. فيُحتمل علىٰ هٰذا أن يكون رجلًا من الأنبياء الأقدمين قبل هٰذه المددِ[3]. والله تعالىٰ أعلمُ.

وقد قال أبو بكر بنُ أبي الدُّنيا في كتاب «أحكام القبور»: حدَّثنا أبو بلال محمدُ بن الحارث بن عبد الله بن أبي بُردةَ بنِ أبي موسىٰ الأشعريِّ، حدثنا أبو محمد القاسمُ بن عبد الله، عن أبي الأشعث الأحمريِّ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ دانيالَ دعا ربَّه ﷻ أن تَدْفِنَه أُمَّةُ محمدٍ»**. فلمَّا افتتح أبو موسىٰ الأشعريُّ تُسْتَرَ؛ وَجَدَهُ في تابوتٍ تضرِبُ عروقُه ووريدُه[4]، وقد كان رسولُ الله ﷺ قال: **«من دلَّ على دانيالَ؛ فبشِّروه بالجنَّةِ»**. فكان الذي دلَّ عليه رجلٌ يقالُ له: حُرْقوصُ، فكتب أبو موسىٰ إلىٰ عمرَ يخبِرُهُ، فكتب إليه عمرُ: أنِ ادْفِنْهُ وابعثْ إليَّ حُرقوصَ؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ بشَّره بالجنَّةِ[5]. وهٰذا مرسلٌ من هٰذا الوجه، وفي كونه محفوظًا نظرٌ. والله أعلم.

---

(١) سيأتي بنصه وتخريجه (ص٦٩٢-٦٩٣).

(٢) يعني أن لفظ (ثمان مئة) قد صحف إلىٰ (ثلاث مئة). وهو قريب وارد لتشابه الكتابتين.

(٣) لأن هذه الخلقة الضخمة توحي بأنه قريب من آدم عليه السلام.

(٤) يعني: أنها تنبض ويجري فيها الدم!

(٥) (موضوع). مرسل أو معضل. وسنده مجاهيل لا يعرفون. وقضية قبر دانيال عليه السلام ذكرها المؤرخون في قصة فتح تستر، لٰكن ليس في شيء منها ذكر هٰذا المرفوع، مما يفيد نكارته اصطلاحًا. وكذلك فالمتن منكر شديد النكارة؛ فما هو وجه هٰذا التبشير بالجنة لمن دلَّ علىٰ قبر دانيال عليه السلام؟! وما فائدة معرفة قبره أصلًا؟! ولو كان للصحابة رضي الله عنهم =

ثم قال ابنُ أبي الدُّنيا: حدَّثنا أبو بلال، حدثنا قاسمُ بن عبد الله، عن عنبسةَ بن سعيدٍ -وكان عالمًا-؛ قال: وَجَدَ أبو موسىٰ مع دانيالَ مصحفًا وجرَّةً فيها وَدَكٌ[(١)] ودراهمُ وخاتِمُهُ، فكتب أبو موسىٰ بذٰلك إلىٰ عمرَ، فكتب إليه عمرُ: أمَّا المصحفُ؛ فابعثْ به إلينا، وأمَّا الودكُ؛ فابعثْ إلينا منه وَمُرْ مَن قِبَلَكَ من المسلمين يَسْتَشْفونَ به، واقْسِم الدراهمَ بينَهم، وأمَّا الخاتِمُ؛ فقد نَفَّلْناكَه.

وروىٰ ابنُ أبي الدُّنيا[(٢)] من غير وجهٍ: أنَّ أبا موسىٰ لمَّا وَجَدَهُ وذكروا له أنَّه دانيالُ؛ التزمَه وعانقَه وقبَّلَه، وكتب إلىٰ عمر يذكُرُ له أمرَهُ، وأنَّه وَجَدَ عنده مالًا موضوعًا قريبًا من عشرة آلاف درهم، وكان من جاءَ؛ اقترضَ منها؛ فإن ردَّها، وإلَّا؛ مَرِضَ، وأنَّ عندَه ربعةً[(٣)]. فأمر عمرُ بأن يُغَسَّلَ بماء وسدرٍ ويكفَّنَ ويدفَنَ ويُخفىٰ قبرُه فلا يَعْلَمُ به أحدٌ، وأمر بالمال أن يردَّ إلىٰ بيت المال، وبالربعةِ فتُحْمَلَ إليه، ونَفَّلَهُ خاتِمَه.

وروي عن أبي موسىٰ: أنَّه أمر أربعةً من الأسرىٰ، فسكَّروا[(٤)] نهرًا، وحفروا في وَسَطِهِ قبرًا، فدفنه فيه، ثم قدَّم الأربعة أسرىٰ، فضرب أعناقَهم، فلم يَعْلَمْ موضع قبرِهِ غيرُ أبي موسىٰ الأشعريِّ رَضِوَالِلَّهُعَنْهُ.

وقال ابنُ أبي الدُّنيا: حدثني إبراهيمُ بن عبد الله، حدثنا أحمدُ بن عمرو بن السرح، حدثنا ابن وَهْبٍ، عن عبد الرحمٰن بن أبي الزِّنادِ، عن أبيه؛ قال: رأيتُ في يدِ أبي بُردةَ بن أبي موسىٰ الأشعريِّ خاتِمًا نَقْشُ فصِّه أسدان بينهما رجلٌ يلحسانِ ذٰلك الرجل. قال أبو بردةَ: وهٰذا خاتِمُ ذٰلك الرجل الميِّت، الذي زعم أهلُ هٰذه البلدة أنَّه دانيالُ، أخذه أبو موسىٰ يوم دفنِهِ.

قال أبو بردةَ: فسأل أبو موسىٰ علماءَ تلك القريةِ عن نقش ذٰلك الخاتِم؟ فقالوا: إنَّ المَلِكَ الذي كان دانيالُ في سلطانِهِ جاءه المنجِّمون وأصحابُ العلم، فقالوا له: إنَّه يولدُ ليلةَ كذا وكذا غلامٌ يُغَوِّرُ ملكَك ويفسِدُه. فقال الملكُ: والله؛ لا يبقىٰ تلك الليلةَ غلامٌ إلَّا قتلتُه. إلَّا أنَّهم أخذوا دانيال، فألقَوْه في أجَمَةِ الأسدِ، فبات الأسدُ ولبؤتُه يلحسانِهِ ولم يضرَّاه. فجاءت

= أثارة من علم في هٰذا؛ لما غيَّبوا القبر وعفَّوا أثره بعد أن بشر النبي ﷺ من دلَّ عليه بالجنة!

(١) الودك: الشحم أو الدهن.

(٢) في الأصول: «وروي عن ابن أبي الدنيا»!

(٣) الربعة: النعش أو الصندوق.

(٤) سَكَّروا النهر: سَدُّوا مجراه.

أمُّه، فوجدتْهما يلحسانِه، فنجَّاه الله بذٰلك حتىٰ بلغَ ما بلغَ. قال أبو بردةَ: قال أبو موسىٰ: قال علماءُ تلك القريةِ: فَنَقَشَ دانيالُ صورتَه وصورةَ الأسدين يلحسانِه في فصِّ خاتِمِه؛ لئلَّا ينسىٰ نعمةَ الله عليه في ذٰلك. إسنادٌ حسنٌ.

۞ وهذا ذكر عمارة بيت المقدس بعد خرابها واجتماع الملإ من بني إسرائيل بعد تفرُّقهم في بقاع الأرض وشعابها:

قال الله تعالىٰ في كتابِه المبينِ وهو أصدقُ القائلين: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢٥٩].

قال هشامُ بنُ الكلبيِّ: ثم أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ إرْمِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما بلغني أنِّي عامر بيتَ المقدس؛ فاخرجْ إليها، فانزِلْها! فخرج حتىٰ قَدِمَها وهي خرابٌ، فقال في نفسه: سبحان الله! أمرني الله أن أنْزِلَ هٰذه البلدةَ، وأخبرني أنَّه عامِرُها؛ فمتىٰ يَعْمُرُها! ومتىٰ يُحييها اللهُ بعد موتها؟! ثم وَضَعَ رأسَه، فنام ومعه حمارُهُ وسلةٌ من طعام، فمكث في نومه سبعينَ سنةً، حتىٰ هَلَكَ بُخْتَنَصَّرُ والملكُ الذي فوقَه - وهو لِهْراسبُ - وكان ملكُهُ مئةً وعشرين سنةً، وقام بعدَه ولدُهُ بِشتاسبُ بنُ لِهْراسبَ، وكان موتُ بُخْتَنَصَّرَ في دولتِهِ، فبلغه عن بلاد الشام أنها خرابٌ وأنَّ السباع قد كَثُرَتْ في أرض فلسطين فلم يبقَ بها من الإنس أحدٌ، فنادىٰ في أرض بابل في بني إسرائيلَ: أنْ مَنْ شاء أن يرجِعَ إلىٰ الشام؛ فليرجع. وملَّك عليهم رجلًا من آل داوودَ، وأمَرَه أن يَعْمُرَ بيتَ المقدس ويبنيَ مسجِدَها، فرجعوا، فعَمَروها، وفتح الله لإرْمِيَّا عينَيْه، فنظر إلىٰ المدينة كيف تُبنىٰ وكيف تُعْمَرُ، ومكث في نومه ذٰلك حتىٰ تمَّتْ له مئةُ سنة، ثم بعثَه الله وهو لا يظنُّ أنه نام أكثرَ من ساعةٍ، وقد عَهِدَ المدينة خرابًا، فلمَّا نظر إليها عامرةً آهلةً؛ قال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢٥٩]. قال: فأقام بنو إسرائيل بها، وردَّ الله عليهم أمرَهم، فمكثوا كذٰلك حتىٰ غلبتْ عليهم الرومُ في زمن ملوكِ الطوائف، ثم لم يكنْ لهم جماعةٌ

ولا سلطانٌ؛ يعني: بعد ظهورِ النَّصارىٰ عليهم. هٰكذا حكاه ابنُ جريرٍ في «تاريخه»(١) عنه.

وذكر ابنُ جريرٍ(٢) أنَّ لِهراسِبَ كان ملكًا عادلاً سائسًا لمملكتِهِ قد دانتْ له العبادُ والبلادُ والملوكُ والقوَّادُ، وأنَّه كان ذا رأيٍ جيدٍ في عمارةِ الأمصار والأنهار والمعاقل، ثم لمَّا ضَعُفَ عن تدبير المملكة بعد مئة سنةٍ ونيفٍ؛ نزل عن الملكِ لولده بِشْتاسِبَ، فكان في زمانِهِ ظهورُ دين المجوسيَّةِ(٣)، وذٰلك أنَّ رجلاً اسمُهُ زرادشتُ، كان قد صَحِبَ إرْمِيَّا عليه السلام، فأغضبه، فدعا عليه إرْمِيَّا عليه السلام، فبرِصَ زرادشتُ، فذهبَ، فلَحِقَ بأرض أذربيجان، وصحب بِشْتاسِبَ، فلقَّنَه دينَ المجوسيَّة الذي اخترعه من تلقاءِ نفسه، فقَبِلَهُ منه بِشتاسِبُ، وحمل الناس عليه وقَهَرَهُم، وقتل منهم خلقًا كثيرًا ممَّن أباه منهم. ثم كان بعد بِشتاسِبَ بَهْمَنُ بنُ بِشتاسِبَ، وهو من ملوك الفرس المشهورين والأبطال المذكورين. وقد ناب بُخْتَنَصَّرُ لكلِّ واحدٍ من هٰؤلاء الثلاثة وعُمِّرَ دهرًا طويلًا قبَّحه الله.

<u>والمقصودُ</u>: أنَّ هٰذا الذي ذكره ابنُ جرير من أنَّ هٰذا المارَّ علىٰ هٰذه القرية هو إرْمِيَّا عليه السلام قاله وَهْبُ بن مُنَبِّهٍ وعبدُالله بن عُبيد بن عُمير وغيرُهما، وهو قويٌّ من حيثُ السياقُ المتقدِّمُ، وقد رُوِيَ عن عليٍّ وعبدِالله بن سلام وابنِ عباس والحسنِ وقَتادةَ والسُّدِّيِّ وسليمانَ بن بُرَيْدَة وغيرهم أنَّه عُزَيْرٌ. وهٰذا أشهر عند كثير من السلف والخلفِ. والله أعلم.

(١) انظر: «تاريخ الأمم والملوك» (١/ ٣١٧).
(٢) انظر: «تاريخ الأمم والملوك» (١/ ٣١٧).
(٣) ديانة قديمة انتشرت في بلاد فارس بصورة واسعة، يتعبد أهلها النيران، ويؤمنون بأصلين للخلق هما النور والظلمة، لٰكن جعلوا النور أعلىٰ وأقوىٰ من الظلمة. وانظر للتفصيل في هٰذا:

وهذه قصة العزير

❁ [ذكر نسبه ﷺ]:

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر(١): هو عُزَيْر بن جروةَ، ويقالُ: ابن سَريا بنِ عَزَرْيا [بنِ حِلْقِيَّا بنِ شَلُّومَ بنِ صادوقَ بنِ أَخِيطوبَ بنِ أَمَرْيا بنِ عَزَرْيا] بنِ مَرايُوث بنِ زَرَحْيا بنِ عُزِّي بنِ بُقِّي بنِ أبيشُوعَ بنِ فينحاسَ بنِ أليعازارَ بنِ هارونَ بنِ عمران. ويقال: عُزير بن سروخا. جاء في بعضِ الآثارِ أنَّ قبرَه بدمشقَ.

❁ [ذكر ما جاء فيه من الآثار]:

ثم ساق من طريق: أبي القاسم البغويِّ، عن داوودَ بن عمرو، عن حبان بن علي، عن محمد بن كريب، عن أبيه، عن ابن عباس مرفوعًا: «**لا أدري ألُعِنَ تُبَّعٌ أو لا**(٢)؟ **ولا أدري أعزيرٌ كان نبيًّا أم لا؟**»(٣).

ثم رواه من حديث: مؤمل بن الحسن، عن محمد بن إسحاق السِّجْزِيِّ، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن أبي ذئبٍ، عن سعيد المقبريِّ، عن أبي هريرة مرفوعًا... نحوه(٤).

---

(١) في «تاريخ دمشق» (٤٠/ ٣١٧). وقد وقع في مختلف طبعات «البداية والنهاية» و«تاريخ دمشق» اضطراب كبير في هٰذا النسب وسقط وتصحيف وتحريف، فصوبت واستدركت النقص من «العهد القديم» (سفر عزرا/ الأصحاح٧).

(٢) في بعض النسخ: «لا أدري العزيز بيعٌ أو لا»!! وفي أخرىٰ: «لا أدري العين بيع أم لا»!! والتصويب من روايتي ابن عساكر.

(٣) (ضعيف). رواه ابن عساكر في «التاريخ» (١١/ ٥) من طريق لوين، و(٤٠/ ٣١٧) من طريق داوود بن عمرو؛ كلاهما عن حبان بن علي... به، فذكره. وحبان بن علي ضعيف، ومحمد بن كريب منكر الحديث. فالسند ضعيف في أحسن أحواله، وقد ضعفه الألباني. وانظر الحاشية التالية.

(٤) (صحيح؛ إلا ذكر العزيز فيه؛ فهو شاذ). وقد اختلف فيه علىٰ أربعة أوجه:

* فرواه محمد بن حماد وإسحاق بن إبراهيم ومحمد بن رافع ومحمد بن يحيىٰ وأحمد حنبل، عن =

ثم رویٰ(١) من طريق: إسحاقَ بن بشرٍ -وهو متروك-، عن جُويبر ومقاتل، عن الضحاك، عن ابن عباس: إنَّ عُزيرًا كان ممَّنْ سباه بُخْتَنَصَّرُ وهو غلامٌ حدثٌ، فلمَّا بلغ أربعينَ سنةً؛ أعطاه الله الحكمةَ. قال: ولم يكنْ أحدٌ أحفظُ ولا أعلمُ بالتوراة منه. قال: وكان يُذْكَرُ مع الأنبياءِ، حتىٰ محا اللهُ اسمَه من ذٰلك حين سأَلَ ربَّه عن القَدَرِ. وهٰذا ضعيفٌ ومنقطعٌ ومنكرٌ. والله أعلم.

۞ [قصة موت العزيز مئة عام ثم بعثه حيًّا]:

وقال إسحاقُ بن بشرٍ: عن سعيد بن أبي عَروبة(٢)، عن قَتادة، عن الحسنِ، عن عبد الله بن سلام: أنَّ عُزيرًا هو العبدُ الذي أماته الله مئةَ عام ثم بَعَثَه.

وقال إسحاقُ بن بشرٍ: أنبأنا سعيدُ بن بشيرٍ عن قتادةَ عن كعبٍ، وسعيدُ بن أبي عَروبة عن قَتادة عن الحسنِ، ومقاتلٌ وجُوَيْبِرٌ عن الضحاكِ عن ابن عباس، وعبدُالله بن إسماعيل

= عبد الرزاق... به. فذكروا ذا القرنين بدل العزيز. أخرجه عنهم: الحاكم (١/ ٣٦، ٢/ ١٤)، والبيهقي (٨/ ٣٢٩)، وابن عساكر (١١/ ٣، ١٧/ ٣٣٧). وصححه الحاكم علىٰ شرط الشيخين ووافقه الذهبي والألباني.

* ورواه محمد بن المتوكل العسقلاني ومخلد بن خالد الشعيري (المعنىٰ) ومحمد بن إسحاق السجزي، عن عبد الرزاق... به، بذكر العزيز كما هنا. أخرجه: أبو داوود (٣٤- السنة، ١٣- التخيير بين الأنبياء، ٢/ ٦٣٠/ ٤٦٧٤)، وابن عساكر (٤٠/ ٣١٨). وسكت عنه المنذري.

* وأما الوجه الثالث؛ فهو ما ذكره صاحب «عون المعبود» (١٢/ ٤٣٠) بقوله: «قال الحافظ أبو الفضل العراقي في «أماليه»: «في رواية الحاكم في «المستدرك» بدله: «وما أدري ذا القرنين نبيًّا كان أو لا»، وزاد فيه: «وما أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا»، ورويناه بتمامه بذكر تبع وعزيز وذي القرنين والحدود في «تفسير ابن مرديه» من رواية محمد بن أبي السري عن عبد الرزاق».

قلت: محمد بن أبي السري هٰذا هو محمد بن المتوكل العسقلاني الذي مر في الوجه الثاني نفسه، فعاد الكلام علىٰ هٰذا الوجه إلىٰ الكلام علىٰ الوجه الثاني. وأما الوجه الثاني؛ فرواته ثلاثة: فأولهم محمد بن المتوكل هٰذا، وهو صدوق كثير الغلط؛ كما في «التهذيب». وأما محمد بن إسحاق السجري؛ فضعيف يقلب الأسانيد ويسرقها كما في «اللسان». وأما مخلد بن خالد؛ فثقة، لٰكنه روىٰ المعنىٰ لا اللفظ؛ فروايته علىٰ التسامح والتجاوز لا علىٰ التدقيق والجزم، وعلىٰ كل حال؛ فهي لا تصمد أمام الوجه الأول الذي رواه خمسة من الثقات عن عبد الرزاق؛ فهي شاذه اصطلاحًا، والمحفوظ هو الوجه الأول، وهو الذي جاءت به رواية الحاكم (٢/ ٤٥٠) الأخرىٰ للحديث من طريق آدم بن علي بن أبي إياس، ثنا ابن أبي ذئب... به، فذكره علىٰ الوجه الأول، وصححه علىٰ شرط الشيخين ووافقه الذهبي والألباني.

(١) في «تاريخه» (٤٠/ ٣١٨).

(٢) في جميع الأصول: «عن سعيد عن أبي عروبة»!

السُّدِّيِّ عن أبيه عن مجاهدٍ، عن ابن عباس، وإدريسُ عن جدِّه وَهْب بن مُنَبِّه. قال إسحاقُ: كلُّ هٰؤلاء حدَّثوني عن حديث عزير، وزاد بعضُهم علىٰ بعض؛ قالوا بإسنادهم: إنَّ عُزيرًا كان عبدًا صالحًا حكيمًا، خرج ذاتَ يوم إلىٰ ضيعةٍ له يتعاهدُها، فلمَّا انصرفَ؛ أتىٰ إلىٰ خَرِبَةٍ حين قامت الظهيرةُ وأصابه الحرُّ، ودخل الخَرِبَةَ وهو علىٰ حمارِهِ، فنزل عن حمارِهِ ومعه سلَّةٌ فيها تينٌ وسلَّةٌ فيها عنبٌ، فنزل في ظلِّ تلك الخَرِبةِ، وأخرج قصعةً معه، فاعتصر من العنبِ الذي كان معه في القصعةِ، ثم أخرج خبزًا يابسًا معه، فألقاه في تلك القصعةِ في العصير ليبتلَّ ليأكلَه، ثم استلقىٰ علىٰ قفاه وأسند رجلَيْه إلىٰ الحائطِ، فنظر سُقُفَ تلك البيوت، ورأىٰ ما فيها وهي قائمةٌ علىٰ عروشها وقد باد أهلُها، ورأىٰ عظامًا باليةً، فقال: أَنَّىٰ يُحْيِي هٰذه اللهُ بعدَ مَوْتِها؟! فلم يشكَّ أنَّ الله يُحييها، ولكن قالها تعجُّبًا! فبعث الله مَلَكَ الموت، فقبضَ رُوحَه، فأماته الله مئةَ عام.

فلمَّا أتتْ عليه مئةُ عام، وكانت فيما بين ذٰلك في بني إسرائيل أمورٌ وأحداثٌ. قال: فبعثَ الله إلىٰ عزيرٍ مَلَكًا فخلَقَ قلبَه لِيَعْقِلَ به[1] وعَيْنَيْهِ لينظرَ بهما فيعقلَ كيف يُحيي الله الموتىٰ، ثم ركَّبَ خلقَه وهو ينظرُ، ثم كسا عظامَه اللحمَ والشعرَ والجلدَ، ثم نفخ فيه الروحَ؛ كلُّ ذٰلك وهو يرىٰ ويعقِلُ، فاستوىٰ جالسًا، فقال له المَلَكُ: كم لبثتَ؟ قال: لبثتُ يومًا أو بعض يوم. وذٰلك أنَّه كان لَبِثَ صدر النهارِ عند الظهيرة وبُعِثَ في آخر النهار والشمسُ لم تغبْ، فقال: أو بعضَ يوم، ولم يَتِمَّ لي يومٌ. فقال له المَلَك: بل لبثتَ مئةَ عام؛ فانظرْ إلىٰ طعامِك وشرابِك؛ يعني: الطعامَ الخبزَ اليابس، وشرابَه العصيرَ الذي كان اعْتَصَرَه في القصعةِ؛ فإذا هما علىٰ حالِهِما؛ لم يتغيَّرِ العصيرُ، والخبزُ يابسٌ؛ فذٰلك قوله: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: ٢٥٩]؛ يعني: لم يتغيَّرْ، وكذٰلك التين والعنب غضٌّ لم يتغيَّرْ شيءٌ من حالهما. فكأنَّه أنكر في قلبه، فقال له الملكُ: أنكرتَ ما قلتُ لك؟ انْظُرْ إلىٰ حمارِكَ. فنظر إلىٰ حمارِهِ قد بليتْ عظامُه وصارت نخرةً، فنادىٰ المَلَكُ عظامَ الحمارِ، فأجابتْ وأقبلتْ من كلِّ ناحيةٍ حتىٰ ركَّبه المَلَكُ وعزيرٌ ينظرُ إليه، ثم ألبَسَها العروقَ والعصب، ثم كساها اللحمَ، ثم أنبت عليها الجلد والشعرَ، ثم نفخَ فيه المَلَكُ، فقام الحمارُ رافعًا رأسَه وأذنيه إلىٰ السماء ناهقًا يظنُّ القيامةَ قد قامتْ؛ فذٰلك قولُه: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ

---

(١) في جميع الأصول: «فخلق قلبَه ليعقل قلُه». وهو صحيح، والأولىٰ ما أثبته من «تاريخ ابن عساكر» (٤٠/ ٣٢٢).

﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة: ٢٥٩]؛ يعني: وانظرْ إلىٰ عظام حمارِكَ كيف يُرَكَّبُ بعضها بعضًا في أوصالها، حتىٰ إذا صارتْ عظامًا مصوَّرًا حمارًا بلا لحم، ثم انظر كيف نكْسوها لحمًا، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢٥٩]: من إحياءِ الموتىٰ وغيره.

قال: فركبَ حمارَه، حتىٰ أتىٰ محلَّته، فأنكره الناسُ وأنكرَ الناسَ وأنكرَ منزِلَه، فانطلقَ علىٰ وهم منه حتىٰ أتىٰ منزِلَه؛ فإذا هو بعجوزٍ عمياءَ مقعدةٍ قد أتىٰ عليها مئةٌ وعشرونَ سنةً، كانت أمَةً لهم، فخرج عنهم عزيرٌ وهي بنتُ عشرين سنةً، كانت عرفتْه وعَقَلَتْه، فلمَّا أصابها الكِبَرُ؛ أصابها الزَّمانةُ[١]، فقال لها عزيرٌ: يا هٰذه! أهٰذا منزلُ عُزيرٍ؟ قالت: نعمْ؛ هٰذا منزلُ عُزيرٍ. فبكتْ وقالتْ: ما رأيتُ أحدًا من كذا وكذا سنةٍ يذكُرُ عُزيرًا، وقد نَسِيَهُ الناسُ. قال: فإنِّي أنا عُزيرٌ، كان الله أماتني مئةَ سنةٍ ثم بَعَثَني. قالت: سبحانَ الله! فإنَّ عُزيرًا قد فَقَدْناه منذُ مئةِ سنةٍ فلم نسمعْ له بذكرٍ. قال: فإنِّي أنا عزيرٌ. قالتْ: فإن عُزيرًا رجلٌ مستجابُ الدعوةِ، يدعو للمريض ولصاحبِ البلاءِ بالعافيةِ والشفاءِ؛ فادعُ الله أن يردَّ عليَّ بصري حتىٰ أراكَ؛ فإنْ كنت عُزيرًا؛ عرفتُك.

قال: فدعا ربَّه، ومسح بيدِهِ علىٰ عينيْها، فصحَّتا، وأخذَ بيدِها، وقال: قومي بإذنِ الله! فأطلقَ اللهُ رجلَيْها، فقامت صحيحةً كأنَّما نُشِطَتْ من عقال، فنظرتْ، فقالت: أشهدُ أنَّك عزيرٌ. وانطلقتْ إلىٰ محلَّة بني إسرائيل وهم في أنديتِهم ومجالسِهم، وابنٌ لعزيرٍ شيخٌ ابنُ مئة سنةٍ وثماني عشر سنةً وبنو[٢] بنيه شيوخٌ في المجلس، فنادتْهم، فقالتْ: هٰذا عزيرٌ قد جاءكُم! فكذَّبوها، فقالتْ: أنا فلانةٌ مولاتُكم، دعا لي ربَّه، فردَّ عليَّ بصري وأطلقَ رجليَّ وزعمَ أنَّ الله أماتَه مئةَ سنةٍ ثم بعثَه.

قال: فنهضَ الناس، فأقبلوا إليه، فنظروا إليه، فقال ابنُه: كان لأبي شامةٌ سوداءُ بين كتفيهِ. فكشفَ عن كتفيهِ؛ فإذا هو عزيرٌ! فقالت بنو إسرائيل: فإنَّه لم يكنْ فينا أحدٌ حَفِظَ التوراةَ فيما حُدِّثْنا غيرُ عزيرٍ، وقد حرق بُخْتَنَصَّرُ التوراةَ، ولم يبقَ منها شيءٌ إلَّا ما حفظتِ الرجالُ؛ فاكتُبْها لنا. وكان أبوه سروخا قَدْ دفنَ التوراةَ أيام بُخْتَنَصَّرَ في موضع لم يعرِفْه أحدٌ غيرُ عزيرٍ، فانطلقَ

(١) الزمانة: أمراض الشيخوخة التي تأتي ثم لا تذهب.
(٢) في جميع الأصول: «وبني»! ولا يستوي هٰذا نحويًّا! والتصويب من ابن عساكر (٤٠/ ٣٢٢).

بهم إلىٰ ذٰلك الموضع، فحفَرَهُ، فاستخرج التوراةَ، وكان قد عَفِنَ الورقُ ودَرَسَ الكتابُ.

قال: وجلسَ في ظلِّ شجرةٍ، وبنو إسرائيلَ حولَه، فجددَّ لهم التوراةَ، ونزل من السماءِ شهابان حتىٰ دَخَلا جَوْفَه، فتذكَّرَ التوراةَ، فجدَّدها لبني إسرائيل؛ فمِنْ ثمَّ قالتِ اليهودُ: عزيرٌ ابنُ الله! للذي كان من أمرِ الشهابين وتجديدِهِ التوراةَ وقيامِهِ بأمر بني إسرائيل، وكان جدَّد لهم التوراةَ بأرض السوادِ بدير حَزْقيالَ، والقريةُ التي ماتَ فيها يقالُ لها سايراباذ.

قال ابنُ عباس: فكان كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٥٩]؛ يعني: لبني إسرائيلَ، وذٰلك أنَّه كان يجلسُ مع بنيه وهم شيوخٌ وهو شابٌّ؛ لأنَّه كان ماتَ وهو ابنُ أربعين سنةً، فبعثَه اللهُ شابًّا كهيئته يوم مات.

قال ابن عباس: بُعِثَ بعد بُخْتَنَصَّرَ. وكذٰلك قال الحسنُ.

وقد أنشد أبو حاتم السجستانيُّ في معنىٰ ما قاله ابنُ عباس:

وأسودِ رَأسٍ شَابَ مِن قَبْلِهِ ابنُهُ ... ومِنْ قَبْلِهِ ابنُ ابنِهِ فَهْوَ أكْبَرُ
يَرى ابنَه شيخًا يَدِبُّ على عصًا ... ولِحْيَتُهُ سَوْداءُ والرَّأسُ أشْقَرُ
وَما لابنِهِ حَيْلٌ ولا فضلُ قُوَّةٍ ... يقومُ كَما يَمْشي الصَّبِيُّ فيَعْثُرُ
يَعُدُّ ابْنُهُ في الناسِ تِسْعينَ حِجَّةً ... وعشرينَ لا يَجْري ولا يَتَبخْتَرُ
وَعُمْرُ أبيهِ أرْبَعونَ أمَرَّها ... ولابنِ ابْنِهِ تِسْعونَ في النَّاسِ غُبَّرُ
فما هُوَ في المَعْقولِ إنْ كنتَ دارِيًا ... وإنْ كنتَ لا تَدْري فبِالجَهْلِ تُعْذَرُ

فصل [في الفترة التي بعث فيها العزيز عَلَيْهِ السَّلَامُ]:

المشهورُ أنَّ عُزيرًا نبيٌّ من أنبياء بني إسرائيلَ، وأنَّه كان فيما بين داوودَ وسليمانَ وبين زكريَّا ويحيىٰ، وأنَّه لمَّا لم يبقَ في بني إسرائيلَ مَنْ يَحْفَظُ التوراةَ؛ ألهمَهُ الله حفظَها، فسردها علىٰ بني إسرائيل؛ كما قال وَهْبُ بن مُنبِّهٍ: أمَرَ اللهُ مَلَكًا، فنزل بمِغْرَفَةٍ من نور، فقذَفها في عزيرٍ، فنسخَ التوراة حرفًا بحرفٍ حتىٰ فَرَغَ منها.

وروىٰ ابنُ عساكر(١) عن ابن عباس: أنَّه سأل عبد الله بن سلام عن قول الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]: لم قالوا ذٰلك؟ فذكر له ابنُ سلام ما كان مِن كَتْبِهِ

(١) في «التاريخ» (٤٠/ ٣٢٥-٣٢٨).

لبني إسرائيل التوراةَ من حفظِهِ وقولِ بني إسرائيل: لم يستطعْ موسىٰ أن يأتِيَنا بالتوراةِ إلَّا في كتابٍ، وإنَّ عُزيرًا قد جاءنا بها من غير كتابٍ! فرماه طوائفُ منهم وقالوا: عزيرٌ ابنُ الله!

ولهٰذا يقولُ كثيرٌ من العلماء: إنَّ تواتُرَ التوراةِ انقطع في زمن العُزيرِ. وهٰذا متجهٌ جدًّا إذا كان العزيرُ غير نبيٍّ؛ كما قاله عطاء بنُ أبي رباح والحسنُ البصريُّ.

وفيما رواه إسحاق بن بشرٍ: عن مقاتل بن سليمانَ عن عطاءٍ، وعن عثمان بن عطاءٍ الخراسانيِّ عن أبيه، ومقاتل عن عطاءِ بن أبي رباح؛ قال: كان في الفترة تسعةُ أشياءَ: بُخْتَنَصَّرُ، وجنةُ صنعاءَ، وجنةُ سبإٍ، وأصحابُ الأخدود، وأمرُ حاصورا، وأصحاب الكهفِ، وأصحابُ الفيل، ومدينة أنطاكيةَ، وأمرُ تُبَّعٍ.

وقال إسحاق بن بشر: أنبأنا سعيدٌ، عن قَتادة، عن الحسنِ؛ قال: كان أمرُ عزيرٍ وبُخْتَنَصَّرَ في الفترة.

وقد ثبت في «الصحيح» أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أنا أولى الناس بابن مريمَ، الأنبياء أولادُ عَلَّاتٍ**[1]**، وليس بيني وبينَه نبيٌّ**»[2].

وقال وَهْبُ بن مُنَبِّهٍ: كان فيما بين سليمانَ وعيسىٰ عليهما السلام.

۞ [ذكر طرف من أخبار العزيز عليه السلام]:

وقد روىٰ ابنُ عساكرَ[3] عن أنس بن مالكٍ وعطاءِ بن السائبِ: أنَّ عُزيرًا كان في زمن موسىٰ بن عمرانَ، وأنَّه استأذن عليه فلم يأذن له (يعني: لِما كان من سؤالِهِ عن القدر)، وأنَّه انصرفَ وهو يقولُ: مئةُ موتةٍ أهون من ذُلِّ ساعةٍ.

وفي معنىٰ قولِ عُزَيْرٍ: مئةُ موتةٍ أهونَ مِن ذُلِّ ساعةٍ: قولُ بعضِ الشُّعراء:

قَدْ يَصْبِرُ الحُرُّ على السَّيْفِ ... ويأْنَفُ الصَّبْرَ على الحَيْفِ

ويُؤْثِرُ المَوْتَ على حالةٍ ... يعْجِزُ فيها عن قِرى الضَّيْفِ

فأما ما روىٰ ابنُ عساكر[4] وغيرُهُ عنِ ابنِ عباس ونوفٍ البِكاليِّ وسفيانَ الثوريِّ وغيرِهم:

(١) العلاَّت: الضرائر.

(٢) سيأتي بنصه وتخريجه في (ص٦٩٢-٦٩٣).

(٣) في «التاريخ» (٤٠/ ٣٣٧).

(٤) في «التاريخ» (٤٠/ ٣٢٩-٣٣٥).

من أنَّه سأل عن القَدَرِ، فمُحِيَ اسمُه من ذِكْرِ الأنبياء! فهو منكرٌ، وفي صحَّتِهِ نظرٌ، وكأنَّه مأخوذٌ عن الإسرائيليَّاتِ.

وقد روىٰ عبدُالرزاق وقتيبةُ بن سعيدٍ، عن جعفرِ بن سليمانَ، عن أبي عِمْرانَ الجَوْنيِّ، عن نوفٍ البِكاليِّ؛ قال: قال عُزيرٌ فيما يناجي ربَّه: يا ربِّ! تَخْلُقُ خَلْقًا فتُضِلُّ مَنْ تشاءُ وتَهْدي من تشاءُ؟ فقيل له: أعرِضْ عن هٰذا. فعاد، فقيل له: لَتُعْرِضَنَّ عن هٰذا أو لأمْحُوَنَّ اسمَك من الأنبياءِ، إنِّي لا أُسْأَلُ عما أفعلُ وهم يُسْألونَ.

وهٰذا يقتضي وقوعَ ما تُوُعِّدَ عليه لو عادَ؛ فما مُحِي اسمُه[1].

وقد روىٰ الجماعةُ سوىٰ الترمذيِّ من حديث: يونسَ بن يزيدَ، عن الزُّهريِّ، عن سعيدٍ وأبي سلمةَ، عن أبي هُريرة. وكذٰلك رواه: شعيبٌ، عن أبي الزنادِ، عن الأعرج، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**نَزَلَ نبيٌّ من الأنبياءِ تحتَ شجرةٍ، فَلَدَغَتْهُ نملةٌ، فأمر بِجَهازِهِ فأخرِجَ من تحتها، ثم أمَرَ بها فأحرقتْ بالنارِ، فأوحى الله إليه: فهلَّا نملة واحدة**»[2].

فروىٰ: إسحاقُ بن بشرٍ، عن ابن جُريج، عن عبد الوهَّابِ بن مجاهدٍ، عن أبيه: أنَّه عُزيرٌ. وكذا رُوِيَ عن ابن عباس والحسن البصري أنه عُزيرٌ[3]. فالله أعلم.

❁ ❁ ❁

---

(١) يعني: أنه هُدِّد بمحو الاسم ولم يمح اسمه.

(٢) رواه: البخاري (٥٦- الجهاد، ١٥٣- باب، ٦/ ١٥٤/ ٣٠١٩)، ومسلم (٣٩- السلام، ٣٩- النهي عن قتل النمل، ٤/ ١٧٥٩/ ٢٢٤١)، وابن ماجه (٢٨- الصيد، ١٠- ما ينهي عن قتله، ٢/ ١٠٧٥/ ٣٢٢٥)، وأبو داوود (٣٥- الأدب، ١٦٣- قتل الذر، ٢/ ٧٨٩/ ٥٢٦٦)، والنسائي (٤٢- الصيد، ٣٨- قتل النمل، ٧/ ٢١٠/ ٤٣٦٩)؛ من الطريق الأولىٰ. ورواه: البخاري (٥٩- بدء الخلق، ١٦- إذا وقع الذباب، ٦/ ٣٥٦/ ٣٣١٩)، ومسلم (الموضع السابق)، وأبو داوود (الموضع السابق، ٥٢٦٥)؛ من الطريق الأخرىٰ.

(٣) وليس في ذلك خبرٌ صحيحٌ عن المعصوم يستند إليه، بل كلها آثار موقوفة بأسانيد تالفة، ولذلك قال الحافظ في «الفتح» (٦/ ١٥٨): «قيل: هو العزير، وروىٰ الحكيم الترمذي في «النوادر» أنه موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبذلك جزم الكلاباذي في «معاني الأخبار» والقرطبي في «التفسير»» أهـ.

قصة زكريا ويحيى عليهما السلام

۞ [خبر زكريا ويحيى عليهما السلام كما جاء في القرآن الكريم]:

قال الله تعالىٰ في كتابه العزيز: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ۝١١ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ۝١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ۝١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ۝١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ۝١٥﴾ [مريم: ١-١٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ۝٣٧ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٣٩ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ۝٤١﴾ [آل عمران: ٣٧-٤١].

وقال تعالىٰ في سورة الأنبياء: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٥﴾ [الأنعام: ٨٥].

[ذكر نسب زكريا عليه السلام]:

قال الحافظُ أبو القاسم بنُ عساكرَ في كتابه «التاريخ»[(1)] المشهور الحافل: زَكَرِيَّا بنُ بَرَخِيَّا، ويقالُ: زَكَرِيَّا بنُ دانَ، ويقالُ: زَكَرِيَّا بنُ أدنَ بنِ مسلمِ بنِ صدوقِ بن نحشانَ بن داوودَ بن سليمانَ بن مسلمِ بن صديقةَ بن بَرَخِيَّا بنِ بلعاطيةَ بن ناحورَ بن شلومَ بن يهوشافاطَ بن آسا بن أَبِيَّا بن رَحَيْعامَ بن سليمانَ بن داوود، أبو يحيىٰ، النبيُّ، عليه السلام، من بني إسرائيل. دخل البَثَنِيَّةَ من أعمال دمشقَ في طلبِ ابنِهِ يحيىٰ. وقيل: إنه كان بدمشقَ حين قُتِلَ ابنُه يحيىٰ. والله أعلم.

وقد قيلَ غيرُ ذٰلك في نسبه، ويُقال فيه: زَكَرِيَّا؛ بالمدِّ والقَصْر، ويقال: زكري أيضًا.

[زكريا عليه السلام يسأل ربه الذرية الطيبة]:

والمقصودُ: أنَّ الله تعالىٰ أمر رسولَه ﷺ أن يَقُصَّ علىٰ الناس خَبَرَ زكريا عليه السلام وما كان من أمرِهِ؛ حينَ وَهَبَهُ اللهُ ولدًا علىٰ الكِبَرِ، وكانت امرأتُهُ مع ذٰلك عاقرًا في حال شبيبتها، وقد أسنَّتْ أيضًا، حتىٰ لا ييأَسَ أحدٌ من فضل اللهِ ورحمتِهِ ولا يَقْنَطَ من فضلِهِ تعالىٰ وتقدَّسَ.

فقال تعالىٰ: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم: ٢-٣]: قال قَتادةُ عند تفسيرها: إن الله يعلمُ القلبَ النقيَّ ويسمعُ الصوتَ الخفيَّ. وقال بعضُ السلف: قام من الليل، فنادىٰ ربَّه مناداةً أسرَّها عمَّنْ كان حاضرًا عنده مُخافتةً، فقال: يا رب! يا رب! يا رب! فقال الله: لبيك، لبيك، لبيك.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤]؛ أي: ضَعُفَ وخار من الكِبَرِ. ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤]: استعارةٌ من اشتعال النار في الحطب؛ أي: غَلَبَ علىٰ سوادِ الشعرِ شيبُه؛ كما قال ابنُ دُريد في مقصورته:

أمـا تَـرَى رَأسِـيَ حـاكـى لَـوْنُـهُ   طـرَّةَ[(2)] صُبْـح تَـحْـتَ أذْيـال الـدُّجـا

---

(١) (١٩/٤٨)، وفيه اختلاف لا بأس به عما هو مذكورٌ هنا؛ فما أدري والله أيهما أكثر تصحيفًا وتحريفًا؛ مطبوع «البداية والنهاية»، أم مطبوع «تاريخ ابن عساكر»؟! وعلىٰ كل فقد أصلحت في هٰذا النسب بحسب القدرة باعتماد «العهد الجديد» (إنجيل متىٰ/ الأصحاح١)، و«تاريخ الطبري» (١/٣٤٨).

(٢) الطُّرَّة: الجبهة، الناصية، والطرف. وكأن الصبح يدفع بناصيته أذيال الليل.

واشْـتَـعَـلَ الـمُـبْـيَـضُّ في مُـسْـوَدِّهِ مثْلَ اشْتِعال النَّارِ في جَمْرِ الغَضَا[(١)]
وآض[(٢)] عُـوْدُ الـلَّـهْـوِ يَـبْـسًـا ذاوِيًـا مِـنْ بَـعْـدِ مـا قَـدْ كـانَ مَـجَّـاجَ الـثَّـرى

يذكُرُ أنَّ الضَّعْفَ قد استحوذَ عليه باطنًا وظاهرًا. وهٰكذا قال زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾. وقوله ﴿وَلَمْ أَكُنْۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾ [مريم: ٤]؛ أي: ما عوَّدْتني فيما أسألُك إلَّا الإجابةَ.

وكان الباعثُ له علىٰ هٰذه المسألة أنَّه لَمَّا كَفَلَ مريمَ بنتَ عمرانَ بنِ ماثان، وكان كلَّما دَخَلَ عليها مِحَرابَها؛ وجد عندها فاكهةً في غيرِ إبَّانها ولا في أوانِها، وهٰذه من كرامات الأولياءِ، فعلمَ أنَّ الرزَّاقَ للشيء في غير أوانِه قادرٌ علىٰ أن يَرْزُقَه ولدًا وإنْ كان قد طَعَنَ في سنه، ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

وقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم: ٥]: قيل: المرادُ بالموالي العَصَبَةُ، وكأنَّه خاف من تصرُّفِهم بعده في بني إسرائيلَ بما لا يوافِقُ شرعَ الله وطاعَتَه، فسأل وجودَ ولدٍ من صُلبه يكون بَرًّا تَقِيًّا مرضِيًّا، ولهٰذا قال: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ [مريم: ٥]؛ أي: من عندك بحولك وقوتك. ﴿وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي﴾ [مريم: ٦،٥]؛ أي: في النبوَّةِ والحكم في بني إسرائيل. ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: ٦]؛ يعني: كما كان آباؤه وأسلافُهُ من ذريَّةِ يعقوب أنبياءَ؛ فاجْعَلْه مثلَهم في الكرامة التي أكرمْتَهم بها من النبوَّةِ والوحي، وليس المراد هاهنا وراثةَ المال؛ كما زعم ذٰلك من زعمهُ من الشيعةِ ووافقَهم ابنُ جريرٍ[(٣)] هاهنا وحكاه عن أبي صالح من السلفِ؛ لوجوهٍ:

أحدُها: ما قدَّمْناه عند قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ﴾ [النمل: ١٦]؛ أي: في النبوَّة والملك؛ لِما ذَكَرْنا في الحديث المتَّفق عليه بين العلماءِ، المرويِّ في الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من طرقٍ عن جماعة من الصحابةِ: أنَّ رسولَ الله ﷺ؛ قال: «**لا نُورَثُ؛ ما تَرَكْنا فهو صدقةٌ**»[(٤)].

---

(١) الغضا: نوع من أنواع شجر البوادي.

(٢) آخر: صار.

(٣) قلت: إنما مال ابن جرير في «التفسير» (٨/ ٣٠٨/ مريم٦) إلىٰ الجمع بين وراثة المال ووراثة النبوة.

(٤) رواه: البخاري (٥٧- الخمس، ١- فرض الخمس، ٦/ ١٩٦/ ٣٠٩٢ -٣٠٩٤)، ومسلم (٣٢- الجهاد، ١٥و١٦ - باب، ٣/ ١٣٧٦/ ١٧٥٧-١٧٦١)؛ من حديث أبي بكر وعمر وعائشة وأبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

فهٰذا نصٌّ علىٰ أنَ رسول الله ﷺ لا يورث، ولهٰذا منع الصديقُ أن يُصْرَفَ ما كان يختصُّ به في حياته إلىٰ أحدٍ من ورثِته، الذين لولا هٰذا النصُّ؛ لَصُرِفَ إليهم، وهم ابنتُه فاطمةُ وأزواجُهُ التسعُ وعمُّه العباس رضي الله عنهم، واحتجَّ عليهم الصديقُ في منعِهِ إيَّاهم بهٰذا الحديث، وقد وافقه علىٰ روايتِهِ عن رسول الله ﷺ عمرُ بن الخطَّابِ وعثمانُ بنُ عفَّانَ وعليُّ بن أبي طالب والعباسُ بن عبدُ المطلب وعبدُالرحمٰن بن عوفٍ وطلحةُ والزبيرُ وأبو هريرةَ وآخرون رضي الله عنهم[١].

الثاني: أنَّ الترمذيَّ رواه بلفظٍ يعمُّ سائرَ الأنبياء: «**نحنُ معاشِرَ الأنبياءِ لا نورَثُ**». وصحَّحه[٢].

الثالث: أنَّ الدُّنيا كانت أحقرَ عند الأنبياءِ من أن يَكْنِزوا لها أو يَلْتَفِتوا إليها أو يُهِمَّهم أمرُها حتىٰ يسألوا الأولادَ لِيحوزوها بعدَهم؛ فإنَّ مَنْ لا يصلُ إلىٰ قريبٍ من منازِلِهم في الزَّهادةِ لا يهتمُّ بهٰذا المقدارِ أنْ يسألَ ولدًا يكونُ وارثًا له فيها.

الرابع: أنَّ زكريَّا عليه السلام كان نجَّارًا يعمل بيدِهِ ويأكلُ من كسبها؛ كما كان داوودُ عليه السلام يأكلُ من كسبِ يده[٣]، والغالبُ -ولا سيَّما مِن مَثْل حال الأنبياء- أنَّه لا يُجْهِدُ نفسَه في العمل إجهادًا يستفضِلُ منه مالًا يكون ذخيرةً له [ولِمَنْ] يَخْلُفُه من بعدِهِ. وهٰذا أمرٌ بيِّنٌ واضحٌ لكلِّ من تأمَّلَه وتدبَّرَه وتفهَّمَه إن شاء الله.

قال الإمام أحمدُ: حدثنا يزيدُ (يعني: ابنَ هارون)، أنبأنا حمادُ بن سلمةَ، عن ثابتٍ، عن أبي رافع، عن أبي هريرةَ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**كان زَكَرِيَّا نجَّارًا**»[٤]. وهٰكذا رواه مسلمٌ وابنُ ماجه من غير وجهٍ عن حمادِ بن سلمةَ... به.

---

(١) موافقة عثمان وعلي وطلحة والزبير والعباس وابن عوف وسعد جاءت ضمن حديث عمر رضي الله عنهم جميعًا؛ حيث قال لهٰؤلاء الرهط: أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض؛ هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركنا صدقة»؟ فقالوا: قد قال ذلك.

(٢) لم أجده بهٰذا اللفظ عند الترمذي ولا عند غيره من الستة، وإنما رواه أحمد (٢/ ٤٦٣): ثنا وكيع، عن سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنا معاشر الأنبياء...**» فذكره. وسنده صحيح علىٰ شرط الشيخين.

(٣) تقدم هٰذا الكلام وتخريجه في (ص٥٢٩) في قصة داوود عليه السلام.

(٤) رواه: أحمد: (٢/ ٢٩٦و٤٠٥و٤٨٥)، ومسلم (٤٣- الفضائل، ٤٥- من فضائل زكريا، ٤/ ١٨٤٧/ ٢٣٧٩)، وابن ماجه (١٢- التجارات، ٥- الصناعات، ٢/ ٧٢٧/ ٢١٥٠).

۞ [الملائكة تبشر زكريا بيحيى عليهما الصلاة والسلام]:

وقوله: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ٧﴾ [مريم: ٧]: وهٰذا مفسَّرٌ بقوله: ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩﴾ [آل عمران: ٣٩].

فلمَّا بُشِّرَ بالولد وتحقَّق البشارة؛ شرع يستعلمُ علىٰ وجه التعجُّبِ وجودَ الولد له والحالةُ هٰذه: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨﴾ [مريم: ٨]؛ أي: كيف يوجدُ ولدٌ من شيخ كبير؟! قيل: كان عمرُهُ إذ ذاك سبعًا وسبعين سنة. والأشبهُ -والله أعلم- أنَّه كان أسنَّ من ذٰلك. ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾؛ يعني: وقد كانتِ امرأتي في حال شبيبتِها عاقرًا لا تلدُ! والله أعلم؛ كما قال الخليلُ: ﴿أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ٥٤﴾ [الحجر: ٥٤]، وقالت سارةُ: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾ [هود: ٧٢-٧٣].

وهٰكذا أُجيب زكريَّا عليه السلام؛ قال له المَلَكُ الذي يوحىٰ إليه بأمرِ ربِّه: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ [مريم: ٩]؛ أي: هٰذا سهلٌ يسيرٌ عليه. ﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ٩﴾ [مريم: ٩]؛ أي: قُدْرَتُهُ أوجدَتْك بعد أنْ لم تكنْ شيئًا مذكورًا، أفلا يوجَدُ منك ولدٌ وإن كنت شيخًا؟!

وقال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠]: ومعنىٰ إصلاح زوجتِهِ أنَّها كانت لا تحيضُ فحاضَتْ. وقيل: كان في لسانها شيءٌ؛ أي: بذاءةٌ[1]!

﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾ [مريم: ١٠]؛ أي: علامةً علىٰ وقتِ تَعلُّقِ منِّي المرأةُ بهٰذا الولد المبشَّر به. ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠﴾ [مريم: ١٠]: يقولُ: علامةُ ذٰلك أنْ يَعْتَرِيَكَ سَكْتٌ لا تنطقُ معه ثلاثةَ أيام إلَّا رمزًا، وأنت في ذٰلك سويُّ الخَلْقِ صحيح المِزاج معتدِلُ البنيةِ. وأُمِرَ بكَثْرَةِ الذِّكْرِ في هٰذه الحال بالقلب، واستحضارِ ذٰلك بفؤادِهِ بالعشيِّ والإبكارِ.

فلمَّا بُشِّرَ بهٰذه البشارة؛ خرج مسرورًا بها علىٰ قومه من محرابه، ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ

---

(١) والأول أولىٰ؛ لمناسبته لسياق الكلام أولاً، ولأن اتهام زوجات الأنبياء بمثل هٰذا لا يجوز بمجرد الظنون والأوهام؛ فإن الظن لا يغني من الحق شيئًا.

وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: ١١]: والوحي هاهنا هو الأمرُ الخفيُّ: إمَّا بكتابةٍ؛ كما قاله مجاهدٌ والسُّدِّيُّ. أو إشارةٍ؛ كما قاله مجاهدٌ أيضًا ووهبٌ وقَتادةُ. قال مجاهدٌ وعِكرمةُ ووَهْبٌ والسُّدِّيُّ وقَتادةُ: اعتُقِلَ لسانُه من غير مرض. وقال ابنُ زيدٍ: كان يقرأ ويُسَبِّحُ، ولٰكنْ لا يستطيعُ كلامَ أحدٍ.

۞ [ما جاء من خبر الصبي التقي البار]:

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم: ١٢]: يخبرُ تعالىٰ عن وجود الولدِ وَفْقَ البشارةِ الإلٰهية لأبيه زكريَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنَّ الله علَّمه الكتابَ والحكمةَ وهو صغيرٌ في حال صباه. قال عبدُالله بنُ المبارك: قال معمرٌ: قال الصبيانُ ليحيىٰ بن زكريَّا: اذْهَبْ بنا نلعبْ! فقال: ما للَّعبِ خُلِقْنا. قال: وذٰلك قولُه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾.

وأمَّا قوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [مريم: ١٣]؛ فروىٰ ابنُ جرير(١) عن: عمرو بن دينارٍ، عن عِكرمةَ، عن ابن عباس: أنَّه قال: لا أدري ما الحنانُ؟ وعن ابن عباس ومجاهدٍ وعِكرمةَ وقَتادةَ والضَّحاكِ: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾؛ أي: رحمةً من عندنا، رحمنا بها زكريَّا، فَوَهَبْنا له هٰذا الولدَ. وعن عكرمةَ: ﴿وَحَنَانًا﴾؛ أي: محبةً عليه. ويُحتمل أن يكونَ ذٰلك صفةً لِتَحَنُّنِ يحيىٰ علىٰ الناس، ولا سيَّما علىٰ أبويه، وهو محبَّتُهما والشفقةُ عليهما وبِرُّه بهما. وأمَّا الزَّكاةُ؛ فهو طهارةُ الخُلُقِ وسلامتُهُ من النقائص والرذائل. والتَّقْوىٰ: طاعةُ الله بامتثال أوامرِهِ وتركِ زواجرِهِ.

ثم ذكر بِرَّهُ بوالديه، وطاعتَه لهما أمرًا ونهيًا، وتَرْكَ عقوقِهما قولًا وفعلًا، فقال: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم: ١٤].

ثم قال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: ١٥]: هٰذه الأوقاتُ الثلاثةُ أشدُّ ما تكون علىٰ الإنسان؛ فإنَّه ينتقلُ في كلٍّ منها من عالم إلىٰ عالم آخر؛ فيفقِدُ الأولَ بعدما كان أَلِفَه وعَرَفَه، ويصير إلىٰ الآخرِ ولا يدري ما بين يديه، ولهٰذا يستهلُّ صارخًا إذا خَرَجَ من بين الأحشاءِ وفارقَ لينها وضَمَّها وانتقلَ(٢) إلىٰ هٰذه الدارِ لِيُكابِدَ همومها وغمَّها! وكذٰلك إذا فارقَ هٰذه الدارَ وانتقلَ إلىٰ عالم البرزخ بينها وبينَ دارِ القرار، وصار بعد الدُّورِ والقصورِ إلىٰ عَرْصَةِ الأمواتِ سكانِ القُبور، وانتظر هناك النفخةَ في الصُّور ليوم البعثِ والنُّشور؛ فمن

(١) في «التفسير» (٨/ ٣١٥/ ٢٣٥٤٩ - ٢٣٥٦٠).

(٢) في جميع الأصول: «وينتقل»! والصواب ما أثبته.

مسرورٍ ومَحْبور، ومن محزونٍ ومَثْبور، وما بين جبيرٍ وكسير، وفريقٍ في الجنَّة وفريقٍ في السعير! ولقد أحسن بعضُ الشعراءِ حيث يقول:

وَلَـدَتْـكَ أُمُّـكَ بـاكِيًا مُسْتَصْرِخًا   والنـاسُ حَـوْلَـكَ يَضْحَكونَ سُـرورا
فـاحْرِصْ لِنَفْسِكَ أَنْ تكونَ إذا بَكَوْا   في يَـوْمِ مَـوْتِـكَ ضاحكًا مَسْرورا

ولمَّا كانت هٰذه المواطنُ الثلاثةُ أشقَّ ما تكونُ علىٰ ابنِ آدم؛ سلَّم اللهُ علىٰ يحيىٰ في كلِّ موطنٍ منها، فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: ١٥]: وقال سعيدُ بنُ أبي عَروبة: عن قَتادة؛ أنَّ الحسنَ قال: إنَّ يحيىٰ وعيسىٰ التقيا، فقال له عيسىٰ: استغفرْ لي؛ أنت خيرٌ مني. فقال له الآخرُ: استغفرْ لي؛ أنت خيرٌ مني. فقال له عيسىٰ: أنت خيرٌ مني؛ سلمتُ علىٰ نَفْسي وسلَّم اللهُ عليك. فعُرِفَ واللهِ فضلُهُما(١).

۞ [ما جاء من خبر السيد الحصور]:

وأمَّا قولُه في الآية الأخرىٰ: ﴿وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: ٣٩]؛ فقيل: المرادُ بالحَصور: الذي لا يأتي النساءَ، وقيل غيرُ ذٰلك، وهو أشبهُ؛ لقوله: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨].

وقد قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عفانُ، حدثنا حمادٌ، أنبأنا عليُّ بن زيدٍ، عن يوسفَ بن مِهْرانَ، عن ابنِ عباس: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **«ما مِنْ أحدٍ مِنْ وَلَدِ آدمَ إلَّا وقد أخْطأَ أو همَّ بخطيئةٍ، ليس يَحْيى بن زكريا، وما ينبغي لأحدٍ [أنْ] يقولَ: أنا خيرٌ من يونُسَ بنِ مَتَّى»**(٢).

---

(١) في «الزهد» للإمام أحمد (ص٩٧): «فعرف الله ﷻ فضلهما»! وهو غير سائغ، اللهم إلا أن تُقرأ: «فعرَّفَ» وتبقىٰ مع ذلك ركيكة. وفي «تفسير ابن جرير» (٨/ ٣١٨/ ٢٣٥٦٨) و«الدر المنثور»: «فعرف والله فضلها»؛ يعني: فعرف عيسىٰ عليه السلام فضل هٰذا السلام. وهو قريب. والله أعلم.

(٢) (صحيح). وقد جاء عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم:

* فرواه: ابن أبي شيبة (٦/ ٣٤٩/ ٣١٩٠٠)، وأحمد (١/ ٢٥٤و٢٩٢)، والبزار (٢/ ٢٧٠/ ١٨٥٠- مختصر الزوائد)، وأبو يعلىٰ (٤/ ٤١٨/ ٢٥٤٤)، والطبراني (١٢/ ١٦٨/ ١٢٩٣٨)، والحاكم (٢/ ٥٩١)، والبيهقي (١٠/ ١٨٦)؛ من طريقين عن علي بن زيد بن جدعان... به، فذكره؛ مطولًا ومختصرًا كما هنا. قال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢١٢): «وفيه علي بن زيد بن جدعان؛ ضعفه الجمهور وقد وثق، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح». فالسند لا بأس به في الشواهد.

* ورواه: ابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٦٤٤/ ٣٤٧٠)، والطبراني في «الأوسط» (٧/ ٢٨٥/ ٦٥٥٢)، =

علي بن زيدِ بن جُدعانَ تكلَّم فيه غيرُ واحدٍ من الأئمَّة، وهو منكرُ الحديث.

= وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٦٥١)؛ من طريقين عن عجاج بن سليمان الرعيني، عن الليث بن سعد، عن محمد بن عجلان، عن القعقاع، عن أبي صالح، عن أبي هريرة... فذكره بنحوه مرفوعًا.

قال الهيثمي (٨/ ٢١٢): «وفيه حجاج بن سليمان الرعيني: وثقه ابن حبان وغيره وضعفه أبو زرعة وغيره، وبقية رجاله ثقات». **قلت**: حجاج مقبول إذا روىٰ عن الثقات، وإلا؛ فضعيف الحديث. هٰذا ما تفيده ترجمته في «الجرح والتعديل» و«الكامل» و«ثقات ابن حبان»؛ فالسند صالح لا بأس به في الشواهد.

* ورواه: البزار (٢/ ٢٧١/ ١٨٥١ - مختصر الزوائد)، وابن جرير في «التفسير» (٣/ ٢٥٥/ ٦٩٧٦)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٦٤٣/ ٣٤٦٤)، وابن المنذر في «تفسيره» (١/ ٣١٧/ آل عمران ٤١- ابن كثير)، والحاكم (٢/ ٣٧٣، ٤/ ٢٤٤)؛ من طرق عن يحيىٰ بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، حدثني ابن العاص... فذكره بنحوه مرفوعًا. وصححه الحاكم علىٰ شرط مسلم، ووافقه الذهبي في الموضع الأول دون الثاني، وقال الهيثمي (٨/ ٢١٢): «رجاله ثقات». قلت: لٰكن اختلفوا علىٰ رواية من الصحابة هل هو عبد الله بن عمرو أو أبوه؟ وهو اختلاف لا يضر كما هو معلوم، وإن كان الأظهر أنه عبد الله؛ كما صرح به البزار في روايته الصحيحة، وربما كان لسعيد فيه روايتان. واختلفوا أيضًا في وقفه ورفعه وإرساله ووصله، والراجح صحة الحديث مسندًا؛ يعني: موصولًا مرفوعًا؛ لأنها زيادة ثقة؛ فتعين الأخذ بها. وسوف يأتي مزيد من الكلام عن هٰذا في الحواشي التالية.

ونخلص أخيرًا إلىٰ أن الحديث صحيح ثابت بمجموع هذه الشواهد، ولا سيما أن بعضها صحيح لذاته، وقد صححه الألباني في «الصحيحة» (٦/ ١٢٠٦/ ٢٩٨٤).

ثم ها هنا لا بد من التعرض له بعد تصحيح الحديث:

فقد قال الحافظ ابن كثير في «التفسير» (١/ ٣١٨/ آل عمران٣٩): «قال القاضي عياض في كتابه «الشفا»: اعلم أن ثناء الله تعالىٰ علىٰ يحيىٰ أنه كان حصورًا: ليس كما قاله بعضهم: إنه كان هيوبًا أو لا ذكر له! بل قد أنكر هٰذا حذَّاق المفسرين ونقَّاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصةٌ وعيبٌ، ولا يليق بالأنبياء ﷺ. وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب؛ أي: لا يأتيها؛ كأنه حصورٌ عنها. **وقيل**: مانعًا نفسه من الشهوات. **وقيل**: ليست له شهوة في النساء. وقد بان لك من هٰذا أنَّ عدم القدرة علىٰ النكاح نقصٌ، وإنما الفضل في كونها موجودة، ثم يمنعها: إما بمجاهدة كعيسىٰ، أو بكفاية من الله ﷻ كيحيىٰ ﷺ. ثم هي في حق من قدر عليها وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه درجةٌ عليا، وهي درجة نبينا ﷺ، الذي يشغله كثرتهن عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة بتحصينهن وقيامه عليهن وإكسابه لهن وهدايته إياهن، بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره، فقال: «حبب إليَّ من دنياكم». هٰذا لفظه. والمقصود أنه مدح ليحيىٰ بأنه حصور؛ ليس أنه لا يأتي النساء، بل معناه كما قاله هو وغيره: أنه معصوم من الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم؛ حيث قال: ﴿هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ﴾ [آل عمران: ٣٨]؛ كأنه قال: ولدًا له ذرية ونسل وعقب. والله ﷻ أعلم» اهـ.

وأقول: هٰذا الوصف الذي ذكر في هٰذا الحديث الصحيح لنبي الله يحيىٰ ﷺ له أحد احتمالين:=

وقد رواه ابنُ خُزيمة والدارقطنيُّ من طريق: أبي عاصم العبَّاداني، عن عليِّ بن زيدِ بن جُدْعانَ... به مطولًا. ثم قال ابن خُزيمة: وليس علىٰ شرطِنا.

وقال ابنُ وَهْبٍ: حدَّثني ابنُ لَهيعة، عن عُقَيْل، عن ابن شهابٍ؛ قال: خرج رسولُ الله ﷺ علىٰ أصحابه يومًا وهم يَتَذاكَرون فضلَ الأنبياء، فقالَ قائلٌ: موسىٰ كليمُ الله. وقال قائلٌ: عيسىٰ رُوحُ الله وكلمتُهُ. وقال قائلٌ: إبراهيمُ خليلُ الله... وهم يذكُرون ذٰلك. فقالَ: «**أين الشهيدُ ابنُ الشهيدِ؛ يَلْبَسُ الوبَرَ ويأكلُ الشجرَ؛ مخافةَ الذنب؟!**». قال ابنُ وَهْبٍ: يريدُ يَحْيىٰ بنَ زكريا[١].

وقد رواه: محمدُ بن إسحاقَ -وهو مدلسٌ-، عن يحيىٰ بن سعيدٍ الأنصاري، عن سعيدِ بن المسيَّبِ، حدثني ابنُ العاص: أنَّه سمعَ رسولَ الله ﷺ يقول: «**كل ابنِ آدم يأتي يومَ القيامةِ وله ذنبٌ؛ إلَّا ما كان من يَحْيى بنِ زكريَّا**». فهٰذا من رواية ابنِ إسحاقَ، وهو من المدلِّسينَ، وقد عنعن هاهنا[٢].

ثم قال عبد الرزاق[٣]: عن معمرٍ، عن قتادةَ، عن سعيدِ بن المسيَّب؛ مرسلاً.

= **فإما أن يكون خَلْقيًّا**؛ فهو عندئذ عيب ونقيصة لا تليق بالأنبياء كما قال القاضي، والمرء لا يحمد عادة بالعجز وعدم القدرة علىٰ النكاح، بل يحمد بالصبر والعفة بعد المجاهدة.

والاحتمال الآخر -وهو المتعين عندي- أن يكون مكتسبًا، وهٰذا هو اللائق بحال سيدنا يحيىٰ ﷺ؛ من انشغاله منذ طفولته بأمر ربه، وإقباله التام علىٰ نفسه بالتطهير والتزكية، وابتعاده المطلق عما ظهر من الفواحش وبطن، ونأيه الملفت للنظر عن اللهو واللعب وإضاعة الأوقات، مع ضميمة الحكمة والحنان والحلم والعقل... فمن المقبول علميًّا أن مثل هذه الحال قد تحول دون نمو الأعضاء الجنسية وتضخمها، وبالتالي تورث صاحبها انصرافًا تامًّا عن النساء. والله أعلىٰ وأعلم.

(١) (**ضعيف**). رواه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٧/ ٢٤٤ - مختصر ابن منظور)، ورواية عبد الله بن وهب عن ابن لهيعة صحيحة. ولٰكنه مرسل كما ترىٰ.

(٢) **قلت**: تضعيف الحديث بتدليس ابن إسحاق وعنعنته مردود من وجهين:

أولهما: أن ابن إسحاق قد عنعن عند ابن جرير وفي إحدىٰ روايتي الحاكم، ولٰكنه صرح بالتحديث في رواية الحاكم الأولىٰ (٢/ ٢٧٣)، فانتفت شبهة التدليس.

والآخر: أنه لم ينفرد به، بل تابعه ابن مسهر عند ابن المنذر، والثوري عند البزار.

وقد فصلت القول في تخريج هٰذا الحديث قبل قليل.

(٣) في «التفسير» (٢/ ٧/ ١٧٥١).

ثم رأيتُ ابنَ عساكر ساقَه من طريق: أبي أسامة، عن يحيىٰ بن سعيدٍ الأنصاريِّ[١].

ثم قد رواهُ ابنُ عساكر من طريق: إبراهيمَ بن يعقوبَ الجوزجانيِّ خطيبِ دمشقَ، حدثنا محمدُ بن الأصبهانيِّ، حدثنا أبو خالد الأحمرُ، عن يحيىٰ بن سعيدٍ، عن سعيد بن المسيَّب، عن عبد الله بن عمرٍو؛ قال: ما أحدٌ إلَّا يَلْقىٰ اللهَ بذنبٍ؛ إلَّا يحيىٰ بن زكريَّا. ثم تلا: ﴿وَحَصُورًا وَنَبِيًّا﴾ [آل عمران: ٣٩]. ثم رفع شيئًا من الأرض، فقالَ: ما كان معه إلَّا مثلُ هٰذا، ثم ذُبِحَ ذَبْحًا. وهٰذا موقوف من هٰذه الطريق، وكونُهُ موقوفًا أصحُّ من رفعِهِ. والله أعلم[٢].

وأوردهُ ابنُ عساكر من طرقٍ عن معمر؛ [مرسلًا و][٣] من ذٰلك ما أورده من حديث:

---

(١) يعني: فأرسله. والحافظ ابن كثير يرحمه الله يريد أن يعلَّ الحديث بالاختلاف فيه وصلاً وإرسالاً، ولا وجه لإعلاله بذلك؛ لعدة أسباب:

أولها: أنه قد صح موصولًا من عدة أوجه؛ فالوصل زيادة ثقة ينبغي الأخذ بها.

والثاني: أن سعيد بن المسيب جل روايته عن الصحابة، ولذلك قبل كثير من أهل العلم مراسيله واحتجوا بها. وانظر: «شرح علل الترمذي» (١/ ٣٠١) للحافظ ابن رجب.

والثالث: أن الحديث قد صح من رواية سعيد عن عبد الله بن عمرو موقوفًا كما سيأتي، فظهر أن ابن المسيب إنما أخذه عنه.

والرابع: أن الحديث قد صح مرسلًا من وجوه أخرىٰ عن الحسن ويحيىٰ بن جعدة؛ فهٰذا يقوي أن له أصلًا مرفوعًا صحيحًا.

والخامس: أن للحديث شاهدين مرفوعين ضعفهما يسير؛ فلا ريب أن هٰذا يرجح القول بوصله مرفوعًا.

(٢) **قلت**: إن أراد الحافظ ابن كثير رحمة الله عليه بهٰذا أنه صحيح أيضًا مرفوعًا؛ فذلك ما كنا نبغي، ولا يهمنا بعد صحته مرفوعًا إن كان الموقوف أكثر أو أقل صحة. وإن أراد تضعيفه مرفوعًا؛ فهو مردود من وجوه:

فأولها: أني لم أقف عليه موقوفًا إلا من طريقين: هذه، وهي عند ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٣٤٩/ ٣١٨٩٨)، وأخرىٰ عند ابن جرير (٣/ ٢٥٥/ ٦٩٧٨). فأما هذه؛ فما هي أقوىٰ من المرفوع؛ فأبو خالد الأحمر سليمان بن حيان صدوق يخطئ كما في «التقريب»؛ فمثله لا يقارن بسفيان ولا بابن إسحاق إذا صرح بالتحديث. وأما الأخرىٰ؛ فضعيفة.

والثاني: أن من رفعه -بحسب اطلاعي- أكثر ممن وقفه.

والثالث: أن نصب الخلاف بين الرفع والوقف هنا غير مستساغ، بل الأصل الجمع بينهما، والأخذ بزيادة الثقة، وأن الموقوف يدعم المرفوع ويقويه.

والرابع: أنه -علىٰ فرض صحة وقفه- له حكم الرفع؛ لأنه لا يقال من جهة الرأي، وما هو من الإسرائيليات؛ ففيه كلام لا يمكن أن ينسب إلا للنبي ﷺ.

(٣) زيادة لا بدَّ منها حتىٰ يستوي الكلام، وإلا؛ فلا علاقة لمعمر كما ترىٰ برواية إسحاق بن بشر، وليس بينهما =

إسحاقَ بنِ بشرٍ -وهو ضعيفٌ-، عن عثمان بن ساج، عن ثورِ بن يزيدَ، عن خالدِ بن مَعْدانَ، عن معاذٍ، عن النبي ﷺ... بنحوه[(١)].

۞ [ذكر شيء من أخبار يحيى عليه السلام]:

وروي من طريق: أبي داوودَ الطيالسيِّ وغيره، عن الحكم بن عبد الرحمٰن بن أبي نعم، عن أبيه، عن أبي سعيد؛ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**الحسنُ والحسينُ سيِّدا شبابِ أهل الجنَّة؛ إلَّا ابني الخالةِ يَحْيى وعيسى عليهما السلام**»[(٢)].

وقال أبو نعيمٍ الحافظُ الأصبهانيُّ[(٣)]: حدثنا إسحاقُ بنُ أحمدَ، حدثنا إبراهيمُ بنُ يوسفَ، حدثنا أحمدُ بن أبي الحواري، سمعت أبا سليمانَ يقولُ: خرج عيسىٰ ابنُ مريم ويَحْيىٰ بن زَكَرِيَّا يتماشَيان، فصدم يَحْيىٰ امرأةً، فقال له عيسىٰ: يا ابن خالة! لقد أصبتَ اليوم خطيئةً ما أظنُّ أنَّه يُغْفَرُ لك أبدًا. قال: وما هي يا ابن خالة؟! قال: امرأةٌ صدمتَها. قال: واللهِ؛ ما شعرتُ

= صلة إلا الإرسال؛ فإن روايات معمر لحديث ابن عمرو السابق كلها مرسلة، ورواية إسحاق بن بشر لحديث معاذ مرسلة. فيكون معنىٰ كلام الحافظ ابن كثير: ومن ذلك ما أورده الحافظ ابن عساكر مرسلًا من حديث إسحاق... الخ.

(١) (ضعيف جدًّا). لم أقف عليه في مختصر ابن عساكر، والأصل لم يطبع بعد. وعلىٰ كلٍ؛ فقد أحسن الحافظ ابن كثير بإيراد سنده؛ فإن فيه: خالد بن معدان عن معاذ مرسل، وربما كان بينهما رجلان. وعثمان بن ساج فيه ضعف. وإسحاق بن بشر: كذاب متروك. فسقط الحديث علىٰ إرساله.

(٢) (حسن). رواه: النسائي في «الكبرىٰ» (٣م٣٩٠/ ٤١٣٤- تحفة)، وابن حبان (١٥/ ٤١١/ ٦٩٥٩)، والطبراني (٣/ ٣٨/ ٢٦١٠)، والحاكم (٣/ ١٦٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٧١)، والخطيب في «التاريخ» (٤/ ٢٠٧)، وابن عساكر في «التاريخ» (١٤/ ١٣٥)؛ كلهم من طريق الحكم بن عبد الرحمن بن أبي نعم (ووقع في جميع الأصول: نعيم وله وجه، والأصوب ما أثبته)... فذكره.

قال الحاكم: «قد صح من أوجه كثيرة، وأنا أتعجب أنهما لم يخرجاه». وتعقبه الذهبي بقوله: «الحكم فيه لين».

قلت: ضعفه ابن معين، وقال أبو حاتم: صالح الحديث، وقوَّاه ابن حبان، ووثقه الفسوي. واختصر الحافظ حاله فقال: «صدوق يخطئ». فمن كانت هذه حاله؛ فحديثه لا بأس به في الشواهد علىٰ الأقل.

وله شاهد من حديث علي عند الطبراني (٣/ ٣٦/ ٢٦٠٣). قال الهيثمي (٩/ ١٨٥): «ورجاله ثقات وفي بعضهم ضعف». قلت: فيه جابر الجعفي وأسباط بن نصر: ضعيفان. وعبد الله بن يحيىٰ: لم أعرفه.

وعليه؛ فالحديث بطوله حسن. وأما القطعة المختصة بالحسن والحسين منه؛ فصحيحه غاية، قد جاءت عن عدد من الصحابة، وقد خرجها الألباني في «الصحيحة» (٢/ ٤٢٣/ ٧٩٦) عن عشرة من الصحابة؛ فلينظره من شاء.

(٣) في «الحلية» (٩/ ٢٦٨). وعنه ابن عساكر في «التاريخ» (٢٧/ ٢٤٥- منظور).

بها. قال: سبحانَ الله! بدنُك معي؛ فأينَ روحُكَ؟! قال: معلَّقٌ بالعرشِ، ولو أنَّ قلبي اطمأنَّ إلىٰ جبريلَ؛ لظننتُ أنِّي ما عرفتُ الله طرفةَ عينٍ. فيه غرابةٌ، وهو من الإسرائيلياتِ.

وقال إسرائيلُ(١): عن أبي حصين، عن خيثمةَ؛ قال: كان عيسىٰ ابنُ مريم ويحيىٰ بنُ زكَرِيَّا ابني خالةٍ، وكان عيسىٰ يَلْبَسُ الصوفَ وكان يحيىٰ يَلْبَسُ الوبرَ، ولم يكنْ لواحدٍ منهما دينارٌ ولا درهمٌ ولا عبدٌ ولا أمةٌ ولا مأوىٰ يأويانِ إليه، أينما جَنَّهما الليلُ؛ أويا، فلمَّا أرادا أن يتفرَّقا؛ قال له يحيىٰ: أوصِني! قال: لا تَغْضَبْ! قال: لا أستطيعُ إلَّا أنْ أغضبَ. قال: لا تَقْتَنِ مالًا. قال: أمَّا هٰذه؛ فعسىٰ.

۞ [ذكر الخلاف في موت زكريا عليه السلام]:

وقد اختلفتِ الروايةُ عن وَهْب بن مُنَبِّهٍ: هل ماتَ زكريَّا عليه السلام موتًا أو قُتِلَ قتلًا؟ علىٰ روايتينِ:

فروىٰ عبدُالمنعم بنُ إدريسَ بنِ سنانٍ، عن أبيه، عن وَهْبِ بن مُنَبِّهٍ: أنَّه قال: هَرَبَ من قومِهِ، فدخل شجرةً، فجاؤوا، فوضَعوا المنشارَ عليهما، فلمَّا وَصَلَ المنشارُ إلىٰ أضلاعِهِ؛ أنَّ، فأوحىٰ الله إليه: لئنْ لم يَسْكُنْ أنينُك؛ لأقْلِبَنَّ الأرض ومَنْ عليها. فَسَكَنَ أنينُه حتىٰ قُطِعَ باثنتين. وقد روي هٰذا في حديثٍ مرفوع سنوردُه بعدُ إنْ شاء الله.

وروىٰ إسحاقُ بن بشرٍ، عن إدريسَ بن سنانٍ، عن وهبٍ: أنَّه قال: الذي انْصَدَعَتْ له الشجرةُ هو إشَعْيا، فأمَّا زكريَّا؛ فمات موتًا.

فالله أعلم.

۞ [ذكر طرف من فضائل يحيى عليه السلام وشمائله]:

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا عفانُ، أنبأنا أبو خَلَفٍ موسىٰ بنُ خلفٍ -وكان يُعَدُّ من البُدَلاء(٢) -، حدثنا يحيىٰ بنُ أبي كَثيرٍ، عن زيدِ بن سلاَّمٍ، عن جدِّه ممطورٍ، عن الحارث الأشعريِّ: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ أمَرَ يحيى بنَ زَكَرِيا بخمس كلماتٍ أنْ يعملَ بهنَّ**

(١) ما زال الكلام لأبي نعيم، وعنه ابن عساكر.

(٢) تعبير يستفاد منه كثرة الصلاح والعبادة والتقوىٰ والزهد، وأما أحاديث البدلاء والأقطاب والأغواث والنقباء والنجباء والأوتاد؛ فكلها باطلة علىٰ رسول الله ﷺ. كما ذكره ابن القيم رحمة الله عليه في «المنار المنيف» (١٣٦/ ٣٠٧).

وأن يأمرَ بني إسرائيل أنْ يَعْملوا بهنَّ، وكادَ أن يُبطئَ، فقال له عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنَّك قد أُمِرْتَ بخمسِ كلماتٍ أنْ تعملَ بهنَّ وتأمُرَ بني إسرائيلَ أن يَعْمَلوا بهنَّ؛ فإمَّا أنْ تُبَلِّغَهُنَّ وإمَّا أنْ أُبَلِّغَهُنَّ. فقالَ: يا أخي! إنِّي أخشى إن سَبَقْتَني أن أعذَّبَ أو يُخْسَفَ بي». قالَ: «فَجَمَعَ يحيى بني إسرائيلَ في بيتِ المقدس، حتى امتلأَ المسجِدُ، فقعد على الشُّرَفِ، فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه، ثم قال: إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أمرني بخمس كلماتٍ أنْ أعملَ بهنِّ وآمُرَكُمْ أن تَعْمَلوا بهنَّ: وأولُهنَّ أنْ تعبُدوا اللهَ لا تُشْرِكوا به شيئًا؛ فإنَّ مَثَلَ ذلك مَثَلُ منِ اشْترى عبدًا من خالصِ مالِهِ بورِقٍ أو ذهبٍ، فجعلَ يعملُ ويؤدِّي غلَّتَهُ إلى غيرِ سيِّده؛ فأيُّكم يسرُّه أن يكونَ عبدُهُ كذلك؟! وإنَّ اللهَ خلقَكَم ورزَقَكم؛ فاعبُدوه ولا تشركوا به شيئًا. وآمرُكُم بالصَّلاةِ؛ فإنَّ الله ينصِبُ وجهَه قِبَلَ عبدِهِ ما لم يلتفتْ؛ فإذا صليتُم؛ فلا تَلْتَفِتوا. وآمرُكُم بالصيام؛ فإنَّ مَثَلَ ذلك كَمَثَلِ رجل معه صُرَّةٌ من مسكٍ في عِصابةٍ؛ كلُّهم يَجِدُ ريحَ المِسْكِ، وإنَّ خُلوفَ فم الصائم أطيبُ عند الله من ريح المسكِ. وآمركم بالصدقةِ؛ فإنَّ مَثَلَ ذلك كَمَثَلِ رجل أَسَرَهُ العدوُّ، فشدُّوا يَدَهُ إلى عُنُقِهِ وقدَّموه لِيَضْرِبوا عُنُقه، فقال: هل لكُم أنْ أفتَدِيَ نفسي منكُم؟ فجعل يفتدي نفسَه منهُم بالقليل والكثيرِ حتىٰ فكَّ نفسَه. وآمرُكُم بذكرِ الله عَزَّ وَجَلَّ كثيرًا؛ فإنَّ مَثَلَ ذلك كمثل رجل طَلَبَه العدُّو سِراعًا في أثَرِه، فأتى حِصْنًا حصينًا، فتحصَّنَ فيه، وإنَّ العبدَ أحصنُ ما يكونُ من الشَّيطانِ إذا كان في ذِكْرِ الله عَزَّ وَجَلَّ». قال: وقال رسولُ اللهِ ﷺ: «وأنا آمُرُكُمْ بخمسٍ اللهُ أَمَرَني بهنَّ: بالجماعةِ والسَّمْعِ والطَّاعةِ والهجرةِ والجهادِ في سبيل الله؛ فإنَّ مَنْ خرجَ عن الجماعة قِيدَ شِبْرٍ؛ فقد خَلَعَ رِبقَ الإسلام[١] من عُنُقِهِ؛ إلاَّ أنْ يرجِعَ، ومن دعا بدعوى الجاهليَّةِ؛ فهو من جُثا جهنمَ»[٢]. قالوا[٣]: يا رسولَ اللهِ! وإن صام وصلَّىٰ؟ قال: «وإنْ صام وصلَّى وزَعَمَ أنَّه مسلمٌ، ادعوا المسلمينَ بأسمائِهِم، بما سمَّاهُمُ الله عَزَّ وَجَلَّ، المسلمين المؤمنينَ عبادَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»[٤].

---

(١) ربق الإسلام: جمع ربقة، وهي العروة، وهي العقدة في الحبل.

(٢) جُثا جهنم: حجارتها.

(٣) في جميع الأصول: «قال»! وهي ضعيفة هكذا. وما أثبته رواية أحمد. وفي بعض مصادر التخريج: «قالوا». وفي بعضها: «قيل». وفي أخرىٰ: «قال رجل». وكلها صحيح سليم؛ إلا ما جاء في الأصول هنا.

(٤) (صحيح). رواه: الطيالسي (١١٦١و١١٦٢)، وأحمد (٤/ ١٣٠و٢٠٢)، والترمذي (٤٥- الأمثال، ٣- مثل الصلاة والصيام، ٥/ ١٤٨/ ٢٨٦٣و٢٨٦٤)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٣/ ٣/ ٣٢٧٤-تحفة) ببعضه، وأبو يعلىٰ =

وهٰكذا رواه أبو يعلىٰ عن: هدبَة بن خالدٍ، عن أبانَ بن يزيدَ، عن يحيىٰ بن أبي كثير... به.

وكذٰلك رواه الترمذيُّ من حديث: أبي داوودَ الطيالسيِّ وموسىٰ بن إسماعيلَ، كلاهما عن أبانَ بن يزيد العطار... به.

ورواه النسائي[1] عن: هشام بن عمارٍ، عن محمد بن شُعيبِ بن سابورَ، عن معاوية بن سلَّام، عن أخيه زيدِ بن سلَّام، عن أبي سلَّام، عن الحارث الأشعري... به.

ورواه الحاكمُ من طريق: مروانَ بن محمدٍ الطَّاطَرِيِّ، عن معاوية بن سلَّام، عن أخيه... به. ثم قال: تفرد به مروان الطَّاطَرِيُّ عن معاويةَ بن سلَّام. قلتُ: وليس كما قالَ.

ورواه الطبرانيُّ: عن محمدِ بن عبدة، عن أبي توبةَ الربيع بنِ نافع، عن معاوية بن سلَّام، عن أبي سلَّام، عن الحارث الأشعريِّ... فذكر نحوَه. فسقط ذِكْرُ: زيد بن سلام، عن أبي سلام، عن الحارث الأشعري... فذكر نحوَ هٰذه الروايةِ[2].

ثم روىٰ الحافظُ ابنُ عساكرَ[3] من طريقِ: عبد الله بن أبي جعفرٍ الرازيِّ، عن أبيه، عن

= (٣/ ١٤٠/ ١٥٧١)، وابن خزيمة (٣/ ١٩٥/ ٤٨٣ و٩٣٠و١٨٩٥)، وابن حبان (١٤/ ١٢٤/ ٦٢٣٣)، والطبراني (٣/ ٢٨٥/ ٣٤٢٧-٣٤٣١)، والحاكم (١/ ١١٧و١١٨و٢٣٦و٤٢١)؛ من طرق عن يحيىٰ بن أبي كثير ومعاوية بن سلام، عن زيد بن سلام... به، فذكره.

وهٰذا سند صحيح، ويحيىٰ بن أبي كثير قد صرح بالتحديث عند أبي يعلىٰ وابن حبان فانتفت شبهة التدليس. وقد تابعه معاوية بن سلام كما ترىٰ. والحديث: قال الترمذي في الموضعين: «حسن صحيح غريب». قال: «قال محمد بن إسماعيل: الحارث الأشعري له صحبة وله غير هٰذا الحديث». وقال الحاكم: «هٰذا حديث صحيح علىٰ ما أصلناه في الصحابة إذا لم نجد لهم إلا راويًا واحدًا». وقال الذهبي: «ولم يخرجاه لأن الحارث تفرد عنه أبو سلام». ثم أعاد مثله في الموضع الثاني ووافقه الذهبي. ثم صححه في الموضع الأخير علىٰ شرط الشيخين ووافقه الذهبي! وأقرهما المنذري في «الترغيب» (١/ ٤٢٠/ ٧٧٢)، وصححه الألباني.

(١) في جميع الأصول: «ورواه ابن ماجه»! وهٰذا سبق قلم من المؤلف رحمة الله عليه أو الناسخ، وإلا؛ فالحديث لم يخرجه ابن ماجه، بل لم يخرج ابن ماجه للحارث الأشعري شيئًا كما في «التحفة» و«التهذيب»، والسند الذي ذكره المؤلف رحمة الله عليه إنما هو للنسائي في «الكبرىٰ»؛ كما في «التحفة». وقد تقدم تخريجه قبل قليل.

(٢) كذا في جميع الأصول! والظاهر أن في هٰذا الكلام سقطًا، وأنه قد تداخلت روايتان فيه واختلط إسناداهما. وإلا؛ فقد جاء السند في «كبير الطبراني» (٣/ ٢٨٧/ ٣٤٣٠) علىٰ الجادة كاملًا لا نقص فيه. فالله أعلم.

(٣) في «التاريخ» (٢٧/ ٢٤٢- مختصر ابن منظور).

الربيع بن أنسٍ؛ قال: ذُكِرَ لنا عن أصحابِ رسول الله ﷺ فيما سَمِعوا من علماءِ بني إسرائيلَ: أنَّ يحيىٰ بنَ زكريَّا أُرْسِلَ بخمس كلماتٍ... وذكر نحوَ ما تقدَّمَ.

وقد ذكروا أنَّ يحيىٰ عليه السلام كان كثيرَ الانفرادِ من الناس، إنَّما كان يأنَسُ إلىٰ البراري، ويأكُلُ من ورقِ الأشجار، ويَرِدُ ماء الأنهار، ويتغذَّىٰ بالجرادِ في بعض الأحيان، ويقول: مَنْ أنعمُ منك يا يحيىٰ؟

وروىٰ ابنُ عساكر(١): أنَّ أبويه خَرَجا في تَطَلُّبِهِ، فوجداه عند بحيرةِ الأردنِّ، فلما اجتَمَعا به؛ أبكاهما بكاءً شديدًا؛ لِما هو فيه من العبادةِ والخوفِ من الله عز وجل.

وقال ابنُ وَهْبٍ: عن مالكٍ، عن حميدِ بن قيس، عن مجاهدٍ؛ قال: كان طعامُ يحيىٰ بنِ زكريَّا العشبَ، وإنَّه كان لَيَبْكي من خشيةِ الله، حتىٰ لو كان القارُ علىٰ عينيه؛ لخرَقَه.

وقال محمدُ بنُ يحيىٰ الذُّهْلِيُّ: حدثنا الليثُ، حدثني عقيلٌ، عن ابن شهابٍ؛ قال: جلستُ يومًا إلىٰ أبي إدريسَ الخَوْلانيِّ وهو يَقُصُّ، فقال: ألا أخبِرُكم بمَنْ كان أطيبَ الناس طعامًا؟ فلمَّا رأىٰ الناسَ قد نظروا إليه؛ قالَ: إنَّ يحيىٰ بن زكريَّا كان أطيبَ الناس طعامًا، إنَّما كان يأكلُ مع الوحشِ كراهةَ أنْ يُخالِطَ الناس في معايِشِهم.

وقال ابنُ المباركِ: عن وُهَيْبِ بن الوردِ؛ قال: فَقَدَ زكريَّا ابنَه يحيىٰ ثلاثةَ أيام، فخرج يلتمسُهُ في البريَّةِ؛ فإذا هو قد احتفر قبرًا وأقام فيه يبكي علىٰ نفسِهِ. فقال: يا بنيَّ! أنا أطلبُكَ من ثلاثةِ أيَّام وأنت في قبر قدِ احتفرتَه قائمٌ تبكي فيه؟! فقال: يا أبتِ! ألستَ أنت أخبرتَني أنَّ بينَ الجنَّةِ والنار مفازةً لا تُقْطَعُ إلَّا بدموع البكَّائينَ. فقال له: ابكِ يا بنيَّ. فبكيا جميعًا. وهٰكذا حكاه وَهْبُ بن مُنَبِّهٍ ومجاهدٌ بنحوِهِ.

وروىٰ ابنُ عساكرَ(٢) عنه أنَّه قال: إنَّ أهل الجنَّةِ لا ينامونَ لِلَذَّةِ ما هم فيه من النعيم؛ فكذا ينبغي للصِّدِّيقينَ ألَّا يناموا لِما في قلوبِهِم من نعيم المحبَّة لله عز وجل. ثم قال: كم بين النَّعيمينِ وكم بينَهما!

وذكروا أنَّه كان كثيرَ البكاءِ حتىٰ أثَّرَ البكاءُ في خدَّيْهِ من كثرةِ دموعِهِ.

---

(١) انظر لهٰذا وما يليه: «تاريخ ابن عساكر» (٢٧/ ٢٤٦-٢٤٨- منظور).

(٢) في «التاريخ» (٢٧/ ٢٤٧ - مختصر ابن منظور).

۞ بيان سبب قتل يحيى عليه السلام:

وذكروا في قتله أسبابًا:

من أشهرها: أنَّ بعضَ ملوك ذٰلك الزمان بدمشقَ كان يريدُ أن يتزوَّجَ ببعضِ محارِمِه أو مَنْ لا يَحِلُّ له تزوُّجُها[١]، فنهاه يَحْيىٰ عليه السلام عن ذٰلك، فبقيَ في نفسِها[٢] منه. فلمَّا كان بينَها وبينَ الملكِ ما يحبُّ منها؛ استوهبتْ منه دمَ يَحْيىٰ، فوهَبَه لها، فبعثتْ إليه من قَتَلَهُ وجاء برأسِهِ ودمِهِ في طَسْتٍ إلىٰ عندِها، فيقالُ: إنَّها هلكتْ من فورِها وساعتِها.

وقيل: بل أحبَّتْه امرأةُ ذٰلك الملك، وراسلتْه، فأبىٰ عليها، فلمَّا يَئِسَتْ منه؛ تَحَيَّلَتْ في أنِ استوهَبَتْهُ من الملكِ، فتمنَّعَ عليها الملكُ، ثم أجابها إلىٰ ذٰلك، فبعث من قَتَلَهُ وأحضرَ إليها رأسَهُ ودَمَهُ في طَسْتٍ.

وقد ورد معناه في حديث رواه إسحاقُ بن بشر في كتابه «المبتدإ»؛ حيث قالَ: أنبأنا يعقوبُ الكوفيُّ، عن عمرو بن ميمونٍ، عن أبيه، عن ابنِ عباس: أنَّ رسولَ الله ﷺ ليلةَ أُسْرِيَ به رأىٰ زكريَّا في السماءِ، فسلم عليه، وقال له: «**يا أبا يَحْيى! خبِّرْني عن قتلِكَ؛ كيف كانَ؟ ولم قَتَلَكَ بنو إسرائيل؟**» قال: يا محمدُ! أخبِرُكَ أنَّ يحيىٰ كان خيرَ أهل زمانِهِ، وكان أجْمَلَهُم وأصبَحَهم وجهًا، وكان كما قال اللهُ تعالىٰ: ﴿وَحَصُورًا وَنَبِيًّا﴾ [آل عمران: ٣٩]، وكان لا يحتاجُ إلىٰ النساءِ، فهوِيَتْهُ امرأةُ مَلِكِ بني إسرائيل، وكانت بَغِيَّةً، فأرسلتْ إليه، وعَصَمَهُ الله، وامتنعَ يحيىٰ وأبىٰ عليها، فأجمعتْ علىٰ قتل يَحْيىٰ، ولهم عيدٌ يجتمعونَ في كلِّ عام، وكانت سُنَّةُ الملكِ أن يَعِدَ ولا يُخْلِفَ ولا يَكْذِبَ. قال: فخرجَ المَلِكُ إلىٰ العيدِ، فقامت امرأتُهُ فشيَّعتْهُ، وكان بها معجبًا، ولم تَكُنْ تَفْعَلُهُ فيما مضىٰ، فلمَّا أنْ شَيَّعَتْهُ؛ قال الملكُ: سليني! فما سألتِني شيئًا إلَّا أعطيتُكِ. قالت: أريدُ دمَ يَحْيىٰ بنِ زَكَرِيَّا. قال لها سَليني غيرَه. قالت: هو ذاك. قال: هو لكِ. قال: فَبَعَثَتْ جَلاوِزَتَها[٣] إلىٰ يحيىٰ وهو في محرابِهِ يصلِّي وأنا إلىٰ جانِبه أصلِّي. قال: فَذُبِحَ في طَسْتٍ، وحُمِلَ رأسُهُ ودمُهُ إليها. قال: فقال رسول الله ﷺ: «**فما بَلَغَ من صبرِكَ؟**». قال: ما انْفَتَلْتُ

---

(١) في جميع الأصول: «تزويجها»! والصواب ما أثبته.

(٢) يعني: المرأة التي أراد الملك الزواج بها.

(٣) الجلاوزة: جمع جِلْواز، وهو الشرطي.

من صلاتي. قال: فلمَّا حُمِلَ رأسُه إليها ووُضِعَ بين يَدَيْها؛ فلمَّا أمسَوْا؛ خَسَفَ الله بالملكِ وأهل بيتِهِ وحشمِهِ، فلمَّا أصبحوا؛ قالتْ بنو إسرائيلَ: قد غَضِبَ إلٰهُ زكريَّا لزكريَّا؛ فتعالَوْا حتىٰ نَغْضَبَ لمَلِكِنا فَنَقْتُلَ زكريَّا! قال: فخرجوا في طلبي لِيَقْتُلوني، وجاءَنِيَ النذيرُ، فهربتُ منهم، وإبليسُ أمامَهم يدلُّهم عليَّ، فلمَّا تخوفتُ أَلَّا أُعْجِزَهُم؛ عَرَضَتْ لي شجرةٌ فنادَتْني وقالتْ: إليَّ إليَّ! وانصَدَعَتْ لي، ودَخَلْتُ فيها. قال: وجاء إبليسُ حتىٰ أَخَذَ بطرفِ ردائي، والتأمتِ الشجرةُ، وبقي طرفُ ردائي خارجًا من الشجرة، وجاءتْ بنو إسرائيلَ، فقال إبليسُ: أما رأيتُموهُ دَخَلَ هٰذه الشجرة؟! هٰذا طرفُ ردائِهِ، دَخَلَها بسِحرِه! فقالوا: نُحْرِقُ هٰذه الشجرةَ؟ فقال إبليسُ: شُقُّوه بالمنشارِ شقًّا. قال: فشُقِقْتُ مع الشجرةِ بالمنشارِ. قال له النبيُّ ﷺ: «**هل وَجَدْتَ له مَسًّا أو وَجعا؟**». قال: لا؛ إنَّما وَجَدَتْ ذٰلك الشجرةُ التي جَعَلَ الله روحي فيها[١].

هٰذا سياقٌ غريبٌ جدًّا، وحديث عجيبٌ، ورفعُهُ منكرٌ، وفيه ما يُنْكَرُ علىٰ كلِّ حال، ولم يُرَ في شيءٍ من أحاديث الإسراءِ ذِكْرُ زكريَّا عليه السلام إلَّا في هٰذا الحديثِ، وإنَّما المحفوظُ في بعض ألفاظ الصحيح في حديث الإسراءِ[٢]: «**فمررتُ بابني الخالةِ يَحْيى وعيسى، وهما ابنا الخالةِ**». فجاء علىٰ قول الجُمهور؛ كما هو ظاهِرُ الحديث؛ فإنَّ أمَّ يحيىٰ أشياعَ بنتَ عمرانَ أختُ مريمَ بنتِ عمرانَ. **وقيل**: بل أشياعُ -وهي امرأةُ زكريَّا أمُّ يحيىٰ- هي أختُ حَنَّةَ امرأةِ عمرانَ أمِّ مريمَ، فيكونُ يحيىٰ ابنَ خالةِ مريمَ. فالله أعلم.

ثم اخْتُلِفَ في مَقْتَلِ يَحْيىٰ بنِ زكريَّا: هل كان في المسجدِ الأقصىٰ أم بغيرِهِ علىٰ قولين:

فقال الثوريُّ: عن الأعمشِ، عن شِمْر بن عطيَّةَ؛ قال: قُتِلَ علىٰ الصخرةِ التي ببيتِ المقدس سبعون نبيًّا، منهم يَحْيىٰ بنُ زكريَّا عليه السلام.

وقال أبو عُبيد[٣] القاسم بن سلاَّم: حدَّثنا عبدُالله بنُ صالح، عن الليثِ، عن يَحْيىٰ بن

---

(١) (**موضوع**). رواه ابن عساكر في «التاريخ» (١٩/ ٥٥) بهٰذا السند، وفيه ثلاث بليات:

أولها: إسحاق بن بشر: كذاب متهم بالوضع. **والثانية**: يعقوب الكوفي: لم أعرفه، اللهم إلا أن يكون يعقوب بن محمد بن عبيد الكوفي أبا يوسف الأعشي؛ فإنه يروي عن الطبقة التي يروي عنها هٰذا نفسها؛ فإن كان هو؛ فهو كذاب رجل سوء؛ كما في «اللسان». **والثالثة**: النكارة والمخالفة لجميع روايات أحاديث الإسراء.

(٢) تقدم تخريجه في (ص٩٠).

(٣) في جميع الأصول: «أبو عبيدة»! والصواب ما أثبته.

سعيدٍ، عن سعيدِ بن المسيَّب؛ قال: قَدِمَ بُخْتَنَصَّرُ دمشقَ؛ فإذا هو بدم يحيىٰ بن زكريَّا يَغْلي، فسأل عنهُ، فأخبروه، فقتَلَ علىٰ دمِهِ سبعين ألفًا، فسكنَ. وهٰذا إسنادٌ صحيحٌ إلىٰ سعيدِ بن المسيَّبِ، وهو يقتضي أنَّه قُتِلَ بدمشقَ، وأنَّ قِصَّةَ بُخْتَنَصَّرَ كانت بعد المسيح؛ كما قالَه عطاءٌ والحسنُ البصريُّ. فالله أعلم.

وروىٰ الحافظُ ابنُ عساكرَ[1] من طريق: الوليدِ بن مسلم، عن زيدِ بن واقدٍ؛ قال: رأيتُ رأسَ يحيىٰ بنِ زكريَّا حين أرادوا بناءَ مسجدِ دمشقَ أُخْرِجَ من تحت رُكْنٍ من أركانِ القِبْلَةِ الذي يلي المحرابَ ممَّا يلي الشرقَ، فكانت البشرةُ والشعرُ علىٰ حاله لم يتغيَّرْ. وفي رواية: كأنَّما قُتِلَ الساعةَ.

وذَكَرَ[2] في بناء مسجدِ دمشقَ أنَّه جُعِلَ تحتَ العمودِ المعروفِ بعمودِ السَّكاسِكَةِ. فالله أعلم.

وقد روىٰ الحافظُ ابنُ عساكرَ[3] في «المستقصىٰ في فضائل الأقصىٰ» من طريق: العباس بن صبح، عن مروانَ، عن سعيدِ بنِ عبد العزيزِ، عن قاسم مولىٰ معاويةَ؛ قال: كان مَلِكُ هٰذه المدينةِ (يعني: دمشق) هدادُ بن هدارٍ، وكان قد زوَّجَ ابنَه بابنةِ أخيه أريل ملكةِ صَيْدا، وقد كان من جملةِ أملاكها سوقُ الملوكِ بدمشقَ، وهو الصاغةُ العتيقةُ. قال: وكانَ قد حَلَفَ بطلاقِها ثلاثًا، ثمَّ إنَّه أرادَ مراجَعَتَها، فاستفتىٰ يَحْيىٰ بن زَكَرِيَّا؟ فقال: لا تَحِلُّ لك حتىٰ تَنْكِحَ زوجًا غيرَكَ. فحَقَدَتْ عليه، وسألت من الملكِ رأس يَحْيىٰ بن زَكَرِيَّا، وذٰلك بإشارةِ أمِّها، فأبىٰ عليها، ثمَّ أجابها إلىٰ ذٰلك، وبَعَثَ إليه وهو قائمٌ يصلِّي بمسجدِ حبرون مَنْ أتاه برأسِهِ في صينيَّةٍ، فجعلَ الرأسُ يقولُ له: لا تَحِلُّ لهُ لا تَحِلُّ لهُ حتىٰ تَنْكِحَ زوجًا غيرَه! فأخذتِ المرأةُ الطَّبَقَ، فحَمَلَتْهُ علىٰ رأسِها، وأتتْ به أمَّها، وهو يقولُ كذٰلك. فلمَّا تَمَثَّلَتْ بين يدي أمِّها؛ خُسِفَ بها إلىٰ قَدَمَيْها، ثم إلىٰ حَقْوَيْها، وجعلت أمُّها تُوَلْوِلُ والجواري يَصْرُخْنَ ويَلْطِمْنَ وجوهَهُنَّ، ثم خُسِفَ بها إلىٰ مَنْكِبَيْها، فأمرتْ أمُّها السيافَ أن يضرِبَ عُنقها لتتسلَّىٰ برأسِها،

(١) في «التاريخ» (٢/ ٢٤١).

(٢) يعني: ابن عساكر أيضًا. وهٰذا في «تاريخه» (٢/ ٢٤٢).

(٣) وهو أيضًا في «تاريخ دمشق» (٢٧/ ٢٥٢- مختصر ابن منظور).

ففعل، فلفظتِ الأرضُ جثَّتها عند ذٰلك، ووقعوا في الذُّلِّ والفناءِ. ولم يزلْ دمُ يَحْيىٰ يفورُ حتىٰ قدِمَ بُخْتَنَصَّرُ فقتل عليه خمسةً وسبعين ألفًا. قال سعيدُ بنُ عبد العزيز: وهي دمُ كلِّ نبيٍّ، ولم يَزَلْ يفورُ حتىٰ وَقَفَ عنده إرْمِيَا عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقالَ: أيُّها الدَّمُ! أفنَيْتَ بني إسرائيلَ؛ فاسْكُنْ بإذنِ اللهِ. فسَكَنَ فَرُفِعَ السَّيْفُ، وهَرَبَ مَن هَرَبَ من أهل دمشقَ إلىٰ بيتِ المقدس، فتبِعَهم إليها، فقتلَ خلقًا كثيرًا لا يُحْصَوْنَ كثرةً، وسبىٰ منهم ثمَّ رَجَعَ عنهم(١).

❁ ❁ ❁

(١) وبالجملة؛ فهذه الأخبار كلها متهافتة ومتخالفة؛ فحريٌّ بها أن تُرَدَّ وتُطَّرح، ولعل أرضىٰ ما جاء في مقتل يحيىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الرواية التي ذكرها الحافظ ابن كثير أولًا (ص٦٠٩) وصدرها بقوله: «من أشهرها»؛ لأنها نص «العهد الجديد» (إنجيل مرقس/ الأصحاح٦)، وما عند أهل الكتاب في هٰذا أرجىٰ من ظنون المؤرخين وأحاديث القصاص. والله أعلم.

قصة عيسى ابن مريم
عبد الله ورسوله وابن أمته
عليه من الله أفضل الصلاة والسلام

۞ [امرأة عمران تنذر ما في بطنها محررًا لخدمة البيت]:

قال اللهُ تعالىٰ في سورةِ آل عمرانَ، والتي أنزلَ صَدْرَها -وهو ثلاثٌ وثمانون آيةً منها- في الرَّدِّ علىٰ النَّصارىٰ عليهم لعائنُ الله، الذين زعموا أنَّ لله ولدًا، تعالىٰ الله عمَّا يقولونَ علوًّا كبيرًا. وكان قد قَدِمَ وفدُ نَجْرانَ منهم علىٰ رسول الله ﷺ، فجعلوا يَذْكُرونَ ما هم عليه من الباطل من التَّثْليثِ في الأقانيم، ويَدَّعونَ بزعمِهم أنَّ الله ثالثُ ثلاثةٍ، وهم الذاتُ المقدَّسةُ وعيسىٰ ومريمُ[1]؛ علىٰ اختلاف فِرَقِهم، فأنزل الله ﷻ صدرَ هٰذه السورةِ؛ بَيَّنَ فيها أنَّ عيسىٰ عبدٌ من عبادِ الله؛ خَلَقَهُ وصوَّرَهُ في الرحم كما صَوَّرَ غيرَه من المخلوقاتِ، وأنَّه خَلَقَه من غير أبٍ كما خَلَقَ آدم من غير أبٍ ولا أمٍّ، وقال لهُ: كنْ! فكانَ، ﷺ، وبيَّن أصلَ ميلادِ أمِّه مريمَ، وكيف كان من أمرِها، وكيف حملتْ بولدِها عيسىٰ، وكذٰلك بَسَطَ ذٰلك في سورة مريم كما سنتكلم علىٰ ذٰلك كلِّه بعونِ الله وحُسْنِ توفيقِهِ وهدايتِهِ.

فقال تعالىٰ وهو أصدق القائلين: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ

(١) لا ريب أنهم اتخذوا مريم عليها السلام إلٰهًا مع الله؛ كما هو ظاهرٌ من سؤالهم إياها واستغاثتهم بها وصلاتهم عند أصنامها، ولٰكن المشهور -اليوم علىٰ الأقل- أن الأقانيم الثلاثة هي: الآب، والابن، والروح القدس. وانظر أيضًا: «الملل والنحل» (٢/ ٢٤٤ وما بعدها).

هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٧].

يَذْكُرُ تعالىٰ أنَّه اصطفىٰ آدم عليه السلام والخُلَّصَ من ذُرِّيَّتِهِ المتَّبِعين شرعَه الملازمين طاعتَه، ثم خَصَّصَ فقال: ﴿وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾: فدخَلَ فيهم بنو إسماعيل وبنو إسحاق، ثم ذَكَرَ فضلَ هٰذا البيت الطاهر الطيبِ، وهم آلُ عمران، والمرادُ بعمرانَ هٰذا والدُ مريمَ عليها السلام.

وقال محمدُ بن إسحاقَ: وهو عمرانُ بن ياشم بن آمون بن مَنَسَّىٰ بن حِزْقِيَّا بن أحاز بن يوثام بن عُزِّيَّا بن أمصيا بن ياوش بن أحريهو بنِ يُورامَ بنِ يَهوشافاطَ بن آسَّا بنِ أَبِيَّا بنِ رَحَبْعامَ بنِ سُليمانَ بنِ داوودَ[1].

وقال أبو القاسم بنُ عساكر[2]: مريمُ بنتُ عِمْرانَ بنِ مَثَّانَ بن أليعازَرَ بن إِلِيُودَ بنِ أخيمَ بنِ صادوقَ بنِ عازورَ بن ألياقيمَ بنِ أبيهودَ بن زَرُبَّابِلَ بنِ شالتئيلَ بنِ يَكُنْيا بن يوشِيَّا بنِ آمونَ بنِ مَنَسَّىٰ بن حِزْقِيَّا بنِ أحازَ بنِ يوثامَ بنِ عُزِّيَّا بن يوارمَ بنِ يَهوشافاطَ بنِ آسَّا بن أَبِيَّا بنِ رَحَبْعامَ بن سليمانَ بنِ داوودَ عليه السلام. وفيه مخالفة لما ذكره محمد بن إسحاق.

ولا خلافَ أنَّها من سُلالةِ داوودَ عليه السلام، وكان أبوها عمرانُ صاحبَ صلاةِ بني إسرائيل في زمانِهِ، وكانت أمُّها - وهي حنَّةُ بنتُ فاقود بن قبيل - من العابداتِ، وكان زكريَّا نبيُّ ذٰلك الزمانِ زوجَ أختِ مريمَ أشياعَ في قولِ الجمهور، وقيل: زوجَ خالتها أشياعَ. فالله أعلم.

وقد ذَكَرَ محمدُ بن إسحاقَ وغيرُهُ أنَّ أمَّ مريمَ كانت لا تَحْبَلُ، فرأتْ يومًا طائرًا يَزُقُّ[3] فرخًا له، فاشتهتِ الولدَ، فنذرتْ للهِ إنْ حَمَلَتْ؛ لَتجْعَلَنَّ وَلَدَها مُحَرَّرًا؛ أي: حبيسًا في خدمةِ بيت المقدس. قالوا: فحاضَتْ من فورِها، فلمَّا طَهَرَتْ؛ واقعها بَعْلُها فحملتْ بمريمَ عليها السلام.

---

(١) رواه ابن جرير في «التفسير» (٣/ ٢٣٥/ ٦٨٥٢) و«التاريخ» (١/ ٣٤٥)، وبينهما اختلاف يسير، واختلافهم عما هنا كبير، ولذلك عدت في ضبط هٰذا كله إلىٰ «العهد القديم» (إنجيل متىٰ/ الأصحاح ١)، فعدلت عليه قدر المستطاع مع الإبقاء علىٰ سلسلة النسب كما هي من أجل المقارنة بينها وبين ما سيذكره ابن عساكر في «التاريخ».

(٢) في «التاريخ» (٢٦/ ٦٩- مختصر ابن منظور)، وفيه اختلاف عما هنا، وهذه السلسلة هي المذكورة في «العهد الجديد» (إنجيل متىٰ/ الأصحاح ١) نفسها. ولٰكن مع اختلاف يسير جدًّا ببعض التحريفات والتصحيفات، وقد صححت ما هنا عليه.

(٣) يَزُقُّ: يطعم ويغذي.

۞ **[ميلاد مريم عليها السلام]:**

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾: وقُرِئ بضم التاء. ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾؛ أي: في خدمةِ بيتِ المقدس، وكانوا في ذلك الزمان يَنْذُرونَ لبيت المقدس خُدَّامًا من أولادِهم.

وقولها: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾: استُدِلَّ به علىٰ تسميةِ المولودِ يوم يولَدُ.

وكما ثبت في الصحيحين عن أنس في ذَهابه بأخيهِ إلىٰ رسول الله ﷺ، فحنَّكَ أخاهُ، وسمَّاه عبدَالله[(١)].

وجاء في حديث الحسنِ عن سَمُرَةَ مرفوعًا: «**كلُّ غلام رَهينةٌ بعقيقَتِهِ؛ تُذْبَحُ عنه يومَ سابِعِه، ويسمَّى، وَيُحْلَقُ رأسُه**»[(٢)]. رواه أحمد وأهل السنن وصحَّحه الترمذيُّ. وجاء في بعض ألفاظه: «ويُدَمَّىٰ»؛ بدل: «ويُسَمَّىٰ». وصحَّحه بعضُهم[(٣)]. والله أعلم.

۞ **[ذكر ما ورد في إعاذة مريم وذريتها من الشيطان الرجيم]:**

وقولُها: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝٣٦﴾: قد استُجيب لها في هذا كما تُقُبِّلَ منها نَذْرُها:

---

(١) رواه: البخاري (٧١- العقيقة، ١- تسمية المولود، ٩/ ٥٨٧/ ٥٤٧٠)، ومسلم (٣٨- الآداب، ٥- استحباب تحنيك المولود، ٣/ ١٦٨٩/ ٢١٤٤).

(٢) (صحيح). رواه: أحمد (٥/ ٧و١٢و١٧و٢٢)، والدارمي (٢/ ٨١)، وابن ماجه (٢٧- الذبائح، ١- العقيقة، ٢/ ١٠٥٦/ ٣١٦٥)، وأبو داوود (١٠- الذبائح، ٢١- العقيقة، ٢/ ١١٧/ ٢٨٣٧)، والترمذي (٢٠- الأضاحي، ٢٣- العقيقة، ٤/ ١٠١/ ١٥٢٢)، والنسائي (٤٠- العقيقة، ٥- متىٰ يعق، ٧/ ١٦٦/ ٤٢٣١)، والحاكم (٤/ ٢٣٧)؛ من طرق عن الحسن، عن سمرة... به، فذكره. وسماع الحسن لهذا الحديث من سمرة صحيح، روىٰ ذلك البخاري والنسائي. وقال الترمذي: «حسن صحيح». وسكت عنه الحاكم، وصححه الذهبي والألباني.

(٣) (شاذ). رواه هكذا: أحمد (٥/ ٧و١٧و٢٢)، وأبو داوود (الموضع السابق)؛ من طرق عن همام، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة... مرفوعًا.

وقد تكلم أهل العلم في هذه اللفظة فأطالوا، وليس هذا موضع التفصيل فيها، وإنما الذي ترتاح له النفس أن لفظه «ويدمىٰ» خطأ من قتادة علىٰ جلالة قدره؛ وأن تدميم رأس الغلام عادة جاهلية جاء الإسلام بالنهي عنها والتنفير منها. وانظر: «زاد المعاد» (٢/ ٣٢٦)، و«فتح الباري» (٩/ ٥٩٣/ ٥٤٧٢)، و«التلخيص الحبير» (٤/ ١٦١)، و«إرواء الغليل» (٤/ ٣٨٧/ ١١٦٥).

فقال الإمام أحمدُ: حدثنا عبد الرزاقِ، حدثنا مَعْمَرٌ، عن الزُّهريِّ، عن ابن المسيَّبِ، عن أبي هريرة: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**ما مِنْ مولودٍ؛ إلَّا والشيطانُ يَمَسُّهُ حين يولَدُ، فيستهلُّ صارخًا من مَسَّةِ الشيطانِ إيَّاهُ؛ إلَّا مريمَ وابنَها**». ثم يقولُ أبو هريرة: واقرؤوا إنْ شئتُم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾[1]. أخرجاه من حديث عبد الرزاق.

ورواه ابنُ جريرٍ[2]: عن أحمدَ بن الفرج، عن بقيَّةَ، عن الزُّبَيْدِيِّ[3]، عن الزُّهريِّ، عن أبي سَلَمَةَ، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ... بنحوه.

وقال أحمدُ[4] أيضًا: حدثنا إسماعيلُ بن عُمَرَ، حدثنا ابنُ أبي ذئب[5]، عن عجلانَ مولىٰ المُشْمَعِلِّ، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ قال: «**كلُّ مولودٍ من بني آدمَ يَمَسُّه الشيطانُ بإصْبَعِهِ إلَّا مريمَ بنتَ عمرانَ وابنَها عيسى**». تفرَّدَ به من هٰذا الوجه.

ورواه مسلمٌ[6]: عن أبي الطاهرِ، عن ابن وَهْبٍ، عن عمرو[7] بن الحارثِ، عن أبي يونسَ، عن أبي هريرةَ، عن النبي ﷺ... بنحوه.

وقال أحمدُ[8]: حدثنا هشيمٌ، حدثنا حَفْصُ بن مَيْسَرَةَ، عن العلاءِ، عن أبيه، عن أبي هريرة: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**كلُّ إنسانٍ تَلِدُهُ أُمُّه يَلْكُزُهُ الشيطانُ في حِضْنَيْهِ[9]؛ إلاَّ ما كانَ من مريمَ وابنِها**،

---

(١) رواه: أحمد (٢/ ٢٧٤)، والبخاري (٦٥- التفسير، ٣- آل عمران، ٢- ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾، ٨/ ٢١٢/ ٤٥٤٨)، ومسلم (٤٣- الفضائل، ٤٠- فضائل عيسىٰ ﷺ، ٤/ ١٨٣٨/ ٢٣٦٦)؛ من طريق عبد الرزاق به.

(٢) في «التفسير» (٢/ ٢٤٠/ ٦٨٩٤).

(٣) في جميع الأصول: «عن بقية، عن عبد الله بن الزبيدي»! والذي عند ابن جرير: «ثنا بقية بن الوليد؛ قال: حدثنا الزبيدي»؛ دون ذكر لعبد الله، وهو الصواب؛ فإن الزبيدي الذي يروي عن الزهري وعنه بقية اسمه: محمد بن الوليد بن عامر الزبيدي، وهو المراد هنا، وليس له ولد اسمه عبد الله يروي عنه؛ فما أدري كيف وقع هٰذا التحريف؟!

(٤) في «المسند» (٢/ ٢٨٨).

(٥) في جميع الأصول: «ابن أبي ذؤيب»! وهو خطأ، والتصويب من «المسند» (٢/ ٢٨٨و٢٩٢و٣١٩)، وابن أبي ذؤيب ليس من هذه الطبقة.

(٦) في «الصحيح» (الموضوع السابق نفسه).

(٧) في جميع الأصول: «عن عمر»! والتصويب من «صحيح مسلم».

(٨) في «المسند» (٢/ ٣٦٨).

(٩) الحِضْن هنا: الجانب؛ يعني: يطعنه بجنبيه.

ألم تَرَ إلى الصبيِّ حين يَسْقُطُ كيف يَصْرُخُ؟». قالوا: بلىٰ يا رسول اللهِ! قال: «**ذٰلك حين يَلْكُزُهُ الشيطانُ بِحِضْنَيْهِ**». وهٰذا علىٰ شرطِ مسلم، ولم يخرِّجْه من هٰذا الوجه.

ورواه قيسٌ: عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة؛ قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: «**ما مِنْ مولودٍ إلَّا وقد عَصَرَهُ الشيطانُ عصرةً أو عصرتين؛ إلَّا عيسى بنَ مريم ومريمَ**». ثم قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾(١).

وكذا رواه محمدُ بنُ إسحاقَ: عن يزيدَ بنِ عبد اللهِ بن قُسَيْطٍ، عن أبي هُريرةَ، عن النبيِّ ﷺ... بأصل الحديث(٢).

وقال الإمام أحمدُ(٣): حدثنا عبدُالملك، حدثنا المغيرةُ (هو ابنُ عبدِالرحمٰن الحزاميُّ)، عن أبي الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ؛ قال: «**كلُّ بني آدم يَطْعُنُ الشيطانُ في جنبِهِ حين يولَدُ؛ إلَّا عيسى بنَ مريمَ، ذَهَبَ يَطْعُنُ، فَطَعَنَ في الحجابِ**». وهٰذا علىٰ شرط الصحيحين ولم يخرِّجوه من هٰذا الوجه(٤).

۞ [مريم في كفالة زكريا عليه السلام]:

وقوله: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ ﴾؛ ذَكَرَ كثيرٌ من المفسِّرين أنَّ أمَّها حين وضعَتْها؛ لَفَّتْها في خروقها، ثم خرجت بها إلىٰ المسجدِ، فسلَّمَتْها إلىٰ العُبَّادِ الذين هم مقيمون به، وكانتْ ابنةَ إمامِهم وصاحبِ صلاتهم، فتنازعوا فيها. والظاهرُ أنَّها إنَّما سلَّمَتْها إليهم بعد رَضاعها وكفالةِ مثلِها في صِغَرها. ثم لمَّا دَفَعَتْها إليهم؛ تنازعوا في أيِّهم يَكْفُلُها، وكان زكريَّا نبيَّهم في ذٰلك الزمان، وقد أراد أن يَسْتَبِدَّ بها دونَهم من أجل أنَّ زوجتَهُ أختُها أو خالتُها علىٰ القولين، فشاحُّوه في ذٰلك وطلبوا أن يَقْتَرِعَ معهم، فساعدتْه المقاديرُ، فخرجتْ قُرْعَتُهُ غالبةً لهم، وذٰلك أنَّ: «**الخالة بمنزلةِ الأمِّ**»(٥).

---

(١) رواه ابن جرير في «التفسير» (٣/ ٢٣٩/ ٦٨٨٧) بهٰذا السند.

(٢) رواه ابن جرير في «التفسير» (٣/ ٢٣٨/ ٦٨٨١) بهٰذا السند.

(٣) في «المسند» (٢/ ٥٢٣).

(٤) بل أخرجه البخاري (٥٩- بدء الخلق، ١١- صفة إبليس، ٦/ ٣٣٧/ ٣٢٨٦) من طريق: أبي الزناد، عن الأعرج... به، فذكره.

(٥) رواه البخاري (٥٣- الصلح، ٦- كيف يكتب هٰذا ما صالح، ٥/ ٣٠٣/ ٢٦٩٩) من حديث البراء مرفوعًا.

قال الله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾؛ أي: بسبب غلبه لهم في القُرعة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤]: قالوا: وذٰلك أنَّ كلًّا منهم ألقىٰ قَلَمَه معروفًا به، ثم حَمَلوها ووَضَعوها في موضع، وأمروا غلامًا لم يبلغ الحِنْثَ[1]، فأخرج واحدًا منها، وظهر قلمُ زكريَّا عليه السلام. فطلبوا أن يَقْتَرِعوا مرةً ثانيةً، وأنْ يكون ذٰلك بأن يُلْقوا أقلامَهم في النهر؛ فأيُّهم جرىٰ قلمُهُ علىٰ خلافِ جِرْيَةِ الماءِ؛ فهو الغالبُ، ففعلوها، فكان قلمُ زكريَّا هو الذي جرىٰ علىٰ خلافِ جِرْيَةِ الماء، وسارت أقلامُهُم مع الماء. ثم طلبوا منه أن يَقْتَرِعوا ثالثةً؛ فأيُّهم جرىٰ قلمُهُ مع الماءِ ويكون بقيةُ الأقلام قدِ انعكس سيرُها صُعُدًا؛ فهو الغالبُ، ففعلوا، فكان زكريَّا هو الغالبَ لهم، فكَفَلَها إذْ كان أحقَّ بها شرعًا وقَدَرًا لوجوهٍ عديدةٍ.

قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

قال المفسِّرونَ: اتَّخَذَ لها زكريَّا مكانًا شريفًا من المسجدِ لا يدخُلُه سواها، فكانت تعبد اللهَ فيه وتقومُ بما يجبُ عليها من سِدانةِ[2] البيت إذا جاءت نوبتُها، وتقومُ بالعبادة ليلَها ونهارَها، حتىٰ صارتْ يُضْرَبُ بها المثلُ بعبادتِها في بني إسرائيل، واشْتُهِرَتْ بما ظَهَرَ عليها من الأحوال الكريمةِ والصفات الشريفةِ، حتىٰ إنَّه كان نبيُّ الله زكريَّا؛ كلَّما دَخَلَ عليها موضعَ عبادتِها؛ يَجِدُ عندَها رزقًا غريبًا في غير أوانِهِ، فكان يَجِدُ عندَها فاكهةَ الصيف في الشتاءِ وفاكهةَ الشتاءِ في الصيفِ، فيسألُها: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾؟! فتقول: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾؛ أي: رزقٌ رَزَقَنيه الله. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

فعند ذٰلك وهنالك طَمِعَ زكريَّا في وجودِ ولدٍ من صُلْبِهِ؛ وإنْ كان قد أسنَّ وكَبِرَ؛ ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨]: قال بعضُهم: قال: يا مَنْ يَرْزُقُ مريمَ الثمر في غير أوانِهِ! هبْ لي ولدًا وإنْ كان في غيرِ أوانِهِ. فكان من خبرِهِ وقضيَّتِهِ ما قدَّمنا ذِكْرَهُ في قصَّتِهِ[3].

---

(١) الحِنْث: الإثم والذي لم يبلغ الحنث هو من كان دون سن البلوغ من الأطفال.

(٢) السِّدانة: الخدمة.

(٣) انظر ما تقدم (ص٥٩٩-٨١٤).

۞ [ذكر ما ورد في اصطفائه تعالى مريم على نساء العالمين]:

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران: ٤٢-٥١].

يذكرُ تعالىٰ أنَّ الملائكةَ بشَّرت مريمَ باصطفاء اللهِ لها من بين سائرِ نساءِ عالَمي زمانِها؛ بأنِ اختارَها لإيجادِ ولدٍ منها من غير أبٍ، وبُشِّرتْ بأن يكون نبيًّا شريفًا، ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾؛ أي: في صِغَرِهِ؛ يدعوهم إلىٰ عبادةِ الله وحده لا شريك له، وكذٰلك في حال كهوليَّتِهِ، فدلَّ علىٰ أنَّه يَبْلُغُ الكهولةَ ويدعو إلىٰ اللهِ فيها، وأُمِرَتْ بكَثْرَةِ العبادةِ والقُنوت والسجودِ والرُّكوع؛ لتكونَ أهلًا لهٰذه الكرامةِ، ولتقومَ بشكرِ هٰذه النعمةِ. فيقالُ: إنَّها كانتْ تقومُ في الصَّلاةِ حتىٰ تَفطَّرَتْ قَدَماها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ورحِمَها ورحمَ أمَّها وأباها.

فقولُ الملائكةِ: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾؛ أي: اختاركِ واجتباكِ. ﴿وَطَهَّرَكِ﴾؛ أي من الأخلاق الرذيلةِ، وأعطاك الصفاتِ الجميلةَ. ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾: يُحْتَمَلُ أن يكونَ المرادُ عالَمي زمانِها؛ كقولِهِ لموسىٰ: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وكقوله عن بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الدخان: ٣٢]، ومعلومٌ أنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أفضلُ من موسىٰ، وأنَّ محمدًا ﷺ أفضلُ منهما، وكذٰلك هٰذه الأمةُ أفضلُ من

سائر الأمم قبلها وأكثرُ عددًا وأفضلُ علمًا وأزكىٰ عَمَلًا من بني إسرائيل وغيرِهم. ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾: محفوظَ العموم، فتكونَ أفضلَ نساءِ الدُّنيا ممَّنْ كان قبلها أو جَدَّ بعدَها؛ لأنَّها:

إن كانت نبيَّةً -علىٰ قول مَن يقولُ بنبوَّتِها ونبوَّةِ سارةَ أمِّ إسحاق ونبوَّةِ أمِّ موسىٰ محتجًّا بكلام الملائكة والوحي إلىٰ أمِّ موسىٰ كما يَزْعُمُ ذٰلك ابنُ حزم وغيرُه-؛ فلا يمتنعُ علىٰ هٰذا أن تكونَ مريمُ أفضلَ من سارةَ وأمِّ موسىٰ؛ لعموم قولِهِ: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾؛ إذْ لم يعارِضْه غيرُهُ. والله أعلم.

وأمَّا [علىٰ] قول الجمهور -كما قد حكاه أبو الحسن الأشعريُّ وغيرُه عن أهل السُّنَّةِ والجماعة- من أنَّ النبوَّةَ مختصَّةٌ بالرجال وليس في النساء نبيَّةٌ؛ فيكونُ أعلىٰ مقاماتِ مريمَ كما قال الله تعالىٰ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]؛ فعلىٰ هٰذا لا يمتنعُ أن تكونَ أفضلَ الصِّدِّيقاتِ المشهوراتِ ممَّن يكون كان قبلها وممَّنْ يكون بعدَها. والله أعلم.

وقد جاء ذِكْرُها مقرونًا مع آسيةَ بنتِ مزاحم وخديجةَ بنتِ خُوَيْلدٍ وفاطمةَ بنتِ محمَّدٍ ﷺ رضي الله عنهنَّ وأرضاهنَّ:

وقد روىٰ الإمامُ أحمدُ والبخاريُّ ومسلمٌ والترمذيُّ والنَّسائيُّ من طرق عديدة: عن هشام بن عُروةَ، عن أبيه، عن عبدِالله بن جعفرٍ، عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**خيرُ نسائِها مَرْيَمُ بنتُ عمرانَ، وخيرُ نسائِها خَديجةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ**»(١).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا مَعْمَرٌ، عن قَتادةَ، عن أنس؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**حَسْبُكَ من نساءِ العالمين بأربع: مَرْيَمَ بنتِ عمرانَ، وآسيةَ امرأةِ فرعونَ، وخديجةَ بنتِ خُوَيْلِدٍ، وفاطمةَ بنتِ محمدٍ**»(٢).

---

(١) رواه: أحمد (١/ ٨٤ و١١٦ و١٣٢ و١٤٣)، والبخاري (٦٠- الأنبياء، ٤٥- ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ﴾، ٦/ ٤٧٠/ ٣٤٣٢)، ومسلم (٤٤- فضائل الصحابة، ١٢- فضائل خديجة أم المؤمنين، ٤/ ١٨٨٦/ ٢٤٣٠)، والترمذي (٥٠- المناقب، ٦٢- فضل خديجة، ٥/ ٧٠٢/ ٣٨٧٧)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٧/ ٣٩٤/ ١٠١٦١- تحفة).

(٢) (صحيح). رواه: عبد الرزاق (١١/ ٤٣٠/ ٢٠٩١٩). ومن طريقه: أحمد (٣/ ١٣٥)، والترمذي (٥٠- المناقب،=

ورواه الترمذيُّ: عن أبي بكر بن زَنْجَوَيْهِ، عن عبد الرزاق... به، وصححه.

ورواه ابنُ مَرْدَوَيْهِ من طريق عبد الله بن أبي جعفرٍ الرازيِّ، وابنُ عساكرَ من طريق تميم بن زيادٍ؛ كلاهُما عن أبي جعفرٍ الرازيِّ، عن ثابتٍ، عن أنس؛ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**خيرُ نساءِ العالمينَ أربعٌ: مريمُ بنتُ عمرانَ، وآسيةُ امرأةُ فرعونَ، وخديجَةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ، وفاطمةُ بنتُ محمدٍ رسول الله**»(١).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبدُالرزاق، حدثنا مَعْمَرٌ، عن الزُّهريِّ، عن ابن المسيَّبِ؛ قال: كان أبو هريرةَ يحدِّثُ: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**خَيْرُ نساءٍ رَكِبْنَ الإبلَ صالحُ نساءِ قريش؛ أحْناهُ على ولدٍ في صِغَرِهِ، وأرعاه لزوج في ذاتِ يدِهِ**». قال أبو هريرةَ: ولم تَرْكَبْ مريمُ بعيرًا قطُّ(٢).

وقد رواه مسلمٌ في «صحيحه» عن: محمد بن رافع وعبدِ بن حُمَيْدٍ، كلاهما عن عبد الرزاق... به.

وقال أحمدُ: حدثنا زيدُ بن الحُباب، حدثني موسىٰ بن عليٍّ، سمعت أبي يقول: سمعتُ أبا هريرة يقولُ: قال رسول الله ﷺ: «**خيرُ نساءٍ رَكِبْنَ الإبلَ نساءُ قريش؛ أحناه على ولدٍ في صِغَرِهِ، وأرأفُهُ بزوج على قِلَّةِ ذاتِ يدِهِ**». قال أبو هريرةِ: وقد علم رسولُ الله ﷺ أنَّ ابنةَ عِمْرانَ لم تركبِ الإبلَ(٣). تفرَّد به وهو علىٰ شرطِ الصحيح.

ولهٰذا الحديث طرقٌ أخرىٰ عن أبي هريرةَ.

= ٦٢- فضل خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ٥/ ٣٨٧٨/٧٠٣)، وابن حبان (١٥/ ٤٦٤/ ٧٠٠٣)، والحاكم (٣/ ١٥٧).
وسنده صحيح علىٰ شرط الشيخين كما ذكر الحاكم والذهبي، وقد صححه الترمذي والألباني.
وأما طريق ابن مردويه وابن عساكر التي ذكرها المؤلف؛ ففيها عبد الله بن أبي جعفر الرازي فيه ضعف، وعلىٰ الأخص روايته عن أبيه، وقال الحافظ: «صدوق يخطئ». لٰكن تابعه تميم بن زياد (ووقع في «الاستيعاب» (٤/ ٢٨٤): «تميم بن الجعد»!)، وله ترجمة في «الميزان» تنبئ أنه مجهول. وأبو جعفر الرازي: «صدوق سيئ الحفظ». وبالجملة؛ فهي حسنة في الشواهد والمتابعات.

(١) تقدم الكلام عنه في الحاشية السابقة.

(٢) رواه: أحمد (٢/ ٢٦٩ و٢٧٥ و٣١٩ و٣٩٣ و٤٤٩ و٤٦٩ و٥٠٢)، ومسلم (٤٤- فضائل الصحابة، ٤٩- من فضائل نساء قريش، ٤/ ١٩٥٨/ ٢٥٢٧).

(٣) رواه: أحمد (٢/ ٢٦٩ و٢٧٥ و٣١٩ و٣٩٣ و٤٤٩ و٤٦٩ و٥٠٢)، ومسلم (٤٤- فضائل الصحابة، ٤٩- من فضائل نساء قريش، ٤/ ١٩٥٨/ ٢٥٢٧).

وقال أبو يعلىٰ المَوْصِلِيُّ: حدثنا زهيرٌ، حدثنا يونُسُ بن محمدٍ، حدثنا داوودُ بن أبي الفراتِ، عن علباءَ بن أحمرَ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس؛ قال: خَطَّ رسولُ الله ﷺ في الأرض أربعة[1] خطوطٍ، فقال: «**أتدْرونَ ما هٰذا؟**». قالوا: الله ورسوله أعلمُ. فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**أفضلُ نساءِ أهلِ الجنَّةِ خديجةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ، وفاطمةُ بنتُ محمدٍ، ومريمُ بنتُ عِمْرانَ، وآسيةُ بنتُ مزاحم امرأةُ فرعونَ**»[2]. ورواه النسائيُّ من طرقٍ عن داوودَ بن أبي الفرات[3].

وقد رواه ابنُ عساكرَ من طريق: أبي بكرٍ عبد الله بن أبي داوود سليمانَ بن الأشعثِ، حدثنا يحيىٰ بن حاتم العسكريُّ، أنبأنا بِشْرُ بن مِهْرانَ بن حَمْدانَ، حدثنا محمدُ بن دينارٍ، عن داوودَ بن أبي هندٍ، عن الشعبيِّ، عن جابر بنِ عبدِالله؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**حسبُكَ منهنَّ أربعٌ سيداتُ نساء العالمين: فاطمةُ بنتُ محمدٍ، وخديجةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ، وآسيةُ بنتُ مزاحم، ومريمُ بنتُ عمرانَ**»[4].

وقال أبو القاسم البغويُّ: حدَّثنا وَهْبُ بن بَقِيَّةَ، حدثنا خالدُ بنُ عبدِالله الواسطيُّ، عن محمد بن عمرو، عن أبي سَلَمَةَ، عن عائشةَ: أنَّها قالت لفاطمةَ: أرأيتِ حين أكْبَبْتِ علىٰ رسول اللهِ ﷺ فبكيتِ ثم ضحكت؟ قالت: أخبرني أنَّه ميتٌ من وجعِهِ هٰذا فبكيتُ، ثم أكببتُ عليهِ، فأخبرني أنِّي أسرعُ أهلِهِ لُحوقًا به وأنِّي سيِّدَةُ نساءِ أهل الجنَّةِ إلَّا مريمَ بنتَ عمرانَ

(١) في جميع الاصول: «أربع»!

(٢) (صحيح). رواه: أحمد (١/ ٢٩٣ و٣١٦ و٣٢٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٥/ ١٥٢/ ٦١٥٩- تحفة)، وأبو يعلىٰ (٥/ ١١٠/ ٢٧٢٢)، وابن حبان (١٥/ ٤٧٠/ ٧٠١٠)، والطبراني (١١/ ٢٦٦/ ١١٩٢٨)، والحاكم (٢/ ٥٩٤، ٣/ ١٦٠ و١٨٥)؛ من طرق داوود بن أبي الفرات... به، فذكره.

وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٢٢٦): «رواه أحمد وأبو يعلىٰ والطبراني، ورجالهم رجال الصحيح». وقال الألباني في «الصحيحة» (٤/ ١٣/ ١٥٠٨): «رجاله ثقات رجال البخاري غير علباء بن أحمر؛ فهو من رجال مسلم».

(٣) في جميع الأصول: «داوود بن أبي هند»! وهو سبق قلم؛ فليس لداوود بن أبي هند أي صلة بهٰذا الإسناد، والنسائي خرج هٰذا الحديث من طريق ابن أبي الفرات لا من طريقه، وكلاهما ثقة، وإنما كل واحد منهما من طبقة.

(٤) (ضعيف جدًّا). رواه ابن عساكر (٢٦/ ٨٥- ابن منظور)، وهو محذوف الأسانيد، ولٰكن أحسن الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذ ذكر سنده هنا، فبان لنا أنه ضعيف جدًّا: يحيىٰ بن حاتم: لم أعرفه. وبشر بن مهران: تركه أبو حاتم، وذكره ابن حبان في «الثقات» وقال: «روىٰ عنه البصريون الغرائب». ومحمد بن دينار: سيء الحفظ وقد تغير. وكذلك ابن أبي هند: ثقة متقن ولٰكنه تغير. فالسند لا يصلح ليتقوىٰ بالشواهد المتقدمة. والله أعلم.

فضحكتُ[١]. وأصل هٰذا الحديثِ في الصحيح، وهٰذا إسنادٌ علىٰ شرط مسلم، وفيه أنَّهما أفضل الأربع المذكوراتِ.

وهٰكذا الحديثُ الذي رواه الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا عثمانُ بن محمدٍ، حدثنا جَريرٌ، عن يزيدَ (هو ابنُ أبي زيادٍ)، عن عبد الرحمٰن بن أبي نعم، عن أبي سعيدٍ؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**فاطمةُ سَيِّدَةُ نساءِ أهل الجنَّةِ؛ إلَّا ما كان من مريمَ بنتِ عمرانَ**»[٢]. إسنادٌ حسنٌ، وصحَّحه الترمذيُّ، ولم يخرِّجوه.

وقد رُوِيَ نحوُه من حديث عليِّ بن أبي طالبٍ، ولٰكنْ في إسناده ضَعْفٌ[٣].

---

(١) (صحيح). والظاهر أن ابن عساكر رواه من طريقه في «التاريخ» (٢٦/ ٨٦- مختصر ابن منظور)؛ فإن المختصر محذوف الأسانيد، والأصل غير مطبوع بعد. وفي كل الأحوال؛ فهٰذا السند صحيح، وقد صححه الحافظ ابن كثير علىٰ شرط مسلم كما ترىٰ.
وللحديث أصل في: البخاري (٦١- المناقب، ٢٥- علامات النبوة، ٦/ ٦٢٧/ ٣٦٢٣)، ومسلم (٤٤- فضائل الصحابة، ١٥- فضائل فاطمة، ٤/ ١٩٠٤/ ٢٤٥٠)؛ دون ذكر مريم عليها السلام.
ولٰكن ذكر مريم عليها السلام صحيح في هٰذا الحديث من ثلاثة أوجه:
فأولها: أنه زيادة ثقة، فتعين القول فيها.
والثاني: أن له شواهد فيها هذه الزيادة: فمنها: ما رواه الترمذي (٥٠- المناقب، ٦١- فضل فاطمة، ٥/ ٧٠١/ ٣٨٧٣) من حديث أم سلمة... فذكرت هٰذا المتن نفسه بهذه الزيادة. وسنده لا بأس به. وحسنه الترمذي. ومنها: ما رواه الطبري (٣/ ٢٦٣/ ٧٠٧٢) من حديث فاطمة رضي الله عنها... فذكرت هٰذا المتن نفسه، وفيه الزيادة، لٰكن السند ضعيف ومنقطع.
والوجه الثالث: أن لهذه الزيادة ما يدعمها من المتون الأخرىٰ الصحيحة، وقد تقدم بعضها، وسيأتي أيضًا.

(٢) (صحيح). رواه: أحمد (٣/ ٦٢و٦٤و٨٠ بهٰذا السند)، وأبو يعلىٰ (٢/ ٣٩٥/ ١١٦٩)، والحاكم (٣/ ١٥٤)؛ من طريق يزيد بن أبي زياد ومنصور بن أبي الأسود، عن عبد الرحمن بن أبي نعم، عن أبي سعيد؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وفاطمة...» فذكره.
قال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٢٠٤): «رواه الترمذي غير ذكر فاطمة ومريم». قلت: وهو الذي أشار إليه الحافظ ابن كثير بقوله: «وصححه الترمذي». وقد تقدم حديث الترمذي وتحسينه (ص٨٢٩). وأما موضع الشاهد من الحديث؛ فصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي: «رواه أحمد وأبو يعلىٰ، ورجالهما رجال الصحيح». قلت: يزيد بن أبي زياد؛ وإن روىٰ له البخاري تعليقًا ومسلم؛ فقد ضعفوه، ولٰكن ضعفه ينجبر إن شاء الله بمتابعة منصور - وهو صدوق- عند الحاكم. وبما تقدم قبل قليل من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) الأحاديث التي رويت عن علي في فضل فاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم جميعًا كثيرة، ولم أجد في شيء منها ذكر لمريم بنت عمران عليها السلام. وانظر: «كبير الطبراني» (٣/ ٣٥/ ٢٥٩٩-٢٦٠٣).

والمقصودُ: أنَّ هٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ مريمَ وفاطمةَ أفضلُ هٰذه الأربع، ثم يَحْتَمِلُ الاستثناءُ أن تكونَ مريمُ أفضلَ من فاطمةَ، ويَحْتَمِلُ أن يكونا علىٰ السواءِ في الفضيلةِ.

ولٰكنْ وَرَدَ حديثٌ؛ إنْ صَحَّ؛ عَيَّنَ الاحتمالَ الأَوَّل: فقال الحافظُ أبو القاسم بنُ عساكرَ: أنبأنا أبو الحسين بنُ الفرَّاءِ وأبو غالبٍ وأبو عبدِالله ابنا البَنَّا؛ قالوا: أنبأنا أبو جعفرِ بنُ المسلمةِ، أنبأنا أبو طاهرٍ المخلِّصُ، حدثنا أحمدُ بنُ سُليمانَ، حدثنا الزُّبيرُ (هو ابنُ بكَّارٍ)، حدثنا محمدُ بن الحسن، عن عبدِالعزيز بنِ محمدٍ، عن موسىٰ بن عُقْبَةَ، عن كُرَيْبٍ، عن ابن عباس؛ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**سيدةُ نساءِ أهل الجنَّةِ مريمُ بنتُ عِمْرانَ، ثم فاطمةُ، ثم خديجةُ، ثم آسيةُ امرأةُ فرعونَ**»(١).

---

(١) قد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في هٰذا الموضوع نصان ينبغي عدم الخلط بينهما:

فالحديث الأول: حديث «**أفضل نساء الجنة...**»، من رواية علباء عن عكرمة عن ابن عباس، وفيه أن النبي ﷺ خط في الأرض خطوطًا، وليس في شيء من طرقه مفاضلة بين الفاضلات، بل جمع بينهن بواو العطف التي لا تقتضي الترتيب. وهو حديث صحيح علىٰ شرط مسلم، وقد تقدم تفصيل الكلام فيه (ص٦٢٢).

والحديث الآخر: حديث «سيدة نساء العالمين...»، من رواية كريب عن ابن عباس، وليس فيه ذكر الخطوط، وهو هٰذا الحديث، وقد اختلفت الروايات في متنه علىٰ وجهين:

* **الوجه الأول**: ما رواه الزبير بن بكار في «النسب» (٤/ ٢٨٥- الاستيعاب)، ومن طريقه: الطبراني في «الكبير» (٢٣/ ٧/ ٢)، وابن عساكر في «التاريخ» (٢٦/ ٨٥- مختصر ابن منظور)؛ من طريق محمد بن الحسن... به، فذكره مرتبًا بلفظ (ثم) كما تراه. ومحمد بن الحسن بن زبالة: كذبوه. قال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٢٢٦): «رواه الطبراني، وفيه محمد بن الحسن بن زبالة، وهو متروك». فالسند ضعيف جدًّا لا يفرح به. وقال الحافظ في «الفتح» (٧/ ١٣٦/ ٣٨٢١): «ليس بثابت، وأصله عند أبي داوود والحاكم بغير صيغة ترتيب». **قلت**: الذي عند الحاكم هو الحديث الأول، حديث: «**أفضل نساء الجنة**»، وقد تقدم تخريجه وصحته (ص٦٢٢)، وذكرنا قبل قليل أنه غير هٰذا الحديث. وأما الذي عند أبي داوود؛ فهو:

* **الوجه الثاني**: ما رواه: أبو داوود السجستاني (٥/ ٢٠٠/ ٦٣٣٨- تحفة، و٤/ ٢٨٥- الاستيعاب، وقال الحافظ في «النكت الظراف»: إن لم يكن عند بعض رواة أبي داوود؛ فلعله في كتاب «المناقب» الفرد خارج «السنن»)، وأبو حاتم الرازي (كما عند المؤلف هنا)، والطبراني في «الكبير» (١١م٣٢٨/ ١٢١٧٩)؛ من طريق عبد الله بن محمد النفيلي وداوود الجعفري؛ كلاهما عن عبد العزيز الدراوردي، عن إبراهيم بن عقبة، عن كريب، عن ابن عباس؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**سيدات نساء أهل الجنة بعد مريم بنت عمران: فاطمة، وخديجة، وآسية امرأة فرعون**». وداوود الجعفري: صدوق ربما أخطأ. ولٰكن تابعه النفيلي، وهو ثقة حافظ. والدراوردي من رجال الشيخين، وفيه كلام لا يضر. وبقية السند ثقات من رجال «الصحيح». فالسند حسن في أقل أحواله، بل =

فإنْ كان هٰذا اللفظُ محفوظًا بـ (ثم) التي للترتيب؛ فهو مبيِّنٌ لأحدِ الاحتمالين اللذين دلَّ عليهما الاستثناءُ، وتقدَّمَ علىٰ ما تقدَّمَ[1] من الألفاظ التي وردتْ بواو العطفِ التي لا تقتضي الترتيب ولا تنفيه والله أعلم.

وقد روىٰ هٰذا الحديث أبو حاتم الرازيُّ: عن داوودَ الجعفريِّ، عن عبدِالعزيز بن محمَّدٍ (وهو الدَّراوَرْدِيُّ)، عن إبراهيم بن عقبةَ، عن كُرَيْبٍ، عن ابنِ عباس... مرفوعًا. فذكره بواو العطف لا بـ (ثم) الترتيبيَّة[2]، فخالفَه إسنادًا ومَتْنًا. فالله أعلم.

فأمَّا الحديثُ الذي رواه ابنُ مَرْدَوَيْهِ من حديث: شعبةَ، عن معاويةَ بن قُرَّةَ، عن أبيه؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«كَمَلَ من الرجال كثيرٌ ولم يَكْمُلْ من النساءِ إلَّا ثلاثٌ: مريمُ بنتُ عمرانَ، وآسيةُ امرأةُ فرعونَ، وخديجةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ، وفضلُ عائشةَ على النِّساءِ كفضل الثريدِ على سائر الطعام»**[3].

وهٰكذا الحديثُ الذي رواه الجماعةُ إلَّا أبا داوود من طرق عن: شعبة، عن عمرو بن مُرَّةَ، عن مُرَّةَ الهمدانيِّ، عن أبي موسىٰ الأشعريِّ؛ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: **«كَمَلَ من الرجال كثيرٌ ولم يَكْمُلْ من النساء إلَّا آسيةُ امرأةُ فرعونَ ومريمُ بنتُ عِمْرانَ، وإنَّ فضلَ عائشةَ على النساءِ كفضل الثَّريدِ على سائرِ الطعام»**[4].

= صححه الألباني في «الصحيحة» (٣/ ٤١٠/ ١٤٢٤) علىٰ شرط مسلم.

وعليه؛ فالوجه الثاني هو المحفوظ في لفظ الحديث، وهو الذي رجحه الحافظ ابن عبد البر في «الاستيعاب»، فقال: «وهٰذا هو الصواب في إسناد هٰذا الحديث ومتنه، وإنما رواية الدراوردي عن إبراهيم بن عقبة لا عن موسىٰ بن عقبة» اهـ.

وعليه؛ فمكانة فاطمة إنما تأتي بعد مريم بنت عمران؛ بناء علىٰ هٰذا النص الصحيح، وثالثتهما خديجة، والرابعة آسية؛ عليهن السلام جميعًا. وهٰذا ما يفيده مجموع الأدلة المتقدمة. والله أعلىٰ وأعلم. والحمد لله رب العالمين.

(١) يعني: أصبح هو المعتمد والمقدَّم علىٰ الذي سبقه من الألفاظ.

(٢) وقد تقدم ذكر لفظ الحديث في الحاشية السابقة، وليس هو بالواو علىٰ الإطلاق كما ذكر المصنف رحمة الله عليه، وإنما فيه كما رأيت لفظة (بعد) التي تفيد الترتيب.

(٣) (صحيح). رواه: الطبراني (١٩/ ٢٨/ ٦٠، ٢٣/ ٤٢/ ١٠٧)، والحاكم (٣/ ٥٨٧)، وابن مردويه (٢/ ٤٩٩- بداية)؛ من طريق شعبة... به. لٰكن اقتصر الطبراني والحاكم علىٰ القطعة الأخيرة منه.

وحسن الهيثمي (٩/ ٢٤٦) إسناد الطبراني، وصحح ابن كثير إسناد ابن مردويه، وأقره الألباني في حاشية «صحيح الجامع». ويشهد لصحته حديث أبي موسىٰ الآتي بعده.

(٤) رواه: أحمد (٤/ ٣٩٤و٤٠٩)، والبخاري (٦٠- كتاب، ٣٢- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، =

فإنَّه حديثٌ صحيحٌ كما ترىٰ، اتَّفق الشيخان علىٰ إخراجِهِ، ولفظُهُ يقتضي حَصْرَ الكمال في النساء في مريمَ وآسيةَ، ولعلَّ المرادَ بذٰلك في زمانِهما؛ فإنَّ كلًّا منهما كَفَلَتْ نبيًّا في حال صِغَرِهِ؛ فآسيةُ كَفَلَتْ موسىٰ الكليمَ، ومريمُ كَفَلَتْ ولَدَها عبدَالله ورسولَه؛ فلا ينفي كمالَ غيرِهِما في هٰذه الأمَّة؛ كخديجةَ وفاطمةَ:

فخديجةُ خَدَمَتْ رسولَ الله ﷺ قبل البعثةِ خمسةَ عشر سنةً وبعدَها أزيدَ من عشر سنين، وكانتْ له وزيرَ صدقٍ بنفسها ومالها، رضي الله عنها وأرضاها.

وأمَّا فاطمةُ بنتُ رسول اللهِ ﷺ؛ فإنَّها خُصَّتْ بمزيدِ فضيلةٍ علىٰ أخواتها؛ لأنَّها أُصيبتْ برسول اللهِ ﷺ، وبقيةُ أخَواتها مُتْنَ في حياة النبيِّ ﷺ.

وأما عائشةُ؛ فإنَّها كانت أحبَّ أزواج رسول الله ﷺ إليه، ولم يتزوجْ بكرًا غيرَها، ولا يُعْرَفُ في سائرِ النساءِ في هٰذه الأمة -بل ولا في غيرها- أعلمُ منها ولا أفهمُ، وقد غار اللهُ لها حين قالَ لها أهلُ الإفكِ ما قالوا، فأنزلَ اللهُ براءَتَها من فوق سبع سماوات، وقد عُمِّرَتْ بعد رسول اللهِ ﷺ قريبًا من خمسين سنةً؛ تُبَلِّغُ عنه القرآنَ والسُّنَّةَ، وتُفتي المسلمينَ، وتُصْلِحُ بين المختلفينَ، وهي أشرفُ أمهاتِ المؤمنينَ، حتىٰ خديجةَ بنتِ خويلدٍ أمِّ البنات والبنينَ في قول طائفةٍ من العلماء السابقين واللاحقين، والأحسنُ الوقفُ فيهما رضي الله عنهما، وما ذاك إلَّا لأنَّ قولَه ﷺ: «**وفَضْلُ عائشةَ على النِّساءِ كفضل الثَّريدِ على سائر الطعام**»: يُحتَمَلُ أن يكونَ عامًّا بالنسبة إلىٰ المذكوراتِ وغيرهنَّ، ويُحْتَمَلُ أن يكونَ عامًّا بالنسبة إلىٰ ما عدا المذكوراتِ. والله أعلم.

والمقصودُ هاهنا: ذِكْرُ ما يتعلَّقُ بمريم بنتِ عمران عليها السلام؛ فإنَّ الله طَهَّرَها واصْطَفاها علىٰ نساء عالَمي زمانِها، ويجوزُ أنْ يكونَ تفضيلُها علىٰ النساءِ مطلقًا كما قَدَّمْنا.

۞ [ذكر ما ورد من أن مريم تكون من أزواج النبي ﷺ في الجنة]:

وقد وَرَدَ في حديثٍ أنَّها تكونُ من أزواج النبيِّ ﷺ في الجنةِ هي وآسيةُ بنتُ مزاحم، وقد ذَكَرْنا في «التفسير» عن بعض السلف أنَّه قال ذٰلك، واستأنس بقولِهِ: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبۡكَارٗا ۝٥﴾ [التحريم: ٥]؛ قال: فالثَّيِّبُ آسيةُ، ومن الأبكار مريم بنتُ عمران. وقد ذَكَرْناه في آخرِ سورة التحريم. فالله أعلم.

=٦/ ٤٤٦/ ٣٤١١)، ومسلم (٤٤- فضائل الصحابة، ١٢- فضل خديجة أم المؤمنين، ٤/ ١٨٨٦/ ٢٤٣١)، وابن ماجه (٢٩- الأطعمة، ١٤- فضل الثريد، ٢/ ١٠٩١/ ٣٢٨٠)، والترمذي (٢٦- الأطعمة، ٣١- فضل الثريد، ٤/ ٢٧٥/ ١٨٣٤)، والنسائي (٣٦- عشرة النساء، ٣- حب الرجل بعض نسائه أكثر، ٧/ ٦٨/ ٣٩٥٧).

قال الطبرانيُّ: حدَّثنا عبدُالله بن ناجيةَ، حدَّثنا محمدُ بن سعدٍ العوفيُّ، حدثنا أبي، أنبأنا عمي الحسينُ، حدثنا يونُسُ بن نفيع، عن سعدِ بن جُنادةَ (هو العوفيُّ)؛ قال: قال رسول الله: «إنَّ اللهَ زوَّجَني في الجنةِ مريم بنتَ عمرانَ وامرأةَ فرعونَ وأختَ موسى»[1].

وقال الحافظُ أبو يعلىٰ: حدثنا إبراهيمُ بن عَرْعَرَةَ، حدثنا عبدُالنور بن عبد الله، حدثنا

(١) (ضعيف جدًّا). وقد ساقه الحافظ ابن كثير من حديث عدد من الصحابة وغيرهم:

* **فأولها**: حديث سعد بن جنادة عند الطبراني في «الكبير» (٦/ ٥٢/ ٥٤٨٥/ ٢) بالسند المذكور. وسنده مظلمٌ مسلسلٌ بالضعفاء: محمد بن سعد العوفي: فيه ضعف. وسعد بن محمد بن الحسن؛ أبوه: لم يكن ممن يستأهل أن يكتب عنه. قاله أحمد. والحسين بن الحسن بن عطية؛ عمه: ضعيف. ويونس: لم أعرفه. وغالب الظن أنه يونس بن شعيب، وأن نفيعًا تصحيف فيه أو من أجداده؛ فإنه صاحب هٰذا الحديث عن أبي أمامة، ومن الطبقة نفسها؛ فإن كان هو؛ فمنكر الحديث. والحديث قال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٢٢١): «وفيه من لم أعرفهم».

* **والثاني**: حديث أبي أمامة عند: العقيلي في «الضعفاء» (٤/ ٤٥٩)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٥٩/ ٨٠٠٧)، وابن عدي في «الكامل» (٧/ ٢٦٣٧)؛ كلهم من طريق عبد النور... به، فذكره. قال الهيثمي (٩/ ٢٢١): «رواه الطبراني، وفيه خالد بن يوسف السمتي، وهو ضعيف». قلت: وعبد النور: إن كان هو المسمعي؛ فقد قال العقيلي: كان يغلو في الرفض، لا يقيم الحديث، وليس هو من أهله. وكذبه الذهبي. وإلا؛ فما عرفته. ويونس بن شعيب: قال البخاري: منكر الحديث. وأقره العقيلي. وضعفه الدولابي. فالسند واه بمرَّة.

* **والثالث**: حديث ابن أبي رواد عند: الزبير بن بكار في «النسب» (كما هنا)، ومن طريقه الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٤٥١/ ١١٠٠)؛ من طريق محمد بن حسن... فذكره. قال الهيثمي (٩/ ٢٢١): «رواه الطبراني، منقطع الإسناد، وفيه محمد بن الحسن بن زبالة وهو ضعيف». قلت: سقط التابعي والصحابي؛ فالسند معضل. ويعلىٰ بن المغيرة: لم أعرفه. ومحمد بن الحسن: متروك كذبوه. فالسند ساقط بمرة.

* **والرابع**: حديث ابن عباس عند ابن عساكر في «التاريخ» (٢٦/ ٨٨- مختصر ابن منظور). وفيه محمد بن زكريا الغلابي: ضعيف متهم. والعباس بن بكار: كذاب صاحب أباطيل. وأبو بكر الهذلي: متروك. فالسند ظلمات بعضها فوق بعض.

* **والخامس**: حديث ابن عمر عند ابن عساكر في «التاريخ» (٢٧/ ٨٧- مختصر ابن منظور). وفيه: سويد بن سعيد: عمي فصار يتلقن ما ليس من حديثه. ومحمد بن صالح بن عمر: مجهول. وأصل بشارة أمنا خديجة ببيت القصب مخرج: في الصحيحين من حديث أبي هريرة وعبد الله بن أبي أوفىٰ، وفي البخاري من حديث عائشة، وفي غيرهما من كتب السنة عن ابن عباس وابن جعفر وفاطمة وأبي سعيد ﭫ جميعًا. ولٰكن لم أجده في شيء من كتب السنة عن ابن عمر إلا هٰذا، ولم أجد هذه الزيادات إلا في حديث ابن عمر؛ مما يشير إلىٰ ضعفها ونكارتها. والله أعلم.

وعليه؛ فطرق هٰذا الحديث جميعها ضعيفة شديدة الضعف بادية النكارة لا تنهض لتقوية بعضها بعضًا. وقد استنكره الألباني في «الضعيفة» (٢/ ٢٢٠/ ٨١٢).

يونُسُ بن شُعيب، عن أبي أمامة؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**أشعرتِ أنَّ اللهَ زوَّجني مريمَ بنتَ عمرانَ وآسية بنتَ مزاحم وكَلْثَمَ أختَ موسى**»[١].

رواهُ أبو[٢] جعفر العقيليُّ من حديث عبد النور... به، وزاد: فقلت: هنيئًا لك يا رسول الله! ثم قال العقيليُّ: وليس بمحفوظٍ.

وقال الزُّبير بن بَكَّار: حدثني محمدُ بن الحسن، عن يَعْلىٰ بن المغيرةِ، عن ابن أبي روَّاد[٣]؛ قال: دخل رسولُ الله ﷺ علىٰ خديجةَ وهي في مرضِها الذي تُوُفِّيَتْ فيه، فقال لها: «**بالكُرْهِ مني ما أرى منكِ يا خَديجةُ! وقد يَجْعَلُ اللهُ في الكُرْهِ خيرًا كثيرًا، أما علمتِ أنَّ الله قد زوَّجَني معكِ في الجنَّةِ مريمَ بنتَ عمرانَ وكلثمَ أختَ موسى وآسيةَ امرأةَ فرعون؟**» قالت: وقد فَعَلَ الله بك ذٰلك يا رسولَ الله؟ قال: «**نعم**». قالت: بالرِّفاءِ والبنينَ[٤].

وروىٰ ابنُ عساكرَ من حديث: محمد بن زكريا الغِلابيِّ، حدثنا العباسُ بن بكَّارٍ، حدثنا أبو بكرٍ الهُذَليُّ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس: أنَّ رسولَ الله ﷺ دخل علىٰ خديجةَ وهي في مرض للموت، فقال: «**يا خديجةُ! إذا لَقيتِ ضَرائِرَكِ؛ فأقرئيهنَّ منِّي السلامَ**». قالت: يا رسول اللهِ! وهل تزوَّجْتَ قبلي؟ قال: «**لا، ولٰكنَّ الله زوَّجَني مريمَ بنتَ عمرانَ وآسيةَ بنتَ مزاحم وكلثمَ أختَ موسى**»[٥].

وروىٰ ابنُ عساكر من طريق: سويدِ بن سعيدٍ، حدَّثنا محمدُ بنُ صالح بن عمرَ، عن الضحَّاك ومجاهدٍ، عن ابن عمرَ؛ قال: نَزَلَ جبريلُ إلىٰ رسول اللهِ ﷺ بما أرسِلَ به، وجَلَسَ يحدِّثُ رسولَ الله ﷺ؛ إذْ مرتْ خديجةُ، فقال جبريلُ: مَنْ هٰذه يا محمدُ؟ قال: «**هٰذه صِدِّيقةُ أمَّتي**». قال جبريلُ: معي إليها رسالةٌ من الربِّ ﷻ يُقْرِئُها السلامَ، ويبشِّرُها ببيتٍ في الجنةِ من قصبٍ، بعيدٍ من اللهب، لا نَصَبَ فيه ولا صخب. قالت: اللهُ السلامُ، ومنه السلامُ، والسلامُ عليكُما ورحمة الله وبركاته علىٰ رسول الله، وما ذٰلك البيتُ الذي من قَصَبٍ؟ قال: «**لؤلؤةٌ**

(١) انظر تفصيل الكلام فيه في الحاشية السابقة.
(٢) في جميع الأصول: «ابن جعفر العقيلي»!! والرجل معروف.
(٣) في جميع الأصول: «ابن أبي داوود»! والتصويب من مصادر التخريج.
(٤) تقدم تفصيل الكلام فيها قبل قليل.
(٥) تقدم تفصيل الكلام فيها قبل قليل.

جوفاءُ بين بيتِ مريمَ بنتِ عمرانَ وبيتِ آسيةَ بنتِ مزاحم، وهما من أزواجي يومَ القيامةِ»[(١)].

وأصلُ السلام علىٰ خديجةَ من الله وبِشارَتِها ببيتٍ في الجنَّةِ من قصب لا صَخَبَ فيه ولا وَصَبَ في الصحيح، ولٰكنَّ هٰذا السياقَ بهٰذه الزياداتِ غريبٌ جدًّا.

وكلٌّ من هٰذه الأحاديث في أسانيدها نظرٌ.

وروىٰ ابنُ عساكرَ[(٢)] من حديث: أبي زُرعةَ الدمشقيِّ، حدَّثنا عبدُالله بن صالح، حدَّثني معاويةُ، عن صفوانَ بن عمرٍو، عن خالدِ بن معدانَ عن كعب الأحبارِ: أنَّ معاويةَ سألَه عن الصخرةِ (يعني: صخرةَ بيت المقدس)؟ فقال: الصخرةُ علىٰ نخلةٍ، والنخلةُ علىٰ نهرٍ من أنهارِ الجنَّةِ، وتحتَ النخلةِ مريمُ بنتُ عِمران وآسيةُ بنتُ مزاحم يَنْظُمانِ سموطَ[(٣)] أهل الجنة حتىٰ تقومَ الساعةُ.

ثم رواه من طريق: إسماعيلَ بن[(٤)] عياشٍ، عن ثعلبةَ بن مسلم، عن مسعودٍ بن[(٥)] عبد الرحمٰن، عن خالد بن مَعْدانَ، عن عبادةَ بن الصَّامِتِ، عن النبيِّ ﷺ... بمثله[(٦)]. وهٰذا منكرٌ من هٰذا الوجه، بل هو موضوعٌ.

وقد رواه أبو زُرعة: عن عبد الله بن صالح، عن معاويةَ، عن مسعود بن عبد الرحمٰن، عن ابن عابدٍ: أنَّ معاويةَ سأل كعبًا عن صخرةِ بيت المقدس فذكره.

---

(١) تقدم تفصيل الكلام فيها قبل قليل.

(٢) في «التاريخ» (٢٧/ ١٨ - مختصر ابن منظور).

(٣) سموط: جمع سِمْط: خيط النظم، أو: القلادة، أو: الثوب.

(٤) في جميع الأصول: «عن»! وهو خطأ ظاهر.

(٥) في جميع الأصول: «عن»! وهو خطأ ظاهر.

(٦) (موضوع). رواه ابن عساكر في «التاريخ» (٢٧/ ١٨ - مختصر ابن منظور). وهٰذا خبرٌ مظلمٌ فيه علل في سنده ومتنه: **الأولى**: أنه منقطع؛ فخالد بن معدان لم يسمع عبادة رضي الله عنه. **الثانية**: ثعلبة بن مسلم: قال في «الميزان»: «عن أبي بن كعب، وعنه إسماعيل بن عياش بخبر منكر». وقال في «التقريب»: «مستور». **والثالثة**: مسعود بن عبد الرحمن: لم أجد له ترجمة. وقد اضطرب فرواه مرة مرفوعًا، ومرة موقوفًا من كلام كعب كما يأتي بعده. **والرابعة**: أن صفوان بن عمرو -الثقة- قد خالف مسعودًا هٰذا فرواه عن خالد بن معدان موقوفًا من كلام كعب كما تقدم قبله. والخامسة: النكارة الشديدة في المتن؛ فهل يليق بمقام مريم وآسية عليهما السلام أن يعملن بخياطة الثياب ونظم الخرز وهما لم تعملان بهٰذا في الدنيا حتىٰ تعملا به في الآخرة؟! وهل في الجنة عمل وتعب وضنىٰ؟! ويا طول ما ستعملان!! فلا جرم أن يجعله الحافظ ابن كثير في جملة الموضوعات؛ فقاتل الله الوضاعين.

قال الحافظُ ابنُ عساكرَ: وكونُهُ من كلام كعبِ الأحبارِ أشبهُ.

قلت: وكلامُ كعبِ الأحبار هٰذا إنما تلقَّاه من الإسرائيلياتِ التي منها ما هو مكذوبٌ مفتعلٌ وضَعَه بعضُ زنادقتِهم أو جُهَّالِهم. وهٰذا منه(٧). والله أعلم

۞ ذكر ميلاد العبد الرسول عيسى ابن مريم العذراء البتول:

قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [مريم: ١٦-٣٧].

ذكر تعالىٰ هٰذه القصَّة بعد قصَّة زكريَّا التي هي كالمقدِّمة لها والتَّوطئَة قبلَها؛ كما ذكَرَ في سورة آل عمران، قَرَنَ بينهما في سياقٍ واحدٍ، وكما قال في سورة الأنبياء: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ

---

(٧) وهٰذا كلام سليم تمامًا؛ لأن بني إسرائيل لا علم لهم بآسية زوجة فرعون، ولا بإيمانها، وهذه التوراة التي بين أيديهم، ما فيها ذكر لزوجة فرعون، بل لابنته، ثم ما فيها ذكر لإيمان واحدة منهنَّ. فهذه من الإسرائيليات المكذوبة بعد الإسلام.

فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩١].

وقد تقدَّمَ أنَّ مريمَ لمَّا [وُلِدَتْ]؛ جَعلَتْها أمُّها محررةً تَخْدُمُ بيت المقدس، وأنَّه كَفَلَها زوجُ أختِها أو خالتِها نبيُّ ذٰلك الزمان زكريَّا ﷺ، وأنَّه اتَّخذَ لها محرابًا -وهو المكانُ الشريفُ من المسجدِ- لا يدخُلُه أحدٌ عليها سواه، وأنَّها لمَّا بَلَغَتْ؛ اجتهدتْ في العبادةِ، فلم يكنْ في ذٰلك الزمانِ نظيرُها في فنون العباداتِ، وظَهَرَ عليها من الأحوال ما غَبَطَها به زكريَّا ﷺ، وأنَّها خاطبَتْها الملائكةُ بالبِشارة لها باصطفاءِ الله لها، وبأنَّه سَيَهَبُ لها ولدًا زكيًّا يكونُ نبيًّا كريمًا طاهرًا مكرَمًا مؤيَّدًا بالمعجزاتِ، فتعجَّبَتْ من وجودِ ولدٍ من غير والدٍ؛ لأنَّها لا زوجَ لها، ولا هي ممَّنْ تتزوَّجُ، فأخبرَتْها الملائكةُ بأنَّ الله قادرٌ علىٰ ما يشاءُ، إذا قضىٰ أمرًا؛ فإنَّما يقولُ له: كُنْ! فيكونُ. فاستكانتْ لذٰلك وأنابتْ وسلَّمتْ لأمرِ الله، وعلمتْ أنَّ هٰذا فيه محنةٌ عظيمةٌ لها؛ فإنَّ الناس يتكلَّمون فيها بسببِهِ، لأنَّهم لا يعلمون حقيقةَ الأمر، وإنَّما ينظُرون إلىٰ ظاهرِ الحال من غير تدبُّرٍ ولا تعقُّل.

وكانت إنَّما تخرُجُ من المسجدِ في زمن حيضِها أو لحاجةٍ ضروريَّةٍ لا بدَّ منها من استقاءِ ماءٍ أو تحصيل غذاءٍ؛ فبينما هي يومًا قد خرجتْ لبعض شؤونها وانْتَبذَت؛ أي: انفردتْ وحدَها شرقيَّ المسجدِ الأقصىٰ؛ إذْ بَعَثَ الله إليها الرُّوحَ الأمينَ جبريلَ ﷺ، ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ [مريم: ١٧].

فلمَّا رأتْه؛ ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ [مريم: ١٨]: قال أبو العاليةِ: عَلِمَتْ أنَّ التقيَّ ذو نُهيةٍ[1]. وهٰذا يردُّ قولَ مَنْ زَعَمَ أنَّه كان في بني إسرائيل رجلٌ فاسقٌ مشهورٌ بالفسق اسمُهُ تقيٌّ! فإنَّ هٰذا قولٌ باطلٌ بلا دليل، وهو من أسخف الأقوال.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٩]؛ أي: خاطَبَها المَلَكُ؛ قال[2]: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أي: لستُ ببشرٍ، ولكنِّي مَلَكٌ بعثني الله إليك. ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم: ١٩]؛ أي: ولدًا زكيًّا.

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾ [مريم: ٢٠]؛ أي: كيف يكونُ لي غلامٌ أو يوجدُ لي ولدٌ. ﴿وَلَمْ

(١) يعني: أن عنده من تقوىٰ الله ما يردعه ويردُّه إذا ذُكِّر بالله، وأما الشقيُّ الذي لا يخشىٰ الله ولا يرقبه في أفعاله وتصرفاته؛ فلا فائدة من تذكيره بالله تعالىٰ وتخويفه غضبَه.

(٢) في نسخة: «قائلاً».

﴿يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠﴾ [مريم: ٢٠]؛ أي: ولستُ ذاتَ زوج، وما أنا ممَّنْ يفعلُ الفاحشةَ!

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ﴾ [مريم: ٢١]؛ أي: فأجابها المَلَكُ عن تعجُّبِها من وجودِ ولدٍ منها والحالةُ هٰذه؛ قائلًا: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾، أي: وَعَدَ أنَّه سَيَخْلُقُ منك غلامًا، ولستِ بذاتِ بعلٍ، ولا تكونينَ ممَّن تبْغين. ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ﴾؛ أي: وهٰذا سهلٌ عليه ويسيرٌ لديه؛ فإنَّه علىٰ ما يشاء قدير.

وقوله: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١]؛ أي: ولنجعلَ خَلْقَهُ والحالةُ هٰذه دليلًا علىٰ كمال قدرتِنا علىٰ أنواع الخَلْق؛ فإنَّه تعالىٰ خَلَقَ آدمَ من غير ذكرٍ ولا أنثىٰ، وخلقَ حواءَ من ذَكَرٍ بلا أنثىٰ، وخَلَقَ عيسىٰ من أنثىٰ بلا ذكرٍ، وخَلَقَ بقيَّةَ الخلق من ذَكَرٍ وأنثىٰ.

وقوله: ﴿وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ﴾ [مريم: ٢١]؛ أي: نرحمُ به العباد؛ بأنْ يدعوَهُم إلىٰ الله في صغرِهِ وكِبَرِهِ في طُفولِيَّتِهِ وكُهولِيَّتِهِ؛ بأن يُفرِدوا الله بالعبادة وحدَه لا شريك له، وينزِّهوه عن اتِّخاذِ الصاحبةِ والأولادِ والشركاءِ والنظراءِ والأضدادِ والأندادِ.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١﴾ [مريم: ٢١]: يُحْتَمَلُ أنْ يكون هٰذا من تمام كلام جبريلَ معها؛ يعني: أنَّ هٰذا أمرٌ قد قضاه الله وحَتَّمَه وقدَّره وقرَّره. وهٰذا معنىٰ قول محمدِ بن إسحاقَ، واختارَهُ ابنُ جريرٍ(١)، ولم يَحْكِ سواه. والله أعلم. ويُحْتَمَلُ أن يكونَ قولُه: ﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١﴾: كنايةٍ عن نفخ جبريلَ فيها؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]: فذكر غيرُ واحدٍ من السلفِ أنَّ جبريل نَفَخَ في جيبِ دِرْعِها(٢)، فنزلتِ النفخةُ إلىٰ فرجِها، فحملتْ من فَوْرِها كما تحمِلُ المرأةُ عند جماعِ بعلِها. ومَنْ قال: إنَّه نَفَخَ في فمِها! أو: إنَّ الذي كان يُخاطِبُها هو الرُّوحُ الذي وَلَجَ فيها من فمِها! فقولُهُ خلافُ ما يُفْهَمُ من سياقات هٰذه القصة في محالِّها من القرآن؛ فإنَّ هٰذا السياقَ يدلُّ علىٰ أن الذي أُرْسِلَ إليها مَلَكٌ من الملائكة، وهو جبريلُ عليه السلام، وأنَّه إنَّما نَفَخَ فيها، ولم يواجِهِ المَلَكُ الفرجَ، بل نَفَخَ في جَيْبِها، فنزلت النفخةُ إلىٰ فرجِها، فانسلكتْ فيه؛ كما قال تعالىٰ:

(١) في «التفسير» (٨/ ٣٢١/ مريم ٢١).

(٢) الدِّرْع: القميص. وجيب الدِّرْع: طوقه عند العنق، وهو ما يعرف اليوم بالقَبَّة.

﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، فدلَّ[١] علىٰ أنَّ النفخةَ وَلَجَتْ فيه لا في فمِها؛ كما رُوِيَ عن أبيّ بن كَعْب، ولا في صَدْرِها؛ كما رواه السُّدِّيُّ بإسناده عن بعض الصحابةِ.

ولهٰذا قال تعالىٰ: ﴿فَحَمَلَتۡهُ﴾ [مريم: ٢٢]؛ أي: فحملتْ وَلَدَها. ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾﴾ [مريم: ٢٢]: وذٰلك لأنَّ مريمَ عليها السلام لمَّا حَمَلَتْ؛ ضاقتْ به ذَرْعًا، وعلمتْ أنَّ كثيرًا من الناس سيكونُ منهم كلامٌ في حقِّها.

فذَكَرَ غيرُ واحدٍ من السلف -منهم وَهْبُ بن منبِّهٍ- أنَّها لمَّا ظهرتْ عليها مخايلُ الحمل؛ كان أولَ مَنْ فَطِنَ لذٰلك رجلٌ من عُبَّادِ بني إسرائيل يقالُ له: يوسفُ بنُ يعقوبَ النَّجَّارُ، وكان ابنَ خالِها، فجعلَ يتعجَّبُ من ذٰلك عجبًا شديدًا، وذٰلك لِما يعلمُ من ديانَتِها ونزاهتِها وعبادتِها، وهو مع ذٰلك يراها حُبلىٰ وليس لها زوجٌ! فَعَرَّضَ لها ذاتَ يوم في الكلام، فقال: يا مريمُ! هل يكونُ زرعٌ من غيرِ بَذْرٍ؟ قالت: نعم؛ فمن خَلَقَ الزرعَ الأولَ؟ ثم قال: فهل يكونُ شجرٌ من غيرِ ماءٍ ولا مطرٍ؟ قالت: نعم؛ فمَنْ خَلَقَ الشَّجَرَ الأولَ؟ ثم قال: فهل يكونُ ولدٌ من غير ذَكَرٍ؟ قالت: نعم؛ إنَّ الله خَلَقَ آدم من غير ذكرٍ ولا أنثىٰ. قال لها: فأخبريني خَبَرَكِ. فقالتْ: إنَّ الله بشَّرني ﴿بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٦].

ويُروىٰ مثلُ هٰذا عن زكريَّا عليه السلام أنَّه سألَها فأجابتْه بمثل هٰذا. والله أعلم.

وذَكَرَ السُّدِّيُّ بإسنادِهِ عن الصحابة: أنَّ مريمَ دخلتْ يومًا علىٰ أختِها، فقالت لها أختُها: أشعرتِ أنِّي حُبلىٰ؟ فقالت مريمُ: وشعرتِ أيضًا أنِّي حبلىٰ؟ فاعْتَنَقَتْها وقالتْ لها أمُّ يحيىٰ: إنِّي أرىٰ ما في بطني يسجُدُ لِما في بطنِكِ! وذٰلك قولُه: ﴿مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩]. ومعنىٰ السجودِ هاهنا الخضوعُ والتعظيم؛ كالسجود عند المواجهةِ للسَّلام؛ كما كان في شرع مَنْ قَبْلَنا، وكما أمر الله الملائكةَ بالسجودِ لآدمَ.

وقال أبو القاسم: قال مالكٌ: بلغني أنَّ عيسىٰ ابنَ مريم ويحيىٰ بنَ زكريَّا ابنا خالةٍ، وكان حملُهُما جميعًا معًا، فبلغني أنَّ أمَّ يحيىٰ قالت لمريمَ: إنِّي أرىٰ ما في بطني يَسْجُدُ لِما في بطنِكِ.

---

(١) في نسخة: «يدل».

قال مالكٌ: أرىٰ ذٰلك لتفضيل عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّ الله تعالىٰ جَعَلَهُ يُحيي الموتىٰ ويبرئُ الأكمه والأبرص. رواه ابن أبي حاتم(١).

ورُوِي عن مجاهدٍ؛ قال: قالتْ مريمُ: كنتُ إذا خلوتُ؛ حدَّثني وكلَّمني، وإذا كنتُ بين الناس؛ سَبَّحَ في بطني.

ثم الظاهرُ أنَّها حملتْ به تسعةَ أشهرٍ كما تَحْمِلُ النساءُ ويَضَعْنَ لميقاتِ حملهنَّ ووضعهنَّ؛ إذْ لو كان خلافَ ذٰلك؛ لَذُكِرَ. وعن ابن عباس وعكرمة: أنَّها حملتْ به ثمانيةَ أشهرٍ. وعن ابن عباس: ما هو إلَّا أنْ حَمَلَتْ به فوضَعَتْهُ. قال بعضُهم: حملتْ به تسعَ ساعاتٍ. واستأنسوا لذٰلك بقوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۝٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٢-٢٣]. والصحيحُ أنَّ تعقيب كل شيء بحسبه؛ كقوله: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣]، وكقوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: ١٤]، ومعلوم أن بين كلِّ حالين أربعين يومًا؛ كما ثبت في الحديث المتَّفَق عليه(٢).

قال محمدُ بن إسحاقَ: شاع واشْتُهِرَ في بني إسرائيل أنَّها حاملٌ؛ فما دَخَلَ علىٰ أهل بيتٍ ما دَخَلَ علىٰ آل بيتِ زكريَّا. قال: واتَّهمها بعضُ الزنادقةِ بيوسفَ الذي كان يتعبَّدُ معها في المسجدِ، وتوارتْ عنهم مريمُ واعتزلتْهم وانتبذتْ مكانًا قَصِيًّا.

وقوله: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٣]؛ أي: فألجأها واضطرَّها الطَّلْقُ إلىٰ جذع النخلةِ، وهو بنصِّ الحديث الذي رواه النَّسائيُّ بإسنادٍ لا بأس به عن أنس مرفوعًا والبيهقيُّ بإسنادٍ وصحَّحه عن شدَّاد بن أوس مرفوعًا أيضًا ببيتِ لحمٍ(٣) الذي بنىٰ عليه بعضُ

---

(١) ولم أجده في مطبوعة أسعد محمد الطيب.

(٢) يشير إلىٰ قوله ﷺ: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك...». رواه: البخاري (٥٩- بدء الخلق، ٦- ذكر الملائكة، ٦/ ٣٠٣/ ٣٢٠٨)، ومسلم (٤٦- القدر، ١- كيفية خلق الآدمي، ٤/ ٢٠٣٦/ ٢٦٤٣)؛ من حديث ابن مسعود.

(٣) (منكر). وهو قطعة من حديث أنس وشداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قصة الإسراء:

فأما حديث أنس؛ فرواه النسائي (٥- الصلاة، ١- فرض الصلاة، ١/ ٢٢١/ ٤٤٩): أنا عمرو بن هشام، ثنا مخلد، عن سعيد بن عبد العزيز، ثنا يزيد بن أبي مالك، قال أنس بن مالك:... فذكر حديث الإسراء والمعراج =

ملوكُ الروم فيما بعدُ -علىٰ ما سنذكُرُه- هٰذا البناءَ المشاهَدَ الهائلَ.

﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم: ٢٣]: فيه دليلٌ علىٰ جواز تمنِّي الموتِ عند الفتن، وذٰلك أنَّها علمتْ أنَّ الناس يتَّهِمونها ولا يصدِّقونها بل يكذِّبونها حين تأتِيهم بغلام علىٰ يَدِها؛ مع أنَّها قد كانت عندَهم من العابداتِ الناسكاتِ المجاوراتِ في المسجدِ المنقطعاتِ إليه المعتكفاتِ فيه، ومن بيتِ النبوَّةِ والديانةِ، فحملتْ بسبب ذٰلك من الهمِّ ما تمنَّتْ أن لو كانتْ ماتت قبلَ هٰذا الحال أو كانت ﴿نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: لم تُخْلَقْ بالكُلِّيَّةِ.

وقوله: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ [مريم: ٢٤] - وقرئ ﴿مَنْ تَحْتَهَا﴾-: علىٰ الخفض، وفي المضمر قولان:

= الطويل، وفيه قول النبي ﷺ: «**صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى** عليه السلام». ويزيد: صدوق ربما وهم. وسعيد: ثقة اختلط آخر عمره. ومخلد: صدوق له أوهام. فالسند لا بأس به كما قال الحافظ ابن كثير، لولا أنه انفرد بزيادات في متن حديث الإسراء -ومنها اللفظ المذكور- لم يتابعه عليها أحدٌ؛ فمثل هٰذا السند لا يحتمل هذه الزيادات؛ فهي دائرة بين الشذوذ والنكارة، بل قد قال فيها الحافظ ابن كثير نفسه في «التفسير» (٣/ ٦/ الإسراء١): «وفيها غرابة ونكارة جدًّا». وقال الألباني: «منكر».

وأما حديث شداد بن أوس؛ فرواه: البزار في «المسند» (١/ ٩٠/ ٣٢- مختصر الزوائد)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٣/ ١٤- ابن كثير، وليس في مطبوعة الطيب)، والطبراني في «الكبير» (٧/ ٢٨٢/ ٧١٤٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٥٥)؛ من طرق عن إسحاق بن إبراهيم الحمصي، ثنا عمرو بن الحارث، حدثني عبد الله بن سالم، عن الزبيدي، حدثني الوليد بن عبد الرحمن، أن جبير بن نفير حدثه، ثنا شداد بن أوس... فذكر حديث الإسراء والمعراج الطويل، وفيه قول النبي ﷺ: «**صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى المسيح ابن مريم**». قال البزار: «لا نعلمه يروىٰ عن شداد إلا بهٰذا الإسناد». وقال البيهقي: «هٰذا إسناد صحيح»! قلت: إسحاق بن إبراهيم: ضعفه الذهبي، ولخص حاله الحافظ فقال: «صدوق يهم كثيرًا وأطلق محمد بن عوف أنه يكذب».

وعمرو بن الحارث: قال الذهبي: «مجهول العدالة»، وتساهل الحافظ فقبله في المتابعات. وبقية رجال السند ثقات. فعلىٰ هٰذا؛ فالسند ضعيف. وإن قلنا: هو صالح؛ علىٰ التنزل والتساهل؛ فإنه لا يحتمل التفرد بزيادات لم يتابع عليها. وعلىٰ هٰذا ينبغي أن يحمل تصحيح البيهقي له؛ فهو إنما قال: «هٰذا إسناد صحيح، وروي ذلك مفرقًا من أحاديث غيره، ونحن نذكر من ذلك إن شاء الله ما حضرنا»؛ فتصحيحه إنما هو بالشواهد لا علىٰ إطلاقه.

ولذلك تعقبه الحافظ ابن كثير في «التفسير» (٣/ ١٤/ الإسراء ١) فقال: «ولا شك أن هٰذا الحديث مشتمل علىٰ أشياء منها ما هو صحيح كما ذكره البيهقي ومنها ما هو منكر كالصلاة في بيت لحم وسؤال الصديق عن نعت بيت المقدس وغير ذلك».

وعلىٰ هٰذا؛ فطرق قصة بيت لحم هذه كلها ضعيفة منكرة؛ فلا تقوم ببعضها ولا تتقوىٰ. والله أعلم.

أحدُهما: أنَّه جبريلُ. قاله العوفيُّ عن ابن عباس. قال: ولم يتكلَّمْ عيسىٰ إلَّا بحضرةِ القوم. وبهٰذا قال سعيدُ بن جُبير وعمرو بن ميمونَ والضحاكُ والسُّدِّيُّ وقَتادةُ.

وقال مجاهدٌ والحسنُ وابنُ زيد وسعيدُ بن جُبير في روايةٍ: هو ابنُها عيسىٰ. واختارَه ابنُ جرير(١).

وقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ [مريم: ٢٤]: **قيل**: النهرُ. وإليه ذهب الجمهورُ. وجاء فيه حديثٌ رواه الطبرانيُّ، لٰكنَّه ضعيفٌ(٢) واختاره ابنُ جريرٍ(٣)، وهو الصحيح. وعن الحسن والربيع بن أنس وابن أسلمَ وغيرِهم: أنَّه ابنُها. والصحيح الأولُ؛ لقوله: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم: ٢٥]: فذكر الطعام والشراب، ولهٰذا قال: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٦].

ثم قيل: كان جِذْعُ النخلة يابسًا. **وقيل**: كانت نخلةً مثمرةً. فالله أعلم. ويُحْتَمَلُ أنَّها كانت نخلةً، لٰكنَّها لم تكنْ مثمرةً إذ ذاك؛ لأنَّ ميلادَه كان في زمن الشتاءِ، وليس ذاك وقتَ ثمرٍ، وقد يُفْهَمُ ذٰلك من قولِهِ تعالىٰ علىٰ سبيل الامتنانِ: ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) في «التفسير» (٨/ ٣٢٨/ مريم٢٤).

(٢) (ضعيف). رواه الطبراني في «الصغير» (٢٩٠/ ٦٨٦): ثنا عبد الله بن إسماعيل، ثنا سعيد بن عمرو، ثنا بقية بن الوليد، عن معاوية بن يحيىٰ الصدفي، عن أبي سنان، عن أبي إسحاق، عن البراء، عن النبي ﷺ؛ في قوله ﷻ: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾؛ قال: «النهر». وهٰذا سند ضعيف فيه علل: فالأولىٰ: تدليس بقية، وقد عنعن. والثانية: ضعف معاوية. وبه ضعف الهيثمي (٧/ ٥٧) الحديث. والثالثة: أوهام سعيد بن سنان أبي سنان. وقد قال الطبراني: «لم يرفع هٰذا الحديث عن أبي إسحاق إلا أبو سنان». والرابعة: أن سفيان خالفه فرواه عن أبي إسحاق عن البراء موقوفًا. أخرجه الحاكم (٢/ ٣٧٣) وصححه علىٰ شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وعليه؛ فالرفع في هٰذا الحديث منكر.

ورواه أيضًا الطبراني في «الكبير» (١٢/ ٢٦٥/ ١٣٣٠٣): ثنا أبو شعيب الحراني، ثنا يحيىٰ بن عبد الله، ثنا أيوب بن نهيك؛ قال: سمعت عكرمة، سمعت ابن عمر، سمعت النبي ﷺ... فذكره بنحوه. وهٰذا سند ضعيف أيضًا: قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٥٨): «رواه الطبراني، وفيه يحيىٰ بن عبد الله البابلتي، وهو ضعيف». وقال الحافظ ابن كثير في «التفسير» (٣/ ١١١/ مريم٢٥): «وأيوب بن نهيك هٰذا هو الحبلي: قال فيه أبو حاتم الرازي: ضعيف. وقال أبو زرعة: منكر الحديث. وقال أبو الفتح الأزدي: متروك الحديث». فالضعف خير أحوال هٰذا السند.

(٣) في «التفسير» (٨/ ٣٢٨/ مريم٢٤).

قال عمرو بن ميمون: ليس شيءٌ أجودَ للنُّفساءِ من التمرِ والرُّطبِ. ثم تلا هٰذه الآيةَ.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا عليُّ بن الحسين، حدثنا شيبانُ، حدثنا مسرورُ بن سعيدٍ التميميُّ، حدثنا عبد الرحمٰن بن عمرٍو الأوزاعيُّ، عن عروةَ بن رُوَيْم، عن عليِّ بن أبي طالبٍ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أكرِموا عمَّتَكُمُ النخلةَ؛ فإنَّها خُلِقَتْ من الطينِ الذي خُلِقَ منه آدمُ، وليس من الشجرِ شيءٌ يُلْقَحُ غيرَها»**. وقال رسول الله ﷺ: **«أطعِموا نساءَكُمُ الوُلَّدَ الرُّطَبَ؛ فإنْ لم يكنْ رُطَبٌ؛ فتمرٌ، وليس من الشجر شجرةٌ أكرَمَ على الله من شجرةٍ نَزَلَتْ تحتَها مريمُ بنتُ عِمْرانَ»**[1].

وكذا رواه أبو يعلىٰ في «مسنده» عن: شيبانَ بن فرُّوخ، عن مسروق[2] بن سعيد (وفي روايةٍ: مسرور بن سعدٍ). والصحيح مسرور بن سعيد التميميِّ، أورد له ابنُ عديٍّ هٰذا الحديثَ هن الأوزاعيِّ... به. ثم قال: وهو منكرُ الحديثِ، ولم أسمعْ بذكرِهِ إلَّا في هٰذا الحديث. وقال ابنُ حبانَ: يروي عن الأوزاعيِّ المناكير الكثيرةَ التي لا يجوزُ الاحتجاجُ بمَنْ يَرْويها.

وقوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ۝٢٦﴾ [مريم: ٢٦]: وهٰذا من تمام كلام الذي ناداها من تحتِها؛ قال: ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾؛ أي: فإنْ رأيتِ أحدًا من الناس. ﴿فَقُولِىٓ﴾ له؛ أي: بلسان الحال والإشارة. ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾؛ أي: صمتًا، وكان من صومهم في شريعتِهِم تركُ الكلام والطعام.

---

(١) (موضوع). رواه: ابن أبي حاتم في «التفسير» (٧/ ٢٤٠٦/ ١٣١١٣)، وأبو يعلىٰ (١/ ٣٥٣/ ٤٥٥)، والعقيلي في «الضعفاء» (٤/ ٢٥٦)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢٤٢٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٢٣)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٨٣)؛ من طريق مسرور بن سعيد... به، فذكره. وسنده ضعيف جدًّا: عروة بن رويم لم يدرك من هو دون علي؛ فكيف به؟! فالسند منقطع. ومسرور بن سعيد: قد علمت حالة من كلام الحافظ ابن كثير. والحديث: قال العقيلي: «غير محفوظ». وقال أبو نعيم: «غريب من حديث الأوزاعي عن عروة، تفرد به مسرور بن سعيد». وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٩٢): «رواه أبو يعلىٰ، وفيه مسرور بن سعيد التميمي، وهو ضعيف». وساقه الحافظ فيما أنكر علىٰ مسرور في «اللسان». وقال الألباني في «الضعيفة» (١/ ٤٢٨/ ٢٦٣): «موضوع».

وله شاهد من حديث ابن عمر عند: ابن عدي في «الكامل» (٢/ ٥٧٨)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٨٤). وفيه جعفر بن أحمد. قال ابن عدي: «لا أشك أن جعفرًا وضعه». وأقره ابن الجوزي.

(٢) في جميع الأصول: «مسرور»! والتصويب من «مسند أبي يعلىٰ».

قاله قَتادةُ والسُّدِّيُّ وابنُ أسلمَ، ويدلُّ علىٰ ذٰلك قولُه: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾. فأما في شريعتِنا؛ فيكرهُ للصائم صمتُ يوم إلىٰ الليل[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: ٢٧-٢٨]: ذكر كثيرٌ من السلف ممَّن يَنْقُلُ عن أهل الكتاب أنَّهم لمَّا افْتَقَدوها من بين أظهُرِهم؛ ذهبوا في طَلَبِها، فمرُّوا علىٰ مَحلَّتِها والأنوارُ حولَها، فلمَّا واجَهوها؛ وَجَدوا معها ولدَها، فقالوا لها: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: أمرًا عظيمًا منكرًا!! وفي هٰذا الذي قالوه نظرٌ؛ مع أنَّه كلامٌ ينقُضُ أوَّلُه آخرَه! وذٰلك لأنَّ ظاهرَ سياقِ القرآن العظيم يدلُّ علىٰ أنَّها حملتْه بنفسِها وأتتْ به قومَها وهي تحمِلُه. قال ابنُ عباس: وذٰلك بعدما تعالَّتْ[٢] من نِفاسها بعد أربعين يومًا.

والمقصودُ: أنَّهم لمَّا رأَوْها تحمِلُ معها ولَدَها؛ ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾: والفِرْيَةُ هي الفَعْلَةُ المنكرةُ العظيمةُ من الفِعال والمَقال.

ثم قالوا لها: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾: **قيل**: شبَّهوها بعابدٍ من عُبَّادِ زمانِهم كانت تُساميه في العبادة، وكان اسمُهُ هارونَ. **وقيلَ**: شبَّهوها برجلٍ فاجرٍ في زمانِهِمُ اسمُهُ هارونَ قاله سعيدُ بن جُبير. **وقيلِ**: أرادوا بهارونَ أخا موسىٰ؛ شبَّهوها به في العبادة. وأخطأ محمدُ بن كعبٍ القُرَظِيُّ في زعمِهِ أنَّها أختُ موسىٰ وهارونَ نسبًا! فإنَّ بينَهما من الدُّهورِ الطويلةِ ما لا يخفىٰ علىٰ أدنىٰ مَن عندَه من العلم ما يردُّه عن هٰذا القول الفظيع! وكأنَّه غرَّه أنَّ في التوراةِ[٣] أنَّ مريمَ أختَ موسىٰ وهارونَ ضربتْ بالدُّفِّ يوم نَجَّىٰ الله موسىٰ وقومَه وأغرق فرعونَ وملأه. فاعتقدَ أنَّ هٰذه هي هٰذه! وهٰذا في غايةِ البطلانِ والمُخالفة للحديثِ الصحيح مع نصِّ القرآن؛ كما قرَّرناه في «التفسير» مطوَّلًا، ولله الحمدُ والمنَّةُ[٤]. وقد ورد الحديثُ الصحيحُ الدالُّ علىٰ أنَّه قد كان لها أخٌ اسمُهُ هارونُ،

---

(١) قال ﷺ: «لا صُمات يوم إلىٰ الليل». رواه أبو داوود (١٢- الوصايا، ٩- متىٰ ينقطع اليتم، ٢/ ١٢٨/ ٢٨٧٣). وهو حديث حسن بشواهده. وصححه الألباني. وقد فصلت تخريجه في «الرياض» (رقم ١٨٥٨).

(٢) تعالَّت من نفاسها: نقهت وتحسنت صحتها.

(٣) (سفر الخروج/ الأصحاح ١٥).

(٤) وقد تقدم للمؤلف رحمة الله عليه كلام كهٰذا في (ص٣٩٨).

وليس في ذِكْرِ قصَّةِ ولادتِها وتحريرِ أمِّها لها ما يدلُّ علىٰ أنَّها ليس لها أخٌ سواها. والله أعلم.

قال الإمام أحمدُ: حدثنا عبدُالله بنُ إدريسَ، سمعت أبي يذكره، عن سماكٍ، عن علقمةَ بن وائل، عن المغيرةِ بن شُعبة؛ قال: بَعَثَني رسولُ الله ﷺ إلىٰ نَجْرانَ، فقالوا: أرأيتَ ما تقرؤونَ: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾؛ وموسىٰ قبل عيسىٰ بكذا وكذا؟! قال: فرجعتُ، فذكرتُ ذٰلك لرسول الله ﷺ؟ فقال: «**ألا أخْبَرْتَهم أنَّهم كانوا يُسَمُّونَ بالأنبياءِ والصالحينَ قبلَهم**»[1]. وكذا رواه مسلمٌ والنسائيُّ والترمذيُّ من حديث عبد الله بن إدريس. وقال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ غريبٌ لا نعرِفُه إلَّا من حديثه. وفي رواية. «**ألا أخبرتَهُم أنَّهم كانوا يَتَسَمَّوْنَ بأسماءِ صالحيهم وأنبيائِهِم**».

وذَكَرَ قَتادة وغيره أنَّهم كانوا يُكْثِرونَ من التسميةِ بهارون، حتى قيل: إنَّه حَضَرَ بعضَ جنائزهم بشرٌ كثيرٌ، منهم ممَّن يُسَمَّىٰ بهارون أربعون ألفًا. فالله أعلم.

والمقصودُ: أنَّهم قالوا: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾، ودلَّ الحديثُ علىٰ أنَّها قد كان لها أخٌ نسبيٌّ اسمُه هارونُ، وكان مشهورًا بالدِّينِ والصلاحِ والخيرِ، ولهٰذا قالوا: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ۝٢٨﴾؛ أي: لستِ من بيتٍ هٰذا شيمتُهم ولا سجيَّتُهم؛ لا أخوكِ ولا أمُّكِ ولا أبوكِ!

فاتَّهموها بالفاحشةِ العظمىٰ، ورَمَوْها بالداهيةِ الدهياء! فذكر ابنُ جريرٍ في «تاريخه»[2] أنَّهم اتَّهموا بها زكريَّا، وأرادوا قتلَه، ففرَّ منهم، فلحِقوه، وقد انشقَّتْ له الشجرةُ، فدخلها، وأمسك إبليسُ بطرف ردائِهِ، فنشروه فيها؛ كما قدَّمناه[3]. ومن المنافقين مَن اتَّهمها بابن خالها يوسفَ بنِ يعقوبَ النَّجَّارِ.

فلمَّا ضاق الحالُ وانحصر المجالُ وامتنع المقالُ؛ عَظُمَ التوكُّل علىٰ ذي الجَلال، ولم يَبْقَ إلَّا الإخلاصُ والاتِّكال. ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ﴾ [مريم: ٢٩]؛ أي: خاطِبوه وكلِّموه؛ فإنَّ جوابَكم عليه، وما تَبْغون من الكلام لديه. فعندها ﴿قَالُواْ﴾ [مريم: ٢٩]؛ مَنْ كان منهم جبَّارًا شقيًّا. ﴿كَيۡفَ

---

(١) رواه: أحمد (٤/ ٢٥٢)، ومسلم (٣٨- الآداب، ١- النهي عن التكني بأبي القاسم، ٣/ ١٦٨٥/ ٢١٣٥)، والترمذي (٤٨- التفسير، ٢٠- ومن سورة مريم، ٥/ ٣١٥/ ٣١٥٥)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨/ ٤٧٦/ ١١٥١٩- تحفة).

(٢) (١/ ٣٥٣).

(٣) (ص ٦٠٥).

﴿تُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ۝٢٩﴾ [مريم: ٢٩]؛ أي: كيف تُحيلينا في الجواب علىٰ صبيٍّ صغيرٍ لا يَعْقِلُ الخطابَ، وهو مع ذٰلك رضيعٌ في مهدِه ولا يميِّزُ بين مَحْضٍ وزبدِه[1]، وما هٰذا منك إلا علىٰ سبيل التهكُّم بنا والاستهزاء، والتَنَقُّصِ لنا والازدراء؛ إذْ لا تردِّين علينا قولًا نُطْقِيًّا، بل تُحيلين في الجواب علىٰ مَنْ كان في المهدِ صَبيًّا؟!

فعندها قالَ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣﴾ [مريم: ٣٠-٣٣]:

هٰذا أولُ كلام تفوَّه به عيسىٰ ابنُ مريم، فكان أولَ ما تكلَّمَ به أنْ قالَ: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾: اعترفَ لربِّه تعالىٰ بالعبوديَّة، وأنَّ الله ربَّه، فنزَّه جَنابَ الله عن قول الظالمين في زعمِهم أنَّه ابنُ الله، بل هو عبدُهُ ورسولُهُ وابنُ أَمَتِه. ثم برَّأ أمَّه ممَّا نَسَبَها إليه الجاهلون وقَذَفوها به ورَمَوْها بسببه بقوله: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠﴾؛ فإنَّ الله لا يعطي النبوَّةَ من هو كما زعموا لَعَنَهُمُ الله وقبَّحهم؛ كما قال تعالىٰ ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ۝١٥٦﴾ [النساء: ١٥٦]، وذٰلك أنَّ طائفةً من اليهود في ذٰلك الزمان قالوا: إنَّها حملت به من زنًىٰ في زمن الحيض! لعنهم الله. فبرَّأها الله من ذٰلك، وأخبر عنها أنَّها صدِّيقةٌ، واتَّخذ ولَدَها نبيًّا مرسَلًا أحدَ أولي العزم الخمسة الكبار. ولهٰذا قال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ : وذٰلك أنَّه حيثُ كان؛ دعا إلىٰ عبادة الله وحدَه لا شريكَ له، ونزَّهَ جنابَه عن النقص والعيب من اتِّخاذِ الولد والصاحبة تعالىٰ وتقدَّس. ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١﴾: وهٰذه وظيفةُ العبيد؛ في القيام بحقِّ العزيز الحميد بالصلاة، والإحسان إلىٰ الخليقة بالزكاة، وهي تشتملُ علىٰ طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة، وتطهيرِ الأموال الجزيلة، بالعَطِيَّةِ للمحاويج علىٰ اختلاف الأصناف، وقِرىٰ الأضياف، والنفقات علىٰ الزوجات والأرقَّاء والقرابات، وسائر وجوه الطَّاعات وأنواع القُرُبات. ثم قال: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢﴾؛ أي: وجَعلَني برًّا بوالدتي، وذٰلك أنَّه تأكَّد حقُّها عليه؛ لتمحُّضِ جهتِها؛ إذْ لا والد له سواها؛ فسبحان مَنْ خَلَقَ الخليقة

(١) المحض: اللبن الخالص؛ فإذا أخذ منه الزبد؛ فهو مخيض.

وبَرَاها، وأعطىٰ كلَّ نفس هداها! ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾؛ أي: لست بفظٍّ ولا غليظٍ، ولا يصدرُ مني قولٌ ولا فعلٌ ينافي أمر الله وطاعته. ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾: وهٰذه المواطن[1] الثلاثةُ التي تقدَّم الكلام عليها في قصة يحيىٰ بن زكريا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ[2].

ثم لمَّا ذكر تعالىٰ قصَّته علىٰ الجليَّة، وبيَّن أمره ووضَّحه وشَرَحه؛ قال: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [مريم: ٣٤-٣٥]؛ كما قال تعالىٰ بعد ذكر قصته وما كان من أمره في آل عمران: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [آل عمران: ٥٨-٦٣].

ولهٰذا؛ لمَّا قدم وفدُ نجرانَ، وكانوا ستين راكبًا، يرجعُ أمرُهم إلىٰ أربعة عشر منهم، ويؤول أمرُ الجميع إلىٰ ثلاثةٍ هم أشرافُهم وساداتُهم، وهم العاقبُ والسيِّدُ وأبو حارثة بنُ علقمةَ، فجعلوا يناظِرون في أمر المسيح، فأنزل الله صدرَ سورة آلِ عمرانَ في ذٰلك، وبيَّنَ أمرَ المسيح وابتداء خلقِهِ وخلقِ أمِّه من قبله، وأمر رسولَه بأنْ يباهِلَهم[3] إنْ لم يستجيبوا له ويتَّبعوه، فلمَّا رأوا عَيْنَيْها وأُذُنَيْها؛ نكَصوا وامْتَنَعوا عن المباهلةِ، وعدلوا إلىٰ المسالمةِ والموادعةِ، وقال قائلُهم -وهو العاقبُ عبدُ المسيح-: يا معشرَ النصارىٰ! لقد علمتُم أنَّ محمدًا لنبيٌّ مرسلٌ، ولقد جاءكم بالفَصْل من خبر صاحِبكم، ولقد علمتُمْ أنَّه ما لاعَنَ قومٌ نبيًّا قطُّ؛ فبقي كبيرُهم ولا نبَتَ صغيرُهم، وإنَّها لَلاسْتِئْصالُ منكم إن فعلتُم؛ فإن كنتُم قد أبيتُم إلَّا إلفَ دينِكُم والإقامةَ علىٰ ما أنتم عليه من القول في صاحبكم؛ فَوادِعوا الرجلَ وانصرِفوا إلىٰ بلادِكم. فطلبوا ذٰلك من رسول الله ﷺ، وسألوه أن يَضْرِبَ عليهم جزيةً، وأنْ يَبْعَثَ معهم رجلًا أمينًا، فبعث معهم أبا عبيدة بنَ الجرَّاح،

(١) في نسخة: «الأماكن».

(٢) في (ص٥٩٩)؛ فانظرها فإنها جليلة جميلة.

(٣) المباهلة: أن يدعو كل فريق بالعذاب واللعنة علىٰ المبطِل منهما.

وقد بيَّنَّا ذٰلك في تفسير آل عمران، وقد بَسَطْنا هٰذه القصة في السِّيرة النبوية(١).

والمقصودُ: أنَّ الله تعالىٰ بيَّنَ أمر المسيح، فقال لرسوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾؛ يعني: من أنَّه عبدٌ مخلوقٌ من امرأةٍ من عباد الله. ولهٰذا قال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾؛ أي: لا يُعْجِزُهُ شيءٌ ولا يُكرِثُهُ ولا يَؤودُه، بل هو القديرُ الفعَّالُ لما يشاء. ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [مريم: ٣٦]: هو من تمام كلام عيسىٰ لهم في المَهْد؛ أخبرهم أنَّ اللهَ ربُّه وربُّهم، وإلٰهُهُ وإلٰهُهُم، وأنَّ هٰذا هو الصراطُ المستقيم.

قال الله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [مريم: ٣٧]؛ أي: فاختلف أهل ذٰلك الزمان ومَنْ بعدَهم فيه: فمِنْ قائلٍ من اليهود: إنَّه ولدُ زَنْيةٍ! واستمرُّوا علىٰ كفرِهم وعنادِهم. وقابَلَهم آخرون في الكفرِ، فقالوا: هو اللهُ! وقال آخرون: هو ابنُ الله! وقال المؤمنون: هو عبدُالله ورسولُه وابنُ أَمَتِهِ وكلمتُهُ ألقاها إلىٰ مريمَ وروحٌ منه. وهٰؤلاء هم الناجون المُثابون والمؤيَّدون المنصورون، ومن خالَفَهم في شيءٍ من هٰذه القيود؛ فهم الكافرون الضالُّون الجاهلونَ، وقد توعَّدَهم العليُّ العظيمُ الحكيمُ العليمُ بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾(٢).

قال البخاريُّ: حدثنا صدقةُ بن الفضل، أنبأنا الوليدُ، حدثنا الأوزاعيُّ، حدثني عُمَيْرُ بن هانئٍ، حدثني جُنادةُ بنُ أبي أميةَ، عن عبادة بن الصامت، عن النبيِّ ﷺ؛ قال: «**مَنْ شَهِدَ أنْ لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريكَ له، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، وأنَّ عيسى عبدُالله ورسولُه وكلمتُهُ ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه، والجنةُ حقٌّ، والنارُ حقٌّ؛ أدخَلَهُ اللهُ الجنةَ على ما كان من العمل**». قال الوليدُ: فحدَّثني عبدُالرحمٰن بنُ يزيدَ بن جابرٍ، عن عُمَيْرٍ، عن جُنادة، وزاد: «**من أبوابِ الجنَّةِ الثمانيةِ أيُّها شاءَ**»(٣).

---

(١) في نسخة: «وسيأتي بسط هذه القضية في السيرة النبوية إن شاء الله تعالىٰ وبه الثقة». فانظر لذلك «البداية والنهاية» (٣/ ٦٦٤). وانظر أيضًا: «طبقات ابن سعد» (١/ ١٧١)، و«سيرة ابن هشام» (٣/ ١١٢)، «زاد المعاد» (٣/ ٦٢٩).
وقد روىٰ قصة وفد نجران مختصرة البخاري (٦٤- المغازي، ٧٣- قصة أهل نجران، ٨/ ٩٣/ ٤٣٨٠).

(٢) وانظر ما سيأتي في (ص٦٨١) و(ص٦٩٧- ٦٩٨) من التفصيل في خلاف النصارىٰ في شأن المسيح ﷺ.

(٣) رواه: البخاري (٦٠- الأنبياء، ٤٧- ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾، ٦/ ٤٧٤/ ٣٤٣٥)، ومسلم (١- الإيمان، ١٠- الدليل علىٰ أن من مات علىٰ التوحيد دخل الجنة، ١/ ٥٧/ ٢٨).

وقد رواه مسلمٌ عن: داوودَ بن رُشيدٍ، عن الوليدِ، عن [ابن] جابر... به. ومن طريق أخرىٰ عن الأوزاعي... به.

باب: بيان أن الله تعالى منزَّهٌ عن الولد تعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا:

وقال تعالىٰ في آخر هٰذه السورة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ [مريم: ٨٨-٨٩]: شيئًا عظيمًا ومنكرًا من القول وزورًا. ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٠-٩٥]: فبيَّنَ أنَّه تعالىٰ لا ينبغي له الولدُ؛ لأنَّه خالقُ كلِّ شيء ومالِكه، وكلُّ شيء فقيرٌ إليه خاضعٌ ذليلٌ لديه، وجميعُ سكانِ السماواتِ والأرض عبيدُه، هو ربُّهم، لا إلٰه إلَّا هو، ولا ربَّ سواه.

كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠٣]: فبيَّنَ أنَّه خالقُ كلِّ شيء؛ فكيف يكون له ولدٌ؟! والولدُ لا يكون إلَّا بين شيئَيْن متناسِبَيْن، والله تعالىٰ لا نظيرَ له ولا شبيهَ له ولا عديلَ له؛ فلا صاحبةَ له؛ فلا يكون له ولدٌ.

كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [سورة الإخلاص]: يقرِّرُ أنَّه الأحدُ الذي لا نظيرَ له في ذاتِهِ ولا في صفاتِهِ ولا في أفعالِهِ. ﴿ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾: وهو السيِّدُ الذي كَمَلَ في علمِهِ وحكمتِهِ ورحمتِهِ جميع صفاتِهِ. ﴿لَمْ يَلِدْ﴾؛ أي: لم يوجدْ منه ولدٌ. ﴿وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾﴾؛ أي: ولم يتولَّدْ عن شيء قبلَه. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾؛ أي: وليس له عدلٌ ولا مكافئ ولا مساوٍ، فقطعَ النظيرَ المُدانيَ والأعلىٰ والمساويَ، فانتفىٰ أن يكونَ له ولدٌ؛ إذ لا يكونُ الولدُ إلَّا متولِّدًا بين شيئين متعادِلَيْنِ أو متقارِبَيْن، تعالىٰ الله عن ذٰلك علوًّا كبيرًا.

وقال ﷻ وتقدس: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء: ١٧١-١٧٣]: ينهىٰ تعالىٰ أهلَ الكتابِ ومَنْ شابَهَهُم عن الغلوِّ والإطراءِ في الدِّين، وهو مجاوزةُ الحدِّ؛ فالنصارىٰ لَعَنَهُمُ الله غَلَوْا وأطْرَوُا المسيحَ حتىٰ جاوزوا الحدَّ؛ فكان الواجبُ عليهم أن يَعْتَقِدوا أنَّه عبدُالله ورسولُه وابنُ أَمَتِهِ العذراءِ البتول، التي أَحْصَنَتْ فرجَها، فَبَعَثَ اللهُ المَلَكَ جبريلَ إليها، فنفخَ فيها عن أمرِ الله نفخةً حملتْ منها بولدِها عيسىٰ عليه السلام. والذي اتَّصَلَ بها من المَلَكِ هي الرُّوحُ المضافةُ إلىٰ الله إضافةَ تشريفٍ وتكريم، وهي مخلوقةٌ من مخلوقات الله تعالىٰ؛ كما يقولُ: بيتُ الله، وناقةُ الله، وعبدُالله، وكذا روحُ الله أُضيفتْ إليه تشريفًا لها وتكريمًا، وسُمِّي عيسىٰ بها؛ لأنَّه كان بها من غير أبٍ، وهي الكلمةُ أيضًا التي عنها خُلِقَ وبسببِها وُجِدَ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: ١١٦-١١٧].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: ٣٠]. فأخبر اللهُ تعالىٰ أَنَّ اليهود والنصارىٰ عليهم لعائنُ الله؛ كلٌّ من الفريقين ادَّعَوْا علىٰ اللهِ شططًا، وزعموا أنَّ له ولدًا، تعالىٰ الله عمَّا يقولون عُلُوًّا كبيرًا. وأخبر أنَّهم ليس لهم مستَنَدٌ فيما زَعَموه ولا فيما ائْتَفَكوه[1] إلاَّ مجردَ القول ومشابهةَ مَنْ سَبَقَهم إلىٰ هٰذه المقالة الضالَّة؛ تشابهتْ قلوبُهم! وذٰلك أنَّ الفلاسفة عليهم لعنةُ الله زَعَموا أنَّ العقلَ الأول صَدَرَ عن واجب الوجود الذي يُعَبِّرونَ عنه بعِلَّةِ العلل والمبدإ الأول، وأنَّه صَدَرَ

(١) ائتفكوه: اختلقوه، من الإفك، وهو الكذب.

عن العقل الأوَّل عقلٌ ثانٍ ونفسٌ وفَلَكٌ، ثم صَدَر عن الثاني كذٰلك... حتىٰ تناهتِ العقولُ إلىٰ عشرةٍ، والنفوسُ إلىٰ تسعةٍ، والأفلاكُ إلىٰ تسعةٍ!! باعتباراتٍ فاسدةٍ ذكروها، واختياراتٍ باردةٍ أوْرَدوها. ولبَسْطِ الكلام معهم وبيانِ جَهْلِهِم وقلَّةِ عقلِهم موضعٌ آخرُ. وهٰكذا طوائفُ من مشركي العربِ زعموا لِجَهْلِهِم أنَّ الملائكةَ بناتُ الله وأنَّه صاهرَ سَرَواتِ[1] الجنِّ، فتولَّدَ منها الملائكةُ!! تعالىٰ الله عما يقولونَ وتنزَّهَ عمَّا يشركونَ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الزخرف: ١٩].

وقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًاۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الصافات: ١٤٩-١٦٠].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩].

وقال تعالىٰ في أول سورة الكهف وهي مكية: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ [الكهف: ١-٥].

وقال تعالى: ﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يونس: ٦٨-٧٠].

---

(١) سروات: جمع سراة: اسم جمع، مفرده سَرِيّ: الشريف الكريم ذو المروءة.

فهٰذه الآياتُ المكيَّاتُ الكريماتُ تَشمَلُ الردَّ علىٰ سائر فرقِ الكَفَرَةِ من الفلاسفةِ ومشركي العربِ واليهودِ والنَّصارىٰ الذين ادَّعَوْا وزَعَموا بلا علم أنَّ لله ولدًا ﷺ عما يقول الظالمون المعتدون عُلوًّا كبيرًا.

ولمَّا كانت النصارىٰ عليهم لعنةُ الله المتتابعةُ إلىٰ يوم القيامةِ مِنْ أشهرِ مَنْ قال بهٰذه المقالةِ؛ ذُكِروا في القرآن كثيرًا للردِّ عليهم وبيان تناقُضِهم وقِلَّةِ علمِهم وكثرةِ جهْلِهم.

وقد تنوَّعتْ أقوالهم في كفرِهم، وذٰلك أنَّ الباطلَ كثيرُ التشعُّبِ والاختلافِ والتناقض، وأمَّا الحقُّ؛ فلا يختلفُ ولا يضطربُ؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]؛ فدل علىٰ أن الحقَّ يَتَّحِدُ ويتَّفِقُ والباطلَ يختلفُ ويضطربُ: فطائفةٌ من ضُلَّالِهم وجُهَّالهم زعموا أنَّ المسيح هو الله! تعالىٰ. وطائفةٌ قالوا: هو ابنُ الله! عزَّ الله. وطائفةٌ قالوا: هو ثالثُ ثلاثةٍ! جلَّ الله.

قال الله تعالىٰ في سورة المائدة: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة: ١٧]: فأخبر تعالىٰ عن كفرهم وجهلِهم، وبيَّنَ أنَّه الخالقُ، القادر علىٰ كلِّ شيءٍ، المتصرِّف في كلِّ شيءٍ، وأنَّه ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُه وإلٰهُه.

وقال في أواخرها: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٧٢-٧٥].

حكَمَ تعالىٰ بكفرِهم شرعًا وقدَرًا، فأخبر أنَّ هٰذا صَدَرَ منهم مع أنَّ الرسولَ إليهم -هو

عيسىٰ ابنُ مريمَ- قد بَيَّنَ لهم أنه عبدٌ، مربوبٌ، مخلوقٌ، مصوَّرٌ في الرحم، داعٍ إلىٰ عبادةِ الله وحدَه لا شريكَ له، وتوعَّدهم علىٰ خلاف ذٰلك بالنار، وعدم الفوزِ بدارِ القَرار، والخِزْي في الدار الآخرة والهوان والعار، ولهٰذا قال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾.

ثم قال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾: قال ابنُ جرير[1] وغيرُه: المرادُ بذٰلك قولُهم بالأقانيم الثلاثة: أُقنوم الأبِ، وأقنوم الابنِ، وأقنوم الكلمةِ المنبثقة من الأبِ إلىٰ الابن؛ علىٰ اختلافِهم في ذٰلك ما بين الملكيَّة واليعقوبيَّةِ والنَّسطوريَّةِ، عليهم لعائنُ الله، كما سنبيِّنُ كيفيَّةَ اختلافِهم في ذٰلك ومجامِعَهم الثلاثةَ في زمنِ قسطنطين بن قسطسَ، وذٰلك بعد المسيح بثلاث مئةِ سنةٍ وقبل البعثةِ المحمديَّة بثلاث مئةِ سنة[2]. ولهٰذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ أي: وما من إلٰهٍ إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ولا نظيرَ له ولا كُفْءَ له ولا صاحبةَ له ولا ولدَ. ثم توعَّدهم وتهدَّدَهم، فقال: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾.

ثم دعاهم برحمتِهِ ولطفِهِ إلىٰ التوبةِ والاستغفارِ من هٰذه الأمور الكبار والعظائم التي توجِبُ النار، فقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾.

ثم بَيَّنَ حال المسيح وأمِّه، وأنَّه عبدٌ رسولٌ وأمُّه صديقةٌ؛ أي: ليستْ بفاجرةٍ كما يقولُ اليهودُ لعنهم الله، وفيه دليلٌ علىٰ أنَّها ليست بنبيَّةٍ كما زعمه طائفةٌ من علمائنا. وقولُه: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾: كنايةٌ عن خروجِهِ منهما كما يخرُجُ من غيرِهما؛ أي: ومن كان بهٰذه المثابةِ كيف يكونُ إلٰهًا؟! تعالىٰ الله عن قولِهم وجهلِهم علوًّا كبيرًا.

وقال السُّدِّيُّ وغيرُه: المرادُ بقولِهِ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾: زعمهم في عيسىٰ وأمِّه أنَّهما الإلٰهان مع الله. يعني: كما بَيَّنَ تعالىٰ كُفْرَهُم في ذٰلك بقولِهِ في آخر هٰذه السورة الكريمة.

---

(١) في «التفسير» (٤/ ٦٥٢/ المائدة٧٣).

(٢) انظر تفصيل هٰذا فيما سيأتي (ص٦٩٧ - ٦٩٩).

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٦-١١٨].

يُخبِرُ تعالىٰ أنَّه يسألُ عيسىٰ ابنَ مريم عليه السلام يومَ القيامةِ علىٰ سبيل الإكرام له والتقريع والتوبيخ لعابِديه ممَّنْ كَذَبَ عليه وافترىٰ وزَعَم أنَّه ابنُ اللهِ أو أنَّه اللهُ أو أنَّه شريكُه، تعالىٰ الله عمَّا يقولون، فيسألُه، وهو يعلمُ أنَّه لم يقعْ منه ما يسألُه عنه، ولكن لتوبيخ مَنْ كَذَبَ عليه، فيقولُ له: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾؛ أي: تعالَيْتَ أن يكون معك شريكٌ. ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾؛ أي: ليس هٰذا يستحقُّه أحدٌ سواك. ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾: وهٰذا تأدُّبٌ عظيمٌ في الخطاب والجواب. ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾؛ أي: ما قلتُ غيرَ ما أمرتَني بهِ حين أرسَلْتَني إليهم وأنزلتَ عليَّ الكتابَ الذي كان يُتلىٰ عليهم. ثم فسر ما قالَه لهم بقولِهِ: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾؛ أي: خالقي وخالِقكم ورازِقي ورازِقكم. ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾؛ أي: رَفَعْتَني إليك حين أرادوا قَتْلي وصَلْبي، فرَحِمْتَني وخلَّصْتَني منهم وألقيتَ شَبَهي علىٰ أحدِهم حتىٰ انتقموا منه، فلمَّا كان ذٰلك؛ ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾. ثم قال علىٰ وجه التفويض إلىٰ الربِّ عز وجل والتبرِّي من أهل النَّصرانيَّة: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾؛ أي: وهم يستحقُّون ذٰلك. ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾: وهٰذا التفويض والإسنادُ إلىٰ المشيئة بالشرط لا يقتضي وقوعَ ذٰلك، ولهٰذا قال: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾، ولم يقلِ: الغفور الرحيم.

وقد ذكرنا في «التفسير» ما رواه الإمامُ أحمدُ عن أبي ذَرٍّ: أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قام بهٰذه الآية الكريمةِ ليلةً حتىٰ أصبح: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾، وقال: «**إنِّي سألتُ ربِّي عز وجل الشفاعةَ لأمَّتي، فأعطانيها، وهي نائلةٌ إنْ شاء اللهُ تعالى لِمَنْ لا يُشْرِكُ بالله شيئًا**»(١).

---

(١) (حسن). رواه: ابن أبي شيبة (٢/ ٢٢٥/ ٨٣٦٨ مختصرًا، و٦/ ٣٢٧/ ٣١٧٥٨ بطوله)، وأحمد (٥/ ١٤٩ =

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٧ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝١٨ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ١٦-٢٠].

وقال تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥﴾ [الزمر: ٤-٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ۝٨١ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٨٢﴾ [الزخرف: ٨١-٨٢].

وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ۝١١١﴾ [الإسراء: ١١١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [سورة الإخلاص].

= مطولًا و١٥٦ و١٧٠ مختصرًا)، وابن ماجه (٥- إقامة الصلاة، ١٧٩- القراءة في صلاة الليل، ١/ ٤٢٩/ ١٣٥٠) مختصرًا، والنسائي (١١- الافتتاح، ٧٩- ترديد الآية، ٢/ ١٧٧/ ١٠٠٩) مختصرًا، وفي «الكبرىٰ» (٧/ ١٩٨/ ١٢٠١٢ - تحفة)، والحاكم (١/ ٢٤٠)؛ كلهم من طريق قدامة بن عبد الله وفليت العامريين، عن جسرة بنت دجاجة، عن أبي ذر... فذكره.

وفليت وقدامة: إن كانا واحدًا؛ فصدوق. وإن كانا اثنين؛ فأحدهما يقوي الآخر. وحديث جسرة فيه نوع ضعف. وهو صالح في الشواهد؛ فالسند كذلك. ولذلك ذكره ابن خزيمة في «الصحيح» (١/ ٢٧١) دونما سند وقال: «إن صح الخبر».

لكن وجدت لمعناه شاهدًا عند ابن أبي حاتم في «التفسير» (٤/ ١٢٥٤/ ٧٠٥٨): ثنا يونس بن عبد الأعلىٰ، ثنا ابن وهب، اخبرني عمرو بن الحارث، أن بكر بن سوادة حدثه، عن عبد الرحمن بن جبير، عن عبد الله بن عمرو: أن النبي ﷺ تلا قول عيسىٰ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، فرفع يديه، فقال: «اللهم! أمتي». وبكىٰ. فقال الله: يا جبريل! اذهب إلىٰ محمد - وربك أعلم-؛ فاسأله: ما يبكيه؟ فأتاه جبريل، فسأله؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما قال -وهو أعلم-. فقال الله: يا جبريل! اذهب إلىٰ محمد؛ فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك.

فهٰذا شاهد سنده صحيح بمعنىٰ الحديث السابق؛ فهو حريٌّ أن يشفع له فيتقوىٰ به وينجبر ضعفه اليسير، ولا سيما أنه قد صححه الحاكم ووافقه الذهبي وحسنه الألباني.

وثَبَتَ في الصحيح عن رسول الله ﷺ: أنَّه قال: «**يقولُ الله تعالى: شَتَمَني ابنُ آدمَ ولم يَكُنْ له ذٰلك؛ يَزْعُمُ أنَّ لي وَلَدًا، وأنا الأحدُ الصَّمَدُ الذي لم أَلِدْ ولم أولَدْ ولم يَكُنْ لي كفوًا أحدٌ**»(١).

وفي الصحيح أيضًا عن رسول الله ﷺ: أنَّه قال: «**لا أحَدَ أصْبَرُ على أذًى سمِعَه من الله؛ إنَّهم يجعلونَ له ولدًا، وهو يرزُقُهم ويعافِيهم**»(٢).

ولكن ثبت في الصحيح أيضًا عن رسول الله ﷺ: أنَّه قال: «**إنَّ الله لَيُمْلي للظَّالم، حتَّى إذا أخذَه؛ لم يُفْلِتْهُ**». ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢](٣).

وهٰكذا قولُه تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس: ٦٩-٧٠].

وقال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٧].

۞ ذكر منشأ عيسى ابن مريم عليه السلام ومرباه في صغره وبيان بدء الوحي إليه من الله تعالى:

قد تقدَّمَ أنَّه وُلِدَ ببيتِ لحمٍ قريبًا من بيت المقدس، وزعم وَهْبُ بن منبِّهٍ أنَّه وُلِدَ بمصرَ، وأنَّ مريمَ سافرتْ هي ويوسفُ بنُ يعقوبَ النجارُ، وهي راكبةٌ علىٰ حمارٍ، ليس بينَها(٤) وبين الإكافِ(٥) شيءٌ. وهٰذا لا يصحُّ، والحديثُ الذي تقدَّم ذِكْرُهُ دليلٌ علىٰ أنَّ مولِدَه كان ببيتِ لحم كما ذَكَرْنا، ومهما عارَضَه؛ فباطلٌ(٦).

---

(١) رواه البخاري (٥٩- بدء الخلق، ١- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾، ٦/ ٢٨٧/ ٣١٩٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه: البخاري (٩٨- التوحيد، ٣- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾، ١٣/ ٣٦٠/ ٧٣٧٨)، ومسلم (٥٠- صفات المنافقين، ٩- لا أحد أصبر علىٰ أذىٰ، ٤/ ٢١٦٠/ ٢٨٠٤)؛ من حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه.

(٣) رواه: البخاري (٦٥- التفسير، ١١- هود، ٥- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ﴾، ٨/ ٣٥٤/ ٤٦٨٦)، ومسلم (٤٥- البر والصلة، ١٥- تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٧/ ٢٥٨٣)؛ من حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه.

(٤) في جميع الأصول: «بينهما». والأليق والأصوب ما أثبته.

(٥) الإكاف: السرج الذي يُشَدُّ علىٰ الدابة لتصلح للركوب.

(٦) بيَّنَّا في (ص٦٣٤) ضعف هٰذا الحديث ونكارته. وكذلك قصة وهب هذه منكرة، وأكثر أهل العلم علىٰ أن =

وذَكَرَ وَهْبُ بنُ منبِّهٍ أنَّه لمَّا وُلِدَ؛ خرتِ الأصنامُ يومئذٍ في مشارق الأرض ومغاربها. وأنَّ الشياطين حارتْ في سبب ذلك، حتىٰ كَشَفَ لهم إبليسُ الكبيرُ أمرَ عيسىٰ، فوجَدوه في حِجْرِ أمِّه، والملائكةُ محدقةٌ به. وأنَّه ظهر نجمٌ عظيمٌ في السماء، وأنَّ مَلِكَ الفرس أشفَقَ من ظهورِه، فسأل الكهنةَ عن ذلك؟ فقالوا: هذا لمولدِ عظيم في الأرض، فبعثَ رُسُلَه، ومعهم ذهبٌ ومُرٌّ ولُبانٌ[١] هديةً إلىٰ عيسىٰ، فلمَّا قَدِموا الشامَ؛ سألَهم ملِكُها عمَّا أقْدَمَهم؟ فذَكَروا له ذلك، فسأل عن ذلك الوقتِ؛ فإذا قد وُلِدَ فيه عيسىٰ ابنُ مريم ببيت المقدس واشْتُهِرَ أمرُه بسبب كلامِهِ في المَهْدِ، فأرسلَهم إليه بما معهم وأرسلَ معَهم مَنْ يَعْرِفُهُ له لِيَتَوَصَّلَ إلىٰ قتلِهِ إذا انصرَفوا عنه، فلمَّا وصلوا إلىٰ مريمَ بالهدايا ورجعوا؛ قيل لها: إنَّ رسل ملك الشام إنَّما جاؤوا ليقتُلوا ولدَكِ. فاحتملتْه، فذهبتْ به إلىٰ مصرَ، فأقامت به حتىٰ بَلَغَ عُمُرُهُ اثنتي عشرة سنةً، وظهرتْ عليه كراماتٌ ومعجزاتٌ في حال صِغَرِهِ.

فَذَكَرَ منها: أنَّ الدِّهْقانَ[٢] الذي نزلوا عندَه افتقدَ مالاً من دارِهِ، وكانت دارُهُ لا يسكُنُها إلاَّ الفقراءُ والضعفاءُ والمحاويجُ، فلم يَدْرِ مَنْ أخذَها، وعزَّ ذلك علىٰ مريمَ عليها السلام وشقَّ علىٰ الناس وعلىٰ ربِّ المنزل وأعياهم أمرُها، فلمَّا رأىٰ عيسىٰ عليه السلام ذلك؛ عَمَدَ إلىٰ رجل أعمىٰ وآخرَ مقعدٍ من جملة مَنْ هو منقطعٌ إليه، فقال للأعمىٰ: احمِلْ هذا المقعدَ وانهضْ به! فقال: إنِّي لا أستطيعُ ذلك. فقال: بلىٰ؛ كما فعلتَ أنت وهو حين أخَذْتُما هذا المالَ من تلك الكُوَّةِ من الدارِ. فلمَّا قال ذلك؛ صدَّقاه فيما قال، وأتيا بالمال، فعَظُم عيسىٰ في أعين الناس وهو صغيرٌ جدًّا.

ومن ذلك: أنَّ ابنَ الدِّهْقانِ عَمِلَ ضيافةً للناس بسبب طُهورِ أولادِهِ، فلمَّا اجتمعَ الناسُ وأطعَمَهُم ثم أراد أن يَسْقِيَهم شرابًا (يعني: خمرًا) كما كانوا يصنعون في ذلك الزمانِ؛ لم يَجِدْ في جِرارِهِ شيئًا، فشقَّ ذلك عليه، فلمَّا رأىٰ عيسىٰ ذلك منه؛ قام، فجعلَ يمرُّ علىٰ تلك الجرارِ،

= المسيح عليه السلام إنما ولد ببيت لحم، وسيأتيك في أول الصفحة التالية عن وهب نفسه أن مريم إنما ذهبت بالمسيح عليه السلام إلىٰ مصر بعد ولادته.

(١) المُرُّ: دواء شديد المرارة؛ كالصبر، استعمل فيما مضىٰ لعلاج السعال وديدان البطن وتضميد الجروح ولسعات الحشرات. واللبان: الكندر: صمغ يستخرج من بعض الشجر، ويستعمل في التبخير لرائحته الطيبة، وله منافع علاجية متعددة.

(٢) الدِّهْقان: رئيس الإقليم أو المنطقة.

ويُمِرُّ يدَه علىٰ أفواهِها، فلا يفعلُ بجرَّةٍ منها ذٰلك؛ إلَّا امتلأتْ شرابًا من خيار الشراب، فتعجَّبَ الناسُ من ذٰلك جدًّا، وعظَّموه، وعرضوا عليه وعلىٰ أمِّه مالًا جزيلًا، فلم يَقْبَلاه، وارْتَحَلا قاصِدَيْن بيتَ المقدس. والله أعلم.

وقال إسحاقُ بنُ بشرٍ: أنبأنا عثمانُ بن ساج وغيرُه، عن موسىٰ بن وردانَ، عن أبي نَضْرَةَ عن أبي سعيدٍ، وعن مكحول عن أبي هريرةَ؛ قال: إنَّ عيسىٰ ابنَ مريمَ أولَ ما أطلقَ الله لسانَه بعدَ الكلام الذي تكلَّم به وهو طفلٌ، فمجَّدَ الله تمجيدًا لم تَسْمَعِ الآذانُ بمثلِهِ؛ لم يَدَعْ شمسًا ولا قمرًا ولا جبلًا ولا نهرًا ولا عينًا إلَّا ذَكَرَه في تمجيدِهِ، فقالَ: اللهمَّ! أنت القريبُ في علوِّك، المتعالِ في دُنُوِّكَ، الرفيعُ علىٰ كلِّ شيء من خلقِك. أنت الذي خَلَقْتَ سبعًا في الهواءِ بكلماتِكَ مستوياتٍ طباقًا، أَجَبْنَ وهي دخانٌ من فَرَقِكَ، فأتينَ طائعاتٍ لأمرِكَ، فيهنَّ ملائكتُكَ، يسبِّحون قُدُسَكَ لتقديسِكَ، وجعلتَ فيهنَّ نورًا علىٰ سوادِ الظلام، وضياءً من ضوءِ الشمس بالنهار، وجعلتَ فيهنَّ الرعدَ المسبِّحَ بالحمدِ؛ فبعزَّتِكَ يجلو ضوءُ ظلمتِكَ، وجعلتَ فيهنَّ مصابيحَ يَهْتدي بهنَّ في الظُّلماتِ الحيرانُ؛ فتباركتَ اللهمَّ في مفطور سماواتك، وفيما دَحَوْتَ من أرضِك[1]. دَحَوْتَها علىٰ الماءِ، فَسَمَكْتَها علىٰ تيار الموج الغامرِ، فأذلَلْتها إذلالَ التظاهر، فذلَّ لطاعتك صعبُها، واستحيا لأمرِكَ أمرُها، وخَضَعَتْ لعزَّتِك أمواجُها، ففجَّرْتَ فيها بعدَ البحور الأنهار، ومن بعدِ الأنهارِ الجداولَ الصغار، ومن بعدِ الجداول ينابيعَ العيون الغزار، ثم أخرجتَ منها الأنهارَ والأشجارَ والثمار، ثم جعلتَ علىٰ ظهرِها الجبالَ، فَوَتَّدْتَها[2] أوتادًا علىٰ ظهر الماء، فأطاعتْ أطوادُها وجلمودُها[3]. فتباركتَ اللهمَّ! فَمَنْ يَبْلُغُ بنعتِهِ نَعْتَكَ؟ أم من يَبْلُغُ بصفتِهِ صِفَتَكَ؟ تَنْشُرُ السحاب، وتفكُّ الرقاب، وتقضي الحقَّ، وأنت خيرُ الفاصلين. لا إلٰه إلَّا أنتَ، سبحانك، أمرتَ أن نَسْتَغْفِرَكَ من كلِّ ذنب. لا إلٰه إلَّا أنتَ، سبحانكَ، سترتَ السماواتِ عن الناس. لا إلٰه إلَّا أنتَ، سبحانك، إنَّما يخشاكَ من عبادِكَ الأكياس. نشهدُ أنَّك لستَ بإلٰهٍ اسْتَحْدَثْناك، ولا ربٍّ يبيدُ ذِكْرُهُ، ولا كان معك شركاءُ يَقْضونَ

---

(١) دحا الأرض: بسطها.

(٢) وَتَّدْتَها: ثبَّتها.

(٣) الطود: الجبل الضخم. والجلمود: الصخر الصلب.

معكَ فَنَدْعُوَهم ونَذَرَك، ولا أعانك علىٰ خَلْقِنا أحدٌ فنشكَّ فيك. نشهدُ أنَّك أحدٌ، صمدٌ، لم تَلِدْ، ولم تولَدْ، ولم يَكُنْ لك كُفوًا أحدٌ.

وقال إسحاق بن بشر، عن جُوَيْبِر ومقاتل، عن الضحَّاك، عن ابن عباسٍ: إنَّ عيسىٰ ابن مريمَ أمسكَ عن الكلام بعد أن كَلَّمَهُم طفلًا حتىٰ بَلَغَ ما يبلغُ الغلمانُ، ثم أنطقَه الله بعد ذٰلك الحكمةَ والبيانَ، فأكثر اليهودُ فيه وفي أمِّه من القول، وكانوا يسمُّونَه ابنَ البغيَّةِ، وذٰلك قولُه تعالىٰ: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: ١٥٦].

قال: فلمَّا بَلَغَ سبع سنينَ؛ أَسْلَمَتْهُ أمُّه في الكُتَّابِ، فجعل لا يعلِّمُه المعلمُ شيئًا؛ إلَّا بَدَرَهُ إليه، فعلَّمه أبا جاد[1]، فقال عيسىٰ: ما أبو جاد؟ فقال المعلمُ: لا أدري. فقال عيسىٰ: كيف تعلِّمُني ما لا تَدْري؟! فقال المعلمُ: إذن؛ فعلِّمْني. فقال له عيسىٰ: فقُمْ من مجلِسِكَ! فقام، فجلس عيسىٰ مَجْلِسَه، فقال: سَلْني؟ فقال المعلمُ: فما أبو جاد؟ فقال عيسىٰ: الألفُ آلاءُ الله، والباءُ بهاءُ الله، والجيم بَهْجَةُ الله وجمالُه. فعجب المعلِّمُ من ذٰلك، فكان أوَّلَ من فَسَّرَ أبا جاد.

ثم ذكر أنَّ عثمانَ سأل رسولَ الله ﷺ عن ذٰلك؟ فأجابه علىٰ كلِّ كلمةٍ... بحديث طويل موضوع لا يُسْأَلُ عنه ولا يُتمادىٰ[2].

وهٰكذا روىٰ ابنُ عديٍّ من حديث: إسماعيلَ بن عيَّاش، عن إسماعيلَ بن يحيىٰ، عن ابن أبي مُلَيْكَةَ، عمن حدثه، عن ابن مسعودٍ. عن مسعرِ بن كِدام، عن عطيَّةَ، عن أبي سعيدٍ، رفع الحديث... في دخول عيسىٰ إلىٰ الكُتَّابِ وتعليمِهِ المعلِّمَ معنىٰ حروفِ أبي جادٍ. وهو مطوَّلٌ لا يُفْرَحُ به[3]. ثم قال ابنُ عديٍّ: وهٰذا الحديثُ باطلٌ بهٰذا الإسناد، لا يرويه غيرُ إسماعيل.

---

(١) أبو جاد: الأبجدية: أبجد، هوز، حطي... إلخ.

(٢) يعني: ولا يُتَمادىٰ بذكره. والله أعلم. وأصل المصيبة من إسحاق بن بشر نفسه؛ فليت أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ صان كتابه هٰذا عن إسحاق بن بشر وأخباره وأحاديثه، ولا سيما هٰذا السند؛ ففيه إسحاق وجويبر ومقاتل ثالثة الأثافي، وكل منهم صاحب بلايا ورزايا.

(٣) (موضوع). رواه: ابن عدي في «الكامل» (١/ ٣٠٢)، وابن عساكر في «التاريخ» (٤٧/ ٣٧٣)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢٠٢)؛ كلهم من طريق إسماعيل بن يحيىٰ... به.

وإسماعيل هٰذا أجمعوا علىٰ أنه ركن من أركان الكذب. ولذلك قال ابن عدي: «باطل». وأقره ابن عساكر =

وروىٰ ابنُ لهيعةَ، عن عبد الله بن هُبيرةَ؛ قال: كان عبدُالله بنُ عمرٍو(١) يقول: كان عيسىٰ ابنُ مريم وهو غلامٌ يلعبُ مع الصِّبيانِ، فكان يقولُ لأحدِهِم: تريدُ أنْ أخْبرَكَ ما خبَّأتْ لك أمُّك؟ فيقول: نعم. فيقولُ: خبأتْ لك كذا وكذا. فيذهبُ الغلامُ منهم إلىٰ أمِّه، فيقول لها: أطْعِميني ما خبأتِ لي! فتقولُ: وأيُّ شيءٍ خبأتُ لك؟ فيقولُ: كذا وكذا. فتقولُ له: مَنْ أخْبرَكَ؟ فيقول: عيسىٰ ابنُ مريم. فقالوا: والله؛ لئنْ تركتُم هٰؤلاء الصبيانَ مع ابنِ مريمَ لَيُفْسِدَنَّهم. فجمعوهم في بيتٍ، وأغلقوا عليهم، فخَرَجَ عيسىٰ يَلْتَمِسُهم، فلم يَجِدْهم، فسَمعَ ضوضاءهم في بيتٍ، فسأل عنهم؟ فقالوا: إنَّما هٰؤلاء قردةٌ وخنازيرُ. فقال: اللهمَّ! كذٰلك. فكانوا كذٰلك. رواه ابنُ عساكرَ(٢).

وقال إسحاقُ بن بشرٍ: عن جويبرٍ ومقاتل، عن الضحَّاكِ، عن ابن عباس؛ قال: وكان عيسىٰ يرىٰ العجائبَ في صباهُ إلهامًا من الله، ففشا ذٰلك في اليهودِ، وترعرعَ عيسىٰ، فهمَّتْ به بنو إسرائيلَ، فخافتْ أمُّه عليه، فأوحىٰ الله إلىٰ أمِّه أنْ تنطلقَ به إلىٰ أرض مصرَ. فذٰلك قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وقد اختلف السلفُ والمفسِّرون في المرادِ بهٰذه الربوة التي ذَكَرَ الله من صفتها أنَّها ذاتُ قرارٍ ومعينٍ، وهٰذه صفةٌ غريبة الشكل، وهي أنَّها ربوةٌ، وهو المكانُ المرتفعُ من الأرض، الذي أعلاه مستوٍ يُقَرُّ عليه، وارتفاعُهُ متَّسِعٌ، ومع علوِّه فيه عيونُ الماء المَعين، وهو الجاري السارحُ علىٰ وجه الأرض: فقيل: المرادُ المكانُ الذي وَلَدَتْ فيه المسيحَ، وهو نخلةُ بيت المقدس، ولهٰذا: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝٢٤﴾ [مريم: ٢٤]، وهو النهر الصغير في قول جمهور السلف، وعن ابن عباس بإسنادٍ جيِّدٍ: أنَّها أنهار دمشقَ. فلعلَّه أراد تشبيهَ ذٰلك المكانِ بأنهار دمشقَ. **وقيل**: ذٰلك بمصر؛ كما زَعَمَهُ من زَعَمَهُ من أهل الكتاب ومَن تلقَّاه عنهم. والله أعلم. **وقيل**: هي الرَّمْلَةُ.

وقال إسحاقُ بن بشرٍ: قال لنا إدريسُ، عن جده وَهْب بن منبِّهٍ؛ قال: إنَّ عيسىٰ لمَّا بَلَغَ

= والذهبي والعسقلاني. وقال ابن حبان وابن كثير والسيوطي: «موضوع».

(١) في جميع الأصول: «ابن عمر». وأثبت ما في «تاريخ ابن عساكر» لأنه أرجح، ولأن النقل عنه، ولأن ابن عمرو أحرىٰ بهذه المرويات من ابن عمر. والله أعلم.

(٢) في «تاريخه» (٤٧/ ٣٧٣).

ثلاث عشرة سنةً؛ أمره الله أن يرجِعَ من بلاد مصر إلىٰ بيت إيلياء[١]. قال: فقَدِمَ عليه يوسفُ ابنُ خال أمِّه، فحَمَلَهُما علىٰ حمارٍ، حتىٰ جاء بهما إلىٰ إيلياء، وأقام بها، حتىٰ أحدثَ اللهُ له الإنجيلَ وعلَّمَه التوراةَ وأعطاه إحياءَ الموتىٰ وإبراءَ الأسقام والعلمَ بالغُيوب ممَّا يدَّخِرون في بيوتِهم، وتحدَّثَ الناسُ بقدومِهِ، وفَزِعوا لِما كان يأتي من العجائب، فجَعَلوا يعجَبون منه، فدعاهم إلىٰ اللهِ، ففشا فيهم أمرُه.

۞ بيان نزول الكتب الأربعة ومواقيتها:

وقال أبو زرعةَ الدمشقيُّ: حدثنا عبدُالله بنُ صالح، حدثني معاويةُ بن صالح، عمَّن حدَّثه؛ قال: أُنْزِلَتِ التوراة علىٰ موسىٰ في ستٍّ ليال خَلَوْنَ من شهرِ رمضانَ، ونزل الزَّبورُ علىٰ داوودَ في اثنتي عشرةَ ليلةً خَلَتْ من شهرِ رمضانَ، وذٰلك بعد التوراة بأربع مئةِ سنةٍ واثنتين وثمانين سنةً، وأنزل الإنجيلُ علىٰ عيسىٰ ابن مريمَ في ثماني عشرةَ ليلةً خَلَتْ من شهرِ رمضانَ بعد الزَّبورِ بألفِ عامٍ وخمسينَ عامًا، وأنزِلَ الفرقانُ علىٰ محمدٍ ﷺ في أربع وعشرين من شهرِ رمضانَ.

وقد ذكرنا في «التفسير» عند قولِهِ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]: الأحاديثَ الواردة في ذٰلك، وفيها أنَّ الإنجيلَ أنزِلَ علىٰ عيسىٰ ابنِ مريمَ عليه السلام في ثماني عشرةَ ليلةً خَلَتْ من شهرِ رمضانَ[٢].

وذكر ابنُ جرير في «تاريخه»[٣]: أنَّه أنزِلَ عليه وهو ابنُ ثلاثين سنةً، ومَكَثَ حتىٰ رُفِعَ إلىٰ السماء وهو ابنُ ثلاثٍ وثلاثين سنةً؛ كما سيأتي بيانُه إنْ شاءَ الله تعالىٰ.

۞ [ذكر جملة من أخبار عبد الله ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام]:

وقال إسحاقُ بن بشرٍ: وأنبأنا سعيدُ بن أبي عَروبةَ، عن قَتادةَ، ومقاتلٌ عن قتادةَ، عن عبد الرحمٰن بن آدمَ، عن أبي هريرة؛ قال: أوحىٰ الله ﷻ إلىٰ عيسىٰ ابن مريم: يا عيسىٰ! جُدَّ في أمري ولا تَهُنْ، واسمعْ وأطعْ، يا ابنَ الطاهرةِ البكرِ البَتول! إنَّك من غير فحل، وأنا خلقتُك آيةً للعالَمين. إيَّايَ فاعبُدْ، وعليَّ فتوكَّلْ، خُذِ الكتابَ بقوَّةٍ، فَسِّرْ لأهل السريانيَّةِ، بَلِّغْ مَنْ بينَ

---

(١) كذا! وهو إيلياء أو بيت المقدس.

(٢) (حسن). تقدم (ص٥٣١) نصه وتخريجه، وفيه أن الإنجيل أنزل لثلاث عشرة خلت من رمضان لا لثماني عشرة.

(٣) (١/ ٣٥٢).

يديك أنِّي أنا الحقُّ الحيُّ القائمُ الذي لا أزول. صدِّقوا النبيَّ، الأميَّ، العربيَّ، صاحبَ الجمل والتاج (وهي العمامةُ) والمِدْرَعَةِ[١] والنعلينِ والهِراوةِ (وهي القضيبُ)، الأنجلَ العينينِ[٢]، الصلتَ الجبينِ[٣]، الواضحَ الخدَّيْنِ، الجعدَ الرأسِ، الكثَّ اللِّحْيَةِ، المقرونَ الحاجبينِ، الأقنىٰ الأنفِ، المفلَّجَ الثَّنايا[٤]، الباديَ العَنْفَقَةِ[٥]، الذي كأنَّ عُنُقَهُ إبريقُ فضَّةٍ، وكأنَّ الذهبَ يجري في تراقيهِ، له شَعَراتٌ من لَبَّتِهِ[٦] إلىٰ سُرَّتِهِ تجري كالقضيبِ، ليس علىٰ بطنِهِ ولا علىٰ صدرِهِ شعرٌ غيرُه، شثْنُ الكفِّ والقدم[٧]، إذا التفتَ؛ التفتَ جميعًا، وإذا مشىٰ؛ كأنَّما يتقلَّع من صخرٍ وينحدرُ من صببٍ[٨]، عَرَقُهُ في وجهه كاللؤلؤ، وريحُ المسكِ يَنْفَحُ منه، ولم يُرَ قبلَه ولا بعدَه مثلُه، الحسنَ القامةِ، الطيبَ الريح، نكَّاحَ النساءِ، ذا النسل القليل، إنَّما نسلُهُ من مباركةٍ، لها بيتٌ (يعني: في الجنة) من قصبٍ لا نَصَبَ فيه ولا صَخَبَ، تكْفُلُه يا عيسىٰ في آخرِ الزمان كما كَفَلَ زكريا أمَّك، له منها فرخانِ ستَشْهَدان، وله عندي منزلةٌ ليست لأحدٍ من البشرِ، كلامُهُ القرآنُ، ودينُه الإسلامُ، وأنا السلامُ، طوبىٰ لِمَنْ أدركَ زمانَه وشَهِدَ أيامه وسمعَ كلامَه[٩]. قال عيسىٰ: يا ربِّ! وما طُوبىٰ؟ قال: غرسُ شجرةٍ أنا غرستُها بيديَّ؛ فهي للجنان كلِّها، أصلُها من رضوانٍ، وماؤها من تسنيم، وبردُها بردُ الكافورِ، وطعمُها طعمُ الزَّنْجبيل، وريحُها ريحُ المسك، مَنْ شرِبَ منه شربةً؛ لم يظمأ بعدَها أبدًا. قال عيسىٰ: يا ربِّ! اسقِني منها. قال: حرامٌ علىٰ النبيِّين أن يشربوا منها حتىٰ يشربَ ذٰلك النبيُّ، وحرامٌ علىٰ الأمم أن يشربوا منها

---

(١) المدرعة: ثوب الصوف. وقد ثبت أنه ﷺ لبس ثوب الصوف، لٰكن لا علىٰ سبيل الاستدامة. وليس هٰذا محل التفصيل بذلك.

(٢) العين النجلاء: الواسعة.

(٣) الجبين الصلت: الواضح المستوي.

(٤) المفلج الثنايا: المتباعد ما بين الأسنان.

(٥) العنفقة: الشعر الذي تحت الشفة السفلىٰ مباشر'

(٦) اللبة: حفرة النحر.

(٧) شثن الكف والقدم: ضخمهما

(٨) من صبب: من مرتفع.

(٩) جاء هنا في إحدىٰ النسخ زيادة علىٰ غيرها: «بيان شجرة طوبىٰ ما هي وما يتصل بها من الكلام علىٰ آيات عيسىٰ ومعجزاته». فآثرت أن أجعله في الحاشية حتىٰ لا ينقطع الكلام.

حتىٰ تَشْرَبَ منها أمَّةُ ذٰلك النبيِّ. قال: يا عيسىٰ! أأرفعُكَ إليَّ؟ قال: ربِّ! ولمَ ترفعُني؟ قال: أرفعُك، ثم أُهْبِطُكَ في آخرِ الزَّمان؛ لترىٰ من أمَّةِ ذٰلك النبيِّ العجائبَ، ولِتُعينَهم علىٰ قتال اللعينِ الدَّجَّال، أُهْبِطُكَ في وقتِ صلاةٍ، ثم لا تصلِّي بهم؛ لأنَّها مرحومةٌ، ولا نبيَّ بعد نبيِّهم[١].

وقال هشامُ بن عمَّارٍ: عن الوليدِ بن مسلم، عن عبد الرحمٰن بن زيد، عن أبيه: أنَّ عيسىٰ قال: يا ربِّ! أنبِئْني عن هٰذه الأمَّةِ المرحومةِ. قال: أمَّةُ أحمدَ، هم علماءُ حكماءُ كأنَّهم أنبياءُ، يرضَوْن منِّي بالقليل من العطاء، وأرضىٰ منهم باليسيرِ من العمل، وأُدْخِلُهُم الجنَّةَ بـ (لا إلٰه إلَّا اللهُ). يا عيسىٰ! هم أكثرُ سُكَّانِ الجنَّةِ؛ لأنَّه لم تَذِلَّ ألسنُ قوم قطُّ بـ (لا إلٰه إلَّا اللهُ) كما ذَلَّتْ ألسنتهم، ولم تذلَّ رقابُ قومٍ قطُّ بالسُّجود كما ذَلَّتْ به رقابُهم. رواه ابنُ عساكر[٢].

وروىٰ ابنُ عساكرَ[٣] من طريق: عبد الله بن بُدَيْل العقيلي، عن عبد الله بن عوسجةَ؛ قال: أوحىٰ الله إلىٰ عيسىٰ ابنِ مريمَ: أنْزِلْني من نفسِكَ كَهَمِّكَ، واجْعَلْني ذُخْرًا لك في معادِك، وتقرَّبْ إليَّ بالنوافل؛ أحِبَّكَ، ولا تَوَلَّ[٤] غيري؛ فأخْذُلَكَ. اصبِرْ علىٰ البلاء، وارضَ بالقضاءِ، وكُنْ لِمَسَرَّتي فيك؛ فإنَّ مَسَرَّتي أنْ أطاعَ فلا أُعصىٰ. وكن مني قريبًا، وأحيِ ذِكْري بلسانِك، ولتكنْ مودَّتي في صَدْرِك. تيقَّظْ من ساعات الغفلةِ، واحكُمْ في لطيفِ الفطنةِ، وكنْ لي راغبًا راهبًا، وأمِتْ قلبَكَ في الخشية لي، وراع الليلَ لحقِّ مَسَرَّتي، وأظْمِ[٥] نهارَكَ ليوم الرِّيِّ عندي. نافِسْ في الخيراتِ جهدَك، واعترِفْ بالخير حيث توجَّهْتَ، وقُمْ في الخلائق بنصيحتي، واحكُمْ في عبادي بِعَدْلي؛ فقد أنزلتُ عليك شفاءَ وَسْواس الصُّدورِ من مرض النسيانِ وجلاءَ الأبصارِ من غِشاءِ الكَلال، ولا تكُنْ حِلْسًا كأنَّك مقبوضٌ وأنت حيٌّ تَنَفَّسُ. يا عيسىٰ ابنَ مريمَ! ما آمنتْ بي خليقةٌ إلَّا خشعتْ، ولا خشعتْ لي إلَّا رَجَتْ ثوابي، فأشهِدُكَ أنَّها آمنةٌ من عقابي؛ ما لم تغيِّرْ أو تبدِّلْ سنتي. يا عيسىٰ ابنَ مريم البكرِ البتول! ابكِ علىٰ نفسِك أيامَ الحياةِ بكاءَ مَنْ وَدَّعَ الأهلَ وقلا

---

(١) رواه ابن عساكر في «التريخ» (٤٧/ ٣٨١)، وسنده واهٍ بمرَّة، ومتنه ملفَّق من مجموعة من الأخبار والأحاديث، والنكارة والصناعة ظاهرة عليه. والله أعلم.

(٢) في «التاريخ» (٤٧/ ٣٨٢).

(٣) في «التاريخ» (٤٧/ ٣٨٣).

(٤) لا تَوَلَّ غيري: لا تتولَّ غيري.

(٥) وأظمِ نهارك: من الظمأ، وهو العطش، والمراد الأمر بالصيام.

الدُّنيا وتَرَكَ اللَّذَّاتِ لأهلِها وارتفعتْ رغبتُهُ فيما عند إلٰهه، وكنْ في ذٰلك تُلينُ الكلامَ وتُفْشي السلامَ، وكن يقظانَ إذا نامتْ عيونُ الأبرار. حذارِ ما هو آتٍ من أمرِ المَعاد وزلازل شدائد الأهوال قبل ألَّا ينفعَ أهلٌ ولا مال، واكحُلْ عينَك بِمُلْمُولِ[١] الحزنِ إذا ضَحِكَ البطَّالونَ، وكنْ في ذٰلك صابرًا محتسبًا، وطوبىٰ لك إنْ نالَكَ ما وعدتُ الصابرينَ. ارجُ الدنيا من الله يومًا بيوم[٢]، وذُقْ مذاقةَ ما قد حُرِبَ[٣] منك؛ أين طعمُه؟ وما لم يأتِكَ؛ كيف لذَّتُه؟ افرحْ من الدُّنيا بالبُلْغة[٤]، ولْيَكْفِكَ منها الخشنُ الجئيبُ[٥]؛ قد رأيتَ إلىٰ ما يصيرُ. اعمَلْ علىٰ حسابٍ؛ فإنَّك مسؤولٌ. لو رأتْ عيناك ما أعددتُ لأوليائي الصالحين؛ ذاب قلبُك وزهقتْ نفسُك.

وقال أبو داوودَ في كتاب القدر[٦]: حدثنا محمدُ بنُ يحيىٰ بنِ فارس، حدثنا عبدُالرزاق، حدثنا معمرٌ، عن الزهريِّ، عن ابن طاووسَ، عن أبيه؛ قال: لقي عيسىٰ ابنُ مريم إبليسَ، فقال: أما علمتَ أنَّه لنْ يُصيبَكَ إلَّا ما كُتِبَ لك؟ قال إبليسُ: فارْقَ بذِرْوَةِ هٰذا الجبل، فتردَّىٰ منه، فانْظُرْ؛ هل تعيشُ أم لا؟ فقال ابن طاووس عن أبيه: فقال عيسىٰ: أما علمتَ أنَّ الله تعالىٰ قالَ: لا يُجَرِّبْني عبدي؛ فإني أفعلُ ما شئتُ؟! وقال الزهريُّ: إنَّ العبدَ لا يبتلي ربَّه، ولٰكنَّ الله يَبْتَلِي عبدَه.

وقال أبو داوود[٧]: حدَّثنا أحمدُ بنُ عبدةَ، أنبأنا سفيانُ، عن عمرٍو، عن طاووس؛ قال: أتىٰ الشيطانُ عيسىٰ ابنَ مريم، فقال: أليس تزعُمُ أنك صادقٌ؟ فائتِ هُوَّةً فألقِ نفسَكَ. قال: ويلكَ! أليس قال: يا ابنَ آدمَ! لا تسألْني هلاكَ نفسِكَ؛ فإنِّي أفعلُ ما أشاء!

وحدثنا أبو توبةَ الربيعُ بنُ نافع، حدثنا حسينُ بن طلحةَ، سمعت خالدَ بنَ يزيدَ؛ قال: تَعَبَّدَ

---

(١) المُلْولُ: المِكْحال. وقد وقع في جميع الأصول: «ملول»، ومعناه الرماد الحار، وهو ممكن، والأولىٰ ما أثبته من ابن عساكر.

(٢) في بعض الأصول: «ارج من الدنيا بالله يوم بيوم»! وفي الأخرىٰ وعند ابن عساكر: «ارج من الدنيا بالله يوم بيوم»! وكلاهما غير واضح، ولعل الصواب ما أثبته.

(٣) حُرِبَ: سُلِبَ.

(٤) البُلْغة: القليل الذي لا يكاد يسدُّ الحاجة.

(٥) الجئيب: الغليظ الجافي. وعند ابن عساكر: «الجشب». والمعنىٰ واحد.

(٦) وعنه ابن عساكر في «التاريخ» (٤٧/ ٣٨٨).

(٧) وعنه ابن عساكر في «التاريخ» (٤٧/ ٣٨٧).

الشيطانُ مع عيسىٰ عشرَ سنينَ أو سنتينِ، أقام يومًا علىٰ شفيرِ جبلٍ، فقال الشيطانُ: أرأيتَ إنْ ألقيتُ نفسي؛ هل يُصيبُني إلَّا ما كُتِبَ لي؟ قال: إنِّي لستُ بالذي أبتلي ربِّي، ولٰكنْ ربِّي إذا شاء ابتلاني. وعَرَفه أنَّه الشيطانُ، ففارَقَه.

وقال أبو بكر بنُ أبي الدُّنيا[١]: حدثنا سُرَيْج[٢] بن يونُسَ، حدثنا عليُّ بنُ ثابتٍ، عن الخطاب بن القاسم، عن أبي عثمانَ؛ قال: كان عيسىٰ عليه السلام يصلِّي علىٰ رأس جبلٍ، فأتاه إبليسُ، فقال: أنتَ الذي تَزْعُمُ أنَّ كلَّ شيءٍ بقضاءٍ وقدرٍ؟ قال: نعم. قال: ألقِ نفسَكَ من هٰذا الجبل، وقُلْ: قُدِّرَ عليَّ! فقال: يا لعينُ! الله يختبرُ العبادَ، وليس العبادُ يختبرون اللهَ عز وجل.

وقال أبو بكر بنُ أبي الدُّنيا[٣]: حدثنا الفضلُ بن موسىٰ البصريُّ، حدثنا إبراهيمُ بنُ بشارٍ، سمعتُ سفيانَ بن عُيينةَ يقولُ: لقي عيسىٰ ابنُ مريم إبليسَ، فقال له إبليسُ: يا عيسىٰ ابنَ مريمَ الذي بَلَغَ مِنْ عِظَم رُبوبيَّتِكَ أنَّك تكلَّمْتَ في المهدِ صبيًّا ولم يتكلَّمْ فيه أحدٌ قبلك! قال: بل الرُّبوبيَّةُ للإلٰهِ الذي أنْطَقَني ثم يُميتُني ثم يُحْيِيني. قال: فأنتَ الذي بَلَغَ من عِظَم ربوبيَّتِك أنَّك تُحيي الموتىٰ! قال: بل الرُّبوبيَّةُ لله الذي يُحيي ويميتُ مَنْ أحييتُ ثم يُحييه. قال: واللهِ؛ إنَّك لإلٰهٌ في السماء وإلٰهٌ في الأرض. قال: فَصَكَّهُ[٤] جبريلُ صَكَّةً بجناحيه؛ فما تباهىٰ[٥] دون قرونِ الشمس، ثم صكَّهُ أخرىٰ بجناحيهِ؛ فما تناهىٰ[٦] دون العينِ الحاميةِ، ثم صكَّه أخرىٰ؛ فأدخلَه بحارَ السابعةِ فأساخَه (وفي روايةٍ: فأسْلَكَه) فيها حتىٰ وَجَدَ طعم الحمأةِ[٧]، فخرج منها وهو يقولُ: ما لقي أحدٌ من أحدٍ ما لقيتُ منك يا ابنَ مريمَ!

وقد رُوِي نحوُ هٰذا بأبسطَ منه من وجهٍ آخرَ:

فقال الحافظُ أبو بكر الخطيبُ[٨]: أخبرني أبو الحسن بنُ رَزْقويهِ، أنبأنا أبو بكر أحمدُ بن

---

(١) وعنه ابن عساكر في «التاريخ» (٤٧/ ٣٨٦).

(٢) في جميع الأصول: «شريح»! والرجل مشهور من رجال «التهذيب».

(٣) (٤٧/ ٣٨٦)

(٤) صكه: لطمه شديدًا.

(٥) في جميع الأصول: «نباها»! والتصويب من ابن عساكر.

(٦) في جميع الأصول: «نباها»! والتصويب من ابن عساكر.

(٧) الحمأة: الطين الأسود.

(٨) وعنه ابن عساكر في «التاريخ» (٤٧/ ٣٨٨).

سندي(١)، حدثنا أبو محمدٍ الحسنُ بن عليٍّ القطانُ، حدثنا إسماعيلُ بن عيسىٰ العطَّارُ، أنبأنا عليُّ بن عاصم، حدثني أبو سلمةَ سويدٌ، عن بعض أصحابه؛ قال: صلىٰ عيسىٰ ببيتِ المقدس، فانصرفَ، فلمَّا كان ببعض العقبةِ(٢)؛ عَرَضَ له إبليسُ، فاحْتَبَسَهُ، فجعل يعرِضُ عليه ويكلِّمُه ويقولُ له: إنَّه لا ينبغي لك أن تكونَ عبدًا! فأكثرَ عليه، وجعلَ عيسىٰ يحرِصُ علىٰ أن يتخلَّصَ منه، فجعل لا يتخلَّصُ منه، فقالَ له فيما يقولُ: لا ينبغي لك يا عيسىٰ أن تكونَ عبدًا! قال: فاستغاثَ عيسىٰ بربِّه، فأقبل جبريلُ وميكائيلُ، فلمَّا رآهُما إبليسُ؛ كفَّ، فلمَّا استقرَّ معه علىٰ العقبةِ؛ اكتَنَفا عيسىٰ، وضربَ جبريلُ إبليسَ بجناحِهِ، فقذَفَه في بطن الوادي. قال: فعادَ إبليس معه، وعَلِمَ أنَّهما لم يُؤْمرا بغير ذٰلك، فقال لعيسىٰ: قد أخبرتُك أنَّه لا ينبغي أن تكونَ عبدًا، إنَّ غَضَبَكَ ليس بغضب عبدٍ، وقد رأيتَ ما لقيتُ منك حين غضبتَ، ولٰكنْ أدعوك لأمرٍ هو لك؛ مُرِ الشياطينَ؛ فَلْيطيعوكَ؛ فإذا رأىٰ البشرُ أنَّ الشياطينَ أطاعوك؛ عَبَدوكَ، أما إنِّي لا أقولُ أن تكونَ إلٰهًا ليس معه إلٰهٌ، ولٰكنَّ الله يكونُ إلٰهًا في السماءِ وتكونُ أنت إلٰهًا في الأرض! فلمَّا سَمعَ عيسىٰ ذٰلك منه؛ استغاثَ بربِّه، وصَرَخَ صرخةً شديدةً؛ فإذا إسرافيلُ قد هَبَطَ، فنظر إليه جبريلُ وميكائيلُ، فكفَّ إبليسُ، فلمَّا استقرَّ معهم؛ ضرب إسرافيلُ إبليسَ بجناحِهِ، فصكَّ به عينَ الشمس، ثم ضربَهُ ضربةً أخرىٰ، فأقبل إبليسُ يهوي، ومرَّ [بـ] عيسىٰ وهو بمكانِهِ، فقال: يا عيسىٰ! لقد لقيتُ فيك اليومَ تعبًا شديدًا. فرمىٰ به في عين الشمس، فوجدَ سبعةَ أملاكٍ عند العين الحاميةِ. قال: فَغَطُّوه، فجَعَلَ كلَّما خَرَجَ(٣) غَطُّوه في تلك الحمأةِ. قال: واللهِ؛ ما عاد إليه بعدُ.

قال: وحدثنا إسماعيلُ العطَّارُ، حدثنا أبو حذيفةَ(٤)؛ قال: واجتمع إليه شياطينُه، فقالوا: سيِّدَنا! لقد لقيتَ تعبًا! قال: إنَّ هٰذا عبدٌ معصومٌ، ليس لي عليه من سبيل، وسأُضِلُّ به بشرًا كثيرًا، وأبُثُّ فيهم أهواءً مختلفةً، وأجعلُهم شيعًا، ويجعلونَه وأمَّه إلٰهينِ من دونِ الله. قال: وأنزلَ الله فيما أيَّدَ به عيسىٰ وعَصَمَهُ من إبليسَ قرآنًا ناطقًا بِذِكْرِ نعمتِهِ علىٰ عيسىٰ، فقال:

(١) في بعض الأصول: «سبدي»! وفي بعضها: «سيدي»! والتصويب من «تاريخ بغداد» (٤/ ١٨٧).

(٢) العقبة: الطريق الصعب في صعود

(٣) في نسخة: «صرخ»

(٤) فهو إسحاق بن بشر الكذاب صاحب «المبتدإ والخبر».

﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠]؛ يعني: إذ قوَّيتُك بروح القدس؛ يعني: جبريل. ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ ...﴾ الآيةَ كلَّها [المائدة: ١١٠]. وإذ جعلتُ المساكين لك بطانةً وصحابةً وأعوانًا ترضىٰ بهم، وصحابةً وأعوانًا يرضَوْنَ بك هاديًا وقائدًا إلىٰ الجنَّةِ؛ فذٰلك فاعلمْ خُلُقانِ عظيمانِ؛ مَنْ لَقِيَني بهما؛ فقد لَقِيَني بأزكىٰ الخلائقِ وأرضاها عندي. وسيقولُ لك بنو إسرائيل: صُمْنا؛ فلم يُتَقَبَّلْ صيامُنا، وصَلَّيْنا؛ فلم تُقْبَلْ صلاتُنا، وتصدَّقْنا؛ فلم تُقْبَلْ صدقاتُنا، وبكَيْنا بمثل حنين الجِمال؛ فلم يُرْحَمْ بكاؤُنا؟! فقل لهم: ولم ذٰلك؟ وما الذي يمنعُني(١)؟! أنَّ ذات يدي قَلَّتْ؟! أوَلَيْسَ خزائنُ السماواتِ والأرض بيدي أنفِقُ منها كيفَ أشاءُ؟! أو أنَّ البُخْلَ يعتريني(٢)؟! أولست أجْوَدَ من سُئِلَ وأوسعَ من أعطىٰ؟! أو أنَّ رحمتي ضاقتْ؟! وإنَّما يتراحمُ المتراحمون بفضل رَحْمَتي. ولولا أنَّ هٰؤلاء القومَ يا عيسىٰ ابنَ مريمَ غَرُّوا(٣) أنْفُسَهم بالحكمةِ التي تورِثُ في قلوبهم ما استأثروا به الدُّنيا أثرةً علىٰ الآخرة؛ لَعَرَفوا من أين أُتوا، وإذن لأيقنوا أنَّ أنفسهم هي أعدىٰ الأعداء لهم. وكيف أقبلُ صيامَهم؛ وهم يتقوَّوْن عليه بالأطعمةِ الحرام؟! وكيف أقبلُ صلاتَهم؛ وقلوبُهم تَرْكَنُ إلىٰ الذين يحارِبونني ويستحِلُّونَ محارِمي؟! وكيف أقبلُ صدقاتِهم؛ وهم يَغْصُبونَ الناس عليها فيأخذونَها من غير حِلِّها؟! يا عيسىٰ! إنَّما أجزي عليها أهلَها. وكيف أرحمُ بكاءهم؛ وأيديهم تَقْطُرُ من دماءِ الأنبياءِ؟! ازددتُ عليهم غَضَبًا. يا عيسىٰ! وقضيتُ يوم خَلَقْتُ السماواتِ والأرضَ أنَّه مَنْ عبدَني وقال فيكُما بقولي؛ أنْ أجعلَهم جيرانَك في الدارِ، ورفقاءَكَ في المنازل، وشركاءَكَ في الكرامةِ. وقضيتُ يوم خلقتُ السماواتِ والأرضَ أنَّه من اتَّخذك وأمَّك إلٰهينِ من دون الله؛ أنْ أجْعَلَهُمْ في الدَّرْكِ الأسفل من النار. وقضيتُ يوم خَلَقْتُ السماواتِ والأرضَ أنِّي مُثْبِتٌ هٰذا الأمرَ علىٰ يدي عبدي محمدٍ، وأختِمُ به الأنبياءَ والرسلَ، ومولِدُهُ بمكَّةَ، ومهاجَرُهُ بطَيْبَةَ، وملكُهُ بالشام، ليس بفظٍّ ولا غليظٍ ولا سَخَّاب في الأسواق

(١) يعني: ما الذي يمنع الله ﷻ أن يجيبهم؟! فالضمير عائد علىٰ الله ﷻ.

(٢) في نسخة: «لا يعتريني»!

(٣) في نسخة: «عدوا»! وعند ابن عساكر: «غذوا»!

ولا يُزَرُّ[١] بالفحش ولا قوالٌ بالخنا[٢]، أسدِّدُه لكلِّ أمرٍ جميل، وأهَبُ له كلَّ خُلُقٍ كريم، وأجعل التَّقوىٰ ضميرَه، والحِكَمَ مَقُولَهُ[٣]، والوفاءَ طبيعتَه، والعدلَ سيرتَه، والحقَّ شريعتَه، والإسلامَ مِلَّتَهُ، اسمُهُ أحمدُ، أهدي به بعدَ الضَّلالِة، وأعلِّمُ به بعد الجَهالِةِ، وأُغني به بعد العائلةِ، وأرفع به بعد الضَّعَةِ، أهدي به وأفتح به بين آذانٍ صمٍّ وقلوب غُلْفٍ وأهواءٍ مختلفةٍ متفرِّقةٍ، وأجعل أمَّتَه خير أمةٍ أُخرجتْ للناس يأمرون بالمعروفِ وينهَوْنَ عن المنكرِ إخلاصًا لاسمي وتصديقًا لِما جاءتْ به الرسلُ، أُلهِمُهُم التسبيحَ والتقديسَ والتهليلَ في مساجِدِهم ومجالسِهِم وبيوتِهِم ومُنْقَلَبِهِم ومَثْواهم، يصلُّونَ لي قيامًا وقُعودًا ورُكَّعًا وسجودًا، ويقاتِلون في سبيلي صفوفًا وزحوفًا، قُرُباتُهُم دماؤهم، وأناجيلُهُم في صدورِهِم، وقِرْبانُهم في بطونِهِم، رهبانٌ بالليل، لُيوثٌ في النهار، ذٰلك فضلي أوتيه مَن أشاءُ، وأنا ذو الفضل العظيم[٤].

وسنذكُرُ ما يصدِّقُ كثيرًا من هٰذا السياق ممَّا سنورِدُه من سورتي المائدةِ والصفِّ إنْ شاء اللهُ وبه الثقة[٥].

وقد روىٰ أبو حذيفةَ إسحاقُ بن بشرٍ بأسانيدِهِ عن كعب الأحبار ووَهْبِ بن منبِّهٍ وابن عباس وسلمانَ الفارسيِّ -دخل حديثُ بعضِهم في بعض-؛ قالوا: لمَّا بُعِثَ عيسىٰ ابنُ مريم، وجاءهم بالبيِّناتِ؛ جعل المنافقون والكافرون من بني إسرائيل يَعْجَبونَ منه ويستهزئون به، فيقولون: ما أكلَ فلانٌ البارحةَ؟ وما ادَّخَرَ في منزِلِه؟ فيخبِرُهم، فيزدادُ المؤمنون إيمانًا والكافرون والمنافقون شكًّا وكفرانًا. وكان عيسىٰ مع ذٰلك ليس له منزلٌ يأوي إليه، إنَّما يَسيحُ في الأرض، ليس له قرارٌ ولا موضعٌ يُعْرَفُ به. فكان أولَ ما أحيا من الموتىٰ أنَّه مرَّ ذات يوم علىٰ امرأةٍ قاعدةٍ عند قبر وهي تبكي، فقال لها: ما لكِ أَيَّتُها المرأةُ؟ فقالت: ماتتِ ابنةٌ لي لم يكنْ لي ولدٌ غيرُها، وإنِّي عاهدتُ ربِّي أن لا أبرحَ من موضعي هٰذا حتىٰ أذوقَ ما ذاقتْ

---

(١) ولا يُزَرُّ بالفحش: لا يُطْعَنُ به. وفي نسخة وعند ابن عساكر: «ولا يتزين بالفحش». والأولىٰ والأحرىٰ ما أثبته.

(٢) الخنا: الفحش.

(٣) في جميع الأصول: «معقر له». وعند ابن عساكر: «معقوله»! والأولىٰ ما أثبته.

(٤) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧/ ٣٨٨).

(٥) كيف وفيه إسحاق بن بشر الكذاب؟! فمثل هذه السياقات -مهما صدقت وصحت المعاني التي تنطوي عليها- لا ينظر إليها ولا يُتمادىٰ بها ولا كرامة!!

من الموت أو يُحْيِيَها الله لي فأنْظُرَ إليها. فقال لها عيسىٰ: أرأيتِ إنْ نظرتِ إليها؛ أراجعةٌ أنت؟ قالت: نعم. قالوا: فصلَّىٰ ركعتينِ، ثم جاء، فجلسَ عند القبر، فنادىٰ: يا فلانةُ! قومي بإذنِ الرحمٰن فاخْرُجي. قال: فتحرَّكَ القبرُ. ثم نادىٰ الثانيةَ! فانصدعَ القبرُ بإذنِ اللهِ. ثم نادىٰ الثالثةَ! فخرجتْ وهي تنفُضُ رأسَها من الترابِ. فقال لها عيسىٰ: ما أبطأ بكِ عنِّي؟ فقالتْ: لمَّا جاءتْني الصيحةُ الأولىٰ؛ بَعَثَ الله لي مَلَكًا، فركَّبَ خَلْقي، ثم جاءتْني الصيحةُ الثانيةُ؛ فأرجعَ إليَّ رُوحي، ثم جاءتني الصيحةُ الثالثةُ؛ فخفتُ أنَّها صيحةُ القيامةِ، فشاب رأسي وحاجِباي وأشفارُ عيني من مخافةِ القيامةِ. ثم أقبلتْ علىٰ أمِّها، فقالت: يا أمَّاه! ما حَمَلَكِ علىٰ أن أذوقَ كربَ الموتِ مرَّتينِ؟ يا أمَّاه! اصبِري واحْتَسِبي؛ فلا حاجةَ لي في الدُّنيا. يا روحَ الله وكَلِمَتَهُ! سلْ ربِّي أن يردَّني إلىٰ الآخرةِ وأن يهوِّنَ عليَّ كَرْبَ الموتِ. فدعا ربَّه، فقبضَها إليه، واستوتْ عليها الأرضُ. فبلغَ ذٰلك اليهودَ، فازدادوا عليه غضبًا.

وقدَّمْنا في عقبِ قصَّةِ نوح أنَّ بني إسرائيلَ سألوه أن يُحْيِيَ لهم سامَ بن نوح، فدعا الله ﷻ وصلىٰ للهِ، فأحياه اللهُ لهم، فحدَّثهم عن السفينةِ وأمرِها، ثمَّ دعا، فعاد ترابًا[1].

وقد روىٰ السُّدِّيُّ: عن أبي صالح وأبي مالكٍ، عن ابن عباس... في خبرٍ ذَكَرَهُ. وفيه أنَّ ملكًا من ملوكِ بني إسرائيل مات وحُمِلَ علىٰ سريره، فجاء عيسىٰ عليه السلام، فدعا الله ﷻ، فأحياه اللهُ ﷻ، فرأىٰ الناسُ أمرًا هائلًا ومنظرًا عجيبًا.

وقال الله تعالىٰ وهو أصدق القائلين: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١٠-١١١].

يذكِّرُه تعالىٰ بنعمتِهِ عليه وإحسانِهِ إليه؛ في خَلْقِهِ إيَّاه من غير أبٍ بل من أمٍّ بلا ذَكَرٍ، وجَعْلِهِ له

(١) انظره في (ص١٢٥).

آيةً للناس ودلالةً علىٰ كمال قدرتِهِ تعالىٰ، ثم إرسالِهِ بعد هٰذا كلِّه. ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾: في اصطفائِها واختيارِها لهٰذه النعمة العظيمة، وإقامةِ البرهانِ علىٰ براءتِها ممَّا نسبها إليه الجاهلونَ، ولهٰذا قال: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾: وهو جبريلُ؛ بإلقاءِ روحِهِ إلىٰ أمِّه، وقَرْنِهِ معه في حال رسالتِهِ، ومدافعتِهِ عنه لِمَنْ كفَرَ به. ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾؛ أي: تدعو الناسَ إلىٰ اللهِ في حال صِغَرِكَ في مهدِك وفي كُهولتك. ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ أي: الخطَّ والفهمَ. نصَّ عليه بعضُ السلف. ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾. وقولُهُ: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾؛ أي: تصوِّرُه وتشكِّلُه من الطين علىٰ هيئة الطير عن أمرِ الله له بذٰلك. ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾؛ أي: بأمري؛ يؤكِّدُ تعالىٰ بذِكْرِ الإذن له في ذٰلك لرفع التوهُّم. وقوله: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾: قال بعضُ السلفِ: وهو الذي يولد أعمىٰ، ولا سبيل لأحدٍ من الحكماءِ إلىٰ مداواته. ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾: هو الذي لا طِبَّ فيه، بل قد مَرِضَ بالبرص وصار داؤه عُضالًا. ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ أي: من قبورِهم أحياءً. ﴿بِإِذْنِى﴾: وقد تقدَّمَ ما فيه دلالةٌ علىٰ وقوع ذٰلك مرارًا متعدِّدة بما فيه كفايةٌ. وقوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾: وذٰلك حين أرادوا صَلْبَه، فرفعَه الله إليه، وأنقذَه من بينِ أظهُرِهم؛ صيانةً لجنابه الكريم عن الأذىٰ، وسلامةً له من الرَّدىٰ. وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ قيل: المرادُ بهٰذا الوحي وحيُ إلهام؛ أي: أرشدهم الله إليه ودلَّهم عليه؛ كما قال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: ٧]. وقيل: المرادُ وحيٌ بواسطة الرسول، وتوفيقٌ في قلوبهم لِقَبول الحقِّ، ولهٰذا استجابوا قائلين: ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾: وهٰذا من جملة نِعَم الله علىٰ عبدِهِ ورسولِهِ عيسىٰ ابنِ مريم؛ أنْ جَعَلَ له أنصارًا وأعوانًا ينصُرونَه ويَدْعونَ معه إلىٰ عبادةِ الله وحدَه لا شريك له؛ كما قال تعالىٰ لعبدِهِ محمدٍ ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى

قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٨-٥٤].

كانت معجزةُ كلِّ نبيٍّ في زمانه بما يناسبُ أهل ذٰلك الزمانِ:

فذَكَروا أنَّ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كانت معجزتُهُ ممَّا يناسِبُ أهلَ زمانِهِ، وكانوا سحرةً أذكياءَ، فبُعِثَ بآياتٍ بَهَرَتِ الأبصارَ وخضعتْ لها الرقابُ، ولمَّا كان السحرةُ خبيرينَ بفنون السحرِ وما ينتهي إليه، وعاينوا ما عاينوا من الأمرِ الباهر الهائل الذي لا يمكنُ صدورُهُ إلَّا عمَّنْ أيَّدَهُ الله وأجرىٰ الخارقَ علىٰ يديه تصديقًا له؛ أسلموا سِراعًا ولم يَتَلَعْثَموا.

وهٰكذا عيسىٰ ابنُ مريم؛ بُعِثَ في زمن الطَّبائعيَّةِ الحكماءِ، فأُرْسِلَ بمعجزاتٍ لا يستطيعونها ولا يهتدونَ إليها، وأنَّىٰ لحكيم إبراءُ الأكمهِ -الذي هو أسوأ حالًا من الأعمىٰ- والأبرصِ والمجذومِ ومن به مرضٌ مزمن؟! وكيف يَتَوَصَّلُ أحدٌ من الخلق إلىٰ أن يُقيمَ الميتَ من قبرِهِ؟! هٰذا -ممَّا يعلمُ كلُّ أحدٍ- معجزةٌ دالةٌ علىٰ صدق من قامتْ به وعلىٰ قدرةِ مَنْ أرسلَه.

وهٰكذا محمدٌ ﷺ وعليهم أجمعين؛ بُعِثَ في زمن الفصحاء البلغاء، فأنزل الله عليه القرآنَ العظيم الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يَدَيْهِ ولا من خلفِهِ تنزيلٌ من حكيم حميدٍ؛ فلفظُهُ معجزٌ، تحدَّىٰ به الإنسَ والجنَّ أن يأتوا بمثلِهِ أو بعشر سورٍ من مثلِهِ أو بسورةٍ، وقَطَعَ عليهم بأنَّهم لا يقدرونَ لا في الحال ولا في الاستقبال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤][(١)]، وما ذاك إلاَّ لأنَّه كلامُ الخالق عَزَّوَجَلَّ، والله تعالىٰ لا يشبهُهُ شيءٌ لا في ذاتِهِ ولا في صفاتِهِ ولا في أفعالِهِ.

---

(١) في جميع الأصول: «فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا»! وهو خطأ ظاهر؛ لأن للكلام هنا أحد وجهين: **أولهما**: أن يكون تتمة الجملة السابقة؛ فهو لفظ الآية ليس إلا. **والآخر**: أن يكون كلامًا جديدًا مستأنفًا؛ فلا بدَّ من جواب للشرط، وليس ثمة جواب!

والمقصودُ: أنَّ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لمَّا أقام عليهم الحُجَجَ والبراهينَ؛ استمرَّ أكثرُهُم علىٰ كفرِهِم وضلالِهِم وعنادِهِم وطغيانِهِم، فانتدبَ له مِنْ بينِهِم طائفةٌ صالحةٌ، فكانوا له أنصارًا وأعوانًا قاموا بمتابعتِهِ ونصرتِهِ ومناصحتِهِ، وذٰلك حين همَّ به بنو إسرائيل، ووشَوْا به إلىٰ بعض ملوكِ ذٰلك الزمان، فعزموا علىٰ قتلِهِ وصلبِهِ، فأنقذَه الله منهم، ورفعَه إليه من بينِ أظهُرِهم، وألقىٰ شَبَهَهُ علىٰ أحدِ أصحابه، فأخذوه فقتَلوه وصَلَبوه وهم يعتقدونَه عيسىٰ، وهم في ذٰلك غالطون، وللحقِّ مكابرون، وسلَّمَ لهم كثيرٌ من النَّصارىٰ ما ادَّعَوْه، وكلا الفريقين في ذٰلك مخطئون؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٤].

۞ [ذكر ما جاء في بشارة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بمحمد ﷺ]:

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٦﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ...﴾ إلىٰ أن قال بعد ذٰلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: ٦-١٤]..

فعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ هو خاتمُ أنبياء بني إسرائيل، وقد قام فيهم خطيبًا، فبشَّرَهم بخاتِمِ الأنبياء الآتي بعدَه، ونوَّه باسمه، وذَكَرَ لهم صفتَه ليعرفوه ويتابعوه إذا شاهدوه؛ إقامةً للحُجَّةِ عليهم، وإحسانًا من الله إليهم.

كما قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

قال محمدُ بنُ إسحاقَ: حدَّثني ثَوْرُ بنُ يزيدَ، عن خالدِ بنِ مَعْدانَ، عن أصحاب رسول الله ﷺ: أنَّهم قالوا: يا رسولَ اللهِ! أخبِرْنا عن نفسِكَ؟ قال: **«دعوةُ أبي إبراهيمَ، وبُشْرى عيسى، ورأتْ أمِّي**

حين حَمَلَتْ بي كأنَّه خَرَجَ منها نورٌ أضاءتْ له قصورُ بُصرى من أرض الشام»[١].

وقد رُوِيَ عن العرباضِ بنِ سارية[٢] وأبي أمامة[٣] عن النبيِّ ﷺ نحوُ هٰذا، وفيه: «دعوةُ أبي إبراهيمَ، وبُشْرى عيسى».

(١) (حسن صحيح). رواه: ابن جرير في «التفسير» (١/ ٦٠٦/ ٢٠٧٥)، والحاكم (٢/ ٦٠٠)؛ من طريق ابن إسحاق... به، فذكره.
وإسناده حسن من أجل ابن إسحاق لٰكنه يصح بشاهديه الآتيين. وقال الحاكم: «خالد بن معدان من خيار التابعين، صحب معاذ بن جبل فمن بعده من الصحابة؛ فإذا أسند الحديث إلىٰ الصحابة؛ فإنه صحيح الإسناد. ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي. وقال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٢٧٥): «وهٰذا إسناد جيد قوي». وأقرهم الألباني. وانظر: «الصحيحة» (٤/ ٦٠/ ١٥٤٥).

(٢) (صحيح). رواه: ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٧١)، وأحمد (٤/ ١٢٧)، وابن جرير في «التفسير» (١/ ٦٠٦/ ٢٠٧٧ و٢٠٧٨)، وابن حبان (١٤/ ٣١٢/ ٦٤٠٤)، والطبراني (١٨/ ٢٥٢/ ٦٢٩ و٦٣٠)؛ من طرق عن معاوية بن صالح، عن سعيد بن سويد، عن عبد الأعلىٰ (وقيل: عبد الله) بن هلال السلمي، عن العرباض... فذكره بنحوه مرفوعًا.
وسنده فيه ضعف من ثلاثة وجوه:
فالأول: أن عبد الأعلىٰ هٰذا قد ترجم له البخاري وابن أبي حاتم ولم يذكرا فيه جرحًا ولا تعديلًا، وذكره ابن حبان في «الثقات» وروىٰ عنه اثنان. فحديثه مقارب.
والثاني: سعيد بن سويد: صدوق كثير التدليس، وقد عنعن.
والثالث: أن معاوية بن صالح قد خولف فيه؛ فرواه: أحمد (٤/ ١٢٨)، وابن جرير في «التفسير» (١/ ٦٠٦/ ٢٠٧٦)، والطبراني (١٨/ ٢٥٣/ ٦٣١)، والحاكم (٢/ ٦٠٠)؛ من طرق عن أبي بكر بن أبي مريم، عن سعيد بن سويد، عن العرباض... فذكره مرفوعًا وأسقط تابعيَّه! لٰكن أبو بكر هٰذا ضعيف؛ فروايته هي المنكرة، أو أن سويد بن سعيد قد دلَّس هنا ورواه علىٰ الجادة هناك. وفي كل الأحوال؛ فهذه الرواية لا تضر رواية معاوية بن صالح إن شاء الله.
والخلاصة: أن في السند ضعفًا، ولٰكنه ينجبر إن شاء الله بالشاهدين المتقدم والآتي فيصح بهما. والحديث؛ صححه الحاكم، ووافقه الذهبي، ومال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٢٦) لتحسنه، فقال: «أحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح، غير سعيد بن سويد، وقد وثقه ابن حبان». وصححه الألباني بشواهده إلا زيادة فيه منكرة أورده لأجلها في «الضعيفة» (٥/ ١٠٤/ ٢٠٨٥)، ولم يذكرها الحافظ ابن كثير هنا.

(٣) (صحيح). رواه: ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٧١)، وأحمد (٥/ ٢٦٢)، والطبراني (٨/ ١٧٥/ ٧٧٢٩)؛ من طرق عن فرج بن فضالة، عن لقمان بن عامر، عن أبي أمامة... به. وفرجٌ هٰذا ضعيف؛ إلا في روايته عن الشاميين - وهٰذا منها-؛ فلا بأس به. فالسند لا بأس به في الشواهد، وقد تقدم منها ما يصح به. وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٢٥): «رواه أحمد، وإسناده حسن، وله شواهد تقويه، ورواه الطبراني». وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤/ ٥٥٨/ ١٩٢٥).

وذٰلك أنَّ إبراهيم لمَّا بنىٰ الكعبةَ؛ قال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ...﴾ الآية [البقرة: ١٢٩].

ولمَّا انتهتِ النبوةُ في بني إسرائيل إلىٰ عيسىٰ؛ قام فيهم خطيبًا، فأخبرهم أنَّ النبوَّةَ قد انقطعتْ عنهم، وأنَّها بعدَه في النبيِّ، العربيِّ، الأمِّيِّ، خاتم الأنبياء علىٰ الإطلاق، أحمدَ، وهو محمدُ بنُ عبدِالله بن عبد المطَّلبِ بن هاشم، الذي هو من سلالةِ إسماعيلَ بنِ إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾: يُحْتَمَلُ عودُ الضمير إلىٰ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويُحْتَمَلُ عودُهُ إلىٰ محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم حَرَّضَ تعالىٰ عبادَه المؤمنين علىٰ نُصْرَةِ الإسلام وأهلِهِ ونُصْرَةِ نبيِّه ومؤازرتِهِ ومعاونتِهِ علىٰ إقامة الدين ونشرِ الدَّعوة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: من يساعدني في الدَّعوةِ إلىٰ الله؟ ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾: وكان ذٰلك في قريةٍ يُقالُ لها: الناصرةُ، فسُمُّوا بذٰلك النَّصارىٰ. قال الله تعالىٰ: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾؛ يعني: لمَّا دعا عيسىٰ ابنُ مريم بني إسرائيل وغيرَهم إلىٰ الله تعالىٰ؛ منهم مَنْ آمنَ ومنهم مَنْ كَفَرَ: وكان ممَّنْ آمن به أهلُ أنطاكيةَ بكمالِهم فيما ذكره غير واحدٍ من أهل السير والتواريخ والتفسير؛ بعث إليهم رسلًا ثلاثةَ، أحدُهم سمعانُ[1] الصفا، فآمنوا واستجابوا، وليس هٰؤلاء هم المذكورون في سورة يس؛ لما تقدَّم تقريرُه في قصَّةِ أصحاب القرية. وكفر آخرون من بني إسرائيل، وهم جمهورُ اليهودِ. فأيَّدَ اللهُ مَنْ آمنَ به علىٰ من كَفَرَ فيما بعدُ وأصبحوا ظاهرين عليهم قاهرين لهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ...﴾ الآية [آل عمران: ٥٥]؛ فكلُّ مَنْ كان إليه أقربَ؛ كان غالبًا[2] لِمَنْ دونَه، ولمَّا كان قولُ المسلمين فيه هو الحقَّ الذي لا شكَّ فيه من أنَّه عبد الله ورسولُه؛ كانوا ظاهرين علىٰ النَّصارىٰ الذين غَلَوْا فيه وأطْرَوْه وأنْزَلوه فوق ما أنْزَلَه الله به[3]، ولمَّا كان النصارىٰ أقربَ

---

(١) في جميع الأصول: «شمعون». والتصويب من «العهد الجديد».

(٢) في نسخة: «عاليًا».

(٣) فلما سلك كثير من المسلمين في نبيهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسلك النصارىٰ في عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وغلوا فيه، واستجاروا به =

في الجملةِ ممَّا ذهب إليه اليهودُ فيه عليهم لعائنُ الله؛ كان النَّصارىٰ قاهرينَ لليهودِ في أزمان الفترةِ إلىٰ زمنِ الإسلام وأهلِهِ.

۞ ذكر خبر المائدة:

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة: ١١٢-١١٥].

قد ذكرْنا في «التفسير» الآثارَ الواردةَ في نزول المائدة عن ابن عباس وسلمان الفارسي وعمار بن ياسر وغيرهم من السلف، ومضمونُ ذٰلك أنَّ عيسىٰ ﷺ أمَرَ الحواريينَ بصيام ثلاثين يومًا، فلمَّا أتمُّوها؛ سألوا من عيسىٰ إنزالَ مائدةٍ من السماء عليهم؛ ليأكلوا منها، وتَطْمَئِنَّ بذٰلك قلوبُهم أنَّ الله قد تَقَبَّلَ صيامَهم وأجابَهم إلىٰ طَلِبَتِهِمْ، وتكونَ لهم عيدًا يُفْطِرون عليها يوم فِطْرِهم، وتكونَ كافيةً لأوَّلِهم وآخرِهم، لغنيِّهم وفقيرِهم! فوعَظَهم عيسىٰ ﷺ في ذٰلك، وخاف عليهم ألَّا يقوموا بشُكْرِها ولا يؤدُّوا حقَّ شروطها، فأبَوْا عليه إلَّا أنْ يسألَ لهم ذٰلك من ربِّه ﷻ. فلمَّا لم يُقْلِعوا عن ذٰلك؛ قام إلىٰ مصلَّاه، ولبس مِسْحًا من شعرٍ، وصفَّ بين قدميهِ وأطرقَ رأسَه، وأسبل عينيهِ بالبُكاء، وتضرَّعَ إلىٰ الله في الدُّعاء والسؤال أن يُجابوا إلىٰ ما طَلَبوا. فأنزل الله تعالىٰ المائدةَ من السَّماءِ، والناسُ ينظُرون إليها، تنحدِرُ بين غمامتينِ، وجعلتْ تدنو قليلًا قليلًا، وكلَّما دَنَتْ؛ سأل عيسىٰ ربَّه ﷻ أنْ يَجْعَلَها رحمةً لا نقمةً، وأن يَجْعَلَها بركةً وسلامةً، فلم تزلْ تدنو حتىٰ استقرَّتْ بين يدي عيسىٰ ﷺ، وهي مغطاةٌ بمنديل، فقام عيسىٰ يكشِفُ عنها وهو يقولُ: بسم اللهِ خيرِ الرازقينَ. فإذا عليها سبعةٌ من الحيتانِ وسبعةُ أرغفةٍ، **ويقال:** وخلٌّ، **ويقال:** ورمانٌ وثمارٌ، ولها رائحةٌ عظيمةٌ جدًّا؛ قال الله لها: كوني! فكانتْ. ثم

= ولجؤوا إليه واستغاثوا به في الشدائد والكربات، بل عبدوا من هو دونه بدرجات من الصالحين، بل ألَّهوا من هو من أهل الفسق والضلالة وأضفوا عليهم صفات لا تنبغي إلا لله ﷻ؛ سقطت دولتهم، وظهر النصارىٰ واليهود عليهم، وأذاقوهم صنوف الذل والهوان. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

أمرهم بالأكل منها. فقالوا: لا نأكُلُ حتىٰ تأكلَ. فقال: إنَّكُم الذين ابتدأتُم السؤالَ لها! فأبَوْا أن يأكلُوا منها ابتداءً، فأمر الفقراءَ والمحاويجَ والمرضىٰ والزَّمْنىٰ -وكانوا قريبًا من ألف وثلاث مئة-، فأكلوا منها، فَبرِئَ كلُّ مَنْ به عاهةٌ أو آفةٌ أو مرضٌ مزمنٌ، فندم الناسُ علىٰ تركِ الأكل منها لِما رأوا من إصلاح حال أولئك. **ثم قيل**: إنَّها كانت تنزِلُ كلَّ يوم مرةً، فيأكلُ الناس منها، يأكلُ آخرُهم كما يأكلُ أوَّلُهم، **حتى قيل**: إنَّه كان يأكلُ منها نحوُ سبعة آلاف. ثم كانت تنزِلُ يومًا بعد يوم؛ كما كانت ناقةُ صالح يشربونَ لبنَها يومًا بعد يوم. ثم أمَرَ اللهُ عيسىٰ أن يَقْصُرَها علىٰ الفقراء أو المحاويج دون الأغنياءِ، فشقَّ ذٰلك علىٰ كثيرٍ من الناس، وتكلَّم منافقوهم في ذٰلك، فرُفِعَتْ بالكُلِّيَّةِ، ومُسِخَ الذين تكلَّموا في ذٰلك خنازير.

وقد روىٰ ابنُ أبي حاتم وابنُ جريرٍ جميعًا: حدثنا الحَسَنُ بن قَزَعَةَ الباهليُّ، حدثنا سفيانُ بن حَبيبٍ، حدثنا سعيدُ بنُ أبي عَروبةَ، عن قَتادة، عن خِلاس، عن عمار بن ياسرٍ، عن النبيِّ ﷺ؛ قال: «**نزلتِ المائدةُ من السماء خبزٌ ولحمٌ، وأُمِروا ألَّا يَخونوا ولا يَدَّخِروا ولا يَرْفَعوا لغدٍ، فخانوا وادَّخَروا ورَفَعوا، فمُسِخوا**[1] **قردةً وخنازير**»[2].

---

(١) الضمير في قوله: «فخانوا وادخروا ورفعوا ومسخوا»: عائد علىٰ كفار بني إسرائيل لا علىٰ تلاميذ المسيح وحوارييه؛ فإن الله قد أمرنا أن نقتدي بهم ونتبع هديهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ الآية [الصف: ١٤]؛ فمثلهم لا يكون منه الخيانة بلا ريب.

(٢) (**صحيح موقوفًا ومرفوعًا**). رواه الترمذي (٤٨- التفسير، ٦- ومن سورة المائدة، ٥/ ٢٦٠/ ٣٠٦١)، وابن جرير في «التفسير» (٥/ ١٣٤/ ١٣٠١٦)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٤/ ١٢٤٥/ ٧٠٢٢)، وابن عساكر في «التاريخ» (٤٧/ ٣٩٩)؛ كلهم من طريق ابن قزعة... به، فذكره مرفوعًا. ولهٰذا سند حسن، رجاله كلهم ثقات، وقد أعلّ بعلتين:

* **الأولى**: الانقطاع بين خلاس وعمار. والحق أن خلاسًا قد سمع من عمار، وبهٰذا جزم الحافظ في «التقريب»، ثم وجدت في ترجمته في «طبقات ابن سعد» ٠٧/ ٧٦ بسند حسن ما يؤكد هٰذا السماع الذي جزم به الحافظ؛ فلا يلتفت بعد هٰذا لإعلاله بالانقطاع.

* **والثانية**: أنهم اختلفوا في رفعه ووقفه؛ فقد روي موقوفًا من عدة أوجه:

١- فرواه الترمذي (في الموضع السابق): ثنا حميد بن مسعدة، ثنا سفيان بن حبيب... به، فذكره بنحوه موقوفًا علىٰ عمار. قال الترمذي: «وهٰذا أصح من حديث الحسن بن قزعة، ولا نعلم للحديث المرفوع أصلًا». قلت: ليس بين ابن قزعة وابن مسعدة كبير فرق ترتاح إليه النفس في ترجيح أحدهما علىٰ الآخر، وإن كان ابن مسعدة من رجال مسلم؛ فكلاهما صدوقان، ولا سيما أنه يمكن التوفيق بين روايتهما كما هو معلوم، فيكون الرفع زيادة =

ثم رواه ابنُ جريرٍ عن: بُندارٍ، عن ابن أبي عديٍّ، عن سعيدٍ، عن قَتادةَ، عن خلاسٍ، عن عمارٍ؛ موقوفًا. وهٰذا أصحُّ.

وكذا رواه من طريق: سماكٍ، عن رجل من بني عجل، عن عمار؛ موقوفًا. وهو الصوابُ. والله أعلم.

وخلاسٌ عن عمارٍ منقطعٌ؛ فلو صحَّ هٰذا الحديثُ مرفوعًا؛ لكان فيصلًا في هٰذه القصةِ؛ فإنَّ العلماء اختَلَفوا في المائدةِ: هل نزلتْ أم لا؟

فالجمهورُ أنَّها نزلتْ؛ كما دلَّتْ عليه هٰذه الآثارُ؛ كما هو المفهومُ من ظاهرِ سياقِ القرآنِ، ولا سيَّما قولِهِ: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾؛ كما قرَّره ابنُ جرير[1]. والله أعلم.

وقد روىٰ ابنُ جريرٍ[2] بإسنادٍ صحيح إلىٰ مجاهدٍ وإلىٰ الحسن بنِ أبي الحسن البصريِّ، أنَّهما قالا: لم تنزلْ، وأنَّهم أبَوْا نزولَها حين قال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾، ولهٰذا قيل: إنَّ النَّصارىٰ لا يعرِفونَ خبر المائدةِ، وليس مذكورًا في

= ثقة يتعين القول بها.

٢- نعم؛ يترجح الوقف برواية ابن جرير (٥/ ١٣٤/ ١٣٠١٨) للحديث موقوفًا من طريق بندار... بالسند الذي ذكره المصنف بعد. وهو صحيح جدًّا، وأصح مما سبق كما قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٣- وأما رواية ابن جرير الثالثة الموقوفة التي أوردها المصنف بعد؛ فهي عنده (٥/ ١٣٤/ ١٣٠١٥)، لٰكنها ضعيفة لجهالة الرجل الذي لم يسمَّ.

٤- وقد روي موقوفًا أيضًا من أوجه أخرىٰ؛ فقد قال الترمذي: «هٰذا حديث قد رواه أبو عاصم وغير واحد عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن خلاس عن عمار بن ياسر موقوفًا، ولا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث الحسن بن قزعة».

فهٰذا ما وقفت عليه من الروايات الموقوفة علىٰ عمار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهي ترجح الوقف بلا ريب، ولٰكن هذه المسألة تبقىٰ شكليَّة ومصطلحيَّة ليس إلَّا؛ فالموقوف هنا له حكم المرفوع؛ لأنه لا يدرك بالرأي والاجتهاد وإنما يؤخذ بالرواية والتوقيف كما هو معلوم. ولا يقال: ربما تلقَّاه عمار عن مسلمة أهل الكتاب؛ لأنه لا يعرف لعمار مرويات عنهم أولًا، ولأن أهل الكتاب أنفسهم لا يعرفون قصة المائدة أصلًا ولا عندهم خبرها، وهذه التوراة والأناجيل التي بأيديهم شاهدة علىٰ ذلك، وسيأتي هٰذا قريبًا من كلام ابن كثير نفسه. وعلىٰ هٰذا؛ فالروايات الموقوفة في هٰذا الحديث لها حكم الرفع، وهي تزيد المرفوع الحسن قوة فيصح بها. ولله الحمد.

(١) في «التفسير» (٥/ ١٣٥/ المائدة ١١٤).

(٢) في «التفسير» (٥/ ١٣٥/ ١٣٠٢٤-١٣٠٢٦).

كتابِهِم، مع أنَّ خَبَرَها ممَّا تتوافَرُ الدَّواعي علىٰ نقلِهِ. والله أعلم. وقد تقصَّيْنا الكلامَ علىٰ ذٰلك في «التفسير»؛ فَلْيُكْتَبْ من هناك، ومَن أراد مراجعتَه؛ فلْيَنْظُرْه مِن ثَمَّ[١]. ولله الحمدُ والمنَّةُ.

۞ فصل [في جملة من خصائله وحكمه ﷺ][٢]:

قال أبو بكر بنُ أبي الدُّنيا: حدثنا رجلٌ سَقَطَ اسمُه، حدَّثنا حجاجُ بن محمدٍ، حدثنا أبو هلال محمدُ بنُ سليمانَ، عن بكرِ بن عبدِالله المزنيِّ؛ قال: فَقَدَ الحواريونَ نبيَّهم عيسىٰ، فقيل لهم: توجَّه نحو البحرِ، فانطلقوا يطلُبونَه، فلمَّا انتهَوْا إلىٰ البحر؛ إذا هو يمشي علىٰ الماءِ؛ يرفعُه الموجُ مرةً ويضعَه أخرىٰ، وعليه كساءٌ؛ مرتدٍ بنصفِهِ ومؤتزرٌ بنصفِهِ، حتىٰ انتهىٰ إليهم، فقال له بعضهم (قال أبو هلال: ظننتُ أنَّه من أفاضِلِهم): ألا أجِئُ إليك يا نبيَّ الله؟ قال: بلىٰ. قال: فَوَضَعَ إحدىٰ رجليه علىٰ الماء، ثم ذهب ليضعَ الأخرىٰ، فقال: أَوَّهْ! غرقتُ يا نبيَّ الله! فقال: أرنىٰ يَدَكَ يا قصير الإيمان! لو أنَّ لابنِ آدمَ من اليقين قَدْرَ شعيرةٍ؛ مشىٰ علىٰ الماءِ.

ورواه أبو سعيد بنُ الأعرابيِّ، عن إبراهيم بن أبي الجحيم، عن سليمانَ بن حربٍ، عن أبي هلال، عن بكر... بنحوِهِ.

ثم قال ابنُ أبي الدُّنيا: حدثنا محمدُ بنُ عليِّ بنِ الحسن بنِ سفيانَ، حدثنا إبراهيمُ بن الأشعثِ، عن الفُضَيْل بن عِياض؛ قال: قيل لعيسىٰ ابنِ مريم: يا عيسىٰ! بأيِّ شيءٍ تمشي علىٰ الماء؟ قال: بالإيمانِ واليقينِ. قالوا: فإنَّا آمنَّا كما آمنتَ وأيْقَنَّا كما أيقَنت. قال: فامشوا إذًا! قال: فمشَوْا معه في الموج، فغرِقوا! فقال لهم عيسىٰ: ما لكم؟ فقالوا: خِفْنا الموجَ. قالَ: ألا خِفْتُم ربَّ الموج؟! قال: فأخرجَهم، ثم ضربَ بيدِهِ إلىٰ الأرض، فقبض بها، ثم بسطها؛

---

(١) عدم معرفة أهل الكتاب بخبر المائدة لا ينهض دليلاً علىٰ عدم نزولها، بل ولا فيه شبهة دليل، وذلك لأمور أهمها اثنان:

أولهما: أن الحديث قد صح بنزولها كما بينت قبل قليل؛ فهو القول الفصل في هٰذا المقام.

والآخر: أنه قد مرت بنا في تضاعيف هٰذا الكتاب أخبار متعددة مما تتوفر الدواعي علىٰ معرفته ونقله ولم يعرفه أهل الكتاب ولا ذكروه؛ كقصة آسية زوجة فرعون عليها السلام، وقصة مؤمن آل فرعون، وبعض تفاصيل قصة يوسف عليه السلام.

(٢) وكل ما سيرد في هٰذا الفصل من المرويات مأخوذ من «تاريخ ابن عساكر» (٤٧/٤٠٨-٤٦٩)، وسيذكر المصنف نفسه هٰذا في (ص٦٨٠)؛ فلا أطيل بعد هٰذا بإحالات متكررة إلىٰ صفحات متتالية وربما إلىٰ صفحة واحدة.

فإذا في إحدىٰ يديه ذهبٌ وفي الأخرىٰ مدرٌ (أو: حصًىٰ)، فقال: أيُّهما أحلىٰ في قلوبِكم؟ قالوا: هٰذا الذهبُ. قال: فإنهما عندي سواءٌ.

وقدَّمنا[١] في قصة يحيىٰ بن زكريًا عن بعض السلفِ أنَّ عيسىٰ ﷺ كان يَلْبَسُ الشعرَ ويأكُلُ من ورقِ الشجر ولا يأوي إلىٰ منزلٍ ولا أهلٍ ولا مالٍ ولا يدَّخِرُ شيئًا لِغدٍ. قال بعضُهم: كان يأكُلُ من غزل أمِّه. صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه.

وروىٰ ابنُ عساكرَ: عن الشعبيِّ: أنَّه قال: كان عيسىٰ ﷺ إذا ذُكِرَتْ عنده الساعةُ؛ صاح، ويقولُ: لا يَنْبَغي لابنِ مَرْيَمَ أن تُذْكَرَ عندَه الساعةُ ويسكتَ.

وعن عبدِالملك بنِ سعيد بنِ أبجرَ: أنَّ عيسىٰ كان إذا سَمعَ الموعظةَ؛ صرخ صُراخَ الثَّكْلىٰ.

وقال عبدُالرزاق: أنبأنا معمرٌ، حدثنا جعفرُ بن بُرْقانَ[٢]: أنَّ عيسىٰ كان يقولُ: اللهمَّ! إني أصبحتُ لا أستطيعُ دَفْعَ ما أكرهُ، ولا أملِكُ نَفْعَ ما أرجو، وأصبحَ الأمر بيدِ غيري، وأصبحتُ مرتَهَنًا بعملي؛ فلا فقيرَ أفقرُ منِّي. اللهم! لا تُشْمِتْ بي عدوِّي، ولا تَسُؤْ بي صَديقي، ولا تَجْعَلْ مصيبتي في ديني، ولا تسلِّطْ عليَّ مَنْ لا يرحمُني.

وقال الفضيلُ بن عِياض: عن يونس بن عُبيدٍ: كان عيسىٰ يقولُ: لا يصيبُ أحدٌ حقيقةَ الإيمان حتىٰ لا يباليَ مَنْ أكَلَ الدُّنْيا[٣].

قال الفضيلُ: وكان عيسىٰ يقولُ: فكرتُ في الخَلْق، فوجدتُ مَنْ لم يُخْلَقْ أغبطَ عندي ممَّنْ خُلِقَ.

وقال إسحاقُ بن بشرٍ: عن هشام بنِ حسانَ، عن الحسنِ؛ قال: إنَّ عيسىٰ رأسُ الزاهدين يومَ القيامة. قال: وإنَّ الفَرَّارينَ بذُنوبهم يُحْشَرونَ يوم القيامةِ مع عيسىٰ. قال: وبينما عيسىٰ يومًا نائمٌ علىٰ حَجَرٍ؛ قد توسَّدَه، وقد وَجَدَ لَذَّةَ النوم؛ إذ مَرَّ به إبليسُ، فقالَ: يا عيسىٰ! ألستَ

---

(١) (ص٦٠٥).

(٢) في جميع الأصول: «بلقان»! وهو من رجال «التهذيب»

(٣) في نسخة: «لا نصيب حقيقة الإيمان حتىٰ لا نبالي من أهل الدنيا».

تزعُمُ أنَّك لا تريدُ شيئًا مِن عَرَض الدُّنيا؟! فهٰذا الحَجَرُ من عَرَض الدُّنيا! قال: فقام عيسىٰ، فأخذَ الحجرَ، فرمىٰ به إليه، وقال: هٰذا لك مع الدُّنيا.

وقال معتمرُ بن سُليمانَ: خَرَجَ عيسىٰ علىٰ أصحابِهِ، وعليه جُبَّةُ صوفٍ وكساءٌ وتبانٌ[1]، حافيًا، باكيًا، شعثًا، مصفرَّ اللونِ من الجوع، يابسَ الشفتين من العطش، فقال: السلامُ عليكم يا بني إسرائيلَ! أنا الذي أنْزَلْتُ الدُّنيا منزِلَتَها بإذنِ الله، ولا عجبَ ولا فخرَ، أتدرون أين بيتي؟ قالوا: أين بيتُكَ يا روحَ الله؟ قال: بيتي المساجدُ، وطِيبي الماءُ، وإدامي الجوعُ، وسِراجي القمرُ بالليل، وصلاتي في الشتاءِ مشارقُ الشمس، ورَيْحاني بُقولُ الأرض، ولِباسيَ الصوفُ، وشعاري خوفُ ربِّ العِزَّةِ، وجُلَسائي الزَّمْنىٰ[2] والمساكين، أُصْبِحُ وليس لي شيءٌ، وأمْسي وليسَ لي شيءٌ، وأنا طيبُ النفس، غيرُ مكترثٍ؛ فمَنْ أغنىٰ مني وأربح؟! رواه ابنُ عساكرَ[3].

ورویٰ في ترجمة محمدِ بنِ الوليدِ بنِ أبانَ بنِ حبانَ أبي الحسن العُقَيْليِّ المصريِّ: حدثنا هانئ بن المتوكِّل الإسكندرانيُّ، عن حيوةَ بن شُرَيْح، حدثني الوليدُ بن أبي الوليدِ، عن شُفَيِّ بن ماتع، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ؛ قال: «**أوحى الله تعالى إلى عيسى: أنْ يا عيسى! انْتَقِلْ من مكانٍ إلى مكانٍ؛ لئلَّا تُعْرَفَ فَتُؤْذى؛ فوعزَّتي وجلالي؛ لأزوِّجَنَّكَ ألفَ حوراءَ، ولأُولِمَنَّ عليك أربع مئةِ عام**»[4]. وهٰذا حديثٌ غريبٌ رفعُه، وقد يكون موقوفًا من رواية شُفَيِّ بن ماتع عن كعبِ الأحبارِ أو غيرِهِ من الإسرائيليينَ. والله أعلم.

(١) التبَّان: سروال قصير، وهو ما يعرف اليوم بـ (الشورت).

(٢) الزَّمنىٰ: أصحاب الأمراض المعجزة المزمنة.

(٣) في «التاريخ» (٤٧/ ٤٢٠).

(٤) (منكر). رواه: الخطيب في «تاريخ بغداد» (٣/ ٣٣٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٦/ ١٨٨)؛ من هذه الطريق.

وسنده مظلم: الوليد بن أبي الوليد: لين الحديث؛ أكان مولىٰ عثمان، أو مولىٰ ابن عمر، أو هما واحد. ومحمد بن الوليد: قال ابن حبان: «ربما أخطأ وأغرب». وقال ابن عدي: «يقلب الأسانيد والمتون». وأورد له أحاديث باطلة جزم في بعضها بأنه سرقه. وهانئ بن لمتوكل: قال ابن حبان: «كانت تدخل عليه المناكير وكثرت؛ فلا يجوز الاحتجاج به بحال». وساق هٰذا الحديث في منكراته. وقال ابن القطان: «لا يعرف حاله». وقال أبو حاتم: «أدركته ولم أكتب عنه». والراجح أن الصواب في مثل هٰذا الوقف، وأن أصله من علماء أهل الكتاب كما ذكر الحافظ ابن كثير.

وقال عبدُالله بنُ المباركِ: عن سفيانَ بن عُيَيْنَةَ، عن خَلَفِ بن حوشبٍ؛ قال: قال عيسىٰ للحواريِّين: كما تَرَكَ لكم الملوكُ الحكمةَ؛ فكذٰلك فاتْرُكوا لهم الدُّنيا.

وقال قَتادةُ: قال عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: سَلوني؛ فإنِّي لَيِّنُ القلبِ، وإنِّي صغيرٌ عند نفسي.

وقال إسماعيلُ بنُ عيَّاشٍ: عن عبدِالله بنِ دينارٍ، عن ابنِ عمرَ؛ قال: قال عيسىٰ للحواريِّين: كُلوا خبز الشعير، واشْرَبوا الماءَ القَراحَ[1]، واخرُجوا من الدُّنيا سالمين آمنين! بحقٍّ ما أقولُ لكم؛ إنَّ حلاوة الدُّنيا مرارةُ الآخرةِ، وإنَّ مرارةَ الدُّنيا حلاوةُ الآخرةِ، وإنَّ عبادَ الله ليسوا بالمتنعِّمينَ. بحقٍّ ما أقولُ لكم؛ إنَّ شَرَّكُم عالمٌ يؤثر هواه علىٰ علمِهِ، يودُّ أنَّ الناس كلَّهم مثلُه.

ورُوِيَ نحوُه عن أبي هريرةَ.

قال أبو مصعبٍ: عن مالك: أنَّه بلغه أنَّ عيسىٰ كان يقولُ: يا بني إسرائيلَ! عليكم بالماء القَراح والبَقْل البَرِّيِّ وخبزِ الشعير، وإيَّاكم وخبزَ البُرِّ؛ فإنَّكم لن تقوموا بشكرِهِ.

وقال ابن وَهْبٍ: عن سليمانَ بنِ بلال، عن يحيىٰ بن سعيدٍ؛ قال: كان عيسىٰ يقولُ: اعْبُروا الدُّنيا ولا تَعْمُروها! وكان يقولُ: حبُّ الدُّنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ، والنظرُ يزرعُ في القلبِ الشهوةَ.

وحكىٰ وُهَيْبُ بنُ الوردِ مثلَه، وزاد: وربَّ شهوةٍ أورثَتْ أهلَها حزنًا طويلًا.

وعن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا ابنَ آدم الضعيفَ! اتَّقِ اللهَ حيثما كنتَ، وكنْ في الدُّنيا ضيفًا، واتَّخِذِ المساجدَ بيتًا، وعَلِّمْ عَيْنَكَ البكاءَ وجَسَدَكَ الصبرَ وقلبَك التفكُّرَ، ولا تهتمَّ برزق غدٍ؛ فإنَّها خطيئةٌ.

وعنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّه قال: كما أنَّه لا يستطيعُ أحدُكم أن يَتَّخِذَ علىٰ موج البحر دارًا؛ فلا يَتَّخِذِ الدُّنيا قرارًا.

وفي هٰذا يقولُ سابقٌ البربريُّ:

لَكُمْ بُيوتٌ بِمُسْتَنِّ السُّيوفِ وهَلْ ... يُبْنى على الماءِ بَيْتٌ أُسُّهُ مَدَرُ[2]!

وقال سفيانُ الثوريُّ: قال عيسىٰ ابنُ مريمَ: لا يستقيمُ حبُّ الدُّنيا وحبُّ الآخرةِ في قلبِ مؤمنٍ كما لا يستقيمُ الماءُ والنارُ في إناءٍ.

---

(١) القَراح: الصافي

(٢) مستن السيوف: السيوف الماضية في الأعداء. والأس: الأساس. والمدر: الطين.

وقال إبراهيم الحربيُّ: عن داوودَ بن رشيدٍ، عن أبي عبدِالله الصوفيِّ؛ قال: قال عيسىٰ: طالبُ الدُّنيا مثلُ شاربِ ماءِ البَحْرِ، كلَّما ازدادَ شُربًا؛ ازداد عَطَشًا، حتىٰ يَقْتُلَهُ.

وعن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنَّ الشيطانَ مع الدُّنيا، ومَكْرُهُ مع المالِ، وتَزيينُهُ مع الهوىٰ، واستِمْكانُه عند الشَّهَواتِ.

وقال الأعمشُ: عن خيثمةَ: كان عيسىٰ يضعُ الطعامَ لأصحابِهِ، ويقومُ عليهم، ويقول: هٰكذا فاصْنَعوا بالقِرىٰ!

وبه: قالتِ امرأةٌ لعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: طوبىٰ لِحِجْرٍ حَمَلَكَ ولِثَدْيٍ أرضعَك. فقال: طوبىٰ لمَنْ قرأ كتابَ الله واتَّبعه.

وعنه: طوبىٰ لِمَن بكىٰ من ذِكْرِ خطيئتِهِ وحَفِظَ لسانَه ووسِعَه بيتُه.

وعنه: طوبىٰ لعينٍ نامتْ ولم تُحَدِّثْ نفسَها بالمعصيةِ وانتبهتْ إلىٰ غيرِ إثم.

وعن مالك بنِ دينارٍ؛ قال: مَرَّ عيسىٰ وأصحابُه بجيفةٍ، فقالوا: ما أنتنَ ريحَها! فقال: ما أبيضَ أسنانَها! لينهاهُم عن الغيبةِ.

وقال أبو بكر بنُ أبي الدُّنيا: حدثنا الحسينُ بنُ عبد الرحمٰن، عن زكريَّا بن عديٍّ؛ قال: قال عيسىٰ ابنُ مريم: يا معشرَ الحواريِّين! ارْضوا بِدَنِيِّ الدُّنْيا مع سلامةِ الدِّين كما رَضِيَ أهلُ الدُّنيا بدنيِّ الدِّينِ مع سلامةِ الدُّنيا. قال زكريَّا: وفي ذٰلك يقولُ الشاعرُ:

أرى رِجالًا بِأدْنى الدِّينِ قَدْ قَنِعوا ... ولا أراهُمْ رَضُوا في العيشِ بالدُّونِ
فاسْتَغْنِ بالدِّينِ عن دُنْيا الملوكِ كَما ... اسْتَغْنى الملوكُ بدُنْياهُمْ عن الدِّينِ

وقال أبو مصعبٍ: عن مالكٍ: قال عيسىٰ ابنُ مريمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لا تُكْثِروا الحديثَ بغير ذكرِ الله؛ فَتَقْسُوَ قلوبُكم؛ فإنَّ القلبَ القاسيَ بعيدٌ من الله، ولٰكنْ لا تعلمونَ. ولا تنظُروا في ذنوب العبادِ كأنَّكم أربابٌ، وانظُروا فيها كأنَّكم عبيدٌ؛ فإنَّما الناس رجلانِ؛ معافًىٰ ومبتلًىٰ؛ فارْحَموا أهل البلاءِ، واحْمَدوا الله علىٰ العافيةِ.

وقال الثوريُّ: سمعت أبي يقولُ: عن إبراهيمَ التيميِّ؛ قال: قال عيسىٰ لأصحابِهِ: بحقٍّ أقولُ لكم؛ مَنْ طلب الفردوسَ؛ فخبزُ الشعير والنومُ في المزابل مع الكلابِ كثيرٌ.

وقال مالكُ بنُ دينارٍ: قال عيسىٰ: إنَّ أكلَ الشعيرِ مع الرَّماد، والنومَ علىٰ المزابل مع الكلاب؛ لقليلٌ في طلبِ الفردوس.

وقال عبدُالله بنُ المبارك: أنبأنا سفيانُ، عن منصورٍ، عن سالم بن أبي الجَعْد؛ قال: قال عيسىٰ: اعْمَلوا للهِ، ولا تَعْمَلوا لبطونِكُم. انظُروا إلىٰ هٰذه الطَّيْرِ؛ تَغْدو وتروحُ، لا تحرُثُ ولا تحصُدُ، واللهُ يرزقُها. فإنْ قلتُم: نحن أعظمُ بطونًا من الطير؛ فانظُروا إلىٰ هٰذه الأباقِرِ من الوحوش والحُمُرِ؛ فإنَّها تغدو وتروحُ، لا تَحْرُثُ ولا تحصدُ، والله يرزقُها. اتَّقوا فضولَ الدُّنيا؛ فإنَّ فُضولَ الدُّنيا عندَ اللهِ رجزٌ.

وقال صفوانُ بنُ عمرٍو: عن شُريح بنِ عبيد[1]، عن يزيدَ بنِ ميسرةَ؛ قال: قال الحواريُّونَ للمسيح: يا مسيحَ اللهِ! انظُرْ إلىٰ مسجدِ الله ما أحسنَه! قال: آمين آمين! بحقٍّ ما أقولُ لكم؛ لا يتركُ اللهُ من هٰذا المسجد حجرًا قائمًا إلَّا أهلَكه بذنوب أهلِهِ! إنَّ الله لا يصنعُ بالذهبِ ولا الفضةِ ولا بهٰذه الأحجارِ التي تعجِبُكم شيئًا، إنَّ أحبَّ شيءٍ إلىٰ الله منها القلوبُ الصالحةُ، وبها يَعْمُرُ اللهُ الأرضَ، وبها يُخْرِبُ اللهُ الأرضَ، إذا كانتْ علىٰ غير ذٰلك.

وقال الحافظُ أبو القاسم بنُ عساكر في «تاريخه»: أخبرنا أبو منصورٍ أحمدُ بنُ محمدٍ الصوفيُّ: أخبرتنا عائشةُ بنتُ الحسن بنِ إبراهيم الوَرْكانِيَّةُ؛ قالتْ: حدثنا أبو محمدٍ عبدُالله بنُ عمرَ بنِ عبد الله بن الهشيم[2] إملاءً، حدثنا الوليدُ بنُ أبانَ إملاءً، حدثنا أحمدُ بنُ جعفرٍ الرازيُّ، حدثنا سُهَيْلُ[3] بنُ إبراهيم الحَنْظَلِيُّ، حدثنا عبدُالوهابِ بنُ عبد العزيز، عن المعتمرِ، عن ليث، عن مجاهدٍ، عن ابنِ عباس، عن النبيِّ ﷺ؛ قال: «**مرَّ عيسى عليه السلام على مدينةٍ خربةٍ، فأعجَبَه البنيانُ، فقال: أي ربِّ! مُرْ هٰذه المدينةَ أن تُجيبَني. فأوحى اللهُ إلى المدينةِ: أيَّتُها المدينةُ الخربةُ! جاوِبي عيسى. قال: فنادتِ المدينةُ: عيسى! حبيبي! وما تريدُ منِّي؟ قال: ما فعلَ أشجارُك؟ وما فعلَ أنهارُك؟ وما فعلَ قصورُك؟ وأين سُكَّانُك؟ قالت: حبيبي! جاء وعدُ**

(١) في الأصول: «عبد الله»! وفي «تاريخ ابن عساكر» (٤٧/ ٤٥٤): «سريج بن عبيد»! والصواب ما أثبته، والرجل معروف من رجال «التهذيب».

(٢) في «تاريخ ابن عساكر»: «الهيثم». مجهول؛ لم يتبين لي وجه الصواب فيه.

(٣) في «تاريخ ابن عساكر»: «سهل». مجهول؛ لم يتبين لي وجه الصواب فيه.

ربِّك الحقُّ؛ فيبِسَتْ أشجاري، ونشِفَتْ أنهاري، وخرِبَتْ قصوري، ومات سُكَّاني. قال: فأين أموالُهم؟ فقالت: جَمَعوها من الحلال والحرام، موضوعةٌ في بطني، لله ميراثُ السماواتِ والأرضِ. قال: فنادى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: تعجبتُ[١] من ثلاثةِ أناس: طالبِ الدُّنيا والموتُ يطلُبُه، وباني القصورِ والقبرُ منزِلُهُ، ومن يضحكُ ملء فيه والنارُ أمامَه! ابنُ آدم! لا بالكثير تشبَعُ، ولا بالقليل تَقْنَعُ، تجمعُ مالَك لِمَنْ لا يَحْمَدُك، وتَقْدُمُ على ربٍّ لا يَعْذِرُك، إنَّما أنت عبدُ بطنِكَ وشهوتِك، وإنَّما تُمْلأُ بطنُك إذا دخلتَ قبركَ، وأنت يا ابنَ آدمَ ترى حشدَ مالك في ميزانِ غيرك»[٢]. هٰذا حديثٌ غريبٌ جدًّا، وفيه موعظةٌ حسنةٌ، فكتَبْناه لذٰلك.

وقال سفيانُ الثوريُّ: عن أبيه، عن إبراهيمَ التيميِّ: قال عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا معشر الحواريِّين! اجعلوا كنوزَكُم في السماءِ؛ فإنَّ قلبَ الرجل حيثُ كنزُه.

وقال ثورُ بنُ يزيدَ: عن عبد العزيزِ بن ظَبْيانَ؛ قال: قال عيسىٰ ابنُ مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَنْ تَعَلَّمَ وعَلَّمَ؛ وعَمِلَ؛ دُعِيَ عظيمًا في ملكوتِ السماء.

وقال أبو كريبٍ: روي أنَّ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: لا خير في علم لا يَعْبُرُ معك الوادي ويَعْبُرُ بك النادي[٣].

ورُوىٰ ابنُ عساكرَ بإسنادٍ غريبٍ عن ابن عباس مرفوعًا: أنَّ عيسىٰ قامَ في بني إسرائيلَ، فقال: يا معشر الحواريِّين! لا تحدِّثوا بالحِكَم غيرَ أهلِها؛ فتَظْلِموها، ولا تَمْنَعوها أهلَها؛ فتَظْلِموهم. والأمورُ ثلاثةٌ: أمرٌ تبيَّنَ رشدُه؛ فاتَّبِعوه، وأمرٌ تبيَّنَ غِيُّهُ؛ فاجتنبوه، وأمرٌ اخْتُلِفَ عليكم فيه؛ فردُّوا علمَه إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ[٤].

---

(١) في نسخة: «فعجبت».

(٢) (ضعيف جدًّا). رواه ابن عساكر في «التاريخ» (٤٧/ ٤٥٥).

وهٰذا سند مظلم: عبد الوهاب بن عبد العزيز هٰذا ومن دونه لم أجد من ترجم لهم بعد طول بحث، اللهمَّ إلا عائشة الوركانية؛ فشيخة مسنده معروفة. وقال الحافظ ابن كثير: «غريب جدًّا». والله اعلم.

(٣) يعني: يؤانسك في الوحشة ويشد عزمك فلا تخشىٰ إلا الله، ويبعدك عن مجالس البطالين. وفي أصول ابن عساكر (٤٧/ ٤٥٧): «ويعمر بك النادي». وعلىٰ هٰذا يكون المعنىٰ: يملأ مجالسك بذكر الله. والله أعلم.

(٤) (موضوع). رواه ابن عساكر (٤٧/ ٤٥٨) من طريق: العباس بن منصور الفرنداباذي، ثنا علي بن الحسن الذهلي، ثنا عبد الرحمن بن قبيس، ثنا أبو المقدام، عن محمد بن كعب، عن ابن عباس... به.=

وقال عبدُالرزاق: أنبأنا معمرٌ، عن رجل، عن عكرمةَ؛ قال: قال عيسىٰ: لا تَطْرَحوا اللؤلؤ إلىٰ الخنزيرِ؛ فإنَّ الخنزيرَ لا يصنعُ باللؤلؤ شيئًا، ولا تُعطوا الحكمةَ مَنْ لا يريدُها؛ فإنَّ الحكمةَ خيرٌ من اللؤلؤ، ومَنْ لا يريدُها شرٌّ من الخنزير.

وكذا حكىٰ وَهْبٌ وغيره عنهُ.

وعنه: أنَّه قال لأصحابِهِ: أنتم ملحُ الأرض؛ فإذا فَسَدْتُم؛ فلا دواءَ لكم، وإنَّ فيكم خصلتينِ من الجهل: الضحكُ من غيرعجبٍ، والصبحةُ[1] من غيرِ سهرٍ.

وعنه: أنَّه قيل له: مَنْ أشدُّ الناس فتنةً؟ قال: زَلَّةُ العالِم؛ فإنَّ العالِم إذا زلَّ؛ يَزِلُّ بزَلَّتِهِ عالَمٌ كثيرٌ. وعنه: أنَّه قال: يا علماءَ السوء! جعلتُمُ الدُّنيا علىٰ رؤوسكم، والآخرةَ تحت أقدامِكم، قولُكم شفاءٌ، وعملُكم داءٌ، مَثَلُكم مَثَلُ شجرة الدِّفْلىٰ[2]؛ تُعْجِبُ مَنْ رآها، وتَقْتُلُ مَن أكَلَها.

وقال وهبٌ: قال عيسىٰ: يا علماءَ السَّوْءِ! جلستُم علىٰ أبوابِ الجنَّةِ؛ فلا تدخُلونَها، ولا تَدَعون المساكينَ يدخُلونها، إنَّ شرَّ الناس عند الله عالمٌ يطلبُ الدُّنيا بعلمِهِ.

وقال مكحولٌ: التقىٰ يحيىٰ وعيسىٰ، فصافَحَه عيسىٰ وهو يضحكُ، فقال له يحيىٰ: يا ابنَ خالة! ما لي أراك ضاحكًا كأنَّك قد أمنتَ؟! فقال له عيسىٰ: ما لي أراك عابسًا كأنَّك قد يَئِسْتَ؟! فأوحىٰ الله إليهما: إنَّ أحبَّكما إليَّ أبَشُّكما بصاحبِهِ.

وقال وهبُ بن منبِّهٍ: وَقَفَ عيسىٰ هو وأصحابُهُ علىٰ قبر وصاحبُهُ يُدَلَّىٰ فيه، فجعلوا يذكرونَ القبر وضيقَه، فقال: قد كنتُم فيما هو أضيقُ منه؛ في[3] أرحام أمَّهاتِكُم؛ فإذا أحبَّ اللهُ أن يوسِّعَ؛ وسَّعَ.

= وهٰذا سند ظلمات بعضها فوق بعض: أبو المقداد هشام بن زياد: ضعيف جدًّا متروك. وعبد الرحمن بن قبيس: لم أعرفه، والغالب أنه مصحف، وأنه عبد الرحمن بن قيس الضبي الزعفراني، وهٰذا متروك متهم أيضًا. وعلي بن الحسن الذهلي: متروك أيضًا. والفرندابادي: لم أر فيه جرحًا ولا تعديلًا، وإن كان ظاهر ترجمته في «اللباب» أنه ليس من أهل الحديث. وحسبك هٰذا ليتبين لك حال الحديث، وأن الحافظ ابن كثير قد تساهل كثيرًا بقوله: «غريب»!

(١) الصبحة: النوم بعد الفجر.

(٢) نبات شجيري يكثر في المناطق الجافة من بلاد الشام كالأردن وفلسطين، له أزهار جميلة لٰكنها عديمة الرائحة، وقد استعمل في الطب القديد لأغراض علاجية بالتطبيق الخارجي، وأما بطريق الفم؛ فهو سامٌّ وربما أودىٰ بآكله.

(٣) في نسخة: «من».

وقال أبو عُمَرَ الضريرُ: بَلَغَني أنَّ عيسىٰ كان إذا ذَكَرَ الموتَ؛ يقطُرُ جلدُه دمًا.

والآثار في مثل هٰذا كثيرة جدًّا، وقد أورد الحافظُ ابنُ عساكر منها طرفًا صالحًا اقْتَصَرْنا منها علىٰ هٰذا القدرِ. والله الموفقُ للصواب.

۞ ذكر رفع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى السماء في حفظ الربِّ، وبيان كذب اليهود والنصارى في دعوى الصلب:

قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٥٤-٥٥].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٥-١٥٩].

فأخبر تعالىٰ أنَّه رَفَعَه إلىٰ السماءِ بعدما توفَّاه بالنومِ علىٰ الصحيح المقطوع به، وخلَّصَه ممَّنْ كان أراد أذِيَّتَهُ من اليهودِ الذين وَشَوْا به إلىٰ بعض الملوكِ الكفرةِ في ذٰلك الزمان.

قال الحسنُ البصريُّ ومحمدُ بنُ إسحاقَ: كان اسمُهُ داوودَ بنَ نورا، فأمر بقتلِهِ وصلبِهِ، فحَصَروه في دارٍ ببيتِ المقدس، وذٰلك عشيةَ الجمعةِ ليلةَ السبت، فلمَّا حان وقتُ دخولِهم؛ أُلْقِيَ شَبَهُهُ علىٰ بعض أصحابِهِ الحاضرين عندَه، ورفع عيسىٰ من رَوْزَنَةٍ[1] من ذٰلك البيتِ إلىٰ السماءِ، وأهلُ البيتِ ينظُرون، ودَخَلَ الشُّرَطُ، فوجَدوا ذٰلك الشابَّ الذي أُلْقِيَ عليه شَبَهُهُ، فأخذوه ظانِّين أنَّه عيسىٰ، فصلبوه، ووَضَعوا الشوكَ علىٰ رأسِهِ إهانةَ له، وَسُلِّمَ لليهودِ عامةُ النَّصارىٰ - الذين لم يشاهدوا ما كان من أمرِ عيسىٰ - أنَّه صلِبَ، وضَلُّوا بسبب ذٰلك ضلالًا مبينًا كثيرًا فاحشًا بعيدًا.

وأخبر تعالىٰ بقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩]؛ أي: بعد نزوله إلىٰ الأرض في آخرِ الزَّمان قبل قيام الساعةِ؛ فإنَّه ينزِلُ ويقتُلُ الخنزيرَ ويكسِرُ الصليبَ

---

(١) الرَّوْزنة: الكُوَّة، الفتحة.

ويضعُ الجزيةَ ولا يقبلُ إلَّا الإسلامَ؛ كما بَيَّنَّا ذٰلك بما وردَ فيه من الأحاديثِ عند تفسيرِ هٰذه الآيَة الكريمة من سورة النساء؛ كما أورَدْنا ذٰلك مستقصًى في كتاب «الفتن والملاحم»[١] عند أخبارِ المسيح الدَّجَّال، فذكرنا ما ورد في نزول المسيح المهدي عليه السلام من ذي الجلال، لقتل المسيح الدَّجَّال، الكذابَّ الداعي إلىٰ الضلال.

وهٰذا ذِكْرُ ما وَرَدَ في الآثار في صفةِ رفعِهِ إلى السماء:

قال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أحمدُ بن سنان، حدثنا أبو معاويةَ، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرٍو، عن سعيدِ بن جُبيرٍ، عن ابن عباس؛ قال: لمَّا أرادَ الله أن يرفَعَ عيسىٰ إلىٰ السماءِ؛ خرج علىٰ أصحابه، وفي البيتِ اثنا عشر رجلًا منهم من الحواريينَ. يعني: فخرجَ عليهم من عينٍ في البيت، ورأسُهُ يقطرُ ماءً، فقال: إنَّ منكُم من يَكْفُرُ بيَ اثنتي عشرةَ مرةً بعد أن آمنَ بي. ثم قال: أيُّكم يُلقىٰ عليه شَبَهي؛ فَيُقْتَل مكاني، فيكونُ معي في دَرَجَتي؟ فقام شابٌّ من أحدثِهم سنًّا، فقال له: اجلس. ثم أعاد عليهم، [فقام ذٰلك الشابُّ، فقال: اجلس. ثم أعاد عليهم،] فقام الشابُّ، فقال: أنا. فقال: أنت هو ذاك. فأُلْقِيَ عليه شَبَهُ عيسىٰ، ورُفِعَ عيسىٰ من رَوْزَنةٍ في البيت إلىٰ السماء. قال: وجاء الطَّلَبُ من اليهودِ، فأخذوا الشَّبَهَ، فقَتَلوه، ثم صَلَبوه، فكَفَرَ به بعضُهم اثنتي عشرة مرةً بعد أن آمن به، وافترقوا ثلاثَ فرق: **فقالت طائفةٌ**: كانَ اللهُ فينا ما شاء، ثم صَعِدَ إلىٰ السماء! وهٰؤلاء اليعقوبيَّةُ. **وقالت فرقةٌ**: كان فينا ابنُ الله ما شاء، ثم رَفعَه الله إليه! وهٰؤلاء النَّسْطوريَّةُ. **وقالت فرقةٌ**: كان فينا عبد الله ورسولُه ما شاء، ثم رَفَعَه الله إليه! وهٰؤلاء المسلمونَ. فتظاهرتِ الكافرتانِ علىٰ المسلمةِ، فقَتَلوها، فلم يزل الإسلامُ طامسًا حتىٰ بعثَ الله محمدًا ﷺ. قال ابنُ عباس: وذٰلك قوله تعالىٰ: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: ١٤][٢]. وهٰذا إسنادٌ صحيحٌ إلىٰ ابن عباس علىٰ شرط مسلم.

ورواه النسائيُّ عن: أبي كُريبٍ، عن أبي معاوية... به، نحوه. ورواه ابنُ جرير عن: مسلم بن جنادةَ، عن أبي معاوية. وهٰكذا ذكر غيرُ واحدٍ من السلف.

---

(١) (١٠/ ١٣٠ وما بعدها - البداية والنهاية).

(٢) رواه: النسائي في «الكبرىٰ» (٤/ ٤٥٢/ ٥٦٣٢- تحفة)، وابن جرير في «التفسير» (١٢/ ٨٦/ ٣٤٠٦٦)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٤/ ١١١٠/ ٦٢٣٣)؛ من طرق عن أبي معاوية... به.

وممَّن ذَكَرَ ذٰلك مطوَّلًا محمدُ بنُ إسحاقَ بن يسار؛ قال: وَجَعَلَ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ يدعو الله عَزَّ وَجَلَّ أن يؤخِّرَ أجلَهَ؛ يعني: لِيُبَلِّغَ الرسالةَ ويُكْمِلَ الدعوةَ ويُكْثِرَ الناسُ الدُّخولَ في دينِ الله. قيل: وكان عندَه من الحواريِّين اثنا عشر رجلًا: بُطْرُسُ، ويَعْقوبُ بنُ زَبَدي، ويُوحَنَّا أخو يعقوبَ، وأنْدَراوُسُ، وفِيلُبُّسُ، وبَرْثولَماوُسُ، ومَتَّىٰ، وتُوما، ويعقوب بن حَلْفىٰ، وتَدَّاوُسُ، وسمعانُ القانويُّ، ويهوذا الإسْخَرْيوطِيُّ، وهٰذا هو الذي دلَّ اليهودَ علىٰ عيسىٰ[1]. قال ابنُ إسحاقَ: وكان فيهم رجلٌ آخرُ اسمُهُ سرجسُ، كَتَمَتْهُ النَّصارىٰ، وهو الذي أُلْقِيَ شَبَهُ المسيح عليه، فصُلِبَ عنه. قال: وبعضُ النَّصارىٰ يَزْعُمُ أنَّ الذي صُلِبَ عن المسيح وأُلْقِيَ عليه شَبَهُهُ، هو يهوذا الإسخريوطي. والله أعلم.

وقال الضحَّاك، عن ابن عباس: اسْتَخْلَفَ عيسىٰ سمعان[2]، وقتلتِ اليهود يهوذا الذي أُلْقِيَ عليه الشَّبَهُ.

وقال أحمدُ بنُ مروانَ: حدثنا محمدُ بنُ الجَهْم. قال: سمعتُ الفرَّاءَ يقولُ في قولِهِ: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: ٥٤] قال: إنَّ عيسىٰ غاب عن خالتِهِ زمانًا، فأتاها فقام رأسُ الجالوتِ اليهوديُّ، فضَرَبَ علىٰ عيسىٰ، حتىٰ اجْتَمَعوا علىٰ بابِ دارِهِ، فكسروا البابَ، ودَخَلَ رأسُ جالوتَ ليأخذَ عيسىٰ، فطمسَ الله عَيْنَيْهِ عن عيسىٰ ثم خرجَ إلىٰ أصحابِهِ، فقال: لم أرهُ. ومعه سيفٌ مسلولٌ، فقالوا: أنت عيسىٰ! وألقىٰ الله شَبَهَ عيسىٰ عليه، فأخذوه، فقتلوه، وصَلَبوه، فقال جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

وقال ابنُ جريرٍ[3]: حدثنا ابنُ حُمَيْدٍ، حدثنا يعقوبُ القُمِّيُّ، عن هارونَ بن عنترةَ، عن وهبِ بنِ منبِّهٍ، قال: أُتِيَ عيسىٰ ومعهُ سبعةَ عشرَ من الحواريِّين في بيتٍ، فأحاطوا بهم، فلمَّا

(١) وقد وقع في أسماء حواريي المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ تصحيفات واختلافات بين الأصول المعتمدة، وبينها وبين ما ورد في «تاريخ الطبري»، فآثرت تصحيحها علىٰ ما ورد في «العهد الجديد» (إنجيل متىٰ/ الأصحاح ١٠). وأما الاسمان الأخيران؛ فقد جاءا في الأصل باللفظ الأجنبي، فجاء سمعان القانوي تحن اسم (قنانيا)، ويهوذا الإسخريوطي تحت اسم (يودس كريايوتا)، فعدلتها جذريًّا وذكرتها معربة كما هي في «العهد الجديد» إلحاقًا لها بالبقية.

(٢) في الأصول: «شمعون»، وهو اللفظ العبري، وليس هو القانوي، وإنما هو بطرس أعظم تلامذة المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فسمعان هو اسمه، وبطرس لقبٌ له. والله أعلم.

(٣) في «التفسير» (٤/ ٣٥١/ ١٠٧٨٤).

دخلوا عليهم صوَّرهم اللهُ كلَّهم علىٰ صورة عيسىٰ، فقالوا لهم: سَحَرْتُمونا، لَتُبْرِزُنَّ إلينا عيسىٰ أو لَنَقْتُلَنَّكم جميعًا! فقال عيسىٰ لأصحابِهِ: مَنْ يشتري منكم نفسَه اليومَ بالجنةِ؟ فقال رجلٌ: أنا. فخرجَ إليهم، فقال: أنا عيسىٰ - وقد صَوَّره الله علىٰ صورة عيسىٰ-! فأخذوه، فقتَلوه، وصَلَبوه؛ فمن ثَمَّ شُبِّه لهم، وظنُّوا أنَّهم قد قَتلوا عيسىٰ، فظنَّتِ النَّصارىٰ مثلَ ذٰلك أنَّه عيسىٰ، ورَفَعَ الله عيسىٰ من يومِهِ ذٰلك.

قال ابنُ جريرٍ[1]: وحدَّثنا المثنَّىٰ، حدَّثنا إسحاقُ، حدَّثنا إسماعيلُ بنُ عبد الكريم، حدثني عبدُالصمد بنُ معقِل: أنَّه سَمعَ وهبًا يقولُ: إنَّ عيسىٰ ابنَ مريم لَمَّا أعْلَمَهُ اللهُ أنَّه خارجٌ من الدُّنيا؛ جَزِعَ من الموت وشقَّ عليه، فدعا الحواريِّينَ، وصنع لهم طعامًا، فقال: احضُروني الليلةَ؛ فإنَّ لي إليكم حاجةً. فلمَّا اجْتَمَعوا إليه من الليل؛ عشَّاهم، وقام يخدُمُهم، فلمَّا فَرَغوا من الطعام؛ أخذَ يَغْسِلُ أيديَهم ويوضِّئُهم بيدِهِ ويمسحُ أيديَهم بثيابِهِ، فتعاظَموا ذٰلك وتكارَهوه! فقال: ألا مَنْ رَدَّ عليَّ شيئًا الليلةَ ممَّا أصنعُ؛ فليس منِّي ولا أنا منهُ. فأقرُّوه، حتىٰ إذا فَرَغَ من ذٰلك؛ قال: أمَّا ما صَنَعْتُ بكمُ الليلةَ ممَّا خدمتُكم علىٰ الطعام وغسلتُ أيدِيَكم بيديَّ؛ فلْيكنْ لكم بي أسوةٌ؛ فإنَّكم ترونَ أنِّىٰ خيرُكم؛ فلا يتعظَّمْ بعضُكم علىٰ بعض، ولْيَبْذُلْ بعضُكم لبعض نفسَه كما بذلتُ نفسي لكم، وأمَّا حاجتي التي استعنتُكُم عليها، فتدعونَ اللهَ لي وتجتَهِدون في الدُّعاء أن يؤخِّرَ أجلي. فلمَّا نَصَبوا أنفسَهم للدُّعاءِ، وأرادوا أن يَجْتَهِدوا؛ أَخَذَهُمُ النومُ حتىٰ لم يستطيعوا دعاءً، فجعل يوقِظُهم ويقولُ: سبحان الله! أما تصبِرونَ لي ليلةً واحدةً تُعينوني فيها؟! فقالوا: واللهِ؛ ما ندري ما لنا! واللهِ؛ لقد كنا نسمُرُ فنُكْثِرُ السمرَ؛ وما نطيقُ الليلة سَمَرًا! وما نريدُ دعاءً؛ إلَّا حيلَ بيننا وبينه! فقال: يُذْهَبُ بالرَّاعِي وتتفرَّقُ الغنمُ[2]! وجعل يأتي بكلام نحوِ هٰذا يَنْعي به نفسَه. ثم قال: الحقُّ؛ لَيَكْفُرَنَّ بي أحدُكم قبل أن يصيحَ الديكُ ثلاث مراتٍ، ولَيَبيعُني أحدُكم بدراهمَ يسيرةٍ وَلَيَأْكُلَنَّ ثَمَني. فخَرَجوا، وتفرَّقوا، وكانت اليهودُ تطلبُهُ، فأخذوا سمعان! أحدَ الحواريِّين، فَقَالُوا: هٰذا من أصحابِهِ. فجَحَدَ وقال: ما أنا بصاحبِهِ! فتركوه. ثم أَخَذَه آخرون، فجَحَدَ كذٰلك. ثم سمع

(١) في «التفسير» (٤/ ٣٥١/ ١٠٧٨٥).

(٢) فعلىٰ هٰذا؛ فهو لم يخش الموت حبًّا في الدنيا كما ذكر ابن الجوزي في «صيد الخاطر»، وإنما خوفًا علىٰ الأمة مما سيحدث من الفتن. هٰذا إن كان هٰذا الكلام محفوظًا.

صوتَ ديكٍ، فبكىٰ وأحْزَنَه. فلمَّا أصبحَ؛ أتىٰ أحدُ الحواريِّين إلىٰ اليهود، فقال: ما تَجْعَلُون لي إنْ دَلَلْتُكم علىٰ المسيح؟ فجعلوا له ثلاثينَ درهمًا، فأخذَها، ودلَّهم عليه، وكان شُبِّهَ عليهم قبل ذٰلك، فأخذوه، واستوثَقوا منه، ورَبَطوه بالحبل، وجعلوا يقودونَه ويقولونَ: أنت كنتَ تُحيي الموتىٰ وتنتهِرُ الشيطانَ وتبرئُ المجنونَ؛ أفلا تُنْجي نفسَك من هٰذا الحبل؟! ويبصُقونَ عليه، ويُلْقونَ عليه الشوكَ، حتىٰ أَتَوْا به الخشبةَ التي أرادوا أن يَصْلِبوه عليها، فرفَعَه الله إليه، وصَلَبوا ما شُبِّهَ لهم. فمكث سبعًا. ثم إنَّ أمَّه والمرأةَ التي كان يداويها عيسىٰ فأبرأها الله من الجنونِ جاءتا تبكيانِ حيثُ كان المصلوبُ، فجاءهما عيسىٰ، فقال: علامَ تبكيانِ؟ قالتا: عليك. فقال: إنِّي قد رَفَعني الله إليه، ولم يُصِبْني إلَّا خيرٌ، وإنَّ هٰذا شيء شُبِّه لهم. فَأْمُرا الحواريين أن يَلْقَوْني إلىٰ مكان كذا وكذا. فلقوه إلىٰ ذٰلك المكان أحدَ عشرَ، وفَقَدَ الذي كان باعَه ودلَّ عليه اليهودَ، فسأل عنه أصحابَه؟ فقالوا: إنَّه نَدِمَ علىٰ ما صنعَ فاختنقَ وقتلَ نفسَه. فقال: لو تابَ؛ لتابَ الله عليه. ثم سألهم عن غلام كان يتبعُهُم، يُقالُ له: يوحَنَّا[١]، فقال: هو معكُم؛ فانطَلِقوا؛ فإنَّه سيصبحُ كلُّ إنسان منكم يحدِّثُ بلغةِ قوم؛ فَلْيُنْذِرْهُم وَلْيَدْعُهُم.

وهٰذا إسنادٌ غريبٌ عجيبٌ، وهو أصحُّ مما ذَكَرَهُ النصارىٰ لَعَنَهُمُ الله من أنَّ المسيحَ جاء إلىٰ مريمَ وهي جالسةٌ تبكي عند جذعه[٢]، فأراها مكان المساميرِ من جسدِهِ، وأخبرها أنَّ روحه رُفِعَتْ، وأنَّ جَسَدَه صُلِبَ!! وهٰذا بَهْتٌ وكَذِبٌ واختلاقٌ وتحريفٌ وتبديلٌ وزيادةٌ باطلةٌ في الإنجيل علىٰ خلافِ الحقِّ ومقتضىٰ الدَّليل[٣].

وحكىٰ الحافظُ ابنُ عساكر[٤] من طريق: يحيىٰ بن حبيبٍ فيما بَلَغَه: أنَّ مريمَ سألتْ من بيتِ الملك بعدما صُلِبَ المصلوبُ بسبعة أيام -وهي تحسبُ أنَّه ابنُها- أن يُنْزِلَ جسدَه، فأجابهم إلىٰ ذٰلك، ودُفِنَ هنالك، فقالت مريمُ لأمِّ يحيىٰ: ألا تذهبين بنا نزورُ قبر المسيح؟ فذهبتا، فلمَّا دَنَتا من القبر؛ قالت مريمُ لأمِّ يحيىٰ: ألا تستترينَ؟ فقالتْ: وممَّنْ أستترُ؟ فقالتْ:

---

(١) في جميع الأصول: «يحيي»! وهٰذا خطأ ظاهر، والتصويب من الطبري، وإنما تصحف عليهم لأنهم كتبوه هٰكذا: «يُحَنَّي».

(٢) يعني: الجذع الذي صُلِبَ عليه الشَّبيه.

(٣) في نسخة: «النقل».

(٤) في «تاريخ دمشق» (٢٦/ ٨٨-مختصر ابن منظور).

من هٰذا الرجل الذي هو عند القبر! فقالت أمُّ يحيىٰ: إنِّي لا أرىٰ أحدًا! فرجتْ مريمُ أن يكون جبريلَ، وكانت قد بَعُدَ عهدُها به، فاستوقفتْ أمَّ يحيىٰ، وذهبتْ نحو القبر، فلمَّا دنتْ من القبر؛ قال لها جبريلُ -وعرفته-: يا مريمُ! أين تريدينَ؟ فقالت: أزورُ قبر المسيح، فأسلِّمُ عليه، وأحْدِثُ عهدًا به. فقال: يا مريمُ! إنَّ هٰذا ليس المسيحَ، إنَّ الله قد رَفَعَ المسيحَ، وطَهَّرَهُ من الذين كفروا، ولكن هٰذا الفتىٰ الذي أُلْقِيَ شَبَهُهُ عليه وصُلِبَ وقُتِلَ مكانَه، وعلامةُ ذٰلك أنَّ أهلَه قد فَقَدوه؛ فلا يدرونَ ما فُعِلَ به؛ فهم يبكونَ عليه؛ فإذا كان يومُ كذا وكذا؛ فَأْتِ غيضةَ كذا وكذا؛ فإنَّك تَلْقَيْنَ المسيحَ. قال: فرجعتْ إلىٰ أختِها، وصَعِدَ جبريلُ، فأخبرتْها عن جبريلَ وما قال لها من أمرِ الغيضةِ. فلمَّا كان ذٰلك اليومُ؛ ذهبتْ، فوجدتْ عيسىٰ في الغيضةِ، فلمَّا رآها؛ أسرعَ إليها، وأكبَّ عليها، فقبَّلَ رأسَها، وجَعَلَ يدعو لها كما كان يفعلُ، وقال يا أمَّه! إنَّ القوم لم يَقْتُلوني، ولٰكنَّ الله رَفَعَني إليه، وأذِنَ لي في لقائِكِ، والموتُ يأتيك قريبًا؛ فاصْبِري، واذْكُري الله كثيرًا. ثم صَعِدَ عيسىٰ، فلم تَلْقَهُ إلَّا تلكَ المَرَّةَ، حتىٰ ماتتْ. قال: وبَلَغني أنَّ مريمَ بقيتْ بعد عيسىٰ خمسَ سنينَ، وماتتْ ولها ثلاثٌ وخمسون سنةً، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وأرضاها.

وقال الحسنُ البصريُّ: كان عُمُرُ عيسىٰ عليه السلام يومَ رُفِعَ أربعًا وثلاثين سنةً.

وفي الحديث: «**إنَّ أهلَ الجنةِ يَدْخُلونَها جُرْدًا مُرْدًا مُكَحَّلين أبناء ثلاثٍ وثلاثينَ**»[1].

---

(١) (حسن صحيح). رواه: أحمد (٢/ ٢٩٥ و٣٤٣ و٤١٥)، والطبراني في «الصغير» (٢/ ٣٤٠/ ٨٠٩) و«الأوسط» (٦/ ٢٠١/ ٥٤١٨)؛ من طرق عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ قال: «**يدخل أهل الجنة الجنة جردًا مردًا بيضًا جعادًا مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين، على خلق آدم ستون ذراعًا في عرض سبعة أذرع**». قال الطبراني: «لم يرو هٰذا الحديث عن علي بن زيد إلا حماد بن سلمة، ولا يروىٰ عن أبي هريرة إلا بهٰذا الإسناد». وقال الهيثمي (١٠/ ٤٠٢): «رواه الطبراني في «الصغير» و«الأوسط»، وإسناده حسن». قلت: علي بن زيد بن جدعان فيه ضعف، قصاراه أن يكون صالحًا في المتابعات. لٰكن لبعضه طريق أخرىٰ عند الترمذي (٣٩- صفة الجنة، ٨- صفة ثياب أهل الجنة، ٤/ ٦٧٩/ ٢٥٣٩): ثنا محمد بن بشار وأبو هشام الرفاعي؛ قالا: ثنا معاذ بن هشام، عن أبيه، عن عامر الأحول، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة... فذكره مرفوعًا بنحوه دون ذكر السن. وقال: «حسن غريب». قلت: شهر فيه ضعف لسوء حفظه، وقصاراه أن يكون صالحًا في المتابعات كسابقه.

وله شاهد رواه: أحمد (٥/ ٢٤٣)، والترمذي (٢٥٤٥)؛ من حديث معاذ مرفوعًا. وحسنه الترمذي والهيثمي، وما هو كذلك؛ ففيه شهر أيضًا.=

وفي الحديث الآخرِ: «على ميلادِ عيسى وحُسْنِ يوسفَ»[١].

وكذا قال حمادُ بنُ سلمةَ: عن عليِّ بن زيدٍ[٢]، عن سعيدِ بن المسيَّبِ: أنَّه قال: رُفِعَ عيسىٰ وهو ابنُ ثلاثٍ وثلاثين سنةً.

فأمَّا الحديثُ الذي رواه الحاكم في «مستدركه» ويعقوبُ بن سُفْيان الفسويُّ في «تاريخه»: عن سعيدِ بن أبي مريمَ، عن نافع بن يزيدَ، عن عمارةَ بن غزيَّةَ، عن محمد بن عبدِالله بن عمرو بن عثمانَ، أنَّ أمَّه فاطمةَ بنتَ الحسين حدَّثته، أنَّ عائشة كانت تقولُ: أخبرتْني فاطمةُ، أنَّ رسولَ الله ﷺ أخبرها: أنَّه لم يكنْ نبيٌّ كان بعده نبيٌّ إلَّا عاش الذي بعدَه نصفَ عُمُرِ الذي كان قبلَه، وأنَّه أخبرني أنَّ عيسىٰ ابن مريم عاش عشرين ومئةَ سنةٍ؛ فلا أراني إلَّا ذاهبًا[٣] علىٰ رأس ستين[٤]. هٰذا لفظ الفسويِّ. فهو حديثٌ غريبٌ.

= وشاهد آخر حسنه المنذري والهيثمي، وهو قوي بمجموع طرقه عند: الطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٢٨٠/ ٦٦٣ و٦٦٤) و«الشاميين» (١٨٣٩)، والبيهقي في «البعث» (٤٦٦)؛ من حديث المقدام بن معدي كرب.

فالحديث بمجموع طريقيه وشاهديه لا ينحط عن رتبة الحسن، بل هو صحيح، وقد حسنه الترمذي وأقره المنذري والألباني.

(١) (**حسن صحيح**). رواه: ابن أبي الدنيا (١٠/ ٥٧٤ - بداية ونهاية)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٥٦) من ثلاث وجوه يقوي بعضها بعضًا من حديث: الأوزاعي، عن هارون بن رياب، عن أنس بن مالك؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم ستين ذراعًا بذراع الملك، على حسن يوسف، وعلى ميلاد عيسى ثلاث وثلاثين، وعلى لسان محمد ﷺ**». لفظ ابن أبي الدنيا. وهارون بن رياب ثقة عابد من رجال مسلم؛ لٰكن اضطرب قول ابن حبان في سماعه من أنس؛ فأقر سماعه مرة ونفاه أخرىٰ، ولم أر لغيره كلامًا في هٰذا، وقد اتفقوا علىٰ أنه سمع الأحنف بن قيس، ووفاته قبل أنس بما يزيد عن عشرين عامًا؛ فالأرجح أنه سمع أنسًا. ثم وجدت أبا نعيم يتعقب الحديث بقوله: «رواه غيره [الراوي عنده] عن الأوزاعي عن هارون، فقال: حدثني من سمع أنسًا يذكره».

وعلىٰ كل حال؛ فله شاهد قوي من حديث المقدام بن معدي كرب الذي تقدم الكلام عليه في الحاشية السابقة؛ فهو صحيح به إن شاء الله.

(٢) في جميع الأصول: «يزيد»! والصواب ما أثبته من مصادر التخريج.

(٣) في جميع الأصول: «ذاهب»! ولا يصح!

(٤) (منكر). رواه: الفسوي في «التاريخ» (٣/ ٢٦٥)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١/ ٤٩)، والطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٤١٧/ ١٠٣١)، والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ١٦٥)، وابن عساكر في «التاريخ» (٤٧/ ٤٨١)؛ كلهم من طريق ابن أبي مريم... به، فذكره.=

قال الحافظُ ابنُ عساكرَ: والصحيحُ أنَّ عيسىٰ لم يبلغْ هٰذا العُمُرَ، وإنَّما أراد به مدَّةَ مقامِهِ في أمَّتِهِ[(١)]؛ كما روىٰ: سفيانُ بن عُيينةَ، عن عمرو بن دينارٍ، عن يَحْيىٰ بن جعدةَ؛ قال: قالت فاطمةُ: قال لي رسولُ الله ﷺ: «إنَّ عيسى ابنَ مريمَ مَكَثَ في بني إسرائيل أربعينَ سنةً»[(٢)]. وهٰذا منقطعٌ.

وقال جريرٌ والثوريُّ: عن الأعمش، عن إبراهيم: مَكَثَ عيسىٰ في قومِهِ أربعين عامًا.

ويُروىٰ عن أمير المؤمنين عليٍّ: أنَّ عيسىٰ عليه السلام رُفِعَ ليلةَ الثاني والعشرين من رمضان، وتلك الليلةُ في مثلِها تُوُفِّيَ عليٌّ بعد طعنِهِ بخمسة أيام.

وقد روىٰ الضَّحَّاكُ عن ابنِ عباس: أنَّ عيسىٰ لمَّا رُفِعَ إلىٰ السماء؛ جاءتْه سحابةٌ، فدنتْ منه حتىٰ جَلَسَ عليها، وجاءتْه مريمُ، فودَّعَتْه وبكتْ، ثم رُفِعَ وهي تنظرُ، وألقىٰ إليها عيسىٰ بُردًا له، وقال: هٰذا علامةُ ما بيني وبينَكِ يومَ القيامةِ، وألقىٰ عمامتَه علىٰ سمعانَ، وجعلتْ أمُّه تودِّعُه بإصبعها تشير بها إليه حتىٰ غابَ عنها، وكانت تحبُّه حبًّا شديدًا؛ لأنَّه توفَّرَ عليها حبُّه من جهتي الوالدين؛ إذ لا أبَ له، وكانتْ لا تفارِقُه سفرًا ولا حضرًا، وكانت كما قال بعضُ الشعراء:

وكنتُ أرى كالمَوْتِ من بَيْنِ ساعةٍ فكيفَ بِبَيْنٍ كان موعِدُهُ الحَشْرُ

وذَكَرَ إسحاقُ بن بشرٍ، عن مجاهدِ بن جبرٍ[(٣)]: أنَّ اليهودَ لمَّا صَلَبوا ذٰلك الرجل شُبِّهَ لهم وهم يحسَبونَه المسيحَ، وسلَّمَ لهم أكثرُ النَّصارىٰ بجهلِهِم ذٰلك؛ تَسَلَّطوا علىٰ أصحابِهِ بالقَتْل والضرب والحَبْس، فَبَلَغَ أمرُهُم إلىٰ صاحبِ الروم، وهو ملكُ دمشقَ في ذٰلك الزمان، فقيل له: إنَّ اليهودَ قد تسلَّطوا علىٰ أصحابِ رجل كان يَذْكُرُ لهم أنَّه رسولُ الله، وكان يُحيي الموتىٰ

= قال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٢٦): «رواه الطبراني بإسناد ضعيف، وروىٰ البزار بعضه أيضًا، وفي رجاله ضعف». قلت: كلهم ثقات؛ إلا محمد بن عبد الله؛ ففيه ضعف، وقصاراه أن يكون صالحًا في الشواهد، ثم قد انفرد في هٰذا الحديث بزيادات غريبة لا تحتمل من الحفاظ الثقات؛ فكيف به؟! فالحديث منكر.

هٰذا؛ ولم أجد الحديث في «مستدرك الحاكم» بعد طول عناء!

(١) كذا هنا! وكذا عند ابن عساكر! وهو غير مفهوم، وكأن فيه تحريفًا أو سقطًا.

(٢) (منكر). رواه: أبو يعلي (١٢/ ١١٠/ ٦٧٤٢)، وابن عساكر (٤٧/ ٤٨٢ و٤٨٣)؛ من طريقين عن سفيان بن عيينة... به.

ويحيىٰ بن جعدة لم يسمع من فاطمة؛ فالسند ضعيف لانقطاعه كما ذكر الحافظ ابن كثير، زد علىٰ ذلك مخالفته للأحاديث الصحيحة المتقدمة في عمر عيسىٰ عليه السلام.

(٣) في جميع الأصول: «جبير»! وهٰذا عجيب.

ويبرئُ الأكمهَ والأبرصَ ويفعل العجائبَ، فعَدَوْا عليه، فقتَلوه، وأهانوا أصحابَهُ، وحَبَسوهم. فبعثَ، فجِئ بهم، وفيهم يحيىٰ بنُ زكريَّا وسمعانُ وجماعةٌ، فسألهم عن أمرِ المسيح؟ فأخبروه عنه، فبايَعَهم في دينِهِم، وأعلىٰ كلمَتَهُم وظهر الحقُّ علىٰ اليهودِ، وعلتْ كلمةُ النَّصارىٰ عليهم، وبعث إلىٰ المصلوب، فوُضِعَ عن جذعِهِ، وجيء بالجذع الذي صُلِبَ عليه ذٰلك الرجل، فعظَّمَه؛ فمن ثَمَّ عَظَّمَتِ النَّصارىٰ الصليبَ، ومن هاهنا دَخَلَ دينُ النصرانيَّةِ في الروم.

وفي هٰذا نظرٌ من وجوه:

أحدُها: أنَّ يَحْيىٰ بنَ زكريَّا نبيٌّ لا يُقِرُّ علىٰ أنَّ المصلوبَ عيسىٰ؛ فإنَّه معصومٌ، يعلم ما وقع علىٰ جهةِ الحقِّ.

الثاني: أنَّ الرُّومَ لم يَدْخُلوا في دين المسيح إلَّا بعدَ ثلاثِ مئةِ سنةٍ، وذٰلك في زمان قسطنطينَ بنِ قسطنَ باني المدينةِ المنسوبة إليه علىٰ ما سنذكره.

الثالث: أنَّ اليهودَ لمَّا صلبوا ذٰلك الرجلَ ثم ألْقَوْه بخشبتِهِ؛ جعلوا مكانَه مطرحًا للقمامةِ والنجاسةِ وجيفِ الميتات والقاذورات، فلم يَزَلْ كذٰلك، حتىٰ كان في زمانِ قسطنطينَ المذكورِ، فعمدتْ أمُّه هيلانةُ الحرَّانيةُ الفندقانيةُ، فاستخرجتْه من هنالك معتقدةً أنَّه المسيحُ، ووجدوا الخشبةَ التي صُلِبَ عليها المصلوبُ، فذَكَروا أنَّه ما مَسَّها ذو عاهةٍ إلَّا عوفي. فالله أعلم أكان هٰذا أم لا؟ وهل كان هٰذا لأنَّ ذٰلك الرجل الذي بَذَلَ نفسَه كان رجلًا صالحًا أو كان هٰذا محنةً وفتنةً لأمَّةِ النَّصارىٰ في ذٰلك اليوم، حتىٰ عظَّموا تلكَ الخشبةَ وغَشَّوْها بالذهب واللآلئ، ومن ثَمَّ اتخذوا الصُّلْباناتِ وتبرَّكوا بشكلها وقبَّلوها؟! وأمرتْ أمُّ الملك هيلانةُ، فأزيلتْ تلك القمامةُ، وبُني مكانَها كنيسةٌ هائلةٌ مزخرفةٌ بأنواع الزينة؛ فهي هٰذه المشهورةُ اليوم ببلد بيت المقدس، التي يُقالُ لها: القمامةُ؛ باعتبار ما كان عندَها، ويسمُّونها: القيامة؛ يعنون: التي يقومُ جسدُ المسيح منها! ثم أمرت هيلانةُ بأنْ توضَعَ قمامةُ البلدِ وكناستُه وقاذوراتُه علىٰ الصخرةِ التي هي قبلةُ اليهود، فلم تزلْ كذٰلك، حتىٰ فَتَحَ عمرُ بنُ الخطاب بيتَ المقدس، فَكَنَسَ عنها القمامةَ بردائِهِ، وطَهَّرَها من الأخباث والأنجاس، ولم يَضَع المسجدَ وراءها، ولٰكنْ أمامَها؛ حيث صلَّىٰ رسول الله ﷺ ليلةَ الإسراء بالأنبياء، وهو المسجدُ الأقصىٰ.

❁ ذكر صفة عيسى عليه السلام وشمائله وفضائله:

قال الله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]: **قيل**: سُمِّيَ المسيحَ لمسحِهِ الأرضَ، وهو سياحتُهُ فيها وفرارُهُ بدينِهِ من الفتن في ذٰلك الزمان؛ لشدَّة تكذيبِ اليهودِ له وافترائِهِم عليه وعلىٰ أمِّه عليهما السلام. **وقيل**: لأنَّه كان ممسوحَ القدمين.

وقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧ و٢٥٣].

والآيات في ذٰلك كثيرةٌ جدًّا.

وقد تقدَّم(١) ما ثبتَ في الصحيحين: «**ما مِنْ مَوْلودٍ؛ إلاَّ والشيطانُ يَطْعُنُ في خاصرتِهِ حين يولَدُ، فيستهلُّ صارِخًا؛ إلَّا مريمَ وابنَها، ذهب يَطْعُنُ، فطَعَنَ في الحجاب**».

وتقدَّم(٢) حديثُ عُمير بن هانئٍ، عن جُنادة، عن عُبادة، عن رسول الله ﷺ: أنَّه قال: «**مَنْ شَهِدَ أنْ لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأنَّ محمدًا عبدُالله ورسولُهُ، وأنَّ عيسى عبدُاللهِ ورسولُهُ وكلمتُهُ التي ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه، والجنةُ حقٌّ، والنارُ حقٌّ؛ أدخَلَه اللهُ الجنةَ على ما كان من العمل**». رواه البخاري -وهٰذا لفظُهُ- ومسلمٌ.

ورَوىٰ البخاريُّ ومسلمٌ من حديث: الشعبيِّ، عن أبي بُردةَ بنِ أبي موسىٰ، عن أبيه؛ قالَ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إذا أدَّبَ الرجلُ أمَتَهُ فأحسنَ تأديبَها، وعلَّمها فأحسنَ تعليمَها، ثم أعْتَقَها فتزوَّجَها؛ كان له أجرانِ. وإذا آمنَ بعيسى ابنِ مريمَ ثم آمنَ بي؛ فله أجرانِ. والعبدُ إذا اتَّقى ربَّه وأطاعَ مواليَه؛ فله أجران**»(٣). هٰذا لفظُ البخاريِّ.

وقال البخاريُّ: حدثنا إبراهيمُ بنُ موسىٰ، أنبأنا هشامٌ، عن معمر. ح: وحدثني محمودٌ،

---

(١) (ص٦١٥-٦١٧).

(٢) (ص٦٤٢).

(٣) رواه: البخاري (٦٠-الأنبياء، ٤٨- ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾، ٦/ ٤٧٨/ ٣٤٤٦)، ومسلم (١-الإيمان، ٧٠- وجوب الإيمان برسالته ﷺ، ١/ ١٣٤/ ١٥٤).

حدثنا عبدُالرزاقِ، أنبأنا معمرٌ، عن الزهريِّ، أخبرني سعيدُ بن المسيَّبِ، عن أبي هريرةَ؛ قال: قال النبيُّ ﷺ: «**ليلةَ أُسْرِيَ بي لقيتُ موسى** (قال: فَنَعَتَهُ)؛ **فإذا رجلٌ** (حسبتُه قال (: **مضطربٌ، رَجِلُ الرأس، كأنَّه من رجال شَنوءةَ**». قال: «**ولقيتُ عيسى**، (فنعتَهَ النبيُّ ﷺ، فقال: (**ربعةٌ**[١]، **أحمرُ، كأنما خَرَجَ من ديماسٍ** (يعني: الحمَّامَ). **ورأيتُ إبراهيمَ، وأنا أشبهُ ولدِهِ به...**» الحديث. وقد تقدَّم في قصتي إبراهيمَ وموسىٰ[٢].

ثم قال: حدَّثنا محمدُ بنُ كثيرٍ، أنبأنا إسرائيلُ، عن عثمانَ بن المغيرةِ، عن مجاهدٍ، عن ابن عمرَ: قال النبيُّ ﷺ: «**رأيتُ عيسى وموسى وإبراهيمَ: فأمَّا عيسى؛ فأحمرُ، جعدٌ، عريضُ الصدرِ. وأما موسى؛ فآدمُ، جسيمٌ سَبْطٌ**[٣]، **كأنَّه من رجال الزُّطِّ**[٤]»[٥]. تفرد به البخاريُّ[٦].

وحدثنا إبراهيمُ بنُ المنذرِ، حدثنا أبو ضمرةَ، حدثنا موسىٰ بن عقبةَ، عن نافع؛ قال: قال عبدُاللهِ بنُ عمرَ: ذَكَرَ النبيُّ ﷺ يومًا بين ظهراني الناس المسيحَ الدَّجَّالَ، فقالَ: «**إنَّ الله ليس بأعورَ. ألا إنَّ المسيحَ الدَّجَّالَ أعورُ العين اليمنى، كأنَّ عينَه عنبةٌ طافيةٌ. وأَراني الليلةَ عند الكعبةِ في المنام؛ فإذا رجلٌ آدم كأحسن ما يُرى من أُدْمِ الرجال، تضرِبُ لِمَّتُهُ بين منكبيهِ، رَجِلُ الشعرِ، يقطر رأسُه ماءً، واضعًا يديه على مَنْكِبَيْ رجلين، وهو يطوفُ بالبيت، فقلت: مَنْ هٰذا؟ فقالوا: المسيحُ ابنُ مريمَ. ثم رأيتُ رجلًا وراءه، جَعْدًا قَطَطًا**[٧]، **أعورَ عين اليُمنى، كأشبهِ مَنْ رأيتُ بابنِ قَطَنٍ، واضعًا يديه على مَنْكِبَي رجل يطوفُ بالبيت، فقلتُ: مَنْ هٰذا؟ فقالوا: المسيحُ الدجالُ**»[٨]. ورواه مسلمٌ من حديث موسىٰ بن عقبة.

---

(١) ربعةٌ: متوسط بين الطول والقصر.

(٢) انظره (ص ٤٦٦). ولم يرد حديث أبي هريرة هٰذا في قصة إبراهيم، وإنما في قصة موسىٰ (ص٤٦٦) حسب.

(٣) سبط: مسترسل الشعر.

(٤) الزط: جنس من السودان أو الهنود؛ فيهم طول ونحافة وسمرة.

(٥) رواه: البخاري (الموضع السابق، ٦/ ٤٧٧/ ٣٤٣٨) من حديث ابن عمر. وتعقبه كثير من أهل العلم بأن الصواب في هٰذا الحديث أنه من رواية مجاهد عن ابن عباس، ورجح ذلك الحافظ في «الفتح»، وأن الخطأ ليس من البخاري، وإنما من رواة «الصحيح».

(٦) بل رواه مسلم أيضًا (١- الإيمان، ٧٤- الإسراء، ١/ ١٥٣/ ١٦٦) من رواية مجاهد عن ابن عباس، وذلك علىٰ ما قدمنا من الصواب في هٰذا الحديث.

(٧) جعدًا قططًا: جعد الشعر شديد الجعودة.

(٨) رواه: البخاري (الموضع السابق، ٦/ ٤٧٧/ ٣٤٣٩ و٣٤٤٠)، ومسلم (١- الإيمان، ٧٥- ذكر المسيح =

ثم قال البخاريُّ: تابعه عبيدُ الله عن نافع(١).

ثم ساقه من طريق: الزهريِّ، عن سالم، [عن] ابن عمر. قال الزهريُّ: وابنُ قطنٍ رجلٌ من خُزاعةَ هلك في الجاهليةِ.

فبيَّنَ صلواتُ الله وسلامُهُ عليه صفةَ المسيحينِ؛ مسيح الهُدىٰ، ومسيحِ الضَّلالِة؛ لِيُعْرَفَ هٰذا إذا نَزَلَ فيؤمِنَ به المؤمنون، ويُعْرَفَ الآخرُ فيحذَرَه الموحِّدون.

وقال البخاريُّ: حدثنا عبدُالله بنُ محمدٍ، حدثنا عبدُالرزاقِ، أنبأنا معمرٌ، عن همَّام بن منبِّهٍ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ؛ قال: «**رأى عيسى ابنُ مريمَ رجُلًا يسرِقُ، فقال له: أسرقتَ؟ قال: كلَّا والذي لا إلٰه إلَّا هو. فقال عيسى: آمنتُ باللهِ وكذَّبْتُ عيني**»(٢). وكذا رواه مسلمٌ عن: محمدِ بنِ رافع، عن عبدِالرزاقِ.

وقال أحمدُ: حدثنا عفانُ، حدثنا حمادُ بنُ سلمةَ، عن حُميدٍ الطويل، عن الحسن وغيرِهِ، عن أبي هُريرةَ. قال:، ولا أعلمُهُ إلَّا: عن النبيِّ ﷺ؛ قال: «**رأى عيسى رجلًا يَسْرِقُ، فقال: يا فلانُ! أسرقتَ؟ فقال: لا واللهِ؛ ما سرقتُ. فقال: آمنتُ باللهِ وكذَّبْتُ بَصَري**»(٣).

وهٰذا يدلُّ علىٰ سَجِيَّةٍ طاهرةٍ؛ حيثُ قَدَّمَ حَلِفَ ذٰلك الرجل -فظنَّ أنَّ أحدًا لا يَحْلِفُ بعظمةِ الله كاذبًا- علىٰ ما شاهَدَه منه عِيانًا، فقَبِلَ عذرَه، ورجَعَ علىٰ نفسِهِ، فقال: آمنتُ بالله؛ أي: صدَّقْتُكَ وكذَّبْتُ بصري لأجل حَلِفِكَ.

وقال البخاريُّ(٤): حدثنا محمدُ بنُ يوسفَ، حدثنا سفيانُ، عن المغيرةِ بنِ النُّعمانِ، عن سعيد بن جُبيرٍ، عن ابن عباس؛ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**تُحْشَرونَ حفاةً عُراةً غُرْلًا. (ثم قرأ:) ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٠٤﴾** [الأنبياء: ١٠٤]؛ **فأولُ الخَلْقِ يُكسى إبراهيمُ، ثم يؤخَذُ برجال من أصحابي ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال، فأقولُ: أصحابي!**

= ابن مريم والدجال، ١/ ١٥٤/ ١٦٩).

(١) في جميع الأصول: «تابعه عبد الله بن نافع»!! والتصويب من مصادر التخريج، وهو عبيد الله بن عمر العمري.

(٢) رواه: أحمد (٢/ ٣١٤ و٣٨٢ بالسند المذكور)، والبخاري (الموضع السابق، ٦/ ٤٧٨/ ٣٤٤٤)، ومسلم (٤٣- الفضائل، ٤٠- فضائل عيسىٰ عليه السلام، ٤/ ١٨٣٨/ ٢٣٦٨).

(٣) تقدم تخريجه في الحاشية السابقة.

(٤) (٦٠- الأنبياء، ٤٨- ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾، ٦/ ٤٧٨/ ٣٤٤٧).

فيقالُ: إنَّهم لم[1] يزالوا مرتدِّينَ على أعقابِهم منذُ فارَقْتَهم. فأقولُ كما قال العبدُ الصالحُ عيسى ابنُ مريم: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٧-١١٨]». تفرَّدَ به دونَ مسلم من هٰذا الوجهِ.

وقال أيضًا[2]: حدثنا عبدُالله بنُ الزُّبيرِ الحميديُّ، حدثنا سفيانُ، سمعتُ الزُّهريَّ يقولُ: أخبرني عبيدُالله[3] بن عبد الله، عن ابن عباس، سمع عمرَ يقولُ علىٰ المنبرِ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «لا تُطْروني كَما أطْرَتِ النَّصارى عيسى ابنَ مَرْيَمَ؛ فإنَّما أنا عبدٌ؛ فقولوا: عبدُاللهِ ورسولُهُ».

وقال البخاريُّ: حدثنا [مسلمُ بن] إبراهيم، حدثنا جريرُ بن حازم، عن محمدِ بن سيرينَ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ؛ قال: «لم يتكلَّمْ في المهدِ إلَّا ثلاثةٌ: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجلٌ، يُقالُ له: جريجٌ، [كان] يصلِّي؛ إذْ جاءتْه أمُّه، فدعتْه، فقال: أجيبُها أو أصلِّي؟ فقالت: اللهمَّ! لا تُمِتْهُ حتى تُرِيَهُ وجوه المومساتِ. وكان جريجٌ في صومعتِهِ، فتعرَّضَتْ له امرأةٌ، وكلَّمَتْهُ، فأبى، فأتتْ راعيًا، فأمكَنَتْه من نفسِها، فولدتْ غُلامًا، فقيل لها: ممَّنْ؟ قالت: من جريج! فأتَوْه، وكسروا صومعتَه، فأنْزَلوه، وسبُّوه. فتوضأ، وصلى، ثم أتى الغلامَ، فقال: مَنْ أبوك يا غلامُ؟ قال: فلانٌ الراعي. فقالوا: أنبني صومعَتَك من ذهبٍ؟ قال: لا؛ إلَّا من طين. وكانتِ امرأةٌ ترضِعُ ابنًا لها في بني إسرائيلَ، فمرَّ بها رجلٌ راكبٌ ذو شارةٍ، فقالت: اللهمَّ! اجعلْ ابني مثلَه. فترَكَ ثديَها وأقبلَ على الرَّاكِبِ، فقال: اللهمَّ! لا تَجْعَلْني مثلَهُ. ثم أقبلَ على ثَدْيِها يَمَصُّه». قال أبو هريرةَ: كأنِّي أنظرُ إلىٰ النبيِّ ﷺ يَمَصُّ إصبعَه. ثم مرَّ بأمَةٍ، فقالت: اللهمَّ! لا تَجْعَلْ ابني مثلَ هٰذه! فترك ثَدْيَها، فقال: اللهمَّ! اجْعَلْني مثلَها! فقالتْ: لم ذٰلك؟! فقال: الراكبُ جبارٌ من الجبابرةِ، وهٰذه الأمَةُ يقولونَ: سَرَقَتْ وزَنَتْ، ولم تفعلْ»[4].

---

(١) في جميع الأصول: «لن»! والتصويب من مصادر التخريج.

(٢) (٦٠- الأنبياء، ٤٨- ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾، ٦/ ٤٧٨/ ٣٤٤٥).

(٣) في جميع الأصول: «عبد الله»! والتصويب من مصادر التخريج. وهو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود.

(٤) رواه: البخاري (الموضع السابق، ٦/ ٤٧٦/ ٣٤٣٦)، ومسلم (٤٥- البر والصلة، ٢- تقديم بر الوالدين علىٰ التطوع، ٤/ ١٩٧٦/ ٢٥٥٠).

وقال البخاريُّ: حدثنا أبو اليمانِ، حدثنا شعيبٌ، عن الزهريِّ، أخبرني أبو سلمةَ، أنَّ أبا هريرةَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**أنا أولى الناس بابن مَرْيَمَ، والأنبياءُ أولادُ عَلَّاتٍ**[١]**، ليس بيني وبينَه نبيٌّ**». تفرَّدَ به البخاريُّ من هٰذا الوجهِ.

ورواه ابنُ حِبَّانَ في «صحيحه» من حديث: أبي داوودَ الحَفَريِّ، عن الثوريِّ، عن أبي الزنادِ، عن أبي سلمةَ، عن أبي هريرةَ.

وقال أحمدُ: حدثنا وكيعٌ، حدثنا سفيانُ (هو الثوريُّ)، عن أبي الزنادِ، عن الأعرجِ، عن أبي هريرةَ؛ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**أنا أولى الناس بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والأنبياءُ إخوةٌ أولادُ عَلَّاتٍ، وليس بيني وبين عيسى نبيٌّ**»[٢]. وهٰذا إسنادٌ صحيحٌ علىٰ شرطِهما، ولم يخرِّجوه من هٰذا الوجه.

وأخرجه أحمدُ عن: عبدِالرزاقِ، عن معمرٍ، عن همَّام، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ... بنحوه.

وأخرجه ابنُ حِبَّانَ من حديث عبد الرزاقِ... نحوه.

۞ [ذكر بعض الأخبار التي وردت في نزوله عَلَيْهِ السَّلَامُ آخر الزمان]:

قال أحمدُ: حدثنا يحيىٰ، عن ابن أبي عَروبةَ، حدَّثنا قَتادةُ، عن عبد الرحمٰن بنِ آدمَ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ؛ قال: «**الأنبياءُ إخوةٌ لِعَلَّاتٍ، ودينُهم واحدٌ، وأمهاتُهم شَتَّى، وأنا أَوْلَى الناس بعيسى ابنِ مريم؛ لأنَّه لم يكنْ بيني وبينَه نبيٌّ، وإنَّه نازلٌ؛ فإذا رأيتُموه؛ فاعرِفوه؛ فإنَّه رجلٌ مربوعٌ، إلى الحمرةِ والبياض، سَبْطٌ، كأنَّ رأسَه يَقْطُرُ، وإنْ لم يُصِبْهُ بللٌ، بين ممصَّرتين**[٣]**، فيكسِرُ الصليبَ، ويقتُلُ الخنزيرَ، ويضعُ الجزيةَ، ويعطِّلُ المللَ حتى تَهْلِكَ في زمانِهِ كلُّها غيرَ الإسلام، ويُهْلِكُ اللهُ في زمانِهِ المسيحَ الدَّجَّالَ الكذابَ، وتقعُ الأَمَنَةُ في الأرض حتى تَرْتَعَ الإبلُ مع الأُسْدِ جميعًا والنمورُ مع البقرِ والذئابُ مع الغنم ويلعبُ الصبيانُ والغلمانُ بالحيَّاتِ لا يضرُّ بعضُهم بعضًا، فيمكثُ ما شاء الله أن يمكثَ، ثم يُتَوَفَّى، فيصلِّي**

---

(١) العلات: الضرائر. وأولاد العلات: أولاد أب واحد من أمهات مختلفات.

(٢) رواه: أحمد (٢/ ٣١٩ بالطريق الثانية و٤٦٣ بالأولىٰ و٤٨٢ و٥٤١)، والبخاري (الموضع السابق، ٦/ ٤٧٨/ ٣٤٤٣)، ومسلم (٤٣- الفضائل، ٤٠- فضائل عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ٤/ ١٨٣٧/ ٢٣٦٥)، وابن حبان (١٤/ ٧٤/ ٦١٩٤) بالطريق الثانية و٦١٩٥ بالطريق الأولىٰ).

(٣) في جميع الأصول: «مخصرتين»! والتصويب من مصادر التخريج، والممصَّرتان: ثوبان ملونان بالصفرة غير مشبعان بها.

عليه المسلمونَ، ويَدْفنونَه»[١].

ثم رواه أحمدُ: عن عفانَ، عن همَّام، عن قتادةَ، عن عبد الرحمٰن، عن أبي هريرةَ... فذَكَرَ نحوه، وقال: «فيمكُثُ أربعينَ سنةً، ثم يُتَوَفَّى، ويصلِّي عليه المسلمونَ»[٢].

ورواه أبو داوودَ: عن هُدبةَ بن خالدٍ، عن همَّام[٣] بن يحيىٰ... به نحوه.

وروىٰ هشامُ بنُ عروةَ، عن صالح مولىٰ أبي هريرةَ، عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «فَيَمْكُثُ في الأرضِ أربعينَ سنةً»[٤].

وقد بَيَّنَّا نُزولَه[٥] عليه السلام آخرَ الزمان في كتاب «الملاحم»، كما بَسَطْنا ذٰلك أيضًا في «التفسير» عند قولِهِ تعالىٰ في سورة النساءِ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ الآية [الزخرف: ٦١]، وأنَّه ينزلُ علىٰ المنارةِ البيضاءِ بدمشقَ، وقد أُقيمتْ صلاةُ الصبح، فيقولُ له إمامُ المسلمين: تقدَّمْ يا روحَ الله! فصَلِّ! فيقولُ: لا؛ بعضُكم علىٰ بعض أمراءُ تَكْرِمَةَ[٦] اللهِ هٰذه الأمة. وفي روايةٍ: فيقولُ له عيسىٰ: إنَّما أقيمتِ الصلاةُ لكَ. فيصلِّي خلفَه، ثم يركبُ ومعه المسلمونَ في طَلَبِ المسيح الدَّجَّال، فيلحقُهُ عند بابِ لُدٍّ، فيقتُلُه بيدِهِ الكريمةِ. وذَكَرْنا أنَّه قويَ الرجاءُ حين بُنِيَتْ هٰذه المنارةُ الشرقيةُ بدمشقَ، التي هي من حجارةٍ بيضٍ، وقد بُنِيَتْ أيضًا من أموال النَّصارىٰ حين حَرَقوا التي هُدِمَتْ وما حولَها، فينزِلُ عليها عيسىٰ ابن مريمَ عليه السلام؛ فيقتُلُ الخنزيرَ، ويكسِرُ الصليبَ، ولا يقبلُ من أحدٍ إلَّا الإسلام. وأنَّه يَخْرُجُ من فجِّ الروحاءِ حاجًّا

---

(١) (صحيح). رواه: أحمد (٢/ ٤٠٦ بالطريق الثانية، و٤٣٧ بالطريق الأولىٰ)، وأبو داوود (٣١-الملاحم، ١٤-خروج الدجال، ٢/ ٥٢٠/ ٤٣٢٤)، والطبري (٣/ ٢٨٩/ ٧١٤١ و١٠٨٣٥)، وابن حبان (١٥/ ٢٣٤/ ٦٨٢٢)، والحاكم (٢/ ٥٩٥)، وابن عساكر (٤٧/ ٣٦٨-٣٧٠)؛ من طرق عن قتادة... به، فذكره مرفوعًا من الزيادة وبدونها. وهٰذا سند رجاله ثقات رجال الشيخين؛ إلا ابن آدم؛ فصدوق من رجال مسلم وحده؛ فالسند علىٰ شرطه. وللحديث طرق أخرىٰ ذكر المصنف بعضها وشواهد كثيرة ليس هٰذا محل التفصيل فيها، وقد صححه الحاكم ووافقه الذهبي والحافظ في «الفتح» (٦/ ٤٩٣) والألباني.

(٢) (صحيح). وقد تقدم الكلام عنه قبل قليل.

(٣) في جميع الأصول: «هشام»! والتصويب من مصادر التخريج.

(٤) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

(٥) في نسخة: «وسيأتي بيان نزوله...».

(٦) في جميع الأصول: «مكرمة»! والظاهر أنه تحريف، وإلا؛ فركيك جدًّا مخالف للفظ رواية مسلم الذي أثبته.

أو معتمرًا أو لِثِنْتَيْهِما[١]، ويقيمُ أربعين سنةً[٢].

ثم يموت فيدفن فيما قيل في الحجرة النبوية عند رسول الله ﷺ وصاحبيه. وقد ورد في ذٰلك: حديثٌ ذَكَرَهُ ابنُ عساكرَ في آخر ترجمةِ المسيح عليه السلام في كتابِهِ عن عائشةَ مرفوعًا: أَنَّه يُدْفَنُ مع رسول اللهِ ﷺ وأبي بكرٍ وعمرَ في الحجرةِ النبويَّة[٣]. ولٰكنْ لا يصحُّ إسنادُه.

وقال أبو عيسىٰ الترمذيُّ: حدثنا زيدُ بنُ أخزمَ الطائيُّ، حدثنا أبو قُتيبةَ سَلْمُ بن قُتيبةَ[٤]، حدثني أبو مودودٍ المدنيُّ، حدثنا عثمانُ بنُ الضَّحَّاكِ، عن محمدِ بنِ يوسفَ بنِ عبدِالله بنِ سلام، عن أبيهِ، عن جدِّه؛ قال: مكتوبٌ في التوراةِ: صفةُ محمدٍ، وعيسىٰ ابنُ مريمَ عليه السلام يُدْفَنُ معه[٥]. قال أبو مودودٍ: وقد بقي من البيتِ موضعُ قبرٍ. ثم قال الترمذيُّ: هٰذا حديثٌ حسنٌ. كذا قال! والصوابُ: الضحَّاكُ بنُ عثمانَ المدنيُّ. وقال البخاريُّ: هٰذا الحديثُ لا يصحُّ عندي ولا يُتابَعُ عليه.

---

(١) وكل ما تقدم ثابت مخرج في الصحاح وغيرها، وليس هٰذا محل التفصيل فيه، وقد أحال الحافظ فيه علىٰ: «نهاية البداية والنهاية» (١٠/ ١٣٠)، و«التفسير» (١/ ٥٢٠/ النساء ١٥٩)، وأما في الزخرف؛ فما فصل شيئًا.

(٢) الذي ثبت في حديث عبد الله بن عمرو عند مسلم أنه يمكث في الأرض سبع سنين. وفي الحديث أبي هريرة عند أحمد وأبي داوود أنه يمكث أربعين سنة. وصححه الحافظ في «الفتح» (٦/ ٤٩٣/ ٣٤٤٩). وقد وفق الحافظ ابن كثير في «نهاية البداية والنهاية» (١٠/ ١٣٩) بين هاتين الروايتين بصورة حسنة، فقال: «هٰذا مع هٰذا مشكلٌ! اللهم إلا إذا حملت هذه السبع علىٰ مدة إقامته بعد نزوله، وتكون مضافة إلىٰ مدة مكثه فيها قبل رفعه إلىٰ السماء، وكان عمره إذ ذاك ثلاثًا وثلاثين سنة علىٰ المشهور. والله أعلم».

(٣) (موضوع). رواه ابن عساكر في (٤٧/ ٥٢٢) من طريق محمد بن عبد الله بن [أبي] جعفر الرازي، ثنا أبو أمية الأحوص بن المفضل، ثنا أبي المفضل بن غسان، ثنا محمد بن عبد الله بن عبد العزيز العمري، عن صالح بن شعيب بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر، عن أبي بكر، عن عائشة؛ قالت: قلت: يا رسول الله! إني أرىٰ أن أعيش من بعدك، فتأذن لي أن أدفن إلىٰ جنبك؟ فقال: «وأني لي بذلك الموضع، ما فيه إلا موضع قبري وقبر أبي بكر وقبر عمر وقبر عيسىٰ بن مريم عليه السلام».

وهٰذا سند تالف بمرة: الأحوص: متهم. وأبوه: لا أعرف عنه إلا أنه صاحب تاريخ. ومحمد العمري وصالح: لم أعرفهما. وصالح عن أبي بكر: معضل.

(٤) في جميع الأصول: «مسلم بن قتيبة»! والتصويب من مصادر التخريج.

(٥) (ضعيف). رواه: البخاري في «تاريخه» (١/ ٢٦٣)، والترمذي (٥٠- المناقب، ١- فضل النبي ﷺ، ٥/ ٥٨٨/ ٣٦١٧)، والطبراني (٨/ ٢٠٩- مجمع)، وابن عساكر (٤٧/ ٥٢٣ و٥٢٤)؛ كلهم من طريق عثمان بن الضحاك... به، فذكره. قال الترمذي: «حسن غريب». وقال الهيثمي: «فيه عثمان بن الضحاك ضعيف أو مجهول. ومحمد بن يوسف: لا يعرف إلا بهٰذا الحديث، وأحسن أحواله أن يكون صالحًا في المتابعات. فالسند ضعيف. وقد علمت قول الإمام البخاري فيه، وحسبك به، وضعفه الألباني.

[ذكر طرف من أخبار أمة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد رفعه]:

وروىٰ البخاريُّ عن: يحيىٰ بن حمَّادٍ، عن أبي عَوانَة، عن عاصم الأحول، عن أبي عثمانَ النَّهْدِيِّ، عن سلمانَ؛ قال: الفترةُ ما بين عيسىٰ ومحمدٍ ﷺ ستُّ مئة سنةٍ[١]. وعن قتادةَ: خمس مئةٍ وستون سنةً. **وقيل**: خمس مئةٍ وأربعون سنةً. وعن الضحاك: أربع مئةٍ وبضعٌ وثلاثون سنةً. والمشهور ستَّ مئة سنةٍ. **ومنهم من يقولُ**: ستُّ مئةٍ وعشرونَ سنةً بالقمريَّة؛ لتكونَ ستَّ مئةٍ بالشمسيةِ... واللهُ أعلمُ.

وقال ابنُ حِبَّانَ في «صحيحه»: «ذِكْرُ المُدَّةِ التي بَقِيَتْ فيها أُمَّةُ عيسىٰ علىٰ هديِهِ: حدثنا أبو يعلىٰ، حدثنا أبو همام، حدثنا الوليدُ بن مسلم، عن الهيثم بنِ حُميدٍ، عن الوَضين بن عطاءٍ، عن نصر بن عَلْقَمَةَ، عن جُبير بن نُفير، عن أبي الدَّرداء؛ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **«لَقَدْ قَبَضَ اللهُ داوودَ من بينِ أصحابِهِ؛ فما فُتِنوا ولا بَدَّلوا، ولقد مَكَثَ أصحابُ المسيح على سُنَّتِهِ وهديِهِ مئتي سنةٍ»**[٢]. وهٰذا حديثٌ غريبٌ جدًّا؛ وإن صحَّحه ابنُ حِبَّانَ.

وذَكَرَ ابنُ جرير[٣] عن محمدِ بنِ إسحاق: أنَّ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل أن يُرْفَعَ أوصىٰ الحواريِّين بأنْ يدعوا الناس إلىٰ عبادةِ الله وحدَه لا شريكَ له، وعيَّنَ كلَّ واحدٍ منهم إلىٰ طائفةٍ من الناس في إقليم من الأقاليم من الشام والمشرقِ وبلادِ المغربِ.

فذكروا أنَّه أصبح كلُّ إنسان منهم يتكلَّم بلغةِ الذين أرسلَه المسيحُ إليهم.

وذَكَرَ غير واحدٍ أنَّ الإنجيل نقلَه عنه أربعةٌ: لوقا، ومتَّىٰ، ومرقسُ، ويوحَنَّا[٤].

وبين هٰذه الأناجيل الأربعةِ تفاوتٌ كثيرٌ بالنسبة إلىٰ كلِّ نسخةٍ ونسخةٍ وزياداتٌ كثيرةٌ ونقصٌ بالنسبة إلىٰ الأخرىٰ!!

وهٰؤلاء الأربعةُ: منهم اثنانِ ممَّنْ أدرك المسيحَ ورآه، وهما: متَّىٰ ويوحَنَّا، ومنهم اثنان من أصحابِ أصحابِهِ، وهما: مرقسُ ولوقا. فالله أعلم.

---

(١) (٦٣- مناقب الأنصار، ٥٣- إسلام سلمان، ٧/ ٢٧٧/ ٣٩٤٨).

(٢) (ضعيف). تقدم تخريجه (ص٥٤٣).

(٣) في «التاريخ» (١/ ٣٥٤).

(٤) وهذه أسماء الأناجيل المعترف بها من الكنيسة اليوم، وهناك أناجيل أخرىٰ لا تقر بها الكنيسة.

وكان ممَّنْ آمنَ بالمسيح وصدَّقه من أهل دمشقَ رجلٌ يقال له: ضينا، وكان مختفيًا في مغارةٍ داخلَ الباب الشرقيِّ قريبًا من الكنيسةِ المصلبةِ خوفًا من بولصَ اليهوديِّ، وكان ظالمًا غاشمًا مبغضًا للمسيح ولِما جاءَ به، وكان قد حَلَق رأسَ ابنِ أخيه حين آمن بالمسيح وطاف به في البلدِ ثم رَجَمَه حتىٰ مات رَحِمَهُ اللهُ! ولمَّا سَمعَ بولصُ أنَّ المسيح عَلَيهِ السَّلامُ قد توجَّه نحو دمشقَ؛ جَهَّزَ بغالَه، وخرجَ لِيَقْتُلَه، فتلقَّاه عند كوكبا، فلمَّا واجَهَ أصحابَ المسيح؛ جاء إليه مَلَكٌ، فضرب وجهَه بطرف جناحِهِ، فأعماه، فلمَّا رأىٰ ذٰلك؛ وقع في نفسه تصديقُ المسيح، فجاء إليه، واعتذرَ ممَّا صَنَعَ، وآمن به، فقَبِلَ منه، وسأَلَه أن يمسحَ عينيهِ ليردَّ اللهُ عليه بَصَرَه، فقال: اذهبْ إلىٰ ضينا عندَك بدمشقَ في طرفِ السوق المستطيل من المشرقِ؛ فهو يَدْعو لك! فجاء إليه، فدعا، فرُدَّ عليه بَصَرُهُ، وحَسُنَ إيمانُ بولصَ بالمسيح عَلَيهِ السَّلامُ أنَّه عبدُالله ورسولُه، وبُنِيَتْ له كنيسةٌ باسمِهِ؛ فهي كنيسةُ بولصَ المشهورةُ بدمشقَ من زمن فَتَحَها الصحابةُ رَضِيَ اللهُ عَنهُم حتَّىٰ خربتْ في الزمان الذي سنورده إن شاء الله تعالىٰ.

وقد أنشد الشيخُ شهابُ الدين القرافيُّ في كتابه «الردَّ علىٰ النصارىٰ» لبعضِهِم يردُّ عليهم في قولِهِم بِصَلْبِ المسيح وتسليمِهِم ذٰلك لليهود؛ مع دعواهم أنَّه ابنُ الله، تعالىٰ الله عن قولِهِم علوًّا كبيرًا:

عَجَبًا للمسيحِ بَيْنَ النَّصارى ... وإلى أيِّ والدٍ نَسَبوهُ
أسْلَموهُ إلى اليهودِ وَقالوا ... إنَّهُمْ بَعْدَ قَتْلِهِ صَلَبوهُ
فإذا كانَ ما يَقولونَ حَقًّا ... وَصَحيحًا فأيْنَ كانَ أبوهُ
حينَ خَلَّى ابْنَهُ رَهينَ الأعادي ... أتُراهُمْ أرْضَوْهُ أمْ أغْضَبوهُ
فَلَئِنْ كانَ راضِيًا فَاحْمَدوهُمْ ... [واشْكُروهُم][1] لأنَّهُمْ وافَقوهُ
وَلَئِنْ كان ساخِطًا فاتْرُكوهُ ... واعْبُدوهُم لأنَّهم غَلَبوه

۞ فصل: اختلاف أصحاب المسيح:

اختلفَ أصحابُ المسيح: عَلَيهِ السَّلامُ بعدَ رفعِهِ إلىٰ السماء فيه علىٰ أقوال؛ كما قالَه ابنُ عباس وغيرُهُ من أئمَّةِ السَّلف؛ كما أوردناه عند قولِهِ: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ۝١٤﴾

(١) زيادة لابدَّ منها لانتظام الوزن.

[الصف: ١٤][1]: قال ابنُ عباس وغيرُه: قال قائلونَ منهم: كان فينا عبدُاللهِ ورسولُهُ فَرُفِعَ إلىٰ السماء. وقال آخرونَ: هو اللهُ. وقال آخرونَ: هو ابنُ الله. فالأول هو الحقُّ، والقولان الآخرانِ كفرٌ عظيمٌ، كما قال: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [مريم: ٣٧].

وقد اختلفوا في نقل الأناجيل علىٰ أربعةِ أقاويلَ ما بين زيادةٍ ونقصانٍ وتحريفٍ وتبديل.

ثم بعد المسيح بثلاث مئةِ سنةٍ حدثتْ فيه الطامةُ العُظمىٰ والبليَّةُ الكُبرىٰ: اختلفَ البطارِقَةُ الأربعةُ وجميعُ الأساقفةِ والقساوسةِ والشمامسةِ والرهبانِ في المسيح علىٰ أقوال متعدِّدةٍ لا تنحصِرُ ولا تنضبِطُ، واجتمعوا وتحاكَموا إلىٰ الملك قُسْطَنطين باني القُسْطَنطينيَّةِ، وهم المجمعُ الأولُ، فصار المَلِكُ إلىٰ قول أكثرِ فرقةٍ اتَّفقت علىٰ قول من تلك المقالاتِ، فسُمُّوا المَلَكِيَّةَ، ودَحَضَ مَنْ عداهم وأبعَدَهم، وتفرَّدَتِ الفرقةُ التابعةُ لعبد الله بن أريوس[2] الذي ثبتَ علىٰ أنَّ عيسىٰ عبدٌ من عبادِ الله ورسولٌ من رسلِهِ، فسَكَنوا البراريَ والبواديَ، وبَنَوْا الصوامعَ والدياراتِ والقلاياتِ[3]، وقنعوا بالعيش الزهيدِ، ولم يخالِطوا أولئك المللَ والنِّحلَ، وبَنَتِ المَلَكِيَّةُ الكنائسَ الهائلةَ؛ عَمَدوا إلىٰ ما كان من بناء اليونانِ، فحوَّلوا محاريبَها إلىٰ الشرقِ، وقد كانتْ إلىٰ الشمال؛ إلىٰ الجَدْي[4].

۞ بيان بناء بيت لحم والقمامة:

وبنىٰ الملكُ قسطنطينُ بيتَ لحمَ علىٰ محلِّ مولدِ المسيح. وبنتْ أمُّه هيلانةُ القمامةَ؛ يعني: علىٰ قبرِ المصلوبِ، وهم يسلِّمونَ لليهودِ أنَّه المسيح[5]. وقد كفرتْ هٰؤلاء وهٰؤلاء. ووضعوا القوانينَ والأحكامَ، ومنها مخالفٌ للعتيقةِ التي هي التوراةُ. وأحلُّوا أشياء هي حرامٌ بنصِّ التوراةِ، ومن ذٰلك الخنزيرُ. وصلَّوْا إلىٰ الشرق، ولم يكنِ المسيحُ صلَّىٰ إلَّا إلىٰ صخرةِ بيت المقدس، وكذٰلك جميعُ الأنبياءِ بعد موسىٰ، ومحمدٌ خاتمُ النبيِّين صلَّىٰ إليها بعد هجرتِهِ إلىٰ المدينةِ ستَّةَ عشرَ أو سبعةَ عشرَ شهرًا، ثم حُوِّلَ إلىٰ الكعبةِ التي بناها إبراهيمُ

(١) وانظر ما تقدم (ص٦٨١).

(٢) هو أكبر تلاميذ بطرس بطريارك الإسكندرية، واسع الاطلاع، غزير العلم، خالف أستاذه كثيرًا، وأعلن أن أقنوم الابن لا يساوي أقنوم الأب، فجرده أستاذه من كهنوته ومنصبه وحاربه، وقد تبعه علىٰ رأيه أساقفه كثيرون، وكانت هذه أكبر مشاكل الكنيسة في القرن الرابع. وانظر: «الملل والنحل» (٢/ ٢٤٨) للشهرستاني.

(٣) ما يبنىٰ من بيوت العبادة علىٰ رؤوس الجبال.

(٤) الجدي: من النجوم.

(٥) ولٰكن الكنيسة اليوم برأتهم من دم المسيح! خطبًا لودهم ودعمًا لدولتهم... ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

الخليلُ. وصوَّروا الكنائسَ، ولم تكنْ مصوَّرةً قبلَ ذٰلك. ووضعوا العقيدةَ التي يحفَظُها أطفالُهم ونساؤُهم ورجالُهم، التي يسمُّونها بالأمانةِ، وهي في الحقيقةِ أكبرُ الكفرِ والخيانةِ، وجميعُ الملكيَّةِ والنَّسطوريَّةِ أصحابِ نَسْطورس(١) -أهل المجمع الثاني- واليعقوبيَّةِ أصحابِ يعقوبَ البراذعيِّ(٢) -أصحاب المجمع الثالث- يعتقدون هٰذه العقيدةَ، ويختلفونَ في تفسيرِها! وها أنا أحكيها -وحاكي الكفرِ ليس بكافرٍ لابث- علىٰ ما فيها من ركَّةِ الألفاظِ وكثرةِ الكُفْرِ والخَبال المفضي بصاحبِهِ إلىٰ النارِ ذاتِ الشواظ، فيقولون:

«نؤمنُ بإلٰهٍ واحدٍ؛ ضابطِ الكلِّ، خالقِ السماواتِ والأرضِ؛ كلِّ ما يُرىٰ وكلِّ ما لا يُرىٰ. وبربٍّ واحدٍ؛ يسوعَ المسيحِ، ابنِ اللهِ الوحيدِ، المولودِ من الأبِ قبل الدُّهور، نورٍ من نورٍ، إلٰهٍ حقٍّ من إلٰهٍ حقٍّ، مولودٍ غيرِ مخلوقٍ، مساوٍ للأبِ في الجوهرِ الذي كان به كلُّ شيءٍ، من أجلنا -نحن البشرَ- ومن أجل خلاصِنا نَزَلَ من السماءِ، وتَجَسَّدَ من روح القُدُس ومن مريمَ العذراءِ وتأنَّسَ، وصُلِبَ علىٰ عهد فيلاطس النبطيِّ، وتألَّم، وقُبِرَ، وقام في اليوم الثالثِ كما في الكُتُبِ، وصَعِدَ إلىٰ السَّماءِ، وجَلَسَ عن يمين الأبِ، وأيضًا؛ فسيأتي بِجَسَدِهِ ليدبِّرَ الأحياءَ والأمواتَ، الذي لا فَناءَ لِمُلْكِهِ. وروح القُدُسِ الربُّ المحيي المُنْبَثِقُ من الأبِ مَعَ الأبِ. والابنُ مسجودٌ له. وبمجدِ الناطق في الأنبياءِ. كنيسةً واحدةً جامعةً مقدسةً يهوليةً. وأعترفُ بمعموديَّةٍ واحدةٍ لمغفرةِ الخطايا. وأنَّه حقٌّ(٣) قيامةُ الموتىٰ وحياةُ الدهر العتيد كونه آمين»(٤).

❁ ❁ ❁

---

(١) ويقال له: نسطوريوس، ونسطور الحكيم. وانظر: «الملل والنحل» (٢/ ٢٥١).

(٢) ويقال له أيضًا: البرذعاني. وانظر: «الملل والنحل» (٢/ ٢٥٣).

(٣) في جميع الأصول: «حيٌّ»! ولا معنىٰ لها، فاستبدلتها بما رأيته مناسبًا للمعنىٰ هنا وللمعنىٰ الذي أورده الشهرستاني في «الملل والنحل» (٢/ ٢٥١).

(٤) ولما كانت هذه الوثيقة في حقيقة أمرها وثيقة مصالحة ومهادنة ومؤالفة بين طوائف مختلفة متخالفة فيما بينها مخالفة لأمر ربها؛ جاءت علىٰ ما تراه من الهلهلة والاضطراب والجمع بين متناقضات لا تسيغها الفطرة السليمة ولا العقول المستقيمة، فضلًا عن أن تستوعبها وتفهمها وتشرحها لغيرها بما يرفع اللبس والإشكال، وما زالت النصارىٰ علىٰ اختلاف كنائسها ومللها تعيش دوامة هذه التناقضات إلىٰ يومنا هٰذا. والله الموعد.

قائمة المحتويات

قائمة المحتويات

دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 389324